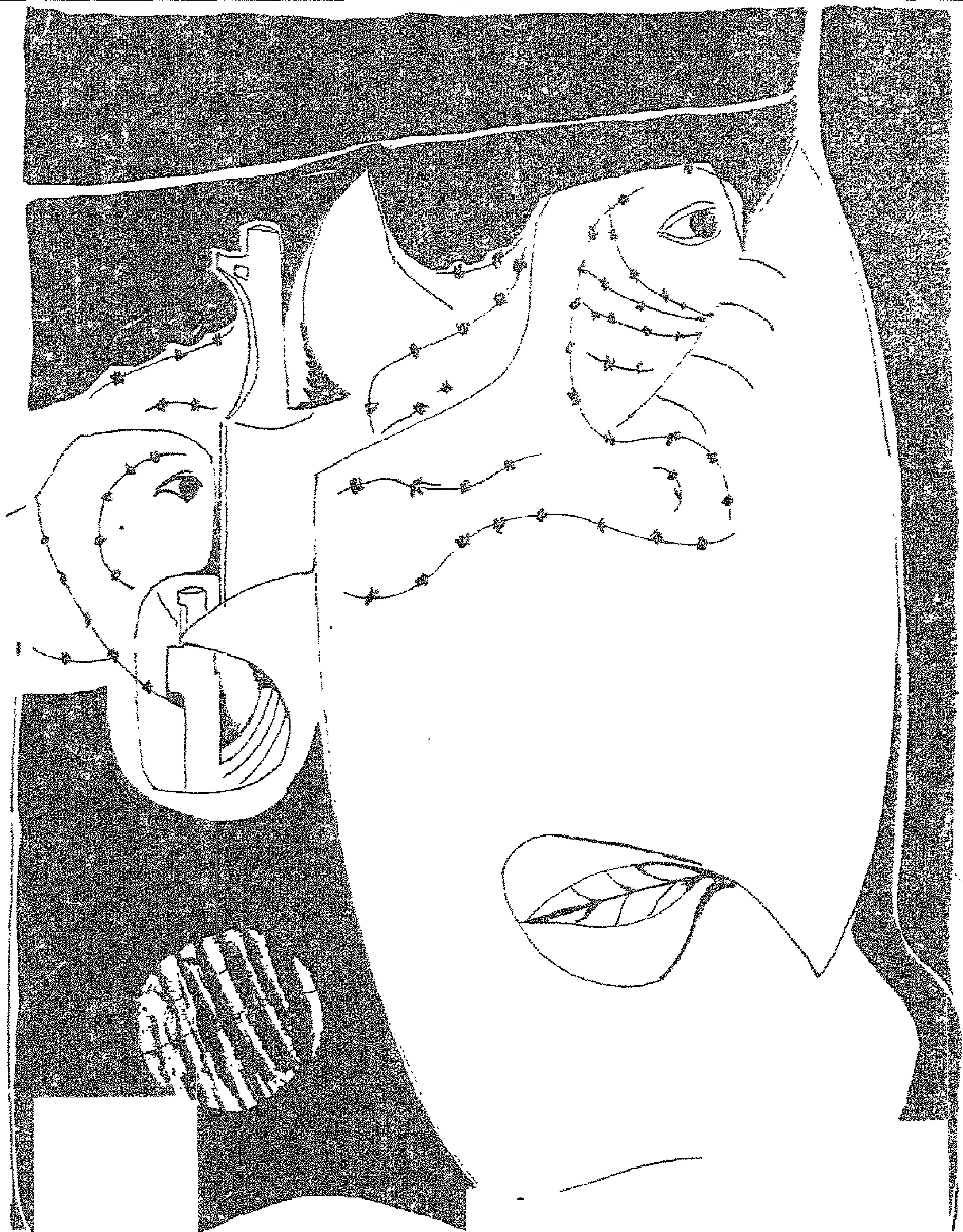
شؤون فلسطينية

٥٩
تموز - آب - ايلول
(يوليو - اغسطس - سبتمبر) ١٩٧٦



شؤون فلسطينية

رئيس التحرير : الدكتور انيس صايغ

رقم ٥٩ — تموز ـ آب ـ ايلول (يوليو ـ اغسطس ـ سبتمبر) ١٩٧٦

شهرية فكرية لمعالجة أحداث القضية الفلسطينية وشؤونها المختلفة .
تصدر عن مركز الابحاث في منظمة التحرير الفلسطينية .

يشارك في التحرير : محمود درويش .

مدير التوزيع : غازي خورشيد .

جميع الآراء الواردة تعبر عن وجهات نظر كاتبيها ولا تعكس بالضرورة آراء منظمة التحرير الفلسطينية ولا المحررين ولا المستشارين ولا الناشرين .

العنوان : بناية الدكتور راجي نصر ، شارع كولومباني (متفرع من السادات) ، رأس بيروت ، بيروت — لبنان ، ص.ب ١٦٩١ . تلفون : التحرير ٣٥١٢٦٠ ، التوزيع ٢٢٦٥٨٥ ، برقيا مرابحاث ، بيروت .

ثمن العدد : ٢ ١/٢ ل.ل. في لبنان ، ٤ ل.س. في سوريا ، ٤٥٠ فلسا في الكويت والعراق ، ٨ دراهم في دولة الامارات العربية ، ٢ ١/٢ ل.ل. في سائر الاقطار العربية .

الاشتراك السنوي (بريد جوي) : ٥٠ ل.ل. في لبنان وسوريا ، ٦٠ ل.ل. في سائر الاقطار العربية ، ٨٠ ل.ل. في اوروبا وافريقيا ، ١٠٠ ل.ل. في امريكا واستراليا وآسيا .

الاشتراك السنوي (بريد عادي) : ٥٠ ل.ل. في جميع الدول غير العربية .

الغلاف بريشة الفنانة
منى السعودي

شؤون فلسطينيـة

ذاهبون الى الخامسة

في مستوى هذه اللحظة الفلسطينية ، لا يتقدم أحد الا بكامل عدة الرهان · كل شيء تهيأ للنهاية وللبداية معا · والحصـــار المضروب على هذه اللحظة الحاسمة هو الحصار الذي تضربه اللحظة النامية ذاتها حول اعدائها الذين تدفقوا من ثقب التسوية ·

من سيارة الباص الشهيرة في عين الرمانة ··· الى سجـن الكلمات في الكويت ، تمتد سكة حديد واحدة المعلاقة ، في انتظار القطار الوهمي الذي أذن صفيره بميلاد الاعتذار العربي الرسمي عن ايام ، كان فيها الحلم الشعبي يخرج الى الشارع في صورة فلسطين وسنبلة قمح ·

وعلى مفترق الطرق الطويل ، تصل الحرب الاهلية العربيـة على ارض لبنان الى مستوى من الرهان يبدو فيه التراجع ، تراجع القتلة والشهداء على حد سواء ، اشد خطرا من الذهاب الكلي الى تحديد ملامح المستقبل القريب ·

ومهما قيل ، مهما قيل من التفاصيل ، فان هذا الصراع الطويل يدور حول هذه اللحظة الفلسطينية في علاقاتها وأبعادها · فالثورة الفلسطينية وحلفاؤها يريدون ان تتوهج اللحظة ، بداية لزمن عربي جديد تتغير فيه العلاقات الاجتماعية ، وتكون فيه الحياة العربيـة أكثر استعدادا لخوض الحرب الخامسة · فبدون هذا الصراع، بدون الاقتناع بحتمية خوض هذا الصراع،لن يكون بوسع العربي الانصراف الى البناء والتنمية وممارسة الحرية ·

من أجل وأد هذه اللحظة ، تخوض الاقليمية والانعزاليـة

حربها التي بدت لها قابلة لتحقيق النصر ، باغراء ارتباط الامن الوطني لكل نظام عربي على حدة ، بامن العدو الاسرائيلي ، وهو الانجاز الاكثر اهمية الذي حققته ، حتى الآن ، سياسة « تحييد » اميركا ، والاعتراف غير المشروط بامتلاكها كل مفاتيح الحلول ·

وبدون مساومة ذكية ، وفي مناخ عودة الانظمة الى اصدافها ، وفي شهية بحث كل طرف عن النجاة بجلده ، تعمق الميل الى تلافي الصراع مع العدو الرئيسي ، ونامت على خطوط وقف النار محاذير ارتباط الامن القومي العربي المفكك الى حلقات بامن العدو الاسرائيلي الذي احتفل ، ولا يزال يحتفل ، بحرب الجبهات العربية مع بعضها البعض ، وبتحول شعار التضامن العربي الرسمي الى مفردات خطابية لا تنطوي الا على فاعلية واحدة : واد اللحظة الفلسطينية ، بعلاقاتها الجماهيرية ، تمهيدا لوصول القطار الوهمي الذي يبشر بتسوية غامضة ·

قال الكثيرون : ان الحرب في لبنان هي حرب التسوية الاميركية التي ياخذ اسم « المملكة العربية المتحدة » احد اشكالها ، وحين طالت الحرب ، بفضل صمود الثورة والحركة الوطنية ، لم يقل غير الاميركيين والاسرائيليين ان هذه الحرب الطويلة قد عرقلت عملية التسوية ·

ان ما يعنينا في هذه الملاحظة الايحائية هو القول ان بوسع اللحظة الفلسطينية المعبرة عما تحمله الجماهير الشعبية العربية من اجنة ثورية ان تصمد فتشع فتحدد ملامح المستقبل القريب والبعيد لهذا الوطن الكبير ·

كانت اللحظة زينة ، ومتطلبات خطاب ، حين كانت انظمة عربية ، بعد هزيمة حزيران ، في حاجة الى استرداد كرامة جرحت · وكانت اللحظة ذاتها اغنية قومية تبدو ، للوهلة الاولى ، انها لا تشكل ازعاجا لعلاقة اجتماعية · وكان يبدو للمصفقين العرب الرسميين ان هنالك فارقا كبيرا بين فلسطين ــ القضية التي تزين كل خطاب ، وبين فلسطين ــ الثورة التي تخترق البناء الداخلي· وحين اعترفوا بوحدة القضية والشعب والثورة باعلانهم ان منظمة التحرير الفلسطينية هي الممثل الوحيد للشعب الفلسطيني ، كانت عيونهم معلقة على الفصل بين القضية والثورة·

واكتشفوا ، الان ، في محاولات واد اللحظة الفلسطينية الحاسمة في أرض لبنان ، وفي دفاع الثورة عن شرعيتها واستقلالها ،

ان فلسطين لم تعد للزينة · وكشفوا لنا طريقة لتذكيرهـم بان الاغلبية الساحقة من الانظمة العربية ، ومنذ ربع قرن ، لم تكسب شرعيتها الا من فلسطين · باسمها جاءوا الى الحكم ، وباسمها ابتزوا «نعم» من الاستفتاءات الشعبية · ولكن ، لن يكون بوسعهم ان يقتلوا ، باسمها ، جسمها · ولن يكون بوسعهم ان يقودوا الناس الى السلام مع اعداء الوطن وسنبلة القمح ·

الى أين ··· الى أين ؟ ان بذور الحرب الاهليـة العربيـة في لبنان تقول لنا ان العرب عربان · وان اللحظة الفلسطينية الحاسمة لا يتقدم منها أحد الا بكامل الرهان · فاما انه يقترب منها لاطفائها ، ليعرقل فاعلية علاقاتهـا بارادة الجماهـير الطامحـة الى التغيير ، واما لاشعالها لتكون بداية زمن عربي جديد ·

وفلسطين أيضا تعرف ، وكم هي تعرف ان الصخرة في القدس لم تعد توحد دموع العرب ، وخاصة بعد حرب تشرين · لان الحكام العرب الكثيرين ، الخارجين من اول مشروع انتصار قـد كرسـوا كل اهتمامهم والكثير من سلاحهم ليبرهنوا لاميركا على انهم اكثـر جدوى وأوفر ثروة من حبيبتها التقليدية ـ اسرائيـل · وبرهنـوا لنا على ان العباءة الغنية التي احتاجت ، من حزيران حتى تشريـن الى كوفية فلسطينية لتغطي جرح الكرامة ، وتأخذ فائض الكاز والدم قد اصبحت في غنى عن هذا الزي الفلسطيني الفولكلوري ، لانـه يحتوي على اللحظة الفلسطينية الحاسمة ·

وفي مستوى هذه اللحظة لا يتقدم احد ، الان ، الا بكامـل عدة الرهان · وحين تأتي الحرب الخامسة ، وهي اتية في مواجهـة شروط جديدة مضافة الى اصول الصراع القديمة ، سيكتشف الذين يتصدون لهذه اللحظة الفلسطينية لاطفائها ، امليـن بذلك تلافي حتمية الحرب الوطنية ، انهم قد تنازلوا عن الكثير من مصادر قوتهـم ، وعن مظاهر هذه القوة واختاروا الجلوس في عراء التسوية التي لم تقدم لهم لا ارضا محتلة ولا طاقة على الضغط ، ولا تعمير وطن او صدفـة !

وفي صلب هذه اللحظـة المتوهجـة بعرق الكادحيـن العرب وصبرهم الطويل واحلامهم الواسعة ، تتهيأ عملية الذهاب الى اكثر الاحلام واقعية ورشاقة في هذا الزمان : فلسطين · في تحويـل هـذه اللحظة الى زمن عربي جديد يتم بناء شروط النصر الشعبي فـي الحرب الخامسة ·

محمود درويش

الطريق الى تل الزعتر!

هاني مندس

الدمار والموت والدماء ، الجوع والعطش والخوف ، الصمود والبطولة والشجاعة ، المأساة والعظمة ، الرهبة والحزن والفرح ، القلق المضني وصبر الفلاحين في قرى الجليل وسهل الحولة، الاسئلة المتزاحمة والشكوك والترقب والاصرار .. كل المزيج المعقد من الخواطر والمشاعر الانسانية المتضاربة في لحظة باتت فيها الحياة او الموت محض صدفة .. العنفوان والوطن والروح الكفاحية العالية لشعب عظيم.. الانتصار والهزيمة .. مشاهد حية من فلسطين ١٩٤٨ ، من عمان ١٩٧٠ .. لكن بيقظة النار والجرح والتحدي الفولاذي ! .. كلها تجمعت ، ودفعة واحدة ، في بقعة صغيرة جداً :

تل الزعتر !

اية كلمات معبرة حين اختزلتيا مخيم تل الزعتر كل مشاعر وقيم الانسانية والحياة .. والتراث النضالي الطويل لشعب مكافح صغير ؟ الكلمات تلهث وراء تفاصيلك .. واخبارك . .وانت واقف بمهابة وشموخ فوق انقاضك . .منهمك في اعمالك .. نطاردك لكي نلحق بك ، لنكون بعض مستواك . لكنك تهملنا بقسوة، فنشعر بالانتهاك والحرج والذنب .. كاننا لم نتعودك .. وكأنك تسخر منا ! فمهما نفعل هنا ، لسنا في مستواك.. ما دمنا لم نستطع الوصول اليك .. !

ما يقارب ستين الف قذيفة ، خلال ثلاثة وخمسين يوما ، وفي اليوم الاول للهجوم الفاشي تساقط ما يزيد عن ثمانية الاف قذيفة دفعة واحدة .. آلاف الجرحى وحوالي ٣ آلاف شهيد ،والجوع والعطش يحصد اطفالك ، والماء الممزوج بالدماء ما طعمه يا تل الزعتر ؟

ما رقم الهجوم الاخير ؟ ١٦ ، ٢٥ ، ٣٤ ، ٤٥ ، ٥٧ ، ٦٦ ، ٧٠ ؟ ما علاقة علم الحساب المدرسي بعلم الحساب السياسي يا تل الزعتر ؟ ! انك تجيد الاجابة تماما .. لقد علمتنا ان علم السياسة ، علم الثورة ، يبدأ من تعلم الحساب السياسي ! .. التلاميذ يجمعون اعداد البرتقال والتفاح ، اما

ثوارك وسكانك واطفالك فهم يجمعون القذائف والشهداء والجرحى ، يجمعون دماءهم مع المياه ويشربونها !

فاجأ صمودك الاصدقاء قبل الاعداء،كما يفاجىء ، دائمـــا ، الشعــب الفلسطيني ، بروحه الكفاحية العالية،جميع الاعداء وضيقي الافق .

لقد تجاوزتنا وتفوقت علينا ، اقتحمت ترددنا واربكتنا .. ارتحل اسمك ، ضاق ذرعا بنا وبحساباتنا الدكاكينية ، وانتقل في ارجاء العواصم والمدن ، يهز الضمائر ويلهــم الثوار والمناضليــن ، يصــدر البيانات ويعقد المؤتمرات ويقــود مظاهرات التاييد . اسمك ضاق بتلته الصغيرة المهدمة المحترقة ، انه يرتفع الان ، فوق ساحة نابلس الرئيسية وفي شوارع القدس ورام الله ، يراه العدو الصهيوني في عيون المتظاهرين شـررا ورصاصا وعزيمة .. فيرتعب الحكــام العرب ، يقفلون الحدود ، يضعــون الحواجز يفتشون عــنه في العيون والقلوب ، يسيرون دوريــات الامن والمخبرين في شوارع دمشق وعــمان والقاهرة و .. وتل الزعتر نار وحقد وشعب وثورة ..

احترقــت ... ودمرت كل منازلــك الهشــة ولكن على اخشاب ابوابــك وشبابيكك المنخورة واثاث مساكنــك التنكية المحترقة اوقدت النسوة النــار ليسلقن العدس ويسقين ماءه للاطفال بدل الحليب .. ومع هذا يصرخ اطفالك من الجوع والعطش والالم ، وكأنــهم يستنكرون تأجيل موتهم !..

لقد سمعت صراخ اطفالك ، ولــن انساها ، (بعد ان استطاع عــدد منهم الوصول ، في البداية ، عن طريق بعثة الصليب الاحمر) ، صرخات الــم بكاء لم اسمع مثلها ، قط ، قبل اليوم .صرخات بشر تحملوا ما يــفوق طاقة البشر من قدرة على احتــمال الجوع والعطش والعذاب والمــوت البطيء ، فتحولت الى صرخات غير بشرية .. بل الى صرخات احتجاج للانتماء الى مثل هذه الانسانية ؟ ام هي ، ترى ،صرخات ما قبل العودة الى حيفا وقرى الجليل، صرخات ذلك الفرح المكتوم ، وقــد انطلقت مبكرة ، قبل الاوان ، من تــل الزعتر ؟ !

(لقد ذكر اطباء واهالي تل الزعتر انه، خلال خمسة ايام فقط مــن الاسبوع الاخير ، مات ٦٠ طفلا من الجــوع والعطش وحالات الجفاف في المخيم ،كما مات عدد من الاطفال الذين وصلوا مع بعثة الصليب الاحمر ، اذ لم يجد العلاج المتأخر معهم نفعا !)

« كل اطفال تل الزعتر مصابــون بالجفاف » :

علميا ، «بالنسبة للجفاف ، هــذه الحالة ناتجة عن نقصان في الماء والغذاء وهي لا تقتصر على الاطفال ، بــل ويصاب بها الكبار ايضا ، الا ان قــدرة الاطفال على تحمل الجوع والعطش اقل بكثير من قدرة الكبار . لذا فانها تظهر بين الاطفال بصورة اسرع ، وحــالات الجفاف المصاب به الاطفال من جرحى

تل الزعتر كبيرة جدا **ومخيفة** ، اذ تدل التقارير الرسمية على ان اكثر من **٨٠ بالمئة من الاطفال مصابون بالجفاف وان ٢٠ بالمئة الباقين مصابون بجفاف الى حد بسيط** ، اضافة الى اصابات اخرى ، وهؤلاء حالتهم اسوأ من حالة اخوانهم الاطفال السابقين » !

« .. اذا استمر نقصان الغذاء فالنتيجة تكون الموت فورا ، ذلك ان حالة من عدم الاتزان تقع في خلايا الجسم بما فيها العصبية وغير العصبية واول تأثيرهما يكون في الكلى التي تتوقف عن الافراز ، وبالتالي تزداد البولينا بالدم التي تؤدي الى فقدان المريض لحياته بالتأكيد ، واعتقد ان غالبية الاطفال الموجودين ، حاليا ، في مخيم تل الزعتر مصابون بالجفاف . وذلك ليس لنقصان الماء والغذاء ، بل لفقدانه في كثير من الحالات ، ولدينا التقارير التي تفيد ان الكثير جدا منهم يموت يوميا وحتى الاطفال الذين نعالجهم هنا ، ايضا ، فان هناك حالات كثيرة ميؤوس منها . ومع ذلك فان المحاولات تجري لانقاذهم رغم نقصان العلاج اللازم لهم . كما ان هناك حالات من الجفاف من غير المستطاع علاجها ، علما ان عددا من الاطفال قضى نحبه بين ايدينا نتيجة خطورة اصابته وتأخره في الوصول الينا » .

(د. عبد الله ابو حسان مدير مستشفى الطوارىء في جامعة بيروت العربية ، مقابلة مع وكالة « وفا » ٦—٨—٧٦ ، انظر ايضا ، الصحف ١٠—٨—٧٦) .

« الشيء **المخيف** فعلا هو وضع الاطفال الاثنين والعشرين الذين وصلوا الى المستشفيات والذين لم تتجاوز اعمارهم الثلاث سنوات لان نصفهم على الاقل سيموت ، فهم مصابون بجروح بليغة من جراء القصف «وبالنشفان» بسبب الجوع والعطش . »

(نفس المرجع السابق)

علميا عرفت السبب .. ولكنني لااستطيع ان انسى صراخ اطفالك يا تل الزعتر وهم بين الموت والحياة ، وفي حالة من النشفان ! علميا عرفت ، ايضا ، ما يفعله **الفاشيون** .. وما نتائج التردد .

« غذاء الاطفال هو ماء العدس المجروش او ماء الرز في حال توفره » .

(فاطمة فليطة ، حديث خاص مع جرحى تل الزعتر اجرته مجلة « شؤون فلسطينية » .

« كانوا يجرشون العدس ويغلونه ويسقون ماءه للاطفال .. مات ما لا يقل عن ١٠٠ طفل وانسان بسبب الجوع والعطش وسوء التغذية » .

(موفق عبد الحليم ، حديث خاص مع جرحى .. الخ ..)

شهادات حية عن صمود تل الزعتر من الداخل :

الوضع التمويني :

« كله عدس بعدس ، ما في شيء ، خبز ما في ، مي ما في ، في هالشهرين تضايقنا كتير كتير .. لا غاز ولا كاز ولا فحم .. كله على الحطب ، حطب البيوت المهدمة » .

(حمدة محسن ، حديث خاص ..)

« كان في المخيم مستودع للعدس (مستودع غزة) ، الشعب خلعه وتمون منه ولولا العدس لمتنا جوع ، الصبح عدس والظهر عدس والمساء عدس » .

(بشرى عادل ، حديث خاص ..)

« بالنسبة للتموين ، انا منذ شهر ، على سبيل المثال ، لا يوجد في بيتي ذرة طحين واحدة ، يوجد عندي بعض العدس وحوالي اثنين كيلو من الرز . اعتقد ان الناس لا يستطيعون ان يصمدوا اكثر من عشرة ايام بدون مدهم بالتموين والماء . لم يعد هناك دكاكين ولا حوانيت للبيع والشراء . **والفلوس انعدمت قيمتها الشرائية نهائيا** » . (عدنان عقلة ، حديث خاص ..)

ماساة المياه :

« انصبت اليوم بكتفي واحنا رايحين على المية ، كثير نسوان وناس بينصابوا وبينجرحوا وبيموتوا على المي كل يوم » (حمدة محسن ، حديث خاص ..)

« كانت الام تودع اولادها قبل الذهاب الى مكان وجود الماء لتأتي ببعض القطرات منه ، لانها كانت تعتقد بانها قد تموت قبل ان تجلب منه ما يروي ظمأهم ، وذلك بسبب كثافة القذائف التي تتساقط على مكان وجود بئر الماء » . (احمد خضر ، المحرر ، ١٣-٨-٧٦)

« كانوا يخلوا الاهالي يقربوا تيعبوا المي ويبلشوا يرشوا او يرموا القذائف عليهم .. ليس اقل من ٢٠٠ شخص معظمهم نساء واولاد استشهدوا وهم عم بيعبوا مي » . (فاطمة فرج سعيد حديث خاص ..)

« كان هناك مصدر وحيد للمياه قرب مواقع الفاشيين وكان عدد شهداء وجرحى تعباية المي لا يقل عن ١٠ او ١٥ شخصا يوميا .. الماء للشرب فقط، وليس لغسل حتى الوجه ، فقط للشرب .. كانت تنكة المي بتنكة دم » .

(عدنان عقلة ، حديث خاص ..)

« القضية الاساسية هي قضية الماء، **وقضية الحصول على الماء اصبحت رمزا لصمود سكان تل الزعتر** ، مركز المياه الوحيد كان يقع تحت مرمى نيران الفاشيين . رايت بعيني الناس تتجه طوابير نحو مركز المياه والرشاشات مسلطة عليهم وتحصد وتجرح عددا منهم .. ومع ذلك كانوا يستمرون ولا يتراجعون للحصول على المياه . كانت الاصابات في سبيل الحصول على المياه بمعدل ١٠ و١٢ اصابة واحيانا تصل الى ٣٠ اصابة في اليوم .. **الماء بات يعني الاستمرار والحياة والصمود** . مسألة فقدان المياه اثرت على الاطفال من جميع النواحي ، من حيث النظافة والامراض والتغذية .

رايت امراة اصيبت اصابة بالغة في يدها بينما هي تملأ تنكتها ولكنها لم تتراجع ، انتظرت حتى امتلأت التنكة فاحضرتها معها وهي ترفع يدها عاليا، وقد عالجتها وكانت اصابتها غير بسيطة » .

(د. يوسف العراقي ، طبيب الهلال الاحمر الفلسطيني في تل الزعتر من وقائع المؤتمر الصحفي يوم الجمعة ١٣-٨-١٩٧٦ ، حضور شخصي).

« اكثر الجرحى المدنيين سقطوا شهداء من اجل تأمين المياه لاطفالهم ، اذكر ، مثلا ، ان عائلة فنيت بكاملها ، وعائلة اخرى ارسلت احدى بناتها لتعبئة المياه فقتلت ، فعادت وارسلت البنت الثانية فقتلت ، ايضا ، وفي اليوم الثاني ارسلت البنت الثالثة فقتلت كذلك » .

(د. عبد العزيز اللبدي ، طبيب الهلال الاحمر الفلسطيني في تل الزعتر ، نفس المصدر السابق).

« ربات البيوت كن يقضين ٢٤ ساعة في انتظار دورهن في الحصول على كميات قليلة من الماء ، وقد يترتب عليهن حتى النوم في صفوف الانتظار خلال الليل ، وكان يصاب او يقتل مايتراوح بين ٢٠ و٢٥ شخصا وهم يبحثون عن الماء » .

(هيلينا توبان مراسلة وكالة رويتر ، الصحف ١٣-٨-٧٦)

كان هناك ملجأ غير صالح للاستعمال داخل المخيم تسربت اليه مياه الشتاء واختلطت بالاوساخ . الاهالي شربوا واستخدموا كل بقايا مياه الشتاء الملوثة والموحلة التي وجدوها في هذا الملجأ .

المخيم تهدم تماما :

« المخيم تهدم بنسبة مئة بالمئة . في اليوم الاول من الهجوم الوحشي الفاشي البربري على المخيم ، بلغ عدد القذائف التي تساقطت بمعدل ١٦ قذيفة في الدقيقة الواحدة ، بدأ القصف في الساعة الخامسة صباحا في ٢٢ حزيران وانتهى في الساعة العاشرة ليلا دون انقطاع . وانت تعرف ان معظم بيوت المخيم مؤلفة من التنك والزينكو وحجارة الباطون التي لا ترتكز على عواميد . وهكذا تهدمت او تصدعت غالبية المساكن منذ اليوم الاول . وقد استخدم الفاشيون المدفعية المباشرة من مدفعية الهاوزر ومدفعية الملالات ١٠٥ لتهديم البيوت والبنايات المحيطة بالمخيم حتى يتاح لهم السيطرة بالنيران على كل زقاق وشارع وموقع في المخيم وممارسة تنص المواطنين . وقد اصيب واستشهد الكثير من الناس عن طريق القنص الجبان » .

(عدنان عقلة ، حديث خاص ..)

كيف انهار الملجأ ؟ :

بعد ان اشتعلت المواد البلاستيكية في معمل بوتاجي واحترق تماما ، على اثر قصفه بالقذائف الفوسفورية الحارقة ، تصدعت جدران المبنى المجاور له والمؤلف من خمس طوابق . الا ان الفاشيين « قصفوا هذا المبنى بالمدفعية المباشرة ، وبشكل مركز ، فتصدع وانهار وتهدم سقف الملجأ الذي

كان فيه واغلق بابه . وبعد انهيارهنصبت القوى الفاشية رشاشات ٥٠٠ من عدة محاور ، بالاضافة الى قصف المساحة المحيطة بالملجأ بقذائف الهاون، وذلك بهدف منع اية محاولة لانقاذ الناس . وقد مات في هذا الملجأ ما لا يقل عن ٣٥٠ شخصا .. كلهم من الاطفال والنساء والشيوخ » .

(المصدر السابق)

فاطمة تروي مجزرة الملجأين :

كان وجه فاطمة فرج سعيد ، وهي تروي ما حدث ، يفيض بالطيبة والعذوبة والحزن ، كانت تستلقي على سريرها في مستشفى الجامعة العربية وهي تغالب الالم المنبعث من اصابة ساقها .. كانت فلسطينية الملامح والتعبير ، تتحدث ببساطة وطلاقة مذهلة . كان وعيها اكبر من سنها بكثير .

انطلقت الكلمات من عينيها ووجهها وقلبها وفمها دفعة واحدة وبهدوء وطيبة : « احنا تعجبنا وانقهرنا كثير كيف ما ذاعوا بالثورة عن هالحادثة مثل ما صارت . بدي اسألك اذا الواحد حكي بصراحة ممكن يضر الثورة ؟ في هناك غير حادث الملجأ اللي انهار على الناس اللي فيه . في ملجا محمد عباس كان فيه حوالي ٧٥ شخص . وفي جنبه ملجأ ثاني فيه نفس العدد تقريبا بمنطقة جاليري متى محل ما احنا ساكنين هناك ، صار في معركة قوية وتسللوا الكتائب من الدير (دير الراعي الصالح) الى الملجأين . دخلوا وقتلوا كل النسوان والاطفال والرجال الكبار في السن . قتلوا عمي ومرته وبنات عمي الثلاثة .. وقتلوا كمان بنت عمي وهي بتكون بنفس الوقت زوجة خالي واولادها الاربعة اللي كانوا معها (ثلاث بنات وصبي) . وفي عيلة ابو شاكيم راحوا اولادهم كلهم .. بقولوا كانوا عشرة انفس . وقتلوا ابن خالتها لامي وكانوا ثمانية انفس .. كمان قتلوهم كلهم : وفي واحد غزاوي وزوجته مصرية ، وعيلة مصرية ست وزوجها وكان معهم طفل صغير عمره ٨ اشهر وبنت عمرها سنتين ، كلهم قتلوهم . كل اللي قتلوهم اطفال صغار ونسوان ورجال كبار وبعد ما قتلوهم ضربوهم بالبلطات وشلحوهم ، وهم ميتين ، الذهب والعقود والمصاري والساعات والخواتم .

تصور انو احنا ، قبل بيوم واحد بس كنا في نفس الملجأ اللي دخلوا عليه . نقلنا انا وامي واخواتي مع عائلة ثانية كمان ، لفوق على رأس الدكوانة ، قبل بيوم واحد بس !

لما كنا في هالملجأ كانت الصواريخ والقنابل تتساقط عليه وعلى البنايات اللي جنبه . بشرفي انا وهاي المرا ، اللي قتلوها مع الناس الثانية ، في الملجأ . اسمها انعام .. كنت اقلها : يا انعام عيري الساعة تنشوف . تعير ساعتها ونعد انا واياها ٨ او ١٠ صواريخ او قذائف في الدقيقة الواحدة .. هدول اللي نعرف نعدهم . هيك الحالة كانت من الصبح لليل وخاصة في الاول .. في الايام اللي كانوا يهجموا فيها .

بعدما انسحبوا الكتائب وعملوا عملتهم السوداء المجرمة هادي في الملجأين ، دخل ناس كثير وشافوا اللي حصل للاهالي . انا بايدي عديت سبعين جثة مقتولة ومضروبة بالبلطات شو بدي اقول لك ؟ في من قرايبنا لحالهم بس . من عيلة قدورة ، حوالي ٤٠ شخص قتلوهم .

الحقيقة هادي الحادثة البشعة خلتنا نتشجع كثير ونعرف انو ما في النا امل غير بالصمود ومهما كان الامر . احسن نموت بشرف ومعنوياتنا عالية . اخوي بعد هالحادثة ، وهو عمره ما حمل بارودة .. تمرن على السلاح في الملجا وصار يقاتل مع اخوانه . امي تخانقت معه شوي في الاول . قالها : يما اذاما قاتلتش اسا لادافع عنكو وعن اهلي واهل المخيم أيمتى راح اقاتل) ؟

(فاطمة فرج سعيد ، حديث خاص ..)

لماذا قتلوا الياس الداموري ؟

التمعت عينا فاطمة ببريق من الحزن والالم والحقد ، وتابعت انسيابها :

« احنا زي ما خبرتك كنا ساكنين جنب جاليري متى . وكان في ناس جيراننا مسيحية يجيبوا لنا كل شيء .. طحين وحليب وتموين ، قبل ما يهجموا الكتائب ويحاصروا المخيم . ياحرام هدول الناس لما اجوا الكتائب قوصوا كثير منهم واخذوا الباقين معهم .

وكمان قتلوا ناس لبنانية من اهل شحيم كانوا ساكنين جنبنا . وفي قصة واحد جارنا مسكين اسمه الياس الداموري ، لبناني من الدامور ، كان يجيب وينقل الجرحى لمستشفى الهلال الاحمر الفلسطيني ، كان بيتشغل على سيارة خالي . مسكين كان خدوم كثير يقدم حاله للخدمة دايما وينقل الجرحى . كانوا الكتائب يبعتولوا كلام ويقولوا له : لازم توقف وتحارب معنا وتقوص على الفلسطينية . ما رضي . ولما اجو لهناك على جاليري متى قوصوه وقتلوه .. لاقينا جثته قدام الجاليري ، بعدما قدروا يتسللوا ويهجموا على الملجأين اللي خبرتك عنهن . حرام مات الياس الداموري ، زعلنا عليه كثير .. لاقوه جنب بيتنا وراء الملجا مقتول ومتكمش بمخدة من الخوف . منيح اللي احنا هربنا قبل بيوم من المنطقة (منطقة جاليري متى) وطلعنا من الملجأ اللي قتلوا الناس فيه » .

(نفس المصدر السابق)

صمود الاهالي :

« عايشين في الملاجيء ، ما منقدر نطلع لبرة من القذائف الا للضروري الضروري .. لا اكل ، ولامي كافي ، لاضو ولا كهرباء .. على العتمة » .

(صفية مليطة ، حديث خاص ..)

« والله بدك للحقيقة **يعني اكثر من هيك مافش صمود** . شو في اكثر من هيك ؟ بالدقيقة الواحدة ٨ او ١٠ قذائف هدول اللي نعرف نعدهم واحنا في الملجأ .

مهما انكسرنا منبقى منتصرين ...كنا نقضي طول النهار في الملاجيء مـــا نقدرش نتحرك من القذائف .. وناس كتير يموتوا على المي كل يوم ..

ولما كانوا يقولوا لنا راح بيجـــوا الفدائية تيفتحوا الطريق للزعتر ، نمزك ونكيف .. كتير نكيف . .ونتشجـــع بزيادة.. بس نرجع نلاقي انو ما صار شي من هالحكي .. نتضايق كتير ..ونقول ليش بعدهم ما فتحوا الطريق ؟ مش عارفين شو عم بصير فينا هون ؟» ..

« بس ما يفوتـــوا ويكســـروا معنوياتنا » :

« الحقيقة الانسان على كل شـــيء بيقدر يصمد .. يعني فواكه مـــــا نشوف .. خضرا ما نشوف ، خبز مانشوف . ونقول : يا رب ما ننكسر ، يا رب ما يفوتوا علينا الكتائب والاحرار .ما بدناش نأكل ولا بدنا اشـــي .. الا الشـــيء الضروري الضروري .. بس ما يفوتوا ويكسروا معنوياتنا .. ولا نشوف وجوههم الكالحة .. بدنا تضل معنوياتنا مرتفعة . الحمد لله في بعـد شباب مسلحين كتيـــر ، وفي ميليشيا كتير ، واللي عمروا ما حمـــل سلاح تدرب وحمل سلاح وعم يقاتل . وبرجع بقول : يا رب ، يا رب بس الله ينصرنا .. **وما يفوتوا على الزعتر حتى ولـــو متنا كلنا** . ما بدنا لا اكل ولا شرب ولا اي شيء .. كانـــوا النسوان والبنات في الملجأ يحكوا عن الطبيخ والاكل .. كنت اقولهن : والله العظيم انا مـــا بنفسي شيء .. لا اكل ولا شرب ولا خضرة ولا طبيخ ولا اي شيء .. بس ما نشوف وجوهم (اي الفاشيين) . والحقيقة كل الناس بترجع وبتقول : احنا مستعدين نتحمل كل شيء ..بس ما نشوف وجوههم ، يعني كل شـــيء بنصبر عليه .. بس ما يفوتوا علينـــا ويكسروا معنوياتنا . لحد اسا هـــم مقهورين منا كتير .. وبعدنا منتصرين عليهم . امبارح في المستوصف قبـــل ما نيجي لهون مع بعثة الصليب الاحمر سمعنا جماعتنا عم بقولوا بدنا نقصفهم في المدرسة (الكتائب والاحرار الذين في مدرسة الراعي الصالح) في الساعة كذا وكذا .. شو انبسطنا ! منّنبسط احنا كتير لما نسمع انو جماعتنا بدهم يقصفوهم .. هم جبنا ، جبنا كتير ، بس **لولا سوريا** .. بالاول كانـــوا يعووا زي الكلاب .. كلهم هربوا من كل المنطقة .. كنت تلاقي التلال .. القلعة ، المكلس لحد المنصورية .. كلها مع الفدائية .

وفي فدائية كانوا يقولوا لنا في جنود سوريين عم يقاتلوا مع الكتائب . كنا في الاول صامدين كثير كثير ويعدين ، بعدما دخلت سوريا ، بلشوا يحتلوا شوي شوي .. احتلوا جسر الباشا والقلعة والمكلس ووصلوا للمدرسة (مدرسة الراعي الصالح) » (فاطمة فرج سعيد ، حديث خاص ..)

مشاركة البنات والنساء :

« كانت البنات والنسوان تشارك في كل شيء .. ينقلوا جرحى ، يطبخوا عدس ، يعبوا مي ، ويقاتلوا . في كتير بنات ونسوان كانوا يقاتلوا ، في واحدة فدائية من عنا بقولوا لها « ابو علي » جابت اسرى من معمل الجرفي (للبوظة) في المكلس » . (المصدر السابق)

« عدد كبير من البنات والنسوان كانوا يشاركوا في المخيم . وفي منهن بالمئات .. كانوا على المحاور يشاركوا في القتال . وفي بنات على الحراسات .. زيهم زي الشباب .. وفي عدد استشهد منهن في القتال ».

(بشرى عادل ، حديث خاص)

« جميلة خلف تحولت من ممرضة الى مقاتلة واستشهدت في دير الراعي الصالح وهي تقاتل .. وكذلك بدر قدورة تحولت من ممرضة الى مقاتلة وكانت تستبسل في كل المعارك » . (عدنان عقلة ، حديث خاص ..)

دور الاطباء والمرضين بدون دواء ولا تجهيزات :

« كل جريح شهيد حتما نتيجة فقدان الدواء وضعف وسائل المعالجة » .

(سليم مصطفى ، حديث خاص ..)

الاطباء لم يتجاوز عددهم الاربعة الدكتور عبد العزيز اللبدي ، والدكتور يوسف العراقي وطبيبان سويديان . « بلغ عدد الجرحى الذين استقبلناهم خلال ٥٣ يوما حوالي ثلاثة الاف جريح اضطررنا الى نقل المستشفى بعد ان اصبح غير صالح ومسيطر على كافة مداخله بالنيران ، وتوزيعه الى ١٤ نقطة اسعاف في مختلف الاماكن السكنية كنا ننتقل من نقطة الى اخرى تحت وطأة القصف والنيران لانقاذ الجرحى. دمروا مستودع الادوية بقذائفهم . استخدمنا الشراشف والقمصان وقماش الديولين بدل الشاش . كنا نستعمل ، فقط ، الماء مع الملح لمعالجة الجروح . واتبعنا الطريقة الامريكية لمعالجة الجروح بابقائها مفتوحة . جرح معظم المرضين والمرضات اثناء تأدية عملهم واستشهدت ممرضة ، وكانوا جميعا يتبرعون بالدم . كنا نعالج مختلف الجروح بالماء والملح ، والاصابات التي في المعدة والرأس كان يموت اصحابها بسبب عدم وجود ادوية ولا غرفة عمليات صالحة ولا ادوات تعقيم » .

(د. عبد العزيز اللبدي ، د. يوسف العراقي، طبيبا الهلال الاحمر الفلسطيني ، من وقائع المؤتمر الصحفي .. ١٣–٨–١٩٧٦)

« مهما عملنا لا نستطيع ان نكافيء ونقدر الدور العظيم الذي لعبه الاطباء والمرضون في الهلال الاحمر الفلسطيني ومستوصف الجبهة الشعبية ، فقد تفانوا في عملهم .. بالرغم من عددهم القليل جدا ».

(عدنان عقلة ، حديث خاص ..)

ايفا تفقد الشهيد يوسف حمد مرتين !

اما المرضة ايفا ستروم (سميرة) فقد لعبت ، قبل اصابتها في ساقها وبتر يدها ، دورا انسانيا عظيم جدا . الجميع كان يحترمها ويحبها . وقد كانت اشد ما تخشى عليه تعرض جنينها (الذي اسمته حتى قبل ان يولد يوسف حمد تيمنا باسم زوجها الشهيد البطل) لاي مكروه ولكنها للاسف الشديد اجهضت وهي في شهرها السابع ، متأثرة باصابتها البالغة ، فحزنت حزنا شديدا على فقدان الشهيد القائد يوسف حمد مرتين !» .

(المصدر السابق)

كيف عاملوا الجرحى على الطريق ؟

عامل الفاشيون جرحى تل الزعتر الذين نقلهم الصليب الاحمر الدولي (قبل سقوط المخيم) معاملة وحشية لا مثيل لها . وهي تعكس مدى استهتارهم بمراعاة حتى ابسط القوانين والاعراف الانسانية الدولية المتعارف عليها . فهم رفضوا ، في البداية ، اي اجلاء لجرحى تل الزعتر وتسببوا في موت الكثير من الجرحى الذين كانت جراحهم خطرة . وفي اليوم الاول الذي وافقوا فيه على عملية اجلاء ٩١ جريحا واصلوا قصفهم للمخيم حتى خلال عملية الاجلاء نفسها « واستشهد وقتها حسين مطر وشهيد اخر اسمه الاول سلامة » ..

وفي الطريق (اوقفونا لمدة ساعة ونصف الساعة في حرش تابت واطلقوا النار على بعض الجرحى وحاولوا انزالي وانزال عدد من الجرحى الاخرين .. وضربوني على راسي .. كما **ضربوا طفلا حتى الموت في احدى الشاحنات** ، لان الطفل اعتقد ان الفاشيين بملابسهم العسكرية والبنادق التي يحملونها هم فدائيون فرفع يده باشارة النصر .. فما كان منهم الا ان ضربوه وخنقوه » . (المصدر السابق)

« اوقفونا عند محطة شل في القلعة قبل مستشفى الحايك . واخذوا يطلقون النار علينا ارهابا ويشتمونتا ويصعدون الى الشاحنات ويضربوننا على جراحنا وفي كل مكان. بالنسبة لي اخذوا ساعتي وشتموني وضربوني على جرحي وبصقوا علي ورغم ذلك لم اقل كلمة اخ ..

مسؤول درك لبنان العربي وهو جريح انزلوه واخذوه معهم .. لو كانوا شجعان وعندهم شهامة ما كانوا اعتدوا لا على الجرحى ولا على حرمة الصليب الاحمر الدولي . لان حرمة الصليب الاحمر الدولي من حرمة الانسانية والعالم كله .. وهم ـ بالفعل ـ معركتهم ضد الانسانية » .

(عباس علي ، حديث خاص ..)

« شلحوني ساعة وخاتم وحرف على الطريق ، واطلقوا النار ارهابا وضربوا الجرحى وشتمونا . وصاروا يقولوا : بس هالنقلة راح نسمح فيها من الجرحى وبعدين كل السكان اللي في الزعتر راح نسلخهم ونذبحهم » .

(موفق عبد الحليم ، حديث خاص ..)

« بهدلونا واحنا جايين على الطريق مع الصليب الاحمر ، سرقوا الساعات والخواتم وصاروا يسبوا علينا ، وضربوا الجرحى على جروحهم . »

(بشرى عادل ، حديث خاص ..)

« كانوا يضربوني على رجلي المنصابة ، كان معي جزدان صغير في شوية مصاري خبيته تحتي .. وكانوا يدوروا بصدري ويسألوني : وين مخبي المصاري والذهب . وكل ساعة يطلع واحد شكل ويتهددنا .. واحد يطلع وواحد ينزل ويسبوا علينا . وقفونا كتير في الشمس واحنا جرحى .

واللي في الصليب الاحمر كانوا يشفقوا علينا ويصرخوا عليهم ويقولوا لنا لا تفزعوا » !

(فاطمة فرج سعيد ، حديث خاص ..)

التصدي والبطولات :

« جميع الاهالي شاركوا في صنع الصمود » .

(سليم مصطفى ، حديث خاص ..)

« البطل **الحقيقي** كان هو القوات المشتركة من كل التنظيمات ، والتي لعبت دورا كبيرا في دحر كل الهجمات وابادة عناصر الكتائب والاحرار » .

(موفق عبد الحليم ، حديث خاص ..)

ماذا لو كانت كل قرية ومدينة ومخيم في بلادنا تل الزعتر ؟ اين كانت اليوم اسرائيل والرجعية والامبريالية امام تحدي الشعب المقاتل ؟ الجولان سقط في ستة ايام وكذلك سيناء .. وتل الزعتر يصمد ٥٣ يوما تحت أشرس الهجمات واشدها ويتلقى حوالي ٦٠ الف قذيفة وصاروخ !.

« المقاتلون كانوا يصمدون في مواقعهم ، بالرغم من شدة وشراسة القصف ، بالرغم من عدم التكافوء في الاسلحة والحشود ، استطاع المقاتلون ان يصمدوا ويصدوا كافة الهجمات . ماذا تستطيع ان ترد مثلا على قصف الملالات والهاوزر من كل مكان ؟ بقذائف الار بي جي » ؟

(عدنان عقلة ، حديث خاص ..)

خسائر العدو :

« كانت خسائر العدو الفاشي في كل هجوم يقوم به على المخيم لا تقل عن ٦٠ الى ٧٠ عنصرا بين قتيل وجريح . كنا نراهم وهم يتقدمون باعداد كبيرة فنضربهم بالرشاشات وقذائف الار بي جي ونبيدهم » .

(عباس علي ، حديث خاص ..)

« اول يوم هجموا فيه الكتائب كنا قاعدين في المحور نحضر انفسنا لشرب الشاي . جاءت زوجة ابو احمد جمعة وهو قائد مجموعة وقالت : دخلوا الكتائب . فتحركنا فورا وبسرعة . كنا أربعة مقاتلين نحمل ب ٧ وديكتريوف و ٢ كلاشن ، ومع ذلك صدينا ٧٠ مهاجما قتلنا منهم ستة عناصر واصيب

واحد منا اصابة خفيفة . ثـم عاودوا الهجوم وكانوا في حدود ٦٠ عنصـرا ومكشوفين علينا وقد مسحناهم مسحا واخذنا اسلحتهم . كان صمود الشباب رائع جدا وكنا مصرين على ان نموت ونحن نقاتل . مثلا الاخ المقاتـل ابـو عماد أصيب اربع مرات ولم يقبل ان يرتاح حسب طلب الدكتور » .

(محمد حامد ، حديث خاص ..)

« كان لي سبعة اولاد مقاتليـن ، استشهد منهم ثلاثة . وعندي اليـوم اربعة جرحى من تل الزعـتر ، الاستشهاد اصبح شيئا طبيعيا عندنا . لولا السوريين لما حصل ما حصل . السوريون هم المسؤولون . ونحـن قادرين نسحق كل عصابات شمعـون والجميل لولا تدخل الجيش السوري» .

(امينة نضل ، حديث خاص ..)

« معظم خسائرنا كانت في صفوف المدنيين نتيجة القصف الوحشي . اثناء هجوم القوى الفاشية كانت دائمـا خسائرهم اربعة اضعاف خسائرنا من الناحية العسكرية . »

(عدنان عقلة ، حديث خاص ..)

بطولات التصدي :

« حين اخذوا تلة المير اول مرة ، طلعت انا ومعي اربعة شباب مقاتلين لهناك . ومش مبالغة اذا قلت لك اننا استطعنا استرجاع التلة بعد ان ابدنا منهم خمسة عناصر وهرب الباقين .. استولينا على سلاحهم واسقطنا علمهم ودعسنا عليه ورفعـنا محلـه علـم فلسطين .. وبلشت النسوان تزغـرد والناس غنت وانبسطت .. وارتفعت معنوياتها . » .

(عباس علي ، حديث خاص ..)

« اذكر من المقاتلين الذين قامـوا بعدد من الاعمال البطولية وقتلـوا العشرات من الفاشيين ودمروا العديد من آلياتهم ، اذكر ابو نوال الذي استشهد في المكلس ، ادريس ، صالح ابو النعاج ، الشهيد النقيب بدر زوين ، فؤاد فيصل ، جمال ابو النصر ، سامي حمد ، عبـد خنجر ، محمد شحادة ، خالد شحادة ، ابو الفهد ، وابو معذب وغيرهم الكثير .. والغالبية الساحقة منهم استشهدوا ولا تقل خسائر الفاشيين في تل الزعتر وحده عن ١٥٠٠ قتيل وجريح » .

(عدنان عقلة ، حديث خاص ..)

« كلنا حملنا السلاح في المدة الاخيرةللدفاع عن المخيم . هربنا من قصف اسرائيل لكي نتعرض لقصف الكتائب. الفروقات معدومة بين لبناني وفلسطيني او مسلم ومسيحي .. كلنا كنا نشارك في الدفاع عن المخيم. استشهد احد ابنائي ».

(حسن عطية ، لبناني من اهالي كفر شوبا ، حديث خاص ..)

« محور الدكوانة كان محورا مشتركا بين اللبنانين والفلسطينيين . ولم يكن هناك اي تمييز بين الهويات والجنسيات ، كلنا في معركة واحدة ، ندافع عن المقاومة والحركة الوطنية والشعبيين اللبناني والفلسطيني ،ومن اجل عروبة لبنان ، ووحدة ارضه وشعبه » .

(مريم خليل ، لبنانية من الجنوب ، حديث خاص ..)

التآمر ودور الصاعقة والنظام السوري :

التآمر : « لا يوجد تفكير بالاستسلام بالرغم من الحالة الصعبة جدا التي يمر بها المخيم .. الواقع ان الشيخ شمس الدين وهو من اتباع موسى الصدر حاول ان يبث روح الاستسلام وان يسجل اسماء بعض الناس الذين يرغبون في تسليم انفسهم للكتائب لكي ينقلوهم الى المنطقة الغربية . الا ان حركة المقاومة والقوى الوطنية اللبنانية ومعهما الغالبية الساحقة من جماهير المخيم وسكان راس الدكوانة وقفت بالمرصاد لهذه المحاولة المشبوهة ولمعرفتها بطبيعة واساليب الفاشيين » .

دور الصاعقة : « لما كنا على تلة المير وبدات معركة المكلس والمصانع ، طلعت قوة من الصاعقة على اساس تقوم بتلغيم طلعة معمل الجرفي كلها في منطقة المصانع . وحين تقدمت الملالات لم تنفجر تحتها الالغام .. .. لان بلال حسن مسؤول الصاعقة كان متفقا مع الكتائب مثل ما تبين النا بعدين .وكانت الالغام محطوطة من غير صواعق . وعلى فكرة كانت التنظيمات الثانية هي اللي ناوية نطلع وتلغم ..بس بلال قال لهم : انا بعثت مجموعة علشان تلغم مافش داعي تبعثوا حدا،واحنا عنا الغام اكثر .. خلوا الالغام اللي معاكو لمناطق غيرها ! والصاعقة هي اللي سلمت القلعة للقوى الفاشية بدون قتال » .

(موفق عبد الحليم ، حديث خاص ..)

« اقتحم الكتائب والاحرار وجيش بركات المصانع واخذوا تلة الـ ٣٧

بعدما انسحبت منها الصاعقة .. او الاصح سلمتها بدون قتال .. علـــى فكرة الصاعقة كانت كتير متامرة ..ما كانتش تشتغل مظبوط او كما هـــو مطلوب . باستثناء الاخ الشهيد ابـــونوال رحمة الله عليه .. وبعض اللي انسحبوا منها وانضموا النا ، بـــلال حسن مسؤول الصاعقة العسكـري بعت رسول للكتائب علـــى الدكوانة علشان يعمل مفاوضات معهم لسحب المدنيين والجرحى من تل الزعتر .كان رد الكتائب انهم بيشترطوا توجـــه المقاتلين بمجموعات من عشرة كـــل مجموعة الى ساحة الدكوانة ويرموا اسلحتهم ويسلموا (وبهاي الطريقة ،طبعا ، بتم ابادة كـــل المقاتلين) وبعدين بوافقوا على سحب المدنيين .وكان بلال منفرد بها لتصرف وما وافق حدا على هالشي لا من الاهالي ولا من المقاتلين . وبعدين **سلم بـــلال نفسه للكتائب في الدكوانة مع مجموعة مـــن عناصره** . واحنا بدنا نطالب الثـــورة الفلسطينية من اجل المحافظة على دم الشهداء بان تحاكم امثال هؤلاء الناس مثل بلال وزبانيته واللي تخاذلوا كتير في معركة المكلس والمصانع .

ففي معركة المكلس والمصانع ،واناكنت فيها ، تشكلت ثلاث مجموعـــات كبيرة . مجموعتين قوات مشتركة من جميع المنظمات والمجموعة الثالثة مـــن الصاعقة على اساس ان تقوم فقـــط باسناد المجموعتين . لكنها لم تلعـــب هذا الدور .. وتحجج بلال بعدين بأنوما عندوش شباب كتير .. وكانـــت النتيجة اننا خسرنا عدد من الشهداء والجرحى في هاي المعركة وما تمكناش من استعادة كل المواقع .

مطلب جماهير تل الزعتر ان تظـــل الثورة مستمرة مهما كانت الصعوبات ولا يكون هناك تخاذل ابدا .. وبعدين على الثورة ان تحاسب كل انسان خان او تخاذل في حماية تل الزعتر . اوخان الثورة ككل لازم يتحاكم ويعدم فورا» .

(عباس علي ، حديث خاص ..)

« اعتقد ان الجنود السوريين كانوا يشاركون بالاقتحامات ويسلمون المواقع للفاشيين » .

(المصدر السابق)

جنود سوريون وقذائف عبرية :

« القوات السورية شاركت فـــي معارك مخيم الصمود بشريا واليا ، وكنا نشاهدهم مع دباباتهم من نـــوع ت ٦٢ بالعين المجردة ، وهناك ملالات جديدة نشاهدها ، لاول مرة ، ظهرت في معارك التل . كمـــا ان بعض القذائف سقطت في المخيم ولم تنفجر عليها كتابات باللغة العبرية » .

(«السفير » اللبنانية ، « حكايا من مخيـــم الصمود يرويها مقاتلان تسللا من تل الزعتر » ١٦

- (٧-٧٦) .

« كنا نسمع اصوات ولهجة الجنود السوريين بشكل واضح اثناء المعارك ، الكتائب والاحرار جبنا ، كانوا يخافوا من الهجوم ومعظمهم مخدر ، كانوا يشربوهم مخدرات ومشروبات علشان يتشجعوا ويقاتلوا . كنا نفرغ اكثر من ١٥ طلقة ومرات مخزن كامل حتى يقع العنصر منهم على الارض . وهذا مما يدل على ضعف الاحساس بالالم فورا نتيجة المخدرات والمشروبات .. قتلنا خمسة من الكتائبيين وجدنا في جعبهم الواح من الحشيشة مع سجاير كنت وطعام » .

(موفق عبد الحليم ، حديث خاص ..)

« الشعب السوري يقاتل معنا » :

« كان هناك شخص سوري بيشتغل في معمل ضو . انضم الـــنا وقت الحوادث ، استلم سلاح ودربناه وقام بعمليات ناجحة كثيرة ، اقتحم مع مجموعته تل البرج العالي والمدرسة اليونانية .. وفي كثير من الشعب السورى بالمخيم كانوا يقاتلوا معنا » .

(المصدر السابق)

تل الزعتر يقرر الصمود .. ويأمل :

« نحن هنا ، اخذنا قرارنا ، وهو قرار نهائي ، اننا سوف نناضل حتى آخر قطرة من دمائنا ، فليس لدينا خيار سوى بين حلين اثنين اما الصمود حتى آخر قطرة من دمائنا والاستشهاد واما ان نكسر شوكة الهجمة الفاشية ونفوت على الفاشيين فرصة اشباع شهوة الدم فيهم .. سوف نبقى صامدين حتى تنفذ طاقاتنا وكل امكاناتنا ، وجماهيرنا هنا لها امل كبير في أن تستطيعوا الوصول اليها لافشال مخطط اعداء شعبنا الفلسطيني واللبناني سواء منهم الفاشيون او حكام دمشق » .

(نص البرقية التي ارسلها اهالي ومقاتلوا تل الزعتر الى غرفة العمليات ونشرت في الصحف في ١ ــ ٨ ــ ٧٦) .

ويخاطب مؤتمر وزراء الخارجية العرب دون جدوى :

« نتحدث اليكم ليس من موقع الاستجداء واستدرار العطف انما

من موقع الصمود البطولي .لقد ولدنا من قلب الجوع والعطش ، لذلك قررنا ان نضع امامكم صورة حية لمخيمنا وان نسجل للتاريخ اننا وضعناكم امام مسؤولياتكم حتى لايقع في ذهن اي من الجماهير العربية انكم لا تعلمون ما يجري .. ان كثيرا من جرحانا الذين كان يمكن الا تؤدي اصابتهم الى الموت قد نزفوا حتى الموت بسبب انعدام الدواء .. ولقد دفنا شهداءنا في اقرب حفرة استطعنا حفرها واستشهد بعضنا اثناء ذلك . ان ما يجري الان في مخيمنا يصفع اولئك الذين كذبوا او قالوا انهم جاؤوا لكي يفكوا الحصار عنه وهم حتى الان يكذبون الكذبة ذاتها ويساعدون الفاشيين . نريد ان نعلمكم اننا سنقاتل دفاعا عن هذا المخيم بالاظافر اذا نضب السلاح ، ونحملكم مسؤولية ابعاد الغزاة السورين الذين هم الان طرف في النزاع » .

(نص البرقية التي ارسلها اهالي ومقاتلو تل الزعتر الى وزراء الخارجية العرب . الصحف ١٤ ـ ٧ ـ ٧٦) .

ومع ذلك .. سقط الزعتر

ونفدت مصادر المياه ، وشحت الذخيرة ، واوشك العدس والطعام على الانتهاء ، لم يعد هناك خشب من البيوت المهدمة لم يحترق بعد !.. طال الانتظار .. والصمود ليس ارادة فقط .. بل مقومات واستعدادات ، والاطفال يموتون من الجوع والعطش ، والطريق الى تل الزعتر ما زالت طويلة وشاقة.. الطريق من الزعتر الى الجبل والمتحف وعيون السيمان اسهل ! اسهل من الصمود بدون مقومات « نستطيع الصمود كمان عشرين يوما بدون طعام ولا ماء لو نعرف انكم ستشقون الطريق » .. هكذا خاطبنا المقاتلون والاهالي بشموخ وقهر .

كيف تمت عملية الاخلاء ـ المذبحة ؟

« تعهد امين الجميل في رسالة خطية الى اهالي المخيم ، بعد الاتصالات التي قام بها مبعوث الجامعة العربية صبري الخولي مع الكتائب ، « تعهد » بأنه لن يتم التعرض لسكان وجرحى المخيم اثناء عملية الاخلاء التي ستتم تحت اشراف ممثل الجامعة العربية والصليب الاحمر الدولي .. ولكن ما ان تحركت سيارات الصليب الاحمر لاجلاء السكان حتى بدأ الفاشيون تصفية كل عناصر الشباب من سن ١٢ فما فوق ، بعد ان كانوا قد فتحوا نيران رشاشاتهم على الاهالي بشكل عشوائي ، والقيام بتجريدهم من كل ما يحملون من اموال وحلي وخواتم واي شيء له قيمة .

حين وصلوا الينا .. قادونا انا والدكتور عبد العزيز اللبدي والمرضين والممرضات في طريق طوله حوالي ٢٠٠ متر ، رايت بعيني جثث الاهالي منتشرة على جانبي الطريق من اوله حتى نهايته .

في الدكوانة كان معي عشرة ممرضين اوقفوهم بالصف اثنين اثنين وبعد لحظات اطلقوا عليهم النار وقتلوهم جميعا امام عيني . لا استطيع ان انسى منظر القتل الجماعي هذا ما حييت . لقد تم انقاذي والدكتور عبد العزيز اللبدي بفعل الصدف . لقد تعرف علي آمر مجموعة كتائبية كنت قد عالجته فيما مضى وقد عمل على مرافقتي عبر الحواجز حتى تم انقاذي وعبد العزيز بعد تدخل صبري الخولي . انهم مجرمون لا يعرفون المبادىء ويتسترون بالدين . لقد قتلوا الكاهن بولس عبد الكريم ذبحا بالسكين في تلة المير لانه فلسطيني . كما قتلوا الدكتور جورج ديب و ٧ ممرضين فلسطينيين مسيحيين » .

(د. يوسف عراقي ، طبيب الهلال الاحمر الفلسطيني في تل الزعتر ، نفس المصدر السابق)

« اين انتم » ؟ :

فتاة في العاشرة وقفت على احد الجدران في دار المعلمين والمعلمات في بئر حسن وقالت متسائلة : « اين انتم يا من يجب ان تدافعوا عنا ؟ اين كنتم عندما اكلنا العدس وشربنا مياه المجارير طوال ثلاثة اشهر ؟ » .

(« السفير » ١٣-٨-٧٦)

« وفق ما افاد مبعوثان ارسلهما كامل الاسعد « للاطمئنان » على ابناء تل الزعتر ، قال المبعوثان وهما احمد زعرور وشارل خوري ، بعد مقابلتهما (للفاشي) مارون خوري « الباشر » : ان الجثث كانت تنقل بالجرافات .. وكان هناك ١٢ حاجزاً للتصفية بين مهنية الدكوانة والمتحف . والآليات شوهدت تسير فوق اجساد الجرحى .. سحلوا جثث ٨٠ من الشباب على طريق جونيه .... وجميعهم ، امس ، كانوا هناك : القتلة المهووسون ، اللصوص المحترفون والمرتزقة الحاقدون ، احاطوا بالمخيم كقطيع من الذئاب .. ومئات من الشباب اللبنانيين والفلسطينيين اختفوا ... منهم من قتل على الحواجز فوراً ، ومنهم من سحب الى التحقيق .. ولم يعد » ..

(نفس المصدر السابق)

الوحوش اخذوا بنتي الحلوة !

« لقد قتل اولادي الستة ، وقتل زوجي معهم . وما زال هناك ولدان لي في تل الزعتر ، يقاتلان حتى آخر نقطة من دمهما كما اقسما . ولي ولدان استشهدا قبل قليل . لقد ربطوا ايديهما بحبال واوقفوهما على جدار . وبعد ذلك بطحوهما ارضا . وبعد ان اشبعوهما ضربا ، قتلوهما امام عيني .. لقد رشوهما رشا .. وشاهدت الدماء تنفر من ضلوعهما ومن ضلوعي .. وكذلك سرقوا لي ابنتي الان . لقد جاءت معي وعلى المتحف وجدوا على صدرها شارة الهلال الاحمر فأنزلوها من السيارة يا ولدي .. اخذوا لي بنتي الحلوة . اخذوها ولم يبق لي سوى هؤلاء الثلاثة ، هؤلاء الاطفال الثلاثة . الى من اذهب ؟ وهل يردون لي بنتي الحلوة ؟ قبل ان اخرج من تل الزعتر ، قال لي ابني وهو يودعني : اذهبي ياما ، بالله عليك لاتحرجيني . فأنا لا أعرف ماذا اقول لك . ولكن لي طلب واحد منك هو ان تديري بالك من اختي ، واخوتي الصغار ، آه يا ابني ، الوحوش اخذوا اختك » ..

(صفية محمد موسى الخطيب ، نفس المصدر السابق)

« جميع الشباب لازم يموتوا » :

« طلعت براسي . اولادي الخمسة ماتوا .. شبابي قتلوهم امام عيني . كنا في الدكوانة ، حصلت على ورقة من اجل انقاذ أحد اولادي ، واحد فقط . تصور ان علي ان انتقي واحدا منهم ! ولما علم اولادي بذلك ، اخذ كل واحد منهم يتبرع من اجل انقاذ الثاني . ولم يبق لي في النهاية سوى اصغرهم . وعندما وصلنا الى المتحف اخذوا لي الخامس . قلت لهم انني حصلت على ورقة من اجل انقاذه ، قالوا : « الشباب جميعهم لازم يموتوا » . وليس هناك اوراق نعتمد عليها . لقد مات الخمسة ، حتى الصغير .. اراد ان يلحق اخوته . لقد قال لي قبل ان يأخذوه : تشجعي يا امي . صحيح ان اولادك ماتوا . ولكنك تملكين جميع الابناء المقاتلين . وقبل يدي . وذهب يا ولدي . يا اولادي .. لو كنت اعلم انهم سيقتلوننا ، لفضلت الموت في تل الزعتر وراء المتراس الذي قضيت عليه شهرين ولفضلت الموت مع اولادي . لماذا لم يساعدونا ؟ » .

(وثيقة احمد وهبي ، نفس المصدر السابق)

امراة سورية
من تل الزعتر :

« امراة سورية فقدت وحيدها .. واخذت تردد على اسماع من حولها :
« شلحونا على الحواجز الصيغة والخواتم والساعات .. ولادنا مشي

القمل في رؤوسهم .. شهر ونصف قاعدين في الملاجىء .. اجسامنا ما شافت المي .. حافظ الاسد بعت بجنوده ليقتلوك يا ولدي .. موسى الصدر وازلامه خانوك يا ولدي .. شو عملنا حتى يضربنا الجيش السوري بسلاحنا .. اكلنا عدس وتمر ولم نهتم .. ولكن المي اشرت علينا .. لولا المي ما سقط تل الزعتر .. شو بدي اعمل بعدك يا محسن ؟ » ..

« الزعتر ما بينكسر » ..

امرأة اخرى قالت لي : « **نحن يا خالتي ما انكسرنا والزعتر ما بينكسر** .. بس المي والغذاء والجيش السوري والخونة هم الذين كسرونا » .. « وفي مكان آخر تجمهر عدد من الشبان حول مقاتل استطاع ان يتسلل مع مجموعته عبر طريق جبلية ، قال : لم يكن سقوط تل الزعتر واردا لولا افتقاره الى الماء والمواد الغذائية . لقد ابدنا الكثير من الفاشيين اثناء هجماتهم المتتالية على المخيم . كنا نحصدهم كالماعز ولم يسقط منا الكثير برصاصهم ، بل معظم الذين استشهدوا او جرحوا اصابتهم شظايا القذائف .. انهم جبناء غدروا بنسائنا واطفالنا . لقد فضحوا اربعة بنات من اقربائي واعتدوا على بعض النسوة .. وقتلوا الكثير من الرجال على الحواجز » .

(جريدة بيروت ١٣ــ٨ــ٧٦)

قوات الامن العربية تتفرج ! :

« في طريقنا امام السيار (قرب اوتيل ديو بالاشرفية) خطفوا اربعة اشخاص من اقربائي وهم محمد رزوق ورسمي ومحمد الحاج صبري واخوه على حاجز الاحرار وضربوهم بأعقاب البنادق والمسدسات واخذوهم الى جهة مجهولة . لماذا تواجد قوات الامن العربية في منطقة المتحف ، وما هو عملها ، والقوات الفاشية تخطف وتقتل وتضرب على بعد عدة امتار منها ؟ ان الفاشيين ارتكبوا مذابح رهيبة بحق اهالي تل الزعتر وذبحوا وسحلوا عددا كبيرا من النساء والشيوخ والاطفال » .

(عبد الوهاب عبد العال ، المحرر ، ١٣ ــ٨ــ ٧٦)

رايت .. واصيب ابني :

« رأيت في الفندقية (بالدكوانة) بعض المسلحين يطلقون النار على العائلات التي التجأت اليها ، وقد اصيب عدد كبير من الاهالي ومن

ضمنهم ابني الذي يبلغ من العمر ١٥ سنة برصاصة في راسه » ..

(مريم محمد برغوت ، نفس المصدر السابق)

« سلبوني ١٥٠ ليرة واخذوا مني اربعة اولاد وتركوني وحدي الجأ الى المنطقة الغربية .. ولا اعرف الى اين ساذهب الان من دون اولادي » ..

(نايفة شحرور ، نفس المصدر السابق)

وجهنا نداءات ..
وبقينا وحدنا نحارب :

« لقد وجهنا نداءات ورسائل مفتوحة الى الدول العربية ، وخاصة وزراء الخارجية العرب عندما كانوا في القاهرة ، وحملناهم مسؤولية استمرار حصار تل الزعتر والهجمات الوحشية التي تقوم بها القوات الفاشية دون جدوى .. ولم تحرك ساكنا .. وبقينا **وحدنا** نحارب في ظل العطش والجوع والمرض .. ان الجثث متناثرة في الشوارع ، والمياه مفقودة تماما ، والحصول عليها شاق جدا ، وتأتي ممزوجة بدماء الشهداء » ..

(محمود الاحمد ، المحرر ، ١٣ـ٨ـ٧٦)

ذبحوا عشرة اشخاص
من عائلة واحدة :

« لقد القوا القبض على جميع افراد عائلتي وزوجاتهم واطفالهم ونقلونا الى النافعة ووضعونا صفوفا طويلة ارضا حيث اخذ بعض الفاشيين الشباب من بيننا حيث كانوا يطلقون عليهم النار **امام انظارنا** فيتساقطون الواحد تلو الاخر . وبعد ان انتهوا من هذه المجزرة نقلونا بواسطة الشاحنات الى الاشرفية وكانوا على الطريق يقولون لنا « جلس راسك » .. وما ان يفعل احدنا حتى يطلقون عليه النار فيقتلونه ويلقون بجثته في الشارع . وكنت اجلس على احد ابنائي في الشاحنة ومعي زوجته وطفلها فطلبوا منا الوقوف وما ان شاهدوه حتى اخذوه من بيننا ونقلوه الى جهة مجهولة ..وعندما حاولت زوجته الصراخ اطلقوا عليها النار وقتلوها مع طفلها ..

وقد فقدت من افراد عائلتي **عشرة ذبحوا وواحد خطف** وبقي معي الان ٨ اطفال لا ادري كيف اؤمن لهم وسائل المعيشة وانا لا املك شيئا . والذين ذبحهم الفاشيون ذبح النعاج هم اولادي : غندور الحسين الغندور ٣٧ سنة وزوجته فوزية موسى ٢٥ سنة ، وقاسم ٣١ سنة وزوجته خديجة ٢٥ سنة ، وناصر ٢٧ سنة ، ومشهور ٢٢ سنة ، ومحمد حسين ١٩ سنة ، ويسرى ابنة ابني علي ،

وحسين ابن ابني علي ومريم زوجة ابني علي » .

(حسين علي الغندور ، المحرر، ١٥-٨-٧٦)

عشرات الجثث :

« في الدكوانة ، المدخل الشمالي للمخيم ، منظر يثير الرعب . اد تتراكم هناك **عشرات الجثث** وتجبر رائحتها المرء على ارتداء قناع ليمكنه من متابعة السير . ويستحيل احصاء هذه الجثث التي **تشمل الرجال والنساء والاطفال** ،لان الامر يتطلب زيارة المنازل واحد بعد الاخر » .

(مراسل وكالة الصحافة الفرنسية ، النهار، ١٤-٨-٧٦)

صمودك العنيد ..
أحبط فرحهم بالانتصار ! :

ولاحظ مراسل وكالة الصحافة الفرنسية ، الذي قام بجولة تفقدية الى المخيم ، « ان ميليشيا القوات المحافظة لم تبد غداة النصر الذي حققته مظاهر الفرح او التفوق الحربي التي تعقب عادة اي انتصار من هذا النوع » !

(نفس المصدر السابق) .

ايها المعلم ! :

صمودك العنيد .. لم يتحول الى هزيمة .. حتى اعداؤك لم تسمح لهم ان يفرحوا بسقوطك .. صمودك العنيد لم يتحول الى سقوط !.. وسقوطك المفجع الدامي انذار لنا لكي نتدارك سقوطنا وهزيمتنا وترددنا .

لقد افتديتنا يا تل الزعتر .. جعلتنا نرى ماذا تفعل الفاشية الدموية بالشعب ، اذا لم تسحق تماما وبأقصى سرعة ؟

علمتنا بالدم والضحايا والالام ما هي مخاطر الاوهام والحلول الوسطية في لحظة لا تسمح فيها طبيعة الصراع واحتدامه بأي حل وسط .

علمتنا الوضوح ، قلت بجوع وعطش اطفالك ونسائك ومنازلك المحترقة ودماء شهدائك وابريائك : **هوذا العدو بدون اوهام ..**

وقدمت لنا الصمود والتحدي جوابا .

فتحت لنا الطريق اخيرا الى تل الزعتر !

ورأينا فيك ، بالعين المجردة ،(فنحن لا نرى الا ما يقع مباشرة امام اعيننا ولمسافة أمتار قليلة فقط) كيف تنعكس نتائج الحلف الامبريالي الصهيوني الفاشي الرجعي العربي على الجماهير ..

خجلت يا تل الزعتر ان انظر في عيون مهجريك ومقاتليك .. لاستفسر منهم مباشرة عما حدث في اللحظات الاخيرة . وعيونهم تتهمني ، تتهمنا جميعا . وتتساءل بالحاح عن الطريق الى تل الزعتر ؟

عيون اهلك ومقاتليك تطاردنا بأسئلتها ولا تقبل الردود والاجابات المتأخرة ..

ماذا قال عنك الفاشيون ؟ :

قالوا انك مجرد معسكر حربي لايوجد فيك اطفال ولا نساء .. وان فقراءك من العمال والكادحين قوم من اللصوص وقطاع الطرق .. رسموك في دعايتهم الحاقدة بعبعا وشرا .. لان جماهيرك تحمل السلاح وتريد ان تقاتل حلفاءهم الامبرياليين والصهاينة . قالوا .. وقالوا .. بينما اطفالك يموتون من الجفاف وسوء التغذية .. حقدوا عليك لانك تقاتل ضد فقرك ومن اجل فلسطين . ومن اجل لبنان وطني ديمقراطي عربي في آن واحد !

تحدثوا عن « الامتيازات » التي يحظى بها سكانك وهم في اكواخهم التنكية يقبعون .

اليوم دمروا مخيم تل الزعتر ،كانوا يريدونه ، فقط ، قوة عمل مأجور تباع في سوق النخاسة ، لا قوة سياسية ثورية ..

لذا حقدوا عليه ،وعلى كل الوطنيين والكادحين في لبنان .. وهم يمارسون حقدهم تشويشا وكذبا وافتراء ..

« يكون مذلة ان نقوم على ارض لبنان مدن تنكية » ·

(الفاشي سعيد عقل في مؤتمر صحفي ، الصحف ١٥ ــ ٨ ــ ٧٦)

الطريق الى تل الزعتر !

لقد عبدت لنا بصمودك يا تل الزعتر : الطريق الى تل الزعتر ! الطريق اليك باتت شاقة وطويلة ٠٠ لكن لا خيار ، فما من طريق آخر ٠٠

الطريق الى تل الزعتر تمر بقبر التردد والحلول الوسطية ، تمر بسحق الفاشيين وحلفائهم وتوحيد لبنان بقوة السلاح ٠ الطريق الى تل الزعتر تمر من خلال طرد ودحر التدخل العسكري الرجعي ٠

الطريق الى تل الزعتر ، تمر بضرب التسوية الامبريالية في لبنان والمنطقة العربية ، االطريق الى تل الزعتر يمر باقامة نظام وطني ديمقراطي في لبنان ومهما كانت الولادة عسرة ، الطريق الى تل الزعتر طريق الاستمرار والتصدي والعنفوان الثوري : طريق الجماهير ٠

الطريق الى تل الزعتر تمر في عمان وجرنية ودمشق وعواصم عربية كثيرة ٠٠ وتؤدي الى فلسطين '

طريق تل الزعتر اقرب االطرق الى فلسطين !

لمحة اجتماعية اقتصادية :

انشىء مخيم تل الزعتر عام ١٩٥٠ ★ ، وهو يقع في المنطقة الشرقية الشمالية من ضواحي بيروت . وتعتبر هذه المنطقة التي تحيط بالمخيم من اهم المناطق الصناعية في لبنان . فهي كانت تضم عام ١٩٦٨ ٢٩ ٪ من عدد المعامل في لبنان ، و ٢٢ ٪ من عدد العمال ، و ٢٣ ٪ من راس المال الصناعي اللبناني . تبلغ مساحة المخيم الاجمالية حوالي ٢٩٥ دونما .

بلغ عدد سكان المخيم عام ١٩٧٢ حوالي ١٤ الف فلسطيني وتقديرنا عام ١٩٧٦ حوالي ١٧ الف فلسطيني . وهو يضم عددا كبيرا من اللبنانيين ، وخاصة اهل الجنوب وبعلبك .

★ كل المعلومات التي سياتي ذكرها الان ماخوذة عن كتاب : هاني مندس ، « العمل والعمال في المخيم الفلسطيني » ، بحث ميداني عن مخيم تل الزعتر ، مركز الابحاث الفلسطيني ، بيروت ، ١٩٧٤ .

بلغ عدد الاولاد الذين من فئة عمر٦ ـــ ١٤ خارج المدارس ١٣٤١ ولدا لعام ١٩٧١ ، اي بنسبة ٣٦،٨٪ .فالاولاد يضطرون ، بسبب تردي الاوضاع الاجتماعية ، الى ترك المدرسة في سن مبكرة والالتحاق بالعمل .

ينتمي معظم اهالي المخيم ، من حيث اصولهم الاجتماعية في فلسطين ، الى سكان القرى بنسبة ٨٦،٩٪ .

اما الاوضاع الاجتماعية العامة بالمخيم ، فمن حيث الاكتظاظ السكاني فان معدل كل ٤ ـــ ٦ افراد يسكنون في غرفة واحدة وكل ٦ ـــ ٨ افراد يسكنون في غرفتين .

معظم مساكن المخيم من براكسات التنك والتخاشيب أو انها مشادة بجدران من الباطون المسقوف بألواح الزينكو .

الطرقات الداخلية في المخيم ضيقة للغاية ، وهي في معظمها غير معبدة بالباطون وتمتلىء بالحفر والاوحال والاوساخ . كما تمر في وسطها الاقنية ومجارير المياه القذرة المكشوفة .

والاونروا لا تقدم جميع خدماتها الى جميع السكان ، بل الى حوالي ٣٥٤٠ شخصا فقط . علما ان معدل مجموع خدمات الاونروا في كافة المجالات (غذاء + طبابة + تعليم) لا تتجاوز ٧ليرات لبنانية في الشهر للفرد الواحد اي ما يعادل دولارين !

ولا يوجد مستوصف للاونروا خاص بالمخيم .

قبل ظهور الثورة الفلسطينية في لبنان عام ١٩٦٩ ، كان محظورا على الفلسطينيين القيام بأي ترميم أو اصلاح جزئي للمسكن الا بعد الحصول على موافقة رسمية من السلطات المختصة وكان اهالي المخيم ، وسائر المخيمات الفلسطينية الاخرى في لبنان بالطبع ، يعانون الامرين من تعسف السلطات اللبنانية . فقد كان محظرا عليهم ممارسة اي نشاط سياسي أو اجتماعي أو ثقافي ومعرضون للملاحقة والاعتقال والمضايقات المتكررة .

يعمل العمال الفلسطينيون في المؤسسات الصناعية الصغيرة والاعمال ذات الطبيعة الموسمية والشاقة .وتصل نسبة العمال الى حوالي ٩٠٪ من مجوع العاملين .

ومستوى الدخل الشهري للاغلبية الساحقة من العمال (حوالي ٨٥٪)

لا يتعدى ٤٠٠ ل. ل .

ويعاني العمال الفلسطينيون مايعانيه العمال اللبنانيون من مشاكل الصرف الكيفي من العمل والتعويضات وبدل ايام المرض والاجازة السنوية .

الا ان العمال الفلسطينيين يعانون بدرجة اكبر وخاصة لجهة اشتراط الحصول على اجازة العمل أو استخدامها من قبل رب العمل كأداة ضاغطة لكي لا يطالب العامل الفلسطيني بأية زيادة في الاجر او حق من حقوقه المشروعة الاخرى . والعمال الفلسطينيون يتمركزون عادة في المؤسسات الصناعية الصغيرة والمتوسطة التي تزداد فيها درجة الاستغلال والعلاقات الشخصية .

ولا تخول اجازة العمل العامل (الاجنبي) الفلسطيني حق العمل في كافة المؤسسات أو المهن المختلفة، بل انها تقتصر على السماح بالعمل في المؤسسة التي يعمل بها فقط وبناء على موافقتها الشخصية . والعمال الفلسطينيون ، بل والفلسطينيون عموما في لبنان لا تشملهم خدمات الصندوق والضمان الاجتماعي بالرغم من كونهم يدفعون الرسوم المستحقة ! فهم يعاملون (كأجانب) في كل ما يتعلق بالقوانين .

هذا ، بأيجاز شديد ، وضع مخيم تل الزعتر.. والفلسطينيون (الاجانب) في لبنان .

مدرسة الصمود والاقدام في تل الزعتر

الدكتور نجيب ابو حيدر

الصمود في الحرب فضيلة عسكرية من الطراز الاول ، ودليل حسي على ان افراد القوه الصامدة امام الهجمات المتلاحقة المتسمة بالتصميم والاستمرارية يقاتلون من اجل هدف سام يؤمنون به ، ومثل عليا يسعون الى تحقيقها . ويمتلكون قسطا عاليا من الشجاعة النفسية التي تعي وجود الخطر وتحس بالخوف ، ولكنها تسيطر عليه وتقهره ، لانها تعرف بالممارسة القتالية ودراسة التاريخ ان الخطر الناجم عن الصمود اقل بكثير من المخاطر المادية والمعنوية التي ترافق التخاذل والتخلي عن الموقع .

ويقف الصمود دائما في مواجهة الاقدام . وهذا لا يعني ان الصمود متناقض مع الاقدام فكلتا الصفتين تنبعان من مصادر سامية واحدة . ولكن اولاهما تظهر في العمليات الدفاعية وصد الهجمات المعاكسة ، على حين تظهر الثانية في العمليات الهجومية وخلال الهجمات المعاكسة . ولا يكشف الصمود او الاقدام مثل موقف الخصم . فكلما ازدادت شراسة الخصم وحدة هجماته وتواترها اخذت فضيلة الصمود مغزاها واوتفع مستواها ، وكلما اختل ميزان القوى لصالح الخصم كان الاقدام في الهجمات المعاكسة حقيقيا يستحق الاعجاب . هذه هي الحقائق التي طرحتها امامنا معركة تل الزعتر ، وفي ضوء هذه الحقائق يمكن فهم مغزى القتال البطولي الذي كشف فضيلتي الاقدام والصمود لدى القوات الفلسطينية التي دافعت عنه خلال ٥٢ يوما وبرهن على تحليها بالقوى المعنوية العالية والكفاءة القتالية النادرة .

لقد كان مثلث « تل الزعتر ــ جسر الباشا ــ النبعة » دائما موقعا متقدما للثورة الفلسطينية والقوى الوطنية داخل المنطقة التي تسيطر عليها الكتائب وحلفاؤها (القوات اللبنانية) كما كان ، بحكم موقعه ، شوكة الى جانب هذه المنطقة ، وخطرا يهدد مؤخراتها وتحرك قواتها . لهذا كان من الطبيعي ان يفكر الكتائبيون وحلفاؤهم بتصفية هذا المثلث منذ اندلاع الاحداث في نيسان ١٩٧٥ . ولكن ميزان القوى لم يكن يسمح لهم بذلك ، فاكتفوا بتطويق المثلث الذي غدا جيب مقاومة معزولاً تقريبا عن القوى الصديقة .

وبقي الجيب مطوقا عدة شهور،وبقي سكانه الفلسطينيون واللبنانيون محاصرين طوال هذه المدة عسكريا وتموينيا ، ولم يصلهم من الامدادات سوى كميات محدودة خلال فترات الانفراج الامني التي عرفتها الحرب الاهلية . ورغم هذا الحصار الطويل ، فان قيادة الكتائب وحلفائها لم تقدم على اقتحام المثلث رغم رغبتها في ذلك ،ورغم قيام الثورة الفلسطينية والقوى الوطنية بتوسيع الرقعة التي تسيطر عليها ، والقيام بمبادرات تعرضية جريئة بقواها الذاتية . ولا يرجع احجام قادة الكتائب وحلفائها عن فكرتهم الهجومية الا الى ميزان القوى ، فلقد كانت مشتتة في اكثر من موقع ، وتقاتل على الغالب دفاعيا ، كما كانت هذه القوات بحكم طبيعتها وتسليحها وتدريبها وكثافة نيرانها عاجزة عن ادارة المعركة الهجومية ضد موقع محصن ومدافع عنه جيدا .

وبقي هذا الوضع قائما حتى ظهر عاملان جديدان اثرا على ميزان القوى: ويتمثل اولهما في انشقاق الجيش اللبناني ، واكتساب (القوات اللبنانية) لقسم من هذا الجيش بما يملكه من جنود مدربين وكوادر مؤهلة وآليات مدرعة ودبابات واسلحة ثقيلة ومدفعية . اما العامل الثاني ، فيتمثل في التناقض الذي وقع بين حلفاء الامس الذين كان من المفترض ان يكون تحالفهم استراتيجيا طويل الامد (دمشق من جهة ، والثورة الفلسطينية والحركة الوطنية التقدمية اللبنانية من جهة اخرى) ، وما رافق هذا التناقض من صدامات دامية . وبفضل الاضافة الكمية والنوعية الى قوى « جبهة الكفور » والتشتت الاستراتيجي الذي اصاب « جبهة الثورة الفلسطينية ـ الحركة الوطنية اللبنانية » ، تبدل ميزان القوى ، واصبح بوسع الكتائب وحلفائها وضع مخطط مهاجمة مثلث « تل الزعتر ـ جسر الباشا ـ النبعة» موضع التنفيذ .

وعلى اساس ميزان القوى الجديد حشد حزب الاحرار وجيش بركات قواتهما لشن الهجوم في ليلة ٢٢ ـ ٢٣ حزيران على مخيمي جسر الباشا ، وتل الزعتر ، ولم تلبث الكتائب وبقية قوى « جبهة الكفور » ان انضمت الى الهجوم وسقط المخيم الاول في ليلة ٢٩ـ٣٠ حزيران ، وتابع المهاجمون الضغوط على مخيم تل الزعتر من عدة محاور . وكان المنطق الذي حكم تفكير قادة الهجوم على تل الزعتر ، بعد ان حشدوا حوله منذ منتصف حزيران ١٩٧٦ قوات كبيرة من المشاة والمدرعات والمدفعية، يعتمد على القاعدة العسكرية القائلة : **« عندما يتعرض موقع دفاعي للتطويق من جميع الجهات ، ويغدو جزيرة صغيرة في بحر من القوات المهاجمة المتفوقة عدديا وتسليحيا ، ويتعذر امداده عن طريق الجو او فك التطويق بهجمات معاكسة خارج الطوق او من داخله ، يصبح هذا الموقع ساقطا او برسم السقوط »** .

وساعد هذا المنطق على الترسخ تفوق القوات المحتشدة عدديا بنسبة لا تقل عن ٣ الى واحد ، وامتلاكها لوسائط دعم ناري قوية ، وقدرتها على زج قوة نار وصدمة تضم حوالي (١٠٠ـ١٢٠) دبابة وعربة مدرعة ، وتمتعها بزخم نفسي حاقد ناجم عن الاسلوب السلفي المستخدم للتعبئة المعنوية المعتمدة على الايديولوجية الطائفية المتخلفة التي تخاطب الغرائز لا العقل

ولهذا كله كان قادة الهجوم موقنين من القدرة على تحقيق النصر الحاسم والسريع ، فرسموا خطة المعركة ، واعدوا في الوقت نفسه البيانات العسكرية التي ستذاع بعد نجاح الهجوم الذي كان من المنتظر ان يحقق اغراضه خلال يومين او ثلاثة ايام على ابعد تقدير .

ولقد حكم هذا المنطق نفسه تفكير العديد من المراقبين العسكريين والسياسيين خارج المخيم منذ ليلة ٢٢ - ٢٣ حزيران ، وخاصة بعد البيانات المتفائلة التي اصدرها المهاجمون في يومي ٢٣ و ٢٤ ، واعلنوا فيها ان قواتهم تتقدم وتكسب المواقع ، وان معنوياتها عالية، « وليس امام المدافعين سوى الاستسلام ! » . ولم يستطع احد من المهاجمين او المراقبين ان يفسر انذاك بيان قيادة الدفاع عن المخيم حول « تطويق المخيم من جميع الجهات بقوات كبيرة وتعرضه لهجوم قوي ، واستعداده رغم ذلك للصمود » . اذ ليس من المعقول ان تستطيع قوة محدودة ومعزولة ادارة المعركة الدفاعية بنجاح ولمدة طويلة طالما ان قواها البشرية ومخزونها من المؤن والذخائر والمواد الطبية ينقص يوما بعد يوم ، في الوقت الذي يستطيع المهاجم بتجديد قواته ومدها بالرجال والسلاح والمؤن والذخائر بشكل لا ينقطع .

وهكذا حاكم الكثيرون معركة تل الزعتر في ايامها الاولى في ضوء منطقهم. ولكن المدافعين عن المخيم كان لهم منطق اخر . اذ لم يكن المخيم المطوق مجرد موقع ينبغي الدفاع عنه حتى اخر طلقة واخر رجل فحسب ، بل كان بالنسبة اليهم ايضا « منارة » لا بد من بقائها مضيئة اطول مدة ممكنة ، حتى تقرأ الاجيال العربية في ضوئها ملاحم الصمود ، وتتعلم في مدرستها حقائق الدفاع ، وتعي قدرة الانسان العربي على صد الهجمات المتفوقة عندما تتوفر لدى قياداته ومقاتليه الارادة على تحدي المستحيل.

وقدر اكثر المراقبين تفاؤلا ان ميزان القوى يفرض على المدافعين اللجوء الى الدفاع الثابت الذي يوقف المهاجمين ويكبدهم خسائر متراكمة تحد من اندفاعهم وتساعد المدافعين بالتالي على الاحتفاظ بمواقعهم . ولكن القيادة السياسية - العسكرية في المخيم لجأت الى اسلوب دفاعي ارقى ، فلم تكتف بالدفاع الثابت الذي يجمد القوة المحتشدة امامها ، بل لجأت الى الدفاع الهجومي ، وشنت (رغم اختلال ميزان القوى) هجمات معاكسة متكررة، كانت تسترجع على اثرها المواقع المفقودة في المكلس ، ومنطقة المصانع ، وتلة المير ، ورأس الدكوانة ، وحرش ثابت . وتطارد المهاجمين المنسحبين وتهاجم قواعد انطلاقهم . وهنا امتزج الصمود في الدفاع مع الاقدام في الهجوم المعاكس. واضطر المهاجمون الى زج المزيد من القوات للهجوم ، وتحول المخيم من موقع محاصر يدافع عن نفسه الى نقطة اجتذاب واستنزاف للقوات المهاجمة ، وبدأ الفراش يحترق على المصباح المضيء، وطالت المعركة الضارية وسط دهشة المهاجمين والمراقبين على حد سواء ، وبقيت الراية خفاقة فوق هذه المدرسة الدفاعية .

ولقد زاد من اهمية قتال المدافعين وبريقه واعطاه سمة بطولية واضحة ، ان المهاجمين الذين اذهلتهم بطولة الدفاع والخسائر البشرية والمادية التي

اصابت قواتهم خلال الهجمات المتعاقبة، كانوا بحاجة ملحة الى تحقيق نصر عسكري باي ثمن حتى يرفعوا معنويات قواتهم ويغطوا باحتلال المخيم الاثر النفسي السلبي للخسائر الضخمة التي لحقت بهم وخلقت تذمرا بين صفوفهم لهذا جرى دفع المزيد من القوات الى المعركة بشكل جعل التفوق العددي والتسليحي ساحقا . وزاد من ضخامة حشد المهاجمين تنافس تنظيمات « جبهة الكفور » على ارسال قواتها الى منطقة القتال بشكل يضمن وجودها الكثيف في المعركة ، ويدعم بالتالي موقعها داخل جبهة الكفور نفسها وبين صفوف الجماهير المارونية المخدوعة بالدعاية الطائفية.

لكن التفوق المتزايد جوبه بتصاعد الصمود . وبقي مقاتلو المخيم يحاربون ببطولة حتى بعد ان تقلصت الارض التي يسيطرون عليها الى حدود المخيم نفسه وحتى بعد أن اصبح كل شبر من ارض المخيم مزروعا بالقنابل والصواريخ وازدادت الازمة التموينية حدة واصبحت مسألة انقاذ مئات الجرحى معضلة تضغط على قيادة المخيم بعنف قبل ان يتدخل الرأي العام العالمي والصليب الاحمر الدولي لاخلاء الجرحى ابتداء من ٣ آب (اغسطس) . ولا يمكن تفسير هذا الثبات المذهل في الظروف التي احاطت بالمعركة الا بالعوامل التالية :

١ ــ الاستعداد القتالي الجيد ، وارتفاع مستوى المقاتلين والقيادات في مجال المهارات العسكرية .

٢ ــ الاعداد الكامل لمسرح المعركة الدفاعية تكتيكيا ولوجيستيكيا وتحصينيا

٣ ــ تحلي المدافعين عن المخيم بقوى معنوية هائلة ناجمة عن التوعية المستمرة المسبقة ، والقناعة المطلقة بعدالة الحرب التي يخوضونها .

٤ ــ الصمود النفسي لدى سكان المخيم ، وتحليهم بالانضباط الذاتي ، والتفافهم حول طليعتهم المسلحة.

٥ ــ الحزام الناري الذي اقامته الوسائط النارية للقوات المشتركة وجيش لبنان العربي (اساسا) حول المخيم بعد ان تعذر عليها فك التطويق لاسباب ذاتية وموضوعية اهمها التشتت الاستراتيجي الذي تحدثنا عنه من قبل.

٦ ــ المجازر التي ارتكبتها (القوات اللبنانية) في المعارك السابقة (المسلخ، الكرنتينا ، ضبية ، ضهور الشوير ، جسر الباشا ، النبعة) ضد السكان المدنيين واسرى (القوات المشتركة) وجرحاها ، وانعكاس هذه المجازر على معنويات المدافعين بشكل جعلهم يلجأون الى القتال المستميت.

٧ ــ خلل المخطط التكتيكي الذي تبناه المهاجمون لادارة المعركة باسلوب الاكورديون « الضغط والتوقف والانسحاب للتحشد ومعاودة الضغط»، بدلا من ادارتها باسلوب ضربات المطرقة المتعاقبة « الضغط المستمر على محور المزق بشكل مستمر ومتعاقب، مع زج الاحتياط بالتالي لاستغلال النجاحات

الجزئية المحققة في الهجمات السابقة والانطلاق منها في هجمات لاحقة تحقق نجاحات جزئية جديدة يؤدي تراكمها الى تحقيق النجاح النهائي » .

ويدفعنا صمود مقاتلي تل الزعتر واقدامهم لان نتساءل : ماذا كان بوسع العرب في العصر الحاضر ان يقدموا الى التاريخ العسكري والقيم الحربية السامية لو ان كل موقع من مواقعهم صمد كتل الزعتر ؟ وما هو الشكل الذي كانت ستدور به الحروب العربية ـ الاسرائيلية ، لو ان كل موقع وتل وقرية تحول في هذه الحروب الى نقطة اجتذاب واستنزاف تتابع القتال حتى اخر طلقة ، وحتى بعد اعلان الخصم عن سقوطها ؟ لقد اعلن مهاجمو تل الزعتر اكثر من مرة أن المخيم قد سقط ولكن الاعلان الناجم عن الرغبة الذاتية شيء والحقائق الموضوعية على ارض المعركة شيء اخر . وكل البيانات المدبجة في برلين عن سقوط ستالينغراد في العام ١٩٤٢ لم تؤد الى سقوط المدينة ولم توهن عزائم المدافعين عنها ، ولم تمنع المارشال فون باولوس و٢٣ من جنرالاته و٩١ من جنوده من الوقوع في الاسر في ٣١ـ١ـ١٩٤٣ .

ورغم وضوح عدم فك الحصار عن المدافعين ، فقد بقيت « منارة الصمود والاقدام » مضيئة في تل الزعتر خلال ٥٢ يوما تعرضت فيها لسبعين هجوما مركزا . واذا كان المهاجمون قد احتلوا المخيم في ١٢ آب ، فانهم لن يستطيعوا ان يمسحوا من وعي هذه الامة وتاريخها ان هذه المنارة بقيت واشعت، وخلقت الاسطورة ، وكشفت وسط نار المعركة معدن الانسان العربي المقاتل وفتحت اعين الجميع على الامكانات الكامنة في امة العرب وجسدت الفضائل الحربية النادرة لهذه الامة ، وحولت هذه البقعة المحدودة من ارض لبنان الى مدرسة لكل العرب ، تماما كما تحولت « قلعة بريست » الحدودية الى مدرسة لكل الشعب السوفياتي ، بفضل صمودها ٣٠ يوما امام قوات المارشال النازي فون بول في حزيران وتموز ١٩٤١ رغم تطويق العدو لها من جميع الجهات والتغلغل وراءها مئات الاميال .

هكذا قدم المدافعون عن تل الزعتر دماءهم ثمنا لخلق ملحمة بطولية عربية يفاخرون بها العرب والعالم . وكانت الهجمات المتكررة والمتفوقة « حجر المحك » الذي اعطاهم الفرصة لاظهار صلابة معدنهم . وبخلق الملحمة تحول تل الزعتر من ارض لبنانية مجهولة الاسم الى ثروة عربية وجزء من التاريخ العسكري العربي المعاصر ، بعد ان غسلت كل صخرة وبيت وحبة تراب فيه بدم عربي طاهر ، وغدت رمزا للصمود والفضيلة العربية ، وشاهدا ملموسا على ان لدى الامة العربية من الامكانات ما يؤهلها لان تبدل وجه المنطقة وان تحول اتجاه الصراع ضد الصهيونية نحو النصر .

وكان من المفروض ان يفهم المهاجمون هذه الحقيقة ، وان يعوا ان كل مقاتل في تل الزعتر يشكل بحد ذاته رمزا ، وان يقدروا مغزى البطولة ـ الاسطورة عندما استطاعوا احتلال المخيم ، وان ينحنوا باجلال وتقدير امام كل مدني واسير وجريح . وكان من المفروض ان يثمنوا الصمود في تل الزعتر كما ثمن المارشال رومل صمود حامية بير حكيم فليس هناك من يقدر البطولة مثل المقاتل الحقيقي الذي يحترم الخصم الشجاع الذي يؤسر وسلاحه بيده ، ولا يحتقر سوى الخصم الجبان الذي يولي الادبار ويمنحه نصرا سهلا رخيص الثمن .

الازمة اللبنانية : افكار واقتراحات

الدكتور كلوفيس مقصود

لا بد من ربط المأساة الحاصلة في لبنان بأبعادها العربية والدولية حتى يتسنى لنا أن نعي معانيها ، ونتمكن من الخروج من نتائجها السلبية والمكبلة ٠

الا ان هذا الربط المطلوب النفاذ اليه ببصيرة واعية ومسؤولة ، لا يجب ان يخفي عنا ان التركيب العامودي الطائفي لنظامنا اللبناني جعل مجتمعنا مستباحا لمن خططوا اصابة مقاتل عديدة في الواقع العربي باسره ٠ ومن هنا يتعين علينا ان نسابق الزمن من اجل دفع المزيد من الاسى والتمزق والضياع حتى نتمكن من ايجاد المناخ الملائم لاعادة الترميم والبناء والسلام الهادف ٠

ان اعداء لبنان والفلسطينيين والعرب بشكل عام وجدوا ان التقسيم الطوائفي جعل الجسم السياسي اللبناني مرتهنا بنخب تقليدية طائفية تعايشت فترة وتصارعت زمنا الا انها كلها من خلال حكمها وتحكمها عملت على اخراج كل العلاقات العضوية والافقية بين المواطنين عن ما سمي بالشرعية٠ اذ ان مثل هذه العلاقات التي تؤمنها في ظروف لبنان العلمانية الديمقراطية كان من شأنها ان تجعل لبنان بمنأى عن التفكك الكامن في النظام الطائفي وان تعطيه المناعة اللازمة لجعله مساهما في قضايا المصير ٠ من هنا فان نشوء العلاقات العضوية الوطنية المتجاوزة للعلاقات الطائفية المتخلفة اخذت تفرز قيادات لبنانية جديدة ومجددة أخافت النخب التقليدية . فما كان من هذه الاخيرة الا ان ادخلت اللبنانيين في معارك وحوارات من شأنها تكريس القواعد الطائفية التي ترتكز اليها ، وحرفت المواطنين عن اولوياتهم الحقيقية في مجالي التطور الاجتماعي العام والمسؤولية الوطنية التي تستوجبها مجابهاتنا مع التحدي الاسرائيلي ٠

نشير الى هذا الوضع الداخلي لانه هو الذي افسح في المجال لقراءة مخططي مآسينا لنا ٠ فالنظام اللبناني كما كان قائما كان ديمقراطيا بالشكل وليس بالمضمون ٠ لم يكن هناك توازن بين السلطات وبالتالي كان النظام يفتقد معالم المحاسبة المطلوبة ٠ من هنا تراكمت الاخطاء فما كان يسمى

بالنظام الحر صار في الحقيقة نظاما متسيبا ، فكانت قراءة مخططي مآسينا قراءة صحيحة ، وجدونا بدون روابط عضوية صلبة فقرروا قبل نضـــوج مناعتنا المجتمعية والوطنية ان يجعلوا منا ساحة لتصفية القضية الفلسطينية وساحة لتصفية حسابات التناقضات العربية ومجالا لتصادم اراداتها وموقعا بالتالي لافقاد العرب توازنهم ووعيهم للاولويات ، ونزيفـــا لمصـــــداقيتهم وفعاليتهم الناشئة والمتوقعة في المجالين السياسي والاقتصادي ٠

ليس هنا المجال لشرح مقدار التشابك بين ترهل النظام اللبناني والمآساة التي نحن فيها منذ اكثر من سته عشر شهرا ، الا انه لن نتمكن بدون هــذا الادراك من ان نستعيد المقدرة على وقف استمرار التدهور والانهيار ٠

ولعلي ، استطرادا ، اشير الى اهمية حرية الكلمة التي طالما اشـرنا الى ان عدم المسؤولية في استعمالها يجعلنا كما جعلتنا سـريعـي العطـب، وعدم احترام قدسيتها من شأنه ان يشحن المواقف المتشجنـــة ويحـول دون حوار العقول وعدم احترام حرمة الكلمة طيلة السنوات الماضية من قبل معظم الساسة التقليديين والنخب المتحكمة ـ حتى لا نقول جميعهم ـ ساهم فــي ايصالنا الى الوضع الذي اصبح التوجه الى الغرائز البدائية والعشائرية اسهل بكثير جدا من التوجه الى العقل ٠ المهم ، حتى ولو جاء ذلك متأخرا، ان نعيد الى الكلمة مسؤوليتها وحرمتها ٠ فالعالم يتابع ما نقوله وما نصرح به وما نعلنه ٠ لانه على اساس ذلك يكتشف جدية قدرتنـــا علـــى تجـاوز مأساتنا ، او يبقى على رأيه باننا اصبحنا مدمنين على استنزاف ذاتنا ،حتى يكاد يحكم علينا العالم الان والاجيال اللاحقة بنا باننا قمنا بحرب بلا هدف فكان السلام الذي يتبع بدون امل ٠

لذا فان التكاثر في استعمال العنف اللفظـــي هـــو الـــذي يعطـل امكانيات استشراف وضوح في التفكير الستراتيجي والمستقبلي ٠ وبـرغـم قناعتنا بان هذه الامكانيات متوفرة الا انهـــا تعيش تحت ظل من الارهاب الفكري ومن الخوف مما جعل الكثير منها يغادر او ينزوي او يتعطل ٠ فكانت النتيجة ان مواقف كثيرة تؤخذ وتعلن وهي لا تنطوي على الكفـــاية مـــن المعلومات ومن التحليل ومن التصور لما قد تحمله هذه المواقف مـــن مردود عكسي ومن مجازر جعلت حربنا الراهنة من اوسخ الحروب واحقرها ٠

الا ان هذا الواقع المريض للنظام اللبناني وحتميـة سقـوطه وسـرعة عطبه وعفونته ، لا يفسر هذا المستوى من الاقتتال وهذا الاستمرار لهـــذه المدة في التصعيد الاقتتالي ٠ من هنا تجيء عملية الربط المطلوبة ٠

منـــذ انتهاء حرب تشرين عـام ١٩٧٣ ادرك العالم ان العـرب وان لم

يحققوا انتصارا بمعنى الحسم ، الا انهم هزموا هزيمة عام ١٩٦٧ · وكانت النتيجة أن استعاد العرب ثقتهم بانفسهم وكسبوا لانفسهم مصداقية جعلت العالم يرشحهم لان يلعبوا ادورا مسؤولة وضخمة في المعادلات الستراتيجية وفي المجالات المالية والاقتصادية · كما ان التضامن العربي اوضح ما يمكن للعرب ان يفعلوه خاصة اذا ما طوروا التعاون الى تنسيق او وحدة ·

على اثر هذا التطور اخذت اسرائيل تدرك حدود قوتها كما ظهرت فيها بوادر الشك بجدوى التزمت في صهيونيتها · وككل الكيانات العنصرية والاستعمارية ربطت نجاح العرب في ردعها باحتمال قدرة العرب المستقبلية على تقويض كيانها الصهيوني وافشال كل مخططاتها العنصرية والتوسعية والعدوانية ·

وادركت الولايات المتحدة ان موازين قوى جديدة اخذت تنشأ في المنطقة العربية وكان لا بد من تطويق مثل هذه الاحتمالات · من هنا برزت معالم الخطة الاميركية التي تجلت في سياسة الخطوة خطوة والتي ادت في نتيجتها المنطقية الى عقد اتفاقية سيناء الثانية · ماذا كان التصور الاميركي في هذا المجال ؟ ان معالم الخطة الاميركية كانت تستهدف باختصار الامور التالية :

اولا ـ اعطاء اسرائيل الفرصة لاعادة ترميم ثقتها بنفسها من جراء الصدمة المحدودة التي اصابتها بعد حرب تشرين · جاءت سياسة الخطوة خطوة تعمل على عزل مصر ـ الدولة العربية الاكبر والاهم ـ عن مجالات الفعل في الساحة العربية ·

استتبع هذا بالضرورة تنشيط علاقات ثنائية بين دول عربية والولايات المتحدة تترجح على العلاقات القومية بين الدول العربية واكثر من ذلك فقد قصدت سياسة كيسنجر ان لا ينشأ اي تنسيق مقبل بين دول المجابهة ، وان تكون كل التوجهات نحو التسوية مفصولة عن بعضها من حيث التنسيق ومن حيث التوقيت· هذا ما ادى الى تصدع المحور السوري ـ المصري رغم التزامهما المشترك بنفس القرارات الاساسية المتحكمة بالتسوية للنزاع العربي الاسرائيلي· لذا فان تفاقم القتال واستمراريته في لبنان يفسر الى حد كبير بكونه انعكاسا لهذا النزاع الحاد مرحليا والمصطنع جوهريا ·

ثانيا ـ ارادت دبلوماسية الملوك التي اعتمدها كيسنجر تنشيط الدور المركزي للولايات المتحدة في تقرير مصير المنطقة ، مما ادى الى تمكينها من تسيير تطورات المنطقة بما يزيد حتى عن توقعاتها · وما اسهم في اضعاف مواقفنا وتمييعها في سائر المجالات وعلى كافة المستويات · ان افقادنا لانفسنا

مركزية التوجيه لمصائرنا مرحليا على الاقل حتم على الثورة الفلسطينية ان نتدارك النتائج السلبية لمثل هذا التمركز الاميركي في تحريك الكثير من عناصر المنطقة ، وقد ادى هذا التدارك الفلسطيني الى اخذ خط مخالف ، وبعض الاحيان ، متناقض مع توجه انظمة المجابهة بحيث وثقت الثورة علاقاتها بالعالم الثالث وبالمعسكر الاشتراكي وبالقطاعات التقدمية في العالم · اكثر من ذلك كان لا بد للثورة من ترسيخ استقلاليتها الذاتية لان هذه الاستقلالية ضرورية لحماية مكاسبها الدولية والقومية وحمايتها من الابتلاع بنمط من التطور يسقط بالنتيجة الحقوق الوطنية والتاريخية والشرعية للشعب الفلسطيني ·

من هنا كان لا بد من السعي لاستدراج المقاومة الفلسطينية الى معارك سعت ما استطاعت الى تجنبها ، لانها وعت ان الحرب النفسية التي واجهتها ولا تزال تواجهها في لبنان انما تستهدف صرفها عن مهامها الاصيلة من خلال وضعها بين فكي كماشة ـ احداهما العدوانية الاسرائيلية من جهة ، والتأجج الطائفي الذي عمل على جعل مفهوم السيادة اللبنانية قائما على مجابهة الفلسطينيين بدلا من مجابهة الاسرائيليين ، من جهة ثانية ·

ويعود استمرار الازمة والتقاتل ايضا الى كون دول المجابهة وانظمتها سلمت بنسب متفاوتة بتوجيه مقدرات المنطقة الى الولايات المتحدة · واذا ادركنا مدى ترابط وتحيز الولايات المتحدة لامن اسرائيل . بموجب مقاييس اسرائيل ، لادركنا مدى صدق مخاوف الفلسطينيين على مكاسبهم وحقوقهم . وسبب اصرارهم على الاستقلالية وسط واقع عربي يتخلى تدريجيا عن التزاماته باهدافهم المشروعة وحقوقهم المهضومة ·

ثالثا ـ تعمدت الدبلوماسية الاميركية ادخال العرب في حوار مغلوط مع انفسهم بحيث جعلت التنمية الوطنية لمختلف الاقطار العربية مرهونة بمقدار تضاؤل التعبئة القومية للمجابهة · فكان من نتائج هذه السياسة ان تأمنت المصالح الاقتصادية الاميركية خاصة في مجال التأمين البترولي ـ وخاصة وقد اصبحت السعودية اكبر مصدر للنفط المستورد للولايات المتحدة ـ مما جعلها تدفع السعودية الى ان تلعب دورا في المنطقة كانت مصر بحكم موقعها وضخامتها مؤهلة اكثر له ·

هذا بدوره يفسر الى حد كبير ارتباط التحرك العربي وعدم قدرة الاقطار العربية على الحسم بموضوع لبنان ، وبالتالي يفسر العجز العربي الراهن امام مأساتنا وكون القرارات التي اتخذت لم تكن **من المستوى المطلوب** ـ اي القمة ـ وبالمستوى المطلوب ·

رابعا — بعدما امنت الولايات المتحدة اهدافها الرئيسية — اي توجه انظمة المجابهة نحو التسوية بموجب مركزية الاولويات الاميركية ، وتأمين الحاجات النفطية وتأمين الامن الاسرائيلي بالمفهوم الاسرائيلي له من خلال تفكك القوى المباشرة للمجابهة وانحلال العلائق القومية للعرب بصورة علمة ، صارت الازمة اللبنانية ومأساة لبنان بالنسبة اليها ولستراتيجيتها العامة مسألة ثانوية لا تثير اهتمامات اساسية ٠

وكان من جراء ذلك ان تمادت القوى المتربصة بوحدة لبنان الحقيقية وبالقضية الفلسطينية في عملية انقضاض غير مردوعة فعليا من جراء الانحلال القوي في الساحة العربية ومن جراء الاكتفاء الاميركي باجترار الالتزامات الشكلية بوحدة لبنان وسيادته ٠

ثم جاء دخول الجيش السوري الى لبنان ليعطي كفة القوى اليمينية رجحانا يجعلها ممعنة في عملية الانقضاض دون ان تردعها ارادة عربية واضحة او قرار عربي حاسم ، وبرغم انه يوجد لدى جميع الاطراف اقرار بأن لسوريا دورا خاصا ومتميزا في الازمة اللبنانية من حيث جغرافيتها ومقتضيات امنها (وكان هناك لدى المقاومة الفلسطينية وكل القطاعات اللبنانية الوطنية باستمرار حرص على هذا الدور) الا ان هذا لم يكن ليعني التسليم بدور مستأثر او هيمنة او سيطرة ٠ وكان رفض سعي سوريا الى الاستئثار نابعا — وخاصة في ظروف المنطقة الراهنة — من ضرورة المحافظة على استقلال لبنان ووحدته وعلى قدرة المقاومة الفلسطينية على ممارسة استقلاليتها الذاتية وحريتها في الحركة وسط التناقضات العربية المخيفة وحريتها في تحريك الجماهير العربية التي هي احتياطها الطبيعي ومداها الحيوي ٠

على ضوء هذه العناوين لمعطيات مأساتنا المتفاقمة لا بد لنا من التساؤل عن المخرج من هذا المأزق المدمر ٠

بادىء ذي بدء لا بد من الاقرار بأن خروجنا من المأساة لن يكون للاسف قفزا بل تدرجا ٠ وحتى نضمن عملية الخروج لا بد من تحديد مراحل الخروج والخطوات الفورية والمرحلية والمقبلة المطلوبة ٠ اكثر من ذلك وبالنظر للتعقيدات والظروف المتشعبة والاقتتال المتفاقم فانه مطلوب لا ان **نمرحل** الخطوات والاجراءاتبموجب جدول زمني بل ايضا ان تتواقت — اي ان تجيء بنفس الوقت — اجراءات عربية وسورية وفلسطينية ، وفلسطينية لبنانية ، ولبنانية لبنانية ٠

من هنا ضرورة الدقة في التعبير والوضوح في التفكير وعدم اللجوء الى

استسهال الحلول · نقول هذا ونحن نعي مدى الارهاق الذي اصبنا به والذي لا بد ان يلازمنا الى وقت يطول او يقصر بمقدار وضوح الرؤية فيما نريد وفيما لا نريد ·



على ضوء ما تقدم لا بد من التقرير انه في المراحل القادمة لا يمكن لنا معالجة الازمة المأساة من خلال مسببيها · كما انه لا يمكن ولا يجوز ان تبقى أو تترسخ المعادلات الطائفية التي كرست التمزق ، ولم تكن صيغ الميثاق الوطني، سوى غطاء لهذا التمزق في الجسم اللبناني وعقدا اوضحت الازمة المأساة كم كان جهنميا لضمان توارث الزعامات الطائفية التقليدية ·

يتشكل عندنا اذن قناعة كاملة في ان وقف اطلاق النار لن يتحقق بالمستوى المطلوب ما دامت معظم القيادات التي افرزها التركيب العامودي الطائفي منذ نصف قرن تدرك ان اي وقف حقيقي لاطلاق النار واحلال سلام حقيقي في الربوع اللبنانية سوف يؤدي الى محاسبة عسيرة لهذه القيادات ، لا من قبل جميع اللبنانيين فقط بل من قبل محازبيهم المشحونين باهداف مستحيلة التحقيق ، واوضاع نفسية خائفة حولتهم الى وقود بشرية لمآرب استمرار هذه الزعامات ·

فمن حيث أن وقف اطلاق النار اصبح مطلبا ملحا للغاية لمنع المزيد من التفتيت ومن التمزق والدمار ، فان وقف اطلاق النار يجب ان لا يقتصر على مجرد رغبات معلنة بل على اجراءات محددة مصدقه ومضمونة · من هنا فان الطلب الملح بشأن زيادة قوات الامن العربية حتى تصل على الاقل الى نحو ثلاثين الف جندي من مختلف الدول · نقول هذا لانه ليس مهما ان نحقق وقفا **متقطعا** للقتال والاقتتال ، بل يساهم في احلال فترة نقاهة يمكن للبنانيين اثناءها التخطيط للسلام الحقيقي · ان مضاعفة قوات الامن العربية الى الحد الادنى المقترح يستوجب بالضرورة قرارا عربيا حاسما وملزما ، من هنا فان مؤتمر قمة عربي اصبح لا حاجة لبنانية وفلسطينية فحسب بل حاجة عربية اولا· ·

في هذا الصدد لا بد من ان نقرر ان التلاشي العربي والانحلال الذين ظهرا في الواقع العربي والذي جعل الدول العربية تتردد وتتقاعس وتقف وكأنها مشلولة امام المأساة الحاصلة في لبنان ، افقدنا كعرب كل ما حققناه من هيبة وما توقعه العالم من جدية والتزام وما تصوروه من جدية في معالجاتنا لقضايانا المصيرية ولالتزاماتنا القومية ·

والدليل الاخير على هذا الانحدار في درك الصرف العربي تجاه مأساة لبنان هو ، بالاضافة الى التأخير المعيب في انعقاد مؤتمر قمة ، هذا التعثر والعشوائية بين صيغة مؤتمر قمة شامل او مؤتمر قمة رباعي ·

ومهما قيل في فوائد قمة مصغرة ، من حيث قدرة هذا المؤتمر على حصر البحث بموضوع لبنان ، فان الهدف من هذا الحصر هو جعل التسوية للازمة اللبنانية ــ اللبنانية وللمعادلة اللبنانية ــ الفلسطينية **متناغمة** مع توجه انظمة دول المجابهة ــ والدول النفطية (السعودية والكويت) نحو التسوية بموجب الصياغات الاميركية العامة ·

من جهة اخرى فان ما شاهدناه من لا مبالاة فعلية طيلة هذه المدة من مأساتنا من الدول العربية يجعل جدوى مثل هذا الاجتماع ضيئلة امام مزالق مؤتمر قمة عربية مصغرة ومخاوفنا الحقيقية منه ، وامام ضآلة توقعاتنا من مؤتمر قمة عربي شامل · فاننا ازاء ما يحدث في لبنان من مجازر على كل المستويات ، وما يحدث في المنطقة من اختلال حقيقي في موازين القوة لصالح العدو الاسرائيلي نؤيد السرعة في **اجتماع قمة عربية ما** · ولعله امام هذا البطء في التحرك العربي وامام مقتضيات السرعة المطلوبة لتدخل عربي جماعي لوقف النزيف الجنوني في جسمنا السياسي ــ وفي عقلنا السياسي ايضا ــ نرى لزاما ان نقترح كاجراء ذرائعي **جعل مؤتمر القمة المصغرة مفتوحا** للدول العربية الراغبة في المشاركة ، حتى يأتي القرار **باسرع ما يمكن** وباقرب وقت ممكن خاصة وان عددا من الدول العربية ابدى استعداده للمشاركة ·

ولا بد لقرار مؤتمر القمة المنوي عقده ان يؤمن بالنسبة للوجود العسكري السوري مسألتين هامتين:جدولة الانسحاب الكامل من لبنان بموجب مراحل زمنية تبدأ باحلال فوري لقوات امن عربية في مناطق صوفر وجزين ومن ثم التدرج نحو ما يلزمه قرار القمة في هذا الصدد · ولا بد في هذا المضمار من ان تكون هناك مشاركة سورية مهمة في قوة الامن العربية يضمن دورها المتميز ويلغي دورها المستأثر والمتحيز ·

ولا بد مع هذا ان يتم الاعداد لقيام مؤسسات الدولة ــ لا لعودتها ــ من خلال ادخال تعديلات جذرية في النظام يتضمن وحدة لبنان العضوية وسيادته الكاملة ، وتوجها لمعالجة القضايا المعلقة والمستجدة اثر معاناة استمرت اكثر من ستة عشر شهرا · من هنا لا بد من ان يلازم قرار القمة قرار يتعلق بالاجراءات المالية والاقتصادية الكفيلة باعادة الحياة الطبيعية بعد ان دفع لبنان ثمنا غاليا للكسل العربي في معالجة تناقضاته ، وعلى المستوى اللبناني لا بد من مباشرة الحوار السياسي الهادف انطلاقا من قواسم

مشتركة اصبحت معروفة ٠

كل هذا منشأنه بالطبع أن يرسي معادلة العلاقات الفلسطينية ـ اللبنانية على اسس من الثقة بأن الدولة اللبنانية الخارجة من انقاض المأساة هي في خندق واحد مع الثورة الفلسطينية في مجابهة العدو المشترك ٠ ولا بد من ان تكون اتفاقية القاهرة وما تبعها من ملاحق (هي محصلة معاناتنا المشتركة) اساس العلاقة القائمة على الثقة المتبادلة ٠

ولا بد من التذكير في هذا الصدد بأنه يتوجب علينا ان نستمر في في مساعينا الجادة لتوسيع اطار الجبهة العريضة على اسس تصورات وقناعات مشتركة ٠ وفي هذا المجال لا بد من الخروج من دائرة التقوقع المذهبي من جهة والانفلاش التقليدي من جهة اخرى ٠ كما يتوجب في هذا المضمار الاقرار بانفتاح الحركة الوطنية على الوسط اللبناني بدون تردد او تزمت او مكابرة كما ان على الوسط بدوره ان لا يتصرف وكأنه بديل محتمل تراهن عليه بعض الانظمة العربية فيتصور أن بمقدوره ان يتجاهل القوى التقدمية والعلمانية والشعبية التي اصبحت واقعا متعاظم القوة والاهمية في الجسم اللبناني ، والتي اثبتت من خلال نضالاتها المطلبية وتلاحمها مع الثورة الفلسطينية أنها مؤهلة لادخال لبنان في عملية صناعة المستقبل العربي بأسره ٠

الحرب الاهلية والحرب الوطنية

خالد جابر

تطرح الحرب الاهلية في لبنان ، مسالة نظرية بالغة الدقة · فالحروب الاهلية ليست مسائل عابرة في تاريخ الشعوب · بل هي احدى المحطات الرئيسية التي تصنع التحولات الكبرى في التاريخ العاصر · غير انها ، في الحالة اللبنانية ، ليست مجرد حرب أهلية داخلية ، بل هي امتداد للحرب الوطنية التي تخوضها الامة العربية ضد عدوها الصهيوني – الاميركي · هنا تطرح مسالة هامة : ما هي علاقة الحرب الاهلية بالحرب الوطنية ؟ في أية لحظة تاريخية تصبح الحرب الاهلية شرطا لازما لنمو واستمرار الحرب الوطنية ؟ ربما ، تقدم دراسة الحرب الاهلية في لبنان ، بكل بطولاتها ومراحلها، اجوبة أولية على هذه المسالة ·

ان النقطة الاولى التي تسترعي الانتباه ، هي كون الثورة الفلسطينية تشكل طرفا رئيسيا في هذه الحرب · والواقع ، ان هذه المشاركة ليست جديدة على الحركة الثورية الفلسطينية · فتاريخ الثورة الفلسطينية ، الى جانب كونه تاريخ صدامات واسعة مسلحة وانتفاضات جماهيرية في وجه الاحتلال الصهيوني ، هو تاريخ صراعات وصدامات مسلحة في الداخل العربي ، مع القوى الاكثر رجعية وارتباطا والتي تتحكم في سلطة كيانين عربيين ، هما الاردن ولبنان ·

ان شعار « كل البنادق نحو العدو » الذي رفعته الثورة هو شعار صحيح، لانه يركز على مسألة التناقض الرئيسي بين مجموع الطبقات والفئات الوطنية العربية وعدوها الوطني · لكنه ليس مقولة للعبادة · فهو حين يفهم كشعار تكتيكي من أجل التخلي عنه عند أول سانحة ، يقود الى حجب التناقض الرئيسي · ويغرق مسالة الخلاص الوطني في ركام من الشعارات الطفولية البراقة ، ويؤدي بأصحابه الى الوقوع في الانحراف اليميني والتبعية · أما اعتباره صنما لا يمكن المساس به ، واعتبار كل صدام مع أي نظام عربي ، وفي أي شرط ، انحرافا بالثورة عن مهمتها الاساسية فانه يقود الى الذيلية · فأي شعار سياسي صحيح ، يجب عدم التعامل معه بشكل كهنوتي · البنادق يمكن

أن توجه ، وهي توجه عمليا ضد قوى مرتبطة بالعدو ، أو ضد طبقـــات ، لها مصلحة في المساومه ، اذا كانت الثورة في مرحلة تسمـح بها لنفسها بضرب هذه القوى ، كنقطة تقدم على العدو الرئيسي . لا بد منها • ومن أجل أن توجه كل البنادق نحو العدو •

ان واقع مشاركة الثورة الفلسطينية في صراعات محلية وحروب أهلية ، يطرح ضرورة الاجابة على موضوعة علاقة الحرب الوطنية بمجمـــــوع هذه الصدامات • هل يعني شعار كل البنادق نحو العدو ، انه يجب تجنب أي صدام داخلي ومهما كان الثمن ، لانه يلهي الثورة عن مهمتها الاساسية ؟ ماذا تعني مهمة الثورة الاساسية في الشروط المحددة لتواجدها على أرض المشرق العربي، وفي كيان مثل الكيان اللبناني ؟

الحرب الوطنيـــة والحرب الاهليـــة

الحرب الوطنية ، هي في عصرنا ، نضال مسلح تخـــوضه الشعوب المستعمرة في سبيل ضرب الهيمنة الاستعمارية • وهي بهـذا المعنى شكل من أشكال الصراع الطبقي على المستويين العـــالمي والداخلي : فعلى المستوى العالمي ، تقوم الحروب الوطنية ، بتوجيه الضربات للقوى الرأسمالية الامبريالية، التي تسعى الى الهيمنة والتوسع • من هنا ، فهي توجـه ضربات للبرجوازيات الامبريالية • وحين تجبرها على التراجع ، أو تفرض عليها الهزيمة في أرض المعركة المحلية ، فهي تساهم في اضعاف نفـوذها على الصعيـــد الدولي ، وتعجل في ضرب قبضتها وهيبتها وقدرتها على الاستمرار • اما على المستوى الداخلي : فالحرب الوطنيـــة ، تستدعي بالضرورة جبهـــة تحالفات لمجموع الطبقات والفئات الوطنية في مواجهـة الغزو الخارجي • هـــذه الجبهة ، لا تدخلها الطبقات والفئات الكمبرادورية الطفيلية المرتبطة بالعدو الوطني • كما ان العلاقات الطبقية داخل هذه الجبهة تتعرض لصراعات مختلفة ، حيث تحدد طبيعة المعركة والمهمات المطروحة بالاضافة الى العوامل الذاتية ، الطبقة أو التحالف الطبقي الذي يقود الجبهة •

من هنا ، تعكس الحرب الوطنية الصراع الطبقي الداخـلي كما تنعكس عليه • وتعبر في مراحلها المختلفة عن توازنات وتحـــالفات هذا الصراع • لـذلك لم تعرف الحروب الوطنية التي خاضتهــــا وتخوضها شعوب البلدان المستعمرة والتابعة ، حروبا صافية • أي مجـرد حروب تتـوجـه ضد العدو الوطني • بل فقد اختلطت الحروب الوطنية دائما بالحروب الاهليـــة • وهذا ما تشير اليه بشكل واضح تجارب شعوب الصين وفيتنام ولاوس وكمبوديا••• يشير هذا الاختلاط الى كون الحرب الاهلية ، تشكل في شروط حرب الشعب ، مرحلة لا بد منها في سبيل ترسيخ التحالف الوطني بقيادة القوى الطبقية الاكثر

جذرية · ولم يسبق أن رفض الثوريون ، وهم يشاركون في حرب الدفاع عن الوطن ، الانخراط في الحروب الاهلية ، عندما تأتي كقفزة الى الامام في سبيل انجاز المرحلة الوطنية الديمقراطية · واذا كان المثال الجزائري يعطى عـــادة كنقيض لهذا التحليل ، فان الحرب الوطنية الجزائريـــة لا تخرج عنه الا في خصوصية حربها التي كانت توجه أساسا ضد الاستعمار الفرنسي الذي يتهاوى في العالم بأسره · لذلك لم تنفجر الصراعات الداخلية الحادة (رغم ان الجزائر عرفت خلال الحرب دعوات وممارسات التعاون مع المحتل) الا عشية النصر ·

يقودنا هذا التحليل الى مجموعة حقائق :

١ ـ ان النضال الوطني ضد العدو الرئيسي ليس نضالا مستقيما دائما، بل هو نضال متعرج · فالتناقض الرئيسي مـع العدو الصهيوني ـ الاميركي ، لا يعني ان جميع التناقضات الثانوية يمكن حلها بالحوار · بل قد تصل احداها، وفي مرحلة معينة ، الى مرتبة تناقض رئيسي يجب حسمه بقوة السلاح ·

٢ ـ تستدعي الحرب الوطنية ، الحروب الاهلية · فاقامـة جبهة وطنية متحدة ، تعني مزيدا من القدرة على الحسم مع العملاء والفئات المرتبطة بالعدو· كما تعني قدرة على فرض شكل أرقى من الديمقراطية على البرجوازية ، مـع ضرب أجنحتهـــا المترددة التي تدعو الى تقسيم صفوف الجبهـــة ، أو الى الاستسلام للعدو ·

٣ ـ ان اعتبار كل حرب أهلية ، ومهمـــا كانت شروطها ، الهاء للثورة الوطنية عن واجبها الرئيسي ، تعني تسليم رقبـــة الجماهير للذبح على أيدي العملاء ومعاداة كل تقـدم تحرزه الثورة · فالحروب الاهليـــة في الشرط الفلسطيني ـ العربي ، تجري ، ضمن تجزئة الوطن الواحد الى كيانات ، وفرض حكومات مرتبطة ، في شرطين رئيسيين :

أ ـ في شرط عام ، يكون فيه العدو الوطني منتصرا ، حيث يفرض التنازلات على الانظمة الوطنية ، ويدفع بعملائه وحلفائه الـــى شن حروب الابادة ضد الجماهير المقاتلة · وهذا ما جرى عمليا في الاردن عام ١٩٧٠ ، حيث كان العدو الاميركي ـ الصهيوني ، خارجا من حرب حزيران بكـــل الغطرسة التي منحه اياها نصر حزيران الرخيص · في هذه الحـــالة ، على الحركة الجماهيرية الصمود في المواقع ، والبحث عن أوسع جبهة تحالفات فـي سبيل صد الهجمة وايقافها عند حدها ·

ب ـ في شرط عام ، يكون فيه معسكر الاعداء قد تلقى ضربة تجبره على

التراجع محليا ، وحيث يكون وضعه العالمي مهتزا ٠ عندها على الثورة خوض غمار الحرب الاهلية في سبيل تحقيق تقدم ملموس داخل الجبهة الوطنية ٠ فتقوم الثورة ، بترجمه التقدم الموضوعي الى انجازات ملموسة ٠ هذه هي الوجهة الغالبة للحرب الاهلية في لبنان ٠ رغم انها تحمل انعكاسات التجزئة ، وأوزار منطق المساومة الذي يحكم تقدم البرجوازية السورية في لبنان ، حيث انتقلت الحرب الاهلية من كونها جبهة عربية واسعة ضد القوى الفاشية الانعزالية ، الى حرب أهلية عربية ٠ هذا هو قانون التطور الثوري في الكيانات، حين يرتطم هذا التطور بسقف الادارة العامة لمجمل الصراع العربي الاسرائيلي ٠

٤ ـ الثوري الحقيقي ، هو الذي لا يخشى الحرب الاهلية ، بل يسعى اليها ٠ يقول ماوتسي تونغ : « عندما لا تكون هناك هجمات مسلحة من قبل الامبريالية ، فان مهمة الحزب الشيوعي الصيني هي اما أن يخوض حربا أهلية بالاشتراك مع البرجوازية ضد أمراء الحرب (عملاء الامبريالية) واما ان يتحد مع الفلاحين والبرجوازية الصغيرة في المدن لخوض حرب أهلية ضد طبقة ملاك الاراضي والبرجوازية الكمبرادورية (عملاء الامبريالية ايضا) » ٠ (قضايا الحرب والاستراتيجية ٠ المجلد الثاني ص ٣٠٥) ٠

فالحرب الاهلية ليست شبحا يجب الخوف منه ٠ بل هي مسار تاريخي يصل فيه الصراع الطبقي الى قمته (١) ٠ فالتحالف الطبقي يتعرض داخل المعركة الوطنية الى انشطارات حتمية في داخله ، تسمح هذه الانشطارات ، وفي ظروف ملائمة ، للقوى الثورية باحراز المزيد من الانتصارات ٠ لذلك فهي تخوض الحرب الاهلية بشكل واع ولا تخشاها ، ولا تتوقف أمام همسات صغار البرجوازيين المترددين الذين لا يرون سوى المجازر ، ويكتشفون ان ما كتب في

---

(١) يقول لينين في مقاله « حرب الانصار » (المؤلفات الكاملة ٠ المجلد الحادي عشر ٠ ص ٢٢٢ ٠ الطبعة الفرنسية ـ دار التقدم ـ موسكو) : « لا يمكن للماركسي ان يعتبر بشكل عام ان الحرب الاهلية او حرب الانصار التي هي شكل من اشكالها مسألة غير طبيعية او غير اخلاقية ٠ فالارضية التي يقف عليها الماركسي هي الصراع الطبقي لا السلام الاجتماعي ٠ يؤدي نمو الصراع الطبقي خلال فترات الازمات الاقتصادية والسياسية الحادة الى حرب اهلية حقيقية ، اي الى صراع مسلح بين قسمين من مجموع السكان ٠ من واجب الماركسي في هذه المراحل أن يتخذ موقعه في الحرب الاهلية ٠ ان كل ادانة اخلاقية للحرب الاهلية مرفوضة بشكل قاطع من الوجهة الماركسية ٠ على حزب البروليتاريا ان يتخذ في عصر الحرب الاهلية الحزب المقاتل مثالا له ، وهذا امر لا يقبل الاحتجاج على الاطلاق » ٠

الكتب الرومانسية عن الثورات لا يطابق الواقع ،فيغسلون أيديهم حتى لا تلوث بالطائفية والقتل ! وينشرون التردد والتخاذل في صفوف الجماهير · الحرب الاهلية بالنسبة للثوريين ، ضرورية ، ويجب أن تتحول الى نقطة ايجابية تخدم **قضية الدفاع عن الوطن والشعب التي هي القضية الاولى للطبقة العاملة في البلاد التابعة والمستعمرة ·**

شروط الحرب الاهلية في لبنان

لم تفاجىء الحرب الاهلية في لبنان القوى الفعليـــــة التي شاركت في صنعها ، رغم ان مسارها ربما فاجأ بعضها · فجميــــــع المـؤشرات الدولية والعربية والمحلية ، كانت تشير الى حتمية انفجار الصراع المسلح على أرض لبنان ، بين الثورة والقوى الانعزالية المرتبطة · كما ان مســـار الحرب ، في ظل مشاريع المساومة مع العدو الوطني ، فرض تحولها الى حرب أهلية عربية ، وفرض الصدام بين الجماهير وقوات الاجتياح العسكري السوري المدرع :

فعلى المستوى الدولي كان التوازن المؤقت الذي أقيم في المشرق العربي بعد ضرب الاستعمار القديم قد تساقط مع حرب حزيران ، ومع الهجمة الاميركية الصهيونية الشرسة على مصر وسوريا · ولقد استطـــاعت حرب تشرين أن تعـــدل ميزان القوى بشكل فعلي ، في وقت كانت فيه القبضة الاميركية تتعرض للضربات في جميع أنحاء العالم · ان الاختلال الجديد في التوازن الذي حصل بعد حرب تشرين . أجبر الامبريالية على تقديم تنازلات جزئية في سبيل التقاط الانفاس · ان الواقع الدولي العام الذي يؤشر الى تراجع الامبريالية الاميركية لا يعني ان أظافرها قد قطعت ، أو انها فقدت جميع امكانياتها ، بل هي تتراجع وتضع في حقل تراجعها ألغاما موقوتة . وتشن هجمات وقائية ، تسمح لها وفي شروط أفضل بالهجوم العام في سبيل استعادة مواقعها ·

على المستوى العربي استطـــــاعت حرب تشرين ، عبر توجيهها ضربة حقيقية للعدو الصهيوني ، أن تجبر الامبريالية الاميركية على اعادة النظر في استراتيجيتها الشرق أوسطية · وسمحت للانظمة العربية بأن تحقق تقدما فعليا لمصلحتها في ميزان القوى في المنطقة · واذا كانت الاتجاهات المساومة قـــد استطاعت أن تفرض تراجعات ملموسة نتيجة تحكم البرجوازية بمقاليد السلطة، وتخوفها من الصدام مع العدو الاميركي ، فان الوجهة العامة التي افرزتهـــا

الحرب قد سمحت بتقدم عربي ، انعكس بدوره عـــلى الصيغـــة اللبنانية عبر محاولات الطرف الوطني « الاسلامي » اضعاف الغلبة المارونية · انعكست هذه المحاولات عبر حركات احتجاج في الشارع الوطني وصلت ذروتها في الحرب الاهلية · ان هذا هو التفسير الفعلي لقدرة التحالف الفلسطيني السوري الوطني في فرض تراجعات ملموسة على الطرف الانعزالي · أما انفجار هذا التحالف فيعود الى الصراع على افق التسوية مع العدو ، وعلى الحـــدود التي أرادت البرجوازية السورية تكبيل الثورة الفلسطينية ضمنها ، عبر تحجيمها وادراجها ضمن التصور السوري للتسوية ·

أما على المستوى المحلي فلقد تعرض التوازن اللبنـــاني لاختلال عميق نتيجة فقدان نقطة التوازن الرئيسية بين الحركة الوطنية العربية والامبريالية · فالواقع الجديد الذي انعكس ايجابيا على نمو الثورة والحركة الوطنية لم يحسم مسألة التوازن هذه ، بل شكل نقطة متقدمة في صراعاتها · من هنا ، كان قلق الدوائر الامبريالية على عملائها المحليين ، ومحاولتها شن هجوم وقائي بهم ، لم يكن بمقدورها تقديم الدعم الكافي له كي ينجح · فانتقلت الثورة والحركـة الوطنية الى الهجوم العام ، واضعة ولاول مرة مصير الكيـــان اللبناني على بساط البحث · فانفجار ١٣ نيسان ١٩٧٥ لم يكن سوى حلقـة متقدمة لاختلال عميق في توازنات المنطقة لا يمكن حسمه الا بقوة السلاح ·

في سياق الحرب الاهلية ، قدمت مجموعة من التحاليل في سبيل فهمها بشكل أفضل ، من أجل صياغة تكتيكات واستراتيجية تحقق النصر · ســوف نتوقف الآن ، عند أربعة تفسيرات تشارك بعضها في تحمل مسؤولية التراجع الذي يفرض على الحركة الجماهيرية اليوم · ان مناقشة هذه التحـاليل تدخل في صلب مهمة القوى الثورية . لان دحض الآراء الخاطئة ، واكتشاف الافكار السديدة التي هي التلخيص المكثف لتجربة الجماهير على ضوء النظرية الثورية، هو وحده الذي يسمح لنا بفهم تجربتنا بشكل ايجابي في سبيل توظيف دروس التراجع من أجل عمليات تقدم الثورة الى الامام ·

التفسير الاول : **الحرب الاهلية هي مؤامرة اميركيـة صهيونية لضرب الثورة في لبنان** تستند هذه المقولة الى فهم خاطىء لطبيعة الوضع اللبناني، ولطبيعة الصراع الدائر على أرض لبنان · ما هي المؤامرة ؟ المؤامرة هي تحرك سياسي يقوم به قبضة من العملاء · فهي قد تأخذ شكل اغتيـــالات سياسية أو عمليات ، او قد تصل الى مستوى الانقلاب العسكري · لكن المؤامرة لا تشعل حربا أهلية تشترك فيها جميع الشرائح الاجتماعية والطوائف والقوى السياسية·

ان استخدام كلمة مؤامرة ، يخفي مفهوما خـــــاطئا للصراعات الاجتماعيـة والطبقات والحروب · فالمتآمر يستطيع الدخول فــي الصراع ، أي ان اشتعال حرب أهلية يسمح للعملاء والجواسيس والعصابات بمحاولة التأثير في مسار الحرب عبر استخدام الاسلوب التآمري · تحمل هذه المقولة كـــذلك . مفهوما خاطئا لطبيعة الامبريالية · فالامبريالية التي تستطيع عبر التآمر اشعال حرب أهلية ، هي امبريالية لها قدرة غير محدودة ، وأصابعهـــــا تلعب في الخفاء وتفصل ثياب التاريخ ·

ان التركيز على الجانب التآمري وحده في الحرب الاهلية ، يقود الـــى مفاهيم وممارسات خاطئة تهمل دراسة الواقع الفعلي وتناقضاته التي فجرت الحرب الاهلية · وتعجز عن التعامل مـــــع المتآمرين الصهاينـة والاميركيين واشباههم الذين يحاولون التدخل في مسار الحرب الاهلية ·

التفسير الثاني : **الحرب الاهلية هي هجوم اميركي عام على المنطقة العربية**
ينطلق هذا التفسير ، من بعض ظواهر الواقع العربي ليعممها دون محـــاكمة . ثم يبني استنتاجاته على أساس هذه التعميمات · فهو يرى في جميع التحركات العربية قبل حرب تشرين وبعدها الاصابع الاميركية · فحرب تشرين هي حرب اميركية ، والحرب الاهلية في لبنان هي جزء من لعبة الامم التي يتقنها الساحر كيسنجر بكل براعة ·

متى كانت الولايات المتحـدة معنية بحـل أزمة الشرق الاوسط ؟ فعندما كانت اسرائيل على ضفة قناة السويس ، وموشي دايان يمـارس هواية جمع الآثار في الجولان ، كان كيسنجر يحدث وزراء الخارجية العرب عن الملفات التي تنتظر في درجه ، والتي لم يحن وقت دراستها بعـــــد . ومن بينها ملف الشرق الاوسط ·

ان الامبريالية الاميركية تتراجع اليوم في العالم بأسره · لذلك ، تحاول الامبريالية الاميركية ترتيب أوضاعها في الشرق العربي ضمن التراجع الذي فرض عليها · لكن كل تراجع يحمل في داخله امكانية للهجــــوم ، وقد يقوم بهجمات تكتيكية تمهد للانتقال من التراجع الى الهجوم · هذا هو جوهر الموقف الاميركي : تجزئة الحل ، ابتزاز تنازلات أساسية ، تعريب الصراع ، وذلك في سبيل تمهير الوضع العربي تمهيدا للانقضاض عليه من جـــديد · فالامبريالية لا تتخلى عن اسرائيل بسهولة ولا تتخلى عن المنطقة الغنية بترولیا واستراتيجيا دون أن تقاتل حتى الموت · لكنها ، تتراجع حين يفرض عليها ذلك وتستعـــد للهجوم · هذا هو التفسير الوحيـــــد للفرق الشاســـع بين براون ١٩٧٦ ومورفي ١٩٥٨ ، بين القوات الاميركية والقوات السورية · بين الهيمنة على

لبنان عام ١٩٥٨ بشكل متوازن مع عبد الناصر . وبين السماح للسوريين ولو مؤقتا بهذه الهيمنة بشكل متوازن معهم · ان الامبريالية وهي تتراجع ، تشن هجمات وقائيه وتنسق مع أصدقائها وحلفائها في هذا الاتجاه · لكنها لا تملك مقادير كل شيء ، ولا تستطيع فرض هيمنتها الا عبر صراع طويل وبالغ الخطر

التفسير الثالث **الحرب الاهلية هي صراع بين الاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة** ينطلق هذا التحليل من مقوله صحيحة ليقوم بتعميمها بشكل خاطىء ومبتذل · فالصراع بين الاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة هو صراع حتمي والوفاق ليس سوى لحظة في الصراع · ولا حاجة الى التأكيد مجددا على موضوعة لينين حول حتمية الحرب·غير ان تفسير الحرب الاهلية بهذا الصراع وحده ، تكون كمن يسقط تحليلات جاهزة على واقع لا يعرفه بشكل دقيق · فهو ، على المستوى الدولي ، يهمل ظاهرة نمو حركات التحرر الوطني التي تشكل اليوم ثقلا رئيسيا في العلاقات الدولية · كما يهمل خصوصية الصراع في لبنان من ضمن الواقع العربي · فلبنان بوصفه نقطة توازن عربية وعربية امبريالية يتعرض للاختلال من ضمن حركة الصراع العربي مع العدو الصهيوني ـ الاميركي · لذلك يجب ان تتوجه جميع القوى الوطنية نحو حسم هذا الصراع مع العدو وعملائه · كما ان تحليلا كهذا ، يهمل واقع موازين القوى الفعلية في الشرق العربي . حيث يواجه النفوذ السوفياتي انحسارا كبيرا بعد طرد الخبراء السوفيات من مصر · والواقع ، ان الموقف المتردد في وجهته الغالبة . الذي اتخذه السوفيات تجاه الحرب في لبنان . يعكس ضعف نفوذهم وكونهم في موقف الدفاع · فمحاولة اقامة وفاق فلسطيني ـ سوري بأي ثمن ، ليس سوى محاولة لابقاء الوضع الراهن ، لان أي تطور في الصراع ، يمكن أن يؤدي الى وقوع السوريين في أحضان الاميركيين والمصريين ! لذلك يحاول الاتحاد السوفياتي اقامة توازن سوري فلسطيني مهما كان الثمن ، ويدفع الى تشكيل محور . لا يبدو انه يمكن أن ينجح في ظل الاصرار السوري على الحسم·

ان تحليل الحرب الاهلية في لبنان بوصفها صراعا بين الدولتين ، يعني دعوة مطلقة الى التهدئة ، بحجة عدم السماح لاحد الطرفين باستغلال الصراع لمصلحته · ويخفي وجهة يمينية تتعامل مع الحركة الوطنية بشك مطلق ، يصل الى حد اتهامها بالوقوع تحت تأثير الدول الكبرى ·

التفسير الرابع : **الحرب الاهلية هي صراع طبقي داخلي** ·
يقود اعتبار لبنان تشكيلة اقتصادية ـ اجتماعية مستقلة ، والتعامل مع التجزئة كمعطى مطلق . الى الوقوع في خطأ عدم الفهم الدقيق للصراع الفعلي . واعتبار الطائفة مجرد ايديولوجيا ، وعدم أخذ الواقع العربي بعين الاعتبار بشكل جدي · ان هذا المفهوم . لا يحتاج الى نقاش . فقد وضعته الحرب الاهلية

في مكانه الحقيقي·فعندما انتقلت الحرب الى حرب اهلية عربية،كشفت زيف هذا الطرح ولا جدواه · فأوهام الثورة الاشتراكية اللبنانية ، تساقطت مع دخول الدبابات السورية · واهمال حتمية الصراع مع البرجوازية السورية ، ومحاولة التحايل عليه بكل أنواع الذكاء البرجوازي الصغير المبتذل ، ساهمت في ايصال الحركة الوطنية الى البلبلة التي تجد نفسها اليوم فيها ·



ان مناقشة الحرب الاهلية في لبنان، تفترض التقاط النقطة المفصلية في التركيبة اللبنانية · فلقد نشأ الكيان اللبنـــاني سنة ١٩٢٠ بقرار استعماري وضمن ظروف الهيمنة الفرنسية على لبنان · ولم يتكرس عام ١٩٤٣ الا عبر صيغة تستند الى أساسين :

١ ـ وجود نزعة « مارونية » اقليمية تريد الانفصال عن سوريا والسيطرة على لبنان ، ضمن اوالية نمو مركبة للطائفة بالعـــلاقة مع شريحة التجـــار الكومبرادور التي على رأس هرمها ·

٢ ـ التقاء هذا الواقع بمساومة استقلالية قامت بها البرجوازية السورية (باعتبار لبنان جزءا من بلاد الشام ، وحتى الآن لا وجود لسفارة سورية في بيروت كشكل لاعتراف سوريا نهائيا بانفصال لبنان) مع الاستعمار البريطاني وعلى حساب الفرنسيين ، منحت لبنان استقلالا وسمحت للصيغة بالتبلور ·

لقد أعيد انتاج الكيان اللبناني عام ١٩٥٨ بشروط عربية أفضل ، وهذا ما قام به عبد الناصر في مساومته مع مورفي على الوضع اللبناني · فالصيغة اللبنانية هي في جوهرها صيغة توازن بين الطرف العربي والامبريالية · وتتغير شروط هذه المساومة ، عندما تتغير شروط العلاقة العربية الامبريالية ·

ان التغير الجوهري الذي تشهده الساحة اللبنانية في هذه الحرب الاهلية يتلخص في عامل رئيسي يتمثل في نمو البرجوازيات العربية ونمو طموحاتها في شروط محلية ودولية ملائمة · فالبرجوازية السورية الخارجة من حرب تشرين بنصر جزئي ، لم تعد ترضى بصيغة مساومة ١٩٥٨ ، بل هي تطلب المزيد · وهذا يفسر تحالفها في المرحلة الاولى من الصدام مع الثورة والحركة الوطنيـــة · غير ان هذا النمو يصطدم في المقابل بسقف المساومة مع العــدو الامبريالي ، وشروط هذه المساومة · فالبرجوازية السورية تعمـــل على المستوى اللبناني داخل شرطين متلازمين :

الشرط الاول ، ويتعلق بالمسألة اللبنانية · أي في حجم المكـــاسب التي تستطيع تحقيقها على الساحة اللبنانية · فاذا كانت الامبريالية الاميركية قـد سلمت ، للسلطة في سوريا ، بالحق في ان تشكل ضمن معادلة التوازن اللبناني المفترضة الطرف الرئيسي في هذا التوازن ، فانها لا تسمح قطعا للبرجوازيـة السورية بانهاء صيغة التوازن هذه ، عبر تصفية الكيان اللبناني وتصفيـة مرتكزاته · هنا ، يكمن جوهر انقلاب الموقف السوري ، وتحوله نحو التحالف المعلن مع القوى الانعزالية المتمثلة بجبهة الكفور · فالبرجوازيـة السورية ، تعلم جيدا أن الغاء المعادلة اللبنانية سوف يعني صداما واسعا مـع العـدو الوطني · لذلك ، فهي تكتفي بالحجم الذي تستطيعه ، دون أن يعني ذلك تخليا عن طموحها القديم في استعادة لبنان بأسره ·

الشرط الثاني : هو افق تسوية الصراع مع العدو الصهيوني ، عبر تقديم تنازلات متبادلة في سبيل الوصول الى انسحاب اسرائيلـي من الاراضـي المحتلة · فالبرجوازية السورية ، تسعى عبر مشروعها الكونفدرالي الـى تجميع اكبر كمية من اوراق الضغط في يديها والى التسليم ببعض شـروط الاعداء : عدم الاعتراف بمنظمة التحرير كطرف مستقل ·

هنا ، يلتقي الشرطان في الجوهر على مسألة مركزية : الافـق الذي رسمته البرجوازية لصراعها الوطني · تتشكل حدود هذا الافق اساسـا من العامل الداخلي : عجز سلطة البرجوازية عن احداث تغيرات طـوعية فـي داخلها ، تسمح بالشروع فيحرب وطنية شاملةتقوم بتصفية مواقع الامبريالية في بلادنا ، في شروط دولية ومحلية ملائمة · هنا ، لا بد من الاصطـدام بالثورة الفلسطينية والحركة الوطنية بهـدف تطويعهمـا واخضـاعهمـا للاستراتيجية التي وضعها النظام السوري :

فالثورة الفلسطينية ، تشكل تحالفا طبقيا واسعا يمارس ارقى انـواع الكفاح : الكفاح الشعبي المسلح ، الذي يفترض ديمقراطية جماهيرية واسعة نسبيا · كما أن الثورة ، في ظروف المد الوطني ، مجبرة على دخول الصراع في الواقع اللبناني ، بوصفها جزءا رئيسيا من معادلة القوى فـي الشرق الاوسط · كما أن وجودها ذاته ، يصبح في مرحلة محاولة النظام السـوري اقامة التوازن الجديد مهددا ، لانه يحجمها ويضعها داخل شرط قبـول افق النظام السوري لحل مشكلة الصراع العربي ـ الصهيوني ·

كما أن الحركة الجماهيرية في لبنان ، التي شهدت نموها الواسع مـع دخول الثورة ، والتي استطاعت أن تعيد ترتيب القوى داخل الشارع الوطني، تصطدم هي الاخرى بالاستراتيجية السورية · فالحركة الجماهيرية اللبنانية،

هي اساسا حركة قومية بالغة الحساسية لمسألتي الوحدة العربية وفلسطين·
لذلك ، فحين يلتحم الشارع الوطني عبر ظواهره الاساسية (تنظيمات مسلحة، جيش لبنان العربي ···) بالثورة ، فانه يعبر عن طموحين مشروعين :

١ ـ رفض الجماهير للوصاية التقليدية ، التي تعبر عن طموح اجنحة الكومبرادور الاسلامي لتوظيف نمو الحركة الوطنية العربية في محاولة اعادة انتاج التجزئة ـ الكيان ، واقتسام السلطة بشكل افضل مع الجناح الكومبرادوري الماروني · يعبر هذا الرفض المشروع عن عمق ارتباط الجماهير الوطنية بمسألة الخلاص الوطني ·

٢ ـ ارتباط هذه الحركة بالثورة ، بوصفها تمثل على المستويين العربي واللبناني ، اداة جماهيرية ديمقراطية نسبيا لخوض الصراع مع العدو القومي ·

من الهجوم العام الى الدفاع

لم يفاجيء الاجتياح العسكري السوري المدرع للاراضي اللبنانية احدا، سوى اولئك الذين وضعوا رؤوسهم في الرمل كالنعامة ، واعتقدوا انهم يستطيعون أن يلعبوا مع النظام السوري لعبة الذكاء الضيق الافق ، مهملين حقائق الصراع الفعلي في لبنان · فالواقع ، انه منذ أن اتخذ قرار الهجوم العام ، عبر تفجير الجيش وانشاء جيش لبنان العربي ، بدا واضحا أن المسألة المطروحة هي مسألة السلطة وتوازناتها في لبنان · فالطرف السوري يريد من خلال مساومته اقتسام السلطة في لبنان مع القوى الانعزالية واستبعاد الثورة والقوى الوطنية · في المقابل ، فان الثورة حين تبادر الى الهجوم العام ، فانها تطرح مسألة السلطة في لبنان ، وهي بهذا تطرح مسألة أدارة الصراع العام داخل حركة التحرر العربية ضد العدو ، أي تطرح عمليا فرض التراجع على النظام السوري ، واحداث تغيرات في داخله لمصلحة خطوات ديمقراطية فعلية · ان قدرة الثورة والحركة الوطنية على الانتقال الى هذا المستوى ، تعود اساسا الى ظرف موضوعي ملائم ، يتمثل في التراجع القسري الذي فرض على الامبريالية والذي يسمح للحركة الجماهيرية بانتزاع مكاسب افضل ·

في ذروة الهجوم ، وبعد اسقاط الفنادق ، وانتقال المعركة الى الجبل في عينطورة ـ المتين والكحالة · توقف الهجوم العام ، بعد أن بدأ ابتزاز التدخل السوري ، في محاولة لترسيخ موازين قوى ، تراهن على نصر دون الصدام مع النظام السوري · ان الهجوم العام الذي شنته الثورة ، كان يعني اساسا، انتقالا نوعيا في مسار الحرب الاهلية ، يتمثل في ذهاب الطرف الوطني

الى الحسم ، واستعداده لاقتناص لحظة تاريخية ، قد تعني تحولا خطيرا في تاريخ الشرق العربي ٠

غير أن التردد ، دفع بالقوى الوطنية الى محاولة تجنب الصدام مع السوريين ، وبذلك احجمت عن توجيه ضربة ساحقة الى القوى الانعزالية٠ فاعلنت الهدنة المسلحة ، وابتدأ العد العكسي في مسيرة التراجع ٠ ولقد استطاع النظام السوري تمرير بعض المكاسب في ظل التردد الذي ساد اوساط الحركة الوطنية :

١ ـ جرى تمرير انتخاب السيد الياس سركيس رئيسا للجمهورية ٠ ورغم ان هذا الانتخاب بحد ذاته ، لا يشكل انتقالا خطرا في مسار الحرب الاهلية ٠ غير انه سجل نقطة لصالح الطرف السوري ، سمحت له بالانتقال فيما بعد الى هجوم واسع تحت غطاء شرعيتين ، يستطيع التلاعب على حبالهما ٠

٢ ـ في الوقت نفسه ، قامت القوى الانعزالية بهجومها الواسع على محور لزعرور ـ عينطورة ٠ في محاولة لترجمة النصر السياسي السوري ـ الانعزالي على ارض القتال ٠

غير أن المقاومة البطولية التي جوبه بها الهجوم الانعزالي ، اجبرت الطرف السوري على التدخل العسكري المباشر . فنشب الصدام الذي حاول الجميع تجنبه بشتى الوسائل ٠ لقد استطاع الهجوم السوري أن يجتاح البقاع وعكار دون مقاومة تذكر ، وعبر مسرحية مبتذلة لاشعال الاقتتال الطائفي في عندقيت والقبيات ٠ ثم تقدم الى بيروت على محوري صوفر ـ بحمدون وصيدا ٠ هنا حصلت المفاجأة ٠ نعد فاجأت الجماهير الجميع بهبتها البطولية وصمودها الاسطوري في مواجهة الدبابات الضخمة والصواريخ المتطورة ٠ واستطاعت ان تثبت أن الجماهير المسلحة هي دائما الاقوى ٠ وأن الشعب حين يخوض حربه يستطيع تحقيق الانتصارات ٠ ان صمود الشعب هو الذي اجبر النظام السوري على تغيير تكتيكه ، وهو السبب المباشر الذي دفع قوات الامن العربية الى لعب دور ولو هامشي ٠.لقد اثبتت ملاحم القتال مع جيش النظام السوري أن الجماهير العربية في لبنان ، تستطيع الصمود رغم الحصار ورغم قطع الماء والكهرباء ٠ وتستطيع ، في ظل توجه سياسي صحيح الوصول إلى النصر النهائي ٠

ان الصفعة التي وجهت الى الطرف الآخر ، اجبرته على تغيير تكتيكه والانحناء المؤقت امام قرارات الجامعة العربية ، في محاولة لاستخدامها لصالحه عبر حركتين متلازمتين :

١ ـ دفع القوى الانعزالية ، الى استغلال تشتت القــوات الــوطنية وارهاقها ، عبر شن هجوم واسع على المواقع الوطنية في تل الزعتر ، جسر الباشا ، الكورة والنبعة ، حيث استطاع الهجوم تحقيق اهدافه بصورة كلية· وبقي تل الزعتر ، قلعة للبطولة ، وملحمة سوف تكون منارة لشعبنا العــربي يتعلم منها دروس الصمود والتضحية والبطولة · كما بدأت هذه القوى بشن هجمات شرسة على محور صنين ـ عينطورة في محاولة لفتح طريق زحلة ـ المتن بالقوة ·

٢ ـ قيام الجيش السوري بمهمة اشغال القوات الوطنية في الجنـوب والجبل · ولعبه دور الاسناد المدفعي والصاروخي للقوات الانعزالية في كثير من الاحيان ·

ان الصراع المسلح مع النظام السوري هو صراع حتمي ولكنه ليــس بغير حدود · تأتي حتميته من كون الثورة الفلسطينية والحركة الوطنية قـد دخلت ، عبر ثغرة التراجع الامبريالي وعبر تباشير هزيمة القوى الانعزالية العميلة ، مرحلة جديدة تتمثل في التدخل المباشر في ادارة الصراع العــام ضد العدو ، وفي فرض مزيد من التنازلات عليه · يهدد هــذا التــدخل ، البرجوازية التي في السلطة ، عبر تهديده لطموحها التوسعي ولسقف صراعها ـ مساومتها مع العدو الوطني · منهنا تأتي حتمية الصراع بــين قــوى الثورة والنظام السوري · غير أن هذا الصراع ليس بغير حــدود : أي ان الثورة تستطيع دائما التمييز بين العدو الرئيسي والعدو الثانوي · من هنــا فهي حين تصطدم مع النظام السوري تضع لهذا الصــدام سقفــا محــددا : اجبار النظام السوري على التراجع عن مشروعه لتحجيم الثــورة ، وعــن التسويات التي يسعى اليها · تسمح هذه المسألة باحداث تغييرات اساسيـة داخله ، دون أن تعني بالضرورة اسقاط سلطة البرجوازية نهائيا · بل تفرض عليها تراجعات تسمح بديمقراطية اوسع ، وتضرب اجنحتها اليمينية والتــي تدعو الى المساومة باي ثمن ·

يتحاشى هذا الفهم المحدد لطبيعة الصدام مع النظام السوري ، الوقوع في منزلق الانتهازيتين : اليمينية : التي تدعو الى المساومة باي ثمن وحتــى على حساب الثورة · واليسارية ·· التي تعتقد ان الشعارات البراقة والجمـل الثورية تكفي وتغني عن المهمات الملموسة ·

ربما كان التردد والمراهنة الخاطئة على استحالة الصدام مع الجيش السوري ، هو الذي اوقع الحركة الوطنية في بلبلة ندفع اليوم ثمنها غاليا · فامام التردد والاحجام عن استكمال الهجوم العام الذي بدأته الثورة والحركة الوطنية ، استطاعت القوى المعادية المتحالفة ، ان تجبر الثورة على التراجع،

وفرضت عليها الانتقال من الهجوم الى الدفاع ، كما كشف لاول مرة ، جدية استعداد الحلفاء الجدد على المضي في مشروعهم وصولا الى تصفية الثورة ·

ان حرب الابادة التي يشنها الانعزاليون بمساندة حلفائهم ، لا تعني سوى ان الثورة تتعرض اليوم لمحاولة التصفية · وهذا يقتضي وقفة حازمة تواجه هذا الخطر ، كي تنتقل بعدها الثورة مرة اخرى الى الهجوم ، وبذلك تمنع البرجوازية التي في السلطة من فرض قيادتها الاحادية على بلاد الشام· تفترض هذه المواجهة ، فهما دقيقا لمعطيات الواقع · فرغم اجواء العزلة. تستطيع الثورة الاستفادة من هامش مناورة يسمح به الوضع العربي اساسا، في سبيل اعادة ترتيب القوى · وهذا يفترض فهما دقيقا لطبيعة المرحلة، وللتناقضات العربية التي تبرز على ساحة الصراع في لبنان ·

ان التناقضات بين الانظمة العربية في مرحلة ما بعد حرب تشرين ، ليست مسألة عابرة ، ولا تعبر عن شرخ في تضامن عربي هو الاصل · بل تعبر عن تطور موضوعي في مسار الوضع العربي وتعبر عن ثلاث حقائق :

الحقيقة الاولى : هي نمو البرجوازيات العربية ، وفقدان القطب (البرجوازية المصرية) بعد هزيمة ٦٧ · ونمو البرجوازية السورية وبروز النظام السعودي · فلقد استطاعت البرجوازيات العربية الخروج من مأزقها المزمن بعد حرب تشرين ، وطرحت امكانية الاعتراف بها على المستوى الدولي كطرف رئيسي في الشرق الاوسط · وابرزت امكانية تسوية « غير مذلة » للصراع ·

الحقيقة الثانية : هي ميل هذه البرجوازيات الى التوسع · واتجاهها العام نحو توسيع هيمنتها على المناطق المجاورة · هذا هو جوهر الموقف المصري في السودان (قام الجيش المصري باحباط محاولتي انقلاب ضد نظام النميري في السودان الاولى شيوعية والثانية قامت بها جماعة الاخوان المسلمين) كما أن هذا هو جوهر الموقف السوري في لبنان ·

الحقيقة الثالثة : هي ان الصراع بين هذه البرجوازيات هو صراع حتمي · فالبرجوازيات القطرية الاقليمية لا تسعى الى الوحدة . بل تسعى الى الالحاق والهيمنة · وهذه مسألة حتمية تقود الى صراعاتها مع بعضها · كما يزيد من تفاقم الصراع في المرحلة الراهنة عامل اساسي : **هو الصراع على** المساومة المطروحة فالتكتيك الامريكي يسعى الى اثارة الصراعات العربية فالاطراف البرجوازية العربية تتنازع الان على من يقود مسيرة التسوية ويفرض بالتالي قيادته على المشرق العربي · هكذا برزت منذ اتفاقية سيناء

التناقضات العربية التي تتفاقم وتزداد شراسة مع محاولة السوريين السيطرة على لبنان ·

ان هامش الصراع العربي هذا ، يسمح للقوى الوطنية باستغلاله لصالحها ، ويجبالتعامل معه على هذا الاساس · فالتبشير بالموقف العربي ، الواحد هو في المحصلة موقف سحري ، يحمل جميع البقايا السيئة الذكر في الفكر الفوق يساري · كذلك فالوضع العربي لا ينقذ الثورة ،وهذا ما اكدته مبادرة الجامعة العربية في حجمها المتواضع رغم الخلاف السوري ـ المصري ·

ان الصمود والقتال الطويل النفس ، هو وحده الذي يستطيع أن يمنع حرب الابادة من النجاح · والخط السياسي الصحيح هو وحده الذي يقود الجماهير الى النصر ·

وصمود المناطق الوطنية والاصرار على القتال ، ليس امرا مستحيلا في ظل هذه الحرب الاهلية الوطنية · ان الجماهير التي ترفض بطرحها الايجابي محاولات تقزيم انتفاضتها تطرح مجموعة مسائل :

١ ـ سلطة شعبية مسلحة ، تقودها لجان الاحياء والنواحي والمناطق· تطرح هذه اللجان مسالة حل مشاكل الجماهير بشكل ديمقراطي وقيادة الصراع في سبيل دحر القوى الانعزالية وفرض التراجع على النظام السوري ·

٢ ـ توحيد الميليشيا الشعبية في تنظيم ديمقراطي مسلح يقود الصمود ·

٣ ـ اعادة بناء جيش لبنان العربي بشكل عسكري وسياسي صحيح كي يلعب دورا رئيسيا في المواجهة ·

٤ ـ الانفتاح على جميع القوى المعادية للاجتياح العسكري السوري والرافضة للهزيمة ·

ان الجماهير المقاتلة في لبنان ،اعلنت بانتفاضتها المجيدة أن الشعب لا يركع امام اعدائه مهما كانت قوتهم كبيرة · وجماهيرنا حين تدافع عن نفسها ، تدافع عن قضية الامة العربية باسرها ·

لقد دخلت البرجوازية التي في السلطة ، عبر صراعها مع الثورة منعطفا

مجهولا ٠ ووصلت في مقامرتها على سلطتها الى اقصى الحدود ٠ وليـس ما يضمن غدا من انقلاب اصدقائها الجدد عليها . وبداية الهجوم الاميركي الصهيوني العام في سبيل اعادة الوضع العربي الى ما يشبه حزيران ٦٧ ٠ عندها ستكتشف البرجوازية ولو متأخرة قدرها الذي اختارته ، بوصفها مطية للامبريالية . تفقد الامة باسـرها فـرص النصر في سبيل مصالح ضيقة ٠

سياسة "الخطوة خطوة" في الشرق الاوسط
(دراسة اميركية لأدوار شيهان)

ميشيل كامل

صدر في الولايات المتحدة واوروبا عدد كبير من الدراسات عن السياسة الامريكية في الشرق الاوسط ، في اعقاب حرب تشرين (اكتوبر) . وتتضمن هذه الدراسات قدرا كبيرا من البيانات والمعلومات . وتكشف عن بعض اسرار المداولات والمباحثات ، والمواقف غير المعلنة للاطراف المختلفة . كما تتناول بالتحليل والتقييم منهج كيسنجر ، فيما اصطلح على تسميته سياسة (الخطوة خطوة).

ان الفائدة التي يمكن ان نحصل عليها من القراءة **الواعية** لهذه البحوث لا يرقى اليها الشك ، ما دمنا نراعي التحفظ ازاء ما تشتمل عليه من استنتاجات مغرضة .

فمن الملاحظ ان هذا النوع من الدراسات شبه الاكاديمية — المحدودة التداول — تتوخى امداد القارىء بكمية ضخمة من المعلومات الصحيحة ، ولكنها ترتب وتصاغ بطريقة ملتوية .بهدف الخروج بانطباعات واستنتاجات مغلوطة (١) ، لانها تتعامل في الاساس مع النخبة من الغرب ، وتعبر هذه الدراسات عن وجهة النظر الامبريالية ، وتتبنى خطا معاديا للحركة الوطنية التحررية العربية ، بغض النظر عن الطابع النقدي العنيف الذي يتسم به بعضها.

وقد نشرت مجلة (السياسة الخارجية) Foreign Policy في عددها الصادر بتاريخ ٧—٣—١٩٧٦ دراسة هامة للمعلق الامريكي المعروف **ادوار شيهان** ، احدث نشرها ضجة واسعة في الاوساط الدولية والعربية، بسبب ما عرف عن الكاتب من علاقات وثيقة بالمسؤولين الامريكيين ، وما تردد من انه استقى معلوماته مباشرة من كيسنجر *

ونستعرض فيما يلي ابرز المعلومات والاراء التي جاءت بالدراسة ، بعد اعادة ترتيبها بصورة تكفل القاء الاضواء على حقيقة ودوافع واهداف السياسة الامريكية ، وتكشف النقاب عن بعض خفايا منهج كيسنجر ، الذي تروج له بعض النظم والقيادات العربية ، على انه يشكل تغييرا جذريا في السياسة

الامريكية ، وتحولا نوعيا لمصلحة الجانب العربي .

والواقع ان كل الكتابات الخاصة بهذه المرحلة تبرز دور هنري كيسنجر على انه المهندس الحقيقي و (متعهد) السياسة الخارجية الامريكية طوال السنوات السبع الاخيرة ، منذ انتقاله الى البيت الابيض في كانون ثان (يناير) ١٩٦٩ ، ثم ترؤسه لمجلس الامن القومي (مركز قيادة السياسة الخارجية) ، فانتقاله الى وزارة الخارجية ، ليجمع بين يديه سلطات هائلة ، قلما توفرت لرجل واحد . الا انه يجب عدم المغالاة في هذا العامل ، لان حريته في الحركة تظل محكومة بنظام صناعة القرارات الامريكي . هذا ، بالاضافة الى كونه مرتبطا اشد الارتباط بالسياسة التقليدية ، لا يتحول عنها الا بقدر محدود محسوب ، وعندما يفرض عليه ذلك فرضا ، وتتهيأ ظروف مواتية . واتخذ كيسنجر نفسه موقف (الصقور) ازاء العديد من القضايا الحيوية ، فانتقد بعنف سياسة ايزنهاور من حرب السويس عام ١٩٥٦ ، وامتدح التدخل الامريكي في لبنان عام ١٩٥٨ . وكان من دعاة توسيع العمليات الحربية عبر الحدود الصينية اثناء الحرب الكورية .. وهي السياسة التي انتهجها في مواجهة الحرب الثورية في فيتنام الجنوبية ، بالقصف الوحشي لجمهورية فيتنام الشعبية وكمبوديا ولاوس . كما كان وراء الانقلاب العسكري في لاوس وشيلي .. الخ .

وقد ارتبط اسم كيسنجر بمترنيخ الذي تولى المسؤولية عن سياسة النمسا الخارجية في عصر غروب امبراطوريتها . وتبدت عبقريته في تأجيل وابطاء مسار عملية التدهور والانهيار .

ولعل الدليل على تضخيم (عبقرية) كيسنجر ، نجده في عجز السياسة الامريكية — الكيسنجرية عن ادراك طبيعة التغيرات التي طرأت في المنطقة العربية في وقت مبكر .

— فلم يقدر كيسنجر مدى عمق التحولات في السياسة المصرية ، منذ قبول مشروع روجرز ، ثم — والاهم من ذلك — مغزى خطوات السادات التالية ، التي بدات بمبادرة شباط — فبراير — ١٩٧١ ، وانقلابه على المجموعة الناصرية في ايار — مايو من نفس العام ، وتحالفه مع السعودية ، وتبنيه لسياسة (الانفتاح الاقتصادي) ، حتى (مفاجأة) (٢) طرد المستشارين السوفيات ، التي يقول شيهان عنها: « ووقع هذا على كيسنجر وقع الدهشة البالغة ، وسأل مساعديه : لماذا اسدى السادات الي هذا المعروف ؟ ولماذا لم يتصل بي ؟ ولماذا لم يطلب مني اولا جميع انواع التنازلات » ص٦ كذلك الاستخفاف بمغزى مهمة حافظ اسماعيل — موفد الرئيس المصري — شباط ١٩٧٣ ، والقرار الاستفزازي الذي اعلنته واشنطن ، بعد اقل من من ٢٤ ساعة من رحيله عن واشنطن « بتزويد اسرائيل بست وثلاثين طائرة سكايهوك وثمان واربعين طائرة فانتوم » ص ٧ ، ثم استهتاره بوزراء الخارجية العرب اثناء لقاء اواخر ايلول ١٩٧٣ ، بعد توليه منصب وزير الخارجية . وعجز عن ادراك العديد من الظواهر البالغة الدلالة ، في السياسة المصرية ، وفهم مغزى الرسائل المتبادلة ، ومنها على سبيل المثال ، النثر المبتذل الذي ارسل

به اشرف غربال (٣) لكيسنجر . «وقال فيه : في احدى الحفريات التي تمت بها حديثا ، عثرت على عبارة استغرابية قديمة ، كانت في قبر امنحوتب ، اله الطب في ازمنة الجاهلية القديمة ، والعبارة تقول : تعال زر نيلي ، وليس عليك ان تقف في الصف ، لان لدي دواء ناجع لاوجاع معدتك ، وكذلك لوجع راسك على وجه التاكيد . فما رايك في ذلك عزيزي هنري . **هل ندخل الشرق الاوسط من باب عريض ؟** » !! ص٥و٦ .

ــ فوجيء كيسنجر باندلاع الحرب. ولم تكن المفاجأة بسبب نقص المعلومات او عجز اجهزة المخابرات الامريكية والاسرائيلية ــ المترابطة ــ ، او براعة التمويه من الجانب العربي ، وانما نتيجة **الحسابات الخاطئة** ، وعدم القدرة على فهم الواقع العربي ، وعقلية النظم والقيادات ، وطبيعة ازمتها ، وتصورها للمخرج من هذه الازمة .

عام اوروبا ينتهي في الشرق الاوسط .

خلال عام ١٩٧٣ صرح كيسنجر لمسؤول عربي بان « الشرق الاوسط غير مهيأة لي الان» ص٦ . وكان وزير الخارجية الامريكي « يتجاهل صرخات السادات المسرحية في طلب المساعدة. وكان يتمسك بنظرية يرتاح اليها ، وهي ان الحليف الاستراتيجي الوحيد الذي تدعو الحاجة اليه في الشرق الاوسط هو اسرائيل » . وكان كيسنجر قد اسقط قضية الشرق الاوسط من حسابه واعلن ان ١٩٧٣ هو « عام اوروبا » .وركز جهوده على دعم حلف الاطلنطي او احياء مشروع جان موريت للمثلث الذهبي الذي يضم اوروبا الغربية وكندا والولايات المتحدة ، ولتحسين العلاقات مع اليابان (بعد الازمة المترتبة على تخفيض الدولار والانفتاح على الصين)كما وجه اهتمامه للتوصل الى اتفاق « سولت ٢ » مع الاتحاد السوفياتي ،وتوسيع العلاقات مع الصين ، لموازنة العلاقة مع السوفيات واستغلال التناقضات بينهما ، بالاضافة الى تقوية مواقع واشنطن في امريكا اللاتينية ، التي اهملت وتفسخت ، ومحاولة تجميد الاوضاع في فيتنام ،وحماية الحكومة العميلة في الجنوب من الانهيار (زيارته الاولى لهانوي في شباط ١٩٧٣).

تلك كانت مشاغل كيسنجر ،وبرنامج العمل لعام ١٩٧٣ ، عندما فوجيء باندلاع الحرب في تشرين .

من المعروف ان اسلوب كيسنجر في « حل » الازمات هو التصعيد «والتسخين» الى ابعد الحدود ،تمهيدا التدخله ، من موقع قوة (نموذج فيتنام) وينقل الكاتب عن كيسنجر « الحكمة» التي يرددها دائما « انا لا اعالج الازمات وهي باردة ، بل وهي حامية » ص ٤ .وقد اتبع نفس الخطة ازاء الحرب العربية الاسرائيلية ، فبادر باقامة جسر جوي هائل ــ لم يسبق له مثيل في التاريخ ــ لنقل السلاح لاسرائيل ،ووضع خطة طوارىء لامدادها بالمتطوعين الامريكيين ، وتدخل الاسطول الامريكي ، اذا لزم الامر ، وانتظر تحول مجرى القتال لمصلحة اسرائيل (ثغرة الدفرسوار والتراجع

في الجولان) ، وخرق وقف اطـلاق النـار ، لتطويـق الجيش الثالث ، ودعم الوجـود العسكري الاسرائيلي في الضفة الغربية للقـنال ، وهدد السادات (الذي امتثل صاغرا)ضد محاولة تصفية الثغرة ، مؤكـدا تدخل امريكا المباشر في هذه الحالـة ،ووضع قوات الولايات المتحدة في كـل العالم على اهبة الاستعـداد للحرب .ويذكر شيهان ان « المصريين استشفوا من خلال الحوار خيطا رفيعا جدا ، هوالتهديد الضمني من كيسنجر بانـه سيطلق العنان للاسرائيليين ، حتـىينقضوا على الجيش الثالث ، اذا لـم يذعن السادات لمقترحاته » ص ١١

وكانت الاوضاع هوائية تماما، فالجبهة العسكرية مختلطة متداخلة ، لا يقبل بها او يتحملها احد من الفرقاء ، وتشكـل خطرا على كل منهما . وكانت «اسرائيل ومصر معا ، بحاجة ماسة الى اتفاق .وكان على اسرائيل ان تسرح الجنود والا واجهت خطر الافلاس . وكان على السادات ان ينقذ الجيش الثالث ، وان يبرهن أن الحرب اربحته بعض الارض»ص ٢٣ .

صديق عدوي صديقي

وبدا ادراك ـــ متأخر ـــ لامكانيـةاستغلال التغييرات في المنطقة ، لانجاز تحولات لمصلحة الولايات المتحدة .فعلىنقيض الاتجاه العام لموجة المد الثوري التي تجتاح العالم ، كانت التطورات فيالمنطقة ، توحي بفرصة الرد علـى الانتصارات الشعبية ، بانتصـارات امريكية مقابلة ، في منطقة ذات اهمية استراتيجية بالغة ، طبقا لمنهج كيسنجربان تعمل الولايات المتحدة « بعد كـل نصر شيوعي » او تقدمي ، على احراز« نصر امريكي اكبر » .

يقول شيهان ان « الجسر الجوي لميؤد الى حرق جسور كيسنجر مـع السادات » . وكذلك ٢ر٢ مليار دولارمن المعونات المستعجلة ـــ . « بل انه لم يكد يمضي على بدأ ذلك اسبوعانحتى طلع السادات باعلان ان السياسة الامريكية سياسة بناءة .. » وكـانالرئيس المصري « يتحرق شوقا الى عقد صفقة مع الولايات المتحدة ..وكانكيسنجر في واقع الامر ، حتى والاسلحة الامريكية تتدفق على اسرائيل ، وعلىسيناء ، **يستغرب اعتدال رد الفعـل العربي** » ص ٩ . وكان « السادات تدتوصل ، قبل انتهاء الحرب الـى ان الولايات المتحدة ، وان كانت مخـزنالسلاح الذي يغرف منه العدو ، ترغب ايضا ان تبقى صديقة له ، وان الروسلا يستطيعون تقديم السلام » ص ١٠ ، واقنع كيسنجر السادات ، بانه « يجبالان ان نترك جانبا الامور التي لا يمكن التوفيق بينها ، ويجب ان تبنى الثقة ،وان نولد ما يدفع نحو المفاوضـات . ويجب ان نجري اتفاقيات صغيـرة ، **وان تمضي خطوة فخطـوة » ص ١٠**

كما « قبل ـــ الرئيس المصـري ـــالمسودة التي وضعها كيسنجر من ست نقاط ، ومباحثات الكيلو ١٠١ ، ووافقالمصريون على ان يعيدوا العلاقـات الدبلوماسية كاملة بالولايات المتحدة »وخرج كيسنجر من قصرالطاهرة «ومعه شيء لم تكن الولايات المتحدة تملكه منقبل ، وهو سياسة عربية » .. « ومنذ ذلك الحين **اصبح السادات بمثابـةحجر الزاوية لهذه السياسة** » ص ١٠ واصبح كيسنجر لا ياتي بجديد او يقومبمبادرة في الشـرق الاوسط الا بعد استشارة الرئيس المصري ، والمثـلالعربي يقول عدو عدوي صديقي ،بينما

جعل السادات هذا المثل في صيغة محررة جديدة وهي « صديق عدوي صديقي ايضا ، » ص ١١

وتلاحقت التنازلات من جانب مصر ،وتهالكت على ارضاء واشنطن ، فقبلت وقعت اتفاقية تثبيت وقف اطلاق النار بنقاطها الست ــ اقتراحات دايان ــ واسقطت السلطة مطلبها بالعودة الى خطوط ٢٢ تشرين ، وتخلت عن شرط تحديد جدول زمني لانسحاب اسرائيل من الاراضي التي احتلت عام ١٩٦٧ وقبلت المنهج الامريكي بالحلول المرحلية الجزئية والمنفردة . والواقع ان السادات هو « صاحب الفضل » في انتهاج هذا الاسلوب ، منذ مبادرة شباط ١٩٧١ . (٤) .

وفيما يتعلق بالقضية الفلسطينية « اصدر كيسنجر تعليماته الى سفيره في القاهرة ، بان يعلم السادات انه الان لا يحبذ اشتراك الفلسطينيين في دعوة مؤتمر السلام . وقد تسمح اسرائيل لفلسطينيين مأموني الجانب من رعايا الملك حسين ، بان يجلسوا مع الوفد الاردني . ولكنها لا تحتمل وجود وفد منفصل تسيطر عليه منظمة التحرير الفلسطينية . وهذا معناه ان كيسنجر قد استبعد عن مشروع اقرار السلام ، العنصر الاساسي في النزاع العربي الاسرائيلي » .

كل رد الفعل من جانب السلطة المصرية ، ان كيسنجر « في زيارته للقاهرة في ١٣ كانون الاول ــ ديسمبر ــ وجد ان السادات كان مكتئبا (!) ، بسبب اخفاقه في تدبير امر اشتراك الفلسطينيين في دور لهم في جنيف . ومع ذلك فقد وجده ايضا مستعدا **للملاينة والمراضاه** . واكد له كيسنجر : اننا ننظر اليك باعتبارك اكبر زعيم عربي . وغرضنا هو تعزيز مركزك في مصر وفي العالم العربي » ص١٧ .

وعلى هذا الاساس ، فان وزير الخارجية الامريكي في ٢٠ كانون الاول « باح للاسرائيليين بسر ، وبمذكرة للتفاهم وعد فيها بانه لن يدعى مشتركون آخرون الى اجتماعات جنيف في المستقبل ، دون موافقة المشتركين الاول اي اعطاء اسرائيل الحق رفض اشتراك منظمة التحرير الفلسطينية » . ص ٢١

وفي اوائل كانون الثاني ، عاد ديان الى واشنطن « وابرز فكرته عن المناطق الخمس ، وقال ان منطقة فك الارتباط ، يجب ان تشمل خمس مناطق منها منطقة حاجزة للامم المتحدة (المنطقة الاولى) بين الجيشين المصري والاسرائيلي . وتكون قوات هذين الجيشين في منطقتين (هما الثانية والثالثة) مخفضة تخفيضا شديدا . وفيما وراء المنطقتين الثانية والثالثة يجب ان تكون على كل جانبي قناة السويس المنطقة الرابعة والخامسة . بعمق ٣٠ كيلو مترا ويمنع فيها وضع الصواريخ ارض جو » .

« وهذه الخطة اصبحت الاساس التصوري للاتفاق الذي عقب ذلك بوقت سريع . **والفكرة كانت فكرة ديان وليست فكرة كيسنجر** » ص ٢١ .
« ويمكن ان يدعى ديان الاب السري لهذه الخطة » ص ٢٢

« قال السادات : يصعب علي ان اوقع وثيقة تحدد القـــوات في الارض الخاصة بي » ، لكنه « قبل خطة ديان التصورية ، واضاف قائلا: **لن اماحك في التفاصيل ..» !**

« وفي عصر ذلك اليوم ارتأى كيسنجر ان يضمن صورة فك الارتباط في وثيقتين اتفاق رسمي توقعه مصر واسرائيل ،وكتاب منفصل من الولايات المتحـــدة ، موجه الى كلتا الحكومتين ، يرد فيـــه تعيين لما تفهمه الولايات المتحدة مـــن تحديد القوات . اما الاتفاق الرسمـــي فيلمح الى تحديد القوات تلميحا لا غير، بينما الكتاب الامريكي يحددها . **وبهذه المداورة يستطيع السادات ان يدعـــي بان اسرائيل لم تفرض تحديدات على مصر »** « وطلب المصريون من كيسنجر ان يمحى خط ديان في المناطق الخمس ،وافقوا على **تعيين خمس مناطق فـــي الاتفاق وثلاث نقاط على الخريطة »** !ص ٢٢ . وهكذا خفضت القوات المصرية شرقي القنال من ٦٠ الف الى ٧ آلاف ،وخفض السلاح ، واخليت منطقـــة عرضها ٣٠ كيلو متر غرب القنال مـــن الصواريخ .

« لم يتلق السادات جـــدولا زمنيا لانسحابات اسرائيلية اخرى .. ووعد الولايات المتحدة سرا بان يسمح للشحنات الاسرائيلية غير الحربية بعبور قنـــاة السويس .. حالما يجري تنظيفهـــا وتنقيتها .. وقبلت مصر باستطلاعات امريكية جوية فوق منطقة فك الارتباط» ص ٢٢ .

و « حاول السادات مـــن جملة مساوماته مع كيسنجر في مقابل فـــك الارتباط في سيناء ، ان يقنع امراء النفط بانهاء المقاطعة » ص ٢٣ . كما يشير الكاتب الى ان وزير الخارجية الامريكي« طار الى القاهرة في ٩ تشريـــن اول (١٩٧٤) ، لا ليبحث معه المفاوضـــات الجديدة بشأن سيناء فحسب ، ولكـــن ايضا ليلتمس مناصرته للاردن في مؤتمر القمة العربي الموشك على الانعقاد » ص ٣١ . ولم يعد خافيا دور السادات سواء في المؤتمر ، او بمـــناورة بيان الاسكندرية الذي حاول عن طريقـــه الالتفاف حول قرارات الرباط واجهاضها.

ويكشف شيهان دور الرئيس المصري في تجنب « جنيف » ، فينقل الكاتب عنه قوله لكيسنجر في اسوان «ولماذا جنيف؟ يمكنك ان تفعل ذلك كله هنا » ص ٢١. ويستطرد قائلا : « وقد ساعد فـــك الارتباط ايضا ، في القضاء على مؤتمر جنيف . وكـــان السادات كارها مفاوضة اسرائيل وحده ، ولم يكـــن يستطيع ان يجازف بالعودة الى جنيف، الا بعد ان تكون سوريا قد استعادت بعض الاراضي عن طريق فك الارتباط »ص ٢٣ .

وعندما عاد كيسنجر الى دمشـــق،« وجد الاسد مستشيطا غضبا علـــى السادات .. **وخفض الاسد مطالبه** ،مما اعطى كيسنجر نقطة انطـــلاق ، ابلغها للاسرائيليين » ص ٢٣ . الامر الذي يوضح التأثير السلبي للاتفـــاق على موقف النظام السوري.

وبعد ان شعر وزير الخارجية ببوادر فشل مساعيـــه في مفاوضات اذار ـــمارســـ ١٩٧٥ ، راح يشـــرح مخاوفه لقادة اسرائيل ، قائلا فـــي

حديث بالغ الدلالة « الزعماء العرب الذين اعتمدوا على الولايات المتحدة ، سيساء الظن بهم ، ولا يصدقهم احد في اقوالهم ، فاسلوب الخطوة خطوة قد مني بما قطع انفاسه ، اولا من ناحية الاردن ، وثانيا من جهة مصر . وقد اخذ زمام ضبط الحوادث والسيطرة عليها يفلت من يدنا . والان سنرى العرب يعملون معا في جبهة متحدة . وسيشتد الاهتمام ويزداد بالفلسطينيين ، وسيتم ربط بين التحركات في سيناء وفي الجولان ، وسيعود السوفيات الى مسرح الاحداث والولايات المتحدة اخذت تفقد سيطرتها على مجرى الامور .. وسيضطر الاوروبيون الى التعجيل في انشاء علاقات لهم بالعرب .. الخ » ص ٣٤ .

ولم يصدق حدس كيسنجر ، ولم تتحقق مخاوفه (٥) ، فقد « اكد السادات ثقته بكيسنجر ، وجدد مدة انتداب قوات الطوارىء التابعة للامم المتحدة في سيناء . واعاد في اوائل حزيران – يونيو – فتح قناة السويس . **وهذه العوامل تضافرت جميعها على نقض الصورة التي كان كيسنجر ياخذ بها عن المستقبل »** .

عبقرية فرد ام تخاذل انظمة ؟

فالمسألة اذا ، لا علاقة لها بنبوغ وعبقرية الفرد كيسنجر (وان كنا لا نبخسه حقه في الذكاء والحنكة) ، ولا ترجع الى مرونة وتفتح المؤسسات الامريكية المختصة ، او قدرة نظام صناعة القرار الامريكي على التأقلم والتكيف (وهذا يجري في حدود ضيقة للغاية محكومة باطار الحتمية التاريخية) وانما نعزو نجاح هذه السياسة في الاساس الى **ظروف وواقع موضوعي محلي** ، كانت عاملا في « فرض » النجاح على وزير الخارجية الامريكي (رغم انفه ، ان جاز القول) ، حتى حينما اخطأ الحساب واساء التقدير ، المرة تلو المرة . **فالتحولات الجذرية التي طرات على المنطقة ، داخل النظم والقيادات البرجوازية ، انضجت الظروف ومهدت الطريق ، وفتحت الابواب على مصراعيها – بل واقامت اقواس النصر – للمسيرة المظفرة للسياسة الامريكية ، في عصر افولها** . وذلك لان النظم والقيادات الراسمالية المحلية استنفدت طاقاتها وقدراتها « الوطنية » ودخلت مرحلة عقمها **وانهيارها – كحتمية تاريخية –** ، **الامر الذي يقود بالضرورة الى مواقف الخنوع** والاستسلام ، والاكتفاء والالتحام في وضع التبعية للمعسكر الامبريالي ، دون ان يبرز وينضج البديل الثوري المؤهل لانجاز المهام القومية والاجتماعية ، بالقدر الكافي والقوة الاستقلالية – الفكرية والسياسية والتنظيمية – التي تكفل احباط الردة .

ويتابع الكاتب – باختصار – تغطية مباحثات وتوقيع اتفاقية سيناء الثانية .. « والسادات يبدو مستسلما بصورة غريبة » .. و « كان المصريون قد وافقوا على محطات المراقبة الامريكية » ص ٤٠ و «اعطى السادات اسرائيل الالتزام بحالة عدم الحرب في كل شيء الا الاسم .. ووعد كيسنجر سرا ، بانه لن يشترك في حرب اذا هاجمت سوريا اسرائيل » ص ٤٣ .. الخ . ولكن شيهان لا يتطرق الى التحولات الداخلية السياسية

والاقتصادية ، والاجتماعية داخل مصروغيرها من البلدان العربية — ، رغم انها حجر الزاوية في فهم السياسة الخارجية ، فالاخيرة انعكاس مباشر للطبيعة الاجتماعية للنظام . فالتغييرات الجذرية في التركيب الطبقي للسلطة ، وهيمنة الراسمالية الكبيرة — ونفوذ القطاع الطفيلي والكومبرادوري بالذات — وما اعقبه ، وترتب عليه ، من تطورات اقتصادية واجتماعية في اتجاه التخلي عن الاستقلال الاقتصادي ، وربط مصر بالسوق الراسمالي الغربي ، واخضاعها لسيطرة الاحتكارات الامبريالية . . كانت هي الاساس في انتهاج خط الاستسلام السياسي .

ويشير شيهان عرضا الى ان احد مقومات سياسة كيسنجر في المنطقة هي « الترويج للتكنولوجيا الامريكية ، ليكون ذلك واسطة لزيادة النفوذ الامريكي في الامم العربية جمعاء » ص٣ وان جوهر سياسة تسير على مستويين ، اولهما حصر الصدام العربي — الاسرائيلي ، و « المستوى الثاني هي الترويج للتكنولوجيا الامريكية التي يتشوق اليها جميع العرب ، بمن فيهم الراديكاليون » .. « ومن ناحية المصريين فان السياسة الامريكية الموازية ، هي بذلك المساندة الدبلوماسية والمال الامريكي ، وتشجيع الاستثمار الامريكي في مصر ، وتشجيع امراء النفط على انقاذ الاقتصاد المصري .. وتشجيع الاوروبيين الغربيين على بيع الاسلحة الى السادات .. لسد الطريق على الاتحاد السوفياتي ... الخ » ص ١٦

واصبحت سياسة كيسنجر العربية « قائمة على ما هو شبيه بالتحالف بين القاهرة وواشنطن ، او هي على التعيين قائمة على الصداقة بين كيسنجر والرئيس المصري انور السادات » . .وقد ادرك وزير الخارجية الامريكي منذ البداية الاهمية التي تمثلها مصر ، وانه « اذا ضمن السادات ، فسيحذوا العرب الاخرون حذوه » ص ٣ . وكان ينصح القادة الاسرائيليين دائما « بضرورة ادراك الضغوط القاسية الواقعة على السادات . وكان « الاستراتيجيون الاسرائيليون يتحدثون عن فصل مصر عن سوريا ، واخراج مصر من دائرة النزاع العربي الاسرائيلي » ص ٣٢ .ولكنهم كانوا عاجزين عن اتخاذ المواقف الكفيلة بتحقيق هذا الهدف الحيوي ، بسبب عقليتهم العنصرية المتزمتة . وهنا يبرز دور كيسنجر ، الذي يملك بحكم حسه التاريخي ونظرته الاكثر شمولا ، القدرة على الترشيد — الجزئي — للسياسة الاسرائيلية ، الامر الذي يخدم مصالح اسرائيل — وامريكا بطبيعة الحال — بقدر اكبر مما توفره النظرة الاستاتيكية الجامدة للقادة الصهيونيين . .

« يجب تخليص الاسرائيليين من انفسهم »

ان المصالح الامريكية في المنطقة لم تتغير ، وكذلك استراتيجيتها . كل ما هناك انها اضطرت لادخال تعديلات في الاسلوب والتاكتيك ، اي **الشكل لا الجوهر** .

فما زالت الولايات المتحدة تنتهج خط دعم اسرائيل عسكريا واقتصاديا للمحافظة على قوتها ودورها « الرادع » في الشرق الاوسط ، ولحماية مصالحها

البترولية ، وضمان تدفق النفط العربي بافضل الاسعار ، والاستحواذ على القدر الاكبر من العوائد المالية لدول النفط ، وتقليص دور الاتحاد السوفياتي والهيمنة على المنطقة اقتصاديا وسياسيا وتلعب ايران والسعودية ومصر — مؤخرا — دور الركائز الاساسية في هذا المخطط ، جنبا الى جنب مع اسرائيل .

ويحاول كيسنجر اقناع « العرب » بالتغير في السياسة الامريكية .. وموقفه الحيادي . وروج القادة واجهزة اعلام النظم والتنظيمات المتهالكة على الحل الامريكي ، لهذه المفاهيم الزائفة. وكان يضايق وزير الخارجية الامريكي الا يتفهم قادة اسرائيل حقيقة ودوافع وتاكتيكات واشنطن ، التي تتوخى حماية اسرائيل نفسها ، ومن نفسها ، حتى لا تؤدي تصرفات حمقاء ضيقة الافق ، الى احباط مخططها لاخضاع المنطقة كلها ، الامر الذي يتفق تماما مع مصالح اسرائيل .

وبعد تعثر مباحثات اذار ، قال كيسنجر لايجال آلون « ان احد الاسباب ، لما انا وزملائي فيه من غيظ، هو ان **نرى صديقا لنا يحدث الضرر لنفسه** ، بعد خمسة **اعوام من الان** ، لاسباب تبدو تافهة » ص ٣٤ ، ثم وانه « من الامور الفاجعة ان يرى المرء **اناسا يحكمون على انفسهم ، بالتزام مسلك فيه من الخطر ما لا يصدق** » ص٣٥ ..

وينقل شيهان عن المساعدين المقربين لكيسنجر انه (ما من شيء يسبب له عذاب النفس ووجع القلب ، اكثر من اتهامات من هذا القبيل » .. « وهو شديد الافتخار بانه يهودي ، وحينما يحض على تغييرات في سياسة اسرائيل فهو انما يفعل ذلك لانه يود لاسرائيل وليهود العالم الفلاح وحسن الحال . ومما يحز في نفسه ، ويمزق أحشاءه ان تنسب اليه الخيانة والغدر ضد قومه وفي اثناء الاسابيع التي تجلت فيها حدة العواطف بعد المفاوضات الفاشلة سأل كيسنجر عددا من الذين زاروه من اليهود: كيف يمكن لي وانا يهودي ان اعمل شيئا اخون به قومي؟.. » ص ٣٨ وكان يحمل الدعوة الى ضرورة « تخليص الاسرائيليين من انفسهم » .

ويذكر شيهان ان كيسنجر قال لاحد معارفه « اليهود في التاريخ يكونون في الغالب مفكرين يحسنون الاختلاط مع جميع الشعوب . ولهم تبصر بعيد في الامور . ولكن المثل الاعلى في اسرائيل هو الجندي الفلاح . فالعادة الا يكون الجندي من اصحاب الفكر . وقل من الجنود من كان له بعد في التبصر وسعة الخيال . والفلاح معروف باحجامه وعناده ، وبانه مفرط في الحذر .. وهم ممعنون في دقائق الاعتبارات القانونية على غرار التلمود » ص ٣٦ .

والواقع ان كيسنجر قد انجز بسياسته لمصلحة اسرائيل ، اكثر بمراحل مما كانت تقدر عليه تل ابيب باستخدام المنهج الذي تتبناه . ورغم ذلك ظلت واشنطن تسخو في العطاء لاسرائيل ، وتخضع لابتزازها ، وتقدم لها تعهدات ومساعدات بلا تحفظ .ويستشهد الكاتب بمذكرات الاتفاق الاسرائيلية الامريكية ، التي جاء فيها على سبيل المثال « تحاول حكومة الولايات المتحدة ان تحول دون اقتراحات توافق هي واسرائيل على انها مضرة

باسرائيل . والولايات المتحدة مصممة على المحافظة على القوة الدفاعية لاسرائيل عن طريق تزويدها بانواع متطورة من الاجهزة ، كطائرات ف ١٦ على المحافظة على الثورة الدفاعية وان تقوم بدراسة مشتركة للتكنولوجيا المتطورة والاسلحة المعقدة ، بما في ذلك صواريخ بيرشينج ارض — ارض ذات الرؤوس العادية .. والولايات المتحدة لن تعترف بمنظمة التحرير الفلسطينية، ولن تفاوضها ما دامت هذه لا تعترف بحق اسرائيل في البقاء ، ولا تقبل بقراري مجلس الامن رقم ٢٤٢ ورقم ٣٣٨ ... وحكومة الولايات المتحدة تسعى لتنسيق موقفها واستراتيجيتها في مؤتمر جنيف مع موقف واستراتيجية الحكومة الاسرائيلية » .

وقد اثارت هذه التعهدات نقدا شديدا داخل الدوائر الامريكية نفسها ، اعتبرها مساعدو كيسنجر « مفزعة للنفس » ، وبمثابة « عقد للزواج » . ويعلق الكاتب « اذا كان لا بد لامريكا من ان تدفع مهرا بهذا القدر من اجل جزء يسير من سيناء ، فكم يكون مبلغ ما ستدفعه من اجل السلام ؟ » ص ٤٢

ويضيف شيهان انه منذ حرب تشرين امدت الولايات المتحدة اسرائيل بما قيمته على الاقل ٣ بلايين دولار من الاعتدة » ص ٤٤ وانها « ستتلقى حتى نهاية ١٩٨٠ ما قيمته ٥ بلايين من الدولارات او اكثر من السلاح ، وكثير من هذا ، على سبيل الهبة » ص ٤٣

الرياض ودمشق :

وفي الرياض كان هدف هنري كيسنجر الرئيسي التعجيل بالغاء الحظر على النفط . ولعب على « النغمة » المحببة الى نفس فيصل ، لتبرير مسلك واشنطن فقال « الدافع عندنا رغبة في الحيلولة دون حدوث زيادة في النفوذ الشيوعي . فلما شرع السوفيات في ارسال الاسلحة اضطررنا للرد على ذلك .. » ص ١٢ . والتقط الملك الخيط ليحمل على « الشيوعية والالحاد » واستطرد « اود ان تعلموا مبلغ ما يصيبني من الم اذا انا اتخذت خطوات قد تلحق الضرر بصداقتنا » و « يجب ان تتحركوا بسرعة لكي نرفع الحظر. لقد كان من دواعي المي ان اتخذ هذا الاجراء ضد اصدقائنا الامريكيين » . وشرح له صعوبات اعادة الضخ ، قبل تحرك مقنع من جانب واشنطن ، معتذرا « فانا ايضا في وضع صعب » .. « الشيوعيون يتهمون بعض العرب بالرضوخ للضغط الامريكي » ص ١٤ (وهو يقصد الحركة الوطنية التقدمية عامة) ، الامر الذي يكشف احد اهم دوافع القرار والخوف من التراجع بشأنه . ولكن قرار رفع الحظر اتخذ الربيع !

وكشف الملك فيصل عن دور « التهجين » الذي يلعبه بالنسبة لسوريا — بعد مصر — فبادر الى تنبيه وزير الخارجية « سألت صديقا سوريا عما اذا كانت سوريا تعارض زيارة سعادتكم لها . وقد اجاب ان سوريا ترحب بكم » ص ١٣ . وحض عمر السقاف وزير الدولة للشؤون الخارجية كيسنجر على زيارة دمشق ، «ونقل له اعتقاد فيصل ان سوريا هي مفتاح السلام » ص ١٥ . ويقول شيهان « ووعد (فيصل) كيسنجر في منتصف كانون الاول — ديسمبر — ، بان يفعل ما يستطيع لتشجيع المفاوضات ، ولا سيما في سوريا . وهو امر له اهميته الجوهرية في واقع الامر .. واصبح الملك **هو الممول لدبلوماسية كيسنجر المؤقتة في جميع الشرق الاوسط. فقد مد السادات**

بالمال ، واستمال السوريين ، وساعدالصحف في بيروت ٠٠ » ص ١٥

وقد شرح الكاتب ، كيف غضب الرئيس الاسد من الاتفاق المصري الاول وفي لقائه مع كيسنجر لاول مرة قال له: « لا بد من اتفاق على فك الارتباط ، قبل مؤتمر جنيف » .. و« خفض مطالبه » ، وعندما اوشكت المباحثات على الفشل « وضع الاسد يده على يدكيسنجر ، وقال : شيء مؤسف . لقد قطعنا تلك المسافة الكبيرة ، ولم نوفق ، الا يمكن ان نفعل شيئا بشأن هذا الخط . عد الى القدس وحاول مرة اخرى » ص ٢٧ . وبعد يومين تم الاتفاق . وكان على غرار فك الارتباط الاسرائيلي المصري.. نظام الخمس مناطق بما في ذلك منطقة الامم المتحدة ومنطقتان بعمق ١٠ كيلو متر لاسرائيل وسوريا ، حيث الجنود والمدفعية والدبابات محدودة تحديدا شديدا ، ومنطقتان متناظرتان بعمق ٢٠ كيلومتر ، تكون الصواريخ فيها ممنوعة . وفيما وراء منطقة القنيطرة ، سمح للاسرائيليين بان يتابعوا فلاحة الحقول ضمن المنطقة الحاجز ، واحتفظوا بمستوطناتهم وبالثلاث ذات القيمة الاستراتيجية . « واتفق على تسمية القوات المسلحة للامم المتحدة باسم قوة المراقبة ، لمنع الحساسيات عن سوريا » .

القضية « المؤجلة »

في عرضه للمقومات الاساسية لسياسة كيسنجر بعد حرب تشرين يقول شيهان « منذ غداة الحرب، حتى اواخر السنة الماضية ، كان كيسنجر يتشبث دائما بتفادي القضية الفلسطينية ،وان كانت هذه القضية في موضع المحك من الصراع العربي الاسرائيلي » ص ٣ .

وقد اعلم السادات بذلك .. وقبل الرئيس المصري « مكتبا » ، فابلغ وزير الخارجية الامريكي اسرائيل بذلك في « مذكرة التفاهم » ، واصبح من القواعد المتفق عليها .

وفي اللقاء الاول لكيسنجر مع الرئيس الاسد ، عمل على « ازاحة » موضوع « الفلسطينيين » ، بعد ان ضمن موقف السادات ، «فابرز مسودة كتاب للدعوة الى المؤتمر (جنيف) ..واشار الى الجملة الجوهرية في الكتاب وهي : ان الاطراف قد وافقت على ان مسألة المشتركين الاخرين من مناطق الشرق الاوسط ، سيجري البحث فيها ومناقشتها في المرحلة الاولى من المؤتمر » ــ اي استبعاد منظمة التحرير ــ . وابلغ كيسنجر الرئيس السوري « ان اسرائيل لا تريد اشارة الى الفلسطينيين في هذه النقطة . ونحن نعترف بانكم لن تحلوا هذه المشكلة دون اخذ المصالح الفلسطينية في الحساب . ولكننا نرى انه من الخطأ اثارة المسألة الفلسطينية في بداية المؤتمر » ص ١٨.

ويوحي الكاتب من خلال المقتطفات التي اوردها للحوار بين الوزير الامريكي والرئيس السوري ــ بان الاسد لم يتوقف طويلا عند هذه النقطة ، اذ انتقل مباشرة الى مناقشة موضوعات اخرى.

وانعقد مؤتمر جنيف في ٢١ كانــونالاول ، دون ان تحضره سوريا ومنظمة التحرير . وفي المباحثات التالية مـــعدمشق (ايار ١٩٧٤) تركزت المساومات في (فك الارتباط) على جبهة الجولان.

«وبنهاية تشرين اول ، كــان بروزمنظمة التحرير الفلسطينــية بصورة متزايدة في المجال الدولي ، مثارا للذعرعند كيسنجر» ولذلك فقد سافــر في ٩ تشرين الى القاهرة ليطلــب مناصرة السدات للاردن في مؤتمر القمة الموشك على الانعقاد . وكان الرئيس المصريعند حسن ظنه ، فناور ـــ مـــــع السعودية ـــ وراء الكواليس فـــي الرباط . وعندما عجز عـــن التاثير في القرار ، اصدر بيـــــان الاسكندرية(الشهير) الذي يتضمن نقضا لمضمونه.

وكان كيسنجر يخادع ويــــداور فيمسألة « الفلسطينيين » ويناور امــام القادة العرب ، على اساس ان المشكلةمؤجلة ، وليست مستبعدة ، وسيأتــي دورها في الوقت المناسب « مع الامــنوالحدود والقدس » ص ٣١

وبعد فشل مباحثات اذار ١٩٧٥ ،وظهور خيارات اخرى ، غير طريـــق الخطوة خطوة ، داخل الادارة الامريكيةومنها اعادة الدعوة لعقد مؤتمر جنيف بهدف بحث « تسوية نهائية في الشرقالاوسط تشمل ضمانات لامن اسرائيل» .. يقول الكاتب « ومن الغريب ان حلالمشكلة الفلسطينية ، وان كان واردا ضمنا في الخيار الاول (التسويـــــــةالشاملة) ، فانه في غير ذلك ، ارجيء في المذكرات السرية الخاصة بالموقــفالمقترح اتخاذه ، وفي المناقشات العديدة التي قام بها كيسنجر » ص ٣٧

وكان كيسنجر « مثل نيكسون » والرئيس جونسون من قبله ، يعتبر الملك حسين بانه مضمون.فالاردن على الرغممن كل شيء ، كان تقريبا محمــــسية امريكية . ولكنه على خلاف اسرائــيللم يكن له دائرة انتخابية ، ولذلك كــان عليه ان يكتفي باي فتات تهتم واشنطنبان تلقيه في طريقه » . وكان كيسنجر « يحبه (الملك حسين) ويجـــب انيطريه على جلده وصبره في الازمة التي حدثت مع الفدائيين الفلسطينين سنة١٩٧٠ » وكان الملك بدوره ، ينتظر من صديقه « ان يدخل الاردن في نطـــاقدبلوماسيته الجديدة . وكان مشروع كيسنجر الاصلي الخاص بجنيف ، متىتم فك الارتباط عن اسرائيل ومصر ، هو فك الارتباط على الجبهة السوريـــةوالجبهة الاردنية » .

وكان كيسنجر يرى ان التسلســلالمنطقي للامور ، يقتضي ان يجيء دور الاردن بعد سوريا . وبعد فك الارتباطعلى الجبهة السورية « **انذرالاردنيون كيسنجر بانهم اما ان يستعيدوا بسرعةالضفة الغربية ، واما ان منظمة التحرير الفلسطينية ستسبق الـــى تحقـــيقدعواها » .. ولكن اسماعيل فهمـــي كان هو ايضا في واشنطن ، وقـــدمالمصريون حججهم ليثبتوا اسبقيتهم على الهاشميين » ص ٣٠**

ويستطرد الكاتب ، انه في كانـــونالثاني ١٩٧٤ قدم الملكحسين والرفاعي الى كيسنجر خريطة تقترح بان تنسحباسرائيل من نهر الاردن الى داخلالضفة

الغربية ، مسافة ثمانية الى عشرة كيلومترات .. لكن اسرائيل رفضت الخريطة الاردنية » واقترحت تسوية نهائية سياسية مع الاردن . وكان الاقتراح مذلا ، حتى انه لم يكن جادا . وفي الاقتراح تحتفظ اسرائيل بالقدس العربية وباجزاء مهمة من الضفة الغربية ، وبحدود دفاعية على امتداد النهر . وتعيد ما بقي من توافه الاشياء الى الاردن ، مع ادخال الجيش الاسرائيلي فيها ، بحيث يتأتى عن ذلك منطقة عربية اشبه ما تكون بمنطقة ليزوتو في جنوب افريقيا» ص ٣٠ .

ويشير شيهان الى ان « مؤتمر الرباط كان اول هزيمة كبرى مني بها كيسنجر بعد حرب تشرين » ويرى ان السادات « قد استفاد بطريق غير مباشر من قرارات الرباط ، اذ اسقطت الولايات المتحدة فكرة اتفاقية مع الاردن » واصبح كيسنجر « يفضل ان تكون سيناء موضوع المفاوضات التالية» ص ٣١ .

وسبق ان اوضحنا كيف ان مذكرات الاتفاق الاسرائيلية الامريكية المكملة لاتفاق سيناء الثاني (ايلول ١٩٧٥) تسلم بحق « الفيتو » لاسرائيل ، فيما يتعلق بتمثيل « الفلسطينيين » في جنيف .

ويفضح شيهان نوايا كيسنجر والفكرة التي تحركها ، فيلخص وجهة نظره في التالي « لو فرضنا ان قطعة مبتورة من فلسطين يمكن توفيرها ، فان الفكرة لم تجد هوى لدى كيسنجر . فكتب التاريخ قد علمته ان مثل هذه الدويلة المصغرة تربى في النفوس عواطف الحماس لاسترداد المسلوب ، وتسبب انفجارات فيما بعد ، وتبعث على قيام منازعات خطيرة بين الدول العظمى . **وقد ينال الفلسطينيون دولة لهم ، ولكن على ان تكون فقط جزءاً من الاردن » ص ٣١**

وبعد توقيع الاتفاقية المصرية ــ الاسرائيلية ــ الامريكية، وما اعقبها من ردود فعل وخيبة الامل وشكوك في امكانية التوصل لخطوات جديدة ، توخى كيسنجر الابقاء على قوة الدفع ، في اتجاه التسوية الامريكية « باحياء ثقة الاسد به ، فاخذ يلين في موقفه من الفلسطينيين ، مثال ذلك تصريح نائب مساعد وزير الخارجية السابق ساندرز الذي اشار فيه الى ان البعد الفلسطيني هو لب الصراع العربي الاسرائيلي ، ومطاوعة كيسنجر على اشتراك منظمة التحرير الفلسطينية في مناقشة مجلس الامن في كانون الثاني (يناير) » ص ٤٦

والتطورات اللاحقة تظهر انه كلما زاد الاقتراب من « لب المشكلة » تضاعفت المؤامرات ضد الشعب الفلسطيني وقيادته المتمثلة في منظمة التحرير الفلسطينية ، فيجري احياء مشروع المملكة المتحدة ، ومشاريع بديلة لوحدات كونفدرالية اوسع نطاقا ويشتد شعار حملة التصفية الجسدية للمنظمات المقاتلة والقوى الثورية ، وشحذ سلاح « تعريب الصراع » وشق الصفوف ، الامر الذي نشهد ذروته حاليا في العالم العربي ، وبصفة خاصة ــ ومدمرة ــ

على ارض لبنان .

والواقع انه منذ توقيع الاتفاق المصري ـ الاسرائيلي الاخير ، تمت المعارضة لسياسة « الخطوة خطوة » وتصاعدت موجة النقد لمنهج كيسنجر في امريكا واوروبا . كما ان بعض الذين تبنوا منهجه ، يعتقدون الان انه قد استنفد اغراضه وفقد فاعليته ، وينصحون بالتحول الى العمل على ايجاد « تسوية شاملة » . وهو « ما يحبذه معظم الموظفين الرسميين الامريكيين الذين كانت لهم صلة بالشرق الاوسط » ص ٤٦

بل ان شيهان يعتبر فك الارتباط الاسرائيلي السوري انه كان « بمثابة الاوج لدبلوماسية كيسنجر في الشرق الاوسط ، بدانا نلاحظ بعده تطاول الاشباح والخطوات المتعثرة المتخاذلة وخيبة الامل والمهاترة والشكوك وشلل في الاعمال » ص ٢٨ وان « اعمال السلام التي شرع فيها كيسنجر وآماله العريضة منذ عامين ، يظهر انها قد توقفت الان في شتاء من الشكوك والسخط » . ص ٤٤

ويبدو شيهان متشائما ، فيما يتعلق باحتمالات التوصل الى تسوية شاملة ويعزو ذلك الى ان كيسنجر ، « قد استبعد عن مشروع اقرار السلام ، **العنصر الاساسي** في النزاع العربي ـ الاسرائيلي » اي قضية الشعب الفلسطيني . ويرى انه فوت الفرصة غداة الحرب . وان التصدي لها اليوم اصبح اكثر صعوبة من ذي قبل » ص ١٧ .

لكن عمليات التحضير لجولة جديدة في مخطط التسوية الامريكية الاستسلامية ، تجري اليوم على « قدم وساق » تشهد معالمها في تحركات القوى الرجعية ، وضراوة حملة التصفية القذرة ضد المقاومة الفلسطينية والقوى المناصرة لها ، المتحالفة معها .

وهكذا فان الاستبعاد السياسي « **للعنصر الاساسي** » يتحول الى محاولة لاستبعاده بالابادة الجماعية باستخدام ادوات عربية ، تحركها اصابع الامبريالية .

«١» على عكس الدراسات الموجهة في الوطن العربي ، التي تركز اساسا على حجب المعلومات وتزييف الواقع .

* اعتمدنا على النص المترجم ، من اعداد قسم الترجمة والتحرير والنشر في مؤسسة الدراسات الفلسطينية.

«٢» والمفاجآت تعني دائما خطأ الحسابات واساءة التقدير.

«٣» مدير قسم المصالح المصرية في واشنطن واول سفير بها بعد عودة العلاقات الدبلوماسية

«٤» وجوهر هذا المشروع كان مقدما من موشى دايان .

«٥» لا شك ان جانب من هذه الصورة ، قصد به التأثير على اسرائيل ، بتخويفها من عواقب الفشل ، وتراخي « قوة الدفع » ، الا ان جانب اخر ـ لا يستهان به ـ يعكس عجز السياسة الامريكية عن ادراك الواقع العربي والتصورات التي طرأت على الخريطة السياسية والاجتماعية في المنطقة.

اميركا تجيّر حرب تشرين لخدمة مصالحها الاستراتيجية

المقدم الهيثم الايوبي

تتمحور سياسة الولايات المتحدة الاميركية اليوم في جميع مناطق العالم الحساسة، ومن بينها منطقة الشرق الاوسط ، حول هدف اساسي هو « الحفاظ على الاستقرار وتثبيت الوضع الراهن » . ومن المؤكد ان السعي لتحقيق الاستقرار لا ينبع من رغبة اميركية في خلق المناخ اللازم لتطور الشعوب اقتصاديا واجتماعيا واخراجها من التخلف الموروث ، بل ينبع من ان المصالح الاميركية الحالية (استمرار الاستغلال وعدم الصدام مع السوفيات) لا يمكن ان تتحقق الا في مناطق متخلفة ولكنها مستقرة ، وخاضعة للبنى الاقتصادية — الاجتماعية — السياسية المفوتة التي خلقها الاستعمار القديم قبل رحيله عن بلدان العالم الثالث ، وربطها به مصلحيا ، ثم جيرها للامبريالية الاميركية الجديدة في المناطق التي ورثتها هذه الامبريالية او انتزعتها من الامبراطوريات الاستعمارية القديمة . وعلى هذا الاساس فان « هدف » تحقيق الاستقرار لا يشكل غاية بحد ذاته ، وما هو سوى العملية الاولى والضرورية لبناء « ارضية راسخة » تضمن الوصول الى الاغراض الحقيقية المتباينة (في النوع لا في الجوهر) بتباين ثروات المناطق المنوي تهدئتها ، واهمية موقعها الاستراتيجي ، وطبيعة قواها وتناقضاتها ومعضلاتها .

ونظرا لموقع الشرق الاوسط ، واهمية ثروته البترولية ، فان تهدئته (خلق الارضية الراسخة) تعني بالنسبة الى واشنطن نزع اي فتيل متفجر محلي قد يؤدي الى التصعيد نحو صدام نووي انتحاري مع السوفيات والحفاظ على الوضع الذي يسمح باستمرار استغلال النفط ، وتأمين خطوط النقل النفطي البرية الى شواطىء البحر الابيض المتوسط بالاضافة الى خطوط النقل البحرية عبر الخليج العربي — مضيق باب المندب — البحر الاحمر — قناة السويس — شرقي البحر الابيض المتوسط . هذا هو الاصل . وكل ما عدا ذلك فروع ، مراحل ، خطوات مرسومة لتأمين الاصل وخدمته .

ان الوصول الى الهدف لا يتم دون « وسيلة » . ومن الطبيعي ان تكون الوسيلة ممرحلة متشعبة متعددة المحاور والبدائل . واذا كان تحديد

الهدف والوسيلة اللازمة لبلوغه عملايدخل في نطاق الاستراتيجية الثابتة الى حد ما ، فان تمرحـــل الوسـيلة ،والمناورة على محاورها المتشعبـــة ، واستخدام البدائل المتغيرة بتغيـــــر المواقف ، امور تدخل في نطاق التكتيك المرن القابل للتبديل . واذا كان الهدف الاستراتيجي الاميركي ، كما ذكرنا ، يتمثل في التهدئة وتأمين الاستقرار ، فقدكانت الوسيلة قبل الحـــرب العالمية الثانية تتمثل في الاعتماد على سلطـة الدولتين الاستعماريتين القديمتـــين (بريطانيا وفرنسا) المسيطرتين عسكرياوسياسيا على منابع النفط وطـــرق نقله ، والمستعدتين لتأمين مصالحهمـــا في المنطقة بالاصالة ومصالح الولايـات المتحدة بالوكالة .

وبانتهاء الحرب العالمية الثانية وبدء انهيار الامبراطوريتين البريطانيـــــة والفرنسية، بدلت واشنطن «الوسيلة»ووجدت ان التهدئة يمكن ان تتم عـــن طريق « الدولة الصهيونية » التـــي خططت بريطانيا من قبل لانشائهـــا ، خاصة اذا دعمت هذه الدولة منــــذ انشائها لتصبح قادرة على لعب دور " الشرطي المحلي » ، واتخذت التدابير الكفيلة بتكريس التخلف والتجزئة في الوطن العربي ، حتى يبقى « الشرطي »أقوى من المتمردين المحتملين . وكـــان هذا الامر ممكنا وبتكاليف محدودة خلال مرحلة ارتباط الدول العربية بالغـــرب سياسيا وتسليحيا (١٩٤٥ــ١٩٥٥) .

بيد أن وجود اسرائيل جـــاء ليضيف عاملا جديدا وديناميكيا الى العوامـــل الاقتصادية والاجتماعية والنفسيـــة الكامنة وراء عـــدم استقرار المنطقة . ولقد أدى هذا الوجود المفتعل ، وتزايد الشعور القومي العربي ، وتنامـــي حركة التحرر العالمي المدعومة من قبل المعسكر الاشتراكي (الذي غدا بعـــد الحرب منافسا خطيرا للمعسكـــــر الراسمالي) ، وكسر احتكار السلاح في العام ١٩٥٥ ، الى ظهور وضع جديد يهدد « سياسة التهدئة » ، ويهـــدد بالتالي المصالح الاميركية . هنـــــا حافظت الولايـــات المتحـــدة علـــى « الوسيلة » (الشرطـــي المحلـــي) ،ولكنها بدلت تكتيكها لتقويته ، فلم تعد تكتفي بتدعيمه عسكريا واقتصاديـــا ،بواسطة اطراف ثلاثة (بريطانيـــا ، المانيا الغربية ، فرنسا) بل اضافت الى ذلك العمل الجاد لاضعاف المعسكر العربي ، عن طريق التآمر علـــى قوى التحرر الوطني العربـــي الراديكاليـــة واستنزافهـــا اقتصاديـــا وعسكريا .وعندما وجدت أن الاضافات التي حصلت عليها اسرائيل ، والنقص المستمر الذي أصاب قوى التحرر الوطني العربي قد بدلت ميزان القوى ، واوجدت المـــناخ الملائم لتسديد ضربة حاسمة تحقق لها عدة اغراض بآن واحد ، أعطـــــت اسرائيل الضوء الاخضر . وكانت حرب حزيران ١٩٦٧ .

وحققت اسرائيل في هذه الحـــرب انتصارا عسكريا اظهرها كقوة منظمة ديناميكية قادرة على خوض الحـــرب الحديثة بكل تعقيداتها ، والتغلب على الدول العربيـــة مجتمعة ، واعـــــادة الاستقرار الى المنطقة بقـــــوة الردع العسكري المتزامن مع العمل المتدرج ،والافادة من مظلة الردع لتهويد المناطق المحتلة وتدجينها وضمها على مراحـــل متعاقبة (الضم الزاحف) . ورغـــم انسجام توجه اسرائيل نحو فـــــرض الاستقرار مع مصالح الولايات المتحدة

الراغبة في التهدئة، فقد وجد الاميركيون في الفترة التي اعقبت حرب ١٩٦٧ ان السياسة الاسرائيلية ستؤدي على العكس الى تفاقم عدم الاستقرار، نظرا لان الكرامة العربية المجروحة في الحرب العربية ـ الاسرائيلية الثالثة ستكون حافزا قويا لاعادة بناء القوات المسلحة العربية بمساعدة السوفيات ، وشن حرب ثأرية رابعة .

ولقد بنت واشنطن حكمها على عدة مؤشرات اهمها : استمرار الدعم العسكري السوفياتي لمصر وسورية والعراق ، وبدء حرب الاستنزاف على جبهة قناة السويس ، وتنامي العمل العسكري ـ السياسي الفلسطيني داخل الارض المحتلة وخارجها . وتكونت في العديد من الاوساط الاميركية قناعة بضرورة تبديل التكتيك، واقناع اسرائيل ، رغم تقويتها بسلاح اميركي ، بضرورة التخلي عن كل او بعض الاراضي العربية المحتلة، وايجاد صيغة معقولة لاحتواء الزخم الثوري الفلسطيني عن طريق اعطاء الفلسطينيين بعض حقوقهم عبر النظام الاردني ، على اعتبار ان السير على هذا السبيل يشكل المدخل العملي لمنع الدول العربية من تقوية علاقاتها مع الاتحاد السوفياتي ، مصدر السلاح اللازم لتحرير الارض بالقوة، والوسيلة المثلى لحرمان الثورة الفلسطينية من الامتداد والتجذر . وانطلاقا من هذه القناعة طرح وزير الخارجية الاميركية دين راسك خطته لحل الازمة (تشرين الثاني ١٩٦٨) ، وتبنى مجلس الامن القومي الاميركي خطة للتحرك نحو حل شامل من خلال تسويات جزئية (مطلع ١٩٦٩) ، وطرح وليم روجرز مشروعه (كانون الاول ١٩٦٩) . بيد ان اسرائيل اصرت على ضرورة التمسك بالتكتيك القديم القائل بأن « اسرائيل القوية » هي الضمانة الوحيدة للاستقرار والتهدئة .

وبقيت الولايات المتحدة مترددة في العودة الى التكتيك القديم حتى نهاية العام ١٩٧٠ ، حيث ادى توقف حرب الاستنزاف ، وضرب قواعد الثورة الفلسطينية في الاردن ، ووفاة الرئيس جمال عبد الناصر ، الى خلق وضع جديد اقنع الاميركيين بامكانية العودة الى تكتيك ما قبل حرب ١٩٦٧ . وزاد من قناعتهم ان الاسرائيليين استطاعوا تهدئة المناطق المحتلة الى حد ما ، وافادوا من الجسور المفتوحة مع الاردن لاظهار الاوضاع في المنطقة وكأنها سائرة نحو التعايش الذي يلعب فيه الزمن دور العامل المهدىء، ويخفف حالة العداء بالتدريج .

وبعودة واشنطن الى التكتيك القديم عادت اسرائيل الى الهجوم العسكري ـ السياسي ـ النفسي ، وطبقت استراتيجية الردع لتذكير العرب بمعادلة « التفوق الاسرائيلي والعجز العربي » بغية تدجينهم واستنزاف ارادتهم القتالية . وفي هذا الوقت كانت محاور العمل الاميركي تستهدف دعم اسرائيل بشكل مستمر ، وتفتيت المعسكر العربي ، وعزل مصر عن المعركة ، واستغلال الخلافات العربية حول القضية الفلسطينية ، وتنفيس التوتر النفسي العربي ، وتخفيف حدة العداء لاميركا ، واضعاف النفوذ السوفياتي ، بدلا من تصفيته النهائية، على اعتبار ان بقاء شيء من النفوذ السوفياتي غير الخطر يرفع عن كاهل الولايات المتحدة اعباء اقتصادية ينبغي عليها ان تحملها اذا ما خرج السوفيات نهائيا من المنطقة .

ومع قدوم العام ١٩٧٢ كانت التكتيكات الاميركية قد حققت عددا من اغراضها فلقد اصبحت اسرائيل قوية الى الحد الذي سمح لها بالعربدة والضرب في العمق العربي ، وبدا المعسكر العربي مفتتا ، وظهرت في مصر تيارات تستهدف تصفية الناصرية بمعناها الاقتصادي ـ الاجتماعي الداخلي وبمعناها الاستراتيجي وتحالفاتها مع المعسكر الشرقي ، وحوصرت الثورة الفلسطينية في لبنان بعد خروجها نهائيا من الاردن على اثر احداث جرش وعجلون (تموز ١٩٧١) وعبئت ضدها قوى النظام القديم الرسمية وغير الرسمية ، وانهت مصر ـ بدفع اميركي غير مباشر ودفع سعودي مباشر ـ مهمة الخبراء السوفيات (٢١ الفا) في تموز ١٩٧٢ بعد ان استطاعت تصفية مجموعة علي صبري في ايار ١٩٧١ ، واخذت معاداة السوفيات شكلا رسميا في مصر ، واستطاعت المشاريع السلمية تنفيس التوتر الحربي واعطت العرب املا بامكانية التوصل الى حل لمسالة الاراضي المحتلة دون الاحتكام الى السلاح . وكانت كل الدلائل تشير الى ان الاستقرار مؤمن بفضل حالة « اللاحرب واللاسلم » التي قدر الكثيرون ان الدول العربية المتنازعة عاجزة عن تحطيمها .

ورغم رضا الولايات المتحدة النسبي عن التهدئة المحققة ، فقد كان في الادارة الاميركية عناصر (ومن بينها كيسنجر) ترى ان التهدئة الاسرائيلية بالعنف لم تقتلع كل اسباب النزاع ، وان هذه التهدئة لا تستند الى قواعد صلبة . وان التكتيك الامثل للتهدئة هو خلق « منطقة متجانسة » تسود بين دولها علاقات غير عدائية ، بغض النظر عن انظمة هذه الدول وتراثها الفكري وايديولوجياتها . ولكن وجود هذه المنطقة المتجانسة كان يتطلب اتفاقية سلام يقف في وجهها رفض العرب للسلام من موقع الهزيمة خاصة اذا كان هذا السلام سيجبرها على التخلي عن جزء من الاراضي المحتلة في حرب حزيران ١٩٦٧ ، وتعنت اسرائيل واتساع شهيتها لضم المناطق المحتلة وقدرتها على الافادة من اللوبي الصهيوني المتصلب امام اي ضغط اميركي . لذا تجمد المسعى الاميركي لخلق « المنطقة المتجانسة » ، وبقي الشرق الاوسط في حالة استقرار ظاهري قلق يخفي تحته عوامل الانفجار .

وفي السادس من تشرين الاول ١٩٧٣ انقلب التوازن القلق ، وزال الاستقرار الذي بدا ثابتا منذ نهاية حرب الاستنزاف ، وتحول العداء الكامن الى صدام مسلح واسع النطاق . وسواء كانت الولايات المتحدة قد شاركت في التخطيط لحرب مرسومة الابعاد والاهداف (كما يقول الرئيس حافظ الاسد) ، ام انها فوجئت بها كما فوجيء الاسرائيليون (كما يقول الرئيس محمد انور السادات) ، فقد ظهر امام واشنطن وضع ساخن جديد . وتصرفت الولايات المتحدة كدولة عظمى ذات مصالح حيوية ، فلم تقف من النزاع موقفا سلبيا ، بل عملت ما في وسعها لاستغلاله وتجييره لمصلحتها مطبقة بذلك مبدأ « العمل وفق معطيات الواقع الموضوعي وما يمكن انجازه في ضوء هذا الواقع ، وفي ظل الظروف المهيمنة » .

ولقد راى الدكتور هنري كيسنجر ، مهندس « المناطق المتجانسة » ان

بوسع الولايات المتحدة استغلال الوضع الساخن من اجل خلق المناخ الملائم لبناء « المنطقة المتجانسة الشرق اوسطية » في المستقبل ، شريطة ان تجري الامور بشكل يحقق ما يلي :

اولا : اعطاء العرب فرصة ليتولوا كلمتهم ، ويستعيدوا عزتهم القومية ، ويصبحوا بالتالي اكثر استعدادا وقدرة للبحث في مسائل السلام .

ثانيا : عدم السماح للضربة العربية بان تأخذ بعدا اكبر مما ينبغي ، حتى لا تتعرض اسرائيل لهزيمة تعرض المناطق الواقعة وراء الخط الاخضر (حدود هدنة رودوس ١٩٤٩) للخطر ، وتفتح شهية العرب اكثر مما ينبغي ، وتحطم مصداقية اميركا كزعيمة (للعالم الغربي) وكدولة مستعدة للوفاء بالتزاماتها وتثير نقمة يهود اميركا المهيمنين انتخابيا وسياسيا ، وكيلا يزداد النفوذ السوفياتي على اثر انتصار جيوش عربية مسلحة ومدربة بمساعدة السوفيات .

ثالثا : مساعدة الدولة الصهيونية قبل ان تحشر في زاوية ، حتى لا يقف الاسرائيليون بعد انتهاء القتال (كما وقف العرب بعد حرب ١٩٦٧) موقف الرافض للسلام من موقع الهزيمة . (يذكر البعض ان عدم السماح بحشر الاسرائيليين في زاوية كان يرجع ايضا الى خوف كيسنجر من لجوئهم في حالة التعرض لخطر ماحق الى استخدام سلاح الدمار الشامل النووي او البيولوجي او الكيماوي ، الامر الذي قد يؤدي الى رد فعل سوفياتي مماثل يكون شرارة اندلاع حرب نووية عالمية بالاستجرار . ولكن ليس هناك من الدلائل ما يؤكد هذه الفرضية حتى الان) .

رابعا : اعطاء الطرفين المتنازعين الفرصة لمتابعة القتال ودهورة الوضع الى « حافة الهاوية » بغية اقناعهما بعبثية اللجوء الى السلاح ، وضخامة الخسائر الناجمة عن الحرب وخطورة هذه الحرب المحلية على السلم العالمي، الامر الذي يؤدي الى تقوية حجج المعتدلين الميالين الى ايجاد حل سلمي للنزاع طالما ان الحل العسكري عاجز عن تحقيق اغراضه .

خامسا : مساعدة اسرائيل على تسديد ضربة معاكسة تعيد التوازن العسكري والنفسي الى المنطقة ، وتجعل النتيجة النهائية (واحد الى واحد) ، الامر الذي يخلق في النهاية لدى الطرفين احساسا بالفخار البطولي وشعورا بامكانية التعرض للهزيمة (التي لم تقع) . وهذا مناخ نفسي جيد لبدء المفاوضات .

سادسا : التدخل الجدي في لحظة ذروة الازمة بغية ايقاف « قتال الديكة المنهوكة » ، والتصرف كحكم محايد يحتكر مفاتيح الحرب والسلام .

واذا عدنا الى مسلسل احداث حرب تشرين الاول ١٩٧٣ ، وجدنا ان الامور جرت بشكل متطابق الى حد ما مع ما ذكرناه . فلقد اخفت الولايات المتحدة معلوماتها عن الهجوم العربي (سواء كانت هذه المعلومات ناجمة عن

مشاركتها في التخطيط أو عن مصادر استخباراتها التقنية وغير التقنية) ، ولم تؤكد لاسرائيل بأن الهجوم واقع حتما الا قبيل ساعات ، الامر الذي شارك في تعرض الاسرائيليين للمفاجأة (علما بأن الاسرائيليين كانوا في وضع نفسي يسمح بمفاجأتهم) . وادت المفاجأة الى حرمان الجيش الاسرائيلي من القيام بالهجوم الاجهاضي المسبق ، كما ادت الى اجراء التعبئة على عجل والتعرض لخسائر جردت الاسرائيليين من تفوقهم الاولي .

وكان من الواضح ان الاميركيين يعتقدون بأن اسرائيل ستنجح في تسديد الضربة المعاكسة اللازمة لاعادة التوازن ، رغم المفاجأة وما رافقها من اضطراب وخسائر . وعندما رأت بأن هذه الضربة قد تعثرت في الجولان وتعذر القيام بها في سيناء ، اعادت تسليح الجيش الاسرائيلي حتى لا يشعر بأنه في مأزق ، وقدمت له المعلومات ليقوم بمغامرة الدفرسوار منذ يوم ١٥ تشرين الاول .

وفي اليوم التالي طرح الرئيس السادات مشروعه السلمي على اساس القرار رقم ٢٤٢ ، فلم تغتنم واشنطن الفرصة للقيام بضغط جدي لايقاف القتال ، بل آثرت منح الاحتياط الاستراتيجي الاسرائيلي المحتشد في سيناء فرصة تطوير عملية «الغزالة» . وفي ١٧ تشرين الاول اجتمع الرئيس الاميركي في واشنطن بأربعة من وزراء الخارجية العرب فلم يطرح ما يدل على انه متعجل لوقف القتال . وتشكل لدى الوزراء العرب الاربعة الانطباع نفسه عندما اجتمعوا الى كيسنجر . وهكذا أجل الاميركيون عمدا اي بحث جدي في وقف اطلاق النار ، وتركوا رحى الحرب تطحن الطرفين حتى تفتح ضخامة الخسائر عيونهم على عبثية القتال وضراوته وجدوى البحث عن حل سلمي . وفي ٢٠ ـ ١٠ طار كيسنجر الى موسكو للاتفاق مع السوفيات على وقف القتال وهو متأكد من ان قرار وقف القتال الذي سيتم التوصل اليه في مجلس الامن بعد يوم أو يومين سيلقى ترحيبا من جميع الاطراف المتصارعة التي تعرضت خلال القتال لخسائر كبيرة وغير مألوفة من قبل .

ورغم صدور قرار وقف القتال في ٢٢ ـ ١٠ ، تابعت القوات الاسرائيلية تقدمها حتى قطعت طريق القاهرة السويس في ٢٣ ـ ١٠ . وغضت الولايات المتحدة الطرف عن هذا الخرق الفاضح لقرار مجلس الامن الذي شاركت في التصويت عليه ، وكانت غايتها اعطاء الاسرائيليين فرصة اضافية لتكريس نجاحاتهم ، وترك الكرة تتدحرج الى « حافة الهاوية » . ولقد تدحرجت الكرة بالفعل عندما أرسل ليونيد بريجنيف سكرتير الحزب الشيوعي السوفياتي الى كيسنجر رسالة شديدة اللهجة في يوم ٢٣ ـ ١٠ وهدد فيها بانه اذا لم تتدخل الدولتان العظميان معا لوقف القتال فان الاتحاد السوفياتي قد يتصرف منفردا ويرسل قواته لتنفيذ قرار مجلس الامن .

واستغل كيسنجر الرسالة السوفياتية لاقناع الرئيس ريتشارد نيكسون بضرورة الرد على التهديد بتهديد اعنف . وصعد نيكسون الوضع الى مستوى استنفار الاسلحة الاستراتيجية (النووية) . وفي هذا الجو المتوتر الموحي باحتمالات وقوع صدام دولي نووي ، صدر القرار رقم

٣٤٠ ، والغى نيكسون الاستنفار النووي ، وقدمت الولايات المتحدة نفسها كحكم محايد قادر على ايجاد الحل السلمي .

ان كل هذه الامور تدل على ان الولايات المتحدة استخدمت الحرب وسيلة للضغط على المتطرفين في الطرفين المتنازعين بغية تدجينهم ، واقناعهم بعدم جدوى الحرب ، ودفعهم نحو موقف المعتدلين . وحتى اعلان استنفار الاسلحة الاستراتيجية فقد كان عملا لا مبرر له من الناحية العسكرية ، وتصعيدا مفتعلا الى « عتبة » اعلى مما ينبغي ، ليس بقصد الضغط على السوفيات او استفزازهم وجرهم الى الصدام ، بل بقصد الهاء الشعب الاميركي عن قضية « ووترغيت » من جهة ، وايهام العرب والاسرائيليين بأن اقتتالهم سيؤدي الى اندلاع حرب نووية عالمية من جهة اخرى .

ونجم عن حرب تشرين وضع نفسي جديد وموازين قوى جديدة. واذا كانت ايام تشرين المجيدة قد هزت معظم المقولات الاسرائيلية القديمة حول التهدئة ، ونقضت جوهر المخطط الصهيوني ، فقد ادت الى اكتشاف الامة العربية لقدرتها على مجابهة الغزوة الصهيونية ودحرها ، وامتلاكها لقوى بشرية واقتصادية وعسكرية قادرة على قلب موازين القوى المحلية والتأثير الجدي على موازين القوى العالمية ، وكانت نقطة انتقال الامة العربية من مرحلة امتلاك القوة الى مرحلة الوعي بامتلاك هذه القوة والقدرة على استخدامها .

والى جانب هذه النتائج ، ادت الحرب ، والشكل الذي تم به ايقاف القتال ، والاعلام الذي احاط باستخدام سلاح النفط (رغم اخطاء هذا الاستخدام) الى نتائج اخرى تمثلت بمايلي : ١ ــ ظهور ارتباط اسرائيل باميركا حياتيا وامنيا ، ٢ ــ ارتفاع هيبة ومركز وثروة (وبالتالي قوة) الدول العربية التقليدية ، ٣ ــ تزايد قوة المعتدلين على جانبي الخندق ، ٤ــ تحسن سمعة الولايات المتحدة بسبب الثقة الممنوحة لها من بعض العرب دون اساس موضوعي ، واستنادا الى الاعتقاد الموهوم بوجود تبدل استراتيجي في الموقف الاميركي من النزاع العربي ــ الاسرائيلي ، ٥ ــ عودة التناقضات العربية للظهور ، ٦ ــ اشتداد الحملات ضد الحليف الاستراتيجي السوفياتي ، ٧ ــ ترسخ الفكرة لدى بعض العرب بأن اميركا تملك كل مفاتيح الحرب والسلام ، ٨ ــ حصول الشركات النفطية الاميركية على ارباح هائلة من جراء رفع اسعار النفط ، ٩ ــ تضرر العديد من الدول المحايدة أو الصديقة من ارتفاع اسعار النفط .. انطلاقا من هذه المعطيات الجديدة ، بدلت الولايات المتحدة تكتيكها مع الحفاظ على هدفها الاستراتيجي (التهدئة) ، وبدات خطواتها الصغيرة لبناء « السلام الاميركي » على انقاض « السلام الاسرائيلي » الذي هدمه الجندي العربي والسلاح السوفياتي في السادس من تشرين الاول .

وكان جوهر التكتيك الجديد هو تنفيس الايجابيات العربية في حرب تشرين واستغلال الاوضاع الجديدة عنها من أجل تخفيف العداء بين دول

المنطقة كخطوة على سبيل الحل السلمي الذي يكون مدخلا لبناء « المنطقة المتجانسة » التي تعذر بناؤها في الخمسينات عندما فشلت محاولات ضم الدول العربية واسرائيل الى الاحلاف الاقليمية . اما مرتكزات ومحاور هذا التكتيك فكانت : الظهور بمظهر الطرف المحايد الراغب في ايجاد حل عادل ودائم للنزاع المستحكم منذ ربع قرن ، وتفتيت الصف العربي وحرمانه من ايجابية التضامن التي اظهرتها الحرب ، وتدعيم « المعتدلين » لدى الطرفين والتعامل معهم مع محاصرة المتشددين لتليينهم او احتوائهم او ضربهم وتحجيمهم عند الضرورة ، وتقوية العسكرية الاسرائيلية بحيث تبقى عامل ضغط على العرب المتشددين ، واقناع العرب المعتدلين بأن موقفهم المعتدل و « الموضوعي » سيكسبهم عطف الراي العام العالمي والاميركي وسيفتح المجال أمام مساعدتهم تكنولوجيا واقتصاديا بشكل يؤمن لهم حل معضلاتهم الاقتصادية المتراكمة ، والضغط باتجاه تقليص النفوذ السوفياتي في المنطقة (دون اقتلاعه)، على اساس ان هذا النفوذ قد جاء على اثر الدعم العسكري الذي « لم يعد له مبرر » طالما ان الحل سيأخذ مجراه سلميا ودون الاحتكام الى السلاح الذي حاولت الولايات المتحدة ، كما رأينا ، اظهاره كعمل عبثي خطير باهظ التكاليف ولا يمكن ان يحقق الحسم . ولقد استخدم هذا التكتيك بنجاح في مرحلة مباحثات فصل القوات ، ووصل الى ذروة النجاح في اتفاق فصل القوات الثاني في سيناء (١٩٧٥) الذي شق معسكر العرب المحاربين ، واخرج مصر من المعركة بعد ان اقرت لاول مرة منذ بداية الصراع العربي الاسرائيلي بأن النزاع في المنطقة « لايتم حله بالقوة المسلحة وانما بالوسائل السلمية » (المادة الاولى) وتعهدت « بعدم استخدام القوة أو التهديد بها » (المادة الثانية) وعزل بالتالي جيوش دول المغرب العربي عن المشاركة في معركة التحرير بعد ان حرمها من منطقة حشدها الطبيعية وخلق بينها وبين الدولة الصهيونية حاجزا جغرافيا ، واعطى الولايات المتحدة موطىء قدم في سيناء وجعلها عراب السلم في الشرق الاوسط ، وسبب توترا في العلاقات السوفياتية ــ المصرية ادى الى توقف امداد مصر بالاسلحة وقطع الغيار السوفياتية والغاء المعاهدة المعقودة بين البلدين (١٩٧٦) ، وأعطى اسرائيل الحق بمرور بضائعها عبر قناة السويس بما يمثله هذا الحق من مكاسب اقتصادية ومغزى سياسي ونفسي ، وخلق بين اسرائيل والقوة العربية الاولى (مصر) حاجزا اميركيا ماديا ومعنويا اعاد المنطقة الى حالة تشبه حالة « اللاسلم واللاحرب » التي سبقت حرب تشرين .

وتبقى عودة الاميركيين الى المنطقة كوجه مقبول من المعتدلين في المعسكرين المتنازعين أهم ما حققته السياسة الاميركية بفضل حرب تشرين . ومن المؤكد ان تجيير الحرب لصالح واشنطن لم ينجم عن انجازات هذه الحرب المجيدة ، بل كان افرازا من افرازات السياسات العربية الخاطئة التي تلتها ، وانعكاسا لمفاهيم المعتدلين العرب حول طبيعة النزاع العربي ــ الاسرائيلي وحقيقة القوى المحلية والدولية المشتركة فيها والتحالفات والتناقضات التي لا بد من تقييمها عند تقدير الموقف ، وتجسيدا عمليا لعجز المعتدلين عن فهم حرب تشرين كضربة ايقاف للتوسع الصهيوني ، لا بد وان تتبعها مرحلة الهجوم المعاكس الاستراتيجي العربي . وعجزهم عن

وعي حقيقة الطاقات العربية الكامنة التي نجرتها الحرب على مختلف الاصعدة السياسية والاقتصادية والعسكرية والنفسية ، وما ادت اليه من تبديلات في موازين القوى المحلية والعالمية .

وليست العودة الاميركية الى المنطقة نهاية المطاف بالنسبة للسياسة الاميركية . ولكنها مجرد انجاز ، خطوة ، مرحلة على طريق السلم الاميركي ، وما ينجم عنه من انشاء « المنطقة المتجانسة » التي تخدم مصالح أميركا الاستراتيجية . تلك المصالح الثابتة بثبات الاستراتيجية ، والمتعارضة بالتأكيد مع مصالح الامة العربية على قدر تعارض مصالح الناهبين مع مصالح المنهوبين .

وانا الحب .. وقلبي ميسلون

سليم بركات

عندما ينتبهونْ
سوف يخفون بداياتي ، وقد يختصمونْ
حول من يقتلني
حول من ينسج أبعادي بخيطٍ
من خياناتٍ ، ويلقي زمني
في تجاويفِ السنينْ .

عندما ينتبهونْ
سوف أخفي الصاعقهْ
تحت ثدييَّ . وأمضي بالرياح الحذِقَهْ
نحو سوريا وأُرخي الزيزفونْ
فوق أقواس يديْ المتَّسِقهْ
وأشدُّ الارضَ من ميراثها
صارخاً . هذا نهاري
مأتمٌ مثلي وقلبي ميسلونْ .

عندما ينتبهونْ
عندما ينتبه الشرقُ الذي يغسلهم
بتواريخ البلاد الميِّتهْ
سأنادي وردتي الملتفتهْ
وأحاذي قاسيونْ
وأحاذي اللغةَ الممتَهنَهْ
فاتحا للمئذنَهْ

مدخلَ الجرح وأعشاشَ الغصونْ
لارى كيف يقود الميتونْ
تحت احشائي بلادي ،
وأراهم يُبْعثون .

في دمشقَ ـ العتبَهْ ٠

عندما ينتبهونْ
عندما يقتبه البرقُ ، وتدنو المركباتُ الهاربهْ
من حصاري
وافتجاءاتِ دمي المرتقبَهْ
ساضم العاشقينْ
واضم الموجَ مفتوناً باسماء الصواري
وهي تجتاحُ اجتياحاً عابقاً بالغلبَهْ ٠

انني بعضُ دمشقٍ ،
ودمشقُ العتبَهْ
ستحاذيهم فلا ينتبهونْ ٠
ساحاذي قاسيونْ
وانا بعضُ دمشقَ الهاربهْ
في غلالاتٍ من القصدير والماسِ ،
وقلبي ميسلونْ

ودمي صيدا ،
وصيدا طعنتي المرتقبَهْ ٠
وانا ماسٌ وقصديرٌ، ومزجٌ كوكبيٌّ ،
وانا صيدا فهل يعترفونْ
ان صيدا رحمُ الماء واعراسُ الحصونْ
حين لا يبقىٰ من المجد سوىٰ حشرجةٍ ،
وعويلٍ عائمٍ في الابجديّةْ ؟

عندما ينتبهونْ
عندما ينتبهُ الرملُ واجراسُ الغبار العربيّهْ
ساضيءُ الحَلَبَهْ
رافعاً للتائهينْ
خوذةَ الشامِ واقمارَ العيون المتعبَهْ
وانادي : قاسيونْ
أيُّ ميثاقٍ لهذه الشعلةِ المنطفئَهْ ؟
أي ميثاقٍ لقبرٍ قادمٍ من صوب سوريّا ؟٠٠
أنادي قاسيونْ

وأنادي الاوبئة
وأنادي الفلزَ والأفقَ ، وأقتادُ الغصون
لأشتعال ربمّا يجعلني
وطناً ، أو راية منكفئة .

عندما ينتبهون
سَيَفيرون لكي يقتسموني
سَيَفيرونَ ، ولكنّي تهيّأتَ وخبّأتُ العيون
في عيوني
ثم خبأتُ السنين
تحت أعشاش الرِّئَة .

فليكنْ .. إنّي خرابٌ ،
وأنا النسْلُ وروحي العربَة
وأنا الحبّ ، وقلبي ميسلون
وأنا صيدا ، وصيدا طعنتي المرتَقَبَة .

★ ★ ★

وَينـدلع الزعتـر

مي صايـغ

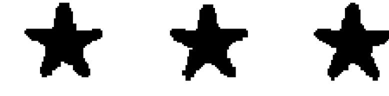
لن اكتب مرثيه
حين انفرط العقدُ بجيدِ صبية
سقطتْ عينُ شهيدٍ سهواً
وانفجرَتْ في لُعَبِ الاطفالِ الشهداءِ شظية

لن اكتب مرثيّه
حين اندلعَ الزعترُ في فيروزِ وشاحِك
كان الشاهُ الامويُّ
يغلُّ يديهِ
يمرّغُ وجَهك بالرمضاءِ
كان ملوكُ الردةِ والخلفاء
يقتسمون دماءَك
في آبارِ النفطِ على طرفِ الصحراءْ
ويُحِلُّ دَمَ الاطفالِ جنودُ أُميَّة

★ ★ ★

لن أكتبَ مرثيّه
حين اندلعَ الزعترُ في فيروزِ وشاحِك
كان القصرُ الوثني ، يصادرُ وجهَ القدس ، ونهر الاردنِّ
يصادرُ ظلَّ الصخرةِ والاسراءْ
يسرقُ من عينيكِ الشوقَ ، ولونَ الحلمِ ،
ونكهةَ طينِ الارضِ ، وسيفَ عليٍّ والشهداءْ
يخلعُ من مقلتيكِ الضوءَ ، يعفّنُ جرحَكِ في اقبيةِ الموتِ ،
يُفجِّرُ كلَّ الوجعِ الطفل بصدرِ صغاركِ ، يطلقُ نهرَ الموتِ على
بركانكِ ، يطلق وحشَ الجوعِ ، ووحشَ الحمّى ، وحشَ القصفِ ،
وينثرُ لحمكِ في الطرقاتِ ، يخثّرُ صوتكِ فوقَ دروبِ دمشقَ

الشام وفي الشهباءْ يلوي عُنُقَ الحريَّةْ ٠



لن اكتبَ مرثيةْ
حطَّ النورسُ في خلجانِكِ ، جاءَ النورسُ يحمـــلُ في جنحيهِ الزّبَدَ الغائرَ من امواجِ البحرِ يحيكُ قمــاطَ المولودين بحضنِ الموتِ ، ويحملُ ثلجاً ينسجُ منه ضماداً للاطفالِ ، ويصنعُ من اطواقِ حمامِ الايكِ الداكنِ خبزا
كانتْ كلُّ طيورِ القرّي تولدُ في نيرانكْ ، كلُّ زهورِ الفلِّ تفتّحُ في احضانِكْ ، كان الوطنُ القــادمُ يولدُ مهراً أشهبَ ، يولدُ سهماً ينفذُ في احزانِكْ ٠
حطَّ النورسُ في خلجانكْ
أن يتحدثَ عن احلامِكْ ، لن يتحدثَ عن احلامكْ
كلُّ حروفِ لغاتِ الارضِ لاعجزُ من أن تحكي
والالوان الخصبة اقصر من أن ترسم من أن تروي
وحنينُ الصيادين الزاحفِ من عمقِ التاريخِ الى الشطآنِ
تعلّق في جنحيه شحيحاً يهربُ في الانغامِ المحكيه

لن اكتبَ مرثيه
حين اندلعَ الزعترُ في فيروزِ وشاحِكْ
سقطَ الموتُ قتيلاً فوق ظلالكْ
جاءت كلُّ حقولِ الحنطةِ تبسمُ بين عيونكْ
أنتِ على دائرةِ الشمسِ
واعلى من راياتِ النصرِ
رمن أوسمة النصرِ
وفوقَ شفاهك يقطرُ ماءُ جبلُ الشيخ
وأنتِ بروقٌ ، انتِ سنابلُ ،
أنتِ رياحٌ ، أنت مناجلُ
تحصدُ غزوَ الشرّ وغزوَ دمشقَ الرابعِ والستين
وأنتِ الارضُ الفولانيّةْ

لن أكتبَ مرثيه
ان دروعَ حديدِ الارضِ

لاضعفَ من أن تحمي قصرَ الحُمَّرِ من شهدائِكِ
أعجزَ من ان تحمي شاهَ أميّه
ذلك أنّ سماءَ النصرِ ، ومجـــرى الكـوكبِ ، عيني شعبكِ
تحرسُ مجدَ صبــاحِكْ .
تبقى نارُ الزعترِ جرحاً يزهرُ في نبضاتِ الارضِ
وفي فيروزِ وشاحِكْ
ويظلُّ الزعترُ يولدُ .. يولدُ .. يولدُ في الاكواخ التنكيةْ .



أمـــام الارض

الدكتور الياس شوفاني

في جوهره ، يدور الصراع على الساحة الفلسطينية ، بيـــن الشعب العربـــي الفلسطيني ، صاحب البلد الاصيل ، وبين المستوطنين الصهاينة علـــى العلاقة برقعة الارض الفلسطينية اياها. فبينما ناضل الشعب الفلسطيني ، وما يزال، من اجل البقاء على الارض والحفاظ على علاقته بها، ليس كوسيلة انتاج فحسب، وانما كوطن قومي ايضا، سعى المستوطنون ، وما انفكوا ،الى استكمال عملية اجلاء هذا الشعب عن الارض ، وقطع علاقته بها . كل ذلك من اجل فرض علاقة جديدة على تلك الارض ، تصبح معها ، ان هي استسلمت لذلك ، وطنا قوميـــا « للشعب اليهودي » ، غير المحدد الهوية ، وبالتالي قاعدة للامبريالية ضد حركة جماهير الامة العربية المتطلعة الى التحرر والوحدة ، اذ لا مجال لنجاح عملية الفرض هذه دون تأمين القاعدة العدوانية ، كونهما رديفين .

ومازال هذا الصراع محتدما منذ حوالي قرن من الزمن، وليس هناك ما يشير الى انه اوشك على ايجاد حل له ، وعلى الاقل ، ليس في اطـــار الكلام الدائـــر حاليا حول التسويات منذ حرب تشرين . واما الشعب الفلسطيني، فقد خطى بقيادة ثورته المسلحة، خطوة كبيرة نحو توفير امكانات الحل ، عندما قبل بمبدأ المشاركة في الانتماء الى الارض ، شرط التساوي في الحقوق والواجبات. ولكن الكيان الاستيطاني ، ممثلا بقيادته الصهيونية الحالية، ما زال يرفض هذا المبدأ ويمعن في العمل على تجسيد المشروع الصهيوني — تهويد الارض ، كـــل الارض في فلسطين وربما فيما وراء حدودها المتعارف عليها حاليا . وهو ان قبل ببقـــاء بعض العرب الفلسطينيين على الارض ، فانما ذلك لضرورات المرحلة ، والى ان تحين الظروف المؤاتية لطردهم منها . والشعارات التي رفعها المستوطـــنون في مسيرة « ارض اسرائيل » ، بقيادة « غوش ايمونيم » (حركة ارض اسرائيـــل الكاملة) ، تعبر اصدق تعبير عن الاهداف غير المعلنة للعدو . وكان هؤلاء قـــد رفعوا الشعار : « اما ارض للعرب فنعم ، واما ارض عربية فلا » . وهـــذا الاصرار الصهيوني على توسيع رقعة استيطانه ، وما يترتب عليه من مصادرة للاراضي وتهويدها ، كان عاملا رئيسيا في انتفاضة الضفة الغربية اخيرا ، وهو الذي فجر الصدام الدموي في « يوم الارض » بالجليل .

ويوم الارض في الجليل طفرة اخرى ، متميزة في نوعها وتصاعد درجة عنفها ، في سلسلة نضال شعبنا الرازح تحت الاحتلال منذ ١٩٤٨ .وهي حلقة جديدة تفتح

جبهة اخرى في معركة المصير بين شعبنا الفلسطيني والاستيطان الصهيوني . وبظفرتهم هذه ، لحق عرب الجليل باخوانهم في الضفة الغربية ، الذين سبقوهم الى الثورة على الاحتلال والى التصدي العنيف لعملية الاستيلاء على الاراضي العربية وتهويدها . وهم قد فاجأوا العدو الصهيوني والكثيرين من ابناء امتهم ، وربما انفسهم ايضا ، بهذا التحرك الجماهيري الواسع ، بعد ان ساد الاعتقاد بانه تم تدجينهم منذ حين . وبذلك التقى هذا النصف من الشعب الفلسطيني ، الواقع تحت الاحتلال ، سواء منذ ١٩٤٨ او منذ ١٩٦٧ ، مع شقه الثاني في الخارج على طريق الكفاح ضد الاستيطان الصهيوني ، فعمت المواجهة الشعب الفلسطيني باكمله . وبينما يصارع النصف الاول للحفاظ على علاقته بوطنه القومي ، يكافح الثاني لشق طريقه الى ذلك الوطن وتجديد الرابطة معه . ويتلاحم نضاله اثبت الشعب الفلسطيني ، الذي عمل العدو على تشتيته وتذويبه ، وحدته وتماسكه رغم جميع الظروف التي مر بها ، واصراره على التمسك بالعلاقة العضوية التي تشده الى وطنه ، مهما كانت التضحيات .

وبالمقابل فهناك اصرار صهيوني علىوضع اليد اليهودية على كامل ارض فلسطين ، وهذا ما يسمونه بالتهويد ، وهذا يعني اقتلاع الجذور العربية منها ، واضفاء طابع جديد عليها . وهذا الاصرار لا ينبع من الحاجات الاتية للاستيطان الصهيوني ، ولا هو بالحقيقة تلبية لضرورات اقتصادية او حتى امنية ، وانما هو ركن من اركان المشروع الصهيوني . ولا يتم تجسيد ذلك المشروع الا بامتلاك القدرة السياسية الكاملة على تقرير العلاقة بين الارض ومن عليها من السكان . ولما كان المشروع الصهيوني ينطلق ، ولو نظريا ، من ان « الشعب اليهودي »، ولو باكثريته،سيهاجر الى « وطنه الجديد ــ القديم » ، فقد اعتمدت الحركة الصهيونية منذ بدايتها مبدأ وضع اليد اليهودية على الارض باي ثمن ، لتجعل منها وقفا ذريا على ما اسمته بالشعب‌اليهودي ، والذي لا يزال الى يومنا هذا غير محدد الهوية . وهكذا تميز الاستيطان الصهيوني بجشع لابتلاع الارض لا يعرف الشبع ، وانفرد بين اقرانه بكونه اجلائيا لا يعرف الهوادة في هذا الشأن .

والكلام عن هذا الركن في المشروع الصهيوني بمصطلح « سياسة اسرائيل التوسعية» لا يفي بالغرض . فالواقع ان الارض التي وقعت في يد المستوطنين عام ١٩٤٨ لم تضق بهم فعمدوا الى التوسع لحل ازمة سكانية واقتصادية . ومعلوم ان المناطق الريفية هناك لم يتم الاستيطان فيها بشكل مكثف . فالنقب مثلا ، رغم كل الجهود التي بذلت لاعماره واجتذاب المستوطنين اليه ، خاصة ايام بن غوريون ، لا يزال شبه خال من السكان الى الان . وبيوت « كريات اربع » ، في الخليل ، رغم كل ما يثار من ضجة حولها ، ورغم ازمة السكن الخانقة في القدس القريبة ، لا تزال بمعظمها غير ماهولة . وفي الجولان لا يربو عدد المستوطنين عن بضعة الاف،يغلب‌عليهم الطابع العسكري . وكذا الحال في مستوطنات الضفة الغربية ومشارف رفح الجديدة . وواضح ان السمة الديمغرافية البارزة في الاستيطان الصهيوني هي التمركز في المدن الكبرى ، خاصة في وسط البلاد والمشاكل التي يثيرها المهاجرون الجدد عندما يزج بهم في المناطق الريفية لم تعد خفية على احد . فلماذا اذن هذا التكالب المؤسسي على الاستيلاء على الارض وتهويدها .

في اوروبا القرن التاسع عشر ، قامت الصهيونية وبلورت خطوطها العريضة

على خلفية ظاهرتين بارزتين : القومية والاستعمار ، وكلتاهما من نتاج تطور الراسمالية الاوروبية . وعلى اطراف هاتين الظاهرتين نمت الصهيونية ، وفي سياق الزحف الاوروبي في ذلك العصر راحت تبني حركة سياسية على اساس قومي ــ حضاري ، مما انتهى بها الى ان حل المسألة اليهودية لا يتم الا باقامة دولة قومية خاصة باليهود . واما السبيل الى ذلك فقد جاء متفقا مع النهج السائد في اوروبا آنذاك ــ الاستيطان في البلدان غير النامية . وكان طبيعيا ان يتأثر الفكر الصهيوني السياسي بالتراث اليهودي ، كونه في اساسه قوميا ــ حضاريا يؤكد اهمية الظواهر الحضارية في تكوين قومية الجماعة البشرية التي يسعى الى حشدها في الحركة السياسية المعبرة عنه . والواضح ان الصهيونية اخذت الكثير من التراث الديني اليهودي ، وحاولت ان تصبه في قالب علماني . واذا كان الفكر القومي ــ الحضاري هو القوة الدافعة وراء فكرة اقامة الدولة اليهودية ، وكان الاستيطان هو السبيل الوحيد المتاح لتجسيد هذه الفكرة ، فالاكيد ان الاثر الديني في تلك الحركة السياسية ، التي اظهرت العلمانية ، كان العامل الحاسم في تحديد المكان واصطفاء فلسطين بالذات لذلك الغرض .

ويزخر التراث الديني اليهودي بالاشارات الى « الارض المقدسة ». ونشأ في اليهودية على مر العصور ، وخاصة في ما اصطلح على تسميته « بالشتات اليهودي» ،وذلك بعد خراب الهيكل الثاني وتشتت اليهود ، نوع من « لاهوت الارض المقدسة » ، يربط بين الله وشعبه المختار وارضه المقدسة . فما دام الشعب مختاراً ، فكذا هي رقعة الارض التي اصطفاها الله لتكون « ارض الميعاد » لشعبه . ومن هنا فالتراث اليهودي يميز هذه الارض عن غيرها من بقاع العالم ، وهو لا يتحدث عنها الا بافعل التفضيل وصيغ المبالغة . وقد احيا الفكر الصهيوني ثالوث اليهودية القديمة: وحدة الله بالشعب بالارض . فانعكس ذلك في ما خصت به الصهيونية اسرائيل من موقع مركزي في حياة اليهود حيثما كانوا ، وما اولته من اهمية لعملية « افتداء الارض » اثناء تجسيد المشروع الصهيوني وفي الممارسة العملية للكيان الذي انبثق عنه .

ويقول الاستاذ عبد الوهاب المسيري ، في **موسوعة المفاهيم والمصطلحات الصهيونية** ، ص ٦٦ ، ما يلي : « وارتباط الدين هذا الارتباط الكامل بالارض هو تعبير آخر عن هذا النمط البنيوي الذي نلاحظه في اليهودية وهو ارتباط المطلق (الدين) بالنسبي (المكان) الامر الذي يجعل التسامي والجدل مستحيلين . والتاريخ اليهودي حسب التصورات التقليدية والصهيونية ان هو الا تعبير عن الارتباط بالارض ، وهو ارتباط في الواقع يربط بين التاريخ الحي والجغرافيا الثابتة ، مما يؤدي الى الغاء وجود اليهود التاريخي خارج فلسطين (باعتبار انه وجود « خارج » الارض وبالتالي خارج التاريخ) كما انه يلغي تاريخ الارض نفسها (باعتبار انها « مكان » مطلق معتم من الزمان خاو على عروشه ينتظر ساكنيه الازليين المقدسين) ».

ولقد احاط الادب الحاخامي الارض بهالة من القدسية ، واغدق عليها صفات المبالغة بحيث جعل امكان اقامة الشعائر الدينية كاملة مستحيلا خارجها .ويقول المسيري :«وتعاليم التوراة لا يمكن ان تنفذ كاملة الا في الارض ولا يمكن ليهودي ان يتنبأ الا وهو فيها وحتى جوها يجعل الانسان حكيما . وقد اصبحت السكنى في الارض بمثابة الايمان لان من يعيش داخل ارض اسرائيل يمكن اعتباره مؤمنا اما

المقيم خارجها فهو انسان لا اله له » (كما جاء في احد اسفار التلمود وفي احد تصريحات بن غوريون) . بل ان فكرة الارض تتخطى فكرة الثواب والعقاب والاخلاقية فقد جاء في نفس السفر ان من يعش خارج ارض الميعاد كمن يعبد الاصنام ، وجاء ايضا ان من يسر اربع اذرع في فلسطين يطهر من الذنوب ، بل ان حديث من يسكنون في فلسطين في حد ذاته توراة » . (نفس المصدر ص ٦٥) .

ويقر الاستاذ فيرلوفسكي ، عميد كلية الاداب في الجامعة العبرية ، (**من الفكر الصهيوني المعاصر** ، مركز الابحاث ١٩٦٨ ، ص ٢٣ ــ ٢٤) ، أن صلة الشعب اليهودي بفلسطين « ظلت ، حتى العصر الحديث تستقي من الدين ، قبل اي ينبوع آخر، صورتها وصياغتها». وتساءل الكاتب اذا كان ذلك لا يزال ممكنا بعد ، حيث يقول : « كذلك ينبغي ان نقر بان طبع التاريخ اليهودي ، حديثا ، بطابع العصر ، يشكل منعطفا حاسما ان لم يشكل ازمة في تواصل التاريخ المذكور » .

واشار فيرلوفسكي في كلامه الى العقدة التي يتعسر على المفكرين الصهيونيين خاصة العلمانيين منهم ، حلها عند الكلام عن العلاقة بين الشعب اليهودي والارض ، فقال : « يبقى لزاما علينا ، رغم ذلك ، ان نلاحظ ان بعض المفكرين اليهود المنتمين الى الطبقة العليا ظلوا ، في هذا العصر نفسه ، لا يستطيعون الا ان يلجأوا الى اللغة الدينية لكي يفسروا ويصوغوا على النحو الذي يرضيهم ، معنى هذه العلاقة الفريدة بين الشعب وبين ما كانوا ، هم ايضا ، يعتبرونه ؛ عبر تجربة الشعب ذاتها ، ارضا له ». هذا اللسان الديني كان يستعير لهجات عدة : فمن لهجة الحاخام المتصوف الكابالي كوك وهي تقليدية نسبيا ، الى لهجة مارتن بوبر الحديثة ، الى اللهجة التولستوية التي يعتمدها اهارون دافيد غوردون وهو اقرب الى القديس العلماني منه الى اللهجة العقائدية التي نجدها عند حركة المزارع الاشتراكية (الكيبوتس) .

وبامكان الباحث في القضايا الصهيونية ان يفهم آراء وتنظيرات مفكري الصهيونية المتدينين ، حيث يجد انسجاما بين غيبية آرائهم السياسية ومعتقداتهم الدينية . الا ان المفارقة تبرز في فكر اولئك الذين يدعون العلمانية ويتجردون من الميول الدينية ، ومنهم من تزعم الحركة الصهيونية ، امثال هرتسل ووايزمن وبن غوريون .. الخ . وقد اكتشف بعضهم هذه المفارقة في كلامه عن القومية اليهودية ومقوماتها المادية ، ومن ثم ربطها « بارض الميعاد » وحشرها في خصوصية « الشعب المختار » ، استنادا الى الاسفار الدينية وما ورد فيها من اقوال . وكان بين هؤلاء المنظر الصهيوني بير بوروخوف ، الذي انطلق من فكر ماركسي ومنطق جدلي كي يفسر انفراد فلسطين ، من بين بقاع العالم ، بملاءمتها وصلاحياتها لاقامة دولة اليهود . وراح بوروخوف يتخبط في تنظيراته الى ان وصل الى الطريق المسدود . فعاد ادراجه يتسلل الى التيار العام في الفكر الصهيوني ، واللجوء لقبول الاساس الديني للربط بين الشعب والارض . وبالمقابل حاول الفيلسوف اليهودي مارتن بوبر حجب المنطلقات الصهيونية الشوفينية بوشاح من الفلسفة الصوفية ، الا ان ذلك الوشاح بقي شفافا جدا .

وتبلغ الشوفينية الصهيونية ذروتها في كتابات رواد العمل الصهيوني التنفيذي، امثال كاتسنلسون وبن غوريون . وعلى سبيل المثال لا الحصر نورد هنا بعضا من اقوال بن غوريون في مناقشاته مع رجال « عصبة السلام » (بريت شالوم)،

حول المسألة العربية في فلسطين . وكانت عصبة السلام قد طرحت شعار الدولة ثنائية القومية ، على أساس أن العرب الفلسطينيين يرون في ذلك البلد وطنا لهم ، كما يرى الصهيونيون ذلك . فرد عليهم بن غوريون قائلا : « واذا كنتم تريدون بصيغتكم هذه تقرير تعادل اهمية البلد بالنسبة الى العرب واليهود ، فانكم مرة اخرى تخطئون الجوهر وتشوهون الحقيقة . فارض اسرائيل بالنسبة الى الشعب اليهودي لا تستوي وارض اسرائيل بالنسبة الى الشعب العربي . » وبعد ان قدم اسبابه لعدم تساوي الحق العربي في فلسطين مع الحق اليهودي ، مشيرا الى اتساع العالم العربي .. الخ ، قال : « وبالنسبة الى الامة اليهودية باسرها — في جميع عصورها وشتاتها هذا هو البلد الواحد والوحيد الذي يرتبط به مصيرها ومستقبلها التاريخي كافة . وفقط في هذا البلد تستطيع أن تجسد حياتها وتقيم وجودها المستقل واقتصادها القومي وثقافتها الخاصة ، وهنا فقط تستطيع ان تبني استقلالها وحريتها كدولة ، وكل من يشوه هذه الحقيقة — فانما يضحي بحياة الامة » .

من هذه المنطلقات الفكرية راحت الصهيونية تعمل على تجسيد مشروعها في فلسطين . ولما كان هذا المشروع بطبيعة الحال لا يشكل قاعدة للحوار مع سكان البلاد الاصليين ، فقد عمدت المؤسسة الصهيونية الى تجاهلهم كلية ، والى الالتفاف حول مسألة وجودهم على الارض . وانعكست عملية الالتفاف هذه في اعلام نشط يهدف الى تغييب الشعب الفلسطيني ، بحيث يتلاءم كما ونوعا مع مراحل بناء الكيان الاستيطاني . وقد بدأ ذلك بالتغييب المادي أي بالنفي القاطع لوجود الشعب الفلسطيني على الارض . ومن هنا طرحت الصهيونية شعار « ارض بلا شعب لشعب بلا ارض » . الا انه مع تصاعد الصراع على ارض فلسطين ، لم يعد بامكان المستوطنين الاستمرار في نفي الوجود المادي للشعب الفلسطيني . فانتقل الاعلام الصهيوني في تبريره لعملية الاستيلاء على الارض وتهويدها الى تغييب السكان المحليين حضاريا وانسانيا . فصار الكلام يتمحور حول الارض الخربة ، التي تنتظر سواعد المستوطنين لاستصلاحها ، بعد أن كان يتركز على الارض الخالية ، التي تفتح ذراعيها لاستقبال المستوطنين القادمين لاعمارها واستعمارها . وفي هذه المرحلة زاد الكلام الصهيوني عن تخلف الشعب الفلسطيني ، وحاجته الماسة لمساعدة المستوطنين اليهود ، الذين سيعينونه على تطوير احوال معيشته .

ومن ناحية اخرى برز في الاعلام الصهيوني الكلام عن ازدهار الصحراء وتجفيف المستنقعات واصلاح حال البلد اقتصاديا ... الخ . وكأنما لسان حال المستوطنين يقول ان اهل البلد الاصليين لا يستحقون الارض التي يعيشون عليها ، وبالتالي فالمستوطنون اليهود لم يرتكبوا اثما كبيرا في الاستيلاء عليها . ولما لم تعد تلك الذرائع تنفع ، واحتدم الصراع مع الثورة الفلسطينية ، وطرحت الثورة برامج سياسية ناضجة ، لجأ الاعلام الصهيوني الى تغييب الحركة الفلسطينية سياسيا . وهكذا برز نفي الماضي السياسي ، وعم الطعن بشرعية النضال الفلسطيني من اجل تقرير المصير السياسي ، مما ترتب عليه التشهير باساليب الكفاح الفلسطيني المسلح . وهذا ما نشهده اليوم في الكلام الصهيوني عن منظمة التحرير والمنظمات الفدائية الفلسطينية .

اما من الناحية العملية ، فقد قام الاستيطان الصهيوني في فلسطين على ثلاثة اركان : تهويد الارض ، تهويد العمل ، وتهويد السوق . وفي الواقع فان تهويد الارض يعني استيلاء المستوطنين عليها ، واقتلاع جذور السكان المحليين منها .

ولهذا الغرض اقامت الحركة الصهيونيةمؤسسة خاصة ، هـي « الكيرن كاييمت » ــ الصندوق القومي اليهودي ، همها امتلاك الارض وطرد من عليها من السكان العرب . واما تهويد العمل ، او ما اسماه المستوطنون « العمل العبري » ، فكان في الواقع يعني استثناء العمال العرب من المنافع الاقتصادية الناتجة عن تطوير البلد . ومن اجل ذلك اقيم « الهستدروت » ــ اتحاد العمال اليهود ، واوكلت اليه مهمة مقاطعة العمال العرب في المشاريع الاقتصادية اليهودية . والسوق اليهودية اقيمت من اجل مقاطعة المنتوجات العربية . وبهذه الوسائل وعلى الرغم من التمويه في التسمية وغيرها . اراد المستوطنون اخراج السكان المحليين من حياة البلد الاقتصادية وبالتالي اجبارهم على النزوح . الا انه على الرغم من جميع المحاولات الصهيونية ، وبغض النظر عن الانحرافات التي برزت في بعض الاوساط الفلسطينية ، خاصة في قضيـه "الارض ، لـم يستطع المستوطنون ، حتى عام ١٩٤٨ ، امتلاك اكثر من جزء بسيط من الارض الفلسطينية . لكن الكارثة التي حلت بشعب فلسطين في ذلك العام ، فتحت باب الاستيلاء على الارض امام الكيان الصهيوني على مصراعيه .

بعد حرب ١٩٤٨ ونتيجة لها وقع حوالي ٨٠ بالمائة من ارض فلسطين فـي ايدي الكيان الصهيوني الذي قام بعد الحرب . ولم نمض فترة وجـيزة حتى صادرت السلطات الصهيونية جميع اراضي العرب الذين نزحوا من البـلد ، واتخذت الاجراءات الشكلية لتهويدها . ولكن ذلك لم يكفهـا . وراحت تناوش من بقي تحت الاحتلال من العرب الفلسطينيين لسلبهم القليل من الارض الذى بقي في ايديهم . ومنذ ذلك الحين ، وبينما الفلسطينيون المشردون يناضلـون من اجل العودة ، كان اولئك الذين آثروا الاحتلال على التشرد يخوضون نضالا مستمرا ، اتخذ خلال السنين اشكالا مختلفة للحؤول دون اقتلاعهم من الارض واستلابهم منها . ولم يترك هـؤلاءوسيلة للمقاومة الا ولجأوا اليـها ــ شرعية كانت او شبه شرعية او حتى غير شرعية . وتعرضوا نتيجة لذلك لاشكال مختلفة من القمع والتنكيل . ففرضت عليهم الاحكام العسكرية ، وسنت مـن اجلهم القوانين الملفقة ، ناهيك عن المناورات والاساليب الملتوية ، كلها للاستيلاء على الارض . والواقع ان الهدف الرئيسي لفرض الحكم العسكري على العرب تحت الاحتلال ، كان انتزاع الارض من ايديهم فالحكم العسكـري كان ذراع السلطة الصهيونيةفي تنفيذ هذه العملية .ولمترفع الاحكام العسكرية عن كاهل العرب في الكيان الصهيوني حتى ادت الغرض منها وقامت بمهمتها في مجال تهويد الارض ، بان مهدت الطريق لانتزاع القسم الاكبر من الاراضي التي كان يملكها العرب هناك . ومهما يكن من امر . فاولئك العرب الذين تفـرد بهم العـدو الصهيوني ، فسامهم انواع القمع والتنكيل وهم في عزلة شبه كاملة ، غلبوا على امرهم في مواجهة عدوهم ــ حاكمهم الا انهم لم يستسلموا قط .

وكما ان العرب الفلسطينيين تحت الاحتلال لم يتركوا وسيلة للنضال مـن اجل الحفاظ على علاقتهم بالارض الا ولجأوا اليها ، هكذا بالمقابل لم يوفر العدو شكلا من اشكال القمع الا واستخدمه في سبيل تطويع هؤلاء العرب واخضاعهم للمخطط الصهيونيفيالاستيلاء على الارض . فالمحاولات العربية بعد الاحتلال للاستمرار في التعامل مع الارض على النهج السابق قوبلت بالاحكام العسكرية وتقسيم الارض الى مناطقمحظورة ، لا يجوز الدخول اليها الا بتصاريح لا تسمح بفلاحتها او استثمارها . وكل محاولة لتحدي هذه الاحكام قوبلت بالقمـع اما

الوسائل القانونية والتقاضي امام المحاكم ، فقد جاء الرد عليها باستصـــــدار القوانين التي تجيز للسلطة الاستيلاء على الارض تحت هذا الغطـــاء او ذاك . وواكب هذه السياسة عدد من الدوافع ، كان بعضها مخططا بالطبع ، كارتفاع اجور عمال البناء وانخفاض اسعار المنتوجات الزراعية العربية .. الخ ، ممـــا ساعد السلطة الصهيونية على كسب معركتها مع السكان العرب ، وانتزاع القسم الاكبر من اراضيهم بوسيلة او باخرى .

ومنذ الاحتلال ، عام ١٩٤٨ ، ارتبطت اشكال نضال العرب الفلسطينيين في الارض المحتلة ضد سياسة الكيان الصهيوني بالاستيلاء على اراضيهم بالصورة التي برز فيها ذلك الكيان في موازين القوى في المنطقة . وهي قد اختلفت نوعا وحدة طبقا لتقييم هؤلاء العرب لقوة العدو ازاء القوى في المنطقة ، وبالتالـــي ازاءهم . ففي سني قيام ذلك الكيان الاولى ، عمت المفاجأة جميع من بقي تحت الاحتلال . وكانت النظرة السائدة اليه انه ظاهرة طارئة لا تلبث ان تزول .وعليه فلم يأخذوا الخطوات التي اتخذها ازاء مصادرة الارض بجدية كاملة . ثم ما لبثوا ان بدأوا يشعرون بان المسألة ليست بالسرعة التي توقعوها ، فراحوا يجسون نبض الكيان وردود فعله . فكانت بعض محاولات التحدي التي جوبهت بالاحكام العسكرية . ثم بدأت مرحلة التراجع امام الكيان ، والتي بلغت ذروتها في اواسط الستينات ، خاصة بعد حرب حزيران ١٩٦٧ . وفي حينه برز الكيان الصهيونـــي كقوة كبيرة ، يستحيل على الاقلية العربية المعزولة داخل ذلك الكيان تحديها . فتوجه النضال من اجل الارض نحو المحاكم والتقاضي مع المغتصب في مؤسساته. اما هو فقد عمد الى استصدار عدد من القوانين تؤمن غطاء قانونيا لعملية سلب الاراضي . ومع ذلك فلم يخل نضال هؤلاء من التحدي والتظاهر والخروج على الاوامر كما حصل ايام اثيرت قضية قريتي كفر برعم واقرت الى ان جاءت حرب تشرين وغيرت الاوضاع القائمة .

ومهما تكن النتائج الموضوعية لحرب تشرين على موازين القوى في المنطقة ، فالاكيد انها هزت صورة الكيان الصهيوني في نظر جماهير الامة العربية ، بمـــن فيها العرب الفلسطينيون تحت الاحتلال ، سواء منذ عام ١٩٤٨ او ١٩٦٧ . فقد نسفت حرب تشرين الانتفاخ الكبير في حجم ذلك الكيان ، خاصة في اعقاب حرب حزيران ١٩٦٧ . والواضح ، من المكاسب التي انجزتها منظـــــمة التحريـــــر الفلسطينية منذ حرب تشرين ، ان كل تحجيم اصاب الكيان الصهيوني نتيجـــة لتلك الحرب قد صب في كفة الثورة الفلسطينية ، فانتزعت بعدما تعرقل مســـار التسوية السياسية ، قرارات الرباط وبالتالي قرارات الامم المتحدة ، التـــي اعترفت بمنظمة التحرير ممثلا شرعيا وحيداً للشعب الفلسطيني . وفي حيـــن فجرت انجازات الثورة الفلسطينية انتفاضة الضفة الغربية ، فقد جعلت المؤامرة عليها في لبنان امرا محتوما ، اذ لم يكن معقـــولا ان يتـــرك اعـــداء الثـــورة الفلسطينية الامور تسير في صالحها بهذا الشكل. واما انتفاضة الضفة الغربية من جهة ، وصمود الثورة الفلسطينية في لبنان من جهة اخرى ، فقد فجرا انتفاضة عرب الجليل في (يوم الارض).

ان نظرة سريعة على خارطة الاستيطان الصهيوني في الجليل ، بيـــن ١٩٢٢ و١٩٤٨ ، تدلل على ضحالته ، وبالتالي على فشله في استملاك مساحة واسعة من الاراضي فيه . بعد قيامه ، احاط الكيان الصهيوني الجلـــيل بحزام مـــن

المستوطنات ، يمتد في الشمال على طول الحدود مع لبنان ، وفي الشرق على سفوح الجليل المنحدرة نحو غور الاردن، وفي الجنوب في مرجين عامر ، وعلى طول السهل الساحلي من حيفا الى راس الناقورة في الغرب. اما قلب الجليل فقد بقي عربيا ، خاصة في جزئيه الاسفل والغربي . وتقول مصادر العدو بان اللواء الشمالي من كيانه، من خط حيفا ــ الناصرة شمالا ، سيصبح عربيا باكثرية سكانه في بداية الثمانينات ، نظرا لتزايد السكان العرب فيه بشكل منقطع النظير . وهذا الوضع ما زال يقلق المؤسسة الصهيونية الحاكمة منذ قيام دولتها خاصة وان الجليل كان قسما من الدولة العربية في مشروع التقسيم لعام ١٩٤٧ ولم ينفك قادة العدو يتحدثون عن ضرورة تهويد الجليل ، من ايام بن غوريون ، مرورا باشكول ، والى يومنا هذا . وفي فترة حكم اشكول طرح مشروع مفصل لهذا الغرض ، قدم تحت غطاء « تطوير الجليل » . الا انه لم يتم تنفيذه ، لاسباب عدة اهمها عدم توفر المستوطنين . هذا بالاضافة الى ان الضرورات الامنية لم تكن ملحة،نظرا لهدوء الجبهة مع لبنان.ومع ذلك فقد صودرت آلاف الدونمات من اراضي القرى العربية الزراعية ، واقيمت عليها مستوطنات جديدة ، او اضيفت الى اقطاعات المستوطنات القائمة . وكان ابرز ما تمخض عنه هذا المشروع بناء مستوطنة كرميئيل ، في قلب الجليل الاسفل ، على منتصف الطريق تقريبا بين عكا وصفد .وقد اثار ذلك في حينه ضجة كبيرة حول الاراضي التي تم الاستيلاء عليها لاقامة تلك المستوطنة ، التي ما زالت على حافة الانهيار منذ انشائها . ومع ذلك فقد عاد العدو مؤخرا يتحدث عن اقامة مستوطنات في مناطق مماثلة . وهذا يعني مصادرة المزيد من الاراضي العربية. ولدى الاعلان عن تنفيذ هذا المخطط ثار عرب الجليل على السلطة ، فكان «يوم الارض» .

في تقديرنا ان النجاحات التي احرزتها منظمة التحرير الفلسطينية في السنوات الثلاث الاخيرة ، سواء على الصعيد الخارجي او الداخلي ، من اتساع الاعتراف بها دوليا وتنامي قواها الذاتية ، كانت الدافع الرئيسي الى فتح ملف تهويد الجليل مرة اخرى . ومن المؤكد ان ما يدور من كلام عن تسوية شاملة في المنطقة ، وما يثار احيانا من العودة الى مشروع التقسيم كاساس لتسوية القضية الفلسطينية وارتباك قيادة العدو بعد حرب تشرين، كان حافزا قويا لديه للعودة الى اسلوبه المجرب ــ الاستيطان ، استباقا لما عساه ان يطرح من مشاريع حلول تتضمن الجليل ايضا . وقد زاد هذا الامر الحاحا على قيادة العدو ، المحاصرة داخليا وخارجيا ، ازاء صمود الثورة الفلسطينية في وجه المؤامرة في لبنان، حيث يلعب العدو الصهيوني دورا رئيسيا في كل ما يجري هنا. هذا بالاضافة الى حسابات العدو من امكان انقلاب لبنان الى دولة مواجهة، تفتح جبهة جديدة معها في منطقة يكون الاستيطان الصهيوني فيها شريطا عازلا ضيقا جدا بين جنوب لبنان ، الذي سينقلب في تلك الحال الى قاعدة الانطلاق الرئيسية للثورة الفلسطينية ، وبين الجليل ، الذي تسكنه اكثرية عربية، طال حنينها للحاق بركب ثورة شعبها . وهكذا فعل العدو عندما طرحت مسألة التسوية في الضفة الغربية مع الاردن . وهناك لم يكتف المستوطنون الصهاينة بما تفعله وتخطط له قيادتهم وانما راحوا يحتلون نقاط استيطان لها ذكر في التراث اليهودي ، بقصد احراج حكومتهم ودفعها الى المزيد من التصلب في مفاوضات التسوية . وكذلك فعلت حكومة العدو عندما بدأ الكلام عن تسوية مع سوريا في الجولان، حيث سارعت الى الاعلان عن مشروع واسع للاستيطان هناك.

ولكن العدو الصهيوني في عام ١٩٧٦ هو غير ما كان عليه عام ١٩٦٧، وكذلك الحال بالنسبة لسكان الجليل من العرب الفلسطينيين . فبينما انكسرتشوكة الاول في حرب تشرين ، تنامى الشعور القومي والانتماء الى النضال الفلسطيني لدى الثاني . وهكذا عندما تحرك العدو لمصادرة الاراضي الجديدة ، تحرك عرب الجليل، بتضامن لم يسبق له مثيل ، ومعهم اخوة لهم في الضفة والقطاع وخارج الارض المحتلة ، للتصدي لمخطط السلب الجديد . وكان العدو يدرك جيدا مدى الخطورة التي ينطوي عليها مثل هذا التحرك من قبل من كان يعتقد انه تم تدجينهم . والاخطر من ذلك علمه بمدى التحام هذا التحرك بما يجري في الضفة ، وبالتالي علاقة ذلك كله بما يدور على الساحة الفلسطينية ككل . وكان انتخاب الشاعر الوطني ، توفيق زياد ، مرشح حزب راكاح ، رئيسا لبلدية الناصرة العربية مؤشرا واضحا الى التحول الذي حصل لدى عرب الجليل في السنوات الاخيرة . ومن هنا كان تصميم العدو على قمع هذا التحرك المضاد لمخططه ، من خلال مظاهرة عرض عضلات تستعيد له هيبته المفقودة ، اضافة الى تنفيذ مخطط السلب الكبير . وقد وصل فقدان التوازن لدى العدو ذروته عندما هدد قائد قواته على الجبهة الشمالية باجتياح قرية سخنين الثائرة، ان هي لم تنصع لاوامره . ولكن ذلك لم يجد سلطات العدو فتيلا، فما ان اقتربت قوات قمعه من القرية العربية المضربة في يوم الارض ، حتى انفجر الصدام الدموي معبرا عن التناقض القائم بين الطرفين حول العلاقة بالارض.

ولم يقتصر الصدام على مالكي الارض المفرزة للمصادرة ، او على الطبقة التي ينتمون اليها . فهؤلاء ممثلون بالوجهاء ورؤساء البلديات والمخاتير ، عقدوا اجتماعا في بلدة شفا عمرو قبل الاضراب في « يوم الارض » ، وتداولوا في الامر وقرروا عدم اللجوء الى الاساليب الجماهيرية وفضلوا اسلوب الوساطة التقليدية مع السلطة . وبالفعل فقد الفوا وفدا لمقابلة رئيس حكومة العدو في محاولة لاقناعه بالعدول عن قرار حكومته . الا ان الوفد عاد صفر اليدين ، اذ رفض رئيس حكومة العدو قبول طلبهم . ومع ذلك فقد ابدى هؤلاء استياءهم ومرارتهم من مصادرة الاراضي ، وعمدوا الى اتخاذ خطوة اكثر جراة قد تضعهم على سكة الصدام الاشد مع سلطات الاحتلال . فقد الف هؤلاء وفدا يسافر الى الخارج للقيام بحملة اعلامية عن تصرفات العدو تجاه عرب الجليل . وهذه الطبقة من ابناء الارض المحتلة ، التي بطبيعة تركيبها ومصالحها ، كانت اول من هادن سلطات الاحتلال ، قد عادت اليوم ، تحت ضغط واقع الاحتلال، لتغير توجهاتها وتقترب من جماهير شعبها وتشارك ، ولو بحدود ، في نضالها . وهكذا بدات المناوشة بين هذه الطبقة وسلطات الاحتلال . واكيدا انها تتصاعد، ولا بد لها من ان تفرز الغث من السمين في هذه الطبقة من الوجهاء . والاكيد ايضا ان ما قاله رئيس بلدية سخنين « نحن مع الارض » يمثل موقف الاكثرية من هؤلاء الوجهاء ومالكي الارض . واكبر دليل على ذلك ان تعلقهم بالارض جعلهم يتحملون كابوس الاحتلال ويفضلونه على التشرد من الارض والانفصال عنها .

وكذلك لم يقتصر الصدام في يوم الارض على نشيطي الاحزاب . وعلى صعيد التكتلات السياسية القائمة بين عرب الجليل ، برز حزب راكاح بنشاط في تنظيم ذلك اليوم والدعوة الى الاضراب فيه . وكذلك فقد تصدى حزب راكاح لاعمال السلطة القمعية في ذلك اليوم . ونشط راكاح في تنظيم لجنة الدفاع عن الارض وفي التحريض على المشاركة الجماهيرية في الاحتجاج على سلب الاراضي العربية . ولكنه تنصل من اعمال العنف التي نتجت عن الصدام بين الجماهير

وقوات السلطة . وكذلك فحزب راكاح لم يسهم في اعطاء ذلك الصدام طابعه القومي ، رغم ظروفه الخاصة التي قد تعتبر مبرراً لذلك . وعمد الحزب غداة الاضراب الى طرح المسألة في الكنيست الصهيوني ومناقشتها وكانها مسألة سياسية داخلية . وتقدم الحزب بمشروع قرار نزع الثقة من الحكومة القائمة في الكيان الصهيوني . كانما تغيير الحكومة يغير شيئا من سياسة الاستيطان . وعلى اي حال فلم ينجح الحزب في تجنيد التأييد اللازم لاسقاط الحكومة . ومع ذلك فالصراع على الارض ، وتبني راكاح قضية عرب الجليل سيدفعان الحزب الى تصعيد مناهضته للسلطة وبالتالي زيادة التحامه بنضال الجماهير الفلسطينية ، مما يقربه من الثورة الفلسطينية في الصراع مع الكيان الاستيطاني .

الا ان الطليعة الصدامية من عرب الجليل في يوم الارض مع قوات القمع العدو لم تكن من مالكي الارض ونشيطي الاحزاب . وربما لا نبالغ اذا قلنا بأن الاكثرية ممن شاركوا في الاضراب وبالتالي في الصدام الدموي لا تملك ارضا ابدا ، كما انها لا تنتمي الى الاحزاب المشاركة في المؤسسة الصهيونية . ووصف شهود عيان احداث يوم الارض واكدوا ان الفئة التي صعدت العنف ضد ادوات السلطة كانت من الشباب ، الذين في اكثريتهم لا يملكون ارضا . كما هو العرف في القرى العربية حيث يحتفظ الاب بملكية الارض الى يوم وفاته. فقد اورد مراسل « صانداي تايمز اللندنية ، ٤ــ٤ــ١٩٧٦ » ما يلي : « شرح شاب عمره ١٧ سنة ، قميصه ممزق وهو يحمل خنجرا في يده ، الاسباب التي من اجلها خاض المعركة مع قوات الجيش والشرطة في كفر كنا ــ الجليل بقوله: يحاول الاسرائيليون ان يأخذوا ارضنا » . وفي هذه الجملة اصدق تعبير عن شعور هؤلاء الشباب . وهو قد استعمل صيغة الجماعة دون تحديد ، ولم يتكلم عن مسألة فردية . فبالنسبة اليه هناك « هم » « الاسرائيليون » بغض النظر عن اتجاهاتهم السياسية ، وهناك « نحن » « وارضنا » بغض النظر ايضا عن التفاصيل . وهذا يدل على ان الحافز للتصدي قومي في اساسه، وينبع من مفهوم العلاقة بالارض كوطن اصلا . والجدير بالذكر ان مثل هؤلاء الشباب ولدوا في الارض المحتلة وتعلموا في المدارس التي يشرف على برامجها العدو . ومع ذلك ، وربما لاجل ذلك ، فهم يتحدثون بلغة « نحن » في مقابل « هم » دون تمييز .

ومضى مراسل«التايمز» يقول : « ومنذ اسبوعين ، وفي ظلام الليل عندما دفن الطفل الذي قتل برصاص الجنود قرب قرية في الضفة الغربية ، صرخت امه بان اولادها الثلاثة الباقين سيصبحون كلهم فدائيين . وفي الجليل هتفت عائلات القتلى « لا توجد اسرائيل هنا .. هنا فلسطين فقط ، كلنا الان « فتح » . هذا هو اذن جوهر الصدام، فالفلسطينيون في الارض المحتلة يتطلعون الى اخونهم في الثورة الفلسطينية وللمشاركة في نضالهم من اجل الا تبقى هناك « اسرائيل» بل فلسطين ، حيث تقوم العلاقة الطبيعية بينهم وبينها . ولقد نجحوا بانتفاضتهم هذه في تثبيت موقعهم في النضال الفلسطيني العام من اجل التحرير. وهم بانتفاضتهم في يوم الارض قد شطبوا العديد من المقولات التي راجت في مشاريع التسوية بعد حرب تشرين . وقد جاءت تلك الانتفاضة مواكبة للمؤامرة الكبرى على الثورة الفلسطينية وجماهيرها في لبنان ، وما تكشف خلالها من انحرافات عن الخط القومي السليم في الساحة العربية . ولعلها تسهم في تعديل الخطوط ووضع الامور في نصابها .

عودة العرب اليهود : المسألة والحل

الدكتور اسعد عبد الرحمن

قدمت حركة المقاومة الفلسطينية ،في منتصف العام ١٩٧٥ ، مذكرة الى الملوك والرؤساء العرب اقترحت عليهمفيها ، تبني خطة متكاملة لتنظيم الهجرة اليهودية المعاكسة من اسرائيل . وتدانطلقت الخطة من فرضية مؤداها ان اليهود الذين اقاموا في البلاد العربيةتعرضوا لمؤامرة صهيونية تضمنت الترغيب والتهديد لحثهم على الهجرةالى فلسطين . وقد تواكب ذلك مع « قصر نظر لدى الانظمة العربية مماحمل هؤلاء اليهود على الهجرة الى اسرائيل .. (حيث) وقعوا بين نارين:فقد خضعوا أولا الى تمييز عنصري داخل اسرائيل ، وفقدوا ، ثانيا ، الاملبالعثور على ملجأ اخر لهم» (١) ولذلك، جاء اقتراح المقاومة الفلسطينية داعياالدول العربية الى اعادة « الثقة الى نفوس اليهود العرب في اسرائيل ،وتنظيم حملة لاعادة تهجيرهم من اسرائيل واعادتهم الى الدول العربية التي نزحوا منها » (٢) .

ومنذئذ ، اصبحت المسألة مطروحةعمليا وواقعيا اذ بادرت بعض الحكومات العربية (وبالذات المغربوالسودان) الى تبني اقتراح حركة المقاومة ودعوة اليهود العرب الىالعودة ، في حين عكفت حكومات اخرى على دراسة الموضوع جديا تمهيداالاتخاذ الاجراءات اللازمة (٣) . كما أن واحدا من قادة المقاومة على الاقل قامبجهود مكثفة تمثلت في وضع دراسة لبدء الحوار حول شعار اعادة العرباليهود الى مواطنهم الاصلية (٤) . كما تلا ذلك عقد ندوات خاصة وعامة (٥)،وتشكيل لجان متابعة (٦) هدفها اغناء الحوار واتخاذ خطوات عملية لترجمةالشعار ، ولو جزئيا ، وربط عربة « اعادة اليهود العرب » بقطار النضالالفلسطيني والعربي المتجه نحو ازالة الكيان السياسي الصهيوني منالاراضي العربية المحتلة . واخيرا ، قامت صحيفة واحدة على الاقل ، بفتحالمجال أمام حوار علني على صفحاتها ، شارك فيه عدد من المفكرين والكتابالعرب طوال اكثر من شهر كامل (٧) .

ولقد كان طبيعيا ان يحتدم النقاشوينقسم المتحاورون ، من حيث الشكل، بين مؤيد متحمس او متحفظ ومعارضرافض بشدة او باعتدال لفكرة « اعادة اليهود العرب » (٨) . كذلك ،انقسم المتحاورون ، من حيث المضمون الى مجموعتين : واحدة تقبل بالفكرةلاعتبارات مبدئية / او عملية ،

ومجموعة اخرى ترفض الفكرة ذاتهـا اما لاسباب مبدئية او عملية . وعلى الرغم من ان النقاش عاني ، بحكم احتدامه ، من الامراض المعتادة في كل حوار ساخن، فانه ــ بالتأكيد ــ أسهم الى حد بعيد في تسليط الضوء على الفكرة وازالة كثير من الظلال التي احاطت بها وحجبت بعض جوانبها ، وكي لا يكون كل ذلك الجهد الذي بذله الجميع لاثراء الحوار طفرة سرعان ما تبخرت ، ومن اجل دفع الحوار خطوة جديدة الى الامام ، لا بد من محاولة جديدة لتسجيل الحقائق بعد أن زال عنها الضباب الذي نشأ في الاصل من ملامسه الجزء العاطفي من النقاش للوقائع الباردة . فما هي **اولا** مسوغات قبول الفكرة الداعية الى عودة اليهود العرب الى بلدانهم السابقة ، وما هي **ثانيا** ابرز الذرائع التي اتى بها كل من عارض الفكرة ، وما هي **ثالثا** قيمة تلك الذرائع ، وما هو **رابعا** واخيرا، الاطار السليم لبدء ترجمة ذلك الشعار الترجمة العملية المطلوبة .

أ ــ مسوغات القبول :

لا يخفى على احد ان الهجرة اليهودية الى اسرائيل هي على رأس قائمة الاولويات الاسرائيلية والصهيونية. بل أن الصهيونية ليست، في جوهرها ، الا هجرة اليهود الى فلسطين لاقامة وطن قومي لهم دون ان تقيد حركتهم حدود معلنة (٩) . كما أن الهجرة اليهودية الى فلسطين تشكل بالنسبة لاسرائيل ــ علاوة على كونها الفكرة المركزية في الايديولوجية الصهيونية ــ المصدر الاوفر لتأمين الامان المعنوي لليهود والامن الفعلي المادي لاسرائيل(١٠).وهذا يفسر تشجيع اسرائيل يهود العالم على الهجرة بدءا بما أعلنته في « وثيقة الاستقلال » في العام ١٩٤٨ ؛ ومرورا «بقانون العودة» للعام ١٩٥٢ ، وانتهاء « بقانون الجنسية » للعام ١٩٥٢ وما تلاه من أنظمة واجراءات في الاعوام التالية(١١)كما ان ذلك يفسر « الاجماع » على موضوع الهجرة من قبل جميع الاحزاب الاسرائيلية بما في ذلك حركة « سيح » (اليسار الاسرائيلي الجديد) ،والفهود السود ، وحتى منظمتي ماتزبن وراكاح المناوئتين للصهيونية (١٢) .

وعلى الرغم من عدم نجاح الحركة الصهيونية واسرائيل النسبي في جهود تجميع يهود العالم، ازداد عدد سكان « اسرائيل » اليهود من ٦٥٠ الفا في العام ١٩٤٨ الى ما تجاوز مليونين ونصف من اصل ما يقارب ١٦ مليونا من اليهود في العالم (١٣) . وغني عن الذكر ان تلك الزيادة اضافت الكثير الى قوة الدولة الصهيونية التي لم تكن،مع ذلك، خلوا من المشاكل الاساسية. ولعل أبرز هذه المشاكل : انقسام المجتمع عموديا بين طائفتي الاشكنازيم والسفارديم، وما رافق ذلك من توترات وازمات مجتمعية (عنصرية ، وطبقية، وثقافية ، وسياسية) ، وتغير سمة التكوين البشري الطائفي الاسرائيلي من مجتمع « غربي » عرقيا الى مجتمع « شرقي » اذ انخفضت نسبة الاشكنازيم من ٩٠٪ في العام ١٩٤٨ الى أقل من ٤٠ ٪ الان (١٤) . بل ان الاهم من ذلك كله ، نشوء ما يمكن تسميته « بتحدي الهجرة » امام اسرائيل (١٥) ، وبخاصة في ظل تحول محصلة الهجرة الى الحدود السلبية وتغلب أرقام الهجرة المعاكسة من اسرائيل على أرقام الهجرة اليها

مع العام ١٩٧٥ (١٦).

وكي لا تكون « مؤشرات ١٩٧٥ »هذه مسألة عابرة (كما كان عليه الحال في مؤشرات ١٩٥٣) ،ومن اجل ان يستديم تحدي الهجرة (١٧) فيوجه اسرائيل، وفي سبيل تفسيخ المجتمع الصهيوني الاسرائيلي تكتيكيا واستراتيجيا وصولا الى تحقيق الاهداف الفلسطينية والعربية الخاصة باقامة الدولة العلمانية الفلسطينية تمهيدا لقيام الدولة العربية العلمانية الديمقراطية في جميع ارجاء الوطن العربي ،لا بدمن تبني مشروع دعوة اليهود العرب للعودة الى أوطانهم الاصلية كحلقة من سلسلة المشاريع القتالية العسكرية والسياسية والاقتصادية التي يقتضيها تحرير العرب لارضهم وتحقيق أهدافهم الاستراتيجية الاخرى .

ب ــ ذرائع الرفض : (١٨)

اما ابرز الذرائع التي يطرحها معارضو مشروع دعوة العرب اليهود للعودة الى بلدانهم الاصلية فتتلخص بالاتية :

١ ــ تنطوي الدعوة على سحب البساط من تحت اقدام المشروع الفلسطيني الهادف اقامة الدولة الديمقراطية العلمانية في فلسطين . ذلك انه أما ان نلتزم بذلك المشروع فنبقى اليهود حيث هم لكي تتشكل منهم الدولة الديمقراطية العلمانية العتيدة ،او نسحبهم من هناك فينتفي بذلك الاساس البشري اللازم لاقامة مثل تلك الدولة .

٢ ــ سيؤدي تنفيذ فكرة عودة اليهود العرب الى تفريغ فلسطين المحتلة من اليهود الشرقيين ، مخففا بذلك من حدة ازمة التناقض بينهم وبين اليهود الغربيين من جهة ، ومفسحا المجال امام استجلاب موجات هجرة جديدة من هؤلاء الاخيرين من جهة ثانية .

٣ ــ سيكون الاتيان باليهود العرب الى الدول العربية كمن جاء « بالدب الى كرمه » . ذلك ان احضار يهود تشبعوا بالفكر الصهيوني طوال اكثر من ربع قرن ، سيجعل منهم طوابير خامسة وعملاء وجواسيس جاهزين للعمل لصالح اسرائيل وبخاصة وانهم ــ يضيف البعض ــ سيكونون عرضة في البلاد العربية للتمييز القومي والديني ضدهم، ناهيك عن انهم سيبتلعون، بما عرف عنهم من حذاقة في اعمال التجارة، اقتصاد البلدان العربية التي يفدون اليها وسيشربون النفط العربي حتى اخر قطرة .

٤ ــ ستقتصر عودة اليهود ــ ان عادوا ــ على الكبار في السن الذين لا يزالون يحملون معهم ارتباطهم بالاوطان التي نشأوا فيها . وعندئذ نكون قد خففنا عن اسرائيل عبئهم اولا وارهقنا انفسنا بهم ثانيا ، دون ان نفرغ اسرائيل من عنصرها البشري الذي تحشده لقتالنا ثالثا .

٥ ــ اليهود ــ في الدين والتاريخ ــ« اشرار بطبيعتهم » ولذلك ، سيكونون

دوما ادوات خراب او افساد.فلم نأتي بالطاعون الى عقر دارنا ؟

٦ ــ المسألة غير مطروحة فعليا وعمليا.

جـ ــ قيمة الذرائع :

تنطوي الذرائع المساقة اعلاه على ثغرتين اساسيتين :

فبعضها ، اولا ، ذاتي الى درجة السقم . وما كان ليضير فكرة ما ان تكون ذاتية طالما ان ذلك ينطبق على الواقع الموضوعي او ــ على الاقل ــ لا يجانبه كثيرا . وقد نتج عن المنحى الذاتي المفرط الذي يتبدى في كثير من الذرائع المعطاه اعلاه ، عدة نواقص .فالذاتية تلك ، دفعت البعض الى خلق « حقائقهم » على حساب الحقائق القائمة او تلوين تفسيراتهم للحقائق بالوانهم الشخصية الذاتية . كذلك ،قادتهم ذاتيتهم ــ في حالات اخرى ــ الى لوي اذرع الحقائق او جعلها مطلقة تنطبق على كل زمان ومكان .

فالبعض بذاتيته الشوفينية ،او الفاشية ، او ربما بكلتيهما ، قرر ــ هكذا ــ بان اليهود بطبيعتهم ادوات شر وافساد وانهم جبلوا على الخداع واللؤم . وما الى ذلك من نعوت تدين صاحبها اكثر مما تسعفه . وغنى عن الذكر ، في هذا المجال ، ان مثل هذه « الحجة » لا تستند الى اي اساس علمي . ذلك انه ــ علميا وتاريخيا ــ ليس من شعب متفوق أو مختار (بالمعنى النازي او بالمعنى الذي ينادي به كاثوليك الكهان اليهود او الصهاينة ، تماما مثلما ليس هناك شعب جبان او لئيم او ما الى هناك من صفات . ولنذكر في هذا الصدد ، ماروجه الاستعمار الفرنسي من الطبائع المخزية التي اراد حينذاك الصاقها عشوائيا بالشعب الفيتنامي ، وكيف ان الحقائق عادت فاكدت نفسها وقامت بدفن الاصباغات الذاتية الفرنسية . وكذلك الحال مع الشعوب الصينية ، والكوبية .والعربية وغيرها من الشعوب التي تعرضت ــ حديثا بالمقياس التاريخي ــ الى فيض من مغالطات لم تدم الا في خلايا العقول الفاشية .

ولعل الاخطر من هذا كله ، كون البعض قد قام ــ هكذا ــ بتعيين نفسه فقيها في الدين الاسلامي وضليعا بتفاسيره فاجتزأ من الآيات ما حلا له ، ناسيا (او على الارجح ، متناسيا) ان اليهود من اهل الكتاب وان ما كان من امر بعضهم ، في مكان وزمان معينين، لا ينطبق عليهم جميعا وفي كل الاماكن والازمات .

كما ان قرار البعض باغماض عينيه عن الحقائق القائمة والتقرير ــ هكذا ــ بان المسألة غير مطروحة علميا وعمليا امر فيه الكثير من الذاتية . ذلك ان المسألة مطروحة فلسطينيا من خلال ما عرضناه في مقدمة هذه الدراسة . وهي ، كذلك مطروحة عربيا بدليل ان بعض الدول العربية (وبالذات العراق، والسودان ، والمغرب ، وتونس)اعلنت قرار ترحيبها بعودة اليهود العرب ، وسنت قوانين خاصة بهدف تشجيع عودتهم . كما ان المسألة

مطروحة اسرائيليا من خلال ما نرويه الارقام من ازدياد في حجم الهجرة المعاكسة ومن خلال ما اعلنته المصادر الاسرائيلية (وبالذات مصادر الفهود السود) مؤخرا عن بدء عودة يهود المغرب الى وطنهم الاصلي . (١٩)

واخيرا ، يطالعنا من ثغرة الاراء « والحقائق » الذاتية المشار اليها اعلاه ادعاء يقول بانه لن يغادر اسرائيل الا كبار السن او ان من يغادرها هو بالضرورة مشبع بالافكار الصهيونية . وفيما يتعلق بالشق الاول من الادعاء . لا يجد المرء اي اساس علمي يدعمه . بل ان حديث الوقائع ينسف ذلك الادعاء من اساسه . (٢٠) . وفيما يتعلق باؤلئك الذين يسوقون « حجة » التشبع بالافكار الصهيونية ، فانهم لايعرفون — فيما يبدو — معنى الصهيونية التي هي — اولا وقبل كل شيء — العودة او السعي من اجل دعم عودة اليهود الى صهيون . ثم ان من عاش في اسرائيل وغادرها قرفا لا يتوقع له ان يكون داعية للفكر والعمل الصهيونيين او مؤمنا بهما .

اما الثغرة الاساسية الثانية التي تنطوي عليها الذرائع المقدمة من رافضي فكرة عودة اليهود العرب الى اوطانهم فتكمن في خلطهم بين سلامة المبدأ وصعوبة التطبيق . فرفض فكرة ما لانها تنطوي على تكاليف او صعوبات فحسب ، امر لا يحتاج الخطأ فيه الى اية ايضاحات . ذلك ان الصعوبات او التكاليف واردة في كل مهمة كبرت ام صغرت . والمهم هو ان لا تكون التكلفة اكثر من قيمة الهدف المنوي تحقيقه . وفيما يختص بموضوعنا ، لا يختلف اثنان على ان هدف ازالة الكيان السياسي لاسرائيل لا يتقدم عليه اي اعتبار وتهون من اجله كل التكاليف بشرية كانت ام مالية . وليس في مثل هذا القول اية عاطفية — كما قد يبدو لاول وهلة — . ذلك ان اية حسابات عملية للارباح والخسائر في عملية اقامة الدولة الديمقراطية العلمانية على ارض فلسطين لا بد وان ترجح — بالقطع — كفة الارباح .

ولعل أضعف الذرائع قاطبة هي تلك القائلة بأن من يعود من اليهود العرب سيكونون من الجواسيس او طوابير خامسة . وبدون مناقشة للبعد الفاشي الشوفيني الذي قد يتضمنه مثل هذا القول ، نقول : ربما يكون ذلك الافتراض صحيحا جزئيا . اي ربما يكون البعض اما عائدا في مهمة تجسسية او جاهزا اكثر من غيره ليكون طابورا خامسا . ولكن الجواب على هذه « المعضلة » بسيط اذ انه لايستحق اكثر من سؤال نسأله : الم تثبت اجهزة الاستخبارات والمباحث الداخلية العربية جدارتها اكثر من اية اجهزة في هذا الوطن ؟ وعليه ، فان مثل ذلك التخوف المضخم يتقلص — عند التفحص والتدقيق — الى حجمه الحقيقي فيغدو مجرد مسألة فنية . (٢١)

د — حيثيات الخطة ومعالم تنفيذها:

لا بد ، في البداية ، من استعراض العوامل التي طالما ساعدت على ازدياد هجرة اليهود الى فلسطين المحتلة قبل وبعد العام ١٩٤٨ ، والعوامل التي طالما ساعدت على اضعاف تلك الهجرة وتحويلها احيانا الى هجرة معاكسة من اسرائيل الى الخارج ، وتوظيف نتائج هذا الاستعراض التحليلي لرسم الخطة العربية الواجبة .

اما العوامل المساعدة على هجـرة اليهود الى فلسطين واضعاف الهجـرة المعاكسة منها فتتلخص فيما يلي :

اولا : اللاسامية التاريخية (ما قبل العام ١٩٣٩) ، وبخاصـة في دول اوروبة ، واستثمار الحركة الصهيونية لها . (٢٢)

ثانيا : ظروف ومقـدمات الحرب العالمية الثانية ونهاياتها (الاستفادة من يهود المعسكرات في اوروبة الغربية ، ومن يهود اوروبه الشرقية) (٢٣)

ثالثا : ظروف تقسيم فلسطين فـي العام ١٩٤٧ ، والحرب العربيـة الاسرائيلية الاولى في العام ١٩٤٨ ومـا رافقها من عواطف وردود فعل قومية متسرعة معادية لليهود (سياسيـا واقتصاديا) في البلاد العربية . (٢٤)

رابعا : الانتعاش الاقتصادي فـي اسرائيل في الاعوام (١٩٥٥ — ١٩٥٧ في اعقاب تبلور اثر التعويضات الالمانية (الرسمية والشخصية) بدءا من العام ١٩٥٣ . كذلك الانتعاش الاقتصادي في الفترة (١٩٦١ — ١٩٦٤) (٢٥)

خامسا : النصر العسكري الاسرائيلي المذهل في العام ١٩٦٧ وما خلفه من مشاعر قوية وتضامن وثقة في وسط يهود العالم (٢٦) . تماما مثلما كانـت الصهيونية قد استخدمت ، في الماضي ، ولا تزال تستخدم تكتيك « التهويـل بالخطر الخارجـي » لاخفـاء (٢٧) التناقضات والوجه البشع لاسرائـيل ولشحن يهود العالم بالتعاطف مـع اسرائيل والتحرك باتجاه انقاذها .

سادسا : التحـرك السياسي — الاعلامي الصهيوني المكثف ، وبخاصة منذ العام ١٩٦٧ فـي حدوث الطلاق السوفياتي لاحراجه والضغط عليـه لتشجيع هجرة اليهود السوفيات الـى اسرائيل . وقد سرع انحيـاز الاتحاد السوفياتي للعرب سياسيا وعسكريـا منذ العام ١٩٦٧ في حدوث الطـلاق السوفياتي — الاسرائيلي ؛ واطلاق يد الحركة الصهيونية في معاداة الاتحاد السوفياتي الذي كان لتلك الحركـة معه — علاوة على العداء النابع من كونها حركة استعماريـة — ثارات قديمة . (٢٨) . وهذه الاخيرة ناجمة عن الموقف الصلب الذي وقفته روسيا منذ الثورة البلشفية اذ لم تسمـح السلطات السوفياتية الا بهجـرة (١٥٫٨٠٠) يهودي في الفترة (١٩١٩ — ١٩٢٣) ، وما يعادلهم في السنوات (١٩٢٤ — ١٩٣١) ، وبهجرة عشـرة اشخاص فقـط في الاربعيـنات والخمسينات ، وبهجرة خمسة اشخاص مسنين طوال الفترة ما بين ١٥ ايـار مايو ١٩٤٨ ونهاية العـام ١٩٥١ ، في حين لم تسمح بهجرة احد فيما بين (١٩٥٢ ومنتصف ١٩٥٥) ، وهجـرة ١٢٥ شخص فقط طوال الفترة ما بيـن (تموز ١٩٥٣ — وايلـول ١٩٥٥) وهجرة (١٫١٢٠) في العام ١٩٥٨ ، وهجرة مئتـي يهودي في العام ١٩٦٣ . (٢٩) . هذا ، وتسعـى اسرائيل الى تهجير يهـود الاتحـاد السوفياتي اليها لكونهم لا يفيـدون اسرائيل ماليا ، ولا يشكلون قـوة سياسية ضاغطة علـى القـيادة السوفياتية (كما هو الحال في الولايات المتحدة وغيرها) ، ولكونهم « كـوادر علمية » تستفيد منها اسرائيل ، علاوة على الرغبة في استخدامهم لتعديـل التوازن البشري الطائفي في اسرائيـل وذلك بترجيحهم لكفة الاشكنازيم . (٣٠)

سابعا : الايديولوجيات والمواقـف الشوفينية العربية ، الرسمية وغيـر

الرسمية ، طوال سنوات عديدة منجهةوتقصير الاعلام العربي التقدمي الجديد ازاء اليهود ، والشرقيين منهم على نحوخاص ، من جهة ثانية . ولعل هذا هو السبب الاهم في ترسيخ لحمةالمجتمع الصهيوني ومنع تفسخه فيالماضي ، وهو السبب الاهم في ابقاء « حركةالفهود السود » ، مثلا ، غير مستعدة « للمشاركة في الكفاح العربي ضد الصهيونية » وكونهم غير مهتمين « سوى في الحصول على قطعة من الجبنة الصهيونية في اسرائيل » .(٣١) كما ان ذلك كله ، اضافة الى غيابرنامج ايجابي عربي لاعادة توطين اليهود العرب الاسرائيليين في الوطنالعربي ، لعب دورا بارزا في « اغلاق عقل اليهودي العربي في اسرائيل ازاءاحتمالات عودته الى موطنه الاصلي ، وبالتالي ، بقائه في الدولة الصهيونيةطالما انه غير قادر لاسباب ثقافية نفسية ومالية على الهجرة الى الدولالغربية . (٣٢)

اما العوامل التي اضعفت الهجرةالى اسرائيل او ساعدت على الهجرة المعاكسة منها فتتلخص في التالي :

اولا : المقاومة الرسمية والشعبيةالعربية المتمثلة في المقاطعة الاقتصادية والرفض السياسي وبالذات القتالالعسكري وبخاصة منذ ظهور حركة المقاومة الفلسطينية المسلحة بدءا منالعام ١٩٦٥ وما اعقب ذلك من معارك كان ابرزها ما وقع في تشرين الاول -اكتوبر ١٩٧٣.

ثانيا : نضوب ماعرف باسم «مناطق الضيق » (اوروبة الشرقية ، العالم العربي) نتيجة هجرة غالبية يهود هذهالمناطق الى اسرائيل في اعقاب قيام الدولة الصهيونية . (٣٣)

ثالثا : اغراءات ما عرف باسم« مناطق الرخاء » (امريكا الشمالية والجنوبية ، اوروبه الغربية، استراليا،افريقية الجنوبية) لليهود للبقاء فيها او الهجرة اليها من اسرائيل وغيرها . (٣٤)

رابعا : الازمات الاقتصادية فياسرائيل ، وبخاصة في العامين (١٩٥٢ -١٩٥٤) ، وكذلك في العامين (١٩٦٥-١٩٦٧) . وقد انخفض مستوى الهجرة في هاتين الفترتين بشكلملحوظوازدادت فيهما الهجرة المعاكسة من اسرائيل . (٣٥)

خامسا : عدم صهيونية العديد مناليهود وتفضيلهم لمستقبلهم الذاتي . ومن الادلة البارزة على ذلك ، انهعندما استقلت الجزائر لم يهاجر الى اسرائيل الا ٧ بالمئة من مجموع (١١٠) آلاف من اليهود الجزائريين . وقد فضل الباقون السفر الى فرنساوالاقامةفيها . (٣٦)

سادسا : القيود السوفياتية علىهجرة اليهود الى اسرائيل . (٣٧)ولهذا العامل اهمية بالغة خاصة اذا تذكرناان عدد اليهود في الاتحاد السوفياتي يكاد يعادل عدد يهود اسرائيل . (٣٨)وفي هذا المجال ، لا تلجأ الدولة

السوفياتية الى الاجراءات السلبية بمنع اليهود من المغادرة فحسب ، بل انها بالتمييز (المقصود وغير المقصود) لصالح سكانها من اليهود تجعلهم غير راغبين في مغادرة الاتحاد السوفياتي على الرغم من الضغوط الصهيونية والاسرائيلية الهائلة عليهم . والدليل على حسن المعاملة هذا (بل ربما التفضيل) ان يهود الاتحاد السوفياتي الذين لا يشكلون الا (٥ر١ بالمئة) من مجموع السكان ، يشكلون ٧ر١٤ بالمئة من الاطباء ، ١٤ بالمئة من الكتاب و٤ر١٠ بالمئة من المحامين، ٣٢ بالمئة من الملحنين والمؤلفين ، و١٣ بالمئة من الفنانين في الدولة السوفياتية . (٣٩)

سابعا : المشاكل غير الاقتصادية داخل اسرائيل . وتتلخص هذه في مشاكل الاستيعاب والتكيف وما يرافقهما من احساس شديد بالغربة والعزلة والروتين الحكومي المعقد والممل ، والامتيازات التي تقدم للمهاجرين الجدد والتي خلقت ردود فعل عدائية في وسط المهاجرين القدامى الذين اصبحوا يجاهرون بعدائهم لكل مهاجر جديد بحيث يسرعون في تشجيع مغادرته البلاد ان حضر ، او «اقناعه» بالاحجام عن الحضور ان كان يفكر في ذلك . (٤٠) واخيرا ، وليس اخرا ، مشكلة التمييز العنصري الحاد داخل المجتمع الاسرائيلي وتحول الاغلبية اليهودية الى مواطنين من الدرجة الثانية وما نتج عن ذلك من توترات وحركات رفض وتمرد . (٤١)

ثامنا : مواقف بعض الدول العربية ازاء هجرة مواطنيها من اليهود الى اسرائيل وتشجيعهم نفسيا وماديا ، على البقاء في البلدان العربية المعنية . ولعل الامثلة البارزة في هذا المجال هي موقف لبنان منذ العام ١٩٤٨ وكل من المغرب وتونس منذ العام ١٩٥٨ . (٤٢)

اذن ، وبعد ان استعرضنا العوامل التي تساعد على هجرة اليهود الى اسرائيل ، ودرسنا العوامل التي تقلل من الهجرة اليها او التي تزيد الهجرة منها ، ما هي معالم الخطة العربية التي تزيد من تفاقم « تحدي الهجرة » الذي يواجه اسرائيل ، وتساعد ، في الوقت ذاته ، على تفسيخ المجتمع الصهيوني بها وتعزز بالتالي ، حركة الثورة الفلسطينية والعربية ازاء العدو الصهيوني ؟

اولا : نشر وترسيخ الفكر التقدمي المضاد للفكر الفاشي والشوفيني الذي لا يميز ضد اليهود فحسب ، بل وضد الاقليات الاخرى بشكل عام .

ثانيا : تأكيد الدول العربية ، رسميا ، وعلى اعلى المستويات وباكثف زخم ممكن الموقف المبدئي التاريخي للامة العربية المتسامح مع الاقليات بشكل عام ، ومع الطائفة اليهودية بشكل خاص . وارفاق ذلك بخطوات عملية جذرية تعزز اوضاع ما تبقى من اليهود في البلدان العربية . ولعل في موقف الثورة الفلسطينية من يهود لبنان اثناء الحرب الاهلية اللبنانية خير مرشد في هذا المجال . ناهيك عن الموقف العراقي . في دستور العام ١٩٢٥ ، والذي كان قد ساوى بين المواطنين العراقيين يهودا وغير يهود ، في الحقوق والواجبات ، وذلك قبل ان

تلغي حكومة نوري السعيد ذلك النص عمليا في الاجراءات التعسفية التي اقدمت عليها في العام ١٩٥٠ . (٤٣)

ثالثا : تبني الدول العربية ، رسميا،وعلى اعلى المستويات وباكبر كثافة من الجدية ، قرارا يسمح بعودة اليهود العرب الى الدول العربية ، كمواطنين اصليين ، لا رعايا ، مع تمكينهم ماديا من اعادة بناء مستقبلهم في وطنهم الجديد ـ القديم وذلك بشد ازرهم عن طريق جهود « الوكالة العربية » التي تنشأ لهذه الاغراض . (٤٤)

رابعا : تمتين صلات الدول العربية بالاتحاد السوفياتي وتشجيعه ، بمختلف الوسائل ، على مقاومة الضغوط الصهيونية والغربية الموجهة اليه لفتح ابواب الهجرة على مصراعيها امام اليهود السوفيات ، والسعي لدى الدولة السوفياتية من اجل اعادة اغلاق الباب نهائيا في وجه التأثيرات الصهيونية على المواطنين السوفيات ، وقبول اعادة اليهود السوفيات الذين اكتشفوا جوهر اسرائيل البشع فغادروها فعلا او هم في طريقهم الى مغادرتها .

وبعد ،

ان الدعوة الى عودة اليهود العرب من اسرائيل الى البقاع الاصلية التي سبق لهم وعاشوا فيها على امتداد رقعة الوطن العربي ، هي الوجه الاخر للدعوة الهادفة تنفيذ الهدف الاستراتيجي للثورة الفلسطينية والخاص باقامة الدولة العلمانية الديمقراطية في فلسطين .بل ان هذه الدعوة تشكل ركنا اساسيا من اركان الهدف الاستراتيجي للامة العربية الساعي الى اقامة الدولة العربية العلمانية الديمقراطية التي لاغنى عنها كبوتقة لصهر انسان الارض العربية في امة واحدة متلاحمة تقطع الطريق على كل محاولات الاستعمار القديمة ـ الجديدة التي طالما سعت الى تقطيع اوصال الامة العربية بسيف « التمايز الديني» حينا ، وبسيف« التمايز العرقي » حينا اخر . ولعل الانتصار الابرز ـ ان كان ثمة انتصارات اخرى ـ في تجربة « المسلخ اللبناني » الاخير هو انتصار صيغة« دولة كل الطوائف » على صيغة«دولة لكل طائفة » هذا من جهة .

ومن جهة ثانية ، لا تشكل الخطة الخاصة باعادة اليهود العرب الى مواطنهم الاصلية، على عظمها واهميتها الا تحديا فرعيا امام الامة العربية. اما التحدي الرئيسي فهو في انه لن يكون للخطة المبينة اعلاه اية قيمة ما لم يقتنع يهود اسرائيل والعالم بان اسرائيل وجدت لتزول . وهم لن يقتنعوا طالما ان نار الجبهات العربية ، باستثناء الجبهة الفلسطينية ، غير مشتعلة ،كما لن يكون للخطة ذاتها اية قيمة ان لم تواكبها خطة اقتصادية وسياسية واجتماعية شاملة لتعزيز مواطنية العرب المقيمين (يهودا وغير يهود) وتمهيد الطريق ليس امام عودة العرب (اليهود فحسب) ، بل واقناع العرب (من غير اليهود) بالبقاء في وطنهم اولا ،وتمهيد الطريق امام عودة العرب المهاجرين.(من غير اليهود) الى بلادهم ثانيا . وهنا بالذات يكمن التحدي الحقيقي الذي يواجه امتنا العربية.

الحواشي

١ ــ انظر صحيفة **القبس** الكويتية في ٢٢ــ٢ــ١٩٧٦ ، ص ١ و١٦ .

٢ ــ **المصدر السابق** ، ص ١٦

٣ ــ كما جاء في مقالة اللواء كمال عبد الحميد، « لا .. لهذه الاسباب » ، **القبس** في ١ــ٣ــ١٩٧٦

٤ ــ انظر دراسة ابو مازن ، عضو اللجنة المركزية لحركة التحرير الوطني الفلسطيني ــ فتح **الصهيونية .. بداية ونهاية** « مكتب التعبئة والتنظيم في حركة فتح ، ١ــ١ــ١٩٧٦ ».

٥ ــ من نوع الندوة الخاصة التي عقدها ابو مازن ، احد قياديي فتح ، مع عدد من الشخصيات الاعلامية الفلسطينية والعربية بمقر منظمة التحرير الفلسطينية في الكويت في شهر شباط ــ فبراير ١٩٧٦ .وكذلك ، الندوة العامة التي عقدت بدعوة من الاتحاد العام للكتاب والصحفيين الفلسطينيين ــ فرع الكويت بتاريخ ١٦ــ٣ــ١٩٧٦ والتي اشترك فيها كل من : الدكتور هاني فارس والدكتور اسعد عبد الرحمن « مؤيدان لفكرة عودة اليهود العرب » والدكتور ابراهيم مكي واللواء كمال عبد الحميد «معارضان» . وقد ادار الندوة وساهم فيها الاستاذ خالدالحسن احد قادة فتح . انظر تفاصيل الندوة في **القبس** بتاريخ ١٧ــ٣ــ ١٩٧٦

٦ ــ فقد شكلت لجنة متابعة في الكويت، مثلا.

٧ ــ انظر صحيفة **القبس** بدء من ٢١ ــ٢ــ١٩٧٦ وحتى ٢٥ــ٣ــ١٩٧٦ على سبيل المثال.

٨ ــ ومن الامثلة على هذه الاراء ، انظر مقالات مؤيدي الفكرة :

أ ــ توفيق ابو بكر « نعم لهذه الاسباب » ، القبس في ٢٨ و ٢٩ ــ ٢ ــ ١٩٧٦ .

ب ــ د. اسعد عبد الرحمن ، « التحدي الفرعي والتحدي الرئيسي » ، **المصدر السابق،** في ٣و٤ ــ ١٩٧٦

حـ ــ حسين خليل ، « نعم .. لاسباب قومية وانسانية « **المصدر السابق** ، في ٩ــ٣ــ١٩٧٦.

د ــ حسين ابو النمل ، « العودة .. والتصعيد العسكري » **المصدر السابق** ، في ١٢ــ٣ــ١٩٧٦ .

اما المقالات المعارضة فهي :

أ ــ اللواء كمال عبد الحميد ، « لا .. لهذه الاسباب » ، **القبس** ، في ١ــ٣ــ١٩٧٦ .

ب ــ فتحي الحديدي ، « لا لعودة الجواسيس » ، **المصدر السابق** ، في ٢ــ٣ــ١٩٧٦ .

جـ ــ د. ابراهيم مكي ، « لا تضيفوا الى اخطائنا خطأ جديدا » ، **المصدر السابق** ، في ٦ــ٣ــ١٩٧٦ .

د ــ د. حسين مؤنس ، « اذا عادوا .. سيشربون النفط حتى اخر قطرة » ، **المصدر السابق** ، في ٧ــ٣ــ١٩٧٦ .

هـ ــ الحبيب محمد علوان ، « لا .. لهذه الاسباب » ، **المصدر السابق** ، في ١٩ ــ ٣ ــ ١٩٧٦ .

اما مقالة د. عزيز شكري فكانت مقالة بين بينية يصعب تصنيفها . انظر ، « دعائيا : نعم، واقعيا : المسألة غير مطروحة » **المصدر السابق** في ٨ــ٣ــ١٩٧٦ .

٩ ــ انظر ، عبد الحفيظ محارب ، « الهجرة الى اسرائيل : مشاكلها وكيفية التصدي لها»، **شؤون فلسطينية** (العدد ١٠ ، ١٩٧٢) ، ص ٥٣ . كذلك ، مصطفى عبد العزيز ، **اسرائيل ويهود العالم : دراسة سياسية وقانونية** (بيروت مركز الابحاث ، ١٩٦٩) ص ١١٧ــ١١٨ .

١٠ ــ عبد العزيز ، **المصدر السابق** ص ١١٩ ــ١٢٠ .

١١ ــ عبد الحفيظ محارب **المصدر السابق** ، ص ٥٤ .

١٢ ــ المصدر السابق ، ص ٥٣ . كذلك ، عبد الحفيظ محارب « اليسار الاسرائيلي الجديد (سيح) ، شؤون فلسطينية (العدد ١٩، ١٩٧٣) ص ٦٤ .

١٣ ــ كما ورد في : عبد الحفيظ محارب ، « الهجرة الى اسرائيل » ، **المصدر السابق** ، ص ٥٥ ــ ٥٦ . كذلك ، احمد حجاج ، **سكان اسرائيل : تحليل وتنبؤات** (بيروت : مركز الابحاث ، ١٩٦٨) ، ص ٨٥ .

١٤ ــ كما جاء في المصادر التالية : محارب، « الهجرة الى اسرائيل » ، **المصدر السابق** ، ص ٦٢ــ٦٦ .

كذلك ، عودة ابو ردينة ، « اليهود الشرقيون

في اسرائيل « ، شؤون فلسطينية (العدد ٥ ، ١٩٧١) ، ٢٩٢ — ٢٩٥ . ايضا عبد الحفيظ محارب ، « الهوة الاجتماعية في اسرائيل » ، **شؤون فلسطينية** (العدد ١٥ ، ١٩٧٢) ص ٣٧ — ٤٣ .

١٥ — التعبير مستعار من دراسة عبد العزيز ، **المصدر السابق** ، ص ١١٨ .

١٦ — انظر : ابو مازن ، **المصدر السابق** ، ص ٤٥ .

١٧ — المقصود الهجرة المعاكسة من اسرائيل ورجحان كفتها على الهجرة الى الدولة الصهيونية في العام ١٩٥٣ / ١٩٥٤ . انظر ، حجاج ، المصدر السابق ، ص ٢٩ و ٧٠ — ٧١ .

١٨ — جميع الذرائع المتضمنة في هذا القسم مستقاه من المقالات التي كتبت ضد عودة اليهود العرب علاوة على مقالة د. عزيز شكري الانفة الذكر . انظر حاشية رقم ٨ .

١٩ — انظر : ابو مازن ، **المصدر ذاته** .

٢٠ — **المصدر السابق** ، ص ٤٤

٢١ — من اجل تفاصيل اكثر عن مضمون القبول والرفض حول مسألة عودة العرب اليهود انظر وقائع الندوة الخاصة بذلك والتي نشرت في القبس بتاريخ ١٧ — ٣ — ١٩٧٦ ، ص ١١ .

١٢ — انظر ، محارب ، « الهجرة الى اسرائيل » ، **المصدر السابق** ، ص ٥٧ .

٢٣ — **المصدر السابق** ، ص ٥٥ — ٥٧ كذلك عبد العزيز المصدر السابق ص ١١٩ — ١٢٠ .

٢٤ — محارب ، **المصدر السابق** ، ص ٥٦ كذلك ، عبد القادر ياسين « عصبة مكافحة الصهيونية في العراق ، » **شؤون فلسطينية** (العدد ١٥ ، ١٩٧٢) ص ١٥٩ .

٢٥ — راجع : محارب **المصدر السابق** ، ص ٥٧—٥٨ . كذلك ، حجاج ، **المصدر السابق** ، ص ٧٠—٧١ .

٢٦ — محارب ، **المصدر السابق** ، ص ٥٨ .

٢٧ — محارب « الهوة الاجتماعية في اسرائيل» **المصدر السابق** ، ص ٣٨ .

٢٨ — انظر ، داوود تلحمي ، « بلجيكا : مؤتمر بروكسل ويهود الاتحاد السوفياتي » ، **شؤون فلسطينية** (العدد ٢ ، ١٩٧١) ، ص ٢٣٤ . كذلك ، الدراسة التي اعدها د. صلاح دباغ بعنوان **الاتحاد السوفياتي وقضية فلسطين** (بيروت : مركز الابحاث ، ١٩٦٨) ، ص ٦٢ ، ٦٥ .

٢٩ — **المصدر السابق** ، ص ٦١ — ٦٢ .

٣٠ — تلحمي ، **المصدر السابق** ، ص ٢٣٦. كذلك : محارب ، اليسار الاسرائيلي الجديد » ، **المصدر السابق** ، ص ٦٤ .

٣١ — ابو ردينه ، **المصدر السابق** ، ص ٢٩٤

٣٢ — محارب ، « الهجرة الى اسرائيل » ، **المصدر السابق** ، ص ٦٦ .

٣٣ — **المصدر السابق** ، ص ٥٨ ، ٦٢

٣٤ — انظر المراجع التالية : **المصدر السابق** ،ص ٥٨ — ٥٩ . كذلك مصطفى عبد العزيز ، **الاقلية اليهودية في الولايات المتحدة الاميركية** (بيروت : مركز الابحاث ، ١٩٦٨)ص ١٦٤ — ١٦٦٨ .

٣٥ : حول الازمة الاقتصادية في ١٩٥٢ — ١٩٥٤ ، انظر حجاج ، **المصدر السابق** ، ص ٢٩ وحول الازمة الثانية في ١٩٦٥ — ١٩٦٧ ، راجع: محارب ، « الهجرة الى اسرائيل » ، **المصدر السابق** ، ص ٥٨ .

٣٦ — **المصدر ذاته** .

٣٧ — **المصدر السابق** ، ص ٦٢،٦٧

٣٨ — دباغ ، **المصدر السابق** ، ص ٦١—٦٢

٣٩ — عبد العزيز ، **اسرائيل ويهود العالم** ، ص ١٣و١٧٢ .

٤٠ — محارب ، **المصدر السابق** ، ص ٦٢ — ٦٥ .

٤١ — ابو ردينة ، **المصدر السابق** ، ص ٢٩٢

٤٢ — انظر ، محارب ، **المصدر السابق** ، ص ٥٧ و ٦٦ — ٦٧ . كذلك عبد الحفيظ محارب ، ظاهرة الفهود السود في اسرائيل : اسبابها واصولها » ، **شؤون فلسطينية** (العدد ٤، ١٩٧١) ص ١٥١ .

٤٣ — ياسين ، **المصدر السابق** ، ص ١٥٩ .

٤٤ — تقتضي الاشارة الى ان اول من كتب حول هذا ، بحدود علم المؤلف ، هو الحفيظ محارب ، « الهجرة الى اسرائيل » ، **المصدر السابق** ، ص ٦٧ .

دور الدستور اللبناني في تفجير الحرب الاهلية اللبنانية

الدكتور خيرات البيضاوي

لا جدال في كثرة العوامل والاسباب التي اسهمت في تفجير الحرب الاهلية اللبنانية ، وتشابك خيوطها الداخلية وتقاطعها مع « لعبة الامم » من جهة ، وتجييرها لصالح حسم الصراع العربي - الاسرائيلي كما تريد وتشتهي الولايات المتحدة وربيبتها اسرائيل ، من جهة ثانية . الا ان تمحور المطالب الوطنية «الاسلامية » طوال ليالي الازمة - المحنة حول الاصلاحات الدستورية : وتحديد صلاحيات الرئاستين التنفيذيتين وخصوصا الاولى منهما ، قد اضفيا طابعا مهما على دور الدستور اللبناني في تفجير الاوضاع الداخلية ، وكيفيه ولادته وممارسته والشوائب والنقائص التي علقت به منذ رؤيته النور بعملية « قيصرية » عام ١٩٢٦ على ايدي الانتداب الفرنسي . من هنا الاهمية البالغة التي علقتها الحركة الوطنية اللبنانية على تعديل الدستور اللبناني لتقويم ما اعوج من ممارسة مواده والخروج من حال « انعدام الوزن » الذي كانت تدور في فراغه البرلمانية الديمقراطية اللبنانية المتأرجحة بين كفتي الدستور و « الميثاق الوطني » غير المكتوب .

وتنبع تلك الاهمية من هيكلية الاسس التي اعتمدها الجنرال غورو في اعلان جمهورية « لبنان الكبير » في الاول من ايلول (سبتمبر) عام ١٩٢٠ من جهة ؛ والسيد هنرى دوجوفنيل في اخراج دستور ٢٦ ايلول (سبتمبر) عام ١٩٢٦ ، الى عالم الوجود من جهة اخرى . فبعد مرور خمسين عاما على ولادة الدستور اللبناني ، وثلاثين عاما على « الميثاق الوطني » اختلطت الاوراق ، وجرت مياه كثيرة تحت الاعمدة التي ارتفعت فوقها « طرابيش » و « قبعات » الزعامات السياسية الاقطاعية ، والعشائرية ؛ والعائلية ، والمالية ، ووجد « اهل النظام » انفسهم وقد لفهم الضباب والظلام من كل جانب ، ولفحت نفوذهم نيران الحرب الاهلية التي حولته الى رماد تذروه الرياح اللاهبة فوق هضاب وجبال وسهول وشواطىء « لبنان الاخضر » ...

ولادة غيـــر طبيعيـــة

تمخضت معاهدة فرساي الموقعة في ٢٨ حزيران (يونيو) ١٩١٩ عن ولادة « عصبة الامم » التي تضمنت مادتها الثانية والعشرون التالي نصها الحرفي فرض مبدأ الانتداب على البلاد العربية المنفصلة عن الامبراطورية العثمانية :

« ان المستعمرات والاقاليم التي قضت نتائج الحرب الاخيرة بخروجها من سيادة الدول التي كانت تحكمها فيما مضى ، تسكنها شعوب لا تستطيع حكم ذاتها بذاتها في الاحوال الشاقة التي تسود العالم الحديث ، ينبغي ان يطبق عليها المبدأ القائل ان خير هذه الشعوب وتقدمها هما امانة مقدسة في عنق المدنية ، وان تدمج في هذا الميثاق الضمانات اللازمة لحسن اداء هذه الامانة . وان خير طريقة لتطبيق هذا المبدأ عمليا هو ان يعهد بتدريب هذه الشعوب الى الامم الراقية التي تستطيع بفضل مواردها وخبرتها او موقعها الجغرافي ، الاضطلاع بهذه المسؤولية على خير وجه ، وان تتولى هذه الامم تدريب هذه الشعوب بصفتها منتدبة من قبل عصبة الامم.

« ان بعض المجتمعات التابعة سابقا للامبراطورية التركية بلغت مرحلة من التقدم يمكن معها الاعتراف باستقلالها اعترافا مقيدا بشرط قيام دولة منتدبة يعهد اليها تقديم المشورة الادارية والمساعدة لهذه المجتمعات حتى يحين الوقت الذي تستطيع فيه (كل منها) القيام بنفسها منفردة بمتطلبات الاستقلال . **ويجب أن تكون رغبات هذه المجتمعات قاعدة اساسية في اختيار الدولة المنتدبة »** .

ان تعبير «الانتداب» لم يكن اكثر من لفظ سياسي جديد مهذب للاستعمار اكتوت بنيرانه الشعوب العربية التي رزحت تحت ممارسته اللاانسانية واللااخلاقية طوال ربع قرن . فلجنة الاستفتاء الاميركية المعروفة باسم كينغ ــ كراين والتي ارسلها رئيس الولايات المتحدة الاميركية وودرو ولسون حينذاك الى الشرق العربي للتعرف على « رغبات الشعوب العربية في اختيار الدولة المنتدبة » عادت بخفي حنين بعد ان زارت اربعين مدينة وقابلت ما لا يحصى من الوفود ، وتلقت حوالي ١٨٠٠ عريضة . ولقد انجزت مهمتها بسرعة (١٠ حزيران (يونيو) ــ ٢١ تموز (يوليو) ١٩١٩) ، ورفعت تقريرها للرئيس ولسون وهو يتضمن:

١ ــ اصرار المؤتمر السوري في ١٩١٩ على وحدة سوريا ولبنان وفلسطين ، واستقلالها ، وقبول مساعدات اقتصادية وفنية من الولايات المتحدة ، واذا اعتذرت فمن بريطانيا ، ورفض قبول اية مساعدة من فرنسا.

٢ ــ مطالبة سكان « جبل لبنان » بالاستقلال ضمن اطار الانتداب الفرنسي بعد ضم : بيروت ، وطرابلس ، وصيدا وصور ، والبقاع والاقضية الاربعة : (حاصبيا ، راشيا ، بعلبك ، والمعلقة).

الا ان ما لم يكن يعرفه الرئيس ولسون حينذاك هو توقيع اتفاق سايكس ـ بيكو السري في ٩ ايار (مايو) ١٩١٦ بين بريطانيا وفرنسا حول اقتسام البلاد العربية المشرقية المنفصلة عن السلطة العثمانية . من هنا خيبة امل ولسون وعدم اشتراك اميركا في عضوية «عصبه الامم» وعودتها الى سياسة العزلة ، وترك الميدان خاليا لكل من لندن وباريس لتنفيذ مشاريعهما الاستعمارية في البلاد العربية . ولقد اقرت « عصبة الامم » الصيغة النهائية لانتداب بريطانيا على العراق وفلسطين من جهة وفرنسا على سوريا ولبنان من جهة ثانية في التاسع والعشرين من ايلول (سبتمبر) عام ١٩٢٣ ، وعلى « وجوب وضع قانون اساسي للعراق وسوريا ولبنان في غضون ثلاث سنوات من بدء تنفيذ الانتداب ، وعرضه على العصبة للمصادقة عليه » . الا ان الممارسة العملية « الانتدابية » كانت توام الاستعمار بوجهه البغيض . فانفجر الوضع ضد فرنسا في سوريا في تموز (يونيو) عام ١٩٢٥ ، وامتد الى بعض مناطق لبنان الجنوبي وطرابلس وعكار . وخشيت فرنسا امتداد لهيب الثورة الى بقية المناطق فعمدت الى التلويح للبنانيين بوضع دستور للبلاد ينسجم مع قرار « عصبة الامم » التي وافقت فيه على الانتداب الفرنسي والمفروض انجازه في مدى ثلاثة اعوام .

لقد كانت الثورة السورية العامل الحاسم في تعجيل فرنسا في وضع الدستور اللبناني لتبرهن للسوريين بان رفع السلاح بوجه الدولة المنتدبة لا يوصل الى الاستقلال ، بل على العكس يقفل ابوابه ويوصدها في وجه الوطنيين . ولكي تقرن الحكومة الفرنسية القول بالفعل الفت لجنة نيابية « فرنسية » برئاسة « بول بونكور » للنظر في المشروع الدستوري الذي كان المفوض السامي الفرنسي حينذاك الجنرال ساراي قد ارسله اليها للموافقة عليه . ولكن الحفاظ على ورقة توت المظاهر ، اجبر اللجنة النيابية الفرنسية على الاعتراف بان « اقرار الدستور اللبناني يجب أن يتم في المجلس النيابي اللبناني . وان مهمة الدولة المنتدبة تنحصر في الاشراف على سير الدروس الدستورية ومناقشات مجلس النواب مشروع الدستور .. وفي العاشر من كانون الاول (ديسمبر) ابلغ الجنرال ساراي مجلس النواب اللبناني قرار الحكومة الفرنسية ، « فانتخب مجلس النواب لجنة ثلاثية عهد اليها بوضع مشروع للدستور اللبناني بالاتفاق مع المفوض السامي وتحت رقابته . وبعد ان وضعت اللجنة الثلاثية مشروعا بالاتفاق مع المفوض ، او بالاحرى ، **وافقت على مشروع الدستور كما وضعه الجنرال ساراي** » (١) ، عاد مجلس النواب فانتخب لجنة ثانية اطلق عليها اسم « لجنة الدستور » ، وكانت على الشكل التالي :

الرئيس : موسى نمور

المقرر : ميشال شيحا .

المستشاران : شارل دباس (اللبناني) والمستشار القانوني للمفوضية العامة الفرنسية : سوشيه .

اعضاء : ميشال شيحا ، شبل دموس ، عمر الداعوق ، يوسف سالم ،

جورج زوين ، بترو طراد ، روكز ابـوناضر ، صبحي حيدر ، يوسف الزين، جورج ثابت ، عبود عبد الرزاق .

وكل ما قامت به تلك اللجنة هـوتوجيه الاسئلة التالية الى رؤسـاء الطوائف الدينية ، وكبار الموظفيـن ،وبعض وجهاء السياسة :

١ ــ ما هو شكل الحكومة : ملكيةدستورية ام جمهورية ؟
٢ ــ هل يجب ان يتألفالبرلمان منمجلس او مجلسين ؟
٣ ــ هل تكون الوزارة مسؤولةامامرئيس الدولة ام امام البرلمان ؟
٤ ــ ما هو الافضل : المسؤوليةالوزارية الفردية ام المسؤولية الوزارية التضامنية ؟
٥ ــ ما هو الافضل : تعيين مجلسالشيوخ ام انتخابهم ؟
٦ ــ هل يجب اخذ الطائفية اساسالتوزيع المقاعد في البرلمان ؟

ولم يتعد ذلك الاستفتاء النطاق الذيرسمته له الدولة المنتدبة ، فكانـت « الاجوبة التي وردت الى اللجنة قليلةجدا » . ووافق المجلس التمثيلي فـي جلسة علنية عقدها في ١٩ ايار (مايو)١٩٢٦ علىمشروع الدستور ، وفي ٢٢ من الشهر ذاته تحول المجلس التمثيليبقدرة الدولـة المنتدبـة الـى مجلس نيابي « ووافق المفوضالساميعلى الدستور الجديد » ونشره في اليوم التالي : هنا لا بد من تسجيل ما جـاءفي مذكرات رئيس الجمهورية اللبنانية السابق الشيخ بشارة الخوري ، حولانتخاب المجلس التمثيلي الاول (١٩٢٢ ــ١٩٢٥) (٢) :

« وتم انتخاب المجلس بتدخل سافرمن السلطة الفرنسية كما جرى فـي بيروت » .

اما عن انتخابات المجلس النيابـيالذي انقلب بقدرة الدولة المنتدبة الـى جمعية تأسيسية ثم عاد سيرته الاولىمجلسا نيابيا بعد اعلان الدستور(١٩٢٥ ــ ١٩٢٩) فيقول ايضا : (٣)

« كان المسيو ديمـون (منـدوبالمفوض السامي) يعـد القوائـم الانتخابية للمرشحين المحظوظيـن .

وسفر عن تدخل السلطة الفرنسية فيهذا الاستفتاء الشعبي سفورا مفضوحا ونجحت لوائحها في جميع المناطق عـدامحافظة بيروت » .

فكيف يمكن ان تـكـون الـولادةالدستورية طبيعيـة ، والممارسة البرلمانية سليمة في ظل حراب الانتداب،والتدخل السافر من قبل سلطة اجنبية في انتخاب الممثلين الشرعيين الذيـنيتحملون مسؤولية وضع القانـون الاساسي للبلاد ؟

الممارســـة العرجـــاء

لقد نص الدستور اللبناني المستوحى من دستور الجمهورية الفرنسية الثالثة (١٨٧٥) على عدم مسؤولية رئيس الجمهورية الا عند خرقه الدستور او في حال الخيانة العظمى (المادة ٦٠) ، و « مقررات رئيس الجمهورية يجب ان يشترك معه في التوقيع عليها الوزير او الوزراء المختصون ما خلا تولية الوزراء واقالتهم قانونا » (المادة ٥٤) .

فمسؤولية رئيس الجمهورية محدودة بحالتين اثنتين فقط ، واما مسؤولية الوزراء فغير محدودة . فكيف يتحمل المسؤولية من لا يمارسها ؟ وكيف ينجو من عواقبها من يقررها ؟

ان مونتسكيو في كتابه « روح الشرائع » لم يقر مبدأ توزيع السلطات الا حفاظا على الحرية ومنعا للاستبداد والطغيان . ولكن مبدأ توزيع السلطات يختلف اختلافا بينا تبعا لنوع نظام الحكم وشكل الدستور في كل بلد . ففي نظام تسلط التشريعية كسويسرا مثلا ، تعتبر السلطة التشريعية المنتخبة من قبل الشعب وحدها ممثلة للسيادة الشعبية ، وجمعية مجلسي التشريع الاتحاديين هي التي تعين مجلس الاتحاد المؤلف من سبعة اعضاء لمدة اربع سنوات . هؤلاء الاعضاء يقومون باعباء الوزراء وينتخبون من بينهم كل سنة رئيسا للاتحاد السويسري . ولقد اتبعت فرنسا هذه الطريقة في دستور عامي ١٧٩٢ و ١٨٤٨ . اما مبدأ توزيع السلطات بصورة مطلقة فهو متبع في النظام الرئاسي . ففي الدستور الاميركي مثلا ، توزع السلطات بصورة حاسمة بين حكومة الولايات ، ومن ثم تتوزع في كل من هذه الحكومات بين فئات ثلاث : التشريعية والقضائية والتنفيذية . والسلطة التشريعية تتركز بالكونغرس المؤلف من مجلسي الشيوخ والنواب . فالوزراء لا يحق لهم ان يكونوا اعضاء في اي منهما ولا يمكنهم ان يحضروا مناقشاتهما . ولا يجوز لرئيس الجمهورية حق اقتراح اي قانون الا قانون الموازنة (منذ عام ١٩١١) . اما السلطة التنفيذية فمستقلة تماما عن السلطة التشريعية . ويراسها رئيس الجمهورية المنتخب من الشعب . وهو الذي يعين الوزراء ويقيلهم وهم مسؤولون امامه فقط لا امام الكونغرس . وتاتي اخيرا السلطة القضائية وهي مستقلة تماما عن شقيقتيها . وهي حامية الدستور ، اذ باستطاعتها رفض تطبيق كل قانون يخالف نصوص الدستور ، ولقد حصل ذلك مرارا في التاريخ الاميركي .

ولا يخطرن ببال احد ان تلك السلطات الثلاث في النظام الرئاسي الاميركي لا تتلاقى ابدا ، بل هي تتحرك باتجاه متناسق متناغم لا يسمع فيه صوت نشاز الا نادرا . فالكونغرس مثلا يعين لجانا دائمة تمثل حلقة الاتصال مع الوزراء . ومجلس الشيوخ هو الذي يوافق على تعيين السفراء وقضاة المحكمة العليا وكبار موظفي الدولة . ومن الضروري موافقة ثلثي اعضائه على المعاهدات لكي تصبح نافذة المفعول . وليس الرئيس الاميركي « القيصر » الحاكم بامره كما يتخيله البعض . فالكونغرس يراقبه ليل نهار . ولقد صفع عهد نيكسون في شهوره الاولى صفعة مدوية على اثر رفضه تعيين

اسمين متوالين رشحهما حينـذاك لعضوية المحكمة العليا . ثم اطاح بـه هو نفسه واضطره الى الاستقالة على اثر انفجار فضيحة ووترغيت.

اما في النظام البرلماني فهناك ما يسمى « توازن السلطات » اي ان السلطات الثلاث تتوزع بصورة مرنة وتتداخل وتتشابك ولكن دون ان تطغى احداها على الاخرى . وواسطة العقد فيما بينهما هي مجلس الوزارة لا مجلس الوزراء . فمجلس الوزارة يعاون رئيس الدولة في ممارسة السلطة التنفيذية الفعلية ، من جهة ، ويقترح مشاريع القوانين بالاشتراك مع السلطة التشريعية ، من جهة اخرى ، وهو لا يستطيع البقاء في الحكم الا اذا ظل حائزا على ثقة اعضاء المجلس النيابي فاذا ما خذله المجلس قدم اعضاؤه استقالتهم لرئيس الجمهورية وانصرفوا الى بيوتهم.

ولقد اعطى الدستور اللبناني صلاحيات واسعة للوزراء اذ ان المادة (٦٤) منه تنص على ما يلي : « يتولى الوزراء ادارة مصالح الدولة ويناط بهم تطبيق الانظمة والقوانين كل بما يتعلق بالامور العائدة الى ادارته وبما خص بـه » .

والمادة (٦٦) تقول : «يتحمل الوزراء اجماليا تجاه المجلس تبعة سياسة الحكومة العامة ويتحملون افراديا تبعة افعالهم الشخصية ويعد بيان خطة الحكومة ويعرض على المجلس بواسطة رئيس الوزراء او وزير يقوم مقامه ».

هناك اذن معادلة دستورية متوازنة تومىء الى ان رئيس الجمهورية لا يحكم الا بواسطة الوزارة الحائزة على ثقة المجلس النيابي . فالوزراء في النهاية مسؤولون امام النواب وليس امام الرئيس الاول . وحتى التهديد بحل المجلس النيابي لا يمكن دستوريا لرئيس الجمهورية ان يقدم عليه الا اذا كان قرارا **معللا وبموافقة مجلس الوزراء** :وتقول المادة (٥٥) : « يحق لرئيس الجمهورية ان يتخذ قراراً معللا بموافقة مجلس الوزراء بحل مجلس النواب قبل انتهاء عهد النيابة وفي هذه الحال تجتمع الهيئات وفقاً لاحكام المادة ٢٥ ويدعى المجلس الجديد للاجتماع في خلال الايام الخمسة عشر التي تلي اعلان نتائج الانتخاب » (٤) .

ان التلويح « بفزيعة » حل مجلس النواب كلما ظهرت بوادر حجب الثقة عن حكومة يؤلفها رئيس الجمهورية ،لهي بدعة لبنانية تخالف روح النص الدستوري ، وتبطل مفعول رقابة ممثلي الشعب على السلطة التنفيذية . فالنظام الرئاسي شيء والنظام البرلماني اللبناني شيء اخر . ولا يعقل ان تتمتع الرئاسة الاولى بصلاحيات النظامين معا . فاما رئيس منتخب من الشعب يعين الوزراء ويقيلهم ويتحمل نتائج اعمالهم امام نواب الشعب ، واما رئيس برلماني يترك اللعبة البرلمانية تأخذ مجراها الطبيعي وتصل الى اخر الشوط . والرئيس اللبناني حسب نص وروح الدستور اللبناني هو حكم وليس حاكما .

وقصة الحكم في لبنان بعد الاستقلال هي في ملخصها صراع علني وخفي حول كيفية استعمال صلاحيات الرئاسة الاولى مع المحافظة على ميزان الطائفية والعائلية الاقطاعية ، والاحتكارية ومايتفرع منها من تداخلات اقليمية محلية وخارجية . يضاف الى ذلك كله ان الحكم فن ، والسياسة فن الممكن ، وان « الاسلوب هو الشخص » كما يقول المثل الفرنسي اي ان الشخصية وخصوصا في الحكم وفي الادب والفن لا تظهر الا من خلال الاسلوب الذي تستخدمه للوصول الى غاياتها . فالشخصية القوية الحادة القاطعة كالسيف تستعمل اسلوبا يختلف عن الشخصية الناعمة المرنة الزئبقية التي تحافظ على « شعرة معاوية » بينها وبين الاخرين . واذا ما علمنا ان الشخصيات تختلف باختلاف الامزجة والطباع والتربية والثقافة ، فالتصادم فيما بينها وخصوصا في قيادة عربة الحكم في بلد كلبنان ، لا بد واقع لا محالة .

تنازع السلطة وتنافر الشخصيات

ولقد ظهر تصادم الشخصيات اول ما ظهر في عهد الاستقلال بين الشيخ بشارة الخوري ورياض الصلح . ولم يسفر عن وجهه الا بعد تجديد الرئاسة الاولى لمدة ست سنوات . فالسنوات الاولى « للميثاق الوطني » غير المكتوب مرت سراعا بغير احتكاك حاد لانشغال الرجلين بالامور الخارجية وتحقيق الجلاء وتسلم الصلاحيات من السلطة المنتدبة . وكان هناك شبه اتفاق على اقتسام النفوذ . ولم يكن النفوذ حينذاك الا توزيع الوظائف ومنح رخص الاستيراد وتلزيم المشاريع العمرانية وما شابه . ولم تكن القضايا الاجتماعية والاقتصادية والتخطيط الانمائي ومعضلات الشباب وازمة البطالة قد بدات تطرق ابواب البيت اللبناني . ولكن بعد الاجلاء التجديد ، وجد الرئيسان الصديقان نفسيهما في موقف مختلف : فالشيخ شارة قد كسب معركة التجديد بواسطة مجلس ٢٥ ايار (مايو) ١٩٤٧ الذي انتخبته وزارة رياض الصلح ، ووجد هذا الاخير نفسه في مواجهة شبه مكشوفة مع « السلطان سليم » شقيق الرئيس الخوري والخواجه هنري فرعون ، والنسيب ميشال شيحا ، عدا اهتزاز قاعدته الاسلامية ، وبالتالي كرسي رئاسة الوزارة التي كان يجلس عليها .

ماذا حدث يومها؟ يقول الشيخ بشارة الخوري في مذكراته ما يلي : (٥) : «ومن دواهي الدهر في تلك الفترة ان ظهر « رياضيون » اكثر من رياض ، و « خوريون» اكثر من الخوري ، وهؤلاء واولئك هم الآفة » . ويتابع الشيخ بشارة قائلا : «اقتربت الانتخابات ودخل الناس مرحلة التحضير لها ، وكان قد مضى على رياض الصلح اربع سنوات وهو رئيس للوزارات المتتابعة ، فاتفقت معه ان يتخلى عن الرئاسة برضاه وان يفسح المجال لتأليف حكومة ادارية بحت تؤمن الحياد في الاستفتاء المقبل . وهذا الحديث بيننا يرجع الى ما يزيد على السنة ، وقد حرصت فيه على ان يطمئن صديقي رياض الى المستقبل والي حبي له . ناهيك بخدماته الوطنية ، ولباقته ، وسداد رأيه ومواهبه الجمة ، ولكن هناك عوامل سيكولوجية وسياسية تضطرنا الظروف الى مراعاتها .

فاتفقت اذن وصديقي على ان تأتـــي وزارة حيادية للانتخابات يرئسها الحاج حسين العويني . ثم يخلفه بعدها كل من عبد الله اليافي فصائـــب سلام فسواهما على التتابع ، ليأخذ كل سني كفوء قسطه من تحمل المسؤوليات ثـم يعود رياض الى الحكم فاختم رئاستي كما افتتحتها برفقته . اتفقنا علــى هذا قبل سنة ، ولما حان اجل التنفيذ «غص» الرفيق وعز عليه ان يغادر الحكم ويبقى بعيدا عنه اثناء الانتخابات وبعدها . فشعرت بتردده فراعيت جانبه وعالجت الامر بالتأني . فكان اجتماع اول بيني وبينه واجتماع ثان حضره حبيب ابــو شهلا ، واجتماع ثالث حضره حبيب ابوشهلا وصبري حماده واحمد الاسعد ، حتى اسفرت تلك الاجتماعات عن قبول رياض الصلح برغبتي ووعدني بان يقدم استقالة وزارته في مطلع العام الجديد على ان يعين موعد الاستقالــة فيمــا بعد » . (٦)

ومن الواضح ان رياض الصلح كان قد ثبت «مركز قوة» له في الشارع الاسلامي البيروتي على الرغم من « حرتــقات » السلطان سليم . الا ان نقطة الضعف عنده كانت مجلس النواب . فأعضاؤه لا يتلقون الوحي الا من عل ، خوفا على كراسيهم النيابيـــة ، والمرشحــون والطامعون برئاسة الوزارة من السنيين كثيرون . فهم حاضرون لتأليف اية وزارة دون قيد او شرط . وعلى الرغم من كل قوة شخصية رياض وشعبيته الا انه لم يستطع مقارعة الشيـــخ بشارة بسلاحه . فجرب تحريـــك الشارع الاسلامي واللبناني يوما ولكنه لم ينجح تماما . فطرابلس معـــقودة اللـــواء لسماحه الافندي ، وكانت بينه وبيــن رياض اكثر مما فعل الحداد . وصيـــدا ليست ذات ثقل سياسي . فاسقط في يده اخيرا ، وحاول وصل ما انقطــع مع الشيخ بشارة بواسطة الزعيم الاول فؤاد شهاب .

« وفي الثالث عشر من تموز زارنـــي الزعيم الاول فؤاد شهاب قائد الجيش . واسر الي بان رياض الصلـــح قابله وشكا اليه سوء حظه بعد انتخابـــات نيسان المنصرم ، وابعاده عن الحكم ، وان صدره قد ضاق ، وعيل صبره ، وانه اضطر للمعارضة » . (٧)

لا يختلف اثنان ان ريـــاض الصلح وخير الدين الاحدب كانا ابرز وجــوه السنة في مقاعد الحكم في ايامهما الا انهما عجزا عن خلق « مركز قوة » لرئاسة الوزارة وهـــو حـــق دســـتوري لها وليس امتنانا على صلاحيات رئيس الجمهورية . ولطالما صرح بيار الجميل قائلا : ان مسؤولية « خصمـــي » صلاحيات رئاسة الوزارة تعود الـــى رؤساء الوزراء انفسهم ، فلمــــاذا لا يمارسوا صلاحياتهم الدستورية ويقفوا بوجه الاعتداء على صلاحياتهم ؟ لقــد حظر الدستور على رئيس الجمهورية توقيع اي مرسوم الا اذا اقترن بتوقيع الوزير المسؤول : فلماذا يوقع الوزيـــر اذا لم يكن مقتنعا ، ولماذا لا يرفض ؟

الرفض هنا سهل قولا ، ولكنه يكاد يستحيل عمليا . فحق الرئيس الاول بتعيين الوزراء واقالتهم يجعل من الصعب على الوزير ان لا يكون على انسجام تام مع رئيس الجمهورية . وما ينطبق على الوزير ينطبق على رئيس الـــوزراء . ومرد ذلك الى فقدان رئيـــس الوزارة للقاعدة النيابية التي تشد ازره وتسنده

في المواقف الصعبة . فهو اذا لم ينسجم مع مقام الرئاسة الاولى فقد مركزه ، وقدمه بسهولة للسنيين المقيدين على « لائحة الانتظار » .

ولكن لكل لعبة حدوداً واصولاً ، فاذا ما تجاوزها اللاعب الماهر انقلب السحر على الساحر . فخلاف رياض الصلح بشارة الخوري ، وما ترك من ترسبات نفسية على الصعيد الشعبي ، قد مهد لتمرد سامي الصلح على العهد الخوري ، واضطر بقية الزعماء السنة لحذو حذوه والامتناع عن التعاون معه ، فسقط ذلك السقوط المريع ، وتكررت اللعبة مع شمعون والرؤساء السنة ، فتمسك رب قصر السعديات بسامي الصلح وجعله « مكسر عصا » الحكم ، حلق الزعماء السنة ايضا حول المعارضة وانهى عهده بالشكل المعروف .

ولما انتخب الامير فؤاد شهاب للرئاسة في عام ١٩٥٨ ، تغير كل شيء تقريبا في العلاقات بين الرئاستين وظهرت هوة سحيقة بين الرئيسين الاول والثالث . فالرئيس شهاب انضباطي يلزم نفسه بحرفية النصوص ويتجاوز ما يسمى بالاعيب الساسة والسياسيين نظرا لتربيته العسكرية الصارمة . ولكن كل ذلك لا يمنع ان له شخصيته الهادئة المنطوية على نفسها ، البعيدة الاغوار السحيقة القرار . ولقد اصطدم بشخصية سلام وانسجم مع عقلية كرامي . فالرئيس كرامي بارد الاعصاب ، يخطط للبعيد وبسرية كالعسكر . اما الرئيس سلام فمعروف « بنوفز » الاعصاب والنرفزة والانفعال والصراحة والتأثر بالمظهر والشكليات واخذه بعكس ما يقول المثل: « لا تكن قاسيا فتكسر ، ولينا فتعصر » . وكان مما لا يزال طريئا في جميع الاذهان من تربع رشيد افندي على سدة الرئاسة الثالثة طيلة ايام حكم الامير الشهابي وخليفته الحلو تقريبا ، وابعاد « أبو تمام » عن السراي الكبير طوال تلك المدة .

ونظرا لمجيء رجل عسكري لرئاسة الجمهوريه وللمرة الاولى في تاريخ لبنان السياسي ، فلقد اختط لنفسه اسلوبا جديدا في العمل داخل الرئاسة ، فنقل مقر الرئاسة ولاول مرة ايضا من بيروت العاصمة الى صربا ، وترك مهمة اعادة تنظيم الادارة اللبنانية « للانتدان لاي » ، ووسع دوائر القصر الجمهوري توسيعا كبيرا ، فأنشأ مركز المستشار القانوني وعهد به الى السيد الياس سركيس للتدقيق في شرعية المراسيم وانطباقها على القوانين ، واستحدث مركزا فنيا للاشراف على مشاريع الطرق والكهرباء والمياه حتى لا تبقى موازنة الاشغال العامة منحصرة في محافظة جبل لبنان بل تتوزع خيراتها على بقية المناطق اللبنانية المحرومة .

ولقد انطلق الرئيس شهاب في نظرته الى الحكم من شعار : « لكل قرية لبنانية طريق ومدرسة وعامود كهرباء وقسطل مياه وسلك هاتف » . وترك السياسة ، التي يعتبرها شرا لا بد منه للساسة التقليديين ، على ان يكبح جماح الاعيبهم عند الحاجة « الشباب » و « الاخوان » ولقد اخطأ الرئيس شهاب هنا كما اخطأ يوما « تورغو » وزير مال لويس السادس عشر الذي كان قد رفع شعار : « تخفيض الضرائب العينية لابعاد الناس عن الاهتمام بالسياسة » .

فالاثنان اعتبرا الانسان حيوانـــابيولوجيا ــ اقتصاديا فقط . ونسيا بأن « ليس بالخبز وحده يحيا الانسان »فبعد « تورغو » اشتــعـــلت الثورة الفرنسية ، وبعد شهاب ، انفجــرت« ثورة الوسط » لاسباب مختلفةمتباينة لا رابط بينهما . ولقد اعتبر شهاب انتنمية المناطق المحرومة والمتخلفة تحقق عملية « اللبننة » وتصهر جميع اللبنانيين في بوتقة « القومية » اللبنانية وتمنـع الانظار من الاتجاه الى خارج الحدود .لربما كانت تلك النظرة للواقع اللبناني صحيحة على المدى القصير . ولــكنتجاوزات « الشباب » و « الاخوان » واستمرارهم للعبةالسياسية الشيطانيةقد اطفح الكأس وقدم الحكم للوسط مع دعم شعبي قوي .

اما عهد الحلو فكان بمثابة الجســربين عهد شهاب وعهد الوسط . ولقــد طبعت شخصية الرئيس حلو اللعبةبينهوبين « الشباب » و « الاخــــوان » بطابع خاص ، وكان من اوله الـــــىاخره مطاردة بين الرئيس الذي يحاول القبض على صلاحياته كاملة ، وبيـــن« الاخوان » و « الشباب » الذيــــن يحاولون متابعة لعبـــــة « النهـــج »الشهابي . واستمرت المطاردة ســت سنوات كاملة كانت مـــلأى بالافخاخ المنصوبة ، والشراك الملغومة .

الطائفيـــــة والدستـــور

لقد ترك العهد الشهابي ــ الحلوي ارثا ضخما متشابكا : فالى جانـــــــب الجهاز القانوني والفني وعادة جلسات العمل مع ممثلي مختلف الوزارات (وهي جلسات من المفروض ان تتم في رئاسة الوزارة) ورث سليمان فرنجية ايضـــا مبدأ المناصفة في الحكم اي حكم المادة٦و٦ مكرر وهو المبدأ الذي طبقه العهد الشهابي عمليا ولا يزال ساري المفعول باستثناء بعض الوظائف الكبرى التي بقيت احتكارا لاحدى طوائف العائلـــةاللبنانية اي المارونية . ولم ينـــــص الدستور اللبناني على التوزيع الطائفي للوظائف والوزارات والرئاسات . ولكن المادة (٩٥) منه تنص على ما يلـــي :« بصورة مؤقتة والتماسا للعـــــدل والوفاق ، تمثل الطوائف بصورة عادلة في الوظائف العامة وبتشكيل الوزارةدون ان يؤول ذلك الى الضرار بمصلحـــــةالدولة » .

لقد ظل نص تلك المادة حتى اخرعهدشمعون يعني المشاركة الى ان تبدل مفهومه في عهد شهاب فاصبح يعنـــي المناصفة على صعيد الوظائف العامة باستثناء مراكز : رئاسة الجمهورية ،رئاسة الجيش ، مديرية الامن العام . رئاسة مجلس الشورى ، رئاســــــةالجمارك، رئاسة مجلس القضاءالاعلى، مديرية الخارجية ، مديرية الاحـــــوال الشخصية ، حاكمية المصرف المركــزي وغيرها .

وكذلك لم يذكر الدستور اللبنانـــيشيئا عن القوات المسلحـــة ، ووزارة الدفاع واعلان الحرب وتسمية القائـــدالاعلي للجيش لسبب بسيط لانه وضع في ايام الانتداب حين كانت كل تلـــــك الصلاحيات بيد الدولة المنتدبة . فلما عدل الدستور في عام ١٩٤٣ ، لم يفكراحد في القوات المسلحـــــة ، ووزارة الدفاع ، واعلان الحرب والقائد الاعلي للجيش ، فبقيت كلها غائبة عن الدستور وتخضع مثل غيرها للقوانين العاديـــةفوزارة الدفاع مثلا مثل غيرها مـــــن

وزارات الدولة يرئسها وزير ،وموظفوها يخضعون للقوانين التنظيمية الخاصة بهم . فالقائد العام للجيش مثلايعين بمرسوم يتخذ في مجلس الوزراء وبناء على اقتراح وزير الدفاع ويوقعه رئيس الجمهورية مثل بقية المراسيم . ليس لرئيس الجمهورية سلطة خاصة على الجيش . فصلاحياته المنصوص عنها في الدستور اللبناني لا تشير الى شيء من ذلك مطلقا . والدليل على ذلك ان اعفاء العماد اميل البستاني من قيادة الجيش لم ينفرد به شارل حلو بل اتخذ بناء على اقتراح وزير الدفاع المير مجيد ارسلان وموافقة مجلس الوزراء وتوقيع رئيس الجمهورية . ولاينفرد رئيس الجمهورية لوحده – حسب الدستور اللبناني –الا في « المفاوضة في عقد المعاهدات الدولية وابرامها ويطلع المجلس عليها حينما تمكنه من ذلك مصلحة البلاد وسلامة الدولة » (المادة ٥٢) . وفي تعيين الوزراء واقالتهم (المادة ٥٣) . وفيما عدا ذلك فكل مقرراته تبقى حبر على ورق اذا لم يشترك معه في التوقيع عليها الوزير او الوزراء المختصون (المادة ٥٤) . ان ما سمي « عقدة » وزارة الدفاع في اثناء مخاض" وزارة الشباب » عام ١٩٧٠ ليس فيها على الصعيد الدستوري اي تعقيد وعلاقة رئيس الجمهورية بها مثل علاقته ببقية الوزارات . فالنظام اللبناني ليس رئاسيا ليفرد رئيس الجمهورية بتعيين واقالة القائد العام للجيش . فترومان مثلا تمكن بمفرده وبموجب سلطته الدستورية من عزل « ماك آرثر » اشهر قائد اميركي في القرن العشرين بمرسوم عادي وفي ذروة الحرب الكورية وذلك عندما اصر « قيصر الباسفيك » وقاهر اليابان على اجتياز نهر « يالو » وضرب منجمعات المتطوعين الصينيين داخل حدود الصين الشعبية خلافا لاوامر القائد الاعلى للجيش الاميركي . فالدستور الاميركي الرئاسي ينص صراحة على ان رئيس الجمهورية الاميركية هو القائد الاعلى للجيش الاميركي . وهو الذي يعلن الحرب بموافقة الكونغرس ، ويوقع معاهدات السلم . اما في لبنان فليس لرئيس الجمهورية دستوريا اي حق في التفرد بمثل تلك الامور . بل لا بد هنا من موافقة الوزير او الوزراء المختصين .

ان كل ذلك ليدل اوضح دلالة على ان النظم اللبناني ليس نظاما رئاسيا بل برلمانيا قائما على اساس مبدأ « توازن السلطات » فمجلس النواب هو السلطة المشترعة الوحيدة (المادة ١٦) ؛ « وتناط السلطة الاجرائية برئيس الجمهورية وهو يتولاها بمعاونة الوزراء وفاقا لاحكام هذا الدستور » (المادة ١٧) . فرئيس الجمهورية هو الامين على تنفيذ القوانين التي يقرها مجلس النواب ، ولا يمكن تنفيذ تلك القوانين الا بواسطة الوزراء الحائزين على ثقة مجلس النواب . فالوزارة بمجموعها هي «بيضة القبان» في النظام البرلماني اللبناني . فاذا ما انحازت لرئيس الجمهورية شلت حركة البرلمان، واذا ما تضامنت مع البرلمان ضد رئيس الجمهورية اضطر هذا الاخير للخضوع او الاستقالة . فهي لاتستطيع الحكم الا بانسجامها مع مجلس النواب ورئيس الجمهورية معا . فاذا اصبحت وزارة رئيس الجمهورية فقط وكما تحاول الدعاية الخبيثة تصويره للناس ، فسدت اللعبة البرلمانية ؛ وبطل مبدأ التمثيل الشعبي ، واصبح الحكم « من فوق » بدون قاعدة من تحت .

لقد طغت صلاحيات رئاسة الجمهورية في عهد سليمان فرنجية على كل ما عداها فأصبحت قولا وفعلا هي مصدر جميع السلطات ، وتضاءلت صلاحيات رئيس الوزارة لدرجة اصبح معها مجرد «باشكاتب» او«باشبوزك»، لا يملك من أمر السلطات الا مظاهرها البروتوكولية . ومما زاد في اختلال التوازن بين الرئاستين الاولى والثالثة نشوء جيل لبناني مسلم جديد استفظع مبدأ التمييز في احتكار « الوظائف — المفاتيح » للطائفة المارونية ، ولم يدرك لها سببا معقولا سوى انها نوع من « التمييز العنصري » تجعل منه مواطنا من الدرجة الثانية وتقتل في نفسه كل طموح مستقبلي ، ولا تجعل منه توأما في المواطنية والحقوق والواجبات مثل بقية اللبنانيين . وزاد من حدة التمايز الماروني تقاعس الدولة اللبنانية عن الدفاع عن الحدود الجنوبية اللبنانية امام الاعتداءات الاسرائيلية الشرسة على القرى الحدودية ، وترك الاجواء اللبنانية والمخيمات الفلسطينية تحت رحمة الطيران والصواريخ الاسرائيلية بدون اي ردة فعل على صعيد الدولة اللبنانية . وطفت على السطح الازمة الاجتماعية — الاقتصادية التي عمقت الهوة الفاصلة بين اهل الفقر واهل الغنى ، وانتشر « حزام البؤس » حول بيروت ، ووجد اهل النظام البرلماني اللبناني انفسهم فجأة في بحران من المشاكل السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، فلم يستطيعوا مقابلتها في منتصف الطريق ، بل رفضوا كل بحث في المطالب الوطنية — الاسلامية الاصلاحية التي بدأت بالمطالبة بتحديد سلطات رئيس الجمهورية ، وايقافه عند حدود روح الدستور ، اي كف يده عن التدخل المباشر في ممارسة الحكم والبقاء حكما لا حاكما . ولكن تشابك العوامل والاسباب واختلاط الاوراق الداخلية والخارجية ، فجرت الوضع السياسي في الثالث عشر من نيسان (ابريل) عام ١٩٧٥ . وكان في طليعة الاسباب الداخلية للحرب الاهلية اللبنانية سوء ممارسة صلاحيات الرئاسة الاولى اعتمادا على النصوص الجامدة لدستور « انتدابي » وضع قبل نصف قرن من الزمان .

المراجع العربية

— الخوري ، بشارة خليل : حقائق لبنانية ، ٣ اجزاء ، منشورات : اوراق لبنانية ، بيروت — ١٩٦٠ .

— الخوري ، اميل ، واسماعيل ، عادل : السياسة الدولية في الشرق العربي ، ٥ اجزاء ، منشورات : دار النشر للسياسة والتاريخ ، بيروت — ١٩٦٠ — ١٩٧٠ .

— الخطيب ، انور : الاصول البرلمانية في لبنان وسائر البلاد العربية ، منشورات : دار العلم للملايين ، بيروت — ١٩٦١ .

— الجمعية اللبنانية للعلوم السياسية : مجموعة الوثائق الاساسية المتعلقة بالنظام السياسي في لبنان ، دار المنشورات الحقوقية ، بيروت — ١٩٦٨ .

— رباط ، ادمون ، القانون الدستوري اللبناني ، منشورات الجامعة اللبنانية ، بيروت — ١٩٧٠ .

— سالم ، يوسف : ٥٠ سنة مع الناس ، منشورات دار « النهار » للنشر ، بيروت — ١٩٧٤ .

— محمصاني : صبحي : الدستور والديمقراطية منشورات دار العلم للملايين ، بيروت ١٩٥٢ .

— يكن ، محمد زهدي : دستوريات لبنانية ، منشورات دار يكن للنشر ، بيروت — ١٩٧٤ .

Duverger, Maurice : Droit Constitutionnel et Institutions Politiques, Presses Universitaires de France, Paris, 1955.

Godchot. J. E. : Les Constitutions du Proche et du Moyen — Orient, Sirey, 1957.

Laski, Harold : Democracy in Crisis, G. Allen and Unwin, London, 1933.

Montesqieu : L'Esprit des Lois, Hachette, Paris, 1970.

Pickles, Dorothy : The Fifth French Republic, Methuen and Co. London, 1962.

Rabbat, Edmond : Unite Syrienne et Devenir Arabe, Paris, 1937.

Sabin, George : A History of Political Theory, Holt and Co., New — York, 1958.

Sibert, Marcel : La Canstitution de la France du 4 Septembre 1870 9 Aout 1944, Padone, Paris, 1946.

Vedel, Georges : Manuel elementaire de Droit Constitutionnel, Paris, 1949.

(١) الاصول البرلمانية في لبنان والبلاد العربية، تأليف انور الخطيب ، ص ٣٥ .

(٢) بشارة خليل الخوري : حقائق لبنانية ، ١٩٦٠ ، ص ١١٦ .

(٣) المصدر السابق ، ص ١٣٠ .

(٤) وهو يجتمع برئاسة رئيس الوزارة ، اما مجلس رئاسة الوزارة فيجتمع برئاسة رئيس الجمهورية .

(٥) بشارة خليل الخوري : حقائق لبنانية ، الجزء الثالث ، ص ٣١١ .

(٦) المصدر السابق ، ص ٣٣٩ ـ ٣٤٠ .

(٧) المصدر السابق ، ص ٣٩١ .

فلسفة الميثاق الوطني اللبناني
تأجيل للدخول في مرحلة الوطن

مروان ناصر

اذا كان من الواضح تماما ان المشروع الاميركي المطروح لتسوية الصراع العربي ـ الاسرائيلي تسوية « نهائية » (قبل تغير اتجاه الرياح العربية المؤاتية حاليا لهذا المشروع) هو الاطار العام الذي تتحرك فيداخله الازمة اللبنانية الحالية ، فان لهذه الازمة خصوصيات واضحة ضمن هذا الاطار العام ،تتحدد بعدة عوامل ، منها ما اصبح يمثله لبنان بالنسبة للمقاومة الفلسطينية منموقع جغرافياخير في الجوار العربي المحيط باسرائيل ، ومنها التجاور الجغرافي بين لبنان وسوريا ، احد ابرز الاطراف المعنية مباشرة بمشروع التسوية المطروح . ومنها خصوصية الوضع اللبناني بتركيبته الطائفية . فقد بقيت هذه التركيبة، منذ بداية نصف القرن الاخير في عصر الامبراطورية العثمانية ، تحاول الوصول الى صيغة للكيان الوطني اللبناني مبنية على التعدد الطائفي ، وقد كانت أخرها صيغة الميثاق الوطني التي بنيت على اساسها اول دولة مستقلة في لبنان المعاصر .

وهذه الصيغة الاخيرة للعلاقة بين العناصر الطائفية للكيان اللبناني ، تمت تحت الانتداب الفرنسي ، وكان يتوقع لها مهندسوها وفلاسفتها ، ان تكون الحلقة الاخيرة في سلسلة الصيغ المتعددة للتركيب الطائفي للمجتمع اللبناني ، وان تكون بالتالي المدخل للانتقال بلبنان الى مرحلة الوطن ذي النسيج الاجتماعي الموحد والمتماسك . فتصبح الخلفية التعددية في تركيبه الطائفي عامل اثراء بشري ، لا عامل تفجير كامن ، يلتهب في كل مرة يصل فيها الوطن الى مفترق طرق امام قضية مصيرية من قضاياه .

لقد عرف الكيان الوطني لعدة بلدان الاهتزازات العنيفة التي عصفت بوحدة الوطن . بل وجزاتها . بفعل الصراعات الطائفية (كالهند) ولكن الصيغة الوطنية اللبنانية كانت من بين هذه المجموعة . الاكثر تعرضا لاعادة النظر فيها ، والتهديد بنسفها (خاصة من قبل الطرف الانعزالي). بل ان هذه الصيغة قد كشفت عن هشاشتها حتى في مرحلة تكونها الجنيني تحت الانتداب الفرنسي ، عندما وصل حد الاهتزاز بالصيغة الوطنية الموحدة (المبنية على التعايش الطائفي) الى حد التخوف من استقلال الوطن ، بل والعمل الايجابي المباشر ضد استقلال الوطن ، لدرجة ان فئات سياسية كبيرة في لبنان كانت تبني خطط تحركها السياسي على اساس بقاء الانتداب . حتى فاق حماسها لبقاء الانتداب ـ في اواخر ايامه ـ حماس دولة الانتداب نفسه .التي كانت سياستها في لبنان تقررها عوامل ذاتية ودولية تتجاوز الرقعة الجغرافية اللبنانية .

من هنا تكتسب هذه الخصوصية في الوضع اللبناني (خصوصية الخلفية الطائفية للكيان الوطني) اهمية خاصة في فهم وتحليل اسباب ومسار الازمة اللبنانية الحالية . بحيث ان بالامكان القول بغير

تحفظ ولا تردد ، ان الانفجار الاخير ، انما هو اعلان كبير لفشل صيغة التعايش الطائفي في ان تتحول بمرور الزمن الى كيان وطني يستوعب الاماني الوطنية ويصوغها ويبلور مسيرتها من خلال الصراع السياسي الوطني . فبينما يتحول الصراع السياسي داخل اي وطن متماسك الى صراع من اجل الوطن ، اصبح الصراع السياسي في اطار التعايش الطائفي اللبناني يتحول الى صراع على الوطن ، بحيث اصبح لبنان المستقل يقف كلما احتدم الصراع فيه حول قضية سياسية او اجتماعية مصيرية امام واحد من حلين : اما وقف الصراع بتجميده او بالتحايل عليه والالتفاف من حوله ، واما اعادة النظر في صيغة الوطن وكيانه ...

ان الازمة اللبنانية الاخيرة هي نموذجية من حيث التطابق بين الصراع السياسي (بمختلف وجوهه) مع الخلاف على الشراكة الوطنية ... فالازمة الاخيرة تلخص كل الصراعات الداخلية لدولة لبنان المستقل بنفس الزخم والقوة ، سواء في ذلك الصراع القومي على هوية لبنان وعروبته وكل ما تعنيه هذه الهوية من مواقف ومسؤوليات ، او الصراع الاجتماعي . ومرة اخرى ، فأن تحول هذه الصراعات الوطنية الى صراع على كيان الوطن نفسه ، دليل حسي كبير على عجز صيغة الكيان الطائفي، المبني على التعايش والتوازن الطائفيين ، عن استيعاب الصراعات الوطنية وتحويلها الى قوة دافعة للوطن ، كما هي الحال بالنسبة لكل الامم في كل العصور .

لذلك فان اي بحث في حل وطني جذري للازمة اللبنانية الحالية يجب ان ينطلق اولا — وقبل اي شيء — من الاعتراف بفشل صيغة التوازن الطائفي (صيغة الميثاق الوطني) في ان تكون بديلا عن الوطن او مقدمة للوطن ، او في ان تكون الوطن نفسه . نقول هذا لان رياح تسوية وسطية بدأت تلوح في الافق ، تتلخص في اعادة الاعتبار لصيغة الميثاق الوطني ، مع تعديل في نسب التوازن الطائفي ، على اعتبار ان الازمة هي تعبير عن اختلال نسب التوازن الطائفي ، وليست تعبيرا عن فشل صيغة هذا التوازن عن تحمل اعباء الصراع الوطني بشكل طبيعي . ويتمثل هذا الاتجاه في وثيقة سليمان فرنجية (التي سميت « الوثيقة الدستورية ») والتي تحاول بعد ثلث قرن من عجز صيغة الميثاق الوطني غير المكتوب ، ان تحول هذا الميثاق الشفهي الى وثيقة دستورية مكتوبة ، وفي احياء الزعامات الطائفية التقليدية في المناطق الوطنية ، بعد ان وصل الصراع الى تجاوز الصيغ الطائفية الى صيغ وطنية واجتماعية صارخة ، ذلك ان الزعامات الطائفية الانعزالية بدأت تدرك انه مهما كانت المكاسب المؤقتة التي ستحل عليها من الحوار مع الحركة الوطنية اللبنانية ، فستتحول هذه القوى — حتى من غير ارادتها — من صوت طائفي ، الى صوت سياسي ،فتضطر لخوض معاركها السياسية كممثل للانعزالية (على صعيد الصراع القومي) وكممثل لليمين (على صعيد الصراع الاجتماعي) ،متخلية بذلك اضطراريا عن القناع الطائفي الذي كان حتى الان بمثابة الكابح الذي تعرقل به الانعزالية اليمينية في لبنان المستقل المسيرة الطبيعية للصراع .

ان مقتل فلسفة الميثاق الوطني انها لم تصغ منذ البداية لتكون صمام امن له مهمة موقتة هي منع الاستعمار الفرنسي من استغلال الترتيب الطائفي للمجتمع اللبناني كحاجز يمنع الاستقلال ، بل اعتقد واضعوها ان صمام الامان ، ما دام قادرا على تحقيق الاستقلال ، فهو قادر بالتالي على بناء دولة الاستقلال ، واستيعاب كل ما تقتضيه طبيعة هذا البناء من صراعات وطنية .

ولم يكن هذا الاعتقاد ملازما لحاملي فلسفة الميثاق الوطني في الاربعينات فقط

بل ظل ملازما لهم حتى الان ، مرورا بازمة ١٩٥٨ التي كان يفترض فيها انتكون ناقوس خطر كاف يعلن استنفاد فلسفة الميثاق الوطني لكل قدرتها على العطاء والبقاء ٠

ان من يقرأ مذكرات الشيخ بشارة الخوري (« حقائق لبنانية ») ابرز القادة السياسيين لصيغة الميثاق الوطني (على اعتبار ان ميشال شيحا – شقيق زوجة الشيخ بشارة – هو ابرز قادتها الفكريين) كثيرا ما يقرأ له عبارة يعلق بها على احداث تثبت خطأ حساباته وخططه بالنسبة لمسألة ما ، فيقول انه لوّ اوتي علم الغيب لما قرر كذا وكذا ٠

ولكن عندما دون الشيخ بشارة الخوري خلاصة تجربته السياسية في عام ١٩٦٠ ،لم تكن فلسفة الميثاق الوطني في علم الغيب ،بل كانت قد اختيرت لسبعة عشر عاما ، ومع ذلك فقد ظل ايمان الشيخ بشارة بهذه الصيغة لا يشوبه اي تحفظ ٠

واذا كنا نفهم ذلك من بشارة الخوري، على اعتبار ان السياسيين عندما يدونون مذكراتهم في اواخر العمر ، لا يعنون أبدا بمقارنة آرائهم السياسية بما تلاها من احداث ، بقدر ما يعنون باعادة استحضار الماضي ، بكل القه وزهوه ومصداقيته ،فان فيليب تقلا ،احد اخلص ابناء مدرسة الميثاق الوطني ، قد ابدى في مقدمة المجلد الثاني من المذكرات فعل ايمان مطلق بصيغة الميثاق الوطني (في الماضي والحاضر والمستقبل)، واعتبر احداث عام ١٩٥٨ مناسبة لتجديد الدعوة للميثاق ، وليس دليلا على حلول ساعة اعادة النظر فيه ٠

ليس لدينا اي وهم حول انّ ميزان القوى الداخلي في لبنان ، وميزان القوى العربي من حول لبنان هما اللذان سيقرران الان المدى الذي يمكن ان تذهب اليه اية عملية تغيير ستفرزها الاحداث اللبنانية الصاخبة، ولكن ذلك لا يمنع ، ونحن امام محاولة فرض الحل بتعميق الصيغة الطائفية ، بدل تجاوزها ، ان نستعيد من الماضي ، ومن مذكرات ابي الميثاق الوطني ، بعض الصور السياسية المتناقضة ، والتي جاء الميثاق الوطني اقرب الى ان يكون تحايلا عليها لا حلا لها ، وهي مواقف تعكس الترجمة السياسية للتركيبة الطائفيةالتعددية للمجتمع اللبناني على اكثر من صعيد ، منها مسألة الانتداب والاستقلال ، ومنها مسألة تحديد هوية لبنان الطويلة ، ومنها الموقف من القضية الفلسطينية التي كانت – في ذلك الوقت – في اخطر مراحلها المباشرة،مرحلة الاعداد لانشاء دولة اسرائيل ٠ وذلك ليلمس القارىء ان الادلة الحسية على عجز فلسفة الميثاق الوطني عن بناء وطن موحد متماسك كانت موجودة قبل ولادة الميثاق كما هي موجودة بعده،وخاصة في الاحداث الحالية٠

قبل الاستقلال

في الصفحة ١٩٩ من المجلد الاول من « حقائق لبنانية ، يصف الشيخ بشارة الخوري الوضع السياسي في لبنان فياوائل عام ١٩٢٧ ، يوم كان اميل اده قد اصبح رئيسا للجمهورية ، بينما اصبح بشارة الخوري رئيسا لاهم كتلة برلمانية (الكتلة الدستورية) التي كانت تقارع الانتداب حول الدستور كلما تجاوزت نصوصه او علقت تنفيذه ، يقول تحت عنوان « العرب عربان » :

« ويحسن القول ان وجه لبنان السياسي انقلب من ذلك اليوم وسرت في البلاد روح عامة ، فانقسم العرب عربين : لبنانيون يسعون الى الاستقلال بالغاء الانتداب ، وأخرون يتعلقون بالسلطة المنتدبة وبدوام سيطرتها ، فيستعينون ويستمدون منها نفوذهم ومكانتهم ٠لبنانيون ينادون بالتعاون مع البلاد العربية ، وأخرون يتمسكون بالعزلة والانكماش ويولون وجههم شطر الغرب وحده ، ويديرون ظهرهم للشرق رافضين كل تعاون معه ، متنكرين للغته وتقاليده ٠ روح لبنانية حقيقية لا تفرق بين مسيحي ومحمدي ، وروح انتهازية ترتكز

على تعصب طائفي ذميم ، مستترة بالوصاية الاجنبية لتحقيق اهداف خاصة · وليس هناك من غيرة على الدين ولا من يحزنون · فلا عجب والحالة هذه من الموقف الذي وقفه العهد الجديد من مطلب الدستوريين ، في حينكانت السلطة الفرنسيةفي ذلكالظرف عينه اكثر اعتدالا » ·

ثم يروي في الصفحة ٢٠٣ من المجلد الاول بعض تفاصيل المفاوضات مع الفرنسيين لتوقيعالمعاهدة الفرنسية اللبنانية (سنة ١٩٣٧) التي اشترك فيها كل منااميل اده كرئيس للجمهورية ، وبشارة الخوري كرئيس للوفد البرلماني :

« دامت المفاوضات شهرا كاملا تحملت فيه اكبر مشقة في المناقشة بين الوفدين · وكنت اخلص النصح للرئيس اميل اده لافتا نظره الى كل نقص في النصوص . وهو يتشبث بان تكون المعاهدة دائمة كأنه ملكي اكثر من الملك ، فرفضنا نظريته ، ورفضها معنا المفوض السامي ، وحددنا اجلها بخمس وعشرين سنة · واراد ان يتساهل في مدى استعمال اللغة العربية فيالدوائر فعارضته، وصار تبادل رسائل يضمن مقام لغتنا الوطنية ، مما اثار استياء الغلاة من الفرنسيين واللبنانيين » ·

بين الاستقلال والانتداب

اذا كانت هذه المشاهد القصيرة المقتضبة تعطي صورة عن العهد الذي كان فيه الانتداب في عز سطوته ، يعين النواب وروساء الجمهورية ، ويغري ضعاف النفوس على توسل المناصب من سلطته ،فان الصور الاكثر بلاغة في التعبير عن اهتزاز صورة المجتمعالسياسي اللبناني ذي الخلفية التعددية الطائفية ، هي تلك الصور التي يقدم لنا بشارة الخوري بعضا منها عن الفترة التي تعايش فيها الانتداب مع الاستقلال (اذا صح التعبير) اي الفترة الواقعة بين اواخر ١٩٤٣ (سنة اعلان الاستقلال الدستوري والسياسي) واواخر ١٩٤٦ (سنة الجلاء العسكري التام لقوات الانتداب الفرنسي) ·

فمع ان دولة الاستقلال كانت قد اخذت شكلها السياسي والدستوري ـ على الاقل ـ فأن هذا الشكل بقي مهتزا ابلغ الاهتزاز في كثير من القطاعات الطائفية اللبنانية . التي بقيت على امل انتصار السلطة الانتدابية على السلطة الاستقلالية الوليدة ·

في الصفحة ٨٦ من المجلد الثاني ، يروي الشيخ بشارة ما اثاره نجاح يوسف كرم في الانتخابات النيابية ، وهو حفيد يوسف كرم ابن زغرتا واهدن الذي قاتل الاتراك في القرن التاسع عشر ، ونسجت حوله اساطير من العواطف الدينية ، كالقول بان السيدة العذراء كانت تظهر دائما فوق رأسه وهو يقاتل (جثمانه ما زال حتى اليوم محنطا في احدى كنائس اهدن ، كما ينتصب تمثاله في باحة الكنيسة نفسها) · يقول بشارة الخوري :

« وما ان عرفت نتيجة الانتخابات في الشمال حتى اندفع خصوم العهد يبشرون بهذا الفوز ،صابغينه بصبغة سياسية زائفة، كأنه فوز للسياسة الاستعمارية على السياسة اللبنانية ! واندفعت الابواق التي تتلبس بالمسيحية ، تبشر بالقيامة ، وتستعد لدخول كرم المجلس بتظاهرات شعبية ·ومما اذاعته الابواق المعلومة ان ابن كرم ، حفيد يوسف بك ، سيصل الى بيروت ممتطيا جوادا ادهم بلباس جده اللبناني·واستفادت بعض الدوائر التابعة للادارات الفرنسية ، والمؤلفة خصوصا من لبنانيين ، لبث الدعاية ودفع المال وتوزيع الاسلحة . حتى تبدأ التظاهرة ساعة وصول يوسف كرم الى بيروت ، تنقلب الى شغب ، ومنها الى ثورة دموية تجتاح العهد ، وتريح الدولة المنتدبة من هيكل الحكومة الجديدة ،

فينتعش الانتداب المحتضر » .

وفي نفس الصفحة يتابع الشيخ بشارة قصة يوسف كرم ، والجماهير الزاحفة لتأييده ، بين العلم البناني القديم (الذي ما كان سوى العلم الفرنسي تتوسطه ارزة خضراء) والعلم الجديد (العلم الحالي)

« ووزعت قوى الدرك والشرطة على جوانب البرلمان - وكان الجيش والامن العام لا يزالانبايدي الفرنسيين - وقد دخلت المدينة سيارات متعددة من جسر بيروت ، مع سيارة يوسف كرم ، متجهة نحو ساحة الشهداء حيث ترجل المتظاهرون ، وانضم اليهم أخرون حملوا العلم اللبناني القديم،اي العلم لفرنسي الذي تتوسطه ارزة ، وساروا الى البرلمان واخترقوا الحواجز حتى وصلوا الى ساحته . وحمل أخر العلم الفرنسي محاولا ان يرفعه على باب المجلس ، واراد الجمع ان يقتحم الباب الحديدي ويدخل قوة وقسرا ، فاطلقت قوى الامن النار في الفضاء ، واطلق نعيم مغبغب من المدخل بعض القنابل اليدوية ارهابا فجرح ،وتفرقت الجموع مع علمها القديم ، وقيل ان الفرقة السنغالية المرابطة لحراسة دار التلفون الفرنسية اشتركت باطلاق النار من الجهة القبلية على المجلس النيابي . واختلط الحابل بالنابل ،وقطعت اسلاك التلفون حتى انني لم اتمكن من مخابرة المندوب الفرنسي لاطلعه على تصرفات اتباعه ، وفي مقدمتهم مرافقه الخاص البوليس منصور الذي قاد التظاهرة بكل وقاحة . ولحسن الحظ سيطر الدرك اللبناني على الموقف بسرعة فائقة واعتقل بعض المتظاهرين ، ومنهم كاهن اشوري مسلح اطلق الرصاص يمينا وشمالا . »

وبعد ان دخل يوسف كرم المجلس ،وبعد بيان مقتضب لرئيس الوزراء رياض الصلح ندد فيه بـ « الخونة » وقد عقب عليه النائب يوسف كرم ، فادلى ببيان بعد الجلسة قال فيه :

«استغل بعض المشاغبين والخونة مناسبة حضوري الى مجلس النواب ، فحاولوا رفع العلم الفرنسي على باب المجلس ، اصطيادا في الماء العكر ، فجرت حوادث أسف لها كل الاسف ، وانا استنكر هذا العمل كل الاستنكار ، واؤيد بكل قواي وطني العزيز لبنان العربي المستقل » .

العروبة وفلسطين

على هذه الخلفية الداخلية ، ووسط هذه العواطف السياسية الانعزالية ، يروي بشارة الخوري متاعبه في شق الطريق امام علاقات لبنان العربية ، والصيغة التي اجتهد في ان يصوغ تلك العلاقات بها حتى تمر وسط الالغام الانعزالية ، فقدم لنا في مذكراته الصور والمشاهد التالية :

« عاد وفدنا من الاسكندرية ، وعرضنا الحوادث الداخلية في مصر ، وحوادث البلدان العربية ، ومشاورات الوحدة ، وراجعنا محاضر الجلسات فاعترضت على فقرة واحدة متعلقة بالسياسة الخارجية المفروضة على دول الجامعة.واتفقت ورياض الصلح وسليم تقلا (شقيق فيليب تقلا) على وجوب تعديل النص المذكور بنص اخر لا يقبل لبسا في سياستنا العربية . ذلك انه ورد في احدى فقرات البروتوكول انه لا يجوز لدولة من الدول المتعاقدة ان تتبع سياسة خارجية تضر بسياسة الجامعة العربية او بمصالحها » . (حقائق لبنانية - المجلد الثاني - صفحة ١١٠) .

وفي الوقت الذي اعتبرت فيه هذه الفقرة في ضرورة التضامن العربي في ميدان السياسة الدولية مجالا لاذكاء مخاوف الانعزاليين وشبه الانعزاليين على «استقلال» لبنان ، اذا بمفهوم اغرب يرد على لسان رياض الصلح في مجال تطمين اصحاب هذه المخاوف :

« فنحن ايها السادة اينما ذهبنا ، رواد استقلال وتعاون واتحاد ووفاق بين المسيحيين والمسلمين ، ونحن نحمي هذا الاستقلال التام الناجز ونفديه بدمائنا وارواحنا ، ليس فقط ضد الغرب ، بل ضد الشرق ايضا (تصفيق) » · (حقائق لبنانية ـ المجلد الثاني ـ صفحة ١١١) ، مع ملاحظة ان عبارة الشرق ، عندما تستعمل في مخاطبة الخائفين من استقلال لبنان ، لا تعني في القاموس السياسي اللبناني ما تعنيه اليوم (الاتحاد السوفياتي والمعسكر الاشتراكي ، فهذا المعسكر لم يكن قائما على كل حال في ذلك الوقت المبكر) ولكنها تعني كيانا فضفاضا يضم العرب فيمن يضم، كما يعني تركيا والعالم الاسلامي بشكل عام ·

ويتضح من مذكرات الشيخ بشارة الخوري في المجلد الثاني (١٩٤٣ ـ ١٩٤١) ان همه الرئيسي في تلك الفترة الاستقلالية الاولى ، كان محاولة تثبيت الشخصية اللبنانية المستقلة ، وصياغة تفاصيلها، وفقا لمفهوم الميثاق الوطني ، ولعل ابرز اجزاء المذكرات في شرحهذا المجهود وتحديد معالمه السياسية والفكرية ، هو ذلك الجزء الذي يصف فيه رحلاته الثلاث الىالمحافظات اللبنانية المختلفة في الشمال والبقاع والجنوب (المجلد الثاني ، ١٥٧ ـ ١٩٤)، محاولا ان يستجمع من الخلفية السياسية والاجتماعية والروحية للعناصر الطائفية التي تكون المجتمع اللبناني ،مفاهيم مشتركة حول الاستقلال والعروبة وفلسطين الخ ···

فهو يقول في طرابلس :

«ولما سرنا على هذه السياسة الاستقلالية الجريئة ودفعنا عن انفسنا تهمة العزلة والانعزال ، وتلفتنا الى العرب الذين تجمعنا واياهم رابطة اللغة والعادات والاخلاق الشرقية (ملاحظة : هذا المعنى تاكيد لمفهوم « لشرق » كما حاولنا تعريفه في المقطع السابق) والمصلحة والاماني ، لم يعد في لبنان سلبيون وايجابيون ، لا مسلمون ولا نصارى ، بل صار الجميع شخصا واحدا ، لبنانيا ، استقلاليا ، قوميا ،عربيا، بكامله · واكبر شاهد على ذلك ما رأيناه في هذه البلدة التي لم تكن تهتف وتصفق لرئيس غير هذا الرئيس الذي ترى فيه رمزا لجمهورية لبنانية استقلاليةعربية ديمقراطية، (المجلد الثاني ـ صفحة ١٦١) ·

ثم يقول شارحا ـ في طرابلس ـ كيفية التوصل الى تحقيق الصيغة الاستقلالية :

« وتطرقت الى معجزة العهد وليست بالوحيدة من نوعها : « اذ اصبح الرئيس المسيحي اكثر اسلامية من رئيس وزرائه السني واصبح رئيس الوزارة السني اكثر مسيحية من الرئيس الماروني » · (المجلد الثاني ـ صفحة ١٦٢) ·

وهذا مشهد أخر في الديمان ، المقر الصيفي للبطريرك الماروني ،حيث قال بشارة الخوري مخاطبا البطريرك (في نفس الرحلة الشمالية) :

« ولذلك اطلب منه ان يمد بايامكم حتى تروا هذا الاستقلال ناجزا تجاه دول الغرب وجميع دول الغرب ، وناجزا ايضا تجاه دول الشرق وجميع دول الشرق » · (المجلد الثاني ـ صفحة ١٦٤) ·

وفي نفس الصفحة مشهد أخر في بشري:

« واتيح لي ان القي خطابا في البلدة المارونية لاطمئن الخائفين على مصير لبنان، ومن جملة ما ذكرته وجوب الجلاء ، فقلت : « ان الجلاء يجب ان يتم وشيكا ، ومن جميع انحاء لبنان ، واذا طلبنا الجلاء فلان وجود جندي اجنبي واحد عندنا يناقض استقلالنا، فضلا عن كونه يهدد اخواننا في الدجلة والنيل » ·

وهذا مشهد أخر من الرحلة الشمالية نفسها ، في اهدن (مشتى الزغرتاويين) حيث اراد بشارة الخوري طرح رأيه في

القضية الفلسطينية ، ورصد ردود الفعل عليه :

« تكلم حميد فرنجية في مأدبة العشاء ، واجبته مرتجلا ، وقبل ان اختم خطابي مر في بالي شبح فلسطين ، وتخيلت البلد الماروني البحت الذي انا فيه ، وقلت في نفسي : هذه فرصة سانحة لاستفتي لبنان المسيحي في قضية فلسطين ، وسياستنا فيها ، وما هي لحظة حتى عرضت المسألة امام الحاضرين فقلت : « اذا رجعتم الى قلوبكم والى ضمائركم،امكنكم ان تشعروا بمدى الاهتمام الواجب بهذه القضية ، اذ ليس من العدل ان يؤتى من مشارق الارض ومغاربها بأناس لا يربطهم بنا اي نسب ليكونوا اكثرية مصطنعة . فاليهودية شيء ، والصهيونية شيء آخر ، اليهودية دين تسلسلت عنه المسيحية واعترف به الاسلام ، فابناؤها من هذه الناحية لهم ما لنا وعليهم ما علينا من الحقوق والواجبات ، انما الصهيونية فكرة تحكم واستثمار وسيطرة سياسية لا علاقة لها بالدين قط ... واني وانا في منطقة مسيحية صرفة ، بل ومارونية صرفة ، اعلن ان هذه الفكرة هي فكرتها ، وهي تؤيدها ... » وما ان القيت هذه العبارة حتى شق التصفيق والهتاف عنان الجو، واطلقت السهام النارية في الجو استحسانا وحماسة ، ولم يكن لذلك ادنى استعداد او تهيئة . وهذا كان اول صوت رسمي لرئيس دولة عربية ارتفع للذود عن فلسطين ،وفرق بين اليهودية والصهيونية ، وهو صوت رئيس جمهورية لبنان ، في بلد ماروني مائة بالمائة ، فاستقبله البلد الباسل بتلك العاطفة الفياضة » . (المجلد الثاني – صفحة ١٦٥) .

مثل هذا الكلام الذي فيه شيء من العاطفة مع شيء من الفكر ، يقف عند منتصف الطريق فيقول عن الهجرة اليهودية الى فلسطين « يؤتى من مشارق الارض ومغاربها بأناس ... » ، فلا يشير الى العلاقة بين الاستعمار (بريطانيا في ذلك الوقت) وبين المشروع الصهيوني فخلق بذلك موقف تأييد عاطفي بدلا من موقف التأييد السياسي ، الامر الذي اثبت فشله بعد ذلك في مواجهة التحديات الحقيقية للقضية الفلسطينية ... لذلك فاننا نجد ، بعد ثلث قرن ، رئيس جمهورية لبنان سليمان فرنجية يقول كلاما مشابهها امام الامم المتحدة ، ولا يمنع ذلك ان يكون هذا الرئيس نفسه قد قاد قبل خطاب الامم المتحدة محاولة سحق المقاومة الفلسطينية بواسطة الجيش الرسمي ، ثم قاد بعد خطاب الامم المتحدة محاولة سحق المقاومة الفلسطينية بالميليشيات الانعزالية .

واذا كان بشارة الخوري قد حاول لتبشير بقضية فلسطين في اهدن ، فانه يروي لنا مشهدا مختلفا ، وبلهجة مختلفة من رحلة صيدا فيقول باختصار شديد :

« وانتقلت الى الكلام عن فلسطين ، في بلد يعتبر جبهة اولية في خط الدفاع ضد الصهيونية » (المجلد الثاني – صفحة ١٧١)) ، ولا يرى حاجة لان يضيف الى هذا الكلام شيئا حول هذا الموضوع .

نجد ان الشيخ بشارة الخوري يكاد يعترف في جزء آخر من مفكراته بان هناك شيئا ما غير الدعاية يجب عمله للقضية، وان قوى خارجية تتدخل لفرض مشروع انشاء دولة اسرائيل . ولكنه يطرح الاسئلة وبسرعة ، ويجيب بسرعة اشد اجابة الذي يعرف الحقيقة ويتهيب من الاعتراف بها ، خوفا مما يترتب عليها من خطوات سياسية. وهذا مقطع بالغ الدلالة ، بالغ الصراحة ، في هذا المجال يقول في التعليق على اجتماع انشاص (ايار ١٩٤٦) الذي كان اول مؤتمر ذروة عربي (على حد تعبير الشيخ بشارة) دعا اليه الملك فاروق «للمشاورة بشؤون تهم الجامعة العربية عامة وفلسطين خاصة » ، يقول :

« وليتنا ونحن نعد الوثيقة الشهيرة ،التي نشرت على العالم . فكرنا بتأليف جيش

عربي من متطوعي جميع البلـــدان العربية ليدافع عن فلسطين ويتدرب في مصر للوقت العصيب ، غير انه لم يخطر على بالنا ان المواثيق الدولية ستمزق ، ويطرح العرب في ارضهم عزلا ، يقتلون ويتشردون ولما تنسحب الجيوش البريطانية كلها مـــن فلسطـين ! (علامة التعجب في النص الاصلي) لم يعط احد منا علم الغيب ٠ وهب انه تألف هـــذا الجيش ، فهل كان بامكانه ان يتسلح تسليحا عصريا او ان يقاتل فعليا دون ان يقفـــوا (ملاحظة : الفاعل هنا ايضا يظل مجهولا) بوجهه لتنفيذ وعد بلفور » ٠

وعندما يصل الشيخ بشارة الى وضـــع اليد على المفتاح الحقيقي للازمة (التحالف الاستعماري ـ الصهيوني) سرعان ما يغفل الموضوع : « يطول المجال بنا جدا فيما اذا استسلمنا لهذه التأملات كلها فـي حالـــة الدول العربية ٠ لنعد الى ما بعد التوقيـــع على الوثيقة . اردت ان اودع الملك فاروق في جناحه بانشاص ٠٠٠ »٠ (المجلد الثاني ـ صفحة ٢٤٧) ٠

اما الرياح التي كانت تهب على مخاوف الانعزاليين ، فتذكيها في ذلك الوقت، فيبدو انها كانت تتركز في مشروع سوريا الكبرى الذي كان ينادي به من شرق الاردن الملـــك عبدالله٠ولكن من الواضح ان هذا المشروع، حتى كما يتحدث عنه الشيخ بشارة ، لم يكن تعبيرا عن خط النضال الوحدوي العربي، بل كان ـ على العكس تماما ـ من مشاريع المطامع والصراعات الاقليمية ، التـي كانت تثير المخاوف في سورية قبل لبنان ، يقـول بشارة الخوري عن هذا المشروع :

« اصبح مشروع سوريا الكبرى مزمنا، وحكومة شرقي الاردن تثيره من وقت الـى آخر وتحدث اثارته ردة فعل في سوريـــا ولبنان ٠ ورأى بعضهم ان لبنان خارج عن هذا المشروع ، وتساءل لاي سبب يعتـرض عليه كلما اثير ٠ ولكن الامر على خلاف ما يظن لان كل تغيير في الاوضاع القائمة في البلدان العربية من شأنه ان يضعف موقف لبنان ، ولان شرقي الاردن يرغب في حالـة تحقيق المشروعفي ان يعاد النظر في الحدود اللبنانية كمرحلة اولى ، واما المرحلـــــة الثانية ففي استجماع دول الهلال الخصيب» وكفى الذين لا يرون في هذا المشروع خطرا على لبنان ، ما ورد في تصـــريح وزيـــر خارجية شرقي الاردن في تشـــرين الثاني ١٩٤٦ من « ان لبنان في حالته الحاضرة قد ارغمت بعض المناطق والاقاليم منه علـــى الانضمام اليه ، وعلى قبـــول شكل حكـــم معين ٠ » ٠٠٠ واثيرت هذه التصريحـــات اول ما اثيرت في المجلس النيابي واول من اثارها النائب عبد الله اليافي ، وقد تكلم بصراحة ما بعدها صراحة اذ قال : « ٠٠٠ فانا ، بصفتي نائبا لبنانيا ، ونائبا مسلما سنيا عن لبنان ،، ونائبا عن بيروت ،اعلن اننا في لبنان ، نصارى ومسلمين ، قـــد ارتضينا حالة لبنان الحاضرة بملء رضانا واختيارنا ، واننا لا نبغي عن هذا الوضع بديلا ٠ وان تصريحي هذا يعبر عن رغبـــة اللبنانيين جميعهم ، اكانوا نصـــارى ام مسلمين ٠ وهذه السياسة التي ارتضاهـــا لبنان لنفسه قد تمشت عليها الحكومـــات اللبنانية جميعها ، بدون لبس او ابهـــام ، واختطت لنفسها ان تعلن عنهـــا في كـــل مناسبة ، حتى اصبحت دستـــورها فـــي برامجها الحكومية ٠ ولا ازال اذكر كلمـــة دولة رياض الصلح ، وقد قال فيها : « ان لبنان في وضعه الحاضر هو صنع ايدينا ، واننا سندافع عنه ضد الشرق والغرب » ٠ (المجلد الثاني ـ صفحة ٢٧٦) ٠

ولعل ادق تلخيص لتناقضات الخلفيـــة الطائفية للمجتمع اللبناني ، كما صورهـــا ابو الميثاق الوطني الشيخ بشارة الخوري، هي التي جاءت على لسانه في خطبة بلديـــة بشري ، في ٧ـ١٠ـ١٩٤٥ ٠ (المجلد الثاني ـ صفحة ٢٩٣) :

« كان المسلمون في عهد الانتداب جـــد حذرين ، فلما تحققوا ان الرسالة استقلالية

بحتة ، أمنوا بالاستقلال وبلبنان وصاروا من اول عماله ٠

ولما بزغ العهد الجديد خاف بعض النصارى ان يكون العهد مجحفا بهم،وخافوا ان يزول الانتداب فيكونوا عرضة لامر ما من الداخل » ٠

★ ★ ★

لسنا هنا طبعا أمام محاكمة تاريخية للميثاق الوطني ، فهذه المحاكمة لا تكون موضوعية وعادلة الا اذا شملت دراسة كل الخلفيات التاريخية والاجتماعية والثقافية والاقتصادية التي تمت في اطارها وترعرعت التشكيلات الطائفية ـ السياسية للمجتمع اللبناني ،بما في ذلك دراسة المرحلة الاخيرة في عمر الامبراطورية العثمانية والحركة المعاصرة للقومية العربية ، ومشكلات الاقليات الدينية في الوطن العربي ، والدور اللبناني فيالنهضة العربية القومية الحديثة فكرا وسياسة . وكيف نما هذا الدور . ثم كيف غاضت مياهه في مستنقع الطائفية بعد ان كان قد انطلق بصحة وعافية متجاوزا الفتنة الطائفية الكبرى في القرن التاسع عشر وما نتج عنها من صيغ سياسية واجتماعية في عهد المتصرفية ٠

دراسة كل هذا اذن ضرورية ، مع دراسة

الظروف الدولية التي كانت سائدة قبل واثناء الحرب العالمية الثانية ، حتى تكون المحاكمة التاريخية لفلسفة الميثاق الوطني عادلة : هل كان الاستقلال اللبناني ممكنا بطرق أخرى وسط هذه الفسيفساء الطائفية وما يحيط به من موازين قوى ؟

تلك مسألة تاريخية . ما يهمنا الان هو المسألة السياسية الراهنة ، حيث ما زالت الصيغة الطائفية للميثاق الوطني مطروحة كحل لاعادة تجميع اجزاء الوطن اللبناني الذي وضحت معالم بعثرته بعد سنة ونصف من الاقتتال ٠

ان اثنين من ابطال الميثاق الوطني ،ومن الذين سجنوا دفاعا عن رايته (كميل شمعون وبيار الجميل) يقودان اليوم معركة فك الشراكة الوطنية بالدم والحديد والنار ، استمرارا لحربهما عليها منذ عام ١٩٥٨ ٠ والقائد الثالث لهذا التيار ـ سليمان فرنجية ـ ليس بعيدا عن اجواء الميثاق الوطني ، فشقيقه حميد هو الذي قاد مفاوضات الجلاء عام ١٩٤٦ ، كل ذلك لان الانتماء للعروبة لم يعد تعبيرا عن اللغة الرسمية للدولة ، بل تجاوزه الى النضال من اجل استعادة الامة العربية مكانتها الحضارية وسط الصراعات الدولية ، ولان النضال من اجل فلسطين لم يعد يكتفي بخطبة فوق منبر الامم المتحدة او باغاثة مجموعة من اللاجئين باكياس من الطحين ، بل اصبح دخولا في صراعات ارادات تاريخية فوق ارض المنطقة ، تفترض اتخاذ مواقف والدخول في تحديات وتغييرا عميقا في نمط التربية والحياة ٠

ان خط تطور ونمو هذه الزعامات « الميثاقية » في الشارع الماروني بالذات، يعتبر من العناصر السلبية اذا وضعنا امامنا الان ليس فقط امكانية بناء لبنان ـ الوطن،بل حتى امكانية اعادة تركيب لبنان ـ الكيان الطائفي المتوازن ٠٠٠ غير ان هذا العنصر السلبي تقابله عناصر ايجابية اخرى منها ان الشارع المسيحي لم يعد حكرا على هذا النوع من الزعامات ،فهناك فئات عريضة كسرت طوقها الطائفي ودخلت في اطار الانتماء السياسي المباشر الى الوطن ، وانحسار موجة العنف الحالية سيكشف عن هذه الفئة بحجم اكبر بكثير مما يتصوره البعض ٠

اما العنصر الايجابي الاخر فهو ان الزعامات الطائفية في الشارع الاسلامي ـ الوطني قد دخلت في مرحلة التلاشي

التاريخية ، فكلما علت امواج المد التحرري العربي والوطني ، كلما اصبح صوت هذه الزعامات اخف ، وجماهيريتها اضعف، حتى ان هذه الزعامات تستعين على الجماهير الوطنية ـ في ساعات الضيق ـ بالزعامات الطائفية في الخندق الاخر ·

من هذا العرض السريع نخرج بحقيقتين:

١ ـ ان مجرد مرور الزمن على صيغة « الوطن المؤقت » لا تكفي لتحويله الى وطن دائم ، فالكيان الطائفي المتوازن ليس مرحلة على طريق الوطن بل هو تأجيل للدخول في مرحلة الوطن ،يجب وضعه جانبا وبصورة نهائية ، اذا اردنا الانتقال الى مرحلة الوطن ·

٢ ـ ان ميزان القوى داخل التركيبة الاجتماعية اللبنانية لم يعد يهيمن عليه الطابع الطائفي ، كما كان الحال عندما ابتدعت صيغة الميثاق الوطني لدى مواجهة مسألة الاستقلال عام ١٩٤٣ ·

وعلى هاتين الحقيقتين يجب ان تبنى اية حلول سياسية للازمة الحالية ، فاذا كانت صيغة « الوطن المؤقت الموحد » قد عاشت ثلث قرن ، فان صيغة «الوطن المؤقت المجزأ» المطروحة حاليا لن تستطيع العيش عقدا واحدا من السنين ·

هذا هو الدور الأميركي في لبنان

هذا النص ، هو ترجمة حرفية ، لفصل من كتاب الدبلوماسي الاميركي روبرت مورفي : دبلوماسي بين المحاربين ، يشرح وجهة النظر الاميركية للحرب الاهلية في لبنان ١٩٥٨ ، من خلال الغزو العسكري الاميركي ، ثورة العراق، والعلاقة مع الجمهورية العربية المتحدة .

ننشر شؤون فلسطينية ، هذا الفصل في ظروف شبه مشابهة . حيث الحرب الاهلية تشتعل في لبنان ، منذ سنة ونصف ، وحيث يبرز الدور الاميركي من خلال براون مبعوث الرئيس فورد .

ننشر هذا الفصل ، بهدف المقارنة واستخلاص العبر ، رغم اننا نقرأ النص بحذر وتحفظ ونبدي عليه ملاحظات كثيرة منها :

١ ــ يتكلم السفير مورفي ويكتب بلهجة الاستعلاء التي تميز جميع المستعمرين عبر العصور . وكلامه المنمق عن الشرق الساحر، يخفي وحشية الامبرياليين ، واحتقارهم للشعوب.

٢ ــ ان الدور الاميركي ، والقدرة الاميركية قد بدأت تنهار . ليس في بلادنا فقط ، بل في العالم باسره . وهذا ما يفسر ، لعبة اظهار العضلات عام ١٩٥٨ ، والمرونة المناورة والتي يظهرها الاميركيون اليوم . وهذا لا يعني تغيرا في طبيعة الامبريالية العدوانية ، بل تغيرا في شروطها الموضوعية.

٣ ــ ان بروز محور المقاومة ــ الحركة الوطنية ، كمحور شعبي مقاتل ، يضفي على الحرب الاهلية الان ، شرطا جديدا ، لم يكن موجودا عام ١٩٥٨ .



وبين النقاط الخطرة ، كان قلق وزارة خارجيتنا مركزا على الجمهورية اللبنانية . ففي هذا البلد الصغير ــ مليون ونصف مليون نسمة ــ كان التوازن غير الثابت بين المسيحيين والمسلمين مختلا نتيجة وجود ٣٠٠ الف لاجيء فلسطيني ، حيث كان هؤلاء المنفيون اليائسون يحملون الولايات المتحدة مسؤولية بؤسهم ، ويتهمونها بمساندة اسرائيل . وقد علمنا ان بعض القوميين العرب العملاء لعبد الناصر يحرضون جماهير المسلمين ويوزعون السلاح خفية .

بدا قلق واشنطن على الوضع في لبنان ، حين رأت الناصرية تمتد الى احد اكثر بلدان الشرق الاوسط تطلعا الى الغرب . ووصل قلق

الكونغرس الى حد لم يعد يبخل فيه بتقديم الاعانات التي طلبتها وزارة الخارجية لمساعدة الحكومة الشرعية في لبنان .لقد تدهورت الحالة في لبنان اوائل حزيران ، الى حد انها وصلت عمليا الى حالة الحرب الاهلية . كانت الاذاعة والتلفزيون المصرية تساند المتمردين . شارل مالك ، سفير لبنان في الولايات المتحدة ، كان يطالب بمساندة مالية ضخمة . اما الرئيس كميل شمعون ، فكان يلح على السفارة الاميركية في بيروت ، في الحصول على امدادات حربية — كان يطالب باليأس ، ووصل به الامر الى طلب انزالها بالمظلات ويقال انه بعث حفيده وجواهر زوجته الى الخارج . رئيس وزرائه سامي الصلح ابلغ سفيرنا انه يرحب بانزال الجيش الاميركي في لبنان .

وعد الرئيس ايزنهاور ووزير الخارجية دالس، بان الولايات المتحدة لن تتخلى عن لبنان ، واصبح تطور الحالة هناك الشغل الشاغل لوزارة الخارجية.

وفجأة حصل الانفجار ، ليس في لبنان كما كان متوقعا . بل في بلد اخر في الشرق الاوسط، العراق ، حيث قتل الملك فيصل ، وابيدت عائلته بشكل بغيض في ١٤ تموز ١٩٥٨ من قبل مجموعة ضباط اعلنت حكومة ثورية ، واعلنت ان العراق هو « جزء من الامة العربية » .

طلب الرئيس شمعون التدخل الاميركي الفوري خوفا من المخاطر الجمة التي تهدد استقلال بلده، وتلقت الوحدات البحرية في اوروبا الموجودة تحت تصرف القيادة الاميركية امر الاستجابة لهذا الطلب .

كنت على علم بهذه الاحداث المفجعة ، لكنني مهتم بقضية مختلفة تماما في واشنطن : اذ ادى رفض وزارة الخارجية اعطاء جوازات سفر لبعض المواطنين الاميركيين الى استئناف امام المحاكم الفيدرالية . وكان اهتمام الوزارة كبيرا، في سبيل تشريع استثنائي في هذا المجال . كنت اعد ملفا كي اقدمه في جلسة علمة للجنة العلاقات الخارجية في مجلس الشيوخ . جرت هذه الجلسة في ١٨ تموز ، في القاعة القديمة لمجلس القضاء الاعلى في الكابيتول . قاعة فسيحة تتسع للعديد من الصحفيين والفضوليين . لم اكد انتهي من القاء خطاب الافتتاح ، حتى اخبرت ان وزير الخارجية يتصل بي هاتفيا . اعلمني ان الرئيس ايزنهاور قرر ارسالي حالا الى لبنان . وطلب مني الاعتذار من الهيئة والمجيء الى وزارة الخارجية للتشاور قبل سفري . كان دالس ينتظرني في مكتبه حيث ابلغني انني عينت مستشارا للاميرال هولووي القائد العام للقوات الاميركية التي تنزل في هذا الوقت بالذات في لبنان. كان هذا التحرك العسكري الاتي استجابة لرغبة رئيس الدولة اللبنانية ، مبررا بسياسة الولايات المتحدة التقليدية : حماية مواطنيها المقيمين في الخارج و ... حماية مصالحنا . فالى جانب موظفي سفارتنا والموظفين الاخرين ، يعيش عدد كبير من الاميركيين في لبنان ، اكثريتهم من الاساتذة والمبشرين ورجال الاعمال . كما تجذب شواطىء بيروت الاميركيين المقيمين في الشرق الاوسط عددا كبيرا من السياح . قال لي دالس ان دوري يكمن اساسا ، في تنسيق تحركات قيادتنا العسكرية مع سفارتنا وباقي السلطات المدنية الاميركية.

بعد هذا الحديث السريع ، توجهت مع دالس الى البيت الابيض ، حيث عرض علينا الرئيس تفصيليا دوافع انزال رماة البحرية الاميركية في لبنان . كثيرا ما يقال في الشرق الاوسط وخاصة في مصر ان الاميركيين يتكلمون ولا يفعلون شيئا خوفا من ردات الفعل السوفياتية . اعتقد ايزنهاور انه ستلحق بنا خسارة معنوية لا تعوض اذا بقينا مكتوفي الايدي . كما اراد ان يبرهن على ان الولايات المتحدة مستعدة لمساعدة اصدقائها في كل وقت وكل ساعة . « علينا ان نقوم بعمل بناء ومطابق لشريعة الامم المتحدة . تحركنا شرعي . فلبنان هو البلد العربي الوحيد الذي وافق على مبدأ ايزنهاور ، فيحق له على الصعيد الدولي ان يستدعينا علنا » .

اعطاني الرئيس معلومات شفهية غامضة بطبيعة الحال . بالنتيجة ، اوصاني بمصالح الولايات المتحدة بعد انزال قواتنا .

اجبرتني هذه المهمة الجديدة كممثل شخصي

للرئيس ، على استخدام اسلوب مختلف عن الاساليب التي استخدمتها في قضية السويس . في الحالتين ، اوفدت فجأة لمراقبة تطور ازمة في الشرق الاوسط ، وفي الحالتين ذهبت دون تعليمات واضحة .

في مسألة السويس ، كرست اربعة اشهر ما بين لندن وواشنطن ، في مفاوضات صعبة وفي مشاريع تسوية مدروسة . لكن في لبنان ، اكتشفت بسرعة اني سأضطر الى التنقل بين عواصم غربية ، والى طرح اسئلة صريحة تتطلب اجوبة واضحة ، ومن ثم اتخاذ قرارات مباشرة وتنفيذها فورا .

اتصلت بزوجتي هاتفيا ، قبل التوجه الى البيت الابيض مع دالس ورجوتها وضع بعض الملابس الصيفية في حقيبتي . تسلمتها منها بعد ثلاث ساعات في مطار واشنطن ، حيث نقلتني طائرة حربية الى مساشوستس . وفي قاعدة وستوفر الجوية كانت تنتظرني طائرة ك س ١٢٥ الطراز الجديد لطائرة بوينغ ٧٠٧ ، مزودة بخزانات اضافية تمنحها قدرة استثنائية على العمل . قمنا بالرحلة على ارتفاع ١٢٠٠ متر . وعندما حطت الطائرة على مدرج مطار بيروت ، كنا قد قطعنا ٨٨٠٠ كم في مدة احدى عشرة ساعة وقت قياسي.

في المطار استقبلني السفير روبرت ماكلينتوك، الاميرال هولووي ووزيران لبنانيان يبدو عليهما الانهاك . وافاني ماكلينتوك — الذي كان مساعدي لسنوات طويلة عندما كنت سفيرا في بروكسل — بالمعلومات الاولية . اعطت عملياتنا العسكرية نتائج اكثر من المنتظر ، رغم انها قدرت ونفذت على عجل . ففي الساعات الاربع والعشرين التي تلت نداء استغاثة الرئيس شمعون ، تم انزال ٣٦٠٠ رجل من رماة البحرية التابعين للاسطول السادس على شاطىء قريب من بيروت وحققوا فورا حماية المطار وبعض المرافق في المدينة . بعد ذلك اتت طائرات شحن من طراز ث ١١٩ بوحدات من كتيبة المارينز الحادية عشرة النازلة في كهب لوجون في كارولين الشمالية . وكانت طائرات كلوب ماستر ث ١٢٤ تترك قاعدة دونالدسون بسرعة في كارولين الجنوبية لنقل مظليي الكتيبة الرابعة والعشرين الى اوكسبورغ في المانيا الغربية . كما اقلعت طائرات معترضة نفاثة وقاذفات من قاعدةمنطلي في فرجينيا .

عندما وصلت الى بيروت ، كان حوالي سبعة الاف رجل من رماة البحرية ، يطوفون المدينة وضواحيها بالاليات . وكانت هناك ناقلات مصفحة برمائية وقاذفات ذرية . « الا ان جميع القنابل الذرية بقيت على متن السفن الحربية » .

— لم ينتج عن عملية الانزال اي حادثمؤسف او اية اضرار تحت قيادةالاميرال هولووي الحكيمة — في ١٨ تموز كان حول ميناء بيروت من ٧٠ الى ٧٥ سفينة حربية اميركية تابعة للاسطول السادس ، وتشكل مشهدا جميلا لزبائن مطعم كروت اوبيجون . وكانت مواكب المارينز تمر امام فندق سان جورج الفخم ومسبحه الخاص حيث النساء يتشمسن على متن اليخوت . اما في سماء المدينة ، فكانت تسمع زمجرة الطائرات المنطلقة من حاملتي الطائرات سرانوغا واسكس . في ٢٥ تموز وصل عدد قوات الانزال الى ١٠٦٠٠ رجل على الاقل . منهم اربعة الاف من المشاة و٦٦٠٠ رجل من رماة البحرية . اي اكثر من مجموع الجيش اللبناني .

بما أن قواتنا ، اتت الى لبنان بناء علىدعوة شمعون ، فقد كان همي الاول تقديم احترامي للرئيس في مكان اقامته الرسمي . قابلت رجلا تعبا والهموم تبدو عليه يقيم في سجن ارادي ، ولم يقترب من النافذة منذ ٦٧ يوما . وكان هذا تصرفا صائبا . لان امكانيات اغتياله كانت كبيرة . في لبنان لا يحق لرئيس الجمهورية ، ان يمارس الا ولاية واحدة . فعندما عرض شمعون تعديل الدستور ليتمكن من ترشيح نفسه لولاية ثانية، ساهم في اشعال الحرب الاهلية .

منذ اقامتي في برلين عام ١٩٤٥ ، لم اعرف مكانا متفجرا مثل بيروت في ذلك الصيف ،رمايات قنابل ، حرائق ، كل يوم وخاصة في الليل ، ومقابل القصر الجمهوري تقريبا ، كانت البسطة،

متاهة من الشوارع والمباني ، ويسمونها في بعض الاحيان القصبة . طلب السفير البريطاني حماية من رماة البحرية ، امنت له ، ومنذ الليلة الاولى اصيب مبنى السفارة برصاص قادم من البسطة، والذي مر قريبا جدا من بعض جنودنا . اخبرني الرئيس شمعون انه امر اللواء شهاب قائدالجيش بتمشيط البسطة . لكن اللواء يرفض . نصحت شمعون بعزل شهاب واستبداله بضابط قادر على احياء الامن وسلطة الحكومة .. لكن الامور لم تكن بهذه البساطة.

اللواء شهاب رجل شديد الذكاء ، ينتمي الى عائلة مارونية كبيرة ، متخرج من سان سير ومن المدرسة الحربية الفرنسية العليا . يامر حوالي ٧ الاف جندي الى جانب ٢٠٠٠ دركي تتالف قواته من عدد شبه متساو من المسيحيين والمسلمين ، ويبدو ان هم اللواء الاساسي ،كان الحفاظ على وحدة جيشه . لذلك كان يخشى من ان اي هجوم على المتمردين ، سوف يؤثر على الخلافات الدينية بين العسكريين ، ويحمل العسكريين المتعاطفين مع المتمردين ، على العصيان ، وفي هذهالحالةينفجرالجيشويختفي.

لم تتدخل الحكومة الاميركية ، الا بعد ان اوضحت للرئيس شمعون ان لا مجال لمساعدة اللبنانيين ، الا اذا كانوا مستعدين للدفاع عن بلدهم . وها هو رئيس الدولة نفسه ، لا يملك اية سلطة على جيشه . وبالتالي لا يملك اية امكانية للدفاع عن نظامه . كان اللواء شهابيهدد بالاستقالة ، بينما يكتفي الرئيس باعطائه مقترحات يتناساها اللواء . لكنه يعطيتوصيات خاصة للذين تحت امرته .

تحادثت مع اللواء ومع هيئة اركانه . بدا لي انسانا مخلصا . عندما تدارسنا المشكلة مع الاميرال هولووي ، اتفقنا ان هذا الجيش رغم هزاله ، هو العامل الوحيد القادر على صيانة شيء من السلطة للحكومة اللبنانية ، التي لم تعد تسيطر الا على جزء صغير من الاراضي اللبنانية حوالي الثلث فقط ، وكان وسط العاصمة فيايدي المتمردين . كنت امل في اقناع اللواء شهاب بالقيام بتحرك جدي لاعادة الامن الى بيروت .لكنه لم يقم الا بتدابير خجولة لمحاصرة تحركات المتمردين داخل الاحياء بشكل تدريجي . كان شهاب راغبا في التعامل مع القوات الاميركية . وقدرت مع هولووي ان تأييده ولو المؤقت يكفينا للوصول الى اغراضنا المباشرة .

اخبرني هولووي عن الحادث الذي جرى في اليوم الاول لانزال القوات الاميركية ، كي يبين لي استعدادات شهاب الطيبة . فتاريخ لبنان البائس والذي يرجع الاف السنين الى الوراء ، تعرض لغزوات عديدة ابتداء من الاشوريين والفرس والرومان ، حتى المماليك والاتراك المعاصرين . وقد اتلف الاتراك آخر المحتلين «!» غابات الارز وابادوها . وقد نظر بعضاللبنانيين الى القوات الاميركية بوصفها جيش احتلال .كما قررت مجموعة من ضباط هيئة الاركان مقاومة تدخلنا . فبعد نزول رماة البحرية في مطار بيروت، اتجهوا الى المدينة على الطريق الوحيد المؤدي اليها ، دون أن يعيروا الانتباه الى كون ١٢ آلية اعدت مع اوامر باطلاق النار على رجالنا . وما ان علم ماكلينتوك بالامر ، وفي آخر لحظة ، حتى اتصل باللواء شهاب واقنعه بالاتجاه حالا نحو هذه الوحدة برفقته وبرفقة هولووي في سيارة السفارة التي ترفع العلمين اللبناني والاميركي . وصل شهاب الى ذلك المكان واعطى الاوامر بعدم اطلاق النار . وبذلك تجنبنا اشتباكات مأساوية .

لم تكن الاضطرابات محصورة بالقضايا السياسية الكبرى ، والانقسامات بين المسيحيين والمسلمين ، بل كانت هناك خلافات عديدة بين الجماعات السياسية والطوائف الدينية. فاستنادا الى التقاليد اللبنانية ، كان على رئيسالجمهورية ان يكون مسيحيا ، ورئيس الوزراء مسلما . كان هذا التوفيق يعمل على ما يرام وبرضى شمعون والصلح . فكلاهما طلب المساعدة الاميركية لقمع التمرد ، وكلاهما يتعاون مع ماكلينتوك وهولووي . لكن رئيس الوزراء كان هدفا لابناء طائفته الذين احرقوا منزله فدمر بكل ما فيه .

بعد فترة قصيرة من وصولي الى بيروت ، دعاني رئيس الوزراء مع السفير وبعض الشخصيات الاميركية لتناول الغداء في مقره

الرسمي الذي هو عبارة عن بناء جميل من الطراز العربي . وكان رئيس الوزراء يذهبعادة الىمقرهبسيارة تتقدمها دراجات الحرس النارية . غير انه عندما خرج في ذلك الصباح كعادته ، لاحظ وجود سيارة متوقفة الى جانب الطريق، كانت تحتوي على ٥٠ كيلو من المتفجرات، ومحكمة بخيط يمتد على عرض الشارع .غير ان سيارة قادمة من وجهة السير المضادة ، مرت على الخيط ، ثواني قليلة قبل سيارة رئيس الوزراء ، فانسحقت بركابها الخمسة ، كما قتل الحرس . سلم سامي الصلح ، واصر على ان يجري الغداء في موعده ، وشارك في الحوار متصفا بهدوء عظيم .

كان لبنان في اوائل حزيران ، اي قبل شهر تقريبا من انزال القوات الاميركية ، قد احتج على تدخل مصر وسوريا في شؤونه الداخلية .وقد سمح مجلس الامن لامينه العام داغ همرشولد بارسال مراقبين الى بيروت للتحقق من دخول رجال واسلحة الى لبنان بشكل غير شرعي . كان غالو بلازا ، رئيس الاكوادور السابق يدير هذهالبعثة بمعاونة الهندي راجسفار دايال ، والماجور جنرال الفاروجي او دبول وموظفاميركي من الامم المتحدة دافيد أ. بليكنسناف . وقد اعلنت البعثة ، انها غير قادرة على تاكيد الاتهام اللبناني ، كما كانت تميل الى التقليل من اهمية النشاطات السرية التي تقوم بها مصر وسوريا . غير انهم اخبروني ، انهم لم يتمكنوا من العمل على المرتفعات الحدودية الا خلال النهار . فتبقى شبكة الطرق دون مراقبة ليلا . لقد استطاع رماة البحرية الاميركيون اقامة جهاز مراقبة على الخط الهاتفي الذي يصل العاصمة السورية بالبسطة في بيروت . فتبين لنا بشكل واضح ، ان متمردي البسطة مدعومون ومسيرون من الخارج . اثار انزال قواتنا الدهشة والقلق لدى مراقبي الامم المتحدة . اذ ربما عارض التدخل الاميركي مجهودهم الخاص لانهاء الحرب الاهلية (؟) استمر تهريب الاسلحة طيلة فترة الاضطرابات . وعلمت ان جميع العائلات اللبنانية تقتني السلاح بحكم العادة . يعود ذلك دون شك الى عصور الاحتلال الخارجي . فاللبناني لا يشعر بالارتياح الا اذا كان يملك سلاحا والافضلية للاسلحة النارية (المسدس او البندقية) . اكثرية الرجال يرغبون في اطلاق النار ، وهم ماهرون فيه . ويواكب رصاص الابتهاج جميع الاحتفالات العائلية . وقد كنت يوما ضيفا في حي بيروتي ، ولاحظت وجود اسلحة رشاشة في الزوايا الاربع لحديقة مضيفي .

قرر هنري ن. تايلور مراسل صحف سكوبس هاورد ، ان يقوم بدراسة لسوق الاسلحة في بيروت . كنت اعرف هذا الصحفي الشاب من واشنطن واقدره. اخبرني عن نتائج ابحاثه. اخذ سيارة اجرة ، وسأل السائق بكل بساطة اين يمكنه ان يشتري بندقية رشاشة . اخذه السائق الى حانوت صغير في قلب المدينة . عرض علينا هناك بائع بشوشجميع انواع البنادق الرشاشة، هل يريد هنري نوعا فرنسيا ، انكليزيا ، المانيا ، تشيكيا ، روسيا ، في أمكانه الحصول كذلك على نوع اميركي . طلب هنري سلاحا مصريا ، فاخرج البائع رشيشا مصريا مستعملا من داخل كيس من الخيش ، سأل هنري كيف يمكن التاكد من صلاحية السلاح : تجربه — اجاب بائع الموت المفاجيء — وقاد هنري الى سطح مجهز باكياس رمل حيث افرغت مخازن عدة . عندئذ اخذ متمردو البسطة المجاورة يطلقون النار بدون اهداف ، وقد خدعتهم طلقاتنا . بعد المساومة دفع هنري ٣٥ دولارا ثمن الرشاش المصري ، وعاد به الى الفندق بسيارة اجرة ليبرهن لزملائه سهولة الحصول على اسلحة في بيروت . بعد عامين لاقىهنري ن. تايلور الابن الوحيد لسفير اميركا في سويسرا ، حتفه وهو يقوم بتغطية اعلامية للقتال في كاتنغا .

في بيروت ، لم يكن التدخل الاميركي مرغوبا من الجميع ، فاذا لاقاه الرئيس شمعون بالترحاب ، فقد كان المتطرفون المسلمون معادين له بقوة . يشعر المرء في لبنان ، انه قريب جدا من الاصول المسيحية ، اما انا ، فرغم كوني كاثوليكيا ، فقد كنت لا اعرف شيئا عن المذاهب الكاثوليكية العديدة الموجودةفيهذا البلد،حيثحافظت الكثيرمن الشيع المسيحية على علاقات غير مستقرة غالبا مع الاسلام خلال العصور. اما التدخل العسكري الاميركي ، فكان يحظى على الغالب بتاييد المسيحيين ، علما بان بعضهم رفض اعلان ذلك

خوفا من تاثير المسلمين .

قمت بزيارة بولس المعوشي ، بطريرك انطاكيا الماروني ، في الصرح البطريركي المهيب ، حيث يوجد مقره وكنيسته . كان ذلك صبيحة احد ايام الاحاد . حضرت القداس الذي اقامه البطريرك حسب الطقس السرياني ، ثم استعرض الحالة العامة في البلد خلال تناولنا طعام الغداء ، وبرهن عن معرفة مدهشة في المسائل السياسية . عاش البطريرك اربعة عشر عاما من شبابه في الولايات المتحدة مع الجالية اللبنانية التي كانت ترسل مبالغ كبيرة من المال الى عائلاتها التي بقيت في الوطن ، والبطريرك معروف جيدا في الولايات المتحدة ، وتاثيره كبير في لبنان .

قدمت ايضا احتراماتي لمطران الروم الارثوذكس صليبي الذي اخبرني ان له ٤٠٠ نسيب في الولايات المتحدة ، كذلك لمطران الروم الكاثوليك نبعة ، وكلاهما حكيم يؤخذ بداته . لقد اطمأن بعض المسيحيين في لبنأن الى وصول القوات الاميركية ، واعتقدوا انها ستقضي على الحرب الاهلية الطائفية التي تهدد سلامة الجمهورية . غير ان بعضهم الاخر ، قدر انه كان على رماة البحرية الاميركيين ، السيطرة على المتمردين بسرعة اكبر في مناطق تواجدهم على الاقل . بالطبع ، لقد اراد بعض السياسيين استغلال وجود القوات الاميركية في سبيل مصالحهم الخاصة . وكثيرون كانوا يتهمون الرئيس شمعون بالقيام بذلك .

ثابرت على زيارة الرئيس شمعون مرة او مرتين في اليوم الواحد برفقة السفير الاميركي . كما اجريت محادثات يومية مع هولووي ، الذي كان التعامل معه لذيذا . لم تتعثر العلاقات بين الدبلوماسيين والعسكريين الاميركيين يوما . وقد ساهم هذا الى حد كبير في نجاح مهمتنا اللبنانية.

أظهرت لنا دراسة متانية قمنا بها على أرض المعركة ، ان الصراع يعود بنسبة كبيرة الى التنافس الشخصي وليست له اية علاقة بالخلافات الدولية . وأذا كان للشيوعيين اي امل بالاستفادة من اعمال الشغب ، فان دورهم المباشر في التمرد لم يكن له اهمية تذكر . لكن الواقع ليس كذلك بالنسبة للعملاء المصريين والسوريين . بعد محادثاتي مع شمعون ، ماكلينتوك ، هولووي وغيرهم من الشخصيات ، قدرت ان على المجلس النيابي انتخاب رئيس جديد للبلاد وفقا للدستور . واصررت على شمعون ورئيس المجلس ان يتخذا التدابير اللازمة في اسرع وقت ممكن . كنت آمل ، ان يهدىء هذا الحل النفوس ، ويسمح بانسحاب القوات الاميركية ، مع بقاء ممثلي الامم المتحدة بوصفهم مراقبين . وقد وافقت وزارة الخارجية الاميركية على هذا المخطط .

بدأت محادثاتي مع قادة المتمردين الاكثر نفوذا برفقة ماكلينتوك . كنت اريد ان اعرض عليهم موقف السياسة الاميركية واتاكد من تعاونهم . اخبرت شمعون بنيتي قبل الاتصال بهم . وكان واضحا ان مقابلتي مع اخصامه لا تعجبه ، لكنه لم يبد أي اعتراض . وقد ازالت هذه الاتصالات القدر الاكبر من سوء التفاهم حول النوايا الاميركية . وساهمت في آخر المطاف في تسوية الحرب الاهلية سلميا .

أردت في بادىء الامر مقابلة صائب سلام ، رئيس الوزراء السابق ، الذي يقود مجموعة من المسلمين الذين يسيطرون على البسطة ، وكان يقال انه بالغ السخط على التدخل الاميركي. وقد اقسم انه لن تجري انتخابات رئاسية قبل رحيل قواتنا . حاولت الحصول على حراسة من اللواء شهاب . لكن لم يكن من الممكن اقناعه بهذا ، طالما الامر يتعلق بالبسطة . لذلك سررت جدا حين التقيت في بيروت ، بصديقي القديم الكولونيل وليم أ. ادي الذي كان يشغل منصب مستشار فني لدى شركة النفط العربية الاميركية. كان ادي ملحقنا البحري الجدية في طنجة عام ١٩٤٢ حين كنت اهيىء للانزال الاميركي في افريقيا الشمالية . بادر هذا الضابط المتقاعد في البحرية واستاذ اللغة الانكليزية السابق في وارتموث ، والذي يتحدر من عائلة مبشرين ومستعربين ، الى تنظيم لقاء سري خارج بيروت مع اثنين من رجال صائب سلام . كان هذان الرجلان ، يعتقدان ان القوات الاميركية لم تات الى لبنان ، الا في سبيل ابقاء شمعون رئيسا .

واخذا يتلوان فيه لائحة من التهم . واعلنا انهما يفضلان عبد الناصر على شمعون ، كما اكدا ان مصر لا مطامع لها في لبنان ، كما نفيا المساعدة السورية ، غير ان نفيهما لم يكن مقنعا . وبعد ساعات من النقاش ، بدا ان مبعوثي سلام فهما ان الولايات المتحدة لا تسعى الا الى حماية استقلال لبنان . وخلصا الى القول ، انهما لا يحملان تجاهنا اي شعور غير ودي ، عندها اغتنمت الفرصة للحديث حول امن القوات الاميركية . واوضحت لهما ان الواجب الاول للقائد العسكري هو حماية رجاله . وبينت لهما ، ان النيران تطلق ليليا عن قصد او دون قصد على رماة البحرية ، وانه لاعجوبة ان لا يقتل احد منا . اضفت ، انه طالما لم نتكبد اية خسائر خلال عملية الانزال ، مفسرا هذا بالنية الحسنة عند جميع الاطراف ، التي اقدرها . وافق المتمردان المسلمان دون ان تتغير ملامحهما البريئة . عندها تابعت كلامي ، فوصفت العتاد الذي كان في حوزة الاميرال هولووي ، وقوته التي تكفي لتدمير بيروت تدميرا كاملا خلال بضع دقائق . ثم كررت عليهما بان واجب الاميرال هولووي وهو الرجل الحسن النية هو الحفاظ اولا على امن قواته . الا يمكن لصائب سلام او لمؤيديه ان يكفوا عن اطلاق النار العشوائي الذي يمكنه ان يؤدي في اية لحظة الى رد قوي ؟ كان لكلامي اثر واضح . توقف التراشق في اليوم التالي ، ما عدا بعض الرشاشات الخاطفة ، واصبحت الحياة في بيروت اكثر هدوءا . كنت دائم الامتنان لبيل ادي ، الذي سهل هذا اللقاء ، الذي يشكل منعطفا في السياسة اللبنانية ، بعد بضعة ايام تمكنت من لقاء صائب سلام في البسطة .

اما الاتصالات التي اجريتها فيما بعد مع قائد اخر من قادة التمرد ، القائد الدرزي كمال جنبلاط ، فقد ارغمتني على سفر غريب في جبال الشوف حتى قلعته في سبلين . وقد اعد احد النواب ، وهو نائب رئيس الحزب التقدمي ، هذا اللقاء . لم يكن تسلق هذه الطرق الضيقة الوعرة سهلا ، لكن رؤية مسلمين ملتحين مختفين على طول الطريق زادني قلقا . وعلى الرغم من ذلك فقد كان الاستقبال وديا . كان جنبلاط صديقا حميما للرئيس شمعون ، قبل ان يهزم جنبلاط في الانتخابات النيابية الاخيرة ، واتهم شمعون انه كان سببا في ذلك ، كما ادعى ان المال الاميركي هو الذي مول الحملة التي جرت ضده . كانت افكار جنبلاط السياسية مبهمة . وقد تناوب افراد عائلته على مقاعد المجلس النيابي خلال اربعة اجيال ، لذا كان لهزيمته اثر كبير على نفوذ عشيرته . وبدا لي ان ابعاد جنبلاط كان خطأ سياسيا ، الى جانب اخطاء اخرى تأكدت منها قبلا ، تبرهن عن تمسك شمعون بولايته على حساب اصدقائه ومنافسيه معا .

بقي علينا بعد ذلك ان نلتقي شخصية اسلامية اخرى : رشيد كرامي ، الذي كان مختبئا على الشاطىء قرب طرابلس . تمكنت برفقة ماكلينتوك من عبور مناطق المتمردين لزيارته وذلك بفضل مساعدة اللواء شهاب . عندما يكون القائد خارجا على القانون ، وفي خطر مستمر ، لا يمكنه التفكير بشكل طبيعي ، وغالبا ما تكون معلوماته مشوهة . كان كرامي يعتقد ان ناصر لا يهدد استقلال لبنان ، بل الولايات المتحدة هي التي تريد ابقاء شمعون في سدة الحكم . لكن كرامي لا يكن اية مشاعر عدائية ضد الولايات المتحدة . وعندما اصبح رئيسا لمجلس الوزراء فيما بعد ، كنت مسرورا برؤيته في واشنطن .

كان يتردد احيانا اسم ريمون اده نائب جبيل المحبوب ، بين المرشحين المؤهلين لخلافة الرئيس شمعون . دعاني يوما الى زيارة مقاطعته الانتخابية التي تمتد حول المرفأ التجاري الفينيقي القديم . اطلعني مدير متحف جبيل ، بين ذخائر الماضي الساحرة على الابجدية الفينيقية الاولى المنحوتة على الحجر . أما مشاهدة الجرار الماتمية المدفونة قبل سبعة الاف سنة فجعلتنا ننظر الى العصيان الحالي بصفاء . بعد أن تحاورنا مع الشخصيات المحلية وتناولنا طعام غداء فخم ، قمنا بزيارة قريتين عربيتين حيث استقبل اده بزخات الرصاص التقليدية وبكثير من المدح وفناجين القهوة . كان اده يعرف ناخبيه جيدا ، وهم يضمرون له بدورهم محبة جلية . ثم اتجهنا نحو نهر ادونيس ، المركز الديني منذ الاف السنين ، حيث كانت تاتي السيدات

الرومانيات الوثنيات للصلاة والحصول على البركات الالهية ، وخاصة الاخصاب . يتدفق النهر من فوهة في الجبل قرب مغارة ، من حيث ظهر فجاة مقاتل مسلح ببندقية وجعبتين طويلتين معلقتين على كتفيه . كانت تتقدم سياراتنا دراجتان ناريتان تابعتان للجيش ، ولا بد ان الزي الرسمي لم يعجب المقاتل . بدا اده يتحادث مع هذا الجبلي الكثير الشكوك ، لكن رفاقه الذين كانوا يراقبوننا ، ظنوا بان صاحبهم سيعتقل ، فاخذوا يطلقون النار . عندها بدأت مجموعة الدبلوماسيين الاميركيين ، بما فيهم السفير الاميركي ، تتراكض ، متناسية كل اعتبارات الوقار ، نحو السيارات التي انحدرت بسرعة مميتة . عندما استعاد اده انفاسه ورباطة جاشه ، اوضح لنا ، انه لم يكن لدى هؤلاء المحاربين اية نية في قتلنا . فهم رماة مهرة ولو ارادوا قتلنا لنعلوا . فهمت حينها ان على اده ان يتمتع بصحة جيدة كي يستطيع تمثيل هذه الدائرة في مجلس النواب ، ومع ذلك لم يخلف اده شمعون في رئاسة الجمهورية .

لم تكن عملية جمع المجلس النيابي سهلة . لان عددا كبيرا من النواب كانوا مختبئين بعد دخولهم صفوف العصيان . كما ان شمعون كان لا يزال يخفي نواياه . فقد كان لا يزال مصرا على ترشيح نفسه لولاية ثانية ، ولم يكف عن اسقاط شهاب من اعتبار المعركة ، والتعبير عن شكوكه حول اخلاصه ، او حول قدرته على اخماد الفتنة ، وذلك خلال النقاشات العديدة التي اجريتها معه . اخيرا ، ورغم كل شيء ، اصبح الاجتماع النيابي ممكنا ، وانتهى شمعون الى القول انه لم يحاول خلافة نفسه ، واعترف لي بان اللواء شهاب هو المرشح الوحيد المقبول رغم كل سيئاته . كنا قد تجاوزنا الاسوا . هنأت الرئيس وودعته . كنت اعتبر شمعون صديقا للولايات المتحدة ، لكنني لم افهم مخططاته تماما . كان ضحية افراطه وكيده . وخلص الى خسارة جميع فرصه في السياسة اللبنانية المبلبلة .

في ٣١ تموز ، انتخب المجلس النيابي اللبناني ، اللواء فؤاد شهاب رئيسا للجمهورية في دورة الاقتراع الثانية بثمانية واربعين صوتا ، مقابل سبعة اصوات نالها ريمون اده ووجدت ورقة بيضاء . قبل الانتخاب ، استمعت الى عدد كبير من اللبنانيين يتكلمون باحتقار عن شهاب معتبرينه ضعيفا وحتى جبانا . لكن هذا الجو تغير تماما بعد الانتخاب ، فتفاءلت بامكانية المصالحة الوطنية . كان تقديري لشهاب قد ازداد خلال هذه الاسابيع الصعبة . كان مخلصا للجيش ، وانا متاكد من انه لم يكن يسعى للرئاسة ، رغم ان الطموح السياسي ينمو عند بعض الافراد بسرعة . كان شهاب يتمتع برشد كبير ، وقبل ترئيسه كمساومة لا بد منها لاعادة السلم الاهلي الى لبنان، افهمت وزارة الخارجية الاميركية ، انه علي مغادرة الاراضي اللبنانية عشية انتخابات الرئاسة حتى لا يتهم الاميركيون في التدخل بالعمليات الانتخابية . فجهزوا لي خطة لزيارة بلدان اخرى في الشرق الاوسط ، بعد ايام قليلة من الانتخابات تسنى لي المرور ببيروت فترة وجيزة ، حيث علمت ان كل شيء سار على ما يرام دون فتن او بلبلة ، رغم التنبؤات المشؤومة . كان شهاب قد وزع جنوده بشكل يتجنب فيه محاولات العنف خلال الانتخابات . انتهت الحرب الاهلية . اعتبر ماكلينتوك وهولووي اننا قمنا نحن الثلاثة بعمل جيد يستحق بعض التهاني .

في اليوم التالي لنزول رماة البحرية في بيروت ، جالت طائراتنا النفاثة في سماء لبنان ورمت الاف البيانات التي تحمل صور الرئيس ايزنهاور ، وتشير الى ان القوات الاميركية جاءت الى لبنان بناء على طلب الرئيس شمعون ، وذلك لحماية استقلال البلاد ، وانها مستعدة للانسحاب حين يتاكد استقلالها . غير ان شهاب لم يكن على عجلة من امره في ترحيل القوات . كانت زخات الرصاص تطلق بين الحين والاخر ، وبدا شهاب حريصا على العمل بشكل عام بناء على نصائحنا. كان للولايات المتحدة حوالي اربعة عشر الف رجل في لبنان نهار ١٣ اب حين غادرته فرقة عسكرية، لاظهار نيتنا في الانسحاب . في نفس الوقت ، كان برنامج المساعدة الاميركية قد بدا يعمل : التجهيزات والمؤن بدات في الوصول . وثبت للبنانيين اننا لا نتمسك بابقاء قواتنا في بلدهم .

اما سلوك رجالنا فقد كان مثاليا . من ناحية اخرى لم نسجل الا خسارة واحدة ، رقيب قتل برصاصة قناص . عادت فرقتان في ١٤ ايلول . وفي ٢٩ منه غادر اخر رماة البحرية الاراضي اللبنانية ، تاركين وراءهم ٧ الاف جندي من المشاة . اما المظليون فقد غادروا في ٤ تشرين الاول . واستمر هذا الانسحاب التدريجي الى ان انتهى في ٢٥ تشرين الاول . قدرت تكاليف هذه العملية التي دامت مئتي يوم بمئتي مليون دولار . والحديث على الناحية المالية يذكرني بمداعبة السفير التركي سفدت دولجر عندما اعلن عن رضاه التام عن المبادرة الاميركية ، لكنه لاحظ ان الكلفة كان يمكن ان تكون اقل لو قامت الولايات المتحدة برشوة جميع اللبنانيين .

في ذلك الوقت ، ومن اجل تسهيل عملياتنا ، انحصر التدخل بالاميركيين ، رغم أن الانكليز كانوا قد انزلوا ٢٥٠٠ مظلي في المملكة الهاشمية المجاورة في الاردن ، كما ايدنا الاسطول البريطاني في المتوسط ، ووضع قواعده في قبرص تحت تصرفنا . اما الولايات المتحدة ، فكانت تمد القوات البريطانية الموجودة في الاردن ، عن طريق الجو ، بالتجهيزات اللازمة من مواد غذائية وعتاد . كما ابقينا على الاتصالات الوطيدة مع حلفائنا الفرنسيين ، واعين لحقيقة نفوذ فرنسة في الشرق الاوسط . وكان السفيران البريطاني ميولتون والفرنسي روش ، يتمتعان بمعرفة عميقة باحوال البلد ، ولم نكن نتمنى استقبالا افضل من الذي قدماه لنا . وقد بعثت الحكومة الفرنسية بالسفينة « دوغراس » لاظهار تضامنها . لكن الاميركيين ، مع تقديرهم لهذه الخطوة راوا ان الظروف غير مناسبة لهذه الخطوة . اذ ان وجود الفرنسيين يهدد باثارة غضب المسلمين المؤيدين للانتفاضة الجزائرية . وقد توصل السفير روش بلطف كبير الى الاتفاق مع الاميرال جوزان على ترحيل السفينة «دوغراس» قبل ان تعلم اذاعة دمشق بوجودها.

لقد احدث التدخل الاميركي في لبنان اشاعات مجنونة في الشرق الاوسط باسره . واعتبرت وزارة الخارجية انه من الضروري تطمين بعض رؤساء الدول المجاورة . فتلقيت تعليمات بضرورة القيام بجولة دبلوماسية قبل الرجوع الى واشنطن . وكان من ضمن اهداف هذه الجولة اقناع الرؤساء ، بأن تدخلنا سيؤدي الى الاستقرار في الشرق الاوسط . كما اوكلت الي مهمة دراسة مشاكل اخرى ، والتاكد من ازدياد نفوذنا بشكل ملحوظ في هذا الجزء من العالم .

بعد انتهاء مهمتي في لبنان ، قمت بزيارة الاردن ، اسرائيل والعراق . اعلمني سفير مصر قبل مغادرتي بيروت ، ان الجمهورية العربية المتحدة ستكون سعيدة باستقبالي في القاهرة كي اقابل الرئيس عبد الناصر . وصول رماة البحرية الاميركيين كان قد فاجا ناصر ، الذي كان يعتقد حتى الان ان الولايات المتحدة غير قادرة على تقديم اية مساعدة عسكرية لبلد صديق بمبادرتها الخاصة ، وانها لا تستطيع سوى الخطابة في الامم المتحدة . عندما جرى انزال القوات الاميركية ، كان ناصر مع الماريشال تيتو في يوغوسلافيا . فاستقل الطائرة فورا الى موسكو ، وذلك في سبيل حث الروس على الرد. واظن انه غير رأيه حول التأييد والحماية الروسيتين حين رأى ان آماله لم تتحقق. فنجاحنا في مظاهرة القوة هذه ، التي نجحت بمهارة ودون خسائر ، كان له مفعول ايجابي على ناصر، بوصفه عسكريا محترفا .

في مطار القاهرة ، استقبلني ريمون ا. هير سفير الولايات المتحدة ، ومجموعة من الصحفيين المصرين المتوتري الاعصاب الذين طرحوا اسئلة بالغة الاحراج . كان هير زميلا قديما في السلك الدبلوماسي . اخذني بالسيارة الى مقر السفارة الاميركية حيث زارني احد معاوني ناصر ، في سبيل تحديد برنامج محادثاتنا خلال المقابلة التي عين موعدها في الحادية عشرة من صباح اليوم التالي . ثم اتصل بي هذا الموظف الكبير هاتفيا، ليؤكد لي ان برنامج المحادثات قد قبل . غير انه اتصل بي في السابعة من صبيحة اليوم التالي ، ليخبرني انه خارج لتوه من مقابلة عاصفة مع الرئيس عبد الناصر ، وانه يريد ان يراني فورا. كان ناصر يستفيق عادة متاخرا في الصباح . غير انه استفاق هذا اليوم باكرا ، ليقرا تقريرا من نيويورك حول الخطاب الذي القاه هنري كابوت لودج رئيس الوفد الاميركي في الامم المتحدة ،

امام مجلس الامن ، حول تدخل الجمهورية العربية المتحدة في شؤون لبنان الداخلية . كان ناصر بالغ الغضب . اذا كان الموقف الاميركي هكذا ، فلماذا التكلم مع مورفي . شرحنا له ، هير وانا ان خطاب لودج كان مقررا في سياق التحرك في الامم المتحدة . ومن سوء الحظ انه طابق يوم مقابلتي مع ناصر . بعد قليل دعي السفير الاميركي وحده الى مقابلة وزير الدولة علي صبري ، الذي ردد الكلام نفسه . اجاب هير بأن زيارتي للقاهرة جاءت بناء على دعوة المصريين انفسهم . وانني ساغادر القاهرة على كل حال صبيحة اليوم التالي . انتظرنا حتى السادسة مساء ، وبما انه لم يات اي خبر جديد من ناصر ، اتصلت هاتفيا بمساعد وزير الخارجية راونتري في واشنطن ، وتعمدت ان ابدأ كلامي بهذه الكلمات : « تحدث هنا حالة مضحكة » . هنا ، قطعت مصلحة المراقبة المخابرة ، وكان اعادة الاتصال مستحيلا . راهنت هير ، على اننا سنتلقى اتصالا من ناصر خلال اقل من ساعة . غير انني خسرت الرهان، فقد انتظرنا ساعة ونصف ، الى ان دعانا ناصر للمجيء الى مقره في التاسعة مساء . استقبلنا مع اثنين من وزرائه الرئيسيين دون مراسيم . وكانت محادثات ودية دامت حتى الثانية صباحا، كان ناصر خلالها هو المتكلم في اغلب الاوقات ، ادهشتني قابلية ناصر على الحديث، فتذكرت راي كالفن كولدج : « لا يضرني الذي لا اقوله ».كان ناصر يعرض نفسه لاخطار عديدة وهو ينشر كلامه . كان ناصر مهتما بشكل رئيسي بالتدخل الاميركي في لبنان . ويبدو ، انه قبل تأكيداتي بان لا هدف للتدخل الاميركي سوى المحافظة على استقلال لبنان. كان مقتنعا ، ولو بشكل جزئي ، بان هذا التدخل العسكري سينحصر في لبنان . واشتكى من عدوانية الرئيس شمعون تجاه الحكومة المصرية ، لكن انتخاب شهاب كان يلائمه . واكد بكثير من الكلام احترامه لاستقلال لبنان ، طالما توقفت حملة شمعون العدوانية . وانتهى ناصر الى القول ، انه سيكون سعيدا باقامة علاقات صداقة مع العهد الشهابي .

تمكنت اخيرا من تغيير موضوع النقاش ، وسألته بعض الاسئلة المتعلقة بالمملكة الاردنية، البلد الاول الذي زرته بعد مغادرتي لبيروت . كان من حق الملك الشاب (٢٤ سنة) ان يخاف على استقلال بلده وحتى على حياته . عندما زرت العاهل الاردني في قصره في عمان ، برفقة المسؤول عن الشؤون الاميركية هناك توماس ك. رايت . اشتكى حسين بحدة من عداوة ناصر له ، والمؤامرات التي تديرها القاهرة ، ومحاولات ابعاد الجيش الاردني عن واجباته . ضحك ناصر عندما ذكرت له الاشاعات التي تقول انه سيغزو الاردن أو يسقط حسين . وقال انه لا يفكر ابدا بزيادة همومه التي تكفيه بشكل كامل . فشكوك حسين لا اساس لها ، ومن الصواب تطمين هذا الشاب . فناصر ، لم يكن يرى اي حل لمشاكل الاردن طالما بقي هذا البلد دون امكانيات لتثبيت استقلاله ومع ذلك ، فقد اكد انه لا يضمر أي ضرر لحسين ، بل هو على العكس من ذلك ، معجب بشجاعته . كان موقف حسين الضعيف وشجاعته الواسعة قد لفتا نظري انا ايضا ، خلال المقابلة التي اجريتها معه في مكتبه في القصر . كان يجلس تحت صورة كبيرة لجده الذي قتل عندما كان حسين في الرابعة عشره من عمرة . كان الشاب قرب جده عندما اعتدي عليهما ، ورصاص القتلة كسر احد ازرار بذلته . اما الان فمملكته الصغيرة محاطة بالثوار في العراق ومنافسيه العرب في سوريا ويهود اسرائيل ، وليس بامكانه ان يثق بأحد منهم . «٢٥٠٠» جندي بريطاني يعسكرون في ضواحي العاصمة ، وليس للاردن غير طريق ضيقة ، وحيدة للتموين تمر عبر ارض وعرة حتى خليج العقبة . كما ان وجود نصف مليون لاجيء عربي ، يشكلون عبئا لا يطاق على شعب فقير ، فخزائن الدولة فارغة عمليا . ورفض حسين التنازل عن العرش ، رغم سيف ديموقليطس المرفوع فوق رأسه . عندما اخبرت ناصر بان حسين يثق بشكل عام بجيشه ضحك ناصر من جديد وقال : « قلبت ملك مصر بعد خمس سنوات من المؤامرات ، لم تثر شكوك احد . كيف يمكن لحسين ان يكون واثقا بجيشه انت تعرف ماذا جرى في الشهر الماضي لابن عمه الملك فيصل في العراق »

ما جرى في العراق ، كنت اعرفه ، طالما انا قادم من بغداد ، حيث اغتيل الملك فيصل ورئيس

وزارته وولي العهد ، وغيرهم من افراد العائلة المالكة . وخلال مقابلتي لحسين ابدى الملك الشاب آماله في عدم اعتراف الدول الغربية الكبرى بقتلة اقربائه . لكنني كنت اعلم ان الولايات المتحدة ستعترف بالنظام العراقي الجديد في اليوم التالي . اما روسيا السوفياتية فقد بادرت على الفور الى اقامة علاقات دبلوماسية مع الحكومة الثورية ، كما كانت الولايات المتحدة معنية ، بمراقبة الحالةعن كثب. لم يظهر السفير الامريكي في بغداد ، فالديمار ج. غالمان اي حماس عند اعلان زيارتي للعراق ، بعد هذه الفترة القصيرة على الانقلاب لقد كانت مخاوف صديقي في محلها . فما ان ظهرت طائرة ا ل ت٤٩ ، التي وضعها الطيران الحربي تحت تصرفنا ، حتى امرتها قاعدة حربية عراقية بالعودة ومغادرة الاجواء العراقية . اجاب قائد الطائرة ، بان بغداد سمحت لنا بالمرور . لم نتلق اي جواب . تابعنا طريقنا ، وصلنا المطار حيث الجو رطب والحرارة تصل الى حوالي ٤٦ درجة . استقبلنا السفير الامريكي البشوش وبعض مساعديه وممثلون عن الحكومة العراقية الجديدة . اخبرني غالمان ، ونحن نعبر الشوارع الخالية الا من دوريات عديدة نحو « البيت الابيض » السفير الذي هو مقر سفارتنا في بغداد ، بالاحوال التي حصلت في المدينة منذ فترة وجيزة .

اما الرجل الذي قاد الثورة عبد الكريم قاسم فاصبح رئيسا للوزراء . اتخذ السفير غالمان التدابير اللازمة لنقوم بزيارته في وزارة الدفاع ، حيث كان يعمل ويقيم في الغرفة التي يشغلها منذ اندلاع الثورة . كانت جحافل حرس الوزارة عصبية ، اكثر مما هي يقظة . وقاسم يحمل مسدسا رشاشا . قاسم ، هو رجل قصير القامة ، حذر قليل التجاوز ، وهذا ما جعل نقاش القضايا التي تهمنا شبه مستحيل ، لولا تدخل وزير خارجيته عبد الجبار جومرد : اشقر ، عيناه زرقاوان ، وهو من مواليد الموصل قيل لي ان جومرد لم يشترك في المؤامرة على الملك فيصل ، لكنه علم فجأة ، عن طريق الاذاعة ، انه عين وزيرا . اخبرني قاسم انه كان يفكر بالثورة منذ سنوات عديدة . وقد دبر مؤامرته بسرية تامة بالاشتراك مع حوالي مئة من زملائه الضباط . وجاء انتقال بعض الوحدات العسكرية بمثابة فرصة انتهزها في تموز حين تمكن المتآمرون من تنفيذ خطتهم بسرعة ، فكانت المفاجأة كاملة . برر رئيس الوزراء انقلابه ، بان الطرق اللاشرعية هي الوحيدة ، التي تسمح لشعب العراق المسكين بالتخلص من ملكية فاسدة . واكد قاسم على الطابع الداخلي للثورة التي جرت لاسباب وطنية اكثر مما هي ايديولوجية . ولم يبد اي اسف للوحشية التي تمت فيها الثورة . قلت لقاسم ، انني اتيت الى بغداد ، كي تفهم حكومتي سياسته بشكل افضل ، كما لفت نظره الى سرعة اعتراف الولايات المتحدة بالحكومة العراقية الجديدة . فهل صحيح ما قيل لي ، ان التدخل العسكري الامريكي في لبنان المجاور يثير الشكوك في صفوف القادة العراقيين . اجابني قاسم بالايجاب ، وابدى شكه في اقتصار الامريكيين على لبنان . كان متاكدا من ان تدخلنا في لبنان ، ليس سوى مقدمة لاجتياح بلده، وكان مصمما على المجابهة. اجبته ، بانني رايت من الطائرة جزءا كبيرا من العراق ، فهذه المساحة الشاسعة من الاراضي الصحراوية ليس لها اية جاذبية من الناحية العسكرية . وذكرت قاسم بان رئيس الولايات المتحدة يتمتع بتاريخ عسكري طويل وحافل، وابديت ملاحظتي لقاسم ، بانه هو ا[illegible] عسكري . فهل يمكنه ان يشير الى سب[illegible] يمكنه ان يدفع ايزنهاور الى اجتياح بلد فقير مثل العراق . لفظت عبارتي وانا ابتسم ، ولكن دون اي استهزاء .. وبعد لحظة ، ابتسم قاسم هو ايضا . ويبدو ان عبارتي اثرت عليه . فابدى ارادة في اقامة علاقات صداقة مع الولايات المتحدة وباقي الدول الغربية . غير ان وصول بعثة سوفياتية هامة الى بغداد ، تعمل بعلاقة وثيقة مع حزب شيوعي محلي ، كان يقلق الغرب اشرت لقاسم بهذا ، وراجعت مصير بعض البلدان التي بدات بقبول المساعدة السوفياتية ، وانتهت الى فقدان استقلالها . عندها ، شرح لي قاسم ، باسلوبه العسكري البسيط ،افكاره حول الاصلاحات الاجتماعية والاقتصادية الضرورية لبلده . وأكد لي ، انه لم يفجر ثورته كي يقدم العراق هدية للاتحاد السوف

أو لمصر . بدا قاسم ، وكأنه بهلوان متوازن على خيط ممدود بين موسكو والقاهرة . اعلن ان حكومته تنوي تأييد سياسة الجمهورية العربية المتحدة ، لكنها ستحترم التزاماتها الدولية ، كما انه كان يخطط لزيادة صادراته النفطية الى الغرب بنسبة ٥٠ ٪ . وعندما علم ان عملاء مصريين بدأوا يتغلغلون في العراق ، اعلم ناصر كما قال لي بهدوء تام ، ان انابيب النفط العراقية يجب ان تعمل كالمعتاد . لم اشك لحظة ، في ان قاسم سيتخذ موقفا صلبا ، دفاعا عن استقلال العراق . لكن بعد اقل من خمس سنوات ، اغتيل على يد مجموعة من رفاق السلاح الذين يتزعمهم الكولونيل عبد السلام عارف ، المغالي في اعجابه بناصر .

خلال الساعات الخمس ، التي قابلته فيها ، شرح لي ناصر اوضاع الجمهورية العربية المتحدة ، وشرح لي ضرورة الوحدة العربية ، من اجل امن بلد صغير وضعيف مثل مصر ، لكنه لم يشر الى تصوراته حول العراق . افاض في الحديث عن اسرائيل التي زرتها كذلك قبل زيارتي لمصر . ليس هناك مشكلة دبلوماسية اكثر صعوبة من الخلاف العربي — الاسرائيلي التي يمكن للوقت وحده ان يأتيها بحل وحتى الان لا يوجد احد ، له مرونة كافية تمكن من ايجاد شكل وساطة . غير ان وزارة الخارجية الامريكية ، كان لها الفضل على الاقل ، في محاولة ذلك بصبر منذ سنوات . كانت علاقتنا مع ناصر مغلوطة بشكل اكيد ، بسبب ايمانه الذي عبر عنه مرارا ، بان الولايات المتحدة ستقف دائما الى جانب اسرائيل مهما حصل . الموقف الامريكي خلال ازمة السويس جعله يشك بذلك قليلا دون ان يقتنع بعكسه . عندما اثرت هذه النقطة ، هز ناصر كتفيه ليفهمني استحالة اي حل . لكنه امتنع عن الادلاء باي تصريح استفزازي ضد جيرانه اليهود . لا بد وان تقدم الاسرائيليين بسرعة البرق في سيناء ، اعطت لناصر وضباطه نظرة اكثر موضوعية للامور .

كنت قد وصلت القدس على الاوتوستراد الممتاز الذي شيد بفضل المساعدة الامريكية . في المدينة المقدسة ، تبين لي ، كم هي الاماكن المقدسة للاديان الكبيرة : المسيحية ، اليهودية والاسلامية ، قريبة من بعضها ، لاحظت الاسلاك الشائكة التي تفصل اسرائيل عن الاردن . في الناحية الاردنية استقبلني الحاكم بلطف كذلك استقبلني اصدقائي في وزارة الخارجية الاسرائيلية على بوابة مندلبوم . اغتنمت الفرصة لزيارة الجامع العمري الكبير وحائط المبكى ، كما قضيت وقتا ممتعا مع مجموعة من الرهبان الارثوذكس . بعدها استقليت السيارة الى تل أبيب لاجراء محادثات مع رئيس الوزراء دافيد بن غوريون . كان متحمسا لمشروع تعاون يسعى له بين اسرائيل وكل من تركيا وايران والحبشة والسودان . وصرح بان اسرائيل ستضطر الى احتلال الضفة الغربية لنهر الاردن دون الاهتمام بالاشكالات الدولية ، فيما اذا استولى ناصر على المملكة الهاشمية ، عبر التخريب أو اية طريقة اخرى . كان بن غوريون ، يأمل في تفهم ناصر لنوايا اسرائيل وامكانياتها الاجرائية . فكرت بحزن ، في وضع الملك الشاب ، وبفشل الجهود الامريكية في سبيل ايجاد حل عربي اسرائيلي .

اتاحت لي هذه السهرة الطويلة التي امضيتها مع ناصر ، الفرصة لتفسير السياسة الامريكية ورغبة الرئيس ايزنهاور ووزير الخارجية دالس، في مشاركة الدول الحرة من اجل ايجاد حل لمشاكل الشرق الاوسط الاساسية . غير ان ناصر ادعى ان الولايات المتحدة لعبت مع مصر لعبة القط والفار . قال ان دالس كان فظا فيما يختص بمشروع اسوان ، وان الاتحاد السوفياتي ابدى تفهما اكبر ، وانه يحفظ جميله . عندها ، ذكرته بالمساعدة الكبيرة التي قدمتها الولايات المتحدة لمصر ، وبموقفنا من قضية السويس . ابديت أملا ، في تحسن العلاقات بين مصر وحليفنا الانكليزي ، هنا قاطعني ناصر ، مشفقا على مصير بلده خلال ثلاثة قرون من النير التركي و٧٥ عاما من السيطرة الانكليزية .

ادهشتني حساسية ناصر من انتقادات الصحافة الامريكية . كان يوجد في صالونه مجموعة من الصحف والمجلات الامريكية . اراني بعض المقالات بغضب ، يبدو انه كان يستلذ العثور على اقوال يعتبرها مغلوطة في حقه . شرحت له

ان جميع السياسيين الامريكيين اعتادوا على هذا التصرف . قال لي احد اعضاء الكونغرس يوما ان على رجل الدولة ان يقلق في نقطة واحدة ، هي سكوت الصحافة عنه . فضحك ناصر ،ولكن دون جدل . وانتهى اللقاء في جـو ودي . كان انطباعي بان تدخلنا في لبنان ، اوحى لناصـــر باحترام الولايات المتحدة . اما وطنيته واخلاصه للقضية العربية فلا شك فيهما . امله بتحسين اوضاع ملايين المصريين الفقراء ، يبدو اهـــلا للتفهم غير انني تركته بشـعور من القلـــق ، فالضغوط التي يتعرض لها ، يمكن ان تؤدي به الى اعمال غير منتظرة وتعسفية .

من القاهرة استقليت الطائرة الى اديس ابابا لان الامبراطور هيلاسيلاسي كان قد طلب مـــن وزارة الخارجية ، ارسال احد كبار الموظـفين للتداول في شؤون عاجلة . وبما انني كنت هنـــا فقد امرتني وزارتي بزيارة الامبراطور قبل عودتي. كان السفير الامريكي ينتظرني في المطار .وكالعادة كان زميلا قديما في السلك الدبلوماسي . السفير دون س. بلس. ورافقنيحتى القصرحيث وجدت الامبراطور جالسا مع كلبه الصغير امام موقده كبيرة تشتعل بالاخشاب . كان الطقس منعشـــا على ارتفاع اكثر من الفي متر . وانزعجت قليلا من التغير المفاجيء في الطقس . المواضيـــع الثلاثة التي اراد هيلاسيلاسي بحثها معي كانت تتناول التدخل الامريكي في لبنان ، وسقـــوط الملكية في العراق ، ونوايا ناصر ضد الحبشة . رحب الامبراطور بتدخلنا في لبنان ، وابدى تاييده لمفعول التدخل في تثبيت الاوضاع في هذه المنطقة من العالم.كان شديد الخوف نتيجة مقتل العائلة المالكة في العراق . وعبر عن قلقه من الاعـــلام المتزايد الذي توجهه اذاعة القاهرة، نحو الاقلية الاسلامية في الحبشة ، والذي يعتقده مقدمـــة لتدخل مصري في شؤون مملكته . كما كان يخشى طموحات الروس الذين يديرون مستشفى فـــي اديس ابابا . ويهمه البقاء حذرا في مواجهـــة اي تدخل شيوعي . كان هيلاسلاسي رجلا ذكيا ووقورا ، ويحمل احساسا حادا بمسؤوليته . كان يتمنى تفهم الاميركيين لمخاوفه.كانت الولايات المتحدة تتعاون مع الحبشة في الكثير من المجالات وحاولت جهدي اقـــناع الامبراطور بعاطفتنـــا الفعالة .

بعدها ، وبناء على تعليمات وزارة الخارجية ، استقليت الطائرة الى اليونان ، بعد ان توقفت في مستعمرة عدن البريطانية ، وفي جزيرة رودس اعلمت في عدن عـــن غـــزوات يشنها رجال البدو اليمنيون . وفي رودس زرت السفينة حيث تجهيزات اذاعة صوت اميركا . عند وصولي الى اثينا ، حيث كان صديقي جيمس ريدلبرغر يعمل سفيرا هناك ، وهو كذلك عضـــو قديـــم فـــي مجموعتي في برلين بعد الحرب ، علمت اننـــي اضعت فرصة اللقاء برئيس الوزراء الانكليـــزي هارولد ماكميلان ، الذي غادر في المساء الـــذي سبق وصولي ، بعد ان اجرى محادثات مـــع الحكومـــة اليونانيـــة في سبيـــل ايجـــاد حـــل للمشكلـــة القبرصيـــة . دعـــانا رئيس الوزراء قسطنطين كرمنلس ريدلبرغر وانا الى بيته القروي يرافقه وزير خارجيته . كنـــت شغوفا بمعرفة آرائهم حول المسالة القبرصية لكنهم كان قد اشبعوا هذا الموضوع . وطلبوا مني ان اتكلم مرة اخرى عن التدخل الاميركي في لبنان وحول الموقف المتردي في الاردن ، وحول علاقات مصر مع الغرب . كان لليونان مصالح في مصر ، كما لم يكن رئيس الوزراء يائسا من ناصر . كان يرحب بالتدخل في لبنان . ومن ناحيتي اعجبـــت بالطريقة التي كان يدافع فيها عن المثـــال الديمقراطي في مواجهة الضغوط الشيوعيـــة المتتالية .

صباح اليوم التالي ، استقليت الطائرة الـــى لندن ، تلبية لدعوة وزير الخارجية سلوين لويد . امضيت فترتين بعد الظهر والمساء في « الشكرز » البيت الصيفي لرئيس الوزراء ، برفقة سفيرنـــا جون. هي. ويتني ، وعدد من افـــراد وزارة الخارجية ، حيث اجتمعنا ، لنبحث وضع الشرق الاوسط بشكل مطول . كنت قد تعلمت ، خـــلال الحرب ، تقدير زملائي البريطانيين المشتركين في هذا الاجتماع : سلوين لويد ، دافيد اورمسبي غور ، ديريك هوير ، ميلر ، باتريك دين ، وليم هايتر ، افلين شوكبرغ ، مايكل مادو ، وفرانك اكونت . كانت هذه العقول المتمرنة والمليئـــة بالخبرة،ذات قيمة لا تقدر في المفاوضات الدولية.

في البرنامج البريطاني ، لم تكن قضايا الشرق الاوسط ناقصة : قبرص ، السويس ، العربية السعودية ، البحرين ، قطر ، الكويت ، التواجد العسكري في الاردن ، المقتل البشع للملك فيصل في بغداد . ماذا سيجري في العراق حيث لبريطانيا مصالح كبيرة ؟ هل ستدعم الولايات المتحدة اصدقاءها البريطانيين في الخليج الفارسي ؟ مسائل خطرة ، لان لهذه المنطقة اهمية حيوية بالنسبة للانكليز الذين يعرفونها جيدا . تمنيت احيانا ، لو كان للولايات المتحدة الحماس نفسه تجاه الشرق الاوسط ، حتى ولو كان ذلك فقط لان المملكة المتحدة هي حليفنا الرئيسي . غير ان الحالة ليست كذلك . فمصالحنا المادية والجغرافية مختلفة . لقد خيب الاميركيون امال الانكليز في تعاون وثيق في هذه المنطقة في العالم . وذلك لان المصالح والمخاوف الانكليزية ، ليست بالضرورة نفس مصالح ومخاوف الولايات المتحدة .

بعد ليلة مريحة قضيتها في منزل السفير في لندن ، استقليت الطائرة الى باريس ، لاجراء محادثات برفقة السفير هوتون مع كوفدومورفيل وزير الخارجية الفرنسية ، مرة اخرى راجعنا مجمل قضايا الشرق الاوسط .

التقيت الرئيس ايزنهاور ووزير الخارجية دالس ، مساء اليوم التالي ، في نيويورك ، التي قدما اليها ، للمشاركة في اجتماع الامم المتحدة ، وذلك لمناقشة الموضوع نفسه . دعاني الرئيس للعودة الى واشنطن في اليوم التالي ، على متن طائرته الخاصة ، كي يتسنى له الاستماع لتقرير كامل حول رحلتي واستنتاجاتي . كان تقريري عن الشرق الاوسط ، جاهزا تماما ، بفعل كثرة تلاوته .

خلال رحلتي باسرها ، كنت ابعث يوميا بتقرير طويل الى وزارة الخارجية ، رؤوس الاقلام هذه ، شكلت مادة هذا الفصل ، لكن لدي ، مذكرات كثيرة وحية لاشياء رأيتها . ولم اسجلها في تقاريري الى وزارة الخارجية . لن احتاج قطعا الى ملاحظات ، كي اتذكر مشهد اللبنانيين المستهجن وهو يستحمون ، ويمارسون الغطس تحت الماء والتزلج المائي قرب مراكبنا الحربية الراسية في مرفأ بيروت ..

•

نقل النص الى العربية جاكلين جريصاتي

العلاقات بين اسرائيل .. ويهود اميركا

يوسف حمدان

اعتبرت اسرائيل دائما يهود الولايات المتحدة الاميركية الركيزة الاساسية للمشروع الصهيوني في فلسطين . فهم من جهة يشكلون حوالي ثلثي العدد الاجمالي ليهود العالم خارج الكيان الصهيوني ، وهم من جهة اخرى يتمتعون بنفوذ اقتصادي وسياسي كبير في الدولة العظمى ذات النفوذ القوي في العالم . واذا كان بعض الاسرائيليين يعتقد أن مستقبل اسرائيل مرهون باستمرار دعم يهود الولايات المتحدة اللامحدودلها ، واذا كان بعضهم قد بدأ يتخوف من عدم امكانية استمرار هذا الدعم بصورة قوية ، ونظرا لما يعنيه ذلك بالنسبة لاستمرار الدعم الاميركي الرسمي اللامحدود للسياسة الاسرائيلية ،فمن الضروري مواصلة تناول موضوع تطور العلاقات بين اسرائيل ويهود أميركا باستمرار لماينطوي عليه ذلك من أهمية بالنسبة لنضال الشعب الفلسطيني .

•

وقبل ان نتطرق الى عرض وتحليل نواحي العلاقات التي تربط بين اسرائيل ويهود اميركا ؛ سنعمد في البداية الى اعطاء صورة موجزة عن أوضاع هذه الجالية اليهودية في المجتمع الاميركي سياسيا واقتصاديا واجتماعيا . وبصورة خاصةكما تتجلى صورتهم عبر ما ينشر عنهم بواسطة المهتمين بهم من الكتاب والصحفيين الاسرائيليين .

يهود اميركا في المجتمع الاميركي

تفيد الاحصاءات الاسرائيلية والاميركية أن عددسكان الولايات المتحدة من اليهود يقرب من ستة ملايين . ويتوزع معظم هؤلاء على المدن الكبرى والمراكز التجارية والصناعية الضخمة مثل نيويورك ولوس انجلس ، ويمتاز الاميركيون اليهود بكثرة عدد تنظيماتهم المختلفة ، فبينما يذكر الكتاب السنوي ليهود اميركا الصادر عام ١٩٧٣ - أن عدد المنظمات اليهودية بلغ ٢٤٠ منظمة ذكرت بعض الصحف الاسرائيلية نقلا عن مصادر اميركية يهودية ان ليهود الولايات المتحدة ٤٠٠ منظمة مسجلة و ٨٠٠ منظمة غير مسجلة (١) .ولكن بما يتعلق باسرائيل هناك منظمتان يهوديتان كبيرتان تركزان عمل المنظمات اليهودية الاميركية المختلفة الذي يصب في خدمة اسرائيل وهما : **(١) الجباية اليهودية الموحدة** ، التي تهتم اساسا بالشؤون المالية وتخصص حوالي ٨٠ ٪ من الاموال التي تجمعها لاسرائيل (٢) . **(٢) لجنة الرؤساء** ، وهي مؤلفة من رؤساء المنظمات اليهودية الرئيسية وعددها ٣٢ منظمة ، وقد تأسست على يد ناحوم غولدمان سنة ١٩٥٥ ويرأسها اليوم الحاخام عزرائيل بيلر . وهذه المنظمة تهتم اساسا بالشؤون السياسية وبتنظيم

الدعم السياسي لاسرائيل ، بما في ذلك جماعة الضغط — « اللوبي » — اليهودية في الكونغرس الاميركي .

ان الحديث عن ستة ملايين يهودي في الولايات المتحدة لا يعني ان كل هؤلاء يشعرون عمليا بانتماءهم للديانة اليهودية ، بل الواضح أن معظم هؤلاء يشعرون بأنهم مواطنون اميركيون بالدرجة الاولى ، ولا يمارسون طقوس الديانة اليهودية ولا ينتمون الى اي تنظيم يهودي او حتى اي كنيس يهودي ، وهم بالتالي لا يمارسون اية نشاطات صهيونية . وهذا الامر دفع بعض الكتاب الاسرائيليين الى القول ان « أكثرية يهود أميركا هم فقط يهود على الورق » (٣) . وبحسب دراسة أعدتها الجباية اليهودية الموحدة عام ١٩٧٢ شكل اليهود اللامنتمون الى اي تنظيم أو كنيس يهودي نسبة ٥٨٫٢ ٪ من مجموع يهود اميركا (٤) . وتوصلت هذه الدراسة ايضا الى أن الشباب والشابات اليهود الذين تزوجوا عام ١٩٧٢ بلغت نسبة من تزوج منهم زواجا مختلطا (أي زواج شاب يهودي من فتاة غير يهودية وفتاة يهودية من شاب غير يهودي) نسبة ٣١ ٪ مما اثار قلق الدوائر الاسرائيلية وجعلها تتوقع انه « حتى أواخر القرن العشرين سنفقد ملايين اليهود ، وذلك عن طريق الاندماج التدريجي (٥)» .

ان مراقب المنظمة الصهيونية العالمية يقدم تقريرا سنويا الى اللجنة التنفيذية الصهيونية المنعقدة سنويا في اسرائيل . وفي التقرير الاخير (٥—١—٧٦) حقائق وأرقام اخرى أقلقت الصهيونيين في اسرائيل ، وقد ورد في التقرير المذكور مثلا أن عدد اولاد اليهود في اميركا الذين تتراوح اعمارهم بين ٥—١٧ سنة بلغ مليونا و ٧٥٠ الفا ، ولكن فقط أقلية ٧٥٠ ألفا من هؤلاء تلقت بعض التثقيف اليهودي ، وفقط ١٦٠ ألفا من بين هؤلاء يدرسون في مدارس يهودية . وعقب يوسف ترنشتاين رئيس « منظمة صهيونيي أميركا » على هذا الامر بقوله انه « حتى هؤلاء الـ ١٦٠ الفا الذين يدرسون في مدارس يهودية اميركية يتلقون تربية يهودية فقط وليس تربية صهيونية (٦) » .

وعلى الرغم من ضخامة العون الاقتصادي اليهودي الاميركي لاسرائيل فان الاحصاءات الاسرائيلية تقول ان ٢٠ ٪ فقط من يهود اميركا يتبرعون بالمال للجباية اليهودية الموحدة (٧) . ويبدو ان معظم هؤلاء من اليهود المتدينين .

ثلاث طوائف :

وبحسب احصاءات الجباية اليهودية الموحدة ينقسم يهود الولايات المتحدة الى ثلاث طوائف رئيسية :

١ — اليهود المحافظون ولهم ٢٣ ٪ من الكنس اليهودية في الولايات المتحدة .
٢ — اليهود الاصلاحيون ولهم ١٣ ٪ من الكنس اليهودية في الولايات المتحدة .
٣ — اليهود المتدينون ولهم ٩ ٪ من الكنس اليهودية في الولايات المتحدة .

والطائفة الاخيرة تعتبر من انشط اليهود في خدمة اسرائيل وفي مجال الهجرة اليها . ويهتم اعضاؤها اكثر من غيرهم بتربية اطفالهم تربية يهودية وصهيونية . من هنا ان الاحزاب اليمينية المتطرفة في اسرائيل والمتزمتة في منطلقاتها الصهيونية مثل حيروت مثلا ، لا تعترف الا بهذه الطائفة (٨) ، على اعتبار انها تؤمن بأن تعريف الصهيوني « هو كل يهودي يهاجر الى اسرائيل » .

ومن جهة اخرى يقسم بعض الاسرائيليين يهود اميركا الى ثلاث مجموعات :

١ — مجموعة صغيرة نسبيا متعصبة دينيا ، « ولا تهتم بالصهيونية كحركة قومية علمانية (٩) » ومع ذلك فعلاقات هذه المجموعة مع اسرائيل قوية وثابتة .

٢ — مجموعة تريد اشباع هويتها الاميركية وهويتها اليهودية في آن معا ، عن طريق الاخذ بالنظرية القائلة بوجوب تواجد مركزين لليهود في العالم هما اسرائيل و « بابل » — (أي الولايات المتحدة الاميركية) « وهذه النظرية تؤمن بهاتيارات مختلفة في اسرائيل نفسها (١٠) » . ويقصد الكاتب الصهيوني أوساط الحركة العمالية وغيرها والتي بدأت تغير موقفها من مقولة أن الصهيوني هو من يهاجر الى اسرائيل وتكتفي بالقول ان الصهيوني هو من يؤمن باسرائيل ويدعمها ماديا وسياسيا حتى وان لم يهاجر اليها.

٣ — مجموعة تشكل الاكثرية من يهود اميركا وهي « تفضل بابل على اسرائيل » ولا ترى من واجبها الهجرة اليها او الارتباط بها ثقافيا او حتى دعمها بالمال ! ويؤكد هذا الكاتب بناء على ذلك ان اسرائيل لاتملك قنوات الاتصال مع شرائح واسعة من التجمعات اليهودية في اميركا ، فاسرائيل تعتمد اساسا على اتصالاتها بلجنة الرؤساء التي مع انها تمثل ٣٢ منظمة رئيسية فان « نصف مليون طالب جامعي يهودي مثلا لايوجد لهم اي تمثيل في لجنة الرؤساء هذه (١١) » .

اليهودي « العادي »
واليهودي « غير العادي » :

نستنتج ما تقدم أن يهود الولايات المتحدة لايشكلون فئة واحدة متجانسة سياسيا واقتصاديا واجتماعيا ، وبالتالي فان لهم مواقف متباينة من اسرائيل والصهيونية . ويتضح ذلك اكثر من طرح السؤال التالي : من هو اليهودي الاميركي العادي ومن هو اليهودي الاميركي غير العادي من وجهة النظر الاسرائيلية الصهيونية ؟

الكاتب الصهيوني ابراهام هيرمان (١٢) يعرف اليهودي الاميركي العادي على النحو التالي : « ... انه من مواليد الولايات المتحدة وبصورة عامة ولد والداه ايضا هناك . انه خريج مدرسة ثانوية وفي اغلب الاحوال خريج جامعة . انه لا يهرب من يهوديته بل يشعر انه يهودي ولا يؤمن بمبدأ الاندماج . من ناحية عمله ينتمي الى الطبقة الوسطى او الطبقة الوسطى العليا . معظم معارفه واصدقائه من اليهود . انه ليس متدينا ولكنه يحرص على ان يكون لاولاده ثقافة عامة عن الديانة اليهودية وتقلقه جدا فكرة أن يتزوج اولاده من غير يهود . ينتمي الى كنيس غالبا ما يكون محافظا او اصلاحيا ، يعرف اسرائيل عبر زيارة قام بها اليها هو أو أحد معارفه ولكنه لا يفكر بالهجرة اليها . يتبرع الى الجباية اليهودية وربما اشترى سندات حكومة اسرائيل ليس كتوظيف بل سجلها باسم أولاده لانه اراد مساعدة اسرائيل وربطهم بها رمزيا ونفسيا . يقلق جدا على اسرائيل عندما تتعرض لاي مكروه كما حدث في حرب يوم الغفران (حرب تشرين ١٩٧٣) . عندما يقرأ جريدة ينتبه الى أخبار اسرائيل ويقرأها باهتمام . لا يعرف اللغة العبرية ولا يعرف الكثير عن الديانة اليهودية وفي نفس الوقت يميل الى الاعتزاز بيهوديته ويحترم العارفين بشؤون الديانة اليهودية . لم يصطدم باللاسامية مباشرة ويؤمن بأن ما حدث لليهود في اوروبا لا يمكن ان يتكرر في أميركا » .

أما اليهود الاميركيون « غير العاديين » فيقسمهم هيرمان الى ثلاثة اقسام :

« ١ — الشباب اليهود الذين تربوا في بيوت متدينة وتلقوا تربية دينية متزمتة ، وهؤلاء يؤمنون

بأن الحياة اليهودية لا تكتمل الا بالعيش في اسرائيل . وهذه فئة صغيرة ولكنها مصدر مهم للهجرة .

٢ ــ فئة اصغر من الفئة السابقة وهي جماعة صهيونية فاعلة ولا تنتمي الى اليهود المحافظين.

٣ ــ مجموعة كبيرة من الزعماء التقليديين لاولئك اليهود العاديين وهؤلاء الزعماء غير عاديين في تفانيهم واخلاصهم لقضايا الجمهور وبانهماكهم المتصل في العمل التنظيمي والشعبي.

الواضح اذن ان القوة اليهودية في اميركا والهالة المحيطة بها غير نابعة من الكثرة العددية ليهود اميركا الذين يشكلون اقل من ٣ ٪ من مجموع السكان ، ولا من كونهم يؤلفون كتلة متماسكة متحدة الاهداف والمواقف ، بل ان وجود مؤسسة يهودية منظمة وفاعلة وذات امكانيات ضخمة وتستغل طبيعة النظام السياسي الاميركي من جهة ، والتركيب النفسي لليهودي الاميركي العادي من جهة اخرى ، هي التي تقف وراء هذه القوة وتجعلها ذات تأثير فعال على الصعيد الاميركي العام وعلى الصعيد اليهودي. وسنوضح دور هذه المؤسسة في سياق هذا المقال .

... جزء من الشعب الاميركي

ان يهود الولايات المتحدة جزء من الشعب الاميركي وهم خاضعون للتأثيرات التي يتعرض لها الشعب الاميركي عامة . وقد لوحظ مؤخرا على سبيل المثال ان التحول الذي طرأ على ما تنشره الصحافة الاميركية منذ حرب تشرين ، وخاصة انتقاد عمليات الاستيطان في الاراضي العربية المحتلة منذ عام ١٩٦٧ ، أثر في الرأي العام الاميركي اليهودي وغير اليهودي على السواء بحيث بدأت ترتفع اصوات يهودية اميركية متزايدة ضد الاستيطان وضد تزمت السياسة الاسرائيلية .

مع ذلك تحاول الحركة الصهيونية باستمرار خلق صفات مميزة ليهود اميركا عن بقية المجموعات الاثنية في المجتمع الاميركي محاولة اقناعهم بأنهم يهود قبل أن يكونوا اميركيين وتحاول ارهابهم ببعبع « اللاسامية » التي قد تظهر في اميركا ــ على حد قولهم ــ مثلما ظهرت في اوروبا ولذلك عليهم الاسراع بانقاذ انفسهم عن طريق الهجرة الى « ملجأ اليهود » اي الى فلسطين المحتلة . فمثلا قال المهولون بخطر اللاسامية ان الولايات المتحدة قد تتعرض الى أزمة اقتصادية سيكون أحد نتائجها رد فعل معاد لليهود . وقال هؤلاء ان مرور الولايات المتحدة بثورة اجتماعية سيؤدي الى رد فعل من اليمين الاميركي ضد اليهود ، لان لهم دورا بارزا في اوساط الراديكاليين والليبراليين . وقال هؤلاء ايضا انه بعد انهاء حرب الفيتنام سيكون هناك رد فعل غاضب ضد اليهود في الولايات المتحدة .

ومع أن كل هذه التوقعات لم تتحقق فان حملة التخويف مستمرة .

فمثلا نشرت في العام الماضي دراسة لاستاذ يهودي من كلية علم الاجتماع في جامعة هارفرد الاميركية (١٣) استنتج فيها ان يهود اميركا معرضون لاخطار « اللاسامية » منذ اواخر الستينات وذلك لبروز ثلاث ظواهر :

١ ــ ظهرت في الولايات المتحدة حركة ضد التمييز العرقي والجنسي وضد اصحاب الامتيازات واليهود يعتبرون من اصحاب الامتيازات البارزين ومن دلائل ذلك مثلا انهم ــ اي اليهود ــ يشكلون

نسبة ٣ ٪ فقط من مجموع سكان الولايات المتحدة في حين تصل نسبتهم بين أساتذة الجامعات المرموقة في الولايات المتحدة الى ١٩ ٪ .

٢ ـ بدأ الاهتمام ينصب على المجموعات الاثنية في المجتمع الاميركي ويجري القيام باعداد الدراسات والاحصاءات المختلفة حول هذا الموضوع . وهذا الامر سيساعد على كشف من هم أصحاب الامتيازات الذين يأخذون من المجتمع اكثر مما يستحقون . واليهود يحتلون مراكز حساسة وبارزة في الاماكن الهامة ومكاسبهم بارزة بشكل « يقلع العيون » .

٣ ـ العامل السابق يصبح خطيرا عندما يضاف اليه العامل الثالث : **اسرائيل** . فاليهود يطلبون الكثير الكثير لدعم اسرائيل « واليوم لا توجد أمة كبيرة مستعدة ان تقف ضد القوة العربية والارهاب العربي وان تظهر كصديقة لاسرائيل سوى الولايات المتحدة ... » ان المساعدات التي تقدمها الولايات المتحدة لاسرائيل تفوق حجم كل المساعدات الخارجية الاميركية وهذا الامر يضع اليهود في موضع الارتباك والانفضاح فهم من جهة مكشوفون اثنيا ومن جهة ثانية مكشوفون كطالبي عون مبالغ فيه لاسرائيل . وهكذا بدلا من ان يظهر اليهود مثل سواهم في المجتمع الاميركي تبرزهم كمميزين عن سواهم . هناك مثلا في الولايات المتحدة ايرلنديون ويونانيون يؤيدون بلادهم الاصلية ولكنهم لا يطلبون من الولايات المتحدة ان تقدم لها الكثير . فعندما غزت القوات التركية قبرص عام ١٩٧٤ ثار اليونان الاميركيون وتظاهروا . فماذا كان مطلبهم ؟ كل ما طلبوه هو ان لا ترسل الولايات المتحدة الاسلحة الى تركيا عدوة بلادهم الاصلية (١٤) » .

اما المخرج الذي يقترحه الاستاذ المذكور فهو اقناع الرأي العام الاميركي بواسطة اليهود ووسائل اعلامهم هناك بأن الولايات المتحدة التي تدين بمبدأ المحافظة على حقوق الافراد ومساعدتهم لا يكفي ان تساعد الافراد فقط بل عليها مساعدة الامم ايضا بحيث يكون في ذلك تبرير لمساعدة اسرائيل . وهو في الواقع بدلا من ان يقترح حلولا ليهود اميركا من اخطار قد يتعرضون لها في وطنهم بسبب الدعم الهائل لاسرائيل على حساب الشعب الاميركي ، يحاول دفعهم لمزيد من التورط في نفس الاتجاه . وليس هذا غريبا اذا ما علمنا ان بعض الصهيونيين يتمنون فعلا ان تظهر في اميركا موجة «لاسامية» لان الوسائل الاخرى لم تنجح حتى الان في حمل اليهود الاميركيين على الهجرة من وطنهم الى فلسطين المحتلة .

مع ذلك يبدو ان كل هذا التخويف لا يحقق النتائج المرجوة منه بدليل ان الهجرة اليوم من الولايات المتحدة الى اسرائيل تعاني هبوطا مستمرا في حين تتصاعد الهجرة من اسرائيل الى اميركا ، حيث تقدر المصادر الاسرائيلية ان اكثر من ربع مليون اسرائيلي هاجروا الى اميركا . وقد ذهبت صحيفة اسرائيلية الى القول انه « منذ حرب اكتوبر اصبحت الهجرة اليهودية من اميركا واصبحت الفكرة الصهيونية فيها تمران في حالة احتضار » (١٥) .

العلاقات بين اسرائيل ويهود اميركا

يمكن النظر الى مجموع العلاقات بين اسرائيل ويهود اميركا من اربع زوايا :

١ ـ من الناحية الايديولوجية
٢ ـ من الناحية السياسية
٣ ـ من الناحية الاقتصادية
٤ ـ من الناحية الطبيعية ـ أي الهجرة .

العلاقة الايديولوجية

يأخذ الصهيونيون في اسرائيل على يهودامريكاان ارتباطهم بالايديولوجية الصهيونية ضعيف ، بل وآخذ بالتلاشي باستمرار . ولكن تقييم هذه الناحية متباين بحسب التيارات الصهيونية داخل الاحزاب الاسرائيلية المختلفة . فهناك اوساطواسعة في الحركة العمالية الحاكمة في اسرائيل تميل الى التسليم بوجود مركزين كبيرين لليهود : اسرائيل وأمريكا . وتبدي استعدادها لاعطاء شهادة صهيونية لكل يهودي يدعم اسرائيل سياسيا وماليا كما عبرت عن ذلك تصريحات قادة المنظمة الصهيونية العالمية والوكالة اليهودية التي تعاقب على رئاستها رجال من حزب العمل مثل اريه بنكوس وبنحاس سابيرويوسف الموجي . ولكن الاحزاب اليمينية وخاصة حيروت والمتدينون ما زالوا يتمسكون بالمبدا القائل ان الصهيوني وحتى اليهودي لا تكتمل صهيونيته أو يهوديته الا عندما ينتقل للعيش في« ارض اسرائيل » .

فاذا كان موضوع الهجرة الى اسرائيل هو المقياس لصهيونية يهود امريكا يمكننا القول اليوم ان الايديولوجية الصهيونية ، بهذا المعيار تكادتكون معدومة في الولايات المتحدة لان هجرة اليهود الامريكيين الى اسرائيل التي كانت ضعيفة دائماكادت تتوقف كليا منذ حرب تشرين ١٩٧٣ ، كما شهدت على ذلك الاحصاءات الرسمية الاسرائيلية .

مع ذلك قد يكون صحيحا ان معظم يهودامريكا يؤمنون بوجود اسرائيل كما يزعم الاسرائيليون ولكن هؤلاء يفضلون العيش في الولايات المتحدة ويكتفون بالتأييد السياسي والمالي كتعبير عن تعاطفهم معها . اما الاقلية من يهود امريكا التي تؤمن بوجوب العيش في اسرائيل فترى ان اسرائيل بمجتمعها القائم « خالية من المضمون اليهودي الروحي الذي قد يجعل منها مركز جذب للاخرين » (١٦) .

ان مجتمع اليهود في امريكا مختلف عن مجتمع اليهود في فلسطين المحتلة . فيهود امريكا اكثر تسامحا وليبرالية ، ربما بحكم كونهم اقلية في الولايات المتحدة : ان ظاهرة تعاظم اليمين في اسرائيل بعد حرب حزيران ١٩٦٧ لم ترافقهاظاهرة مماثلة لدى يهود امريكا ، فحركة «غوش ايمونيم » الاستيطانية في اسرائيل لا تجد تأييداالا لدى القليلين من اليهود في امريكا وهؤلاء يشكلون اقل من عشر يهود امريكا «وعندما ادلى الدكتور كيسنجر بتصريح ضد الاستيطان الاسرائيلي في الاراضي العربية المحتلة لم يرتفع ضده صوت يهودي واحد » (١٧) .

وهنا يبرز السؤال : لماذا هذا الدعم الكبير سياسيا واقتصاديا ؟ هناك عدة عوامل قد يكون اهمها ما يلي :

١ — المؤسسات والمنظمات التي تتزعم اليهود في امريكا تجني مكاسب اقتصادية وسياسية من وراء جمع وتنظيم الدعم لاسرائيل . ولدى هذه المؤسسات وسائل ضخمة لتحقيق اهدافها في مختلف الميادين .

٢ — عقدة الاضطهاد عند اليهود الذين هاجر اباؤهم واجدادهم من اوروبا الشرقية الى امريكا منذ بداية القرن . ويلاحظ انه عندما يزور زعيم اسرائيلي الجاليات اليهودية في امريكا يقبل عليه اليهود الامريكيون ويصغون الى خطبه ومحاضراته وكلما كان هذا الزعيم الاسرائيلي متطرفا اكثر فان حماس اليهود الامريكيين يكون اكبر . ويحدث العكس اذا كان الزائر معتدلا في ارائه وقد حدث ان قاطع هؤلاء ندوات لاشخاص مثل متتياهو بيلد واوري افنيري . ويفسر اوري افنيري هذه الظاهرة قائلا انهم يعيشون عقدةنفسية عميقة بسبب ماضي ابنائهم في اوروبا

الشرقية ويشعرون بعقدة نقص تجاه الانكلـــوساكسون وهم لذلك يريدون ان تكون اسرائيل قوية متعجرفة وتعامل الغير بقســوة مثلما كان القياصرة يعاملون اجدادهم . انهم يريدون اقناع عقدتهم النفسية ولكن ليس الى حد الاصطدام بالادارة الامريكية الامر الذي يهدد مصالحهم في الولايات المتحدة (١٨) .

العلاقة السياسية

المقصود بهذه العلاقة ناحيتان اولا : مـدى مشاركة يهود امريكا أو زعاماتهم في اتخاذ القرار في اسرائيل . ثانيا : النشاطات السياسية التي تقوم بها هذه الزعامات ومؤسساتها داخـــل الولايات المتحدة من اجل دعم اسرائيل سياسيا . فمن ناحية المشاركة في القرار الاسرائيلي يبدو ان هذا الامر معدوم تقريبا ولكن ظهرت في السنوات الاخيرة مطالبة يهودية امريكية بالمشاركة في الحياة السياسية في اسرائيل وقويت هذه المطالبة بعد حرب تشرين ١٩٧٣ (١٩) .

اما الناحية الثانية والاهم فهي مجمـــــوع النشاطات السياسية التي تقوم بها المؤسسات والمنظمات اليهودية الامريكية بهدف التأثير على مؤسسات الحكم والادارة في امريكا وعلى الرأي العام الامريكي واليهودي فيها . هذه النشاطات التي كثيرا ما تتخذ طابع الضغط والابتزاز . فما هي المنظمات الصهيونية الرئيسية التي تقـــوم بهذه النشاطات ، وما هي ميادين نشاطاتها :

١ ـ «الدهليـــز» اليهـــودي في الكونغـــرس وهو اهم دهاليز الضغط الصهيونية في مؤسسات الحكم والادارة الامريكية ويمثل هذا الدهليـــز بلجنة مشكلة من رؤساء لاربع عشرة منظمـــة صهيونية في الولايات المتحدة وتنتحل هذه اللجنة اسم «اللجنة الامريكية الاســرائيلية لشـــؤون الجمهور » « A. I. P. A. C. » ووظيفتها « تركيز كل الجهود من اجل اسرائيل في الكونغرس» (٢٠) أي ان هذه اللجنة المتمركزة في الكونغرس تؤثر على اعضائه ومواقفهم بواسطـــة قوة وامكانيات ١٤ منظمة صهيونية قوية تقف وراءها في امريكا وتؤثر هذه اللجنة في نفس الوقت على نتائـــج انتخابات اعضاء الكونغرس وعلى تعيين مستشاريهم ومساعديهم . ويترأس هذه اللجنة منذ بداية ١٩٧٥ موريس اميتاي وهو شاب يهودي «٣٩ سنة» وتدرّج منذ عام ١٩٧٠ منصب مساعد السيناتور اليهودي ابراهام ريبيكوف . وفي منصبه هذا نشط كثيرا في « الشؤون اليهودية » مثل تقديم المساعدات الى اسرائيل وتعديل جاكسون حول الهجرة من الاتحاد السوفيتي وغير ذلك . وهو المســؤول الاول عن تشكيل مجموعة من المساعدين اليهود لاعضاء الكونغرس الذين ينشطون في العمل على دعم اسرائيل . ونشاط اميتاي هذا دفع رؤساء المنظمات اليهودية الى تعيينه رئيسا للجنـــة المذكورة .

ويمكن الوقوف على طبيعة نشاط اميتاي ولجنة في الكونغرس من قراءة مقابلة اجرتها معه صحيفة نيويورك تايمز في أول آب ١٩٧٥ . ومن جملة ما قاله للصحيفة : «لم يحدث مرة ان خسرنا أية معركة جدية «لصالح اسرائيل» في الكونغـــرس ... الدراسة التي تعدها منظمتنا هي من افضل الدراسات التي تعد في واشـــنطن . نحـــن مشتركون بجريدة الجيروزالم بوست وبيروت سنار واكثر من ذلك : انني اعرف جيـــدا كل هـــؤلاء الناس في وزارة الخارجية ووزارة الدفاع ووكالة المخابرات المركزية . نحن قادرون ومؤثرون ولدينا ما نبيعه للامريكيين : ما هو حسن لاسرائيل حسن لامريكا ايضا ... اذا كنت تحاول ان تحصـــل على شيء فمن الافضل ان تستخدم ضغطا مبالغا به بدلا من ان تستخدم ضغطا اضعـــف ممـــا يجب » (٢١)

وقد لوحظ ان هذه التصريحات اثارت غضب بعض الاميركيين ، وحتى بعض زعماء المنظمات اليهودية الذين عارضوا هذه التصريحات قائلين : « انه كلما سمع من الدهليز اليهودي اقل كلما كان نجاحه اكبر » ولكن البعض فسروا ذلك على انه خلاف بين جيل الزعماء الشيوخ الذين يفضلون اتباع التوسل والالحاح وجيل الزعماء الشباب الذين يفضلون الضغط المباشر واظهار القوة . ويبدو ان في الموضوع مسألة توزيع ادوار حيث ان امتياي ورفاقه يتولون مهمة استعراض العضلات والترهيب بين حين واخر ، واما الزعماء الشيوخ مثل عزرائيل ميلر (رئيس لجنة الرؤساء) فيعملون على امتصاص ردود الفعل الغاضبة التي قد يثيرها استعراض العضلات . ومهما يكن شأن تصريحات امتياي هذه فيمكن القول بصورة عامة ان جماعات الضغط وسائر المنظمات الصهيونية تتبع عادة طريقة العمل بصمت في مجال التأثير على رجال الحكم والادارة في اميركا .

ويعتبر الكونغرس الاميركي اهم جهاز يمكن التأثير منه على السياسة الامريكية ، فأول ما يهم النواب فيه هو جمهور ناخبيهم من ولاياتهم ومناطق انتخابهم وتعمد المؤسسة الصهيونية بواسطة اعلامها وامكاناتها الى التأثير على الرأي العام في كل ولاية لجهة انتخاب المرشح المؤيد لاسرائيل . وللكونغرس دور فعال في رسم سياسة البيت الابيض الخارجية ووضع ميزانية المساعدات الخارجية خاصة اذا كان الحزب المعارض يتمتع بالاغلبية كما حدث في الانتخابات الاخيرة لمجلس الشيوخ والنواب . والكونغرس يؤثر ايضا على معركة انتخابات الرئاسة من خلال التأثير على اعضاء المؤتمر الوطني لكل من الحزبين والرأي العام .

وقد اتضحت قوة الضغط اليهودي على الكونغرس من حقيقة ان البيت الابيض « احتاج اكثر من مرة الى دعم اسرائيل بهدف اقرار ميزانية المساعدات الخارجية ففي السنوات الاخيرة لحرب فيتنام عمد البيت الابيض الى ربط ميزانية المساعدات لاسرائيل مع مصاريف الحرب في جنوب شرق اسيا لكي يصادق الكونغرس على مجموع الميزانية بفضل مصادقته الاكيدة على المساعدات لاسرائيل ... » (٢٢) .

٢ ـ **لجنة الرؤساء** : وتركز هذه اللجنة ، المؤلفة من رؤساء ٣٢ منظمة صهيونية ، النشاطات السياسية وتنسق بين جهود جاليات الولايات المتحدة لخدمة مصالح اسرائيل ، وتستطيع بامكاناتها المتوفرة وخلال وقت قصير جمع عشرات الالوف من اليهود بهدف التظاهر في المدن الاميركية تأييدا لاسرائيل ، « وهي تعمل بوحي من حكومة اسرائيل وتمشيا مع سياستها الرسمية دون اي تدخل في شؤون اسرائيل الداخلية » (٢٣)

٣ ـ الجباية اليهودية الموحدة التي تركز الجهد المالي الضخم وتخصص ٨٠ بالمئة منه لاسرائيل ويفترض في هذه المنظمة من الناحية القانونية ان لا تتدخل في الشؤون السياسية ، وان تخصص الاموال التي تجمعها في الاعمال الخيرية والانسانية ولكن تلك الاموال المعفاة من الضرائب تصب في مجال تسليح اسرائيل بصورة رئيسية ويخصص جزء منها لتمويل مختلف الاحزاب الاسرائيلية وعمليات الاستيطان في الاراضي العربية المحتلة . وهذه المنظمة لا يوجد لديها اي اشراف على كيفية تصرف اسرائيل بالاموال التي تقدمها لها .

٤ ـ « بني بريت » واهم جهاز في هذه المنظمة الصهيونية لجنة تنتحل اسم « لجنة مكافحة التشهير » وهي بمثابة جهاز مخابرات صهيوني واسع يلاحق رجال السياسة والاقتصاد والاعلام الاميركيين ويكشف عن كل من « يعادي اسرائيل واليهود » ويشهر بهم . ويوجه اليهم الضغوط بمختلف الوسائل . وقد نشط هذا الجهاز مؤخرا بملاحقة كل شركة اميركية تبدي استعدادا للتجاوب مع المقاطعة الاقتصادية العربية لاسرائيل .

اضف الى ذلك اجهزة الاعلام وشركات العلاقات العامة التي تسيطر عليها هذه المنظمات . وهذا

لا يقتصر على اجهزة الاعلام الرئيسية في المراكز الكبرى كنيويورك وكاليفورنيا بل ان هذه المنظمات تحرص على ان تكون لها صحف خاصة ونفوذ في باقي الصحف في كل ولاية بهدف التأثير على الراي العام فيها لما ينطوي عليه ذلك من اهمية بالنسبة لانتخابات اعضاء الكونغرس والانتخابات الرئاسية .

وباختصار يقوم الدعم السياسي لاسرائيل على الاسس التالية :

أ — خلق جماعات ضغط في مؤسسات الحكم والادارة ، ففي النظام الاميركي يوجد « تطابق مصالح » بين الناخب والمنتخب . واستغلال طبيعة هذا النظام بهدف توجيه الضغط على الاعضاء المنتخبين في مجلس النواب والشيوخ والمؤتمرات الوطنية للاحزاب المنعقدة قبيل الانتخابات الرئاسية بهدف خدمة مصالح اسرائيل.

ب — القيام بنشاط واسع من اجل التأثير على نتائج الانتخابات الرئاسية واهم وسيلة متبعة لذلك العمل على انتخاب « اصدقاء اسرائيل » اعضاء في مؤتمرات الحزبين الجمهوري والديمقراطي . هذه المؤتمرات التي يتم فيها انتخاب مرشح الحزب لرئاسة الجمهورية وكذلك التأثير عن طريق الاعلام على ناخبي هؤلاء الاعضاء في ولاياتهم . فلأن الولايات المتحدة تتبع اسلوب المناطق الانتخابية الجارية تستغل المؤسسة الصهيونية حقيقة ان فورد هو رئيس غير منتخب ويخوض الانتخابات لاول مرة بهدف الضغط عليه من اجل ملائمة برنامجه السياسي مع مصالح اسرائيل .

حـ — القيام بنشاط اعلامي واسع يستهدف الراي العام اليهودي والاميركي وحتى مندوبي اعضاء الامم المتحدة المقيمين في نيويورك من طريق اجهزة الاعلام المختلفة وتنظيم المظاهرات الحاشدة.

العلاقة الاقتصادية

وتقوم هذه العلاقة على الدعم الاقتصادي الضخم الذي تعتمد عليه اسرائيل ويمكن تقسيمه الى قسمين :

١ — ما تجمعه الجباية اليهودية الموحدة المتخصصة بجمع اموال التبرعات من يهود اميركا وقد بلغ مجموع ما قدمته هذه الجباية الى اسرائيل من عام ١٩٧٠ حتى عام ١٩٧٥ مبلغ ٢٢١٤ مليون دولار (٢٤).

٢ — المساعدات والقروض الضخمة التي يقرها الكونغرس من ميزانية الولايات المتحدة لمساعدة اسرائيل ، والتي تفوق كل ما تقدمه الولايات المتحدة من « المساعدات الخارجية » لباقي دول العالم . وللمؤسسة الصهيونية كما اسلفنا ، دور رئيسي في دفع الكونغرس الى اقرار هذه الميزانية كل عام .

وبالاضافة الى ذلك تعمل اسرائيل والمؤسسة الصهيونية في اميركا ، على دعم الاقتصاد الاسرائيلي بالوسائل التالية :

أ — توظيف رؤوس الاموال الاميركية في اسرائيل وخاصة في الفروع التي تدعم قدرتها الاقتصادية.

ب ــ توظيف احدث الخبرات العلمية والتكنولوجية في فروع الاقتصاد الاسرائيلي .

هـ ــ توظيف الاموال عن طريق شراء سندات دين خاصة بالحكومة الاسرائيلية ومنظمة اليونرز الصهيونية .

د ــ تشجيع التبرع الى الجباية اليهودية .

الهجــرة

رغم كل الوسائل التي تتبعها المؤسسة الصهيونية لدفع يهود اميركا للهجرة الى اسرائيل يبدو ان الجاليات اليهودية الاميركية غير متحمسة لمغادرة وطنها الى اسرائيل . ان اعلى رقم حققته الهجرة اليهودية من اميركا الى اسرائيل في سنة واحدة لم يزد على ٧ــ٨ آلاف مهاجر على الرغم من كون الولايات المتحدة تحتوي على اكبر تجمع يهودي في العالم .

وقد اعترف السفير الاسرائيلي في واشنطن (٢٥) بأنه اذا كان لدى الشباب اليهود في اميركا بعض المشاعر الصهيونية فان هذا الشعور لايشتمل على تحسس « واجب الهجره الى اسرائيل » . ودعا الى اتباع الطرق التالية لتشجيع هذه الهجرة :

١ ــ استجلاب طلاب يهود من اميركا للالتحاق في الجامعات الاسرائيلية لمدة سنة واحدة ، على امل ان يمددوا اقامتهم فيها .

٢ ــ افتتاح جامعات اميركية في اسرائيل . ولاتوجد حتى الان مثل هذه الجامعات .

٣ ــ تشجيع رجال الاعمال اليهود في اميركا على بناء المدن والضواحي في اسرائيل والتي تلائم متطلبات سكنى اليهود الاميركيين .

وقد عبر اهود ابريئيل ، قنصل اسرائيل العام في شيكاغو ، عن يأسه من امكانية الهجرة من اميركا الى اسرائيل ، ودعا فقط الى محاولة اعادة الاسرائيليين الذين هاجروا من اسرائيل الى مدن الولايات المتحدة (٢٦) .

واعترفت صحيفة دافار شبه الرسمية (٢٧)، ان اسرائيل تواجه في مسألة الهجرة من اميركا فشلا مضاعفا . فمن جهة توقفت الهجرة من اميركا ، ومن جهة ثانية زاد عدد المهاجرين الاسرائيليين اليها . ودعت الى اتباع الوسائل التالية لتشجيع الهجرة الى اسرائيل من اميركا .

١ ــ اغراء المتقاعدين من يهود اميركا في ان يقضوا اوقاتهم على شواطىء فلسطين المحتلة بدلا من شواطئ كاليفورنيا وفلوريدا . لكي يصرفوا دولاراتهم في اسرائيل .

٢ ــ اغراء الشباب اليهود الثائرين ضد التقاليد الى البحث عن اساليب حياة جديدة في اسرائيل بدلا من ان يتحولوا الى « يساريين وهيبيين » .

٣ ــ العمل على اعادة ربع مليون مهاجر اسرائيلي من اميركا بواسطة حملة دعاية واغراء.

وكانت الصحيفة نفسها (٢٨) قد دعت الى تركيز الاهتمام بالفقراء من يهود اميركا وهم الذين لا يزيد دخلهم على ٥٠٠٠ دولار في السنة، وعددهم حوالي نصف مليون يهودي .

وذكرت الصحيفة نفسها ان هؤلاء لا يعرفون اسرائيل لانهم لا يزورونها لاسباب مادية . واتهمت الصحيفة الاجهزة الصهيونية المختصة باهمال هذه الفئة من اليهود الفقراء .

ولعل من العوامل التي تجعل الهجرة اليهودية في اميركا الى اسرائيل ضعيفة ما يلي :

١ ـ اليهود الاميركيون غير مستعدين للتخلي عن رفاهيتهم الاقتصادية في اميركا والتي لا يجدونها في اسرائيل .

٢ ـ الخوف من الاوضاع الامنية بسبب عمليات المقاومة الفلسطينية واحتمالات الحرب مع الدول العربية .

٣ ـ بعض اليهود الاميركيين يعرف ان اسرائيل دولة تقوم على وطن الشعب الفلسطيني المغتصب بالقوة .

٤ ـ المتدينون اليهود في اميركا يزعمون انهم يستطيعون ممارسة حياتهم اليهودية في اماكن تجمعاتهم في اميركا اكثر مما يستطيعون ذلك في اسرائيل التي يخلو مجتمعها من المضمون الروحي ـ على حد قولهم ـ والكل فيها يسعى وراء المال وهي مهمة اسهل بكثير في اميركا نفسها" .

قلق على مستقبل العلاقات ؟

يجمع المراسلون الاسرائيليون في الاونة الاخيرة على ان علاقات اسرائيل بيهود اميركا آخذة بالضعف والفتور . وقد شنت الصحف الاسرائيلية حملة على يهود اميركا لانهم على حد زعمها لم يفعلوا ما فيه الكفاية لمواجهة قرارات الامم المتحدة التي عرفت الصهيونية كحركة عنصرية .
من ناحية اخرى شكت الدوائر الاسرائيلية من تزايد قوة الاعلام العربي في اميركا واحتمالات تأثيره على الرأي العام الاميركي وبضمنه الرأي العام اليهودي هناك . خاصة وان منظمات وشخصيات يهودية اميركية بدات مؤخرا تدين بصوت عال سياسة التوسع الاسرائيلية وتزمتها في التنكر لحقوق الشعب الفلسطيني العادلة .

ومهما يكن من امر فان اهم ما قد يؤثر على نوعية العلاقات بين اسرائيل ويهود اميركا هو الوضع العربي العام وممارسات العرب السياسية والعسكرية والاعلامية ونمو قوتهم الذاتية . وكذلك وضع الكيان الصهيوني المتأثر حتما بالوضع العربي . ولايضاح ذلك نورد الملاحظات التالية :

١ ـ حرب تشرين عام ١٩٧٣ وحظر النفط العربي خلال تلك الحرب ، كانا عاملين هامين في انتشار النقد اليهودي الاميركي لاسرائيل . وهناك شخصيات يهودية اميركية سكتت عن الاحتلال الاسرائيلي قبل وبعد حرب حزيران ١٩٦٧ ولكنها بدأت عقب حرب تشرين تنتقد نوايا التوسع الاسرائيلية ولو بدافع الخوف من ان سياسة التوسع والتصلب التي تنتهجها الحكومة الاسرائيلية في ظل نمو قوة العرب ، قد تؤدي الى انهيار الدولة الصهيونية في المستقبل . ان القوة التي اظهرها العرب وتضامنهم النسبي خلال تلك الحرب جعلا الكثيرين من يهود اميركا يشعرون بانهم بمراهنتهم على اسرائيل ، انما يراهنون على « حصان خاسر » .

٢ ــ يهود الولايات المتحدة جزء من المجتمع الاميركي ، ويخضعون للتاثيرات التي يخضع لها المجتمع الاميركي ككل . وكل كسب اعلامي عربي على صعيد الصحافة الاميركية يؤثر على مواقف الشعب الاميركي ايجابيا ويضمن ذلك يؤثر على اليهود الاميركيين ومواقفهم.

٣ ــ علاقات يهود اميركا باسرائيل هي علاقات مصلحية بالدرجة الاولى . فمثلا نجاح المقاطعة الاقتصادية العربية في التأثير على تعامل الشركات الاميركية مع اسرائيل قد يؤدي الى النتائج ذاتها مع الشركات اليهودية الاميركية.

٤ ــ ان كون يهود الولايات المتحدة يعانون من العقدة النفسية التي اشرنا اليها انفا ،والتي تجعلهم يميلون الى رؤية اسرائيل قوية وقاسية وتعامل الغير بفظاظة مثلما فعل القياصرة مع اجدادهم . هذه الحقيقة قد تجعلهم يتنكرون لاسرائيل اذا ما ظهرت ضعيفة ومغلوبة على امرها . ولعل هذه الحقيقة هي التي جعلت يهود اميركا يلتفون حول اسرائيل بعد نصرها في عام ١٩٦٧ وجعلتهم ينتقدونها بعد الضربة التي تلقتها في حرب ١٩٧٣ .

٥ ــ ان اليهودي الاميركي الذي يشعر انه يضحي بالكثير من ماله من اجل اسرائيل ، يصاب بخيبة امل كبيرة عندما يصل الى علمه ان المجتمع الاسرائيلي يتخلله الكثير من مظاهر الفساد . وان مسؤولين اسرائيليين كبارا من مدنيين وعسكريين وجدوا متورطين بالرشوة والكسب غير المشروع كما ظهر بشكل خاص في اعقاب حرب ١٩٧٣ ، وتأكيدا لذلك يقول البروفسور امنون روبنشتاين في معرض نقده لعلاقات يهود اميركا واسرائيل : « من اجل ان تقوي العلاقات بين اسرائيل ويهود اميركا ، يجب ان تجري عمليات جراحية عميقة في داخل المجتمع الاسرائيلي نفسه » (٢٩) .

٦ ــ ان مظاهر الضعف والانتكاسات التي تتعرض لها اسرائيل تؤثر سلبيا على يهود اميركا. وفي نفس الوقت فان مظاهر القوة في العالم العربي تؤثر ايجابيا على الجاليات العربية في الولايات المتحدة وتقدم لها الفرصة والقدرة على زيادة وتحسين نشاطها السياسي والاعلامي لدعم القضية العربية على صعيد الرأي العام الاميركي .

٧ ــ ان عملية فضح العنصرية الصهيونية والتي حققت نجاحا هاما في قرارات الامم المتحدة التي ادانت الصهيونية كحركة عنصرية ، ومواصلة هذه الحملة بنجاح ، من شأنها ان تبعد الكثيرين من اليهود عن الفكرة الصهيونية وان تجعل من مهمة المدافعين منها مهمة صعبة .

٨ ــ ان قوة يهود اميركا مهما عظم شأنها ،لا يمكن ان تقبل كمبرر لسياسة الحكومة الاميركية في وقوفها مع العدوان الاسرائيلي ضد الحق العربي ، خاصة وان الاسرائيليين انفسهم يشهدون ان يهود اميركا لن يذهبوا في ممارساتهم المؤيدة لاسرائيل الى حد التصادم مع الادارة الاميركية ، وان يهود اميركا « يبيعون » الاميركيين الفكرة . القائلة : ان كل خدمة لمصالح اسرائيل هي خدمة لمصالح اميركا نفسها .

الهوامش

١ ــ اوري غوردون،دافار ، ٩ ــ ٩ ــ ٧٥ .
٢ ــ هآرتس ، ١١ ــ ١١ ــ ٧٤ .
٣ ــ دافار ، ٩ ــ ٩ ــ ٧٥ .
٤ ــ هآرتس ، ١٤ ــ ١١ ــ ٧٥ .
٥ ــ دافار ، ٩ ــ ٩ ــ ٧٥ .
٦ ــ معاريف ، ٥ ــ ١ ــ ٧٦ .
٧ ــ ميخائيل شاشار ، يديعوت احرونوت ، ٦ ــ ١١ ــ ٧٥ .
٨ ــ هآرتس ، ١٤ ــ ١١ ــ ٧٥ .
٩ ــ يديعوت احرونوت ، ٦ ــ ١١ ــ ٧٥ .
١٠ ــ المصدر نفسه .
١١ ــ المصدر نفسه .
١٢ ــ معاريف ، ٥ ــ ٩ ــ ٧٥ .
١٣ ــ بروفسور نتان غلايزر ، دافار ، ١,٥ ــ ٨ ــ ٧٥ .
١٤ ــ المصدر نفسه .
١٥ ــ دافار ، ١٦ ــ ١٠ ــ ٧٥ .
١٦ ــ هآرتس ، ٢٧ ــ ٢ ــ ٧٦ .
١٧ ــ هآرتس ، ٥ ــ ١ ــ ٧٦ .
١٨ ــ هعولام هزه ، ٩ ــ ٧ ــ ٧٥ .
١٩ ــ هآرتس ٢٧ ــ ٢ ــ ٧٦ .
وايضا :
The Jewish Post and Opinion , April 6 , 1973 .
٢٠ ــ دافار ، ٥ ــ ٩ ــ ٧٥ .
٢١ ــ المصدر نفسه .
٢٢ ــ معاريف ، ١٣ ــ ١٠ ــ ٧٥ .
٢٣ ــ هآرتس ، ١١ ــ ١١ ــ ٧٤ .
٢٤ ــ عل همشمار ، ٢٤ ــ ٦ ــ ٧٥ .
٢٥ ــ دافار ، ٢٤ ــ ١٠ ــ ٧٥ .
٢٦ ــ المصدر نفسه .
٢٧ ــ دافار ، ٢ ــ ١١ ــ ٧٥ .
٢٨ ــ دافار ، ١٦ ــ ١٠ ــ ٧٥ .
٢٩ ــ هآرتس ، ٥ ــ ١ ــ ٧٦ .

Palestine Affairs

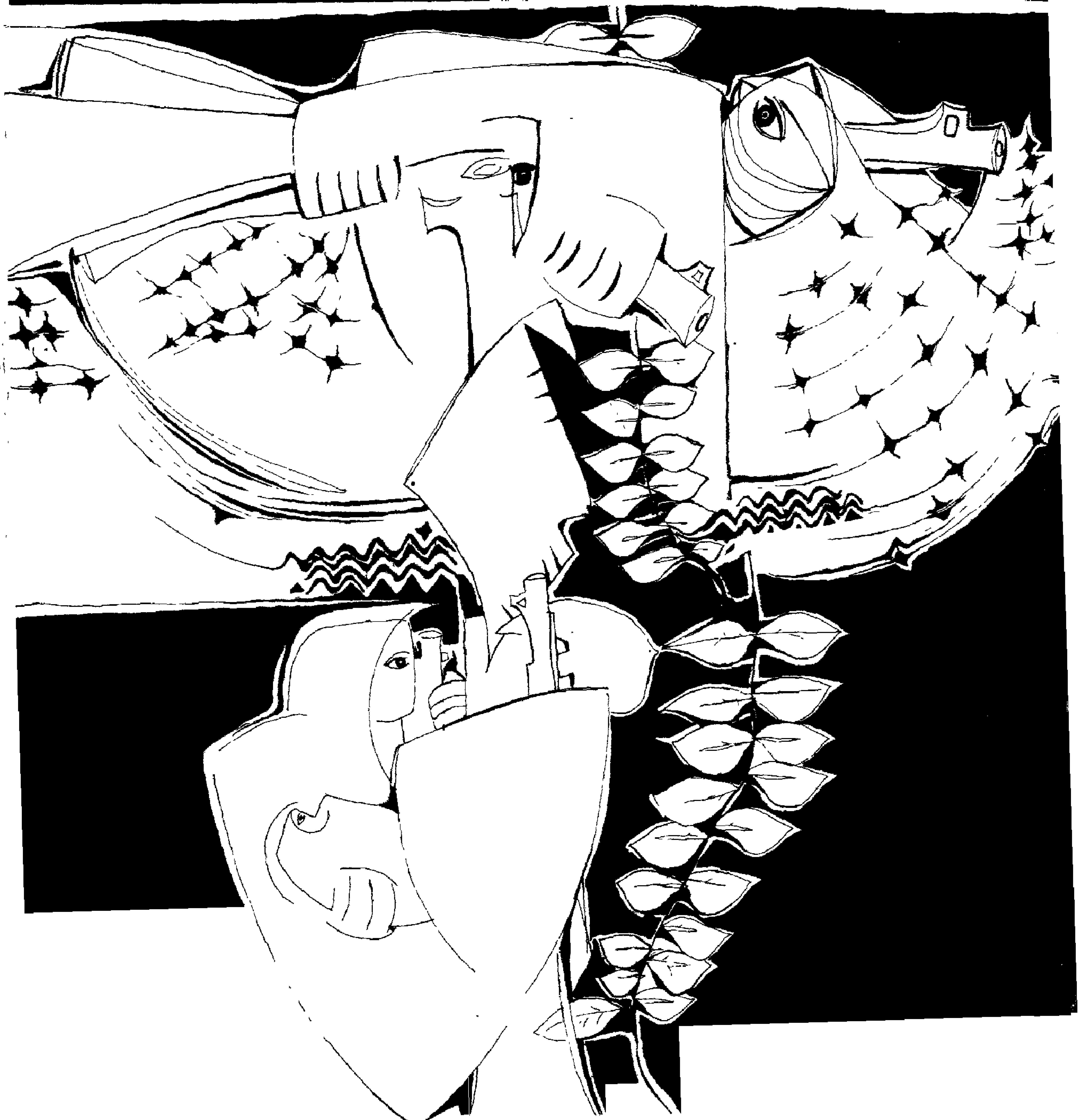
Published monthly in Arabic by the Palestine Research Center; *Editor*, Dr. Anis Sayegh; *Annual Subscription* (airmail): Lebanon and Syria L L 50, other Arab countries L L 60 or equivalent, Africa and Europe L L 80, elsewhere L L 100; *Annual Subscription* (surface mail): Countries outside the Arab World L L 50. *Address:* P.O.Box 1691, Beirut, Lebanon; Tel. 351260; Cables: MARABHATH.

السعر ١/٢ ٣ ل.ل. في لبنان
٤ ل.س. في سوريا
٤٥٠ فلسا في الكويت والعراق
٨ دراهم في دولة الامارات العربية
١/٢ ٤ ل.ل. في سائر الاقطار العربية

شؤون فلسطينية

٦٠

تشرين الاول / تشرين الثاني ١٩٧٦
(اكتوبر / نوفمبر)



شؤون فلسطينية

رئيس التحرير : الدكتور انيس صايغ

رقم ٦٠ — تشرين الاول / تشرين الثاني (اكتوبر / نوفمبر) ١٩٧٦

شهرية فكرية لمعالجة أحداث القضية الفلسطينية وشؤونها المختلفة .
تصدر عن مركز الابحاث في منظمة التحرير الفلسطينية .

يشارك في التحرير : محمود درويش .

مدير التوزيع : غازي خورشيد .

جميع الآراء الواردة تعبر عن وجهات نظر كاتبيها ولا تعكس بالضرورة آراء منظمة التحرير الفلسطينية ولا المحررين ولا المستشارين ولا الناشرين .

العنوان : بناية الدكتور راجي نصر ، شارع كولومباني (متفرع من السادات) ؛ رأس بيروت ، بيروت — لبنان ، ص.ب ١٦٩١ ، تلفون : التحرير ٣٥١٢٦٠ ، التوزيع ٢٢٦٥٨٥ ، برقيا مرابحاث ، بيروت .

ثمن العدد : ٢/١ ٣ ل.ل. في لبنان ، ٤ ل.س. في سوريا ، ٤٥٠ فلسا في الكويت والعراق ، ٨ دراهم في دولة الامارات العربية ، ٢/١ ٤ ل.ل. في سائر الاقطار العربية .

الاشتراك السنوي (بريد جوي) : ٥٠ ل.ل. في لبنان وسوريا ، ٦٠ ل.ل. في سائر الأقطار العربية ، ٨٠ ل.ل. في اوروبا وافريقيا ، ١٠٠ ل.ل. في اميركا واستراليا وآسيا .

الاشتراك السنوي (بريد عادي) : ٥٠ ل.ل. في جميع الدول غير العربية .

الغلاف بريشة الفنانة
منى السعودي

المحتويات

٤

دم لا يغيب

■ تتصرف الكتابة الان الى البحث عن ذاتها الموزعة بين التفاصيل والانهيارات والحلم · تجلس ، تنتظر ، تغيب ، وتعود الى النهر · سنحتاج الى كتابة جديدة ـ هكذا نصرخ مع الانفجارات وحرية التجول بين قنيفتين · وحين ياتي السكون ، وهو دائما نسبي ، نكتشف ونحن خارجون من الحماس والغبطة ان الكتابة جديدة دائما · ومع ذلك ، فان المطالبة تاخذ شكل الكفر حين يعيش الكاتب في التجربة الساخنة ، الملتهبة ·· حين يعيش الزلزال الدموي ، فيبحث عن اداة انخراط عاجلة قد لا تكون هي الكتابة · انه السؤال ـ المازق المزمن لا يجد جوابه الا في المسافة المولودة من الالتحام ·

وللحصى حواس قادرة على الادلاء بشهادة · قد لا يكون لمثل هذا العذاب وصف ، ولكننا نعيشه · واولئك الذين ماتوا ، وحيدين ، مع جلاديهم ورأوا دمهم على السكاكين الهادئة لا يدخلون الان الا في الرعشة والغضب ولا تسعهم عبارة · تبقى الكتابة غريبة عنهم وفيهم وتموت في التجربة · وتلك الطفلة الصغيرة الخارجة من تل الزعتر ، مضافة الى تراكم البساطة في الموت ، وهي تطير في الفضاء ·· تطير ولا تربطها باليابسة الا كف قاتلها الممسكة بالجديلة ··· لن تستطيع أن تدلي بعفويتها وعذابها لانها طارت وماتت · في هذا الزمن ، تخجل الكتابة من طبيعتها وتعترف ، نعم تعترف بانها عاجزة عن تقديم الخدمة الفورية للناس ، فليس بوسعها ان تنقذ طفلة من سادية قاتل ، ولا ان تسرق رغيفا من زحام شظايا ، ولا ان تقدم الماء لمحاصرين قريبين من البحر وفلسطين · هل نلغي الكتابة اذن ؟ انها تتمرد على ذاتها وتعرف انها تتحول ، في لحظة من اللحظات ، الى ترف · ولكن الحياة ذاتها تاتي دائما وتعترف بانها قاسية حتى السخرية التي لا ترحم حين تاخذ وجهتها وتسير استجابة لطبيعتها مزودة بسرها ونسيانها·

ونحن ايضا سنكتب · نمشي الى النهر بتجربة جديدة ، وبقلوب اشد ازدحاما

بالناس . ان اشياء كثيرة تسقط ، ومراحل كثيرة تغلق دوائرها ، ولا يسقط الحلم ، ولا يتوقف النهر . نكبر في التجارب ونصبح اكثر قدرة على الاقتراب من الانسان الذي لا تنقذه الا الثورة . ينمو فينا الفلسطيني والعربي المنى الإنساني ، وليس العكس هو الصحيح كما قد يتراءى للضيقين . ان للمؤقت جاذبية قصيرة العمر .. وفي البرهة امكانيتان : اما ان تتصل بالمدى ، واما أن تقيم في لذة الغريزة . والذين حاصروا انفسهم بالبرهة وقطعوها عن سياق التاريخ يشعرون الان برغبة صادقة في البكاء . اما الذين الحقوا البرهة بسياقها التاريخي فلا يكفرون بأحلامهم .

وباختصار : ان جيلا جديدا جديدا جديدا قد ولد ، وتبلور ، وعرف كيف يعرف وكيف يقاتل .لقد انتصر الفرد الجديد على سهولة الهزيمة الاولى، وعلى فضيحة حزيران ، ودخل بوعي جديد مرحلة الصراع الطويل مع تردد تشرين . لقد بدأ الخطو في الطريق الذي لا يخلو من تعرجات . ولن نسمي البرهة الراهنة باكثر من اسمها . انها مفترق بداية ونهاية وتقاطع حاسم ، والوعي الثوري الجديد هو الذي يحمل البوصلة . ولن يكون تمجيد المقاتل الفلسطيني الجديد ، اينما كان ، مجرد اغنية . هو الذي نقل الدفاع الى مواجهة . وهو الذي انقذ الامة ، حين انقلبت التحالفات ، من خطر الابادة وانهيار الحلم .

ان جيلا جديدا قد تبلور ، والصراع ما زال في الاوج ، وهو الذي يربط الكتابة بفاعليتها . وان الذاهبين في البداية الجديدة هم الذاهبون الى المستقبل .والذين استشهدوا في معركة الحلم العربي الجميل هم الذين أسسوا هذه الفاتحة . كانوا يعرفون الوجوه التي قاتلوها . وعلينا الان أن نقاتل الايدي التي تحاول أن تسرق نارهم ودمهم . ولن يسقط الحلم وقد تسلح !

محمود درويش

من أوراق مقاتل فلسطيني في الجبل

يحيى رباح

١٩٧٦/٣/٢٨

بعيدة هي المسافة بين سفوح جبل الشيخ حيث العرقوب ، وبين قمم جبل لبنان، حيث صنين والزعرور وجبل الكنيسة وتلال عينطورة ٠٠٠بعـيدة هي المسافة في المكان وفي الزمن النفسي ايضا ٠٠٠ ولكن كل شيء الان يتغير بطريقة انقلابية حادة ، طيلة السنوات الماضية كنا نفخر باننا في العرقـوب ، ننطق الكلمـة باعتزاز ، تتوهج مشاعـرنا ، تلمع بريق الاعـجاب في عـيون الاخرين حيـن يسألون ٠

ـ أين انتم ؟

ـ نحـن في العـرقوب ٠

العرقوب بوابة فلسطين ، العرقوب نقطة التماس الساخنة ، العرقوب خـط الصدام الاول ، وحينئذ يصبح الموت ٠٠ والقصف ٠٠ والمطر الذي يغـرق الخيام والخنادق ، وضيق التنفس خـلال الصعود فوق نتوءات الصخـور ، يصبح كل ذلك شيئا جميلا ، مشعا ضمن حالات من الشعـور بالخطر والفخـر والتقدم ٠٠٠ ولكن كـل شيء يتغير الان بطريقة انقلابية ، القتال يتسـع ٠٠ وتصبح المواقع الامامية في متاريس الشياح ، وقرى طرابلس ، وعلى حافـة البحر في الدامور ٠٠٠ وكنا قد سيطرت عـلينا حالة من الحزن ونحن ندير حوارا فاترا في خيمة محفور لهـا في الارض ٠٠٠ المطر يهطـل بتدفـق منتظم ، ودخان سجائرنا يرسم في فراغ الجنحة دوائر وعلامـات غامضة ٠

ـ كنا في الخط الاول ٠٠٠ صرنا في الخـط الاخير ٠

ولعل كل واحد منا اخذ نفسا اعمق من سيجارته ، لكـن صفيـر جهـاز اللاسلكي أعـاد الينا التوتر القوي من جديد ٠

ـ التحرك فورا الى الجبل ٠

٧

ليس للثورة خط أخير ، كل مواقع الثورة ، وأشكال وجودها هي خطوط اماميه ••• حيث يوجد الفدائي والبندقيه يوجد الخط الامامي ، وتفتح على مصاريعها جبهة القتال •

قمة الزعرور عالية جدا ، الفي متر عن سطح البحر ••• ابو فراس يقود الفصيل الاول ، الثلج ضيع الطرق ، يتراكم ماحيا حدود المسافات من السفح حتى القمة العالية •• وابو عيسى مساعد قائد الكتيبة يصدر الاوامر للمدافع بالرمي ، عليه أن يؤمن سدا ناريا لاسناد المقاتلين الزاحفين الى أقرب خمسين مترا •• أصيب ابو ابراهيم بجرح في عملية الصعود نزفت من ساقه الغائصة في الثلج بضع نقاط من الدم ••• قال معلقا :

ـ هذه هي العلامة الاولى •

علامة الفدائي هي دمه •

دم وثلج ولهب متفجر ، وعند الفجر وصل أبو فراس مع فصيله الاول الى القمة ، وعندما كانت قدماه تتركان بصمة الوصول فوق وجه الثلج عند اعلى نقطة ، أصابت طلقة من فلول الاعداء المهزومين المقاتل محمد دعيبس فسقط شهيدا • منذ بضع سنوات كان محمد دعيبس شبلا في مخيم اليرموك ، صار الان شهيدا فوق القمة العالية ••• حين تكتمل دائرة القذيفة يحدث الانفجار ، وحين تكتمل دائرة التضحية يحدث الاستشهاد •• وقال أبو خالد وهو في مركز القيادة المتقدم •

ـ امسكنا الان بالنقطة الاولى •

ثم بدأ بعد ذلك يصدر سلسلة من الاوامر التي تتعلق بأدق التفاصيل ، أبو خالد أشبه بنحات ماهر •• تتجذر الفكرة في رأسه ، وفي البداية تبدو قطعة الصخر لا معنى لها ، ثم بعد ذلك تتلاشى الاستحالة ، ويتكامل أمامنا شيء متناسق عظيم ، وفي البداية علق الكثيرون من منطلقات مختلفة ، كيف يمكن ان يصمد المقاتلون فوق هذه القمم الثلجية العارية ؟ لكن ابوخالد ، كان يجابه اسئلة الاستحالة بالصمت ، وبمتابعة المزيد من التفاصيل •

هنا الجبل ،

قمم صنين والزعرور والتلال الغربية وجبل الكنيسة وتلال عينطورة تتنامى

فيها الحياة ٠٠ صارت القمم الثلجية العارية اشبه بالمدن التي تمتليء بالناس والعلاقات والمواسم ٠٠٠ هنا الجبل

ـ انا قادم من الجبل

ـ انا ذاهب الى الجبل ٠

مزيج خاص متوهج من القسوة والاعتزاز والاعجاب ، دم وثلج ولهب متفجر ، نحن في الخط الامامي الاول ، ولن نكون في الخط الاخير ٠

١٩٧٦/٤/١١

زارنا منذ يومين عدد من اعضاء القيادة ، وكان يرافقهم هاني جوهرية المصور السينمائي في السينما الفلسطينية ٠٠ كانت آخر مرة رأيته فيها ، في ايلو عمان ١٩٧٠ ، سالته مازحا :

ـ ماالذي جاء بك الى هنا ؟

قال وهو يبتسم :

ـ جئت اتبع الوميض ، انني استطيع أن اتجاهل كل شيء ، ما عدا الوميض٠ هاني جوهرية ، هو الذي حفظ لنا عن طريق ذاكرة الكاميرا ،صور المجزرة والبطولة في ايلول ، ثم لم نعد نراه بعد ذلك ، رفضت المخابرات الاردنية منحه جواز السفر ، وظل يحاول الى ان خرج من عمان قبل اربعة شهور ، وها هو ياتي الينا مسرعا ٠

ـ أريد ان اصور فيلما حيا ٠

ـ ولكنك التقطت بما فيه الكفاية من الصور ٠

ـ هذه صور لاستهلاك الصحف اليومية لا بد ان نحتفظ بوثيقة حية للتاريخ ٠ كان ضوء الشمس باهرا ، والقمم الثلجية تضحك من شدة البريق ، وفي الليل نهض هانيجوهرية من نومه مشحونا بالتوتر ٠٠ سالني :

ـ هل يوقد المقاتلون نارا للتدفئة الان ؟

ـ نعم ٠

ـ اذن انهض ٠٠ سنذهب الى موقع يوقد فيه المقاتلون نـــارا ٠

ـ ولكـــن ٠٠٠

ـ ولكن أنا مصمم عـلى ان اسجـل بكاميرتي في هذا الليل القـارس ،العلاقة بين توهج الجمر ، وعـيـون الفدائيين ٠

اليوم صباحا ، قال هاني جوهرية للرائد ابو عيسى ،

ـ أنا ذاهـــب معـــك ٠

ـ ولكنني سأشرف على رماية المدافع ٠٠ ومواقع الانعزاليين سترد ٠

ـ وأنا أريد ان اصور تقاطع القذائف ٠

وصعـد الرائد ابوعيسى ومعـه هاني جوهرية الى التلال الغربية ٠٠ فـــي الساعـة الواحدة والنصف ظهرا ، كان هاني جوهرية قد تابع بالكاميرا ، وميض كل القذائف ، بما في ذلك القذيفة التي اضاءت في وجهه ومزقته ، واصيب الرائـد ابوعيسى اصابة بالغـة ، واكتمل المشهد الاخير ٠٠٠ لكن التلال والقمم صارت هي البند السري الاول في جدول أعـمال الضغوط والمساومات والتحضيرات ٠٠

ـ كيف استشهد هاني ؟

ـ مثلما يمكن ان يستشهد أي فدائي يتواجد تحت مظلة القصف ٠

وصار معروفا لنا في الجبل ، ان هناك فرقا هائلا بين بريق البطولة ،وتكاليف الصمود ، في المسافة من ترشيش الى عينطورة ، لم يبق من الاهالي سوى ابـو ابراهيم ، وهـو رجل عـجوز طاعـن في السن ، يبلغ من العمر خمسة وثمانين عاما ، بقي في المنطقة كأنه يحرس الذكريات ، او كأنه شاهد عيان لما حدث، ولمـا سوف يحـدث فيما بعـد ، ومعـه بقي ابنه ابراهيـم الذي يبلغ من العمر خمسة وخمسين عـاما ، والـذي فقد عـقله منذ كان صبياً صغـيرا ٠٠

ابراهيم المجنون يصرخ فـي الفراغ ، يتشاجر مع اشياء الطفولة التـــي لم يعـد لها وجـود الا فـي عـقله المضطرب ، وابو ابراهيم العجوز الطاعـــن يتذكر كل شيء ، حدود قطع الارض المغطاة بالثلوج ، ومواقع ينابيع المـاء التي تجف بعـد ذوبان الثلج، والتي تستمر طوال العـام ، والقنوات المخفية التـي تغذي المنطقة ، وانواع الكرز البلدي والايطالي ،وموعد نضوج التفـاح ٠٠٠٠ وكنا نتساءل دائـما :

ـ متى يذوب الثلج ؟

فيرد ابو ابراهيم بلهجة الواثق :

ـ أيام ٠٠ أيام بسيطة ويبدأ الثلج في الذوبان ٠

فجأة يتساقط الثلج بكثافة ، ثم يهطل المطر كأنه انهار دافقة من السماء ٠

موجات متعاقبة من الثلج والمطر والضباب ، وابو ابراهيم حارس هـذه التلال عبر السنوات الطويلة ، يختلط عليه الامر ، يتمتم باندهاش ٠

ـ شيء عـجيب ، من خمسين سنة ما حصل شتاء مثل هذا ٠

والمقاتلون يعلقون بمراره :

ـ لماذا نحن الفلسطينيون ، تحـدث معـنا الاشياء النادرة ؟؟

في اعوام الرحيل الاولى داهمنا المطر حتى انه اغـرق الخيـام فجرفتهـا السيول ، وازال عـن وجـه الارض اكواخـنا الطينية ٠٠ وقالوا يومها ٠

ـ هذا شيء نادر يحدث لاول مرة ٠

ثم الاوبئة ، والجوع ، والجراد ٠٠ والعـذاب الذي لا يصدق ، كل ذلـك لم يحـدث للاخرين من قبل ٠٠

في التلال الغربية يختلط المطر مع القصف ٠٠٠ يختلط الغرق مع الموت ٠٠ يضعف الشباب في احـد المواقع ٠٠ يضعـفون ويحاولون التراجع الى السفوح اتقاء للمطر والشظايا التي تضيء وتمزق الاجساد ٠٠ ولكن ابو محمد قائد الموقـع يقول لهـم :

ـ تذكروا جيدا ٠التراجع معـناه ان تعـود مخيماتنا حظائر للحـزن ، وان تعـود أحذية الجلادين تدوس رؤوسنا ٠٠كل من يدافـع عـن خندقه ٠٠ يدافـع عن شرف امه حتى لا يهـدر من جديد ٠

ويرسل ابو محمد برقية عـلى الجهاز عـن اخـر تطورات الموقف ٠

ـ يستمر المطر ٠٠ يستمر القصف بمدفعية الهاون ومدافع الدبابات ، لكننـا

جزء من هـذه التلال ولن نرحـل ابدا ٠

والان البرقيات تتوالى من المواقع :

ـ تقطعت الخيام

ـ امتلات الخنادق بالميـاه ٠

ـ ملابسنا واغطيتنا اختلطـت بالوحـل ٠

ـ يوجـد عـندنا حـالات تجمـد ٠

ـ القصف كثيف فـوق كافـة المواقـع ٠

ـ صامـدون ٠٠٠ والمعنويـات عالية ٠

يبتسم الرائد داوود ابو الحكم ، تخرج ابتسامته مشحونة بالسخط ، يعـلق قائلا :

ـ القمم قريبة من السماء ،

لنرسل برقية استغاثة الى السماء ٠

ابو خالد قائد المنطقة ينادي بانفعـال مسيطر عـليه :

ـ الى السماء ٠٠ الى السماء ٠

مطلوب وقف الثلج ٠٠ مطلوب وقف المطر ٠

يعلق احد المقاتلين قائلا :

ـ لم يتوقف شيء ، يبدو ان السماء صماء ولا تسمع ٠

نضحـك ، نضحك كثيرا فيهدأ الانفعال ، وتنتشر الدعابة في كافة المواقـع وعـلى السنة كل المقاتلين ٠

ـ لن نرسل برقيات الى السماء ، لانهـا طرشاء ولا تسمع ٠

تضيء الابتسامات في الوجوه المرتعشة من الارهاق والصقيع ، ولكنهـا ابتسامات تلمع بين حافة الموت وحافة الموت ، ويصبح الوضع عندنا اكثر تعقيدا ٠٠٠ فوق التلال لا نستطيع ان نرسل للمقاتلين سوى ارزاق ناشفة ، حيث عـملية الطهو مستحيلة تماما ، يضاف الى ذلك ان الفصيل من المقاتلين الموجود في اية نقطة ، يحتاج الى فصيل اخـر لكي يوصل اليه التموين والذخائـر والاسلحة ، والطرق الشاقة مغـلقة امام الاقدام التي اهترأت احذيتها ، بشكـل عشوائي ، لكن الجبل صار يعبق برائحتنا ، ويتوهج بدمنا ، ويحمل اسمنـا وملامحنا واثار خطواتنا العارية ٠

٧ـ١٠/٥/١٩٧٦

كل التفاصيل اصبحت تؤكد ان الهجوم سيقع فجرا ، حركة اليات الانعزاليين وحشودهم في المروج وبولونيا وبسكنتا ٠٠ ورمائية مدفعيتهم التي كانت تسجـل مواقعـنا ، والمعـلومات القادمة من خـلف خطوط العـدو في بتغرين وغيرها ، والرموز التي تم التقاطها من خـلال التنصت عـلى أجهزةاللاسلكي ، وها نحـن ننتظر وقوع الهجوم ، وصل ابومازن من اجازته من دمشق ، سألناه :

ـ كيف الاجازة ؟

ـ ليست مريحـة ٠

ـ لمـاذا ؟

ـ لان دمشق أصبحت غير مريحة ٠

وصل ابومازن من اجازته بعد الظهر ، واندفع فورا الى موقعه في التلفريك، واعطيت الاوامر من قبل قائد المنطقة الى الجميع بالاستنفار ٠٠ والى المدافـع بأن تكون جاهزة للعمـل ، والى كافة المواقع باليقظة التامة ،والى جميع محطات اللاسلكي بان تفتح باستمرار وبتمرير اية معلومات مهما كانت صغيـرة باقصى سرعـة ، وفـي مثـل هـذه الحـالات يستنفر الجسم البشري ، تنهض فيـه طاقة كامنة لم تكن ظاهرة من قبل ، اكتشفنا هذه الحقيقة منذ سنوات ، فـي

الظروف العـادية يشعـر الانسان بالنعـاس فلا يستطيـع ان يغـالب النـوم، يشعر بالجوع ·· بالعـطش ·· بالمرض ·· فيضعـف وينهار ··· ولكن الان تنهض طاقة سرية ·· يصبح الجسم جهازا شديد التعقيد ، شديد التحمـل ، شديد الحساسية ·· وفي حالات من هذا النوع ايضا ·· يتبلور فهم خـاص للاشياء وعلاقات خاصة معهـا ·· أذكر انني كنت أتبادل الدعابات الجـادة مع يونس ضابط المدفعية ، وكان يقف معـنا أبو نضال وابو راكز عامل الاشارة، وكنا نتـحدث بمرح عـن النسبية الجديدة ··

ـ أيهما افضل ، ان تعيش بساق واحـدة ، أم الموت ؟ بذراع واحـدة ام الموت ؟؟؟

وقال يونس ضابط المدفعية ·

ـ أي شيء احسن من لا شيء ·

وكانت مناسبة الحديث ان مقاتلا فقد أحـد اصابع يده اليسرى بفعـل احـدى الشظايا ·· ولعلنا كنا نريد تعزية انفسنا ·· ذلك اننا في جبهة القتـال حيـن يصاب واحـد منا ·· يشعـر كل واحـد من الباقين انالدور سوف يحل عليه بعـد ذلك ·

بدأ الهجوم في تمام الساعـة الخامسة والنصف فجرا ، تمهيد بقصف مدفعي كثيف على كافة المواقع ، تتشابك نداءات اجهزة اللاسلكيتنقل المعلومات والاوامر ·· وتتشابك في تشكيل عجيب قذائف المدفعية من عيارات مختلفة، وقذائف مدفعية الدبابات ·· والرشاشات المختلفة ، وتصبح الدقائق خطوط اتصال ناريـة لا تنتهي ·· تحطمت موجة الهجوم الاولى في صنين وتحطمت موجة الهجوم الاولى في التلفريك ، موجات الهجوم تتوالى ، الآليات المعادية تقترب اكثـر من الكمائن المتقدمة ، سقط موقع الدوشكا ، الانعزاليون اقتحموا موقع الفنادق ، ابو نضال بقي وحيدا على رشاش الـ ٥٠٠ وابو مازن يقود هجوماً معاكسا ، ابو مـازن يطارد فلول الانعزاليين ويستعيد موقع الفنادق ، يشتد القصف من مدفعيـة الدبابات على رشاش ابو نضال ، تتكالب عليه القذائف حتى يسقط شهيدا ··· وابو مازن يقاتل على رشاشه ٢٤ ساعة متواصلة ثم يستشهـد وابو راكـز تصدعه قذيفة دبابة فيتهدم مثل الجدار الصلب ·

اعترف الانعزاليون بوقوع قرابة خمسماية اصابة بين قواتهم ، بالاضافـة الى احدى وعشرين آلية مختلفة ، وبعض المدافع والرشاشات ، والاسلحـة والذخائر التي غنمناها ·· ولكننا فقدنا عددا منالشهداء وفقد ابو مازن ، كـان

حادا مثل السيف وقويا مثل الصخرة ، وها هو يتكسر الآن دون ان نتمكن من احضار جثته فورا ٠٠ يونس ينظر في وجهي ويسكت ٠٠ في جبهة القتال تكبر الاشياء آلاف المرات ، او تصغر الاشياء آلاف المرات ٠٠ فقدنا ابو مازن ٠٠ ابو مازن مقاتل واحد ٠٠ ولكن في جبهة القتال واحد يمكن ان يكون ثغرة ويمكن ان يكون انتصارا ٠٠والموت ٠٠ الموت كله يمكن ان يختزل في جبهة القتال الى كلمة ، أو ايماءه ، أو الى الصمت في اغلب الاحيان ٠ يزداد عدد شهدائنا الذين نزرعهم في الجبل ، لكن الجبل يصبح كبيرا ووحشيا مثل الحرب ، واليفا مثل تحية الصباح ٠٠ صار الجبل وتضاريبه وطرقه ضمن قاموسنا اليومي ٠٠ موقع الدوشكا ، فنادق الشهيد ابو مازن ٠٠ تلة الشهيد فاخر ٠٠

وحين يستشهد واحد في الصباح وواحد في المساء ٠٠ نقول في اللغة اليومية لجبهة القتال ، الشهيد القديم والشهيد الجديد ٠٠٠

الجبل ٠٠ صنين ٠٠والزعرور ٠٠ والتلفريك

الجبل ٠٠ عينطورة ٠٠ المتين ٠٠ قرنايل ٠٠ رأس المتن ٠٠

الجبل ٠٠ وهم وحقيقة

صمود ٠٠ وموت

بطولة ٠٠ وشظايا

الجبل موقع متقدم ، ودائرة حصار ، وقرار صعب ، وفعل يومي ، وخنادق وتحصينات ، وجداول رماية ، ومقاتلون ، ومليشيا٠٠ الجبل مجهول كالخرافة٠٠ ومألوف كالبيت الصغير ٠٠ في مقر القيادة كانت ملصقات الشهداء تتكاثر ٠ ٠ ملصقات بالوان مختلفة واحجام مختلفة ٠٠ ملصق بواحد ، ملصق باثنين ، ملصق بثلاثة ، ملصق باربعة ٠٠

وكنا في لحظات الاستنفار القصوى ، ننظر الى وجوه بعضنا بحنو غريب٠٠ ويتساءل كل واحد منا بينه وبين نفسه :

ـ ترى من منا يرتفع الى الجدار في المرة القادمة ؟ يطرد الواحد منا هذه الفكرة المزعجة على الفور ٠٠ لكن الملصقات التي تحمل وجوهنا وتواريخ الميلاد والاستشهاد ٠٠ تتكاثر مثل طحالب البحر فوق الجدران ٠

١٩٧٦/٦/١١

حزيــران شهر الهزيمة

حزيران شهر المهزومين

سألني مقاتل من مخيم عين الحلوة ، بينما الطبيب ينظف له جراحه من آثــار الشظايا ٠

ــ هل كنا نعرف طبيعة النظام السوري ؟

ارتبكت ٠٠٠ ولقد تعلمت منذ زمن بعيد ، ان الاسئلة البسيطة هي التي تثيــر الارباك دائما ٠٠ لان الاجوبة عنها تتطلب الحقيقة ٠٠ ومن الذي يريد الحقيقة ؟

ــ نعم ٠٠ كنا نعرف طبيعة النظام السوري ، فلقد جاء على اشلائنا في ايلــول والاحراش ٠ فألح ذلك المقاتل بصوت متعب وحزين ٠

ــ اذن ، لماذا ٠٠لماذا ؟

مرة اخرى ارتبكت ٠٠ وقلت للطبيب ٠

ــ هل جراحه خطيرة ؟

ــ نعم ٠٠ ولكنه سيعيش ٠٠

وخرجت من العيادة الخلفية ، وكان ثمة حوار يدور حول حادث وقع اليوم في البقاع ٠٠ ذلك ان شاحنة تقل عددا من القرويين مرت على حاجز للجيش السوري عند مثلث قب الياس ٠٠٠وحين توقفت الشاحنة تصايح القرويون ببساطــــــة ملوحين للجنود ٠

ــ طريق الجولان ليست من هنا

وحينئذ اطلق الجنود السوريون نيران رشاشاتهم ٠٠٠ فقتل واحد من القرويين واصيب أربعة بجراح ٠٠ وكان القرار في الجبل ، أن البقاع لا يجب ان يخلو من الانفجارات والعبوات الناسفة والقنابل ٠٠ لا يجب ان يخلو من المقاومة ٠٠ وكان الجبل قد تحول من مجرد موقع الى تجربة ٠٠ حالة من النهوض ٠٠ تمركز حول شيء محدد الملامح ، المقاتلون من مختلف الفصائل أصبحوا مقاتلين في فصيل واحد اسمه الجبل ،

صار الجبل متراسا ٠٠

صار الجبل تجربة متكاملة القوى والعلاقات ٠٠

صار الجبل خيوطا تمتد من البقاع الى بيروت ومن مخيم اليرموك الى مخيم تل الزعتر ٠٠

صار للجبل ابطاله الذين لم تلصق صورهم بعد على الجدران ، أمثال ابو زياد صنين ، والشيخ عمر التلفريك ، وجهاد التلال الغربية ، وأبو خالد هاشم قاع الريم ، وعامر بطل تشريك الصواريخ ، ويونس بطل المدفعية ٠

وصار للجبل حكاياته ايضا ، من بين هذه الحكايات ان عمر السعدي سائق سيارة اللاندروفر الخضراء ، ارتبط بقصة حب مع آمنة احدى المرضات في مستشفى الشهيد فاخر ٠٠ وهو مستشفى ميداني جهزناه في كفرسلوان ، وأنه كان يعد الايام بسرعة ليكون معها أول عروسين في الجبل

عمر السعدي جاءنا ساخطا

ـ مـاذا ؟

ـ جرافة سورية تحرسها دبابة ، تقوم بسد الطريق عند ثعلبايا ٠

وثارت الاسئلة

هل يقاتلنا السوريون ؟؟

هل نقاتل السوريين ؟؟

وقبل ان تكتمل الاجوبة وجه السوريون انذارا ٠

ـ الانسحاب الفوري أو القتـــال

ـ لا ٠٠ الصمود

ثم بعد ذلك ، وقبيل الغروب بساعتين ، تصاعدت أعمدة الدخان والغبـــــار من مواقع متعددة في المنطقة ، ثم توترت اجهزة اللاسلكي وهي تنقل اخبـــــار الهجـــوم ٠٠

ـ قصف كثيف وتقدم آلي على صوفر

ـ قصف كثيف وتقدم آلي على صيدا

البرقيات تتقاطع

ـ الى جميع المقاتلين

اجعلوا من أجسامكم الغاما تتفجر في وجوههم : وبسرعة تمت عملية امتصاص الصدمة الاولى ، فأصدر ابو خالد أوامره بأن تندفع مجموعات وتصطدم مـــع الدبابات في صوفر ٠٠ تحطم الهجوم فيصوفر ٠٠ وجاءت برقية من صيدا تقول:

ـ صيدا تسهر على الدبابات المحترقة

الجبل ٠٠ الطموح ٠٠ التجربة ٠٠ مثل صيدا ٠٠ حدد كل الملامح ٠٠ وأعلن الصوت بكل قوة ٠

كيف تحمي التجربة ؟

ماذا سيكون ثمن التجربة ؟

ما أصعب السؤال ٠

ولقد ضاعف من قسوة الاسئلة على نفوس المقاتلين في الجبل أن فاخـــــر

النحال قد استشهد ٠٠ كان فاخر بطلا/حقيقيا من أبطال حرب الشعب ٠٠ يحفر الخنادق بأصابعه ، ويتسلق كل الصخور ، ويزرع الالغام والدبابات تتقدم نحوه لكي يتأكد انها ستنفجر ، وينام متقدما عن أول مقاتل من مقاتليه ٠٠ وأهم من ذلك كله أنه لا يشكو أبـدا ٠

سألته مرة ٠٠ لماذا ؟

أجـاب :

ـ كلما ساءت الامور أعد نفسي لان تصبح الامور أكثر سوءا ٠

وأذكر ان النقيب فاخر النحال تدرب على نوع جديد مـن الصواريخ لمـدة ساعات فقط ٠٠ ثم انه بعد ذلك اطلق الصاروخ الاول فدمر دبابة للانعزاليين ، ثم أطلق الصاروخ الثاني فابتعد في التلال ٠٠ يومها فقط رأيت فاخر غاضبا ٠٠ وها هو يستشهد ٠٠ ولكنه ظل بيننا مثل الحالة ٠٠ اطلقنا اسمه على احـدى التلال ٠٠ فصار اسمها تلة الشهيد فاخر ٠٠ وأطلقنـا اسمه على المستشفى الميداني االذي جهزناه ، فصار اسمه مستشفى الشهيد فاخر ٠ ولقد حاول كـل واحد منا ان يبدو قويا وخاصة أمام المقاتلين الذين يعشقونه وفجعوا بموته ٠٠ لكن حين يحدث الموت ينظر الواحد ويتساءل :

ـ من منا سترتفع صورته على الجدار في المرة القادمة ٠

١٩٧٦/٧/١٣

لن تعود الاحراش ثانية

هبت خلال الايام الماضية رياح قوية في الجبل ، رياح كنا نشم معها رائحـة الاحراش . ولقد قام السوريون في مطلع هذا الشهر بنسف جسر قبيع ٠٠ وقطع الطريق بالرشاشات والقصف المتواصل ٠٠٠ وهكذا صار الجبل دائرة مكتملـة الحصار ، اتخذنا كافة الاحتياطات ، شكلنا لجنة من النساء في قرية كفر سلوان مهمتها تحويل اكياس الطحين ، الى أرغفة من الخبز ، وأصلحنا فرنا في المنطقة كان معطلا منذ فترة طويلة ٠٠٠ وكان نبيل وخليل ولؤي ومصطفى قد ثبتـوا جذورهم فوق جبل الكنيسة وعلى امتداد سفوحه التي تصـل الى احـراش كفر سلوان ، والى قرية بوارج حيث أشرف نبيل وخليل على اعادة النهـوض

بخلايا التنظيم في المنطقة ، واعداد برنامج للشباب هناك للمشاركة في القتـــال ضمن مهمات مختلفة ٠٠ نبيل جاء من متاريس الشياح هو ومصطفى ٠٠

قال لنا ذات مرة :

ـ أن قتال يوم واحد هنا ، يعادل عشرة أيام قتال في متاريس المدن ٠

ـ لمـاذا ؟

ـ هنا كل شيء تواجهه مباشرة ، تواجهه عاريا ٠٠ ابتداء منشظايـــــا القذيفة ٠٠ وانتهاء بخط سير المؤامرة ٠

كنا في الجبل قريبين مـــن كل شيء ٠٠ نلامس كل شيء ٠٠ قريبين مــــن السوريين والانعزاليين ٠

من الحصار والنجـاة

من القمـة والقاع

كنا في الجبل في كل لحظة قريبين منالقرار الشجاع ومن الانتظار القاتل ٠

ولقد وقع اليوم حادث مؤلم هزنا من الاعماق ٠٠ ذلك ان قتالا نشب في صنيـن على ارتفاع ٢٦٠٠ متر عن سطح البحر ٠٠ قتال برز فيه أبو زياد كبطل حقيقي٠٠ وبرز فيه أبو خالد جورج والشيخ علي ومحمد شبارو وعشرات من المقاتليـــن كانوا يدوسون على نتوءات الصخور بأقدامهم العارية ٠٠ وكانوا يقفون فـوق أعلى قمة مثل آلهة جدد ٠٠ ولكن مقاتلا من هؤلاء شطرته قذيفة مباشرة الـــى نصفين ٠٠ وحين اردنا ان نحمل جثمانه ٠٠ لم نجد سوى نصفه العلوى ٠٠ أما النصف الآخر فلم نعثر عليه ٠٠ بحث الشباب طيلة النهار وطيلة الليل ٠٠ لكـــن يبدو ان نصفه الآخر قد تطاير الى الجانب الاخر ٠

وصرنا نتساءل :

هل مصير كل شيء أن ينشطر الى نصفين ؟

هل نحن أمة واحدة أم أمتان ؟

هل ٠٠٠ هل ٠٠٠ هل ؟

اسئلة كثيرة تدور ٠٠ اسئلة مغموسة بالدم ٠٠ معجونة بالاشلاء ٠٠ متوهجة بطموح عظيم ٠٠ وصلنا ان الصحافة الاجنبية كتبت عنا في تقاريرها ، اننـــا اعدنا للسلاح شرفه المهدور في الشرق الاوسط منذ ثلاثين عاما ٠٠٠ كنت أتحدث مع ابـو شهيد عن ذلك ، فسألني :

ـ ما هو الموقف ؟

ـ أن سلمنا متنا ٠٠ وان قاتلنا يمكن ان ننجو ٠٠

اطرق ابو شهيد قليلا ثم قال :

ـ اننا سيف هذه الامة ٠٠ كيف تكسر أمة سيفها ٠٠ وتبقى عزلاء في وجـــه الغـزو ؟؟

كانت معارك تل الزعتر قد وصلت الى مراحلها القصوى ٠٠ وكنا نشـــارك بمدافعنا في صنع الحزام الناري حول المخيم حتى نمنع الاجتياح ٠٠ وكان عزمي الصغير يقود المجموعات التي تخترق الحصـــار وتصـــل الى تل الزعتـــر ٠٠ مجموعات من المقاتلين يحملون الذخائر والتموين وقطرات الماء ٠٠ كنا في الجبل بمحاذاة كل شيء ٠٠

بمحاذاة العذاب والبطولة

الحقيقة والخرافة

الحصار والطوفان

كنا في الجبل نشبه بعضنا في الكلمات

في العقـل

في الطموح

الشيوعي والفتحوي والرفض ، كل المقاتلين من كل المنظمـــــات والاحزاب ،

صاروا مقاتلين في حزب واحد أسمه حزب الجبل·· حتى أصحاب البغال من القرى المجاورة الذين كانوا يوصلون التموين والذخائر الى المواقع الوعرة ، وأبو عمار القروي من كفر سلوان دليل الطرق الصعبة ، ورعاة الماعز ،وسائقي الجرافات صارت لهم نفس ملامحنا ·· وحازوا على هوية جديدة في وطن جديد اسمه الجبل ·

٨/١ ـ ١٩٧٦/٩/١

تراكمت عندنا في الجبل مسائل كثيرة دفعة واحدة ، من بينها انمناطق كثيرة الحقت ضمن مسؤولية أبو خالد ·· منطقة المتين وقرنايل وحمانا ورأس المتن ·· وزادت الاعباء ·· وكان آخر تقرير للموقف قدمه ابو خالد قائد المنطقة ان هناك سبعة عشر محورا صالحة لتقدم الآليات السورية والانعزالية ·· وصار واضحا ان فرقا هائلا بين الجبل كتجربة وحالة ·· والجبل كامكانيات ·· وها نحن نعبر الآن المسافة الحرجة بين الهاجس والقرار الشجاع ·· وقد استشهد ابو خالد جورج في صنين ··

كان قد شق الطرق الى القمم ·· وعلم الشباب الذين معه كيف ان كل شيء مهما كان صغيرا ، له أهمية قصوى في جبهة القتال ، وكان الى جانب كل ذلك متواضعا وهادئا مثل نسائم الصيف ، يحدث القصف ، تئز اجهزة اللاسلكي بحالة الاستنفار ، تختلط ذرات الهواء بالرصاص وشظايا القنابل ·· لكن ابو خالد جورج يظل هادئا ·· يتحدث بصوت خفيض ، يبتسم باتزان ويحزن باتزان كذلك ، يحرص على مد جسور من الالفة مع كل الاشخاص ومع كل الاشياء ·· وحين استشهد سيطرت علينا حالته ، أختفى كل واحد منا وراء شجرة تفاح وذرف دموعا صامتة ··

واستشهد ابو سنبل الذي كان نسرا من نسور العرقوب ، قدماه تركتا آثارا فوق جبل الشيخ ، وفي لحظات الموت المحدقة كان يعبر الحواجز النارية ·· استشهد ابو سنبل في المتين ·· قال واحد منا ·

ـ اقترح ان نقيم مقابر لشهدائنا في كل مكان نصل اليه ·

ـ لماذا ؟

ـ هذه آثار رحلتنا العظيمة

ـ ولكن لو نجحت المؤامرة . فأنهم سيجتثون حتى قبور الشهداء ·

فلسطين هي المستهدفة

فلسطين الوطن

فلسطين الشعب

فلسطين الملامح السياسية

فلسطين الحالة الثورية ٠

وها نحن ندافع بآخر ما نملك عن كل شيء ٠٠ وسقط مخيم تل الزعتر ، طوال شهرين من حصاره كنا نشارك في صنع حـــزام ناري حول المخيم لكي نمنـــع اجتياحه ٠ وكان عزمي الصغير يبذل جهودا مستحيلة لدفـــع مجموعـــات مـــن المقاتلين ، يخترقون الحصار ، ويصلون الى المخيم ، يحملون على اكتافهم الذخيرة والمؤن واوعية الماء وما يتوفر من الادوية ، وكان ابو خالد قد قدم اقتراحا لانقاذ مخيم تل الزعتر ، زيادة المشكلة تفاقما ٠٠ احتلال مواقع جديدة للانعزاليين فـــي بولونيا والمروج والصفصاف وضهور الشوير ٠٠ والوصول الى ابواب بكفيا٠٠ الاقتراح لم ينفذ ٠٠ فلقد كان يعني الدخول في مرحلة كسر عظم للانعزاليين ٠٠ ولم تكن الآفاق السياسية السائدة تتناسب مع ذلك ٠٠

سقط مخيم تل الزعتر مثل انهيار الارض ٠٠ وكنا في الجبل قد وصلنا الـــى مرحلة الحوارات الساخنة ٠٠

قال ابو خالد :

ــ يجب ان نخرج من حالة الجمود ، يجب ان نكسر حالة الانتظار القاتلة ٠٠

عقد اجتماع للكوادر في المنطقة ، تبلور الموقف عن عدة مبادرات ٠٠واستدعينا اعضاء القيادة واحدا وراء الآخر لمناقشتهم في الامر ، ووضعهم في صورة كـــل التفاصيل ٠٠ وكنا نلح على ضرورة القرار الشجاع ٠

ــ دفع مجموعات تقاتل الى البقاع ٠

ــ الامساك بزمام المبادرة

ولكن ذلك كان يعني تحليلا دقيقا للوضع ، وإتخاذ قرار بكسر الجرة مـــع

السوريين ..

ـ القــرار الشجــاع

ـ القــرار الشجــاع

وكنا في الجبل قد توحدت رؤيتنا .. كنا نتحدث بنفس الكلمات ، صــارت وجوهنا متشابهة .. خليل من الحزب الشيوعي ، وبلال من منظمة العمــل ، كلنا صارت لنا نفس الملامح ، كلنا صرنا مقاتلين عربا في جبهة واحدة اسمهــا الجبــل ..

٩/١ ـ ١٩٧٦/١٠/١

يقول المثل الفلسطيني « أيلول ذيله مبلول » .

ايلول مبلول بالماء أم بالدم ؟؟

قال أبــو خالد :

ـ سيكون الهجوم في أول الشتاء

وقال الرائد داوود أبو الحكم :

ـ سيكون الهجوم في أول الربيع

ـ هل تراهن ؟

ـ نعم أراهن .

وكان عمر السعدي قد أتى مع عروسه ، جاء سيرا على الاقدام من ثعلبايــا الى توتيا .. كانت في انتظارهما سيارة اللاندروفر المدهونة باللــون الاخضر، كانت العروس ترتدي ثوبا أبيض ، وتحمل في يدها باقة صغيرة من الورد ، وكان هو يبتسم ، يتخيل مع نفسه التعابير المحببة التي سيقولها لهما الفدائيون فيالجبل

أول عروسين في الجبل .

ادار محرك سيارة اللاندروفر الخضراء ، وانطلق كأنه يمتطي صهوة مهـــرة جامحة ، كانت القمم تقترب اكثر ٠٠ ووجوه الفدائيين تتكاثر ، ثم حدث الانفجار. تطايرت اشلاء السيارة والعروسين في الفراغ ، ثم عادت وارتطمت بالارض ٠٠ ابتسامة جمدها الموت على وجه عمر السعدي ، أما هي فقد تجمدت يدها علــى باقة الورد الصغيرة الممزقة المغموسة برائحة البارود ٠٠

وقع هذا الحادث في الاسبوع الاول من الشهر ، صارت الشمس تحتجب لبعض الوقت في النهار ٠٠ وصار الضباب عند الغروب يملأ الاودية العميقة ٠٠ فتبـدو التلال والجبال حين تتدافع موجات الضباب وراء بعضها ، كأنها تسبح في بحـر خرافي ليس له حدود ٠٠

وكانت آخر برقية قد ارسلت من قيادة المنطقة الى مركز العمليات الرئيسية في الساعة الحادية عشرة من مساء ٢٧/٩ تقول :

ـ ان هجوما مؤكدا سيقع صباح الغد ٠

ووقع الهجوم فعلا ،

سدود من النيران القت بها راجمات الصواريخ ، والمدافع المتنوعة العيارات ، ومدافع الدبابات ، والرشاشات ، وارتال من الدبابات والمشاة تتقدم على عـــدة محاور لتلتقي عند محور رئيسي حيث مركز القيادة ٠٠ لكي يكتمل الطوق ٠٠ وتتم عملية الابــادة ٠

ابو خالد يحاول ان يسيطر على عملية القتال والتراجع ، فيختار الطريق التي لا يتوقعها الاعداء المهاجمون ، والرائد ابو الحكم ، يقوم بالملاحظة لرماية المدافع يصاب من جراء قذيفة مباشرة ، تفتح الشظية ثغرة في جنبه الايسر فيتدفق الدم ٠٠ يحاول بيده ان يوقف النزيف ويهبط مشيا على قدميه من تلال قرنــــايل ٠٠ يتمتم لنفسه :

ـ لقد خسرت الرهان ٠

يتدفق النزيف ، يصبح على وشك الاغماء فيقول لنفسه :

ـ اذا اغمي علي ٠٠ انتهيت ٠٠ يجب ان اظل مستيقظا ٠

وطوال الطريق الوعرة ، يظل ابو الحكم متشبثا بكل ارادته بحافة التوازن والصحو حتى لا يحدث السقوط ·

ويتواصل الهجوم والتقدم عبر دائرة كاملة مقلقة ، ابو خالد يسيطر على القتال والتراجع ، من ترشيش ، الى مجدل ترشيش ، الى تلال عينطورة ، الى المتين ، الى رأس المتن حيث يشكل اخر عقدة قتال ، السوريون والانعزاليون لليوم الرابع ، يعزفون لحنا واحدا متناسقا ، اسمه لحن ابادة الفدائيين وخيانة كل شيء ·· ابو خالد يشكل في رأس المتن اخر عقدة قتال ، بما تبقى من القذائف المضادة للدروع مع مدفع واحد يدمر خمس دبابات سورية ·· لكن الثغرة الوحيدة التي يمكن ان يخرج منها مع بقية المقاتلين توشك ان تغلق بالنيران والدبابات ، والمقاتلون الذين بنوا معه تجربة الجبل يقولون :

ـ لقد تحطمت التجربة ·

لكن ·· لا يجب ان يتحطم الرجل ··

توشك ان تطبق دائرة الحصار القاتل ، ابو فراس على رأس فصيل من المقاتلين يحاول ان يفتح ثغرة في الحصار ، في تمام الساعة الثالثة من يوم الاول من تشرين يتمكن ابو خالد ومن معه من الافلات من اطباق الدائرة ، ويستشهد ابو فراس راسما بدمه الساخن ، آخر المشاهد لقصة عظيمة دامت اكثر من مئتي يوم ، قصة اسمها الطموح والموت في الجبل ·

ثمانية مكاسب اسرائيلية من الحرب الأهلية في لبنان

المقدم الهيثم الأيوبي

بدأت الحرب الاهلية اللبنانية منذ ١٨ شهرا بين طرفين محليين تصاعد التناقض بينهما الىدرجة جعلت من المتعذر الوصول الى حل مقبول بالوسائل السلمية ٠ وكان من المكن ان يحسم أحد الطرفين النزاع لصالحه ، فيحقق اغراضه، ويفرض ارادته ، ويؤمن بالتالي مصالحه على حساب الطرف الاخر ٠ ولكن الامور لم تجر بهذا الشكل ، فلقد تدخلت في الصراع منذ بدايته (بشكل مباشر او غير مباشر) اطراف عربية ودولية ، فامتنع الحسم السريع ، وطالت الحرب ، وأصبح بالامكان اعتبار الطرفين المتنازعين خاسرين ، طالما انهما تكبدا ما تكبداه دون ان يحققا اغراضهما ٠

ورغم الخسارة المتبادلة في المعسكرين الداخليين المتحاربين ، فان هناك اطرافا خارجية رابحة من بينها اسرائيل ٠ وسواء كانت الدولة الصهيونية قد استغلت عدم استقرار التوازن الاقتصادي ـ الاجتماعي ـ الطائفي في لبنان ، وشاركت في التخطيط لاندلاع النزاع بغية اقتناص المكاسب ، ام انها اغتنمت فرصة الصدام وأفادت منه ، فان من المؤكد انها كانت على رأس قائمة المنتفعين من الدم العربي المسفوك على الارض اللبنانية ٠ وهذا ما سنبرهن عليه في هذا المقال ٠

مشاغلة المقاومة واستنزافها :

اعتمدت اسرائيل في مجابهتها العسكرية مع المقاومة على عدة اساليب متكاملة ومتوازية هي : ١ ـ كشف خلايا الداخل وضربها ، ٢ ـ فصل القواعد الخارجية عن القواعد الداخلية ، ٣ ـ استخدام الحرب السرية لمطاردة قادة المقاومة خارج الارض المحتلة ، ٤ ـ ضرب قواعد المقاومة في الاراضي العربية المضيفة بقوات اسرائيلية برية أو جوية ، ٥ ـ القيام، او التهديد بالقيام ، بعمليات ردعية ضد أهداف فلسطينية أو عربية ، بغيةخلق تناقض بين الامن الفلسطيني وأمن البلد العربي المضيف ، يؤدي الى صدام عربي ـ فلسطيني تقوم به القوات المسلحة العربية بمهمة استنزاف المقاومة واشغالها أو تصفيتها ان أمكن ٠

ولم تكن الاساليب الثلاثة الاولى تلاقي في العادة اعتراضا عالميا عنيفا، كما كانت نتائجها تتناسب مع الجهد المبذول لتحقيقها ٠ في حين كان الاسلوب الرابع ، وخاصة القصف الجوي ، يثير ردود فعل عالمية غير ملائمة ، ويشوه سمعة اسرائيل في المجتمع الغربي ، ويهدد بتفجير خلاف اميركي ـ اسرائيلي على الاسلوب ، ولا يؤدي الى نتائج عملية تتناسب مع الجهد المادي المبذول والخسائر المعنوية والسياسية التي تتعرض لها الدولة الصهيونية، ويعطي المقاومة على العكس فرصة خلق الملاحم البطولية ، واكتساب التعاطف الجماهيري العربي ، وتحقيق مزيد من التوسع والتجذر ٠ ولقد شرح زئيف شيف صعوبة هذا الاسلوب نظرا لانتشار القوات الفلسطينية في جميع انحاء لبنان تقريبا ، وقال : « ان تصفية القوة المحاربة للفلسطينيين ، ستتطلب اكثر من عملية قصيرة ٠ واية عملية تؤدي الى نتائج فعلية ، ستكون طويلة ومرهونة باحتلال مساحات كبيرة من الارض ، بما في ذلك مخيمات لاجئين، وتورط داخل المدن ٠ وستكون هناك ضرورة ، في نهاية الامر ، الى استخدام اجزاء كبيرة من الجيش الاسرائيلي في هذه العملية ٠ ونظرا الى ان هذه عملية طويلة ، فانها قد تتدهور الى حرب مع سوريا ومع دول عربية اخرى ٠ وكانت اسرائيل تتجاهل هذه الاخطار ، لو ارادت حقا جر سوريا اليوم الى حرب شاملة » (١) ٠

لهذا كله كانت اسرائيل تفضل دائما اللجوء الى الاسلوب الخامس الذي حقق نجاحات ملحوظة في نهاية الستينات ، وادى الى شحن القوات المسلحة الاردنية واستخدامها لضرب المقاومة في ايلول ١٩٧٠ ٠ ولقد جرت عملية شحن القوات المسلحة اللبنانية بالشكل نفسه منذ ان بدأ التواجد الفلسطيني المسلح الكثيف في جنوبي لبنان . وتصاعد التسخين الردعي الاسرائيلي مع تنامي المقاومة على هذه الساحة العربية ، ونجم عن ذلك

عدة مصادمات مسلحة ، وصلت الى ذروتها في احداث ايار ١٩٧٣ ، التي كانت صورة مصغرة لايلول ١٩٧٠ ٠

بيد ان بنية المجتمع اللبناني المعقدة المعتمدة على التوازنات ، وحجم القوات المسلحة اللبنانية وتكوينها الداخلي ، اعطت الضربة اللبنانية خصوصية مميزة ، وجعلتها تختلف عن الضربة الاردنية من ناحية العنف والاساليب ودفعت السلطة الى الاعتماد في العام ١٩٧٥ على المليشيات الطائفية، التي لم تبدل طبيعة الضربة واهدافها ، وان كانت قد اكسبتها مظهرا مغايرا لما جرى في الاردن ، وحولتها من عملية قمعية تقوم بها القوات النظامية ، الى حرب أهلية تشنها السلطة والمليشيات المؤيدة لها ضد المقاومة والقوى الوطنية المتحالفة معها ٠

وتم استنزاف المقاومة ومشاغلتها بقوى لبنانية طوال سنة كاملة ، فانخفضت عملياتها ضد العدو الصهيوني من نيسان ١٩٧٥ الى اذار ١٩٧٦ الى حوالي ٨٠ ٪ من مجموع عملياتها في الفترة المقابلة من العام السابق ٠ ووصل الاستنزاف الىذروته عندما تجمعت العوامل التي ادت الى تزعزع الحلف الاستراتيجي بين سورية من جهة والمقاومة والحركة الوطنية من جهة اخرى ، ووقع الصدام بين أصحاب الهدف الواحد والمصير الواحد، فخسرت المقاومة في الصدام اعدادا كبيرة من المقاتلين والكوادر ، وانشغلت بالقتال ضد القوات السورية وبصد الهجمات التي شنتها بقايا السلطة وميليشياتها ، فانخفضت عملياتها ضد اسرائيل في فترة نيسان ايلول ١٩٧٦ بشكل خطير . مع ان النمو المادي والمعنوي للمقاومة كان يفترض تزايد هذه العمليات بدلا عن تناقصها ٠ ولولا عدد من العمليات المنفذة من قبل خلايا الداخل ، وانتفاضات سكان الارض المحتلة التي زادت خلال الاحداث لساد اعتقاد بان العمل ضد العدو الصهيوني قد توقف ٠

تكريس فكرة فسيفسائية الشرق الاوسط ٠

ان الكيان الصهيوني المزروع داخل العالم العربي كيان دخيل لا يستطيع البقاء على المدى التاريخي في خضم عربي متجانس متماسك ، لانه يبقى مهما اتسع ، جسما غريبا عن المنطقة اتنيا وحضاريا ، ومعرضا بالتالي للانتزاع ٠ ولا تستطيع اسرائيل تثبيت وجودها كدولة اقلية عنصرية تيوقراطية الا اذا كانت المنطقة المحيطة بها عبارة عن مجموعة فسيفسائية ، تضم اكبر عدد من دويلات الاقليات العرقية والدينية ٠ وعلى هذا الاساس حاول وايزمان في كتابه عن القومية العربية ، ودون كبير نجاح ، تقديم البراهين على ان

العرب لم يعرفوا الوحدة طوال تاريخهم ، ولم يملكوا يوما مقومات الامة المتكاملة ، وان العالم العربي مجموعة من دزيلات تسكنها تجمعات بشرية من عروق مختلفة لا يجمعها رابط قومي أو حضاري . وعلى هذا الاساس ايضا كانت اسرائيل ، منذ ان وجدت ، تحارب الوحدة العربية ، وتؤيد الفكر القطري والحركات الانفصالية مهما كان نوعها وتعددت منطلقاتها (تدعيم الانفصاليين في جنوبي السودان ، ومحاربة الوحدة المصرية السورية كفكرة وكحقيقة قائمة منذ شباط ١٩٥٨ حتى ايلول ١٩٦١ . ومساندة العصيان الكردي في شمالي العراق تسليحيا وتدريبيا ... الخ). ويذكر اوري دان ان اسرائيل عملت في العام ١٩٥٨ لصالح السلطة اللبنانية بغية عدم تغيير الوضع القائم في لبنان « فعندما نشبت الحرب في لبنان انذاك ، وكان هناك خوف من تغيير الوضع القائم فيه ، سارع حاييم لاسكوف رئيس الاركان ، الى اصدار اوامره بحشد قوات في الشمال ،حتى دون ان يسأل دافيد بنغوريون ،رئيس الحكومةووزيرالدفاع انذاك ،لان الخط الاحمر كان واضحا ... كما ان ايسر هريئيل ، المسؤول عن المخابرات ، ابلغ بن غوريون ، بانه يعمل من اجل عدم تغيير الوضع الداخلي في لبنان . بل انه سافر في جولات بعيدة لضمان ذلك . دون ان ينتظر تصديق (بن غوريون) عليه . هكذا اهتم المسؤول عن اجهزة المخابرات ، ورئيس الاركان ـ بتأييد من رئيس الحكومة ـ بتمكين المسيحيين من الصمود في لبنان ، حتى لا تجد اسرائيل نفسها في مواجهة جبهة جديدة خطرة »(٢) .

ولقد كان من الطبيعي ان تستغل اسرائيل الاحداث اللبنانية لتكريس فكرة الفسيفسائية وتعميقها ، مستندة في عملية الاستغلال الى الطابع الطائفي الذي اخذته الحرب الاهلية ، والى مقولات بعض اطراف المعسكر اليميني الانعزالي التي لم تهاجر من الفكر العربي الى الفكر القطري اللبناني فحسب ، بل ابتدعت ايضا ما اسمته «الامة » المارونية ، لتكون ملاذها الاخير بعد هجرتها من الفكر القطري نفسه . واذا كان الطابع الطائفي للحرب قد اعطى اسرائيل مجالا لنقض مقولة الدولة الديمقراطية التي طرحتها المقاومة الفلسطينية كحل للنزاع العربي ـ الاسرائيلي (وهو نقض مهزوز سنرد عليه في مقال لاحق)، فان التأكيد على وجود «الامة » المارونية (وهو تأكيد خاطيء يحرف تاريخ الطائفة المارونية العريقة في عروبتها . ونترك للاخوة مفكري الموارنة المجال لدحضه)، والمناداة بضرورة الدولة المارونية المعزولة عن العالم العربي ، والمرتبطة مباشرة مع الغرب ، يمنح اسرائيل مبررا جديدا لوجودها كدولة عنصرية دينية تشكل رأس جسر غربي متقدم في عالم عربي نام « اسلامي الطابع ».

ويلاحظ من يتابع الاعلام الاسرائيلي خلال الاحداث اللبنانية ان الدولة

الصهيونية لم تترك الفرصة تفوتها · فلقد اكد البروفسور مردخاي افير تأييد اسرائيل للاقليات العرقية في العالم العربي ، وأشار الى ان القومية العربية كانت تضغط على المسيحيين في لبنان وتسعى لتصفية الطابع الخاص لدولتهم والتوجه الغربي لحضارتهم (٣) · وفي حديث مع مندوبي «البوند» في الولايات المتحدة قال شلومو افنيري ، المدير العام لوزارة الخارجية :«أن في الشرق الاوسط مجالا لتعدد الحركات الوطنية ، وانه ينبغي العمل لافشال المساعي العربية لخلق شرق اوسط موحد يضم العرب المسلمين جميعاً » (٤) · والاخطر من ذلك أن أفنيري استعار في الحديث نفسه مقولة متطرفي الانعزاليين حول الكيان الماروني عندما قال : « لا استطيع رؤية حل لبناني، لا يشترك فيه ابناء **الشعب** الماروني **كشعب** له حق تقرير المصير » (٥) ·ويضرب بيغال الون على الوتر نفسه عندما يؤكد انه « ليس بوسع اسرائيل التسليم بتسوية لبنانية تؤدي الى تدمير **الشعب** الماروني العريق » (٦) · وهكذا تستغل اسرائيل الحرب الاهلية اللبنانية لتعميق الفكر الانفصالي ، وتدعيم الدعوات المشبوهة المعادية للفكر القومي العربي الذي يشكل اكبر تهديد لاسس وجودها المصطنع في المنطقة ·

تشويه سمعة المقاومة سياسيا وعسكريا

لا تزال اسرائيل تتبنى منذ وجودها سياسة عدم الاعتراف بوجود شعب فلسطيني ، وترفض كل القرارات الدولية التي تطالبها بتطبيق حق هذا الشعب في العودة وتقرير المصير ، وتعتبر الفلسطينيين عربا جاؤوا من الصحراء الى « ارض اسرائيل » خلال الفتح العربي ــ الاسلامي ، وليس عليهم اليوم سوى العودة الى الصحراء ، والعيش في الاقطار العربية ، والاندماج مع سكانها (يلاحظ اليوم ان الاعلام اليميني اللبناني يردد هذا القول بلا كلل) ·

وما ان رفعت المقاومة البندقية في العام ١٩٦٥ حتى ظهر امام اسرائيل خطران هما : الكفاح المسلح الذي جابهته بالعنف القمعي ، وظهور الشخصية الفلسطينية المستقلة الذي جابهته بحملة تشويه مستمرة · وعندما تنامت المقاومة واخذت حجما سياسيا عالميا ، استخدمت اسرائيل اسلوب الالتفاف .واعلنت اكثر من مرة أنها ترفض الاعتراف بمنظمات المقاومة ، ولا تقبل اي مفاوضات مع الفلسطينيين المسلحين ، وتعتبر الاردن الطرف المفاوض الوحيد المؤهل للتحدث باسم الفلسطينيين ، وكان لها في موقف الحكومة الاردنية انذاك مبرر سياسي · ولكن اضطرار الحكومة الاردنية الى التخلي عن تمثيل الفلسطينيين، وموافقتها على مقررات مؤتمر القمة السابع في الرباط (٢٦ــ٢٩ تشرين الاول ١٩٧٤) حول اعتبار منظمة التحرير الفلسطينية الممثل الوحيد للشعب

الفلسطيني ، وقيام هيئة الامم المتحدة بدعوة رئيس اللجنة التنفيذية للمنظمة لحضور جلسات الجمعية العامة في تشرين الثاني ١٩٧٤ ،ووجود مندوب للمنظمة في الكثير من المؤتمرات والهيئات الدولية . افقد اسرائيل حجتها ، ووضع في مجابهتها منظمة فلسطينية معترفاً بها دوليا ، ولهذا كان عليها تكثيف حملتها لتشويه سمعة هذه المنظمة وتجريدها من بعض انجازاتها السياسية ·

ولقد وجدت الدولة الصهيونية في الحرب الاهلية اللبنانية مادة دسمة للتشويه · فاستغلت النزاع السوري ـ الفلسطيني ، وكررت ما تبثه وسائل الاعلام اللبنانية اليمينية من ترهات حول تصرفات المنظمة ونواياها ، واكدت ان المنظمة ستخرج من الحرب الاهلية اللبنانية ضعيفة ، ودعمت محاولات النظام الاردني الرامية الى تجاوز مقررات مؤتمر الرباط والعودة الى المسرح كممثل للشعب الفلسطيني · ولقد اعلن اسحاق رابين سياسة اسرائيل في هذا المجال عندما قال : « لقد اثبتت منظمة التحرير الفلسطينية من دون شك انها جسم سرطاني في نسيج العالم كله · والظروف الدولية القائمة حاليا مؤاتية لشن حملة اعلامية واسعة تستهدف ، من ضمن امور اخرى ، الحد من نفوذ المنظمة وتأثيرها » (٧) ·

وتدخل اسرائيل من نافذة ما يجري في لبنان لاظهار المقاومة كمؤسسة عسكرية غير كفؤة ، وعاجزة عن الصمود امام « القوات اللبنانية » المحدودة . وعاجزة بالاحرى عن الصمود امام القوات الاسرائيلية الاكبر من القوات اللبنانية بما لا يقارن ، وغير قادرة بالتالي على تطوير نضالها المسلح الى مستوى حرب التحرير الشعبية · وغرض اسرائيل من كل ذلك احباط همة الشعب الفلسطيني ، واطفاء جذوة حماسته للكفاح المسلح ، ودفع الجماهير العربية الى فقدان الثقة بقدرات المقاومة على تحقيق النصر ·

تفتيت الصف العربي

يشكل التضامن العربي ، حتى في حالاته الاولية البسيطة ، احدى روافع قلب ميزان القوى العربي ـ الاسرائيلي · ولقد اخذ هذا التضامن خلال حرب تشرين شكلا مقبولا الى حد ما ، واعطى عددا من النتائج الايجابية ، وكان مما أثبتته هذه الحرب ، ان اندلاع القتال ضد العدو الصهيوني عامل يجمع كلمة العرب على اختلاف مشاربهم وايديولوجياتهم ، كما اثبتت سنوات الهدوء التي سبقت الحرب وتلتها ، ان طرح الولايات المتحدة لمشاريع السلام (مشروع روجرز قبل حرب تشرين ومشاريع كيسنجر للحل السلمي بعد هذه الحرب) ، وتوقف الصراع المسلح مع العدو الخارجي بانتظار مخرج سياسي ، يخلقان المناخ المناسب لشرخ التضامن العربي الداخلي ·

وفي الوطن العربي اكثر من سبب محلي وايديولوجي لتفجـــر الصراعات العربية ولكن السبب الاول والاهم هو تباين المواقـــف من الصراع العربي ـ الاسرائيلي . وتباين وجهات النظر حول دور المقاومة السياسي واساليب عملها العسكـــري ضمن اطار هـــذا الصراع . وبسبب هذا التباين وقع الصدام الـــذي تحـــول الـــى حـــرب اهلية متعـــددة الاطراف . ووجدت كل دولة عربية (وعالمية) المجال لتقديم الدعم المادي والسياسي والاعلامي الى الجانب المنسجم مع استراتيجيتها ، وأصبحت الاراضي اللبنانية مسرح صدام بين عرب التسخين وعرب التهدئة ، عرب اميركا وعرب معاداة اميركا ، ووقفت سورية الى جانب المقاومة والحركة الوطنية ، حليفتها ضد معسكر اتفاق سيناء ، وبقي الامر كذلك حتى الشهور الاولى من العام ١٩٧٦ ، التي باتت فيها امكانات الحسم العسكري ضد اليمينيين الانعزاليين على الابواب .

والحقيقة ان اسرائيل كانت تراقب انذاك الاحداث اللبنانيـــة عن كثب . وتستعد لاستغلالها بضربة عسكرية مفاجئة ، مستفيدة من صرخات الاستغاثـــة التي أطلقها كميل شمعون من السعديات ثم من الكفـــور ضد ما أسمـــاه « بالاجتياح السوري » . ولم يكن التدخل العسكري بعيدا عن استراتيجيتهـــا المعلنة . ولقد ساد في المستوطنات الاسرائيلية الشمالية قلـق كبير في مطلـــع العام ١٩٧٦ على اثر قيام جيش لبنان العربي ، وسقوط الدامور ، وسيطرة المقاومة والحركة الوطنية على جنوبي لبنان ، ودخـــول وحدات من الجيش السوري وجيش التحرير الفلسطيني (القادسية وحطين)الىالاراضي اللبنانيـــة وكانت وسائل الاعلام الاسرائيلية تضغط باتجاه خلق المناخ الدولي المناســـب للتدخل استنادا الى عدة اعذار يمكن اجمالها بما يلي : حماية المستوطنات ، واملاء الفراغ الامني في جنوبي لبنان ، وحماية المسيحيين ، والابقاء علـــى لبنان القديم الاخذ بالزوال من الخريطة ، ومنع القوات السورية والقـــوات الفلسطينية النظامية من اجتياز نهر الليطاني (٨) .

وفي هذه الفترة بالذات تفاقم التفتت العربي ووصل الى اسوأ حالاتـــه عندما دب الخلاف بين حلفاء الامس ، وتحول بسرعة الى صدام مسلح بيـــن المقاومة والحركة الوطنية وجيش لبنان العربي من جهة ، وسورية والمنظمـــات اللبنانية المتحالفة معها من جهة اخرى . وتضاعفت الخلافات العربية ، وتزايدت امكانات التدخل العربي الخفي لدعم المقاومة وحلفائها .

ووجد اليمينيون الفرصة المناسبـــة لالتقاط انفاسهم واستعادة توازنهـــم والقيام بهجوم مضاد ، فرفعوا شعار « تحرير » لبنان من الفلسطينيين « الغرباء » (وهو شعار اقليمي مرفوض قوميا) وشعار توحيد الوطن الذي كانوا يلوحون

بتقسيمه من مواقع الهزيمة ، الامر الذي يثبت انهم يفضلون الانكفاء الى دويلة صغيرة طائفية عنصرية ولا قومية في حالة احتمال تحول لبنان الى بلد عربي وتقدمي (الى حد ما) • ولكنهم لا يرفضون العودة الى لبنان موحد ، اذا أمن لهم ميزان القوى العسكري تطهيره من الفلسطينيين والقوى الوطنية، واعادة بنائه وفق مفاهيمهم ، ليكون تحت حكم الاقلية المستغلة التي عملت منذ العام ١٩٤٩ على عزل هذا الجزء من العالم العربي عمليا عن قضايا العرب المصيرية ، وعلى رأسها قضية فلسطين •

وبسبب هذا الوضع الجديد ظهر عامل اخر زاد حدة التناقضات العربية وتفتت الصف العربي • والمستفيد الاول من هذا الوضع هو اسرائيل التي صرح رئيس وزارتها اسحق رابين بقوله ، « ان العالم العربي لا يستطيع ــ في الوقت الذي تتركز فيه جهوده السياسية والعسكرية الرئيسية في لبنان ــ تحرير نفسه للاهتمام بأي نوع من المحادثات مع اسرائيل • سواء حول اتفاق عام او حول انهاء حالة الحرب »••• « وهناك كذلك انخفاض في خطر قيام تنسيق عسكري عربي لمجابهة اسرائيل » (٩) •

خنق الرئة اللبنانية :

ان وجود بلد عربي مزدهر اقتصاديا ومتطور الى حد ما يشكل تحديا حضاريا لاسرائيل ، ونقضا لادعاءاتها بانها القلعة الغربية المتقدمة في عالم متخلف • ولقد كان لبنان ــ حتى بشكله القديم وسياسته غير العدوانية ازاء اسرائيل ــ عبارة عن بداية تحد حضاري • وكان من الممكن ان يأخذ هذا التحدي حجما اكبر لو ان لبنان القديم كان دولة علمانية تسود فيها العدالة والمساواة ، وترتفع فيها راية العروبة عاليا •

ومهما كانت طبيعة النظام الذي سيسود في لبنان بعد انتهاء الحرب ، ومهما تسارعت وتيرة اعادة البناء وارتفع حجم المساعدات العربية خلال المرحلة المقبلة، فان مستوى التحدي الحضاري الذي سيشكله لبنانسيكون ــ ولمدة غير قصيرة ــ منخفضا بسبب : ١ ــ الخسائر المادية الكبيرة التي أصابت البنية التحتية الاساسية للاقتصاد اللبناني ، ٢ ــ اهتزاز الثقة باستقرار النظام ، ٣ ــ هجرة الادمغة والكفاءات واليد العاملة الفنية واحتمال عدم عودة جزء كبير منها اذا ما دامت الحرب الاهلية مدة تكفي لاستقرار المهاجرين في المهجر ، ٤ ــ الدمار الذي أصاب المؤسسات العلمية ومؤسسات الخدمات ، وما تحتاجه عملية اعادة بنائها منجهد ومال ، ٥ ــالشرخ النفسي الشاقولي الذي أصاب المجتمعاللبناني، ٦ ــ تدهور سمعة الفرد اللبناني في الخارج بسبب الفظائع المرتكبة خلال

الحرب ، والمخالفات الصارخة والثابتة وثائقيا لكل قوانين الحرب واعرافها وشرائعها واخلاقياتها ، والتجاهل الكامل للقانون الدولي العام الذي تشكل المعاهدات الرامية الى تنظيم الحرب وتأنيسها جزءا منه ٠

ومن الطبيعي ان اسرائيل (بالاضافة الى دول اخرى عربية وغير عربية) افادت وستفيد من هذا الوضع ٠ وتعتبر الدولة الصهيونية ان فائدتها ستكون اكبر بكثير اذا ما أمكن التوصل الى حل ينهي حالة الحرب بين العرب واسرائيل، ويعيد العلاقات بين دول المنطقة الى الوضع الطبيعي ، لان انعدام المنافسة اللبنانية التجارية والثقافية والسياحية ، سيجعل اسرائيل العميل التجاري الرابع بين منتجي العالم الرأسمالي ومستهلكي العالم العربي ، ومحطة السياحة الاولى على الشاطيء الشرقي للبحر الابيض المتوسط ٠

وبالاضافة الى كل ذلك ، فقد كان لبنان بؤرة اعلامية مفتوحة على العالم وكان مهاجروه المنتشرون في كل بقاع العالم سفراء غير رسميين يعملون في المجتمعات التي اندمجوا بها لمجابهة الاعلام الصهيوني ٠ ولقد حققت اسرائيل من الحرب الاهلية في هذا المجال مكسبين : **اولهما** تحويل جزء من المهاجرين الى دعاة ضد المقاومة الفلسطينية يقدمون الى اسرائيل خدمة اعلامية مجانية، **اما الثاني** : فهو منع الاعلام اللبناني من الاشعاع الى الخارج بسبب انقطاع المواصلات والانشغال بالاعلام الداخلي ، وحرمان الاعلام التقدمي العربي القوي في لبنان من متابعة رسالته في تثوير المنطقة العربية وكشف مخططات الامبرياليين والتصفويين ٠

ومن المؤكد ان اسرائيل لا تكتفي بهذين المكسبين ، بل تأمل مع عدد كبير من الدول والقوى الاجنبية والعربية ، بأن تؤدي الحرب الى وأدبدايات الفكر التقدمي الثوري المتنامي في لبنان ، والذي يمكن ان يتحول الى «كوبا فكرية »تشارك في ايقاظ العقل العربي وتثويره وقطع شبكة العنكبوت التي يحيكها حولهالاعلام الرسمي المبستر والمفوت في كثير من الاقطار العربية ٠ كما تأمل مع الدول والقوى المذكورة ، بأن يتوصل اليمين الى اجهاض بدايات تنظيم القوى الوطنية والتقدمية ، التي تشكل بفكرها وممارساتها وتحالفها مع المقاومة نموذجا يمكن ان يشكل ، اذا ما انتشر على امتداد الوطن العربي ، عاملا ديناميكيا في مسيرة التحول الراديكالي التي لا يمكن أن تكون الا ضد اسرائيل والامبريالية الداعمة لها ٠

الحصول على صك الغفران

بنيت اسرائيل على العدوان ، وتغذت بالعنف القمعي ، وعاشت ولا تزال

تعيش تحت ظلال الحراب · ولقد ارتكبت الصهيونية خلال تاريخها الدامي الكثير من الجرائم ، ومارست المجازر المخططة ضد الشعب العربي عامة والفلسطيني بشكل خاص . وبنت مع الايام جدار الدم الذي ما زال يرتفع يوما بعد يوم · ولقد أدان الرأي العام العالمي تصرفات الصهاينة قبل العام ١٩٤٨ وبعده ، واتخذت المنظمات الدولية والاقليمية بحق اسرائيل عدة مقررات ، واعتبرت الصهيونية نوعا من العنصرية · وظهرت اسرائيل ، رغم كل محاولات اميركا لتبرئتها ، دولة عنصرية قمعية لا تختلف عن جنوبي أفريقيا · الامر الذي دفع مفكري العالم المتحررين من عقدتي « اللا سامية » و« الصليبية » الى مهاجمة الكيان الصهيوني كفكرة وكممارسة · ودفع عددا من الاسرائيليين التقدميين (وخاصة من حزب «راكاح» ومنظمة « ماتسبن ») الى كشف فظائع اسرائيل ومخالفاتها لحقوق الانسان · ووصل العنف الاسرائيلي ، خلال عمليات قمع انتفاضات سكان الارض المحتلة، الى درجة دفعت أوري أفنيري الى القول :

« لقد استخدمت اليد القوية ، وعندما لم تنجح استخدمت يدا اقوى » ·· « لقد وصل الاحتلال (الاسرائيلي) الى مرحلة كلاسيكية ، وسيضطر الى ان يكون اكثر شراسة . واكثر وضوحا ، واكثر انكشافا أمام انظار العالم »(١٠)

ولقد حاولت اسرائيل دائما تبييض صفحتها ، او تبرير اعمالها السادية (النابعة من عقدة القهر الدائم وحياة الغيتو وافران معسكرات الابادة) بحجة الدفاع عن النفس ضد الخطر العربي ، ومقاومة « الارهاب » الفلسطيني · وأعطاها العرب في بعض الحالات فرصا جيدة لتغذية اعلامها « التنظيفي »، ولكن افضل ما قدموه لها في هذا المجال هو الشكل الطائفي الذي اخذته الحرب الاهلية اللبنانية في كثير من مراحلها ·وتتمثل مكاسب اسرائيل هنا بالنقاط التالية :

١ ـ استغلال المجازر الطائفية الوحشية ، وعمليات النهب والحرق والخطف والقتل على الهوية وتدمير اماكن العبادة وقتل رجال الدين ··الخ، لاعطاء العالم صورة رهيبة عن الانسان العربي الوالغ في دم اخيه · وتبهيت صورة مجازر دير ياسين والسموع وغزة ومدرسة بحر البقر ومصنع ابي زعبل ومخيم نهر البارد ، عن طريق مقارنتها مع الصورة الحية للمجازر الجماعية في لبنان (الانطباع الاسوأ يطرد الانطباع السيء) ·

٢ ـ استغلال الخوف الغريزي لدى مسيحيي الجنوب ، والذي زاد من تأججه الاعلام الطائفي ومجريات الحرب الاهلية نفسها ، وتقديم الدولة الاسرائيلية كدولة « انسانية » تحمي القرى المسيحية الحدودية وتدافع عنها

ضد « عـدوان » المسلمين واليساريينوالفلسطينيين ، وتسمح بلجوء المسيحيين اليها اذا ما تعرضوا للخطر · ولقد لجأ عـدد من سكان القرى المسيحـيـين بالفعل الى اسرائيل · في اواخر العام ١٩٧٥ ومطلع العام ١٩٧٦ ،وخاصـة بعد معـركة الدامور ·

٣ ـ استغلال الازمة الاقتصادية الناجمة عـن الحرب للقيام بمبـادرة « انسانية » تتمثل بما يلي :

ـ شراء المحصولات الزراعية وخاصة التبغ · ولقد اقدمت اسرائيل بالفعـل على شراء صفقتي تبغ من رميش (عـدة اطنان)، ثم توقفت بحجة غـلاء الاسعـار التي يطلبها اللبنانيون ·

ـ بيع بعض المحصولات الزراعية كالبيض والملح والبصل الى الفلاحيـن بالعـملة اللبنانية ، عـلى اساس ان سعـر الليرة اللبنانية يعـادل ٥ر٢ ليرة اسرائيلية . مع ان السلطات المصرفية ترفض صرف الليرة اللبنانية بأكثـر من ٣٥ر٢ ليرة اسرائيلية · وذلك لاقناع الفلاحين بأن الجيش الاسرائيلـي « الطيب جدا » يتحمـل فرق السعـر · وتذكر المصادر الاسرائيليـة ان اللبنانيين اشتروا خـلال شهر اب ١٩٧٦ بحوالي مليون ليرة اسرائيلية ، وأن الملح كان اهـم المشتريات (١١) ·

ـ تشغـيل العـمال اللبنانيين اعتبارا من ٢٨ـ٧ـ١٩٧٦ بناء على قـرار اعـلنه مدير عـام وزارة العـمل اربيه غورال · وذلك في مجالات : البنـاء والتبغ والتـحريج والقطاف · ويحتمل أن تبلغ امكانات التشغـيل حوالـي ٥٠٠ عامل سوف يتقاضون اجورا مشابهة لاجور العمال الصهاينة في الاعمال المماثلة (١٢) ·

ـ السماح للرعـاة بالاقتراب من السياج المكهرب لرعـي مواشيهم ، علما بأن الاقتراب من السياج كان محظورا ويعرض من يقدم لرمايات المراكـز والدوريات الاسرائيلية ·

٤ ـ استغلال النقص الفادح في الخدمات الطبية في الجنوب لتقديم خدمـة «انسانية » اخـرى تتمثـل في معـالجة المرضى والمصابين في اسرائيل · ففي ٣ تشرين الثاني ١٩٧٥ اقترح وزير الصحـة الاسرائيلي فكتور شمطـوف مساعـدة لبنان بالمـواد الطبية واستقبال المرضى ، وبدأ عـدد محدود مـن اللبنانيين من قرية القليعـة الدخـول الى اسرائيل للمعالجة عبر فتحات فـي « السياج» · ثم فتح الاسرائيليون مستوصفين في المطلة (قرب كفر كـلا)

ودوفيف (قرب رميش) •واتسع نطاق العملية بعد ذلك ليشمل ارسال المرضى والمصابين الى مستشفى صفد أو حيفا • ويدعي العدو الاسرائيلي ان عدد اللبنانيين الذين تلقوا العلاج « حوالي ٥٦٥٦ شخصا في الفترة الواقعة بين ١٥ نيسان و١٥ اب ١٩٧٦ » (١٣) •

٥ ـ بالاضافة الى هذه الخدمات «الانسانية » قامت اسرائيل بمد انبوب مياه داخل الاراضي اللبنانية قرب رميش ، وأمنت المحروقات والخدمات البريدية للقرى الحدودية ، وفتحت الباب امام المزارعين لزيارة المستوطنات ومناقشة سكانها حول المسائل الزراعية ، وقدمت الارشادات الزراعية للفلاحين اللبنانيين وسمحت لهم بلقاء أهلهم القاطنين في الجليل ،وتصرفت على العموم كدولة « مسالمة متحضرة »، في الوقت الذي كان فيه جنودها يصادرون اراضي الفلسطينيين ويهجرونهم ويستعملون معهم كل ضروب العنف والتنكيل !

تخفيف حالة العداء وتنمية العلاقات الطبيعية •

ان من التبسيط الكبير للامور القول بأن سياسة « السياج المفتوح » التي لجأت اليها اسرائيل في جنوبي لبنان منذ تشرين الثاني ١٩٧٥ وتوسعت في تطبيقها في اوائل حزيران ١٩٧٦ لا تعدو ان تكون عملا اقتصاديا ـ طبيا دعائي الطابع فالمسألة في جوهرها سياسية ـ أستراتيجية • ومن المؤكد ان السياسة التي اطلقت عليها دافار (٢٥ ـ ٧ ـ ١٩٧٦) اسم سياسة « السياج اللطيف » لا تستهدف فقط الدعاية ، أو نشر صور الفلاحين الجنوبيين المتشبثين بأسلاك « السياج »وسطولهم بأيديهم ، أو بث احاديث المسلحين الكتائبيين المتسللين من جونية الى قرى الجنوب عبر اسرائيل ، بل تتوخى أيضا تحقيق هدف استراتيجي ـ نفسي يتمثل في تخفيف حدة العداء العربي ـ الاسرائيلي ، وتنمية العلاقات الطبيعية مع سكان الجنوب (موارنة كانوا ام شيعة)، واقناعهم بان الدولة الصهيونية لا تريد بهم شرا ،وان كل ما لحق بهم من اذى على يد الاسرائيليين من قبل كان ناجما عن وجود المقاومة الفلسطينية بينهم • وان ابتعاد هذه المقاومة (المشغولة في صد الهجمات اليمينية في مختلف ارجاء البلاد ، وغير الراغبة حاليا في تشتيت قواها لتثبيت وجودها في الجنوب) ازال العامل الذي كان يدفع اسرائيل الى قصف الفلاحين الجنوبيين ، وخطفهم ، واحراق مزروعاتهم ، وتهديم مساكنهم، واجبارهم على الهجرة الى حزام البؤس المحيط بالعاصمة للقيام بالاعمال السوداء لقاء اجر محدود •

وبعد تحقيق هذا الغرض ، وتكريس التناقض بين امن الفلاح الجنوبي وأمن

المقاتل الفلسطيني ، تستطيع اسرائيل الانتقال الى المرحلة التالية من مخططها عبر تسليح العناصر المتطرفة في الجنوب ، وتقديم الضمانات الامنية والوعود بالمساعدة العسكرية لسكان القرى الحدودية ، على أمل ان تتحول سلسلة القرى الحدودية الى حزام أمني يحجم فيه القرويون عن مساعدة المقاومة خوفا من الضربات الردعية ، في حين تقوم العناصر المتطرفة بمهمة مخافر مراقبة متقدمه بعمق عدة كيلومترات بعيدا عن الحدود اللبنانية ـ الاسرائيلية · ولقد بدأت هذه المرحلة بالفعل . واستطاعت اسرائيل خلق مجموعات انعزالية في قرى القليعة وعين ابل ودبل ورميش وعلما الشعب ، وقدمت اليها عددا من الاليات ، وربطتها بمخافر الحدود الاسرائيلية سلكيا ولا سلكيا ، حتى تسمح لها بطلب النجدة والدعم الناري عند اللزوم ·

وبالاضافة الى هذا المكسب النفسي المؤهل للتحول الى مكسباستراتيجي، فان اسرائيل تسعى من وراء «« السياج اللطيف » الى مكسب سياسي يكون مع الجسور الاردنية المفتوحة ، ومرور البضائع في قناة السويس ، دليلا اضافيا على امكانية التعايش مع العرب ، رغم اغتصاب الارض الفلسطينية وتشريد اهلها ، ورغم الصراع الدامي منذ عشرينات هذا القرن ·

وليس هذا المكسب هدفا بحد ذاته . ولكنه وسيلة يمكن ان توضع في يد كيسنجر للرد على المعتدلين العرب ، الذين قبلوا بانهاء حالة الحرب مع اسرائيل ، ولكنهم رفضوا الصلح معها نظرا لحالة العداء العنيف الناجم عن صراع طويل ، وتركوا هذه المسالة للاجيال المقبلة · كما انه حجة تقدمها اسرائيل الى الاميركيين (الذين يطالبون الدولة الصهيونية بانسحابات معقولة من الاراضي العربية) لاقناعهم بأن استمرار الاحتلال الاسرائيلي للاراضي لا يخلق المناخ لاندلاع حرب عربية ـ اسرائيلية خامسة ، ولا يؤثر بالتالي على مصالح اميركا في المنطقة ·

اكتساب تعاطف الادارة الاميركية :

ان التوافق الاميركي ـ الاسرائيلي على اخضاع الامة العربية امر ثابت لا يحتاج الى مزيد من الايضاح· ولكن هذا التوافق لا يعني بالضرورة تطابق الاغراض والوسائل · واذا كان غرض الاميركيين من السيطرة ضمان مصالحهم الاقتصادية والاستراتيجية في المنطقة ، فان غرض اسرائيل بناء دولة صهيونية واسعة تضم معظم يهود العالم ، وتفرض وجودها السياسي ـ العسكري على الوطن العربي ، وتشارك الراسمالية العالمية في عملية الاستغلال · وهكذا نرى ان الفرق بين الغرضين هو في الحقيقة ما يميز الاستعمار الجديد عن الاستعمار القديم ·

ولكل استعمار وسائله . ولذا فان من الطبيعي ان لا تتطابق وسائل الاستعمار الاميركي الجديد المناسبة لطبيعة العصر ، مع وسائل الاستعمار الاسرائيلي المستعارة من الوسائل الاوروبية في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر . ومن عدم التطابق المذكور تأتي عادة الخلافات بين الحكومات الاسرائيلية الراغبة في استخدام القوة المادية المجردة واساليب الارهاب والتشريد والاقتلاع لزرع المستوطنين الجدد ، والحكومات الاميركية التي ترى أن من الضروري اللجوء الى أساليب حاذقة . مخادعه ، أريبة ومعصرنة ، تمزج بين الخرق النفسي ، والمساعدة الاقتصادية ، والتلويح باستخدام القوة ، وتعتمد في العمل المادي العنيف على شحن القوى التقليدية المفوته في البلد المنوي اخضاعه ، وربط مصالحها بمصالح الرأسمالية العالمية المعادية اساسا لمصالح جماهير البلد ، ودفعها عند اللزوم لضرب القوى المتقدمة التي تهدد مصالح اميركا ، مع الحفاظ على اسرائيل القوية كقوة احتياطية استراتيجية ، تستخدمها عند الضرورة القصوى كآخر وسيلة محلية لضرب الدول العربية التي يفشل فيها مخطط الاخضاع المعصرن ، وتبدأ بازعاج الولايات المتحدة وتهديد مصالحها .

لهذا كله ، كان للولايات المتحدة منذ ١٩٦٧ اسلوبها الخاص في مجابهة حركة المقاومة الفلسطينية والدول العربية الراديكالية وازمة الشرق الاوسط بشكل عام . وكان هذا الاسلوب مختلفا في اغلب الاحيان عن الاسلوب الاسرائيلي العنيف ، ولكنه لا يستبعده نهائيا ، بل يدخله كعامل ضاغط من جملة العوامل المستخدمة .

وكان للولايات المتحدة ايضا اسلوبها الخاص لمعالجة الحرب الاهلية اللبنانية ، بكل جوانبها المحلية والعالمية ، كجزء من معالجة مسألة الصراع العربي ـ الاسرائيلي . ويتسم الاسلوب الاميركي بتجنب استخدام القوة بشكل مباشر ، والاكتفاء بتفتيت الصف العربي ، واستنزاف المقاومة في لبنان بقوى محلية وخلال مدة طويلة ، حتى تنتهي الانتخابات الاميركية وتبدأ عجلة الحل السلمي الكيسنجري بالدوران من جديد ، ويتم عقد اجتماع مؤتمر جنيف والعرب مفتتون متناحرون ، والمقاومة الفلسطينية مدجنه او محتواة ، وفاقدة لحرية القرار السياسي .

ولم تكن اسرائيل في البداية تعارض هذا المخطط الذي يخدم مصالحها مجانا . ولكن تلاحق هزائم اليمينيين في اواخر العام ١٩٧٥ ومطلع العام ١٩٧٦ ، وسيطرة القوى الوطنية والمقاومة الفلسطينية على معظم المواقع ، وتواجدهما المسلح الكثيف في الجنوب . ودخول القوات السورية ووحدات من جيش التحرير الفلسطيني الى لبنان ، خلقت وضعا جديدا دفع اسرائيل

الى التفكير بالعودة الى استراتيجيتها التي تفرض عليها عبور الحدود الى عمق البلاد العربية المجاورة والقيام بهجمات اجهاضية (وقائية) محدودة أو واسعة النطاق « لمد يد المساعدة للحلفاء العلنيين أو غير العلنيين (الموجودين أو المحتملين) في دولة عربية أو اخرى ، او في حالة تغير الوضع الراهن في دولة مجاورة لاسرائيل بشكل مهدد لاسرائيل بصورة قاطعة » (١٤) ٠

ولهذا ظهرت في اسرائيل اتجاهات قوية للتدخل في لبنان « وعدم الاكتفاء بالتفرج على الحرب من على الشرفة »، وعدم ترك الامور تتدهور الى الحد الذي يصبح فيه لبنان بلد مواجهة تعمل عليه المقاومة بحرية ٠ وكانت كل **العوامل المحلية** تسمح لاسرائيل بالتدخل ،وتعطيها المبرر السياسي لاحتلال الجنوب وتحقيق اغراضها التوسعية ٠ ولم يكن الزعماء الاسرائيليون بعيدين كثيرا عن هذا التفكير ، ولكنهم لم ينتقلوا من الفكرة للعمل ٠

ويرجع احجام اسرائيل عن تطبيق استراتيجيتها ، وقبولها بالتخلي عن جزء من عقيدتها العسكرية المعلنة ، والتخلي عن فرصة التوسع ، **الى عامل خارجي** يتعلق بتوازن موقفي واشنطن وموسكو ازاء الازمة ، وبرغبة اسرائيل في اكتساب تعاطف الادارة الاميركية وعدم عرقلة مخططاتها الداخلية والخارجية ٠ وكانت الولايات المتحدة قد اعلنت اكثر من مرة أنها ضد اي تدخل اجنبي في الحرب الاهلية ٠ وهي لم تعارض التدخل السوري منذ بدايته بل اعتبرته وسيلة معقولة لحل الازمة وطلبت من اسرائيل عدم الرد عليه بعمل عسكري « لان الاميركيين لا يرون اي بديل معقول للتدخل السوري » (١٥)، و« لان الولايات المتحدة تشى نشوب حرب شاملة في الشرق الاوسط ٠ وتعتقد ان امكان انتخاب فورد سيتضاءل كثيرا اذا نشبت الحرب في المنطقة »(١٦) ٠

والحقيقة ان اسرائيل ، التي ازداد ارتباطها الحياتي والامني بالمساعدات الاميركية بعد حرب ١٩٧٣ ، لم تكن تستطيع استفزاز الادارة الاميركية وتحميل الرئيس فورد هموما اضافية فوق همومه الانتخابية ، خاصة وان احتمالات بقائه في سدة الرئاسة الاميركية اربع سنوات اخرى لا تزال كبيرة ٠ ولقد رأت ان من مصلحتها استغلال الحرب الاهلية اللبنانية عن طريق اقراض الرئيس فورد ووزير خارجيته دفعه على

الحساب ، تتمثل في عدم التدخل العسكري في لبنان ، حتى يتذكروا هذا الدين بعد الانتخابات • خاصة وان الوضع على حدود اسرائيل الشمالية لم يتدهور بشكل يهدد امن الدولة الصهيونية الى الحد الذي يجبر الاسرائيليين على مخالفة اميركا •

• وعلى هذا الاساس بدأت التراجعات الاسرائيلية الرسمية ، وتناقصت التهديدات بالتدخل لاحتلال الجنوب (وان لم تنته بشكل قاطع) ، واختفى « الخط الاحمر » الجغرافي (نهر الليطاني) الذي حددته اسرائيل في بداية التدخل السوري ، واعتبرت ان اجتيازه من قبل السوريين سيفرض عليها التدخل عسكريا ، وحل محله « خط احمر » غامض غير محدد المعالم « هو مجموعة اعتبارات تتعلق بالمكان الذي توجد فيه قوات سورية ، وحجم هذه القوات ، والهدف من دخولها ، ومدة بقائها في لبنان» (١٧) ، وذلك لاعطاء الحكومة الاسرائيلية امكانية واسعة لتبرير عدم التدخل ، اذا طلب منها الاميركيون ضرورة ضبط النفس ، ورأت ان عليها عدم مصادمتهم •

★ ★

وهكذا تدور رحى الحرب الاهلية اللبنانية لتطحن الشعبين اللبناني والفلسطيني ، ويستمر نزيف الدم ضمن اطار «لعبة الامم » ،ويدفع الخاسران الرئيسيان كل ثمن الحرب ، بينما يقف على الشرفة متفرجون يعدون النقط ، ويحسبون الارباح التي تأتيهم مجانا • وعلى الشرفه رابحون صغار يكسبون ما يتناسب مع حجمهم ومستوياتهم وطموحاتهم ، ورابحون كبار يحولون الدماء والدموع والدمار الى مكاسب استراتيجية ، وفي مقدمة هؤلاء الرابحين تقف اسرائيل •

المصادر

١ ــ هآرتس ، ٤ ــ ٤ ــ ١٩٧٦

٢ ــ معاريف ، ٣٠ ــ ١ ــ ١٩٧٦ •

٣ ــ معاريف ، ١٩ ــ ٣ ــ ١٩٧٦ •

٤ ــ ر • ا • ا ، العدد ١٠٤٠ •

٥ ــ المرجع نفسه •

٦ ــ دافار ،٢٧ ــ ٦ ــ ١٩٧٦ •

٧ ــ دافار ، ٦ ــ ٨ ــ ١٩٧٦ •

٨ ــ يديعوت احرونوت ،١٩ ــ٣ــ١٩٧٦

١٠ ــ هاعولام هازيه ، ٢٤ــ ٣ــ ١٩٧٦

١١ ــ تقرير خاص صادر عن مركز التخطيط الفلسطيني بعنوان « الجنوب والجولة القادمة » ، ١٦ ــ ٩ ــ ١٩٧٦ ، ص ٦ •

١٢ ــ المرجع نفسه ، ص ٧ •

١٣ ــ المرجع نفسه ، ص ٦ •

١٤ ــ ييغال الون ، انشاء وتكوين الجيش الاسرائيلي ،دار العودة،ص ٢٤٨

١٥ ــ يديعوت احرونوت ، ١٦ ــ٦ــ٩٧٦

١٦ ــ هآرتس ، ١١ ــ ٦ ــ ١٩٧٦ •

١٧ ــ هآرتس ، ١٦ ــ ٦ ١٩٧٦ •

الجنوب

مروان ناصر

للمناطق الحدودية في كل الاوطان وفي كل الازمان طبيعة خاصة تتميز بالحساسية والتأرجح وعدم الوضوح ، حتى في فترات السلم والاستقرار ، وحتى عند الامم المكتملة النمو القومي والسياسي ، ذلك انه اذا كان التمايز بين البلدان المتجاورة يبدو واضحا وحاسما في مناطقها الداخلية ، فان مناطقها الحدودية غالبا ما تكون على تداخل بشري ولغوي مع البلدان المجاورة الامر الذي يشكل مصدر غنى وفير على صعيد التمازج البشري ، ومصدر مشاكل دائمة على الصعيد السياسي ، ولقد كان نمو اقلية مجرية على الحدود المجرية ـ اليوغسلافية ، واقلية تشيكية على الحدود المجرية ـ التشيكية الخ ٠٠ مصدر اضطراب سياسي دائم في اوروبا الوسطى وفي البلقان حتى تمت تسويات ما بعد الحرب العالمية الثانية ، كما ان تأرجح مقاطعتي الالزاس واللورين بين فرنسا والمانيا مثال صارخ على هذه الحقيقة ، فحتى عندما كانت الحروب تحسم هذا التأرجح لمصلحة هذه الدولة او تلك ، ظل التمازج الالماني ـ الفرنسي هو الطابع المميز لهاتين المقاطعتين ، بغض النظر عن وضعهما الجغرافي ـ السياسي ٠

ليس لهذه المقدمة العامة علاقة مباشرة بموضوع الجنوب اللبناني المتاخم لفلسطين المحتلة ، سوى التأكيد على ان التحديدات الجغرافية على

الخريطة ليست كافية لتحديد معالم الفصل الحدودي بين دولتين ، فسياسة الامر الواقع على الحدود هي الاقوى ، حتى في ايام السلم والاستقرار ، فكيف في ايام الصراعات الطويلة الممتدة ، والتي لم يتم الحسم فيها بعد ؟

لمحة تاريخية

وضع الجنوب اللبناني المتاخم لفلسطين لم يبدأ بالظهور على موائد المخططين السياسيين في القرن العشرين منذ قيام دولة اسرائيل فقط ، بل منذ ان وضعت خريطة البلدان العربية الخارجة من حطام الامبراطورية العثمانية في اعقاب الحرب العالمية الاولى على موائد الدول الاوروبية المنتصرة ، سواء في محادثات سايكس ـ بيكو الشهيرة التي انتهت بخريطة واضحة لتقاسم المغانم في المشرق العربي بين فرنسا وبريطانيا ، او تقارير لجنة كينغز ـ كرين التي اعتبرها المجتمع الدولي (الاوروبي ـ الاميركي في ذلك الحين) استفتاء لدول المشرق العربي حول الدول الغربية التي يفضل ان توضع بلاده تحت لوائها في ما اصطلح يومها على تسميته بـ « الانتداب » ٠

فمنذ تلك الايام ، ومنذ ان انحصر الصراع على لبنان وفلسطين بين فرنسا وبريطانيا ، ادخلت المنطقة الحدودية بين البلدين حلبة صراع خرائط المشاريع الجغرافية ـ السياسية بين القوتين الدوليتين ، فبالاضافة الى التأرجح التاريخي السياسي المستمر لجنوب لبنان بين فلسطين ولبنان ، فان علاقاته الاقتصادية والبشرية بفلسطين تشكل واقعا مستمرا يتداخل مع واقعه الجغرافي ـ السياسي ٠

ولو كان المشروع السياسي المطروح انذاك مشروع وحدة عربية ، لتحول هذا الواقع الجنوبي الرجراج الى همزة وصل بين لبنان وفلسطين ، يغني ويدعم التداخل القومي بينهما ، اما والمشروع استعماري تتنافس فيه دولتان كبيرتان ، فقد انصبت محاولات فرنسا على استغلال علاقتها الخاصة بالموارنة لتحريك وتأليب القرى المسيحية في الشريط الحدودي باتجاه يضمن بقاء تلك المنطقة داخل الحدود اللبنانية اثناء رسم خريطة لبنان الكبير وبعد ضمان وضع لبنان تحت الانتداب الفرنسي ، بينما كانت بريطانيا تشد المنطقة في الاتجاه المعاكس ، معتمدة على العلاقات البشرية والاقتصادية الجنوبية التي تولي وجهها عادة صوب فلسطين ٠ وليس مستبعدا ان يجد المتعمق في دراسة وثائق تلك الفترة دليلا على اهمية مياه الجنوب اللبناني بالنسبة لبريطانيا ، التي كانت سياستها الفلسطينية انذاك قد دخلت حيز تنفيذ وعد بلفور ، وانشاء وطن قومي يهودي في فلسطين ٠

وقد ادى هذا التنافس الاستعماري المرتكز على تحريك معطيات الواقع المحلي ، الى صدامات دامية في تلك الفترة معروفة باسم « حوادث ١٩٢٠» (اعدت عنها دراستان واحدة بعنوان « مؤتمر الحجير » لمنذر جابر ، والثانية بعنوان « حوادث عين ابل » لالياس صادر) ·

غير ان هدوء التنافس البريطاني ـ الفرنسي بعد ذلك ، واستتباب الامور على اساس الحدود الدولية الحالية لكل من فلسطين ولبنان ، عاد بالحياة الى طبيعتها في تلك المنطقة بين عين ابل (مركز الاضطرابات الرئيسي انذاك) وسائر القرى المحيطة بها ·

وكان من نتيجة الاهتمام الفرنسي المبكر بتلك المنطقة ، وبقراها المسيحية خاصة ، ضمن اطار العلاقات الفرنسية ـ المارونية المزدهرة منذ احداث ١٨٦٠ الطائفية ، قيام احتكاك مبكر لقرى الحدود المسيحية ، المتخلفة انذاك كسائر قرى الجنوب ، بالحضارة الاوروبية ، وانعكس هذا الاحتكاك بشكل رئيسي على قرية عين ابل ، اهم واكبر القرى المسيحية في شريط الحدود الجنوبية ـ الغربية · ويذكر سكان بنت جبيل ـ مثلا ـ ان اول استاذ مدرسة عصري في بلدهم (يوسف بركات) كان يأتيهم من عين ابل على ظهر دابة : في الوقت الذي كان فيه التعليم في بنت جبيل لا يزال في عصر « الكتاب » · وظلت هذه العلاقات تنمو وتتصاعد ، فاصبحت مدرسة بنت جبيل الرسمية تستقبل الاساتذة والتلامذة من عين ابل ، كما ان مدرسة راهبات عين ابل تضم ٦٠٠ تلميذ من ابناء بنت جبيل ، من اصل ٨٠٠ تلميذ ·

وبينما انخرط اهالي عين ابل في دورة اقتصاد الخدمات في بيروت (شركات الطيران ، المصارف ، وسائر فروع اقتصادالخدمات)، كانت قريتا دبل والقوزح تراوحان مكانهما في التخلف لعدة اسباب اهمها عزلتهما عن شبكة المواصلات وقد شاركتهما رميش حالة التخلف برغم اتصالها بشبكة المواصلات ، الامر الذي جعل اهالي رميش ، مثل العديد من القرى الجنوبية الاخرى ، يتعيشون على مورد رزق واحد هو زراعة التبغ، كما كثر انتماء ابناء هذه القرية بالذات الى سلك الجندية ·

ومن المهم جداً ان نعرف ان قرية عين ابل التي تبدو الان في مركز الصدارة في الاستجابة للمخطط الاسرائيلي ـ الانعزالي بالنسبة للشريط الحدودي ، كانت القرية المسيحية الوحيدة من هذا الشريط التي دخلها تيار حركة التحرر العربية المعاصرة ، فقد التزم بعض ابناء عين ابل بتيار حزب البعث العربي الاشتراكي في الخمسينات ، وظل الالتزام الحزبي حتى انفجر

الصراع بين تياري صلاح جديد وحافظ الاسد في سورية ، ففك بعثيو عين ابل التزامهم الحزبي ، ليظلوا عـلى ولائهم للتيار البعثي العـام ، ومع ان هذا التيار لا يضم في عين ابـل سوى خمسة وثلاثين شخصا بالتحديد ، الا انـه يشكل المجموعة الوحيدة ذات الالتزام السياسي المستمر والمتماسك ·

اما الخريطة السياسية الكاملة لعين ابـل ، فتضم الى جانب هذا التيـار الواضح الالتزام الوطني ، تيارا اخـر غير متماسك يضم اقلية تحركهـا العواطف الانعـزالية ، اما الكتلة السكانية الاساسية في عين ابل فكانت ومـا تزال حتى الان معتدلة تتمسك بشروط التعايش الطبيعـي بين مجموعـة القرى الحدودية المتجاورة وحتى ان هـذه الاكثرية ، ومع بداية العـهد الشهابـي ، بدأت تحاول التعبير عن تطلعاتها السياسية باتجاه لبناني تحديثي معتـدل ·

على طول هذا السياق التاريخـي كانت رميش ، وحدها تنفرد بنوع مـن العلاقات السرية مع العدو الاسرائيلي ، حيث كانت الاستخبارات الاسرائيليـة تصطاد بين اهالي رميش ، بشكل خاص ، مجموعـة من المتعاونين ، تعـلو الحاجة اليهم وتنخفض مع سخونة وبرودة الاوضاع على الحدود ·

وكانت نشاطات التهريب بين جانبي الحـدود هي النشاطات الدائمة بصورة شبه عـلنية وتحت كـل الظروف ، وكانت رميش ايضا تحتل مركز الصدارة في هذه النشاطات ·

فترة الحرب الاهلية

ومع ان الحرب الاهلية اللبنانية حملت بذورا طائفية منذ شراراتها الاولى، فقد ظلت مجموعة القرى المسيحية والاسلامية عـلى الشريط الحـدودي فـي حالة هدوء، برغم الانهيار الكامل لاي رادع سلطوي يلجـم اي فوران للمشاعر الطائفية ، بل عـلى العـكس من ذلك ، بالرغـم من وجود كل عـناصـر الاغراء بتحريك الغرائز الطائفية ، وذلكسواء بدافع من اسرائيل او باندفـاع وراء الجو العام الذي طغى على الحرب الاهلية فترة من الزمـن ، ومـع انفلات اجهزة الاعـلام الخاصة التي راحت تركز يوميا عـلى الشحن الطائفي المباشر والمكشوف والمحموم ، ومع اغـراء سهولة انقضاض الاكثرية الطائفية عـلى الاقلية الطائفية ·

ومن المفيد فـي هـذا المجال ، وقبل محاولة تفسير هذا الواقع ، الاستشهاد ببعض الاحداث التي تثبت ان عـدم استجابة شريط القرى الحدودية للغرائـز

الطائفية واقــع سياسي حقيقي وعـميق الجذور يتجاوز ما يسمى بـ« التعايش الاخـوي » بين الطوائف ·

فعـلى الرغـم من ان موجة الخطف والذبح على الهوية وفقا للانتماء الديني والطائفي قد اجتاحت بيروت وضواحيها فـي اواسط الازمة وراح ضحيتهـا اعداد لا يستهان بها من ابناء الجنوب والقرى الحدودية ، فلا ردود الفعـل العفوية ، ولا استفراد مجموعـة صغـيرة من القرى المسيحية عـلى الحـدود البعـيدة ادبا الى موجة خـطف ثارية · حتى انعـددا من ابناء بنت جبيـل بالذات كانوا قد ذهبوا ضحية موجة خـطف وذبح في بيروت ، فلم ترتفـع مطالبة بردود ثارية من الجـوار المسيحي سوى اصوات قليلة خافتة ما لبثت ان خنقهـا الموقف الوطني الواعـي لابناء بنت جبيل · ولم تسجل هـذه الفترة السوداء سوى حـادث ثاري واحـد في تلك المنطقة بين قريتي يارين ومروحين ، لم يلبث ان طوق واعتقل الفاعـلون ، ولم يسمـح لـه بالتحـول من حـادث فردي الى موجة جماعـية ·

واذا كانت فترة « الجسور المفتوحـة » الحالية بين اسرائيل والجنـوب تسترعـي الاهتمـام والدراسة واستخلاص العبر ، فان فترة عـدم استجابـة الشريط الحدودي المتخلف والمحروم والمتروك فريسة الضغوط المتنوعة لموجات الغرائز الطائفية التي صبغت فترات معينة من الحرب الاهليـة اللبنانيـة ، وكانت عـنوانا بارزا لبعض هذه الفترات ، هـذه الفترة تستحـق هي الاخرى الالتفات والدراسة واستخلاص العبر · بل ان من الواضح ان فهـم الحجـم الحقيقي والاسباب الحقيقية لعـملية «الجسور المفتوحـة » ، والمعتمدة فـي بعض جوانبها على تحريك المخاوف الطائفية ، غير ممكن الا بالمقارنة بالفترة السابقة الممتدة من بداية الحرب الاهلية ، حتى بداية فترة « الجسور المفتوحة»·

ان عدم استجابة الشريط الحـدودي لموجات المد الطائفي فـي الحـرب الاهلية اللبنانية يتجاوز كما قلنا المفاهيم السطحية لـ« التعايش بين الطوائف »، ويثبت ان التنويعـات الطائفية في تركيبة المجتمع اللبناني ، حتى في اكثـر مواقـع تخلفـه ، لا تتحول الـى تحركـات سياسية الا اذا كانت هناك يـد ترسم وتخـطط ، وتتوجه عـمدا الى تحريك التركيبة الطائفية للمجتمـع اللبناني ، وتحويلها الى تحركات سياسية في هـذا الاتجاه او ذاك ·

على ضوء هـذه الحقيقة يمكننا الانتقال بسهـولة ووضوح لاستعـراض واقع « الجسور المفتوحـة »، متجنبين الوقوع فـي فخي الـتهويل والتهوين، فنضع اليد عـلى الاسباب الحقيقية وعـلى عـوامل توسع او ضيق رقعـة

« الجسور المفتوحة » في المستقبل ٠

ما من شك في ان المواقع الحدودية تكون في فترات الصراع مواقع نموذجية ، تبدو على جوانبها مضخمة ومجسمة كل عوامل الضعف وكل عوامل القوة عند الاطراف المتصارعة ، ليس على الصعيد العسكري فقط ، بل ايضا على الاصعدة الاجتماعية والاقتصادية والثقافية ٠

وهكذا ، يمكننا رسم صورة الجنوب اللبناني كتعبير عن الصراع العربي ـ الاسرائيلي كما تفهمه وتمارسه الحكومات العربية (وخاصة الحكومة اللبنانية) وكما تفهمه وتمارسه الجماهير العربية ، وكما تفهمه وتمارسه اسرائيل ٠

فبالاضافة الى ما هو معروف عن تسخير اسرائيل لكل ارصدتها الداخلية والخارجية ، المادية والبشرية ضمن خطة استراتيجية متكاملة لادارة صراعها مع العرب، فقد كشفت نصوص الرسائل المتبادلة بين بن غوريون وموشيه شاريت حول الوضع اللبناني ، والعامل الطائفي في هذا الوضع ، وامكانيات استغلال العنصر الماروني . عن ان التعمق في فهم تركيبة المجتمع المقابل على الجانب الاخر من خط الصراع ليس همًا يقتصر على رجال الفكر والثقافة في اسرائيل ، بل هو من صلب هموم رجال السياسة الذين يرسمون خطط الصراع ويديرون عملية تنفيذها في الوقت نفسه ٠

يقابل هذا الواقع على الجانب اللبناني الرسمي سياسة رسمية للدولة ازاء الصراع العربي ـ الاسرائيلي ، كان من اوضح المعبرين عنها الرئيس الاسبق شارل حلو ، عندما اعتبر نجاة لبنان من هزيمة العرب في معركة ١٩٦٧ دليلا على حكمة الخطة اللبنانية الرسمية المعتمدة ، على ابقاء لبنان خارج اطار الصراع العربي الاسرائيلي ٠

وبين هذين الخطين الرسميين الاسرائيلي واللبناني ، تتململ الجماهير اللبنانية العربية الانتماء ، لتجد لنفسها مكانا مناسبا تمارس فيه دورا في الصراع ضد اسرائيل وهي تقاوم ثلاثة عوائق كبرى : القوة الاسرائيلية الرادعة الجاثمة على صدرها ، التخلف والحرمان ، سياسة التهرب من التحدي التي اعتمدتها الدولة اللبنانية خطة دفاعية رسمية ٠

بالاضافة الى هذه المعالم الجنوبية التي يمكن ان تميز اية منطقة حدودية

اخـرى ، فقد اخـذ الجنوب يكتسب اهمية متزايدة بالنسبة للصراع العربـي ـ الاسرائيلي لعـدة اسباب :

١ ـ الاطماع الاسرائيلية التاريخية فـي الجنوب ، والتي كانت مخـــــططة ومعبرا عنها بوضوح ودقة حتى قبل انشاء دولة اسرائيـــل ، وذلك نظـــرا لحاجة اسرائيل الى مياه الليطاني ·

٢ ـ تحول الجنوب اللبناني بعد عام ١٩٧٠ بالذات ، الى منطقة تخـــرج الى حد بعيد من تحت سلطة منطق التهرب اللبناني الرسمي ، الى تحت سلطـة منطق المقاومة الفلسطينية ، سواء كمنطقة تمركز وتدريب ، او كنقطة انطـلاق للعمليات داخـل حـدود الارض المحتلة ·

٣ ـ التلاصق الجغرافي بين الجنوب اللبناني والجليل الفلسطيني . وهـو التلاصق الذي اصبح يقلق اسرائيل اكثر فأكثر بعـد انتفاضة الجليل الكبـرى في مطلع هـذه السنة ردا عـلى محـاولات الاستيلاء عـلى الاراضي العربية للسير فـي مشروع تهويد الجليل · والخـطر هنا مزدوج فالجليل هو اكبـــر مراكز المتجمع العربي في الارض المحتلة عـام ١٩٤٨ ، ثم ان دافـــع الانتفاضة الاخيرة هـو اخـطر الدوافـع ، دافـع التعلق بالارض وبهويتها العربيـــة كوطن وليس كمورد رزق فقط ·

٤ ـ كون الجنوب ، بسبب الحرمان والتخلف الشديدين والكثافة السكانية العالية ، منطقة حبلى بالتيارات الثورية ، وارضا خصبة قابلة لاي بـــــذور ثورية تلقى فيها ·

شريط « الجسور المفتوحـة » والتوتر العسكري

الى كل هذه العـوامل السابقة للحرب الاهلية اللبنانية ، اضيفت في الفترة الاخيرة عـوامل جديدة اهمهـا عاملان :

١ ـ بروز الاثار الاقتصادية التموينية التي شملت لبنان باسره اثناء الحرب الاهلية ، وبشكل اكثر حدة في الجنوب ، بسبب التخلف والحرمان التقليديين، وبسبب اعتماد قطاعـات سكانية كبيرة في الجنوب عـلى زراعـة منفردة هي زراعـة التبغ ، فهـو عـنوان البحبوحة او الفاقة في حالي الازدهـــار او الكساد · وقد كان اكثـر عـوامل هـذه الظاهرة حـدة فـي الفترة الاخيـرة تعطل جميع مستشفيات الجنوب القريبة من الحدود ، بما فـي ذلك المستوصفات

الثلاثين ، بالاضافة الى المستشفى النقـال الذي كان يديره وينفق عليـه مجلس الجنوب ، ولقد وصل الامر في الفترة التي سبقت ورافقـت بداية « الجسور المفتوحة » الى حد اقفـال المستوصفات الثلاثين اقفالا تامـا ، لافتقارها الى جميع انواع الادوية وابسط المواد الطبية ، حتى ان مستشفى صور الرسمي كان ، حتى الفترة الاخيرة ، يفتقر الى مادة البنج ٠.

٣ ـ مع ان عـين ابـل بالذات قد اغـرقت بالمواد التموينية فـي اشـد لحظات الازمة ، فقد كان هناك اهمال واضـح ازاء بعض القرى المسيحيـة الاخرى ، حيث كانت تهمـل الطلبات التي تقدمها لجان شعبية من هـذه القرى، بسبب عـدم وجـود ممثلين عن احزاب الحركة الوطنية في هـذه اللجـان، كما ان قيادة الجنوب السابقة فـي جيش لبنان العربي ، ارتكبت خـطأ عدم قبول انضمام عناصر قرية رميش الى جيش لبنان العربي وعـدم دفـع رواتبهم ٠

واذا كانت هذه هي الخلفية العامة التي تحركت فوقها سياسة « الجسـور المفتوحة » ، فقد اصبح واضحا الان ان الخلفية السياسيـة لهـذا التحـرك قدمتهـا فترة الجزر التي دخـلت فيها المقاومة الفلسطينية والحركة الوطنيـة اللبنانية بعـد انقلاب ميزان القوى لغير صالحـها فـي أعـقاب التدخـل العسكري السوري في لبنان ، وهو الوضع الذي وصل الى ذروته بسقـوط مخيم تـل الزعتر بعـد صمود اسطوري ٠

ولقد بدا واضحـا عـلى اثـر « الثقة بالنفس » التي اكتسبها المعسكـر الانعزالي في اعـقاب سقوط تل الزعتر انه راح يحـاول استغـلال الوجـود السوري لتحريك مواقـع اخـرى ، طمعـا في تغيير وجـه هذه المواقع قبـل عـودة ميزان القوى الى وضعـه السابق ٠ وفـي هـذا المجال كانت التحركات المشتركة بين القوات الانعـزالية والقوات السورية في منطقة جزين وجوارها واضحـة المعـالم والمعاني ٠

وسط هذه العوامل كلها ، هبط عـين ابل سبعـة عشر مسلحـا ، منهـم خمسة عشر من ابناء عين ابل العائدين من القتال فـي تل الزعتر وعنصران غريبان عـن القرية ٠

لم يكن لدى اهالـي عين ابـل اي مبرر للـتجاوب مع هذا الوجود المسلـح الاستفزازي ، بعـد ان كانت احتياجاتهم التموينية مؤمنة بشكل ممتاز من خلال لجنتهم التموينية التي كانت تشكل صلة الوصل بينهم وبين المقاومة والحـركة

الوطنية ، كما كان وضعهم الامني ممتازا مع القرى المجاورة ومـع الفصائل المسلحة للمقاومة والحركة الوطنية ، وبالفعل فقد طلبوا الى المسلحين مغادرة القرية والحوا في الطلب ، وامتنعوا في البداية عن اي تجاوب معهم ٠

غير ان هذا الجيب المسلح ترك من غير خطة للتصدي له وتطويقه في المهد ، ففرض وجوده القسري على عين ابل حتى اتيح له ان يفتعل الحادث الاستفزازي الذي ذهب ضحيته اربعة من عناصر المقاومة الفلسطينية وثلاثة من المسلحين الانعزاليين ٠ وقد اثبتت وقائع الحادث انه افتعل لاسباب سياسية ، وكان عاريا عن اية عوامل امنية او دفاعية (كما تم اخراجه وتصويره بعد ذلك) بدليل ان عناصر المقاومة لم تكن تقصد عين ابل ، بلكانت تمر بخراجها في دورية استطلاع لا علاقة لها بعين ابل٠ ويبدو ان عناصر الجيب المسلح قد نجحوا في استغلال هذا الحادث لخلق شعور من الفزع من وجود تهديد لامن عين ابل من قبل قوات المقاومة والحركة الوطنية ، فعقب الحادث تحرك بعض اهالي عين ابل عن موقفهم السلبي من الجيب المسلح ، بدليل ان عناصر هذا الجيب افتتحوا معسكرا للتدريب ، انضم اليه عدد من سكان القرية ٠ ثم اصبحت الحواجز والحواجز المضادة تقام بين مجموعة قرى الشريط الحدودي ٠ ويقول وطنيو تلك المنطقة ان وضع المنطقة الجغرافي يجعل المرء يستنتج بالبداهة ان اسرائيل هي طريق مرور وامداد هؤلاء المسلحين ، كما ان مساندتها لهم هي مصدر تجرؤهم واصرارهم على التحرش بجوارهم ، وعلى فرض نفسهم على عين ابل وغيرها من القرى المسيحية ٠ ويضيف هؤلاء الوطنيون ان المنطقة ملأى بالاخبار التي تقول ان مئات من المسلحين الانعزاليين يتلقون التدريب في اسرائيل لتأدية مهمة توسيع الجيب الانعزالي على الشريط الحدودي ٠

هذا التوتر العسكري ، كانت اسرائيل تمهد له وتواكبه بانفتاح «انساني» غريب ودقيق التوقيت على صعيد التموين والخدمات الصحية وكذلك على صعيد فرص العمل والتلويح بشراء موسم التبغ ، مستغلة بذلك التعثر الذي رافق تنفيذ التعهد العربي بشراء موسم التبغ بكامله ٠ ولكن يبدو ان اشد هذه الخدمات الاسرائيلية اغراء للسكان ــ بشهادة الجميع ــ هي الخدمات الطبية ، وهذا الاغراء بالذات يشمل المنطقة الحدودية بقراها المسيحية والاسلامية ٠ ولكن ليس معنى هذا ان الاستجابة عامة شاملة ٠ فمع ان منطق المستفيدين من هذه الخدمات بشكل عام ما زال هو منطق التعامل

المضطر وليس التعامل المفتوح القلب ، فان عـددا كبيرا من الاهالي ما زالـوا يعتبرون التعـامل مع العـدو حتى في هـذا المجال الاضطراري تنازلا عـن وطنيتهم . ويروي اهل عيترون قصة مواطنهم الذي ماتت ابنته بسبب عـدم توفر العـــلاج ، واصراره على رفض الذهاب بها الى اسرائيل ٠

اما مجالات فرص العـمل للعـاطلين ، فقد انحصرت في عشرات من عمال المرجة الاولى ، بعد ان اكتشفوا أن الاجور متدنيـــة ، وان فرص العمـــل ليست مفتوحة بالشكل الذي يمكن فعـــلا ان يحل مشكلة البطالـــة لمنطقـــة باسرها ٠ اما مسألة شراء التبغ فلم تتعـد مجال الدعـاية الكلاميـة ، فقـد اعترف مسؤول مصنع التبغ الاسرائيلي بعـد ايام قليلة بان العـملية ان تتــم بسبب ارتفاع الاثمان التي يطلبها مزارعو الجنوب ، وبالفعـــل لم يتم بيــع اية كمية من التبغ اللبناني لاسرائيل ، خاصة وان عـمليات الشراء الليبـي قد عـادت الى الانتظام ٠

كذلك ابتدأت المقاومة والحـركة الوطنية ، فـي هذه الاثناء بالتنبه ولو فـي وقت متأخر ـ للثغرات التي تسللت منها انسانية اسرائيل المفاجئة ، فتحسنت نسبيا حالة بعـض المستوصفات الطبية ، كما ان القيادة الجديدة لجيش لبنان العربي في الجنـــوب سارعت الى اصلاح خطأ القيادة السابقـــة فأعادت استقطاب عسكريي رميش وسائر القرى المسيحية ، ودفعت لهم بعض المتأخـر من رواتبهم ، كـما ان القيادة بدأت سلسلة من الاتصالات مـــع اهالي عين ابل ورميش وسواهمـا ، وساهمت في امتصاص موجة الحواجز المتبادلـــة بين القرى ، وذلك باحلال حواجز جيش لبنان العربي محلها ، على شبكـــة الطرق التي تصل بين مختلف قرى الشريط الحـدودي ٠ غير ان الحصيلـــة الـعامة للوضع ما زالت تسجل نجاحا اسرائيليا في خطين متوازيين متكاملين:

ـ محاولة تحريك مجموعـة القرى الحدودية المسيحية عـن طريق اثـــارة مخاوفهـا من جهة ،ودفعها ـ بالتعـاون مع الاحزاب الانعـزالية ورغبتها فـي مد نفوذها الى قلب المناطق الجنوبية ـ الى توسيع الشقة مع جوارهـــا والانجرار في الاعـمال العسكرية ضدها ، الامر الذي سيدفع هذه القـــرى، اذا استمر الوضع وتطور للوقوع عسكريا ضدها في احضان اسرائيل ، التــي تبدو عندئذ « كسند » لهذه القرى ومورد « دعـم » لها ٠

ـ محاولة تمييع الوضع العـام فـي المنطقة الحدودية باسرها ـ بقراهـــا المسيحية والاسلامية ـ عـن طريق استغـلال ثغرات التخلف والحرمان التـي تفاقمت مؤخـرا بموجات المهجرين من النبعـة وسواهـا ، وباشتداد الازمـة

التموينية وازمة البطالة بفعل الظروف من جهة ، واستخفاف القوى الوطنية كلها بهذا الجانب الهام من المعركة · واسرائيل تعرف طبعا انها اعجز من ان تصل الى حل اية مشكلة اجتماعية او اقتصادية من مشكلات الجنوب، وهي الغارقة في هذه المشكلات حتى اذنيها ، ولكن هدف اسرائيل ليس طبعا حل هذه المشكلات ، بل استغلالها من اجل تحرك استعراضي تكسر به طوق الحصار النفسي والعداء الذي ما زال حتى الان معضلتها التاريخية الكبرى في المحيط العربي الذي افتعلت لنفسها وجودا فيه، وهي المعضلة التي لا يكفي لحلها توقيع اتفاقيات السلام مع الحكومات العربية ·

عن المستقبل : الاهداف والخطة

حتى الان ، ما زالت ردود الفعل على هذا الامر الواقع الجديد تتراوح بين الادانة الخلقية والوطنية للتعاون مع العدو ـ كحد ادنى ـ ومحاولة سد بعض الثغرات التي نفذت منها اسرائيل ، وخاصة الثغرات التموينية والطبية واجواء التوتر المسلح بين قرى الحدود ـ كحد اقصى ـ،وذلك وسط التخوف الشديد من جهة والاستهانة بما يحدث من جهة اخرى ·

غير اننا اذا كنا حقا نرى في كل ما حصل في لبنان مؤامرة مدروسة دفعت بعناصر الوضع اللبناني الى التصادم بشكل يخدم اهداف التسوية وفقا للشروط الاميركية (وتسلسل الاحداث يؤكد هذا التفسير) فمن الواجب سحب هذا المنطق على التصرفات الاسرائيلية الاخيرة في الجنوب وعندئذ سنجد امامنا الرد واضحا على مجموعة من الاسئلة الهامة :

ـ لماذا انتظرت اسرائيل حتى منتصف عام ١٩٧٦ لتحرك خطتها في الجنوب ، وتركت كل الفترة الزمنية الفاصلة بين مطلع عام ١٩٧٥ (بداية الازمة) ومنتصف عام ١٩٧٦ دون ان تجرب ما كانت قادرة على تجربته في اي وقت ؟

ـ لماذا تصرفت اسرائيل هذه المرة بما يكشف ، بوضوح عنتعاونها مع القوى الانعزالية اللبنانية ، واشراكها في بعض التحركات ، ووضعها في واجهة تحركات اخرى ؟

ـ هل ستتبع اسرائيل ذلك بتحرك عسكري تحقق بواسطته اطماعها « التاريخية » في المياه اللبنانية ، ام ستكتفي بايصال الخطة الى حد تحويل

الجنوب الى منطقة « ساقطة » عسكريا ؟

ما دامت المؤامرة مؤامرة تسوية ، فمن الواضح ان تحرك كل اطراف التسوية يسير منذ مدة باتجاه تحسين شروط التسوية وتكبير الحصص ٠

وبما ان الازمة اللبنانية قد عدلت في مواقع الكثير من اطراف التسوية، فكبرت حصص البعض وصغرت حصص البعض الاخر ، فقد كان لا بد لاسرائيل من الاسراع في انتزاع حصتها من الازمة اللبنانية ، لذلك لم تتحرك اسرائيل تحركا واضحا الا عندما دنت ساعة القطاف ، فارادت خلق واقع جنوبي لا يمكن لاحد تجاهله سواء راوحت الازمة مكانها ، أو تمت التسوية بالعودة الى دولة لبنان الموحد ، المسيطرة على كل الاراضي اللبنانية ، او انفجرت الازمة فادت الى تقسيم لبنان ، وبشكل تبقى فيه حصتها محفوظة في كل الاحوال ٠

وبما ان المؤامرة مؤامرة تسوية ، فقد فرض ذلك على اسرائيل اولا ادوات التحرك ، فكان لا بد من استبعاد تدخل القوات الاسرائيلية مباشرة في الجنوب ، واستبدالها بالتحرك المعتمد على استغلال الاوضاع الداخلية للمنطقة الحدودية ودفع هذه الاوضاع لدرجة تضعها تحت حكم اسرائيل تماما٠

كذلك ، والى ان تنكشف كل الجسور السرية التي كثر الحديث عنها بين اسرائيل والقوى الانعزالية اللبنانية طوال فترة الازمة ، فقد حرصت اسرائيل، وقبل هدوء العاصفة (اذا هدأت) على ان تكرس علانية مبدأ هذه الصلة الجديدة المباشرة بينها وبين القوى الانعزالية اللبنانية ، بطريقة لا يعود هناك مجال لانكارها ، وبذلك تطرح اسرائيل حقيقة جديدة في الوضع اللبناني لا يمكن تجاهلها في التفاعلات المقبلة داخل لبنان ، ومهما كان المسار الذي تتخذه الازمة وبشكل لا يجعل القوى الانعزالية وحدها صاحبة المبادرة في اخفاء العلاقة وابرازها حسب تطور ظروفها ٠

اما الهدف الثالث الذي تحققه اسرائيل بمحاولة خلق « الجسور المفتوحة»، وبصلتها الجديدة مع بعض قرى الشريط الحدودي وخلق وضع عسكري متوتر في بعض هذه القرى ، فهو اقامة حزام عسكري يتحكم بمواقع تسلل الفدائيين الى الارض المحتلة على الشريط الجنوبي ـ الغربي ، ويطوق بالتالي اتفاقية القاهرة ، فيما لو ادت التسوية الى احياء العمل بكافة بنودها ٠وهكذا لا تترك اسرائيل نفسها تفاجأ بامكانية احياء اتفاقية القاهرة ، او اي اتفاق

جديد اخر يضمن للفدائيين شيئا من حرية العمل والتحرك في الحدود الجنوبية • وبذلك لا تضمن اسرائيل فقط التطويق المبكر لاي احتمال بعودة نشاط المقاومة عبر الحدود الجنوبية فقط ، بل تحاول اضافة حاجز لبناني امام هذا النشاط هو مجموعة القرى التي يمكن ان تتحكم فيها القوى الانعزالية بدعم ومساندة من اسرائيل طبعا •وبديهي ان كل حد من امكانيات تحرك المقاومة ، يستتبع بالتالي مزيدا من تصغير حجمها في أية تسوية مقبلة ، بالاضافة طبعا الى الاغراض الامنية التي تحققها اسرائيل بمثل هذا الوضع •

هذا هو الواقع الجديد الذي بدأت اسرائيل تحاول خلقه في الجنوب ، ابتداء بالشريط الحدودي ، وليس ما ينفي امكانية محاولة اسرائيل توسيع رقعة هذا الواقع كلما سنحت لها الظروف •

وهذا الواقع الجديد ستجده امامها اية جهة ستتولى مسؤولية الحدود الجنوبية وفقا لمسار الازمة ، سواء في ذلك تحالف المقاومة والحركة الوطنية، او الدولة اللبنانية العتيدة التي قال رئيسها الجديد ان القتال الذي خاضه اللبنانيون داخليا طوال الحرب الاهلية لو خاضوه في حربي ١٩٦٧ و١٩٧٣ ضد اسرائيل لاختلفت صورة لبنان اليوم •

وتبقى الحقيقة التاريخية الثابته والخالدة التي تقول ان المناطق الحدوديةلها دائما صفة الارض الطرية ، القوة الاقوى والاشد تصميما على جانبي الحدود هي الاقدر على وضع بصماتها عليها وطرح البذور فيها ، ولا يشذ الجنوب اللبناني عن هذه القاعدة •

١٩٧٦/١٠/١

الاتجاهات الامبرياليّة في مخططات اسرائيل الاقتصاديّة

حسين ابو النمل

مدخـــل :

هنالك كثير من الاسئلة السياسية الهامـــة المتعلقـة بالصراع العربـــي الاسرائيلي ، ما زال بدون اجوبة علمية محددة · وفي رأس هذه الاسئلة ، اسرائيل والصراع الطبقي ، والصراع الطبقي كوسيلة لتصفية الكيان الصهيوني العنصري في ارضنا المحتلة ·

ان الذي يعطي اهمية كبرى لهذه التساؤلات ، وبالتالي ضرورة ايجـــاد اجوبة لها ، هو ان قطاعات واسعة من حلفاء واصدقاء للثورة الفلسطينية مـا زالت تعول كثيرا على موضوعة الصراع الطبقي في اسرائيل وتعتبره العنصر الحاسم في الصراع · الامر الذي قادها الى قناعة خاطئة اخرى هي تبنيهـــا لموضوع الصلح مع اسرائيل متصورة ان مناخ السلم هو المناخ المناســب لتفاقم الصراعات الطبقية في دولة العدو ·

ان الاجابة الصحيحة على جملة الاسئلة المطروحة انما تتوقف على المعرفة الصحيحة بالاساس الموضوعي الذي يقوم عليه مجتمـــع العدو ، والنقطــة الاساسية انما هي الواقع الاقتصادي الاسرائيلي ، حاضرا ومستقبـــلا ،

وبدون الالمام بها فان اي حديث عن الصراع الطبقي وما يتفرع عنه من مسائل سياسية ، يبقى مجرد لغو نظري لا طائل تحته · وفي هذا الصدد يحضرنا قول لينين في مقدمة الطبعة الفرنسية لكتاب الامبريالية اعلى مراحل الرأسمالية عن انه « اذا لم يدرك المرء الجذور الاقتصادية ·· اذا لم يقدر اهميتها السياسية والاجتماعية حق قدرها ، لا يستطيع ان يخطو خطوة في ميدان حل المهام العملية ····» وكذلك المقولة اللينينية الشهيرة بان « السياسة هي اقتصاد مكثف ··» وبكلمة اخرى فان تعميق فهمنا لمسألة سياسية ما يعني بالضرورة تعميق فهمنا للوضع الاقتصادي الذي تتحرك على ارضيته ومن هنا فان نقطة البدء هي في محاولة رسم ملامح الاقتصاد الاسرائيلي ·

ان هذه المقالة ، ونظرا لضخامة ودقة الموضوع ، لا تدعي انها اكثر من محاولة اولية ومدخل للنقاش · لان الاجابة الكاملة تحتاج لدراسة تفصيلية وموسعة تجيب على كافة الاسئلة السياسية الاقتصاد المطروحة ، وكي يكون ممكنا لنا الوصول الى الاجوبة المطلوبة ·

ان الحديث عن الاقتصاد الاسرائيلي يجب ان يرى ضمن اطارين : الاول ، موقع اسرائيل في استراتيجية الامبريالية العالمية وعلاقاتها ومصالحها الاقتصادية · والاطار الثاني ، الاوضاع الاقتصادية الداخلية لاسرائيل ·وكلا هذين الاطارين يحدد مستقبل الوضع الاقتصادي الاسرائيلي وبالتالي اهداف ومخططات اسرائيل السياسية للمرحلة القادمة ·

ان النموذج الاسرائيلي ولاسباب عدة هو نموذج غير عادي ، في تطوره ونموه · وهذه الخصوصية تجعل من دراسة اقتصاد اسرائيل امرا صعبا ودقيقا الا انها لا تعني ان التجربة الاسرائيلية هي خارج اطار القوانين العلمية للماركسية ـ اللينينية التي تحكم سير التاريخ وسير الصراع في هذا العالم ·

مركز ومحيط الدول الامبريالية :

ان الاطار الاول الذي سنرى اسرائيل من خلاله هو ، تقسيم العالم غير الاشتراكي على النمط الامبريالي بين الدول الصناعية البرجوازية المتقدمة ـ الدول الامبريالية الرئيسية والتي يمكن لنا تسميتها دول (المركز) والدول البرجوازية التابعة التي ترتبط بشكل او باخر بالدول الامبريالية أي (محيط) دول الامبريالية · وفي ضوء هذا الانقسام تتحدد الوظيفة الاقتصادية بين دول المحيط ودول المركز بالشكل الذي يضمن موضوعيا تبعية دول المحيط الى المركز · ان الامبريالية باعتبارها اعلى مراحل الرأسمالية حدد لينين سماتها وابرز هذه السمات تصدير رأس المال الى دول المحيط ليقوم بدور استغلالي ، كثافة رأس المال الموظف ، وتقسيم سوق العمل الدولي وسوق

المواد المنتجة ، بين دول المركز التي تقوم بتصدير المواد المصنعة ودول المحيط التي فرض عليها التخصص في تصدير المواد الخام التي تحتاجها دول المركز واستهلاك البضائع التي تنتجها الدول الامبريالية واستطرادا فان سوق العمل الدولي ينقسم ايضا على هذا النمط ويبقى محكوما بالدور الانتاجي الذي تتخصص به كل من دول المركز ودول المحيط ٠ ولذا فان دول المركز تفرض عبر وسائل عدة نمطا معينا من التنمية الاقتصادية على دول المحيط الامر الذي يبقى هذه الدول اسيرة علاقاتها مع الدول الامبريالية وفي موقع العاجز عن تحقيق استقلالها السياسي والاقتصادي ، ويتضح هذا جليا من مراجعة العديد من الامثلة ، بحيث يمكن لنا القول ان الدول الامبريالية لم تساعد اية دولة من دول المحيط في بناء مشروع صناعي يمكن لنا اعتباره صناعة ثقيلة ٠ ولا يقتصر الامر على عدم المساعدة بل يتعداها الى محاولة تخريب محاولات بعض دول المحيط للقيام ببناء مثل هذه الصناعات الامر الذي يدفعنا للقول ان العلاقات الاقتصادية لدول المركز مع دول المحيط محكومة دائما وابدا بقرار سياسي تتحكم به المصالح السياسية والاقتصادية لدول المحيط ٠ ويعبر خير تعبير عن هذا الامر ، قول مستشار المانيا الغربية عن « ان المساعدات الخارجية ليست واجبا اخلاقيا ، بل هي عنصر استراتيجي »٠ وبكلمة اخرى فان حاجة دول المحيط الماسة للمساعدة ليست هي الامر المهم ، بل المهم هو استراتيجية الدول المركز ٠

صراع الدول الامبريالية لا يلغي وحدتها :

وبرغم صراعات الدول الامبريالية فيما بينها على دول المحيط ، فان الصراع يتجمد كليا عندما يصل الى حدود تستفيد منه دول المحيط ٠

وعلى هذا الاساس فاننا نستطيع القول ان هنالك تطور (لا متكافيء)بين دول المحيط ودول المركز بحكم تفاوت نقطة انطلاق كل منهما ، الامر الذي يجعل وتيرة نمو دول المركز اعلى من وتيرة نمو دول المحيط ٠ وفي هذا الصدد يمكن لنا استرجاع جوهر طرح كارل ماركس في كتابه مخطوطات ١٨٤٨ عن « الغني الذي يزداد غنى والفقر الذي يزداد فقرا »٠ وخلاصة القول ان اي تنمية لدول المحيط ستبقى محكومة بالفشل ما دامت هذه الدول مرتبطة بالسوق الامبريالي ومحكومة بعلاقاته ٠

ان السمة الجديدة التي يمكن ملاحظتها في العقدين الاخيرين من القرن الحالي هي انخفاض نسبة رؤوس الاموال التي تصدرها دول المركز الى دول المحيط وتزايد رؤوس الاموال المتبادلة بين دول المركز نفسها ٠ وذلك لان عملية استكشاف مصادر المواد الخام قد انتهت تقريبا في العالم ٠ والذي

يتم حاليا قليل بالقياس لما كان يحدث في الماضي ، واستطرادا لم تعد توجد مجالات جديدة لتوظيف مزيد من رؤوس الاموال الا في قطاعي الصناعات التحويلية والصناعات الثقيلة بعد ان اشبع قطاع الصناعات الاستخراجية تقريبا · ودول المركز ليست على استعداد للمغامرة لانها تعلم ان مثل هذه الصناعات قد تضع دول المحيط على بداية طريق الاستقلال الاقتصادي والسياسي · وبرغم التبعية المفرطة لبعض دول المحيط فان دول المركز لا تقوم ببناء اية صناعات انتاجية ، لانه وان كان النظام السياسي القائم حاليا هو نظام تبعيته مضمونة ، لكن احتمالات المستقبل كحدوث ثورات شعبية او انقلابات عسكرية مفاجئة تنهي النظام السياسي الموجود تبقى احتمالات واردة ·

وفي الحالات التي تقوم بها الامبريالية ببناء صناعات انتاجية في بعض البلدان فانها تحرص على الا تكون هذه الصناعات كاملة ، حيث تنتج هذه الدول غالبية اجزاء السلعة ، لكن يتبقى جزءا دقيقا يصنع في دول المركز ، وبدونه تبقى السلعة المنتجة دون فائدة · ولا يغرب عن البال حادثة تاريخية بالغة الدلالة الا وهي قيام الطائرات الاميركية في الحرب العالمية الثانية بالتدمير الشامل للمؤسسات الصناعية في المناطق الالمانية التي كان متوقعا ان تحررها القوات السوفياتية وفي الوقت نفسه تجنب الطائرات نفسها ــ قدر الامكان ــ ضرب المؤسسات الصناعية في المناطق التي كانت مرشحة للاحتلال من قبل القوات الفرنسية ــ الاميركية ــ البريطانية· والاهداف البعيدة لمثل هذا الامر واضحة كل الوضوح وذلك لالقاء اعباء مستقبلية على النظام الجديد الذي كان سينشأ في المناطق التي حررتها القوات السوفياتية ، والعكس صحيح بالنسبة للمناطق الاخرى · وفي الشرق العربي وبرغم سني الاستعمار الطويلة ، سواء اكان الاستعمار مباشرا او غير مباشر ، فاننا لا نستطيع ان نلحظ اي مشروع صناعة ثقيلة قامت به دول امبريالية ، وبالمقابل فان مشروع الحديد والصلب وكهربة الريف وسد اسوان في مصر ، كلها ترتبط بالمساعدات السوفياتية · وفي سوريا فان الحديث عن اي صناعة ثقيلة هو حديث عن مساعدات المانيا الديمقراطية لها ·

اسرائيل في خريطة الامبريالية :

في ضوء ما تقدم وبعد ان اتضحت لنا سياسة الدول الامبريالية تجاه المحيط يطرح السؤال التالي : ولكن ماذا عن خطة التنمية الاسرائيلية ؟ وهل هي شبيهة بنمط التنمية الذي تفرضه الدول الامبريالية على دول المحيط؟

يتشكل الاقتصاد الاسرائيلي كاقتصاد اية دولة اخرى من القطاعات الثلاثة المعروفة ، الصناعة ، والزراعة والخدمات ٠ ولكن العبرة هي في الاهمية النسبية لكل من هذه العناصر الثلاثة ، وما هي حركةكل من هذه العناصر ؟ واين الاعتماد الرئيسي للاقتصاد ، على الزراعة ام على الصناعة ام على الخدمات ؟ لنترك الارقام تتحدث ٠٠٠

بلغت الصادرات الزراعية عام ١٩٤٩ ما مقداره ١٢٣ر١٨ مليون دولار اي ما نسبته ٦ر٦٣ ٪ من اجمالي الصادرات مقابل ٣٧٢ر١٠ مليون دولار صادرات صناعية اي ما نسبته ٤ر٣٦ ٪ ٠ ومنذ ١٩٤٩ حتى ١٩٧٣ استمرت القيمة المطلقة للصادرات الزراعية بالتزايد بحيث بلغت ١ر١٧٣ مليون دولار عام ١٩٧٣ ٠ ولكن قيمتها النسبية هبطت لتبلغ ٩ر١١ ٪ فقط من اجمالي الصادرات ، وفي الوقت نفسه قفزت الصادرات الصناعية لتبلغ ٦ر١٢٧٥ مليون دولار عام ١٩٧٣ اي ما نسبته ١ر٨٧ وخلال هذه الفترة تضاعفت الصادرات بشكل عام ٨ر٥٠ مرة ، وبينما تضاعفت الصادرات الزراعية ٥ر٩ مرات فقط ، فان الصادرات الصناعية تضاعفت ١٢٣ مرة ٠ وكذلك الامر بالنسبة لواردات اسرائيل فقد طرأ تغير اساسي وجذري على هيكل الواردات وذلك لصالح السلع الاستثمارية والسلع الوسيطة في مقابل السلع الاستهلاكية بحيث لم تشكل الواردات الاسرائيلية من السلع الاستهلاكية سوى ٨ر٩٪ من اجمالي الواردات عام ١٩٧٠ ٠

مساعدات الامبريالية عنصر حاسم :

ان التبدل الجذري الذي طرأ على هيكلية واردات وصادرات اسرائيل ذو دلالة بالغة الاهمية ويوضح الدور المتزايد للصناعة في الاقتصاد الاسرائيلي٠ وان القفزة الصناعية الاسرائيلية قد بدأت في العام ١٩٦٤ ٠ وذلك العام هو العام الذي انتهى به تنفيذ مشروع تصنيع اسرائيل بشكل شامل والذي قامت به المانيا الغربية تحت ستار اتفاقية التعويضات ، والذي بدأ في العام ١٩٥٤ ٠ ونفذ على ثلاث مراحل ضمن خطة متكاملة وشاملة ٠والتيتقول عنها المصادر الالمانية الغربية نفسها ما يلي :« لقد تم قبول حوالي ٨٠٪ من الاتفاق ـ اي اتفاق التعويضات ـ في صورة شحنات من سلع رأسمالية من جميع الانواع ، وبناء على ذلك كانت الشحنات التي تمت وفقا للاتفاق تشكل عنصرا اساسيا واضحا ودائما في بناء الصناعة في اسرائيل في تلك السنوات الاولى وهو عنصر بالغ الاهمية بالنسبة لتماسك اسرائيل اقتصاديا ، وكان ذلك بمثابة مساهمة هامة وبناءة في تصنيع اسرائيل ٠ ان الشحنات التي تمت وفقا لذلك الاتفاق يمكن العثور عليها في جميع انحاء

اسرائيل وبصفة خاصة في المناطق والمقاطعات ذات الاهمية الصناعية، مما يوضح قيمة المساهمة التي تحدثت عنها - اي المصدر الالماني الغربي - والتي كان اثرها بناء وفعالا باكثر من مجرد قيمة الارقام في ذلك الوقت بالذات ٠

ان مساعدات المانيا الغربية هي بالتأكيد « عنصر استراتيجي وليس واجبا اخلاقيا ».. كما قال شميدت وعنصر استراتيجي بمعنى تدعيم وجود اسرائيل كعنصر هام في استراتيجية الامبريالية العالمية التي تقودها الولايات المتحدة والتي كانت قد اوكلت لالمانيا الغربية هذه المهمة ٠

ان التوقف مليا امام مساعدات المانيا الغربية كنموذج لما قدمته الدول الامبريالية لاسرائيل انما هو بهدف توضيح نمط العلاقات التي تقيمها الدول الامبريالية مع اسرائيل ، انها تعاملها ليس بوصفها من دول المحيط بل من دول المركز ، وهنا من الضروري تذكر الاتفاقية التي وقعتها دول السوق المشتركة مع اسرائيل في ٢٣-١-١٩٧٥ ، ونصوص تلك الاتفاقية تبين ان السوق المشتركة التي هي احدى المراكز الرئيسية للامبريالية في العالم ، تريد ان تدمج اسرائيل في هذه الكتلة وتعاملها على هذا الاساس ٠ وفي الوقت الذي تنص الاتفاقية على استيراد المواد المصنعة من اسرائيل وتعطيها المزيد من الاستثمارات والخبرات العلمية ، فان دول السوق تعطي لمصر مساعدات غذائية وتوقع اتفاقية مع دول المغرب العربي تنص على استيراد المواد الخام فقط !

لقد وفرت الدول الامبريالية على اسرائيل فترة طويلة من النمو واختصرتها بسنوات قليلة ، بحيث حققت اسرائيل بمدة بسيطة كل التطور الذي سبقت الاشارة اليه ٠ وبدأت تشهد نفس الظواهر التي ميزت الدول الامبريالية العريقة ٠ فهنالك التوسع المستمر في الصناعة ، وهنالك كثافة راس المال الموظف في الداخل وتمركز الرساميل والمؤسسات في يد الاحتكارات التي تشرف عليها الدولة ٠

اسرائيل ، مشروع اقتصاد امبريالي :

ان ما تقدم يؤكد لنا ان الاقتصادالاسرائيلي يتميز بعدد من السمات التي يمكن لنا معها اعتباره مشروع اقتصاد امبريالي ، ويستدل على ذلك من نمط خطة التنمية ٠ وطبيعة علاقتها مع الدول الامبريالية ٠ وكذلك تنظيم اقتصادها على اساس التقسيم الامبريالي لسوق العمل وسوق المواد

الخام ، وتؤكد طبيعة علاقتها مع المناطق المحتلة هـذه المسالة ان تستوعـب في اقتصادها نسبة من العـمال العـرب تشكل حوالي ١٠٪ من طاقتها العاملـة بشكل عـام ولكن هـذه الـ ١٠٪ تشكل حوالي ٩٠٪ من اليد العاملة غـير الفنية تلك الاعمال التي قال عـنها لينين : « يشتغل المهاجرون من اوروبا الشرقيـة وامريكة الجنوبية في الاعمال التي تدفع مقابلها احط الاجور بينما يؤلف العمال الاميركان اعلى نسبة من المناظرين ومن العمال الذين يقومون بالاعمال التي تدفع مقابلها اعـلى الاجـور »· والان ففي الوقت الذي يضطر المهندس او الطبيب في المناطق المحتلة للهجرة بحثا عن العمل لان الاقتصاد الاسرائيلي ليس على استعداد لاستيعابه فان اسرائيل بحاجة لاي عامل يدوي عربي غيـر فني · كما بدأت تقيم في بعض المناطق المحتلة بعد ١٩٦٧ بعض المشاريع التي تؤمن سلعا نصف مصنعة يحتاجها الاقتصاد الاسرائيلي ·

السلام الاقتصادي شرط هام جدا :

واضافة للواقع القائم حاليا فان تصور اسرائيل للمستقبل يتضمن اصرارا على السلام الاقتصادي الذي يكفل لها رقعا اقتصادية جديـدة · وكما قـال ابا ايبان وزير خارجية اسرائيل السابق « ان اسرائيل ترغب في ان تكـون علاقتها بالدول العربية كعلاقة الولايات المتحدة بامريكا اللاتينية » · وهـذا الكلام غـني عـن الشرح او التعريف ، ويوضح اهداف اسرائيل ولـه اساسه المادي ولا يلقى جزافا ·

ما تقدم يؤكد لنا ان النمـو الاقتصادي الاسرائيلي هو وليد تعامل الـدول الامبريالية معـها بوصفهـا جزءا لا يتجزأ من مركز الدول الامبريالية وهـذا يدفعـنا للقول بان اسرائيل قد قطعـت اشواطا بعـيدة باتجـاه التحـول الى دولة امبريالية وما تحتاج اليه فقط هو (امريكا اللاتينية) الخاصة بها ·

ان اسرائيل تحاول ان تستغل موقعها الجغرافي في نقطة حساسـة وقريبـة لافريقيا واسيا كـي تلعـب دور القاعـدة الاقتصادية للامبريالية العـالمية فـي المنطقة ، اضافة الى دورها التقليدي المعـروف كقاعـدة عسكرية وسياسية· وتستطيع الامبريالية العـالمية ان تقيـم فـي اسرائيل المشاريع التي تريـد ، دون خشية الوقوع في ايدي سلطـات معـادية لهـا ، بحكم الترابط العضوي بين الكيان الاسرائيلي والامبريالية · وفي هذه الحـالة فـان صناعـات الامبريالية تكون فـي مأمن من ناحية ، ومن ناحية اخـرى تكون قريبة مـن سوق المواد الخـام وسوق الاستهلاك ، وفـي الوقت نفسه هنالك فيض مـن اليد العـاملة العربية ـ في حالة السلام ـ والتي تؤمنها من كـل الـدول المجاورة : المناطق المحتلة ٦٧ ، لبنان ، سوريا ، الاردن ·

القاعـدة الاقتصادية والانعكاسات السياسية :

ان لوضعـية اسرائيل الاقتصادية انعكاساتها عـلى اوضاع اسرائيـل الداخلية كما ان لها انعكاساتها على مخططاتـها الخارجـية ٠ وقـد انعكست اوضاع اسرائيل الاقتصادية على مستوى معيشة المواطن الاسرائيلـي بحيث بلغ دخـل الفرد الاسرائيلي عـام ١٩٧٠ .. ٢٥٢٣٫٩ دولار سنويا بعـد حسم اعباء الدفاع مقابل ٢٨٥ دولار للفرد السوري و١٤٧ دولار للفرد المصري٠ وقد قيل بشأن مستوى معيشة الفرد الاسرائيلي انه اعـلى من مستوى معيشة الفرد في النمسا وايطاليا وهولندا ٠ ليس هـذا سوى الوجه الاخـر لتزايـد حجم الناتج القومي والذي بلغ عـام ١٩٧٤ : ٨٫٧ مليار دولار في الوقـت الذي بلغ به في مصر في نفس العام ٨٫٤ مليار دولار ، مع الاخـذ بعـيـن الاعتبار ان عـدد سكان مصر ١٢ ضعـف سكان اسرائيل ٠

وفي هذه المرحلة تحاول قيادة الصهيونية العـالمية والقيادة الاسرائيلـية الحاكمة ان تنفذ بحرفية النظرية الصهيونية عن التمييز والتمايـز كوسيلـة لاستمرار الحركة الصهيونية والتي عبر عـنها بن جوريون بقوله : « ان مبـدأ مساواة اليهود بغير اليهود في الحقوق والواجبات هـو الذي يجعـل خـطـر الاندماج اشد »٠ وبكلمة اخـرى فاذا كانت الصهيونية قد استغـلت التمييـز الواقع ضد اليهود لدفـع هؤلاء لدعـم البرنامج الصهيوني الاستيطاني كمخرج وحل لمشكلة الاضطهاد الواقعـة عـليهم فـي دول الشتات ، فان الصهيونيـة العالمية تخطط حاليا لان تقلب موضوع التمييز ضد اليهود ليصبح لصالحهـم وعـلى حساب الاخـرين محـاولة من وراء تقديم المكاسب لهـم ان تجعلهـم مميزين وتضعـهم في موقع المدافع عـن الامتيازات التي حققوها ٠ وهذا ينطبق مع الفهم اللينيني عن « الشعوب المستغـلة والشعـوب المستغلة » وحديـث انجلز في نهاية القرن التاسع عشر عن «البروليتاريا البريطانيا التي تتبرجـز اكثر فاكثر وحيث يبدو ان هذه الامة الاكثر برجوازية بين الامم تريـد ان يكون لديها في نهاية الامر والى جانب البرجوازية ،ارستقراطيـة برجوازيـة ، وبروليتاريا برجوازية ٠٠» وحديث لينين عن «العمال البريطانيين الذين كانـوا يدعمون سياسة حيازة المستعـمرات »٠ وعـن انه « لا وجـود لحـزب عمال، كل ما يوجـد هنا همـا حزبا المحافظين والراديكاليين ، اما العمال فيتمتعـون معـهم مطمئنين بوضع انجلترا الاحتكاري ازاء المستعـمرات وبوضعهـا الاحتكاري في السوق العـالمية »٠

التركيب الطبقي الشاذ والصراع الطبقي :

وينطبق حديث انجلز ولينين حرفيا عـلى الوضع فـي اسرائيل ، فاضافـة

الى مستوى المعيشة المرتفع فان التركيب الطبقي للمجتمع الاسرائيلي شاذ وغير طبيعي ، فالمجتمع الاسرائيلي هو مجتمع طبقي باعتباره مجتمعا رأسماليا، ولكن القاعدة الطبقية المسحوقة والتي يقع عليها عبء الاعمال الشاقة هي اليد العاملة العربية من منطقتي الاحتلال ٤٨ و٦٧ · وما تبقى من التشكيل الطبقي الاسرائيلي يتوزعه اليهود ـ ومزيدا ثم مزيدا من عمليات توسيع القاعدة الطبقية واحتلال العرب لدور البروليتاريا في التشكيل الطبقي والاقتصادي لاسرائيل . مرشحة لان تتم مستقبلا · وبكلمة اخرى فان الحديث عن بروليتاريا في اسرائيل انما هو حديث بالدرجة الاساسية عن العرب لانهم الغالبية الساحقة من تلك الطبقة · وفي هذا المجال فان اسرائيل تتفوق على غيرها من البلدان الامبريالية التي تستوعب في اقتصادها عمالا اجانب ، ولكنهم لا يشكلون النسبة المرتفعة التي يشكلها العمال العرب في الاقتصاد الاسرائيلي · وفي ضوء ما تقدم فان الحديث عن اضطهاد طبقي هو بالدرجة الاساسية حديث عن الاضطهاد الواقع على العرب ·

ان الصراع الطبقي في اسرائيل بحكم الواقع الاقتصادي وبحكم طبيعة التشكيل الطبقي انما هو بشكل رئيسي صراع بين المستغلين العرب ·قوميا وطبقيا ، وبين المجتمع الاسرائيلي الذي يستفيد من الاحتلال بشكل او باخر وبنسبة متفاوتة وحسب الشرائح الطبقية المختلفة · وفي محاولة ذكية من القيادة الصهيونية لخلق « سلام اجتماعي » بين المستوطنين اليهود وعلى حساب المواطنين الفلسطينيين المضطهدين قوميا وطبقيا ·

المباراة الاقتصادية والتكامل الاقتصادي وتفاوت نقطة الانطلاق :

ان الحديث عن تكامل اقتصادي بين العرب واسرائيل ، وعن الكم العربي والنوع الاسرائيلي ، هو الوجه الثاني لعملية تقسيم وتوزيع العمل على النمط الامبريالي ، على صعيدي السوق . والمواد الخام ، اليدالعاملة، وفي الوقت نفسه فان نظرية المباراة الاقتصادية بين العرب واسرائيل غير سليمة ايضا لان نقطة انطلاق كل منهما غير متساوية ، باعتبارها ،عمليا، مباراة بين دولة من دول المركز واخرى من دول المحيط ·

الجذور الاقتصادية للانحراف الدائم باتجاه اليمين :

ان الحقائق الاقتصادية في اسرائيل قد عكست نفسها على التشكيل السياسي الاسرائيلي وعلى طريقة نمو الاحزاب السياسية في اسرائيل · وقد اشار الحزب الشيوعي الاسرائيلي (ركاح) الى هذه الحقيقة في تقريره الصادر عن

مؤتمره السادس عـشر اذ قال « ان تسرب رأس المال الاجنبيلاسرائيل الذي لم يصغر خلال عشرين سنة منذ قيام دولة اسرائيل فقط ، بل ازداد ··· ان استيراد رأس المال الى اسرائيل هو الاعـلى ، نسبيا ، فـي كل العـالم · في نهاية سنوات الخمسينواوائـل سنوات الـ ٦٠ كان هناك في البلاد صعـــود اقتصادي مثل « الاعجوبة الاقتصادية » الاسرائيلية · ومن المستحيل ان لا يؤثر كل ذلك عـلى الوضع الاجتماعـي الداخـلي فـي اسرائيل ، وان لايشجع اتجاهات البرجوازية الصغـيرة ·· (ص ١٠٢ ـ ١٠٣ الطبعـة العربية مـن التقرير)· وفي مقابل هـذا فانه ليس من قبيل المصادفة المحضة ان يتشكـل الحزب الشيوعـي الاسرائيلي (راكح) من غالبية عربية ، واضحـة جـــدا تبلغ حوالي ٩٠٪ · برغم ان نسبة عرب المناطق المحتلة ٤٨ لا تبلـــغ سـوى حوالي ١٤٪ من سكان اسرائيل · وفي المقابل فان الفريق المنشق عن الحـزب الشيوعـي الاسرائيلي والذي خرجت معـه الغالبية اليهودية ، يتجه اكثـر فاكثر نحو الصهينة ، وتخلى اخيرا حتى عن كلمة شيوعـي في اسمـــه · ان هذا الانحراف النظري هو بالاساس انعكاس للواقع الطبقي لقاعدتـــه · وبالاضافة لهـذا فان بعـض حلقات المثقفين التي تتبنى الماركسية والتي تعـمـل بشكل منفصل عـن راكح لا تستطيع اعتبارهـا معبرة عـن واقع طبقي باعتبـار انها صغـيرة جدا واعضاؤها لا يتجاوزون العشرات وتتكون في معظمها ·ـن البرجوازية الصغـيرة (الطلاب ـ مدرسين)·

وفي موازاة هذا فان الاجنحـة اليمينية فـي ما يسمى بالاحزاب العماليةقد بدأت بالنمو على حساب الاجنحة الاخـرى ، ان الانشقاقات التي تعرضت لهـا كانت دائما انشطارات باتجاه اليمين · وليس مصادفة معزولة عـن الواقـــع الاقتصادي والطبقي ان يكون التحالف العـمالي الحاكم ـ هو الذي شن حرب ٥٦ و٦٧ وما زال في قمة الحكم حتى الان يدعـم ويخطط للعـدوان ·

في مواجهة الضمور في حجم الاحزاب العمالية وتنامي الاجنحة اليمينيـــة منها ، نلحظ تزايدا في قوة احـزاب اليمين الصهيوني ويبدو ذلك منالتشكيـل الحالي للبرلمان الاسرائيلي · وقد لحـظ الحـزب الشيوعـي الاسرائيلي(راكح) هذه الحقيقة في تقريره الصادر عـن المؤتمر السادس عـشر ، فتحت عنـوان « تحول الى اليمين في خريطة اسرائيل السياسية » ،والعنوان غنـي عــــن التعريف ، قدم تقرير الحزب عرضا وتحليلا للاوضاع السياسية في اسرائيل في ضوء انتخابات الهستدروت وانتخابات الكنيست الشادسة قال عنها بالحرف الواحد «في انتخابات الهستدروت اشتركت لاول مرة قائمة «جاحل »كتلة حيروت (الليبراليون) ولم تشترك للمرة الاولى احدوت هعفودا بقائمة مستقلة بل فـي قائمة واحدة مع المباي · وكان هـذا تحـول الى اليمين في الهستدروت من

ناحية سياسية عامة وطبقية ‥ « ص ٣٦» ٠ وعن النتائج المباشرة قال التقرير : « ان نتائج انتخابات المؤتمر العاشر للهستدروت قد ادت الى فشل الزعامة الحالية ، فالمعراخ (التجمع) قد حصل على ٥٠ر٨٨٪ من الاصوات فقط ‥ بينما في انتخابات المؤتمر التاسع حصل المباي وحده على ٤٣ر٥٥٪ من الاصوات ‥ ان فشل التجمع في انتخابات الهستدروت قد عبر عن عدم رضا العمال على سياسة زعامة المباي وعلى التجمع بين المباي واحدوت هعفودا ‥ ولكن الامر السلبي في نتائج انتخابات الهستدروت قد كان في انه قد نشأت قوة يمينية قوية في الهستدروت « ص ٣٧ـ٣٨ » واما بالنسبة لانتخابات الكنيست فقد قال عنها التقرير «وبعد انتخابات الكنيست مباشرة كان واضحا انه قد طرأ تحول الى اليمين في خريطة اسرائيل السياسية ‥ « ص ٣٩ » وعن مراقبة مسار الامور السياسية في المراحل اللاحقة للانتخابات التي يشير اليها التقرير يتضح ان الميل باتجاه اليمين قد استمر وتصاعد اكثر فاكثر ٠

راكح حزب الاقلية العربية :

وفي مواجهة نمو اليمين ونجاحه المتزايد على حساب الاحزاب العمالية، وبكلمة اخرى انحياز القاعدة للبرنامج الاكثر تطرفا وصهيونية ، نلحظ انحيازا عربيا أكثر فاكثر لراكح ،وليس من قبيل المصادفة ان تكون (الناصرة) المدينة العربية ، هي المدينة الوحيدة التي يسيطر راكح على مجلس بلديتها ، اضافة الى ان نقابة عمال البناء ، حيث للعرب اغلبية ساحقة ، هي النقابة العمالية الوحيدة التي يسيطر عليها راكاح ٠

خلاصات ونتائج

ان ما تقدم يوضح لنا الخريطة الاقتصادية والتركيبة الطبقية والسياسية لاسرائيل وبحيث نجد انفسنا امام مثل حي وواضح لما كان لينين قد تحدث عنه عندما قال عن شعوب مستغلة وشعوب مستغلة ٠

وفي ضوء التركيب الطبقي لاسرائيل ، وفي ضوء النمو الاقتصادي الذي عرفته اسرائيل ، والمرشح للتزايد مع تحول اسرائيل اكثر فاكثر نحو ان تصبح دولة امبريالية ، او حسب التعبير الجديد المتعارف عليه (امبريالية صغيرة)وفي ضوء عمليات الافساد الطبقي والايديولوجي التي يتعرض لها المواطن الاسرائيلي يوميا ، والتي تؤدي حكما الى تمييع الصراع الطبقي في اسرائيل ، وفي ضوء الحقيقة القائلة بان اسرائيل بحكم طبيعة تكوينها وعلاقاتها وارتباطاتها وبحكم ، تأصل الايديولوجية الصهيونية ،والتي

بدأت تستند الى واقع اقتصادي ، انعكس بشكل مستوى معيشة مرتفع لغالبية المواطنين .الاسرائيليين • اخذ شكل تمايز عام لصالحهم بالقياس لعرب المناطق المحتلة ٤٨ و٦٧ • وباعتبار ان تزايد الصراعات الطبقية انما يرتبط بالفوارق الطبقية وبعمليات الاستغلال الطبقي • لهذه الاسباب نستطيع القول ان تركيب المجتمع الاسرائيلي هو تركيب غير عادي ، وان كان ينقسم الى مستغلين ومستغلين ، فان هذا الانقسام يتداخل مع التشكيل السكاني الثنائي ، حيث يشكل عرب المناطق المحتلة الغالبية الساحقة من المستغلين وبالمقابل يشكل يهود المناطق المحتلة غالبية المستغلين ، وبرغم التفاوتات الطبقية بين شرائحهم الطبقية المختلفة • واذا كانت هذه التفاوتات سببا في وجود صراعات طبقية ، فان درجة حدة هذه الصراعات تبقى دون حدة الصراع الطبقي بين البروليتاريا والبرجوازية • ومن هنا ومعوجود عرب المناطق المحتلة والذينيحملون عبء المجتمع الاسرائيلي ويقع عليهم ابشع انواع الاستغلال الطبقي ، فان الطرفين الرئيسيين للصراع الطبقي في اسرائيل هما العرب واليهود وليس لاعتبارات قومية فقط ، بل لاعتبارات طبقية ايضا •وهذا الوضع الشاذ لا يشبهه سوى وضع الدول العنصرية كجنوب افريقيا وروديسيا وغيرها من مجتمعات المستوطنين • في مثل هذه الحالة فان العامل الحاسم لن يكون العامل الذاتي بل هنالك اهمية قصوى لدور العنصر الخارجي الذي يلعب دورا رئيسيا في تنشيط وتفجير التناقضات في الداخل ، لان تحطيم المجتمعات التي تحكمت بها النزعات الفاشية والرجعية والعدوانية ، انما كان يتم من الخارج دائما برغم وجود بعض القوى التقدمية والثورية في داخل تلك البلدان والتي لم ولن تستطع لاسباب موضوعية ان تكون العامل الحاسم في الصراع •

■ هذا المقال يشمل الافكار الرئيسية لرسالة دكتوراه يعدها الكاتب (في مركز الابحاث ــ بيروت) لجامعة كارل ماركس ــ لايبزغ في جمهورية المانيا الديمقراطية •

الوحدة الكفاحية بين الثورة الفلسطينية والحركة الوطنية اللبنانية ... طبيعتها، تطوّرها واشكالها

سعيد جواد

■ لقد ولد التحالف والتلاحم بين الثورة الفلسطينية والحركة الوطنية التقدمية اللبنانية ، وترعرع ، وتطور ، خلال مسيرة الكفاح المرير الذي خاضه الشعبان الشقيقان ضد اعدائهما ، وضد القوى التي تتعارض طبيعته واهدافها وسياستها مع طبيعة واهداف وسياسات حركة التحرر الوطني لكل منهما ولا شك في انه يشكل تجربة ثورية فريدة ومجيدة في تاريخ حركة التحرر الوطني العربية ٠

ان هذه الوحدة الكفاحية التي تعمدت بالدم والدموع والمعاناة ، لم تترسخ وتتوطد على اساس المنطلقات والشعارات القومية والوطنية التقدمية ، المناهضة لاسرائيل والصهيونية والامبريالية فحسب ابدا ، انما في خضم النضال والقتال الضاري واليومي في مواجهة هجمات القوى الفاشية والرجعية اللبننية ، التي تحظى بالدعم المباشر والمعلن، العسكري والسياسي والمالي من اسرائيل والامبريالية الاميركية والرجعية العربية وقيادة النظام السوري ٠

ان الاهمية التاريخية لهذه الوحدة ، سواء من حيث دلالالتها ، ودروسها ، ونتائجها ، تنبع من تحول المعركة في لبنان الى خط دفاع اول عن الثورة الفلسطينية ومجموع حركة التحرر العربية ، بعد ان حولته الامبريالية الاميركية الى ميدان متقدم للهجوم على الثورة وتوجيه ضربات عسكرية وسياسية ، اريد لها ان تكون حاسمة ، عبر ادوات لبنانية وعربية، تمكن من اخضاعها وتطويعها ، وبالتالي اندراجها في مسيرة الحلول الاستسلامية، الاميركية ـ الاسرائيلية ـ الهاشمية ـ العربية ٠ وعندها يمكن مواصلة اندفاع اتفاقية سيناء نحو الجولان والضفة الغربية وترتيب تصفية المسألة الفلسطينية ٠

لقد تميزت جميع هجمات قوى الثورة المضادة ومن وراءها ، والقوى المعادية لسياسة الثورة واستقلال قرارها الوطني والمناهضة للحركة لوطنية اللبنانية ، في مراهنة سياسية مركزية هي ، فصم عرى الوحدة بين الثورة والحركة الوطنية اللبنانية ، وافتعال تناقض مصطنع بين مصالح الغالبية الساحقة من الشعب اللبناني ومصالح الشعب الفلسطيني ، وبالتالي بين الثورة والحركة الوطنية اللبنانية ٠ وهذه المراهنة كانت ولا زالت تتكرر باستمرار وتتخذ لها اشكالا متنوعة وفقا لخصائص كل مرحلة من مراحل الصراع وشوط من اشواطه ٠

وبالرغم من ان الهدف الاساسي والاول ، هو التصدي للثورة الفلسطينية للوجـــود البشري والمسلح للشعب الفلسطيني ، الا ان المناورات السياسية ، كانت تتخذ احيانا ، شكل دفع هذا الهدف الى الوراء ، وتأجيله ، عبر اعتبار ان القوى الانعزالية لا تختلف مع الثورة ، بل وتدافع عنها وعن اهدافها لقضية مقدسة · وان المشكلة هي مع « اليسار الدولي الهدام والمستورد » · اي مع الحركة الوطنية التقدمية اللبنانية · وفي احيان اخرى تتخذ شكل الحديث عن ثورة فلسطينية مخدوعة من « أقلية يسارية ضالة » · ولكـــن سرعان ما تستأنف الادعاءات الاولى القائلة بان الثورة الفلسطينية هي المشكلة الاساسية ، وانهـــا ما ان تخرج من الصراع حتى « تحل المشاكل بين اللبنانيين خلال ٢٤ ساعة فقط » · وفقـــا لتصريحات بيار الجميل الاخيرة والمتكررة ·

اما بالنسبة لقيادة النظام السوري فقد ادعت في بداية تحول مبادرتها ان خلافهـــا مع الحركة الوطنية اللبنانية فقط ، وان الثورة وسوريا حليفان ثابتان ، لكي تتحول الى المطالبة بتغيير القيادة الوطنية الفلسطينية « واستحداث » قيادة جديدة مطواعة ، بعد ان « لمت » قيادات لبنانية للحركة « الوطنية والقومية » موالية لسياساتها ومشاريعها ·

والان ، ما هي هذه الادعاءات والمراهنات ؟ وما هي طبيعة وحقيقة الوحدة بيـــن الثورة والحركة الوطنية اللبنانية ، بين مصالح الشعبين واهدافهما الوطنية · اي اهداف حركتي تحررهما الوطني التي تكسرت وما زالت تتكسر على صخرتها جميع الادعاءات والمراهنات والمناورات ؟

– ان الاحداث التي جرت في صيدا ، في اوائل اذار ١٩٧٥ (١) ، عبرت عن الوجه اللبناني للصراع ، بمعنى انها عبرت عن احدى ظواهر الصراع الوطني والطبقي فـــي لبنان · والمعركة وما رافقها كانت تتويجا لمعارك وطنية وطبقية واجتماعية متواصلة على امتداد السنوات السبع الاخيرة ·

– وفي نيسان ٧٥ كانت مجزرة عين الرمانة ، وكان يراد لها ان تدفع بالوجـــــه اللبناني (الانعزالي) – الفلسطيني الى المقدمة ، وارجاع الوجه اللبناني الى الوراء ، لطمسه ، وتغييبه تماما · تلك المجزرة كانت هي الاخرى تتويجا لسلسلة من المعارك بين القوى الانعزالية الرجعية والثورة الفلسطينية على امتداد الاعوام ٦٨ – ١٩٧٥ ، وشكلت بداية مرحلة واشكال عنف جديدة من الصراع ·

هاتان المعركتان اللتان شنتهما الاوساط الرجعية في النظام والمنظمات الفاشيـــة ضد الجماهير اللبنانية والحركة الوطنية اولا ، وضد الجماهير وقوى الثورة الفلسطينية ثانيا ، كانتا اشارة البدء لعام ونصف من المعارك والمواجهة الشاملة التي تميزت بتوحيد كافة القوى المضادة للثورة وللحركة الوطنية والمتعارضة مع طبيعتهما واهدافهما ·وبالمقابل رسخت ووطدت اعمق الاسس لوحدة الكفاح المشترك بينهما ·

واذا كان الصراع الاجتماعي والطبقي يضرب جذوره بعيدا في تربة المجتمع اللبناني، بالرغم من الاقنعة الطائفية التي تكبله ، فانه قد اتخذ اشكالا اكثر حدة في السنوات العشر الاخيرة · وذلك بفعل اشتداد ساعد الحركة الجماهيرية المطلبية والوطنية وبفعل تداخـــل نضالها مع مهام النضال ضد اسرائيل ومواجهة اعتداءاتها على القرى الحدودية ، ومـــن

اجل ان ينخرط النظام اللبناني في الصراع ضد اسرائيل وبالاخص بعد العام ٦٧ ٠ وذلك ليس بسبب من كون لبنان دولة عربية مجاورة لاسرائيل ، ولا بد لها من ان تنخرط في الصراع العربي الاسرائيلي فحسب ، بل لان الاطماع الصهيونية قد بدأت تتخذ لها اشكالا اكثر وضوحا وخطورة في المقام الاول ٠

بالمقابل كانت الجماهير الفلسطينية تعاني من القمع والتعسف والاستغلال ، ومصادرة حق التعبئة والتنظيم والتدريب والقتال ضد اسرائيل ٠ لكن هزيمة حزيران ١٩٦٧ التي وفرت امكانات تصاعد المقاومة المسلحة في الاردن خلقت بدورها شروط بدء العمليات الفدائية ، ومواجهة هجمات القوات الصهيونية ضد القرى والجماهير اللبنانية والفلسطينية في جنوب لبنان ٠ وكلما تصاعدت عمليات المقاومة وباشرت الجماهير الفلسطينية بانتزاع حق التعبئة والتدريب والقتال ضد اسرائيل ، كلما تمكنت من شل يد القبضة القمعية الدركية والبوليسية ، سواء في داخل المخيمات او خارجها ، وقبلها على خطوط المواجهة مع اسرائيل ٠

هكذا ولدت شروط التحالف الكفاحي والمصيري بين الشعبين وحركتي تحررهما بين الجماهير اللبنانية المناضلة ضد القمع والاستغلال ، والمطالبة بحق التدريب والتسليح لمواجهة الهجمات والاطماع الصهيونية ، والتي تناضل كذلك في سبيل دفع الدولة للقيام بواجبها والانخراط في القتال ضد اسرائيل ، والجماهير الفلسطينية التي بدأت بانتزاع بعض حقوقها في الاعداد والتدريب باشرت فعلا شن العمليات العسكرية عبر الحدود(٢)٠

هذه الشروط للوحدة ، امتحنت ، وجربت ، في اول مواجهة بين قيادة الجيش اللبناني والفدائيين الفلسطينيين العاملين عبر القرى الحدودية (٣) ٠ لقد تحركت وحدات من الجيش لتطوق مجموعة من المقاتلين في قرية مجدل سلم ٠ وعلى الفور نزلت الجماهير اللبنانية الى الشوارع في تظاهرات غاضبة هادرة ٠ في المدن والقرى ، في بيروت وصيدا وطرابلس بشكل خاص ، وقد توجت في تظاهرة ٢٣ نيسان ١٩٦٩ المجيدة التي سقط فيها عدد من المواطنين اللبنانيين ، شهداء الدفاع عن حق الثورة في القتال ضد اسرائيل ، وشهداء التلاحم الكفاحي الذي ارست قاعدته في نيسان ١٩٦٩ ، وترسخت بعد ذلك ، في المواجهة الثانية والاخطر في ايار من العام ١٩٧٣ ٠ ودشنت اشد مراحله خطورة ، واغناها ، واكثرها اهمية من حيث النتائج ، في صيدا – عين الرمانة ، اذار – نيسان ١٩٧٥ ٠

ان طبيعة بنية النظام اللبناني شبه الاقطاعية ، والمغلفة بالاقمطة الطائفية التي كبلت وشوهت نمو العلاقات الرأسمالية في داخلها ، قد ساهمت الى حد كبير في خلق شروط وحدة النضال اللبنانية – الفلسطينية ضد اسرائيل ، ومتطلبات تشييدها الاقتصادية والاجتماعية والسياسية ٠ سواء في مواجهة القمع المسلط على رقاب الجماهير اللبنانية والفلسطينية او لجهة الكفاح ضد العدو الصهيوني ، وبالضرورة ضد القوى التي تمنعها باصرار من التحضير والتأهيل للمواجهة ٠

ففي الجنوب تعاني الجماهير اللبنانية من اضطهاد مركب ، طائفي واجتماعي اضطهاد زعامة طائفة سائدة لاخرى مسودة ، واضطهاد داخل الطائفة ذاتها من قبل

الشرائح الاقطاعية الرأسمالية السائدة فيها • بالاضافة الى الاستغلال والقمع المسلطيـــن من التحالف الاقطاعي ـ الرأسمالي ذاته في قمة النظام وعبر اجهزة الدولة • وهذا ما جعل جماهير القرى الامامية تواجه العدوان الاسرائيلي من جهة والقمع والاضطهاد من جهـة اخرى ، وهي طائفة بائسة ممنوعة من حمل السلاح ومحرومة من الحماية ، وقراها وارض وطنها ومياهه تحت رحمة الاطماع الصهيونية الشرهة •

ـ هذا الواقع جعل المسالة الوطنية مشتعلة • وجماهير القرى الحدودية تواصـــل مطالبة الدولة بالقيام بواجباتها في الدفاع عنها وتسليحها لايقاف خطر الهجمات الدائمة ضدها (٤) •

من هنا ، كانت الحركة الوطنية اللبنانية ، انطلاقا من مهماتها القومية ازاء المسألة الفلسطينية وتجاه الكيان الصهيوني ، **تناضل بثبات من اجل أن يشارك النظام اللبناني في الصراع العربي الاسرائيلي (٥) • ومن اجل الدفاع عن جنوب لبنان ، وتعبئـــة جماهيره واعدادها وتسليحها •**

ـ بعد العام ١٩٦٧ تفاقمت المسألة الوطنية على امتداد الارض اللبنانية • وتزاوجت مع المسألة الاجتماعية التي عبرت عن نفسها في اضرابات الطلبة والمزارعين والعمـــأل وتحركاتهم المستمرة • وقد ارتوت ارادة الصمود والتصدي من معين تصاعد المعـــارك الاجتماعية التي خاضتها الجماهير في الجنوب ضد الاستغلال والقمـــع الاقطاعـــي ـ السلطوي المركب • ولقد كانت معركة مزارعي التبغ في النبطية ومعركة صيادي الاسمـاك في صيدا ، معركتين بارزتين في تاريخ الصراع الاجتماعي والطبقي ضد الاقطاع واركان تحالف الدولة والنظام •

ـ وفي الوقت ذاته كانت المعارك في كفرشوبا وكفركلا ضد الغارات الصهيونية بداية مرحلة جديدة في مسألة المواجهة مع اسرائيل • **هكذا انبثقت المقاومة الشعبية اللبنانية المسلحة (٦) ، وبرزت الوحدة القتالية بين الثورةوالحركة الوطنية اللبنانية في خطوط المواجهة الساخنة وباسطع المعاني •**

من هنا فان ولادة المقاومة الفلسطينية المسلحة في الجنوب ، ساهمت في التعجيل بولادة المقاومة اللبنانية المسلحة في بعض القرى وتسريعها ، كما وفرت شروط وامكانات انتشارها من كفرشوبا وكفركلا الى العديد من القرى الحدودية في جنوب لبنان •

كما أن معركة مزارعي التبغ في النبطية في الجنوب ، امتدت على شكل تحركات ومعارك وطنية واجتماعية ، طلابية وفلاحية وعمالية فيمختلف المدن والقرى الرئيسية • وكانت معارك عمال غندور والمواجهة التي اتسمت بها مع اصحاب العمل واجهزة الدولة علامة بارزة في تلك النضالات •

هذه الوقائع كانت تتفاعل على ارضية اجتماعية ـ طبقية ملائمة تماما ، ساعدت على تسريع وتيرتها ودفعت بها الى افاق جديدة ارقى •

فالمخيمات الفلسطينية الذي يمتزج ويتفاعل فيها حرمان الجماهيـــر الفلسطينيـــة واللبنانية ، تكونت لها امتدادات ، او مخيمات بؤس وشقاء لبنانية فلسطينية متزايـــدة (منها احزمة البؤس المحيطة بمدينة بيروت) ، واينماحلت ، شكلت بـــؤرا للصـــراع

الاجتماعي والاحتجاج والتمرد ·

وبدأت الاخطار تتجسم امام القيادات الانعزالية وتتخذ لها ابعادا ، باتت تهدد فيها التوازنات الطائفية وتماسك القوى الفاشية التي تتشرنق في اغلفتها · وتهدد بزعزعة اسس النظام شبه الاقطاعي الطائفي برمته · لقد تجسد ذلك في ظواهر ثلاث كانت تولد بدورها مضاعفات متفاعلة باستمرار · وقد تمثلت في :

* ـ الاعتداءات الاسرائيلية المتواصلة ، البرية والجوية ، ضد القرى اللبنانية وضد المخيمات الفلسطينية · وفي سياقها واخطرها كانت عملية « الكوماندوس » في قلب بيروت· اما قيادة الجيش اللبناني فكانت تواصل سياسة اللادفاع · بل وتكشف تواطؤها جليا خلال جولة القوات الاسرائيلية داخل شوارع وعمارات بيروت لفترة طويلة · بينما كان اركان الدولة يواصلون سياسة عدم تسليح الجماهير اللبنانية ، بل وتحريم حمل السلاح عليها ·

هذه السياسة خلقت ظروفا مؤاتية لتصاعد حركة الاحتجاج الوطنية ذات الطابع الجماهيري العارم ، وقد تتوجت تلك المرحلة في تظاهرة الربع مليون مواطن ، التي طافت في شوارع بيروت بالاضافة الى تحركات المدن الاخرى بعد العملية واغتيال القادة الفلسطينيين الثلاثة في ١٠ نيسان ٧٣ ، ضد سياسة اللادفاع والتواطؤ ·

* المقاومة الفلسطينية المسلحة ضد اسرائيل في الجنوب ، والتي ولدت بدايات مقاومة لبنانية في القرى ، باتت تهدد بالانتشار الى جميع قرى ومدن الجنوب المهددة بالاجتياح والعدوان الصهيوني ·

* المطالب الاجتماعية والاقتصادية تسارعت وتيرتها في ظل الجو الذي خلقه نمو وتصاعد المقاومة الفلسطينية · وكذلك وفي ظل الشلل النسبي لاجهزة القمع في مناطق احزمة البؤس اللبنانية وامتدادات المخيمات في المدن وحواليها الذي نتج عنها ، خاصة بعد افتضاح عجز قيادة الجيش عن القيام بايدور في سواجهة الاعتداءات الاسرائيلية · هذه العوامل الى جانب غيرها مساعدة ، جعلت المطالب الوطنية ـ الاجتماعية غاضبة ومسلحة للدفاع عن نفسها في وجه اية محاولات قمعية تصفوية مضادة ·

الجهد الانعزالي ـ الرجعي لعرقلة التفاعل الفلسطيني ـ اللبناني ·

ان السلطات اللبنانية والقوى الفاشية التي تقف خلفها ، لم تكن لتغفل للحظة واحدة، هذا التطور الخطير على سياساتها والذي يهدد مصالحها ، منذ بدايات نشوء عوامل التفاعل الفلسطيني ـ اللبناني واتخاذه تعبيرات مختلفة ·

لقد كانت الاوساط الانعزالية ـ الرجعية ـ ممثلة في قيادة الجيش واعمدة النظام ، تعتقد بان انزال ضربات بالثورة الفلسطينية وجماهيرها ، سوف يمكن من لجم الحركة الوطنية المطلبية الجماهيرية اللبنانية ، ويجهض بدايات انطلاق المقاومة المسلحة الخطير، تماما ·

ومنذ اواخر العام ٦٧ ، بدأت السلطات اللبنانية حملة منظمة، وبدأت محاولة تحريض جماهير الجنوب ضد العمل الفدائي ، وعبر مختلف الاساليب ، عملت على اثارة الشكوك حول جدوى المقاومة الفلسطينية ، محذرة في الوقت ذاته ، من عواقب التعاون مع الفدائيين او مناصرتهم ، ناهيك عن الانخراط في صفوفهم ·

وبالاضافة الى هذا الدور كان هناك دور هجومي اخر · لقد كان للاوساط الانعزالية، والمشبوهة داخل قيادة الجيش ، وكذلك اجهزة المكتب الثاني ، الدور الاساسي والمنظم في محاولات محاصرة بدايات المقاومة المسلحة في القرى الحدودية ووضعها تحت مطرقة العدوان الاسرائيلي ، وسندان الوحدات العسكرية واجهزة قمع المكتب الثاني (٧)·

وكانت الهجمات العسكرية المتوالية ، عملية مجدل سلم في اوائل العام ٦٩ · ومحاولة الاجتياح لمخيم صبرا والطريق الجديدة في قلب بيروت في ايار ٧٣ ، بهدف توجيه ضربة قاصمة لمواقع المقاومة الاساسية في العاصمة ·

وكما كان حصاد محاولة عام ١٩٦٩ ، التظاهرات العارمة ، والازمة الوزارية ومضاعفاتها ، ومن ثم اضطرار القوى الفاشية والرجعية الى القبول باتفاق القاهرة الذي يعترف بحق الوجود المسلح للثورة والشعب ، فقد شكلت نتائج معركة ٧٣ انتصارا ساحقا ليس للثورة فحسب ، بل وللحركة الشعبية اللبنانية · فالثورة خرجت من المعركة اقوى ، واحرزت انتصارا عسكريا وسياسيا بعد دحر تلك الحلقة من المؤامرة · اما الحركة الوطنية ، فقد احرزت انتصارا ضد سياسة النظام والقوى الانعزالية من ورائه ، لكنها على امتداد السنوات اللاحقة من مواصلة تعبئة الجماهير وتنظيمها وبلورة مطالبها الوطنية وحقها المشروع في التعبئة والتسلح لمواجهة الاعتداءات الصهيونية ، في ظروف اكثر ملائمة · كما ساعدت على تصاعد نضالاتها الاجتماعية والديمقراطية على الارضية الجديدة ذاتها ·

من هنا فان اتفاقية القاهرة هي الابن الشرعي للوحدة الكفاحية بين الشعبين وحركتي تحررهما الوطني ، وثمرة انتصاراتهما الاولى · وترتيبا هي ملك كفاحهما المشترك ضد اعدائهما المشتركين ·

الا ان ما هو اكثر دلالة ، وجديرا بالاهمية والملاحظة ، هو موقف حزب الكتائب والقوى الانعزالية اليمينية الاخرى · فهذه القوى وافقت على اتفاقية القاهرة ، لانها ادركت بان موازين القوى الوطنية والطبقية لم تعد في صالحها · كما ان ظروف الثورة الفلسطينية كانت تتميز بالصعود السريع والمتواصل ، وبازدياد انخراط الجماهير الفلسطينية فيها والتفاف الجماهير العربية حولها (٨) · وكذلك كان الموقف القومي التقدمي للنظامين الوطنيين المصري والسوري حينذاك لمصلحة الثورة والجماهير اللبنانية الملتفة حولها ، والحركة الوطنية المتحالفة معها (٩) · وبالنتيجة فان استمرار الازمة ، لا يمكن ان يؤدي سوى الى المزيد من تفجير الاوضاع الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ، وبالتالي الى اختلال جديد في موازين القوى لصالح الثورة والحركة الوطنية اللبنانية وفي غير صالح القوى الانعزالية واليمينية · وهكذا تراجعت القيادات الانعزالية ، وقبلت اتفاقية القاهرة بهدف التحضير والعمل الجدي الذي يمكن من نقضها · تراجعت لكي تستوعب دروسها جيداً · وتعين طريق العمل لتحضير شروط نقضها ، بعد ان اصبح قبولها امرا

لا مفر منه · واستنتجت التالي :

ـ ان الجيش لوحده غير قادر على حسم الصراع ، ولابد منتطوير المليشيات وبناء قوات اضافية تشكل دعما كافيا لحسم الصراع ·

ـ ان الظروف اللبنانية والعربية غير مؤاتية ، ولا بد من انتظار الظروف الاكثر مؤاتاة ، والمساهمة في صنعها لبنانيا · (١٠) ·

ان المعركة التي خاضتها قيادة الجيش ضد المقاومة الفلسطينية كانت ردا على تصاعد النضالات الجماهيرية اللبنانية الوطنية والاجتماعية في الفترة ما بين ١٩٦٩ ـ ١٩٧٣ واستهدفت وضع حد للتفاعل بينها وبين الثورة الفلسطينية ·

لقد كان رد قيادة الجيش على الحركة الوطنية اللبنانية وجماهيرها هو رد مداوروغير مباشر ، عندما استهدف توجيه ضربة قوية للمقاومة الفلسطينية اولا · اي ضرب بؤرة تأجيج المسالة الوطنية ،مسالة المواجهة مع اسرائيل ، ومناهضة سياسة اللادفاع والتخاذل· اي اضعاف القاعدة التي خلقت مناخا عسكرياً وسياسيا يساعد على نمو التحركات الجماهيرية المطلبية ويفضح فساد النظام شبه الاقطاعي واقمطته الطائفية ويساعد على تفاقم الانفجارات الاجتماعية ·

من هنا فان العمليات العسكرية في ايار ١٩٧٣ استهدفت المقاومة والحركة الوطنية في آن معا · وباخفاقها تمكنت من افشال حلقة تآمر ضدها · بينما كرست الحركة الوطنية انتصاراتها واجبرت القوى الانعزالية واركان النظام على الاعتراف الجزئي ، وأن اتخذ اشكالا اولية (١١) ·

مرة اخرى تتراجع القوى الانعزالية التي كانت وراء قيادة الجيش وتستخلص دروسا اضافية اهمها : الجيش ليس عاجزاً فحسب ، بل مهددا بالانقسام وباحتمال تمرد وحدات منه الى جانب الحركة الوطنية (١٢)· لا بد من الاسراع في بناء وتطوير المليشيات والقوات النظامية الانعزالية ·المعركة القادمة ستكون طويلة ، ورأس الحربة لا بد ان تكون فيها القوى الانعزالية كقوة ضاربة ومبادرة · الظروف اللبنانية والعربية والدولية لا تزال غير مؤاتية ·

ووافقت مرة ثانية علىاتفاقية القاهرة وعلى تكريسها في محادثات فندق ملكارت(١٣) ومرة اخرى توطدت الوحدة النضالية بين الثورة والحركة الوطنية · بين الشعبين الفلسطني واللبناني ، واكتسبت زخما جديدا مكنها من مواصلة الصراع في ظروف افضل·

ولقد جاءت حرب اكتوبر (تشرين) ١٩٧٣ لتؤجل تفجر الصراعات مؤقتا · ولكن سرعان ما استانفت عملية تراجع وارتداد النظام الساداتي ، وبوتيرة اسرع ، وقدمت نتائج الحربواحدة تلو الاخرى على مذبح التسوية المصرية الاسرائيلية ، وتوجتباتفاقية فصل القوات الاولى · ومع بداية جولة كيسنجر الاولى في الربع الاول من العام ٧٥ حتى كانت اوضاع القوى الانعزالية وحساباتها على الوجه التالي :

■ انها قد تقدمت كثيرا في التعبئة والاعداد والتسلح ·

■ ان التسوية الاميركية ـ الاسرائيلية ـ المصرية قائمة في سيناء ولا بد من تحضير شروط مرتكزاتها في لبنان ·

■ ان الظروف العربية والدولية هي مؤاتية نسبيا ويمكن ان تكون مؤاتية تماما مع تقدم الصراع ·

الى جانب هذه المعطيات ، كان هناك عامل مباشر عجل في بدء العمل بالمشروع العسكري الكتائبي ، وهو معركة اذار ذات الوجه اللبناني · ذلك لان مسار المعركة ونتائجها اكدت بأن الصراع الاجتماعي يتفاقم بسرعة ، وان المواجهة مع الحركة الشعبية وقياداتها الوطنية تكسبها قوة ونفوذا متزايدين · كما ان استخدام الجيش لقمع التحركات الجماهيرية ، يطرح على الفور مسالة دوره تجاه اسرائيل ، وكذلك سياسة النظام اللادفاعية · وبالتالي تتصاعد المطالبة الوطنية بضرورة انخراط النظام في الصراع العربي الاسرائيلي وتسليح الجماهير اللبنانية · (١٤)

وبالاضافة الى ذلك فان الطابع اللبناني للصراع ، سوف يدفع بالطابع الاخر ، اللبناني (الانعزالي) ـ الفلسطيني الى الوراء ، ويلغي بالضرورة امكانات استثمار الفرص التي يمكن ان توفرها الاتفاقية المصرية ـ الاسرائيلية التي كانت المفاوضات تجري بصددها ، وما يمكن ان تثيره من خلافات عربية فلسطينية توظف في خدمة المشروع الانعزالي · أي الاضعاف من امكانات استثمار الظروف العربية ـ الفلسطينية والعربية والدولية التي يمكن ان تكون مؤاتية ·

من هنا كان لا بد من قسر الطبيعة اللبنانية للصراع ، وتحويله الىصراع لبناني (انعزالي) ـ فلسطيني ، بالمراهنة على تحويله الى صراع لبناني فلسطيني شامل (١٥)، بعد زعزعة الوحدة بين الثورة والحركة الوطنية عبر ضربات عسكرية قوية للثورة تضعف دور الحركة الوطنية اللبنانية الجماهيري او تشله وتلغيه ·

على أساس هذه الحسابات بدأ الهجوم الكتائبي ونفذ مجزرة عين الرمانة ضد الفلسطينيين في ١٣ نيسان ١٩٧٥ بدم بارد ·

ان المذكرتين اللتين بعث بهما بيار الجميل الى رئيس الجمهورية ، والحملة الاعلامية التيرافقتهما، وتصاعدت ضد الثورة والفلسطينيين ، خاصةبعد اخفاق قيادة الجيشفي معركة صيدا اللبنانية ، والشعارات الشوفينية التي رفعت تحضيرا لعملية ١٣نيسان ، اكدت بشكل قاطع ان المجزرة اريد لها ان تحقق ثلاثة اهداف سريعة : الاول،تقديم النموذج الذي يراد التعامل به مع الثورة ، وبشكل حاد ، والعمل على تعميمه من عين الرمانة الى جميع مناطق تواجد الثورة والشعب الفلسطيني · (١٦) الثاني،هو طمس معضلات الصراع اللبنانية ودفع مسالة الوجود الفلسطيني المسلح وبقوة الى السطح · الثالث ، هو استخدام ، الظروف العربية والمصرية خاصة عشية توقيع اتفاقية سيناء لاستفراد الثورة، وفرض تنازلات عسكرية وسياسية سريعة عليها ، قبل ان تتمكن الجماهير اللبنانية والحركة الوطنية من تنظيم الدفاع عنها ونجدتها · وكانت المراهنة تنصب على فرض التراجع على الثورة ومواصلة الهجوم العسكري والسياسي والاعلامي المزدوج من القيادة الانعزالية

وقيادة الجيش · وهو ما يمكن بالنتيجة من عزل الحركة الوطنية واحباط التحركات الجماهيرية وبالتالي طمس المعضلات الوطنية الاجتماعية ·

ظواهر وتحضيرات ومؤشرات :

ولكي تتوضح الاهداف المشتركة ضد الثورة والحركة الوطنية وشمولها كمشروع انعزالي متكامل ، لا بد من استحضار الظواهر ، والتحركات التي سبقت عملية ١٣ نيسان، وكذلك القوى التي لها مصلحة مشتركة في اضعاف الثورة ولجم الحركة الوطنية اللبنانية الصاعدة والمتحالفة مع الثورة (١٧) ·

لبنانيا وفلسطينيا ·

ـ من ١١ الى ١٨ كانون الثاني قصف اسرائيلي متواصل للعرقوب وتدمير كفرشوبا وتهجير اهاليها · وكما اشرنا ، انبثاق المقاومة اللبنانية المسلحة الى جانب المقاومة الفلسطينية في القرى الامامية التي تتعرض للعدوان · والجميل يصرح ، وينسب ما جرى في العرقوب الى«عمل «لا مسؤولين وغير معروفين» وبالطبع المقصود هو المقاومة اللبنانية والفلسطينية التي تسببت في ازعاج اسرائيل ·

ـ ٢٤ كانون الثاني · الجميل يقدم المذكرة «الاولى الى رئيس الجمهورية تتركز حول» وجود المقاومة والوضع في الجنوب ويتكلم فيها عن «السلطتين والجيش» ·

ـ ٣٠ كانون الثاني : اضراب شامل في الجنوب وتظاهرات حاشدة في بيروت والمناطق تلبية لدعوة المؤتمر الوطني لحماية الجنوب · وقد جاء الاضراب والتظاهرات والدعوة الى المؤتمر كرد على مذكرة الجميل ومضمونها التحريضي ضد بدايات المقاومة اللبنانية بالاضافة الى المقاومة الفلسطينية في القرى الحدودية ·

ـ ١٢ شباط · مذكرة ثانية من حزب الكتائب الى رئيس الجمهورية يعلن فيها ضرورة اجراء استفتاء شعبي حول الوجود الفدائي في لبنان ·

ـ ٢٦ شباط · تظاهرة سلمية للصيادين في صيدا · ألجيش يقتحم المدينة ، يطلق الرصاص على المتظاهرين ، احد عناصر الجيش يوجه رصاصه نحو معروف سعد فيصيبه اصابةخطرة ·

ـ ٢٧ شباط رقيب عسكري يغتال مواطنين شيوعيين في كفررمان (حسن شكرون وسليم او زيد) بلاغ الناطق العسكري يعلق « ان الرقيب اقدم على ذلك تحت نوبة نفسانية حادة » !

ـ بعد مجزرة صيدابايام ، الكتائب وحلفائها ينظمون التظاهرة الطائفية الحاشدة تاييد لفعلة قيادة الجيش ويحثانها على مواصلة جهودها ·

ـ ١٢ ـ ١٧ اذار ، ينعقد في فندق البستان (في بيتمري) مؤتمر « تضامن شعوب

الشرق الاوسط » تحت شعار « مكافحة الشيوعية في المنطقة وابرز مخططاتها التخريبية ونوايا التدمير التي تعدها للانسانية » ·

x الدعوة الى المؤتمر وجهها جورج بيطار نقيب مراسلي الصحافة الاجنبية في لبنان ·

x تراس جلساته كميل شمعون ·

x المدعوون جاؤوا من ١٥ بلدا ومن منظمات « المؤتمر الدولي لمكافحة الشيوعية » الذي عقد مؤتمره العشرين في العام ٧٤ في فيتنام الجنوبية · (اي قبل تحريرها الكامل)· و « المؤتمر الاسيوي لمكافحة الشيوعية » ، و « أتحاد دول اميركا اللاتينية لمكافحة الشيوعية » بالاشتراك مع « رابطة العالم الاسلامي » ، في مكة ·

• المقررات التي تسربت هي : الانضمام الى المؤتمر الدولي لمكافحة الشيوعية ، المطالبة بطرد اليمن الديمقراطية من جامعة الدول العربية ومن الامم المتحدة · هذا ما اريد تسريبه واعلانه · اما المقررات السرية فقد بقيت سرية جدا حتى بدات تتكشف بوضوح منذ بداية احداث ١٣ نيسان ١٩٧٥ ، وحتى اليوم ·

١٤ اذار الجميل يحتج باسم الكتائب على قرار نقل الضابطين ، اللذين اعتبرا مسؤولين عن احداث صيدا · ويقول « لم يعد بامكان الكتائب السكوت عما يجري من التحدي والاستفزاز »

في وسط تحركات نقابية ونشاطات جماهيرية ، وكرد على مذكرة الجميل الثانية :

x ينعقد المؤتمر الثاني للاتحاد الوطني لنقابات العمال والمستخدمين في للفترة من ٢١ ـ ٢٣ اذار ·

x في ٦ نيسان ينعقد المؤتمر الاول لفلاحي ومزارعي البقاع · المؤتمر يوصي بالدعوة الى مؤتمر وطني عام للفلاحين · والطابع العام للتحركات والمؤتمرات هو الطابع الوطني الذي يعبر عن تفاقم الازمة الاجتماعية ·

دوليا :

ـ ١٣ شباط · فورد يهدد بانه اذا فشلت المهمة التي يقوم بها كيسنجر ، فانه قد ينجم عن ذلك خطر الحرب في هذه المنطقة · هذا التصريح الاميركي يأتي في سياق الضغوط المكثفة لانتزاع اكبر ما يمكن من التنازلات التي تواصل تقديمها القيادة المصرية· وضرورة استجابتها للشروط الاميركية الاسرائيلية الضرورية والكافية لانجاح الساعي

الاميركية لعقد اتفاقية سيناء (١٨) ٠

لقد اتضح للقوى الانعزالية بالوقائع المتكررة ، ان الهجوم على الحركـــة الوطنيـــة اللبنانية ومطالبها لا بد ان يؤدي الى ردات فعل جماهيرية متصاعدة ، واستنتجت، ان لا بد من التراجـــع المؤقت ٠ وبالفعل فقد استجاب كل من اركان النظام والقيادة الانعزاليـــة لبعض المطالب الوطنية المتعلقة باحداث صيدا ومضاعفاتها ٠ وبالمقابل ضرورة العمـل ، والاسراع في ابراز الطابع اللبناني (الانعزلي) ـ الفلسطيني للصراع ٠

وفعلا بدأ الهجوم الكتائبي بعد افتعال اسباب تافهة ، ونفذت مجزرة عين الرمانـة ضد الفلسطينيين ، بهدف اسدال الستار على الجوهر اللبناني الوطني للصراع ودفعـه الى الوراء لتحاشي مضاعفاته التي كانت معركة صيداً وما ترتب عليها نموذجا له ٠

لقد راهنت القيادة الكتائبية على ان صراع الجبهات والمتاريس والقذائف المدمرة يمكن من شل التحركات الجماهيرية الوطنية اللبنانية وبالتالي يمنع تفاعلها مع الثـــورة الفلسطينية ويضعف الدورالذي يمكن ان تضطلع به الحركةالوطنية في التحالف مع الثورة الى حد كبير ٠

هذه الخلفية الموضوعية الملموسة للمشروع الانعزالي ـ السلطوي ضـــد الحركـــة الوطنية والمقاومة هي التي جعلت ارضية التلاحم بين الثورة والحركة الوطنية شديدة القوة والصلابة لا يوازيها في ذلك سوى قوة وصلابة وحدة مشاريع اعدائهما المشتركين ٠

مراحل الحرب وخصائصها ٠

المرحلة الاولى : لقد بدأت هذه المرحلة في هجمة ١٣ نيســان التي استهدفت استفراد الثورة وايقاف نمو الحركة الشعبية واغتيال مطالبها ومحاصرة قيادتها الوطنية ٠ بالاضافة الى هدف اضعاف دور الجماهير الفلسطينية في الدفاع عن الثورة ٠ وذلك عن طريقتغليب الطابع اللبناني (الانعزالي) ـ الفلسطيني للصراع والذي يتخذ شكل عمليات عسكرية ٠

وعلى امتداد الجولات الثلاث الاولى ، حاولت القوى الانعزالية تأجيج الطابـــع الطائفي اولا والاقليمي ثانيا ٠ لا ضد الشعب الفلسطيني فحسب ، بل ضد المسلمين الذين يتحالفون معهم ويدافعون عن حقوقهم ٠ (١٩)

ومن المؤشرات البارزة لذلك : الخطف على الهوية ٠ قتل العمال السوريين ٠ التعذيب المنظم ٠ (٢٠) تزايد الشعارات الشوفينية التي ترتبط بالايديولوجية الانعزالية العامـــة٠

وبالرغم من ذلك فان المحاولات الانعزالية لاضفاء الطابع الطائفي لم تتمكن من ان تخفي السمة الجوهرية للصراع الوطني الاجتماعي اللبناني ، وقد برز ذلك في تصريحات القيادة الانعزالية ذاتها بطريقة مداورة ٠ فمؤتمر الرهبانيات يعلن عن « عدائه للشيوعية» امعانا في محاولة اخفاء الطابع اللبناني الاجتماعي للصراع ٠ ويستعدي السلطة ضـد الفلسطينيين ٠ وبيار الجميل يصف ما يحدث بانه « محاولة انقلاب يسارية » !

النتيجة : لقد كان حصاد الجولات الثلاث في مصلحة الثورة والحركة الوطنية ·وفي غير مصلحة المشروع الانعزالي السلطوي واهدافه · فطابع الصراع عاد لبنانيا وطنيا اجتماعيا بشكل واضح · وسقط مشروع الحكومة العسكرية التي ارادتها القيادة الكتائبية والسلطة كاداة لحل فاشي ·وتشكلت حكومة رشيد كرامي على انقاض الحكومة العسكرية، وان كانت الحركة الوطنية قد اطلقت عليها صفة « حكومة اللون الواحد» الا انها لا تتمكن من ان تضطلع بوظيفة ضرب الثورة وطمس المطالب الوطنية اللبنانية · لقد كانت حكومة « الهدنة المؤقتة » تمثل بالضبط توازنا بين حدود التراجع الانعزالي المؤقت عن هدف تغليب الطابع « اللبناني » الفلسطيني العسكري للصراع ، وبين ما وصلت اليه قدرة الحركة الوطنية اللبنانية حينذاك في معركة فرض الجوهر اللبناني الوطني والطبقي للصراع وعلى الارضية السياسية الديمقراطية لميادينه·ولقد انتقل التوازن في صيغته العسكرية والسياسية الى تركيبة حكومة رشيد كرامي · حكومة اللون الواحد ·

بعد هذه الحلقة ، خرج التلاحم الفلسطيني اللبناني اكثر تماسكا وقوة دفع ، وقد فاز بشروط جديدة للتفاعل والتداخل والوحدة · استعدادا لمواجهة الحلقات القادمة في الصراع ··

من هنا · فالاهداف الانعزالية ضد الثورة كما اسفرت عن نفسها هي بالضرورة والواقع ضد الحركة الوطنية···والنجاحات التي حققتها الثورة هي بالتاكيد لكلا الحركتين الوطنيتين الشقيقتين ولتعزيز وحدتهما · تماما كما هي الاخفاقات التي يمكن ان تصيب اي منهما هي بالضروره ، وبالترتيب تصيب حليفتها بالدرجة ذاتها · ذلك لان اي انتكاسة للثورة ستؤدي الى اضعاف الحركة الوطنية ونضالاتها ، وان كان ذلك مؤقتا بالتاكيد ·

الوجه الثاني للمناورة ·· محاولة تحييد الثورة مؤقتا ؟

بعد الجولة الثالثة مباشرة ، حاولت القوى الانعزالية الدخول من الباب الثاني . لزعزعة الوحدة بين الثورة والحركة الوطنية · لقد حاول كل من بيار الجميل وشمعون، الادعاء بان التناقضات مع الثورة الفلسطينية هي من النوع الذي يمكن تسويته بسهولة· وبان المشكلة الاساسية هي مع « اليسار الدولي » اي مع الذين هم وراء « المحاولة الانقلابية اليسارية »، كما قال الجميل بعد أحداث صيدا وتفاعلاتها ، وذلك بهدف امتصاص، جزء من عناصر تفجير المسالتين الوطنية والاجتماعية فالجميل يعلن في ١٦ اب ١٩٧٥ ، باسم حزب الكتائب ، وبعد خلوة طويلة ، بان الحزب « يرفض محاولة استدراجه في اية فتنة ، ويدعو الدولة الى تحقيق المساواة وطانصاف المحرمين ، ويؤيد نضال الشعب الفلسطيني ··· » (٢١)

وصحيفة العمل ، لسان حال حزب الكتائب ، تبدأ في تدبيج المقالات التي تشيد برئيس منظمة التحرير الفلسطينية ياسر عرفات « واعتداله » ، كما تضع الصحيفة باسم الحزب التصنيفات التالية : في حكومة رشيد كرامي شمعون يمثل المسيحيين ، وكرامي يمثل المسلمين ، وفي الثورة الفلسطينية الاخ ابو عمار هو الرجل « المعتدل » الذي يمكن التفاهم معه · وبالتالي التفاهم بينه وبين اركان الحكومة لحل الازمة ·

وكميل شمعون هو الاخر ، بعد ان دخل الوزارة « التسوية » حـاول ان يجـري اتصالات عديدة مع الثورة وبشكل خاص مع الاخ ابو عمار · وفي حينه كانت صحـف الوطنيين الاحرار تبرز فلسطينية شمعون ونضاله من اجل فلسطين وتاييـده للقضيـة الفلسطينية ·

لكن مثل تلك المحاولات سرعان ما تنفضح وتبوء بالفشل · لانهاتقوم على المناورة والخداع ، والتي تستهدف انتزاع مواقف من الثورة تصدع تحالفها مع الحركة الوطنية ، والثورة ترفضه بقوة ·

وسط هذه المحاولات المفضوحة ، تتصاعد عوامل تفجر المسالة الوطنية اللبنانية ففي ١٨ اب ١٩٧٥ يذيع كمال جنبلاط باسم الحركة الوطنية وثيقة الاصلاح الديمقراطي « لبناء لبنان عربي ديمقراطي ، تلغي الطائفية السياسية ، ويدعو لاصدار قانون انتخابي يجعل من لبنان دائرة واحدة ، ونائب لكل ١٠ الاف مواطن ناخب ويحدد صلاحيـات رئيس الجمهورية ، ويتم انشاء مجلس دفاع اعلى ومجلس قيادة مع حصر صلاحيات قائـد الجيش » (٢٢)

وبينما المسالة اللبنانية تفرض نفسها ، تتزايد عوامل الاغراء ضد الثورة لاسبـاب قديمة ـ جديدة ابرزها اتفاقية سيناء ·

ـ ففي ١ ايلول ١٩٧٦ توقع اتفاقية سيناء بين اسرائيل والحكومة المصرية · وبعـد اسبوع واحد تعلن منظمة التحرير رسمياً رفض الاتفاقية · وهذا العامل من اهم العوامل التي تشجع القوى الانعزالية على معاودة شن الهجوم ضد الثورة · ودفع المعضـلات الفلسطينية في لبنان الى المقدمة ·

لكن الطابع اللبناني يبقى طاغيا بالرغم من جميع محاولات اخفائه · وذلك بسبـب من استمرار تفجر المعضلات الاجتماعية · اما العامل الجديد الخاص باتفاقية سيناء ،فلن يفعل سوى اعطاء الصراع ضد الثورة والحركة الوطنية طابعا مركبا اوسع شمولا مـن ذي قبل ·

ـ في ١٣ ايلول ١٩٧٦ · الخارجية الاميركية تدخل مباشرة ورسميا في الصـراع وتتهم جنبلاط « بانه تلقى موالا من ليبيا ·· » ومفهوم ما يعنيه هذا التصريح الاميركي ، فهو يحاول ربط الصراع بعامل خارجي لكي يقدم التشجيع والمبرر لكل الاطراف المتدخلة والمتحفزة للتدخل ضد الشعبين اللبناني والفلسطيني · ولكن بالرغم من السمة التحريضية للتصريح فانه يكشف حقائق الصراع اللبنانية باعتبار ان جنبلاط هو ممثـل الحركـة الوطنية ورمزها البارز ·

ـ وفي اول لقاء لهيئة الحوار الوطني التى انبثقت من « الهدنة التسوية » المؤقتة ، فى ٢٥ ايلول ١٩٧٦ ، طرح كمال جنبلاط مطالب الحركة الوطنية ، بينما تحدث الجميـل واعلن « رفض التقسيم والطائفية والشيوعية والاشتراكية والتغيير ·· » ·

ـ قيادة الثورة أعلنت من جانبها الالتزام باتفاقية القاهرة ، واستعدادها لتطبيقها· وبعثت الى هيئة الحوار الوطني رسالة تؤكد موقفها هذا باسم قيادة المنظمة · ومحاولة الثورة تلك تاتي لسحب اية حجة يتذرع بها الانعزاليون لنسف هيئة الحوار وتخريب التسوية المؤقتة ·

ـ ولكن بعد ان تشعبت الحوارات حول الاصلاح الاقتصادي والاجتماعي والسياسي اللبناني ، بادرت القيادة الكتائبية لحسم الامور ، ونسفت هيئة الحوار بمذبحة جديدة في عين الرمانة بتاريخ ٣٠ ايلول ١٩٧٦ ·

المرحلة الثانية من ايلول حتى ٢٥ كانون الثاني ١٩٧٦ ·

من ايلول حتى كانون الثاني ١٩٧٦ يهيمن الطابع اللبناني ، الوطني ـ الانعزالي ، على الصراع ، وتدور المعارك في غالبية ميادين القتال بين القوى الانعزالية وقوات الحركة الوطنية والثورة التي تلعب الاولى دورا بارزا فيها ·

وفي هذه المرحلة تحاول القوى الانعزالية تاجيج الطابع الطائفي للحرب (مذابح تل عباس ، سبنية ، حارة الغوارنة ، طرابلس ·· وغيرها) · لكن الطابع الوطني يبقى هو الغالب ايضا ·

ـ في ٥ كانون الاول تعلن القمة الاسلامية « المطالب الوطنية » قبلتوسيع الحكومة ·· والمفتي حسن خالد ، يشدد على التمثيل النسبي وتحديد صلاحيات رئيس الجمهورية ·

عودة نحو « فلسطينية » الصراع : ـ بدءا من ٤ ايلول ، حاولت القوى الانعزالية مرة اخرى ابراز مسالة الوجود الفلسطيني الى المقدمة للخروج من المازق · وبدات حرب تجويع مخيم تل الزعتر ·

ـ كذلك في ١٢ منه ، هاجم ١٥٠٠ مسلح من القوى الانعزالية مخيم ضبية المحاصر داخل المناطق الانعزالية · هذا الاختيار لوقت تفجير مسالة الوجود الفلسطيني اريد لها ان يترافق مع مناقشة القضية الفلسطينية في مجلس الامن · حيث بدات المناقشة في الثالث عشر من كانون الاول ١٩٧٥ ، بهدف التاثير على موقف منظمة التحرير واضعافه·

وفي اليوم التالي تقتحم القوى الانعزالية مخيم ضبية وتنكل بسكانه العزل وتدمر المخيم ·

ـ ردا على هذه المحاولات ، كانت قوات الحركة الوطنية ترد على جميع الجبهات· ويدور الصراع حول مناطق لبنانية تشكل كل منها مواقع ضعيفة بالنسبة للقوى المحيطة بها · وخلال ايام تنفذ القوى الانعزالية مجزرتي المسلخ والكرنتينا ، وبينما ترد قوات الحركة الوطنية والثورة الفلسطينية بدخول الجية والدامور والسعديات ·

هكذا يعود الطابع اللبناني الى المقدمة بوضوح ...

ابعد من ذلك ، وابتداء من ٢٠ كانون الثاني ، تتفاقم الازمة في اجهزة الدولة ،وتبدأ بالتفكك ، وحرب التكنات تتواصل في بيروت وعلى امتداد المناطق اللبنانية اي ان السمة اللبنانية للصراع بدأت تغوص في العمق (٢٢) ٠

واختلت موازين القوى العسكرية لصالح الحركة الوطنية ، والثورة الفلسطينية ٠ واضطرت القوى الانعزالية الى القبول بوقف اطلاق النار و'صبح ساري المفعول في ٢٥كانون الثاني ١٩٧٠ ٠

لكن القبول بوقف اطلاق النار كان يخفي الرفض المطلق والدائم من قبل القيـــادة الانعزالية للاعتراف بموازين القوى القائمة والانتقال بها الى الصراع السياسي ،وصياغة اسلام على اساسها ٠ ومنذ الجولة الاولى كانت المعضلة تتكرر : انكار كـــل التطورات الموضوعية العسكرية والسياسية ومحاولة العودةالى الوراء نحو الصفر بمعزل عنالوقائع٠ وفي ٩ نيسان ١٩٧٦ يبدأ تدفق القوات السورية المجتاحة ٠ وفي ١ حزيران اندفاع جديـــد وبدء المواجهـــة ٠

وبعد ايام فقط من توقف الاجتياح العسكري السوري على مشارف صيدا وفي صوفر، وبالضبط في اليوم الثاني لبدء الانسحابات الجزئية السورية من مداخل بيروت ، استأنف الهجوم الانعزالي ، وبدات عملية حصار تل الزعتر بشكل خاص في ٢٣ حزيران ١٩٧٦ ٠

لقد كان للهجوم هدفين مباشرين : الاول ، هو محاولة الامساك بالقوات السورية . وتقديم مبررات لاستكمال أجتياح المناطق الوطنية بحجة تجدد القتال عند بدء الانسحاب ٠ والثاني ، هو العودة نحو تغليب الوجه الفلسطيني للصراع ، وذلك عن طريق أثارة مسالة الموقع الجغرافي لمخيم تل الزعتر وكذلكبالنسبة لجسر الباشا ، وما يترتب على ذلكمنمحاولة للاقتلاع الكامل للمخيمات ٠ ولقد اصبح ممكنا وضع هذه الاهداف العريضة ، فقط ،بسبب احتلال القواتالسورية لما يعادل٦٠٪ من المناطق اللبنانيةالوطنية،وتربض على صدرالجماهير قوات تتالف من ما يقارب الـ ٤٥ الف جندي ٠ وبالرغم من كل ذلك كانت معركـــة الدفاع عن مخيم تلالزعتر مفخرة فيالصمودوالتصدي ٠ومواجهة الاجتياح اسطورةفيالاستبسال٠ لقد انتصرت معركة رفض الاستسلام ٠ وانهزمت المراهنة الانعزالية التي ارادت جعـــل المعركة « نموذجا » للاستسلام الزاحف (٢٤) ٠

القيادة السورية : المناورة الانعزالية ذاتها ٠

ان المبادرة السورية وما ترتب عليها من دور سياسي وعسكري لم تشذ عن قاعـــدة العمل الانعزالية ،بل كانت اكثر وضوحا واصرارا فيمحاولات النيل من الوحدة الكفاحية، الفلسطينية اللبنانية ٠ وقد تركزت فى محاولات خلق تعارض مصطنع بين الشعبين الفلسطينى واللبنانى واهدافهما الوطنية ٠ ولقد كانت اكثر امعانا في التضليل بسبب من اشعارات التي تعلن الالتزام بها ، القومية والوطنية ٠ والادعاءات العريضة عن الوحدة النضالية

مع الثورة والشعب الفلسطيني ، والنضال ضد الامبريالية واسرائيل ، بالاضافة الى شعارات مصلحة لبنان ووحدة أرضه وشعبه وامته ٠

ـ وحينما كانت في طور الحياد ومحاولات تحقيق التوازن ، وقبل ان تتحول الى مناهضة الحركة الوطنية ، كانت تحاول احتواء موقف الثورة ، عبر الادعاءات عن وحدة الهدف ، ووجود القيادة السورية ـ الفلسطينية المشتركة ، والتي تشكلت بمبادرة غير مفهومة من القيادة السورية ٠ اما التعامل مع الحركة الوطنية في الفترة ذاتها ، فقد كان يتميز بالتذبذب ٠ ولكن خطه العام كان واضحا وهو : ان القيادة السورية كانت تعتقد بان الحركة الوطنية يمكن تطويعها عن طريق تطويع الثورة ، او عزلها وتصفيتها بسهولة ٠

ـ وفي ٣١ اذار ١٩٧٦ ، كان الاعلان الرسمي عن مناهضة القيادة السورية ومبادرتها للحركة الوطنية اللبنانية ٠ وبالضرورة تحالفها مع أعدائها واعداء الثورة الفلسطينية ، اي مع الجبهة الانعزالية ٠وعلى الفور تحول هدف فك الوحدة بين الثورة والحركة الوطنية، **الى مطلب رسمي يقدمه حكام دمشق وعلى اعلى المستويات الى قيادة المقاومة كشرط لاستمرار التعايش والتعامل معها ٠**

ـ ومنذ التاسع من نيسان تتحول المبادرة الى اجتياح عسكري بارادة النظام السوري المنفردة ، وبموافقة الطرف الانعزالي التي جاءت لمساعدته ٠ وفي ٦ حزيران ١٩٧٦ اخذت مدافع الدبابات اتجاهها ضد الثورة والحركة الوطنية وفي مواجهة صدور مقاتليهما الفلسطينيين واللبنانيين ٠

وعلى امتداد الاشهر الاخيرة ، يستمر الهدف اياه ، ويتكرر الطلب ذاته ، وان باشكال وتعبيرات مختلفة : فصم التحالف بين الثورة والحركة الوطنية ، كبند اول في جدول اعمال المبادرة ٠٠ وفي المراحل الاخيرة تعلن الاهداف بشكل اكثر وضوحا :تصفية الحركة الوطنية ٠٠٠ وابعد « خلق » قيادة فلسطينية « جديدة » مطواعة تبارك الدور السوري السياسي والعسكري ، وتندرج في خطط النظام الامبراطورية اللاحقة لتسوية قضايا الصراع في المنطقة ، وبشكل خاص المسالة التي تندرج هي الاخرى كبند اساسي في اهداف المبادرة (٢٥)٠

ولكي يمكن معرفة الارضية المشتركة لجميع اطراف العداء للثورة والحركة الوطنية ، لا بد من تفحص جوهر كل مشروع منها : الانعزالي ، والسلطوي ـ الانعزالي ، ومشروع المبادرة السورية ، والاخير بالرغم من منطلقاته وشعاراته المختلفة ، الا انه في الواقع العملي ، ارتكز على القوى الانعزالية ذاتها بالتحالف والتنسيق ، وقوى النظام الطائفي ومرتكزاته ذاتها ٠ كما حصل على تاييد القوى والاطراف العربية والدولية التي باركت المشروع ووقفت وراءه ، والنتيجة ـ والعبرة بالنتائج ـ هي المواجهة الدموية مع الثورة والحركة الوطنية في آن معا ، مضطلعا بوظيفة القوى الانعزالية بالكامل ٠

وعند وضوح اسس المناهضة المشتركة للثورة والحركة الوطنية في جميع المشاريع

المعادية تتعين بدقة الاسس الموضوعية المتينة والعميقة للوحدة الكفاحية المصيرية بين الشعبين الفلسطيني واللبناني وحركتي تحررهما في مواجهة المشاريع المعادية والمناهضة المختلفة ٠

١ ـ المشروع الانعزالي ـ الكتائبي ـ الشمعوني ٠

ان بنود المشوع الانعزالي الحقيقية اصبحت معلنة وواضحة بما فيه الكفاية ٠ والسياسة الانعزالية والمناورات المرتبطة بها لم تفعل شيئا سوى محاولة خلط البنود ببعضها البعض وتقديم احدهما على الاخر لاخفاء وحدتهما العضوية ٠ ولكن جوهرهما وتسلسلها كما اكدته الاحداث هو التالي :

ـ مشروع تصفية الوجود للفلسطيني المسلح ، وتوزيع الوجود البشري على الاقطار العربية ، او الابقاء على جزء منه في سجون المخيمات تحت هيمنة الجيش والدرك كما كان الوضع عليه قبل حزيران ١٩٦٧ ٠ وبالمقابل الاستفادة من الايدي العاملة الماهرة والرخيصة التي سبق ان عملت طويلا في خدمة مصالح الرأسماليين والاقطاعيين وكبار التجار اللبنانيين ٠

ـ المشروع الانعزالي ـ ضد الثورة اولا ٠ ان تحقيق المشروع الانعزالي ضد الثورة ، يخل في موازين القوى اللبنانية لصالح القوى الفاشية المسلحة (٢٦) وهو ما يجعل مسألة تجريد الحركة الوطنية من سلاحها ، والتي حملته حينا للدفاع عن الثورة وهي سبيل المطالب الوطنية والاجتماعية ، هدفا انعزاليا جادا لاحقا ٠ وعندهما تصبح المطالب الوطنية والاجتماعية الاصلاحية يتيمة عزلاء يمكن تماما تمييعها وتجويف مضامينها ٠ وهو ما يمهد بالنتيجة لتوفير شروط اقامة نظام لبناني فاشي ، يصادر الحريات الديمقراطية النسبية وكذلك المكاسب الوطنية والاجتماعية التي حققتها الحركة الشعبية عبر كفاحها الطويل ٠ وربما اتخذت شكل صيغة فاشية متلفعة في اغلفة تقليدية رجعية طائفية ، مسيحية واسلامية ٠

ـ اما المناورة القائلة بالتعايش مع الثورة ، وتصفية الحركة الوطنية اولا ، باعتبارها تتشكل من القوى التي تحاول « احداث انقلاب يساري » والتي ترتبط باليسار الدولي ، فهي تعبر عن الوجه الثاني لمرتكز المشروع الاول ٠

ـ أن محاولة الجميل ـ شمعون الادعاء بان المشروع الانعزالي لا يستهدف الثورة بل « اليسار الدولي المخرب » كانت محاولة لم يكتب لها التقدم والنجاح ، وبالرغم من انها استمرت على امتداد اب ايلول ١٩٧٦ ، الا انها سرعان ما ارتطمت بالاسس الموضوعية الصلبة لوحدة الكفاح الفلسطيني اللبناني ، ولانها هي بالذات لا تعبر عن الواقع وحقيقة مواقفهم وسياساتهم ، فقد تناثرت شظايا مدافعهم ضد الشعبين اللبناني والفلسطيني ، وضد حركتي تحررهما الوطني ٠

– وبالترافق مع ذلك ، فان تمكن الحركة الوطنية اللبنانية ، من دفع عناصـــر الصراع اللبنانية الى المقدمة ، وحشد طاقات الجماهير ، وقيادة كفاحهـا السياسي والجماهيري المسلح ، جعلها تشكل خطرا جديا على المشروع الانعزالي ٠ وفي سيـاق ذلك جاءت مناورة الجميل – شمعون لتحييد الثورة اولا ٠ لكي تتفرغ القـوى الانعزاليـة لانزال ضربة موجعة بالحركة الوطنية تمكن من لجمها تماما ٠ وفي المرحلـة الثانيـة يستأنف المشروع عمله ضد الثورة ، دون عقبات وطنية لبنانية ، دون دور للحركة الوطنية، وبوتيرة اسرع ، ودون مضاعفات ٠

٢ – من البرنامج السلطوي – الى الانعزالي الكامل ٠

منذ معركة العام ١٩٦٩ ، مرورا بعملية ١٩٧٣ وحتى اوائل العام ٧٥ كانت محاولات اركان النظام الانعزالي تتواصل بدفع من القاعدة الطائفية الانعزالية ودعمها الكامـل، لان ظروف المبادرة في المشروع لم تنضج بعد من خارج السلطة ٠

ومنذ نيسان ١٩٧٥ تصدت القوى الانعزالية لاخذ زمام المبادرة ، وتحركت بمعـزل (شكلي) عن مؤسسات النظام ، لكنها حاولت توظيف اجهزة الدولة بشكل كامل في خدمة المشروع ٠ وقد اندمجا كليا ، الدور الكتائبي – الانعزالي ودور النظـام ، من حيـث الاهداف والوسائل والشعارات ، سواء تجاه الثورة او الحركة الوطنية ، على يد سليمان فرنجية واجهزته وشرعيته الرئاسية منذ الربع الاخير من العام ١٩٧٥ ٠

المبادرة السورية طبيعتها ومسارها ٠

– لقد بدات المبادرة سياسية ، وسرعان ما تحولت الى عسكرية سياسية ٠ بـدأت تحاول تحقيق التوازن ، وتحولت نحو تشكيل حلف سياسي – عسكري مـع القـوى الانعزالية ٠ طرحت هدفا معلنا وبشكل شبه رسمي هو ضرب الحركة الوطنية ٠ وعلـى الفور تحولت الى مواجهة الثورة والحركة الوطنية معا ٠ وبالضرورة وضعت قواها فـي خدمة معسكر جميع اعدائهما ٠ وبالترتيب في مواجهة القوى الوطنية والتقدمية العربية والعالمية الحليفة لهما والمدافعة عن اهدافهما ٠

– في تصديها للحركة الوطنية اللبنانية ، عملت على استبدالها بالزعامات الاقطاعية والرجعية التقليدية ، والمجموعات التابعة للنظام السوري ذات التركيب اليميني الرجعي ، او المرتبطة بأجهزة مخابراتها ، والتي لها سوابق في الارتباط بالمخابرات العربية ٠ وسرعان ما تحولت هذه القوى ، « الجبهة القومية » الى احتياطي ينشط في خدمة القوى الانعزالية وضد الثورة والحركة الوطنية ، عبر مواقف وتحركات مختلفة ٠

– محاولة فرض وثيقة ١٤ شباط « وثيقة فرنجية والقيادة السورية » ، بهدف الابقاء على طائفية الرئاسات الثلاث ، وتكرس لبنان الطائفي عموما ٠ وهي الوثيقة التي تمكن القوى الانعزالية والرجعية واليمينية التقليدية من الاحتفاظ بمواقع كبيرة واحتلال اخرى تواصل منها القتال والمناهضة ضد الثورة والحركة الوطنية ، بينما هي في المقابل تحرم

الجماهير اللبنانية وحركتها الوطنية من تحقيق اي مكسب وطني ديمقراطي ·

ـ تعمل المبادرة على تكبيل الحركة الجماهيرية اللبنانية · بمعنى تقييد حريتها ، ومصادرة مكاسبها ، ومطاليبها الوطنية الديمقراطية ، وبالتالي عرقلة كفاحها من اجل ادخال لبنان في الصراع العربي ـ الاسرائيلي ، كما ان الوقوف بوجه المطالب الوطنية الاصلاحية يعرقل تعبئة قواها ، ويضعف شروط وامكانات صمودها وتصديها لاسرائيل والقوى الانعزالية · وبهذا المعنى هي محاولة لتجفيف بحر الحركة الجماهيرية اللبنانية الذي تسبح فيه الثورة ، من حولها · وانتزاع الدرع الذي يشكل خط صدامها الامامي مع القوى الانعزالية ، وفي مواجهة الهجمات الاسرائيلية على جنوب لبنان ·

ـ العمل على تشتيت ومحاصرة القوى العسكرية للحركة الوطنية ، والعمل على تصفيتها ، أي تصفية القوى الحليفة للثورة وعمقها الاستراتيجي ، في كفاحها المصيري ضد اسرائيل واعدائها الاخرين ·

ـ على اساس التحالف بين القيادتين السورية والانعزالية ، خيضت المعارك الدامية ضد الثورة والحركة الوطنية ، وقد نالت الثورة والشعب الفلسطيني النصيب الاوفر · وبينما تطبق القوات السورية على انفاس الشعبين اللبناني والفلسطيني وتجمد القوى العسكرية للثورة والحركة الوطنية ، تواصل القوى الانعزالية هجماتها ضد مواقعهما · بالمقابل يتدفق العتاد والسلاح على الجبهة الانعزالية ، في الوقت الذي يشتد الحصار السوري على الموانىء والمواقع الوطنية وينسجم مع الحصار الانعزالي والاسرائيلي · وتشارك الدبابات السورية في معارك تل الزعتر وجسر الباشا وبرج حمود والنبعة بينما كان المتواطئون مع القيادة السورية من جماعة الحركة « الوطنية القومية » يعملون على تسهيل تسليم النبعة للقوى الانعزالية ·

ـ المعاهدة « الامنية » التي يراد فرضها بالقوة على النظام اللبناني وضد ارادة شعبه وبمعزل عنها · وكذلك الكونفدرالية التي يراد ادخال لبنان والثورة الفلسطينية الى محيطها ، تهدف هي والمعاهدة « الامنية » الى وضع الثورة والحركة الوطنية اللبنانية أمام فكي الكماشة السورية ـ الهاشمية · وهذه اهداف اصبحت معلنة وشبه رسمية ·

دورة المبادرة السورية · من المناورة الى الاجتياح العسكري ·· ومنه الى عقد الاتفاقيات ··· وبعدها اجتياح عسكري اخر ·· حتى يمكن فرض شروط الاستسلام الكامل·

من مناورات ايار ٧٦ لتنصيب الياس سركيس ·· الى الاجتياح العسكري في حزيران ٧٦ · ومن اتفاقية دمشق تموز ٧٦ الى عملية اجتياح الجبل في أواخر ايلول · سياسة واحدة متكاملة ، وحلقات متصلة واهداف واحدة ·

* في اوائل ايار كانت خطة العمل تقوم على التدخل السياسي والعسكري (الجزئي) المباشر في انتخابات الرئاسة ، بالهجوم السياسي تحت مظلة الردع العسكري · وقد ترافق مع اعلى درجات الضغط والابتزاز لاستفراد الحركة الوطنية ··· وسرت العملية وخرجت وحدة الثورة والحركة الوطنية اكثر قوة وتماسكا · واخفقت المناورة في تحقيق هدفها

الاساسي . لا بد اذن من مواصلة الاجتياح العسكري .

* في حزيران بدأت المغامرة العسكرية ، لكنها ارتطمت بصخرة الوحدة الصلبة بين الثورة والحركة الوطنية ، وتكسرت على مشارف صيدا وعند حدود صوفر ... لا بد من ابرام الاتفاقات المؤقتة !

* في تموز عرضت القيادة السورية التفاوض على اساس المبادرة الليبية .وتجاوبت الثورة الى ابعد الحدود لتاكيد موقفها المبدئي لانهاء القتال ، ولتجريد القيادة السورية من اعذارها وعقدت اتفاقية دمشق في ٢٩ تموز التي حاول النظام السوري ان يجعلها مدخلا لتصديع التلاحم بين الثورة والحركة الوطنية . ولكن سرعان ما اخفق ، ومزق الاتفاقية .

* ومنذ اوائل ايلول ، بدأت القيادة السورية محاولاتها في الضغط المتعدد الاشكال وممارسة الابتزاز المكشوف مع القيادة الفلسطينية لكي تنسحب من الجبل . (وهو مطلب انعزالي اساسي دائم) . وقد اصطدمت جميع عروضها بموقف الثورة الحازم وصلابة الوحدة المكفاحية بينها وبين الحركة الوطنية .

وفي فجر السابع والعشرين من ايلول استأنفت عملياتها العسكرية ، بالتنسيق الكامل مع القوى الانعزالية لاحتلال المواقع الوطنية في الجبل . وهكذا تستكمل دورة المبادرة من المناورة الى المغامرة العسكرية ، ومنها الى الاتفاقات .. ومن ثم معاودة الاجتياح العسكري .. بهدف فرض شروط الاستسلام كاملة . (٢٧)

وبالرغم من المكاسب العسكرية التي حققتها القيادتان السورية والانعزالية ، الا ان القتال الباسل والمقاومة الفلسطينية ـ اللبنانية قبل الانسحاب من اي موقع افقد العملية اهم اهدافها الاساسية ، وهو فرض الانسحاب بواسطة الضغط العسكري والابتزاز السياسي . وقد كانت النتيجة بالنسبة للثورة والحركة الوطنية خسارة موقع عسكري وبالمقابل تحقيق نصر سياسي كبير (٢٨) .

ـ ان ما هو اشد خطرا في مسيرة المبادرة السورية ، هو ان المشروع اذا تحقق ، او نجحت القيادة السورية في تحقيق جزء منه ، أي اضعاف الثورة واحكام الوصاية عليها ، يواصل المشروع الانعزالي ولن يتوقف حينذاك عند حدود .

وربما لن تتمكن سوريا من ايقاف اندفاعه ان هي أرادت ، أو بالاحرى اذا كان ايقافه في خدمة مشروعها ، واندفاعه ليس في صالحه . ان القوى الانعزالية ستواصل اندفاعتها بعد ان تكون القيادة السورية قد ادت وظيفتها واخلت في موازين القوى لصالح القوى الانعزالية بشكل كبير ، وعندما تواجه الجبهة الانعزالية مقاومة ضعيفة وفي غياب الحركة الوطنية المنهكة ، ستظهر الانياب الشوفينية ، وتطرح مهمة تصفية الوجود العسكري والسياسي للثورة ثانية وفي ظروف مؤاتية .

من هنا تنبع خطورة الدور السوري ، ومن هنا ايضا تنبع صلابة الوحدة بين الثورة

والحركة الوطنية لمواجهة حلقاته وتكسيرها واحدة بعد اخرى •

ومن استعراض مواقف مختلف الاطراف المعادية للثورة والحركة الوطنية ، يبدو واضحا ان التدخل السياسي والعسكري السوري هو في ثقله الاكبر ضد الثورة الفلسطينية واهدافها الوطنية ومستقبلها •

ومن المفيد ان نسجل مجموعة من المؤشرات التي برزت عشية دخول الوحدات الاولى من القوات السورية في ١ نيسان ١٩٧٦ • والتي هي ذات دلالة كبيرة •

ـ في ٢٩ اذار يبدأ الموفد الاميركي دين براون مبعوث الرئيس فورد مهمته كوسيط لحل الازمة اللبنانية •

ـ وفي اليوم ذاته ، تهاجم منظمة البعث السوري كمال جنبلاط ممثل الحركة الوطنية اللبنانية ، وتتهمه « بالعمالة والخيانة » •

ـ وبعد يومين اثنين فقط ، وفي الوقت ألذي تطهر فيه القوات المشتركة عينطورة وتعلن الهيئة العسكرية المؤقتة ، وتذيع برنامجها لانهاء القتال ، يهدد كيسنجر وزير الخارجية الاميركية بتدويل الازمة اللبنانية •

المواقف الدولية والعربية التي باركت المبادرة العسكرية ودعمتها •

١ ـ اسرائيل : باركت التدخل العسكري ، وشجعت على مواصلته • في البداية وضعت خطا احمر لحدود الاجتياح ، وسرعان ما استبدل بضوء اخضر دائم •

وتحول الخط الاحمر من جغرافي الى سياسي ، يرتبط بالهدف الذي تسعى اليه القوات السورية • وقد اصبح هدفها من قبل حكومة تل ابيب مرغوبا فيه تماما فهو ، اضعاف منظمة لتحرير وضرب الحركة الوطنية اللبنانية •

كما ان اسرائيل لا تخفي مكاسبها العديدة من اجتياح القوات السورية ، وتسببها في استمرار القتال • وقد حددتها رسميا على الشكل التالي كما في تصريحات عدد من قادتها في الفترة الاخيرة :

ـ انهاك المقاومة الفلسطينية واضعافها •

ـ تحول الجيش السوري عن الصراع ضد اسرائيل وانشغاله في القتال ضد المقاومة الفلسطينية •

ـ اشتداد المعارك الطائفية التي تؤكد اراء اسرائيل • اي التي تبرر قيام الدولة العبرية العنصرية •

– وبعد عملية اجتياح الجبل اعلن شمعون بيريز « ان هـــدف القدس حاليا هو نفس هدف دمشق » ·

٢ – اميركا : الحكومة الاميركية ، وقبل بدء الاجتياح العسكري ، كانت قد اعطــت الضوء الاخضر للحكومة السورية · وفي رسالة رسمية · (٢٩) وكذلك في بيانـــات وتصريحات وتحركات مختلفة ·

وما قاله براون في ندوة تلفزيونية عقدها في واشنطن بتاريخ ١٠ اب ١٩٧٦ كـــان شديد الدلالة والوضوح ·

* حينما سأله الصحفي « تريبويت » عن التقاء الموقفين السوري والاسرائيلي في الازمة اجاب براون :

« نعم هذا احتمال وارد » · ثم اضاف«انما يقوله السوريون هو انهم يريدون ان يروا الفلسطينيين اكثر لينا تجاه تسوية سلمية ··· ولا شك ان حركة فلسطينية اكثر توحدا لا تقع تحت تهديد اليسار فيها ، ومحكومة اكثر من دول المواجهة مع اسرائيل يمكـــن ان تقودنا في اتجاه التسوية ، اذا ما امكن ايجادها كنتيجة للمواجهة القائمة في لبنان »(٣٠)·

٣ – النظام الهاشمي – لقد سافر الملك حسين عشية الاجتياح السوري الى واشنطـن في محاولة لاستعجال الموافقة الاميركية على التدخل السوري · وفعلا كان لجهوده دورا في استكمال العوامل التي بنت اميركا قرارها على ضوئها (٣١) في اعطاء الضوء الاخضر للاجتياح ·

– وفي ١ نيسان ٧٦ اعلن الملك حسين انه « يؤيد تدخل سوري في لبنان لانه يمنــع محاولة المسلمين المتطرين تغيير النظام اللبناني » (٣٢) ·

– وفي تصريحات لاحقة اعلن بأنه « يؤيد الجهود السورية لايقاف القتال وان منظمة التحرير هي السبب في استمرار القتال لانها تتدخل في الشؤون الداخلية للبنان ، تمامــا كما تدخلت في الاردن » · (٣٣)

٤ – الانظمة الرجعية : ان المواقف الفعلية للانظمة العربية الرجعية منذ بدايـــة التدخل العسكري السوري هي الموافقة الضمنية المعبر عنها بالصمت والتفرج الطويـــل الامــد ·

كا تاكد ذلك ايضا من خلال كل « الجهود » التي بذلت لايقاف الاجتياح ·حيث اندرجت جميعها في المبادرة السورية · بسبب عجز القيادة السوريـة عن تحقيق الحسم العسكـري السريع وانهاء الازمة أي تأدية وظيفتها ضد الثورة والحركة الوطنية ، بدأت التحركات العربية لايجاد مخرج للنظام السوري ذاته ·

أما المواقف الرجعية التي يمكن أن تذهب أبعد من ذلك فانها ترتبط بالصراعـــات الثانوية حول دور وحجم المبادرة السورية في حسابات مستقبل المنطقة ·

ولقد كان دين براون واضحا ايضا في تحديد موقف الانظمة العربية الرجعية وهو بصدد حديثه عن السياسة الاميركية تجاه لبنان ٠ والذي اصبح الدور العسكري السوري كاحدى ادواتها ، قال المتحدث الاميركي « ان وجهة نظر اميركا تجاه لبنان تتشارك فيها ـ سوريا واسرائيل ٠٠٠ وبالتاكيد تشاركنا فيه ايضا السعودية وكل البلدان العربية التي نطلق عليها « معتدلة » ٠

اما الانظمة الوطنية الاخرى فأن الصمت والتفرج الذي تنهجه كان عمليا في خدمة الجهد السوري العسكري وليس ضده ٠ والمواقف التي اتخذت شكل المعارضة لم تكن فعالة حتى الان ٠

٥ـ القيادة السورية ٠ والنظام السوري هو الاخر اصبح لا يخفي حقيقة اهدافه ولا ينكر المواقف الدولية التي تدعمه في المبادرة العسكرية ٠

ففي لقائه مع الوفد الفلسطيني ، خلال مباحثات اتفاق دمشق ، اعترف حافظ الاسد للوفد « بان اسرائيل لم تعترض ولم تتدخل عندما دخلت القوات السورية الى لبنان ، لانها كانت ترى أن هذه القوات دخلت لتصفية المقاومة ! » ثم يكمل حديثه « ٠٠ اما الان فهو ، اي الاسد ، يتوقع عدوانا اسرائيليا بعد الاتفاق (اتفاق دمشق) ٠ (٣٤) وبعد مضي شهر واحد فقط ، مزقت دمشق الاتفاق ٠ والاعتداءات الاسرائيلية لم تحصل ! ولماذا تحصل ؟ بدلا منها تكاثرت تصريحات التأييد ٠ اخرها تصريحات بيريز في ايلول « لسوريا واسرائيل نفس الهدف » ٠

الحركة الوطنية والتقدمية اللبنانية هي درع الثورة وعمقها الاستراتيجي في لبنان٠

ـ من الواضح ان الاهداف الوطنية ـ الاجتماعية ، التي تناضل في سبيلها الحركة الوطنية التقدمية اللبنانية هي بالضرورة والواقع في مصلحة الثورة الفلسطينية وفي خدمة اهدافها المباشرة والاستراتيجية ٠

ـ أن المهام المتمثلة في برنامج الاصلاح الديمقراطي والاجتماعي والسياسي ، تساعد على تعبئة الجماهير اللبنانية وتنظيمها واعدادها للمساهمة في القتال ضد اسرائيل ٠ كما تمكن الحركة الوطنية والتقدمية اللبنانية ، والجماهير الملتفة حولها ، من خوض نضال متواصل من اجل سياسة وطنية دفاعية تجاه اسرائيل ، وانخراط لبنان في الصراع العربي ـ الصهيوني ٠

ـ والنضال من اجل مهام البرنامج الوطني الاصلاحي ، يمكن ايضا من تكثيف مساهمة الحركة الوطنية التقدمية في النضال في سبيل انتزاع حق الثورة والشعب الفلسطيني المطلق في الوجود البشري المسلح ، وحق التعبئة والتنظيم والتدريب والقتال ضد اسرائيل ٠ كما ان انجاز البرنامج الوطني يمكن الحركة الوطنية اللبنانية من خوض القتال الى جانب الثورة جنبا الى جنب ومن موقع اقوى وافضل ضد اسرائيل والقوى المعادية للثورة ، والوقوف بوجه محاولات تطويقها ومصادرة استقلالها السياسي او انتقاصه ٠

ـ أن مناطق قوة ونفوذ الحركة الوطنية ، السياسي والعسكري ، تشكل عمقـــا استراتيجيا ، وقاعدة جماهيرية وسياسية وعسكرية آمنة للثورة ·

من هنا ، فان عناصر مشاريع القوى الانعزالية والمناهضة للثورة والحركة الوطنية اذا كانت تشكل الوجه الاول لوحدة التحالف الوطني الفلسطيني ـ اللبناني ، فان الاهداف الوطنية والقومية المشتركة تشكل وجهها الثاني · بمعنى اذا كانت الاهداف النضاليـــة الاخيرة تشكل سدة التحالف ، فان مشاريع معسكر القوى المعادية والمناهضة للحركتين الوطنيتين المناضلتين هي لحمته ·

وهذا يعني ان التحالف الذي يرتكز الى اسباب موضوعية تاريخية يكون بالتاكيد اقوى من جميع المخططات والمناورات لفصم عراه القوية ·

·· كما في ميادين الحرب ·· في ميادين الصراع السياسي ·

ـ كما هو من الطبيعي ان يتخذ الصراع اشكالا وتعبيرات مختلفة الى جانب القتال، وفي خدمته ، واستمرارا له ، فان اشكال التحالف والتلاحم هي الاخرى تتخذ لها تعبيرات سياسية وجماهيرية الى جانب القتال وفي خدمة اهدافه ، او تتويجا للحرب واستمرارا لها باشكال وتلاوين اخرى غير دموية ·

ان الصراع السياسي والجماهيري الذي يواكب الحرب او يعقبها ، هو بلا شك اكثر تعقيدا وتشابكا من القتال · سواء من حيث وسائله المتنوعة او اشكاله او من حيث القوى التي تنخرط فيه ·

والثورة والحركة الوطنية حينما تقاتلان في خندق واحد ، فانما تقاتلان ضـــد اعدائهما المشتركين في الخندق المقابل · ولكن حينما يكون الصراع في الميادين السياسية سواء الى جانب خنادق القتال او بعد توقف نشاطها ، فان اسس الوحدة الكفاحيـــة تكون قائمة في الميادين السياسية بقدر حضور عناصر المخططات المعادية التي تمتد الى الصراع السياسي كمساعدة ، او تنتقل الى ميادينه ، كميادين اساسية ، بعد توقـــف القتال ، حيث تأخذ تلاوين متنوعة ·

وهذا يعني أن الثورة حينما تقف الى جانب الحركة الوطنية في الصراع السياســي خلال الحرب ، دفاعا عن اهدافها ومصالحها ، فان المواجهة السياسية المشتركة للمخططات المعادية التي تخوضها الثورة والحركة الوطنية بعد الحرب ، تتواصل على القاعـــدة الكفاحية الموحدة ذاتها · والثورة بذلك تواصل الدفاع عن وجودها واهدافها الوطنية ضد اهداف القوى المعادية ذاتها التي يراد لها ان تتواصل باشكال جديدة في الميادين السياسية·

ان هذا الواقع يؤكد بان الثورة لا تتدخل في الشؤون الداخلية اللبنانية ، بـــل وبالضبط ، تحاول منع التدخل في شؤونها ، وايقاف حلقات التآمر التي تزرعها القيادة السورية وغيرها والتي تتخذ لها اشكالا جديدة غير عسكريـــة في الميادين السياسيـــة · وفيها يجري التصدي للعدوان الذي يتحول من قذاف وصواريخ ودبابات ، الى مؤامرات

وخطط سياسية ، تشارك فيها القوى التي اشعلت الحرب وادارتها ، بالاضافـــة الـى مساهمة قوى اخرى لم تتمكن من ان تلعب الدور ذاته خلال المعارك او في ميادينها ٠

ويمكن تلخيص ذلك على الوجه التالي :

ـ ان الخطط المعادية للحركة الوطنية ، والتي تضر بمصالح واهداف الثورة هـي بالضرورة تلك الخطط التي ترتبط باهداف المشروع العسكري المعادي ذاته ، والتي يراد تحقيقها عن طريق المناورات السياسية الى جانب الصراع العسكري او بعد توقفه وعجزه عن تحقيق اهدافه ٠

ـ كما ان نضال الحركة الوطنية في الميادين السياسية هو امتداد له في ساحـــات القتال ، وفي جوانبه الوطنية والاجتماعية هو في خدمة الثورة واهدافها ، وبالتالي فـــان ارضية التحالف مع الثورة في الميادين السياسية هي الارضية ذاتها التي ترسخت عليهـا الوحدة الكفاحية في ميادين القتال ٠

ان من بين اهم المعضلات التي احتدم الصراع السياسي حولها خلال القتال ، ولا يزال وسيتواصل بشكل اكثر حدة بعد توقفه ، هي مسالة قيادة الحركة الوطنية التقدمية اللبنانية ، وتمثيلها الشرعي لحركة التحرر الوطني والديمقراطي اللبنانية ٠ على هـــذه المسالة تتركز محاولات القوى الانعزالية ، والقيادة السورية ، هادفة الى تجاوز شرعيتها النضالية التي تعكس الحقائق الموضوعية ، او تحاول ثلمها واضعافها ٠

ان من أبرز تعبيرات هذه المحاولات تتمثل في العمل على تزييف ارادة الجماهيــر اللبنانية ، « وتركيب » قيادة « بديلة » للحركة الوطنية ، مكونة من القوى والعناصر التي تناهض مطالب الحركة الوطنية السياسية والاجتماعية ، والتي تهادن قوات الاحتـــلال ، وتتحالف وتتواطىء مع القوى الانعزالية التي تقاتل ضد الثـــورة والحركة الوطنيـــة اللبنانية ٠ هذه القيادة المزعومة يراد لها ان تأتمر بأوامر السلطات السورية وتنفذ خططها وخطط القوى الانعزالية ضد مصالح الشعبين الفلسطيني واللبناني الحيوية ٠

من هنا فان هذه المعركة التي هي اساسا معركة الجماهير اللبنانية وحركتها الوطنية هي معركة تمس اهدافها ونتائجها مصالح الثورة ومستقبلها على الارض اللبنانية ٠

ان معركة تمثيل قيادة الحركة الوطنية كتعبير سياسي لحركة التحـــرر الوطنـــي الديمقرطي ، ترتبط بمعضلات اخرى لا تقل اهمية عنها ،وهي تحديدا ، مسالة الادارة المدنية ومستقبلها ٠ التي تنهض بواجب توفير المتطلبات الضرورية لحياة الجماهير اليومية وتنظيم صمودها ، وقيادة كفاحها السياسي ، استكمالا لقيادتها في المعارك ٠

وهذه المعضلة ترتبط ايضا بالمعركة مع القوى والعناصر التي تحاول اعادة تنظيم حياة الجماهير ، كما تحاول عرقلة النضال من اجل البرنامج السياسي الاصلاحي بهدف الابقاء على مرتكزات النظام الطائفية شبه الاقطاعية الرجعية ٠

واذا كان لكل من الثورة والحركة الوطنية سياسة متميزة تجاه هذه المعضلات ، تنبع من الطبيعة الخاصة لكل منهما ، وظروف نضالها ، فان التمايز يسير بشكل ثابت علـــى ارضية التحالف وضمن نطاقه ·

وكما يكون التمايز تجاه المعضلات الداخلية ، كذلك هو في العلاقات العربية ، وتجاه التناقضات المختلفة بين الانظمة ، وكيفية توظيف السياسات المنبثقة عنها لصالح الثورة والحركة الوطنية اللبنانية وفقا لاشكال التحالفات والتعامل الذي تنتهجه كل منهما تجـــاه ومع كل نظام عربي وفقا لطبيعته وسياسته ومواقفه تجاه كل من الثورة والحركة الوطنيـة اللبنانية ·

وكذلك ينسحب التمايز على قاعدة التحالف ، على علاقات الثورة والحركة الوطنية مع القوى التقدمية العالمية · حيث يتم على قاعدة العلاقات المتمايزة بين كل منهما والقـــوى التقدمية العالمية ، توظيف الدعم والمساندة ، في خدمة وحدتهما النضالية وعلى ارضيتها المشتركة ·

وكما اثبتت الوحدة الكفاحية في ميادين القتال انها اقوى من كل المؤامرات ومحاولات زعزعتها ، وخرجت اقوى واصلب عودا بعد كل مرحلة ، كذلك تخوض الكفاح السياسي الى جانب العمليات الحربية وبعدها ، ولان تخرج اكثر قوة وصلابة ، حتـى يمكن توفيـــر شروط تسوية ديمقراطية متوازنة للازمة · وعندها تتمكن الثورة من مواصلة كفاحهـــــا ضد اسرائيل في ظروف اكثر ملائمة ومؤاتاه ، كما تشدد الحركة الوطنية نضالها من اجل البرنامج الاصلاحي الديمقراطي الى جانب الكفاح الوطني ضد اسرائيل على قاعدة الكفاح المتمايز والمشترك مع الثورة من اجل مصالح الشعبين وطاهداف حركتي تحررهما الوطني الديمقراطي ·

الحواشي

(١) مجزرة ارتكبتها قيادة الجيشـــــ عندما اقتحمت المدينة ،واطلقت النار على المتظاهريـــن ، سقط خلالهــــا عشرة من المدنيين اللبنانيين ·

(٢) على امتداد الاعوام ٦٨ـ٧٣ كانت التحركات الجماهيرية ترتبـــــط دائمــــا بشعارات تطالب الدولة بالقيام بدورهـــا في مواجهة الهجمات الاسرائيلية وانتهاج سياسة دفاعية ·

(٣) لقد دخلت الجماهير اللبنانيـــــة على الفور كطرف معني ورئيسي ومستهدف في الصراع ·

(٤) منذ الاشهر الاولى التي اعقبـت هزيمة حزيران ١٩٦٧ ، بدأت الجماهير اللبنانية تحضر وتتحفز للقتال ضـــــد الكيان الصهيوني ، لاستئناف تاريخهـــا المشرق في مواجهة العدو منذ بدايـــة الاستيطان على ارض فلسطين ·

(٥) بعد ان وضع نفســـــه خــــارج الصراع ، وأبتعد عن الحروب العربيـــة ـ الاسرائيلية · خاصة حربي ١٩٦٧ ـ ١٩٧٣ · تحت ستار أكذوبة كبيرة تقول « ان قوة لبنان تكمن في ضعفه » ·

(٦) لقد أنخرطت الشبيبة اللبنانية في

الجنوب في صفوف المنظمات للدفاع عن القرى الامامية · وفي السنوات الاخيرة انبثقت عمليات المقاومة اللبنانية المسلحة، وبرزت بشكل خاص في المساهمة البطولية المسلحة لاهالي كفرشوبا ضد العدوان الاسرائيلي · كما في تصدي اهالي الطيبة للغارة الاسرائيلية على قريتهم وفي معركة كفركلا تصدت مجموعة من اهالي البلدة لقيادة « الحرس الشيعي » والقوى الوطنية التقدمية الاخرى وكانت معركة مجيدة · حيث تكبدت فيها اسرائيل ما يزيد على ٣٠٠ جندي بين قتيل وجريح · (الوضع اللبناني الراهن · والمهام المرحلية للحركة الشعبية ـ منظمة العمل الشيوعي ص ٣٧ ـ ٤٥) ·

(٧) على امتداد الاعوام ٦٨ ـ ٧٣ كانت سياسة التواطؤ ، قد مكنت الاسرائيليين من مواصلة هجماتهم ضد المخيمات الفلسطينية في الجنوب وبيروت والشمال · وكذلك ضد القرى والجماهير اللبنانية في الجنوب · تلك السياسة التي مارستها اوساط معينة في الدولة وقيادة الجيش ·

(٨) بالاضافة الى الوجود العسكري والسياسي القوي في الاردن ، الذي شكل قاعدة عسكرية وسياسية اساسية للثورة ، كان تاثيرها قويا في جميع مناطق تواجد الثورة ·

(٩) وذلك بسبب ما كانت تعانيه تلك الانظمة من نتائج هزيمة حزيران١٩٦٧، بالاضافة الى السمة الوطنية المتقدمة للنظامين حينذاك ·

(١٠) لقد اشار بيار الجميل في صدد الدفاع عن توقيعه على الاتفاقية ، الى انهم ، اي زعماء القوى الانعزالية وبعض أركان النظام ، كانوا يواجهون شران شر قبول الاتفاق وشر الحرب الاهلية ، وبالطبع لم يكونوا مستعدين للاحتمال الثاني حينذاك · وهذا اعتراف صريح بلبنانية الصراع · والذي يعني ان الجماهير اللبنانية وحركتها الوطنية المتحالفة مع الثورة قد ساهمت بقوة في اجبار القوى الانعزالية على قبول الاتفاق· حتى ان الزعامات اللبنانية التقليدية ، اتخذت مضطرة مواقف واضحة الى جانب المطالب الشعبية الوطنية اللبنانية ·· والاقرار ببعض من حقوق المقاومة الفلسطينية في التعبئة والاعداد ·

(١١) تشكلت الوزارة حينذاك بموافقة الحركة الوطنية وباشتراكها فيها ، مراهنة منها على امكانية استخدام الوزارة كاحد منابر الصراع ولتحقيق بعض الانجازات التي في صالح المسالتين الوطنية والاجتماعية ·

(١٢) ان ما يؤكد حقيقة كون المشروع الكتائبي الانعزالي العسكري والسياسي استهدف الحركة الوطنية اصلا ، ومن ثم حليفتها التي ساعدت على ازدياد نفوذها، المقاومة ،هو ان الميليشيا الكتائبية تشكلت مع بداية الاستقلال وظهرت بشكل واضح في أحداث ١٩٥٨ · وحددت وظيفتها المحافظة على التوزيع الطائفي القائم وحماية مصالح الطوائف السائدة بشكل خاص ·

(١٣) في مباحثات ملكارت ، لم يحصل سوى اضافة ملحق يكرس الاتفاقية ويفسرها فحسب ·

(١٤) أن المضاعفات المترتبة على تصاعد المطالب الوطنية والاجتماعية كانت تصب بغزارة في بحر الثورة الفلسطينية ، وتوسع درعها الجماهيري اللبناني وتزيد من عوامل التلاحم بين الشعبين ·

(١٥) اي صراع لبناني - فلسطيني · ومسيحي - اسلامي ومن ثم طائفي شامل · وقد سلكت القيادات الانعزالية منهجا منظما لتسعير الصراعات الطائفية ، لكن القوى الاساسية والفاعلة في الثورة والحركة الوطنية كانت تناهض وتقاوم اي شطط وردود فعل طائفية في المعسكر التقدمي ، لكن هذا لم يتمكن من ان يحول دون حصول العديد من ردات الفعل الطائفية التي ارتكبتها عناصر غير مسؤولة او مشبوهة ·

(١٦) اي بعد وضع الثورة بين فكي كماشة الاداة العسكرية الكتائبية واركان النظام وقواته ، وقد كان على الاخير ان يقوم بدوره تحت شعار تطبيق الاتفاقات المعقودة مع الثورة ، تماما كما اريد لمعركة صيدا ان تكون نموذجا للتعامل مع الحركة الوطنية في كل مدينة ،ومصنع وقرية ، حيث كانت لغة التعامل مع الجماهير اللبنانية هي زخات الرصاص وحصد المتظاهرين ·

- اما التظاهرة الطائفية فقد كانت تأييدا لفعلة قيادة الجيش وحثها على الاستمرار في نهجها بالاضافة الى ابراز الوجه الطائفي الصارخ لتغطية الوجه الاجتماعي للصراع ·

(١٧) - أن العديد من الظواهر والوقائع ، كانت تؤكد تداخل المعارك الوطنية والاجتماعية اللبنانية ، ، مع المعارك التي تخوضها الثورة الفلسطينية في مواجهة اسرائيل ·

وبالمقابل تؤكد بان المشروع الكتائبي هو مشروع مزدوج الاهداف · فهو ضد الثورة والحركة الوطنية اللبنانية في آن معا ·

(١٨) - الطريق عدد خاص عن الحرب اللبنانية صفحات ٣٢١ - ٣٥١

(١٩) وقبل ان تبدا هدنة الجولة الثالثة حتى تمكنت الحركة الوطنية والتقدمية من دفع الطابع اللبناني الوطني والاجتماعي الى المقدمة · وقد كانت التحركات الجماهيرية توضح معالم الصراع الجوهرية ·

- الاتحاد الوطني لنقابات العمال والمستخدمين يؤكد في بيان رسمي « ان الاقتتال الطائفي لمصلحة أعداء الطبقة العاملة ومستثمريها ·

- بعد الازمة الوزارية ، واستقالة حكومة رشيد الصلح ، اقامت الحركة الوطنية مهرجانات شعبية تحت شعارات وطنية منها « لا حكومة الا حكومة المطالب الوطنية » ·

(٢٠) في شهادة ادلى بها رئيس البعثة الطبية المصرية جاء بها « ان اعمال التعذيب اليمينية مدروسة » وكانت تحضى بموافقة القيادة الكتائبية والقيادات الانعزالية الاخرى ·

(٢١) الطريق اللبنانية · العدد الخاص في الحرب الاهلية أعداد ١ - ٨ كانون الثاني - اب ١٩٧٦ ·

(٢٢) المصدر السابق · ص ٣٢٨ ·

(٢٣) بعد تفكك اجهزة الدولة ، خاصة الجيش والدرك والادارة ، وانتصارات الحركة الوطنية الحاسمة في الجبل بدأت مسألة السلطة السياسية ومستقبل لبنان تطرح نفسها بحدة ، وفي الوقت الذي كان فيه الخط السياسي للحركة الوطنية والتقدمية بشكل عام هو في اطار التحرر الوطني ووحدة لبنان ، كانت بعض

التصريحات تشير الى ابعد من ذلك ، الى لبنان الوطني الديمقراطي • الذي يتحقق بالوسائل الثورية •

وبالطبع ليس مجال هذه المقالة مناقشة تلك الشعارات وخط اذار بشكل عام • الا ان ما يهمنا هنا هو : ان الواقع الجديد كان يشكل سببا اضافيا لارتعاب القيادة السورية من قيام نظام وطني ديمقراطي في لبنان • وهو ما صعد بالنتيجة من موقفها العدائي ضد الحركة الوطنية والثورة • ذلك لان النظام الديمقراطي يشكل خطرا ماحقا على النظام السوري وانظمة عربية اخرى • لانه يطرح من بين ما يطرحه :

١ ـ قضية الحريات الديمقراطية •

٢ ـ تحويل لبنان الى قاعدة فعلية في مواجهة اسرائيل وبوجود الجماهير المسلحة •

٣ ـ مسالة الشعب المسلح •

(٢٤) ان الشعارات التيسبقت الحصار ثم الحصار الواسع والاطباق المحكمعلى المخيم ، والهجمات الانهاكية المتواصلة ، وما رافقها من ظواهر بربرية ، بالاضافة الى الحملة الاعلامية الهستيرية التي اججت السعار الشوفيني الى اقصاه ، كل هذه الظواهر والممارسات ، كان لها هدفا سياسيا محددا وكبيرا هو :

ـ اجبار المخيم على الاستسلام رسميا والتفاوض مع قيادة الثورة على ترتيب الاستسلام والاقتلاع •

هذا الهدف السياسي اريد له ان يكون « نموذجا » للتعامل الجديد مع الثورة في ظل قوات الاحتلال •

لقد اريد للاستسلام الطوعي الرسمي ان يكون « نموذجا » زاحفا يجري تطبيقه على كل المخيمات ، وجميع المواقع واحدا بعد الاخر •

لكن الصمود والتصدي والاستبسال للمقاتلينوالجماهيرضغط النصر الانعزالي الى نصر عسكري محدود ، بينما اخفقت القيادة الانعزالية تماما في تحقيق هدفها السياسي •

وبالمقابل كان انتصارا سياسيا كبيرا وبالغ الاهمية ، لقد كان سقوطه منتصرا وكواكب الشهداء مهرا لاحباط مخططات « النموذج » •

(٢٥) في المناورات العديدة التي حاولتها القيادة السورية بدءا من اتفاق دمشق الاول مرورا باللجان الامنية والاقتراحات الاجرائية وحتى اتفاق دمشق الاخير ، كان الهدف ماثلا : مصير علاقة الثورة بالحركة الوطنية •

ولقد كانتعروض «التسوية» والاتفاقات مصحوبة دائما بلغة التهديد والابتزاز ووضع البدائل امام الثورة •• للوصول الى استفراد الحركة الوطنية اولا •

ولقد كانتعروض«التسوية» والاتفاقات تلجأ الى مناورات العروض وعقد الاتفاقيات ، بهدف الحصول على تغطية لمواجهة الازمة الداخلية والضغوطات العربية النسبية بسبب التناقضات (والتي تنصب اصلا على حجم التدخل واشكاله فحسب !) ولكنها ما أن تعقد الاتفاقيات، كاتفاق دمشق في ٢٩ تموز ١٩٧٦ ، حتى تبدأ العمل باعطاء بنودها ونصوصها تفسيرات خاصة بها تدوركلها حول مسالة ابعاد الثورة عن الحركة الوطنية وفرض الشروط الاستسلامية عليها • وحينما

تخفق المناورات امام موقف الثـــورة الحازم ، تعاود المغامــــرة العسكريـــة زحفها ·

(٢٦) وذلك بسبـــب مـــن ان القوى الانعزالية المسلحة ولدت وتطورت بفعـــل طبيعة النظام وتركيبه · وبفعل عوامـــل خارجية اخرى منها التحالف والتنسيق مع اميركا واسرائيل ·

(٢٧) هذه الدورة كانت سمة ملازمـة للسياسة الهاشمية تجاه الثورة بين ٦٨ و ٧١ تموز وبالاضافة الىذلكفان مضاعفات المغامرة العسكرية ، اللبنانية والعربيـة والدولية التي انصبت على ادانة العملية، يمكن للثورة والحركة الوطنية ان تحولها الى نصر سياسي لها وهزيمة سياسيـة ماحقة للنظام السوري ·

وفي هذا المعنى أيضا كانت تصريحات كريم بقرادوني منسق العلاقات بينالكتائب وحكام دمشق بالغ الدلالة · قال بقرادوني « ان ما يجب التنويه به ، هو ان مـــا حاول الرئيس سركيس التوصل اليـــه بالحوار (القيادة السورية اساســـا) وبموافقة جميع الاطراف (الانعزاليون طبعا) توصل اليه السوريون بالقوة ·· وهذه امثولةيجب أن يتعلمهاالفلسطينيون للمستقبل · اذ ما زال بامكانهم تعلـــم الامثولات ··· » · هكذا بالضبط يطرح بقرادوني على لسان القيادتين السورية والانعزالية ان « النموذج » لا زال صالحا لتحقيق الانسحابات وفرض شـــروط الاستسلام تحت الابتزاز والتهديدبالقوة، دونما الحاجة للقتالالذييهدد بمضاعفات غير معروفة النتائج ·

(٢٨) ان اصرار القيادة السورية وقبلها الانعزالية على ان تسلم المقاومة الجبـل دون قتال وعلى اساس الشروط السورية كان يعني بالضبط تقديم « النموذج »الذي تريده القيادة السورية لمستقبل التعامـل بين الثورة والقيادة السوريـــة · اي ان توافق الثورة على الانسحـــاب وتقـــدم « النموذج » الذي يراد له ان يزحف مـــن موقع الى اخر ومن منطقة الى ثانية تحت ضغط وابتزاز متزايدين في كل مـــرة · بمعنى ان تفقد الثورة اهم اسلحتهـــا مضاء وهو سلاح الصمـــود ورفـــض الاستسلام ·

وهكذا كما اخفق الانعزاليـــون فـي مراهنتهم على « نموذج » تل الزعتر على اساس هزيمة سياسية ، اخفقت القيـادة السورية واحبط « النموذج » · وتكرس النموذج الصحيح الوحيد والثوري وهو المواجهة والقتال ورفض شروط الاستسلام الكامل ·

(٢٩) انظر : اريك دولو : « سوريا في المستنقع اللبناني » · اللوموند ١ حزيران ١٩٧٦ · والتي جاء فيها ان الرسالـــة التي نقلها السفير الاميركي الى الحكومة السورية في ١٦ تشرين الاول يبدو انهـــا منحتها اشارة الانطلاق لحـــل الازمـــة اللبنانية في الوقت الذي باتفيه استخدام القوة امرا لازما لنجاح الوساطة ·

ـ كما ان كيسنجر اعلن مديحه للدور السوري البناء قبيل الاجتياح وبعده ،وان وضع له حدوداً غير واضحة ·

(٣٠) تصريحات براون ٢٣ اب ١٩٧٦· نشرت في « الموندي مورنغ » والصحـف اللبنانية العربية ·

(٣١) اريك دولو · في اللومونـــد · المصدر السابق ·

(٣٢) الطريق عدد خاص عن الحرب

الاهليـــة ٠

(٣٣) والجهود الهاشمية لتشجيــــع سوريا على المغامرة العسكريـــة التـي تتواصل ولم تنقطع لهادوافع واهداف عدة كما يعتقد الملك حسين ويعمل من اجله !

– ان اي اضعاف للثورة الفلسطينية بشكل خاص ، يشكل انتصارا لسياستــه ومشاريعه ضـــد الثـــورة والشعـــب الفلسطيني ٠

– ان خروج الثورة والحركة الوطنية منتصرتان ، يشكل خطرا داهما ليـــس بالنسبة لمشاريعه في الضفة الغربيـــة فحسب ، بل على نظامه فـي الضفـــة الشرقية ذاتها ٠

وهذا يعني انه معني بالوضع في لبنان اكثر من اي نظام عربي على الاطلاق ٠

(٣٤) الحرية البيروتية – عدد ٧٨٢ – تاريخ ٢ – ٨ – ١٩٧٦ ٠

الطائفية والطوائف في لبنان

البرت حوراني

هذه الدراسة هي فصل من كتاب البرت حوراني « الاقليات في العالم العربي » الذي انجز عام ١٩٤٥ ونشر عام ١٩٤٧ عن دار اكسفورد في انكلترا *

ان الدراسات التي تعالج مسالة اقليات وتركيبها الاقتصادي والديمغرافي قليلة جداء لذلك يعتبر كتاب الاستاذ حوراني مرجعا اساسيا في عملية سد هذه الثغرة في الدراسات العربية المعاصرة ·

وعلى الرغم من كون المعلومات التي يتضمنها هذا الفصل حول تكوين ومشاكل الاقايات الطائفية في لبنان قديمة ، الا انها تكشف عبر تحليل دقيق جزءا من تاريخ اسالة الطائفية في لبنان · وتسمح بالتالي للدراسات الجديدة بالانطلاق من خلفية تاريخية ·

ان التطور الكبير ، على المستويين الاقتصادي والديمغرافي الذي حصل على تركيب الطوائف في لبنان خلال ثلاثين سنة ، يغير كثيرا من الصورة التي يرسمها هذا الفصل · غير انه يعطيها في الوقت نفسه قيمة خاصة باعتبارها وصفا تحليليا لمسالة اساسية في تركيب المشرق العربي ، تلعب دورا هاما في التطور السياسي في لبنان ·

« شؤون فلسطينية »

توزع الاقليات

يبين الجدول التالي توزع سكان لبنان تبعا للطوائف الدينية والاقضية كما كان في الحادي والثلاثين من كانون الاول (ديسمبر) ، عام ١٩٤٤ :

---

* سوف يصدر هذا الكتاب قريبا بترجمة عربية لمحمود حداد ·

الجـــدول

الطائفـــة	محافظة بيروت	محافظـة جبل لبنان	محافظة لبنان الشمالي	محافظة لبنان الجنوبي	محافظـة البقاع	المجمـوع
السنـة	٥٩ر٥٩٣	٢٠ر٣٦٩	١٠٢ر٤٦٢	٢٣ر٤١٨	٢٩ر٧٥٣	٢٣٥ر٥٩٥
الشيعـــة	١٠ر٩٧٩	١٨ر٩٤٨	١ر٠١٧	١٢٦ر٧٠١	٥١ر٦٩٣	٢٠٩ر٣٣٨
الـدروز	١ر٩٢٦	٥٩ر٣٠٣	٣٤	٦ر١٦٧	٦ر٨٨١	٧٤ر٣١١
الموارنـة	١٥ر٤٠٤	١٧٦ر٢٤٨	٨٦ر٤٧٦	٢٧ر٩٩٢	٢١ر٧٢٦	٣٢٧ر٨٤٦
الروم الكاثوليك	٥ر٨٤٠	١٥ر٤٧٠	١ر٨٤١	١٧ر١١٨	٢٤ر٠١١	٦٤ر٢٨٠
الروم الارثوذكس	٢٠ر٠٧٥	٢٢ر٣٧٣	٤٧ر٥٢٢	٦ر٩١١	١٣ر٠٠٢	١٠٩ر٨٨٣
البروتستانت	٣ر٧٦٠	٣ر٠٢٥	٧٥٠	١ر٧٩٥	١ر١١٠	١٠ر٤٤٠
اللاتين	٢ر١٩١	٥٤٠	٦٣	١٧٩	١٤٤	٣ر١١٧
الارمن الارثوذكس	٣٦ر٢٦٤	١٥ر٣٧٩	١ر٠٢٥	١ر٦٩٥	٥ر٣٨٦	٥٩ر٧٤٩
الارمن الكاثوليك	٥ر٣١٠	٣ر٠٩١	١٩٤	٢٧٣	١ر١٢٨	١٠ر٠٤٨
السريان الكاثوليك	٤ر٠٨٩	٢٧٥	١٦٩	٩	٤٤٢	٤ر٩٨٤
السريان الارثوذكس	٢ر٠٧٠	٢٠٩	١٠٠	٢٢	١ر٣٥٢	٣ر٧٥٣
اليهـــود	٥ر٠٢٢	٦٥	٣١	٥٠٦	٤٢	٥ر٦٦٦
الكلدان	٩٧٤	١٢٠	١	١٠	٢٢٥	١ر٣٣٠
طوائف مختلفة	٤٥٢	٢٥٩	٥ر٢٧٩	٥٢	١١٩	٦ر٢٦١
المجمـوع	١٧٤ر٠٠١	٣٣٥ر٧٧٤	٢٤٦ر٩٦٤	٢١٢ر٨٤٨	١٥٧ر٠١٤	١ر١٢٦ر٦٠١

من هنا فان ٥٢ بالمئة من سكان لبنان هم مسيحيون ، و ٤٦ بالمئة مسلمون · واكبر طائفة منفردة هي الطائفة المارونية التي تؤلف ٢٩ بالمئة من السكان ·

الضمانات المكتوبة :

يحتوي الدستور اللبناني ، المعلن عام ١٩٢٦ ، على ضمانات كاملة لحقوق الافراد والطوائف · فالمادة التاسعة تعلن :

« حرية الاعتقاد مطلقة ، والدولة ، بتاديتها فروض الاجلال لله تعالى ، تحترم جميع الاديان والمذاهب وتكفل حرية اقامة الشعائر الدينية تحت حمايتها ، على ان لا يكون في ذلك اخلال بالنظام العام · وهي تضمن ايضا للاهلين ، على اختلاف مللهم ، احترام الاحوال الشخصية والمصالح الدينية · »

كذلك ، نصت المادة العاشرة على ان التعليم حر ، شرط الا يتعارض مع النظام أو الاخلاق العامة او يمس كرامة الطوائف الدينية · ولن يسمح بالمساس بحق الطوائف في ان تكون لها مدارسها ، في ظل الانظمة العامة الخاصة بالتعليم العام التي تصدرها الدولة ·

الاحوال الشخصية والتنظيم الطائفي :

قبل حرب ١٩١٤ ـ ١٩١٨ كانت بعض شؤون الاحوال الشخصية تقع تحت السلطة القضائية للمحاكم الدينية التابعة للملل المختلفة ، في حين أن جميع الشؤون الاخرى كانت ضمن اختصاص المحاكم الشرعية ، الاعلى مستوى من المحاكم الطائفية · وعام ١٩١٧، في ذروة الحرب ، حرم « قانون الاسرة العثماني » المحاكم المسيحية واليهودية من سلطاتها القضائية ، التي منحت للمحاكم الشرعية · غير انه لم يعمل بهذا القانون أبدا والغي عام ١٩٢١ · وبعد ذلك بوقت قصير وضعت المحاكم الشرعية الاسلامية على مستوى واحد مع محاكم الطوائف الاخرى عن طريق نقل جميع شؤون الاحوال الشخصية باستثناء الزواج والطلاق والانفصال والغاء الزواج ونفقة الزوجة المطلقة ، الى المحاكم المدنية · غير أن هذاالاجراء وجد معارضة من جميع الجهات ، وعلق المرسوم الذي يحتوي عليه بانتظار القيام بدراسة أوسع لموضوع الاحوال الشخصية برمته ·

وبعد عدة محاولات فاشلة لاصلاح نظام السلطات القضائية باكمله ، اصدر المندوب السامي ، في نيسان (ابريل) عام ١٩٣٦ ، مرسوما شاملا يحدد وضع الطوائف الدينية · وقد منح هذا المرسوم اعترافا قانونيا واضحا بالطوائف التاريخية ، واعتبرت تشريعات هذه الطوائف نافذة المفعول ،ووضع تطبيقها تحت حماية القانون ومراقبة السلطات العامة· كما كانت ستتمتع بصفة مشتركة ، وتتمثل في علاقاتها مع السلطات العامة برؤسائها الروحيين · وكان اعضاء الطوائف مجبرين على الامتثال لقوانينها في امور الاحوال الشخصية ، وللقانون المدني حيث لا يكون هناك نص في قوانين الطوائف · بيد انه كان لكل من يبلغ سن الرشد حرية التخلي عن طائفته والانضمام الى طائفة اخرى · ونص المرسوم كذلك على الاعتراف بالحق المشترك للطوائف ،

اضافة الى امتلاكها للسلطة القضائية على الاحوال الشخصية · وكانت هذه الطوائف تتمتع بحقوق معينة ، كحق التملك ، الا ان افرادها كانوا يخضعون للقانون المدني في شؤون الاحوال الشخصية ، وكان هذا الامر الاخير سيطبق ايضا على الافراد الذين لا ينتمون الى اية طائفة دينية ·

وقد عارضت السلطات الدينية هذا المرسوم ايضاً · وفي كانون الاول (ديسمبر) عام ١٩٣٨ صدر مرسوم اخر ، يعدله في نقاط معينة ، مثال ذلك ان المرسوم الجديد اوضح ان على الاولاد القاصرين اتباع مذهب والدهم في حالات الطلاق ، حتى بعد موت الاب ، وحتى لو كانت الام وصية على الاولاد بعد الانفصال او الطلاق ·

وكما كان الامر بالنسبة لمرسوم عام ١٩٣٦ ، جوبه مرسوم عام ١٩٣٨ ،بمعارضة من جميع الجهات ، ولم ينفذ تنفيذا كاملا ، ولا يزال وضع المحاكم الدينية غير محدد وغير مرض حتى الان ·

البنية الاجتماعية للطوائف

ثمة فرق كبير بين البنى الاجتماعية للطوائف المختلفة · فالموارنة مجتمع زراعي بصورة رئيسية : لقد تجزأت الكثير من الملكيات الكبيرة خلال القرن التاسع عشر وانبثقت طبقة من الملاك الزراعيين · اما مستوى الحياة بينهم فهو ، بوجه الاجمال ، على منه بين معظم الطوائف الاخرى ، نظرا الى خصوبة اراضيهم والهجرة الى العالم الجديد · وبالاضافة الى المزارعين ، هناك بورجوازية كبيرة ومزدهرة في بيروت · الا ان القوة التي تبقي الطائفة متماسكة هي الكنيسة ، التي يلاحظ ان كهنتها ، ككهنة جميع الكنائس المعترفة بسلطات بابا روما ، هم اعلى ثقافة من كهنة الكنائس الشرقية المستقلة : للبطريرك سلطة اجتماعية هائلة الا انها تواجه معارضة من عائلات كبار ملاك الاراضي ذات التقاليد الاقطاعية ·

اما المسلمون السنة فيشكلون ، بصورة كاملة تقريبا ، مجتمعا مدنيا مركزا في طرابلس وبيروت وصيدا ، وهم يؤلفون جزءا كبيرا من بروليتاريا تلك المدن ، الا ان هناك أيضا بورجوازية تجارية ومهنية سنية وبعض العائلات المالكة لاراض كبيرة · ولا يتمتع السنة بأي نوع من التضامن الذي يمكن مقارنته بالتضامن الديني والزمني للموارنة · ربما لانه لم يكن لديهم تنظيم ملي في أيام العثمانيين ·

اما الشيعة فهم ، بصورة رئيسية ، فلاحون في الاقضية الجنوبية وفي البقاع ، علما بانهم يوجدون كذلك في صيدا وصور وفي الشرائح الدنيا من الطبقة العاملة في بيروت · وهم اكثر الطوائف تخلفا من الناحية الاقتصادية ، وفي الغالب عبيد ارض في ملكيات اسياد شبه اقطاعيين · ومعظم اسيادهم في البقاع سنيون ومسيحيون ، اما في الجنوب فمعظمهم من الشيعة الذين كانوا يتمتعون في الماضي باستقلال ذاتي عمليا · وهذا يعطي الطائفة درجة كبيرة من التماسك بنوع خاص ·

ويشكل الدروز ايضا مجتمعاً زراعيا بصورة رئيسية ، فهم مزارعون حذرون ، ومزدهرون نسبيا ، وامتن الطوائف الدينية تنظيما من الناحية الاجتماعية · فلديهم تنظيم مزدوج : التنظيم الديني بتسلسله الهرمي ، والتنظيم الاقطاعي بتسلسل مراتبه · على ان النزاعات الفئوية اضعفت هذا التنظيم منذ عهد بعيد ، وما المنافسة السياسية بين عائلتي جنبلاط وارسلان الكبيرتين الا المرحلة الاخيرة من هذه النزاعات · ويتعرض نظام الاراضي الذي يرتكز عليه هذا التنظيم للتفكك تدريجيا ·

اما طائفتا الروم الارثوذكس والروم الكاثوليك فهما مجتمعان زراعيان جزئيا ، من حيث انهما تضمان نسبة كبيرة من صغار ملاك الاراضي ، ومن حيث انهما مزدهرتان عن طريق الهجرة ، كما انهما بوجه عام اقل من الطوائف الاخرى خضوعا لسيطرة كبار ملاك الاراضي· كما تؤلفان جزءا كبيرا من الطبقة التجارية في بيروت والمدن الاخرى ، وتضمان في الواقع بعض الاسر التجارية والمالكة للاراضي ·

الارمن ·

هنالك طائفة اخرى تختلف عن جميع الطوائف السالف ذكرها من حيث انها لا تنطق العربية لانها قدمت الى لبنان اخيرا : انها الطائفة الارمنية ·

هناك نحو ٧٠ الف ارمني في لبنان استقر معظمهم حديثا في البلاد · وقد استوطنت قلة منهم في بيروت قبل حرب ١٩١٤ ــ ١٩١٨ ، لكن معظمهم دخل لبنان في موجات متعاقبة خلال الحرب وبعدها ، هربا من الاضطهاد ، او من توقع الاضطهاد ، كما حصل عام ١٩٣٩ بعد استيلاء تركيا على الاسكندرون · وقد وصل معظمهم في حالة معدمة واستقروا في اكواخ في ضواحي بيروت · الا انه طرأ تحسن كبير على وضعهم الاقتصادي والحياتي في العقدين الماضيين بفضل جهودهم الخاصة وجهود « مكتب نانسن » * · وهم بصورة رئيسية حرفيون وتجار صغار وموظفون وجميعهم تقريبا يسكنون المدن ·

ومن الناحية الاجتماعية يبقى الارمن مجتمعا شبه منعزل يتجمع حول كنائسه · وهم يحافظون الى حد كبير على عاداتهم الاجتماعية الخاصة وعلى حسهم العائلي القوي وتضامنهم القومي · كما انهم يتمسكون بلغتهم ويديرون مدارسهم الخاصة بالاضافة الى منظماتهم الخيرية وصحفهم وحياتهم الثقافية الخاصة ·

ولم يكن لدى الارمن على الدوام علاقات حسنة مع العرب ،حتى مع العرب المسيحيين· ويتذمر القوميون العرب من ان وجود الارمن تسبب في مشكلة اقليات اضافية ، وهي مشكلة صعبة الحل بنوع خاص · وينظر المسلمون اللبنانيون اليهم على انهم احد عوامل السيطرة المسيحية ، فلولا هجرتهم الى لبنان لصار المسلمون اكثرية فيه · وهم مكروهون ايضا لكونهم دخلوا البلاد معدمين بينما هم الان في وضع مزدهر · كما انهم عرضة للانتقاد بنوع خاص لكونهم يتركزون في عدد صغير نسبيا من المدن · لكن مستواهم الاخلاقي والثقافي العالي واجتهادهم ومثابرتهم تجعل منهم عنصرا خيرا في المجتمع ، الامر الذي

---

* مكتب انشىء لاغاثة الارمن في تلك الفترة ·

سيزيل التحيز الموجه ضدهم بمرور الوقت ·

الفوارق التربوية

ثمة فوارق تربوية لا يستهان بها بين الطوائف ، وهي تتبع بوجه عام من كـــون التعليم ، بصورة رئيسية ، في ايدي المؤسسات الخاصة التابعة للطوائف في معظمها او التابعة للجمعيات التبشيرية الاجنبية · وينطبق هذا الوضع بنوع خاص على التعليـــم الثانوي والعالي · ولا توجد لدى الحكومة اية مؤسسات للتعليم العالي ، باستثناء دارين للمعلمين ومدرسة مهنية واحدة · وعدا عن هذه المعاهد ، فان جميع المدارس الثانويـــة والجامعتين (الجامعة الاميركية وجامعة القديس يوسف اليسوعية) هي في ايدي هيئـات خاصة ، دينية بصورة غالبة · ولم يكن هناك عام ١٩٢٨ غير ١٧٧ مدرسة حكومية مـــن اصل ١٨٦٧ مدرسة ابتدائية ، علما بان ١١٨٠ مدرسة منها كانت تقع تحت سيطرة هيئات محلية و ٥١٠ منها تحت سيطرة مؤسسات اجنبية · كما كانت هنالك ٣ مدارس ثانويـــة حكومية فقط ، من اصل ١٢٢ مدرسة ، ٤٤ منها محلية و ٧٥ اجنبية ·

ويسيطر الموارنة والروم الارثوذكس والروم الكاثوليك على اكبر عدد من المدارس الخاصة المحلية ، فيحين ان الارساليات الكاثوليكية الفرنسية تملك اكثرية المدارس الاجنبية · وهكذا فان التعليم اللبناني هو بصورة غالبة مسيحي واكليركي في روحه ومن حيث السيطرة ، وكاثوليكي بنوع اخص ·

أما نسبة الاطفال المسيحيين الذين يدرسون في مدارسدينية مقابل اولئك الملتحقين بمدارس حكومية فهي اكبر بكثير من النسبة المقابلة لها بين المسلمين · كما ان عـــدد الطلبة المسيحيين اكبر بكثير من مجموع عدد الطلبة المسلمين · وبخاصة في التعليـــم الثانوي والعالي ·

يمكن التوصل الى عدة استنتاجات من هذه الحقائق ، اولا ، ان التعليم لا يساهم ابدا في تخفيف الفوارق الطائفية بل على العكس من ذلك ، اذ انه يقع في الغالب تحت السيطرة الطائفية · ثانيا ،ان الطوائف المسيحية هي بوجهعام اعلى ثقافة من الطوائف الاسلامية، الامر الذي يؤدي الى فوارق واضحة في البنى الاجتماعية والاقتصادية · ثالثـــا ، ان المسيحيين بوجه عام يتلقون نوعا من التربية يختلف عن النوع الذي يتلقاه المسلمـــون : ينطبق هذا بنوع خاص على الموارنة وغيرهم من مسيحيي الطوائف الشرقية الخاضعـة لسلطة البابا الذين قطعوا شوطا بعيدا نحو تبني المدنية واللغة الفرنسية ·

المسيحيون والمسلمون ·

فيماعدا الفوارق بين الطوائف المختلفة ، هناك انقسام عام بين المسلمين والمسيحيين لا يشبه تماما الانقسام القائم في البلدان المجاورة · فلبنان هو البلد الوحيد الناطق بالعربية الذي افلح المسيحيون فيه بالمحافظة على حياة مسيحية مستقلة ، فردية واجتماعيـــة ، وبمقاومة الاتجاه نحو الاندماج الاخلاقي والاجتماعي · وينطبق هذا بنوع خاص علـــى الموارنة ، الذين حافظوا بلا انقطاع على ارتباط بالعالم المسيحي الغربي ، بفضل مركزهم

على ساحل البحر الابيض المتوسط ، وصلتهم التقليدية بالحكومة الفرنسية ونشاط البعثات الكاثوليكية بينهم ·

كذلك فان وضع المسلمين غير عادي ايضا · فالدروز والشيعة معا يفوقون السنـــة عددا ، ولذا فان الاخيرين ابعد ما يكونون عن تاليف اكثرية او عن التمكن من بناء كتلة اسلامية متينة لكونهم مع هذا يحافظون ، بدرجة معينة ، على عقلية الطائفة الحاكمة · وكما ذكرنا سالفا فان المدن الساحلية التي يقطنها معظم ابناء الطائفة السنية لم تكنتشكل جزءا من لبنان قبل الاحتلال الفرنسي ، بل كانت جزءا من ولاية بيروت العثمانية · وبضمهم الى لبنان وجد ابناء هذه الطائفة انفسهم وقد تحولوا فجأة من جماعة حاكمة الى طائفة بين طوائف عديدة في دولة ذات مناخ مسيحي الى حـد كبير · وقد كـــان هذا تغييرا صعـب عليهم القبول بـــه ·

لبنان الكبير والصغير

ثمة فارق بارز اخر وهو بين سنجق لبنان القديم والاقضية التي كانت سابقا جزءا من ولايتي بيروت ودمشق والتي اضافها اليه الفرنسيون لتكوين الجمهورية اللبنانية ،فسكان السنجق القديم هم بصورة رئيسية موارنة ودروز وروم كاثوليك ، في حين يتالف سكان الاقضية من روم ارثوذكس وروم كاثوليك في جميع الاجزاء ، وارمن في بيروت وسنـــة في المدن الساحلية وشيعة في الجنوب والبقاع · ولدى الاولين تقليد سياسي من الحكـــم الذاتي ، وتقليد اجتماعي من الاقطاعية وتقليد ديني من التسامح يربطهم معا، وقد كـــان من القوة الى درجة كافية جعلت السنجق المتمتع بالحكم الذاتي يعمل بنجاح · اما الاخيرون فلا يؤلفون جزءا من التقليد اللبناني ولا يملكون اي تقليد مشترك خاص بهم · وبالاضافة الى ذلك فان طائفة واحدة على الاقل ، وهي الطائفة السنية ، وعناصر مهمة في معظـــم الطوائف الاخرى ، لم تكن ترغب بالانضمام الى لبنان الكبير قط · ولا يزال التوتر مستمرا بين الطوائف التي تؤلف جزءا من لبنان الحقيقي والطوائف الاخرى ·

السياسة الفرنسية

لا يمكن لدولة على مثل هذا الانقسام العميق في التركيب وفي الافكار ، كالجمهورية اللبنانية المفتقرة ايضا الى اية روح وطنية موحدة ، ان تستمر في الوجود ، في شكلهــا الراهن على الاقل ، الا اذا كانت هناك قوة خارجية ما تسيطر عليها سيطرة وثيقة وتتدخل باستمرار في شؤونها · وقد كانت الدولة المنتدبةهي التي توفر هذه السيطرة الخارجيــة حتى عام ١٩٤٣ · وكانت سياستها موجهة نحو جعل لبنان حصنـــا من حصـــون النفـــوذ الفرنسي· وأدى هذا الهدف الى خلق لبنان مستقل وتوسيع حدوده · كما انه اوحى بمحاولات المحافظة على اكثرية مسيحية رغم توسيع الحدود والتزايد الاكثر سرعة بين السكان المسلمين: كان هذا احد اسباب توطين اللاجئين الارمن حول بيروت · كما بذلت كل الجهود الممكنة لربط المسيحيين بفرنسا ربطا اوثق : عن طريق النشر السريع والمنظم للثقافة الفرنسية ، ومحاباة المسيحيين في الشؤون السياسية والادارية ، واثارة مخاوفهم من الاضطهاد الاسلامي · وجرت محاولة مماثلة لاستمالة المسلمين من غير السنة ولكن الى حد اقل ، بل حتى جرت محاولة « لفرنسة » السنة بواسطة التعليم ·

من بين المسيحيين ، جرى تفضيل المسيحيين الخاضعين لسلطة البابا ، وبنوع اخص الموارنة ، الذين اعتبروا انفسهم واعتبرهم الاخرون عامة العنصر المسيطر في حياة الجمهورية · لكن جهودا اخرى بذلت ، في الوقت نفسه ، لابقاء الطوائف الاخرى مفعمة بالامل وقانعة لمنعها من محاولة تفكيك الجمهورية · وقد تم تحقيق ذلك من خلال التوزيع الدقيق للمناصب الكبيرة والصغيرة بين اعضاء الطوائف المختلفة ، ومن خلال تشجيع الشعور اللبناني الذاتي ·

الطائفية في السياسة ·

لم يكن من الممكن خلق اي شعور حقيقي بالتضامن في بلد منقسم على ذاته انقساما جوهريا ومن وجوه كثيرة مختلفة كما هي الحال في لبنان · فمنذ ولادتها وحتى عام ١٩٤٣ على الاقل لم يكن هنالك ما يبقي على تماسك الجمهورية اللبنانية سوى سيطرة فرنسا وتدخلها المتواصل · وضمن الاطار الذي وفرته تلك السيطرة ، حافظ الشعور الطائفي على قوته بل وزادها ·

نص دستور الجمهورية اللبنانية ،المعلن عام ١٩٢٦ ، على تنظيم سياسي يجب ان يأخذ في الاعتبار الانقسامات الطائفية في البلاد وقام بوضع مبدأين أثنين · كان الاول ان جميع المواطنين اللبنانيين متساوون امام القانون ،ولهم نفس الحقوق والواجبات ، ويسمح لهم على السواء بتولي جميع المناصب العامة ، دون أي تمييز (المادتان ٧ و١٢) · وكان الثاني ان الطوائف يجب ان تمثل تمثيلا منصفا في المناصب العامة وفي الحكومة ،بصورة مؤقتة على الاقل ، وشرط الا يضر ذلك في مصلحة الدولة (المادة ٩٥) ·

وتبين جميع اجزاء التنظيم السياسي للدولة تأثير هذين المبدأين · وهكذا فقد كان رئيس الجمهورية دائما مسيحيا · ولموارنة ذلك كان رئيس الوزراء عادة مسلما سنيا بينما كانت الوزارات الاخرى توزع بين الطوائف ·وكان مجلس النواب ، خلال الفترات التي كان يقوم فيها بوظيفته ، يتألف بشكل يمثل الطوائف بما يتناسب مع القوة العددية لكل منها على وجه التقريب · وحيث ان النواب كانوا ينتخبون من قبل ابناء طوائفهم ، فقد كان يتم تنظيم هؤلاء على اساس طائفي وجغرافي ايضا ·

اما فيما يتعلق بمسألتي التعيينات والترقيات في الوظائف العامة ، فان التمثيل العادل للطوائف هو اعتبار اهم من الجدارة والكفاءة ، لا في اذهان الذين يقومون بالتعيينات فحسب بل ايضا في اذهان الراي العام ، وبنوع اخص في اذهان زعماء الطوائف المختلفة الذين يراقبون عن كثب للتثبت من عدم الاخلال بالتوازن ·

وتحاول الاحزاب السياسية في لبنان ، شأنها شان مؤسساته السياسية الاخرى ، ان تكون غير طائفية ، شكليا على الاقل ، وهي تقوم عادة باختيار مسؤوليها ولجانها ومرشحيها الانتخابيين من بين عدد من الطوائف · وتحتوي برامجها عادة على اشارة معينة الى الحاجة الى مثال للوحدة الوطنية ليحل محل مشاعر الغيرة الطائفية القائمة · وتكون

هذه الاشارة صادقة احيانا بينما لا تكون كذلك في احيان اخرى ٠ والحقيقة ان الاحزاب التي تؤكد على استقلال لبنان تكون في اغلب الاحيان مارونية الروح والعضوية ٠
اما احزاب الوحدة العربية فهي بالطريقة ذاتها (ولكن الى حد اقل) مسلمة ٠

المفاهيم السياسية

من المحتم ان تنشأ في مثل هذه الظروف مفاهيم مختلفة جداً لماهية لبنان ولما يجب ان يكون : الى درجة محدودة يتفق تباين الافكار مع تباين المذاهب الدينية ٠ ومن الممكن على وجه التقريب التمييز بين خمس نظرات رئيسية الى لبنان :

(١) هناك بعض من ينظر الى لبنان كجزء لا يتجزأ من آسيا العربية ، لا يميزه أي اختلاف اجتماعي أو سياسي جوهري عن الاجزاء الاخرى ، وليست له اية رسالة او غاية خاصة ٠ وهؤلاء يريدون ان يندمج لبنان اندماجا كليا في دولة سورية او عربية ، دون ان يتمتع باستقلال ذاتي على ان يكون له ترتيبات خاصة فيما يتعلق بموضوعي الاحوال الشخصية والتعليم الديني للاقليات ، كتلك الموجودة في مناطق عربية اخرى ٠

(٢) يعترف اخرون بان تاريخ لبنان الماضي منحه شخصية خاصة به وخلق فجوة بينه وبين المناطق العربية الاخرى ٠ الا ان هؤلاء يفكرون ان تكون شخصية لبنان المميزة تفرض عليه واجبات او رسالة خاصة ٠ وهم ينظرون الى صفاته الخاصة على انها ليست اكثر من عادات قديمة بالية ستختفي آجلا ام عاجلا ٠ واصحاب هذه النظرة مستعدون للتسليم بدرجة معينة من الحكم الذاتي اللبناني او حتى بالاستقلال الكامل ، ولكن كتدبير مؤقت ليس الا بغية تبديد مخاوف الاقليات واقناعها تدريجيا بقبول الاتحاد الكامل مع دولة سورية او عربيـــة ٠

(٣) تنظر فئة ثالثة الى لبنان بالدرجة الاولى كملاذ تستطيع فيه الاقليات المضطهدة العيش بسلام ٠ ولذلك تريده ان يكون منفصلا انفصالا تاما عن منطقة الداخل العربي ،ولا يهمها شكل الحكم القائم طالما هو قوي بدرجة كافية للقيام بحمايتها ٠

(٤) ثمة فكرة اخرى وهي ان لبنان بلد مسيحي متوسطي (نسبة الى البحر الابيض المتوسط):وليس الطرف الغربي للعالم الاسلامي العربي بل الطرف الشرقي للعالم المسيحي الغربي ٠ فهو ليس جزءا من العالم العربي بأي معنى جوهري ، بل ان شعبه يؤلف امـــة مستقلة ٠ ولذا يجب ان يكون لبنان دولة مستقلة تدير وجهها نحو اوروبا ٠

(٥) هناك اخرون يحاولون ان يستخلصوا ويجمعوا عنصر الحقيقة في جميع هذه الاراء ٠ فهم يعترفون بان لبنان بلد عربي الشخصية والمصير لكنهم يعتقدون ان تقاليده الخاصة تمنحه مصيرا خاصا في العالم العربي : كمركز للحياة المسيحية العربية وكبوابة للغرب ، وكمكان يستطيع اتباع الديانات المختلفة ان يجتمعوا فيه على قدم المساواة التامة ٠

ويمكن القول بوجه عام وبتحفظات كثيرة ان الفكرة الاولى يتبناها بصورة رئيسية المسلمون السنة ، وان الفكرة الثانية يتبناها القوميون العرب المسلمون واولئك المسيحيون

الذين يؤمنون بان القومية العلمانية ممكنة ومرغوب بها ، ويتبنى الفكرة الثالثة اعضاء جميع الاقليات ، وخاصة الجيل الاكبر سنا ، ويتبنى الفكرة الرابعة بصورة رئيسية الموارنة وغيرهم من المسيحيين الخاضعين لسلطة البابا ، بينما يتبنى الفكرة الخامسة المسيحيون الذين يريدون ان يبقوا مسيحيين تماما مع كونهم قوميين عرب تماما كذلك ·

هذه الاختلافات في المفاهيم تنطوي على وجهات نظر مختلفة حول قضايا مختلفة :

(١) مسألة حدود لبنان · بوجه عام كان الذين ينظرون الى لبنان ككيان منفصل يرغبون في المحافظة على حدود عام ١٩٢٠ ،اذ بخلاف ذلك سيكون من الاصعب الدفاع عنه، كما سيكون اقل قدرة من الناحية الاقتصادية مما هو عليه في الوقت الحاضر · وعلى العكس من ذلك فان الذين يتبنون النظريتين الاولى والثانية كانوا يرغبون في العودة الى حدود السنجق القديم ، مع احتمال اضافة بيروت ·

(٢) ان الكثيرين ممن ينظرون الى لبنان كبلد مستقل او كملاذ ، يرغبون في ان يكون تحت حماية دولة غربية تهتم به اكثر من مجرد اهتمام سياسي · وفي تقدير معظم هؤلاء ان تلك الدولة الغربية يجب ان تكون فرنسا ، غير ان اخرين يفضلون بريطانيا العظمى او الولايات المتحدة ، الا ان الذين ينظرون الى لبنان كجزء من العالم العربي ، باي معنى من المعاني ، يعتبرون مثل هذه الحماية بالغة الخطر بالنسبة الى كل من لبنان والعالم العربي بحيث يجب عدم السماح بها ·

(٣) ان الكثيرين جدا ممن يعتبرون لبنان بلدا منفصلا يعترفون مع ذلك بانه لا بد له من ان يكون على ارتباط وثيق مع سوريا وغيرها من البلدان الناطقة بالعربية · بيد انهم يؤكدون على ان هذا الارتباط يجب ان يكون قائما على المساواة الرسمية · وعلى البلدان الاخرى ان تعترف بالوجود المستقل للبنان ، ومن ثم سيكون المجال مفتوحا لعلاقات اوثق، خصوصا في الحقل الاقتصادي · ومقابل ذلك فان اولئك الذين يتبنون ايا من النظرة الاولى او الثانية يتطلعون الى وقت يصبح فيه لبنان اقليما ، او اقليما متمتعا بالحكم الذاتي على الاكثر ، في دولة سورية او عربية · الا ان اتباع النظرة الخامسة يأملون في ان يروا لبنان دولة ، عضوا في اتحاد فيدرالي سوري او عربي ، يتمتع بنفس المنزلة وحرية التصرف التي تتمتع بها الدول الاخرى الاعضاء ·

التطورات منذ ١٩٤١

منذعام ١٩٢٦ عندما تأسست الجمهورية اللبنانية وبدأ جهازها السياسي بالعمل وحتى عام ١٩٤١ ، لم يطرأ اي تغير جوهري في بنية لبنان· صحيح انه جرى التفاوض عام١٩٣٦ على عقد معاهدة فرنسية – لبنانية تنص على استقلال لبنان التام بعد عدد من السنين ، الا ان هذه المعاهدة لم تبرم ·

وفي عام ١٩٤١ ، بعد احتلال قوات الحلفاء لدول المشرق بوقت قصير اعلن الجنرال كاترو استقلال لبنان في وثيقة اعلنت ، ان حكومة لبنان ستضمن المساواة في الحقوق المدنية والدينية والسياسية بين جميع مواطنيها دون اي تمييز ·

وفي عام ١٩٤٣اتخذت الخطوات الاولى لتنفيذ سياسة الاستقلال منخلال اجراءانتخابات لمجلس النواب ٠

واظهر تكوين مجلس النواب والوزارة التي انبثقت عنه ان تغييراً كبيراً قد طرأ على افكار ومواقف الطوائف المختلفة خلال الاعوام القليلة السابقة ٠

(١) ان القسم الاعظم من اللبنانيين الذين يملكون وعيا سياسيا يرغبون في استمرار الاستقلال الذاتي ولم يعودوا مستعدين للسماح بنفس الدرجة الكبيرة من التدخل الاجنبي في شؤونهم الداخلية كما كان يجري في ظل الانتداب الفرنسي ٠

(٢) ثمة عدد متزايد ممن يرغبون في انهاء الارتباط مع فرنسا كليا ٠ وتتالف هـذه الجماعة من قسمين : اولا ، اولئك الذين ما زالوا يرغبون بوجود حماية اجنبية ولكنهـم يعتقدون ان فرنسا لم تعدقادرة على توفيرها ولذلك يتطلعون الىبريطانيا العظمى للحلول مكانها ٠ ثانيا ، اولئك الذين يرفضون فكرة الحماية باكملها ويعتقدون ان الضمانـة الوحيدة للمركز الخاص الذي يتمتع به لبنان تكمن في ارتياح البلدان المجاورة اليه ٠

(٣) ان الكثيرين من القوميين العرب الذين كانوا سابقا يرغبون في تصغير لبنان الى حدوده القديمة او حتى الغاء استقلاله الذاتي الغاء تاما تقريباً ، باتوا يرغبون الانفي المحافظة على لبنان الكبير كتدبير ملائم مؤقت على الاقل : فلبنان الكبير بعدد سكانه الكبير والمتزايد من المسلمين هو اقل حماسا للانفصال مما كان سيكون عليه لبنـان الصغيـر باكثريته المأرونية ، هو بالاضافة الى ذلك يوفر احتمال تطور قومية عربية غير طائفية ٠ وللاسباب نفسها يرغب الكثيرون من القوميين اللبنانيين الان في العودة الى لبنان الصغير ذي الاكثرية المسيحية الكبيرة ٠

لقد كانت الازمة الفرنسية ـاللبنانية في تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٤٣تشملجميعهذه المشكلات ٠ ونتيجة لتلك الازمة حقق لبنان درجة اكبر من الحكم الذاتي ٠ واتخذت خطوة اخرى عام ١٩٤٤ عندما شارك ممثلون عن الحكومة اللبنانية في مؤتمر الاسكندرية الذي وضع اسس جامعة الدول العربية ٠ وقد احتوى البروتوكول الذي صدر في نهاية المؤتمر في تشرين الاول (اكتوبر) على ملحق خاص يضمن استقلال لبنان ضمن حدوده الحاضرة شرط ان تستمر الحكومة اللبنانية في انتهاج سياسة الاستقلال التي تبنتها عام ١٩٤٣ ٠ وفي عام ١٩٤٥ـ١٩٤٦ تم التوصل نهائيا الى اتفاق حول انسحاب القوات الفرنسية والبريطانية من لبنان الذى اصبح استقلاله بذلك ناجزا ٠ ولكن تبقى مع ذلك المشكلات الاعمق المتعلقة ببنية لبنان وعلاقته بالعالم الخارجي ٠

الثقافة والبوليس

الياس خوري

١ ــ

الحرب الاهلية الوطنية التي اشعلت لبنان وحولته الى بركان العرب الذي ينذر بالولادات ، كانت اعصارا كشف الجوهري وترك الاقنعة مرمية على مفترق المتوسط ٠

الحرب الاهلية تختصر الزمن في قدرتها على الكثافة الفعلية ٠ فالزمن القديم يتحول الى زمن التغيير ، أي ان التاريخ يسرع دورته ويكشف اطراف لعبته على ايقاع التحولات العنيفة التي حولت الحجارة الى متاريس والمدن الى غابات ٠ رفعت الحرب القناع عن الذين كانت اقنعتهم مطوية بعناية الى درجة الرهان على عدم كشف الوجوه ٠ دمرت عروس المتوسط وفتحت الزمن العربي على الاحتمالات ٠ زمن الحرب يتسع من رقعة صغيرة في ضاحية بيروت الجنوبية اسمها الشياح ــ عين الرمانة ليصل الى دمشق مع دبابات الاجتياح العسكري ، الى الكويت حيث يرتجفون رعبا امام احتمالات اليد الجماهيرية ، الى القارة العربية بأسرها حيث اختلطت الاوراق « ولدت تحالفات وانهارت تحالفات والفوضى تزدحم امام العواصم » ٠

نقف في بيروت التي نعرفها ، ونرى فندق المتوسط يتحول الى «غابة اسمنت مسلح » ، غابة تكتظ بالرجـــال والبنادق ، ترتفع فوق القصف ، تنتقم مـــن نفسها الى درجة العري ، تتوجع · بيروت الفندق ، الشوارع ، المطاعـم ، المعارض ، المجلات ، دور النشر ، تنهار وتولد غابة الاسمنت التي تقاتل كمـا لميقاتل احـد ، تنتصر كما لم ينتصر احد ، وتموت كما لم يمت احد· الحرب الاهلية هي مبدئيا بداية ، وحتى تكون بداية يجب ان تكون نهاية · انها نهاية عـلى كل حـال ، نهاية : لانهـا حتى لو اكتفت بالوصول الى ابواب السمـاء دون كسرها ، لن تسمح للماضي بالعـودة الا بوصفه الماضي ، أي بوصفـــه تكرارا مبتذلا لما كان ولمـا لن يكون كما كان·

ـ ٢

كانت اشكالية انهيار الكيان اللبناني اشكالية خاصة ببنيتـــه · انـــهار في حرب اهلية ·كل حـرب اهلية في التاريخ هي عـلى المستوى العـملي انقسام في السكان وقتال شامـل عـلى السلطة او عـلى ادارة الحرب الوطنية · وهذا ما حصل في لبنان · انقسام السكان الى فئات تتقاتل · غير ان اشكاليـــة الانقسام اخـذت في لبنان طابعـا خاصا : الطائفية · انقسام السكان الـــى طوائف متقاتلة · أي ان الانتماء الطائفي هو الـــذي حـــدد عـند اندلاع شرارة الحرب الشكل العام للانتمـــاء · و « الاقتتـــال الطائفي » هو شيء متوحش ، همجي ، غير عادل ، نستطيع ان نعود الى جميع التعابير الاخلاقيـــة التي في القاموس ونكتبها وتكون صحيحة · غير ان هـذا الاقتتال الطائفـي لم يكن لان اللبنانيين ما زالوا قبائـل تعيش خارج دائرة الراسمالية ·الانقسام الطائفي يترنح ، لقد استنفد تماما مثل سلطة الراسمالية الوسيطة التياستنفدت· سلطة دولة مفبركة لا اساس لها سوى ارادة المستعمر ورضوخ الطرف الاخـر لهـذه الارادة عـندمـا لم يكن يملك المقومـات او القوى الحقيقية التي تستطيع رفضها · الرسمالية اللبنانية هي راسمالية متوحشة تقوم على الوساطـــة والكومسيون والسمسرة والشعوذة والنصب والاحتيال والسرقة · راسمالية تراكم تجاري هو وليد الشطارة الغبية القائمة على قهر العـرب واذلالهـــم وسرقتهم · انتفخت هذه الراسمالية كالجثة ، لذلك عـندما وجدت انهـــــــا مهددة مثلت بالجثث ، قتلت بوحشية نادرة ، سحقت، كانت في مازقهـــــــا التاريخي لا تجد المخرج ولا الخـــلاص من نهاية محتومة ، فاقتربـت مـــن الانتحار · الراسمالية الوسيطة تخلع قفازها الناعم وتظهر على حقيقتها بوصفها راسمالية همجية · الشكل الطائفي يدمـر نفسه في الصراع فيما تدمـــــــر الراسمالية الوسيطة سلطتها التي تتساقط بحثا عـن اعـادة تركيبهـا · ومـع

تحول الحرب الاهلية من حـرب مواقـع وخطف الى حـرب حقيقية بدأ الشكل الطائفي يترنح ، لقد استنفد تماماً مثـل سلطة الرأسمالية الوسيطة التي استنفدت وجاءت الدبابات كي تعيد تركيبه حاملـــة معها مؤشرا لبحر الدم وأفـــق المشانق الذي تبشرنا بـه البرجوازية المساومة وهي تبحث عـن الخلاص مـــن مأزقها بالاندفاع الى منع التغيير وسحق شعلة الحرب الوطنية التي يرفعهـــا الشعـــب ٠

يقولون : هـذه ليست حربا أهلية ٠ هذا اقتتال طائفي ٠ والطائفية شيء يمجه العقل والمنطق الحديث ، يغسلون ايديهـم بالمياه المعـدنية ويدعـون الـــى ايقاف الاقتتال الطائفي عبر اعـادة تركيب المائـدة الطائفية القديمة مع بعـض التعديلات ، يعـللون ذلك بالقيـم والاخـلاق والشرف ٠ وهم لا يخـافون عـلى القيم بل على فتات المائدة ٠ فبعد انهيار المائـــدة لن يبقى مكان لفتات ٠

يقولون : هـذه ليست حربا أهلية ٠ فالحـرب الاهلية يجب ان تقوم بيـــن اللبنانيين وحدهم ٠ اما هنا فهـي بين اللبنانيين كما انهـا حرب بين اللبنانيين والفلسطينيين ٠ واليوم اصبحت حربا لبنانية ـ فلسطينية ـ سورية ٠ من قال أن الحرب يجب ان تفصل عـلى اساس نموذج ما ٠ ومتى كانت الحـــروب في هذه القارة العربية الممزقة مجرد حروب داخليـــة ؟ ثورات العشرينـــات كانت تمتد من جبـل العـرب الى راشيا ٠ ثورة الثلاثينات الفلسطينية كانت تمتد من فلسطين الى دمشق ٠ حرب ١٩٤٨ كانت حرب مصر كما كانـــت حرب عشرات المتطوعين الذين ركبوا البحر من بيروت الى حيفـا ٠ حـــرب ١٩٥٨ الاهلية كانت حـرب عبدالناصر كما كانت حرب اللبنانيين ٠ كل ما هنالك انه عام ١٩٧٥ قرر الطرفان اللذان يتشكل الكيان اللبناني كصيغـــة توازن بينهمـا رفض الصيغـة القديمة ٠ والجديد انه فـي احشاء الطـــرف العربي تولد فلسطين والتغيير الذي لم يعد يتسع له هذا الزمـــن ، فقرر ان يراهن على زمنه الجديد ٠

ـ ٣ ـ

مع تصاعـد الحرب انهارت دولة الكيان وانهار كل شيء ٠ الجيش ينقسم كبار التجار يديرون اعـمالهم بين المرافيء ، صغار التجار يفلسون أو يعودون الى تجارة الكشة ، وصحافة بيروت تتحجم الى اقصى الحدود ٠ والتجـــار الذين جاءوا الى بيروت المتحضرة يغـادرون الى اماكن اخرى ٠ الوجه الغالب الذي يبقى هو السلاح المرفوع في وجـــه الاعـــداء ، وارادة رغـم النكسات تقاتـــل ٠

انهيار السلطة كان مذهلا . أذهل جميع الناس ما عدا اللبنانيين الذين كانوا يعرفون دولتهم جيدا . فكما كان لبنان فضيحة التجارة الدولية ، لانه بقدر ما تخطى اصولها البرجوازية الحقيقية وكشفها بوصفها شعوذة وصفقات ، أي سرقة عرق المنتجين الحقيقيين ، كشف لبنان حقيقة « الدولة » بوصفها جهازا لا يكون الا لتغطية السلطة الحقيقية بقالب قانوني . فسلطة التوازن الدقيق اللبنانية التي يسمونها « التجربة الحضارية » انكشفت وكشفت حقيقة كل السلطات بوصفها جهاز قمع طبقي . واذا كانت الطبقة السائدة تتخلى عن جهازها « الدولة » في لبنان بهذه السرعة فهذا يعود الى كون هذا الجهاز ليس سوى جهاز توازن وخلفه تقع اجهزة السلطة الفعلية . لقد فضح انهيار الدولة الدول . وخلال مسار الحرب الاهلية فضحت الكثير من الامور . فضح عزيز الاحدب الانقلابات وكشف معناها الفعلي . فالواقع ، انه هكذا في الدول التابعة تحصل الانقلابات كي تنقذ جهاز الدولة من الانهيار وتنتصر . اما هنا ، فكان الانقلاب مسرحية مضحكة تكشف « المغامرين » الانقلابيين وتكشف ذكاءهم الابله . كما فضحت الفاشية الصغيرة الانعزالية جميع الفاشيات . فعوض استعمال الاقبية السرية للقتل والتعذيب ، حولت الفاشية الصغيرة الشوارع الى أقبية والساحات الى سراديب . لقد فضحت التركيبة اللبنانية بانهيارها السلطة ، واجهزتها ، وقدمت خلال سنة ونصف من القتال ، نمزجة جديدة لفهم كيف تتحرك الامور وتتغير المقاييس ،وكيف تستطيع الجماهير متى دخلت المعادلة قلب المعادلة رأسا على عقب .

مع الانهيارات تساقط « القمع اللبناني » ، قمع السلطة . تحولت الفنادق الى متاريس والاسواق الى جبهات والثقافة الى اشبه ما يكون بلا شيء . بيروت مدينة الصحافة والمعارض والفكر والفن والمطاعم الراقية تختفي مع أختفاء السلطة القديمة . كل شيء يتوقف ما عدا بضعة كلمات يكتبها رجال راهنوا على موتهم وسط شلالات الموت الجميل ، وبقوا ليكتبوا ليس اجمل الاشياء ، بل ربما ، اكثر الاشياء قدرة على الشهادة . لماذا هذه الانهيارات ؟ في بيروت القديمة لم تكن هناك سلطة . كانت الحرية مطلقة الى اقصى الحدود . حرية التجارة وحرية الكتابة . لذلك تحولت بيروت الى ملتقى التجار ووكلاء الشركات وملتقى المثقفين . ملتقى الباحثين عن الربح السريع وملتقى الباحثين عن المجد السريع .

لكن الحرية لم تكن حرية ،كانت حرية التجار ! ماذا تعني حرية التجار؟ التاجر لا يهتم بالمقدمات ، يبحث عن النتائج . أي ان التجارة لا علاقة لها بالانتاج ، بمعناه الحقيقي بوصفه تراكما للعرق وتراكما للمعرفة

وتراكما لرأس المال · تراكم العرق والمعرفـــة ورأس المال يقدم هيكليـــة اجتماعية حقيقية ، أما تراكم الغباء والشطارة فلا يقدم سوى نتيجة واحـدة هي ازدياد الثروة او ازدياد التبذير · حريـــة التجارة تبحث عن النتائـج ، والفكر والثقافة الذي ينمو وسطها هو فكر وثقافـــة النتائج · في جو هـذه الحرية اختلطت المقاييس الى حـد الجنون · وتحولت الكتابة الى انفصـــام للشخصية · نمو الصحافة المذهل ونمو النشر ايضـــا بالشكل العشوائـــي هو امتـداد لتورم التجارة · ان طغـيان المظاهر « المتحضرة » لا يلغـــي جوهر الواقع الذي هو في صراع من اجـــل الولادة · الكتابة والثقافـــة التي لا يهمها سوى النتائج تنكشف عندما تطلب المقدمات في لحظة الانفجـــار حسابها ، لان الكتابة في الجوهر هي ممارسة اجتماعية من طبيعة خاصـــة ولا تستطيـع التحرر من طبيعتهـــا الا بشكل خـادع ومؤقت حين تعـلو اصوات التجار واصوات حريتهم عـلى اصوات المنتجين الحقيقيين · تصل الحريـــة المخادعـة الى نهايتها : حرية التجار تلغـي الحرية وتحولها الى احتكـــار فاشي للحرية ، وحرية الرأي تلغي الرأي وتحوله الى لغـــة بلا دلالات او الى معلومات صغيرة وتافهة · لهـذا تتنافس الانظمة القمعية على رشوة الصحافة اللبنانية وتتنافس عـلى طلب الغـائهـا · تنمـو وسط الغـاء الرأي وتنتهـــي في نفس الدائرة ·

ـ ٤ ـ

الحرية هي وجه اخر للقمع · حرية التجارة ودولة التوازن تحمل اواليـــة قمع خاصة · فالدولة هي بالدرجـة الاولى جهاز قمع · دولة الاحتكار وتنظيم الاحتكار تقوم هـي الاخـرى بتنظيم القمـع عبر اربع اشكاليات متناسقة ·

النموذج وحجب النموذج :

النموذج في الحالة اللبنانية هـو المثال الذي تقدمه التجـــارة الحـرة · الاقتصاد الحر ينتج نموذجا حـرا · التاجر الذي يفعـل كل شيء ببراعـــة يربح كل شيء ولا يخسر شيئا · ماذا يخسر ؟ مجموعـة من قيم الشهامـــة العربية الباقية داخـل اشكالية نمـو تحافظ عـلى العائلة كوحدة اجتماعيـة ! فيقوم بحجب هذه الخسارة عبر تقديم نموذج اضافي : الحضارة الغربية · فتجري اعـادة انتاج القيم الحديثة وضرورة رفض القيم البالية وضــــرورة تمثل الحضارة الحديثة وقيم الحرية الفردية الجديدة · هكذا يحجب النموذج نفسه · التاجـر يتحول الى رجل متحضر والمشعوذ الى فيلسوف والقاتـل الى قاض · هذه الاشكالية بالغـة الطرافة ، فهي التي تتحكم فـــي الوسط

« بيروت » وتمتد تدريجيا الى الاطراف · هكذا تتحول الشعوذة الى سياسة والعلاقات المتوحشة الى حضارة · النموذج هو السلطة التي تمسك بلعبة التجارة بوصف السياسة تجارة ، وحجب النموذج هو مجموعة المباخر الايديولوجية التي تمتد من ميشال شيحا الى توما الاكويني مجسدا في شارل مالك الى الفولكلور البليد · أو المؤسسات ذات الاخراج المتحضر ـ مياه معدنية ـ وخلفها تختفي الخوات والقبضنات واللغة الفرنسية !

التهميش

داخل بنية السلطة ، هناك هامش واسع يجري الدفع باتجاهه · ففي هيكلية السلطة هناك اساسية وطوائف هامشية · وداخل دورة الرأسمال التجاري هناك فئات اساسية وفئات هامشية · الهامش هو الانتاج او ما تبقى منه والذي يندرج داخل الرأسمال التجاري ويعطيه قدرة على الحركة ·هكذا تهمش مناطق الانتاج الزراعي ويجري ادخالها تدريجيا في دورة الرواج، وتهمش فئات اجتماعية كاملة كي تشكل اليد العاملة الرخيصة ، وتهمش قطاعات واسعة من السكان على المستوى الثقافي كي تتحول الى معلمين صغار ومستهلكين صغار للثقافة السائدة · وحين يحاول الهامش اختراق المركز فانه يضرب بقسوة ·

التصفية

ادوات القمع اللبنانية هي ادوات شكلية : الجيش ، الدرك ، المكتب الثاني، هي اشكال استقطاب لمجموعة من الهامشيين في سبيل اسكاتهم · كل القمع في لبنان هو قمع شكلي ، جميع اجهزة المراقبة ترتشي، جميع ادوات المحافظة على المجتمع تشارك في اعمال غير قانونية · وحده بوليس السير يقف وسط الشارع يسجل محاضر الضبط بالسائقين دلالة على وجود السلطة · حتى محاضر الضبط لا يعاملها الناس بوصفها سلطة تريد فرض القانون بل بوصفها سرقة · هذا النموذج البائس للقمع ليس قمعا · لكن اجهزة القمع تتحول من شركات مساهمة الى اجهزة قمع فعلية في حالة واحدة : عندما يحاول الهامشي كسر هامشيته والوصول الى الاساسي · عندها تتحرك الة التوازن اللبنانية بأسرها ، ويصبح الجيش جيشا · يتحول التجار الى قتلة واللصوص الى قضاة متحضرين · « من اطلق النار ؟» في مذبحة عمال غندور · الفقراء او البوليس ؟ والدليل على ان العمال هم الذين اطلقوا النار هو موت عاملين ! لقد قتل العمال بعضهم لان المخربين اندسوا في صفوفهم ! او نطرد جميع المعلمين الابتدائيين خلال اضرابهم الشهير · القمع

يتحول الى قمع فعلي عندما يهدد الهامشي التوازن · هذا هو تاريخ علاقة السلطة بالشعب الفلسطيني منذ عام ١٩٤٨ وحتى ولادة المقاومة ·

التوازنات التقليدية

هي ضابط المجتمع وضابط السياسة · هي القمع الفعلي الذي يختفي خلف كل اشكال الحرية · فالتوازن اللبناني يقوم على قواعد ثابتة ، ولا يمكن احداث خلل فيه الا عبر خلخلة قواعده · والخلخلة تحصل في لحظة انهيار التوازنات العامة التيتحكم المشرق العربي · في هذه اللحظة يحاول الهامشي عبر التحالف مع احد الاطراف الاساسية اختراق التوازن وتغيير معادلاته او تدميره · التوازن اللبناني هو القمع ، هو الذي يغطي اشرس انواع القمع الذي مورس عمليا بغطاء ليبرالي مبتذل ·

ـ ٥ ـ

عند اندلاع الحرب الاهلية الوطنية ، كان واضحا أن التوازن بدأ ينهار، وأن اطرافه تريد ضربه من اجل أن تقيمه من جديد على اسس ملائمة · انهارت المؤسسات ودخلنا احدى اشرس الحروب في التاريخ ، انهارت سلطة التوازن بالغلبة وجميع اجهزتها لتقوم سلطات اخرى تتصارع · ولم يعد لبوليس السير البائس من دور يقوم به فذهب الى البيت · في ذروة هذا الانهيار ، انهارت جميع القشور · وبقي الواقع الفعلي الذي يحاول النموذج طمسه · في هذا الوقت تحولت بيروت من مدينة الثقافة العربية حيث يتجمع المثقفون العرب ويكتبون الى مدينة خالية الا من بعض الذين راهنوا على البدايه الحقيقية · ما هي علاقة الثقافة التي انهارت ببوليس السير البائس الذي ذهب الى منزله ؟ لماذا تحولت بيروت من مدينة الثقافة العربية الى مدينة تقاتل بعد ان انهارت « ثقافتها » أو اختفت ؟

يمكننا أن نقدم مجموعة تفسيرات لهذا الواقع الجديد :

التفسير الاول ، هو أن الثقافة العربية هي ثقافة مازوكية · فعندما انهار البوليس في لبنان وسقط القمع ذهبت الثقافة الى حيث البوليس والقمع · فهي ثقافة لا تستطيع أن تعيش الا في ظل القمع والاضطهاد ، وتمارس تعذيب النفس بامتياز · الواقع ، ان هذا التفسير لا يقنع احدا · فالحرية اللبنانية وخاصة حرية الكتابة والصحافة (بوصفها مصدرا لجلب رؤوس الاموال العربية التي تساهم في الازدهار) كانت بلا رقابة تقريبا · فانهيار السلطة

لا يغير كثيرا • فلم يكن هناك قمع لحرية الرأي حتى تتعوده الثقافة وتذهب الى حيث القمع •

التفسير الثاني ، هو أن لا مكان للكلمة وسط دوي المدافع واطلاق الرصاص• الكلمة تخاطب العقل والعواطف النبيلة والرصاصة تخاطب نزعات القتل • الكلمة بناء والمدفع هدم • من قال ان الكلمة بناء ، الكلمة هدم ايضا والمدفع بناء هو الاخر • وتعطينا الثورات والانتفاضات امثلة بالغة الدلالة على دور الكملة والملصق والاغنية والقصيدة والقصة والمقالة والبيان ••• الكتابة لا تغير التاريخ وليست بديلا عن الرصاص • لكنها في لحظات التحول تبحث عن دورها وسط التحول • وهي كما نفترض ليست لغة الازمنة الراكدة كالمستنقعات •

التفسير الثالث ، يشير الى ان انهيار السلطة قد خلق سلطات مسلحة •وهي سلطات قمعية لا يمكن للكلمة الحرة ان تعيش في وسطها • الواقع ان الفاشية الانعزالية الصغيرة التي لم تستقطب احدا ، ما عدا بعض الكتاب السابقين والسفاحين اللاحقين امثال سعيد عقل وشارل مالك فرضت في المناطق التي تسيطر عليها الغاء كاملا للثقافة لانها فاشية لا تستطيع ككل الفاشيات التعايش مع الحرية • اما في المناطق الوطنية فان اشكال الحرية الفعلية التي لا تظهر عادة في التاريخ بهذا الزخم الا خلال الانتفاضات الجماهيرية والثورات فقد كانت عامة وشاملة • الحرية بمعنى حرية التغيير، وبمعنى تعايش ازمنة مختلفة في لحظة التغيير •

الواقع ان هذه التفسيرات الثلاثة خاطئة • فعلاقة الثقافة ليست مع بوليس السير البائس ، بل يجب البحث عن علاقتها بالتجارة والرواج • فبانهيار التوازن الذي على قاعدته تقدم التجارة والرواج انهارت بيروت القديمة وانهارت قيمها بأسرها • وظهر الواقع ليس بوصفه زمنا جامدا ، بل بوصفه زمن التغيير • هنا انكشفت اللعبة • سقط القناع ، وسقطت مع القناع جميع المساحيق والالوان ، ولم يبق سوى الحقيقي بتواضعه الشامخ وهو يبحث عن لحظة التغيير •

— ٦

لم تكن بيروت التجارة والفنادق ضحية ،بل كانت القاتل • وليست الجماهير ضحية بل هي الذي يثور ويغير •هكذا في زمن التحولات بكل امجاده ولحظات زهوه ، كانت الاعراس تولد في ماتم الفقراء وهم يدفنون موتهم • وكانت

اجساد المقاتلين الجميلة تعانق الدم القليل وهو يمتد على قمة الجبال ويتساقط شلال اوجاع على المدن ·· وكانت بيروت غابة حقيقية وبنادق حقيقية وارادة تغيير · اما الذين اكلوا فتات المائدة ، فعندما سقطت المائدة سقطوا ·عندما سقط قمع نظام التجارة والكوميسيون سقطوا ، وبقيت كلمات تصلح ان تكـون عنوانا لموتنا ، وبقيت كتابة كانت البنادق تحولها الى ممارسة ·

نتساءل عـن الكتابة في زمن الحـرب ، ونؤكد ان الكتابة هي تلخيص لكثافة الحركة التي في الواقع ، حيث الكلمات اشارات لما تصنعـه التجربـة · ان الكتابة في زمن التغيير انخراط في التغيير وتغيير في الكتابة ·

صور

عباس بيضون

« يا صور • لقد تبدلت نبرتنا ، حين نزلنا اليك انتزعت من حناجرنا الوتر الفلاحي ، وها نحن بالكلمات التي تعلمناها منك لا نستطيع أن نصفك •

لا نصفك لانك ما زلت تبحثين في جلدك عن فمك المندمل
ولانك تنطقين بزفير ساخن على وجوه مخاطبيك القليلين
لانك بلا صوت تحكين يابستك ورملك
وتلقين بلا تحية يدك على شمال البحر
هذا هو جسدك يضيع ولا مصباح على جلدك يقرع فوق طرقك الهاربة
ستتاكلين وستتجمع حجارتك كل عام
بعد أن تهبط أوتادك ستصبحك كل عام جثة حجرية
ستقعين عند البحر بينما تلمع مطابخك من بعيد
لقد قامت خصاص سريعة تحت سقوفك الساقطة
لكن النوافذ التي تفتح في رمتك
لا تدعو المتنزهين ولا التلاميذ
رأسك بين كتفيك واكتافك تنحني
ولن تستطيع النسوة المنتظرات تحت الادراج وفي الغرف العالية
قدوم الابناء والازواج المتخلفين في الحانات
لن تستطيع الكلاب الجائعة
ولا أرضك التي تغلي بالفئران
أن ترفع قناطرك المصطكة
أن تمنع طرقك من السقوط في الخنادق ودورات المياه
والتجول في الادغال الداخلية انفاقا حرة

أن ينزع النجوم من عـيون الثقوب وعـيون الحشرات
ويفك الشوارع من عـقدة ابهامك الضيقة
ستقعين ايتها الام المسنة ولن تقوم مدينة بعـــد الان
ستنزلين على اضلاعـك كالمدخنة الهاوية
وترقدين على الشاطيء ورأسك في الرمال ككلب البحر
لن يكلمك احد فمن يحدس انك تتكلمين وسط نسمتك المتعثرة
ووسط مصابيح السيارات المسلطة عـلى حـدودك
من يحدس أن حرفا اصغـر من جناح ذبابة
ينزل مغبرا بالبارود وسط الرصاص الذي يدرز نوافذك
ويصمت في الـدم الذ ييلطخ الابواب
من يحدس أن فمك الذي ضاع في جوفك كخاتم في بئر
ينطق في عاصفة رعدية وموجة ترفع السواحل
لن يكلمك أحـد ولن تتبدل مياهك بعـد الان
ستكونين في طرف العـالم وسيرجع الجميع قبلك
الحدائق التي ترافق البحر لن تجروء على اقتحام احجارك السود
والطيور المهاجرة تخشى ان تعتق لف يغيومك المدخنة
سحابة أزهار الليمون التي تصحـب المسافرين
ستهبط على تخومك القريبة
ولن يصل المسافرون
ولن تتبدل سماؤك
سيبقى لك الهواء الذي يتلكأ عند مداخل الازقة ٠
يفور دائما بالملح والرمل والذباب
ينزف على الاواني والسواقي والانقاض
ساقطا هنا وهناك ، بطيئا ،مذ دوخته ملوحة الضفاف
وها هو يبذر قمح المتوسط عـلى جلودنا
ويترك في عقود العرق النازفة
ثقل دمــوع البحر



كنت جزيرة وحصنا وخانا للمسافرين
لا يتسع نهارك للبناء ، ولا يكفي ليلك للاحلام
لم تكن نجومك كبيرة ، ولا قمرك لامعـا
لذا كان بحارتك يسقطون على السلالم
وجنودك يجفون في الابراج

على القوارب المبتعـدة كنا نرى السماء الواسعـة
ونغـني ونتناسل كحشرات الكروم
نرقص في النسيم الخفيف ، ونرفع قصائد وحبا
للواتي لا يصعـدن الى الشرفات
تكف الرطوبة رياحك
لذا لا تشتعـل على سفوحك النيران الكبيرة
طيورك لا تحلق عاليا ، وابناؤك لا يذهبون بعيدا
لك قلب سمكة وروح طير بحري
لذا تتركين موتاك على الصخور
وتسقطين من ضربة المجذاف

انت حذاء البر المندسة بين شقوق الموج
تحمل طرق البر المزارعـين اليـك
وتحمل طرق البحر الغزاة
فتطفح السلال بعيون الفلاحين
يمر عليك الجنود الفارون
ومـن نوافذك
يطلقون على الناس في الاسواق
هكذا مر عـلماؤك وقضاتك ورؤساؤك
تحتْ السلاح

بينما فقراؤك يثقبون الاسماك الميتة
بحثا عن ملح المائـدة

حين نزلنا من القرى
نقبوا في جلودنا
عن حبـة قمل وتراب وحنطة
افرغوا بنادقنا من كل حبة باقية
اوقفونا على موائد وعرضونا على السكارى
قطعونا على صخرك بعيدا عـن نجوم الحقل
ربطونا الى السفن حمالين وعبيدا
على الحبال عصروا القلوب المدورة كتفاحات الجبل
واطلقوا الامواج الصغـيرة على جثث الغواصين
هكذا كنا في اسواقك نرقص بين الطلقات
نمشي وعيوننا في الارض
كأنها تبحث عن زر ضائـع ورأس ابره

هكذا بتنا بقلوب خصية وجووه كالنعـــال
نخشى أن نبتعد فيك الى الحد الذي تصل اليه جرذان الليل
ننكر اصوات البرق والريح والمطر
لنتعـلم كل يــــوم
لهجة سرطان البحر المتعـفن في المياه



هذه احلامك تجمد حالما تخرج من ثقوب رأسك المدببة
وها هي تتكاثر كحجارة رمادية في حوضك الضيق
تبتعدين عــن يد البحر المعانقة
وتغتسلين من الزبـد
لكن تبقى مشاعـل عارتك تخطو على الامواج
هل تهمسين بكلمة ·· هل تحطمت على فمك صدفة ؟
هل ارتعشت عظامك لحظة ، أم الدمعــة الاخيرة تقرع في حجر القلب
انت صور التي سقطت من جيب التاريخ
كيف تبقين على الرمال كالعلبة الضائعة ؟
من يدفعــك ثانية الى البحر
من يحمل شجرة الى شوارعك المسقوفة
ما زالوا يحجزون الميناء في قفص
ما زال الصيد متصلا عــلى جبينك
وجبينك ينتن من رائحة الصيد والدماء الباردة
ما زالوا يخوفون التلاميذ من البحر ، والصيادين من الكتب
نحن الذين نتكلم من جثتك
نفتح نوافذنا في رمتك المتصخــرة
نرى الدماء تنزل من العصي والسكاكين وورق اللعــب
لكن نبقى الى أن يصلنا التيار ، الى‌ان يلمس قلبك
لا نفارقك كأمراء البحر ولا طيور اليابسة
فنحن لسنا شيئًا سوى قناطرك وصخورك وأسماكك
وانت مركبتنا ، ندفعــك للجبل والبحـــر
لكن نسقط تحت عجلاتك في نهاية اليوم
نغني حيث نعــمل
لكن الوقت يمر عــلينا ويغادرنا أعـــمدة ورخاما
والوقت يتوجع وهو يكمل لسته الحجرية

امامك نحن نصطف جزرا متباعـدة
وانت تنقلين عـلـينا قدمك الى المياه
في الليالي تسرع القوارب والفصول : ولن تموتي
ستحلقين ايتها الام على جسورك ستحلقين بينما تهبط جسورك الى الاودية



المرأة الفلسطينية والثورة
١٩٤٨ - ١٩٦٧

غازي الخليلي

تأثر وضع المرأة الفلسطينية في هذه المرحلة بما طرأ من تغييرات واسعة على بنية المجتمع العربي الفلسطيني ، اثر قيام الكيان الصهيوني على الجزء الاكبر من ارض فلسطين ، واقتلاع وتشريد غالبية الشعب الفلسطيني من ارضه ، فبعد العام ١٩٤٨ وجد ما يزيد عن ٩٠٠ الف من الفلسطينيين أنفسهم بلا مأوى وبلا مورد رزق ثابت ، موزعين في اكثر منمكان ، في فلسطين المحتلة وفي الضفة الغربية وقطاع غزة وفي عدد من الاقطار العربية المجاورة (١) . ومن بقي من الشعب الفلسطيني مقيما على أرضه غير المحتلة فقد تأثر بموجة التهجير الواسعة هذه وبسياسات الالحاق السياسي العربية لهذه الارض . حيث الحقت الضفة الغربية بالنظام الهاشمي في شرق الاردن ، ووضع قطاع غزة تحت الادارة المصرية . اما الذين بقوا في فلسطين المحتلة والذين كان يبلغ عددهم نحو ١٦٠ الف نسمة (٢) ، فقد اخضعوا للحكم العسكري الاسرائيلي المباشر ، ولسياسات اسرائيل العنصرية .

لقد نجم عن سياسات الاقتلاع والتشريد والبعثرة هذه وسياسات الالحاق السياسي العربية لما تبقى غير محتل من الارض الفلسطينية ، تغييرات واسعة في بنية المجتمع العربي الفلسطيني ، انعكست على وضع المرأة فيه . وكان من ابرز هذه التغييرات **تفتيت البنية الاقتصادية ـ الاجتماعية** للمجتمع العربي الفلسطيني ، فالاقتلاع من الارض افقد الفلاح الفلسطيني صلته الانتاجية بالارض ، وحوله الى انسان عاطل عن العمل ، او انسان يتعاطى اعمالا

★ هذه الدراسة جزء من كتاب « المرأة الفلسطينية والثورة » الذي سيصدر عن **مركز الابحاث** .

هامشية غير انتاجية · كذلك فان العامل الفلسطيني الذي وجـد نفسه خارج ارضه بدون عمل ، اضطر الى البحث عن أي عمل لاعالة اسرته · فمثلا ، بلـغ عدد الفلسطينيين العاملين في سوريا في العام ١٩٥١ والمسجلين لدى « الاونروا» فقط ، ١٥٫٦٠٠شخص ، كان من بينهم ١٫٦٠٠ بائع ــ معظمهم باعة متجولون ــ أي ما نسبته ١٠٫٢ ٪ من مجموع العاملين اضافة الى ٤٠٠ شخص كـانوا يقومون بمهن غير منتجة ــ خدمات ــ أي ما نسبته ٢٫١ ٪ من مجموع العاملين، في حين بلغ الذين يتعاطون الزراعة والصيد ٥٫٩٠٠ شخص اي ما نسبتـه ٣٨٪ من مجموع العاملين (٣) · وبين الفلسطينيين في لبنان نجد صـورة مشابهة تقريبا ، فمن اصل ١٩٫٠٢٧ شخص كانوا يعملون في العام ١٩٥١(من الفلسطينيين المسجلين لدى الاونروا فقط) بلغ عدد الباعة ١٫٦٥١ شخص أي ما نسبته ٨٫٥٤ ٪ من مجموع العاملين ، كما بلغ عدد الذين يتعاطون مهنـا غير منتجة ــ خدمات ــ ٦٢٤ شخص أي ما نسبته ٣٫١١ ٪ من مجموع العاملين ، في حين بلغ الذين يعملون في الزراعةوالصيد ٦٫٦٥٨ شخص أيما نسبته ٣٥٫٢٪ من مجموع العاملين (٤) ·

وتشير احصائيات « الاونروا » للعام ١٩٥١ ، ان مجموع العاملين من اللاجئين الفلسطينيين المسجلين في العام ١٩٥١ لديها (بما فيهم العاملون من اللاجئين داخل الكيان الصهيوني والذين بلغ عددهم انذاك ٢٥٧٤ شخصا) بلـغ ١٦٠٫١٠٠ شخص ، كان عدد الذين يعملون في الزراعة والصيـد منهم ٦٣٫٩٠٠ شخص أي ما نسبته ٣٩٫٩ ٪ من مجموع العاملين · وبلغ عدد التجـار والباعة ١١٫٧٠٠ شخص اي بنسبة ٧٫٣ ٪ من مجموع العاملين · والجدول التالي يوضح عدد العامليـن وتوزعهـم بحسب المهنة للعـام ١٩٥١ · (٥) :

	العدد « بالالف »	٪
العاملون في جميع المهـن	١٦٠٫١	١٠٠
١) المهن الفنية والعلمية	١٫٣	٠٫٨
٢) الاعمال الادارية والكتابية	٥٫١	٣٫٢
٣) تجـار وباعـة	١١٫٧	٧٫٣
٤) الزراعة والصيـد	٦٣٫٩	٣٩٫٩
٥) البنـاء	٧٫٣	٤٫٥
٦) النقل والمواصلات	٦٫٨	٤٫٢
٧) اصحاب الحرف والصناع وعمال الانتاج	٤٥٫	٢٨٫٧
٨) الخدمـات	٦٫٧	٤٫١
٩) لا مهنـة لهـم :	١١٫٧	٧٫٣

مــــلاك	٧ر٩	٠ر٦
تلاميــــذ	ر٢	٢ر١

توضح هذه الاحصائيات الاهتزاز الاقتصادي ـ الاجتماعي الكبير الذي اصاب المجتمع العربي الفلسطيني بفعل الاقتلاع والتشريد · فبعد ان كانت غالبية الشعب الفلسطيني تتعاطى الزراعة ★ ،انخفض عدد هؤلاء الى اكثر قليلا من الثلث من مجمه - لعاملين ، ولو كان هذا التغيير وليد تطور اقتصادي، لكان مقياسا للتقدم ، الا انه كان وليد الهجرة والاقتلاع من الارض ،وهمـا هجرة واقتلاع افقدا الشعب الفلسطيني تركيبه الطبقي المتوازن ، بامتصاص مجالات العمل غير الانتاجية ، النسبة الكبرى من القوى العاملة الفلسطينية· ولقد استمر هذا التركيب الطبقي غير المتوازن للمجتمع العربيالفلسطيني في السنوات اللاحقة ، مع انخفاض نسبة الفلسطينيين الذين يتعاطون اعمالا انتاجية مباشرة · فمثلا بلغت نسبة الذين يعملون في الزراعة والصيد في الاردن وسوريا في العام ١٩٦١ ، ١ر٣٤ ٪ من مجموع العاملين ،وانخفضت نسبة اصحاب الحرف والصناع وعمال الانتاج من ٧ر٢٨ ٪ في العام ١٩٥١ الى ٣ر٢٤٪ في العام ١٩٦١ ، في حين زادت اعداد الذين يعملون في الاعمال الادارية والكتابية والخدمات (٦) ·

ولم يكن حال العرب الفلسطينيين الذين بقوا على ارضهم في الضفة الغربية وقطاع غزة ، بافضل من حال بقية الشعب الفلسطيني التي اقتلعت من ارضها · فقد تأثر الوضع الاقتصادي ـ الاجتماعي لسكان الضفة الغربية وقطاع غزة بعاملين اثنين ، همـا :

١) ازدياد الكثافة السكانية

فالاعداد الكبيرة مـ نالمهاجرين الذين لجأوا الى الضفة الغربية وقطاع غزة ،جعلت من غير الممكن استيعاب القوى العاملة لهذه الاعداد في مجالات العمل الانتاجي ، فالمساحة القابلة للزراعة في الضفة الغربية كانت لا تتجاوز الثلاثة ملايين دونم من الارض من اصل مساحة الضفة الغربية الكلية والبالغة ٥٦٤٢ كم٢ ، وثلثي هذه الاراضي القابلة للزراعة كانت اراضي بعلية (٧) وكان على الضفة الغربية ان تعيل سكانها البالغ عددهم حوالي ٤٠٠ الف نسمة ، وما يوازي هذا العدد تقريبا من اللاجئين ، في وقت فقد عدد لا يستهان به من القوى العاملة في الضفة الغربية

★ في العام ١٩٤٤ كان سكان القرى يمثلون ٦٦ ٪ من مجموع السكان العرب في فلسطين ·

مجالات عمله في مدن الساحل الفلسطيني بعد قيام الكيان الصهيوني • اما في قطاع غـزة ، فقد كان الوضع اقسى وامر ، حيث استقبل القطاع اكثـر من ضعف عـدد سكانه الاصليين ، فبلغـت نسبة اللاجئين الى سكانـه الاصليين ٢٢٢٪ • هذا في حين كان ٢٠ ٪ فقط من السكان الاصليين فـي القطاع يعملون في زراعة مساحة القطاع ، بينما كان هناك حوالي ٨٠٪ من سكان القطاع يزرعـون الاراضي الواقعـة ضمن الاراضي المحتلة او بمهـن تعتمد على انتاج الاراضي التي احتلت عـام ١٩٤٨ • ولذلك وضع سكـان القطاع في السنوات التي اعقبت عام ١٩٤٨ لم يكن بافضل من وضع اللاجئين «٨» ويذكر محمد علي خلوصي في كتابـه « التنميـة الاقتصاديـة فـي غـزة (فلسطين) ١٩٤٨ ـ ١٩٦٦ . ص ٦٥ » ، ان كشوف طالبي الاعانات من السكان الاصليين بلغ ٧٠ر٠٠٠ في العـام ١٩٤٩ ، ولم ينخفض هذا الرقم الـى ٣٥ر٠٠٠ الا في العـام ١٩٦٠ •

لقد نجم عـن هذا الوضع ازدياد العاطلين عـن العـمل ، وانخفـاض نسبة الاجور ، وهجرة اعـداد كبيرة من القوى العاملة للعـمل في اقطـار البترول العربية (٩) مما ادى الى احداث خلل كبيرة في البنية الاقتصاديـة ـ الاجتماعيـة للمجتمع العربي الفلسطيني في الضفة الغربية وقطاع غزة •

٢ ـ سياسات الالحاق السياسي العربية

حال الحاق الضفة الغربية الى النظام الهاشمي ، ووضع قطاع غـزة تحت الادارة المصرية ، دون تمكن الشعـب الفلسطيني من اعـادة بناء وحدتـه السياسية وبنيانه الاقتصادي الاجتماعي على ارض وطنه • ولـو قـام نظام وطني ديمقراطي عـلى ما تبقى غـير محتل من الارض الفلسطينيـة ، لكان بالامكان ايجاد حلول ثورية للمشاكل الاقتصادية والاجتماعيـة التـي نجمت عـن اقتلاع الشعـب الفلسطيني من ارضه وتفتيت بنيته الاقتصاديـة ـ الاجتماعية ، وذلك باتباع سياسة تنمية اقتصادية مكثفة لاستيعـاب القـوى البشرية العـاملة من الشعـب الفلسطيني عـلى ارضها • لقد عـمل النظـام الهاشمي على تكريس عملية التفتيت هذه ، فشرع القوانين التي تمنع قيام مؤسسات اقتصادية كبيرة في الضفة الغربية ،وحرمها من مشاريع التطوير الزراعي،واتبع سياسة تقوم عـى تهجير اكبر عـدد ممكن من القوى البشرية العـاملة الـى خـارج الضفة الغربية ،وذلك خدمة للسياسات الصهيونية والامبريالية فـي العـمل عـلى تبديد الشخصية الوطنية للشعـب الفلسطيني ، وتذويب الشعب الفلسطيني في الكيانات العربية • وفي قطاع غزة ، لم تقم الادارة المصريـة باية مشاريع اقتصادية انتاجية ذات قيمة لتخفيف عـبء البطالة الكبيرة التي كانت متفشية بين سكان القطاع مما زاد من هجرة القوى البشرية العـاملـة

خـارج القطاع ٠

لقد كانت القيادة الوطنية الفلسطينية بعـد العـام ١٩٤٨ مشتتة ومبعثرة، وعاجزة عـن القيام باي دور وطني بارز ، فقسم منهـا سار وراء سياسـات الالحاق السياسي العربية فارتهن للسياسة الاردنية او المصرية ، وقسم منهـا استمر عـلى هامش الحياة السياسية وارتضى حياة المنفى بدون اي فعـل٠ وقسم اخـر اهتم بمصالحـه الاقتصادية ، فعـمل عـلى تنمية ثروات ومصالـح اقتصادية له فـي اقطار اللجوء العربية ٠ وفي ظل غياب قيادة وطنيـة للشعب الفلسطيني ، سارت سياسات الالحاق ومحاولات تبديد الهـوية الوطنيـة الخاصة للشعـب الفلسطيني ٠ دون ان يرتفع صوت في وجهها ، حتى كانـت الثورة الفلسطينية في العـام ١٩٦٥ ، التي اعـادت صياغـة هذه الشخصيـة الوطنية من خـلال النضال ٠

التوزيـع الجغرافي

اضافة الى الاقتلاع والتشريد وسياسات الالحاق ، فان التوزيع الجغرافي للشعب الـفلسطيني على اكثر من بلد وفي اكثر من مكان ،ساهم الى حـد كبير في تفتيت البنية الاقتصادية ـ الاجتماعية للمجتمع العربي الفلسطينـي ٠ فالمجتمع العربي الفلسطيني لم ينتقل فقط منوضع انتاجي يسيطر فيه عـلى ادوات انتاجه الى وضع لا يملك فيه السيطرة عـلى شيء بل واجه ايضـا محاولات تقسيمه الى عـدة مجتمعـات عـلى عـدد التجمعـات الفلسطينية في الاقطار العربية ،وهي تجمعـات خضعـت لتأثيرات سياسية واقتصاديـة واجتماعية متباينة نجمت عن التباين في اوضاع اقطار اللجوء العربية ، وعـن التباين في سياسات هذه الاقطار ازاء العرب الفلسطينيين المقيمين علـى ارضها ٠ ولولا توفر ظروف موضوعية وذاتية ، كانت تدفع باتجاه مواجهـة هذه المحاولات واحباطها ، لفقد المجتمع العربي الفلسطيني ما تبقى لـه من وحدته كمجتمع ، وهي وحـدة نماها وغذاها نضال الجماهيـر الفلسطينيـة من اجل العـودة الى وطنهم وشعورهم بالاغتراب الاجتماعـي في المجتمعـات العربية التي وجدوا وسطها ٠ كذلك فهـي وحـدة نماها وغذاها وجـود المخيم الفلسطيني كوحدة اجتماعية ـ سياسية ، حافظت عـلى شكل مـن اشكال التماسك الاجتماعي للشعب الفلسطيني ٠ وعلى ارضية هذا التماسك الاجتماعي ، احبطت الجماهير العربية الفلسطينية مشاريع الاسكان والتوطين الاستعمارية لغالبية الشعب الفلسطيني في اقطار اللجوء العربية ٠

لقد كان التوزيع الجغرافي في نظر الصهيونية والامبريالية والرجعية

العربية ، مقدمة للقضاء على الشخصية الوطنية للشعب الفلسطيني ، واذابة تجمعاته الصغيرة في البلدان العربية عبر مشاريع للاسكان ، او عبر مشاريع للتطوير الاقتصادي _ احيانا _ في هذا القطر العربي او ذاك لدمج التجمعات الفلسطينية دمجا كليا في الحياة الاقتصادية للمجتمعات العربية التي وجدت وسطها · ولذا لم يكن صدفة اقامة المخيمات الفلسطينية في اقطار اللجوء العربية على مقربة من المدن وفي عدة امكنة متباعدة · ففي لبنان مثلا اقيمت اكبر المخيمات حول المدن الرئيسية في بيروت وطرابلس وصيدا وصور · وفي الاردن اقيم اكبر مخيمين حول مدينة عمان (الوحدات ومخيم الحسين) · وفي الضفة الغربية اقيم اكبر مخيم في عقبة جبر قرب اريحا ، وذلك تمهيدا لتوطين القسم الكبير من الفلسطينيين في منطقة الغور · ومحاولات الاذابة والدمج كانت تجد ارضا مؤاتية لها في السياسة التعليمية التي انتهجتها « الاونروا » ازاء الفلسطينيين · فالسياسة التعليمية « للاونروا » كانت تستهدف فقط تزويد الجيل الشاب من الفلسطينيين ببعض المعارف والعلوم التي تؤهله للقيام ببعض الاعمال العادية _ تعليم ، اعمال ادارية وكتابية ، ومهن بسيطة _ في اقطار البترول العربي ، وذلك امعانا في المزيد من التشتيت للشعب الفلسطيني ، والمزيد من التفتيت لبنيته الاقتصادية _ الاجتماعية ·

المخيم كوحدة اجتماعية _ سياسية

عاش اللاجئون الفلسطينيون في اقطار اللجوء العربية على شكلين ،فقسم منهم عاش وسط المدن والقرى التي لجأ اليها ، وكانت غالبية هذا القسم من سكان المدن والقرى في فلسطين · وقسم اخر ، كان في غالبيته من سكان القرى، عاش في مخيمات على اطراف المدن والقرى التي لجأ اليها · و « كان المخيم هو الوحدة الجغرافية _ الاجتماعية الجديدة او الوسط الاجتماعي الفلسطيني الذي تشكل بعد العام ١٩٤٨ · فالمدن والقرى التي ذهب اليها اللاجئون لم تكن تمثل بيئة اجتماعية فلسطينية صرفة ، بل هي اوساط قائمة بذاتها ، دخل اليها الفلسطيني ليتكيف مع واقعها الاجتماعي والاقتصادي · اما المخيمات فكانت الوسط الاجتماعي الفلسطيني الذي تشكل لدى وجود اللاجئين فيه» · (١٠) والمخيم بهذا المعنى لم يكن وحدة اجتماعية _ جغرافية معزولة كليا عن المجتمع المحيط به ، بل نجد ان اشكالا من التداخل مختلفة ومتباينة قامت بين المخيم كوحدة جغرافية _ اجتماعية وبين المجتمع المحيط به ·مما اوجد نوعا من التاثيرات المتبادلة بين الطرفين · وهي تاثيرات كانت اقل بكثير من تلك التي تعرض لها اللاجئون الذين سكنوا المدن والقرى وسط تجمعات قائمة بذاتها · وبهذا شكل المخيم الاطار العام للعلاقات الاجتماعية لعدد كبير من الفلسطينيين · فحسب احصاءات « الاونروا » كانت نسبة من هم

في المخيمات الى مجموع اللاجئين المسجلين لديهـا اكثر من الثلث تقريبا • ففي العام ١٩٥٤بلغ عددسكان المخيمات من اللاجئين المسجلين لدى «الاونروا» ٢٠ ر٣٠٥ اي ما نسبته ٤ر٣٤٪ من المجموع ، وفي العـام ١٩٦٢ ارتفعت النسبة الـى ٩ر٣٨٪ (١١) وعلى الرغم مـن ان المخيمات الفلسطينية قامت في اكثـر من بلد عربي وفي مناطق متباعـدة عـن بعضها ، فاننا نلاحـظ وجودخصائص مميزة لمجتمع المخيم اينما كان • وهي خصائص تقيم شبها كبيرا بيـن اي مخيم فلسطيني واخـر فـي اي بلـد عربي • من هذه الخصائص : (١) ان سكان المخيمات في غالبيتهم من اصـل قروي (٢) ان المخيم كوحدة اسكانيـة عبارة عـن رقعة جغرافية ضيقة تضم سكانا من عـدة قرى ، يقيمون عـليهـا بشكل مكتظ في وحـدات سكنية حقيرة ملاصقة لبعضها واوضاع صحية سيئة (٣) ان المخيم لا يشكل وحـدة انتاجية ، فلا ارض حـول المخيم يعتاش السكان من زراعتها ، ومجالات العـمل وسط المخيم ضئيلة جدا ، لا تتعدى محـلات البيع الصغـيرة او بعض الورش الصغـيرة ولذا لا يمكن وصف المخيم بالقرية او البلدة الصغيرة ، كما « لا يمكن اعتباره حيا فقيرا عـلى غـرار الاحيـاء الفقيرة حول المدن الكبيرة ، لان المخيم يعتبر خـارج اطار المدينة ويجمع سكانه خصائص وطنية مما يجعـلهم جماعـة سكانية متمايزة شبيهة بالجماعات الاثنية في المدن » • (١٢) ولذا فالعلاقات الاجتماعية بين سكان المخيم ليسـت علاقات انتاج ، بل هي عـلاقات تقوم عـلى التضامن الاجتماعـي ـ السياسي اكثر مما تقوم على اي شيء آخر • (٤) لا يوجد بين سكان المخيـم تمايـزات اجتماعية حادة • فاغلبهم يكاد يتساوى في الفقر ، اما الميسورين نسبيا من موظفين وغـيرهم ، فان التمايز بينهم وبين باقي الاهالي ليس صارخـا ولا يصل ، بحكم طبيعـة العلاقات ، الى التناقض الحاد •

تولد عـن هذه الخصائص نمطا من العـلاقات الاجتماعية غير ثابت في البداية • فبانعـدام عـلاقات الانتاج التي تحدد العلاقات الاجتماعية بين الناس ، لـم يكن امام مجتمع المخيم حتى يحافظ عـلى شيء من تماسكه الاجتماعـي الا التمسك بعـلاقات البلد الاصلي في فلسطين ، فسادت عـلاقات تقوم عـلـى اساس الترابط بين سكان القرية الواحدة كحد اعلى وبين الاقربـاء مـن الحامولة او العائلة الواحدة كحد ادنى • ولذا فان سكان القرية الواحـدة اخـذوا يسكنون حيا واحـدا فـي المخيم كانوا يطلقون عـليه اسم قريتهم • وضمن هذا الحي توزع الاقرباء في مساكن متقاربة للحفـاظ علـى وحـدة الحامولة او العائلة الواحـدة كحـد ادنى • ولذا فان سكان القرية الواحـدة المخيمات ، قامت علاقات شبه عـدائية بين سكان القرى المختلفة في المخيـم الواحـد ، واحيانـا كانت تقوم مشاجـرات بينهـم لاتفه الاسباب ، وكـان يتحزب افراد الحامولة الواحـدة او القرية الواحـدة ضد احدى الحامـولات

او احدى القرى فـي هذه المشاجرات · وهذا دليل عـلى استمرار نمـط العلاقات شبه الاقطاعية التي كانت سائـدة فـي القرية الفلسطينية · الا ان **هذا النمط من العلاقات كان هشا ولا يقوم عـلى اي اساس مـادي** ، فانهيار البنية الاقتصادية ـ الاجتماعية للمجتمع العربي الفلسطينـي بعـد النكبة ، لم يكن انهيارا ماديا فقط ، بل كان ايضا انهيارا اصاب البنـى الفوقية للمجتمع باهتزاز كبير · وجعـل **من غـير الممكن استمرار نمط علاقات القرية بكل قيمها وعاداتهـا مع انهيار الاساس المـادي للمجتمـع** · كان التشبث بالعـلاقات القديمة ، باطرها ، وقيمهـا وعاداتها ، نوعـا مـن **الحفاظ على الوجود الاجتماعي في البدايـة · لكن هـذا** التشبث بالتراخـي مع نمو عوامل موضوعية جديدة فرضت تغييرا في العلاقات السائـدة · ومن هذه العوامل ، **الحاجة الاقتصادية** ، التي فرضت عـلى رب العائلة التخلـي عن كثير من قيمه وعاداته وسلطته العائلية احيانا ، في سبيل تامين حاجـات الاسرة الاقتصادية · فالفتاة التي كانت تحرمها التقاليد من العـمل ، اجبرتها الحاجة الاقتصادية عـلى كسر حـدود التقاليد والخروج الى العـمل خـارج البيت · وهو خـروج سوف لا تقتصر تاثيراته على كسر حدود التقاليـد في هذا المجال فقط ، بل وايضا مع ما يحمله هذا الخروج من نمو شخصيـة الفتاة داخل الاسرة وفي المجتمع نفسه ، باعتبارها اصبحت عضوا منتجـا تعتمد عـليها الاسرة فـيتامين جانب من اسباب معيشتها · ومن هذهالعوامل ايضا ، **القضية الوطنية** ، فسكان المخيمات الذين اتوا من اصول طبقية كادحـة في معظمهم ، كانوا اكثر الناس معاناة وتاثرا بالاغتصاب الصهيوني لارضهم، ولذلك فانهم كانوا اكثر الناس اندفاعا وحماسا في النضال من اجل عودتهم · ولهذا فان القضية الوطنية ، او النضال من اجل استرداد فلسطين والعودة ، كان يشكل اطارا للعلاقات اوسع واعم واكثر ثباتا من اطار علاقات القريـة او العلاقات العشائرية · ولم يكن من الممكن لهذا الاطار الجديد من العلاقات ان ينمو ويتكرس ويذيب في داخله اطار العلاقات القديمة ، الا مع نمو النضـال الوطني ، وصيرورته جزءا هاما من الحياة اليومية للانسان الفلسطيني · ولذا فان اطار العلاقات ـ الوطني ، لم يتقدم على حساب العلاقات القديمة الا فـي اوائل الستينات من هذا القرن ، مع بداية النمو الثوري في المجتمع الفلسطيني، وطغيان الثورة على الحياة اليومية لمجتمع المخيم · وبذلك تحول المخيم الـى **وحدة اجتماعية ـ سياسية** ، وليس مجرد وحدة جغرافيـة ـ اجتماعيـة وبهذه الصفة اكتسب المخيم تماسكه الاجتماعي ـ السياسي ، وحافظ على وجوده باعتباره من اهم مرتكزات الثورة الفلسطينية بشريا واجتماعيا وسياسيا ·وهذا الوضـع كان يطرح باستمرار امكانية احداث تغييرات اجتماعية واسعـة ضمن مجتمع المخيم · ولو توفرت الرؤية الثورية ، وتوفر الجهـد الثوري لامكن احداث مثل هذه التغييرات بشكل اوضح بكثير مما هي عليه الان ·

انعكست هذه التغييرات التي طرات على بنية المجتمع العربي الفلسطيني على وضع المرأة في هذا المجتمع · ومن خلال استعراضنا السابق وجدنا أن ابرز هذه التغييرات كانت انهيار الاساس المادي للمجتمع ، أي الفقدان الكلي لوسائل الانتاج من ارض وغيرها · وهو انهيار رافقه بالضرورة ، اهتزاز كبير في البناء الفوقي للمجتمع مما فرض احداث تحول ليس بسيطا في العلاقات الاجتماعية التي كانت سائدة في المجتمع العربي الفلسطيني قبل النكبة ، بكل ما كانت تنطوي عليه هذه العلاقات من قيم وعادات وسلوكيات * · والتحولات في البناء الفوقي لا تتم عادة بنفس سرعة التحولات التي تجرى في البناء التحتي ـ الاساس المادي ـ للمجتمع ، بل تأتي بطيئة ·

وعلى الرغم من ان ما طرأ من تغيير على البناء التحتي للمجتمع العربي الفلسطيني كان فجائيا وصاعقا بفعل النكبة · فان التحولات في البناء الفوقي حافظت على وتيرة بطيئة من النمو ، حيث تداخلت عوامل اخرى الى جانب انهيار الاساس المادي ، تحكمت سلبا او ايجابا في نمو قيم وعادات وسلوكيات جديدة تتلاءم والتطورات الجديدة التي طرأت على المجتمع العربي الفلسطيني· من هذه العوامل : التداخل والاحتكاك بين التجمعات الفلسطينية في الاقطار العربية ومجتمعات هذه الاقطار · وهما تداخل واحتكاك لم يفرزا دائما نتائج تدفع بالاسراع في التحولات في البناء الفوقي · فبعض المجتمعات العربية كانت لا تزال تعيش اوضاعا متخلفة ، كانت تحد من قدرة المجتمع العربي الفلسطيني على الخروج من اطارات هذه المجتمعات وقيمها · في حين أن مجتمعات عربية اخرى ـ كالمجتمع اللبناني ـ كانت اكثر انفتاحا وتقبلا لما طرأ او يطرأ من تحولات

---

* عندما نشير الى انهيار الاساس المادي للمجتمع العربي الفلسطيني ، فاننا نعني بذلك غالبية الشعب الفلسطيني التي اجبرت على مغادرة ارضها · والتي عانت كثيرا من فقدانها الاساس المادي لوجودها الاجتماعي ·لقد بقي قسم من الشعب الفلسطيني مقيما على ارضه في الضفة الغربية وقطاع غزة وفي فلسطين المحتلة·ولكن كما اوضحت فان هذا القسم على الرغم من احتفاظه باساسه المادي لوجوده ، فانه تأثر بموجة الهجرة الواسعة، كما انه تأثر بماطرأ من تحولات على غالبية الشعب الفلسطيني · ولذا فانه على الرغم من ان التعميم في حالة كهذه قد يكون خطأ فاننا نرى ان ما واجهه الشعب الفلسطيني بمجموعه يكاد يكون واحدا ، فكما عانى اللاجىء فقد عانى ايضا ساكن الضفة الغربية او قطاع غزة ، كما عانى ايضا العرب الفلسطينيون داخل الارض المحتلة من التعسف الصهيوني ·

في البنية الفوقية للمجتمع العربي الفلسطيني · ومن هذه العوامل ايضا ، **العلاقات الاجتماعية التي فرضها المخيم كوحدة جغرافية ـ اجتماعية ، ثم كوحدة اجتماعية ـ سياسية** · فالمخيم كان اكثر حرصا في الحفاظ على علاقاته القديمة بكل قيمها وسلوكياتها · وكان يبدو ذلك اكثر ما يبدو في الموقف من المرأة · فالمرأة في المخيم ، حتى لو خرجت للعمل خارج البيت، فانه كان من الصعب عليها الخروج عن سيطرة العائلة ومراقبتها ،فكانت تخضع لسيطرة العائلة في كل شؤونها الخاصة او العامة · والعامل الثالث من هذه العوامل ، هو **العمل الثوري** ، فالنضال السياسي او العمل الثوري بشكل عام ، بما كان يفرضه من تكريس اطار للعلاقات الاجتماعية اوسع واشمل واعم من اطار العلاقات القديمة ، ساهم بشكل او باخر في الحد من سيطرة التقاليد والعادات القديمة · وانجذاب المرأة الفلسطينية الى حلبة الصراع الوطني والثور ي، جعلها اكثر قدرة على كسر حدة التقاليد من حولها ، واكثر جراة على مواجهة المجتمع بثقة اكبر في النفس وباستقلالية في الرأي ـ الى حد ما ـ ولكن لا بد هنا من الاشارة الى ان مساهمة العمل الثوري في اخراج المرأة من واقعها التلقيدي ، كانت تتاثر الى حد كبير بافق قيادات العمل الثوري غير الواضح من مسألة تحرير المرأة ، وبتخوف هذه القيادات ـ احيانا ـ من طرح هذه المسالة ، طرحا علميا وثوريا ·

كانت هذه العوامل الثلاث ، تؤثر بحدود من خلال العامل الاساسي وهو انهيار الاساس المادي للمجتمع · وهو انهيار القى بثقله على **الاسرة الفلسطينية** وفرض عليها تكيفا مع الوضع الجديد · فالفقدان الكلي لوسائل الانتاج احدث بالنسبة للاسرة الفلسطينية « وضعا اقتصاديا جديدا من التدهور والتردي اجبرها على القبول بالتغير والبحث عن وسائل انتاجية غير مشروطة بان يلعب رب الاسرة الدور الاساسي فيها · فالعامل الموسمي الذي كان يعيل اسرته في فلسطين اصبح بعد الهجرة عاطلا دائما عن العمل ، بحيث ادى هذا التوقف الى التطلع نحو الابناء من بنات وذكور كي يساهموا في انقاذ الاسرة من الجوع والفقر والمرض · ولقد ادى هذا بدوره الى تغيير في مستوى الادوار داخل الاسرة واصبح الابن كما اصبحت الابنة التي اخذت على عاتقها مسؤولية حماية الاسرة بما فيها رب الاسرة الاساسي من الفقر والجوع والمرض تمسك بزمام الدور الرئيسي (اقتصاديا) في الاسرة وتوجيهها ··· كما ادى فقدان الارض كوسيلة انتاجية كانت تجمع افراد الاسرة للعمل فيها من رجال ونساء واطفال » · ادى الى اجبار الاسرة على الحاق ابنائها بالمدارس التي باتت تشكل بالنسبة لها المخرج الوحيد للازمة الاقتصادية التي تعاني منها الاسرة · «١٣» لقد ادى كل ذلك

الى تكسير حدة التقاليد التي كانت تحيط بالمرأة سواء من ناحية السماح لهـــا بالعمل في مجالات عمل لم تكن تسمح بها الاسرة سابقا ، او من ناحية فتـــح مجالات التعليم امامها ، لتكون اكثر تأهيلا وقدرة عـلى القيام باعـمال تدر دخلا اكبر · ولذلك فاننا نلاحظ في هذه المرحلة ازدياد عـدد الطالبـات فـي مراحـل التعليم المختلفة بشكل لا يقـل كثيرا عـن عـدد الطلاب كما كـــان الحال قبل العـام ١٩٤٨ · وكانت نسبة التفاوت بين عـدد الطالبات الـــى الطلاب تضيـــق سنـــة بعـــد سنة لتصـــل الى وضع متقارب في اواســـط الستينات · وهذا يدل على ازدياد اقبال الفتيات على التعليم · في العــــام ١٩٥٤ بلغ عـدد التلاميذ في مدارس «الاونروا » في غـزة والاردن وسوريـا ولبنان ٧٤٨ر٩٠ في المرحلة الابتدائية ، كان منه م٤٠١ر٣٠ اناث اي بنسبة ٥ر٣٣٪ من مجموع التلاميذ · وفي المرحلتين الاعدادية والثانوية كـان عـــدد التلاميذ ٣٨٤١ منهم ٢٣٩ من الاناث فقط اي بنسبة ٢٢ر٦ ٪ ، (١٤) وهذا التفاوت الكبير بين عدد التلاميذ الذكور الى عدد التلاميذ الاناث يعود الى عدموجودفتيات مؤهلات لمرحلتي الدراسة الاعـدادية والثانوية يوازي او يقارب عدد الطلاب، وهذا التفاوت اخـذ يضيق في السنوات اللاحقة معتخرج اعداد كبيرة مـــن الفتيات اللواتي انهين الدراسة الابتدائية واصبحـــن مؤهلات لاكمال دراستهـن الاعـدادية والثانوية · ففي العـام ١٩٦٣ بلغ عـدد التلاميذ في مـــدارس الاونروا في كل من غـزة وسوريا والاردن ولبنان ٩٣٢ر٣٠ تلميذ فــــي المرحلتين الاعـدادية والثانوية ، كان منهم ٣٧٦ر١١ اناث اي بنسبة ٧٧ر٣٦٪ وفي المرحلة الابتدائية كانت نسبة الفتيات الى مجموع التلاميذ ٨٥ر٤٤٪ حيث بلغ عدد التلاميذ ٣٠ر١١٧ تلميذ كان منهم ٤٩٣ر٥٢ من الاناث ·(١٥)

وهذا يدل عـلى ان الفتاة الفلسطينية قطعـت شوطا كبيرا في الحصـول على فرص متكافئة مع الرجل في مجالات التعليم ، ولم يعـد الاهل يعارضـون او يمانعـون في سفر الفتاة الى بلد عربـي اخر لاكمال تحصيلها العلمي فـي الكليات الجامعـية ، بل عـلى العـكس من ذلك فقد كانت نسبة كبيرة مـــن الاسر تشجع فتياتها عـلى اكمال تحصيلهن العـلمي ، لان الحصول عـلـى شهادة عـلمية اصبح هو المدخـل للحصول عـلى وظيفة ودخـل جيد · ولا شك ان وضعـا كهـذا يقلص من حـدة اخضاع الفتاة لاسرتهـا ، ويكسبهـا نوعـا من الاستقلالية في الرأيوفي العـمل · ولهذا فاننا نلاحـظ في هـــذه المرحلة تزايد عـدد الاناث العاملات فـي مجالات العـمل المختلفة ولا سيمـــا في اقطار البترول العربية التي كانت تمتص العـدد الكبير من المتعلميـــــن الفلسطينيين في مدارسها بشكل خاص · ففي العام ١٩٦٥ كان يعـــمل فـي

الكويت ٢٢٥٨ فلسطينية معظمهن كن يعملن في التدريس وبلغت نسبة الفلسطينيات الى الفلسطينيين الموظفين في الكويت ٢٨ر٩١٪ في العام ١٩٦٦ ·
(١٦) الا ان ما يجدر ذكره هنا ، ان معظم العاملات الفلسطينيات في اقطار البترول العربية كالسعودية والكويت ، كان في التدريس ، والغالبية منهن كن معلمات في مدارس ابتدائية ★ ، وهذا يدل على ان حاجة الاسرة الاقتصادية كانت تفرض على الفتاة العمل قبل اكمال دراستها الجامعية ·

لقد نجم عن فتح مجالات التعليم والعمل امام المرأة الفلسطينية ، بعض التغيير في نمط العلاقات السائدة داخل الاسرة الفلسطينية ، ولكنه لم يكن تغييرا كبيرا الى حد يمكن القول ان انقلابا جذريا حدث في وضع المرأة الفلسطينية سواء داخل الاسرة او في المجتمع · ان ما حدث كان بمثابة مؤشر على اهتزاز العلاقات القديمة وعدم قدرتها على استيعاب التطورات الجديدة · وهو اهتزاز كان اكبر واوضح في الاسرة التي من اصل مديني عنها في الاسرة التي من اصل قروي · كذلك فانه كان اوضح واكبر في التجمعات الفلسطينية التي تقيم خارج المخيمات منه في تلك التي كانت تعيش في المخيمات · وهذا هو الذي يفسر لنا ما نلاحظه من استمرار للسلوكيات والعادات التقليدية لدى بعض الاسر الفلسطينيين ازاء المرأة بهذه الدرجة او تلك من الحدة او الصرامة ، ومن بداية تلاشي هذه السلوكيات والعادات لدى اسر اخرى ، بهذه الدرجة او تلك من المرونة · ووجود ظواهر كهذه يدل على ان المجتمع العربي الفلسطيني يمر في مرحلة انتقالية ، ويؤكد ان الخروج من اطار العلاقات الاجتماعية القديمة ، وتحديدا فيما يتعلق بالمرأة ، امر يتطلب زمنا معقولا ويحتاج الى جهد ثوري ·ولذا فان حصول

★ لا توجد احصاءات عن العاملين من الفلسطينيين في اقطار البترول العربية قبل العام ١٩٦٧ باستثناء الكويت ، وجميع الاحصاءات هي بعد هذه الفترة · اضافة الى ذلك فان نسبة كبيرة من الفلسطينيين حاملي الجنسية الاردنية يصنفون هناك كاردنيين وليس كفلسطينيين · ولذلك فاننا في ايرادنا لبعض الاحصاءات لاعتمادها كمؤشر ، سنأخذ العام ٦٨ ـ ٦٩ كاساس لهذا المؤشر · وسنعتبر المصنفين كاردنيين ، فلسطينيين · في العام الدراسي ٦٨ ـ ٦٩ بلغ عدد المدرسين « اردنيين وفلسطينيين » في السعودية ٨٣٣٠، كان من بينهم ٢٥٩٠ من الاناث ، منهن ٢٤٦٨ كن يدرسن في مدارس ابتدائية · وكان يدرس في الجامعات السعودية ٤٤ كان منهم ٢ من الاناث · وفي البحرين كان يوجد في العام الدراسي ٦٨ ـ ٦٩ ٣٠٠ مدرسا كان منهم ١٢١ من الاناث · وفي ابو ظبي كان يوجد ١٨٧ مدرسا كان منهم ٧٧ من الاناث · وفي قطر بلغ عدد المدرسين « فلسطينيين واردنيين » في العام الدراسي ٦٧ ـ ٦٨ ، ٣٦١ مدرسا و ٢٤٩ مدرسة ·

ـ جميع هذه الاحصاءات ماخوذة عن احصاءات فلسطينية ص ٢٢٩ و ٢٧٤ و ٢٨١ و ٢٧٨ ·

الفتاة على قسط من التلعيم ودخولها معترك الحياة كعضو منتـــج . لـــم يخلصاها بشكل كامل من سطوة المجتمع بقيمه وتقاليـــده السلفيه ولكـــن بهمـا ومن خـلالهمـا شقت المرأة الفلسطينية بدايات جيدة ، للتحرر مـــن بعض اشكال اضطهادها . وهو تحرر لم يكتسب صفة شمولية بعـد ، ولا يزال محصورا في اطار النسوة المتعلمات أو اللواتي يعملن ، في حين ان جمهـــرة النساء لا تزال تعيش تحت سيطرة اشكال من الاضطهاد اقسى من تلك التـــي تواجهها المرأة المتعلمة او العـاملة . وهذا يعـني ، انه عـلى الرغـم مـن المعطيات الجديدة التي طرأت على بنية المجتمع العربي الفلسطيني بعد النكبـة ، والتي كانت تدفـع في الاسراع بوتيرة التحولات في البنية الفوقية له باتجـــاه ثوري ، فأن المجتمع العربي الفلسطيني لا يزال يزخر باشكال وظواهـر عديـدة عن استلاب المرأة وقسرها في بوتقة النظرة التقليدية للرجـــل .

نشاطات المرأة الثورية

شاركت المرأة الفلسطينية في مختلف النشاطات الثورية في هذه المرحلـــة ، عبر اشكال من النضال مختلفة ومتفاوتة . وعـلى الرغـم من ان اشتـــراك النساء في النشاطات الثورية في هـذه المرحلة ، كان ارقى واعـــم ، ممـــا كان عـليه اشتراكهن في المرحلة السابقة ، فان مدى مشاركتهن لم يكن بمستوى ما طرأ عـلى المجتمع العربي الفلسطيني من تغييرات وتطورات ، ولم يبلـــغ تلك الدرجة التي تجعـل من مسألة اشتراك المرأة في العـمل الثوري مسألـة عـادية ، او مسألة لا تثير استغـراب المجتمع المحيط بهـا ، سواء كـــان استغراب الاعجاب بنشاطها الثوري او استغراب الاستهجان به والنفـــور منه . فالمرأة المناضلة والتي تساهـم بفعـالية في النشاطات الثورية كانـــت لما تزل حالة طلائعية ومحصورة الى حـد كبير بين النسوة اللواتي نلن قسطا لا بأس به من التعليم والثقافة ، او بيـــن النسوة اللواتي كـــن يعشـــن في عائلات يغـلب عـليها الجو الوطني ويغـلب عـلى معـظم افرادها التعاطـي بالعـمل السياسي الوطني والثـوري . اما المرأة العـاملة في مصنـــع او القروية او المقيمة في مخيم ، وربة المنزل ، والى حـد ما . المتزوجة ، فقـد ظلـت بعـيدة عـن التعـاطي بالعـمل السياسي او الاشتراك في النشاطـات الثورية ولو فـي حدودها الدنيا ، باستثناء فترات المد الوطني التي كانـــت تجرف اوسع الجماهير الى حلبة الصراع الثوري . ففي هـذه الفترات ،التي كانت عبارة عـن هبات جماهيرية ، كانت الجماهير النسائية تشارك ــ بحدود ــ في النشاط الثوري ، ولا سيما بالتظاهرات ، التي كانت تضم المرأة ــ الام وربة المنزل ، جنبا الى جنب مع المرأة المتعلمة أو الحزبية ومع الطالبـــة . **وكانت التظاهرات في كثير من الاحيان ، هي الشكل النضالي السائد وشبـــه**

الوحيد الذي كان يتيح اشتراك اوسع الجماهير النسائية في النشاط الوطني والثوري . ونقول بكل اسف . ان هذا الاشتراك الواسع للجماهير النسائية في النشاط الثوري عبر التظاهرات ، والذي كان يدل على وجود رغبة لدى النساء للاشتراك بفعالية في النشاط الوطني او الثوري ، لم يكن يجري تطويره او الاستفادة منه في اشراك عدد اكبر من النسوة في اشكال نضالية اخرى . ولذا فان مثل هذا الاشتراك الواسع لم يكن ليتجاوز حالة الطفرة التي كانت تهب مع حالات المد الوطني لتغيب غيابا شبه كلي مع حالات الجزر الوطني وسيادة اجواء الارهاب والقمع . وسيادة مثل هذه الظواهر في النضالات السياسية للمرأة لم يكن سببه المرأة كما يقول بذلك الكثرة من الرجال الذين لا يرون في اشتراك المرأة في العمل الثوري ، الا سعيا من المرأة للبروز واستعراض نفسها امام الرجال ، بل يعود الى الرجل نفسه الذي لا يزال يرى في المرأة مجرد تلك « الحرمة » او «الولية » التي تقع عليها مسؤولية الحفاظ على شرف العائلة . وهو لذلك يخاف عليها ، لانه يخاف أن يلوث شرف العائلة اذا تعرضت للاعتقال او الاختلاط بالرجال من جراء نشاطها الثوري . لقد كانت النساء بشكل عام ، يبدين اندفاعا نحو العمل الوطني او الثوري اذا اتيحت لهن الفرصة ، وما كن ليتقاعسن. واللواتي اتيحت لهن الفرصة ابدين مقدرة وكفاءة لا تقل عن مقدرة وكفاءة اي من المناضلين من الرجال . فهذه رجاء ابو عماشة التي كانت تقود التظاهرات ضد حلف بغداد وسقطت شهيدة في القدس . وهذه ناديا السلطي التي اشتركت في نسف مبنى مجلس الاعمار الاردني في عمان في العام ١٩٥٨ وتعرضت للاعتقال ولابشع انواع التعذيب ، ولم يمنع كونها امرأة من انتعتقل وتعذب . وكثيرات تعرضن للاعتقال والتعذيب في الاردن في اواخر الخمسينات والنصف الاول من الستينات ، منهن سعاد هريش ونهيل عويضه ووداد قمري، اللواتي اعتقلن في الاردن في العام ١٩٦٦ لنشاطهن السياسي وانتمائهن الى حزب سياسي .

فالمرأة اذن عندما تتاح لها الفرصة لا تتوانى ولا تتقاعس عن تادية واجبها الوطني ، ولكن ما يحول دون اشتراك المرأة الواسع في النضال هو المجتمع بقيمه وتقاليده . المجتمع الذي قد يعجب في بعض الاحيان ، بصورة المرأة المناضلة والثائرة ويرى فيها مجالا للفخر والاعتزاز ، ولكنه لا يستسيغ ولا يقبل تحمل ما يفرضه وجود امرأة كهذه من تغيير في انماط السلوك ازاءها وفي انماط التعامل معها ، بما يتيح لها انماء شخصيتها المستقلة واكتساب ثقتها بنفسها . بل نجد على العكس من ذلك ، ان المجتمع كان يفرض حدودا وضوابط للتعامل مع المرأة المناضلة

والثائرة ، لا تختلف عن تلك الحدود او الضوابط التي يفرضها على المرأة القابعة في البيت ، والتي لم تكتشف شخصيتها وكيانها من خلال انغماسها النضال او من خلال احتكاكها المباشر بالمجتمع الواسع من حولها · ولذلك فان مجتمعا كهذا كان يحاسب المرأة المناضلة بقسوة على اي خطأ قد تقع فيه بحكم ما يفرضه الاحتكاك والاختلاط بالمجتمع من تصادم مع المشكلات الاجتماعية ، وهو تصادم لا يخلو بالضرورة من الوقوع في بعض الاخطاء ، ومن سلوكيات لا تتوافق مع السلوكيات السائدة ازاء امور كثيرة ·

لقد تأثرت المرأة الفلسطينية بنكبة ١٩٤٨ وعاشت هول النكبة وعمق المأساة · عاشت هول النكبة عندما فقدت الارض والبيت ، فكانت تشعر بالانتماء الى الوطن كأي رجل ، كانت تدرك انه لا بد من النضال لاستعادة هذا الوطن ، وهو نضال يفرض عليها تبعات ومسؤوليات · وهذا الادراك تمثل في اكثر من صورة نضالية ، منها ، **صورة المرأة ــ الام** ، التي كانت تربي اطفالها وتربي معهم الشعور بالانتماء الى الوطن والقضية · صورة المرأة ــ الام التي كانت تتجاوز امومتها وشعورها كأم ، عندما كان يعتقل او يستشهد ابنها من اجل القضية · وكثيرات من الامهات اللواتي كن يستقبلن نبأ استشهاد ابنهن في معركة مع العدو الصهيوني او خلال تظاهرة وطنية بالزغاريد · صحيح أن الام والزوجة والاخت كن في حالات عديدة عامل شد الى الوراء بالنسبة الى الرجل ، يذكرنه دائما بمسؤولياته العائلية ويطلبن منه التخفيف او الحد من نشاطه الوطني والثوري لانه « رجل العائلة » ومعيلها · ولكنه صحيح ايضا ،أن موقف الام او الزوجة او الاخت هذا ، لم يكن الا وليد كون الرجل هو المسؤول الى حد كبير عن اعالة العائلة ، ولذا فان هذا الموقف اخذ بالتراجع مع وجود اكثر من مصدر رزق واحد للعائلة الواحدة عندما اخذت الزوجة او الاخت ، والام ــ احيانا ــ تعمل · كذلك فان هذا الموقف كان يضيق تأثيره ويتراجع كثيرا اثناء فترات المد الوطني ·

كان المجتمع بقيمه وتقاليده السلفية عاملا من اهم العوامل التي انتصبت امام المرأة وحالت دون اشتراكها بفعالية في النضال من اجل قضيتها الوطنية ، وكانت المرأة المناضلة تعاني من جراء ذلك الكثير ، فكثيرا ما كانت تقع فريسة الصراع بين الالتزام بواجبها الوطني وما يفرضه هذا الالتزام من تطور في شخصيتها وعلاقاتها مع العائلة والمجتمع ، وبين الالتزام بقيود العائلة والضوابط التي تفرضها حول المرأة ·

اضافة الى عامل المجتمع كعامل معرقل لاشتراك المرأة في النشاطات الثورية بفعـالية ، برزت عوامل اخرى ضاعـفت من التاثيرات السلبية لهذا العامل· ومن هذه العوامـل :

١) **التوزيع الجغرافي للشعب الفلسطيني** : وضع التوزيع الجغرافي للشعب الفلسطيني ، التجمعات العربية الفلسطينية في اقطار اللجوء العربية وسـط مجتمعـات عربية مختلفة ومتفاوتة في تطورها الاقتصادي والاجتماعـي ، مما خلق تفاوتا واختلافا في دور هـذه التجمعات في العملية الثورية فـي كـل مجتمع ، وذلك على ضوء التحديات السياسية والاجتماعية والاقتصادية التي كانت تواجهها هـذه التجمعـات في الاقطار التي لجات اليها ، وعـلى ضوء الوضع السياسي والحقوقي لهـذه التجمعـات في كل قطر وجدت فيه · فالفلسطينيون في الاردن والذين كانوا يمثلون النسبة الاكبر من سكانه اعتبروا رعايـا اردنيين وجنسوا بالجنسية الاردنية ، وكانوا في مركز التاثير حضاريـا فـي حياة السكان من اصـل شرق ــ اردني بحكم التفاوت الحضاري بيـن المجتمعين الفلسطيني والشرق ــ الاردني · ولقد وجد الفلسطينيون فـي الاردن انفسهم في مواجهة نظام فاشي قمعـي ، كان له دور كبير في العـمل ضد القضية الوطنية الفلسطينية . فناضلوا ضد النظام الهاشمي ومن احـل قضيتهم الوطنية والقضايا القومية الاخـرى ، وشكلوا الجسم الاكبر مـن الحـركة الوطنية في الاردن · لقد كانت الساحـة الاردنية ساحة نضـال ونشاط ثوري جذبت اوسع الجماهير هناك الى حلبة الصراع الثوري · والمـرأة الفلسطينية في الاردن لم تكن بعيدة عـن هـذا الواقع ، بل اشتركت فـي النضال باشكاله المختلفة وكانت لهـا مساهمات قيمة في هذا المضمار ولهـذا فقد كانت تجربتها السياسية في الاردن انضج واوضح من تجربتها فـي اي قطر عربي اخـر · اضافة الـى ان اللواتي استقطبهن العـمل الثوري فـي الاردن كان اكبر منه فـي اي قطر عربي اخـر · وهذا الاستقطاب لـم يبق في حـدود التاثيرات الكمية ، بل اوجد تغييرا نوعـيا في وضع المرأةالفلسطينية هناك ، واوجد نوعـيات جيدة لنساء مناضلات ساهمن بفعـالية في الثورة الفلسطينية في المرحلة اللاحقة ·

اما في قطاع غـزة ، فلم تواجه المرأة الفلسطينية التحديات نفسها التـي واجهتها المرأة الفلسطينية في الاردن بحكم اختلاف مهمات الحركة الوطنيـة ـالفلسطينية هناك عن مهمات الحركة الوطنية في الاردن · فكان مـدى اشتـراك المرأة هناك في النشاطات الثورية ضئيلا ، واحيانا كان مقتصرا عـلـى الجمعـيات النسائية الخيرية ذات الافق البورجوازي · وفي اقطار اللجـوء

العربية في سوريا وفي لبنان مثلا شاركت المرأة الفلسطينية في النشاطات الثورية عبر الاحزاب والتنظيمات السياسية التي كانت موجودة في هذه الاقطار ، وشاركت في الهيئات الجماهيرية ضد الاحلاف الاستعمارية وسياسات التوطين والاسكان للاجئين الفلسطينيين ٠ ولكن هذه المشاركة لم تكن بالمستوى الذي كانت عليه المرأة الفلسطينية في الاردن ٠

نخلص من كل ذلك ، الى ان التوزيع الجغرافي على الرغم من انه لم يقض على الوحدة النضالية التي كانت تجمع كل الفلسطينيين اينما كانوا في النضال من اجل عودتهم الى وطنهم ، وما كان يفرضه هذا النضال من خوض نضالات على مستوى القطر نفسه احيانا ، على الرغم من ذلك، فان التوزيع الجغرافي لفرز مهمات نضالية متفاوتة ومختلفة للتجمعات الفلسطينية في هذا القطر او ذلك ، مما اوجد اختلافا وتفاوتا في درجة استقطاب المرأة الى هذا النضال وهما اختلاف وتفاوت لم يؤثرا فقط على وضع المرأة الفلسطينية في العملية الثورية في كل قطر ، بل اثرا ايضا والى درجة معقولة على نسبة انعتاق العدد الاوسع من النساء من نطاق بعض القيود الاجتماعية ٠

٢) عدم جدية الاحزاب والتنظيمات السياسية في طرح مسالة تحرير المراة :

ان اهم ما يميز هذه المرحلة من النضال الوطني الفلسطيني هو غياب الشخصية الوطنية الفلسطينية كشخصية مميزة لها اداتها السياسية والتنظيمية المعبرة عنها ٠ فسياسات التوزيع الجغرافي والالحاق السياسي للارض والشعب ، عملت على طمس الشخصية الوطنية الفلسطينية ،ولم يجر ابراز هذه الشخصية الا في اوائل الستينات وتحديدا مع بداية الثورة الفلسطينية في العام ١٩٦٥٠ وغياب الشخصية الوطنية الفلسطينية حال دون قيام اية تنظيمات فلسطينية تخبر عن المهمات النضالية المحددة لحركة الوطنية الفلسطينية ، ولهذا فقد ناضل الفلسطينيون في الاقطار العربية من خلال الاحزاب القومية او الشيوعية التي كانت قائمة في هذه الاقطار ٠ ومن ابرز هذه الاحزاب ، حزب البعث ، حركة القوميين العرب . والاحزاب الشيوعية العربية عامة والحزب الشيوعي الاردني خاصة ٠

وعلى الرغم من تفاوت هذه الاحزاب في نظرتها لمسالة تحرير المراة ، فانها جميعها لم تعط هذه المسالة اهمية ملحوظة ، وكانت محاولاتها في هذا المجال ، لا تتعدى العمل على ضم بعض النسوة الى الحزب او الحديث العام عن ضرورة مساواة الرجل والمراة ٠ ولم يطرح اي حزب منها

برنامجا محددا لمسألة تحرير المرأة ، كما لم يطرح اي منهما حتى في برامجه العامة* مطالب نسوية محددة باستثناء بعض الاشارات العامة وغير المحددة التي كانت ترد احيانا في بعض البرامج . وحتى هذه الاشارات العامة كانت تظل جبرا على ورق ولا تجد طريقها الى التنفيذ على صعيد عملي.

فالحزب الشيوعي الاردني مثلا ،والمفروض فيه ان يقدم النموذج الافضل في هذا المجال ، لم يكن وضع المرأة داخله ومجمل مواقفه المعلنة والعملية من المرأة لتختلف كثيرا عن اي حزب قومي بورجوازي اخر . فالحزب كان يخشى أو يتخوف من طرح مسألة تحرير المرأة على مستوى واسع مراعاة للتقاليد وخوفا من ان يفقد قاعدته الشعبية ظنا منه ان طرح مسالة تحرير المرأة سيلاقي معارضة شديدة من ارسع الجماهير . ولهذا كان الحزب يبالغ في مراعاة التقاليد وكان يفرض على اعضائه من النسوة تجنب تجاوز قيم المجتمع وتقاليده ، وكان يحثهن على ان يراعين في مسلكهن ومظهرهن المستوى العام للفئات الشعبية التي يعملن في اوساطها . ومن هذا المنظار ، فقد كان للنساء في الحزب خلاياهن الحزبية الخاصة واجتماعاتهن الحزبية الخاصة « ولم يكن هنالك اي خلايا حزبية مختلطة الا في حالات نادرة جدا . ونتيجة لذلك فقد اقتصرت مهمة المرأة الحزبية على القيام بالدور التحريضي الذي يمارسه مجموع الاعضاء ، كتسيير التظاهرات ، وتوقيع العرائض ،وطباعة المنشورات والصاقها على الجدران . (١٧) أو القيام بمهمات ضباط الاتصال لايصال الرسائل والمنشورات من مكان لاخر . فقد ظل تنظيم الفتيات في الحزب مقتصرا على الطالبات وبعض النسوة المرتبطات بعلاقة قرابة او زواج باعضاء من الحزب . ونتيجة لهذا الواقع ، فانه طيلة تاريخ الحزب الشيوعي الاردني لم تصل الا امراة واحدة الى مرتبة عضو لجنة مركزية في الحزب » (١٨)

وبالنسبة لحزب البعث ،لم تكن الصورة لتختلف كثيرا . فالمرأة دخلت الحزب من منطلق وطني عام ، باندفاعات ذاتية او نتيجة لعلاقة قرابة او زواج من بعض كوادر واعضاء الحزب . ولم يكن هناك وجود لاي خلايا مختلطة ، وغالبية الفتيات المنتميات الى الحزب كن من المثقفات والطالبات ، وعضويتهن في الحزب لم تكن مستقرة ، فكانت الغالبية منهن تتساقط من الحزب بعد الزواج . ومجالات نشاط المرأة في الحزب لم تكن تتعدى النشاطات

---

* مثال على ذلك ما ورد في البيان الصادر عن المؤتمر القومي السادس لحزب البعث العربي الاشتراكي والمنعقد في العام ١٩٦٣ حيث جاء فيه حول المرأة « ان تحرير المرأة يقع في رأس مهمات الثورة القومية الاشتراكية ، وان بناء مجتمع عصري ديموقراطي متحرر لا يمكن ان يكون تاما وسليما الا اذا واجه قضية تحرير المرأة مواجهة مبدئية وشاملة » .

التحريضية ، والاشتراك في التظاهرات وتوزيع المنشورات وايصال الرسائل ٠

وفي حركة القوميين العرب كانت الصورة مشابهة لما عليه في حزب البعث ٠ فالتنظيم النسائي في الحركة كان من الطالبات والمثقفات ، ولو ترتبطن بالحركة كان نتيجة علاقة قرابة او زواج من بعض اعضاء الحركة ، ولم يكن يوجد اي خلايا مختلطة ٠ فالتنظيم النسائي كان تنظيما قائما بذاته له خلاياه الخاصة واجتماعاته الخاصة ، والمسؤول عنه ليس امراة بالضرورة ٠ واعلى مرتبة تنظيمية وصلت اليها امرأة في الحركة كانت عضو شعبة اي عضو لجنة منطقة ، حيث وصلت امراة في مدينة نابلس الى عضو لجنة منطقة في العام ١٩٦٥ ولم تتكرر هذه الظاهرة في اي مدينة اخرى ٠ اما مجالات نشاطات المراة في الحركة فكانت هي نفسها مجالات نشاطات المرأة في حزب البعث باستثناء بعض الحالات النادرة جدا ، حيث قامت بعض النساء في الحركة بمهمات وضع متفجرات في بعض الاماكن في الاردن وبمهمات نقل سلاح واخفائه ٠

تعددت اشكال النشاط الوطني والثوري للمراة الفلسطينية في هذه المرحلة بتعدد المهام النضالية امامها وباختلاف الوضع الطبقي للنشيطات من النساء٠ ويمكن اجمال هذه النشاطات بالاتي :

١ ـ **تشكيل الجمعيات والنوادي النسائية** : وهي جمعيات ونواد كانت تقوم بنشاطات اجتماعية لتقديم بعض الخدمات للاسر الفلسطينية التي شردتها النكبة ٠ ولم يكن لهذه الجمعيات والنوادي اية نشاطات سياسية محددة، وكان معظم القائمين عليها من النساء البورجوازيات ٠ ولذلك فان هذه الجمعيات كانت لا تتعدى كونها جمعيات خيرية ، لم تمارس اي نشاط فيما يتعلق بمسالة تحرير المراة باستثناء القلة القليلة منها والتي اخذت في تجاوز الطابع الخيري او الاجتماعي لعملها ٠ من هذه الجمعيات :

١ ـ دار الطفل العربي ـ القدس ـ اسستها هند الحسيني للعناية باطفال شهداء دير ياسين ٠

٢ ـ دار اليتيم ٠

٣ ـ دار رعاية الاحداث اسستها ليندا ناصر ٠

٤ ـ جمعية المراة العربية ٠

٥ ـ نادي الشابات العربيات ·

٦ ـ جمعية المناضل الجريح ـ غزة ·

٧ ـ جمعية تأمين العمل للاجيء الفلسطيني ـ دمشق (١٩) ·

٨ ـ جمعية انعاش الاسرة ـ البيرة ـ تأسست في العام ١٩٦٥ باشراف عدد من النشيطات من النساء الفلسطينيات في الاردن · ولم تقتصر مهماتها على المهمات الاجتماعية والخيرية فقط ، بل عمدت الى تأسيس مشاغل خياطة وتريكو لتدريب الفتيات وايجاد مجالات عمل لهن وقامت بنشاط ملحوظ لمحو الامية بين النساء · كما كانت تقوم بتقديم مساعدات للطلبة لاكمال دراستهم · لقد تضاعفت مهمات هذه الجمعية ونشاطاتها بعد العام ١٩٦٩ بشكل اساسي ·*

ب ـ **العمل النقابي النسوى :** توزيع الشعب الفلسطيني ومحاولة طمس شخصيته الوطنية بعد نكبة العام ١٩٤٨ ، كان لهما الاثر الاكبر في عدم قيام مؤسسات نقابية فلسطينية خاصة · ولذا فأنه الى ما قبل نشوء منظمة التحرير الفلسطينية في العام ١٩٦٤ . تعثرت كل المحاولات التي كانت تقوم بها نساء فلسطينيات لانشاء اتحاد نسوي فلسطيني · حيث ان النظام الاردني كان يمنع قيام اي اتحاد او مؤسسة نقابية باسم فلسطيني ، معتبرا ان الفلسطينيين في الاردن رعايا اردنيون كما ان الدول العربية الاخرى لم تكن تشجع قيام مثل هذه المؤسسات ·

ولكن مع الاعلان عن قيام منظمة التحرير الفلسطينية ، بدأت تظهر الى الوجود اتحادات ومؤسسات نقابية فلسطينية · فجرى في العام ١٩٦٥ عقد مؤتمر نسائي فلسطيني في القدس برعاية منظمة التحرير الفلسطينية انبثق عنه الاتحاد العام للمرأة الفلسطينية باعتباره تنظيما شعبيا نسائيا فلسطينيا مهمته تنظيم وتعبئة المرأة الفلسطينية وتوحيد طاقاتها لخدمة المعركة ·**

ج ـ **الانخراط في العمل الحزبي :** التحقت المرأة الفلسطينية بالاحزاب العربية من بعث وحركة قوميين عرب واحزاب شيوعية من اجل الدفاع عن

---

* انظر عرضنا التفصيلي عن هذه الجمعية ونشاطاتها في الفصل الخاص بهذا الكتاب عن المؤسسات النسوية الفلسطينية ·

** عقد هذا المؤتمر في القدس في الفترة بين ١٥ ـ ٢١ تموز ١٩٦٥ بحضور « ١٣٩ » مندوبة يمثلن جميع قطاعات العمل النسائي الفلسطيني ·

قضيتها الوطنية ٠ ولكن كما اشرنا ، فان نسبة من استقطبتهن هذه الاحـزاب كانت قليلة جدا ، وكن في غالبيتهن اما طالبات او نساء مثقفات ٠ اضافـــة الى ان غالبيتهن كن من اوساط بورجوازية ٠ ولذلك فان تجربة المرأة الفلسطينية في الاحزاب العربية لم تقدم لهـا الشيء الكثير ، ولم تساهم كثيرا فـي تقدم مسألة تحررها ٠ والنتيجة المهمة لانخـراط المرأة الفلسطينية في العمـــل الحزبي ، هو بناء عـدد لا بأس به من الكوادر النسائية اللواتـي لعبن دورا طلائعيا وقياديا في المرحلة التالية اي بعد العام ١٩٦٧ ٠

اضافة الى هذه الاشكال من النشاط الوطني والثـوري ، فان المرأة لم تكن غائبة عـن مسرح الاحداث مع نشوء منظمة التحرير الفلسطينية ، حيـث اشتركت عـشر نساء في المؤتمر الوطني الفلسطيني الاول الذي عـقد فـي القدس في ايار ١٩٦٤ باعتبارهن ممثلات للقطاعـات النسائية الفلسطينـيـة، وبوحـي منهن اتخـذ المؤتمر قرارين بصدد المرأة : فقد نص احد قـرارات المؤتمر عـلى « العـمل عـلى محو الامية ورفعمستوى الاسرة الفلسطينيـة » كما نص احـد القرارات العـامة للمؤتمر عـلى « اشتراك المرأة الفلسطينيـة العربية في جميع مجالات العـمل التنظيمي والنضالي ومساواتها بالرجل فـي جميع الحقوق والواجبات من اجل تحرير الوطن »(٢٠) ٠ وعلى الرغـم مـن أن هـذه القرارات لم تكن تعبر تعبيرا كافيا عـن طموحات المرأة الفلسطينيـة والتقدميين الفلسطينيين ، فجاءت عـامة وينقصها الوضوح والتحديد ،فانهـا كانت تشكل بداية لا بأس بها ٠

---

(١) يذكر نزيه قورة في كتابه « تعليم الفلسطينيين ـ الواقـع والمشكـلات » منشورات مركز الابحاث الفلسطينيـة ، بيروت ١٩٧٥ ، ص ٢١ ، ان سجلات الامم المتحدة تشير الى ان الفلسطينيين الذين هاجروا في العام ١٩٤٨ توزعـوا فـي الاقطار العربيـة كالتالي ١٨٧ر٨٣ فـي سوريا ، ٨٩٦ر١٠٦ في لبنان ،٣٤١ر٤٦٥ في الاردن و ١٤٣ ر ٢٠٠ في غـزة ، اضافة الى ٣٨٠ ر ٢٤ كانوا لاجئين فـي فلسطين المحتلة ٠

(٢) انظر احصاءات فلسطينية ،اعداد الياس خوري ، منشورات مركز الابحاث الفلسطينية ، بيروت ١٩٧٤ ، ص ١١ ٠

(٣) الاونروا ، النشرة الاحصائيـة ، ايار ١٩٥٠ ـ حزيران ١٩٥١

(٤) المصدر نفسه ٠

(٥) يوسف ، شحـادة ، الواقـع الفلسطيني والحركة النقابية ، منشـورات مركز الابحاث الفلسطينية بيروت ١٩٧٣ ، ص ٢٨ ـ ٢٩ ٠

(٦) المصدر نفسه ص ٢٨ ـ ٢٩ ٠

(٧) قورة ، نزيه ص ٢٢ ٠

(٨) المصدر نفسه ، ص ٢١ ٠

(٩) يذكر نزيه قورة في كتابه « تعليم الفلسطينيين ـ الواقع والمشكلات ص ٢٢ » أن ١٧٦و٩٧٦ شخصا تركوا الضفة الغربية طوعا خلال سنوات ١٩٥٢ـ١٩٦١

(١٠) يوسف شحادة ٠٠٠ ص ١٧ ٠

(١١) احصاءات فلسطينية ٠٠٠ ص ٢٩٧ ب

(١٢) شحادة ، يوسف ٠٠٠ ص ٢٠

(١٣) الرملاوي ، نبيل ، المجتمع والاسرة الفلسطينية في ضوء التغيرات نحو المستقبل ، قضايا عربية العدد ٣ ـ ٤ ١٩٧٥ ص ٨٨ و ٨٩

(١٤) احصاءات فلسطينية ص ٣٧٢

(١٥) المصدر نفسه ص ٣٣٤

(١٦) المصدر نفسه ص ٢٤٩

(١٧) انظر : مقدمات حول واقع المرأة وتجربتها في الثورة الفلسطينية ، ص ٥٤ ٠

(١٨) المصدر نفسه ، ص ٥٥ ٠

(١٩) المصدر نفسه ص ٠ ٥٢ ٠

(٢٠) أنظر قرارات المجلس الوطني الفلسطيني ، أعداد : : راشد حميد ، منشورات مركز الابحاث الفلسطينية ٠ بيروت ١٩٧٥ ٠ ص ٠ ٤٤ ـ ٤٥ ٠

مدينـــة الرواج ومخاض الحرب الأهلية

رئيف كرم

١ ـ بيروت واشكالية الرواج في الحرب الاهلية

المدينة حيز تريده المؤسسات السائدة امتدادا ماديا يؤكـــد سيطرتهـــا٠ سياستان متكاملتان تحكمان التخطيط المديني :

ـ تثبيت امتلاك الحيز المديني من قبل النظام ودورته عبر تشكله المـــادي ومقاومة هذا التشكل ـ مقاومة الاسمنت والحديد ـ لكل ما يطرأ عـليه ويهدده في عـملية نمو التناقضات الداخلية ـ

ـ استيعاب الناس في هــذا التشكل ودفعهم للانخراط في زمن توقعه دورة النظام الثنائية ، الانتاج / الاستهلاك

بيروت ، عصب الكيان / النظام الوسيط (١) وحيز تكثيف دورة الرواج(٢)٠ تمركز الخدمات / الكثافة السكانية ـ مدينة بنتها طفرة الذكاء المركنتيليـــة : سفينة تجارية رست عــند اسفل الجبل ـ قاعـدة الكيان الوسيط ـ مقدمتها وتشتد لمة بيروت « بالجبل » عبر سيطرة العصبية الكيانية عـلى بيــــروت وتسويقه ٠ مؤخرتها ابواب مشرعـة عـلى الداخل / دائـرة الوساطـــة ـ الريف ، المنطقة الغربية ـ يشدها اليه تبعيته وحاجته ٠ بنيتها الداخلية حيـز توازن يتزاحم فيه الناس في دورة الرواج وحركة الوصل والنقل زمن انتصار

رغبات الغـرب بالعنف المباشر وغـير المباشر ، تغـلق حركتهم في محدوديتها وعرضيتها ـ محدودية وعرضية التوازن فـي صراع المركز / الدائرة ـ قيـم الكسب بهالة وهمية من الثبات تنتج حضارة الكيان الطفيلية الازلية / المؤقتة ـ الرواج وتعطيله ٠

البيروتي هو الابن البار لدورة الرواج ٠ يولد من اغتصاب الغـــرب لتخلف العرب زمن الخضوع ٠٠ موقع بيروت ـ ينمو ابنا مدللا في عافيـــة التوازن المفروض ـ الطريق الى الداخـل العربي سالكه ـ يتغذى من انتفـاخ المدينة / مفصل التوازن ـ بيروت افراز دورة المال والبترول ـ ويطفو علـــى السطح بالرغـم من تخمته ، يتحرك برشاقة «الخادم» الغادرة ، يعرف مـــن اين تؤكل الكتف ، يهضم حاضره في تألق المدينة المضيافة وافرازات اغراءاتهـا ـ كوكبة الشرق ـ وحين يعسر عـليه الهضم ويكتشف تفاهة دوره وطفيليته يستعيد من ماضيه رموز « قدسية رسالته » يجترها دورة كاملة للرواج تحيـط بدماغه كما تحيط « الدائرة الالهية » رأس قديس في الايقونات القديمة ٠

بيروت ، هذه الحلبة الرياضية ـ المسالمة ـ لصراع النـــاس فـــي دورة الرواج ، هذا الحيز التزييني السريع العـطب لنظام الخـدمات منها انطلقت الرصاصة التي فجرت الحرب الاهلية بين الاسمنت والالمنيوم والزجاج فيهـــا عرفت الحرب اكبر الصدامات احتداما وتدميـرا ٠ ومن تحـت انقاضهـــا تحاول اصابع الكيان المنهـار ان تنتشل الابن الضال لدورة الرواج ، تشده غيرتها الوطنية لتنصبه بطـل خلاص في ساحاتها العامة ـ تيمنا بانصـــاب رجالات الكيان العظماء ـ يناطح في وقفتهالمعتادة ـ عادته قبول نتيجة رياضية للحرب ـ دوام الثلج على قمة فم الميراب ودوام الخضرة في ارز الجبـــل ٠ وعلى عودته تراهن سلطة الرواج على انبعاث دورتها من جديد متجاهلـــة « الاثقال » التي حملتها الحرب الاهلية الدامية لهـذا «البطل »٠

هل ينفذ البطل الشاطر ـ الشطارة ميزة اصالة للرواج ـ باثقال الحـرب ام يسقط تحت وطأتها ؟ تلك هي اشكالية مأزق النظام في جدلية التـــورط والخلاص التي اوقعته فيهـا حتمية اختلال التوازن في الحرب الاهلية ٠

٢ ـ تحولات بيروت ٠

موقع بيروت المركزي في الكيان الوسيط يجعلها تكثف صـــراع التـــوازن والاختلال في دورة الرواج : تكثف عافيته وتكثف اعتلاله ٠

● زمن الرواج / حيز منبسط ٠

استمرارية الكيان تؤمنها استمرارية غلبة المركز الامبريالي على دائرتـــه

العربية في التوازن · توازن الكيان ينبسط في عـافية دورة الرواج تقتضي لها غلبة عصبية التجزئة · تشبك بيروت بالداخل الذي يشكل بتركيبته التاريخية صمام الامان للتنمية الوسيطة الطفيلية ـ فائض نهب البترول ـ وتشتد لحمة بيروت «بالجبل» عبر سيطرة العصبية الكيانية على بيروت الشرقية وضواحيها واحكام قبضة غلبتها وركائز شراكتها على بيروت بخرقها للمواقع التي تهدد دورة الرواج (٣)فينبسة حيز بيروت افقيا كـ شبكة الرواج المدينية : تعانق الطائفة الغالبة الطوائف المشاركة ، تفكك تكتلاتها في دورة الرواج وتفترها على منبسط المدينة :

اوتستراد جونيه ـ بيروت يحكم قبضة انتفاخ الخدمات ببيروت الشرقية · شبكة الجادات تصل بيروت الشرقية ببيروت الغربية / تمركز مواقع السلطة ـ الوزارات ، البنوك ، لا سيما البنك المركزي ـ وتلفها من ناحية البحر حيث تنمو اكثر فاكثر مدينة اخرى تحاكي بكبريائها « الحضاري » مدن الغرب ـ الروشة ، الرملة البيضاء ، عين المريسة ، الفنادق ـ وتحكم الطوق حول « بؤر البؤس » تجرفها هامشية على جنبات مسالك الرواج ·

زمن الرواج ، تنتظم بيروت منبسطا من القنوات السالكة ، تسهل عملية التوزيع والخدمة · تتكاثر المسالك في الزحمة · يتدفق الناس عبرها فتطفو بهم بيروت في خارجها البراق ـ اضواؤها ، عماراتها ، ضجيجها ، ··· تعيش عـافية زمن الرواج في حاضرها ، تشق لبطلها في يومه مسلكه الامن·

● منبسط الرواج / الممرات السالكة ·

الممر السالك ليس حجارة مرصوفة وسيارة تقطعه وشارعا تحدد عبوره دلائل فقط · الممر السالك كناية عـن مسيرة يومية / خط بياني وهمي لبطل بيروت يشد به حيزها زمن رواجها ·

يندفع البيروتي في المسلك الضيق ـ يضيق المسلك في زحمة السالكين · يدفعه فيه انتماؤه ـ طائفة ، عائلة ،··· يصادم كتفه الاف الاكتاف · يلطم كتفا · يزيحه من دربه · يلطمه كتف اخر ، يزيحه · الكتف مراتبية وقاعـدة السباق · يتابع الكتف المنتصر مسلكه مخلفا غريمه عـلى قارعة الممر ـ القبول بالهزيمة مدخل لتجاوزها ـ تحرسه دلائل القانون ـ قانون التسابق في دورة الرواج وتمفصله بمراتبية الطائفة والعائلة ـ بتجاوز الحاجز القانوني / محطة امتحان قدرته عـلى اكمال السباق · تجاوز الشارة الحمراء، يحرمه القانون · تجاوز الامتحان ممكن · امكانيته ضرورة تحلل التجاوز من قبل المبتدع للمنع ابن النظام المدلل · عقوبة التجاوز ـ لو حصلت ـ حاجز

تجربة للنجاح ـ تمزيق محضر الضبط بين يدي مسؤول ـ نتوآت المسلك يمكن عبورها وان تخلل العبور تململ او وشوشات تلطف النتوءة · يصل البطل الى قصبة السباق ويشهد بوصوله على عافية النظـــام زمن الرواج · تتـــراوح القضية بين وظيفة حاجب في دائرة رسمية وصفقة ملايين ·

ومن يسقط عـند اول نتوءة / امتحان ترذلـه الحركة الجنونية عـلـــى المنبسط وترميه في بؤرة المنبوذين : يتفرج على تحركات الناس في المدينة مذهولا بتسارعهـا ، معللا النفس بالعودة ـ التحايل ـ يهرب المبيعات ، يستزلـــم ويفرض خوة . ·· وعندما يكلل بالنجاح ينخرط في سلك البوليس ··

في مسلكه الامن تمتزج قناعته بخارج المدينة المضاء بالف لون ولون ·خيالات تسد رغبته بلذة الامتلاك ـ يمتلك او لا يمتلك ، تلـــك مسالـــة اخـــرى ـ تعكس مداخل المحلات الزجاجية مسالك نهاره في الليل · يجـــد صورتـــه معكوسة في مرايا مدخـل السينما او المسرح او المقهى · تستجمع صورتـــــه حولها خارج المدينة في المراة ـ يدخـل قاعـة الملهى ـ ثقافة دورة الرواج ـ ويراجع مع العرض حواجز نهاره ويتجاوزها في العرض مرة اخرى « بنكتة بريئة » ـ ميزة لعروض التنفيسية (٤) ـ يحضر في المشهد / السباق ويمتزج حضوره بحركـة السيارة التي تجتـــاز عواميد المصابيح الكهربائية فـــي الشارع المشع ·

- نتوءات المنبسط / العراقيل ·

مسيرة البطل في الممر السالك تصطدم بنتوءة يعجز عن تجاوزها ـ يفشل البطل عن سلوك الممرات التحتية للمنبسط : التهريـــب ، الاحتيـــــال ··· ـ فتنعطف مسيرته عن الممر السالك وتقذفه الدوامة / الرواج الى بؤرة هامشيـــة ـ بؤر نبذ دورة الرواج للتجمعـات التي تعـجز عـن استيعابها ، حـــــزام البؤس والحرمان ، المخيمات ··· ـ وهناك يقضم يومه زمن الـــــرواج خارج الممر السالك . ينتظر زمنا اخـر بين امثاله ·

بيروت زمن الرواج حيزان وزمنان ،

ـ مدينة تعيش عافيتها المؤقتة في حاضرها الممتلىء ، زمنها سباق موزعي البضاعـة ـ حركة النقل ـ وسباق الوسطاء ـ الخدمات : مجازيا حـــــركة خادم المقهى ـ حركتان تتمفصلان وتغلف مفصلهما ايديولوجية ديموقراطيـــة المؤسسات السائدة ·

ـ مدينة ينتصب انينها خافتا ·في حاضرها نتوءات تعرقل مسالك الرواج ، وتهدد بتناميها التوازن على منبسط المدينة الاولى ·

المدينتان تتداخلان · اضواء الاولى تتسلط فتنعكس شعاعـــات الحمراء والروشة و ··· على بيوت الصفيح تترك في الظل الثانية ، ويمحي الضـوء الباهر بروز النتوءات امام العين المجردة ـ ايديولوجيا العافية في الثقافـــة ووسائل الاعــلام ·

هكذا ينعطف المسلك المستقيم عــند ارتطامه بنتوءة قاسية ـ انعـطاف شــارع شارل حلو نحو سن الفيــل عــند ارتطامه بتلة جسر الباشا / المخيم ـ·
هكذا يجرف منبسط التخطيط المديني بيوت التنك العراقيل ـ كمب طراد ـ·
هكذا يرتفع الجسر عــند مستنقعــات مياه الامطار ـ جسر جادة كميـــل شمعون على مستوى كمب وطى المصيطبة ·

وفي كل مرة يتحايل المسلك عــلى النتوءة ، يتجاهلها كما يتجاهل حائـــط الكرنتينا الموازي لجادة شارل حــلو زمن البؤرة المدينية القابعة خلفه ·

زمن عافية الرواج تخدش النتوءات قدمي بطل السباق ، تجرحــه ولكنهــا لا تمنعــه عــن متابعــة مسيرته المظفرة ، يغلفها بتبريرات لا حد لهـــا ، تصل الى حد تحميل منبوذيها مسؤولية السحف ـ تبريرات عنصرية مثل التخلف الفطري. تعدد الزوجات وكثرة الاولاد ··· يصل الى حافة المسلك ـ حدود استمرارية دورة الرواج ـ ويفجع بسقوطه في الهــوة ـ لم يكن يتوقعــها ـ حافة المسلـــك الامن ، فراغ رهيب تتجمع فيه همــوم ومصائــب كل الذين اهملتهم عــافيــــة النظام ، وكبلتهم محدودية الرواج في الكيان ، وتنذر بتراكمها بزمن اخر هــو زمن العــلة ·

زمن العــلة انين / عمق لوقع زمن العافية ·

● ممر البيت / حيز البطل زمن الحرب

رصاصة تنطلق عند مفترق المراية ، تنتشر كالوهم ، تستقطب الصرخـــة تنهدات الحناجر المحبوسة ، تنتهي « لعبة البراءة » · ينقشع الضباب · ينتصب النار والحديد خنادق ومتاريس · تقطع المسالك ، وكتل بشرية تـــهدد وتعــد · يختبيء البطــل الابله خلف الحائط السميك في ممر بيته الامن ـ ملجأ من لم يقدر عــلى الهرب من « اللامبالين » ـ تنقشع امام عينيه عبر ثغرة احدثتها قذيفة فـــي

الحائط نتوءات المدينة ووعورة الممرات التي كانت امس سالكه · يتعالى دخان الاطر المحروقة في الفضاء ـ بعد مقتل معروف سعد / حواجز السخط ـ فيحجب الدخان المتصاعد نقمة ، زرقة السماء · تهب على السفينة رياح الحرب الاهلية العاتية · تترنح السفينة في لجة الدماء والدمار · تخفت اضواؤها ، يخفت ضجيج الرواج ويرتفع ازيز القذائف · وخلف الحائط السميك ينتظر البطل ارتداد العاصفة واتزان السفينة ·

- الاختلال / التوازن ·

انفجرت بيروت في الحرب الاهلية · انفض الغلاف الرقيق لزمن الرواج ـ ايديولوجيا التعايش في السباق ـ · تفسخ المنبسط الافقي اللامتناهي زمن العافية في مسار الحرب ، وعلت العصبيات كتلا عامودية في زمن الصدام·

مسار الحرب الاهلية عطل مفاصل التبادل لدورة الرواج ـ المركز التجاري، المواصلات ، المعاملات ··· ـ بخر مفاصل التعايش ـ اماكن اللهو المشترك ، الثقافة الموحدة ـ عمق مزالق العبور ـ الخطف ، القتل على الهوية ··· ـ ومع انفراط البقية المتبقية من السلطة ، تحولت المزالق الى سدود منيعة ترتد عندها حركة الرواج ـ في خفوتها ـ الى الحيز الامن ـ الكتلة المتجانسة سياسيا / طائفيا ـ ومع ارتداد الحركة برزت العصبية / بطل الحرب الاهلية (٥) · توحد بطل الرواج بالعصبية ومن خلالها كافح مستميتا من اجل اعادة التوازن المفقود والغلبة الكفيلة باستعادة المسلك الامن ·

التوازن لا يقوم الا بالغلبة · الغلبة عملية شد العصبية الغالبة ـ التظاهرات الطائفية التي سبقت اندلاع الحرب الاهلية ـ الشد يحتاج الى محرك يفجره ـ مجزرة عين الرمانة ـ الانفجار مزق زمن الرواج المختل ـ اختلاط مسالك الرواج بمسالك القتال في بيروت منذ ١٩٦٩ حتى اندلاع الحرب ـ في حركة ثنائية ·

حركة باتجاه المركز / الانفجار شدت العصبية الغالبة في بيروت الشرقية وضواحيها · وحركة باتجاه معاكس مزقت تمفصل العصبيات الاخرى بها ، فتباعدت عنها في بيروت الغربية والشرقية وخلقت ضرورة الالتفاف (٦) على المركز / العصبية الغالبة في عملية معقدة : الحركة باتجاه المركز عملية تمتين لموقعه بتمتين عصبيته ـ عمليات التأطير الطائفي / القتل على الهوية خاصة في لحظاتها الحاسمة مثل السبت الاسود ـ والحركة بالاتجاه المعاكس تحاول احكام الدائرة ومحاصرة المركز ـ بدء الهجوم العام الوطني ـ ·

وعندما عجزت الدائرة عـن الاكتمال ـ عـامل الدخـول السوري ـ فتح المركز لـه ثغـرة في الدائرة ـ سقوط النبعـة . زمن قبلها المسلخ والكرنتيـنا ـ وضرب نصف الدائرة تصفية المواقع المعادية في بيروت الشرقية ـ فاحكـم لحمة بيروت الشرقية بالجبل وتوحـدت به في حركة جديدة : المجابهة المتعادلة·

بيروت حيزان ـ دائرة مشطورة عـند قطرها ـ مرتبطان بنصفي الكيان ، فصلهمـا جدار جبهات التماس ـ طريق دمشق ـ بيروت ـ وثغرة الامل في المتحف دليـل عجـز قطب التوازن الجديد ـ الدخـول السـوري ـ عـن تأميـن اتصالهمـا ـ محاولاتـه ما زالت مستمـرة ـ ومع ذلـك فانهـا تترك امكانية التوحيد مفتوحـة · تتسع الثغرة وتضيق في جدلية تركيـب التوازن الجديد واختلاله · بذلك انتقل موقع الحسم من بيروت الى الجبـل وتركت بيروت فـي انتصاب شطريها ـ الند للند ـ تحيا ابتزاز التـوازن المختل ـ اختلال الغلبة ـ فيعـمليات القصف فالمتبادل للاحياء السكنيـة ـ احياء صرخات التعايش التقليدية ـ وعقم الاشتباكات المحدودة عـلى خـط التماس ·

● رواج زمن الحرب / نسبية الاختلال ·

في الكيان المرتبط بالرواج اصلا لا يملك المتنازعـون ما يختلفون عـليـه ـ ملكية وسائل الانتاج ـ بل يختلفون عـلى ما يملكون من حقوق وامتيـازات في عملية الوساطة ·

في بيروت الحرب الاهلية في وجهها المعـطل للرواج ـ دورته العـادية ـ قتل ونهب وتدمير وخرق لسيادة النظام ـ منطق الغلبة ـ المشاركة ـ ودموع تذرف فوق ركام الابنية وبقايا المؤسسات · الوجه الاخـر لنفس العـملـة ـ نفس المنطق ـ تسابق على امتلاك مدخرات بيروت الخاصة ،وفيما بعد ممتلكات الدولة وقذفها . في دورة جديدة لرواج الحرب الاهلية / الحركـة الداخليـة ـ داخل المناطق«المحررة» ـ العلنية بالاضافة الى مسالكها السرية ومسالكها غيـر المباشرة ـ اتصال شطري بيروت عبر مناطق التوازن ـ تكثفت الدورة في بيروت الشرقية ـ مستودعـات المرفأ ، المنطقة الصناعـية ، مستودعات السيارات ·· فراج تعدد الوسطاء وراجت اقتطاعات الخوة واقتطاعات عبور الحواجـز · وراجت جباية الخـوة ـ الممتلكات المبنية ، المحلات ،··· في تنازع الاطراف لسلطة الاحياء واصبح الاستزلام لطرف مسلك الحرب لبطل الكسب :

زمن التوازن اتفاق · العصبيات المتفاوتة تقبل بغلبة عصبية فتنخرط في مباراة نظامية تباركها تقاليد المنافسة المتفق عليها ·

زمن الاختلال / التفكك اعادة انتاج التوازن والاتفاق ·العصبيات المتفاوتة تطرح مسألة الغلبة في مواجهة منظمة تسيرها تقاليد تحسين المواقع ومن ثم الاتفاق عليها ·

بيروت زمن الحرب الاهلية مدينتان ،

مدينة تقاتل من اجل ان تنبسط دورة الرواج من جديد بعد ان تذيب نيران الحرب الاهلية جليد النتوءات الغريبة على مسالكها – ايديولوجيا اعادة انتاج الرواج تتراوح بين تحميل الغرباء / العرب مسؤولية الاختلالوتحميلها للروح الشيطانية التي هبت على منبسط التاخي والتفاهم غيمة صيف لا بد ان تزول : جدلية المواجهة والابتزاز – هكذا تجرف الالات الكرنتينا والمسلخ وتل الزعتر والنبعة ، هذه البؤر / النتوءات التي ما برحت تهدد زمن الرواج وتعكر وقعه بتحركات حولت المدينة الصامتة وشوارعها الامنة الى مسيرات تشييع الفلسطينيين الصاخبة في مسالك تهددها غزوات اعدائهم بالتفجير – الهجوم الاسرائيلي على المطار وعلى شارع فردان – ·

مدينة من اجل ان تنتصب النتوءات في المدينة اعلى من انصاب ارباب الكيان ، تقاتل فتمزق المنبسط المؤقت المغلق للرواج في الكيان وتكثفه في بيروت بعد ان تطفيء قذائف الحرب الاهلية اضواء الرواج الباهرة فتنقشع في العتمة تلك النتوءات المنسية في بيروت الصفيح وزوايا الساحات المنبوذة وبين اوساخ الازقة · هكذا فضحت الحرب الاهلية عيوب زمن العافية:

ابناء بيروت الرواج هجروها في الحرب ، ابنيتها الفخمة « تصفر» زمن العلة · ابناء بيوت الصفيح تمددوا جثثا هامدة تحت جسور المدينة ، تحت انقاض التنك والخشب ومن نجا منهم – وهم كثيرون – قصد الابنية الفخمة على غير عادته لا يعرف كيف ينعم بسكناها المؤقت – حدود الحرب الاهلية – وقد خفف من غرابتها عليه افتقارها الى الماء والكهرباء والهاتف والاثاث وتقاليد تملؤها بعافية الرواج · ومع ذلك فهي وان شيدت ناطحات سحاب لزمن الرواج – بيع وشراء – تصلح لزمن الحرب وتصد كثافة الاسمنت والحديد النار القادمة ، بيروت هذه الغابة من المتاريس «الطبيعية »·

في الحرب الاهلية المدينتان تتعايشان وتتصارعان · غلبة احداهما يرتبط بمصير التوازن واختلاله في الكيان · ومع اشتداد قطبيه في اعادة انتاجه·

الضغـوط الخارجية بمختلف وسائلها ـ يتبدى المنبسط القديم معانقا انتصاب النتوءات ، وتتسع ثغرة الامل في المتحف لتصبح ذلك المنبسط الذي يتوجب عليه ان يتمدد ولكن بصعوبة هذه المرة لا تخفي امكانية استحالتـــه في المخـاض العسير ·

٣ ـ المخاض

١٥ ايلول ١٩٧٦ ـ بيروت هادئة ، معفية من القصف · عـمال البلديـــة يرفعـون النفايات بالقرب من الروشة · حركتهم بطيئة ، وجوههم قسمـــات غير مبالية ، يؤدون خدمة مجانية ـ مستضعفون مجبرون « عنوة » عـلـــى تدشين عـودة الحياة الطبيعـية ـ واثقون انهم اخـر من يعـلم · رائحـــة التفاؤل تفوح من تنقلات ارباب التوازن في الرواج · تحركاتهم الجنونية مـن المحيط الى الخليج ـ انطلاقا من دمشق ، مسكينة بيروت فـقدت رونقها ! ـ تصارع الزمن . تكثفه ، تضغـط الاسبوع المتبقي من عمر العهد القديم المشؤوم ـ التفاؤل ايمان بلبنان ـ وتبسط حرائر السعـد امام العـهد الجديد ·

مولودان للعـهد الجديد · كلاهما يحتاج الى عـملية قيصرية في رحـــم بيروت المخاض : المولود الاول قائد موحد للبلاد يخرج بعـملية عسيرة تقطع خط التماس من المتحف حتى بعبدا · عـملية خـطرة والاصرار على القيـام بها خلاص للمولود بدونها يخرج مبتور النصف ·

المولود الثاني هو ذلك البطل البريء ابن الرواج ، ذلك المسكين الـــذي قذفته براءته الى المعـركة في الحرب الاهلية بفعـل الغريب الساحر الـــذي انتشله من ممر البيت الامن ، تماما كما رثاه الرئيس الراحل في خطبة الوداع، فانساق يهـدم مدينته الحبيبة بيد ، ويده الاخـرى تمسح دمعـة ندم سالت على جدار منهار ، المولود الثاني يحتاج الى عملية سحرية لا تفي بها عمليـــة طريق المتحف ـ بعبدا ، ولادته تمر عبر نفق وهمي تبدعـه ـ معجـــزة !ـ المحبة الكامنة في اليد البناءة القادرة على نحر اكياس الرمل وصبها فنـــادق رواج المحبة التي تحيك طبلة الاذن القادرة عـلى دمج اصوات القذائف بترانيم التاخـي الوطني · المحبة المتطلعـة من العين القادرة على اقتناص لحظـــة الماضي «الجميل » في سقطة الضحية البريئة الهاوية كما هـوت احـلام الملذات في خبايا بيروت الممزقة · وتمتد تلك العـين تجذبها الحياة الغابرة مع رتـــل السيارات التي تشق طريقها في شارع الحمراء (٧) بشائر وتذوب في قطـرات المطر على الورقة الخضراء وترى في « اول الغيث اول الفرج »·

مستحيل ان يتحول ذلك الابله الذي حاكت دماغه قصبات الكشة الى ذلك المجنون الذي يحمل السلاح ليخرب بيده ملعب احلام الربح والخسارة في لعبة « بريئة » جعلت من بيروت قبلة انظار العالم المتمدن واطماعه وقاتلة للعبن السمراء الحاسدة • المولودان تؤمان • يحاران ايهما يخرج اولا • هذا ما بشر به الطبيب الشرعي ، وبيروت مثل الكيان تعيش ماض زمن اخر •

الحواشي :

(١) راجع « السلطة والتوازن في لبنان »، خالد جابر • شؤون فلسطينية عدد ٥٠/٥١ ١٩٧٥ •

(٢) بديل الانتاج في الاقتصاد والوسيط ، المرجع نفسه •

(٣) راجع « التوازنات المسلحة » • خالد جابر • شؤون فلسطينية عدد ٥٧ ــ ١٩٧٦ ولا سيما دور التسعينات في عملية استكمال بناء القاعدة الطائفية لنظام الخدمات •

(٤) راجع « نقطة الصفر للممارسة المسرحية » • ملاحظات حول العرض البيروتي • رئيف كرم • قضايا عربية عدد ١ ــ ١٩٧٥ •

(٥) بالتحديد العصبية / الغلبة/ بطل الرواج الخفي • عمليات نبذ الخوارج على العصبية في بيروت الشرقية •

(٦) عملية الالتفاف ربما كانت سبب الاختتل فيي السنوات الاخيرة التي تلت احداث ١٩٧٣ • وتهديد حصن تل الزعتر الاختلال في السنوات الاخيرة التي تلت ونهاية التهديد بسقوطه •

(٧) ابتداء من ١٥ ايلول ، درجت صحيفة النهار على جذب القارىء الى حيز «التفاؤل» عبر صورة فوتوغرافية تبشر بعودة الحياة الطبيعية ــ رتل سيارات ، ازدحام ، قطرات المطر على ورقة خضراء ··· ــ وتتداخل الصورة في عامود «الوضع العسكري» وتطغى على اخبار الجبهات المفصلة باحرف صغيرة •

الدور الاسرائيلي في أحداث لبنان

ربيع الأسير

« ان اعظم وانجح انتصار هو ارغام العدو على التخلي
عن مشروعاته وخططه ، دون ان يتحمل الطرف الاخر اي اذى »

بيليزير

احاط * الغموض لفترة طويلة بحقيقة الموقف « الاسرائيلي » من احداث لبنان ، والاساليب التي استخدمتها الدولة الصهيونية لتحقيق اهداف ذلك الموقف · ولقد افاد « الاسرائيليون » من ذلك الغموض الى حد بعيد ، حيث اعتبر العديد من المراقبين بأن الموقف « الاسرائيلي » هو موقف « المراقب » ازاء « نزاع داخلي » · غير ان تطور الاحداث سرعان ما كشف حقيقة موقف « اسرائيل » وضخامة دورها في تأجيج الصراع في لبنان·

ولئن كانت « الحرب اللبنانية » في أحد وجهيها مؤامرة استعمارية ـ صهيونية تستهدف القضاء على امكانيات تحرر الامة العربية وتوحيدها ،فان الوجه الاخر لها هو وجود نواة تخمر ثوري في المنطقة العربية ، يدفع المنطقة خطوات الى الامام على طريق التحرر والوحدة والتقدم · وبالتالي كانت « الحرب اللبنانية » ، ومنذ بدئها ، صراعا بين قوى الاستعمار والتخلف والمحافظة على اوضاع الاستغلال في المنطقة (وعلى رأسها اسرائيل) من جهة ، وبين قوى التقدم والتحرر في الامة العربية ، وفي طليعتها الثورة الفلسطينية من جهة ثانية · من هنا كان دور «اسرائيل» العمل على انجاح الوجه الاول لهذه الحرب، وقطع الطريق على امكانات تنامي الوجه الثاني ·

« اسرائيل » ولبنان قبل ١٣ ـ ٤ ـ ١٩٧٥

كان لبنان موضع تركيز استعماري دام فترة طويلة من الزمن ، استهدف اعطاءه طابعا مميزا عن المنطقة العربية ، واعداده ليلعب دورا خاصا في تلك المنطقة · ولقد افسحت التعددية الطائفية فيه المجال لخلق وتركيز « مسألة » طائفية كانت دائما منفذا لتمرير جانب من المشاريع الاستعمارية التي تستهدف اضعاف الامة العربية

من اجل استمرار نهب ثرواتها ٠

ولقد حرص النظام اللبناني منذ العام ١٩٤٩ على ابعاد لبنان عن الصراع العربي- الاسرائيلي ٠ غير ان « التوازنات » الخاصة في داخله وذلك القدر من « الحريات » الديمقراطية التي تمتع بها ، وتنامي النضالات الجماهيرية فيه خلال فترة الخمسينات ، ووجود عدد كبير من المهجرين الفلسطينيين (ثاني قطر بعد الاردن) ، ادى الى اكتسابه اهمية متزايدة في المنطقة العربية ، خاصة بعد ان استطاع النضال الجماهيري في لبنان منح تواجد المقاومة الفلسطينية على الارض اللبنانية « شرعية » جماهيرية ، وبعد ان اصبح منبرا تتمكن فيه جماهير المقاومة الفلسطينية والحركة الوطنية في لبنان ، وحركة الجماهير العربية كلها ، من التصدي لما تحيكه الدوائر الامبريالية من مؤامرات على الامة العربية ٠ ولقد تصاعدت تلك الاهمية بعد تصفية الوجود العلني للمقاومة الفلسطينية على الساحة الاردنية في ايلول ، ١٩٧٠ ، حيث اصبح لبنان مركز التواجد العسكري الرئيسي للمقاومة ٠

وعلى اثر حرب تشرين ، ١٩٧٣ ، نشطت السياسة الاميركية لاحتواء ما نجم عن تلك الحرب من ايجابيات اظهرت الطاقات الكامنة للامة العربية ٠ وعلى الرغم من التراجع الامبريالي في امكنة اخرى من العالم (جنوب شرقي آسيا ، انغولا الخ) فلقد اتسمت السياسة الاميركية بالهجوم في المنطقة باعتبار المنطقة العربية خط الدفاع الاساسي عن وجودها ووجود النظام الرأسمالي العالمي ٠

وفي المقابل فقد حققت منظمة التحرير الفلسطينية مكاسب هامة على الصعيد السياسي ، عندما تمكنت من انتزاع شبه اجماع عالمي على الاعتراف بحقوق الشعب الفلسطيني الذي تمثله ، كما تمكنت من انتزاع قرار يعتبر الصهيونية نوعا من العنصرية٠ وفي الوقت نفسه ، تصاعد العمل الفدائي داخل الارض المحتلة ، وتطور نوعيا بادخال نمط جديد من العمليات (العمليات الانتحارية) ٠ واصبح واضحا ان المقاومة الفلسطينية هي العقبة الاساسية امام « تسوية » تضمن للامبريالية الحفاظ على مصالحها ، كما تعيد للكيان الصهيوني امكانيات استمراره ونموه وتفوقه مجددا بعد اختلال موازين القوى لغير صالحه ، وذلك على الرغم من مراهنة بعض الانظمة العربية والدوائر الغربية لفترة على امكانية زج بعض اطراف منظمة التحرير في « التسوية » ، الامر الذي استهدف ضرب القوى الوطنية ببعضها البعض ، وافراغ المنظمة من مضمونها الثوري المعادي للكيان الصهيوني ، وتوفير تغطية للانظمة العربية خلال مسيرتها التراجعية ازاء ذلك الكيان ٠

وكان من الضروري ان يكون لبنان ساحة الصدام بين الامبريالية والصهيونية من جهة ، وقوى التحرر والتقدم وفي طليعتها ثوار فلسطين من جهة ثانية ٠ وليس من قبيل الصدفة ان يتمكن كيسنجر من دخول معظم عواصم المنطقة من اوسع ابوابها ، في حين منعته الغضبة الجماهيرية في لبنان من دخول بيروت ٠

وظهرت الحاجة الى نمط جديد من المواجهة ، بعد ان فشلت سابقا اليد الاسرائيلية في لجم نمو الثورة الفلسطينية وبعد ان ظهر جليا في ايار ، ١٩٧٣ ، ان النظام اللبناني اعجز من ان يقوم بما قام به شقيقه الاردني ٠ نمط يساهم فيه قطاع كبير من « «الجماهير»

اللبنانية ، بحيث يكون هذا القطاع مدخلا لزج قوى اضافية لمواجهة المقاومة الفلسطينية والحركة الوطنية والجماهيرية في لبنان ، كي يحدث انقلاب في موازين القوى لغير صالح حركة الجماهير ·

ولقد عبر رابين عن هذا النمط الجديد من المواجهة في حديث له تعليقا على عملية سافوى البطولية (ليلة ٧٥/٣/٥) التي شنها ثوار فلسطين في قلب تل ابيب عشية زيارة كيسنجر لاسرائيل ، خلال احدى جولاته الهادفة الى تحقيق تسوية مرحلية في سيناء · وأكد رابين في ذلك الحديث أن أسرائيل لن ترد على عمليات المقاومة الفلسطينية ، اذ ان الرد سيأتي في قلب الساحة اللبنانية نفسها ·

الاهداف « الاسرائيلية » في المخطط الاستعماري الصهيوني :

على الرغم من التحالف الاستراتيجي بين الولايات المتحدة الاميركية و« اسرائيل » ، فان للاخيرة أهدافا « خاصة » تتميز عن اهداف الاولى كنتيجة لتعارضات في المصالح وفي الاساليب والوسائل ، وللتمايز في الادوار ، وذلك بالاضافة الى الاهداف المشتركة ·

« فاسرائيل » لا ترضى بديلا عن تصفية المقاومة الفلسطينية · اذ ان المقاومة وما تمثله من امكانات وما تحمله من آفاق مستقبلية ، تشكل النقيض المباشر لدولة الاحتلال الصهيوني · وفي حين تراهن بعض الدوائر الغربية على « تدجين » منظمة التحرير الفلسطينية ، وتنادي بضرورة تغيير قيادتها ، وتكتفي بهذا الحد من المكاسب المرحلية لتجنب مخاطر انفجارات في المنطقة لغير صالح الاستعمار فيها لو استمرت التناقضات بالاحتدام ، فان « اسرائيل » تعمل ما في وسعها للقضاء النهائي على منظمة التحرير ، وترفض الاعتراف بوجودها ، حتى ان « اسرائيل » وجهت نقدا للولايات المتحدة الاميركية حين تمت اتصالات اميركية - فلسطينية تتعلق بتأمين رحيل قافلة الرعايا الاميركيين والاجانب من لبنان · ولقد عبر العديد من المسؤولين « الاسرائيليين » عن خط « اسرائيل » الاستراتيجي بالنسبة للموقف من المقاومة الفلسطينية ، والمتمثل بأن « التسوية السياسية في المنطقة مشروطة باجتثاث سرطان منظمة التحرير الفلسطينية »(١)·

من جهة ثانية ، عملت « اسرائيل » دائما على تعزيز التناقضات ذات الطابع العرقي والطائفي في المنطقة العربية ، من ضمن سياسة تفتيت القوى العربية · وكانت « اسرائيل » ترى في تلك التناقضات تبريرا للطابع « اليهودي » الذي تتسم به· كما ان تلك التناقضات تشكل نوعا من الضمانة لاستمراريتها عبر وقوفها عقبة في وجه الوحدة العربية ، وما تحمل هذه الوحدة من تكثيف ودفع للطاقات العربية ، وما تمثله بالتالي من خطر على وجود الكيان الصهيوني · ولقد اثارت « المسالة » الطائفية في لبنان اهتمام « اسرائيل » ، التي وجدت فيها ارضا خصبة ومدخلا لتحقيق املها القديم في اقامة مجموعة من الكيانات الطائفية الهزيلة في المنطقة المحيطة بها ، لا على ارض لبنان فحسب ، وانما في غيره من الاقطار · ومن المؤكد أن احتمالات الانفجارات الطائفية في المنطقة العربية لا تزال قائمة ، وأن كان استمرار وجود المقاومة الفلسطينية والحركة الوطنية في لبنان والمنطقة يشكل قوة مؤهلة للوقوف في وجهها ·

ولقد عبرت « اسرائيل » عن حرصها على تفجير التناقضات ذات الطابع الطائفي في اكثر من مجال · حتى ان وزير خارجية دولة العدو ايبان دعا الى مساعــدة المسيحيين « لانشاء دولة خاصة بهم »(٢) · في حين أكد يوري افنيري مدير عام وزارة الخارجيــة « الاسرائيلية » في محاضرة له ان « المثل الذي ضربته اسرائيل يشكل عاملا مشجعــا لطوائف وقوميات في الشرق الاوسط يميزها قاسم مشترك هو عدم استعدادها للقبــول بالسيطرة العربية ـ الاسلامية على المنطقة » (٣) ·

من ناحية اخرى ، استهدفت « اسرائيل » ضرب القوى العربية ببعضها البعض ، بعد اختلال موازين القوى في المنطقة لغير صالحها ، ولاعادة تفوقها العسكري الــذي كان يشكل ركنا هاما من اركان نظريــة الامن « الاسرائيليــة » ، وعامل ردع أساسي لاستمرارها في المنطقة العربية · ولقد اشار الكاتب « الاسرائيلي » زئيف شيف ، قبــل اندلاع الاحداث في لبنان ، الى ان « العدو الرئيسي والخطــر هو الجيوش العربية ، وليس المخربون » (٤)· وتعكس هذه المقولة ذعر « أسرائيل » من الطاقات الكامنة فــي الجيوش العربية ، والخوف الدائم من أن تؤدي الوحدة العربية ، او وحدة الارادة علــى الاقل ، الى زج تلك الجيوش في المعركة مع اسرائيل · وعلى الرغم من ان « اسرائيل » تدرك ان الانظمة العربية مستعدة الان واكثر من أي وقت مضى لتقديم تنازلات لصالــح الامبريالية والكيان الصهيوني ، فانها تدرك ايضا ان امكانات التغيير في المنطقة العربية ما تزال قائمة ، وان وقوع تغيير ايجابي سيدفع تلك الجيوش مجددا الى المعركة ·

ولقد كانت « لاسرائيل » دائما مطامع في الارض اللبنانية (وبشكل خاص ارض الجنوب) ، نظراً لخصوبتها وغزارة مياهها · كما ان الحدود مع لبنان هي الحدود الوحيدة التي لم يطرأ عليها أي تعديل على أثر حرب ١٩٦٧ ، بعد ان احتلت « اسرائيل » اراض عربية جديدة شكلت نوعا من الحزام الامني حول « المناطق الاسرائيلية » الصناعية ، ذات الكثافة السكانية العالية · لذا فان « اسرائيل » ترى ان من مصلحتها خلق حزام امني على تلك الحدود ·

لقد كانت « اسرائيل » حريصة دائما على ان يقبل بها في المنطقة كأمر واقع لا يمكن تغييره ولكنها تحرص كذلك على ان تقبلبها الجماهير في المنطقة العربية، وليس فقط الانظمة· ولم تكتف « أسرائيل » بذلك ، بل عملت على ان يجد فيها جزء من جماهير المنطقة (مــن ألاقليات الطائفية والعرقية الخ ···) حليفا وصديقا بحيث لا تبقى وحيدة في خضــم بحر معــاد ·

من ناحية اخرى ، ارادت « اسرائيل » في « الحرب اللبنانية » القضاء على تجربــة التفاعل الرائعة بين المقاومة الفلسطينية وحركة الجماهير في لبنان · فبقاء تلك التجربـة سيؤدي بالضرورة الى تعميمها وانتشارها على امتداد المنطقة العربية ، الامر الذي سيقود ألى زج طاقات الامة العربية باسرها في معركة التحرير ، وبالتالي الى زوال ألكيــان الصهيوني في فلسطين · ولقد آدى ذلك التفاعل والعطاء المتبادل الى تنامي الطرفين ، بحيث اصبح من المتعذر على النظام اللبناني تصفية او احتواء الاثنين معا ، او الانفراد بطرف ومن ثم الانتقال لتصفية الاخر ·

« اسرائيل المراقبة » :

حاولت « اسرائيل » ان تظهر بمظهر « المراقب » للاحداث في لبنان طيلة فترة طويلة من الحرب اللبنانية · كما حرصت ان يبقى دورها العلني ضمن حدود « حث » العالم على « انقاذ الاقلية المسيحية » من الاخطار التي تتهددها ·

ولقد ظهر هذا الحرص عبر ترك التناقضات تتفاعل داخل لبنان ، وعدم القيام حتى بعمليات « الردع » التقليدية · فيعلق يشعياهو بن فورات على العملية الاسرائيلية المحدودة في « عيتا الشعب » (حزيران ، ١٩٧٥) ، بتوجيه نصيحة « بعدم التوغل عبر الحدود ما دام لبنان ساحة لحرب داخلية » ، واحباط « ضربات المخربين دون القيام بعمليات تفتيش داخل القرى اللبنانية في الظروف الحالية » (٥) · غير ان السياسة « الاسرائيلية » لجأت في فترة المراقبة الى نوع من المحافظة على التوازن بين عمليات « ردع » محدودة ضد القرى اللبنانية (كفركلا ، عيتا الشعب ، بليدا الخ ···) وبين المحافظة على صفة « المراقب » للاحداث · وكانت « اسرائيل » تاخذ في الاعتبار عدة عوامل ، منها مدى احتدام المعارك الداخلية في لبنان ، لاتخاذ قرارات تتعلق بشن عمليات «الردع» ·

كذلك حرصت « اسرائيل » منذ اندلاع الاحداث على تصويرها وكانها صراع بين المسيحيين والمسلمين الذين يساندهم الفلسطينيون ، وعلى تحريض العالم « المسيحي » لانقاذ لبنان · واستهدفت « اسرائيل » من وراء اضفاء الطابع الطائفي على الصراع الدائر في لبنان اذكاء التناقضات ذات الطابع الطائفي ، والمساهمة في تمييع حقيقة الصراع · ولقد لخص رابين الصورة التي حاولت « اسرائيل » ان تعطيها للصراع في لبنان ، و « الدروس » التي تعلمتها «اسرائيل» من ذلك الصراع ، في مأدبة عشاء فيلنيويورك في مطلع العام ١٩٧٦ · قائلا « ان العرب من اللبنانتين حاولا ان يعيشا معا في سلام ، ولكن جهودا خارجية ، خصوصا من المنظمات الفلسطينية حاولت ان تضفي الطابع الاسلامي على لبنان» · اما الدروس فكانت « ان العالم العربي لا يتسامح مع اية أقلية ذات استقلال ذاتي » ، وان « العالم كان اعمى بالنسبة للعديد من الحوادث اللااخلاقية » ، واخيرا « مراقبة صمت العالم المسيحي في الوقت الذي كان فيه المسيحيون يتعرضون للاعتداء لانهم مسيحيون ··· » (٦) ·

من جهة ثانية ، حرصت « اسرائيل » على نفي اي علاقة بالاطراف الفاشية اللبنانية ، متهمة الفلسطينيين باطلاق مناورة دعائية «لاتهام الكتائب بالتعامل مع اسرائيل » حين كشف النقاب عن صفقة اسلحة « اسرائيلية » للاطراف الانعزالية (٧) ·

وعمدت « اسرائيل » في تلك الفترة الى اطلاق تحذيرات عديدة من تدخل خارجي في لبنان · واعلن آلون في تصريح نشرته مجلة « نيوزويك » الاميركية انه لا يستبعد حدوث تدخل عسكري « اسرائيلي » في لبنان خاصة « اذا حدث غزو سوري » · الا انه زعم انه ما دامت الصراعات في لبنان محصورة داخل نطاق « الطوائف » فانه لا يعتقد ان « اسرائيل » ترغب في القيام بأي تدخل (٨) · واكد رابين في حديث الى التلفزيون « الاسرائيلي » (١٤/١٠/١٩٧٥) ان « اسرائيل معنية تماما بالمحافظة على امنها في حال قيام سوريا بالتدخل في لبنان » ، وقال ان اية محاولة للتدخل في لبنان « ستخلق وضعا

هو بمثابة اعتداء على امن اسرائيل » وهدد بان « اسرائيل » ستتدخل عسكريا في لبنان لمواجهة هذا الاعتداء (٩) ٠

الا ان تعديلا على الموقف « الاسرائيلي » من التدخل السوري بدأ يطرأ بعد فترة ٠واكدت صحيفة « التايمز » في عددها الصادر في ٢١ ـ ١٠ ـ ١٩٧٥ ان « اسرائيل » وافقت على عدم اتخاذ أية خطوة تتعلق بالازمة اللبنانية « حتى في حالة تدخل سوري » دون استشارة الولايات المتحدة الاميركية ٠

ونشرت « النهار » في عددها الصادر في ١٩٧٦/٤/١٢ نبأ عن اجتماع عقد بين ملكولم تون السفير الاميركي في « اسرائيل » وآلون ٠٠٠ اشار معلقين « أسرائيليين » الى ان الهدف الاساسي من الاجتماع كان « تهدئة المخاوف الاسرائيلية » بالنسبة الى دخول قوات سورية الى الاراضي اللبنانية ٠

وبعد ان حددت مصادر عسكرية اسرائيلية نهر الليطاني كحدود يبدأ التدخل العسكري الاسرائيلي في حال اختراقها من قبل القوات السورية ، اكد مسؤولون « اسرائيليون » ان « الخط الاحمر » ليس بجغرافي ، وانما يتعلق بعوامل واعتبارات اخرى ٠

ولقد كشفت « الواشنطن ستار » نبأ مفاده ان سورية تشاورت مع « اسرائيل » عن طريق السفارة الاميركية في كل من دمشق وتل ابيب للتأكد من ان اعمالها العسكرية في لبنان لن تؤدي الى اعمال انتقامية « اسرائيلية » ٠ ونسبت الصحيفة الى مسؤولين اميركيين قولهم : « لا تستطيع أية حكومة اسرائيلية ان تعترف علنا بأنها اعطت الضوء الاخضر لسوريا لترسل قواتها الى لبنان ، ولو حتى الى مسافة نصف ميل ٠ وافضل تعبير لما يفعله الاسرائيليون هو القبول » (١٠) ٠

وذكرت صحيفة « دافار » « الاسرائيلية » ان « اسرائيل » تتوافر لديها اسباب وجيهة للالتزام بموقف الترقب تجاه احداث لبنان ، « على الاقل بسبب احتمال حدوث مواجهة عسكرية بين الفدائيين والسوريين ، وحدوث فتور شديد في العلاقات السورية ـ السوفياتية » (١١) ٠ وفي وقت لاحق ذكرت الصحيفة نفسها ان السوريين يواصلون زحفهم العسكري ويريدون انهاء « ما تبقى من الجيوب الفلسطينية وتحطيم جميع اتصالات منظمة التحرير الفلسطينية لوضع عرفات في مأزق » (١٢) ٠

ولقد جاء حرص « اسرائيل » في الفترة الاولى على ابعاد نفسها عن واجهة الصراع ، وتمييعها لطبيعته ، نتيجة لفهمها لضخامة العامل التحريضي بالنسبة الى جماهير المنطقة العربية فيما لو تبين ان طرفا من الاطراف يلتقي معها ، ولو موضوعيا ، بالنسبة للموقف من قضايا الامة العربية ٠ فحتى يتمكن اليمين الفاشي اللبناني من تأدية الدور الموكل اليه في المخطط الاستعماري الصهيوني ، لا بد وان يظهر نوعا من الاستقلالية ولو لفترة ، كما لا بد وان يظهر وكأن له قضية بمعزل عن المصالح الغربية و « الاسرائيلية » في المنطقة ٠ وان كان الواقع الموضوعي يسمح « بخلق » تلك « القضية » ، من خلال المسألة الطائفية ذات الجذور القديمة في الواقع اللبناني ، فان العامل الذاتي يجب ان يركز

على « لبنانيته » ، حتى تظل القضية قضية « قتال بين اشقاء » ، وحتى يكون للانظمة مبرر للوقوف على « الحياد » لفترة بالنسبة للصراع الدائر في لبنان ، والذي قد يوازي في ضخامة آثاره نكبة ١٩٤٨ ·

وسواء كان هناك تنسيق مباشر بين « اسرائيل » واركان النظام السوري او لم يكن ، فلقد كان من المطلوب أن يقتصر دور « اسرائيل » (ولو لفترة) على « مراقبة » التدخل العسكري السوري في لبنان كي تحافظ القضية على طابعها العربي · ومن الثابت ان « اسرائيل » وعت منذ البداية ان قوى النظام اللبناني واليمين الفاشي اعجز من ان تقوم بمهمة تصفية المقاومة · ولقد عبر عن ذلك « اهود يعرى » عندما علق على تجربة الحكومة العسكرية (ايار ١٩٧٥) ، التي استمرت فترة ساعات قلائل لتسقط على اثر انتفاضة جماهيرية واسعة · واكد « يعري » انه « من وجهة النظر الاسرائيلية ، تضاءل الان احتمال حل قضية المخربين في لبنان ، او تقييدهم ، عن طريق مواجهة داخلية في هذا البلد »(١٢) ·

ولقد ادركت « اسرائيل » ان التدخل العسكري السوري قد يحقق معظم اهدافها ، ان لم يفسح لها المجال لتحقيقها كلها · اذ ان الجيش السوري ، وهو ثاني الجيوش العربية من حيث القدرة القتالية ، اقدر على تصفية المقاومة ، واجهاض تجربة التفاعل بين المقاومة وحركة الجماهير في لبنان · كما أن سوريا نفسها مرشحة لانفجارات تتخذ طابعا طائفيا ، ومن ثم تنتقل تلك الانفجارات الى غيرها من الاقطار · وبالاضافة الى ذلك قد يؤدي اصطدام الجيش السوري مع المقاومة الى انهيار ذلك الجيش وتفتته ، وبالتالي الى اختزال قوة عربية ذات وزن كبير في الصراع العربي ـ « الاسرائيلي » · وبعد ذلك يمكن « لاسرائيل » ان تفرض نفسها كامر واقع ، كما يمكن لها ان تحقق حلمها بالمزيد من التوسع ·

ان كل هذه العوامل والحسابات كانت وراء بقاء « اسرائيل في وضع « المراقبة » ، والتدخل في الاحداث عن طريق التهديد بالتدخل (اننا على الساحة ولكن دونما ظهور ··· الون) · وعدم الاعتراض على دخول القوات السورية طالما ان هدفها سحق المقاومة ، وابقاء امكانية التدخل قائمة في كل لحظة رغم عدم الاعتراض المبدئي على دخول السوريين ، حتى تتمكن من الامساك بالفرصة المناسبة عند اللزوم ، والحفاظ على حرية العمل ضد السوريين اذا ما حصل تبدل يستوجب ذلك ·

« اسرائيل السياج اللطيف »

في ٦ تشرين الثاني ، ١٩٧٥ ازالت مجموعة من الجنود « الاسرائيليين » الاسلاك الشائكة بين العديسة وكفركلا · وفي ١٢ منه ، نشرت صحيفة « السفير » اللبنانية نبأ جاء فيه ان العميد ريمون اده لفت نظر رئيس الوزراء اللبناني رشيد كرامي الى « ابعاد التدبير الاسرائيلي الذي قضى بازالة الشريط المكهرب في بعض نقاط الحدود » · كما قال ان القوات « الاسرائيلية » بدات تتساهل مع رعاة المواشي اذ تسمح لهم بالاقتراب من الحدود ، وحتى من دخول الاراضي الاسرائيلية بقصد المرعى · وصرح اده ان الشريط المكهرب قد نزع على امتداد ٣ كلم قرب منطقتي رميش ويارون ، وكذلك على امتداد ٢٠٠ متر قرب كفركلا ·

وفي ٢٥ كانون الثاني ١٩٧٦ ، امر « وزير الدفاع الاسرائيلي » شمعون بيريز القوات « الاسرائيلية » على الحدود بالسماح « للاجئين المسيحيين من لبنان » بعبور الحدود · ولقد كان ذلك الامر بمثابة اعلان بدء مرحلة جديدة في الموقف والدور « الاسرائيلي » بالنسبة لاحداث لبنان : مرحلة « السياج اللطيف » ·

وفي ٢٩ كانون الثاني ، ذكرت صحيفة « السياسة » نقلا عن « مصدر في تل‌ابيب » ان اول « لاجيء عربي من لبنان » قد دخل الارض المحتلة ، وهي فتاة عمرها ١٥ عاما (هيلين سالم من القليعة) عبرت الحدود لتلقى العلاج ·

وتوالت الانباء عن دخول اشخاص لبنانيين الى الارض المحتلة كذلك انشأت « اسرائيل » ثلاثة مستوصفات على الحدود (في المطلة ودوفيفا وحانيتا) وذلك بالاضافة الى توفير «خدمات طبية » داخل الارض المحتلة ·

وقامت «اسرائيل» بتنظيم عملية توزيع مياه في بعض المناطق الحدودية ، وشراء محاصيل المزارعين الجنوبيين ، كما ابدت استعدادها لفتح مطارها لكل راغب في السفر من لبنان ، ومن ثم قامت بتقديم مساعدات «من « الخضر والفواكه الطازجة ومنتجات الالبان » الى ابناء القرى الحدودية ، بالاضافة الى بيع المحروقات · وبعد ذلك اعلنت انها ستسمح للبنانيين بالعمل في البناء والزراعة » ·

وشكلت « اسرائيل » «لجنة اهلية لمساعدة لبنان » · وقيل انمهمتها العمل على « مساعدة ضحايا الحرب في لبنان »(١٤) ·

ويقول « ايهود يعرى » في مقاله « السياج اللطيف اسلوب مؤقت » ان « السياج اللطيف يرتكز على استغلال الفراغ الجزئي للحكم في الجنوب ، والضائقة التي يعانيها السكان هناك ، وعلى مخاوف القرويين المسيحيين المعزولين والمنتشرين على طول خط الحدود ، وعلى احجام منظمة التحرير الفلسطينية عن تسخين المنطقة » (١٥) ·

ولئن كانت « اسرائيل » قد افادت من الفراغ النسبي-القائم في الجنوب ، ومن حاجة ابناء القرى الجنوبية للمواد الغذائية والتموين ، تلك الحاجة ألتي نجمت عن«الحرب اللبنانية » ، فان « السياج اللطيف » يشكل أداة هامة من ادوات تحقيق الاهداف الاسرائيلية · فعبر « السياج اللطيف » تمكنت « اسرائيل » من ان تعطي لنفسها صورة انسانية في العالم ، حيث ظهرت وكانها مهتمة بمصير ابناء القرى اللبنانية ·

كما ان « السياج اللطيف » ساهم في اظهار « انسانية » « اسرائيل » بالمقارنة مع ما ظهر خلال الحرب اللبنانية من جرائم لا اخلاقية ، وسادية ومجازر جماعية · كذلك مكن «السياج اللطيف» اسرائيل من دخول الجنوب من دون احتلاله ، واقامة علاقات مع جزء من جماهير المنطقة ، أعترف عمليا بوجود اسرائيل عبر التعامل معها · الامر الذي زاد من تعقيدات الوضع وتعقيدات الاحتمالات المستقبلية ·

« اسرائيل الطرف المباشر في الصراع »

في الفترة الاخيرة من « الحرب اللبنانية » ، بدأت « اسرائيل بلعب دور واضح ومباشر في الصراع · كذلك بدأت الانباء تتسرب عن العلاقات الوثيقة التي تربط بينها وبين الانعزاليين ، وعن الدرجة العالية من التنسيق بين الطرفين ·

فعلى اثر الصدام ما بين الجيش السوري والمقاومة الفلسطينية والحركة الوطنية في لبنان ، وبعد ان بدأ النظام السوري عملية حصار على المناطق الواقعة تحت سيطرة القوى الوطنية حاولت اسرائيل احكام الطوق حول تلك المناطق ، عبر فرض حصار بحري على الموانىء الجنوبية التي تشكل المتنفس الوحيد لجماهير تلك المناطق ·

كما اقدمت اسرائيل على احتجاز عدد كبير من البواخر بتهمة تهريب السلاح والمقاتلين الى « المخربين » · الامر الذي ساهم في تنامي صعوبات وصول التموين للمناطق الواقعة تحت السيطرة الوطنية · وكانت « اسرائيل » تعمد في كثير من الاحيان الى احتجاز مواطنين عرب واستجوابهم ·

لقد اظهر الحصار البحري الذي قامت به « اسرائيل » على المدن الجنوبية درجة التنسيق (المباشر او غير المباشر) بين كل من الانعزاليين والنظام السوري والعدو الصهيوني · وذلك وسط صمت الانظمة العربية و « تعاميها » و « حيادها » غير المعلن ·

من جهة ثانية ، كشف في الاونة الاخيرة مدى اعتماد الاطراف الانعزالية على اسرائيل بالنسبة للتسليح · ولقد ذكر دين براون ، المبعوث الاميركي السابق الى لبنان ، ان « اسرائيل » اصبحت احد مصادر الامداد الرئيسية « للمسيحيين » ، وذلك في ندوة عقدت في العاشر من آب ١٩٧٦ (١٦) · وكشفت مجلة « درشترن » الالمانية ، في عددها الصادر في ١٢ اب ١٩٧٦ ، النقاب عن ان كميات كبيرة من الاسلحة والذخائر التي استخدمت في عملية اقتحام مخيم تل الزعتر كانت « اسرائيلية » · وقالت المجلة ان « جورج اسكندر » احد قادة « جبهة تل الزعتر » اشار ان الانعزاليين تسلموا طائرات من « اسرائيل » في جونية ، بحيث اصبح بالامكان « قصف تل الزعتر من الجو » ·

اما مجلة « التايم » الاميركية ، فلقد ذكرت في عددها الصادر في ١٣ ايلول ، ١٩٧٦، ان بيريز قام باربع زيارات لجونيه ، حيث اجتمع مع مسؤولين انعزاليين ، وان رئيس الوزراء « الاسرائيلي » رابين رافقه في احدى الزيارات · واضافت المجلة ان كتيبة من القوات « السيحية والمسلمة » تتلقى التدريب على حرب المدرعات في قاعدة تقع على طرف صحراء سيناء ، وان الكتيبة ستعود بعد انتهاء تدريبها ومعها ٣٨ دبابة اميركية من طراز « شيرمان » · واشارت المجلة الى ان « الاسرائيليين » يدربون ابناء القرى الحدودية ·

وتشير صحيفة « الواشنطن بوست » في عددها الصادر في ٢١ تموز ، ١٩٧٦ الى ان المراقبين العسكريين مقتنعين بان بامكان « المسيحيين » الحصول على امدادهم من السلاح مباشرة من مستودعات حكومة (اسرائيل) ·

واشارت الانباء الى ان اعداد كبيرة من المسلحين الانعزاليين قد دخلوا القـــرى السيحية الحدودية (رميش ، القليعة ، دبل ، الخ ٠٠٠) عن طريق الارض المحتلة ، وان اولئك المسلحين ينسقون تنسيقا كاملا مع القوات « الاسرائيلية » في لجنوب ٠

واعترفت نشرة لبنان ، التي يشرف عليها الانعزالي سعيد عقل بانه في حين لن تدخـل القوات «الاسرائيلية» الجنوب، فان « أسرائيل » ستستمر في مد الانعزاليين بالسلاح (١٧) ٠

لقد اضطرت « اسرائيل » الى اتخاذ دور اكثر مباشرة في الصراع في الفترة التـــي وقع فيها الانعزاليون في مأزق ٠ فقبل التدخل السوري العسكري ضد القوات المشتركـــة، كان الانعزاليون في وضع تراجعي ، بعد ان منيوا بسلسلة من الهزائم العسكرية ٠ ويبدو ان « اسرائيل » بدأت بشحن كميات ضخمة من الاسلحة للانعزاليين فـــي تلـــك الفترة بالذات ، وذلك في محاولة منها لوقف التقدم الوطني ، ولوقف الخلل في موازين القـــوى لغير صالح القوى الانعزالية ، وكذلك لتحقيق ربط قطاع من الجماهير اللبنانيـــة بهـــا ، وظهورها وكانها حليف وصديق ، لا بل « منقذ » لذلك القطاع ٠

كما ان « اسرائيل » ، بسبب احتدام التناقضات ، وازدياد امكانية الحسم تعد نفسها لمواجهة كافة الاحتمالات ، ولعب دور اكبر في الصراع فيما لو اضطرت لذلك ، وربما ايضا تحقيق احلامها التوسعية في الجنوب ٠ و « اسرائيـــل » تدرك جيدا هشاشة الانظمـــة العربية ٠ وهي بالتالي تعي ان تغيرا في الوضع السوري لا بد وان يحدث خللا كبيـــرا وهاما في موازين القوى ، الامر الذي سيكون له بالضرورة انعكاسات خطيرة على « امـــن اسرائيل » ٠ ولقد اعلن المسؤولون « الاسرائيليون » اكثر من مرة انهم لن يسمحـــوا للفدائيين بالعودة للانطلاق من الجنوب مهما كلف الامر ٠ من هنا ، فان « اسرائيل » لا تريد ان ينهار النظام السوري وهي غير قادرة على التصدي للظرف الجديد الناشيء ومـــا يتضمن من تعقيدات ٠ ويبدو ان الانعزاليين اللبنانيين مدركين أيضا لابعاد هـــذه النقطة ، وبالتالي فانهم يجدون في « اسرائيل » حليفا اكثر مصداقية ، واكثر مدعاة للثقة مـــن النظـــام السوري ٠

واستفاد « الاسرائيليون » من شريط القرى المسيحية التي دخلها اعداد كبيرة مـــن المسلحين الانعزاليين، لتشكيل نوع من الحزام الامني على الحدود الشمالية للارض المحتلة٠ كما انهم خلقوا بذلك ذريعة لتدخل اكثـــر مباشرة فيما لو دعت الحاجة بحجة حمايـــة « الاقلية المسيحية » في تلك القرى ٠

اسرائيل « الطرف في واجهة الصراع »

كما كانت « اسرائيل المراقبة » شرطا ومدخلا « لاسرائيل السياج اللطيف » ، وكمـــا كانت « اسرائيل السياج اللطيف » كذلك شرطا ومدخلا « لاسرائيل الطرف المباشـــر في الصراع » ، فان « اسرائيل الطرف المباشر في الصراع » شرط ومدخل « لاسرائيل الطرف في واجهة الصراع » ٠

وفي حين حاولت اسرائيل طوال الفترة الماضية ان تحقق اكبر قدر ممكن من اهدافها

باقل قدر ممكن من الخسائر والاضرار التي تلحق بها ، فان استمرار الصمود الوطني ، وانهيار حلقات المؤامرة الاستعمارية الصهيونية ، سيعيد اسرائيل بالضرورة الى واجهة الصراع ، وبالتالي ستجد نفسها مضطرة لخوض مواجهة عربية ـ اسرائيلية جديدة ، قد ينجم عنها « الحرب الخامسة » ·

ويمكن القول بالتالي ان «الدور» الاسرائيلي الحقيقي المباشر في لبنان لم يبدأ بعد، بمعنى ان « اسرائيل » التي تمثل جزءا من الاحتياطي الاستراتيجي بالنسبة للمخطط الاستعماري الصهيوني ، لا تزل الى حد ما خارج المشاركة العملية في الصراع ، ولكنها تستعد ـ ككل قوة احتياطية ـ لدخول الحلبة بكامل قواها ، عندما تظهر في الافق ملامح تغيير موازين القوى في المنطقة العربية لصالح قوى التحرر والتقدم وفي طليعتها ثوار فلسطين ، او عندما تقتنع ان اوان « قطف الثمار » قد حان · ووجود هذا الاحتياط واعلانه عن استعداده للتدخل عند اللزوم ، يعطي النظام السوري « مبررا » لمتابعة عمله في لبنان لسحق المقاومة والحركة الوطنية ، بحجة « ضبط الامور » و « حماية الامن القومي » (!) ، ويعطي قادة الانعزاليين بالتالي فرصة للحديث (وهذا اضعف الايمان) عن الاستعداد لتحرير كل لبنان «من الفلسطينيين والشيوعيين» ، مع ان هؤلاء القادة يعرفون ان قوتهم لا تكاد تكفيهم لتامين الدفاع ·

وهكذا تتدخل « اسرائيل » مباشرة عبر الحصار البحري ، وتسليح الانعزاليين وتدريبهم ، وخلق الجيب « الانعزالي » (الاسرائيلي) في الجنوب · وتتدخل «اسرائيل» ايضا عندما تهدد بالتدخل ، فتعطي ذريعة لعدم ارسال قوات امن عربية بالحجم الذي تتمكن معه من وضع حد للقتال في لبنان ، كما تعطي ذريعة للنظام السوري ليقوم بالدور المرسوم له في المخطط الاستعماري الصهيوني · الا ان التدخل « الاسرائيلي » سيكبر مع سقوط الحلقة الراهنة في المؤامرة ، او عندما تجد « اسرائيل » ان الظرف يسمح لها بقطف ثمار المرحلة الراهنة من التآمر على الامة العربية وتطلعاتها وآمالها ·

لقد وجدت « اسرائيل » في قلب العالم العربي لتكون اداة لضرب الامة العربية باسرها ، والرد الطبيعي على ذلك هو ان تكون جميع القوى العربية معبأة لتهديد « اسرائيل » ، واجبارها على استخدام قواتها لحماية حدودها ، واستنزاف هذه القوات في حرب مستمرة يكون للفلسطينيين فيها مكان اساسي بين اخوانهم من المقاتلين العرب· ولكن سياسة الردع « الاسرائيلية » ، ومخططات السياسة الامبريالية الاميركية ، وتشابك المصالح الاقتصادية ، اخرجت بعض القوى العربية من المعركة ، وجعلت البعض الاخر (في الاردن ولبنان) يلعب دوره في حراسة الحدود « الاسرائيلية » ، ويضرب المقاومة التي تهدد هذه الحدود ، وتخلق حولها المناخ الملائم لبناء قاعدة الانطلاق لحرب التحرير الشاملة · وفي هذا المجال تدخل الاحداث اللبنانية ، وضمن هذا المنظور يمكن تقييم التدخل « الاسرائيلي » في هذه الاحداث ·

الحواشي :

* كتب هذا المقال قبلمعركة بحمدون وقمة الرياض وما تلاها من تطورات ، ان على صعيد القرار بارسال قوات امن عربية، او على صعيد تفاقم الاوضاع فيالجنوب·
ومن جديد ، اضطرت اسرائيل للعب دور اكبر في الاحداث اللبنانية ، فمن جهة عاد الحديث حول « خط احمر» بالنسبة لقوات الامن العربية · ومن جهة ثانية تصاعدت حدة المواجهة في القرى الحدودية في لبنان · وترمي اسرائيل في الفترة الراهنة الى استكمال الحزام الامني على الحدود،ووضع القوى العربية (قوى مؤتمر الرياض) في وجه الثورة الفلسطينية ، وتعميق « تحالفها » مع قطاع جماهيري لبناني ، بالاضافة الى خلق ذريعة لتدخل اكثر مباشرة فيما لو تمكنت المقاومة من تجاوز الضغوطات التي ستتعرض لها من قبل الاطراف العربية · وتجدر الملاحظة ان انكشاف الدور الاسرائيلي ، وازدياده وضوحا ، يعطي الثورة وحركة الجماهير سلاحا هاما في المواجهة ، كما انه يفقد اسرائيل سلاحا هاما وهو رغبتها المتواصلةفي وضع قوى عربية في وجه الثورة ، وتحقيق اهدافها باقل قدر ممكن من الخسائر ·

(١) تصريح « جدعون هاوزنر » ، الوزير بلا وزارة في حكومة رابين· « يديعوت احرونوت » ، ٩ ـ ٣ ١٩٧٥·
(٢) السفير ، ٢١ ـ ١١ ـ ١٩٧٥ ·
(٣) النداء ، ٣ ـ ٨ ـ ١٩٧٦ ·
(٤) « هآرتس » ، ٧ ـ ٣ ـ ١٩٧٥ ·
(٥) « يديعوت احرونوت » ، ١٦ ـ ٦ ـ ١٩٧٥ ·
(٦) السفير ، ٢ ـ ١ ـ ١٩٧٦ ·
(٧) السفير ، ٢ ـ ١ ـ ١٩٧٦ ·
(٨) « نيوزويك » ، ١٣ ـ ١٠ ـ١٩٧٥
(٩) السفير ، ١٦ ـ ١٠ ـ ١٩٧٥ ·
(١٠) الانوار ، ١٢ ـ ٤ ـ ١٩٧٥ ·
(١١) الانوار ، ٣ ـ ٦ ـ ١٩٧٦·
(١٢) السفير ، ٩ ـ ٨ ـ ١٩٧٦·
(١٣) « دافار » ، ٢٧ ـ ٥ ـ ١٩٧٥·
(١٤) المحرر ، ٤ ـ ٨ ـ ١٩٧٦ ·
(١٥) « دافار » ، ٢٥ . ٦ ـ ١٩٧٦
(١٦) « موندي مورنينغ » ، ٢٢ ـ ٨ ـ ١٩٧٦ ·
(١٧) لبنان ، ٨ ـ ٩ ـ ١٩٧٦ ·

وثيقــة :

"مشروع كنيغ" بشأن الموقف من العرب في اسرائيل

(ترجمة من العبرية ، نقلا عن صحيفة « عل همشمار » ، ٧٦/٩/٧ ، ص ٤)

(يسرائيل كنيغ هو متصرف لواء الشمال في وزارة الداخلية ـ الجليل ، الذي يضم اقضية عكا والناصرة وطبريا وصفد ، حيث تعيش اكثرية العرب في اسرائيل)

نص المشروع :

مقـدمـة :

١ ـ سادت الدوائر المسؤولة عن السكان العرب ، حتى قبل وقت قصير للغايــة ، اراء تقول ان قبول هذا الجزء من السكان بوجود دولة اسرائيل هو كامل ، وان اكثريتهم تمر في مراحل متقدمة من التماثل مع الدولة والاندماج في مؤسساتها المختلفة · هكذا،على الاقل ، أتضح « للمهتمين » (بالشؤون العربية من بين اليهود) والمقربين الى المراكــز الاجتماعية للعرب ، سكان الدولة ومواطنيها ·

٢ ـ وقعت اخيرا عدة حوادث مست بهذه الفرضيات ، ووضعت علامة سؤال كبيــرة على ولاء جزء كبير من اولئك السكان للدولة ولمجرد وجودها ·

لقد ظهرت حقا شكوك حول طريقة التفكير في شؤون عرب اسرائيل ومعالجتهــا قبل بضع سنوات ، لاسباب ستوضح فيما يلي ، ولكنها كانت متعارضة مع مفاهيــم « المستعربين » ولذلك اسكتت حالا · ويبدو لنا انــه لا نقاش الان حول ضرورة البحث في « بديهيات » ، كانت تعتبر اسسا مسلما بها حتى الفترة الاخيرة ·

٣ ـ بعد اقامة الدولة ، وجدت البقية التي بقيت من السكان العرب ، نفسهــا دون زعامة · وتكونت اقلية وجدت نفسها ملزمة بالتكيف مع واقع الدولة اليهوديــة ،

التي تعيش في حالة حرب مع جاراتها العربيات ، وتثبيت نفسها من خلال استعمال القوة ضدهم ٠

اما الحكم العسكري ، الذي تسلم اولئك السكان ، فقد قوى سلطة « للوجهاء » . وانسجم بذلك مع المجتمع العربي القائم على الحمائل والعائلات ٠ وادى الغاء الحكم العسكري الى اهتزاز نفوذ « الوجهاء » ومن دار في فلكهم ٠ وادى اهتزاز علاقة الفرد بالدولة — الحكم العسكري — الى شعور جيل الشباب بالقوة التي يمنحه اياها مجتمع ديمقراطي من ناحية ، وتحول المجتمع العربي من مجتمع زراعي الى صناعي ، مع ما يتبع ذلك من النواحي الاجتماعية ٠

وبالاضافة الى ذلك ، اجبر تمرد جيل الشباب ، احيانا ، المتقدمين في السن على الانضمام الى معسكر المتمردين ، وجعل من الدولة هدفا لنضالهم ، اذ لم تكن الظروف جاهزة لارتباطهم بالمجتمع اليهودي والدولة بشكل سليم ومثمر ٠ يضاف الى ذلك اننا ساعدنا ، من ناحيتنا ، على الخروج عن الطوق بمحاولتنا كسب المتمردين « بوسائل » مختلفة ٠

خلال الخمسينات ، كان المجتمع العربي مرتبطا من الناحية الاقتصادية بالاقتصاد اليهودي ، الذي انفتح تدريجيا امام العرب على مصراعيه ، نتيجة لهرب العمال اليدويين اليهود من العمل في مجال الاشغال اليدوية ٠ وادى ذلك الى نشوء طبقة ميسورة اقتصاديا ، اصبح حسن سير اقتصاد الدولة متوقفا عليها ، الى حد بعيد ٠

٤ — مع الغاء الحكم العسكري ، سلمت الدولة مجال الاهتمام بالقضايا العربية الى متحدثين بالعربية (من بين اليهود) ، الذين اختاروا العناصر الشرسة (من بين العرب) وجعلوا منهم زعماء ، من خلال تدعيم مراكزهم وقواهم للحصول على منافع مادية لهم وللمقربين منهم ٠ وقاموا بذلك متجاهلين المشاكل الاجتماعية في الوسط العربي من ناحية ، وانعدام التخطيط للمدى البعيد بشأن خلق نموذج مواطن عربي موال للدولة من ناحية ثانية ٠

وكانت المقاييس لتقييم العاملين في المجال العربي ، على المستوى السياسي والعسكري وفي الشرطة وفي المجال المدني ، هي مقاييس العقلية العربية ٠ ولم تلاحظ على هؤلاء العاملين دائما علائم القدرة على التفكير والتنفيذ بمستوى يفوق مستوى السكان الذين يفترض معالجة مشاكلهم ، وكان ذلك يجري بدلا من المحافظة على مستوى التفكير المستقل والقدرة على تحليل الظواهر المزعجة من ناحية ، ومحاولة حل المشاكل من خلال تفكير موضوعي يؤمن المصالح اليهودية — القومية على المدى الطويل من ناحية ثانية ٠

٥ — أن واقع لواء الشمال ، حيث تعيش اكثرية عرب اسرائيل ، وموقعه الجغرافي ووضع السكان اليهود فيه يبرز بشكل ملموس المشاكل التي نشأت حديثا ، وما قد ينجم عنها على المدى القريب والبعيد ٠ واحدى الظواهر الاكثر اقلاقا هي فقدان اليهودي لصبره تجاه المواطن العربي ، وفي بعض الاحيان يمكن ان نلحظ عداء ، قد يدفع بعد تحرش بسيط الى انفجار غير مرغوب فيه ،وتصعب السيطرة عليه ، وتكون

له نتائج واصداء سلبية في البلد ، وخصوصا في الخارج · (انظر قرارات منظمةالطلبة العرب الجامعيين في حيفا بشأن عدم القيام بحراسة مساكن الطلبة ، عندما سمح لهم بدفع بدل حراسة) ·

وهناك عامل قوي يؤدي الى مضاعفة هذا التوتر النفسي بين السكان اليهود ، وهو اهتزاز التوازن الديمغرافي في المناطق ، وهو اهتزاز يشعر به كل فرد (يهودي) ويخشاه ·

وفي اطار هذه المذكرة ، سنشير الى عدد من المسائل المعقدة ، من خلال شرح ارضيتها ، ونقدم توصيات لحلها ·
اما المواضيع التي ستبحث فهي :

أ) المشكلة الديمغرافية ، وظواهر القومية العربية ·

ب) الزعامة العربية وانعكاساتها ·

ج) الاقتصاد والتشغيل ·

د) التعليم ·

هـ) تنفيذ القانون ·

أ ـ المشكلة الديمغرافية وظواهر القومية العربية

١ ـ يبلغ التكاثر الطبيعي للسكان العرب في اسرائيل نحو ٩ر٥ ٪ في السنة ، مقابل تكاثر طبيعي للسكان اليهود بمعدل ٥ر١ ٪ في السنة ·

ان هذه المشكلة شديدة بشكل خاص في لواء الشمال ، الذي يضم عددا كبيرا من السكان العرب · ويبلغ عدد أولئك السكان ، في منتصف ١٩٧٥ ، في لواء الشمال نحو ٢٥٠ الف نسمة ، بينما بلغ عدد اليهود نحو ٢٨٩ الف نسمة · واذا نظرنا بحسب الاقضية، نرى انه في الجليل الغربي تبلغ نسبة العرب نحو ٦٧ ٪ من السكان · وفي قضاء يزراعيل (أي الناصرة) تبلغ نسبتهم نحو ٤٨ ٪ من السكان · وخلال سنة ١٩٧٤ ، زاد عدد السكان اليهود في لواء الشمال ٧٥٩ نسمة ، بينما زاد عدد السكان العرب ٩٠٣٥ نسمة · وبحسب نسبة الزيادة هذه ستصل نسبة السكان العرب في هذا اللواء الى ما يزيد على ٥١ ٪ سنة ١٩٧٨ ·

ويشعر القوميون ـ وهذا تقديري ايضا بالنسبة للسكان العرب ـ ان تكاثرهم في الجليل يكمن فيه الخطر الذي يهدد مجرد سيطرتنا على المنطقة ، ويفتح المجال لدخول قوات عسكرية من الشمال الى اسرائيل ، ويؤثر في تعاظم الشعور القومي لدى

عرب اسرائيل واستعدادهم للمساهمة في ذلك ·

٢ ـ حصل لدى السكان العرب في اسرائيل زخم قومي منذ حرب الايـــام الستة · فسياسة الاتصال الحر مع الضفة الغربية وسياسة الجسور المفتوحة ادت الى تجديد اللقاء بين عرب يهودا والسامرة وفلسطينيي شرق الاردن من جهة ، وعرب اسرائيل من جهـــة اخرى ، وخلقت اساسا للوقوف بهامات مرفوعة ، وخلقت ارضية لشعارات النضال القومي في اسرائيل · هذا التطور الحتمي وجد قوة دفع اضافية بسبب نتائج حرب يوم الغفران (حرب اكتوبر ـ ١٩٧٣ ـ المترجم) وتدعم بسبب الاحداث السياسية الدولية التي تم التعبير عنها بالاعتراف بمنظمة التحرير الفلسطينية كحاملة للواء النضال من اجـــل القضيـــة الفلسطينية ·

ويتردد في الاونة الاخيرة ذكر قرار الامم المتحدة حول حدود اسرائيل في العـــام ١٩٤٧ والذي بموجبه تقع اقسام كبيرة من هذه المنطقة خارج حدود دولة اسرائيل ·

ان العربي الاسرائيلي لم يعد محمولا ، فقد انتقل الى حالة التعبيـــر عن قوميتـه كلاميا فقط في هذه المرحلة · وقد ظهر هذا في عدة أحداث هذه ابرزها :

أ) في اثناء زيارة رئيس الحكومة الى الناصرة قبل سنة ·

ب) الهتاف بشعارات تأييد لمنظمة التحرير الفلسطينية في اثناء المظاهرات والمناسبات الاخـــرى ·

جـ) موقف الطلبة العرب في الجامعات من موضوع الحراســـة ·

د) التعبير عن الشعور القومي عن طريق الاقتراع في انتخابات بلدية الناصرةالتي جرت في ٩ ـ ١٢ ـ ١٩٧٥ ·

هـ) تطوع سكان الناصرة غير العادي وغير المتوقع لمساعدة بلدية الناصرة عن طريق تسديد اقساط مستعجلة لخزينة البلدية الامر الذي يساعد حزب ركـــاح (القائمـــة الشيوعية الجديدة) في هذه المرحلة على تسيير ادارة المدينة ·

و) أجتماع احتجاجي شعبي في قرية سخنين بتاريخ ٧٥/١٢/١٤ وقد اعلـــن رئيس بلدية طمرة في هذا الاجتماع أن على اسرائيل ان تخشى عرب اسرائيل اكثر ممـــا تخشى العرب خارج حدودها ·

ز) القرارات التي اتخذت خلال اجتماع عقد في الناصرة يوم السبت الموافق٦/٣/ ٧٦ وهـــي :

١ ـ اعلان الاضراب العام لدى سكان اسرائيل العرب ليوم واحد ، واعطـــاء ذلك

اليوم اسم « اضراب يوم الارض » ٠

٢ ـ دعوة السكان العرب الى عدم الاكتفاء بالاحتجاج السلبي بل « الاحتجاج عن طريق النضال وانهاء النضال فقط في آخر الطريق ٠٠٠ »

٣ ـ الاضراب عن الطعام امام مباني الامم المتحدة باسلوب الاحتجاج نفسه الذي يجرى بشأن سجناء صهيون ٠

٤ ـ « الحكومة بيتها من الزجاج وعلينا ان نكون اول من يرمي الحجارة لتحطيم هذا البيت » ٠

٥ ـ قول رئيس بلدية معليا ـ مسعد قسيس ـ المعتبر شخصيا « ايجابيا » ، وهو نائب سابقلقائمة تابعة للمعراخ (في اجتماع الناصرة المذكور) : « ٠٠٠ ما هو حق اسرائيل المعنوي في مصادرة الاراضي في هذه المنطقة التي تقع بموجب قرار التقسيم من عام ١٩٤٧ ، خارج دولة اسرائيل » ٠٠

هذه الظاهرة تعتبر جديدة نسبيا وتشير الى رغبة جزء هام من السكان في الاحتجاج ضد الحكم الاسرائيلي ولو بنبرة منخفضة ٠ وهذه حقيقة خطيرة جدا بالمقارنة مع سلوكهم في الماضي ٠

ان عهد انتصارات الفلسطينيين في العالم ومكاسب القوميين في اسرائيل تشير الى اتجاه نحو مواجهة مكشوفة مع المشكلة العربية في اسرائيل ٠ وهذا الاتجاه سوفيتعاظم طالما انفرد حزب ركاح (القائمة الشيوعية الجديدة) في حمل لواء معارضة مؤسسة الحكم الاسرائيلية ٠ (يجب ان نذكر ان كلمة « اسرائيل » لا تظهر في اسم ركاح وليست هذه مجرد صدفة) ٠

٣ ـ توقعات

أ) تكاثر السكان العرب (من ٠٠٠ر١٥٠ نسمة سنة ١٩٤٨ الى ما يزيد على ٠٠٠ر٤٣٠ نسمة سنة ١٩٧٥) يعطي القوميين العرب احساسا بالقوة والامل ، بان الوقت يعمل لصالحهم ٠ خصوصا في منطقة مثل شمال البلاد ، حيث يشكل الوجود العربي الكثيففي مناطق متصلة ، حاجزا مانعا ٠

ب) ان سيطرة حزب ركاح على مؤسسات « شبه حكومية » مثل المجالس المحلية ليعطي قاعدة قانونية لنشاطات قومية سياسية علنية وسرية ، من خلال تبني الاساليبالتي كانت متبعة في التجمعات السكانية اليهودية « قبل الدولة » وكذلك اساليب شيوعية مالوفة في العالم ٠ وفي الواقع توجد اليوم عدد من المجالس المحلية تحت سيطرة ركاح وفي راينا ان هذه المجالس غير مستغلة ، عن سابق تعمد ، للقيام بالوظائف المذكورة ، بسبب غياب كوادر كافية للتنفيذ ، وبسبب فقدان الامكانات التنظيمية الكافية لذلك ٠ وفي

رأينا ان عدد الطلاب في جامعات اوروبا الشرقية الحاصلين على منح من ركاح يتزايد باستمرار بغرض اعداد هذه الكوادر ·

ج) هناك خوف جدي من انه خلال العقد المقبل ستنفذ عملية استيلاء عربية من الناحية الديمغرافية والسياسية على عكا ومنطقة الناصرة ·

د) يجب الاخذ في الحسبان انه في احدى مراحل العمل السياسي المعادي قد يطلب بشكل أو بآخر اجراء استفتاء عام في شمال البلاد في الوقت الذي يشكل فيه العرب اغلبية السكان ·

هذا العمل سيحدث بتوجيه من الخارج ، ولكن القائمين به قد يكونون يساريين - قوميين من اوساط السكان العرب في الدولة ·

هـ) قد يحدث في مرحلة معينة تنفيذ عمل استفزازي مخطط له بواسطة ركاح (او بواسطة عرب بغرض حدوث هيجان لدى عناصر يهودية غير منضبطة ، الامر الذي من شأنه ان يؤدي الى عرض موضوع عرب اسرائيل على المنابر الدولية ، ومن شأنه ايضا ان يدفع المعتدلين من عرب اسرائيل الى حالة يضطرون فيها الى تأييد خطوات متطرفة داخل الدولة وخارجها ·

و) بدأت تظهر عمليات منظمة لشراء العرب عقارات في مناطق الشمال ويظهر ذلك بشكل بارز في الناصرة العليا وعكا ويظهر بشكل مثير للقلق في مسرح ابن عامر ·

٤ - اقتراحات

أ) يجب توسيع وتعميق الاستيطان اليهودي في المناطق التي تبرز فيها الكثافة السكانية العربية ويزيد فيها عدد السكان العرب على عدد السكان اليهود بدرجة تزيد عن الحد المقبول · ويجب درس امكانية تخفيف عدد السكان في التجمعات السكانية العربية القائمة ·

يجب توجيه أهتمام خاص الى مناطق الحدود في شمال غرب الدولة ومنطقة الناصرة · التوجه وسرعة التنفيذ يجب ان يخرج عن اطار المألوف الذي كان متبعا تجاه هذه المواضيع حتى الان · وبموازاة ذلك يجب تطبيق قوانين الدولة بغرض تقييد « عمليات الاستيطان » العربية في أقسام الدولة المختلفة ·

ب) يجب في الوقت نفسه الاهتمام بايجاد زعامة يهودية قوية وثابتة في الناصرة العليا (اليهودية) وفي عكا تكون قادرة على مواجهة التطورات الخطيرة المتوقعة ·

ج) اتباع سياسة الثواب والعقاب (ضمن القانون) بالنسبة الى القادة والقرى الذين يتكلمون باية صورة معادية للدولة وللصهيونية ·

د) من اجل تجريد حزب راكاح من « الزيادة » في حمل لواء النضال القومي وتمثيل عرب اسرائيل ولاعطاء متنفس للجالسين على « الحافــة » يجب تأسيس حزب شقيــق لحزب العمل يكون التركيز فيه على مبادىء المساواة والانسانيات والثقافة واللغــة والنضال الاجتماعي ورفع علم السلام في المنطقة · وعلى المؤسسات الحكومية ان تهيء نفسها من اجل ان يكون لها وجود خفي في هذا الحزب وان تتحكم فيه ·

هـ) يجب اتباع سياسة تنسيق كامل ومطلق بين الوزارات والهستدروت والسلطات المحلية خصوصا في المستوى التنفيذي على الطبيعة والاصرار على التنفيذ بصورة صارمة·

و) بذل كل جهد ممكن من أجل التوصل الى وفاق قومي بين كل الاحزاب الصهيونية حول موضوع عرب اسرائيــــل بغرض اخراج هذا الموضوع عن مجال الصراعــات السياسية الداخلية ·

ب ـ الزعامة العربية وتأثيرها

ا ـ المجتمع اليهودي الديمقراطي والمفتوح والذي وجد السكان العرب الذين بقــوا في البلاد أنفسهم فيه بعد قيام الدولة لم يستوعبهم سواء من ناحية التقاليد والانفتاح · واليهــود الذين اوكلت اليهم مهمة معالجة شؤون هؤلاء السكان العرب وكان هدفهــم جعل هؤلاء السكان مخلصين لمجتمع اليهود ألذي قام في دولتهم لم ، ينجحوا في ذلك · بل بالعكس ، هناك دلائل واضحة على ان كل الخطوات اتبعت من اجل الحفاظ على طابعهــم الخاص وعزلهم من جهة وعلى محاولات ترمي الى كسب اهتمام انتقائي ومعاملة خاصة ومميزة من جهة اخرى ·

ومع ذلك سمعت التصريحات صباحا ومساء حول المساواة والاندماج وغير ذلك ولكن الافعال كانت مناقضة تماما · هذه السياسة لم تأخذ في الحسبان الطبيعــة العربيــة الشرقية السطحية غير المتعمقة والتي تتميز بعمل الخيال اكثر من عمل العقل ·

التعبير الحاد لهذه السياسة المتناقضة هو « تتويج » ممثلين وزعماء للسكان العرب· حتى اليوم لا يوجد أي مسؤول عربي « ايجابي » منتخب على المستوى المحلي ·

ان المجتمع العربي في اسرائيل الذى يمر بمخاض الانتقال من مجتمع زراعي ذي اسس قائمة منذ اجيال الى مجتمع صناعي والى تحطيم الاطارات العائليــة والدينيــة والاجتماعية يعاني بالاضافة الى ذلك من الضياع القومي ·

هذا الضياع يتميز بالخطورة ويضع كل فرد امام قرارات حاسمة واحيانا مصيرية · ان مجتمع فترة الانتقال في هذه المراحل في حاجة الى قادة قادرين على ان يكونوا نموذجا شخصيا وان يتملكوا الصفات التي تمكنهم من الاجابة عن اسئلة المرتبكين المخلصين ومــن سوقهم الى الحل المعقول على الصعيد الشعبي والشخصي ·

ولكن كما ذكرنا في المقدمة لم يكن هذا الاختبار هو الاساس للحصول على شهادة « زعيم » بل أن الشخص العنيف صاحب السطوة الذي قلما يكون انسانا مستقيما يصبح ممتلا لرافعي لواء عرب اسرائيل ٠

٢ ـ الجيل الثاني الذي تربى في المجتمع الاسرائيلي ويحاول ان يكتسب ولو بصورة سطحية فقط اساليب الحياة الاسرائيلية لا يستطيع ان يتقبل هؤلاء الزعماء ٠ لقد كان من الممكن ملاحظة علامات على ذلك منذ عشر سنين ، وكان من الواجب على المسؤولين المختصين بهذه المواضيع أن يخلقوا شخصيات مقبولة بالنسبة للجيل الثاني وان يخلقوا مع ذلك اخلاصا تجاه الدولة ٠ وفي رأينا انه اذا كان هذا التقصير قد نجم عن عدم مقدرة او عن تعمد ، فان نتائج ذلك من الممكن ان تنطوي على كارثة ٠ ان احد الدوافع الاساسية للتردي الواقع اليوم هو التحفظ على هذه الزعامة (انظر انتخابات بلدية الناصرة) ٠

٣ ـ توقعات

أ) الصراع بين ذوي المناصب المختلفة والجيل المتمرد سوف يتصاعد بينما سيكون الاوائل معتمدين في الاساس على مؤسسات الحكم الهستدروتية والحزبية ٠

ب) ستكون النتيجة أن الصراع على السلطة والمنصب سيتحول الى صراع ضد مؤسسة الحكم والدولة ، والاكثرية ستنتقل باستمرار الى جانب المتمردين ٠

جـ) العناصر المعادية للدولة سوف تستغل بشكل واسع هذه الازمة الاجتماعيةوسوف تجيرها لصالحها واصداء ذلك سوف تستغل من على منابر مختلفة في الداخل والخارج كنضال اجتماعي وقومي ٠

د) في رأينا ، اذا استمر التدهور على الوتيرة الحالية ، فسوف ينجح حزب راكاح بعشرة نواب في الانتخابات المقبلة للكنيست ٠

٤ ـ اقتراحات

أ) يجب اتخاذ خطوات جريئة يجرى بموجبها تغيير معظم العاملين في القطاع العربي التابعين للاجهزة الحكومية والشرطة والاحزاب بما في ذلك واضعي السياسة ٠

ب) يجب التخلص من « الزعامة » العربية الحالية التي لا تمثل السكان العرب والتاكيد على عدم تضامن الحكم معهم ٠

ج) على أولئك الذين توكل اليهم المهمة البدء مباشرة ببناء شخصيات جديدة ذات مستوى ثقافي واستقامة شخصية تتمتع بمواهب قيادية ، ومساعدتها على تاسيس حزب عربي كما ذكرنا اعلاه ٠

د) يجب تعيين لجنة خاصة (من الاستخبارات العامة) مهمتها تقصي السلوك الشخصي لقادة راكاح والشخصيات السلبية الاخرى ونشر هذه المعلومات امام جمهور ناخبيهم ٠

هـ) اتخاذ خطوات فردية ضد كل شخصية سلبية في كل المؤسسات والمستويات ٠

ج ـ الاقتصاد والعمل

١ ٠ النمو والرخاء الاقتصادي اللذان مرا على سكان الدولة خلال سنوات وجودها شملا ايضا السكان العرب ٠ وفي الحقيقة يبرز هذا الامر بشكل اوضح في ضوء كون معظم الذين بقوا في حدود الدولة بعد معارك ١٩٤٨ ــ ١٩٤٩ هم من الفقراء٠ان الفارق الشاسع بين العرض والطلب على الايدي العاملة في الاقتصادبكل فروعه وخاصة فرع البناء وورش اصلاح السيارات وكل الاعمال اليدوية بشكل عام ، والتبعية التي تميز فروع اقتصاد كثيرة مرتبطة بهذه الايدي العاملة،اعطت شعوراً بالقوة لعرب اسرائيل الامر الذي استغلته الجهات المهتمة بذلك ٠

٢ ٠ المساعدة المتبادلة المألوفة حتى اليوم بين افراد العائلة ، وعدم وجود وعي حول توظيف المال في مشاريع انتاجية اكبر من المشاريع متوسطة الحجم ، ادت الى تراكم فائض اموال نقدية كبير جدا في أيدي السكان العرب ٠ هذه الاموال تخفى عن سلطات الضرائب المختلفة ٠ ويجب التاكيد على انه بينما يشكل عدد السكان العرب ١٤ ٪ ولا تحصل لديهم ظاهرة « اقتلاع » الايدي العاملة عن طريق التجنيد للخدمة العسكرية لمدة ٣ سنوات،فان مجموع الضرائب التي يدفعها السكان العرب هو ٥ر١ ٪ فقط ٠ وهكذا يؤمن السكان العرب بصورة اساسية ، مستقبلهم الاقتصادي ٠ كذلك فان تركيب الاعمار (نصف السكان شباب عامل) له مدلول هام : دخل عال لكل عائلة ٠ وبالاضافة الى ذلك هناك منح حكومية (التامين الوطني) للعائلات التي يزيد عدد اولادها على الاثنين (٩٥ ٪ من العائلات العربية في اسرائيل) ٠

٣ ٠ هناك موضوع بارز بشكل خاص في المنطقة الشمالية ، بسبب التجمع السكاني العربي الكبير فيها وهو المشاريع التي تقيمها الدولة في المنطقة وتوظف لها اموالا ضخمة بغرض زيادة عدد السكان اليهود ٠ هذه المشاريع تجعل عدد العمال العرب فيها يصل الى نسبة تتراوح بين ٢٥ ٪ و ٥٠ ٪ ٠

الطمانينة الاجتماعية والاقتصادية هذه ، التي تحرر الفرد والعائلة من القلق والهموم اليومية تمنحهم من حيث يدرون او لا يدرون متسعا من الوقت للتفكير في امور «اجتماعية ـ قومية» وهذه الافكار تستغلها عناصر معادية لتوليد ظواهر الغليان والتذمر على انواعها ولخلق شعور بالقوة وبوجود امكانات الاحتجاج الشعبي ٠

٤ ٠ توقعات

أ ـ تجميع الاموال وخاصة السوداء منها (المهربة من الضريبة ـ المترجم) في ايد

غير مرغوب فيها ، وهي تقدر بمئات الملايين ، من الممكن ، بالاضافة الى الضرر الاقتصادي الناجم عن ذلك ، ان تشكل قاعدة للتبرعات التي تجمعها عناصر معادية (ذكرنا كيف جرى التطوع لدفع الاقساط لبلدية الناصرة) ٠

ب ـ كثرة عدد العمال العرب في المصانع والمشاريع قد يؤدي الى الاسراع في عملية الاحتكاك بين اليهود والعرب ، ومن شان ذلك ان يتطور الى اصطدامات غير مسيطر عليها ٠ وبالاضافة الى ذلك هناك امكانية سيطرة حزب « ركاح» على لجان العمال ٠

جـ ـ أن تركيز السيطرة على قطاعات اقتصادية معينة يمكن العرب من الاضراب او عدم التعاون مما سيؤدي الى اضرار اقتصادية بالغة للدولة وعلى الخصوص اضرار سياسية عن طريق ابراز وزنهم كعامل مهم في اقتصاد الدولة ٠

د ـ هناك مصاعب آخذة في التفاقم بالنسبة لاستيعاب مستخدمين يهود خاصة في الشمال حيث هناك اهتمام خاص بزيادة عدد السكان اليهود على انواعهم ٠

٥ ـ اقتراحات

أ ـ يجب وضع اتفاقات مناسبة مع كل ادارة مشروع أو معمل خاضع ل « قانون استثمار رأس المال » في المناطق الحساسة (كما ذكرنا اعلاه) بحيث لا يزيد عدد العمال العرب فيها على نسبة ٣٠ ٪ ٠

ب ـ على سلطة الضرائب أتخاذ خطوات سريعة لتعميق الجباية ولتنفيذها بصورة صارمة وبدون اي استثناء ٠

جـ ـ يجب التوصل الى تسوية مع مصادر التسويق المركزية للمواد الاستهلاكية على انواعها ، يكون من شانها تحييد الوكلاء العرب ووضع العقبات امامهم خاصة في منطقة الشمال بغرض منع اعتماد السكان اليهود على الوكلاء العرب وخاصة في اوقات الطوارىء ٠

د ـ على الحكومة ايجاد طريقة يمكن بواسطتها تجنب اعطاء المنح للعائلات عديدة الاولاد لدى السكان العرب اما بواسطة ربط المنحة بالوضع الاقتصادي او بواسطة مصادرة هذه الاموال من التأمين الوطني واعطائها للوكالة اليهودية أو المنظمة الصهيونية بحيث تكون مخصصة لليهود فقط ٠

هـ ـ العمل على ايجاد وضع تهتم فيه المؤسسات المركزية بتفضيل ترسيخ الاطارات والافراد اليهود مكانة العرب ٠

د ٠ التعليم

١ ٠ أن أهم وابرز تغيير في مفاهيم وسلوك السكان العرب يعود الى تعميق وتوسيع

شبكة التعليم في وسطهم ٠

ان التحسن في الوضع الاقتصادي والامن الاجتماعي لدى الفرد والعائلة ، دفـــع عددا كبيرا من الطلبة الى المدارس الثانوية ومعاهد الدراسة العليا ٠ هذا الاتجاه دفـع الى تطبيق رسم التعليم المتدرج (٦٦ ٪) في المدارس الثانوية ٠ ان الدعم المالي وسياسة المنح لطلبة الجامعات اللذان خلقا مجتمعا طالبيا مثقفا ولو بصورة سطحية وريفيـــة ، يشكلان « الخميرة » لكل حركة قومية وخاصة في مثل ظروف عرب اسرائيل ٠ هذا هـــو الوضع الحاصل (انظر احداث الجامعات)٠ لقد كان من الواجب على المسؤولين عن هـذا القطاع توقع هذه الاحتمالات ومن الواجب منذ الان فصاعداً التخطيط الدقيق مـــن اجـل التنسيق بين الاجهزة المختلفة ومن اجل القيام بالنشاطات الواجبة بالنسبة لمجموعـــة الخريجين على انواعهم ٠

٢ ٠ وضع أسس تفضيلية (علامات منخفضة) لقبول الطلبة العرب في الجامعـــات والمعاهد العليا على انواعها والمواضيع التي يوجهون اليها (الاداب ، العلوم السياسية، علم الاجتماع) وعدم وجود اهتمام وامكانات لاستيعاب الخريجين للعمل ، كل ذلك ادى الى وجود مجموعة كبيرة من « المثقفين » المتذمرين والذين لديهم حاجة نفسية عميقة تدفعهـم الى البحث عن متنفس لتذمرهم ٠ هذا الامر يجد تعبيراً له في معاداة مؤسسة الحكـــم الاسرائيلية والدولة ٠

هذه المشكلة تتخذ طابعا خطيرا جداً اذا ما اخذنا بعين الاعتبار ان عدد الخريجين يزيد على ٥٧٠٠ خريج وان عدد الطلبة العرب في المعاهد العليا اليوم يصل الى حوالـــي ٢٥٠٠ طالبا ٠

٣ ٠ توقعات

أ ـ بسبب صعوبة الاعتراف موضوعيا بالتخلف المهني سوف يتعمق الشعور بالتذمر وفي الوقت نفسه سوف يزداد باستمرار عدد الخريجين المتذمرين ٠

ب ـ عند اخذ الطبيعة الشرقية بعين الاعتبار وبسبب الديناميكية الاجتماعية سينتقل هذا المجتمع من الاتجاه نحو الداخل الى التعبير نحو الخارج ، ويجب ان لا نتجاهـــل امكانات التنظيم والانتقال الى العنف والدلائل الاولية على ذلك اصبحت قائمة ٠

ج ـ رفع لواء النضال الاجتماعي والقومي والتأييد العلنـــي لمنظمـــة التحريـــر الفلسطينية وحتى لمنظمات اكثر تطرفا ٠

د ـ هناك امكانية معقولة لنجاح بعض القادة على أساس انهم ابناء المجتمع المحلي التقدمي الذي نشأوا فيه وما من شك في ان بعض هؤلاء سيتمتعون بصفات القائد ٠

هـ ـ يجب عدم تجاهل الصعوبات التي ستواجه الحكومة عندما تريد اتخاذ التدابير

ضدهم في الاوقات الحرجة وذلك بسبب مستواهم الشخصي ·

٤ · اقتراحات

أ ـ يجب الاحتفاظ باسس خاصة بالنسبة لليهود ازاء قبول الطلبة الى المعاهد العليا وكذلك بالنسبة لاعطاء المنح الدراسية ·

المحافظة على هذه القواعد سينشأ عنها انتقاء طبيعي وستقلل بشكل كبيـــر عــــدد الطلاب ، هكذا سيقل عدد الخريجين ذوى المستوى المنخفض مما سيسهل استيعابهم فـــي العمل بعد انهاء دراستهم ·

ب ـ يجب تشجيع توجيه الطلبة الى المواضيع الفنية والمواضيع الاساسية وعلـــوم الطبيعة · فمثل هذه المواضيع لا تعطي الا القليل من الوقت للانشغال بالقومية وفي الوقت نفسه مستوى الرسوب فيها مرتفع ·

جـ ـ تسهيل السفر الى خارج البلاد بغرض التعليم ووضع العراقيل امام عودتهـم وانخراطهم في العمل فمثل هذه السياسة من شأنها أن تشجع هجرتهم ·

د ـ يجب اتخاذ تدابير صارمة في كل المستويات ضد المحرضين على انواعهم فـــي اوساط المعاهد العليا ·

هـ ـ اعداد خطة مسبقة لاستيعاب القسم الاكبر من الخريجين حسب مؤهلاتهم · هذه السياسة من الممكن تطبيقها حسب المهلة (عدة سنوات) التي بها يخطط المنفذون لخطواتهم·

هـ ـ تطبيق القانون

١ · ان وجود القانون وتطبيقه بواسطة الحكم يعبر عن المصلحة الشعبية للمجتمع وتفضيلها على مصلحة الفرد · وفي اطار هذا الموضوع يكون الحرص على الامن الداخلي بكل ما ينطوي عليه من معاني المصلحة القومية والمصلحة اليهودية العليا عامة ·

ان تطبيق قوانين الدولة في مجتمع يجري بناؤه كما هو الحال في اسرائيل انما هو مشكلة يجب من اجل حلها اتخاذ جانب من اللين والحذر ومنتهى الحكمة ولكن الى جانب ذلك على السلطة التنفيذية العاملة في القطاع العربي ان تؤكد على مراعاة القانـــــون تطبيقه ومنع التدهور ·

لقد ذكرنا اعلاه كيف اتبعت وسائل متناقضة تجاه هؤلاء السكان العرب · فهـــؤلاء السكان اصبحوا يعون استناداً الى وقائع انه من الممكن خرق القانون بواسطة اقامـــة علاقات مناسبة مع اشخاص مناسبين · ان هذه العادات مع ما تسببه من ضرر بالمصلحة العامة بشكل عام ، فانها تظهر علاقات ضعف في الحكم الاسرائيلي في اعين عرب اسرائيل

مما يجعلهم يتوقعون المزيد من التنازلات فيما اذا مارسوا المزيد من الضغط (النماذج على ذلك كثيرة) ٠

٢ ٠ من الصعب أيجاد تفسير مقبول للجباية المنخفضة للضرائب ، لدى كل طبقات السكان العرب بالمقارنة مع ما يجبى من السكان اليهود ٠ وهكذا هو الحال بالنسبة للبناء غير القانوني ٠ وعدم مراعاة القانون فيهذا المجال قد يؤدي الى اضرار خطيرة بالنسبة للامن الداخلي في مناطق واسعة في شمال البلاد وكذلك في المنطقة الوسطى منها ٠

يجب ان نتذكر وان نتعلم من تجارب دول اخرى ذات اقليات قومية أن الليبرالية الزائدة وغير المراقبة لا تؤدي الى النتائج المرجوة بل الى العكس ٠ وبصورة خاصة تنطبق هذه القاعدة على مجتمع مثل الاقلية العربية في اسرائيل (كما فصلنا اعلاه) ٠

٣ ٠ توقعات

أ ـ في مجتمع قائم على القانون ، تنتج عن عدم مراعاة القانون وبصورة علنية ، ديناميكية لمخالفة القانون يتطلب لجم تدهورها جهوداً مضنية فيما بعد ٠

ب ـ يجب لفت الانتباه الى انه مع الوقت قد يؤيد يهود كثيرون بسبب دوافع مختلفة مجتمعاً يخالف القوانين ٠ واذا ما حاول الحكم جعلهم يطبقون القانون سيتهمونه بـ «الاضطهاد» ٠

ج ـ يجب عدم تجاهل عدد السكان العرب ـ ١٤ ٪ اذ ان مخالفة هذه النسبة من السكان للقانون قد تتخذ طابع « التمرد » ٠

د ـ عوامل معادية داخل الدولة وخارجها قد تستغل تطبيق القوانين التي لم تطبقها السلطات خلال فترة طويلة بحجة الاضطهاد القومي وغير ذلك ٠

٤ ٠ اقتراحات

أ ـ يجب ارشاد كل العاملين في القطاع العربي الى عدم التغاضي عن مخالفة القوانين وعلى وجوب تطبيقها كما جاءت في النص الحرفي ٠

ب ـ يجب اتخاذ تدابير قضائية ضد موظفي الدولة والمؤسسات الاخرى الذين لا يؤدون واجبهم في تنفيذ القوانين ٠

ج ـ تقديم دعاوى وتنفيذ عدد من الاحكام خاصة في مواضيع ضريبة الدخل والبناء غير القانوني لكي يرتدع السكان العرب عن التفكير بامكانية التهرب من السلطات القانونية ٠

د ـ يجب تعزيز وجود قوات الشرطة والامن على انواعها في الشارع العربي من اجل

ردع اوساط متطرفة و « محايدة » قد تنجر الى اعمال التمرد والمظاهرات ·

١ ـ ٣ ـ ٧٦

بعد ٣٠ اذار

اقتــراح رقم ٢

١ · كتتمة لمذكرتي السابقة وبموجب التطورات واحداث يوم الثلاثين من اذار ومـا اعقبه ارى من واجبي تحليل ذلك وتقييمه وعرض التوقعات المحتملة في المستقبل القريب ، وعدد من المقترحات التي ارغب في تنفيذها عاجلا ·

النجاح الكلي للاضراب في القطاع العربي هو حقيقة يجب درسها جيدا واخذهـــا كحقيقة قائمة وكمنطلق لكل بحث في هذا الموضوع ·

ان نجاح الاضراب وحجمه كان لهما عدة عوامل يجب الوقوف عليها وهي :

أ ـ لا توجد اية امكانية لفحص نسبة او عدد العرب الذين حضروا للعمل خـارج اماكن سكناهم ·

مع ذلك فانه داخل القرى والمدينتين ، التي يتركز فيها السكان العرب ،كان الاضراب كاملا ·

ب ـ سيطرة منظمي الاضراب على مؤسسات التعليم بكل انواعها في القطاع العربي، بما في ذلك المؤسسات الكنسية ، كانت مطلقة ·

جـ ـ حملة الاقناع بضرورة الاضراب بدات بواسطة مصادر « رسمية » كرؤســاء مجالس محلية وشخصيات عامة تعتبر عادة معتدلة ومتعاونةمعمؤسسة الحكم الاسرائيلية· يجب الاعتراف بان هذه الاوساط فعلت ما فعلته بتاثير الانطباع ان موظفين حكوميـــن كبارا يقفون الى جانبهم وأن « تدخل » السكان العرب سيقنع الحكومة بان تمتنع عن تنفيذ المصادرة (مصادرة الاراضي) · وقد تنافسوا في هذه المناسبةعلى اطلاق التصريحـات المتطرفة مفترضين ان من يكون كلامه أقوى ستكون مكاسبه اكبر ·

د ـ في مرحلة متاخرة جدا وبعد ان اكتشفوا خطاهم لم يستطع الزعماء الرسميون العرب ـ اي رؤساء المجالس المحلية وغيرهم ـ التراجع ، اذ ان التدهور الذي تسببوا فيه جرفهم هم ايضا ·

ان محاولات اليهود الحيلولة دون الاضراب لم تنجح · وادت الى تباين عميق بيـن السكان العرب وممثليهم المنتخبين بمجرد حدوث الاضراب والاحداث التي رافقته ·

هـ ـ قام منظمو الاضراب بحملة ارهاب شديدة ضد مخالفي الاضراب وصلت الـى حد استعمال العنف ونجحوا في ذلك · ان وعود مؤسسة الحكم بتامين حماية كاملـة

لكل من يخالف الاضراب لم تكنموثوقا بها وامتنع السكان عن الاعتماد عليها ٠

٢ ٠ مع ان الاضراب بكل ما سبقه ورافقه خطط له ونظم ونفذ على يد ركاح ، حرص الحزب على عدم ابراز نفسه في هذا الدور بغرض الامساك بزمام القيادة عمليا في اوساط القوميين ، وحتى يصبح في الوقت نفسه القائد لكل نشاط قومي عربي في اوساط عرب أسرائيل، في المستقبل ٠

يجب الاهتمام بهذا الموضوع ودراسة دوافعه وعناصره :

أ ـ ان حركة منظمة التحرير الفلسطينية التي تشكل حركة تحرر قومي لعرب فلسطين لم ترسم في برنامجها اهدافا اجتماعية ، فعدا جناح صغير وهامشي ـ جماعة جورجحبش ـ لا يوجد اي جناح يهتم بهذه المواضيع جديا او يشملها بتصريحاته ٠

ب ـ دفع جماهير غير منتمية الى الحزب الى صدام علني وعنيف مع قوات الامن والتسبب باكبر عدد ممكن من الاصابات بين الجمهور بغرض خلق مشاعر الحقد والنقمة لدى السكان والتوتر لدى الحكم تجاه السكان المعادين ٠

جـ ـ هناك عملية تقليدية ومألوفة لدى حركات التحرر في آسيا وافريقيا وهي الربط بين النضال القومي والاجتماعي مما يساعد على تجنيد الجماهير لمتطلبات النضال وعلى تأييد الرأي العام العالمي ٠ ومن البديهي ان هناك دولا وكذلك دولة عظمى ذات توجه معين تجد نفسها متورطة ولو على سبيل الدعاية فقط في كل نضال يجري تحت هذه الشعارات ٠

في ضوء ما تقدم يجب توجيه الاهتمام الجدي لهذه الاتجاهات والظواهر التي قد تنجم عن خلق هذا التجانس بين الرأي العام العالمي والسكان العرب ٠ لذلك سيستمر ركاح في اعتقادي باتخاذ مثل هذه الخطوات خصوصا تحت غطاء قومي ٠

٣ ٠ يجب التاكيد على عدة مكاسب هامة للقومية العربية التي يقودها ركاح كنتيجة ليوم الاضراب وللمشاغبات التي سبقته ووقعت فيه :

أ ـ حدث لاول مرة منذ قيام الدولة وضع ، تضامن فيه كل السكان العرب في اسرائيل عنوعي وبصورة علنية ضد طلب الحكومة ومع مطلب سياسي ـ قومي عربي متطرف ، واستعداد نفسي للعمل من اجل تحقيقه ٠ بالاضافة الى ذلك فان معظم السكان العرب ايدوا ويؤيدون الان ايضا من قاموا باعمال الشغب وهاجموا قوات الامن وهم يتضامنون معهم علنا ويصرحون بذلكعلى الملأ ٠

بـ ـ عدد كبير من المجالس المحلية ورؤسائها استعملوا كوسائل وادوات من أجل تطوير وتسيير النضال وحتى اولئك الرؤساء الذين لم ينضموا الى المتطرفين في المرحلة الاخيرة بفعل الضغوط لم يعلنوا عن معارضتهمللاضراب بل طلبوا تأجيله لفترةما ، بغرضاستخدام التهديد بالاضراب كوسيلة ضغط على الحكومة كي تخضع لمطالبهم ٠

جـ ـ نجح القوميون وحزب ركاح في تحريض وتوريط الجماهير في صدام عنيف

مع قوات الامن مما ادى الى خلق رواسب عميقة وخطيرة لفترة طويلة · ومما يدل على ان المنفذين نجحوا في التخطيط الدقيق انه رغم الهيجان الذي اصاب الجمهور نجح المخططون في اخراج المنظمين من الصدام العنيف وفي المحافظة على سلامتهم الجسدية وكذلك من الاعتقالات التي اعقبت الصدام ·

د · ان اعمال العنف العلنية على الرغم من النتائج المريرة التي جلبتها للسكان فانها ملأتهم عزة وكبرياء · انهم يعتزون بانهم كانت لديهم الشجاعة للتصادم مع القوات الرسمية للدولة · ويجب الا ننسى ان مثل هذا الاحساس لدى سكان مثل عرب اسرائيل وفي الجو الذي يعيشون فيه ، هو احساس يعطي امكانات كبيرة لاخصائيي الدعاية من اجل ابراز « الكبرياء العربية الجريحة » لعرب اسرائيل ·

هـ – لقد برزت القوة السياسية التي يملكها القوميون العرب تلك القوة التي يعمل حزب ركاح على ابرازها لخدمة اهدافه ومعاركه السياسية المقبلة كما بينا اعلاه ·

و – لقد ادى الاضراب واعمال العنف الى عزل تلك الزعامة العربية الرسمية (المنتخبة) ورؤساء المجالس المحلية الذين لم ينضموا الى الاضراب او اقترحوا تأجيله · لان ذلك الاضراب جرى بصورة كاملة وضد قرارهم الذي اتخذ في اجتماع شفاعمرو · بهذا جرى تسليم الجمهور العربي النشط وخاصة الشباب فيه الى ايدي ركاح ومعاضديه القوميين ·

هنا لا بد من التساؤلهل كان من الحكمة السياسية على المدى الطويل توجيه الضغط الى رؤساء المجالس المحلية في اجتماع شفاعمرو لكي يتصرفوا كما تصرفوا · تجب دراسة هذا الموضوع بكل تاكيد واتخاذ القرارات المناسبة · ان النجاح التاريخي الذي حققه المنظمون وما يمثلونه هو التوحيد المطلق لعرب اسرائيل الذي تم في « يوم الارض» وكذلك الهوة العميقة التي نجحوا في أيجادها كنتيجة لذلك بين السكان اليهود وبين السكان العرب · ان هذه الهوة نتج وسينتج عنها انعكاسات حادة سواء على صعيد السكان اليهود او العرب · وما من شك في ان جهات معادية ستستغل ذلك الامر ·

ز · ترك الاضراب انطباعا قويا لدى المعامل ومؤسسات الخدمات ، بان حسن سير الاقتصاد الذي يديره يهود · هذا الامر ايضا يستغل وسيستغل في المستقبل بغرض خلق مشاعر « الكرامة العربية » التي لا بد ان عرب اسرائيل سيستثمرونها وسيستغلونها ·

٤ · توقعات

أ – الظروف والمعطيات التي تكونت في « يوم الارض » وبعده تعطيحزب ركاح والقوميين امكانات كبيرة لاثارة الشغب فيالدولة ولخلق عدم الاستقرار والتوترات الطائفية · ويبدو بديهيا انهم سيعودون الى استخدام التكتيك نفسه والشعارات نفسها بغرض الهاب حماس الجماهير واخراجها الى الشارع كل وقت يريدون ·

ب – سوف تتعزز حملة التخويف فتصل الى التهديد واستعمال القوة ضد العرب

المتعاونين مع السلطة بغرض اسكات اي معارضة او اجهاض اي اصوات معتدلة ٠

ج ـ في ضوء الاصداء التي خلقتها الاصطدامات الاخيرة في الشارع العربي سوف تدفع الجماهير الى الشارع لغرض واضح : الاصطدام مع قوات الامن والعمل على وقوع اكبر عدد من الاصابات لدى المواطنين من اجل خلق روح الثأر لدى السكان تجـاه قوات الامن ومن أجل حدوث اصداء في العالم حول عدم الاستقرار في اسرائيل واضطهـاد السلطات الاسرائيلية المحتلة للسكان العرب ٠

د ـ الاصطدامات الاخيرة ستقوي شعور تضامن عرب اسرائيل مع المتضررين وهـذا سيخلق منافذ للدخول الى اوساط كانت مترددة حتى الان في الوقوف الى جانب المناضلين٠

وبصورة عامة فان مثل هذه النشاطات سيؤدي الى التطرف وتدهور الوضع ٠ ويجب التذكير بأن النظرية السائدة لدى هذه الاوساط تقول ان الوضع الحالي سيء بالنسبـة لعرب اسرائيل وفقط في حالة عدم الاستقرار الشامل في الدولة هناك امكانية للتغيير ، وعلى المدى الطويل وربما على المدى المنظور قد يحدث تفكك اسرائيل من الداخل فتتحول تدريجيا الى دولة فلسطينية ٠

هـ ـ يجب ان نأخذ بعين الاعتبار ،كامر بديهي ، ان منظمة التحرير الفلسطينية او قسما ممن يشكلونها سيعمل على تحريك عمليات التطرف هذه مع ان التحريك على الطبيعة سيقوم به ركاح الذي سيعمل اعضاؤه من وراء الستار وبصورة غير منظورة ٠ وسيتركز الثقل الاساسي لهذه الاعمال على القوميين العرب من بين السكان العرب في اسرائيل ،وخاصة طبقات المثقفين الذين يتوقون الى العمل لاثبات « عروبتهم » واستعدادهم للنضال ضـد الحكم الاسرائيلي ٠

و ـ الهوة التي خلقتها الاحداث الاخيرة بين السكان اليهود والسكان العرب ستستغل كاملا وسيبذل كل جهد لتعميقها وتوسيعها ٠ يجب أن نأخذ في الحسبان انه من اجل تحقيق هذا الهدف ستنفذ عمليات استفزاز من كل نوع بما في ذلك الاضرابات والمظاهرات واعمال العنف وحتى عمليات التخريب ٠ وفي رأيي أنه في الاصطدامات المقبلة سيجري استعمال الاسلحة النارية على نطاق اوسع وذلك لخلق تأثيرات مرسومة وخطيرة للهوة المذكورة ٠

ز ـ هناك امكانية ايضا لاقامة تنظيم قومي ذي توجه غربي لغرض الحصول علـى تأييد دول واوساط معادية لليسار في العالم ، في كفاحهم ٠

ح ـ سوف تتصاعد عملية السيطرة والتغلغل في المجالس المحلية من اجـل استخدامها في اغراض الدعاية والتغطية والتحويل والظهور بمظهر التمثيل الواسع ٠وفي «يوم الارض» اثبتت هذه الوسيلة نجاحها الكامل في خدمة الاغراض المذكورة ٠

٥ ـ في ضوء التدهور السريع والتوقعات التي فصلتها في مذكرتي السابقة وفي هذه المذكرة اقترح ما يلي :

أ ـ المباشرة باقامة لجنة فكرية لكي تقترح على الجهات المقررة ثلاث خطط عمل :

١ · للمدى السريع

٢ · للمدى المتوسط

٣ · للمدى الطويل

ب ـ يجب المباشرة حالا باقامة لجنة تنسيق وزارية على مستوى المديرين العامين يشرف عليها وزير تعينه الحكومة لهذه الغرض ويساعده مستشار رئيس الحكومة للشؤون العربية ·

ج ـ بما ان وزارة الداخلية هي قناة الاتصال الرسمية والعملية الرئيسية مع المؤسسات الرسمية والمنتخبة عند السكان العرب اقترح أن يترأس لجنة التنسيق المشكلة من مديرين عامين ، مدير عام وزارة الداخلية ·

تعقيب على وثيقة "كنيغ" : اعتراف بسياسة الاضطهاد القومي والعنصرية

يوسف حمدان

الصحيفة الاسرائيلية التي نشرت هذه الوثيقة الخطيرة هي « علهمشمار» الناطقه الرسمية لحزب مبام الذي يشكل مع حزب العمل : تجمع « المعراخ» الحاكم بالتآليف مع حزبي الاحرار المستقلين والحزب الديني القومي (المفدال)٠ واول ما يتباور الى الذهن هو السؤال : لماذا سمح لهذه الصحيفة بنشر هذه الوثيقة ؟ هناك احتمالات عدة منها :

اولا : هناك صراع سياسي بين مبام الذي يحاول ان يلعب دور اليسار في حركة العمال الاسرائيلية « والمفدال » الذي يمثل اليمين الديني ٠ وكاتب الوثيقة هو مسؤول في وزارة الداخلية التابعة للمفدال ٠ والحزبان معروفان بالتنافس على اصوات العرب في الانتخابات وبالتباين في المواقف تجاه القضية الفلسطينية بشكل عام ٠

ثانيا : حزب مبام اشتهر في الماضي بالدعوة الى الدولة ثنائية القومية (يهودية ـ عربية) في فلسطين ٠ ومع انه تخلى عن هذه الدعوة ، الا انه الحزب الصهيوني الوحيد الذي يضم المكتب السياسي فيه اعضاءا عربيا ٠ ويشهد الحزب منذ فترة نقاشا حادا ، خاصة لدى اوساط الشباب فيه حول وجوب الانفصال عن حزب العمل والعودة الى طابعه « اليساري » المستقل الذي استطاع بواسطته تجنيد قوى يسارية اوروبية تقليدية لاسرائيل ٠

ثالثا : الوثيقة مقدمة الى رئيس الوزراء ٠ ووزراء مبام والاحرار المستقلين وبعض وزراء العمل يخوضون منذ فترة صراعا حادا يشكلون فيه الاقلية « المعتدلة » ضد اكثرية الوزراء المتطرفة التي يبرز فيها وزراء المفدال بشكل خاص ووزراء كتلة «رافي» في حزب العمل وهذه المجموعة من الوزراء يؤيدها رئيس الوزراء رابين ٠

رابعا : الوثيقة تدعو الى اقامة « حزب شقيق » لحزب العمل ينادي بشعارات « المساواة » بينما يسيطر عليه حزب العمل بشكل غير منظور بهدف المضاربة على حزب ركاح ٠ وحزب مبام اعتبر نفسه دائما المؤهل لهذا الدور ، واقامة مثل هذا الحزب قد تهدد مصالحه في الشارع العربي خاصة فيما اذا انفصل عن « المعراخ »٠

خامسا : قد يكون نشر الوثيقة بدافع اقتناع حزب مبام ، ان سياسة التفرقة العنصرية والاضطهاد القومي التي تدعو الوثيقة الى تعميقها فشلت وادت الى نتائج عكسية بشهادة احداث الناصرة الاخيرة بشكل خاص ، واحداث الجليل بشكل عام ، وبالتالي فان التمادي في هذه السياسة سيؤدي الى نتائج اخطر ٠

سادسا : قد يكون نشر الوثيقة وعدم منع ذلك من قبل الرقابة العسكرية يهدف الى دعوة المؤسسات والرأي العام اليهودي الى العمل بموجب السياسة التي ترسمها الوثيقة ضد عرب الارض المحتلة منذ عام ١٩٤٨ وخاصة في منطقة الجليل على اساس ان فائدة ذلك اهم من ضرر النشر ٠

ومهما تكن الدوافع لنشر هذه الوثيقة فانها بحد ذاتها تنطوي على أهمية كبيرة من نواح عدة :

١ ــ انها تفضح خطورة السياسة العنصرية وسياسة الاضطهاد القومي والاعتداء على حقوق الانسان الاساسية التي انتهجتها وتنوي تصعيدها السلطات الاسرائيلية ضد ابناء شعبنا في الارض المحتلة منذ عام ١٩٤٨

٢ ــ انها تشكل منطلقا لتطوير اساليب النضال الوطني الذي يخوضه ابناء شعبنا داخل الارض المحتلة ، وحافزا لتوفير المزيد من الدعم في كل المجالات من قبل كل الجهات المعنية باستمرار هذا النضال وتطويره في كل الظروف المتغيرة ٠

٣ ــ انها تعترف في اكثر من مكان بان منظمة التحرير الفلسطينية التي تتنكر السلطات الاسرائيلية لوجودها وتصر على عدم الاعتراف بها وتحاول القضاء عليها بكل اسلوب ممكن ، « تشكل حركة تحرر وطني لعرب فلسطين » ــ اي الممثل الشرعي الوحيد لكل فلسطيني موجود على الارض الفلسطينية وعلى كل ارض ٠

٤ ـ ان « دولة اسرائيل » مدينة للمجتمع الدولي اكثر من اية دولة اخـرى في العـالم بالمساواة والديمقراطية واللا عنصرية ، وحق الشعـوب في تقريـر مصيرها ، لان المجتمع الدولي تحمل مسؤولية وجودها عـلى هذا الاساس ٠ اي بحجة تخليص اليهود من العنصرية والاضطهاد وعـدم المساواة ! وهذه الوثيقة تعـري اسرائيل امام المجتمع الدولي عـلى انها دولـة عنصريـة ، غيـر ديمقراطية ، تعتدي على ابسط الحقوق الانسانية للمواطن وتمارس كل الممنوعات التي اقيمت بسببها !

٥ ـ يصادف نشر هـذه الوثيقة مرور عـام واحـد عـلى قرار الجمعيـة العامة للامم المتحـدة (الدورة ـ ٣٠ سنة ١٩٧٥)الذي عـرف الصهيونيـة بانهـا حركة عنصرية ،وادان اسرائيل كدولة تمارس التفرقة العنصرية ٠وكمـا هو معـلوم خلق هذا القرار رد فعـل دفاعـي طغى ضجيجه على القرار نفسـه٠ وهذه الوثيقة اثبات صارخ عـلى ان اسرائيل عـنصرية وتمارس التفرقـة العنصرية ٠ فهي من جهة تعترف بأن سياسة التفرقة العنصرية موررست ، حيث تقول مثلا : « سمعت التصريحات صباحا ومساء حـول المساواة والاندمـاج وغير ذلك ولكن الافعـال كانت مناقضة تماما »٠ ومن جهة اخرى يحمل كـل اقتراح فيها تقريبا دعـوة الى ممارسة التفرقة العنصرية ضد العـرب مـن مواطني البلد ٠ ومن امثلة ذلك :

أ ـ الدعـوة لتخفيف عـدد السكان العـرب وزيادة عـدد السكان اليهود٠

ب ـ الحد من التكاثر الطبيعي للمواطنين العرب عـن طريق قطـع المنح لعائلات متعددة الاولاد ٠

حـ ـ وضع العراقيل امام التحـاق الطلاب العـرب في المدارس العليا وتشجيع هجرة الطلاب العرب والحيلولة دون عودتهم الى وطنهم ٠ ان الوثيقة تدعـو الى التقليل من عـدد الطلاب الجامعـيين العـرب وتشكو من وجود ٢٥٠٠ طالـب جامعي عربي مع ان هذا الرقم يشكل نسبة حوالـي ٤٪ فقـط مـن مجمـوع طلاب الجامعات في اسرائيل بينما يشكل عدد السكان العرب من مجموع السكان ما يزيد عـلى ١٤٪ ٠

د ـ مع ان عدد السكان العـرب في منطقة الجليل سيشكل خلال سنتين ما يزيد على ٥١٪ من مجموع سكان المنطقة ،فان الوثيقة توصي بان لا تزيد نسبـة العاملين العرب في معامل ومشاريع المنطقة عـلى نسبة ٢٠٪ !

هـ ـ توصي الوثيقة بافقار العرب عن طريق توسيع وتعميق جباية الضرائب منهم ، والتمييز ضد التجار والوكلاء العرب •

و ـ توصي الوثيقة باتباع كل الوسائل لمنع المواطنين العرب من ممارسة حقوقهم السياسية وبتعزيز وجود الشرطة وقوى القمع الاخرى في الشارع العربي •

مناقشات :

حول مذكرات القاوقجي

نجيب الأحمد

اطلعت على كتاب (فلسطين في مذكرات القاوقجي (١٩٣٦ ـ ١٩٤٨) اعداد الدكتورة خيرية قاسمية واصدار « مركز الابحاث » . وحفاظا على قدسية نضال شعبنا العربي الفلسطيني ، وامانة للتاريخ ، وكفلسطيني كان لي شرف الاشتراك في ثورات شعبنا ونضاله والتحقت مع المناضلين مقاتلا في ثورة شعبنا عام ١٩٣٦ ، تحت قيادة فوزي القاوقجي ، ولم انه الستة عشر عاما من عمري ، وشاركت القاوقجي قائدا للمناضلين في ثورة شعبنا عام ١٩٤٨ ، ومن خلال ذلك اطلعت وعرفت الكثير من الحقائق والوقائع ، ارى لزاما علي توضيح ما جاء في مذكرات القاوقجي بكل امانة واخلاص ، يقول القاوقجي في مذكراته في الصفحة الثامنة من الكتاب (كان الشعب الفلسطيني الواثق من مشروعية قضيتهمعلقا كل امالهوواضعاكل ثقته في عدل بريطانيا وشرفها) .

ان هذا القول بعيد عن الحقيقة وفيه تشويه لنضال الشعب الفلسيني الذي قاوم وعد بلفور والانتداب البريطاني والهجرة الصهيونية وقام بعدة انتفاضات وثورات ومظاهرات واضرابات منذ اعلان وعد بلفور وقدم الشهداء وحمل السلاح . وتناسى القاوقجي الشهداء محمد جمجوم وفؤاد حجازي وعطا الزير ودماء موسى كاظم الحسيني التي سالت في شوارع يافا وثورة شعبنا التي قادها الشهيد الشيخ عز الدينالقسام واستشهد ورفاقه فيأحراشيعبدبمنطقة جنين،وتناسى القاوقجي انه جاء مجاهدا لنجدة اخوانه في فلسطين بعد مضي اربعة اشهر على ثورتهم واضرابهم المتواصل . وخانته ذاكرته حيث وصل الى فلسطين وغيره من المجاهدين العرب بتاريخ ٢٥ / ٨ / ١٩٣٦ ، وانسحب منها بعد وقف القتال بتاريخ ٢٤ ـ ١٠ـ١٩٣٦.وما كان الشعب الفلسطيني يوما واثقا في عدل بريطانيا وشرفها وهي التي منحت الصهاينة وعد بلفور وانتدبت على فلسطين لاقامة وطن قومي لليهود على ارض فلسطين العربية.

ويقول القاوقجي بالصفحة (٥٥) من

الكتاب (ان فخري عبد الهادي اول من اطلق بندقية في سماء فلسطين) ومع تقديري لكل من اطلق رصاصة على اعدائنا في فلسطين الا ان هذا القول مناقض للحقيقة تماما وترفضه روح الشهيد القسام ورفاقه . ويقول القاوقجي بالصفحة السابعة من الكتاب (انه الف معرزه من دروز شرق الاردن) فلا يوجد في شرق الاردن طائفة درزية ليؤلف منها مفرزة .

وهناك اخطاء في الاسماء والمواقع ربما تكون اخطاء مطبعية فلا بد من تصحيحها منها قرية غزة والصحيح قرية عنزة وجبل جريش والصحيح جبل حريش وقرية بروله والصحيح قرية بردله ومختار حيوسي والصحيح مختار جيوس والشيخ نمر الوسان والصحيح الشيخ نمر العرسان .

هذا ما جاء في مذكراته عن ثورة الشعب الفلسطيني عام ١٩٣٦ اكتفيت بالرد على بعض ما ذكرته باختصار .

اما عن ثورة شعب فلسطين عام ١٩٤٨ فتشويه الحقائق بمذكرات القاوقجي لا يجوز السكوت عنه ، فوزي القاوقجي دخل فلسطين عام ١٩٣٦ لنجدة شعبها كغيره من المجاهدين العرب الذين هبوا لنجدة اخوانهم في فلسطين ولخبرته العسكرية اختير قائدا للمناضلين . اما دخوله الى فلسطين عام ١٩٤٨ فلم يكن كما دخلها مجاهدا متطوعا عام ١٩٣٦ وانما ضابطا عسكريا عين قائدا لجيش الانقاذ من قبل الجامعة العربية رغم اعتراض الهيئة العربية العليا على رفض تسليح الشعب الفلسطيني ، وتسليم قيادته العسكرية للشهيد القائد عبد القادر الحسيني وتحت اشراف الهيئة العربية العليا واعتراض الهيئة المذكورة على شخص فوزي القاوقجي . وعن هذا الواقع جاء بمذكرات القاوقجي بالصفحة (١٤٦) من الكتاب : ما كاد المقدم صفا يستقر بفوجه في القطاع المعين له حتى شعر بنشاط غريب وقوى ضد هذا الجيش تبديه جماعات مسلحة تدعي انها تنتمي الى سماحة الحاج امين الحسيني . وقد ارسل الى المقدم صفا بتاريخ ٢١ ـ ١ ـ ١٩٤٨ برقية يطلب فيها ان ارسل له المفرزة الشركسية التي كانت لا تزال في قطنا ليتمكن من السيطرة على الموقف. وبعد برهة اطلعني المقدم صفا على اكتشافه مؤامرة لاغتيالي يقوم بها احد عشر شخصا مقابل (١٧) الف جنيه وانه وقع بين يديه واحد من هؤلاء ادلى اليه بمعلومات كثيرة غريبة... وبالسرعة الممكنة ارسلت الى المقدم صفا المفرزة الشركسية ...)

كانت هذه البرقية ولا شك في ذلك نتيجة للحساسيات والخلافات التي كانت بين قيادة جيش الانقاذ التابع للجامعة العربية وبين قيادة الجهاد المقدس(عبد القادر الحسيني) وهي بدون شك من نسج الخيال أو جزء من المؤامرات التي كانت تحاك ضد الشعب الفلسطيني .

المقدم محمد صفا دخل الى فلسطين على رأس فوج من جيش الانقاذ بتاريخ ٢١ ـ ١ ـ ١٩٤٨ والبرقية كما يقول القاوقجي وصلته بتاريخ ٢١ ـ ١ ـ ١٩٤٨ اي بنفس اليوم الذي دخل به المقدم صفا وفوجه الى فلسطين فكيف اكتشف ان هناك مؤامرة لاغتيال القاوقجي وأن جماعات مسلحة تابعة للحاج امين الحسيني تقوم بنشاط ضد جيش الانقاذ بنفس اليوم الذي وصل به الى فلسطين . وهناك اسباب ودوافع وخفايا لا مجال لذكرها الان احتفظ بها للوقت المناسب .

معركة الزراعة

يقول فوزي القاوقجي في مذكرته عن معركة الزراعة (انه طلب من المقدم محمد

صفا مهاجمة احدى المستعمرات اليهوديه في قطاعه وفي ليلة ١٦ ـ ١٧ شباط ١٩٤٨ قام بهجومه علىمستعمرة الزراعةرغم ان الحركات الحربية تكاد تكون غير محتملة بسبب رداءة الجو وصعوبة التحرك في ارض المستعمرة اللزجة التي تضني الجنود · واندفع جنوده الى داخل المستعمرة ودارت بين الفريقين معركة شوارع عنيفة ،وهرعت القوات البريطانية لنجدة اليهود في المستعمرة ، مما اضطر المقدم صفا لاصدار امره بالانسحاب وكانت خسائر جيش الانقاذ في هذه المعركة (٣٧) قتيلا واكثر من ذلك جرحى، اما خسائر اليهود فكانت (١١٢) قتيلا عدا الجرحى · وقد كانت معركة الزراعة رغم انها من المعارك البسيطة عاملا قويا في رفع معنويات العرب في المنطقة) ·

اتمنى من كل قلبيلوان معركة الزراعة كانت كما جاء بمذكرات القاوقجي لكننا لو طلبنا من قائد المعركة المقدم محمد صفا ان يكتب لنا عنها لما كتب كما جاءبمذكرت القاوقجي،وذكر الحقيقة المؤلمة كما يعرفها جميع من شارك او شاهد تلك المعركة الفاشلة ·مستعمرة الزراعة تقع في الجهة الغربية من غور الاردن جنوب مدينة بيسان واراضيها غورية خصبة عميقة طينية ، وتحيط بالمستعمرة والمستعمرات المجاورة لها برك المياه التي اقامها الصهاينة لتربية الاسماك واستعمالها للدفاع عن المستعمرات وقت الحاجة · وكانت الامطار كما يقول القاوقجي غزيرة حيث فصل الشتاءوالجو عاصف·وفي ليلة ١٦ـ١٧ــ٢ـ ١٩٤٨ ورغممعرفةالقاوقجي بالواقع الصعب فقداصدر امره من دمشق الى المقدم محمد صفا بمهاجمة هذه المستعمرة فنفذ المقدم صفا الامر·وما ان اطلقت الرصاصةالاولىمنجيش الانقاذعلى المستعمرة حتى فتح الصهاينةبوابات برك المياه حيث تدفقت المياه منها كالسيل الجارف بالاضافة الى غزارة امطار السماء ، حيث اصبحت الارض مكانا لغوص الجنود بالاوحال وانطلقت الانوار الكاشفة من المستعمرة وجاراتها لتكشف المهاجمين الذين وقعوا في ورطة لا مثيل لها ، الارض الموحلة وغزارة الامطاروشدة الزوابع ورصاص الاعداء · وابدى جنود جيش الانقاذ بسالة فائقة وجهدا كبيرا لكن الوضع كانفوقطاقتهم وهرعت قوات المناضلين لنجدتهم وكانت النتيجة غير ما ذكره القاوقجي ، فالجنة والخلود لهؤلاء الذين استشهدوا بمعركة الزراعة اما قتلى العدو فعلمهم عند الله وليس عند القاوقجي ، وكانت معنويات الاهالي بعد المعركة بعكس ماذكره القاوقجي خصوصا انها اول معركة قام بها جيش الانقاذ في المنطقة ·

دخل فوج من جيش الانقاذ بقيادة المقدم محمد صفا الى فلسطينبتاريخ ٢١ـ ١ ـ ١٩٤٨ وقام بالهجوم على مستعمرة الزراعة يوم١٦ ـ١٧ـ٢ ـ ١٩٤٨ ودخل فوزي القاوقجي قائد جيش الانقاذ الى فلسطين بتاريخ ٦ ـ ٣ ـ ١٩٤٨ واتخذ قرية جبع مقرا لقيادته وهي من قرى لواء جنين وتقع بين مدينتي نابلس وجنين ، واقام بها محطة اذاعةخاصة وبعد وصوله اصدر بيانا للشعب يعلن به انه القائد العام والمسؤول عن المنطقةوامنها ، وعلى جميع المسلحين الانضواء تحت قيادته ويقول القاوقجي بمذكراته بالصفحة (١٩٥٨) من الكتاب(منطقة جنين ونابلس وطولكرم او ما يسمونه بالمثلث كان يتجاذبها عمال الملك عبد الله من جهة وعمال المفتي من جهة اخرى)

لم اكن اتصور ان تصل الامور لهذا الحد من التجني على الشعب الفلسطيني وما كان ولن يكون الشعب الفلسطيني عميلا لاحد لا للملك عبد الله ولا للحاج امين الحسيني · وكان في فلسطين حزبان كبيران هما الحزب العربي ورئيسه جمال الحسيني وكان يعرف مؤيدوه بالمجلسيين

نسبة الى المجلس الاسلامي الذي كـــان يرئسه الحاج امين الحسيني رئيس الهيئة العربية العليا ، وحزب الدفاع الذي كان يرئسه راغب النشاشيبي ، وكان يعــرف بالمعارضين بسبب معارضتهم للحاج امين الحسيني والمجلسيين والحزب العربـي ، بالاضافة الى بعض الاحـزاب الاخـرى كحزب الاستقلال وكانت الهيئة العربيــة العليا تطالب الدول العربية بدعمها بالمال والسلاح لتسلح الشعب الفلسطيني تحت قيادة عبد القادر الحسيني ، قائد الجهاد المقدس ، ورفضت الدول العربية طلــب الهيئة العربية العليا وقررت انشاء جيش الانقاذ ، واختارت له فوزي القاوقجــي قائدا عاما ونتيجة لخلافات قديمةواسباب لا مجال لذكرها الان ، وكان حزب الدفاع يؤيد قرار الجامعة العربية لكن جماهيـر الشعب الفلسطيني كانت تتسلح باموالها الخاصة ما امكنها ذلك ، وكانت الوفود من المدن والقرى والعشائر تجوب البلاد العربية طلبالشراء السلاحالذي منع عنها من الدول العربية ، وكان عبد القـادر الحسيني والهيئة العربية العليا تساعـد هؤلاء لشراء السلاح من مالهم الخاص ، وقبل وصول جيش الانقاذ الى فلسطيـــن كان عبد القادر الحسيني قائد الجهـاد المقدس الذي اتخذ بير زيت مقرا لقيادته يعمل على تنظيم المقاتلين فــي جميــع المناطق ، ويختار القيادات المحلية في كل منطقة ،وكانت قوات المناضلين تهاجمالعدو في القدس وباب الواد ويافـــا وحيفـــا والجليل ومرج بن عامر وطولكرم وبئـر السبع والخليل وغزة واللد والرملة وفي كل مكان في فلسطين ، وقام عبد القـادر الحسيني بجولات كقائد للجهاد المقدس على منطقة رام الله ونابلس وجنيـــن وغيرها لتنظيم المقاتلين وتشجيعهم وحض المواطنينعلى شراء السلاح من اموالهـم الخاصة ، وكان يلقى تجاوبا جيدا ولم يكن في المثلث ولا غير المثلث اي تدخـل للملك عبد الله ولا يوجد له عملاء ، لكن الملك عبد الله كان من اكثـــر الملـــوك والرؤساء العرب معارضة للهيئة العربية العليا ومؤيدالانشاء جيش الانقاذوتسليم قيادته الى فوزي القاوقجي ، الذي كانت الهيئة العربية العليا تعارض بتعيينـــه شخصيا قائدا لجيش الانقاذ ، اذا كان لا بد من انشاء جيش الانقاذ ، وكـــان الخلاف على هذا الموضوع بين القاوقجي وعبد القادر لحسيني ، وكل له مؤيـــدوه وما برقية المقدم محمد صفاالتي مر ذكرها الا نتيجة تلك الخلافات ، وكان لبيـــان فوزي القاوقجي بدعوة المقاتليـــن فـــي مختلف المناطق اثرها العكسي لدى عبد القادر الحسيني ، الذي زاد من نشاطه في تنظيم المقاتلين في مختلف المناطـــق ودعمهم ، وقد كنت انا شخصيا قائدا للمناضلين فيمنطقة جنين الشمالية ورغم انني سلحت من مالي الخاص ـــددا لا بأس به من المقاتلين في منطقة جنين ، الا ان اتصالي مع عبد القادر الحسيني كقائد للجهاد المقدس ، قبل مجيء جيش الانقاذ الى فلسطين ، وبعد وصول القاوقجـــي الى فلسطين حصلت على كمية لا بأس بها من المتفجرات من نوع (T.N.T) من عبد القادر الحسيني ، وبالاتفاق معه قمت مع اخواني المناضلينبنسف خط مشروع شركة كهرباء روتنبرغ التي كانـــت المصـــدر الرئيسي لكهرباء فلسطين ، والمعروف ان شركة روتنبرغ صهيونية الملكية ،واشترك معيبالعمليةفوزي الجرار ،ثمنسفتجسرين على الطريق الرئيسي بين مستعمـــرة العفولة وحيفا ، وقام الصهاينة بنســف جسر على الطريق الرئيسي بين جنين ــ اللجون ــ حيفا بالقرب من قريتي رمانة ، وعلى اثر ذلك اعتبر القاوقجي ان قيامي بنسف شركة الكهرباء والجسرين خروجا على قيادته ورفضا لبيانه الذي طلب فيه من المقاتلين الانضواء تحت قيادته ،فاصدر بيانا نشره بالصحف المحلية واذاعه من

اذاعته بجمع قال فيه :

ان اعمال الشغب والتشويش التي قام بها نجيب مصطفى الاحمد وفوزي الجرار اعمال تخريبيـــة ساوقنهـــا بيـــد من حديد وقد اعذر من انذر •

التوقيع : قائد عام جيش الانقاذ فوزي القاوقجي •

وعلى اثر هذ البيان توتر الجو بيـن عبد القادر الحسيني وفوزي القاوقجي، وكاد ان يقع اشتباك مسلح بين الطرفين، لكنني وبمعونة الخيرين بذلت جهدا كبيرا لمنع وقوع اشتباكات بين المقاتلين وتوجهت الى دمشق حيث قابلت الحـــاج اميـــن الحسيني في فندق اوريان بلاس ، وحضر عبد القادر الحسيني • وتم الاتفاق على ضرورة منع التصادم مع جيش الانقـاذ والتعاون بينهما • وبعد عودتي من دمشق اجتمعت مع فوزي القاوقجي بجبع وتـــم الاتفاق على التعاون بين جيش الانقاذ والجهاد المقدس ونجدة كل منهما للاخـر وقت الحاجة وتقديم الذخائر ما امكن الى الى الجهاد المقدس • وقد اتفقنا على لقاء يتم بين القاوقجي وعبد القادر الحسيني في بيتي بقرية رمانة ـ جنين للمصالحـة والتفاهم • وفعلا قدم جيش الانقاذ كميات من لذخائر للجهاد المقدس وانجده فـــي معركة من معارك باب الواد على طريـق القدس ،الا ان اللقاء بين القاوقجي وعبد القادر الحسيني لم يتم بسبب استشهاد عبد القادر الحسيني •

واصدر القاوقجي قرارا مكتوبا اعتبرني بموجبه قائدا للمناضلين في منطقة جنين الشمالية • واعطاني كتابا موقعا منـــه ومختوما بخاتمه يحوى القرار المذكور •

معركة مشمار هاعيمك

في اوائل شهر نيسان ١٩٤٨ استدعاني فوزي القاوقجي الى مقر قيادته بجبـــع وبغرفة القيادة وبحضور ضباط اركانه .

قال فوزي القاوقجي موجها كتمه لي انني قررت القيام بهجوم على احدى المستعمرات اليهودية واحتلالها ثارا لهزيمة جيش الانقاذ في معركة الزراعة التي قام بها المقـدم محمد صفا وتحطيما لمعنويات العدو ورفعا لمعنويات الشعب الفلسطيني والعربي عامة• وقد اخترت مستعمرة مشمارهاعيمك بسبب موقعها المناسب وامكانية تطويقها وعزلها من النجدات ، واشر على موقع المستعمرة بعصاه على الخارطة المعلقـــة بغرفـــة القيادة وقال : لن اسمح لكل المناضلين عشر شخصا مقابل (١٧) الف جنيه وانه وقع بين يديه واحد من هؤلاء ادلى اليه بمعلومات كثيرة غريبة••• وبالسرعـــة الممكنة ارسلت الى المقدم صفـا لفـــرزة الشركسية •••)

كانت هذه البرقية ولا شك في ذلـــك نتيجة للحساسيات والخلافات التي كانت بين قيادة جيش الانقاذ التابع للجامعـة العربية وبين قيادة الجهاد المقدس(عبد القادر الحسيني) وهي بدون شك عـــن نسج الخيال أو جزء من المؤامرات التي كانت تحاك ضد الشعب الفلسطيني •

المقدم محمد صفا دخل الـــى فلسطين على رأس فوج من جيش الانقاذ بتاريخ ٢١ ـ ١ ـ ١٩٤٨ والبرقية كما يقـــول القاوقجي وصلته بتاريخ ٢١ ـ ١ ـ ١٩٤٨؟ اي بنفس اليوم الذي دخل به المقدم صفا وفوجه الى فلسطين فكيف اكتشـــف ان هناك مؤامرة لاغتيـال القاوقجـــي وأن جماعات مسلحة تابعة للحاج امين الحسيني تقوم بنشاط ضد جيش الانقاذ بنفس اليوم الذي وصل به الى فلسطين• وهناك اسباب ودوفع وخفايا لا مجال لذكرها الان احتفظ بها للوقت المناسب •

معركة الزراعة

يقول فوزي القاوقجي في مذكرته عـــن معركة الزراعة (انه طلب من المقدم محمد

صفا مهاجمة احدى المستعمرات اليهوديه في قطاعه وفي ليلة ١٦ ـ ١٧ شباط ١٩٤٨ قام بهجومه علىمستعمرة الزراعةرغم أن الحركات الحربية تكاد تكون غير محتملة بسبب رداءة الجو وصعوبة التحرك في ارض المستعمرة اللزجة التي تضني الجنود . واندفع جنوده الى داخل المستعمرة ودارت بين الفريقين معركة شوارع عنيفة ،وهرعت القوات البريطانية لنجدة اليهود في المستعمرة ، مما اضطر القدم صفا لاصدار امره بالانسحاب وكانت خسائر جيش الانقاذ في هذه المعركة (٣٧) قتيلا واكثر من ذلك جرحى، اما خسائر اليهود فكانت (١١٢) قتيلا عدا الجرحى . وقد كانت معركة الزراعة رغم انها من المعارك البسيطة عاملا قويا في رفع معنويات العرب في المنطقة) .

اتمنى من كل قلبيلوان معركة الزراعة كانت كما جاء بمذكرات القاوقجي لكننا
٤ ـ ١٩٤٨ .

وحسب التعليمات تم حشد قوات جيش الانقاذ والمناضلين الذين هم تحت قيادتي في قرية اللجون الساعة الثالثةمن صباح ٤ ـ ٤ ـ ١٩٤٨ .لن فئة الهندسة منقوات جيش الانقاذ المتواجدة في منطقة طولكرم وصلت متأخرة وكانت الشمس في السماء وكادت العملية ان تؤجل ، فقلت للقائد ساتحملمسؤوليةنقل فئةالهندسة .وفعلاوبعد موافقته وضعت المتفجرات في سيارة شحن من سياراتي التي نقلت المناضلين وانبطح على ارض السيارة افراد فئة الهندسة من جيش الانقاذ ومعهم بعض المناضلين من رفاقي ،وقمت بتغطيةالجميع بشادر السيارة التي اتجهت صوب قرية ابو زريق على الطريق العام ، باعتبار انها سيارة مدنية مارة باتجاه حيفا ، ونجحت العملية وتم وصول فئة الهندسة وقامت بتفجير الجسر ونسفه.وبالحال امر القاوقجي بقصف المستمرة بالمدفعية وكانت مفاجاة للعدو حيث شوهد اهالي المستعمرة وهم بشوارعها وباعمالهم العادية حين تساقطت عليهم قنابل مدفعية جيش الانقاذ وتهدم من القصف المدفعي خاووز المياه وشبت الحرائقفي المستعمرة وكان الدخان يغطي المنطقة ، وقامت المصفحتان بواجب الدورية وقام كل بواجبه وكانت نتائج القصف المدفعيمثيرة للعواطف ونساء القرى المجاورة تخلط زغاريدها مع قصف المدافع المركز . مما شجع الجميع . ودفعت رياح النصر وتباشيره بطاقم المصفحتين باقتحام المستعمرة والتجول في شوارعها الخالية الا من الدمار ولهيب النيران المشتعلة بها . ودفع بالمناضلين حسب الخطة الموضوعة بمحاولة اقتحام المستعمرة واحتلالها .وفي نشوة النصر والفرح هذه استدعاني القاوقجي الى قيادته خلف الميدان واستفسر مني عن الوضعفقلت له: نريد اقتحام المستعمرة ومناضلونا الان يقفون على الاسلاك المحيطة بها ونريد خبراء لتفجير او كشف الالغام التي لا بد من وجودها داخل الاسلاك وفوجئت بالقاوقحي يقول لي :

يجب وقف الاقتحام حتى المساء وعليك اعادة المناضلين الى مرازهم في الجبال المحيطة . وسأصدر الامر بالاحتلال في الوقت المناسب . حاولت اقناعه بضرورة الاحتلال الفوري فرفض ،ونفذتالتعليمات واعدت المناضلين الى مراكزهم انتظارا لحلول الظلاموقرر القائد العام بالاحتلال. تناول القاوقجي الغداء من المناسف التي جهزها اهاليقريةابو شوشةالمجاورة وغادر الميدان الى قيادته بجبع ، وسلم القيادة في الميدان الى المقدم مهدي صالح ، وحل لظلام ولم يصدر اي قرر بالهجوم والاحتلال وكان الجو هادئا يتخلله بعض الطلقات هنا وهناك .

وما ان بزغت شمس اليوم التالي حتى طالعتنا الصحف اليومية العربية وبعناويين ضخمة مثيرة ، وتعلن انهيار

المقاومة فيمستعمرةمشمارهاعيمك وتشيد بيطولة القاوقجي وشجاعته·وكانت اذاعة القاوقجي في جبع تعلن انهيار المستعمرة واحتراقها وتردد الاناشيد الوطنية الحماسية · وفي اليوم الثاني وحوالي الساعة العاشرة صباحاخرجت من مطار نهلال الذي تتواجد به القوات البريطانية اربع عشرة دبابة يتقدمها سيارة جيب تحمل علما ابيض واتجهت صوبنا ·

اتخذت الاحتياطات ووصلت الدبابات البريطانية وارتجل من سيارة الجيب ضابطبريطانيوطلبمقابلة فوزيالقاوقجي، ابلغت المقدم مهدي صلح بذلك فطلب مني مرافقة الضابط البريطاني الى قرية جبع لمقابلة القاوقجي·نفذت الطلبورافقت الضابط البريطاني بسيارة الجيب وبقيت الدبابات البريطانية على الطريق العام ·

قابل القائد البريطاني فوزي القاوقجي بقيادته بجبع وقال له انه يطلب هدنة لوقف القتال مدتها (٢٤) ساعة وذلك لنقل الجرحى مناهالي المستعمرة للمستشفيات ودفن القتلى ، ثم اختليا معا وخرج القاوقجي ليبلغني انه اعطى الضابط البريطاني وعدا بوقف الهجوم ووقف اطلاق النار على المستعمرة لمدة (٤٨) ساعة وليس (٢٤)بشرط ان يحضر مختار مستعمرة مشمارهاعميك مع الضابط البريطاني عاري الرس الى المكان الذي تتواجد به الدباباتالبريطانيةعلى الطريق العام قرب مستعمرة مشمارهايمك حيث يتقدم من قائد الميدان المقدم مهدي صالح وبحضورك مطاطيء الرأس ويطاب الهدنة بنفسه باسم اهالي المستعمرة ، فاذا ماقام بذلك يعطى الهدنة ومدتها ٤٨ ساعة ·

اعترضت على القاوقجي ونصحته ورجوته عدم الموافقة على اعطائهم دقيقة واحدة لان غايتهم كسب الوقت لوصول نجدات لهم · وقلت له انه كلة يتوجب على القائد البريطاني ان يتدخل لمنع اهالي مستعمرة مشمارهاعميك من الهجوم على قرية الغبيه التحتا الواقعةشرق مستعمرة مشمارهاعميك والمجاورة لها ، وهي قرية صغيرة هادئة ، وقد طردوا اهلها منها ولكن القاوقجي اصر على رأيه وقال انني قائد ومسؤول « واعرف كيف اتصرف ، عليك ابلاغ المقدم مهدي صالح بقراري وعليه تنفيذه ولا تخف فسادمرهم ان تحركوا ضدناواوضد الاهالي المجاورين لهم » ·

عدت مع الضابط البريطاني وحين وصولنا الى تجمع دباباته ذهب الى مستعمرة مشمارهاعميك واتجهت انا الى مقر قيادة المقدم مهدي صالح في قرية المنسة المجاورة ولما ابلغته قرار القاوقجي غضب وتألم لكن عليه التنفيذ ·

لم يحضر المختار بنفس اليوم وانما حضر في اليوم التالي شخص يهودي عارى الرأس حسب طلب القاوقجي برفقة الضابط البريطانيوكانت اذاعة القاوقجي والصحف اليومية العربية تعلن انهيار المقاومة في مستعمرة مشمارهاعيمكوتعلن عن اجراءات تسليمها للقائد الفذ فوزي القاوقجي اليوم وبحضور قائد القوات البريطانية في مطار نهلال ، وكانت الاذاعات العربية الاخرى تردد نفس الاخبار وهرعمراسلو الصحف العربية والاجنبية وجماهير غفيرة من الاهالي من مختلف انحاء البلاد لحضور عمليةتسليم المستعمرة على حد قول اذاعة القاوقجي والصحف المحلية والعربية · وصل الى نقطة اللقاء القائد البريطاني ومعه الشخص اليهودي واذا به راعي اغنام المستعمرة وليس المختار ، وطلب الهدنة من المقدم مهدي صالح لمدة ٤٨ ساعة فاعطيت له وكانت الات التصوير تلعب دورها في هذه المهزلة المضحكة المخزية لكن الذي تحدث لم يكن راعي الاغنام ، وانما الضابط البريطاني بحجة ان اليهودي لا يعرف عربي ولا انكليزي !!

كل عاد الى مكانه وتوقف اطلاق النار

تماما لكن اذاعة القاوقجي والصحف العربية كانت تعلن استسلام المستعمرة ·

لكنني فوجئت باليوم التالي ان القاوقجي استدعاني الى قيادته في جبع وسلمني كتابا مطبوعا وموقعا بتوقيعه ومختوما بخاتم قيادة جيش الانقاذ وقال لي ارسل هذا الكتاب الى مختار مستعمرة مشمارهاعميك حالا ·

اطلعت على الكتاب فورا واذا بي افاجأ بنصه التالي :

انذار الى اهالي مستعمرة مشمارهاعميك

ان الحملة التي قمت بها ضدكم ما هي الا بسبب تعديكم على اهالي قرية الغبية التحتا وعلى المارة العرب على طريق جنين حيفا · عليكم التوقف عن هذه الاعتداءات والا اعيد الكرة باشد منها وقد اعذر من انذر ·

التوقيع

فوزي القاوقجي
قائد عام جيش الانقاذ

استغربت هذه الاجراءات المتلاحقة من القاوقجي واعترضت عليه بألم وحسرة وقلت له لماذا هذا، ولماذا لا تحتل المستعمرة وينتهي كل شيء · وكنت بحالة غضب وعصبية مما اثار غضبه وقال انا اعرف ماذا اعمل هذه برقية وردتني ومصدر معلوماتها من الاستخبارات البريطانية من تل ابيب نفسها تحذرني من ان عشرة الاف مقاتل من الهاغاناه في طريقهم الى نجدة مستعمرة مشمارهاعميك ولابادة جيش الانقاذ والاستيلاء على مدفعيته، وقد وافقت القيادة (اي قيادة جيش الانقاذ بدمشق) على اجراءاتي هذه » · فقلت له وكيف اوصل هذه الرسالة قال لي « سلمها الى صديقنا الشاويش البريطاني قائد مركز البوليس في الجون القريبة من مشمارهاعميك حيث يقوم هو بايصالها، وكان هذا الشاويش البريطاني يتعاون معنا ضد اليهود ·

اخذت الكتاب وتوجهت الى مخفر البوليس في اللجون وسلمته للشاويش البريطاني، ولما عرف واطلع على محتوياته نفجر غاضبا يكيل الشتائم والكلمات البذيئة للقاوقجي وقال لي « انا ارفض استلام هذه الرسالة ولا تستمع منه ادخل انت بقواتك من المناضلين واحتلوا المستعمرة فهي ميتة » ·

عدت الى جبع وابلغت القاوقجي بما حدث مع الشاويش البريطاني ، فاذاع انذاره من محطة اذاعته بجبع ونشره بالصحف العربية في اليوم التالي · وما ان خيم الظلام في اليوم التالي حتى سمعنا اطلاق نار رشاشات لم تدم طويلا في اعلى قمة في المنطقة وهي قمة الجبل الذي تقع عليها قرية الغبية الفوقا حيث كان عدد من جنود جيش الانقاذ يرابطون هناك كمركز للرصد المدفعي · اتجهت فورا على رأس عدد من اخواني المناضلين لمعرفة سبب اطلاق نار الرشاشات الى القمة · ولم اجد حيا هناك حيث وجدت جميع عناصر الرصد المدفعي ومن معهم من اهالي القرية قتلى والبعض منهم مذبوحا بالسكاكين ·ابقيت قسما ن المناضلين في القمة · وعدت مع عدد اخر لاطلاع المقدم مهدي على ما جرى ، واثناء عودتنا اطلقت علينا النيران من كمين للعدو واشتبكنا معه وانسحب بسرعة ولا نعرف الاصابات التي لحقت به ، واصيب مناضلان بجراح احدهما في صدره والاخر في رجله وتم نقلهما الى المستشفى في جنين · واطلعت المقدم مهدي على الوقائع قال لا استطيع الحركة بدون امر من القاوقجي ، فقلت له اذا انا سأتحرك مع اخواني المناضلين على مسؤوليتنا ·

ومع بزوغ الشمس تقدمت على رأس عدد لا يقل عن (١٥٠) مناضلا حيث بدأنا بالزحف على المستعمرة بقصد اقتحامها

وكنا نتقدم بالتهليل والتكبير والاهازيج. حلقت فوقنا طائرة اسرائيلية صغيرة اعتقد انها من طائرات التدريب والقت علينا قنبلتين من صنع محلي كنا نسميهما (قيزان) انفجر احدهما ولم يصب اي شخص ولم ينفجر الثاني ، فتقدم بوليس بريطاني وهو احد تسعة من البوليس البريطاني الذين تطوعوا مع القاوقجي حيث كان احدهم شقيقا لاحد البريطانيين الثلاثة الذين شنقهم اليهود في اشجار الكينا قرب ناتانيا . وطلب منا الابتعاد واطلق النار من بندقيته على (القيزان) الذي انفجر واصابته شظية في يدهونقلناه الى المستشفى في نابلس .

وبدأت تصل النجدات الاسرائيلية الى المستعمرة. وقامت بحركة التفاف حولناحيث وصلت قوات منها من الجنوب والجنوب الغربي للمستعمرة ، واحتلت قمم سلسلة الجبال المحيطة بنا واشتبكت مع قوات جيش الانقاذ وقوات المناضلين . وكانت مدفعية جيش الانقاذ بقيادة قائد المدفعية البطل مأمون البيطار (وهو سوري) الذي ابلى بلاء ممتازا ، لكن قوات العدو رغم تكاثرها تراجعت امام القصف المدفعي المركز وبسالة المقاتلين من جيش الانقاذ والمناضلين وهرعت النجدات العربية من جميع انحاء المدن والقرى في جنين وطولكرم ونابلس وغيرها . وفشل العدو بحصار قواتنا وانسحب من جميع المناطق التي احتلها عدا قمة جبل واحدة تمكن من التمركز عليها ، وحاصرناه من الجنوب والشمال والشرق ولم يبق له نجاة الا المنطقة الغربية الى المستعمرات القريبة . لكن القوة المتواجدة على هذا الجبل من العدو صممت على الصمود لوقت طويل فجاء ستة من افراد البوليس البريطاني المتطوعين مع جيش الانقاذ ، وطلبوا من المقدم مهدي صالح اعطاءهم بنادق فرنساوية (قصيرة) وقنابل ملز يدوية وسكاكين ، كما طلبوا منه ان

اتقدمهم داخل مصفحة لتغطية زحفهم بالرشاش الى قمة الجبل حيث يطردون العدو ويحتلونه . وبعد قيامنا بذلك وطرد العدو طلبوا ارسال قوة كبيرة لاحتلال الجبل والتمركز به لاهميته الستراتيجية، وكان لهم ما ارادوا . تقدمت داخل مصفحة من جيش الانقاذ وكنت اغطي زحفهم .ولم يمض وقت طويل حتى تمكنوا من احتلال مركز العدو الذي انسحب من قمة الجبل تاركا خلفه ستة من قتلاه احدهم ضابط برتبة مقدم ، واعتقد ان هذا المقدم الذي قال عنه القاوقجي بمذكراته بانه قتل قائد لقوات الاسرائيلية المهاجمة .

كانت فرحة كبيرة بهذا النصر حيث تم تطهير جميع الأماكن التي احتلها العدو. لن عكر جو الفرح هذا بالالم والحسرة التي عمت صفوفنا جميعا حين اخترقت رصاصة معادية جبين البطل قائد المدفعية مأمون البيطار الذي استشهد فورا .

في هذا الوقت كان بامكان فوزي القاوقجي ان يصدر امره باحتلال المستعمرة وكان ذلك ممكنا ، او انسحاب جيش الانقاذ بدون اي عائق حيث جميع الطرق شرقا وجنوبا وشمال - شرق مفتوحة . أو الاستمرار بمحاصرة المستعمرة من كل جهاتها لفرصة اخرى مناسبة ، وكان الهدو مخيما على الساحة بعد هزيمة العدو الا من بعض طلقات هنا وهناك متفرقة .

وفي صباح اليوم التالي وصلت عدة سيارات شاحنة الى مكان المعركة ونزلت قوات منها واتجهت فورا الى الجبل القريب من المستعمرة وكانت تطلق النار على المستعمرة بغزارة ، ومن سيرها كان ظاهرا انها سرية مدربة تدريبا جيدا لم نشاهده في قوات جيش الانقاذ وتمركزت على الجبل القريب من المستعمرة .وهنا بدأ انسحاب جيش الانقاذ بمدفعيته

ومصفحاته وجنوده · وما ان حل المساء حتى كانت جميع قوات جيش الانقاذ واسلحتها بالكامل قد اتمت انسحابهاالى مراكزها في جبع وغيرها ، واصبحت المنطقة خالية منهم تماما ، وتبع ذلك قيام القوات الاسرائيلية باحتلال قرية ابو زريق لتي نسفت فئة الهندسة من جيش الانقاذ الجسر الواقع بينها وبين مستعمرة مشمارهايمك ، واغلق اهلها الطريق التيتوصلالمستعمرة بالمستعمرات المجاورة حتى حيفا ، ونسفوا القرية بكاملها وقتلوا من قتلوا وخطفوا عددا من فتيات القرية واقتادوهن الى مستعمرة نهلال القريبة وقامت قوات العدو بمهاجمة القرى العربية المجاورة والتي عجزت قوات المناضلين من الدفاع عنها منفردة بدون ذخائر او دعم وانتهت معركة مشمارهايمك (المسرحية والمهزلة) بالنتائج التالية :

١ ـتدمير ونسف كامل لقرية ابو زريق العربية وخطف عدد من فتياتها وقتل عدد من شبابها واقاموا مكانها فيما بعد مستعمرة يهودية ·

٢ ـ احتلال الصهاينة للقرى العربية وطرد سكانها ونسفها واقامة المستعمرات الصهيونية فيما بعد على انقاضها والاستيلاء على جميع اراضيها وهي قرى قيرة ، ابو شوشة ، الغبية التحتا ،الغبية الفوقا ، المنسه التابعة للواء حيفا ،المنسه التابعة لقضاء جنين ، مجدو ، اللجون بخربها الثلاث ، لد العوادين ضارب ومساكن عرب التركمان ، جميع الخرب في تلك المنطقة ·

٣ ـاستشهاد قئاد لدفعية البطل مامون السطار وعدد من جنود جيش الانقاذ والمناضلين والاهالي ·

٤ ـ انهيار عام في معنويات جيش الانقاذ والاهالي ·

٥ـ اعادة الفتيات العربيات من قبضة العدو بشروط غير مشرفة لا مجال لذكرها هنا ···· ؟ وتبين فيما بعد ان القاوقجي طلب من الملك عبد الله ارسال نجدة من الجيش الادني كانت تلبس لباس جيش قال انه مهدد ومحاصر مع مدفعيته ودباباته وأن القوة التي مر ذكرها وحضرت بالسيارات اخر يوم بالمعركة وهو يوم الانسحاب ، ما هي الا سرية من الجيش الاردني كانت تلبس لباس جيش الانقاذ وبقيت تحتل احد الجبال القريبة من المستعمرة حتى تم انسحاب جميع قوات جيش الانقاذ واسلحته بكاملها ·

ومنح الملك عبد الله فوزي القاوقجي لقب باشا واصبح فيما بعد ينادى عليه فوزي باشا القاوقجي· ولا بد لي هنا من التذكير بان اربعة طائرات مصرية سبق ان قامت بغارة جوية على مستعمرة نهلال قرب مطار نهلال ، فلاحقتها الطائرات البريطانية بامر من القائد البريطاني الذي اعطى الهدنة من القاوقجي ، واستمرت مطاردتهاحتى اسقطتها جميعا·

هذه معركة مشمارهاعيمك على حقيقتها وبنتائجها وليس كما جاء بمذكرات فوزي باشا القاوقجيوهناكامور وخفاياالوقتغير مناسب لذكرها في هذا المجال ·

((تلال مستعمرتي قلندية والنيفي يعقوب))

يقول فوزي باشا القاوقجي بمذكراته بالصفحة (١٩٦) من الكتاب ان قوات جيش الانقاذ احتلت بناء على امره وتحت اشرافه مستعمرتي قلندية والنيفي يعقوب الواقعتين شمال القدس وقرب مطارها : كان الصهاينة يشددون الخناق على مدينة القدس ويحاصرونها منالجنوب والشمال والغرب ، وكانت القدس القديمة مهددة بالسقوط بيدهم وكاناهالي القدس وقوات الجهاد المقدس تدافع عنها ببسالة خارقة، لكن السلاح قليل والذخيرة شحيحة · فارسل الحاج امين الحسيني رسالة لي

يطلب بذل الجهود مع المقدم مهدي صالح (وهو عراقي) وكان تحت تصرفه عدد من مدفعية جيش الانقاذ لنجدة القدس وفك الحصار عنها وذلك بقصف مراكز العدو بالمدفعية • عرضت الامر على المقدم مهدي صالح فقال انا جاهز لكن لا يوجد عندي من المشاة ما يكفي لحراسة المدفعيـة ، فعرضت نفسي مع اخواني المناضلين • وفعلا ذهبت مع قوة لا بأس بهـا مـن المناضلين مع المقدم مهدي صالح ومدفعيته الثقيلة ليلا حتى وصلنا الى قرية النبي صموئيل المشرفة من الشمال على مدينة القدس وقصفت الاحيـاء والمراكـز الاسرائيلية قصفا مركزا ،وشبت الحرائق في المناطق الاسرائيلية • وفعلا فوجـىء العدو بهذا القصف المدفعي وهـو لاول مرة ، وفتحت طرق القدس وفك الحصار عنها • واثناء انسحاب المقدم مهـدي صالح ومدفعيته وقواتنا من النبي صموئيل عائدين الى منطقة جنين مركزنا ، وفـي قرية قلندية العربية ، استقبلنا اهلهـا بالفرح والاهازيج وزغاريد النساء وطلبوا قصف مستعمرة قلندية المجاورة لقريتهم• وفي هذا الجو الحماسي امر المقدم مهدي صالح بقصف مستعمرة قلندية بعدد من القنابل • وبعد قصفها واصلنا عودتنا الى جنين ، لكن بعض المزارعين مـن اهالي قرية قلندية العربية هرعوا الينـا قائلين ان اهالي مستعمرة قلندية هربوا من مستعمرتهم بعد القصف المدفعي وهـي خالية ، وطلب مني المقدم مهدي القيـام بدورية استطلاع لمعرفة الحقيقة • وتقدمت مع عدد من اخواني المناضلين باتجـاه المستعمرة ، وكانت دهشتي عظيمة حيـن تبين لي صدق قول المزارعين ، حيث لـم اجد اي انسان في المستعمرة فابلغت المقدم مهدي صالح ودخلنا المستعمرة بـدون قتال ولم نجد فيها اسرائيليا واحدا وهرع اهالي القرى المجاورة ،فسلمنا المستعمرة للجنة من القرى المجاورة ومسلحي تلـك القرى وواصلنا عودتنا الى جنين وهذه حقيقة احتلال مستعمرة قلندية •

اما مستعمرة النيفي يعقوب القريبـة منها فقد احتلها الجيش الاردني بعـد تدميرها الكامل بالمدفعية فيما بعـد ولا علاقة لفوزي باشا القاوقجي ولا لغيره بذلك •

بعض الحقائق اوردتها وكل املـي ورجائي من القائمين على «مركز الابحاث» تأليف لجنة خاصة لكتابة تاريخ نضـال الشعب الفلسطيني وثوراته المتعددة وتقوم هذه اللجنة بدعوة كل من ساهم او عنده اطلاع على مرحلة نضال شعبنـا ، او الاتصال به شخصيا واصدار اعلان لدعوة العارفين والمشاركين ، لتقديم ما عندهـم حيث تقوم اللجنة بتدقيـق الوثائـق والوقائع والرسائل • وبعد التأكد مـن صحتها تجمع ويصدر مـن « مركـز الابحاث ، بعد ذلك كتاب خاص عن كفـاح ونضال الشعب الفلسطيني منـذ عـام ١٩١٨ حتى عام ١٩٤٨ ، ويليه كتاب اخر من بعد ١٩٤٨ الى الان ليكون مصـدرا موثوقا صحيحا ومرجعا لكل قارىء وتثبيتا لصحة تاريخ نضال شعبنا ومنعا لكثيـر من الذين يحلو لهم ان يكتبوا حسـب اهوائهم او ما يوعز لهم وهذا ضـروري جدا قبل ان يرحل الجيل الذي عاصـر قضيته منذ الاحتلال حتى الان ، ويأتـي جيل اخر لا يعرف الا ما يقـرأ بالكتـب وتنطمس الحقيقة •

Palestine Affairs

Published monthly in Arabic by the Palestine Research Center; *Editor,* Dr. Anis Sayegh; *Annual Subscription* (airmail): Lebanon and Syria L L 50, other Arab countries L L 60 or equivalent, Africa and Europe L L 80, elsewhere L L 100; *Annual Subscription* (surface mail): Countries outside the Arab World L L 50. *Address:* P.O.Box 1691, Beirut, Lebanon; Tel. 351260; Cables: MARABHATH.

السعر ٣ ١/٢ ل.ل. في لبنان
٤ ل.س. في سوريا
٤٥٠ فلسا في الكويت والعراق
٨ دراهم في دولة الامارات العربية
٤ ١/٢ ل.ل. في سائر الاقطار العربية

شؤون فلسطينية

٦١ كانون الاول (ديسمبر) ١٩٧٦



شؤون فلسطينية

رئيس التحرير : الدكتور انيس صايغ

رقم ٦١ — كانون الاول (ديسمبر) ١٩٧٦

شهرية فكرية لمعالجة أحداث القضية الفلسطينية وشؤونها المختلفة .
تصدر عن مركز الابحاث في منظمة التحرير الفلسطينية .

يشارك في التحرير : محمود درويش .

مدير التوزيع : غازي خورشيد .

العنوان : بناية الدكتور راجي نصر ، شارع كولومباني (متفرع من السادات) ، راس بيروت ، بيروت — لبنان ، ص.ب ١٦٩١ ، تلفون : التحرير ٣٥١٢٦٠ ، التوزيع ٢٢٦٥٨٥ ، برقيا مرابحاث ، بيروت .

ثمن العدد : ٢ ١/٢ ل.ل. في لبنان ، ٤ ل.س. في سوريا ، ٤٥٠ فلسا في الكويت والعراق ، ٨ دراهم في دولة الامارات العربية ، ٤ ١/٢ ل.ل. في سائر الاقطار العربية .

الاشتراك السنوي (بريد جوي) : ٥٠ ل.ل. في لبنان وسوريا ، ٦٠ ل.ل. في سائر الأقطار العربية ، ٨٠ ل.ل. في اوروبا وافريقيا ، ١٠٠ ل.ل. في امركا واستراليا وآسيا .

الاشتراك السنوي (بريد عادي) : ٥٠ ل.ل. في جميع الدول غير العربية .

الغلاف بريشة
منى السعودي

المحتويات

شؤون فلسطينية

خلال سنتين من الحرب الاهلية التي عصفت بلبنان ، كنا في « شؤون فلسطينية » نحاول المحافظة على رسالتنا الفكرية والثقافية والتزامنا الوطني الفلسطيني من خلال ممارستين :

الاولى : هي الالتصاق بقضية الشعب ، في فترة هي من اخصب واخطر واهم فترات النضال الوطني الفلسطيني المعاصر ضد العدو الصهيوني ، وضد محاولات تصفية ارادة شعب فلسطين او تحجيمها او ابتزازها بالتنازلات ، « فشؤون فلسطينية » حريصة على تاكيد هويتها بوصفها منبرا ديمقراطيا ملتزما بقضية الشعب والثورة ، قادرا على ان يشكل ارضية حوار نضالية بين مختلف اطراف النضال الوطني الفلسطيني ٠

الثانية : هي التغلب على الصعوبات التقنية التي فرضتها تطورات الحرب ٠ فكانت معركة الكلمة الملتزمة مع الظروف المستجدة تنطلق من ضرورة ان تكون الكلمة سلاحا راهنا ، وليس فقط سلاحا مستقبليا ٠ اداة للتحليل والتغيير في آن واحد ٠

ان بعض الاضطراب في مواعيد صدور اعدادنا الاخيرة هو نتيجة المعادلة الصعبة هذه التي حاولنا صياغتها خلال الحرب ٠ ونامل اليوم وابتداء من هذا العدد ان تعود « شؤون فلسطينية » الى ثبات مواعيد صدورها كما عودت قارئها ٠

ولم يكن اضطراب مواعيد الصدور هو الخلل الوحيد الذي طرا على « شؤون فلسطينية» فلقد لاحظ القراء خارج لبنان ، بل وربما حتى في بعض المناطق اللبنانية ، انقطاع وصول المجلة اليهم ، وربما ظن بعضهم انها توقفت عن الصدور ٠

والحقيقة ، انه برغم الظروف القاسية التي سادت الشهور العشرين الاخيرة في لبنان ، والتي عصفت بكل مظاهر الحياة والنشاط ،فلعل «شؤون فلسطينية» كانت الدورية الشهرية الوحيدة التي واظبت على الصدور الذي كاد ان يكون منتظما ، فلقد تمكنا من التغلب على كل العقبات الا عقبة واحدة هي المواصلات ، فكانت المجلة تصدر ، ولكنها توزع في اضيق نطاق ممكن ، وهذا في راينا مايعطي الاعداد التي صدرت في هذه الفترة من ٤٤ الى ٦١ مزيدا من الاهمية ، ليس لان وصولهالم يكن ممكنا الى كل القراء في تلك الفترة ، بل لان هذه المجموعة من الاعداد قد غطت احدى اخطر واخصب واهم الفترات في حياة الثورة الفلسطينية وحياة الكيان اللبناني ٠

فعلى مدى شهور الازمة العشرين (من نيسان ١٩٧٥ الى تشرين الثاني ١٩٧٦)

اصدرت «شؤون فلسطينية» ستة عشر عددا (منها عددان مزدوجان) ، تشكل في مجموعها احد المراجع المهمة عن الازمة اللبنانية بكل جوانبهـــا ٠

فقد نشر في هذه الاعداد ـ وبرغم كل صعوبات الكتاب والكتابة ـ تحليلات للجانـــب اللبناني من الازمة بمجالاته الاقتصادية والسياسية والاجتماعيـــة والطائفيـــة والفكرية ، وتحليلات للجانب الفلسطيني من الازمة مع مقارنات بين احداث لبنان الاخيرة واحداث الاردن (عامي ٧٠ ـ ٧١) ٠ كما شملت هذه المجموعة مقالين تسجيليين تحليليين عن مسار الازمة اللبنانية بكل تفاصيلها اليومية ٠ وفي المجموعة معالجة لثلاث محطات هامة فيمسيرةمعارك الحرب اللبنانية عن تل الزعتر ، والجنوب والجبل ، ومعالجتان للدور الاسرائيلي في احداث لبنان ٠ كما تضمنت هذه المجموعة ثلاث وثائق مهمة احداها فصل من مذكرات روبرتموري، المبعوث الاميركي للبنان في اواخر ازمة ١٩٥٨ ، وفصل من كتاب لالبرت حوراني عنالتركيب الطائفي ـ السياسي للبنان في الاربعينات ، وترجمة حرفية لوثيقة كنيغ الاسرائيلية عـن تهويد الجليل ٠

كما تضمنت المجموعة اكثر من مقال يحلل الازمة اللبنانية من خلال علاقتها بالتسوية العامة المطروحة للصراع العربي ـ الاسرائيلي منذ اتفاقية سيناء ٠

وبرغم سيطرة الازمة اللبنانية بكل تفاصيلها على هذه المجموعة من « شؤون فلسطينية» فهي زاخرة بمعالجات مفصلة لجميع المواضيع التي عودت قراءها على متابعتها ، ولعل ابرز مجهود في هذا المجال الندوة المطولة حول انتفاضة الارض في منتصف هذا العـــام ٠

شيء واحد كان ينقص هـــذا المجهود المتواصل والمتحدي لاصعب الظروف ، هو وصوله الى القراء الذين تعودوا على متابعة « شؤون فلسطينية » ، وهذه هي العقبة الوحيـــــدة التي لم نستطع تذليلها ٠ لذلك فان قسم التوزيع التابع لمركز الابحاث ، مستعد لتلبية كل طلب متعلق بمجموعة الاعداد التي صدرت فيأثناء الازمة اللبنانية او اي عدد منفرد منها ٠

ومع العدد القادم من «شؤون فلسطينية » نأمل ان نعاود سيرتنا الاولى مع القاريء من حيث انتظام الصدور وانتظام التوزيع ٠

هيئة التحرير

المسألة الفلسطينية بين احتمالات التسوية او الحرب

غازي الخليلي

ماهي ملامح المرحلة القادمة بعد فوز جيمي كارتر رئيسا للولايات المتحدة؟ هل سيغير هذا الفوز من حسابات بعض الدول العربية ومراهناتها حول احتمالات عقد تسوية سياسية شاملة او شبه شاملة للصراع العربي ـ الاسرائيلي ، ام لا ؟ ذهاب كيسنجر ، مهندس معادلات واتفاقات التسوية ومبتدع سياسة الخطوة ـ خطوة ، هل سيغير في الحسابات ويفرض اعادة جمع اوراق الازمة وخلطها من جديد ؟ اسئلة كهذه تطرح نفسها الان ، والاجابة عليها قد تبدو مبكرة او غير مشجعة ـ نوعا ما ـ لو اخذنا منطق هذا البعض من الدول العربية الذي وضع البيض كله في سلة واحدة ، وراهن على كيسنجر وعلى فوز فورد بانتخابات الرئاسة الاميركية ، للتقدم خطوة كبيرة ،وكبيرة جدا في مسيرة التسوية · ولكن منطقا كهذا لا يصمد امام الواقع ، لانه يسقط الرغبات الذاتية على هذا الواقع ، ويقوم على التمنيات اكثر ما يقوم على التحليل العلمي للوقائع والاحداث · ولا يعني قولنا هذا ان فوز كارتر لن يحدث بعض التغيير في الصورة ، لا بل ، سيحدث بعض التغيير ، ولكنه تغيير لا نراه الا بحدود ضيقة ،ويتناول الاسلوب والشكل ولا يتناول الاهداف الثابتة للسياسة الاميركية ازاء الصراع العربي ـ الاسرائيلي · ذلك ان الموقف الاميركي من هذا الصراع لم يتغير بوجود كيسنجر او عدم وجوده ، بل ظل ـ ولا يزال ـ ملتزما بثوابت محددة ، يجري التعبير عنها باشكال مختلفة وباساليب متنوعة ، وفقا لما يطرأ من تطورات على هذا الصراع نفسه من ناحية،ولما يطرأ من تطورات على الصعيد الدولي من ناحية اخرى · وسياسة « الخطوات الصغيرة » في مسيرة التسوية تمهيدا لخطوة كبيرة ـ نوعا ما ـ لم تكن باي شكل من الاشكال ، خروجا عن هذه الثوابت ، بل كانت شكلا من اشكال متعددة لتنفيذ السياسة الاميركية في الشرق الاوسط على ضوء ما طرأ من تطورات بعد حرب تشرين ·

ثوابت الموقف الاميركي

الثوابت في الموقف الاميركي ازاء الصراع العربي ـ الاسرائيلي ، باتت

واضحة ، ولا تحتاج الى جهد كبير للتدليل عليها او التعريف بها ، ويمكن اجمالها بما يلي :

١) دعم وتقوية اسرائيل باستمرار ، وذلك للحفاظ عليها قوية وقادرة على مواجهة اية تطورات محتملة في الوضع العربي · ولذلك ففي الوقت الذي كانت فيه ادارة نيكسون أو تقدم نفسها لبعض الدول العربية بثوب جديد ، كانت تقدم لاسرائيل مساعدات عسكرية واقتصادية ضخمة · وعقدت ادارة فورد قبيل انتخابات الرئاسة ، صفقات كبيرة من الاسلحة مع اسرائيل لتزويدها بافضل الاسلحة الاميركية واكثرها تطورا ·

٢) ضرب علاقات الاتحاد السوفياتي مع الدول العربية · بالتأثير على هذه العلاقات وتقليص حدود فعلها وتأثيراتها الى ادنى حد ممكن · وفي هذا المجال فقد عمدت السياسة الاميركية خلال السنوات الماضية الى ايجاد نوع من التوازن النسبي بين الدفع في مسيرة التسوية خطوة ، وبين التراجع في العلاقات السوفياتية ــ العربية خطوة او خطوات مقابلة · ولتكريس هذا التوازن ، اوجدت نوعا من الوهم لدى بعض الدول العربية بأن كل « اوراق اللعبة » اي اوراق التسوية بأيدي الولايات المتحدة · وبهذا المنظار ، فان اتفاقية سيناء كانت في احد مظاهرها تعبيرا عن تراجع كبير في العلاقات السوفياتية ــ المصرية وتقدما اكبر واوضح في العلاقات الاميركية ــ المصرية ·

٣) حماية المصالح الاميركية الاستراتيجية في المنطقة ، من نفط وعلاقات اقتصادية وسياسية وطرق مواصلات عالمية · وذلك بدعم القوى الاكثر رجعية في المنطقة ، وتمتين علاقات هذه القوى فيما بينها من جهة ، وفيما بينها وبين الولايات المتحدة من الجهة الاخرى · وايضا بالعمل على توسيع شبكة العلاقات الاميركية مع الدول العربية الاخرى ، التي كانت علاقاتها مع اميركا تتسم بعداء نسبي في الماضي ، والتي باتت اكثر تقبلا الان ، لمد جسور قوية من التفاهم والعلاقات الاقتصادية والسياسية مع الولايات المتحدة ، وذلك على قاعدة استيعاب الدور الاميركي في المنطقة ، وتقبل دور الولايات المتحدة المتميز والخاص في تسوية الصراع العربي ــ الاسرائيلي ·

٤) العمل على تهدئة الصراع العربي ــ الاسرائيلي طالما ان امكانات الوصول الى تسوية سياسية شاملة او شبه شاملة لهذا الصراع ، وفق المنظور الاميركي ، لم تتوفر بعد · وذلك بالتهديد تارة ، وبالوسائل الدبلوماسية وسياسة الخطوات الصغيرة تارة اخرى ·

٥) الالتزام بالموقف الاسرائيلي من المسالة الفلسطينية ، وربط احتمالات حدوث اي تغيير في الموقف الاميركي من هذه المسالة بتفاهم او تنسيق واتفاق مسبقين بين اسرائيل والولايات المتحدة ·

لقد جرى التعبير عن هذه الثوابت بوسائل مختلفة واساليب متنوعة خلال السنوات العشر الماضية ، والى ما قبل حرب تشرين اتسم التعبير عن هـــذه الثوابت بالتعنت ، في حين انه اتسم بمرونة نسبية بعدها ، وذلـك بهـــدف استيعاب الحالة الساخنة للصراع التي نجمت عن هذه الحـرب ، وامتصـاص النتائج الايجابية التي ولدتها ومحاولة استيعابها ضمن السياسة الاميركية في المنطقة · ويمكن القول بدون تردد ، ان الدبلوماسية الاميركية نجحت الى حـد كبير في محاولتها هذه ، وذلك نتيجة مواقف بعض الانظمة العربية التي اندفعت وراء العربة الاميركية دون تبصر ودون حسابات واضحة ، مكتفية بالوعـــود « وبحسن نية » فورد وكيسنجر ·

سياسة الخطوة ـ خطوة استنفدت اغراضها ·

على الرغم من ان سياسة « الخطوة ـ خطوة » ارتبطت باسم كيسنجـــر باعتباره مبتدعها ومنفذها ، فان هذه السياسة طرحت أكثر من مرة قبل حرب تشرين كمدخل او مقدمة لتسوية الصراع العربي ـ الاسرائيلي · وكان المحور في هذه السياسة يدور حول فتح قناة السويس ، وموشيه ديان هو اول من طرح هذه الفكرة في العام ١٩٦٩ ، ثم طرحها كمشروع ، الرئيس انور السادات في شباط « فبراير » ١٩٧١ ، الا ان هذه الفكرة لم تجد طريقها الى التنفيذ لانهـــا اصطدمت آنذاك باكثر من عقبة · فمصر كانت تؤكد على ضرورة ربط الحـــل الجزئي بفتح قناة السويس بالتسوية الشاملة للصراع العربي ـ الاسرائيلي ، وتطالب بالحصول على ضمانات مسبقة بالتزام اسرائيل بهذا الربط ، في حين كانـت اسرائيل ترفض اعطاء اية ضمانات وترفض الالتزام بطرح اية آفاق محـــددة للكيفية التي ستتم بها تسوية الصراع العربي ـ الاسرائيلي بشكل شامـل · لقد كانت اسرائيل ـ آنذاك ـ مأخوذة بجنون انتصارها في حرب حزيران «يونيو» ١٩٦٧ ، ولم تكن على استعداد لابداء اية مرونة في الوصول الى تسويـــة ، حتى ولو كانت جزئية ·

لقد طرأ تعديل على هذه الصورة بعد حرب تشرين ، فاسرائيل « القويـة والقادرة والتي لا تقهر » تعرضت لضربة لم تكن تتوقعها ، والولايات المتحـدة

التي كانت تراهن على عامل الزمن واسرائيل القوية ، فوجئت بالحرب ـ والى حد ما ـ بنتائجها ، فتحركت بهدف تطويق اية مضاعفات قد تحدث ولا يمكن السيطرة عليها • وكان كيسنجر محور هذا التحرك ، والذي يحب كما يشاع عنه ، ان يتعامل مع الاحداث وهي ساخنة • كانت اسرائيل بحاجة الى فترة ولو قصيرة من الهدوء لاستيعاب الصدمة النفسية للجمهور الاسرائيلي،ولاعادة ترتيب اوضاعها العسكرية والاقتصادية والسياسية بعد حرب لم تكن داخلة في تقديراتها السياسية • اما الولايات المتحدة فقد وجدت في اندفاع بعض الدول العربية نحوها لحل الازمة فرصتها للدخول الى الازمة بوضع قوي ، يتيح لها التفرد بالبحث عن حلول لها مستقبلا ويمد جسور قوية من العلاقات مع هذه الدول ، وهو ما يتفق مع استراتيجيتها وسياستها في المنطقة • ومنذ البداية اتسم التحرك الاميركيبالحفاظ على حالة من التوازنالنسبي بين مسيرةالتسوية وبين ما يجري من تطورات اقتصادية واجتماعية في بعض البلدان العربية،كانت تنعكس تلقائيا في تقدم علاقات هذه الدول مع الولايات المتحدة بشكل خاص والبلدان الراسمالية بشكل عام ، وفي تراجع بل وتدهور علاقات هذه الدول مع الاتحاد السوفياتي •

ولدت هذه المعطيات وتحديدا سياسات انظمة حرب تشرين بعد الحرب ، امكان تنفيذ سياسة الخطوات الصغيرة ، فكانت اتفاقيتا فك الارتباط على الجبهتين المصرية والسورية ثم كانت اتفاقية سيناء التي مثلت خطوة اكبر من اتفاقيتي فك الارتباط ، وكانت تعبيرا عن الاندفاع المصري الاوضح نحو العربة الاميركية ، اضافة الى انها جاءت بمثابة اعلان عن نهاية سياسة الخطوات الصغيرة والبحث عن امكانات لسياسة تتعامل مع الآفاق الشاملة لتسوية الصراع العربي ـ الاسرائيلي •

بعد عقد اتفاقيتي فك الارتباط دار جدل واسع حول مسار التسوية •كانت انظمة التسوية تحاول الوصول الى خطوة اخرى من التسوية على الجبهات الثلاث ، المصرية والسورية والاردنية • لكن خطوة كهذه كانت تصطدم باكثر من عقبة ، منها ، ان خطوة كهذه كانت تصطدم بالمسالة الفلسطينية ، وهي مسالة كانت مواقف اطراف الصراع المختلفة ، تتصادم خلالها بحدة ، فبرنامج الحد الادنى العربي بخصوص هذه المسالة كما جرى التعبير عنه في مؤتمر قمة الرباط ، كان يتصادم مع الموقفين الاسرائيلي والاميركي اللذين يرفضان فكرة الدولة الفلسطينية ، وفكرة اعتبار منظمة التحرير الفلسطينية الممثل الشرعي والوحيد للشعب الفلسطيني • ومن هذه العقبات ايضا ، ان اسرائيل لم يكن لديها استعداد لتقديم اية تنازلات للانسحاب من مساحة « معقولة » من الاراضي على الجبهة السورية •

وامام عقبات كهذه كان النظام المصري امام خيارين : اما الانفراد بحل على الجبهة المصرية ، حيث ان امكانات حل كهذا متوفرة لاعتبارات عديدة ، واما الاستمرار في سياسة البحث عن خطوة من التسوية على الجبهات الثلاث. لقد حاول النظام المصري البحث عن امكانات للخيار الثاني بمحاولة حل معضلة التمثيل الفلسطيني عبر حل معضلة الخلاف الاردني - الفلسطيني حول هذا التمثيل . فكان بيان الاسكندرية الذي صدر في ١٨ تموز (يوليو) ١٩٧٤ اثر زيارةقام بها الملك حسين الى القاهرة . والبيان هو عبارة عن اتفاق مصري - اردني ، باقتسام التمثيل الفلسطيني بين الاردن ومنظمة التحرير الفلسطينية . فالاردن يمثل الفلسطينيين من رعايا المملكة الاردنية الهاشمية ، في حين تمثل المنظمة البقية الباقية من الفلسطينيين . والبيان كان غامضا حول فلسطينيي الضفة الغربية والمجنسين بالجنسية الاردنية ، هل يعتبرون رعايا اردنيين وبالتالي يشملهم التمثيل الفلسطيني ام لا ؟ لقد اوضح اسماعيل فهمي ، وزير الخارجية المصري ، بعد الضجة التي اثيرت حول البيان ، ان الضفة الغربية تعتبر وديعة لدى الاردن ولكنه لم يوضح الوضع التمثيلي لفلسطينيي الضفة.(١)

رفضت منظمة التحرير الفلسطينية المعادلة المصرية للتمثيل الفلسطيني واصرت على اعتبارها الممثل الشرعي والوحيد للشعب الفلسطيني . وقد تأكد هذا الاصرار في قرارات قمة الرباط التي نصت على ان منظمة التحرير الفلسطينية هي الممثل الشرعي والوحيد للشعب الفلسطيني ، وكان نتيجة ذلك ان طويت - مؤقتا - مسألة التمثيل الفلسطيني ، وانكفأ النظام الاردني على نفسه، وقذف بسلاح « سياسة الاردنة » لافشال قرارات الرباط بصدد التمثيل الفلسطيني .

مثلت قرارات الرباط نوعا من الاتفاق العربي على ضرورة البحث عن مسار للتسوية يشمل الجبهات الثلاث ، المصرية والسورية والاردنية ، عبر مؤتمر جنيف . ولكن القرارات اثارت معارضة اسرائيلية واميركية . واعتبرها الاسرائيليون والاميركيون معرقلة لمسيرة التسوية ، وتضع العصي في عجلاتها . وهنا تأتي دبلوماسية كيسنجر ، التي التفت على هذه القرارات وعلى مؤتمر جنيف ، وعملت عبر الاتصال الثنائي الاميركي - المصري على ارجاع مصر الى الخيار الاول ، عبر الاكتفاء بخطوة كبيرة - نوعا ما - على الجبهة المصرية مقابل الوعد بقطع خطوة مماثلة على الجبهة السورية ، وتأجيل البحث في المسألة الفلسطينية الى مرحلة قادمة .

كانت اتفاقية سيناء حصيلة مساومة غير متكافئة بين اطراف ثلاثة هي اسرائيل والولايات المتحدة ومصر . وكانت الولايات المتحدة اكبر رابح في هذه

الاتفاقية والتي اعتبرت من الانجازات الكبيرة للدبلوماسية الاميركية في الشرق الاوسط · ولا نود هنا اعادة كل ما قيل عن هـذه الاتفاقيـة ونتاتجهـا ومدلولاتها ، فقد قيل وكتب الكثير عنها ، ونحن مع التقييم السلبي جدا لها · ولكن ما يهمنا تاكيده هنا ، ان الاتفاقية أخلت بالتوازنات العربية التي كانـت قائمة والتي سادت خلال وبعد حرب تشرين ، وتحديدا في العلاقات بين سوريا ومصر ، قطبي هذا التوازن بين انظمة التسوية · وتولد عن هذا الاخـلال وضع عربي جديد اتسم بغلبة الصراع على العلاقات بين الدول العربية واشتداد حدة هذا الصراع مع اندلاع الحرب الاهلية الوطنية في لبنان ، والتي كانت في احد مظاهرها تكثيفا لهذا الصراع عـلى الارض اللبنانية ·

حسب ما اعـلن الرئيس السادات بعـد عقد اتفاقية سيناء ، كان من المفروض ان تتم خطوة مماثلة على الجبهة السورية ، وذلك بناء على وعـد اميركـي للسادات بذلك · غير ان خطوة كهذه لم تتم ، لعدم توفر اية امكانية عمليـة لتنفيذها · فاسرائيل رفضت شروط سوريا التي طالبت بانسحاب اسرائيلـي « معقول » من الجولان بحيث يشمل انسحابا من المستوطنات الاسرائيلية فـي الجولان واخراج مدينة القنيطرة من اطار الحصار الاسرائيلي لها · غير ان اسرائيل لم تبد استعدادا الا لانسحاب «تجميلي» ومحدود جدا من الجـولان · دون التعرض لاي من مستوطناتها هناك او لمواقعها على التلال المحيطة بمدينة القنيطرة ·

تعذر عقد اتفاق سوري ـ اسرائيلي مماثل او شبيه لما جرى على الجبهة المصرية وضع النظام السوري امام خيارات صعبة · فباتفاقية سيناء لم تعـد مصر قادرة على توظيف ثقلها العسكري في الضغط على اسرائيل والولايـات المتحدة للوصول الى اتفاق معقول يرضي الحد الادنى من الشروط السورية · وكان اكثر ما يمكن ان تقوم به مصر هو توظيف علاقاتها مع الولايات المتحدة لتنفيذ الوعد الذي اعطي لها · ومصر كانت تشعر انها بحاجة لاتفاق سوري ـ اسرائيلي حتى لا تتهم بالانفراد · ولكن التعنت الاسرائيلي والمماطلة الاميركية لم تجعلا من الممكن ابرام اتفاق كهذا ·ولذا فقد وجدت سوريا نفسها تقف منفردة في مواجهة التعنت الاسرائيلي والمماطلة الاميركية ، ولم يكـن امامهـا الا ان تقبل بالشروط الاسرائيلية وتكتفي بالانسحاب التجميلي لتغطية اتفاقيـة سيناء ، او ان توسع اطار حركتها تكون اقدر عـلى المناورة والمساومـة مـع اسرائيل والولايات المتحدة ·

ان اقتصار الحركة السورية عـلى الجولان دون تجميع اوراق ضـغط اخرى في يدها ، لن يؤدي بسوريا الا لاحد خيارين: اما القبول بتجميد الوضع عـلى

الجبهة السورية وانتظار الحركة المصرية لانقاذ الموقف ، واما الاندفاع الى حرب مع اسرائيل ، كحرب الجولان التي سبقت عقد اتفاقية فك الارتباط · وكانت لدى السوريين قناعة كبيرة بان اسرائيل لن تنسحب من الجولان ، وان انسحابا اسرائيليا كبيرا من الجولان قد يتم في حال الوصول الى تسوية شاملة او شبه شاملة للصراع مع العدو الصهيوني · وعلى المدى المنظور ليست هناك امكانية لتسوية كهذه ، وان كان هناك امكانية ، فانها لن تكون متوفرة الا باتفاق عربي عام حولها ·

اما القبول بتجميد الوضع فقد رأت سوريا فيه اضعافا لموقفها مما يجعل منها ذيلا للحركة المصرية · اضافة الى ان القبول بموقف كهذا يتعارض كليا مع تطلعات البورجوازية السورية في السيطرة والامتداد ، والحفاظ على موقعها القيادي عربيا · والاندفاع الى حرب مع اسرائيل كحرب الجولان ، كان يتطلب توفير بعض الشروط اهمها ، الاستعاضة عن الثقل العسكري المصري بثقل عربي اخر مواز له على اقل تقدير · ولا سيما ان مصر اعلنت بوضوح انها لن تدخل حربا مع اسرائيل تكون سوريا هي البادئة بها ، بينما ستدخلها في حال هجوم اسرائيلي على سوريا ·

لقد فشلت ــ لاسباب عديدة ــ كل محاولات تشكيل القوة البديلة لتكون اداة ضغط على اسرائيل ، واخذت سوريا تسعى لتنفيذ مشروع خاص بها ، يقوم على اساس الامساك والتحكم بالمسالة الاساسية في التسوية وهي المسالة الفلسطينية · فطرحت لذلك مشروع الكونفدرالية السورية ــ الاردنية ــ الفلسطينية ، لتكون بمثابة الاطار الذي تحل من خلاله مسالة التمثيل الفلسطيني والتناقض الاردني ــ الفلسطيني بخصوص هذه المسالة ، ولتشكل هذه الكونفدرالية بعد الامساك والتحكم بطرفيها الاردني والفلسطيني ، الهامش الواسع للمناورة السورية بصدد التسوية حول الجولان والمسالة الفلسطينية · ومع اندلاع الحرب الاهلية في لبنان ، دخل لبنان في المشروع السوري ، باعتباره الارض التي تتحرك عليها الثورة الفلسطينية بحرية نسبية ·

كان اندلاع الحرب الاهلية الوطنية في لبنان ، ايذانا بان سياسة الخطوات الصغيرة قد استنفدت اغراضها ، وان ما يجري الان هو التمهيد لتسوية شاملة او شبه شاملة للصراع العربي ــ الاسرائيلي «٢» · فمباشرة سوريا التمهيد لتنفيذ مشروعها الكونفدرالي ، كان نوعا من الاعلان عن يأسها من الوصول الى اتفاق سوري ــ اسرائيلي ، كذلك فان مصر بعد اتفاقية سيناء كانت لا ترى ان هناك امكانية لخطوة صغيرة اخرى على الجبهة المصرية · وهذا ما اعلنه السادات اكثر من مرة · ولكن تسوية شاملة او شبه شاملة ، تتطلب

اولا ايجاد حل للمعضلة المركزية في هذه التسوية ، وهي المسالة الفلسطينية ٠ ولقد كانت الحرب الاهلية الوطنية التي اندلعت في لبنان ، المقدمة لمباشرة البحث عن حلول لهذه المعضلة ، ضمن الظروف والاوضاع الجديدة التي قد تتولد عن هذه الحرب ٠

الحرب الاهلية الوطنية في لبنان والمسالة الفلسطينية ٠

عوامل عدة تفاعلت وكانت سببا في اندلاع الحرب الاهلية الوطنية في لبنان ، واستمرارها فترة تزيد عن ثمانية عشر شهرا حتى الان ٠ ويأتي في مقدمة هذه العوامل ، ازمة النظام اللبناني الاقتصادية والاجتماعية ٠ وقدعبرت هذه الازمة عن نفسها ، في الاضطرابات الاجتماعية التي شهدها لبنان خلال السنوات الماضية ، وفي عجز النظام الطائفي ـ شبه الاقطاعي عن استيعاب تطلعات البرجوازية اللبنانية الناشئة في الخروج من بوتقة العلاقات الطائفية الى نظام حكم يتجاوز الطائفية ويضع مقدمات لحكم بورجوازي ديموقراطي ٠

لقد تفاعل هذا العامل مع عاملين اخرين هما: (١) محاولة بعض الانظمة العربية قسر المد الوطني الفلسطيني ومصادرة القرار السياسي الفلسطيني لصالح هذا الطرف العربي او ذاك ، من اجل تطويع الموقف الفلسطيني وادخاله في معادلة التسوية للصراع العربي ـ الاسرائيلي مجردا من اية فعالية او تاثير (٢) محاولة العدو الاسرائيلي ـ الاميركي ـ الرجعي ضرب الثورة الفلسطينية وتصفيتها لاخراجها من معادلة التسوية كعامل ثانوي او رئيسي ٠

ونحن هنا سنسقط من تحليلنا العامل اللبناني ، وسنركز بشكل اساسي على العاملين الاخرين ، لنرى كيف جرت صياغتهما على ضوء النتائج التي اسفرت عنها هذه الحرب بعد ان اوشكت على نهايتها اثر قرارات مؤتمر القمة السداسي في الرياض ، وقرارات مؤتمر القمة العربي الاخير في القاهرة ٠

المسالة الفلسطينية هي في المركز من التسوية للصراع مع العدو الصهيوني ، ومركزية المسالة الفلسطينية في التسوية ، امر لا تفرضه حقيقة الصراع مع العدو الصهيوني بل جرى تاكيده والاعتراف به من قبل مختلف اطراف الصراع ٠ والخلاف الدائر الان بين اطراف الصراع لا يدور حول هذه المركزية او عدمها ، بل يدور حول كيفية حل المشكلة الفلسطينية ٠باتفاقيتي فك الارتباط واتفاقية سيناء ، امكن تجاوز هذه المسالة بعدم التعرض لها ، يمكن ايضا ، تجاوزها اذا كان هناك امكان لخطوة صغيرة اخرى من التسوية على الجبهة السورية او المصرية ٠ ولكن لا يمكن تجاوز هذه المسالة لدى البحث عن تسوية سواء بخطوة صغيرة او كبيرة على الجبهة الاردنية ، او لدى البحث

عن تسوية شاملة او شبه شاملة للصراع العربي ـ الاسرائيلي · وحيث ان البحث عن منافذ للتسوية بعد اتفاقية سيناء ★ يدور بشكل رئيسي عن حل شامل او شبه شامل ، فان البحث عن حل كهذا سيصطدم بالمسالة الفلسطينية · اطراف الصراع المختلفة تتعارض بشكل حاد ، والبعض الاخر بشكل اقل حدة حول هذه المسالة · والعصب في استمرار هذا التعارض ، هو الثورة الفلسطينية · في العام ١٩٤٨ « نابت » الدول العربية عن الفلسطينيين وارست حلا ـ هدنة ، للصراع مع العدو الصهيوني ، والحقت ما تبقى من الارض الفلسطينية والشعب العربي الفلسطيني ببعض الدول العربية · كانت القيادة الوطنية للشعب الفلسطيني ـ انذاك ـ غائبة وشبه ضائعة · اما الان فالوضع يختلف ، فمن ناحية توجد ثورة وتوجد قيادة وطنية للشعب الفلسطيني اعادت الحياة والاعتبار للشخصية الوطنية الفلسطينية ، ومن ناحية اخرى فان المطروح الان ليس حلا ـ هدنة ، بل حل شامل ينهي حالة الحرب بين العرب واسرائيل، ليس بهدنة بل باعتراف عربي باسرائيل كدولة وكيان · ولا نريد ان ندخل في متاهات امكانات الحلَ الشامل او عدمها في المدى المنظور ، فهذا ليس موضوعنا بل نريد فقط ان نبحث امكانات حل المسالة الفلسطينية ضمن ما يطرح من حلول بحثا عن حل شامل او شبه شامل ·

الدخول الفلسطيني في الحرب الاهلية الوطنية في لبنان كان مفروضا على الثورة الفلسطينية ، لانها هي المستهدفة بشكل اساسي من هذه الحرب · فلبنان هو اخر اهم موقع للثورة الفلسطينية على الارض العربية بعد ان فقدت موقعها الهام في الاردن · وفي هذا الموقع ، كانت الثورة تتحرك بحرية نسبية، ترفض ، تقبل ، تتحرك ضد مشاريع معينة ، ضد اتفاقات تمسها وتمس وجودها، تتابع نضالها ضد العدو الصهيوني · اذا فقدت هذا الموقع ، فقدت الكثير من فعاليتها وقدرتها النضالية · لانها لا تفقد فقط امكانات الفعل المستقبلي على مدى سنوات قد تكون طويلة ، بل وايضا ، امكانات الفعل في اطر التسوية المطروحة ·

تناقض اطراف الصراع المختلفة حول المسالة الفلسطينية وضع التسوية الشاملة او شبه الشاملة امام الطريق المسدود · الخطوات الصغيرة او سياسة الخطوة ـ خطوة استنفدت اغراضها ولم تعد ممكنة · اذن ، لا بد من حل هذا التناقض اذا اريد لقطار التسوية ان يتابع سيره · فكيف يكون ذلك ؟ الثورة الفلسطينية بما تمثله من امكانات فعل وتاثير ، عامل غير قابل للذوبان في

★ هذا اذا تجاوزنا امكان تسوية من نوع الخطوة الصغيرة على الجبهة السورية خلال الفترة القادمة ·

المعادلة · والبرنامج الذي طرحته منظمة التحرير الفلسطينية كاساس لدخولها معادلة التسوية ، مرفوض اسرائيليا واميركيا ولا ترى فيه كل « انظمة التسوية» برنامجا معقولا او ممكن التنفيذ في هذه المرحلة · اذن ، من اجل استمرار اندفاع قطار التسوية لا بد من افقاد الثورة الفلسطينية فعاليتها وتاثيرها اي تحجيمها ، او نفيهاكعامل من المعادلة · وفي الفسحة الضيقة بين هذين الخطين، التقت احيانا وتصادمت ـ بحدود ـ في احيان اخرى ، كل القوى التي كانت ترى في الثورة الفلسطينية عاملا يعيق مسيرة التسوية ·

كانت الحرب الاهلية الوطنية في لبنان وسيلة هذه القوى للتعامل مع الثورة الفلسطينية باعتبارها عاملا يعيق مسيرة التسوية · وخلال هذه الحرب طرحت هذه القوى مشاريعها المتصادمة مع المشروع العربي الفلسطيني للتسوية · وكل هذه القوى كان يحاول شد خيوط الحرب الى جهته لتتفق نتائجها مع مشروعه ·

فالحرب الاهلية الوطنية في لبنان ، كانت في احد ابرز مظاهرها * صراعا على مشاريع التسوية للمسالة الفلسطينية · القوى الانعزالية طرحت مشروعا يقوم على نفي العامل الفلسطيني من معادلة التسوية ، بانهاء اي وجود للثورة الفلسطينية على ارض لبنان ، وهذا المشروع يلتقي بالكامل مع المشروع الاسرائيلي ـ الاميركي ومع مجمل مواقف النظام الاردني · النظام السوري طرح مشروعا يقوم على الامساك بالمسالة الفلسطينية ، عبر التحكم باداة هذه المسالة وقوتها الرئيسية وهي منظمة التحرير الفلسطينية ، وذلك عبر اخضاع المنظمة للسيطرة السورية المباشرة · واستخدمت سوريا اكثر من وسيلة لتنفيذ مشروعها هذا · فقد حاولت في البداية ادخال المنظمة في مشروعها الكونفدرالي الاردني ـ الفلسطيني ـ السوري ، ولما تعثرت محاولة كهذه بسبب المعضلة الاردنية ـ الفلسطينية ، سارت في خطى تحجيم الثورة الفلسطينية · ولما استعصت امكانات التحجيم بوسائل الضغط المباشردون الصدام العام ، لجأت في مرحلة لاحقة الى الصدام المباشر والعام الذي اخذ يتأرجح في الصدامات الاخيرة بين حدي التحجيم والتصفية النهائية للثورة الفلسطينية ·
اما مصر ، فقد اتسمت سياستها في البداية بالمراقبة الحذرة لمجريات

---

* نعود للتاكيد اننا هنا اسقطنا العامل اللبناني والمسالة اللبنانية من تحليلنا ، ليس لان هذه المسالة لا تدخل في حسابات الحرب ، بل لاننا نبحث هنا فقط العلاقة بين هذه الحرب والمسالة الفلسطينية · والاسقاط هنا لا يعني باي شكل من الاشكال نفي المسالة اللبنانية او التقليل من اثرها في هذه الحرب ·

الحرب ، ثم دخلت فيها بشكل غير مباشر عبر مشروع يلتقي مع هدف التحجيم، ملخصه العام : منظمة تحرير فلسطينية معتدلة واكثر انسجاما مع « عرب التسوية » تكون طرفا في معادلة التسوية ، يثير معارضة اسرائيلية اقل ، ويلقى مرونة اميركية اكبر • وهذا المشروع كان هو الاقرب الى بقية « انظمة التسوية العربية » باستثناء سوريا والاردن •

لقد جرى خلال الحرب في لبنان تجربة امكانات هذه المشاريع عبر صدامها الحاد مع المشروع الوطني الفلسطيني سواء بحده الاقصى الرافض لاي اشتراك فلسطيني في معادلة التسوية او بحده الادنى كما عبر عنه في البرنامج المرحلي الصادر عن المجلس الوطني الفلسطيني في دورته الاخيرة في العام ١٩٧٤ • والان وبعد ثمانية عشر شهرا من الحرب الطاحنة ومن صراع الارادات ، هل يبدو ان تجربة امكانات اي من هذه المشاريع قد استنفدت ، وان الاطراف العربية التي التقت في الرياض اتفقت على مشروع موحد ، يتم على اساسه انهاء الحرب في لبنان ؟

يبدو من القراءة الاولى لقرارات مؤتمر الرياض السداسي ثم لقرارات مؤتمر القمة الاخير ، ان « انظمة التسوية العربية » التقت على ضرورة انهاء الحرب بشكلها العنيف في لبنان ، على قاعدة مشروع لتسوية المسالة الفلسطينية هو بشكله العام ، اقرب الى المشروع المصري منه الى المشروع السوري • ويبدو لنا ايضا ان هذه الانظمة اتفقت ــ ضمنا ــ على عدم التعرض لتحديد تفاصيل هذا المشروع العام الان لتجري صياغتها مستقبلا على ضوء التطورات التي تنجم عن ترتيبات انهاء القتال في لبنان ، والتطورات التي يمكن ان تطرأ على مسيرة التسوية للصراع العربي ــ الاسرائيلي •

وعلى ضوء كل ذلك ، فاننا نرى ان الحرب بشكلها العنيف في لبنان ، وان شارفت على النهاية بدخول قوات الامن العربية ، فان صراع الارادات حول المسالة الفلسطينية لم ينته بعد ، وان اشكالا من الصراع متعددة ومتنوعة ،حول هذه المسالة ستكون السمة المميزة للمرحلة القادمة • وذلك لعدة اسباب منها :

(١) ان ترتيبات انهاء القتال في لبنان لا تزال في بدايتها ، واستنادا الى تجارب ماضية ، وكذلك استنادا الى الكيفية التي جرى فيها تشكيل قوات الامن العربية وقيادتها ، فاننا نقول ان هذه الترتيبات كما جرت وتجري حتى الان تترك المجال لاحتمالات عديدة يمكن حدوثها خلال الاشهر القادمة • ومما يجدر ذكره هنا ، ان الكيفية التي سترسو عليها العلاقات الفلسطينية ــ السورية خلال الفترة القادمة ، ستشكل احد اهم المؤشرات في تحديد مسار الاحداث، وبأي

اتجاه ستسير وضمن اية احتمالات ٠

(٢) ما يجري من تطورات في جنوب لبنان لا يدع مجالا للشك ان الحلف الاسرائيلي ـ الانعزالي والمدعوم اميركيا ، لم ييأس بعد من امكانية تنفيذ مشروعه بنفي العامل الفلسطيني من معادلة التسوية للصراع العربي ـ الاسرائيلي ٠وبالتالي فان الطريقة التي سيعالج بها الوضع في جنوب لبنان ستترك تاثيراتها على مسار الاحداث خلال الفترة القادمة ٠

(٣ على الرغم مما يقال او يشاع ان موقفا فلسطينيا اكثر اعتدالا ويشكل انقلابا على الموقف الفلسطيني السابق بخصوص الدور الفلسطيني في التسوية على وشك الصدور قريبا من اجتماع المجلس الوطني ★ فاننا لا نرى هذا الاحتمال بهذه الشدة ٠ فالموقف الفلسطيني الرسمي من التسوية لا يزال يقوم على الالتزام بالبرنامج المرحلي لنظمة التحريرالفلسطينية ٠ وان كانت هناك نية لدى بعض الاطراف لادخال تغييرات اساسية على هذا الموقف ، فتقديرنا ان هذه

★ يجدر بنا هنا التنويه الى الخبر الذي وزعته وكالة رويتر في ١٩٧٦/١١/٣ ونسبته الى مصدر فلسطيني عال في القاهرة ، ونشرته صحف لبنانية (النهار ١٩٧٦/١١/٥)٠ والخبر يشير الى نبذ من سماهم بالمعتدلين الفلسطينيين سياسة القوة لاسترجاع فلسطين واكتفاؤهم بدولة فلسطينية في الضفة الغربية وقطاع غزة قد تكون « في نطاق اتحاد كونفدرالي مع سوريا والاردن »٠ كذلك يجدر بنا التنويه ببعض التصريحات التي صدرت عن مسؤولين فلسطينيين حول دعوة المجلس الوطني الفلسطيني للانعقاد ، حيث ربط بعض هذه التصريحات بين دعوة المجلس للانعقاد وبين احتمال ادخال تغييرات على الموقف الفلسطيني على ضوء نتائج الحرب اللبنانية ٠ ونرى ان الاستناد فقط الى مثل هذه التصريحات او التحليلات لتحديد مؤشرات معينة ومواقف معينة ، سيوقعنا في الخطأ الذي وقعنا فيه بعد حرب تشرين ١٩٧٣ ٠ ففي الوقت الذي كانت تنهض فيه دلائل كثيرة ـ انذاك ـ على عدم امكانية قيام دولة فلسطينية في الضفة الغربية وقطاع غزة خلال سنوات قادمة ، اندفعت اطراف فلسطينية للتبشير بكل حماس بهذه الدولة وكانها اصبحت قاب قوسين او ادنى من قيامها ، في حين اندفعت اطراف اخرى في المعارضة الشديدة لهذه الدولة وكانها اصبحت حقيقة قائمة ٠ ولقد ولد كل ذلك ، صراعات داخلية فلسطينية ، كانت سابقة لاوانها واضرت بالنضال الوطني الفلسطيني ٠ والان وامام احتمال تجدد طرح المسالة الفلسطينية مع نهاية الحرب في لبنان ، فاننا قد نشهد عودة للاجواء التي سادت عقب حرب تشرين حول هذه المسالة٠ ولذا فاننا نرى انه من الاجدر بنا ان لا نكرر التجربة ، وان نحدد سياساتنا ومواقفنا ليس باقتناص تصريح قيل هنا او هناك بل بالاستناد الى التحليل العلمي لمجريات الاحداث واحتمالات تطورها ٠ ويمكن القول بكل ثقة ، ان قطار التسوية لا يحتمل حتى الان وربما لسنوات قادمة ، ضم عربة الدولة الفلسطينية المستقلة اليه ٠

التغييرات لن تتم قريبا · اضافة الى ان تغييرات كهذه لا يمكن ان تتم في وقت لا يزال فيه مسار التسوية غير محدد وغير واضح · ونرى ان الموقف الفلسطيني في المرحلة القادمة سيتم بالحذر الشديد ، والاستمرار في سياسة « اللاموقف» بصدد حضور مؤتمر جنيف او عدم حضوره · اضافة الى ان الموقف الفلسطيني كما ظهر خلال السنوات الثلاث الماضية ، كان يتسم بالحرص الشديد بعـدم الاندفاع في الدخول في « اللعبة » قبل ان يعرف ما هو الدور الفلسطيني فـي هذه اللعبة · ولا نرى ان الحرب اللبنانية بكل نتائجها نفت هذا الحرص او الغته ·

وقولنا هذا لا ينفي ان اصواتا فلسطينية من هنا او هناك قد ترتفع مطالبـة بادخال تعديلات اساسية على موقف المنظمة من التسوية ومن وضع المسالـة الفلسطينية فيها · ومثل هذه الاصوات وان كنا لا نقلل من آثارها وخطرها ، الا اننا نرى ان من الخطأ اعتبارها المؤشر شبه الوحيد الذي سيحدد مسارات الموقف الفلسطيني في المرحلة القادمة · ونحن لا نستبعد امكانات او احتمالات ان يخرج المجلس الوطني الفلسطيني في اجتماعه القادم بموقف اكثر وضوحا نحو القبول بدولة فلسطينية على الضفة الغربية وقطاع غزة دون الاشتراطات التي نص عليها البرنامج المرحلي الذي اقر في الدورة الاخيرة ·

مؤشرات المرحلة القادمة :
حرب ام تسوية ·

لخص احد قياديي الثورة الفلسطينية ملامح المرحلة القادمة بكلمـات قصيرة بقوله : ان المرحلة القادمة ستكون نوعا من السباق المحموم بين الحرب والتسوية ، وقال : ان الحرب والتسوية ستكونان فرسي رهان ولا يمكن التنبؤ من الان ايهما سيفوز اولا · على الرغم مما في هذا القول من حقيقة ،فاننا نرى ان مجريات الاحداث الان واحتمالات تطورها خـلال المرحلـة القادمـة لا تشيران الى ان السباق بين الحرب والتسوية سيكون متكافئا وعلى درجـة واحدة من القوة · فعلى الرغم من ان ملامح المرحلة القادمة ستكون نوعا من السباق ــ ولكن غير المحموم ــ بين الحرب والتسوية،فان فرس التسوية ستكون هي الاقوى ، وبالتعبير الشعبي فان فرس التسوية « حمرا وجراية وبتاكل شعير»* في حين ان فرس الحرب لا تعلف جيدا ولم تدرب بعد بشكل جيد عـلى الجري السريع ·

هل يعني هذا ان احتمالات التسوية للصراع العربي ــ الاسرائيلي هـي

---

* أي حمراء قوية ومدربة على الجري وتعلف جيدا ·

الاقوى خلال المرحلة القادمة ؟ لا ، فما تعنيه بالضبط هو ان مؤشر التوجه نحو التسويه بدلا من الحرب لحل الصراع مع العدو الصهيوني سيظل هو الاقوى في المدى المنظور اي خلال السنوات الثلاث او الاربع القادمة • فليس ثمة ما يشير الى ان تغييرا جذريا سيطرأ على الموقف العربي على ضوء تعثر محـــاولات الوصول الى تسوية • كذلك فان ما طرأ من تطورات على مجمل الوضع العربي بعد حرب تشرين ، لا يشير الى ان احتمالات اللجوء للحرب ستسود قبـــل استنفاذ كل الوسائل الممكنة لتسوية هذا الصراع سلميا ، واحتمالات كهـذه لا ترى في مدى ابعد من المدى المنظور • اضافة الى ذلك ، فعلى الرغم مـن ان التناقض بين الموقفين العربي والاسرائيلي حول التسوية وطبيعتها ، يشمـــــل اكثرمن نقطة واحدة ، فان مركز هذا التناقض هو المسالة الفلسطينية • ولايبدو لنا ان دول « المواجهة » العربية على استعداد لان تذهب لحرب اخرى مـــع اسرائيل ، اذا ابدت اسرائيل مرونة في النقاط الاخرى وتصلبت حول المسالة الفلسطينية • ففي هذه الحالة ستكون الدول العربية اكثر استعدادا لحل هذا التناقض على حساب المسالة الفلسطينية بدل استعدادها كله على حساب الذهاب الى حرب مع اسرائيل • ولعل هذا ما يفسر لنا اشتداد الضغط العربي على منظمة التحرير الفلسطينية الى درجة الصدام العسكري معها ، كلما لاحت في الافق امكانية لقطع ولو خطوة صغيرة في مسيرة التسوية •

كل هذه العوامل تجعلنا نؤكد ان مؤشر التوجه نحو التسوية سيظل هـــو الابرز خلال المرحلة القادمة • ولكن باي اتجاه سيسير هذا المؤشر ؟ وما هـــي مساراته الممكنة ؟

هل ستكون هناك امكانية للعودة الى سياسة الخطوات الصغيـرة ام ان المسار سيكون بحثا عن تسوية سياسية شاملة او شبه شاملة ؟ •

مع فوز كارتر رئيسا للولايات المتحدة ، يبدو ان كل الاطراف تنتظر التعرف على ملامح السياسة التي ستنتهجها الادارة الجديدة ازاء الصراع العربـــي ـ الاسرائيلي ، قبل ان تقدم على طرح مشاريع محددة او اتخاذ مواقف معلنـة من مشاريع مطروحة ويجري تداولها منذ فترة • ولكن كما اوضحنا في بداية مقالنا، فاننا لا نرى ان فوز كارتر يحمل اي امكانية لاجراء تغيير اساسي في السياسة الاميركية • وعلى هذا الاساســـ فـــان السياســـة الاكثـــر احتمالا للادارة الاميركية الجديدة هي متابعة الموقف من النقطة التي انتهت اليها الادارة السابقة ، اي متابعة البحث عن تسوية سياسية شاملة او شبـــه شاملة للصراع العربي ـ الاسرائيلي ، هذا مع الاخذ بعين الاعتبار ان فترة من الوقت ـ عدة اشهر ـ ستمضي قبل ان تباشر الادارة الجديدة دبلوماسيتها

الفاعلة في المنطقة ٠ وهي فترة تنظر اليها اطراف الصراع باعتبارها امـــرا طبيعيا تفرض نفسهافي الانتقالمن عهد الى اخر ، ولذلكفانها لا تحمل اية دلالات٠

والسؤال الذي يطرح نفسه هنا هو : ما هي ملامح هذه التسوية الشاملـــة او شبه الشاملة ؟ لقد طرحت الادارة الاميركية السابقة فكرة انهاء حالة الحرب بين العرب واسرائيل كاطار لهذه التسوية ٠ ويبدو ان الفكرة التي وضعهـــا اندلاع الحرب في لبنان على الرف مؤقتا ، ستعود الى البروز من جديد مع نهاية هذه الحرب وبداية البحث عن منافذ لتسوية الصراع العربي ـ الاسرائيلي ٠ ولكن هل هناك امكانية لجعل هذه الفكرة حقيقة واقعة ؟ اي تجري صياغتهـــا على ارض الواقع باتفاق عربي ـ اسرائيلي ٠

يبدو ان « عرب التسوية » متفائلون بامكانية كهذه على الرغم من فوز كارتر واحتمال ذهاب كيسنجر ٠ ولعلهذا ما يفسر لنا تلك التصريحات الكثيرة التي اطلقها الرئيس السادات خلال الشهر الماضي حول انهاء حالة الحرب وعقـــد معاهدة سلام مع‌اسرائيل ٠ وهي تصريحات تشكل نوعا من جس النبض للموقف الاسرائيلي ولتوجهات الادارة الاميركية الجديدة ٠ ومن وحي هذا التفاؤل فان ثمة مشروع عربي لتسوية سياسية شاملة او شبه شاملة آخذ في التبلور مؤخرا بعد الاتفاق العربي علىانهاء الحربفي لبنان ، باعتبار ان هذه الحرب استنفدت اغراضها ضمن الحدود التي انتهت اليها ٠

ففي اعقاب مؤتمر القمة السداسي في الرياض ومؤتمر القمة العربي الاخير فيالقاهرة ، اخذت دلائل تنهض على ان ثمة موقفا عربيا شبه جماعـي بصـــدد البحث عن تسوية شاملة او شبه شاملة للصراع مع العدو الصهيوني ، آخذ في التبلور ٠ وهذا الموقف الذي يشكل التحالف المصـــري ـ السعودي ـ السوري سنده الاساسي يقوم على اساس : الدعوة لمؤتمر جنيف بحضور جميع الاطراف بما فيها منظمة التحرير الفلسطينية مع امكان دعوة لبنان للحضور ، وصـولا الى تسوية تنهي حالة الحرب بين العرب واسرائيل بمعاهدة سلام يترتب عليها انسحاب اسرائيل من جميع الاراضي المحتلة في العام ١٩٦٧ ، مع ما يترتبعلى هذه المعاهدة وهذا الانسحاب من احتمال قيام دولة فلسطينية عـلى الضفـــة الغربية وقطاع غزة (٣) ٠ وحيثيات الموقف العربي هذا تقوم على : ان الحـــرب في لبنان اضعفت منظمة التحرير الفلسطينية وجعلتها اكثر طواعية ، وبشروط كهذه ستكون الولايات المتحدة اكثر مرونة في التعامل مع المسالة الفلسطينية ٠ وهي مرونة قد تصل الى درجة الاعتراف الاميركي بمنظمة التحرير الفلسطينية٠

وكاسناد لهذا الموقف فأن استراتيجية التحالف المصـــري ـ السعودي ـ

السوري ، خلال المرحلة القادمة ستقوم على أساس تمتين هذا التحالف وضم دول عربية اخرى اليه ، تصعيد لهجة الحرب كاحتمال يمكن اللجوء اليه في حال تعثر التسوية ، الضغط على الولايات المتحدة للتجاوب مع الموقف العربي هذا ، اضافة الى مد بعض الجسور مع الاتحاد السوفياتي كوسيلة ضغط وكاحتمال لا بد منه امام تعثر محاولات التسوية ٠

واحد الاشكالات الرئيسية في الموقف العربي هذا هو حل عقدة التمثيل الفلسطيني واشراك منظمة التحرير الفلسطينية كطرف مستقل في مؤتمر جنيف٠ حتى الان يبدو ان الموقف العربي ، وتحديدا المصري ، كما هو معلن ، يطالب باشراك منظمة التحرير الفلسطينية كطرف مستقل ولكن اذا كان هذا الاشكال سيضع التسوية امام الطريق المسدود ، فان بعض الدول العربية لا تمانع في ان يجري تجاوز هذا الاشكال بالذهاب الى مؤتمر جنيف بوفد عربي موحد تشارك به منظمة التحرير الفلسطينية « ٤ » ٠

الموقف الاسرائيلي

ولكن ما هو مدى التجاوب الاسرائيلي مع مشروع عربي كهذا ؟ استقراء الموقف الاسرائيلي كما هو الان واحتمالات تطوره خلال السنتين القادمتين، لا يشير الى انثمةجديدا في الموقف ٠ولخص يتسحاق رابين الموقف الاسرائيلي في رده على تصريحات السادات الاخيرة بقوله « ان اسرائيل اكثر من مستعدة للتجاوب مع دعوة الرئيس انور السادات الى اتفاق سلام ، لكنها لن تقبل بدولة عرفات في جوارها » (٥) وهذا يدل على ان « العقدة » الفلسطينية هي التي ستتحكم في الموقف الاسرائيلي خلال الفترة القادمة ٠ فكل القوى الاسرائيلية★ تجمع على رفض الاعتراف بمنظمة التحرير الفلسطينية كممثلة للشعب الفلسطيني، كما تجمع على رفض قيام دولة فلسطينية على اي جزء من ارض فلسطين٠وحتى الان لم تطرح اسرائيل حلا محددا للمسالة الفلسطينية ، وكل ما طرح من تصورات اسرائيلية حول هذه المسالة ، لا يتعدى احيانا كونه آراء شخصية لهذا المسؤول او ذاك مثل مشروع ييجال آلون ، او اراء وافكارا عامة مثل رفض قيام الدولة الفلسطينية والبحث عن منافذ لحل هذه المسالة منخلال

★ باستثناء حزب راكح وبعض المجموعات الاسرائيلية الصغيرة والهامشية مثل«مجلس السلام » والذي اجتمع مندوبون عنه مع فلسطينيين في باريس في تشرين الاول « اكتوبر » الماضي ٠ وقد اثار هذا الاجتماع ضجة في الاوساط الاسرائيلية على الرغم من أنه ليس الاجتماع الاول بين فلسطينيين واسرائيليين من هذه المجموعات ٠ انظر يديعوت احرونوت بتاريخ ١٩٧٦/١١/٥ ٠

المسار الاردني او الاطر البديلة ٠

ولكن هل تستطيع اسرائيل الاستمرار في سياسة الهروب من مواجهة المسألة الفلسطينية ، في وقت تبذل فيه المحاولات لتسوية شاملة او شبه شاملة؟ لقد اكد بيجال الون في مقابلة اجرتها معه صحيفة معاريف (٢٤ ـ ٩ ـ ١٩٧٦) « انه مقتنع بانه دون حل المشكلة الفلسطينية لن يكون السلام ممكنا » ٠ اذن لا بد من ايجاد حل لهذه المسألة حتى يكون السلام ممكنا ، وطالما ان اسرائيل لا تطرح الا حلولا قسرية للمسألة الفلسطينية ، فان امكانية السلام او التسوية السياسية الشاملة تبدو مستحيلة او بعيدة جدا ٠ فهل من خيارات اخرى امام اسرائيل لمواجهة « حملة السلام » العربية الجديدة ؟

المعلق الاسرائيلي امنون روبنشتاين حذر الحكومة الاسرائيلية من سياسة اللاقرار وقال « بعد الحرب (اي حرب تشرين) كان يبدو ان اسرائيل ستكون مضطرة لاتخاذ قرارات حاسمة وان فترة اللاقرار قد انتهت (والان) يسود في الحكومة قرار صلب بعدم اتخاذ قرار » واكد على ضرورة اتخاذ قرارات حاسمة « لئلا تقع اسرائيل في مطب حرب اكتوبر مرة اخرى » (٦) ٠

وسياسة اللاقرار الاسرائيلية كانت ممكنة ، عندما كانت كل القوى بانتظار ما ستسفر عنه الحرب اللبنانية من نتائج ٠ والان وامام بداية النهاية لهذه الحرب، وامام السياسة العربية الجديدة في « شد خيوط التسوية » التي ارتخت بفعل الحرب في لبنان ، هل يمكن لاسرائيل ان تستمر في سياسة اللاقرار ؟ ٠

بتاريخ ٢٥ ـ ٦ ـ ١٩٧٦ كتب يهوشوع تدمور في صحيفة «دافار» مقالا حول الخيارات امام اسرائيل لدى تجدد مساعي التسوية فاشار الى ثلاثة خيارات او امكانات وقال «تعتقد احدى المدارس الفكرية ـ رئيس الوزراء ووزير الخارجية وغيرهم من الوزراء ـ باتباع اسلوب الاختزال بشكل عام ٠ فالامكانية الاولى لهؤلاء هي استمرار حالة الجمود ٠٠٠ ولكن هذه الامكانية ليست في الحسبان لانها سوف تؤدي ان عاجلا او اجلا الى حرب لا ترغب فيها اي جهة لها ثقلها ٠ والامكانية الثانية هي انتقال ساطع من الوضع الحالي الى مفاوضات حول سلام شامل ٠ وتلك هي الامكانية الملائمة لاسرائيل، ولكن العرب يرفضونها، ولهذا فهي ليست امكانية واقعية ٠٠٠ اضافة الى ان محاولة كهذه سوف تعني مواجهة حتمية مع واشنطن حول ماهية الحدود النهائية ٠ تبقى الامكانية الحقيقية الوحيدة وهي السعي نحو سلام يحكم الواقع على صورة اتفاق لانهاء حالة الحرب بمختلف بنوده ، (واشار) ان اتفاقا لانهاء الحرب هو الخيار الوحيد المتبقي الذي من شانه ان يكون مناسبا ومريحا لاسرائيل على المدى القريب

والبعيد » ٠

غير ان اتفاقا لانهاء الحرب بالمفهوم العربي يعني تسوية شاملة ـ الى حد ما ـ تدخل فيها المسالة الفلسطينية باعتبارها اساس هذه التسوية ٠ وهذا ما يبدو ان اسرائيل ليست مستعدة بعد لمواجهته ٠ ولذلك فان السياسة الاسرائيلية خلال الفترة القادمة ستحاول تجنب قرارات « حاسمة » ، وسيكون الخط الرئيسي لهذه السياسة هو استمرار حالة الجمود من خلال المناورة بالاختلافات العربية والاسرائيلية حول تفسير انهاء حالة الحرب ودلالاتها العملية ٠ وهي مناورة تستهدف فيها اسرائيل كسب المزيد من الوقت حتى تدفع ببعض خياراتها بخصوص المسالة الفلسطينية الى المقدمة اما من خلال انتظار عودة المسار الاردني الى الواجهة كما يتوقع ييجال الون (٧) او من خلال تنشيط بعض القوى الفلسطينية داخل الارض المحتلة كاطار بديل أو مواز على اقل تقدير لمنظمة التحرير الفلسطينية ٠ وستعمد اسرائيل الى توسيع هامش مناورتها هذه بالادعاء انها لن تستطيع اتخاذ قرارات حاسمة قبل اجراء انتخابات الكنيست المقررة في اواخر العام ١٩٧٧ ، وكذلك بالضغط على الادارة الاميركية الجديدة لتنفيس « حملة السلام » العربية الجديدة ٠

اذا كانت هذه هي حدود الموقف الاسرائيلي واطار حركته، فان اطراف الصراع الاخرى ستحاول كسرها ٠ فالاتحاد السوفياتي يبدو مستعجلا عقد مؤتمر جنيف بحضور منظمة التحرير الفلسطينية وسيحاول دفع سياسة « شد خيوط التسوية » التي بداتها بعض الدول العربية مؤخرا للضغط على الولايات المتحدة ٠ اضافة الى ان الولايات المتحدة لن تستطيع تجاهل التحرك العربي الجديد ، ولا سيما ان هذا التحرك شمل دول النفط العربية التي عادت للحديث عن احتمال العودة الى سياسة « حظر النفط » اذا لم تثمر محاولات التسوية ولمواجهة تحركات وضغوط كهذه كيف ستكون الحركة الاسرائيلية ؟

هنا، لا نستبعد امكانية لجوء اسرائيل الى تنشيط احتمالات الوصول الى اتفاق ـ تسوية جزئي على الجبهة السورية ، اذا وجدت ان سلام الامر الواقع بانهاء حالة الحرب سيكون ثمنه اتخاذ قرار لا ترغب فيه بخصوص المسالة الفلسطينية٠ حيث ان اتفاقا كهذا سيعطيها المزيد من الوقت لتجنب مواجهة المسالة الفلسطينية قبل ان تستنفد امكانات خياراتها بخصوص هذه المسالة ٠

المسالة الفلسطينية مفتاح الحرب والسلام

من كل ذلك نخلص الى نتيجة مؤداها ان المسالة الفلسطينية كانت وستظل القلب

والمركز في الصراع العربي ـ الاسرائيلي ، وان ما جرى ويجري حتـــى الان هو محاولة الهروب مـــن مواجهة هذة المسألـــة مواجهة حقيقيـــة ٠ وكلما اقتربت محاولات التسوية مـــن هذة المسالة كلما ازداد تباعد اطراف الصراع وازدادت حدة تعارضها حول هذه المسالة ٠ وبذلك تعود المسالـــة الفلسطينية لتكون مفتاح الحرب او السلام في المنطقة ٠ **والسؤال هنا ، هل اقتراب التسوية من المسألة الفلسطينية ، سيلغي امكانات التسوية وينقل الصـــراع العربـــي ـ الاسرائيلي الى الامر الذي لا مفر منه وهو الحرب ؟**

يبدو لنا ان **استمرار وجود حركة وطنية فلسطينية قوية وفاعلة** ، تلغـــي وتنفـــي باستمرار ، الخيارات الاسرائيلية وبعض الخيارات العربية لحل المسالة الوطنية الفلسطينية ، سيجعل من الصعب جدا ان لم يكن من المستحيل الوصول الـــى تسوية شاملة او شبه شاملة للصراع العربي الاسرائيلي ٠ وستظل تبعا لذلك محاولات التسوية تدور فـــي اطار « الخطوات الصغيرة»او سياسة التأجيللحل هذا الصراع حلا شاملا اذا لم يكن خيار الحرب ـعربيا ـ ممكنا ٠ ولم نقل خيار الحرب ـ اسرائيليا ـ لان الخيار الاسرائيلي هذا لن يقدم حلا لهذا الصراعكما اثبتت حـــرب حزيران « يونيو» ١٩٦٧ ٠ وبهذا المنظـــــار ، فاننـــــا **نرى ان افاق الموقف الفلسطيني ممايجري من احداث وتطورات يجب ان تظل واسعة**٠ ومن الخطأ جدا ان تجد القيادة الفلسطينية نفسها مجبرة ـ تحت ضغط الاحداث ـ على اتخاذ قرارات لا تعطيها هامشا واسعا من المناورة والحركة ، ولا تأخـذ فـــي الاعتبار تطورات المستقبل ٠

بعد معارك ايلول سبتمبر ١٩٧٠ ، وما تلاها في الاردن ، بنت قوى كثيـــرة احلاما ومشاريع على ان الثورة الفلسطينية انتهت او ماتت ٠ ولكن لم تكد تمض سنتان على هذه الاحداث حتى استعادت الثورة الفلسطينية قوتها وفعاليتهـــا وبرزت من جديد في المقدمة ٠ والان وعقب الحرب الاهلية الوطنية في لبنـــان يبدو ان اسرائيل لن تكرر العودة الى احلامها ومشاريعها ، فمصادرها تعترف وتؤكد انه علـــى الرغم مـــن الحـــرب فـــي لبنان وما تعرضت له الثورة الفلسطينية من خسائر بشرية وربما سياسية فانها ستعود الى الواجهة مـــن جديد وستقف على قدميها ٠وهذا يؤكد لنا ان المسالة الفلسطينية لما تزل بعيدة عـــن امكان تسويتها ، وانها ستظل المسالة التي تشعل فتيل الحرب في المنطقة اذا لم يتم الوصول الى حل وطني لها ٠ لانه في ظل استمرار وجود حركة وطنيـــة فلسطينية فاعـلة وقوية ، تبدو الحـلول القسرية واللاوطنية لهـذه المسألة شبـه مستحيلـــــة مهما كان الثمن الذي قـــد تدفعـــه اسرائيـــل للـدول العربية مقابل تسويـــه كهذه ٠

١ ـ انظرالبيان وتوضيح اسماعيل فهمي حوله ، الاهرام بتاريخ ١٩ـ٧ـ١٩٧٤ ·

٢ ـ انظر تعليق اخبار اليوم المصرية حول انتهاء سياسة الخطوة ـ خطـوة ـ اخبار اليوم بتاريخ ٣ـ٣ـ١٩٧٦ ·

٣ ـ انظر حديث الرئيس انور السادات لوفد من اعضاء الكونجرس الاميركي زار مصر مؤخرا ، النهار بتاريخ ٩ـ١١ـ١٩٧٦

٤ ـ ذكرت نيويورك تايمز بتاريـــــخ ١٠ـ١١ـ١٩٧٦ ، ان مجموعـة الـدول العربية التي تشمل مصر وسوريا والعربية السعودية والاردن ، ستسعى الان لعقـد تسوية شاملة مع اسرائيل · واضافت ان هذه الدول تفكر بارسال وفد عربي مشترك الى جنيف لتجاوز قضية تمثيل م·ت·ف·

نقلا عن ر·٠·١·٠· العدد ١٠٨٤ ·

٥ ـ النهار بتاريخ ١٥ـ١١ـ١٩٧٦ ·

٦ ـ هآرتس بتاريخ ٢٤ـ٩ـ١٩٧٦ ·

٧ ـ انظردافار بتاريخ ١٤ـ٦ـ١٩٧٦ ·

الجنوب : في مواجهة الحلف الصهيوني - الفاشي

جهاد سلامة

الجنوب !

جغرافيا غاب اسمه قليلا وسط احتدام المعارك في بيروت والشمال والبقاع والجبل ، وبدا للوهلة الاولى آمنا وادعا ٠٠ لكنه **بشريا** كان هناك ٠٠ كان فحم ووقود المعارك اللاهبةفي المسلخوالنبعة وتلالزعتر والشياح ٠ وفي الاونةالاخيرة اعتذرجغرافيا عن وداعته الظاهرة ، عاد ليحتل صدر الصفحات الاولى كما كان دائما ، وكما سيظل ، ما دام هناك وطنيون في لبنان يناهضون ويقاتلون الامبريالية والعدو الصهيوني ٠

يردد ويستخدم اسمه الجميع : الفاشيون يتذرعون به للحديث عن « السيادة » الرجعية التي لا تزعج الحليف الامبريالي الصهيوني وتوفر له حدودا « آمنة » ٠ العدو الصهيوني يسعى بكل الوسائل العسكرية والسياسية و« الانسانية » لكي يثبت مثل هذه« الحدود الامنة » التي لا تتعارض مع مطامعه التوسعية ٠ الانظمة العربية تعبر عن قلقها اللفظي « العميق » لما يدور في الجنوب ٠٠ وتغض الطرف عن التحالف الصهيوني الفاشي ! « المحرومون » يرتبط اسمهم بالجنوب ، ويجدون من يستغل اسمهم يافطة لمصالح طبقية ضيقة ، ويخونون معها الوطن و « المحرومين » !

الفدائيون والوطنيون يرونه امتدادا لارض فلسطين ، ينطلقون منه وتمتزج دماؤهم بترابه ، فيصبحون ترابه الاحمر وتكبر ارض فلسطين ٠

يرتحل ابناؤه في كل اتجاه ولا يستقرون ٠٠ لقد جعلهم الكومبرادور بدو لبنان المعاصر !

اخر الانباء السياسية والعسكرية تحدد لهم المكان الاخير الذي سيبقون فيه٠ ارض الجنوب رجراجة لم تكتمل صلابتها بعد ٠٠ لا تكتمل صلابتها بمعزل عن بزوغ

فجـر وطن ديمقراطـي ٠

سابقا ، احاط ابناء الجنوب العاصمة « بحزام البؤس » الشهير ، فوجدوا من يرفض حتى بؤسهم وفقرهم ، لان مشهد البؤس حين يكون مسيسا ، الى هـذا الحد او ذاك ، يخيف العدو الطبقي ويثير احقاده وانتقامه ٠

انه عاشوراء دائمة التجدد ما دام الوطن لم يكتمل بعد ٠٠ وما دام جـرح فلسطين يتسع كعدوى ، وما من مقاومة عربية ثورية حاسمة ٠ تعبق ارضه المرتحلة برائحة التبغ والعرق والغبـار والتعب، ويختلط هواؤه بدخان القذائف والحرائق والتربص والحـذر ٠

يردد معظم الاعداء الرجعيون امام الفدائيين : « توجهوا الى الجنوب ٠٠٠ نحو « العدو الرئيسي » لا تتدخلوا بالشؤون العربية الداخلية ، هناك العـدو الرئيسي « المشترك لكل العـرب »٠يتوجه الفدائيون والسكاكين مغروسة في ظهورهم من الخلف ، فيصعب الوصول الى الحدود ٠ من يحول دون تطور نضال جـدي ضد اسرائيل ، من حافظ على « العدو الرئيسي » رئيسيا ؟ ما هي جملة السياسات العربية التي ادت ، وما زالت ، الى وجود وتثبيت العدو الرئيسي ٠ العـدو الرئيسي خارجي فقط ام انه شبكة علاقات داخلية وخارجية ترتبط بالامبرياليـة ومصالحها حيث تحتل اسرائيل وزنا ودورا نوعيا خطيرا ؟ من اجهض دومـا النضال الشعبي الفلسطيني والعربي ضد العدو الرئيسي وباسم النضـال ضـد العـدو الرئيسي ؟!

هكذا يتساءل الفدائيون وهم يتوجهون الى الجنوب والرؤية تتبلور فـي اذهانهم واضحة وضوح الشمس ، هل يمكن تطوير نضال جدي ضد اسرائيـل دون وجود نظام تقدمي عربي او اكثر لحماية المقاومة لـه مصلـحة حقيقيـة للمشاركة الفعلية في القتال ضد اسرائيل ؟

الجنوب اليوم ، واقع وخدعة ، واقع يتدهور يوميا وعلينا ايقاف تدهوره بالتصدي للتحالف الصهيوني الفاشي الرجعـي ، وخدعـة تحاك يوميا وواجبنـا فضحهـا وتعريتهـا ٠

تلتف حول ارضه الحلقة الاخيرة من المؤامرة الامبريالية الصهيونية الفاشية الرجعية التي تستهدف هذا الجسد الفتي المثخن الجراح من المقاومة الوطنيـة المسلحة الفلسطينية واللبنانية ٠

الكتابة عن الجنوب شاسعة ومرهقة ٠ من اين نبدأ ؟ الموضوع مزمن وشائك، متعدد الاطراف ، وجديد باستمرار ٠

الا اننا سنسلط الاهتمام ، اساسا ، على تحالف الفاشيين السافر مع العدو الصهيوني في منطقة القطاع الاوسط بشكل خاص ومن خلال المعلومات التي استطعنا الحصول عليها من مصادر متعددة موثوقة ، وبالتالي ، القيام بايضاح الدور الخاص المناط بالعدو الصهيوني واهداف النشاط المحموم الذي يبذله مؤخرا ، وقد اجرينا بعض التحقيقات الميدانية اضافة الى بعض اللقاءات مع عدد من الاخوة المسؤولين في الثورة الفلسطينية ، ومع عدد من المواطنين اللبنانيين المطلعين على تطورات الاوضاع هناك ٠ وسنعمل على تثبيت بعض هذه الاحاديث تبعا لاهميتها السياسية والتحليلية ، مستفيدين ، فقط ، من المعلومات المتضمنة في اللقاءات الاخرى ٠

علاقة الجنوب بالوضع اللبناني العام :

استفحل النشاط الصهيوني ــ الفاشي في الجنوب ، في اثر تلقي الحركة الوطنية والمقاومة الفلسطينية عددا من الضربات الموجعة على ايدي التحالف الفاشي ــ الرجعي العربي ٠

فبعد معركة تل الزعتر الاسطورية الصمود ، خرجت العناصر الفاشية في بعض قرى الجنوب من اوكارها بتشجيع مباشر من العدو الصهيوني ، واخذت تمارس نشاطها السياسي والعسكري مستغلة بعض الاخطاء والثغرات المسؤولة عنهما المقاومة والحركة الوطنية ، وتدهور الوضع التمويني وسوء التنظيم الذي رافقه في اثر الحصار الذي مارسه العدو الصهيوني والفاشيون والنظام السوري على المناطق التي كانت تسيطر عليها الحركة الوطنية والمقاومة الفلسطينية ٠

اذ لا يمكننا فهم توقيت تردي الوضع في الجنوب دون ربطه بالوضع السياسي العام ٠ فقد نشأ في لبنان وضع ثوري جديد تماما بعد فشل الحلقات الاولى من المؤامرة ازاء الصمود البطولي اللبناني ــ الفلسطيني ٠ وكان من ابرز سمات هذا الوضع الثوري انهيار مؤسسات النظام ، ولا سيما اجهزة القمع ، وسيطرة القوى الوطنية والمقاومة الفلسطينية على ما يزيد عن ثلاثة ارباع الاراضي اللبنانية ٠

ومع ذلك لم تستطع الحركة الوطنية ، ومن ورائها المقاومة الفلسطينية ، الاستجابة النضالية لمهام المرحلة الثورية الجديدة سواء من حيث طرح الشعارات السياسية الملائمة او اساليب

العمل الثورية • فالتراث الاصلاحي الترديونيوني والمواقف الانتظارية السلبية من قضية السلطة السياسية للحركة الوطنية ، ظل يرزح بثقله على المرحلة السياسية مفوتا فرصا تاريخية نادرة قل تكرارها في اتجاه حسم مسألة السلطة السياسية وتثبيت الشرعية الثورية •

اما المقاومة الفلسطينية ، فان الخلل الاساسي في استراتيجيتها هو التصور انه يمكن شن نضال جدي ضد اسرائيل « العدو الرئيسي » دون وجود نظام تقدمي عربي او اكثر ، خاصة في المناطق المحيطة بفلسطين المحتلة •

وقد ادرك مختلف الاعداء مدى خطورة هذا الوضع الثوري ، فعملوا بسرعة وبكافة الوسائل لاجهاضه ، ووأد اية امكانية لتحويله الى ثورة حقيقية • وذلك من خلال توجيه عدد من الضربات العسكرية والسياسية الموجعة للحركة الوطنية والمقاومة الفلسطينية بغية سحب بساط الارض الثورية القوية من تحتهما ، واعارة « الشرعية » الزائفة للنظام الكومبرادوري جهازا عسكريا للقمع بدل جيشها المنهار المنقسم على نفسه •

ان الاساس السياسي لتفاقم المشاكل الاجتماعية والمعيشية والامنية انما يكمن في عدم اقامة الحركة الوطنية مؤسسات السلطة الوطنية الديمقراطية الشعبية • فمثل هذه المؤسسات هي وحدها القادرة على تعبئة الشعب تعبئة ثورية، وتنظيم شؤون حياته المختلفة على اسس عادلة وديمقراطية ووضع حد لاستغلال مراكز النفوذ والاثراء غير المشروع • ان مثل هذه المؤسسات الديمقراطية الشعبية تعكس ديمقراطية ارقى بما لا يقاس من الديمقراطية البرجوازية •

ان كافة الثمار المرة ، ناجمة عن عدم اتباع سياسة ثورية شاملة للوضع اللبناني ـ الفلسطيني ككل تعتمد على تعبئة وتنظيم الجماهير في مؤسسات ديمقراطية شعبية في اتجاه اقامة نظام وطني ديمقراطي • فلا يمكن الحديث عن ضرورة اتباع سياسة ثورية في الجنوب او اي مكان وموقع اخر بمعزل عن شمول هذه السياسة للوضع العام برمته •

ولذا ، لم يكن مستغربا ان تشرئب القوى الفاشية والرجعية في الجنوب برؤوسها في اثر ميل ميزان القوى لصالح الحلف الفاشي الرجعي العربي • وقد لعبت اسرائيل دورا اساسيا في دعم هذا النشاط المعادي • الا ان توقيت نجاحها به مرتبط بتدهور موقف القوى الوطنية والمقاومة الفلسطينية بوجه عام • فما كانت هذه القوى تجرؤ ، في اي وقت مضى ، على المجاهرة بعدائها وقيامها بنشاطها السياسي والعسكري المعادي من خلال التحالف السافر مع العدو الصهيوني ، لو

ان ميزان القوى كان يميل بشكل عام لصالح الحركة الوطنية والمقاومة ، وكما كان الحال في السابق ٠

دور اسرائيل في المخطط الامبريالي :

لعبت القوى الفاشية احتياط النظام الكومبرادوري في لبنان دور قارع ناقوس الخطر ضد المقاومة والحركة الوطنية ٠ لقد بذلت هذه القوى الفاشية جهودا مستميتة لاستدعاء الرجعية العربية والقوى الامبريالية والصهيونية لكي تقوم بمساعدتها لمواجهة الخطر الماثل على نظامها وقواها المسلحة والمهدد بقطع طريق التسوية الامبريالية في المنطقة ٠ ان الهجمة الفاشية المسعورة التي قامت بها هذه القوى لم تكن تستمد قوتها من موازين القوى الداخلية في المنطقة ، بل من توطيد دعائم الامبريالية في المنطقة والجو السياسي الاستسلامي الذي تقوم به الانظمة البرجوازية العربية ٠

وفي اللحظة المناسبة قامت الانظمة الرجعية العربية بمنع انهيار القوى الفاشية ووقفت الى جانبها ضد المقاومة والحركة الوطنية حيث تم الحاق عدد من الضربات الموجعة لهما في اكثر من مكان ٠ لقد كان من الصعب على اسرائيل والامبريالية الامريكية القيام بالتدخل المباشر وعلى نطاق واسع لدعم حلفاءهما من الفاشيين ٠ لان هذا من شانه ان يؤدي الى زعزعة الاسس السياسية للتسوية الامبريالية واحراج الانظمة العربية كافة امام شعوبها ٠

والآن ، بعد قيام النظام السوري تحت غطاء عربي بفرض هيمنته السياسية على الوضع اللبناني بغية تحسين شروط تسويته الخاصة فيما يتعلق فقط بانسحاب اسرائيل من بعض الاراضي السورية المحتلة ، هل تسمح له اسرائيل بتحسين هذه الشروط على حسابها ؟ فبينما يلوح النظام السوري للامبريالية الامريكية بورقة سيطرته وامكانية قدرته على تصفية المقاومة الفلسطينية والحركة الوطنية مقابل ممارسة ضغط امريكي على اسرائيل للانسحاب من بعض الاراضي السورية التي تتعدى الحدود « التجميلية » المعروضة سابقا ، هل تقدم اسرائيل بالتواطؤ مع الولايات المتحدة (او بشكل مستقل نسبيا) على القيام بعمل عسكري ما في الجنوب او سواه من شانه ان يضعف الموقع التفاوضي للنظام السوري ؟ ام ان اسرائيل ستقوم ، بالتحالف مع الفاشيين في الجنوب والتذرع بهم ، بتوجيه ضربة عسكرية في الجنوب ضد المقاومة والحركة الوطنية وخلق وضع جديد من شانه ان يدفع النظام السوري والفاشيين للاسراع بمعدل تصفية المقاومة سياسيا وعسكريا ؟

ام انها ستعمل على ضرب عصفورين بحجر واحد: اضعاف الموقع التفاوضي

للنظام السوري في التسوية الامبريالية وتوجيه ضربة للمقاومة والحركة الوطنية في آن واحد ؟ ام ان الدور الاسرائيلي سيقتصر على توجيه ضربة عسكرية موجعة للمقاومة هناك وتمكين الفاشيين في الجنوب من توسيع رقعة سيطرتهم السياسية والجغرافية والعسكرية ؟ هذا ما ستجيب عنه تطورات الاحداث القادمة في الجنوب ·

توقيت المؤامرة الصهيونية ـ الفاشية والوضع العربي :

يقول الاخ بلال احد المسؤولين في الثورة الفلسطينية بالجنوب : « لا يمكن فصل ما يحدث مؤخرا في الجنوب عن عموم الوضع في لبنان · فالمؤامرة ليست على الجنوب والثورة هناك ، بل على المقاومة والقوى المناضلة الوطنية والتقدمية في كل لبنان ·

ففي نفس الوقت الذي كان يتم فيه توجيه الضربات الى المقاومة والحركة الوطنية في البقاع ومنطقة صيدا والجبل وبيروت كانت التحركات المعادية في الجنوب تسير جنبا الى جنب مستفيدة من هذا الوضع فالمؤامرة متكاملة الحلقات ، والا ما معنى عملية تدريب القوى الفاشية في منطقة جزين وغيرها ، في ظل تواجد النظام السوري ،وقيام اسرائيل بتدريب الفاشيين في القليعة والعيشية وعين ابل ودبل ورميش وعلما الشعب داخل الاراضي المحتلة ؟! نحن ندرك ، ايضا ، ان الانظمة بتركيبتها الحالية هي انظمة ليست مع التحرير ، لا تحرير فلسطين ولا تحرير الشعب العربي من كل ما يمارس ضده من اشكال القمع والارهاب وحجز الحريات · هذه الانظمة لا يمكن ان تساهم في معركة التحرير ، فهي ليست حريصة ولن تسمح لنا ان نكون اقوياء لكي نتمكن من التصدي للمؤامرة · انها ، على العكس ، تحاول ان تجرنا الى الرضوخ والقبول باهداف المؤامرة : ترتيب اوضاع المنطقة بما يتلاءم ومصلحة الامبريالية والصهيونية والقوى الرجعية ·

نحن ندرك تماما ونؤمن ايمانا قاطعا ان قوتنا الحقيقية هي قوة الجماهير العربية المناضلة صاحبة المصلحة الحقيقية في التحرير والوحدة · ونحن ندرك ايضا ، ان استمرار نضالنا هو السبيل الوحيد لتحقيق الاهداف الوطنية والقومية · ولن يتم ذلك ، بالطبع ، من خلال مؤتمرات القمة العربية ولا الدولية · كما اننا نعتقد ان وحدة صفوفنا ورصها « وحدة كافة القوى المناضلة على الساحة » هي الرد العملي والحاسم بعيدا عن كل المهاترات والمكاسب التنظيمية الرخيصة · ونحن ندرك ، ايضا ، ان الدور الذي يناط بالجيوش العربية لكي تلعبه في لبنان هو استمرار للدور الذي دفعت له هذه الجيوش من قبل انظمتها في اكثر من مرة او مناسبة ، وفي كل الحالات كان ليس هو الدور الحقيقي لها من وجهة النظر

الوطنية او القومية » ٠

مميزات الجنوب والثورة الفلسطينية :

« الجنوب له اكثر من ميزة » ، يضيف الاخ بلال ، وهي « ميزات جعلتـــه منطقة تجاذب وتركيز سواء من قبلنا كثورة فلسطينية وقوى وطنية لبنانية او من كافة القوى المعادية ٠ ابرز هذه الميزات ، ١ ـ التصاق الجنوب بارض فلسطيـن وقربه من منطقة الجليل حيث نجد اكبر تجمع بشري فلسطيني في الاراضي المحتلة٠ بالاضافة الى ميزات استراتيجية وعسكرية اخرى ٠ ٢ ـ ارتباط الجنوب التاريخي بشمال فلسطين على كافة الاصعدة التجارية والسياسية والاجتماعية ٠ ٣ ـ كون الجنوب منطقة تماس مباشرة بيننا وبين العدو الصهيونـي ، ٤ ـ التحركـــات السياسية الوطنية والفلاحية والمطلبية التي كان يقوم بها اهالي الجنوب بلا انقطاع خلقت تراثا نضاليا عريقا من الصعب على القوى المعادية ضربه بسهولـة ، ٥ ـ المحاولات المتكررة من قبل الاقطاع الديني والسياسي لركب موجـــة الجنـــوب « المحروم » والقيام بالنشاطات المشبوهة لمناهضة الثورة الفلسطينية والحركـــة الوطنية اللبنانية ٠

بالنسبة لنا ، كثورة فلسطينية ، نعتبر الجنوب كما نعتبر سائر المناطـــق العربية الاخرى شعبها شعبنا وارضها ارضنا ٠ فالجنوب منطقة شديدة الاهميـة بالنسبة لنا ، وخاصة في ظل الظروف العربية السائدة ، فهو يشكل نقطة انطـلاق لمقاتلة العدو الصهيوني ٠ وقبل ظهور الثورة الفلسطينية كان الجنوب محرما على الفلسطيني دخوله دون اذن رسمي ، خاصة المناطق المحاذية لشريط الحدود مـع العدو الصهيوني ٠ وكان يعتبر الجنوب قبل انطلاقة الثورة الفلسطينية وابـــان سيطرة النظام الرجعي في لبنان منطقة عازلة ٠ والحاجز الامني الذي تسعـــى اسرائيل الان الى اقامته كان موجودا ، بصورة او باخرى ، قبل تواجد الثـورة في الجنـــوب ٠

الجنوب موقع استراتيجي بالنسبة لنا وللحركة الوطنية اللبنانية ولكـــل الوطنيين الذين يدركون خطر العدو الصهيوني ٠ ومن هنا تركيز اسرائيل دائمـا على جنوب لبنان » ٠

اساليب اسرائيل التقليدية لاخضاع الجنـوب :

« القصف ، حرق المزروعات ، قتل المواشي ، توزيع المنشورات التي تطالب اهالي الجنوب بالتخلي عن الثورة الفلسطينية ٠ عمليات التهديد المستمرة ونسف

البيوت والقتل وخطف الوطنيين ، والقيام بعمليات الاحتلال المؤقت للارض ثم الانسحاب منها ، احتلال مواقع استراتيجية داخل الاراضي اللبنانية والتمركز فيها ، ممارسة شتى انواع الارهاب والتنكيل · الا ان الجنوب المناضل استطاع طوال الفترة الماضية ان يصمد في وجه كافة هذه الاساليب » ·

اساليب المؤامرة الاخيرة :

لقد تعددت وتنوعت اساليب التركيز على المواطن الجنوبي لاخضاعه مؤخرا ودفعه الى التخلي عن المقاومة والحركة الوطنية · فمن محاولات بث النزعة الطائفية الى القيام بعمليات الحصار التمويني والتجويعي لاخضاع هذا المواطن الصامد · كما حاول الكثير من الانهزاميين ان يبثوا روح البلبة والتشويش بغية تفتيت الموقع الوطني المناضل في الجنوب ، ثم هناك ممارسة الرموز الرجعية السياسية والدينية لمحاولات احداث شرخ في تلاحم الجماهير مع الثورة والحركة الوطنية ·

وهكذا تلاقت سياسة القوى المعادية الداخلية والخارجية من اجل تصفية ما يمثله الجنوب من موقع وطني · داخليا من خلال الدور المتآمر للقوى الفاشية والرموز الرجعية المضادة ، وخارجيا من خلال فرض الحصار البحري (اسرائيل والفاشيين) والبري (النظام السوري) بهدف تجويع المناطق الوطنية واخضاعها ، وقد تقاطعت هذه المواقف والمحاولات، موضوعيا ، مع سياسة العدو الصهيوني واطماعه في الجنوب ، « ان لم تكن منسقة اصلا مع هذه المواقف » ، وحرص هذا العدو على ان ينتهي دور الجنوب كجنوب مناضل ·

وقد مارست اسرائيل سلسلة من الاساليب الجديدة بغية تحقيق اهدافها :

١ ـ اقامة بعض المستوصفات لعلاج المرضى من اهالي الجنوب ·

٢ ـ ادخال المواد التموينية المختلفة الى بعض قرى الجنوب واعتبار هذه القرى مرتكزا للتوسع في تسويق هذه المواد (اهم هذه القرى القليعة ورميش) ·

٣ ـ افساح « المجال » امام بعض العائلات في الجنوب لزيارة اقاربهم في فلسطين المحتلة من تصاريح تمنحها سلطات العدو الصهيوني ·

٤ ـ فتح « المجال » ، ايضا ، لسكان هذه القرى التي تتعامل معهم للعمل

في المصانع الاسرائيلية ٠

وكان العدو يهلل ويصف كل هذه الاجراءات بانها « انسانية » ومجـــرد محاولة منه « للتخفيف » من آلام اهل الجنوب ٠ ولما لم تجد كل هذه الاساليـب نفعا في جر سكان قرى الجنوب الى الفخ الذي نصبه العدو ، بالرغم من كافـــة المصاعب التي عانى منها)هل الجنوب مؤخرا ، لجأ العدو الى اتباع اسلوب آخر وهو قيامه بتسليح وتدريب سكان هذه القرى التي تشكل مرتكزا له ، وتوجيههـم بالتالي ، نحو خلق توتر معنوي وسياسي وعسكري في المنطقة ٠

لقد قام العدو الصهيوني بتعيين حكام عسكريين ومدنيين مرتبطين به فـــي هذه القرى ، فعين نقولا الحاج حاكما عسكريا في قرية رميش (وهو رقيب اول في الجيش اللبناني سابقا) وغسان حمصي حاكما عسكريا لقرية القليعة ٠ واصبحت الاجتماعات واللقاءات تتم بصورة دورية ومتبادلة بين العدو الصهيوني وهـذه القرى التي تتعامل معه ٠ وقد عقد عدد من الاجتماعات داخل الاراضي المحتلة في صفد ونهاريا وغيرهما » ٠

الاهداف المباشرة للعدو الصهيوني :

يلخص الاخ نور ، احد الاخوة المسؤولين في الثورة الفلسطينية في الجنـوب الاهداف المباشرة للعدو الصهيوني بما يلي :

١ ـ مد خط بشري مؤيد له على امتداد الشريط الحدودي موازٍ للخط الامني العسكري من الاسلاك الشائكة والالغام ٠

٢ ـ تحطيم امكانية عودة الفدائيين الى ممارسة نشاطهم في الجنوب من خلال خلق وقائع جديدة وارساء حالة من العداء السياسي والعسكري ضدهم ٠

٣ ـ تحطيم صيغة التعايش الاخوي بين الطوائف في الجنوب ، بهدف اعطاء المبرر الاخلاقي للغيتو الصهيوني ٠

لقد قاموا بتحريك الفاشين في القرى التي تتعامل مـعـهم للقيام باعـــمال عسكرية وسياسية بغـية تثبيت وتحقيق هذه الاهداف المباشرة ٠ فأخـــذت القليعـة تتحـرك ضد مرجعـيون والخيام وكفركلا ، وتهـدد باستمرار قريـــة دير ميماس ٠ وقام العـدو الصهيوني بتحريك الفاشيين في رميش ودبل ضـــد قرية حانين والقرى الاخـرى المجاورة كما قاموا «بزج» قرية عـين ابل في حالة

العـداء ، وعـملوا عـلى تحريك قرية عـلما الشعـب » ولكن بحـدود لـم يستطيعـوا تجاوزها حتى الان » ، كما يذكـر الاخ بلال ، « من خـلال الـدور النشط الذي قمنا بـه مؤخرا هناك وقدرتنا عـلى خلق حالة جيدة نسبيا داخـل البلدة » ٠

« ان اسرائيل تسعـى لمد الحزام الامني الحدودي وتعميقه بقواعد جماهيريـة مسلحة معـادية للمقاومة ، هذا لم يكن يحـدث سابقا ولـه اسبابه الموضوعية ٠٠ ان هناك ربع مليون مهجـر فـي الجنوب ، الاحـوال الاقتصادية والمعيشيـة سيئة ، الحصار البحري الاسرائيلي ، والبري يجعـل الارض التي تبذر اسرائيل فيها افكارها قابلة للخصب ، المؤامرة مستمرة عـلى المقاومة ، هدفها استيعابهـا وتصفيتها ، الاسلوب قد يختلف عما تـم فـي الاشهـر الـ ١٨ الماضيـة » (ابو خالد العملة ، « السفير » ٧٦/١١/٨)٠

ويضيف الاخ بلال : « ان الجو الرجعـي العربي مساعـد لتحرك اسرائيـل من اكثر من ناحية ٠ فمثلا قضية التبغ ، وهو المصدر الاساسي لدخـل اهالـي الجنوب ، لـم تتجـه اية دولة عربية لشرائه بصورة شاملة ٠ معـظم التبـغ الان مخـزون في بيـوت الفلاحين ٠ كما لـم يحـاول احـد في مؤتمري القمـة الاخيرين المصغر والموسع تلمس ما يعـاني منه الجنوب للمساهمة في مساعدتـه وانتشاله من حالة التجويع وفقدان المـواد التموينية الاساسية وكافة مستلزمات الصمود الحقيقية امام الهجمة الصهيونية الفاشية ٠ لقد مروا جميعـا عـلـى قضية الجنوب مر الكرام وكان الجنوب ليس جزءا من لبنان ، بالرغـم من كـل المحاولات التي قام بها الاخ القائد العـام من اجل الاهتمام بوضع الجنوب على كافة الصعـد ، او قيامـه بابـرازقضية مهجري النبعة والكرنتينا والمسلخ والزعتر وغيرها ، ولكن عبثا ٠٠ ويبدو ان ثمة تغطية عربية رجعية ، او تجاهلا لتحـرك العـدو الصهيوني مع الفاشيين في الجنوب »٠

اساليب الثورة الفلسطينية في مواجهة المخـطط الصهيوني الفاشي :

لقد حاولنا ، يتابع الاخ بلال ، من خلال التعاون مع الحركة الوطنية اللبنانية، ان نعـزز صمـود الجماهير فـي الجنوب امام الهجمة من خـلال الاساليـب التاليـة :

١ ـ التوجه لتشكيل لجان شعبية عـلى مستوى قرى الجنوب لمتابعـة القضايا اليومية والحياتية والمعيشية التي كان يعـاني منها سكان الجنوب ٠

٢ ـ تامين المـواد التموينية لاهالي الجنوب باسعـار منخفضة ٠

٣ ـ تأمين الادوية وفتح بعض المستوصفات · تنشيط الخدمات الطبية من خلال « النجدة الشعبية » والصليب الاحمر والهلال الاحمر من خلال السعي لتشكيل لجان صحية في المناطق والقرى للحصول على الادوية اللازمة وتأمين العمل في عدد من المستوصفات · وقد قطع العمل في هذا الاتجاه شوطا لا بأس به (هناك حوالي ٧٠ مستوصفا يعمل الان في الجنوب)· اضافة الى تقديم الثورة الادوية الى المستشفيات الرسمية مثل مستشفيات تبنين وصيدا ومرجعيون والنبطية ·

٤ ـ تأمين المحروقات على الرغم من الظروف الصعبة وبعض السلبيات التي رافقت عملية توزيعها ·

٥ ـ القيام بالتعبئة الجماهيرية المستمرة لمواجهة النعرة الطائفية التي عمل الاسرائيليون والقوى الفاشية على اثارتها في بعض القرى الجنوبية ·

٦ ـ احباط وقطع الطريق على اي رد فعل طائفي ·

٧ ـ بذل المحاولات المتكررة مع القرى المسيحية في الشريط الحدودي بشكل خاص ، ومع كافة القرى المسيحية الاخرى بشكل عام بهدف تنبيه هذه القرى الى مخاطر الانزلاق في الشرك الصهيوني الفاشي · وقد عقدت في هذا الصدد اجتماعات عديدة ولم نلجأ كثورة فلسطينية وحركة وطنية لبنانية الى اسلوب « العنف المسيطر عليه والموجه » ، الا بعد حادثتين بارزتين : الاولى في عين ابل حيث اغتيل لنا اربعة مناضلين · والثانية في العيشية حيث اغتيل لنا ايضا ، اربعة مناضلين وجرح ثلاثة ·

ـ هناك محاولات متكررة يجري بذلها الان ، وبالرغم من كل ما حدث من مواقع معادية وخائنة ، بهدف انتشال البقية من جماهير هذه القرى ومنعها من الانزلاق في المخطط الفاشي الصهيوني · ولا تزال هذه المحاولات مستمرة» ·

النشاط الصهيوني الفاشي :

لا بد من التذكير بان النشاط الصهيوني المباشر في عدد من القرى الحدودية نشاط قديم · وقد اتخذ شكل تكوين شبكات تجسس اسرائيلية مقسمة بين عميل ومخبر · وهناك اكثر من دليل واثبات على وجود هذه الشبكات سواء ابان عهد السلطة اللبنانية السابقة ، او اثناء الاحداث الاخيرة · وقد

تركز نشاط هذه الشبكات في قرية رميش بالاضافة الى عدد مـــن العمـــلاء المنتشرين في معظم القرى الحدودية ٠

وقد حاول عملاء اسرائيل والقوى الفاشية المضادة اثارة الاهالي واستغلال بعض الثغرات الناشئة عن الحصار التمويني على مناطـــق الحـــركة الوطنيـــة والمقاومة الفلسطينية ، خاصة لجهة تعذر توفير بعض المواد التموينية الاساسية او سوء توزيعها في احيان اخرى ٠

واخذ عملاء اسرائيل في قرية رميش زمام المبادرة لتشجيع التعـــامل مـــع العدو الصهيوني والسير في سياسة الجسور المفتوحة ٠

وقد نشطت هذه التحركات ، كما اسلفنا ، واتخذت شكلا سافرا ابتداء مـــن شهر اب ١٩٧٦ ، وبدأ عدد من المسؤولين الفاشيين يزور بعض القرى عن طريق اسرائيل ٠ ومن بين هؤلاء ابو ارز ، بشير الجميل ، وشربل قسيس ٠

واستغلت العناصر الفاشية وعملاء اسرائيل في قرية رميش قضية عـــدم تسويق التبغ واخطاء وتقصير بعض المسؤولين في جيش لبنان العربي فيمـــا يتعلق بقرية رميش ، لتطرح ضرورة بيعه الى اسرائيل ٠ وكذلـــك الحـــال بالنسبة لقضية شح المياه خلال فصل الصيف في عدد من القرى الجنوبية ٠فقد بادر عملاءاسرائيل فيرميش الى نقل المياه بواسطة جرارات على اساس ثمن النقلة بـ ١٠ ليرات لبنانية ، وقامت هذه العناصر العميلة بتوزيع وبيع المياه على اهالي بعض القرى مثل دبل ، علما الشعـــب ، القوزح الخ ٠٠

وبدأت اسرائيل تمد عـــددا من انابيب المياه من داخل اسرائيل الى بعـــض هذه القرى ٠ علما بان ازمة شح المياه في فصل الصيف في القرى الجنوبيـــة ازمة مزمنة وكانت الدولة في السابق تؤمن مياه الشرب لهذه القرى بواسطـــة الشاحنات ٠ ثم تطور التعامل مع العدو ، وتم فتح مستوصـــــف اسرائيـــلي بمحاذاة قرية رميش ٠ وحاولت اسرائيل فتح عدد من المستوصفات الاخـــرى المماثلة بموازاة عدد من القرى اللبنانية الاخرى ٠ ولكنها لم تنجح كثيـــرا في هذا المجال ٠ ففي منطقة قرية يارون ، مثلا ، لم يتجاوب الاهالي مع فتـــح المستوصف الموازي لقريتهم ، فنقلت اسرائيل المستوصف الذي وضعته هنـــاك بعد ثلاثة ايام ٠

ولكن الاعلام الاسرائيلي بدأ شن حملة اعلامية مركزة فـــي التلفزيـــون

والاذاعة عن الخدمات « الانسانية » التي يجري تقديمها بهدف توسيع اطار التعاون معها في منطقة الحدود ·

وقد تدرجت الخدمات « الانسانية » التي قامت بها اسرائيل على الشكل التالي :

١ ـ تامين مياه الشرب ، ٢ ـ فتح المستوصفات ، ٣ ٣ـ توفير بعض المواد التموينية · ٤ ـ شق الطرقات الترابية بين اسرائيل وعدد من القرى الحدودية (رميش ، علما الشعب) · ٥ ـ مد شبكات الهاتف والبريد بين اسرائيل والقرى التالية : رميش ، دبل ، عين ابل · ٦ ـ تزويد عدد من العملاء والفاشيين باجهزة لاسلكية ·

سلمت اسرائيل بعض اهالي رميش ، وتحديدا العسكريين منهم ،العاملين في الجيش اللبناني سابقا ، مواد تموينية باسعار منخفضة نسبيا ·وبعدها فتحت المجال لعدد من التجار المدنيين في رميش وغيرها لاستيراد بعض المواد التموينية وتسويقها في قرى المنطقة · والجدير بالملاحظة ان عملية تسويق قسم من محصول التبغ في قرية رميش وغيرها من قبل بعض العملاء والفاشيين ، لم تكن عملية عادلة او مربحة · فالاهالي لم يقبضوا الثمن بصورة فورية · كما ان ثمن الكيلو كان اقل من السعر الذي تدفعه شركة الريجي اللبنانية ·· ولم تجر اسرائيل اية عملية تمييز في السعر بين اصناف الدخان المختلفة (الجيد والمتوسط والرديء) ، بل اشترت جميع هذه الاصناف بسعر موحد ·

دور اسرائيل في التشكيلات المدنية والعسكرية للفاشيين

لم تكتف اسرائيل بدورها « الانساني » وخطواتها السابقة ، بل تعدت ذلك الى الاسهام المباشر في تنظيم شؤون كل قرية من القرى المتعاونة معها على اساس تشكيل لجنتين في القرية الواحدة : لجنة للشؤون العسكرية ،ولجنة للشؤون المدنية ·

اللجنة العسكرية قامت بتعيين حاكم عسكري واللجنة المدنية عينت مسؤولا سياسيا ·

واخذت اسرائيل تسلم الاسلحة لبعض العسكريين السابقين في الجيش اللبناني · كما فرضت على الحاكم العسكري المرتبط تنظيميا بها فرض

التدريب والقيام بالحراسات وضرورة تدريب كل شخص قادر على حمـل السلاح . وقد عـقدت سلسلة من الدورات العسكرية داخل اسرائيـل تم فيهـــا تدريـب الفاشيين والمتعاونين عـلى مختلف انواع الاسلحـة وقيادة بعض الاليات .

ومما لا شك فيه ان دور المخابرات الاسرائيلية هو دور اساسي . فقد انطلق النشاط المعـادي من قرية (رميش) التي يتواجد فيهـا عـدد لا يحصـــى مـن العملاء الاسرائيليين .

وابرز ضباط المخابرات الاسرائيليين الذين يقومون بنشاط مركز في قريـــة رميش هم : ابو داوود (اسمه أمنون وهـو عـمدة مستعـمرة حانوتا) ورتبتـه ضابط استخبارات ، عـازار ، والشويلي .

وقد بدأ توجيه مختلف دعـوات « حسن الجوار » من قرية رميش بدفـع مـن الاستخبارات الاسرائيلية . وكل المقابلات التي كانت تجري مع وفود من اهالي القرى المجاورة ، بحضور ضابط استخبارات اسرائيلي ، انما كانت تتم فـــي قرية رميش او مستوصفها الاسرائيلي.

والان سنعرض لتطور النشاط الصهيوني الفاشي المعـادي في كل قرية مـــن القرى التي استطعـنا الحصول عـن معلومات وافية عـنها في هذا الصدد .

النشاط الصهيوني الفاشي في قرية رميش :

تعتبر هذه القرية « المر الاسرائيلي » الى قرى الجنوب الاخـرى فـــي القطاعين الاوسط والغربي . وتضم هذه القرية ما يقارب ٥٠٠ر٤ نسمـــة . تعتاش هذه القرية اساسا من زراعـة التبغ ويعـمل عدد كبير من ابنائهـــا (حوالي ١٣٠ عنصرا) في الجيش والدرك وهناك ما يقارب ٦٠ عنصرامـــن « انصار الجيش اللبناني ».

القوى السياسية في البلدة : يشكل حزب الكتائب اقوى تنظيم سياسي يليـه الوطنيون الاحرار وبعض العائلات المؤيدة لكامل الاسعد . وزن القوى الوطنية ضعـيف جدا في هذه البلدة وهـو لا يتعـدى بضعـة افراد معظمهم يعملفي بيروت . تحوي هـذه القرية اكبر تجمع لعملاء العدو الصهيوني في عـمـوم المنطقة . وهي القرية التي بادرت الى اقامة الجسور المفتوحـة مـع العـــدو الصهيوني . يتزعـم النشاط السياسي والعسكري فيها نقولا الحاج وهو يملك مدرسة ويعـمل سكرتيرا للويس ابوشرف عضو المكتب السياسي في حـــزب

الكتائب ٠

ابرز عملاء العدو الصهيوني في هذه القرية هم يعقوب موسى الحاج، الياس الحاج ، فضل غناطيوس الحاج ، الياس عقل جريس ، سعيد شبيب العميل (وهو عميل مزدوج لاسرائيل والمكتب الثاني اللبناني سابقا) ٠

كان المسؤول العسكري في رميش قد توجه بتاريخ ٧٦/٨/٩ الى جونيه عبر اسرائيل واجتمع مع عدد من جنود البلدةالمتواجدين في جونية وغيرها بهدف احضارهم معه الى البلدة ٠

تم تشغيل حوالي ٥٠ عاملا من هذه القرية في مصانع للسجاير في منطقة صفدبفلسطين المحتلة ٠ وهناك حوالي عشر ممرضات في هذه البلدة يعملن في مستوصفات ومستشفيات اسرائيلية ٠

تلقى عدد كبير من العناصر الفاشية عدة دورات تدريبية داخل اسرائيل٠

النشاط الصهيوني الفاشي في قرية دبل :

كانت هذه القرية هي المحطة الثانية للنشاط الصهيوني الفاشي الذي لعبت فيه العناصر العميلة والفاشية في قرية رميش دورابارزا ٠

تضم هذه القرية حوالي ثلاثة الاف نسمة ٠ تعتاش هذه القرية على زراعة التبغ والحبوب ، وهناك قسم يعمل في بيروت والمهجر ٠

القوى السياسية في البلدة : يمثل الوطنيون الاحرار (جماعة كميل شمعون) الوزن السياسي الاكبر ٠ وهناك حوالي ٣٠ عنصرا ينتمون الى حزب الكتائب ولهم ناد في البلدة ٠

واخذ العدو الصهيوني يمارس دعايته ونشاطه ٠ فقد ظهر على شاشة التلفزيون الاسرائيلي احد الاشخاص المسؤولين في رميش في مقابلة تلفزيونية حيث تساءل لماذا لا ياتي اهالي دبل لتسلم المعونات التي بعث بها «المسيحيون» في اسرائيل (المخابرات الاسرائيلية بالطبع) ، وفي اثر هذه المقابلة توجه بعض الفاشيين في دبل الى مختار البلدة وطلبوا منه الذهاب للتفاوض مع اسرائيل واستلام المواد ٠ ولكن المختار رفض ذلك اكثر من مرة ٠ فدعوا ، بعدها، الى عقد اجتماع لاهالي البلدة في ٧٦/٨/٢٧ فيمنزل الياس صقر رئيس البلدية للتداول في مجمل الاوضاع ، واسفر الاجتماع عنتشكيل لجنةللبلدة

وضعت ضمن مهامها الذهاب والتفاوض مع اسرائيل بخصوص « المعونـــات»٠
وعند مقابلة اللجنة لبعض المسؤولين الاسرائيليين من ضباط الاستخبـــارات جرى نقاش واسع يتعدى مهمة تسلم المعونات المزعـومة اياها ! فقد طلــب المسؤولـون الاسرائيليـون مــن اللجنـــة ضــرورة تشكيــل لجنتين فيالبلدة :احداهما للشؤون العسكرية والاخرى للشؤون المدنية ٠ وتـم الاتفاق عـلى ان تقوم اسرائيـل بتامين الدعـم العسكري الكامل لهم ٠ كما جرى ، فيالنهاية ، اعطاؤهم المعونات « الرشوة » لتوزيعـها عـلى الاهالي٠

وقد تشكلت بالفعـل ،وبناء عـلى الطلب الاسرائيلي ، لجنتان في البلـدة٠ تالفت اللجنة المدنية من الاتية اسماؤهم : مارون يونس ، مخايل ناصيـــف ، الياس صقـــر ، مخايل لوقـا ٠ وتالفت اللجنة العسكرية من الاتيـة اسماؤهـم (ومعظمهم من العسكريين السابقين في الجيش اللبناني) : الملازم حنـــا ناصيف ، الرقيب حنا سليم هاشم (وهو المسؤول العسكري)، الرقيب يوســف مشهـور ، العريف شبيب بطرس نداف ، الشرطي (ف ١٦) سعـيد ديب سعـيد، الجندي نخله عيد سعيـــد ٠

ويعتبر هؤلاء الاشخاص المحركون الاساسيون للنشاط المعــادي في هذه البلدة٠

وقد تم تشكيل لجنة ثالثة ، اطلق عـليها اسم « لجنة ارتباط» ، وهي للاتصالات والتنسيق السياسي والعسكري المشترك ٠

وتتالف لجنة الارتباط من الاتية اسماؤهم :

عسكريون : الرقيب حنا هاشم ،الرقيب يوسف مشهور ، العريف شبيـــب بطرس نداف ، الشرطي (ف ١٦) سعيد ديب سعـيد ، مدنيون : مارون يـونس، مخايل ناصيف ٠

وفي تاريخ ٧٦/٨/٩ استلمت اللجنة العسكرية في القرية كمية مـن السلاح الصهيوني كدفعـة اولى وتتالف من : ١٨ بندقية نوع فال ٧ قطع مضاد للدروع، ٢ هاون ٨١ ٠

اعدت اللجنة العسكرية حوالـي اربع دورات تدريبية لعـدد كبير من شبـــاب وفتيات البلدة ٠ كان من بينهــا دورقاولية فـي دبـل ودورة ارقى في رميـش، ودورة تخصص للتدريب عـلى الاسلحـة الثقيلة في اسرائيل (مدافـع وقيـــادة اليات)٠ وبلغ تعـداد الاشخاص الذين تدربـوا حوالـي ١٢٠ شخصا ، بينهـم

حوالي ٥٠ فتاة ٠

ونذكر من الاشخاص الذين تلقوا بتاريخ ١/١٠/٧٦ دورة تدريبية لمدة ١٥ يوما على قيادة الدبابات في صحراء سيناء : خليل بطرس نداف ، خليل سعيد ، ابراهيم لوقا ، فايز يونس ٠

اما اللجنة المدنية ، فقد بدأت اعمالها بتوزيع المواد التموينية والمعونات اياها (!) ،والقيام ببث الدعاية المضادة للمقاومة والقوى الوطنية والتحريض على عدم استلام اية مواد تموينية من اي مصدر كان دون موافقة اللجنة المدنية !
وفي ١/٨/٧٦ توجه مارون يونس الى اسرائيل وعاد منها في ٩/٨/٧٦ بعد ان تم تزويده بجهاز لاسلكي وثلاث سيارات مرسيدس ملأى بالاسلحة ٠ وباشر فورا ، باعتباره مسؤول اللجنة المدنية ، بتنظيم رحلات عمالية من القرية للعمل في اسرائيل ٠ ويقدر عدد العمال الذين يتوجهون للعمل يوميا هناك بحوالي ٦٠ عاملا وعاملة ٠

النشاط الصهيوني الفاشي في قرية عين ابل :

بدأ التحرك الفاشي الصهيوني في هذه القرية ، التي يبلغ عدد سكانها حوالي ٦ الاف نسمة ، في ٥/٨/٧٦ حين قام احد عملاء اسرائيل المدعو الرقيب الياس حصروني بالاتصال مع ضابط المخابرات الاسرائيلية عازار عن طريق قرية رميش مكان الاجتماع ، ودار الحديث حول موضوع التنسيق وكيفية التحرك داخل عين ابل ٠ وبدأت عملية التحريض الاعلامي وحث الاهالي للسير في ركاب قرية رميش ٠ وجرت عملية استقطاب للعناصر الفاشية وتنظيم صفوفها بصورة سرية في البداية ، وكان من ابرز العناصر الفاشية التي تم استقطابها: مارون رزق حصروني ، وطوني رزق حصروني ، وعيد مارون شحادة ، وفؤاد عتمة ٠ واستطاعت هذه العناصر الفاشية تحريك مسيرة مسلحة في المنطقة الجنوبية من البلدة بتاريخ ٢٠/٨/٧٦ ٠ وقد بلغ عدد المشتركين فيها حوالي ٣٠ عنصرا من الذين تم تسليحهم وتدريبهم بصورة سرية في اسرائيل ٠

وفي مساء نفس اليوم وصل من قرية رميش موكب مسلح الى عين ابل يرافقه جرار زراعي محمول عليه رشاش ٥٠٠ من النوع المتوسط ٠ وكان الموكب يضم ٢٠ مسلحا من رميش ، بينهم ٤ مسلحين قدموا من المنطقة الشرقية في بيروت عن طريق اسرائيل ، نذكر منهم لويس حصروني وطوني نعمة من قرية عين ابل٠
وقد توزعت هذه العناصر على اسطح الابنية المحيطة بالمدرسة ٠ وكان القائد المخطط لكل هذه العملية المدروسة الملازم مارون دياب من عين ابل

يساعده الملازم فرنسوا الحاج من رميش · وفي ٧٦/٨/٢١ ، عقد اجتماع في عين ابل ضم بعض الوجهاء وكاهني البلدة والشباب الوطني التقدمي هناك الذين قاموا بتحذير اهالي البلدة من مغبة الاستمرار في نهج التعامل مع اسرائيل والقيام بالنشاط المعادي للمقاومة والحركة الوطنية · وقد تم الاتفاق في هذا الاجتماع على ضرورة المحافظة على وضع قرية عين ابل كما هو عليه ، وتحجيم دور الفاشيين وطرد العناصر الفاشية الغريبة التي توافدت الى عين ابل عن طريق اسرائيل · وجرى الاتفاق ، ايضا ، على اعادة نشاط اللجنة الامنية التي تشكلت في القرية سابقا بمساعدة الحركة الوطنية والمقاومة· هذه اللجنة التي استطاعت الحفاظ على أمن وراحة البلدة وتوفير المواد التموينية المختلفة طيلة الاحداث اللبنانية ·

الا ان العناصر الفاشية والعميلة لم ترضها هذه النتيجة ، فقامت يوم ٧٦/٨/٣١ على نصب كمين واغتيال الشهداء الاربعة محمود قواص ، نزيه دياب ، عادل وطفة (لبنانيون) وابو ناصر وكلهم ينتمون الى حركة فتح ،بينما كانوا يمرون في البلدة ·

لقد ارادوا ان يثيروا مخاوف الاهالي لكي يقفوا الى جانبهم متبعين نفس اسلوب اوتوبيس مجزرة عين الرمانة عام ١٩٧٥ ·

وهكذا تمكن الفاشيون والعملاء من احكام سيطرتهم على قرية عين ابل·

ابرز الاشخاص الذين قاموا بالنشاط الفاشي المعادي في عين ابل هم : الياس شعيا ، حنا اسكندر دياب ، ميشال مخول بركات ، مارون شربل بركات ، شربل خريش ، عبدالله خريش ·

اما العسكريون السابقون الذين التحقوا بالفاشيين وتسلح قسم منهم من اسرائيل منهم :

الملازم مارون حنا دياب ، الرقيب بشارة طانيوس حصروني ، (سلاحه من اسرائيل نوع ناتو)، الرقيب الياس رزق حصروني (سلاحه من اسرائيل، نوع ناتو) الجندي بولس حنا سلامة (سلاحه من اسرائيل نوع ناتو)·

اما العناصر الفاشية التي قدمت عن طريق اسرائيل الى عين ابل وتزودت بسلاح اسرائيلي فهي :

١ ـ لويس حصروني ، مسؤول عسكري ، سلاحه ناتو من اسرائيل ·

٢ ـ انطوان الياس نعمة دياب ، مسؤول سياسي ، سلاحه ناتو من اسرائيل·

٣ ـ جوزيف شعيا (من قرية دبل)، مدرب ، سلاحــه ناتو من اسرائيــل ٠

٤ ـ سوزان مطر (من قرية دبل) مدربة للفتيات في عين ابل وهي من سكــان ضبيـــة ٠

٥ ـ بطرس منصور حصروني سلاحــه ناتو من اسرائيل ٠

٦ ـ بطرس الاخ قتل في حادث استشهاد الفدائيين الاربعــة في عين ابل٠

٧ ـ دياب خليل دياب ، ٨ ـ انطوان طنوس دياب ٠ ويبلغ عدد هذه العناصر التي قدمت عــن طريق اسرائيل حوالي ١٥ عنصرا ٠

اما المقيمون في عــين ابل والذين تسلح معــظمهم من اسرائيل والتحقــــوا بالفاشيين فيبلغ عددهم ٣١ عنصرا ٠ نذكر منهــم ، فقط ، الذين تزودوا بسلاح اسرائيلي ومعــظمهم من الشباب المضلل :

غسان انطوان نعــمة ، يوسف انطوان نعــمة ، يوسف توفيق دياب، جــورج بطرس خليفة ، بولس حنا فرح ، يوسف شكرالله سليمان ، جورج اليــــــاس حصروني ، مارون الياس حصروني ، بشارة جورج عتمة ، رمزي نعــمة دياب ، عيد شحــادة ، بيار مارون دياب ، بول مارون دياب ، بركات جوزيف بركــات، بول حنــا بركات ٠

النشاط الصهيوني الفاشي في علما الشعب :

يبلغ عدد سكان هــذه القرية حوالــي ٤ الاف نسمة وهي تقع بجوار الناقورة على بعــد كلم واحــد من الحــدود الفلسطينية ٠

بدأ يستفحــل النشاط الفاشي في هــذه القرية ، ولكن ضمن حــدود ، فــي شهر اب ١٩٧٦ ٠ وقد ساهــم في احياء هــذا النشاط الملازمان في الجيــــش اللبناني الياس زعــرب ولويس بواري ، بعــد ان عــادا الى قريتهما عــن طريق اسرائيل ٠ وقد عاونهمــا تحريضيا في عملهما المعــادي المعــاون اول المتقاعــد حنا بواري الذي كان يعــمل مع العــدو الصهيوني منذ ١٩٧١ ٠ وبدأ الشماس (معــاون الكاهن) خليل صقر يساهــم فــي بث النشاط الفاشي المعــادي ٠

ويعمل هــذا الشماس تحت امــرة المطران الماروني يوسف الخــوري الــــذي ارسل رسالة الى اهالــي عــلما الشعــب عبر اسرائيل بتاريـــخ ٧٦/٧/٣٠

يدعوهم فيها الى الالتفاف حول القيادة الفاشية في البلدة والابتعاد عن التيارات الوطنية ، ضامنا لهم وصول الاسلحة والتموين من العدو حيث يذكر في رسالته « انني قد اتفقت معهم على ذلك » فمن هو المعني في هذا الكلام ؟!

وفي شهر آب ١٩٧٦ اخذت الاسلحة تتدفق الى علما الشعب من اسرائيل • ومن الذين شاركوا في احضار هذه الاسلحة العريف جريس فرح وجورج فرح •واشرف على التدريب في البلدة كل من النقيب أنيس طوبيا والملازمان توفيق فرح ونزيه الصباح ، والمعاون اول حنا بواري (أبو ضرغام)• وقد دخل خليل صقر (الشماس) الى مستعمرة حانوتا عدة مرات لترتيب الامور بالتنسيق مع يعقوب موسى الحاج من بلدة رميش •

وفي ٧٦/٩/١٠ حضر كولونيل اسرائيلي اسمه ايلي حداد اصله من قرية علما الشعب واجتمع مع عدد من اقاربه وبعض العناصر المتعاونة مع العدو الصهيوني • ويتردد ضابط الاستخبارات الاسرائيلي ابو داوود باستمرار على قرية علما الشعب يرافقه ضابط اسرائيلي اخر يدعى ابو يوسف •

اما العسكريون الملتحقون بالفاشيين والذين تسلحوا من اسرائيل فهم:

نقيب مغوار انيس طوبيا ، ملازم (كلية حربية) الياس بواري ، معاون أول متقاعد حنا بواري ، رقيب اول يعقوب عقل ، رقيب حبيب بواري (المسؤول العسكري) ، رقيب يوسف فرح ، عريف مخايل فرح ، الدركي ناصيف حداد ، رقيب منير فرح ، رقيب نعمة رؤوف ، عريف جريس فرح ، الدركي شكرالله طنوس •يضاف الى ذلك التحاق معظم « انصار الجيش اللبناني » بالفاشيين وعددهم حوالي ١٨ عنصرا •

اما الاسلحة الاسرائيلية فهناك ملالتان من اسرائيل وحوالي ١٥٠قطعة سلاح•

خلال شهري ايلول وتشرين الاول ١٩٧٦• جرت ثلاث دورات تدريب في اسرائيل : دورة استخبارات لثلاث فتيات • ودورة تدريب عسكرية على قيادة المدرعات بـ٦ عناصر ودورة تدريب عسكري لـ١٥ عنصرا •

وفيما يلي نص الاتفاقية السياسية والامنية والعسكرية المعقودة بين فاشيي رميش وعلما الشعب وذلك بموافقة وتشجيع اسرائيل وتحت اشرافها •

ففي ٧٦/٨/٢ اجتمعت اللجنة الممثلة لعدد من عائلات علما الشعب مع

المسؤول الكتائبي في رميش نقولا الحاج ، عـلى اساس ممثلين عن العائـلات التالية في عـلما الشعـب : عـائلة الغفري ، عائلة الصياح ، عائلة زعـــرب، عائلة فرح ، وممثل واحد عن عائلة سمور وبحضور خليل صقر (الشماس) بصفة شخصية · عـقد الاجتماع في خيمة اسرائيلية بحضور ممثلين اسرائيليين عـلى الحدود قرب بلدة رميش في الساعة الثامنة من مساء اليوم المذكور انفا وقد تـم الاتفاق عـلى ما يلي :

١ ـ « يسمح لاهالي علما الشعب بالدخول الى الاراضي الاسرائيلية لشـراء جميع المواد الغذائية وغيرها ·

٢ ـ على كل شخص ان يحـمل السلاح اذا استطاع من الدولة الاسرائيليـة او عـلى حسابه الخاص ·

٣ ـ تبليغ السلطة المختصة (!)بكل ما يحـدث في منطقة علما الشعـب ·

٤ ـ اقامة هاتف ما بين عـلما الشعـب واسرائيل وتسليمه الى المختصين في عـلما مع تقديم اجهزة لاسلكية للطوارىء ·

٥ ـ يعـاقب كل شخـص اذا تعـاون مع العـمل الفدائي او الشيوعييـــن او غـيرهم ·

٦ ـ حسن المعاملة مع الجيران في القرى المجاورة للحدود وعـدم التعـــدي عـلى المارة داخـل البلدة ·

٧ ـ لكل شخص الحرية بان يشتري او يبيعما يشاء من القرى اللبنانية الاخرى·

٨ ـ لعلما الشعـب الحق بان تطلب المساعـدة العسكرية من اسرائيل عـنـد الضرورة ·

٩ ـ تجتمع اللجنة العسكرية المختصة في علما مع اللجنة العسكرية المختصـــة في رميش مرة كـل اسبوع في مكان يتفق عـليه في حينه ·

١٠ ـ يعـاقب كل شخص من قبل اللجنة العسكرية اذا تخـلى عـن هـــذا الاتفاق » ·

توسيع النشاط الصهيوني الفاشي :

تشهد القرى اللبنانية الاخرى ضغوطا متزايدة تتراوح بين التهديد والوعيد لكي تحذو حذو القرى المتعاونة مع العدو الصهيوني · وغطاء التحرك الصهيوني ينطلق من القرى التي تسيطر فيها القوى الفاشية · ففي ٢٦/١٠/٧٦ استدعى الحاكم العسكري الاسرائيلي ابو داوود عن طريق الفاشيين في عين ابل ورميش وعلما وفودا من الضهيرة ويارين ومروحين والناقورة وبعض العملاء من بنت جبيل · وكان الاجتماع في حانوتا وذلك للتداول بشأن التنسيق والتعاون المتبادل · وقد طلب بعض العملاء الاسرائيليين في قريتي الضهيرة وبنت جبيل تزويدهم بقطع السلاح وقد تم ارسال بعضه عن طريق عملاء الضهيرة فيما بعد · ولكن الاجتماع لم يسفر عن نتائج حاسمة لانه كان يفتقد الى اية صفة تمثلية بالنسبة للقرى الاخرى ·

هذه القرى الجنوبية ما زالت ترفض ، بالرغم من كل التهديدات والاغراءات ، التعامل مع العدو الصهيوني · وقد تعزز موقف اهالي هذه القرى على اثر تحسن شروط التصدي للفاشيين والعدو الصهيوني · ولعل موقف اهالي كفرشوبا الوطني المشرف وعدد من القرى الاخرى يبرز فشل العدو الصهيوني، من خلال اساليبه المتنوعة التي اعتمدها حتى الان ، بخلق شريط بشري امني على طول الحدود الجنوبية ·

فقد وجه ابو داوود ضابط الاستخبارات الاسرائيلية رسالة الى احمد اسماعيل ذيب احد وجهاء كفرشوبا الوطنيين ، يدعوه فيها الى التعامل مع اسرائيل ويعده بتعمير البلدة التي دمرت « وتقديم « كل شيء » في حال الموافقة على التعاون · وقد جاء في هذه الرسالة :

« نحن واياكم جيران ، ومن الضروري ان نتبادل الزيارات · ونحن نعلم ان بلدتكم قد تهدمت ، وكان ذلك في ساعة شيطانية نعتذر عنها ، ونحن مستعدون لان نوصل لكم التيار الكهربائي ، وننشيء مستوصفا للتطبيب العمومي في كفرشوبا ، كما نؤمن لكم كلما تحتاجونه من مواد غذائية ، ونقدم لكم كل شيء تحتاجونه · لذلك ، فان كنتم توافقون ، فاننا نطلب منكم ان ياتي وفد من قبلنا اليكم في مستوصف « ميتولا » لنبحث الموضوع تفصيليا · الامضاء جيش الدفاع الاسرائيلي » ·

وقد رفض الاهالي بصورة قاطعة الرد على هذه الرسالة ، وكان جوابهم « ان لا عدو لنا غير اسرائيل ، ومن دمر كفرشوبا وقتل وجرح العشرات من

ابنائها لن يعمرها . لن تكون كفرشوبا بؤرة خائنة تتنكر لوطنيتها فتتعامل مع اسرائيل ، بل ستبقى صامدة شامخة معتزة بوطنيتها وعروبتها » .
(انظر «المحرر » ١٨/١١/٧٦) .

هذا هو الرد الوطني الساطع الذي يمثل ارادة وموقف اهل الجنوب الحقيقي. فهل ستنتزع اسرائيل قفاز « الانسانية » و« حسن الجوار » وتشن هجوما عسكريا جديدا بالتنسيق مع الفاشيين لضرب الروح الوطنية الصامدة وتوجيه ضربة جديدة للمقاومة والحركة الوطنية ضمن سلسلة المخطط الامبريالي الرجعي المعادي ؟ هذا ما ستجيب عنه تطورات الايام القادمة في الجنوب .

موقف اسرائيل من أحداث لبنان ودورها فيها

أحمد خليفة

يشكل الدور الاسرائيلي واحدا من اهم العوامل في الحرب الاهلية في لبنان · ويعرف الجميع ان موقف اسرائيل ، ردود فعلها ، وتدخلاتها في الحرب اللبنانية اثرت تأثيرا هاما في مجرى الاحداث فيها ، وكانت هذه جميعا ، ولا تزال ، عناصر حاضرة في ذهن وحسابات وسلوك كل الاطراف المتحاربة والمساندة · والهدف من هذه المقالة هو تسليط الضوء على هذه العناصر ـ موقف اسرائيل ، ردود فعلها ، ودورها في الحرب الاهلية في لبنان ·

الموقف الاسرائيلي

صرح وزير الدفاع الاسرائيلي ، شمعون بيرس في احدى المناسبات ، ان الحرب اللبنانية كانت مفاجأة كبيرة لاسرائيل (١) · الا انه ليس من السهل تصديق ذلك · فقد كان الهدف الرئيسي (والمعلن) للسياسة الاسرائيلية تجاه لبنان في السنوات الاخيرة ، هو دفع السلطات والجيش اللبناني الى التصادم مع المنظمات الفدائية الفلسطينية ، وتأليب اوسع قطاعات ممكنة من الشعب اللبناني ضد حركة المقاومة الفلسطينية ونشاطاتها في لبنان · ومن الصعب التصور ان تشكيل ، تسليح وتدريب الميليشيات الانعزالية قبل الحرب تم كلية بمعزل عن اسرائيل ـ الجهة المعنية اكثر من غيرها بالهدف من وراء هذا الاعداد ، كما انه من الاصعب التصور أن اندلاع المعارك لتحقيق هذا الهدف ، مهما كان الشكل الذي اتخذه في البداية ، جرى دون ان تكون لاسرائيل يد فيه ·وقد يكون من المستحيل الان وضع اليد على الاثباتات التي تؤكد الدور الاسرائيلي في اشعال المعارك ، او المعلومات التي توضح حجم هذا الدور واشكاله ، اذ تحيط الاطراف الانعزالية واسرائيل ، كما هو متوقع ، هذا الموضوع بستار من السرية المطلقة · ولا مفر هنا ، كما يبدو ، من الاكتفاء

بالاستنتاج ، وترك المعلومات الى المستقبل ٠

الا ان الموقف الاسرائيلي اصبح بعد فترة قصيرة من اندلاع المعارك واضحا ، وبالامكان تتبعه دون صعوبات خاصة ٠ ويمكن وصف رد الفعل الاسرائيلي ازاء التطورات في لبنان ، في الاشهر الاولى بعد اندلاع القتال ، بانه مزيج من الترقب والتوتر والقلق ٠ وهو مزيج عكسته بوضوح غالبية المقالات والافتتاحيات (الموجهة عادة) في الصحف الاسرائيلية الصادرة في تلك الفترة ، وبصورة لا تقل وضوحا ـ تصريحات المسؤولين الاسرائيليين ٠ فقد تطورت الاحداث ، كما يبدو ، بشكل مخالف تماما للتوقعات ٠ فبدلا من انفجار الوضع بصورة تضع السلطة اللبنانية بمجموعها ، والجيش والميليشيات الانعزالية في جانب من المتراس من جهة ، وحركة المقاومة الفلسطينية والجبهة السياسية المساندة لها في الجانب الثاني من المتراس من جهة اخرى ، وهو السيناريو الذي كانت السياسة الاسرائيلية تستهدف الوصول اليه ، تفجرت تناقضات الوضع الداخلي اللبناني ، احدثت انقساما عاموديا في السلطة ، اصيب الجيش اللبناني من جرائه بالشلل ، واكتسبت الحرب في لبنان ابعادا طائفية واضحة ، وانقسم البلد اجمالا الى معسكرين كبيرين ـ المعسكر «الاسلامي» ، الذي تحالفت غالبيته مع المقاومة الفلسطينية ، وانتظمت في داخله ميليشيات مسلحة ذات وزن عسكري لا يستهان به نظمتها بالاساس القوى التقدمية المتحالفة مع الثورة الفلسطينية ، والمعسكر « الماروني » الذي التفت غالبيته حول ميليشيات الكتائب والاحرار ، والمنظمات المارونية المسلحة الاخرى٠ وبدلا من ان يبرز مع بداية الحرب هدف ضرب حركة المقاومة الفلسطينية او اخضاعها لسلطة الدولة اللبنانية ، ابرز انفجار الوضع الداخلي اللبناني المطالب الاسلامية بتحقيق مشاركة اكبر للطائفة الاسلامية في الحكم ، واضيفت اليها مطالب القوى التقدمية (التي ازداد وزنها بفضل نموها العسكري) بتحقيق برنامجها السياسي ٠ وتطورت المعارك بحيث وجدت أسرائيل نفسها ، بعد فترة قصيرة نسبيا من بدء القتال ، امام وضع لا يتجه نحو الابتعاد عن الحاق الهزيمة بالمقاومة الفلسطينية فحسب ، بل وايضا يهدد السيطرة المارونية على الدولة والجيش من أساسها ٠ وقد لامست افتتاحية لصحيفة « هاتسو فيه » ، في مرحلة مبكرة جدا من الحرب (عدد ٢٧ـ٥ـ٧٥) ، مكامن القلق الاسرائيلي بقولها : ان اسرائيل تتعقب الاحداث في لبنان من زاوية ـ اولا ، كبح « المخربين » او اتساع سيطرتهم ، وهذا يعني ، مشكلة الامن على الحدود الشمالية ، ثانيا ، « ان استمرار المحافظة على التوازن في لبنان يمنع على الاقل هذا البلد من الانخراط الفعال في دول المواجهة العربية ٠ اما اختلال التوازن بسبب سيطرة اسلامية ، فيخلق وضعا متوترا على الحدود ٠ وقد يجعل لبنان يتسبب في هزات في المنطقة باكملها » ٠ وفيما بعد ، برز ايضا احتمال التدخل السوري ، وامكان انضمام لبنان ، في حال تغير الوضع فيه تغيرا جذريا ، الى الجبهة الشرقية ٠ وهنا يكمن المنبع العميق للقلق الذي ذكرنا

اعلاه انه كان من سمات رد الفعل الاسرائيلي ازاء تطورات الحرب في لبنان في الاشهر الاولى ٠

وقد مال الموقف الاسرائيلي ، في البداية ، الى التحرك وفقا لنمط التحرك الاسرائيلي ازاء احداث الاردن في عام ١٩٧٠ ٠ ففي شهر تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٧٥ ، عندما لاح ان لبنان قد يكون مقبلا على تغييرات جذرية في نظامه السياسي ، وبدا ان التدخل السوري بات محتمل الوقوع . اطلق العديد من المسؤولين الاسرائيليين الكبار تحذيرات لسوريا من الاقدام على التدخل في لبنان ، واعلن رابين في منتصف الشهر « ان اسرائيل مهتمة ببقاء لبنان كماهو ،بالصيغة السياسية والنظام الداخلي القائمين فيه ، وان كلمحاولةلاحتلال لبنان «تمس أمن اسرائيل » (٢) ٠ وشرحت افتتاحية « هارتس » ، الصادرة في اليوم التالي ، ان رئيس الحكومة استهدف تذكير كل من يهمه الامر « ان اية محاولة لتقويض النظام في لبنان ستثير بالضرورة شكوكنا وتزيد في قلقنا » ، وان « ما ينطبق على لبنان ، كما هو ، مماثل لما ينطبق على الاردن » (٣) ٠

وفي نهاية الشهر وبداية تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٧٥ ، كرر المسؤولون الاسرائيليون تحذير سوريا من التدخل ، وهددوا بالاقدام على خطوات عسكرية في حال حدوث ذلك ٠فصرح رئيس الوزراء الاسرائيلي ، يتسحق رابين، ان «اسرائيل قد تجتاز حدود لبنان بقوات عسكرية اذا ما تدخلت سوريا ، او اية دولة عربية اخرى ، اذ سيقوم عندها عدو محتمل جديد لاسرائيل على الحدود الشمالية » (٤) وصرح رئيس اركان الجيش الاسرائيلي ، مردخاي غور ، انه « سيكون من الضروري التمييز بين وضع يبقى فيه لبنان مستقلا ، وبين تغيير جغرافي ـ سياسي ٠٠٠ وسيكون الوجود العسكري السوري في لبنان بمثابة تغيير جغرافي ـ سياسي للوضع ٠ وستضطر اسرائيل ، بما في ذلك الجيش الاسرائيلي ، الى الرد » (٥)٠ كما صرح السفير الاسرائيلي في واشنطن ، سمحا دينيتس ، « ان اسرائيل تدرس بجدية القيام بعمل عسكري ، اذا تدخلت اية دولة عربية في النزاع في لبنان » (٦) ٠

ولكن سرعان ما اتضح لاسرائيل ان الولايات المتحدة تنظر الى الامور بصورة مختلفة ، وان الموقف الاميركي ، الذي دفع اسرائيل الى حشد قواتها على الحدود السورية في عام ١٩٧٠ لردع السوريين عن الوصول الى عمان ، يتحرك هذه المرة بصورة مغايرة ٠

وقد ذكرت صحيفة « هارتس » الصادرة في ٢٠ـ١٠ـ٧٥ ، ان الولايات المتحدة حذرت اسرائيل من التدخل في لبنان في حال حدوث تدخل سوري ، وابلغتها انها تنتظر عدم قيام اسرائيل باي عمل قبل التشاور مع الولايات المتحدة في حال

حدوث ذلك · واعترف ممثل اسرائيل في الامم المتحدة ، حاييم هيرتسوغ ، فيخطاب القاه في الجمعية العمومية في تشرين الثاني ١٩٧٥ ، رداً على كلمة مندوب م·ت·ف ان انقاذ لبنان ، كما تم انقاذ حسين بمساعدة اسرائيل في سنة ١٩٧٠ ، « يتوقف على نوايا واشنطن »· واضاف ان هناك شكا فيما اذا كانت واشنطن فورد مستعدة لتكرار مناورة نيكسون (٧) ·

وفي ضوء هذا الاختلاففي الموقف الاميركي، بدأ الموقف الاسرائيليفيالابتعاد عن التعامل مع الاحداث في لبنان كما تم التعامل مع احداث الاردن في عام ١٩٧٠· وقد تمثل هذا الابتعاد ، اول ما تمثل ، في الموقف تجاه احتمال التغيير في النظام الداخلي اللبناني · فقد صرحرئيس الاركان الاسرائيلي ، مردخاي غور ، في النصف الثاني من تشرين الثاني ١٩٧٥ ، انه « اذا ما بقي لبنان مستقلا ، يعتبر ما يجري فيه مسالة سياسية ، سواء حكمه المسيحيون ام المسلمون » (٨) · وعاد فكرر في كانون الثاني (يناير) ١٩٧٦ ان اي تطور في لبنان ،« حتى ولو لم يكن محببا لنا » ، لا يهم اسرائيل·واضاف انه لا يعتقد « ان حدوث اسلمه ، او تغيير في الاقلية او الاكثرية ، امر حسن ، ولكنه ليس من شأننا » (٩) ·وصرح وزير الخارجية ، يغئال الون ، في نفس الشهر ، انه لا يعتقد « انه يتوجب علىاية دولة اجنبية ان تتدخل في الوضع الداخلي في لبنان · وان اسرائيل لا تنوي فعل ذلك » (١٠) · واعقبه بيرس في اليوم التالي ، فادعى انه « لم يخطر ببالنا قط ان نتدخل فيما يجري في لبنان » ، وذلك اذا لم يحدث تدخل اجنبي (١١) ·

كما تمثل هذا الابتعاد عن نمط عام ١٩٧٠ ، ثانيا ، في تغير اللهجة والعبارات المستخدمة ازاء التدخل السوري ، في البداية ، ثم في تراجع تدريجي عن المواقف « القاطعة » المعلنة بهذا الخصوص ، فيما بعد · ونورد فيما يلي نماذج من تصريحات المسؤولين الاسرائيليين توضح تطور الموقف الاسرائيلي بهذا الصدد·

في النصف الاول من كانون الثاني ١٩٧٦ ، صرح غور ان اي تطور داخلي لبناني ليس من شان اسرائيل ،« بيد ان دخول قوات اجنبية ··· ربما يقتضي اعادة نظر » (١٢) · وصرح بيرس « ان اسرائيل لا تستطيع ان تقف لا مبالية ازاء اي تدخل سوري في لبنان ، مهما كانت دوافعه ·وسيقتضيها ذلك (انحدث)درس خطواتها » (١٣) · وصرح رابين « انه اذا تدخلت قوات اجنبية في لبنان ، فلن تكون اسرائيل في وضع تستطيع معه احتمال ذلك » (١٤) ·

(جوهر الموقف الاسرائيلي الرافض للتدخل السوري ، مهما كانت دوافعه ، لا يزال قائما · ولكن حلت محل العبارات من نوع « ان اسرائيل قد تجتاز حدود لبنان بقوات عسكرية الخ ، العبارات من نمطان ذلك « ربما يقتضي اعادة نظر» او ان اسرائيل لن تكون في وضع تستطيع معه احتمال ذلك الخ) ·

وفي النصف الثاني من كانون الثاني ١٩٧٦ ، دخلت قوات نظامية تابعة لجيش التحرير الفلسطيني من سوريا الى لبنان للمشاركة في القتال ضد قوى المعسكر الانعزالي • وتجنب المسؤولون الاسرائيليون الادلاء بتصريحات مباشرة حول الحدث ، واكتفوا بالتعليق عليه بصورة غير مباشرة • فصرح مردخاي غور « ان هناك اثباتات كافية على ان السوريين غير مستعدين اليوم للتدخل في لبنان اكثر من اللازم » (١٥) • واعقبه وزير الدفاع في اليوم التالي فصرح « ان مصادره لم تذكر شيئا عن دخول قوات سورية الى لبنان » (١٦) ، وعاد فقال بعد ايام ان الحكومة الاسرائيلية « لا تتوقع غزوا سوريا للبنان » (١٧) • وادلى وزير الخارجية يغئال الون ، قرب نهاية الشهر ، ببيان في الكنيست بخصوص الوضع في لبنان ، ذكر فيه : « اوضحنا جيدا ، في اثناء الحرب الاهلية في لبنان ، سواء عن طريق تصريحات علنية او عن طريق وسائل فعالة اخرى ، ان غزو جيش سوري للبنان سيشكل اضرارا بالغا بالمصالح الحيوية الاسرائيلية • ولا شك – ولا اقول ذلك على سبيل الافتراض غير المرتكز الى اساس – في ان ايضاحاتنا ، باننا سننظر بخطورة كبيرة الى غزو كهذا ، شكلت ، ولا تزال تشكل ، عاملا مهما – ان لم يكن الاهم – في ردع سوريا عن غزو لبنان ••• وهذه التوضيحات التي ادلينا بها لا تزال قائمة كما هي » (١٨) •

(فضلت اسرائيل عدم اعتبار جيش التحرير الفلسطيني « جيشا اجنبيا » ينبغي التعامل معه وفقا للموقف المعلن سابقا ، وعدم اعتبار دخوله ، رغم قناعتها بعكس ذلك ، « خطوة عسكرية » سورية ، وتمسك وزير الخارجية بالاعتقاد ان مصداقية الردع الاسرائيلي لم تمس)•

وفي اذار (مارس) ١٩٧٦ حدثت جملة من التطورات الهامة – انهار الجيش اللبناني ، واعلن عن قيام جيش لبنان العربي ، ودخلت قوات اضافية من جيش التحرير الفلسطيني ، ودخلت – اخيرا – قوات عسكرية سورية • وبدا ان سوريا هذه المرة ، تجاوزت « الخط الاحمر » الاسرائيلي • ولكن التخوف من تحرك رادع اسرائيلي لم يتجسد ، وصرح رئيس الاركان ، مردخاي غور ، ان « ••• السوريين نشيطون في اطر مختلفة في لبنان ، ولكن لم نصل بعد الى وضع يعمل فيه الجيش السوري في لبنان كجيش سوري • واذا ما اتى يوم ودخل جيش سوري الى لبنان ، سنقرر ما نفعله » (١٩) • وصرح وزير الدفاع ، شمعون بيرس ، «ان الجيش السوري لم يدخل بكامل قوته الى لبنان ، نظرا الى ان اسرائيل اعلنت انها ستتخذ ، في هذه الحالة، تدابير الامن التي ترتئيها» (٢٠) • وتحدثت الصحف الاسرائيلية عن وجود « خط احمر» ابلغت الحكومة الاسرائيلية المسؤولين السوريين ، بواسطة واشنطن ، انها لن تسمح لقواتهم بتجاوزه • وفسر العديد من المراقبين « الخط الاحمر » بانه يعني نهر الليطاني •

(تراجعت اسرائيل عن موقفها « القاطع » برفض التدخل السوري ، « مهمـا كانت دوافعه » ، وحاول المسؤولون تغطية الارتباك الناشيء عن اقدامهم على هذه الخطوة بعبارات من نمط « ان السوريين نشيطون في اطر مختلفـة » و « الجيش السوري في لبنان لا يعمل كجيش سوري » و « الجيش السوري لم يدخل بكامـل قوته الى لبنان » الخ) ·

وفي حزيران ١٩٧٦ دخل الجيش السوري الى لبنان ، «كجيش سوري» ،وبقوة وقام ببعض النشاطات في العرقوب (اي جنوبي الليطاني) ، وقررت الدول العربية ارسال قوة امن عربية الى لبنان · وفي هذه المرة كان لدى اسرائيل استعداد للقبول بالتدخل العسكري السوري ، واخذت تصوغ مواقف جديدة ، اكثر عمومية فيـما يتعلق بالتدخل السوري او العربي ، ولكن اكثر تحديدا فيما يتعلق بجنوب لبنان ، الذي يبدو انه اصبح المحط الرئيسي لاهتمامها · فقد صرح يغئال الون ، فيحزيران ١٩٧٦ ، ان اسرائيل لم تتحدث اطلاقا عن « خط احمر » كخط عرض جغرافـي (يقصد نهر الليطاني) ، بل ان « الخط الاحمر » هو مزيج من عدة عوامل ، كحجم التوغل السوري ، وحجم القوة العربية التي سترسل الى لبنان · ويشمل ايضـا عناصر اخرى كمدة بقاء القوات الاجنبية في لبنان ، وصورة التشكيل الجديـد لمنظمة التحرير الفلسطينية هناك ، بعد التوصل الى وقف اطـلاق النار (٢١) · واقتصرت تصريحات المسؤولين الاسرائيليين اللاحقة لهذا التاريخ ، فيما يتعلـق بالتدخل العسكري السوري ، على تحذير سوريا « من التمادي في بسط نفوذها على لبنان ، وبالتالي ضمه باكمله اليها ، او ابتلاع اجزاء منـه » (٢٢) ، (الون) ، وايضاح ان سوريا وعدت الولايات المتحدة بعدم ادخال قوات سورية الى جنـوب لبنان (٢٣) ، (رابين) ،والتحذير مـن السماح لـ م·ت·ف بالعمل ضد اسرائيـل من الاراضي اللبنانية (٢٤) · (دينيتس) ، وقد توصل الصحفي الاسرائيلي ماتي غولان ، في مقالة نشرها في هآرتس اثر التدخل السوري المكثف ، وغياب رد فعـل اسرائيلي معاد له ، الى النتيجة ان « الخـط الاحمر »قد تلاشى عمليا ،وحلتمحله مجموعة مقاييس مطاطة · (٢٥) ·

وفي صدد تفسير هذا التحول الكامل في الموقف الاسرائيلي بخصوص التدخـل السوري من النقيض الى النقيض ، نجد في متناول اليد التحول المعروف فـي التوجه السوري في لبنان ، من تحالف مع القوى الوطنية اللبنانية و م· ت· ف الى استخدام القوات العسكرية السورية لاخضاعهما ، وسحق القـوى المسلحـة التابعة لهما ·ونجد ايضا ، بصورة اقل ظهورا ، الموقف الاميركي ، الذي لعب الدور الاساسي في كبح ردود فعل اسرائيلية متطرفة قبل آذار ١٩٧٦ ، اي قبل ان يبدأ التحول في الموقف السوري يتخـذ اشكالا ملموسة ، ولعب دورا هاما بعد ذلك في تطمين الاسرائيليين · ففي تشرين الاول ١٩٧٥ ، حذرت الولايـات المتحـدة

اسرائيل من التدخل في لبنان في حال حدوث تدخل سوري (٢٦) · وفي كانون الثاني ١٩٧٦ ، على اثر دخول قوات جيش التحرير الفلسطيني الى لبنـــان ، رفضت الولايات المتحدة تاييد صيغة تحذير اسرائيلي لسوريا من التدخل في لبنان ، المسح الى ان الجيش الاسرائيلي قد يرد على خطوة كهذه (٢٧) · وفي اذار ١٩٧٦ ،في اعقاب انهيار الجيش اللبناني ودخول قوات سورية الى لبنان ، رفضت الولايات المتحدة بعد مشاورات جرت بين المسؤولين في الخارجية الاميركية ومجلس الامـن القومي ، طلبا بان تظهر الولايات المتحدة « نشاطا اكبر في تثبيت الحكم في لبنان ، وحماية النفوذ المسيحي » ، ومارست ضغطـــا على اسرائيـل للمحافظـة على الاعتدال (٢٨) · وكتب ناحوم بارينغ ، مراسل دافار في واشنطن ، في صحيفته ، ان واشنطن طلبت من الحكومة الاسرائيلية « عـدم الادلاء بتصريحات ، وعدم جعـل لبنان موضوعا للدعاية » · واضاف ان الطلب نفذ بصورة او باخرى (٢٩) · وفي حزيران ١٩٧٦ ، في اعقاب الدخـول العسكري السوري المكثف ، كـرر وزيـــر الخارجية الاميركي على مسامع السفير الاسرائيلي في واشنطن التقدير الاميركي « ان اسرائيل تحسن صنعا بعدم التدخل في لبنان ، في هذه المرحلة ، وبالابقاء على الملامح العربية للامور »(٣٠) · وفي اب ١٩٧٦ ، عقب توقيع الاتفاقية بين سوريا ومنظمة التحرير الفلسطينية ، اجتمع كيسنجر بالسفير الاسرائيلي في واشنطن، وحاول ان يبدد مخاوف اسرائيل من سيطرة سوريا على جنوب لبنان ، ومن توقيع اتفاق بين سوريا و م.ت.ف يسمح باستئناف الاعمال « التخريبية » عبـر الحـدود اللبنانية · واضافت صحيفة دافار ، التي نشرت هذا النبأ ، ان كيسنجر اوضـــح للسفير الاسرائيلي انه ، بحسب التقديرات الاميركية ، لا يوجد احتمال كبير لان يدخل الاتفاق المشار اليه حيز التنفيذ (٣١) · وقد اعترف وزير الدفاع الاسرائيلي، شمعون بيرس ، في مقابلة اجرتها معه صحيفة معاريف في آذار ١٩٧٦ ، بصـورة غير مباشرة ، بالتاثير الهام للموقف الاميركـــي على السياسة الاسرائيلية ازاء احداث لبنان ، عندما اجاب ردا على سؤال واضح ، لماذا اختلف موقف اسرائيل سنة ١٩٧٦ عنه في سنة ١٩٧٠ ، قائلا : « الذي حدث في سنة ١٩٧٠ يختلف تماما عما يحدث الآن · كان هناك ، آنذاك ، تهديـــد سوري للاردن ، وكان الاردنيـــون مستعدين للتصدي ومقاومته · وقد وقف الاميركيون الى جانب الاردن ، وفعـلوا اكثر مما صرحوا · واليوم ، كل شيء مختلف · فليس من الواضح تماما ماذا يريد فرنجية · فقد نشأ الانطباع انه بين عرفات والاسد ـ فانه يفضل الاسد ، ولا يلاحظ تحفظ اميركي من محاولات الوساطة السورية » (٣٢) ·

اما بعد اذار ١٩٧٦ ، فبات واضحا ان ضبط النفس الاسرائيلي ، والتوجه نحو القبول بالتدخل السوري ،اخذ يعكس قناعات ذاتية اسرائيلية · فازاء ازدياد موجة القلق والتوتر في المستوطنات الاسرائيلية ، نتيجة التطورات في ذلك الشهر ، اعلن بيرس انه على اسرائيل « التصرف بضبط النفس ، وعدم الانجرار وراء عمـــل

متسرع » ، واضاف : « ان التغييرات الاخيرة في لبنان اثبتت ان المصلحة السورية تتناقض مع مصلحة المخربين » (٣٣) . واوضح بعد ايام « انه ليس من الواضح ابدا لاسرائيل نفسها ، بان التدخل من اجل عرفات ، وضد فرنجية والاسد ، سيكون سليما ، ولمصلحة قضيتها » (٣٤) . وكتبت دافار في افتتاحيتها ، في ١٢-٤-٧٦ ، ان « اسرائيل مهتمة ببقاء لبنان ضمن توازن داخلي ما ،وبالمحافظة على سلامة الطائفة المسيحية ونفوذها في تركيب القوى ، وانتخاب رئيس ليبرالي.

وليس بالامكان ضمان كل ذلك ، في ضوء ميزان القوى ، كما اصبح داخل لبنان . ويحسب جميع الدلائل ، تسعى سوريا ... لتحقيق هذه الاهداف ». وتابعت « انه ما دام هذا دورها ، وما دامت هذه هي الاهداف السورية ، فلا مصلحة لاسرائيل في القضاء عليها ». وربما كان رئيس الحكومة ، اسحاق رابين ، ابلغ واصرح من الجميع ، عندما صرح «انه على اسرائيل الا توقف الثور السوري ، ما دام يدرس على الفلسطينيين » (٣٥) .

واذا قمنا بمحاولة لتجميع وتركيز التفسيرات الواردة في الصحافة الاسرائيلية لدوافع الموقف الاميركي ، والموقف الاميركي - الاسرائيلي المشترك ، فاننا نحصل على الصورة التالية : رغبة ادارة فورد في تجنب الانجرار الى التورط في مغامرة عسكرية في الشرق الاوسط ، خصوصا في سنة الانتخابات الاميركية (٣٦). التخوف من تعريض الاتفاق المرحلي بين اسرائيل ومصر ، وهو واحد من اهم انجازات السياسة الاميركية في الشرق الاوسط ، للخطر (٣٧) ، توقع ان يؤدي التدخل السوري في لبنان ، على ضوء الخلافات العربية (وخصوصا بعد اصطدام سوريا بالمقاومة الفلسطينية)، الى اضعاف سوريا ، وهذا قد يجعلها ، بالتالي ،« مستعدة للتوقيع على اتفاق اخر في الجولان بشروط ملائمة » (٣٨) . التقويم الاميركي « بان الاسد ، على الرغم من علاقاته الوثيقة بالسوفيات ، يتبع سياسة براغماتية متزنة ، تنطوي على تعاون مع الانظمة المحافظة والمعتدلة في العالم العربي ، مثل الاردن والسعودية وعلى صدام مع الفلسطينيين » (٣٩) ، التوجه السوري ، بعد شباط ١٩٧٦ ، الى تدعيم الطائفة المارونية والمحافظة على نفوذها في تركيبة القوى اللبنانية الداخلية ، وسد الطريق امام تغيير النظام القديم تغييرا جذريا (٤٠) . التوجه السوري ، بعد اذار ١٩٧٦ ، الى تحجيم المقاومة الفلسطينية ، وضرب قوتها العسكرية (٤١) . الامل في ان يؤدي التنسيق السوري - الاردني ، وجملة التطورات الاخرى ، الى تعزيز« امكان حل هاشمي للقضية الفلسطينية . اي دمج الكيان الفلسطيني (بما في ذلك الضفة الغربية) في الاردن ، وليس اقامة دولة فلسطينية مستقلة » (٤٢).

وينبغي الا يفهم من السياق الذي اتبع لعرض الموقف الاميركي ، والمعلومات

الموردة حوله ، ان الولايات المتحدة كانت جازمة ان سوريا ستقـدم ، فـي مرحلة متقدمة من الحـرب اللبنانية ،عـلى ضرب المقاومة والحركة الوطنيـة اللبنانية ، وبالتالي شجعت تدخلها العسكري وعملت على ازالة « العراقيـل » الاسرائيلية من طريقه ، او انه كان هناك تامر خفي بين الولايات المتحدة وسوريا لتحقيق ذلك • فقد مرت فترات وجهت فيهـا الولايات المتحـدة الى سوريا ايضا تحذيرات شديدة من التدخـل العسكري في لبنان ، والارجح ان سوريا انساقـت الى سلوك الطريق الذي اتبعته لاعتبارات لا نرغب هنا في الخوض فيها ، منهـا الرغبة في الحصول على « الضوء الاخضر » الاميركي ، وبالتالي الاسرائيلـي ، لاكمال الشوط الذي بدأت السير فيه •

ولكن اذا كانت اسرائيل قد ابدت مرونة بخصوص موضوع التدخل العسكري السوري ، فان موقفهـا بخصوص موضوع جنوب لبنان ، وامكان عـودة الفدائيين الى ممارسة نشاطهم من الاراضي اللبنانية ضدها ، اتسم بالتشـدد والتصعـيد • وزاد من خـطورة هذا الموقف اقدام اسرائيل في المجنوب عـلى ممارسة نشاطات عـسكرية واقتصادية وسياسية مكشوفة توقت خلق وضـع جديد في الجنوب يخـدم اهدافها • وسنقتصر هنا عـلى عرض الموقـف الاسرائيلي الرسمي من موضوع الجنوب والنشاط الفدائي من لبنان ضـد اسرائيل ، عـلى ان نتطرق للنشاطات العملية لاحقا ، في سيـاق الحديـث عن الدور الاسرائيلي • ففي كانون الثاني ١٩٧٦ ، فـي اعـقـاب دخـول قوات من جيش التحرير الفلسطيني الى لبنان ، اعـلن وزير الخارجية ، يغـئـال الون ، في الكنيست « انه قد ازداد خطر ان تحاول منظمات الارهاب والتخريـب السيطرة عـلى الجزء الجنوبي من لبنان » ، و« اننا لن نسلم بهـذا الخـطر ، ولن نتجاهله اذا تجسد » و« سنستمر في الاحتفاظ بحقنا في الاقدام عـلـى الخطوات اللازمة ، بحسب ما تفرضه الظـروف ، مـن اجـل ضمانـة مصالحنا الامنية في مناطق الحدود ، وسلامـة سكانهـا » (٤٣) • وفـي حزيران ١٩٧٦ ، عـاد الون فصرح «ان اسرائيل لا تستطيـع ، باية حـال ، الموافقة عـلى اعـادة تشكيل المخربين فيلبنان ، بعد انتهاء المعـارك ، ولـن نسلم بتجدد اعمالهم ضدنا » • واضاف « ان اسرائيل لن تتحمل ايـة عـودة لفترة المواجهة مع المخربين على طول الحدود اللبنانية » • (معاريـف ١٥/٦/٧٦) • وفي ايلول ١٩٧٦ ، كرر الون الموقف نفسه بتشديد اكبر قائلا « انـه يجب ان يكون واضحـا ، دون ايظل لشك ، ان اسرائيل لن تسمح بحـل لصراع الداخـلي اللبناني عـن طريق تفويض م.ت.ف بالسماح لها بالعمل ضد اسرائيل من الاراضي اللبنانية • ومن المحظور السماح لـ م.ت.ف بالسيطرة مـن جديد على مناطق او قواعـد قريبة من الحدود ، بغرض ممارسة نشاط ضـد اسرائيل • واعتقد ان سياستنا ، حتى الان ، تكسبنا رصيدا كافيا لان يجعـل رد فعـلنا مفهوما اذا حاولت م.ت.ف اعادة الوضع الى صورته السابقـة » •

٠٠٠ فالوضع الذي كان قائما في السابق لـن يعود بعد » (٤٤) ٠ اما شمعـون بيرس ، فقـد صرح من ناحيته ، في اب ١٩٧٦ ، ان الحدود مع لبنان هـي الحدود الاسرائيلية الوحيدة والثابتة والمعترف بها دوليا ، وان هناك « فراغـا عسكريا » في جنوب لبنان ، و« قد قام نموذج للتعايش ، مفعـم بالتفاهم والتقدير المتبادلين بين سكان اسرائيل ، وسكان جنوب لبنان »(٤٥) ٠ واوضح لاحـقا « ان تقلص وجود مـتف في المنطقة ترجمتـه اسرائيل الى نموذج مدروس للجوار ٠٠٠ وتبين ان السكان يريدون عـلائق تختلف عـن تلك التي فرضت عـليهـم من فوق ، ومن قبل عـناصر خارجية »٠ واضاف« ان في وسع لبنان التأكد ان اسرائيل ستمكنه ٠٠٠ من التخلص من القاس التي تسلطها عليه مـتف » (٤٦)٠ وعـاد بيرس فكرر ، بعـد مؤتمر القمة العربية في القاهرة ، ان اسرائيل تعترف بحدود لبنان ولا تنوي تغييرها ، ولكنها ستنظر بخطورة شديدة جدا الى دخـول «مخربين» الى جنوب لبنان ، وستبذل اقصى جهدها لكي يستمر الوضـع الحالـي فيه ٠(٤٧) ٠

ومغزى تصريحات بيرس الاخـيرة هذه هو ان اسرائيل لم تعـد تكتف حتـى بمنع الفدائيين من العـودة الى الجنوب ، وانما تتطلع الى تثبيت « الوضـع الحالي »، الذي تسيطر فيه الميليشيات الانعـزالية عـلى معظم الجنوب اللبناني، وتقوم في اطاره شبكة من العـلاقات بين اسرائيل وقطاع كبير من السكان٠

هذا بخصوص الموقف ازاء الوضع في الجنوب ٠ وتبقى امامنا مسالة تتعلق بالموقف الاسرائيلي العـام ، لا يكتمـل فهمنا لدور اسرائيل دون توضيحهـا ، وهي انه وجدت هناك ، في الحقيقة ،طوال فترة الحـرب ، اوساط سياسيـة واسعـة لم تكن مرتاحـة لتسليم اسرائيل بالتدخـل العسكـري السوري ، او ساورتها الشكوك حول الرضى الذي ساد الاوساط الحاكمة في اسرائيل نتيجـة التطورات في لبنان ٠ وقد عرضت رئيسة تحرير صحيفة دافار، منازيمر ،في مقال نشر مؤخـرا ، الاسباب التي تجعـل من هـذا الرضى،بحسب رأيها امـرا مشكوكا في سلامته ، فقالت ان المركز المتفوق الذي اكتسبته سوريا في لبنـان ينطوي عـلى مغزى عسكري واضح ، ليس ايجابيا من زاوية اسرائيل في حـال مواجهة مع سوريا ، ويشكل تحولا نحـو الاسوأ في وضع اسرائيل الاستراتيجي عـلى الحدود الشمالية ، وانه ليس هناك اساس للافتراض ان سوريا ستـرى نفسها ملزمة بتقديم مقابل لاسرائيل من نوع اتفاقية سيناء ، وانه مقابل الوضـع العسكري الخطير الذي سيقت اليه مـتف ، اكتسبت قواتها خبرة عسكريـة عملياتية ، في وحدات نظامية مقابل وحدات نظامية ، وهي خبرة لم تكن لديهـا من قبل ، وان المشكلة الفلسطينية لم تصغر نتيجة حرب لبنان ، بل على العكس ، ازداد الدافع العربي لايجـاد حـل سياسي للمشكلة ، وسيشغـل مكانة اعـلى في سلم الافضليات العربية مما كان في السابق ، واخيرا ان احساس الفلسطينيين

بانهم مواطنون من الدرجة الثانية في كل مكان في العالم العربي قد ازداد نتيجة الحرب ، وان المعاناة والهزائم والمواجهات لا بد وان تكون ادت الى تقوية تميزهم القومي واحساسهم بهويتهم المستقلة ـ وكل هذا ليس « حسنا لليهود (٤٨) » ٠

الدور الاسرائيلي

قد يكون من المستحيل في الفترة الراهنة ، وربما لسنوات طويلة قادمة ، الاحاطة الشاملة بالدور الذي لعبته اسرائيل في الحرب اللبنانية ، او معرفة جميع تفاصيله ٠ وعندما نتحدث عن الدور الاسرائيلي هنا ، فاننا نعني بذلك بعض الخطوط العامة ، وما كشف الستار عنه ٠ ونبتديء بالاعم ، ثم ننتقل الى الاخص ٠

اننا نعتقد ، دون الدخول في الشرح ، ان الموقف الاسرائيلي ، في حد ذاته ، لعب دورا هاما في تطور التوجه السوري فيلبنان على النحو المفجع الذي ال اليه ٠ كما تشير الدلائل الى ان الموقف الاسرائيلي ردع ، وسيردع اجمالا ، السوريين عن الدخول الى جنوب لبنان٠

ولكن هذا يظل تدخلا غير مباشر ، والاخطر منه التدخل المباشر على صعيد المساعدة العسكرية التي قدمتها اسرائيل للفريق الانعزالي عموما ، وللقوى الانعزالية في الجنوب خصوصا ، اضافة الى المخطط الجاري تنفيذه حتى الان في جنوبي لبنان ، وباشراف مباشر من الاسرائيليين ، وتنسيق معهم ٠

لقد حرصت اسرائيل على احاطة موضوع التعاون العسكري مع الفريق الانعزالي بالكتمان الشديد ، ويبدو ان هناك رقابة على الصحف الاسرائيلية بهذا الخصوص ، اذ تنشر الصحف الاسرائيلية انباء هذا التعاون دوما نقلا عن الصحف الاجنبية ، ودون اضافات ٠ وقد بدأت الصحف الاجنبية ، اعتبارا من اب ١٩٧٦ بالاخبار عن هذا التعاون واشكاله ٠ اتخذت المساعدة العسكرية الاسرائيلية للفريق الانعزالي الاشكال التالية : التعاون مع القوات البحرية السورية والانعزالية في فرض حصار بحري على مرفأي صور وصيدا ، لقطع طرق امداد الحركة الوطنية والمقاومة الفلسطينية بالسلاح والذخيرة والمواد الحيويه ٠ وقد تم في نطاق هذا الحصار مهاجمة واسر واغراق العديد من السفن بواسطة سلاح البحرية الاسرائيلية (٤٩) ، امداد الفريق الانعزالي بالسلاح والذخيرة والاعتدة الحربية ، واقامة دورات تدريبية لتشكيلات وأفراد تابعين للقوات الانعزالية داخل اسرائيل (٥٠) ٠ مساعدة تشكيلات وافراد تابعين للقوات الانعزالية على الانتقال من مناطق السيطرة الانعزالية في

وسط لبنان وشماله الى جنوبه عن طريق البحر ـ اسرائيل الجنـــوب (٥١)، الاجتماع بقادة الفريق الانعـزالي من اجل التنسيق ووضع الخـــطط (٥٢) ، مساندة هجمات القوى الانعزالية في الجنوب عـلى قرى الحركة الوطنية وثكنات جيش لبنان العربي بالمدفعية ، وربمـا بالاليات والجنود (٥٣) ·

اما بالنسبة لجنوب لبنان فتمارس فيه اسرائيل نشاطا ذا شقين : الشق الاول يندرج تحت ما اصطلح عـلى تسميته « بالسياج الطيب »، والشق الثاني استهدف بناء قوة عسكرية مشكلة من القوى الانعـزالية المحلية لملء « الفراغ العسكري» في الجنوب ، ومساعدة هذه القوة على السيطرة على الجنوب باكمله ·

وقد قدمت اسرائيل في سياسة « السياج الطيب » خدمات طبية ومعونـات غذائية وسمحت للمزارعين اللبنانيين ببيع التبغ داخل اسرائيل ، وللتجار بشراء المواد التموينيةوالسلعالحيوية الاخرىوفتحتامام الراغبينمجالا للعملفياسرائيل ثم مجالالزيارة·وقد ركزتاسرائيل فيدعاياتها على الدوافع الانسانية التي حـدت بها الى فتح بوابات « السياج إللطيف » امام اللبنانيين المحتاجين الى المعونة ، ولكن وزير التجارة والصناعة ،حاييم بارليف ، اعترف ان لاسرائيل مصلحـة سياسية في مساعدة «جيرانها» (٥٤) · وكان اتيان هيفـر ، احـد كتـاب صحيفة « يديعـوت احرونوت »، اكثر صراحـة عـندما قال « انه مع كل الاحترام والتقدير للجانب الاخـلاقي ـ الانساني ، الذي تنطوي عـليه المساعـدة لقرى جنوب لبنان ، فليس العـلاج الطبـي ، والعـمل ، والتموين ، وحتـى البريد وزيارات الاقارب ، الا منتوجات فرعية ، والهدف الحقيقي ··· هـو خلق وضع جديد في المنطقة ، عـلى الحدود الفاصلة بين الدولتيـن (٥٥) » · وصاغ يوئيل ماركوس ، من كتاب صحيفة «هارتس » ، بدقة اكثـر الهـدف الاسرائيلي من وراء سياسة « السياج الطيب » بقوله : « وفي المرحلـة الثالثة، شنت اسرائيل ··· حملة مكافحة الفلسطنة في القطاع اللبناني المجاور للحدود الاسرائيلية ، مكافحة الفلسطنه ، اساسا ، في مشاعـر سكان المنطقة وتفكيرهم، وبينهم مسلمون معتدلون ابدوا استعدادا للتجاوب مع حملة من هـذا النـوع · وقد افادنا « السياج الطيب » على الصعـيد العـالمي ، ولكن اهميته الجوهريـة تكمن ، في الواقع ، فـي الالتزام الثنائي الذي تشكل على جانبي الحـدود، للمستقبل (٥٦) » ·

وفي مجال بناء القوة العسكرية الانعـزالية ، صرح وزير الدفاع ، شمعـون بيرس ، في اوائـل تشرين الثاني ١٩٧٦ ، انه اصبح للمسيحيين والشيعـة في جنوب لبنان جيش تعداده حوالي الفي جندي ·واضاف ان هذه القـوة معنيـة بالمحافظة على جنوب لبنان «نظيفا» من المخربين ، وهي قادرة عـلى فعل ذلك ، وعلى تحويل هـذه المنطقة الى حاجز امام التدخل الاجنبي التخريبي والسوري· واوضح بيرس انه من الهـام جدا الامتناع عـن خـلق الانطباع بان هذا الجيش

يعمل بتوجيهات اسرائيلية (٥٧) ٠

ان هذه التصريحات والكتابات ، اضافة الى التصريحات التي اقتبسناها اعلاه من الموقف الاسرائيلي تجاه الوضع في جنوب لبنان ، توضح الهدف الرئيسي من وراء النشاط الاسرائيلي في الجنوب ـ خلق منطقة تعايش سلمي اخرى مع اسرائيل في جنوب لبنان ، واقامة حاجز امني في وجه الفدائيين الفلسطينيين ، مشكل من قوة عسكرية محلية فعلية ، وقائم على شبكة علاقات متشعبة تشتمل على الالتزام بابعاد الفدائيين ،وحتى السوريين عن الحدود ويمكن القول ان استكمال تحقيق هذا الهدف،سيكون المجال الرئيسي الذي سينصب عليه اهتمام اسرائيل في المرحلة القادمة ، بينما القوات السورية مشغولة باحكام طوق « السلام العربي » على لبنان ٠

المصادر

(١) يديعوت احرونوت، ١٩٧٦/٩/٢٠ ٠
(٢) معاريف ، ٧٥/١٠/١٥ ٠
(٣) هارتس ، ٧٥/١٠/١٦ ٠
(٤) هارتس ، ٧٥/١٠/٣١ ٠
(٥) هارتس ، ٧٥/١١/٢ ٠
(٦) معاريف ، ٧٥/١١/٣ ٠
(٧) هارتس ، ٧٥/١١/٣ـ زئيف شيف
(٨) هارتس ، ٧٥/١١/٢ ٠
(٩) عال همشمار ، ٧٦/١/٢ ٠
(١٠) معاريف ، ٧٦/١/٢١ ٠
(١١) معاريف ، ٧٦/١/٢٢ ٠
(١٢) عال همشمار ، ٧٦/١/٢ ٠
(١٣) معاريف ، ٧٦/١/٨ ٠
(١٤) عال همشمار ، ٧٦/١/١١ ٠
(١٥) يديعوت احرونوت ، ٧٦/١/٢١٠
(١٦) معاريف ، ٧٦/١/٢٢ ٠
(١٧) دافار ، ٧٦/١/٢٥ ٠
(١٨) هارتس ، ٧٦/١/٢٩ ٠
(١٩) معاريف ، ٧٦/٣/٢٤ ٠
(٢٠) هارتس ، ٧٦/٤/٧ ٠
(٢١) معاريف ، ٧٦/٦/١٥ ٠
(٢٢) هارتس ٧٦/٧/١٦ ٠
(٢٣) دافار ، ٧٦/١١/٣ ٠
(٢٤) دافار ، ٧٦/٧/٣٠ ٠
(٢٥) هارتس ، ٧٦/٦/١١ ٠
(٢٦) هارتس ، ٧٥/١٠/٢٠ ٠
(٢٧) هارتس ، ٧٦/١/٢٣ ـ دان مرغليت ٠
(٢٨) دافار ، ٧٦/٣/٣٠ ٠
(٢٩) دافار ، ٧٦/٤/٢ ٠
(٣٠) يديعوت احرونوت ، ٧٦/٦/١٦ ـ نسيم كويتي
(٣١) دافار ، ٧٦/٨/١ ٠
(٣٢) معاريف ، ٧٦/٣/٢٦ ٠
(٣٣) يديعوت احرونوت ، ٧٦/٣/٢٢٠
(٣٤) معاريف ، ٧٦/٣/٢٦ ٠
(٣٥) هارتس ، ٧٦/٦/١١ ـ ماتي غولان ٠
(٣٦) هارتس ، ٧٦/٤/٢ ـ يوئيل ماركوس
(٣٧) هارتس ، ٧٥/١١/٣ ، زئيف شيف ٠
(٣٨) هارتس ٧٦/٦/١١ ـ ماتي غولان
(٣٩) هارتس ، ٧٦/٨/٣ ٠
(٤٠) دافار ، ٧٦/٤/١٢ ٠
(٤١) عال همشمار ، ٧٦/٩/١٥ ـ مردخاي غور
(٤٢) هارتس ، ٧٦/٩/٥ ـ زئيف شيف
(٤٣) هارتس ، ٧٦/١/٢٩ ٠
(٤٤) دافار ، ٧٦/٩/٢٤ ٠
(٤٥) يديعوت احرونوت ، ٧٦/٨/٢٥٠
(٤٦) عال همشمار ، ٧٦/٨/٢٧ ٠

(٤٧)دافار ، ٧٦/١١/٣ ٠
(٤٨) دافار ، ٧٦/١٠/٢٢ ٠
ـ اتيان هيفر ٠
(٥٠) «تايم (الاميركية) ، ٧٦/٩/١٣،
«شترن» (الالمانية) ٧٦/٨/١٢ ٠
(٥١) المصدر السابق ٠
(٥٢) « تايم » ، ٧٦/٩/١٣ ٠
(٥٤) عال همشمار ، ٧٦/٨/١٢ ٠
(٥٣) المصدر السابق ٠
(٥٥) يديعوت احرونوت ، ٧٦/٩/٥ ٠
(٥٦) هارتس ، ٧٦/٩/١٠ ٠
(٥٧) دافار ، ٧٦/١١/٣ ٠

الأفـكار والتحالفات ، والمبـادئ والمناورات

محجوب عمر

النضال الفلسطيني القومي ينمو عاما بعد عام ، ويتسع ليشمل اليـوم العالم كلـه ٠٠

وبينما يتركز الجهد المسلح العنيف من هذا النضال على ارض فلسطين المحتلة ، ويتناثر هنا وهناك احيانا ، فان الجهد السياسي والفكري لا يتوقف عند حدود الارض المحتلة وانما يتخطاها الى كل مكان حيث يعيش العرب ،وحيث ينتشرون في ارجاء الارض ، وحيث تسعى قوى الثورة الفلسطينية الى ضم كل الجهود المؤيدة لها ، حولها ، على اختلاف درجات هذا التأييد وتنوعه ودوافعه٠٠

وكلما تقدم النضال كلمـا ازددنا تعلما ، وازددنا حاجـة الى التعلم ٠ فنحن لا شـك نؤثـر بنضالنـا فيما حولنـا ، ولكننا ايضا لا بد نتأثر فـي نضالنا بما حولنـا ٠٠

فمع اتساع الجبهة العريضة العربيـة والعالمية التي تناصر قضيـة فلسطين وتشارك في نضالها بشكل او بآخر ، تطرح عشرات الاسئلة والقضايـا السياسية الفكرية نفسها امام المناضلين ، يطرحها احيانا حلفاء مخلصون واحيانا اخرى وسطاء محايدون ٠

وتتعدد الاجتهادات للاجابة على الاسئلة المطروحة ، وتبرز الاختلافات في وجهات النظر ، ويصبح حيويا ان لا تؤدي هذه الاختلافات الى تفتيت الجهود ، بل على العكس تكون محاولة الوصـول الى اجابـة واضحة وصحيحة سبيلا

الى مزيد من توحيد الجهود ··

بذلك يزداد الفكر الثوري تعمقا ووضوحا ، كما تزداد الارادة الثورية وحدة وتصميما ··



من بين عشرات القضايا والاسئلة الفكرية فان هذا المقال سيتوجه لمسألتين منها فقط ، تتعلقان بما تتعرض له الافكار والمبادىء ، النشاط اليومي وبالذات فيما يخص التحالفات والمناورات ·

فلا شك ان الاجتهاد التجريبي يحكم معظم التصرفات والاجراءات للعديد من قوى الثورة الفلسطينية على تلك الساحات والافاق الجديدة التي انفتحت امامنا بعد الانتصارات التي حققناها · فقد اتسعت رقعة التحالفات والصداقات لتشمل قوى معادية للصهيونية وان لم تكن معادية للكيان الصهيوني نفسه ، وقوى معادية للكيان الصهيوني وان لم تكن حتى الان مقتنعة بامكان الانتصار عليه ، وقوى اخرى واخرى ، نجح نضالنا المسلح المستمر المنتصر ان يفرض عليها وعلى جداول اعمالها قضية فلسطين ، وان يحاول كل منهم ، من موقع انتصاره لنا ، ان يطرح ما يراه من حلول وبرامج هي ، وان لم تكن في مستوى ما نطرح نحن ، كسب لنا لا شك ، فقد كانت كل هذه القوى تقريبا تناصر عدونا او تسلم بوجوده يأسا من جهودنا ·

لقد انتصرنا اذن ، وفتحنا بابا واسعا للتحالف مع اوسع القوى المعارضة للاستعمار والمعارضة للعنصرية والمناضلة من اجل التحرر الوطني بل وتلك التي تأبى عليها برامجها الاصلاحية ان تقف موقف اللامبالاة من نضال جماهيري مسلح يشغل بال العالم ليل نهار الا وهو نضال الشعب العربي الفلسطيني من اجل استعادة وطنه فلسطين ·

كل هذه القوى على اختلافها وتنوعها تحمل افكارا مختلفة عن بعضها وعنا ، ولها ايضا دوافع مختلفة عن بعضها وعن دوافعنا ، ولما كان واجبنا هو ان نعمق التحالف والصداقة مع هذه القوى كلها ، فان مسألة « الفكر والتحالفات » تطرح نفسها بشدة ، بل ان قوى كثيرة تجتهد الان اجتهاداتها الخاصة لحل ما يترتب على اختلاف الافكار من اختلاف في المواقف وتاثير ذلك على التحالف القائم بالفصل فقط او

بالاتفاق والفصل معا ·

مسألة ثانية تطرح نفسها بشدة خصوصا بعد حرب اكتوبر / تشرين ١٩٧٣· تلك هي مسألة المناورة «بالمبادىء» والتي وصلت الى درجة دفعت بعض القوى والتنظيمات لتغيير برامجها الاساسية واستبدالها ببرامج جديدة غامضة العبارات . تخلو من الشعارات والمبادىء الواضحة التي سبق لها ان تبنتها ·ان مسألة « المبادىء والمناورات » تبرز في ظل شيوع الاسلوب « البراجماتي » في عالم السياسة الدولية اساسا بحيث اصبحنا نسمع ونقرأ همسا وعلنا تبريرات التنازل عن المبادىء باعتبارها «شطارة» او «تكتكة » والهجوم على المتمسكين بها باعتبارهم شعراء او مثاليين او غير عمليين ·

هذه هي القضايا الفكرية التي سيحاول هذا المقال التعرض لها في محاولة لمزيد من الاتفاق او على الاقل مزيد من الوضوح ·



اولا : الفكر ··· والتحالفات :

ان كلمة تحالف تعني في نفس الوقت اختلافا ···

اذ لولا وجود قوى مختلفة المصالح والدوافع وبالتالي مختلفة الافكار لما تطلب الامر تحالفا بينها ضد عدو مشترك لها جميعا يهددها ويهدد مصالحها مجتمعة ·

فلو كانت القوى المتعددة التي تشترك فقط في معاداة عدو واحد لو كانت هذه القوى ذات مصالح واحدة واصول ودوافع واحدة لما احتاجت الى « تحالف » لكي تنسق جهودها معا ضد هذا العدو بل توجهت الى وحدة اندماجية فيما بينها ·

بمعنى آخر لو ان « المصلحة » واحدة ، والدافع واحد ، والظرف واحد لكل من هذه القوى المتحالفة ، لكان مستقبل تحالفها هو اندماج وانصهار فيما

★ تستخدم عبارة التحالف والتحالفات في هذا المقال بتحفظ بالنسبة للمعنى الشائع لها · اذ من الضروري التفريق بينها وبين الصداقة والتقاء المصالح مؤقتا التي تعطي مدلولا ادق على مواقع علاقات الثورة مع البلدان والشعوب والقوى غير العربية ·

بينها او انتصار لواحدة منها على غيرها بحيث ينتهي من يرفض هذه الوحدة وتنفض عنه الجماهير لتلتف حول « القوة » الانسب والاقدر والاكفأ والاسلم ممارسة ٠

الحديث الى هنا ٠ سهل ، وواضح ، ولا خلاف عليه ٠

ولكن المشكلة تبدأ عند وضع هذه الصيغة في التطبيق ، فكما ذكرنا يؤثر « الفكر » الداعي الى التحالف في افكار الحلفاء ويتأثر بها ايضا خلال العمل اليومي ٠ وينعكس هذا التأثير على افكار العاملين بها مع العاملين بافكار اخرى ، وتبرز اتجاهات تدعو الى مهادنة فكرية ، تتمشى مع التحالف السياسي والعملي ٠ وتكون هذه الدعوات ثغرة خطيرة في « افكار » المناضلين تؤدي الى عدم التشدد في جلاء ووضوح الافكار والتمييز بينها والحفاظ على تمايزها ٠ وينتهي هذا التمييع الى انحراف الخط السليم وفقدانه القدرة القيادية في التحالف ولان يصبح « ذيلا » لقوى اخرى هي الاقل منه تعبيرا عن المصلحة، ونضالا من اجل الهدف ووضوحا في الطريق الى تحقيقه ٠٠

ولنضرب امثلة على ذلك ٠٠ ان قوى الثورة الفلسطينية مثلا تؤمن بتحرير كامل التراب الوطني الفلسطيني بحرب الشعب الطويلة الامد ٠ ولكن فكرة تحرير كامل التراب الوطني الفلسطيني هذه ، فكرة متقدمة على كثير من القوى السياسية الحليفة سواء في الساحة العربية او الساحة الدولية ٠ ان بعض القوى الحليفة يرى ـ لاسباب ودوافع مختلفة ـ « ان من الضروري ضمان امن دول وشعوب المنطقة وبالذات اسرائيل » وفي نفس الوقت يؤيد نضال الشعب الفلسطيني من اجل « استعادة حقوقه المشروعة » ٠ مثل هذه العبارات تصلح لان تكون حدا ادنى للاتفاق على مواقف سياسية معينة ضد العدو الصهيوني وضد الاستعمار الاميركي ولكنها بالتأكيد ما تزال شديدة التخلف عما يفكر به الثوار العرب ، وما وصلوا اليه بنضالهم ٠٠ لذلك يتوجب التحالف بين قوى الثورة الفلسطينية وبين مثل هذه القوى ولكن في نفس الوقت يجب ان تشدد قوى الثورة الفلسطينية من التأكيد على افكارها وبرامجها الكاملة دون اي تردد او تهاون ، والا فان الجماهير والمناضلين سيفقدون السلاح الاساسي في سبيل النصر عندما يفقدون وضوح الافكار والاهداف التي يضحون من اجلها ٠٠

ان تعميق وتأكيد الافكار الصحيحة داخل التنظيم الثوري ، وتوضيح ملاحظاتنا النقدية على افكار الحلفاء من شأنه رفع القدرة على القتال والتضحية وايضا تأكيد مبدأ الاعتماد على النفس والاستقلالية ٠ وهو موقف سيحترمه ولا شك الحليف ـ حتى وان اختلف معنا في افكارنا ـ كما سيساهم مع استمرار

النضال في تطوير مواقف الحلفاء الى الامام ·

وفي كل الاحوال فان « الحفاظ على اسلحتنا الفكرية قوية وحادة » وابـــداء الملاحظات النقدية الاخوية على افكار الحلفاء يتم – ويجب ان يتـــم – بـروح دعم وحدة الموقف العملي اي دعم التحالف ، لا بروح العداء والانشقاق ··

ولنضرب مثلا اخر ·· نحن نؤمن بأن حرب الشعب طويلة الامد هـــي طريق تحرير فلسطين ·· ولكن كثيرا من القوى ، وعلى الاخص العربية منها، لا تؤمن بهذا الطريق ، بل تخشاه لانها تخشى الجماهير المسلحة ، وهي تبني جيوشا نظامية ليست مهمتها الوحيدة الحرب ضد العدو الصهيوني ، وانما لها مهمة اخرى هي حماية النظام المعين · وكثيرا ما يسخـر منظروا هذه النظم من فكرة حرب الشعب طويلة الامد ، ودائما ما تلجأ هذه النظم الى تجريد الجماهير من سلاحها ·· ومع ذلك فطالما هناك جانب من كل ما يفعلون يتعلق بالحرب ضد العدو الصهيوني فان من مهامنا العمل على ان يتحقق هذا الجانب وان تقوم الجيوش العربية بهذه المهمة · عندئذ تكون معنا في خندق واحد ضد العدو الصهيوني · في هذه اللحظات بالذات ، عندما تخطف الطائـــرات والدبابـات والصواريخ واجهزة الاعلام الضخمة انظار الجماهير ، وتبدو الجيوش والحرب النظامية السريعة القصيرة مؤثرة وفعالة ، فان علينا ان نشدد من تأكيدنا على فكرة « حرب الشعب » وان نمارسها بشجاعة ، ونتمسك بها بثقة ، وان نذكـر قواعدنا وانصارنا وجماهيرنا دائما بإن مثل هذه « الحرب النظامية الخاطفة » لا يمكن الا ان تكون «محدودة» · وان الحرب التي لا حدود لها الا التحريـــر الكامل هي « حرب الشعب » وحدها · ذلك دون ان نقلل من ايجابيات اشتـــراك الجيوش في الحرب ومن ايجابيات الحرب نفسها ·

وهكذا ، فليس اعمق من التحالف القتالي في خندق واحد ، ومـع ذلـــك فـان التحالف القتالي لا يجب ان يؤدي الى التهاون ولو للحظة واحدة فيما يخص افكارنا الاساسية · فستتوقف الحرب النظامية وستستمر حرب الشعب فـــان تهاونا في افكارنا فكاننا نتهاون في اهدافنا ··

ان اي تحالف عملي ، او حتى تهادن تفرضه الظروف ، لا يعني ولا يجب ان يؤدي الى ما يمكن ان يسمى « بالتحالف الفكري » وهو امر مستحيلولاالى التهادن الفكري وهو الاستسلام بعينه ·

★ ★

ثانيا : المبادىء والمناورات :

الثورة حرب ، وللحرب اسلحتها ٠ واهم اسلحة الحرب الثورة هي المبادىء والشعارات العامة التي يحارب من اجلها الثوار ٠٠ وكلما كان تحديد هذه المبادىء والشعارات العامة صحيحاً كلما كانت أقوى وامضى ٠ والمبدأ الصحيح يفوق في قوته كل سلاح ، وكل قوة العدو ، ذلك ان قوة العدو انما تاتي من تفتت صفوف الجماهير المضطهدة ، والمبدأ الصحيح هو الذي يوحدها لتصبح اقوى منه وتنتصر ٠٠ فالمبدأ الصحيح هو المعبر عن القضية العادلة بلا شك ، ولكن ذلك لا يتم في لحظة ، وانما هو معركة طويلة تتم خلال تعبئة طاقات الجماهير وتوحيدها ٠ وتوسيع نطاق التحالفات وتنسيق جهودها حول الثورة ، وتحييد قوى كثيرة عند لحظة انطلاق الثورة متعاطفة او ذات مصالح متشابكة مع العدو ٠ يتم شق صفوف العدو لنفسه بحيث تنقلب الموازين في النهاية لصالح قوى الثورة ، ويقف العدو وحيدا معزولا وضعيفا ٠٠ فيهزم ٠

بكلمات اخرى ان المبدأ الصحيح سيمكن الثوار من توسيع وتوحيد جهود الاصدقاء ، وشق واضعاف صفوف الاعداء ٠٠

وفي البداية ، عند الانطلاق ، يكون الثوار قلة ، ولكن ايمانهم بالمبدأ الصحيح الذي يحملونه يجعل لهم قوة تتحمل ما يواجههم به العدو من محاولات ابادة ، فالعدو في باديء الامر يرفض حتى مجرد الاقرار بان ثمة ثوارا يطالبون بحق الشعب ٠٠

ولكن مع نمو النضال وتطوره واتساعه يلجأ العدو ــ مجبرابطبيعة الحال ــ الى استخدام اساليب متنوعة لمواجهة الثورة النامية ، فعندما تنتشر المبادىء والشعارات العامة بين الناس ، وتكتسب قوة فعالة بتحركهم وتزداد صفوف الثوار عددا وعدة ، يلجأ العدو بسرعة الى محاولة نزع هذا السلاح القوي من ايدي الجماهير ،اي الى محاولة اسقاط الشعار العام الصحيح ، واضعاف ثقة الجماهير في امكان تحقيقه او حتى في صحته ٠٠ وفي نفس الوقت يلجأ العدو للمناورة كي يتخلى الثوار عن مبادئهم وشعاراتهم العامة ملوحا بتنازلات مختلفة ان هم تخلوا عن هذه الشعارات ٠٠

والذي ، يجعل الامر معقدا وصعبا امام الثوار هو ان العدو عندما يلجأ الى فرض هذه الوسائل فانه ليس فقط يثير بين صفوف قوى الثورة نفسها جدالا حول امكان قبول عروضه وانما هو ايضا يسعى لعزلها عن تلك القوى التي تحالف الثوار

ولكنها صاحبة مصالح مختلفة عنها ، او التي لا تتمتع بالنفس الطويل في الحرب الطويلة او التي كانت في البدء تتعاطف مع العدو ثم غير النضال ونموه مواقفها ٠ اي باختصار بعض القوى التي لم تزل بعد بحكم مصالحها، لا تتفق مع الثوار حول كل المبادىء والشعارات العامة ، وان ايدتهم في بعضها ٠٠ والعدو في كل الاحوال يسعى بمحاولاته هذه لوقف الحرب « كشرط من شروطه لبدء المساومة » ٠

في مثل هذه الاحوال تعلو اصوات من داخل قوى الثورة تطالب بمناقشة « عروض » العدو ، وربما كانت عروض من اصدقاء في نفس الوقت ، مدفوعة الى ذلك بدوافع مختلفة لا مجال لنقاشها ، ولكنها تبرر موقفها بضرورة « المناورة » ، وبالهجوم على « الجامدين والمتطرفين » ٠٠ الخ ٠

وهكذا فان وقع الثوار في الفخ تخلوا عن شعاراتهم الصحيحة الواضحة واوقفوا في نفس الوقت حربهم ٠٠ فانهم سيفقدون على الفور قوتهم الا وهي الجماهير التي التفت حول شعاراتهم ونضالاتهم ٠٠

ان الاصوات التي تدعو من داخل « التحالف الثوري » الى المناورة بالمبادىء تغلف حججها على الدوام بان « السياسة هي فن الممكن » ، وان «المناورة» ليست وسيلة مرفوضة بل هي ضرورية ، وان موازين القوى ليست في صالحنا مثلا ٠٠ وهكذا ٠٠

ولنلاحظ ان هذه الحجج جميعا تنطلق من يأس من امكان تغيير الواقع، ومن قصر نفس لا يمكن لاصحابه تحمل الطريق الطويل ومشاقه ، والاخطر من ذلك ان مثل هذه الدعوات تؤكد عدم ايمان الداعين بهما بحتمية النصر النهائي على العدو اي عدم ايمانهم بالمبادىء والشعارات العامة التي يعلنون انهم يؤيدونها ٠٠

فلئن كانت « السياسة هي فن الممكن » في العمل اليومي ، فان الثورة هي فن جعل « الضروري ممكنا » ٠

ولئن كانت « المناورة » هي فن ضروري للمحارب لكي يحافظ على قواه ويبيد العدو ، فان المناورة التي تتنازل عن المبادىء لن تبقى محاربة ولن تهاجم العدو فضلا عن ابادته ٠٠

ولئن كانت « موازين القوى » في لحظة ما ليست في صالح الثورة فان المناورة بالتنازل عن اهم اسلحة الثورة يعني تأكيد وترجيح الميزان ضد الثورة بتقوية اعدائها وخصومها وبخسارة جماهيرها ، وليس العكس ٠

وحتى لو كان التنازل المقترح مطلوبا من أصدقاء او حلفاء ، وهو امـــر منطقي طالما انهم ليسوا على اي حال محور الثورة والحرب ، ولهم ظروفهـم ودوافعهم الخاصة ، فان المناورة بالمبادىء والاهداف العامة لا يمكن أن تؤدي بحال من الاحوال الى توحيد جهود هؤلاء الاصدقاء والحلفاء حول الثورة ولا الى تطوير مواقفهم منها · بل على العكس ستؤدي الـــى تمزيق وتشتيت هـــذه الجهود والقوى · قد نكسب واحدة منهـا ، ولكن من المؤكد اننا سنخسر الكثيرين منهم ايضا ··

هناك مثل بارز من واقعنا ··

مع تقدم وانتصار الحرب الفلسطينية الثورية ، وبعد حرب اكتوبر/تشرين على وجه التحديد ، اتسعت رقعة الاصدقاء والحلفاء والانصار · وتغيرت بعض مواقف القوى السياسية الموجودة داخل التجمع الصهيوني،بحيث اصبحت تعترف علنا بوجود «الشعب الفلسطيني» بل وبعضها نادى «بحق الشعب الفلسطيني» في دولة مستقلة مع استمرار الكيان الصهيوني « اسرائيل » ·

وطبيعي ان هذا الانتقال من مواقع « التجاهل الكلي » لقضية فلسطيـن وشعبها ، واحيانـا العداء ايضا ، الى مواقع اخرى قريبة او مؤيـدة للثــورة الفلسطينية . هذا الانتقاليتم ببطء ولكن في تزايد ، ولا يمكن ان نتوقع انهيتطابق معنا سياسيا وفكريا فجأة وانما هي رفقة طويلة على طريق النضال وصراع طويل من اجل تقوية هـــذه الوحـــدة ·

على هذا الطريق ، طريق تدعيم وحدة المواقف مع كل القوى التي تؤيدنـا والتي يمكن ان تتحول الى تأييدنا نواجه « اقتراحات » يقدمها اصحابها احيانا بدافع من الرغبة في « حل المشكلة » واحيانا اخرى بدافـــع من « محاولـــة » « جذبنا الى مواقعهم » وهم يغلفون اقتراحاتهم على الدوام « بالعمليـــة » و « الواقعية » و « اغتنام الفرص » و « المرحلية » الى آخر المغريـــات والمبررات التي يسوقها اصحاب هذه الاقتراحات ··

يقول دافيد شاحام في ندوة عقدتهـا مجلة اسرائيل / فلسطين I. P. في النصف الاخير من شهر تشرين ثاني (نوفمبر) ١٩٧٤ وشارك فيهامتتياهوبيليد ويوري افنيري وسمحا فلابان واخرون ، يقول :

« ان الحل الوحيد الذي اراه هو ان يستمر كلا الجانبين في التمسكبسياساته وادعاءاته القديمة · ان يعتبر كل منهما انه صاحب الحق في كل البلاد،يمكنهما

الشعور بانهما اصحاب حق الوجود التاريخي في هذا البلد · الاسرائيليون لارض اسرائيل والفلسطينيون لفلسطين · ولكن وبغرض التعايش يجب عليهما الموافقة على حل براجماتي هو التقسيم الذي يتنازل فيه كل منهما في تحقيق دعواه بكل البلاد وذلك لحقبة معينة من التاريخ » ·

ان ما يقترحه دافيد شاحام كحل الان ، مقبول ومتخذ عمليا من اطراف عديدة وافقت على التقسيم في ١٩٤٧ ، او اعترفت « بالكيان الصهيوني » بعد ذلك ··· ومعظم هذه الاطراف تسعى الان الى طرح هذا الحل الذي هو باختصار «الموافقة على تقسيم فلسطين » بين الشعب الفلسطيني وبين الغزاة المستوطنين الذين يسمونهم احيانا « الشعب اليهودي » واحيانا « الشعب الاسرائيلي » ·

الجديد في كلمات شاحام انه يقر علنا بانه « حل براجماتي » ولا يتردد في قولها ، ولا يزين اقتراحه بانه سيترك للمستقبل ان تقوم « دولة واحدة متعددة القوميات » او « ثنائية القومية » كما يقول اخرون ··

فهل يمكن فعلا القبول باقتراح يطالب بالاعتراف بالكيان الصهيوني بشكل او باخر بدعوى « العملية » او « الواقعية » او « البرجماتية » او اغتنام الفرص او حتى المرحلية ؟؟ سيكون ذلك بمثابة المناورة بالمبادىء وهو كاللعب بالنار · لان مجرد الاتجاه نحو الاعتراف « بحق » العدو الصهيوني « في الوجود » على ارض فلسطين لن يعني فقط تخلي عن الارض له ولكنه في الحقيقة يعني التخلي عن الهوية الفلسطينية· كما ان من ينكر على الفلسطيني ، اي فلسطيني حقه في العودة الى بيته وقريته ووطنه ، لن يكون من حقه ان يمثل هذا الفلسطيني في اي مكان· كذلك فان من ينكر على الفلسطيني ، اي فلسطيني ، حقه في الاستمرار بالكفاح المسلح حتى يتم تحرير وطنه ، لا يمكن بأي حال ان يمثل هذا الفلسطيني ·· حتى بالمقياس «البراجماتي » الذي يبررون به اقتراحاتهم · كيف يمكن ان يتولى طرف يقر « بالكيان الصهيوني » ويسلم بوقف القتال ، ان يتولى الحديث باسم من يصر على تحرير بيته ووطنه بالسلاح ؟؟

كل الذي يمكن ان يحدث لمن يتنازل ولو شكليا عن المبادىء ، بحجة المناورة العملية والواقعية انه هو الذي سيخسر الجماهير وستنفض من حوله وتدينه، وهكذا يكون قد خسر القوة الاولى والسلاح الحقيقي الذي يمكن ان يفيده حتى في « مساوماته» ان اراد المساومة ··

وقد يكون مفهوما من بعض الاصدقاء والقوى السياسية القريبة « وبالاخص القوى المحايدة » ان تقترح على الفلسطينيين الاعتراف « باسرائيل » كواقع ، وكحل للمشكلة ، فان لها على اي حال دوافعها الخاصة لذلك ، ولكن الامر غير المقبول هو ان تنزلق قوى عربية الى هذا المنزلق بدعوى « شيء احسن من لا شيء » ، وان « المناورة » قد تنقذنا من « مؤامرات التصفية » ، وان اخفاء شعار القضاء على الكيان الصهيوني من شانه ان يكسبنا المزيد من الاصدقاء الاقوياء ·

ان منطق « شيء احسن من لا شيء » يكشف عن عدم الثقة في النصر ، اي عدم الثقة بامكان تحرير كل فلسطين وبالتالي فانه يبرر اخذ جزء وتسليم الباقي ·

اما منطق « المناورة تنقذنا من التصفية » فانه يكشف عن عدم الايمان بالجماهير ولا احترامها · فالاعتراف بحق العدو في الوجود يفقدهم موضوعيا ثقة الشعب الفلسطيني بهم وقد لا يكسبهم حتى رضى الذين يطالبونهم بالاعتراف، اي يصفيهم فعلا ··

اما قضية « اخفاء » الشعار ، اي انكاره علنا ، مع الوعد بابقائه « سرا » فانه يثير التساؤلات : هل يمكن ان يؤدي بنا الخوف الى اخفاء اهدافنا وشعاراتنا ؟ وهل يمكن ان يؤدي اخفاء هذه الاهداف الى تقويتنا ام الى اضعافنا ؟ ثم لمن سيبقى الشعار « سرا » طالما اننا ننكره علنا اي ننكره امام جماهيرنا وجماهير العالم اجمع ؟··

ان المناورة «بالمبادىء» حتى ولو بحجة « المرحلية » تعني ان يتنازل اصحابها عن اهم واول سلاح في ايديهم ، فلولا المبادىء الواضحة الصحيحة لما التفت الجماهير حول الثوار ، ولما ميزت بينهم وبين « الاصلاحيين » او « الانتهازيين » او « الانقلابين » او المساومين بمستقبلها وقضيتها ··

وفي قضية فلسطين فان ميدانين هامين لا يمكن ابدا اخفاؤهما لا على سبيل المناورة ، ولا على سبيل «المرحلية» ، ولا على سبيل «الواقعية » و« العملية »، هذان هما مبدأ ان كل فلسطين هي للشعب العربي الفلسطيني من حقه العودة اليها وهي ملك له وذلك يساوي عدم الاقرار او الاعتراف باي شكل بالكيان الصهيوني المسمى باسرائيل ، ومبدا حق هذا الشعب العربي في النضال المسلح لتحرير فلسطين وذلك يعني عدم التسليم ابدا بامكان التخلي عن الكفاح المسلح سبيلا وحيدا للتحرير ·

واي مساس بهذين المبدأين ، واي انكار لهما علنا او سرا ، لن يعني نهاية الثورة الفلسطينية ، وانما سيعني نهاية المنكرين لمبادئها ··

والخلاصة ··

انه كلما اتسعت دائرة الحلفاء والاصدقاء حولنا ، كلما ازدادت حاجتنا الى حماية افكارنا وتوضيحها والتمسك بها لنكون بحق قادرين على تحمل مسؤوليتنا كمحور مركزي لهذه التحالفات ·

وكلما ازدادت حولنا الاعلام التي ترفع شعارات ومبادىء قريبة من شعاراتنا ومبادئنا ، كلما توجب علينا ان نرفع نحن عاليا مبادئنا بحيث تتمكن الجماهير من رؤيتها واضحة لا غموض فيها ، لا نتنازل عنها ولا نساوم عليها مهما كانت المغريات ·

فالفكر الصحيح المحدد والواضح هو السلاح الاهم في تحقيق النصر ، والمبادىء والشعارات العامة هي التي تعطينا هويتنا النضالية والقومية في وجه مؤامرة الاذابة والتصفية ··· لنمسك بهما بقوة ، ولنكن مرنين بعد ذلك الى اقصى الحدود ·

التعبير في الحرب الأهلية

الياس خوري

ليست الحرب الاهلية مجرد لحظة انفجار التناقضات السياسية والاجتماعية والاقتصادية التي اشعلت هذا اللهب الوطني · بل هي حركة الانفجار في جميع لحظاته · الحرب الاهلية هي مسافة زمن التناقضات · حيز من التوتر والعلاقات والتغيير · واذا كانت السياسة تحكم كل حرب فهي تحكمها بوصفها محددا، غير ان السياسة كبنية ليست في الحرب الاهلية سوى الغطاء الذي يكشف الداخلي العميق ويحدد وجهته · والداخلي هذا ، هو الذي ينفجر معيدا تشكيل نفسه في لحظات اللاتوازن المهددة بالانهيار · ان الطابع السياسي الغالب الذي ظهر داخل المسار العام للحرب ، وداخل شبكة الاشارات التي انتجتها وسائل الاعلام ، لعب ولا يزال يلعب دورالخلفية التي تقف على قاعدتها مجموعة لا تحصى من التحركات والصدامات التي ترمي احشاء العلاقات الاجتماعية الى الخارج ، حيث يختل النظام القديم ، وتتمرد الدلالات لتشير الى نفسها (علاقاتها) ولترسم لوحة الحرب الاهلية ·

الحرب الاهلية هي تعبير عن المجتمع بكل تناقضاته · انها بشكل ادق ، تعبير عن حركة التناقضات التي في المجتمع بعد انخلعت قفازها وتركت الاشكال المعقدة التي تحجبها ، من اجل ان تعيد النظر في علاقات الاشياء وفي سلم القيم الايديولوجية والسياسية التي فيها · الحرب كل حرب هي لحظة اختبار تاريخية · فالحرب العامة تستطيع ان تعبر عن الحركة العامة في مجتمع ما ، وبنيته الطبقية ودور المؤسسة السياسية وصلاحياتها ولحظات تعرضها للانهيار · اما الحرب الاهلية فهي تبدأ من هذه اللحظة · من لحظة الانهياروتكشف بالتالي التركيبة الاجتماعية فارضة على لحظاتها باسرها ان تتركب داخل الانهيار وان تمارس بشكل فعلي · ربما هذا هو على مستوى السياق التاريخي احد اسباب كون الحروب الاهلية تاتي في نهاية الحرب العامة – ثورة اكتوبر – او داخل مسار الحروب الوطنية –الصين –فيتنام – فالحرب الاهلية تصبح ممكنة او اكثر سهولة في سياق الحرب الشاملة ، حيث تتعرض البنية القمعية للاهتزاز ، ويدخل

الصراع باشكال مختلفة داخل البنية السياسية (سلطة ، جيش ، بوليس)٠ هكذا يصبح ممكنا امام جميع اشكال الممارسة الاجتماعية المقموعـــة خلف ادوات القمع هذه بالانفجار ٠ ويصبح ممكنا للطبقات الثورية تدمير ادوات المجتمـع القديم وقيمه لكي تفرض ادوات نضالها وقيمها الجديدة ٠

الحرب الاهلية هي بهذا المعنى مختبر تاريخي اجتماعي ٠ اداة كشف وتغيير توحد مبدئيا وبشكل عجيب بين معـرفة العالم وتغييره ٠ توحد النظرية بالممارسة بشكل تبدو فيه الاشياء وكانها اكتسبت وحدتها « الطبيعة » ٠ المختبر التاريخي الاجتماعي هذا هو مختبر صراعي ٠ هو سياق يكشف وبشكل عيني ومباشـر كون الصراع هو القانون العام الذي يحكم الاشياء والعلاقات الاجتماعية ، وما فترات السكينة والتوازن الا استمرار الصراعباشكال اخرى٠ التوازنوالسكينة هو الاستثنائي اما الصراع فهو العام ، ومـا التوازن الا احد اشكاله المؤقتـة ٠ هذه الحقيقة التي تبدو بديهية لا تظهر حقيقتها كممارسة اجتماعية الا لحظـة وصول الصراع الى احدى ذراه ٠ هكذا تعيد الحرب الاهلية تفسير لحظـــات الصراع في فترة التوازن ، وتقوم بنقلها الىمستوى ارفع ٠ لحظة الصراعتحمل اذا استعادة لشكل من اشكال حركتها ٠ لكنها ليست استعادة جامدة ، بل هـــي استعادة في حيز يتحرك ، اي لا تكتفي باعادة تفسير الماضي بل تضيف اليـــه الجديد الراهن المكثف وتعيد بذلك تنظيم دلالات الاشياء ضمن قانـــون الصـــراع والتناقض العام ٠ هذه العلاقة المعقدة هي جوهرالجدل٠كشف تناقضات لحظات التوازن داخل تناقضات اللاتوازن ٠ ضمن هذه العملية يتوحد التفسير بالتغييـر والنظرية بالممارسة الفعلية ٠

الجديد في انفجار التناقضات هو الانتقال بالتناقض الى مستوى أرفع ، والدخول فيسياق حركة جديدةتستطيع ان تضيف الى اللحظة الراهنة احتمالها في التحول ٠ بهذا المعنى لا تعود الحرب الاهلية حدثا الا بوصفها تكثيفا لتاريخ هذا الاحتمال ، حيث يتضمن الماضي ليس بوصفه الماضي ، بل بوصفه امكانية تدمير وتجاوز ٠

تحمل الحرب الاهلية في لبنان مجموعة من السمات :

فهي اولا حرب اهلية تأتي في سياق الحرب الوطنية ضد العدو الصهيوني ٠ وتأخذ خصوصيتها من واقع التجزئة العربية ، ومن ظرف التضارب بين رؤيـة الانظمة ورؤية المقاومة والحركة الشعبية لموضوعـة الصراع مع العدو ٠ من هنا كان الطرف العربي الفلسطيني ـ السوري ـ المصري ٠٠٠ هو الطرف الرئيسي في التناقض الذي فجر الحرب الاهلية ٠ فالتدخل العربي في الحرب لم يكن ظاهرة فيها ، بل كان ظاهرتها الرئيسية ٠

واذا كان الطرف الاخر في التناقض ـ القوى الانعزالية ـ استطـــاع ان يلعب طويلا على حبال التناقضات العربية ، فانــه وعلى المستوى التاريخي سقط في الواقع العربي ولم يعد يستطيع التحرك بدونه · ان هذا لا يعني مطلقا ان الصراعات قد توقفت بعد دخول القوات العربية ، بل يعني ان حيــز المناورة قد ضاق حول الطرف الانعزالي ، الى درجة لم يعد يستطيع معها الافلات مـــن الحتمية التاريخية ، كما يعــني ان المقاومة والحركة الشعبية وان ضاق اطـــار مناورتهما وتحركهما ، يستطيعــان البقاء في حلبة الصراع تاريخيا ، طالمـا بقي الصراع بين الامة العربية والامبريالية ·

الحرب الاهلية ، تأتي اذن ضمن سياق الحرب الوطنية ، تفجر خصوصية واقع المشرق ضمن عمومية الصراع العربي ضد العدو الصهيوني واشكالية هــذا الصراع ·

وهي تاتي ثانيا في **سياق صراع داخلي على السلطة** · فالصراع الداخلي مستمر منذ انشاء دولة لبنان الكبير ·وقانونه العام يبقى ضمن دائــرة الصراع العام العربي ـ الامبريالي على الاستقلال الوطني · يمكننا ان نرى في الحــرب الاهلية ثلاثة اطراف رئيسية تتنازع على السلطة :

ـ الكمبردور الماروني الذي استطاع من خلال غلبته في السلطة ومن خلال نمو راسمالية الوساطة ، ان يكتل عبر تجمعات واحزاب سياسية وشبه دينية · الكتائب ، الرهبان ،الاحرار ، التنظيم ، حراس الارز · قاعــدة عريضة مـــن الجماهير المارونية خلف برنامج تسلطه عـــلى لبنان ، وعــزلــه عن محيطه العربي وجعله حليفا دائما للعــدو الاميركي ·

ـ البرجوازية الاسلامية : بكل اطرافها وطوائفها ، التي تنتظر مرة اخـــــرى وكما في٥٨ الفرصة لاقتناص السلطة لتحجيم الغلبة المارونيـــــة ، في سبيـــــل مشاركة اكبر في مغانم الوساطة اللبنانية وعلى قاعدة ايجاد روابط اعمق بيــن لبنان وبقية اجزاء الامة العربية ·

ـ الحركة الشعبية التي تضم خليطا من القوى الطبقية ـ برجوازية وسطـــى وصغيرة غير مارونية بشكل اساسي ـ والقوى الاجتماعية ـ محلية :جنبلاط ، عربية ـ محلية : المرابطون تطرح برنامجا تحديثيا سلطويا للبنـــان المستقبـل · وتتحالف بشكل رئيسي مع الثورة الفلسطينية باعتبارها اكثر الاطراف العربية مصلحة في الذهاب بعيدا في لعبة الصراع في لبنان ·

يؤدي هذا التقسيم العام الى وجود مسالتين مترادفتين :

ـ ضمور الجانب المحلي امام الجانب العربي طالما لا تسمح موازين القوى الدولية للقوى الانعزالية بالاتكال مرة اخرى على الاسطول الاميركي السادس.

ـ بروز سياسات مترجرجة من التحالفات ، او بشكل اصح عدم وجود قاعدة ثابتة لاقامة تحالفات حول برنامج للخلاص الوطني يضم المقاومة والحركة الشعبية . يعود هذا اللاثبات الى عاملين اساسيين :

أ ـ كون الاطراف الداخلية ـ فلسطينيا ولبنانيا ـ لا تشكل على المستوى الموضوعي قاعدة ثابتة للانطلاق . فهي محصلة قوى ومحصلة موازين . انما الثوري الخاص فيها ولا سيما في الطرف الفلسطيني هي في كونها محصلة ديناميكية وتحمل وجهة محددة : القتال ضد العدو الصهيوني .

ب ـ غياب الطرف العربي الذي يستطيع ان يقود جبهة وطنية راسخة . فوحدها الطبقة العاملة بحزبها السياسي ، هي القادرة تاريخيا على القيام بهذا الدور الوطني .

ان الصراع الداخلي على السلطة هو صراع لا يستطيع في شروط الحرب الاهلية ان يتجاوز سقف الصراع ـ التوازن العام في المنطقة العربية . وهو لذلك يصبح انعكاسا لهذا الصراع ومؤشرا لاحتمالات حركته العامة ، وربما بشيرا بولادة قوى راديكالية تعلمها ممارسة الحرب دروس بناء القوى التي تستطيع قلب المعادلة راسا على عقب . لقد استطاع شعار « عروبة لبنان » ان يترسخ رغم كل تعرجات الحرب ورغم ان هزيمة القوى الانعزالية كانت ضمن المساومة والشروط الاميركية .

لقد عبرت هذه الاطراف مجتمعة عن نفسها ضمن القتال في سبيل فرض موازين قوى جديدة . لكن الملاحظ ان القتال انحصر في النهاية بثلاثة اطراف. المقاومة ـ الحركة الوطنية ، القوى الانعزالية ، الجيش السوري . وفي النهاية وبعد سقوط تل الزعتر انحصر القتال بين القوتين الرئيسيتين اللتين تتنازعان، الجيش السوري والمقاومة . وهذا يؤكد جانب غلبة العامل العربي وغلبة كون الحرب هي جزء من اشكالية المرحلة الوطنية على مستوى المشرق .

وهي ثالثا ليست **الحرب الاهلية الاولى** . فتاريخ « لبنان » الحديث والمعاصر هو اساسا تاريخ الصراع حول « المسالة الشرقية » . وهذا

ينعكس ضمن نمو الرأسمالية الوسيطة فيحركة صراعات داخلية وحروب اهلية، تمثلت في ثلاث حروب :

حرب ١٨٦٠ التي كانت اساسا في الجبل وامتدت الى بعض المدن : بيروت ودمشق · وتمثلت في حرب طائفية طاحنة ومذابح وهجرات قسرية · وانتهت بتدخل الجيش الفرنسي ، ووضع يد الدول الكبرى على لبنان عبر جعله «متصرفية» يحكمها مسيحي عثماني يعينه الباب العالي بناء على قرار من مندوبي الدول الاوروبية ·

حرب ١٩٥٨ التي كانت اساسا في المدن وشملت الجبل بشكل جزئي · وكانت جزءا من صراع المد القومي بقيادة عبدالناصر مع الامبريالية · وانتهت بتدخل الجيش الاميركي ، وتغيير في معادلتين داخليتين : رئاسة الجمهورية التي بقيت للموارنة انما اصبح الرئيس يعين بقرار اميركي بعد موافقة مصر-(وهذه هي المرة الاولى التي يتدخل فيها الطرف العربي في اختيار رئيس البلاد منذ انشاء دولة لبنان الكبير) · وتوزيع اكثر عدالة للسلطة بين الطوائف مع احتفاظ الموارنة بغلبتهم ومع تعديل في السياسة الخارجية يراعي الوضع العربي ·

حرب ١٩٧٥ ـ ١٩٧٦ · التي تمثلت في تواجد ثوري فلسطيني كثيف ومسلح، وفي ازدياد المدى العربي العام وعدم استعداده في المقابل للذهاب بعيدا في الصراع كما تريد المقاومة ، وبرز كذلك نمو ملحوظ للقوى الفاشستية المارونية ولقدرتها على الاستقطاب · لقد بدأ الصدام في المدن وامتد الى الجبال وتميز بشراسة خاصة ـ قصف عشوائي ، تهجير كثيف ، تدمير ، الخ ··· كما دخل فيه الجيش السوري ثم قوات الردع العربية · ولم تحسم نتائج الحرب ، انما المؤكد ان القوى العربية استطاعت اخذ لبنان دون ان يعني هذا هزيمة ساحقة ونهائية للقوى الفاشية ·

ان المقارنة المتسرعة بين الحروب الثلاث ، تستطيع ان تكتشف مقولة ان التاريخ « يكرر » نفسه ، لكنها تنسى انه في كل حرب كانت النتيجة مختلفة عن الحروب التي سبقتها نتيجة التحولات في البنية محليا وعربيا ودوليا وفي ظرف الصراع ·كما ان اشكالية كل حرب وممارستها الفعلية تتغير بتغير الظروف والبنى ·

هذه السمات العامة الثلاث التي اشرنا اليها ، لا تكفي · انها مجرد مقدمة صغيرة لوضع الحرب في اطارها الواقعي · لكن الاساسي الذي يمكن الخروج منه يتمثل في مؤشرين :

المؤشر الاول هو ان التاريخ لا يتكرر ، فالماضي الذي يعود ليبرز على السطح في كل حرب اهلية في لبنان هو « المسالة الشرقية » ٠

اما اشكالية الحرب ، ومسارها ونتائجها فهي تخضع لتطور الواقع العام ٠ وهي في الوقت نفسه احدى الدلالات الممكنة لتطور وتغير هذا الوضع٠

المؤشر الثاني هو ان الحرب الاهلية لا يمكن ان تفهم فقط من خلال مسارها العام ٠ فهذا المسار العام هو محصلة مجموعة من التصرفات والتحركات الاجتماعية العنيفة التي تعكس مستوى تطور المسار العام وفي الوقت نفسه تحكمه ٠ اي ان الجدلبين المسالتين في لحظات الانفجار يصبح فعلا يوميا ٠

تقودنا هذه المقدمة الى محاولة تسجيل مجموعة من الملاحظات التي قد تبدو ناقصة وهي ناقصة بالفعل ، نحاول الان ان نستكشف اشكالية التعبير ومداخله المختلفة٠والتعبير هنا ، هو الواقع وحركته ٠ اي اننا نحاول ان ننطلق من لحظة رفع الغطاء عن احشاء العلاقات الاجتماعية الذي تقدمه الحرب ، لندرس الواقع في حركته ، والعلاقات الاجتماعية في لحظات توترها ٠ لذلك فلن نناقش التعبير بمعناه المتعارف عليه ٠ لن نتوقف عند التعبير الثقافي المحترف، الذي هو تحديدا جزء من الايديولوجية العامة التي ينتجها مثقفون ٠ فهذا التعبير اثبت خلال الحرب عن عدم فعاليته ٠ المسالة ليست في السؤال البديهي اين كانت الثقافة خلال الحرب ، بلما هي علاقة الثقافة بالحرب ٠ والمسافة شاسعة بين السؤالين ٠ يفترض اولهما ان للثقافة دورا ويناقش مدى تأديتها له ٠ ويحاكم الثاني الثقافة بذاتها ليحاول فهم علاقتها غير المباشرة بالحرب٠ لقد اثبتت الثقافة « السائدة » ٠ ان لا علاقة لها بما جرى ويجري ، انها مجرد اداة حجب ثانوية ، تحاول ان تغطيالتجارة بالقيم التحديثية ٠ وعند سقوط القيم التحديثية والليبرالية امام الواقع سقطت كاي شيء يسقط ٠ لذلك لا نتعجب ونحن نرى السريالي يتحول الى فاشي او شبه فاشي ، والتجريبي المجدد يتحول الى منظر انعزالي والمسرحي الطليعي يتحول الى مذيع يصرخ في عمشيت ٠ فالقشور ليست في النهاية سوى قشور ٠ هذه الصورة العامة يجب ان لا تحجب اصواتا ارتفعت من مجموعة الصحفيين الشباب الى بعض الاصوات الشعرية، وبعض الكتابات التي حاولت ان تكون جزءا من الحركة الشعبية ٠

لن نناقش اذن التعبير « الثقافي » المحترف ٠ سوف نحاول ان نسجل مجموعة من الملاحظات الاولية عن الحركة العامة للحرب ٠ فالحرب هي تعبير٠

وحركتها العامة هي تعبير عن الواقع . لكننا لن نصل الى اكثر من تسجيل مجموعة من الملاحظات الاولية . فالحرب تحتاج الى الكثير من الجهد كي يكتب تاريخها الحقيقي ، تاريخ الذين صنعوها بكل لحظات النصر والهزيمة التي تخللتها .



اشكالية الحرب

الحرب الاهلية هي انقسام السكان الى فئات تتقاتل في سبيل فرض هدفها السياسي . غير ان هذا القتال لا يجري في فراغ . يجري ضمن قوانين عامة تفرزها البنية ، وضمن الحيز الجغرافي الذي يقدمه اطار الحرب ــ المدينة او الريف . وفي سياق اشكالية عامة لانقسام السكان . طبقية ،طائفية ، عنصرية. او مزيج من هذه العوامل المختلفة .

السمة البارزة هي ان هذه الحرب كانت حرب المدينة . وحتى الانتقال الى الجبل بمحدوديته ابقى هذه الحرب بوصفها اساسا حرب المدينة .لذلك اخذت الساحات والشوارع والتجمعات السكانية حجما اساسيا في الحرب .

اتساع المكان . بيروت قبل الحرب . بقيت هي نفسها جغرافيا . لكن الاساسي الذي يتغير هو دلالة المكان . فلقد تعرض المكان الى الاتساع والضيق بالنسبة الى حركته العامة ضمن حركة الحرب . **المخيم يتسع** . فبعد ان كان مجرد شبه « غيتو » معزول خلال فترة سيطرة البوليس عليه ، طرد البوليس عام ٦٩ ، امتد بعدها الى الجنوب . ثم عام ٧٥ ــ ٧٦ ، اصبح المخيم هو المدينة . انتقلت قواه البشرية الى الخارج ، دافعت عن المناطق الوطنية ، حررت مناطق يسيطر عليها الطرف الانعزالي الفاشي . اتسع المخيم . بانتقال قواه العسكرية الى المدن ، نقل نمط علاقاته وبنيته الاجتماعية والسياسية . انغرس في الواقع الجديد ، تاثر به وفرض عليه نسقه بشكل ما . **المناطق الهامشية تتسع والمراكز التجارية تضيق** ، رمل الظريف ــ الزيدانية يبتلع الحمرا ، الطريق الجديدة تبتلع كورنيش المزرعة، طرابلس الداخلية تبتلع طرابلس التجارية . انقلبت الآية رأسا على عقب . الشوارع الرئيسية تضيق لمصلحة الشوارع الخلفية . المركز التجاري يتحول من نقطة استقطاب ونمو وقمع الى نقطة يمارس عليها القمع وتستقطب . البنايات العالية يحتلها المسلحون والفقراء . سوق سرسق يجتاح الحمرا والروشة . الوسط التجاري يصبح مسرح صراع مسلح عنيف يؤدي الى الغائه بشكل كامل . ان هذا الاتساع والضيق هو نتيجة حتمية

لانقلاب المقاييس . سقطت السلطة السابقة وسقطت الحرمات السابقة . المركز يتبع الطرف . المدينة تلتحق جزئيا بالمخيم ، والتجارة لا تتوقف . تأخذ اشكالا جديدة ـ يتدخل فيها طرف جديد هو اشبه بالسلطة لكنها سلطة لا تحترم قيمة التجارة ، تناقش النتائج .

الازمنة المختلفة : كانت عملية الوصول الى المناطق المغلقة عملية متدرجة ، اتخذت اشكال صراع مع الطرف الاخر وصراع داخلي . مع الطرف الاخر ، تكفلت مراحل الحرب المختلفة وتطوراتها باحكام اغلاق المناطق بشكل شبه كامل . اما داخليا فكان الصراع حادا ويحمل سمات تطور الاطراف المختلفة . في المناطق الانعزالية ، وامام اتساع المد الطائفي موضوعيا ، ونمو القبضة الفاشية ، استطاع الحزبان الرئيسيان الكتائب والاحرار تصفية القوى غير المقبولة ـ القبضايات ـ (حادثة عواد) وفرضوا عليها الالتحاق بها . ولكن بقيت طبعا التنظيمات الشرعية التنظيم ، حراس الارز ... وقوى فعلية شارعية التحقت بالحزبين المذكورين . ان هذا لا يقلل من قيمة الصراعات داخل المناطق الانعزالية . لكنه يضعها في حجمها الفعلي بوصفها صراعات لبناء سلطة فاشية جديدة . اما المناطق الوطنية فقد قدمت نموذجا لتعايش ازمنة مختلفة داخل زمن الحرب، فالشارع الوطني هو متسع ومتعدد : انعكاس للوضع العربي بكل تفاصيله وخلافاته . ورغم ان حركة « فتح » استطاعت ان تلعب دور القوة القائدة ، وعلى الرغم من محاولات المجلس السياسي المركزي اقامة قوة موحدة : «الامن الشعبي »، فقد بقي الشارع الوطني شارع الجميع . تعايش « القبضاي » مع الطالب المقاتل . والزعيم التقليدي مع الاعلام الحمراء . والقتال المنظم مع القتال غير المنظم . يقود هذا التعدد الى سمة عامة في الصف الوطني ، هي مزيج من الوضوح الاستراتيجي وغياب هذا الوضوح . فلا خطة واحدة تجمع هذه القوى ، التحالفات مترجرجة . غير ان المفصل الاساسي التي تمسك به القيادة الفلسطينية يقود الى وضوح مسالة واحدة على الاقل : هي القتال بكل ضراوة تجنبا لاحتمالات التصفية .

في المناطق الوطنية ديمقراطية محلية حقيقية، وفي المناطق الانعزالية قبضة فاشية متوحشة . في المناطق الوطنية تعبئة محدودة او غير شاملة وفي المناطق الانعزالية تعبئة وشحن نفسي ومحاولة تنظيم الحياة اليومية بشكل منضبط ومن فوق .

الجبل: بعد انقلاب الاحدب وبسقوط الوثيقة الدستورية ، تحول القتال الى الجبل . هنا حدث الانتقال الثاني في اشكالية المعارك ، بعد الانتقال الاول ـ الاجتياح في الكرنتينا والمسلخ والدامور . هذه المرة كان انتقالا نوعيا . الفلسطينيون والوطنيون يهاجمون معاقل الجبل « الماروني » ، يقفون على قمة

صنين ، يصلون الى مشارف المتن الشمالي ومشارف كسروان · هذا الانتقال النوعي سوف يمهد فيمابعد لتكريس مسألة انتماء لبنان العربي وهو على رغم حدوده ومحدوديته ، فتح الجبل على اكثر معاركه ضراوة ومجدا وكتب ملحمة بحمدون ، واحدث انتقالا نوعيا في القتال ، رغم انه لم يصل الى النتائج النهائية·

لم تكن اشكالية الحرب واحدة خلال مرحلة طويلة من القتال الاهلي ــ حوالي سنتين ــ بل كان هناك اربع مراحل رئيسية : انفجار عين الرمانة حتى الوثيقة الدستورية · انقلاب الاحدب · التدخل السوري · قوات الردع · داخل هذه المراحل هناك لحظات متداخلة· واذا كانت السياسة تحكم الحرب بوصفها محددا، واذا كانت الحرب الاهلية تكشف الغطاء عن احشاء العلاقات الاجتماعية ، فاننا نستطيع ان نشير الى اربعة مداخل لاشكالية الحرب بوصفها تاريخ الجماهير التي صنعتها · ليس هناك حدود صارمة بين هذه المداخل · لكنها تشكل مجتمعة الواجهة الخلفية للحرب الاهلية ·

المدخل الاول : الذات وتاكيدها من خارجها

نمو راسمالية الوساطة ادى الى نمو وتماسك الطائفة على حساب الاشكال الاجتماعية السابقة · ونمو الثورة الفلسطينية ادى الى اتساع تاثير واثر الخط العربي في لبنان الذي يتمثل اساسا في الحركة الوطنية والتجمعات «الاسلامية» · هذان النموان ، يضاف اليهما اختلال العلاقة بين المركز الامبريالي والقوى البرجوازية التابعة في العالم الثالث لمصلحة هذه الاخيرة ، ادى عمليا وضمن عملية معقدة الى اختلال التوازن اللبناني وانفراطه ·

عملية الانخراط تتم ضمن قنوات طائفية · الحي ، هو الوحدة الصغيرة والطائفة هي الوحدة الاكبر وبين الحي حيث التجمعات غير المنظمة والطائفة يقوم الحزب الفاشي بتشكيل ذراع الوحدة داخل الطائفة ، او على الاقل هذا هو جوهر المشروع الكتائبي : « التحول من حزب طائفي الى حزب الطائفة » ·

المناطق تغلق تدريجيا · تغلقها متاريس الرمل العالية ، ورصاص القنص القادم من البنايات العالية · القنص هو المدخل الى اغلاق المنطقة · هو الاداة في يد القوى المنظمة من اجل تحويل الطرق الفاصلة / الموصلة بين المناطق الى طرق مغلقة · القنص اذا ليس مرحلة من الفورة الشعبية · انه اداة منظمة وواعية ، ولا علاقة للطرف « الثالث » ! الذي اتهم طويلا به · القناص ليس مجرما يقتل بشكل افرادي ، انه اداة في سبيل الوصول الى بداية المناطق

المغلقة عدا انه عسكريا وفي المعارك الفعلية ضروري جدا للاطراف المتقاتلة ٠ اغلاق المناطق يتم اذن ضمن اواليتين مترابطتين :

١ ـ اشتعال الحرب الاهليةوامتدادها ، بشكليجعل الاحياء المتقابلة في مواجهة بعضها ٠ تخاف من بعضها ٠هنا تنمو العناصر المحلية ٠ (حي السريان) في الاشرفية ، راس النبع ، التباريس ـ خندق الغميق الخ ٠٠٠

٢ ـ وجود اداة شاملة تتدخل في ادارة الحرب ٠ البرجاوي كحي يستباح من الكتائب ، فتدخل القوى المنظمة « فتح » وتحكم سيطرتها عليه ، ويكون مدخلا لمحاولة اجتياح حي الناصرة ٠ حي الناصرة وحيدا لا يستطيع الصمود، القوى التي تجعله يصمد هي قوى الكتائب المنظمة وملالات بقايا الجيش ٠

تستدعي المناطق الانعزالية المغلقة مجموعة من التحركات:

أ ـ تطهيرها من الطوائف الاخرى : العدو في الداخل هو اخطر من العدو الخارجي ٠ لذلك يجب تطهير المنطقة ـ الحي منه بشكل كامل ٠ استعملت هنااساليب الارهاب المختلفة من التهديد الى تفتيش المنازل الى القتل ٠

ب ـ تطهيرها من العناصر الوطنية ، حتى ولو انتمت الى الطائفة المسيحية وقد استعملت نفس اساليب الارهاب السابقة ٠ مع لؤماشد تمثل في العزل الاجتماعي الكامل للعنصر المطلوب اخراجه او قتله ٠

ج ـ فرض السيطرة على المناطق المغلقة بشكل كامل ٠ عبر الدوريات العسكرية المكثفة ، اطلاق النار بهدف وبدونه ، فرض الخوات الخ ٠٠٠

الوصول الى المناطق المغلقة ليس مجرد تدبير اجرائي ٠ انه في الوقت نفسه تعبير عن واقع اجتماعي محدد ٠ كيف نفسر الخطف على الهوية ، التعذيب الوحشي الذي يتبعه ، سادية القتل ، جنون القتل الجماعي ٠ انه تاكيد الذاتمن الخارج ٠ التاكيد على العدو حتى يزداد التماسك ٠ العرب ـ فوبيا التي انتشرت في الاوساط الجماهيرية « المارونية » لم تكن مجرد خدعة قام بها الانعزاليون المحترفون ٠ انها بالاضافة الى ذلك مسار تاريخي واجتماعي ٠ فهذا الهلع والرعب من العربي (المسلم ، الفلسطيني ، اليساري) القادم لضرب الغلبة المارونية ، يقود الى هستيرية خوف جماعية تؤدي بدورها الى عدوانية، تؤكد الوحدة من الخارج ٠ هذه الوحشية التي عبرت عن نفسها بشكل « نموذجي » يوم السبت ٦ كانون الاول ١٩٧٥ ، الذي سمي السبت الاسود

تعبير عن العنف « الجماهيري » الفاشي وقد وصل ذروته · غابة من المجانين الذين يحملون الاسلحة ويقتلون من اجل الانتقام ! ليس هذا مؤكدا من اجل توتير الجو السياسي ! يمكن توتيره باشكال اخرى واكثر فعالية · من اجل تأكيد الذات · الغلبة المارونية تنهار امام المد العربي : بيار الجميل يزور دمشق يومها ، والجيش السوري يزور بكفيا اليوم ! هستيريا القتل هي اذن تعبير عن خلجات الحشرجة في الجسم الفاشي الذي يتعرض للانقراض · تصفية الغلبة«المارونية» تعيد الى الذاكرة الجماعية الحكم « الاسلامي » والاضطهاد «العثماني» · تصفية غلبة الكومبرادور الماروني تنعكس في الوعي المشوه والملوث بواقع لبنان في خطر تعرض جماهير الطائفة للابادة · «المجزرة بدأت في العاصمة اثر اكتشاف جثث اربعة قتلى في الفنار ، قيل انهم من مرافقي الشيخ بيار الجميل وهم : رولان سعاده ، ايلي بانو ، دافيد عوكر وشقيقه شفيق ، واضافت معلومات خامسا اليهم هو جورج عيسى · وهو ما ردت عليه ميليشيا حزب الكتائب حين افلتت مسلحيها من الصيفي باتجاه ساحة الشهداء وباب ادريس ، تخطف المواطنين بالعشرات ، وتقوم بتصفية بعضهم فورا ، مما جعل المواطنين الذين نزلوا الى اعمالهم ، يعيشون منذ التاسعة صباحا حالة من الذعر تجلت في هستيريا الهروب بمختلف الوسائل والاتجاهات ··· اما اكثر الحواجز وحشية فكان حاجز المرفأ الذي ارتكب مجزرة كان ضحيتها عمال المرفأ حيث اطلق النار على بعضهم والقي بجثثهم في البحر، بينما احتفظ ببعضهم حيا وتم نقلهم الى الاشرفية ·· » (السفير ٧ ك١ ١٩٧٥) السبت الاسود يمتد في الزمان والمكان · يمتد على مساحة الحرب الاهلية : سحل الاسرى بشكل منتظم ،استباحة المناطق حتى ولو كانت مسيحية : الكورة، بشكل مجنون وغير عقلاني · هذا الدفاع عن النفس هو هروب الى الامام · تعبير عن العجز وعن محاولة تغطيته بالفعل حتى ولو وصل حدود الانتحار·

الانغلاق النفسي والواقعي هذا ، لم يكن في المناطق الوطنية · فباستثناء بعض الحوادث الطفيفة والفردية التي قام بها القبضايات الذين تعودوا صداقة المكتب الثاني ، فقد بقيت الاحياء المسيحية التقليدية : حي السريان ، المزرعة حيث التجمع المسيحي الارثوذكسي في بيروت الغربية دون ان تمس الا بشكل هامشي وطفيف · بينما استبيح القنطاري للسرقة وليس للقتل · اما حوادث « بيت ملات » و « القاع » ، فانها ممارسات منظمة قامت بها اساسا قوى منظمة مستغلة العلاقات العشائرية في مناطق البقاع وعكار · طبعا حدث خطف وتعذيب · انما بنسبة لا تقارن بما جرى في الطرف الاخر · ان هذا الاختلاف لا يدل على مستوى « الحضارة » ، فالواضح ان التأثر بالحضارة الحديثة اكثر « عمقا » في المناطق المارونية · انما يعود الى سببين رئيسيين : —

١ ـ على رغم ارتفاع شعارات طائفية في المناطق الوطنية ، فان المسلمين ليسوا طائفة · وهذا يعود الى عامل تاريخي وسياسي ·تاريخيا هم الامة ، الاكثرية · وتنظيمهم الاجتماعي هو الدولة · وسياسيا : هم جزء من الواقع العربي ، امتداده اللبناني · لذلك لم تنجح محاولات عديدة « مدروسة » لتحويلهم الى طائفة · والمطالب الطائفية تتحول في الممارسة السياسية الى مطالب قومية · او الى المطلب القومي حين ينعكس لبنانيا بصيغة طائفية · من اجل هذا اتسعت المناطق الوطنية لسكانها المسيحيين وللمسيحيين الوطنيين المهجرين من « الغيتو » الانعزالي ، واتسعت طرابلس لمهجري الكورة ···

٢ ـ نمو قوى اجتماعية وسياسية مرتبطة بالحركة الوطنية العربية ، تطرح شعارات غير طائفية · تستقطب سياسيا ، وتقاتل عسكريا · وهذا ما خفف الى حد ما من دور بعض المؤسسات الطائفية : المجلس الاسلامي الشيعي الاعلى على سبيل المثال ·

المنطقة الوطنية تريد استيعاب المنطقة الاخرى · هي في حالة مد · لذلك لا تحتاج الى رد الفعل لتاكيد الذات ، من هنا كان الرد على السبت الاسود معركة الفنادق · وداخل ازمنة المناطق الوطنية ترتفع شعارات طائفية وممارسات طائفية ، لكنها تدان على الاقل ايديولوجيا بوصفها عملا مشبوها· اما الذين يدافعون عن اخر معاقل الماضي الاستعماري والواقع الامبريالي فان ممارساتهم كانت مختلفة بشكل كامل ·

المدخل الثاني : المصادرات · الوساطة من تحت ·

لس صدفة ان تكون اسماء محاور القتال في بيروت تتشابه في دلالتها الى حد عجيب : غاليري سمعان ، الهوليداي ان ، الهيلتون ، الاسواق التجارية ، معمل الريحة ، المازدا ···· حتى في الجبل اسماء اخرى ولكن الدلالة تتشابه : غاليري خير الله ، مطعم المطعم ، قصور الامراء ··· حتى في اعالي الجبال في الزعرور وصنين تدخل اسماء شبيهة : التلفريك ، فنادق بسكنتا ·

لقد جرت المعارك حول رموز النظام اللبناني · والرموز هي تسمية للواقع · ففي بلد الخدمات والوساطة والكومسيون وفي مدينة الكوميسيون الرئيسية في الشرق الاوسط ، كانت المعارك على مفترق الطرق حيث تقف مؤسسات الوساطة وادواتها ·

هل تكون مجرد صدفة او سوء تدبير او اهمال ايديولوجي ان تصبح المصادرات والسرقات عامة الى هذه الدرجة ؟ ربما ليست هناك علاقة بين بعض اسماء المحاور وبين المصادرات ، فهناك الكثير من المحاور التي تأخذ اسماء الشوارع : مارون مسك ، عبد الكريم الخليل ، المراية ، الحدث الليلكي ... لكن من المؤكد ان هناك علاقة وثيقة بين شيوع المصادرات والنظام الاقتصادي السياسي السائد .

في كل الحروب الاهلية هناك مآس اجتماعية . قتل ، هجرات ،سرقات الخ . لكن الحجم الذي اخذته المصادرات في حرب لبنان الاهلية كان حجما غير مألوف .

ما هي المصادرة ؟ انها تحديدا نزع الملكية اشياء من اصحابها في ظروف الحرب ولاسباب محددة : ارتباط المالك بالعدو ، استغلاله للشعب ، احتكار المواد الغذائية ... في جميع الثورات والحروب الاهلية حدثت مصادرات . لكنها وعلى الرغم من طابعها شبه العشوائي حافظت على مجموعة من القيم الجديدة .. منع السرقة وتحطيم اللوحات الفنية والمباني ذات الطابع الاثري (ثورة اكتوبر) . حتى في الحرب العالمية الثانية حافظ النازي على رغم وحشيته على نصب باريس دون ان تمس .

نقاش المصادرات لبنانيا ، يجب ان يناقش التركيبة العامة التي انفجرت. فالمصادرات كانت عامة وشاملة ، من اثاث المنازل والسيارات الى المكتبات والتماثيل . من المؤسسات العامة الى المحلات الصغيرة في الاسواق التجارية .

هناك ثلاثة اشكال للمصادرات :

١ ـ **المصادرات الجماهيرية** : حيث اندفعت الجماهير الفقيرة الى اماكن القتال ، او الى المحلات العامة ، والفنادق ، واخذت ما استطاعته ، على الرغم من تعرضها لخطر القنص او القصف المركز . ولعل سرقة محلات سبينس بالشكل الفولكلوري الذي تمت به ، حيث اندفعت الآلاف وتدافعت وقتل حوالي سبعة اشخاص ، هو التعبير النموذجي عن هذا النمط من المصادرات الجماهيرية التي اندفعت اساسا الى المواد الغذائية والالبسة خوفا من خطر المجاعة والتشرد ، وبحثا عن حد ادنى من الضمانات المادية .

٢ ـ **المصادرات الجماهيرية المختلطة** . اخذت المصادرات الجماهيرية من الطرفين اشكالا مختلطة في بعض الاحيان . قسم منها على شكل تواطوء كما في مخزن الكرنتينا الشهير حيث كان يصادر من الجانبين دون اي

احتكاك يذكر · وبعضها على شكل غض النظر كما حصل في الاسواق التجارية ·

٣ ـ المصادرات المراتبية وهي اكثر اشكال المصادرات شيوعا · فلقد اندفعت مجموعات من القوى بشكل منظم ومراتبي الى الكثير من المرافق وصادرتها بشكل عشوائي ومنظم · وقد اختلط في هذا المستوى من المصادرات الاعمال الفردية وشبه الفردية بالاعمال الجماعية · واستخدمت المصادرات كموارد مادية لبعض القوى او كأساس لتجميع الثروة في اعلى الهرم وخاصة في صفوف القوى « المحلية » شبه المنظمة ، قوى الاحياء التي اندفعت بشكل كامل الى هذه المصادرات فيما كانت تشارك في الرماية بجميع الاسلحة داخل حقل المعركة ·

المصادرة المراتبية هي اكثر الاشياء دلالة · فاندفاع الجماهير الى السرقة في ظروف حرب اهلية يمكن ان يفسر جزئيا بالحرب نفسها ، اما الوصول الى المصادرات المراتبية فانه لا يمكن فهمه الا من داخل التركيبة اللبنانية · فقد استبيح كل شيء · اثاث المنزل المصادر يمكن اعادة شرائه · السيارة المصادرة تختفي او تباع من جديد · تساقطت جميع المحانير والمحرمات ·

انتقال السرقة من فوق الى تحت · يصاحب هذا الانتقال عملية انهيار مؤسسات الضبط والقمع الاجتماعي · فلا يبقى محظور فعلي · اقتصاد الوساطة القائم على السمسرة والكومسيون والاحتكار هو اقتصاد سرقة واحتيال · تراكم الثروة هو تراكم القوة وتراكم الشطارة والقرب من السلطان · كل الناس تعرف ان الثروة هي سرقة · ومع انهيار نظام السرقة من فوق جاءت السرقة من تحت · هنا كان الاندفاع الشعبي الى تدمير المجتمع القديم ، تدمير قيمه ،الانقضاض على السارقين وسرقتهم · يبدو هذا التفسير جزئيا وتبسيطيا · فالسارقون الكبار اندفعوا هم ايضا الى السرقة : تجارة الاسلحة المضبوطةمنفوق، التهريب،الخوات المنظمة،احتكاربعض السلعلكن الحرب افرزت على الاقلمراتبية جديدة ·اضطراللصوص القدماء الى الخضوع لمشاركة قوى جديدة · فانتظمت مراتبية جديدة على ايقاع القتال · الوساطة انتقلت الى تحت ، وهنا ابدت الاشكال الاجتماعية اعلى مستوى من المقاومة · فانتظمت المراتبية · وتحول المجتمع القديم الى شكل جديد دون ان يجري اختلال عميق في بنيته ·

انهيار القيم البرجوازية : بانهيار المجتمع وتفسخه ، انهارت قشوره

انهارت القيم البرجوازية التي الصقت به فلم تبق قيمة لم تمس · القيم البرجوازية المستعارة تتساقط كالقشور · لم يعد هناك حرمة : الجامعة اللبنانية بكل اجهزتها الحديثة ومكتباتها واثاثها تنهب ، الوثائق تتساقط ، رئاسة الحكومة وهي بناية اثرية من العهد التركي تحترق وتنهب · كل القشور سقطت · اللا انتاج ينفلت من عقاله يسقط كل الرموز المستعارة وليبقي الحقيقي · لذلك لم تكن حرمة لشيء · الملكية الخاصة استبيحت دون ان تمس في جوهرها كعلاقة ·

يحمل هذا الوصف في داخله اشارة الى القوى الاجتماعية ، فالغياب شبه الكامل للبدائل الثورية بالمعنى الجذري للكلمة ، هو الذي لم يطرح بديلا للاشياء · وربما ولادة البدائل لا بد بفعل الضرورة التاريخية من ان تمر داخل هذا النسق من الدمار والتدمير ·

المدخل الثالث : القصف ـ الايقاع الخلفي ·

القصف هو تحديدا شكل عسكري للقتال · يقول العلم العسكري ان القصف المدفعي يستعمل عادة كتمهيد للهجوم · فيجري قصف مراكز تجمع العدو ، او يستعمل ضد تجمعات آليات العدو وقواه البشرية التي تهاجم فيسند المواقع المتقدمة · ويقول العلم العسكري ان «الهاون » هو مدفع يستعمل في ميدان القتال ضد التجمعات العدوة · وهو سلاح بالغ الفعالية · اما في الحرب الاهلية في لبنان فعدا عن الاستعمال العسكري ، استعملت المدفعية بكل انواعها واشكالها ضد المدنيين ، وضد الاماكن السكنية · وربما جرى تفسير ذلك في المدن ، بانه خلال الاشتباكات الفعلية ، فان المراكز السكنية تشكل خطوطا خلفية لامداد وتموين القوى المقاتلة ، كما ركز فيها في بعض الاحيان اسلحة اسناد · يمكن ان يؤخذ هذا التفسير خلال المعارك الفعلية ، خلال المعركة الضارية التي اسقطت فندق « الهوليداي ان » وفندقي «الهيلتون» و« النورماندي » · اما حين يصبح القصف العشوائي عاما الى درجة حصد عشرات المدنيين يوميا ، فان هذا يحتاج الى تفسير اخر ·

انه يشير اولا الى واقع يترسخ يوميا · يقود اغلاق المناطق الى محاولة كل منطقة تدمير عدوها · فالاصرار على القصف العشوائي من قبل الاطراف المقاتلة ، وتعميمه الانعزالي يقود الى التقسيم · تعميم الكراهية والخوف الى درجة مرتفعة جدا · وضع حدود نفسية بعد الحدود الفعلية · القصف العشوائي رعب دائم · تعبير عن تعميم رفض الاخر بين المقاتلين · ايصال الى التقسيم الفعلي والنهائي · والا فما هو معنى قصف المنازل

بالصواريخ ومدافع الميدان والدبابات !

وهي تشير ثانيا الى العجز · العجز عن الحسم الفعلي يقود الى حسم وهمي · القصف هو حسم وهمي · انتصار وهمي · يقصف تجمعا سكانيا فيعتقد انه قتل عددا كبيرا من افراد العدو ، لكن الاخر يستطيع ان يقصف تجمعا سكانيا كذلك · العجز لا يحصي سوى خسائر العدو · ينسى خسائره · انها انتصارات وهمية · حرب جبناء كما وصفها احدهم ·

وهي تشير ثالثا الى ايقاع الحرب · اصبح القصف اليومي هو الايقاع الذي يفرض على الجميع العيش وسط الحرب حتى في فترات ضمور جبهات القتال · انه الموسيقى الخلفية التي تهز الجدران والنوافذ · المقاتل على جبهة القتال وامتداده القتالي هو في الداخل حيث الايقاع · القصف ايقاع يومي، نسق تعتاده حتى يصل الى بيتك ، عندها تفاجأ به من جديد ·

المدخل الرابع : الحرب الفعلية واشكالها التعبيرية

سياسيا حدث التحول الجذري في مسار الحرب بعد انقلاب الاحدب وولادة الجيش العربي · وعسكريا بصعود القوات المشتركة الى الجبل في سبيل كسر التقسيم وضرب القوى الانعزالية · بعدها حدثت الانعطافات سياسيا وعسكريا : انتخاب سركيس ، التدخل العسكري السوري ، دخول العدو الصهيوني طرفا مباشرا في حرب الجنوب ، سقوط تل الزعتر ، معركة بحمدون وجزين وروم ، دخول القوات العربية ··

التحول السياسي والعسكري انعكس على اشكالية المعارك ، فعلى الرغم من ان الضبيه والكرنتينا والدامور دشنت الاجتياح العسكري الفعلي للمناطق ، فان الحرب انتقلت بهذا التحول الى مستوى ارفع ، توقف القنص كمؤشر اساسي ، ولم تعد البنايات تحمي من قذائف الهاوزر ، خف الخطف واشتد القصف المركز والعشوائي ·

لقد دخلت الحرب اشد حلقاتها ضراوة · مع اشتداد المعارك قطعت الكهرباء والماء · قصف وحصار تمويني واجتياحات عسكرية وتهجير · دخلنا الحرب الفعلية ·
يمكن تسجيل ثلاث ملاحظات في هذه المرحلة :

١ ـ اشتد اغلاق المناطق ، الطريق الوحيدة الآمنة بين بيروت الشرقية

وبيروت الغربية اصبح عبورها بالغ الصعوبة وقد يصل في كثير من الاحيان حد الاستحالة . المناطق تغلق ، تعاني مشاكلها وحيدة ، حصار في اكثر الاحيان ، حرب تجويع وتركيع وحرب انتصارات ساحقة . **ومع اشتداد اغلاق المناطق بدت امكانية كسر المتاريس التي تغلقها عبر الاجتياح** . لقد انتهى عهد الطمأنينة التقليدية ، بعد سقوط الهوليداي ان اصبحت الطريق الى الاشرفية ممكنة ، وبسقوط عينطورة والمتين اصبحت طريق بكفيا ممكنة ، وفي فترة انهيار الطرف الانعزالي كانت الكحالة حتى الحازمية غير مستحيلة . لقد دخلنا مرحلة الصراع الشاملة . وباختلال ميزان القوى بعد اجتياح البقاع وعكار ، كتب تل الزعتر عبر شهرين من الاساطير القتالية ملحمة صموده وسقطت الكورة وابتدأ الحديث والتهويل باجتياح طرابلس وبيروت الغربية . سقط الامن القديم القائم على تجربة ١٩٥٨ .

لقد عكست الحالة الجديدة نفسها على الواقع الجماهيري . لم تعد هناك منطقة خارج الحرب . لبنان بأسره من شماله الى جنوبه يدخل الانقسام والصراع . اختلطت الجبهات والتحالفات ، وبدا وكأن التاريخ يكتب احد اهم فصوله .

٢ ـ النظر الى الحرب من الخارج وفي المناطق « الآمنة » اصبح مستحيلا . لقد دخلت الحرب كل بيت . اصبح الكل معنيا بها بارادته او بفعل الظرف الجديد . هنا حدث التحول في ممارسة الجماهير السياسية . فبعد محاولات لانشاء لجان شعبية ولاقامة عمل شعبي بلغ ذروته في المدارس الشعبية التي كتجربة قدمت نموذجا لبداية انخراط فئات من المثقفين الهامشيين في الحياة العامة عبر خلق نماذج لعلاقة مفترضة بين المعلم والتلميذ ، وعبر محاولة كسر حدود المدرسة الايديولوجية وربطها بالحي بعد ان كانت مرتبطة بالنظام التعليمي (الايديولوجية المسيطرة) وجعلها جزءا من حياة الجماهير اليومية . بدأت اللجان الشعبية تتوالد . لقد انهارت تجربة المدارس بعد الوثيقة الدستورية، ولم تعد ممكنة في ظل مطر القذائف المباشرة . غير ان البديل الجديد « اللجان» كان اكثر تقدما . اعداد هائلة من الناس تبحث عن وسيلة انخراط في الحرب . ووحدها اللجان تستطيع ان تستوعب هذا المد الجماهيري . لقد جرى تعميم تجربة اللجان في ذروة الحصار . ولدت اساسا ضمن برنامج فعلي بالغ التواضع ، تنظيم تقنين المواد الغذائية وتوزيعها . لكنها غرقت عمليا في بحر التوزيع ، لم تستطع الانتقال وفي ظل شيوع قيم التوزيع الجديدة الى المستوى السياسي . تركت هذا المستوى للصحف ورجال السياسة واغرقت الجماهير في مشاكل التوزيع الى درجة ان اكثر هذه اللجان وجد نفسه دون عمل بعد الانفراج النسبي للمسالة التموينية . هذه الصورة العامة يجب ان لا تحجب

مجموعة من الممارسات التي بقيت قليلة الفعالية والتي حاولت الانتقال الى المستوى السياسي عبر ندوات جماهيرية واقامة لجان منتخبة ٠لكن التجربة بأسرها كانت محكومة باشكالية التوزيع ٠ ولم تسمح فترة ازدهارها القصيرة للاتجاهات الجذرية ببلورة نسق جديد لعلاقة الجماهير بالسياسة ٠ وفي المقابل حاولت الادارة المدنية الوصول الى التوزيع من السياسة ٠ فاقامت لجانها الخاصة وتدخلت في توزيع المواد التموينية لكنها هي الاخرى لم تستطع ان تقدم نموذجا جديدا لانها توزيع من فوق ٠

تحتاج هاتين التجرتين الى دراسة خاصة وتفصيلية ٠ فهما التعبير المباشر عن تجربة محاولة ادخال السياسة الى الممارسة الجماهيرية ، الناس تتكلم في السياسة في الاوقات العادية ، وتتكلم في السياسة دائما في زمن الحرب ، لكن السياسة تعني مجموعة من المهمات الصغيرة والكبيرة ٠

٣ ــ في فترة التحول السياسية والعسكرية هذه استمرت المصادرات لكنها انتقلت من خطوط القتال الى الداخل ، كما استمرت قوى الاحياء العسكرية ، لكن الجديد هو تحول عدد كبير من افراد الميليشيا الى قوات مقاتلة شبه محترفة ٠ الطالب والموظف والكادح ينتقلون من الدفاع عن الحي الى الدفاع عن الوطن ، من البقاء في الكمين فترة محدودة الى البقاء في الموقع فترة غير محدودة ٠ هذا الانتقال النوعي حول الكثير من المعارك العسكرية الى معارك ابداع جماهيرية ٠ هكذا يعلم شموخ صنين ، وبطولات صيدا وملحمة بحمدون ٠ لقد انتقل الناس الى الحرب ٠ دخلت الحرب الى البيت وخرج الناس من البيت الى الحرب الشاملة ٠ المعركة الحقيقية هي مدرسة التدريب الفعلية ٠ وفي المعارك الحقيقية اصبحت السياسة في فوهة البندقية ، ودخل تحول على تركيب القوى المقاتلة سوف ينعكس فلسطينيا ولبنانيا باشكال نضالية مرتفعة ٠

في الخنادق كانت الذكريات والاغاني والقصائد هي التعبير الثانوي ٠ في فترات الراحة ، بين معركة ذاهبة ومعركة قادمة كانت الذاكرة تضيف الى الواقع بعدا ٠ اما التعبير الرئيسي فكان القتال ، ابداع لحظات القتال بكل اسرارها واحزانها ٠

ماذا يقدم الجسد للجسد : الجسد في حركته ، يسقط وينحني يتموج ويلمس الريح ٠ وبين الطلقات ، وحول جسد الشهيد ، وفي ظلام السكون العميق حين تنتظر العدو فلا يأتي او حين تسمع صوته ووقع خطاه ولا يأتي، تكون التفاصيل هي كل التعبير،والارض هي الاسرار التي لم تكتشف ٠

داخل الكنيسة التي تحولت الى موقع عسكري ، وبين الطلقات والقذائف، يقف المقاتل ، في سكون الليل وارتجاف ثلاث شمعات وامام جسد المسيح الملقى على الارض شبه محطم ، ليقيم قداسا بين رفاق سوف يدخلون معركة حقيقية بعد دقائق ، هذا الاحتفال يتكرر وسط الشارع حين تندفع مجموعة من المقاتلين وهي تعزف على الآلات الموسيقية وتطلق النار حزنا او فرحا او احتجاجا على موت شهيد ٠ او حين يصل الحوار في المواقع وبين الكمائن المتقدمة الى درجة تصبح معها الكلمة على فوهة البندقية تصرخ بالثأر وحين تصل الى الاسير تنحني بحنان المقاتل ، تقدم كوب الشاي وتطلب من قيادة الجبل معاملة الاسير بشهامة ورحمة ٠

الذاكرة هي تعبير ثانوي ، لكنها لا تبقى مجرد ذاكرة ، تحاول ان تلتقط الايقاع وتشحنه بالمضامين والتجارب الجديدة ٠ كسر الايقاع يحتاج الى زمن اكثر اتساعا ٠ لذلك تلجأ الاغنية الى الايقاع الشعبي وايقاع الاغنيات المعروفة لتحاول ان تقيم تعبيرا خاصا عن حياة القتال والمقاتلين ٠ وعلى الرغم من جدارة محاولات خالد الهبر وبول مطر ، فان الاغنية المباشرة الحية التي يؤلفها احد المقاتلين ثم يؤلفها الجميع بعده بقيت هي سيدة الاغنيات تنشد في المواقع في فترات الهدوء وفي المعسكرات وفي المهرجانات ٠

في « القوات » نماذج هائلة من الاغنية الشعبية الفلسطينية التي تحتاج الى جمع ودراسة ، حيث تبرز مواهب المقاتلين واتجاهاتهم ٠ وفي الحرب الاهلية برزت نماذج اخرى تحمل شعارات محددة وتشير الى مستوى معين من منهج التجربة الجديدة ٠ ضمن الروحية الزجلية « لاح العلم الاحمر لاح بالقنطاري وبالشياح » ٠ الى الاغنية الحقيقية الكاملة ٠ ولعل تجربة « حاتم » من السرية الطلابية واللجان الوطنية هي اكثر التجارب دلالة خلال الحرب ٠ فهي اغنية سياسية تنطلق من ظروف المعركة وظروف الواقع لتقول شيئا محددا ٠ تتكىء على اللحن المعروف لتقوم باعادة صياغته من خلال الكلمة :

« الله الله الارادة الرهيبة
والمسافات صارت قريبة
وان كان اكيد
كل يوم بيخلق

كيف الابطال طلعوا الجبال
ما في شي صعب كل شي بينطال
سقط الشهيد
مية عنيد »

على اللحن الفيروزي « الله الله يا تراب عينطورة » تعود عينطورة عربية من جديد وتتجسد ارادة من صنعوا هذا التغيير في وضوح الرؤية وتحليل ملموس للمعركة ٠ الاغنية هي اشارة لتجربة لذلك فحين تنتقل الى المستوى السياسي المباشر فانها تاتي من خلال تجربة مباشرة :

« ثورة ما يغلبها غلاب — فلسطينية وعربية
تجمعنا وحدة التراب — ووحدة ارض وقضية
والثورة بدها استيعاب — الخلافات الثانوية
لا رجعية ولا انتاب — ثورة استقلالية ··
على نغم الانشودة المشهورة « وحدة مايغلبها غلاب »

الى جانب هذه التجربة المتكاملة يرتفع صوت « ابو بسام » في هذا الردح الجنائزي على الشهيد عبر التأكيد على الوجه السياسي المباشر · او ينطلق من قمة صنين :

« عالشهيد دمعتين — والعهد عليا
فدائي انا ودربي — الحرب الشعبية » ·

لا تزال اغنية المقاتلين بحاجة الى تجميع لكننا نستطيع ان نشير الى سماتها الرئيسية :

فهي اغنية تجربة تقدس الشهادة وتحفظ عهد الرفاق ، وهي اغنية سياسية تبحث عن اداتها الفنية ، تستعير الاداة الموجودة مع محاولة تطويرها وهي اغنية شعبية تنطلق من الموروث الشعبي ومن المعاناة الجماعية ·

في المقابل ، كان هناك ايضا اغنية في الطرف الانعزالي المقاتل · سنقدم هنا نموذجين صدرا بكراس « الثورة الكتائبية » ولا ندخل في المقارنة

« حداي حداي فدائي خطي — تصيبوا متل الترغلة
هجوم عليه فطشلوا دينيه — لحم عليه ما تخلي
هجوم عليه فقرلوا عينيه — مثل الوحش البري
وان هجم على بيتك — قرطوا رصاصة بيصلي »
« وعين الرمانة — ساحة الدكوانة
جثث مليانة — فدائية عم بتموت »

الفاشية الصغيرة · شحن بيولوجي غير سياسي · أستقطاب للزعران والمرتزقة ومحترفي القتل · ولا مجال للمقارنة ·



الحائط

بيروت غابة الاسمنت · وحرب المدن ، تجري بين جدران الغابة ، بين الابنية العالية والشوارع الضيقة · يصبح الحائط عنوان المدينة ، والكتابة عنوان الحي ، والملصق نبرة الوان احتفالية ·

وحدة الحي ليست في الحي المواجه ، بل كذلك في الداخل • هنا ياتي الحائط واليافطة ليكتبان شعارات الوحدة • الحائط هو بهذا المعنى جهاز اعلام، وحدة اعلامية عليها ترفع الشعارات وتحدد المهمات • هكذا ، الانتفاضات الجماهيرية تبحث عن اسلحتها الخاصة • في ثورة اكتوبر كان مايكوفسكي مع مجموعة من الفنانين المستقبليين يصدرون بيانا يعلنون فيه استعدادهم لرسم الملصقات وكتابة الشعارات للقوى الثورية • وخلال الثورة الثقافية الاولى والثانية كانت كتابات الحائط هي اداة الادانة الجماهيرية ، وفي انتفاضة ايار في فرنسا اصبح الحائط ديوان شعر تتاخى فيه اللغة : الشعارات السياسية والمقاطع الشعرية التي تمجد الحلم •

وفي بيروت كان الحائط ، اداة اعلام ، عليه كتبت الشعارات ، وفي وسط شوارعه رفعت اليافطات • وخلال المعارك احدثت فيه فجوات التسلل ، احرق ، وبقيت غابة الاسمنت شاهدا على اشكال الممارسة الجماهيرية •

كانت كتابات الحائط تعبيرا عن واقع القوى السياسية لذلك كانت تحمل اكثر من اتجاه :

١ ـ شعارات سياسية واضحة تعبيء الجماهير في سبيل انجاز مطالب محددة : لا للحكومة العسكرية ، نعم لتعديل قانون الانتخاب • ، لا للتقسيم•••

٢ ـ شعارات ايديولوجية : المطرقة والمنجل • لا للطائفية البغيضة • لا اله الا الله • فتح ديمومة الثورة والعاصفة شعلة الكفاح المسلح • نعم لعروبة لبنان ••••

٣ ـ شعارا تحريضية وتكريمية تل الزعتر لا يسقط • شارع الشهيد•••• نموت واقفين ولا نركع • نعم لجيش لبنان العربي ••

٤ ـ شعارات محلية وتتعلق باحداث مرت في الحي او باحد قادة الحي: اهلا بالبطل ••• او ساهموا في حملة النظافة • من الواضح ان الشعار السياسي هو كل شيء على الحائط • وهو في اشكاله المختلفة يعبر عنحالة جماهيرية اكثر مما يعبر عن مطالب ملموسة او مهمات محددة • الاساسي هو التوقيع ، جميع اليافطات وكتابات الحائط موقعة وكلها يجمعها في المحصلة

شعاران : عروبة لبنان وحماية المقاومة · هذه هي الشعارات الفعلية والباقي يفترض انه متضمن فيهما وهو يتغير بتغير الظروف اما هذان الشعاران فثابتان طيلة الحرب ·

توقيع الشعار اهم من كتابته · الحائط هو وسيلة اعلام تنظيمية · لذلك كان التوقيع في بعض الاحيان اكبر من الشعار واكثر اهمية منه · التوقيع يشير الى قوى محددة ، بينما الشعار لا يشير اليها بالضرورة ·
كان الحائط ملونا ، ممتلئا بالصور والرسوم والكتابات من مختلف الاحجام والالوان ، الى درجة دفعت احد الاصدقاء القادمين من المناطق الانعزالية ليقول : ماهذا ؟ الوان وملصقات ورسوم وفن ··· عندنا لاوجود لهذا ، انتم كأنكم في عيد ·· عيد ، اذا شئنا ان نكون متفائلين جدا نقول اننا في عيد ! الجدران كانت تحتفل بالعيد على طريقتها الخاصة · الملصقات في كل مكان ، الشهداء في كل مكان · المقاتل ينظر الى الحائط وكانه ينظر الى مرآة · ملصق الشهيد في هذا العيد الدموي كان هو العلامة· الحائط اصبح ملصقا كبيرا دون ان يخطط احد لذلك · تنافس التنظيمات وكثرة الشهداء تكفلت وحدها بتلوين الحائط ·

الملصق : هو تعبير بالصورة واللون والكلمات عن فكرة محددة ، وضع الشعار السياسي داخل حركة من الاشكال تجعله اقرب الى عقول الجماهير وعواطفها · يشير ضياء العزاوي (فن الملصقات في العراق) الى تحديد الملصق على النحو التالي : « الملصق مطبوع يصمم من اجل ان يفهم من نظرة سريعة · وهو يجمع مؤثرات بصرية مباشرة بوسائل اتصال مختصرة، ذات قدرة على منافسة المحيط المشوش بصريا · ولكي يكون كذلك يجب ان يحتفظ بالوضوح والتميز· فالملصق اذا ، تعبير عن فكرة ، فهو بسيط في تكويناته ، مكثف في كل جزء منه · ولان الفنان يسعى من خلاله الى تحقيق هذه الفكرة عبر التغلب على المشكلات التي تظهر ، فانه يتضمن عنصرا ذهنيا عميقا » ·

عربيا كان الملصق الفلسطيني هو العلامة ، فهو وحده استطاع ان يستقطب فن الملصقات حول قضية سياسية ملموسة وحول الصورة واللون الى اداة تثقيف سياسيين واذا كانت رومانسيته تأتي من كونه ولد عمليا حول صورة الشهيد ، فان الشهيد يبقى هو جوهر الملصق الفلسطيني · ليس هناك ثورة تقدس الشهادة مثل الثورة الفلسطينية ، ولم يسبق ان اصبحت صورة المقاتلين الشهداء هي عنوان المسيرة في اية ثورة في العالم · قبل الحرب الاهلية وفي اثنائها كان ملصق الشهيد هو الاساسي ، اما الملصق الآخر ، الملصق السياسي فلا يزال مجرد ملحق صغير بالملصق الاول ·

جميع الشباب يهيئون صورهم ، وقبل النزول الى الكمين يؤكدون على رفاقهم وضع صورة محددة ومختارة في ملصقهم · الملصق هو مرآة المقاتل ، ينظر اليه باعجاب وحزن : كلنا على الطريق ، وحين يأتي خبر استشهاد اخ او رفيق ينظر الجميع الى الحائط حيث الملصقات (يحي رباح) · من هذه اللحظة التي تمتزج فيها الواقعية باكثر صورها مأساوية بالدهشةالقادمة من الموت ، وصف معين بسيسو في قصيدته « غزال صنين » هذه الحالة :

« يذهب للخندق ·
ضيف اخر يا بيت الشهداء
الشهداء الجدد ، على مائدة الشهداء القدماء ·
الملصق فوق الملصق ،
فوق الملصق ،
فوق الملصق ،
لو احرقت الصورة ·
سوف تصير قديما فوق الحائط ·
الان المطبعة تدور ·
وغزال اخر ·
يمشي والالوان تغطيه ،
الى الحائط ملصق » ·

ملصق الشهيد : تكريم ، تخليد ، حث على القتال ،تمجيد قيم الشهادة في سبيل قضية · الاساسي هو صورة الشهيد المغطى بالالوان ، كأنه يعود الى الطبيعة فيتحد بالعناصر الملونة · المهم في ملصق الشهيد اذن هو الصورة والالوان الى جانبها ، الاحمروالابيض اوالابيض او الاخضر أو الازرق ···

اذا اخذنا الملصق العادي الشائع، ملصق المقاتل المجهول فماذا نلاحظ ؟ الصورة وكتابة الى جانبها · الكتابة لا تدل على شيء · تشير الى ثلاثة اشياء · الاسم · متى ولد · متى استشهد وكيف؟ ملصق الشهيدلايريد ان يقول شيئا اكثر من اعلان الشهادة نفسها ، والعهد على مواصلة المسيرة ·

هذا النسق العام جرى تعميمه من خلال ملصقات «الاعلام الوحد» وهي اكثر الملصقات عددا وانتشارا : الى جميع الملصقات · ولم يخترق هذا النموذج الا في حالات قليلة · وصار «الملصق فوق الملصق» وكأن الحائط هو ملصقنا جميعا ·

يمكننا أن نشير الى ثلاث حالات حاولات اختراف هذا الشكل من الملصق وهي على الرغم من كونها تبقى حالات خاصة وغير معممة الا انها تشير الى

واقع ممكن ·

الملصق السياسي · حاولت ملصقات القادة الشهداء (جواد ، الحج حسن ، سعد ···) اختراق ملصق الصورة واللون عبر التركيز على مسالة الانتماء السياسي والافكار · لكن ملصقا خاصا لشهيد استشهد على قمة جبل صنين يقدم نموذجا لمحاولة الاختراق السياسية · ملصق عادي مستطيل ، اطول قليلا من ملصق الشهداء · قاعدته اللونية زرقاء غامقة ، الكتابة بالاحمر والابيض والصورة داخل الازرق بالاسود والابيض · الكتابة واضحة الاهداف · ولد الشهيد وسقط الشهيد ، لكن قبلها « شهيد البطولة في صنين » وبينها كتابة سياسية حاولت ان تؤكد قناعات الشهيد محمد شبارو ودوافعه الى القتال · « كان يؤمن ان الجماهير هي التي تقود مسيرتنا الثورية وان المناضل الحقيقي هو الذي يخدم الشعب » · وفي النهاية العهد التقليدي مكتوبا بشكل غير تقليدي « عهدا لك يا محمد شبارو أن تبقى البنادق مرتفعة وان تبقى مسيرة حرب الشعب العربية مستمرة · وانها لثورة حتى النصر» ·

محاولات متواضعة ، في عرس الالوان ، تريد ان تؤكد على المغزى السياسي للاستشهاد · تريد ان تكون بيانا سياسيا ملحقا ببيان الشهادة نفسها ·

الملصق الفني وسط بحر الالوان ، يسترعي الانتباه ملصق متواضع ، فرح ، تقف امامه مذهولا ·· ملصق مستطيل محاط باطار بني اللون ، قاعدته بيضاء ، وفي وسطه شاب صغير السن يضحك باللون البني · لا يبتسم يضحك فرحا بالحياة · وتحت الصورة كتابة بالابيض على البني : « اذا ضحك الموت في شفتيك / بكت من حنين اليك الحياة » (ادونيس) وعلى الجانب الايمن كتابة بخط رفيع « من رفاق الشهيد طوني النمس وحركة وجهة نظر» ·

الملصق الجماعي على خريطة كبيرة للبنان مرسومة ضمن مساحة خضراء شاسعة · عشرات النجوم الحمراء مزروعة في كل لبنان ، وفي البحر امام بيروت· على اليسار فوق كتابة باللون الاسود : «شهداءالحزب الشيوعي اللبناني اذار ٧٥اذار ٧٦» والى اليمين في اسفل الملصق مقطع شعري لمحمود درويش :

لا اعرفهم
لكني اعرف فيهم دربي
وبطاقة حزبي
اعرف فيهم شعبي
لا اعرفهم
لكني اعرف فيهم زمني
اعرف فيهم وطني » ·

وفـــي اسفل الملصق كتابة باللون الاسود : « استشهدوا فـــي المعركـــة ضد المخطط الانعزالي الفاشي دفاعا عن لبنان ووحدته وعروبته وعن المقاومـــة الفلسطينية » ·

نجوم حمراء تصفع الوجه ، وتتغلغل في الخريطة معلنة زمـــن الشهـــادة الجماعية الجديد ·

الى جانب ملصق الشهيد كان هناك الملصق الآخر · ملصقات من مختلـــف الاحجام والالوان ، اشكال ، كتابات سياسية ، اسماء تنظيمات · يمتليء الحائط والاشكال في كل مكان · يمكننا ان نقدم نمذجة اوليـــة لهـــذه الملصقـــات :

ملصق التكريم الذي يراد به الاشارة الى بطولات خارقة ، تمجيـد ابطالها ، تقديمهم كنموذج للنضال (الامينة الاولى زوجة سعادة : الحزب القومي) شهداء **الكورة : الحزب القومي) (جيش لبنـــان العربي : الحصان) ·**

ملصق التحريض ياخذ هذا الملصق حادثة محددة ماساوية فـــي الغالـــب ، ليحرض على الثأر (ماساة البولـــدوزر لن تنسى فـــي المسلخ : الاتحـــاد **الاشتراكي العربي) او عـــلى** اخذ دروس الصمود (تل الزعتر : **الاعـــلام الموحد ·**

ملصق التعبئة السياسية : وافضل نماذجه هـــي الملصقات الكتابات دون صور التي اصدرها الاعلام الموحد : « لا للوصاية لا للتبعية ، لا للاحتـــواء » · **او «مـــع الحركة الوطنية اللبنانية » ··· ـ او ملصقات (القيادة العامة) عن المعارك الاساسية ·**

وقد استخدمت في هذه الملصقات مجموعة من الثوابت :

رموز اخلاقية (الفرس : جيش لبنان العربي) ملصق اتحاد العلماء: **الجنوب** يا عرب (الاعلام الموحد) **رموز تقليدية** (غصن الزيتون ، حمامة السلام الاعلام الموحد) **رموز قتالية :** البندقية ، الكوفية ، المقاتل (الجميع) ، **رموز جماهيرية :** اليد المفتوحة (الاعلام الموحد) القبضة (الجميع) الجماهير نفسها (الاعلام الموحد ، الاتحاد الاشتراكي العربي) · **الصـــورة الفوتوغرافيـــة :** ملصقات جلسة انتخاب رئيس الجمهورية (الحزب الشيوعي) ملصـــــق الشياح (الاعلام الموحد)·· **الرسوم الكاريكاتورية :**) ملصقات الحزب الشيوعي

يمكننا ان نشير الـــى مجموعة ملاحظات حول الملصقات :

١ ـ الكتابة كثيرة حول الاشكال والالوان ، لكنها ليست بالضرورة كتابة سياسية تريد ان تقول شيئا محددا انها اقرب الى الحالة منها الى الشعار السياسي ٠

٢ ـ غياب « الموتيف » الثابت في الكثير من الاحيان ، الذي يجعل الناظر يعتاد ويفهم ويفك الرموز ٠

يمكننا هنا استثناء ملصقات حداد (الحزب الشيوعي) التي ركزت على موتيفات الرسوم الكاريكاتورية والثوابت : نجمة داوود ، ارزة الكتائب ، وثوابت الحركة : نقطة الباء في بحمدون تسقط على رأس الجندي الذي يحاول اجتياحها والنون تتحول الى منجل يقطع رأسه ٠

٣ ـ محاولات الصورة الفوتوغرافية التي تعبر عن نفسها في ملصقي مني السعودي الشياح والكورة (الاعلام الموحد) ٠ حيث يأتي الواقع شامخا وهادئا، يقول كل شيء ٠

٤ ـ محاولة في ملصق ذكرى عبدالناصر (الاتحاد الاشتراكي العربي) لوضع الجماهير في المقدمة ، والقائد كجزء رئيسي ولكنه يبقى جزءا منها مع كتابة تؤكد على دور الجماهير ٠ « لكن عبد الناصر ترك شعبا » ٠
٥ ـ غياب ملصقات السخرية ، والتركيب ، والكولاج على الاشخاص بشكل شبه كامل٠

٦ ـ الامكانات الهائلة التي وضعت بتصرف صناعة الملصق ورق ممتاز من مختلف الاحجام الوان ،اعداد ، ٠٠٠٠٠

٧ ـ غياب ملصقات التوعية الجماهيرية عن القصف او التنظيف ، أو امور اخرى بشكل شبه كامل ٠

الاساسي في تجربة الملصق السايسي انه لم يكن متفجرا على ارض المدن التي تتفجر ٠ الوان في كل مكان ٠ عرس واسماء التنظيمات بارزة حد الاختناق ٠ لا نزال بحاجة ماسة الى ملصقات بسيطة وواضحة وتعليمية مثل ملصق الحلاج ،(ايلول ١٩٧٠) حيث يقف المقاتل الفلسطيني في وسط الملصق محاطا بثلاثة حيوانات مفترسة تمثل اميركا واسرائيل والملكة الاردنية تحاصره وتهاجمه ٠ وفي الاعلى يبرز الامل الثوري على شكل طفل يضيء ممتطيا جواده ٠

الحائط مجموعة الوان ، هذه هي ازمنة التغيير الوطنية · ازمنة تتعايش وتحاول ان تقول بالصورة واللون ، شعار الدم الذي يغسل لبنان ·



وسائل الاعلام

داخل ايقاع الحرب ، داخل المنازل وفي الشوارع كانت وسائل الاعلام في كل مكان · صحف ونشرات لا تحصى ، اذاعات تتوالد اذاعة الصنائع اذاعة عمشيت ، صوت لبنان (الكتائب) صوت لبنان العربي (المرابطون) صوت الناصرية (اتحاد قوى الشعب العامل) صوت النهضة (الحزب السوري القومي) اذاعة الثورة العربية (الاتحاد الاشتراكي) اذاعة حركة ٢٤ تشرين في طرابلس اذاعة التنظيم الشعبي الناصري في صيدا الخ ·

الناس في كل مكان يتلهفون لسماع الاذاعة ، وقراءة الصحف والنشرات (في بعض الاحيان تقرأ مراعاة لخاطر المقاتلين) اصبح الخبر السياسي جزءا من حياة الناس اليومية ·

الواقع ان هذه الفورة الاعلامية تدرجت في الوصول الى هذه التعددية، في البداية كانت الصحافة وحدها هي اداة علاقة الناس بالحرب · الناس تنام على ايقاع الرصاص والمدافع واذاعة لبنان في بيروت لا علاقة لها بما يجري · هنا اخذت الصحافة دورها الكبير · وبدأت الفروق الهائلة في الاعلام الصحفي تبرز بين الحركة الوطنية والقوى الانعزالية · ففي مقابل السفير ، النداء ، المحرر ، الكفاح العربي ··· كان هناك صحيفة العمل شبه وحيدة والى جانبها الشرق والانوار · ربما هذا هو احد اسباب التوالد الهندسي في النشرات الانعزالية · غير ان وسائل الاعلام الرسمية ولا سيما الاذاعة ما لبثت ان دخلت حقل الصراع مع اتساعه وامتداده ·

لن نتوقف هنا عند الصحف الوطنية فاتجاهاتها خلال الحرب الاهلية تحتاج الى دراسة خاصة · كما لن نتوقف عند التلفزيون : باعتبار ان انقطاع الكهرباء تكفل بتحجيم دوره الى اقصى الحدود · سوف نتوقف عند ظاهرتين : الاذاعة والنشرات الوطنية ·

الاذاعة : « اختلط الحابل بالنابل » ·

في بداية الحرب ، كان دور الاذاعة هامشيا · فالصراع على السلطة

بين جناحي البرجوازية اللبنانية عطل اغلبية المؤسسات الرسمية ومن ضمنها اجهزة الاعلام · هنا برزت اذاعتان بوصفهما مؤشرا رمزيا : صوت لبنان (الكتائب) وصوت لبنان العربي (المرابطون) اهمية هاتين الاذاعتين هي **الرمز** · فهما يشيران الى ان الحرب سوف تستمر وقد وصلت الى نقطة وجود اعلامين اذاعيين مع ما تحمله الاذاعة من رمز الانقسام والصراع حتى النهاية · نحن في أزمة مفتوحة تقول الاذاعتان · غير انه مع تصاعد حدة القتال ، وفي غمرة المساعي التي بذلها رئيس الوزراء رشيد كرامي لايقاف القتال على قاعدة بعض المكاسب الاسلامية بدأ يبرز دور الاذاعة من خلال صوت **شريف الاخوي** · لقد تحول هذا المذيع النشيط الى ظاهرة عامة · الصوت البطيء ونبرة الرجل الطيب القلب السمجة ، عبرت في احدى لحظات الحرب الاهلية عن ظاهرتين متلازمتين : ـ

١ ـ انها جواب على الضياع الجماهيري خلال الحرب · فاقد فاجات الحرب واستحالة ايقافها الجميع بما في ذلك الذين خاضوها · فاتى صوت الاخوي التطميني ، الذي يدعو الى ايقاف القتال ، وكانه جواب على هذا التساؤل الجماهيري ، لكنه جواب يصاغ عبر اسئلة بليدة ، وكانه يريد ان يضيع الناس ·

٢ ـ انه جزء من اخر حشرجات الايديولوجية المسيطرة التي يمكن بعثها (عاد شريف الاخوي الى الاذاعة مع دخول قوات الردع) · هذه الايديولوجية التي تعترض على القتال وضد المسلحين ، تعهر بطولات الحرب ، وتتوجه الى الاكثرية الصامتة !

لكن شريف الاخوي سقط مع سقوط الاحدب · انقسمت الاذاعة · في « عمشيت » برز نباح جبهة الكفور وبرز خط اعلامي واضح : المعركة هي مع الفلسطينيين · اما في الجانب الوطني ، فقد ارتفع صوت غسان مطر وبرزت نبرة احمد الخطيب في لحظة بدت وكانها الولادة التاريخية وصيغت مجموعة من البرامج الثقافية والترفيهية ابرزها اربعة برامج :

قل كلمتك وامش ، بنبرة شبه مدعية ، تحاول ان تصف الحرب والمستقبل مركزة على معسكر الاعداء ·

الزجل مع زين شعيب عبر تركيزه على مشاكل الجنوب من منطلقات وطنية · وقد جاء هذا البرنامج في سياق انشقاق « فرقة زغلول الدامور » وهي احدى اهم فرق الزجل في لبنان الى اتجاهين : زغلول الدامور في اذاعة

الكتائب وزين شعيب في اذاعة الصنائع :

« بالكنت معنا وصرت مش معـنا
تذكر انا واياك كنا رفاق
بالامس كان الدف يجمعـنا
الدف انفخت وتفرقوا العشاق » ٠

برنامج « **ميزان الحقيقة** » الذي كان يركز عـلى اصطياد الشعارات والمقولات الاعلامية والسياسية الانعـزالية ويرد عـليها ٠

بعدنا طيبين الذي قدمه الثنائي زياد الرحباني وجان شمعون وجاء كتعبيـــر عن لحظتين متداخلتين :

١ ـ رفض بعض ظواهر الحرب ، الاخطاء : التجاوزات ضمن سخرية لاذعـة وفي قالب مالوف ، الحوار بين شخصين امام جهاز الراديو ٠ وهي ظاهـــرة مالوفة في جميع البرامج الاذاعية ٠

٢ ـ توجيه نقد مباشر الى التيار الانعزالي ، من خلال فهمه الداخلـــي وفهم تناقضاته ٠ لذلك فالبرنامج يكتسب اهميته بوصفه البرنامج شبه الوحيد للاعلام المضاد الموجه الى صفوف العدو ٠ رغم انه لا يزال يتعامل مع العروبة ومع الانتماء الوطني الصريح بحذر ٠

ان اهمية مساهمة الثنائي زياد الرحباني ـ جان شمعون ، تكمن فـــــي محاولة كسر رتابة الاعلام الوطني والوصول الى الطرف الاخر ، عبر نبـــرة تمتزج فيها الفكاهة بالنقد المر بالتردد السياسي في بعض الاحيان ٠

في الوقت الذي كان فيه الاعلام الانعزالي بجميع اجنحته يركز على مسالـة واحدة تفسر الحرب ٠ كان الاعلام الوطني يتخبط مع الشارع في عدم القـدرة على تحديد اسباب الحرب بشكل ثابت وتحديد الخط الاعلامي التكتيكي فـي مراحل تطوره المختلفة ٠ فالاعلام كان ضائعا في تحميل مسؤوليـــة الحـــرب لفرنجية شخصيا او للتسلط الماروني او للمؤامرة الامبريالية ، ولم يكشـــف لجماهير المستمعين الخيط الواحد الذي يربط بين الظواهر باسرها ٠

« اختلط الحابل بالنابل » هذه الاغنية التي تحولت الى لحن يردده الجميع تحولت عن هدفها الاعلامي ٠ ففي الوقت الذي اريد بها ان تكون جزءا مـــن الاعلام المضاد في لحظة دخول قوات الردع المناطق الانعزالية ، اصبحـــــت تعبر عن مأساة الاعلام ومأساة المواطن ٠ لقد ضاع الناس بين مناطق تركيز الاداة الاعلامية ولم يعد احد يفهم مسار الحرب ، اختلط الحابل بالنابل ٠ وبقيـــت الاذاعة علامة على اشكالية معقدة لصراع قوى متناثرة لا تتوحـــد الا مـــن

خارجها ·

النشرات الوطنية ·

الدور الاعلامي الاساسي في الشارع الوطني قامت به الصحف الرسمية· لكن النشرات عبرت ، بنسب متفاوتة وضمن خط وطني عام معاد للطائفية والعنصرية ، منفتح الى اقصى الحدود على المسألة القومية ، عن اتجاهات في اوساط وطنية برزت خلال الاحداث ، او تحمل خصوصية لا يعبر عنها في الصحف الوطنية الشرعية ·

ان ظاهرة نمو القوى الجديدة (المرابطون ، الاتحاد الاشتراكي ، التنظيم الشعبي الناصري ، لجان الحركة الشعبية ، التيارات اليسارية : التجمع الشيوعي الثوري ، رابطة الشغيلة ··· والقوى اللبنانية التي على علاقة بفتح : اللجان الشعبية الوطنية ، التنظيم الشعبي اللبناني ··· وقوى اخرى: انصار الثورة ، رابطة ابناء المصيطبة)· ودور هذه القوى الحاسم في القتال الى جانب المقاومة والحركة الوطنية ، فرض ضرورة ايجاد اشكال جديدة للتعبير ليست مستوعبة في قنوات الاعلام الشرعية المرخصة ·

ان النقاط الاساسية التي تستوقفنا امام هذه النشرات تتمثل في المحاور التالية :

١ ـ انها تعبر عن تيارات الشباب · فهذه الحرب ، سجلت كممارسة قتالية تدخل قطاعات جماهيرية كانت تقليديا على هامش السياسة اللبنانية ، فاتت الحرب الاهلية لتسمح لهذه القطاعات الجماهيرية : طلاب ، صغار الموظفين ، مثقفين ··· بالانخراط في السياسة ·

٢ ـ انها تحمل هموما جديدة الى الكتابة السياسية · هموم الممارسة الفعلية في اوساط الجماهير · لذلك كانت تحاول البحث عن اسلوبية جديدة ، ومقترب جماهيري جديد · تلخص بعض تفاصيل الممارسة لكي تحولها الى دروس ·

٣ ـ غياب الطابع الاحترافي الفعلي عنها · فهي في كثير من الاحيان تتميز بعدم القدرة على ارساء ابواب ثابتة · وبهذا المعنى تلعب دور المنشور السياسي · يمكننا هنا تسجيل بعض الاستثناءات · لعل اهمها نشرة «صوت الجماهير» التي استطاعت ان تكون احدى اجمل وانصع تجارب الكتابة خلال الحرب الاهلية · حيث قدمت تراثا متكاملا ، ومحاولة تلخيص للتجارب الشعبية

ضمن منهج سياسي واضح بشكل رائع ·

يمكننا ان نصنف هذه النشرات ضمن ثلاث اتجاهات رئيسية :

الاتجاه القومي الراديكالي : الذي تعبر عنه « **صوت الجماهير** ، **المرابط** ، **القومي العربي**» بشكل رئيسي · وهو اتجاه يحاول استيعاب تجربة النضال القومي العربي بافق جذري وضمن فهم وطني للتحالف الطبقي في مرحلة التحرر · وافضل تعبير عن هذا الاتجاه هو كون **صوت الجماهير** رغم انها تصدر عن مجموعة سياسية : « لجان الحركة الشعبية » فانها كانت جريدة جماهير الحركة الوطنية بكل معنى الكلمة ·

الاتجاه المرتبط بالثورة الفلسطينية : الذي تعبر عنه نشرات **الفجر** ، **وطني** · وهي على تفاوتها استطاعت وخاصة **الفجر** ان تعبر عن اتجاه لبناني جذري ، يلتحم بالقضية القومية وبالنضال ضد العدو الرئيسي انطلاقا من قواعد لبنانية محلية ، هذه التجربة الخاصة التي تعبر عنها **الفجر** ، لم تستطع حرفية النشرة وافتقارها الى ابواب ثابتة ان تعبر عنها بشكل متكامل فبقيت اشبه بمنشور سياسي ·

الاتجاه اليساري : الذي عبر عن نفسه عبر مجموعة لا تحصى من النشرات الحرفية ، المتقطعة والثابتة · الثوري ، راية الشعب ، صوت الشياح ، الاتحاد ، الشروق ··· نستثني من هذا التصنيف نشرة التحرير (منظمة العمل الشيوعي) والاخبار الشمالية (الحزب الشيوعي) لانهما لا تضيفان جديدا على اتجاهات صحف الحزبين ·

يمكننا ان نشير الى مجموعة من المحاولات الخاصة في هذه النشرات :

– هناك دائما باب خاص بالشهداء · وهو باب ثابت ، لا يكتفي بالاشارة الى اسماء الشهداء ، بل يشير الى مناقبيتهم ودوافعهم للقتال ·

– هناك محاولات كاريكاتورية ثورية تبلغ ذروتها في **المرابط** التي حافظت منذ عددها الاول على تقليد نشر الصورة الكاريكاتورية ·

– البيان السياسي الذي يتضمن ضرورة في جميع الاعداد باحجام مختلفة ، يهيمن على العدد **الفجر** ، او يكون مقدمة له **صوت الجماهير** ·

– محاولات للاشارة الى واقع الطرف الاخر · تبلغ ذروتها في **صوت**

الجماهير عبر سلسلة من المقالات والتحليلات والاخبار عن الطرف الانعزالي ٠

ـ اهتمام جزئي بالادب ٠المرابط ، صوت الجماهير ٠٠٠٠ ونشر بعض القصص والقصائد والمقابلات الادبية ٠

ـ التركيز على الممارسات المسلحة والجماهيرية ومحاولـــة ابراز دور التنظيم الذي تمثله النشرة ٠

ان التجربة التي ارادت ان تعبر عنها هذه النشرات ، نجحت احيانـــا وفشلت احيانا تتلخص في مسالتين :

١ ـ ان تجربة الجماهير تستطيع ان تقول الكثير ٠ وهي لم تكتســـب بعـد ٠ ويمكن للمناضلين كتابتها كي تشكل تراكما من الخبرات والتجارب ٠

٢ ـ ان انعطافات الحرب ولدت في بعض الاحيان ترجرجا في التحليل ، عدم قدرة على الرؤية الواضحة وهذا يعود اساسا الى هذا التعدد الاجتماعـــي والفكري الهائل الذي يقف خلف هذه النشرات ٠

لقد قالت النشرات اشياء كثيرة ، لكن المهم انها تشير الـــى منابـــع واتجاهات القول ٠



الحرب الاهلية ، هذا الزمن الكثيف بالاحلام والممارسات ، هـــو علامـة جماهيرنا ٠ وجيلنا الذي ولد فكريا وسياسيا من جديد ، داخل اللهب ، داخل ازمنة التغيير ، « يخرج من الحرب ليدخلها من جديد » ٠ هذا زمن الشعـب ، زمن الفقراء ٠ وهو يسير في خطه حتى لو تعرج الخط كثيرا ٠

فالجماهير التي خاضت الحرب تعلمت الكثير وسوف تقول الكثير بعـد ان تحطمت الكثير من الاصنام وانهارت الكثير من العوائق ٠

٧٣، ٧٦ قصيدتان

مؤيد الراوي

I

مكان استقر فيه

هنا انتهت مقدرة امتلائي : بيروت ،

مكان ، ثقيلة بها رائحة البحر ، تطرد من الزوايا ، والمطاعم . رائحة بغير فراء ومن غير عائلة .

هنا ، منذ الصباح ، مطفأة مظلة النوافذ ، فيها سهم دهشتي . حاملها انا ، قاتلها انا ايضا .

بيروت سرايا المرأة تحمل زهر الحشيش فتحملني غافيا .

بيروت ملح . مجموعة من الفواكه في جبل الغابات مصابة بالبرد .

بيروت سحاب متجول فوق همومي ، وردي الغموض . اسود . احمر بلون نصائحي .

هنا مقدرة الانتشاء المؤلم للغربة ، مثلما ياتي القروي بحذاء الاسماك . فيسكت امامي .

هنا دواء مسكوب على تراب الريح يطلب جرحي المنقول من عاصمة الى عاصمة فمن يحملك ويحملني

عبر النداء يحملك ويحملني للجلوس مع امراة واحدة ، امام منضدة واحدة اشرب معهم ايامي ،

هنا زوبعة الرجل يرتب ايامه فوق منضدة .

بيروت (اعرفها) ريح مجوفة ، امسكها · نصيحة متاخرة تغطي مرافيء يدك ايتها الايام ، تأتي من غير قامة ووجه

بيروت ثكنة الجوع مغطاة بملابس طويلة وقصيرة كما للغابة ·

بيروت مهمة الرجل اعتذار من العزلة اشد شوقا من الموت ، هو اعتذاري من العزلة ·

هنا رؤوس الفجر قامت مقصلة ·
هنا منفى السهولات · نداء · معذرة ·

هنا ايام البحث مثل انتحار الماء ، ساحت على سواحلي ·

هنا زهور الليالي وصاية بماء ، تزحف بمجرفة الزوايا · رائحة اوكيديـا الحزن تدخل البارات لتنام طليقة بعض الاحيان

هنا تقف ذاكرتي ، تمنع عن عبور الصداقة · تمنع عن عشقها

هنا حبي المشطور يهوى الانطفاء بملح الخراب

بيروت كيف اعبر هموم الشك ، كيف اطلب مجرفة لاندثاراتي القديمـة

ابحث عن مخبأ ·

او كيس ·

لنقود عواطفي ، ابحث عن ساحل تأريخي المتعرج

مثل مغامرتي سهر الجحيم يقظ ببلطة القتلة يحاول الملائمة

جريئا

مع السقوط

لاحمل

الثورة ·

كانون الاول ١٩٧٣

II

مقدرة على الثبـات

في انشقاق الاحمر خطرت لمدينتي ان تجول ؛ فاسمعت باللون مختلـف البلدان

صوت الريح ، يدور دورة ، ثم يغادر وضوحي ٠

لكن الريح تكبو ، تنحني ، وما عادت تستقيم الريح لتمضي :

حدائقها الحديد والمياه في خزانات عالية

تنشق في الاحمر

تنشق في الاخضر

تنشق في

الشعب ؛

يحمل خبزه لساحات الصباح فلا يؤكل ٠

تنشق في الخليج الاحمر والاخضر الوردي :

مرجانة الثورة ، صاعدة المياه ، الى الملح ، راكضة نحو اسبانيا ٠

محاصرة بالحرس تمضي المقدرة

مطفأة العمر معلقة بين صدفتين ٠

في انشقاق الاحمر

اكدت لي المقدرة بان الساحات وجبال العناصر معامل واقتصـاد ٠

ليس فيمقدرتها المبايعة ، وما في ليلها يسقط الطائر بجناحين

تاركا البلدان والمدن ٠

اية بلدان نطلب

اية مقدرة نؤسس في المدن ، بينما حافة القلب على رأسها بلطة

في انشقاق الاحمر اكدت لنا قوة العمر
ان نؤسس الاحتلال ، وما جاء من الطوائف نؤسسها سحابا ،

اطفالا بيدهم شيلي يتعلمون السرقة فيخفون البلاد في الشيلي

يكرهون الشرطة

في جيش المدن ٠

في انشقاق الاحمر المخفي يذهب الاطفال الى الموج فيمسحون صيـــدا بالرخام ٠

في انشقاق الاحمر الواضح تغيب معرفة الاعمار الصغيرة بالصـــراع الطبقي

وشقاء الخيانة

يلزم

قتله ٠

تعالوا ايها الرفاق ننفض الفرح ، ونقطع الكلاب

الآهلة ، تعيش في مياهنا العالية

نخنق المشرف على مقدرتنا بياقة قميصه ٠

في انشقاق الاحمر تتقاطع ، باتجاهات الغرب والشمال ،

الات حادة ،

من البلطات السعيدة ، مفتوحة قبالة ايادينا تشق النجوم

وهذه الاقيانوسات من خلجان الانفجار ملوحة

كعلم اسود

كعلم احمر ، لنطلق الاحمر ، او نفلق جرح ثباته ٠

في انفجار الاحمر

اية اممية نؤسس

في انفجـــار الاحمر

نار حبك في ليل ، ايتها الثورة

نار حبك في حقد الدمار ايتها الاسلحة

وجمرك في ساحاتنا ينتظر في غرفنا

جسد

بين الخراب

و

الاممية ٠

ايلول ١٩٧٦

أبو جابر الخليلي
(قصة)

توفيق فياض

كانت ساعة التيراسانتة في القدس ، قد دقت الثانية صباحا ،حين كان ابو جابر الخليلي لا يزال يجلس على كرسيه القش الصغير ، متلفعا بمعطفه الزيتي الثقيل ذي الازرار النحاسية المخضرة ، التي لا تزال تحمل التاج البريطاني منذ عهد الامبراطورية الزائلة ، وقد اسند ظهره الى حائط البنك البريطاني على افريز الشارع المقابل لساحة باب العامود ، ضاغطا قبعته الزيتية الكالحة ، حتى مست حوافها المهترئة ، ياقة معطفه المتسخة المرفوعة ، واتكأت على رفرفحاجبيه الاشيبين البارزين المتقابلين ، حتى لم يعد يبدو من وجهه الاثري ، غير انفه النسري الانقر ، وذقنه الاستي المغروز ، المطل من بين ثنايا كوفيته المرقطة ، الملفوفة على رقبته تحت ياقة المعطف ، زيادة في الحذر من غدر البرد القدسي القارس في مثل هذا الوقت ، والمخالف لكل تقويم فصلي · اذ ليس ابو جابر الخليلي من يخدعه مزاج الطقس في القدس ، وتقلباته المفاجئة ، فهو يعرف مزاج الطقس في القدس اكثر من معرفته لمزاج ام جابر في آخر الشهر عادة ، بل وحتى من الطقس نفسه · ويكفيه ان يطل بأنفه خارج نافذة منزله الحقير في باب الاسباط، في اي ساعة من ساعات النهار ، ليقول لك كيف سيكون الليل ، واذا ما كان عليك تمديد خدمة معطفك الشتوي لتلك الليلة ام لا ، كي لا تصاب بنزلة صدرية في عز الصيف ، والعياذ بالله ·

ولم يكن ابو جابر من هواة التسكع في انصاف الليالي ، والجلوس على كرسي من القش على افريز الشارع ، في هذا البرد ، كالقرد المربوط على بلاطه ، كما قد يظنه من يجهله ، ومن يجهلك عادة يظلمك · ففي الحقيقة أنه كان يفضل الف مرة ، الانجعاء الى جانب ام جابر ، والتمطط تحت اللحاف في مثل هذا الطقس البارد ، والاحتكاك بجسدها المربرب الدافيء · الا أن رزق العيال له احكام ، ولكل رزق نطة ، ونطة « ابو جابر الخليلي » لسوء حظه ، اختارت الليل على كبر موعدا لها ، وحرمته الكثير مما احله الله في الحلال من نعمة الليل ، الى

جانب ام جابـــر ٠

وخلاصة القول ، ان « ابو جابر الخليلي » كان مضطرا لهذه النطة ، لانه كان يعمل حارسا ليليا ، ومنذ عشر سنوات ، اي منذ كان في الثانية والاربعين من عمره ٠ اما لماذا طاح على هذا الكار النحس على كبر ، فذلك لانه كان قبـل ان يصبح حارسا ، يعمل شرطيا ٠ ولم يكن ابو جابر شرطيا عاديا ككل رجـــال الشرطة ، بل شرطي تحارير ، اي اخف وانظف وظيفة يتمناها شرطي قنوع بمـا قسمه الله له مثل « ابو جابر » ، ولا يطلب من الخالق عز وجل ، غير الصحـة والعافية ، كي لا يقصر في حق ام جابر وفي حق الاولاد ، الى ان تحيله الدولة على المعاش بعد عمر طويل ، فيفتح له دكانا صغيرا لصق البيت ، ويقضي بقية العمر بالقرب من ام جابر وبيت الله ، بعد أن يكون قد زوج الاولاد وارتاح من شقائهم، ولم يعد لديه من هم الا ان يتقاسم « هالرغيف » الحلال مع ام جابر ، وهي معززة مكرمـــــة ٠

ولم تكن واجباته في الخدمة كشرطي تحارير ، والحمد لله ، تتعدى اكثـــر من ابلاغ الناس اوامر الحجز والحبس الصادرة في حقهم ، وان يداوم احيانا في سجن التوقيف في « القلعة » ، حيث كان يرافق الموقوفين الى بيوت الخلاء لقضاء حاجاتهم ، او للاستنجاء والوضوء ، وعلى اسوأ الاحوال ، كان يرافق احــد المخاتير ، كممثل للقانون ، الى بيت احد المحجوز عليهم ، لتنفيذ امر الحجز ٠

وهكذا ظل ابو جابر راضيا بمهنته هذه ، ويحمد الله عند طلوعها ومغيبها ، على رضاه ونعمته ، الى ان اختاره المثل القائل « اعمل خير شر تلقى » لاثبـــات صحته عليه ، اما الخير الذي كان يعمله ابو جابر دائما ، فهو حفاظه علـــى الاخلاق ، بادئا في بيته ٠ اذ كان من اشد الناس حفاظا على الاخلاق والحشمة، وكان هذا يكفيه دلالة على انه خليلي ابا عن جد ، رغم انه مولود في القدس ، حتى انه كان يرى ان مجرد النظر الى فتاة في الشارع او على البلكون نظرة مقصودة، او اية كلمة من باب تسميع الكلام المبطن،سواء كان ذلك بقافية او بغير قافية،يعتبر من باب الزنا والفجور ، ويستحق صاحبه الجلد عليه ٠ فكيف وقد وصل الىعلمه، وثبت بالدليل القاطع ، ان احد ضباط مخفره الاردنيين ، على علاقة اثيمة بامرأة مشبوهة ــ والله يستر عالولايا ــ من حارة الفوارنة ٠ واكثر فقد منحها حمايته وحماية المخفر بما فيه أبو جابر نفسه ، فراحت تصول وتجول على رأسها ، دون اي رادع ٠

وبالطبع ، ليس أبو جابر الذي يسكت على ذلك ، فلا بد وأن يبريء ذمتـه امام الله ورسوله بـ « الامر بالمعروف والنهي عن المنكر » ، كما جاء في كتابـه

العزيز · وسرعان ما وصل امر « ابو جابر» بالمعروف ونهيه عن المنكر اسماع الضابط المذكور ــ ولا داعي لذكر اسمه ، فله رب يحاسبه ــ فاصدر امرا باعتقاله · ومع من ؟ مع الذين كان قبل ساعة فقط ، يرافقهم الى بيوت الخلاء !! والحجة ، انه شتم جلالة الملك ، وكان يحرض المساجين على النظام ، والانكى من ذلك كله ، انه قومي عربي ·

والحقيقة انه لم يكن يعرف ما خطورة ان يكون رجل مثل « ابو جابر الخليلي » ، قوميا عربيا ، مما جعله يسخر من الضابط المذكور ، ويقول بكل اعتزاز ، انه بالطبع قومي عربي ، والا ماذا يكون اذا لم يكن قوميا عربيا ، « صهيوني ؟ واللا اميركاني !!؟ » وعندما عرف ماذا تعني هذه الكلمة ، حمد الله الف مرة أنه لم يود بنفسه في داهية بهذا الاعتراف الخطير الذي لم يجبره عليه احد · اما بالنسبة للتهمة الاولى والثانية ، فقد رفض ان يجيب عليهما مطلقا ، لانهما باطلتان من اساسهما ·· « قال ابو جابر شتم الملك قال ! اي هو ابو جابر عمره شتم حدا ، ان كان ملك وللا زبال ؟ وللا عمره تعاطى السياسة وتخرف فيها!»

وبفضل ام جابر والاجاويد ، اكتفى الضابط المذكور بعقد مجلس تأديبي له، حيث أخذ بعين الاعتبار سنوات خدمته العشرين ، وماضيه النظيف ، فاكتفى « بترميجه » فقط ، وبدون مكافاة · وهكذا خرج ابو جابر ، يا ربي كما خلقتني·

ولكن ليس ابو جابر الخليلي ، من يسكت على هذا الظلم وقطع رزقه ، اذ أن قطع الارزاق من قطع الاعناق ، فراح يطس الضابط المذكور ، الشكوى «بقفا» اختها ، مع ان الشكوى لغير الله مذلة ، ولم يترك وجيها الا وطرق بابه ، « من انور نسيبه وجر » ، واقسم ان لا يترك المسالة فالتة ، حتى لو كلفه ذلك بيع مصاغ ام جابر والسفر الى عمان ، والجلوس امام قصر رغدان ، حتى يخرج الملك « فيسبق » له ويرمي بنفسه على سيارته ، ولن يحل عنه حتى يسلمه العريضة ، التي كان قد كتبها له أحد الاساتذة الفهمانين سلفا ، في حق الضابط ، ونقلها هو بخط يده كي لا ينطبق على ذلك الاستاذ هو الآخر المثل ، ثم دار بها على كل اهل الحارة ، ، حتى جمع اكثر من عشرين توقيعا وبصمة ، تشهد كلها بان « ابو جابر الخليلي » ، رجل يخاف ربه ، ويحب مصلحة الناس ، ولم يتعاط في حياته كلها ، لا سياسة ولا خساسة ·

وكانت هذه الفكرة قد استقرت في رأسه ، وعزم على تنفيذها · وقد ذهب الى سوق الصاغة فعلا بسوار لام جابر يثمنه ، لولا ان جاء اليه ابن حلال ، ولا داعي لذكر الاسماء ، وافهمه على حدة ، بان يترك هذه الحكاية وبدون فضائح، وان عليه ان يحمد ربه لانهم اكتفوا بترميجه فقط ، ولم يدفنوه في سجن الجفر حيا،

لان عزوة الضابط الذي نهاه عن المنكر ، تشمل فلانا وفلانا من أهل القدرقوالحول ليس في قصر رغدان وحسب ، بل وفي « بسمان » و « الحمر » ، ويكفيه خال الملك شخصيا • ناهيك عما لتلك « المستورة » من سلطان في كل المخافر في القدس ، هذا اذا نسي ان تهمته توصل الى المشنقة ، وليس الى الجفر وحسب • ومن ثـــم « مين انت يابو جابر ، اي هو الكف بلاطم مخرز !؟» •

ولان اللبيب من الاشارة يفهم ،فهم ابو جابر الخليلي ، واقتنع بالمقسوم ،ليس خوفا من سجن الجفر او من المشنقة ، اذ ليس ابو جابر الذي يهاب الموت ، وانما اشفاقا على « رملة » ام جابر وهو على قيد الحياة ، ناهيك عن انها لا تـــزال في عز صباها ، والسنة الناس لا ترحم ، ومن ثم من يدريه ، فقد تصبح « الرملة» في سجن الجفر « رملتين » فعلا ، اذ لم يسمع في حياته عن شخص دخله وخرج منه •• ولم يعد من العمر قدر ما مضى •

ولان ابو جابر لا يقنط من رحمة الله ابدا ، ويحمده ، « عالمليحة وعالعاطلة» دائما ، رافقه ابن الحلال هذا الى الغرفة التجارية ، فاعطته عصا وبدلة رسميـة ومصباحا يدويا ، ورزمة اوراق صغيرة ليثبتها في الاقفال ، وارسلته لحمايـــة ارزاق الناس في الليل ، من اللصوص والعابثين ، والحمد لله ، ولا يحمد علـــى مكروه سواه ، كله اكل عيش ، وان كان عيش المخفر يؤكل في الدفا والعفا ،وعيش الغرفة التجارية ، يؤكل في الحريق والغريق • ولم تكن أم جابر هذه المرة بحاجة لان تذكره ، بأنه لو راى الناس « مضفحجين في نص الشارع » ان لا يتدخل بهـم ويا ربي اسالك نفسي •

وهكذا مرت السنون ، وكاد ابو جابر ينسى حكاية الضابط والامـــرأة المشبوهة ، وكل ما سببته له من متاعب ، قانعا كعادته بقسمته سبحانه وتعالى ، لولا ما كان مخبأ في الغيب ، وحصل ما لم يكن بحسبان احد ، بل وآخر ما كـان يتصوره ابو جابر انه سيحصل ، اذ بين عشية وضحاها كان الصهاينة قد اجتاحوا القدس واحتلوها ، والعلم الاسرائيلي يرفرف فوق المسجد الاقصـــى ، بعد ان انسحب الجيش الاردني بما فيهم ذلك الضابط الفاسق ، وسلموها لليهود تسليم اليد • وعلى قول المثل « اللي ما بتعب بزيتونه ، بهون عليه قطعها ! »•

ولما كان ابو جابر رجلا عاقلا ، وليس له اي دخل في السياسة ، لا من بعيد ولا من قريب ، لزم بيته مع امجابر والاولاد حسب تعليمات القوات المحتلة وراديو اسرائيل ، بعد ان علقت ام جابر خرقة بيضاء على عود حطب ، وثبتتها فوق باب البيت ، منتظرين الى ان تروق الحالة ، وبعدها « اللي بيجـــي من الله فرج » ، والحمد لله ام جابر كانت حاسبة حسابها وعندها مونة سنة » •

وما كادت تمر عدة اسابيع على هذه الحال ، حتى صحا ابو جابر ذات ليلة على خبط شديد على الباب ، فقفز من فراشه مذعورا وهو يستعيذ بالله ، ورجلاه لا تحملانه حتى لكي يقف ويشعل القنديل ، وام جابر ترتجف الى جانبه كالقصلة ، وتتشبث به كي لا يفتح الباب ، وخاصة انها كانت قد سمعت ، ان الصهاينة يدورون على البيوت ، ويأخذون الرجال ، ثم يقتلونهم بعد تعذيبهم · الا ان « ابو جابر » نهض من فراشه وهو يطمئن ام جابر الى انهم لا بد وان يكونوا قد اخطأوا بالباب فقط ، فكل العالم يعرف ان « ابو جابر » لا يتدخل بشؤون السياسة ولا يكش ولا ينش ، وعليه ان يتصرف بحكمة والا اثار الشكوك حوله ، حتى انهم اذا كانوا لا يقصدونه ، فانهم سيأخذونه اذا ما ابدى اي تصرف يثير شكوكهم ·

وما ان فتح الباب ، وام جابر تضع يدها على قلبها وتقرأ آية الكرسي مشددة على ان يجعل الله من امامهم سدا ومن خلفهم سدا ، حتى انقض عليه بعض الجنود ، واضعين « الكلبشات » في يديه « من الباب للطاقة » ، ودون اي سؤال او جواب · وللمرة الثانية تثبت ام جابر ، انها اصيلة وبنت اصل ، اذ انها حين رأت ان الله لم يجعل من امامهم سدا ، نسيت انها كانت ترتعد قبل لحظات كالقصلة ، وصرخت صوتا من « قحف » راسها ، وهي تقفز من فراشها وتتشبث به حائلة بينه وبين الجنود ، محاولة منعهم من اخذه ، وراحت تشرح لهم انهم لا بد وان يكونوا قد اخطأوا ، مما جعل ضابطهم يشكك فيما لديه من تعليمات ، وينظر الى ورقة كانت في يده ، ويسأله اذا ما كان هو محمد حسين الجابر الملقب « ابو جابر الخليلي » ، والذي كان يعمل شرطي تحارير · فهز ابو جابر رأسه بالايجاب ، وقد فتح عينيه على وسعهما كما لو كان لا يصدق ما يحدث ، وراح ينظر تارة الى ام جابر ، وتارة الى الضابط ، وقد نسي ما هو فيه ، وان يديه مقيدتان ، ولم يعد ليشغله الا كيف عرف هذا الضابط الاسرائيلي ، انه هو محمد حسين الجابر بالاسم ، وابو جابر « الخليلي » باللقب ، والانكى من ذلك انه كان يعمل شرطي تحارير ، في الوقت الذي كاد هو نفسه ينسى ذلك ، وهكذا لم يعد هناك اي مجال للشك في ان الجنود ليسوا على خطأ ، فاقتادوه دون ان يتركوا له وقتا ، يودع فيه ام جابر ولا حتى الاولاد الذين تقاعطوا من حوله كالزغاليل · والى اين !؟ الى المسكوبية !! حيث وجد نفسه في القاووش الكبير ، الذي يعرفه جيدا ، مع ما يقارب الخمسين او الستين رجلا ، حتى خيل اليه ، انهم لم يتركوا رجلا في القدس الا واعتقلوه ·

ومن في القدس لا يعرف ابو جابر الخليلي ، فتجمعوا حوله ، وهم لا يكادون يصدقون اعينهم ، وان « ابو جابر » بلحمه ودمه هو الآخر معتقل بينهم ، وخاصة بعض الاشخاص ممن كان يرافقهم ايام زمان الى بيوت الخلاء ، حين كان يعمل شرطي تحارير · ثم راحوا يسألونه ما الذي فعله حتى اعتقلوه ، واذا ما كانوا

وجدوا عنده سلاحا ؟ ولكنه قرر الصمت ، فلا يجيب الا بكلمة لا اعرف ، لانكلمة لا اعرف تريح صاحبها ، ومن ثم ، فاذا كان الكلام من فضة فالسكوت من ذهب. وهكذا لم يخبرهم بما حدث اطلاقا • وهكذا ظل ما يقارب الاسبوع وهو لا يدري لماذا هو معتقل ، رغم ان الفأر بدأ يلعب في عبه ، بعد ان تحقق ، من ان جميـع المعتقلين معه ، هم ممن وجدواعندهم سلاحا ، أو من اصحـــاب السوابـــق السياسية على عهد الملك حسين ، فمنهم « القوميون » ، ومنهم « الشيوعيون » والعياذ بالله ، مما جعل قلبه ينقز ، اذ ما ادخله هو في كل هذه المسائل ؟ صحيح ان الجيش الاردني فرض عليه ان يحملبندقية قبل الحرب باسبوع ، ولكنها كانت بندقية طليانية مبردة من أيام الحرب العالمية ، فرماها في الشارع دون ان يطلق بها طلقة واحدة ، وقبل ان يدخلوا القدس •

ولم يكن ابو جابر يعرف ، ان المخابرات الاسرائيلية ستنبش اوراقـــــه القديمة ، الا حين استدعوه في منتصف الليل ، وما كاد يدخل غرفة التحقيـــق ـ والعياذ بالله ـ حتى صرخ به المحقق كالمجنون « قومي عربي •• ها ! » فكاد ابو جابر يقع على الارض من هولالمفاجأة ، اذ كان آخر ما يطرأ على باله ، وراح يحاول بكل ما استطاع من حنكة ، ان يقنع المحقق بأنه لم يتدخل في حياته فـــي السياسة ، وأن القصة كلها انه عمل خيرا فشرا لقي ، حين حاول ان ينهي ذلك الضابط الاردني الفاسق عما يغضب الله ، فاتهمه انه « قومي عربي » لكي ينتقم منه • الا ان المحقق لم يمنحه الفرصة لذلك ، وقاطعه بأن لطمه على وجهه لطمة ادارت الدنيا امام عينيه ، وهو يصرخ به محتدا ، وبعربية سليمة « انت واحــد كذاب يابو جابر •• كذاب كبير » ثم تقدم منه فاردا ملفا قديما امامه وبدأ يقرأ بصوت متهكم « بالطبع انا قومي عربي ، والللا ماذا اكون ان لم اكن قوميا عربيا •• صهيونيا ؟ ام امريكيا !!؟ » • وقبل ان يصحو ابو جابر من دهشته وخاصة لهذه الصيغة التي سجلت فيها اقواله ، كان المحقق قد طرقه كفا آخر بكل قوته على طبلة اذنه صارخا بغضب :

ـ ماله الصهيوني يابزونك •• مش عاجبك !!؟

ولم يدر ابو جابر بماذا يجيب ، وقد عزت عليه نفسه ان يهان مثل هـذه الاهانة في آخر العمر ، ولو بقي الامر عند لطمه لهان الامر ، اما ان يقول لــه « بزونك » فهذا كثير ، واكثر مما يحتمله ، رغم انه اراد أن يقنع نفسه ان المحـــقق لا يعرف معنى هذه الكلمة بالضبط لانه يهودي ، فلو قالها باللغة العربية لما ترك شكا في انه يعنيها ، اما ان يقولها بالتركية فهذا يعني انه يعرف انها شتيمة ولكنه بالتأكيد لا يعرف معناها •• واحس ابو جابر وكأن حجرا يتوقف في حنجرتـــه يمنعه حتى من أن يقول لهذا المحقق الشاب « عيب عليك يا ابني انا قد ابـــوك »

فاطرق والدموع تكاد تطفر من عينيه « قال ابو جابر بزونك قال ٠٠ انت يابو جابر الخليلي بزو ٠٠٠ » ، واستفاق ابو جابر على المحقق مرة اخرى وهو يدقه في رأسه بعقد أصابعه ، مش عاجبك الصهيوني يا عرص ها ٠٠ مش عاجبك يا جوز ٠٠

لم يعد يسمع ابو جابر ما يقوله المحقق ، بعد أن خانته رجولته ، وراحت الدموع تنهمر من عينيه بصمت وهو يتمنى لو ان الارض تنشق وتبتلعه ٠٠ فأين سيخبيء وجهه بعد الآن من وجه ام جابر ، « ام جابر الاصيلة بنت الاصل يقول عنها ٠٠٠٠ » ، ولكن المحقق لم يترك له وقتا حتى ليبكي ، فامر بجره من الغرفة « ووين الجنب اللي يوجعك يابو جابر » الى ان اغمي عليه ، ولم يعد الى رشده الا في القاووش الكبير ، وجميع الموقوفين يتحلقون حوله ، الا انه سرعان ما اغمض عينيه الورمتين مرة اخرى ، على صورة ام جابر ، لائما نفسه على ما سببه لها من اهانة ، وما جره عليها من نكد العيش « بلعبطاته » ، وهو لا يدري اذا ما كان سيراها مرة اخرى أم لا ٠٠

ولكن ام جابر لم تسكت على هذا الظلم الذي لحق بـ « ابو جابر » ، وراحت تركض من دار فلان الى دار علان ، ولكن على قول المثل « مين ايده في المي ويحطها في النار؟ » وكادت ام جابر تيأس حتى انها كانت مستعدة لان تفديه بكل مصاغها ، لولا ان نصحها أحد الذين لا يريدون وضع يدهم في النار ، ان تحزم امرها ، وتذهب الى الشيخ الجعبري في الخليل ٠ فابو جابر خليلي « والعود بحن عقشرته » ، اذ لا احد في هذه الايام له ما للشيخ الجعبري عند اليهود من جاه وقدرة ، وبالتالي كلمته عندهم لا تصير اثنتين ، وكلمة تعيد اليها « ابو جابر » والا فطس في السجن ، « واللي بتطلع عليك بعين تطلع عليه بالتنتين » ، وكان فهم ام جابر كافيا ٠

وبالفعل لم يخيب لها الشيخ الجعبري ، توابه عند ربه ، رجاء ٠ ولم تمض عدة اسابيع الا وابو جابر في البيت ، ولكن بعد ان « شاف نجوم السما في عز الظهر » ٠ وما ان مرت عدة شهور ، وهدأت الاحوال ، حتى عاد ابو جابر الى كاره ، فحمل عصاه وفانوسه ، وعاد الى حراسة ارزاق الناس كما كان في السابق ، وعلى الاقل لم يرموه من عمله ، كما فعل ذلك الضابط الفاسق الذي جر عليه هذه المصائب ، وما ذنب اليهود « ما هو سوس الخشب منه وفيه » ٠

وكان ابو جابر يسلم بالمثل القائل « اللي بتجوز أمي هو عمي » ، فلا فارق عنده سواء حكمها الملك حسين او حكمها موسى ديان ، « قال له يا فلان مين احسن الحية السوده واللا الحمرة ؟ قال له التنتين ابلا من بعضهن ، والتنتين بنابهن سم » ، المهم ان يبقوا بعيدين عنه ، لا يقتربون منه ولا يقترب منهم ٠ الا انه سرعان ما وقف على خطئه ، فما كاد يمر شهران على عودته الى عمله ، حتى استدعاه

الحاكم الى مكتبه ، واخبره انه اذا اراد ان يحافظ على وظيفته ـ « فقال الحراسة صارت وظيفة على آخر الزمن » ـ فعليه ان يراعي مصلحة الدولة من « المخربين» الذين بدأوا يقذفون القنابل اليدويـــة على الجنود الاسرائيليين ، ويضعـــون المتفجرات لقتل الناس ·

ولم يفهم ابو جابر باديء الامر ما الذي يعنيه في كل هذه المشاكل،«فوظيفته» كما يعرف هو ، ان يحافظ على ارزاق الناس من اللصوص واولاد الحرام ، أما « المخربين » الذين يقول عنهم سعادة الحاكم العسكري ، فلا دخل له بهم ، وكل واحد ذنبه على جنبه ، الا ان الحاكم العسكري سرعان ما ذكره ، انه لولا خاطر الشيخ الجعبري ومعزته عند موسى ديان شخصيا ، لما كان قد خرج من السجن قبل عشرة اعوام على الاقل ، لان تهمته كانت خطيرة ، ولما كان يعود الى وظيفته وكان شيئا لم يحصل ، ولما كان ليتنازل فيجلس معه ·· ومن ثم من ادراه ان «أبو جابر » قد نفض يديه فعلا من القوميين العرب ، وانه ليس «مخربا» ، ككـــل المخربين،ولذلك عليه ان يثبت له الان عكس ذلك ، ويراقب هؤلاء «المخربين»الذين لا يتحركون الا في الليل ، وما دام عمله في الليل ، فلن يكلفه ذلك اي عناء ، وانما سيفعل كل شيء بحكم وظيفته ، ثم ما عليه الا ان يأتي ويخبر الحاكم فقط ، اذا مـــا رأى او وصل الى علمه اي معلومات تدلهم على هؤلاء « المخربين » ـ قال الفدائية صاروا مخربين ، طب واله الواحد لولا الخوف ·· ـ وهكذا يريـــح الناس من بلائهـــم ·

ورغم محاولته اقناع سعادة الحاكم العسكري ، أن لا دخل له في كل هذه المشاكل وانه يريد انّ يظل بعيدا عن السياسة والذين يعملون بها « وانشاء الله بعلقولهم مشنقة بساحة الجامع » ، الا ان الحاكم العسكري اخبره ان « المقابلـــة » قد انتهت ، وعليه ان يفكر في الامر جيدا ، لمصلحته ومصلحة زوجتـــه واولاده ، وهكذا خرج ابو جابر وهو لا يعرف رأسه من رجليه ، وعاد الى البيت « يا كبتيا تعسة » · ولكنه ولاول مرة لم يشارك ام جابر في همومه ، ولم يطلعها على ما حصل له ، كي لا تحمل الاولاد معها وتقطع النهر · وكان قد قرر بينه وبين نفسه ان يتحايل على الحاكم العسكري ، وأن يقول له اذا ما استدعاه مرة ثانية ، بـــل وسيقسم له على المصحف ـ ففي هذه الحالات لا يطاله اثم ـ بانه لم يسمع ولـــم ير في الشوارع غير هؤلاء « الصيع والدشر » من الشباب والبنات الذين صاروا يفيعون عليها من القدس ، الا انه غير رايه كي لا يفسرها الحاكم على هـــواه فيورط نفسه ، ولهذا قرر ان يقول له بانه لم ير ولم يسمع شيئا فقط ، مع ان ابو جابر يعرف كل شاردة وواردة في القدس ، ولا تخفي عليه خافية ، حتى انه يكاد يعرف ما يتعشاه كلواحد ، وخاصة في منطقته ، كل يوم ، فارتسمت على شفتيـــه ضحكة ساخرة من مكره ، حين اعتقله المظليون الاسرائيليون من جملة الذيـــن

اعتقلوهم ، في نفس الليلة التي القى الثوار القنابل فيها ، علــى السفــارة البريطانية ، فانكر في التحقيق ان يكون قد راى او سمع شيئا،« قال لا سمع ولا شاف قال ٠٠ اي هو فيك يا بو جابر غير عينيك وذينيك !؟ » ، ولو انه رأى هؤلاء « المخربين » لكان ذهب من نفسه واخبر سعادة الحاكم العسكري بنفسه ٠ صحيح انه قال عن الفدائيين انهم « مخربين » ويكاد يبصق على نفسه حين يتذكر ذلك ، ولكنه لم يتفوه بحرف واحد يكشف عنهم بل وكان مصمما على الانكار حتى ولــو شنقوه ٠٠٠ « وان زادوها هالمرة بدي اطبق القول بالفعل ، وما دامهم كل ما دق الكوز بالجرة بيقولو انت قومي ٠٠٠ لا بدي اصيـــر قومـــي مـــن حـــق وحقيق ، ومش بس قومي لا يا سيدي بدي تصير فتح كمان٠ ٠ولا بصير جاسوس»٠

وتخيل ابو جابر نفسه وهو يجلس امام الحاكم العسكري ، ويخبره انـــه « شاف الحاج محمد وبدر الدعنة ، يرموا القنابل عالسفارة البريطانية شـــوف العين ، وكان ابن ٠٠ » ، فانتفض وهو يرفع رأسه ، وكأنه يفيق لتوه من حلـــم مزعج وهو يتمتم : « باطل عليك يا بو جابر ٠٠ هاي آخرتك ؟ تصير جاسوس للصهاينة » ٠ وتخيل نفسه وهو يدخل على أم جابر ، وهي تقف له بالباب ، تنظر اليه كما لو كانت باغتته عند تلك الامرأة المشبوهة من حارة الغوارنة ، ففـــرك عينيه وكأنه يتحاشى نظراتها ، ثم راح يستغفر ربه . على هذه الافكار التي هبطت عليه فجأة ، وراحت تلاحقه ، ثم ما لبث ان شتم المومسات والسياسة ، وهـــو ينهض من مكانه ، عازما على القيام بآخر جولة تفقدية ، دون ان يفكر في شيء من هذا القبيل ، ثم يذهب مباشرة الى البيت مع صلاة الصبح « واللي يصيــر يصير ، وان شاء الله ما بظل ناس ولا بظل رزق » ٠

عدل ابو جابــر طاقيتــه ، وشـد معطفـــهعلــى جســـده جيدا ، ثــم انحنى على الكرسي وتأبطه لايداعه في فندق « البتراء » ، كما اعتاد ان يفعــل عند كل جولة تفقدية ، حيث يبقى صاحب الفندق مستيقظا ، ليس لسبب الا انه اعتاد ربما على ذلك ، ومن ثم الله وحده العليم بسرائر الناس ، فليس كل الناس مثله ومثل ام جابر ، « راسين على مخدة » ، منذ اكثر من خمسة وعشرين عاما والحمد لله ٠ والا ما الذي يربطه في الفندق طول الليل ، « لا شغلة ولا عملة»، فالفندق يكاد يكون خاليا منذ الاحتلال الاسرائيلي ، ولا يؤمه ســوى بعـــض « الصيع » الاجانب ، وبعض الشباب العرب من الارض المحتلة سابقا ، الذيــن يأتون للقدس في آخر الاسبوع كالخواجات ، ليتعرفوا عليها ، ويزوروا المسجــد الاقصى ــ « مش بقولوا تانصلي فيه الا تانزورو !!» ٠

ورغم ان ابو جابر كان يغضب عندما كان يسمع من احدهم كلمة «تايزور» وليس « تانصلي » ، وخاصة ممن ينزلون في فندق البتراء ، الا انه كان يحـس بحزن عميق لما وصل اليه اهل الارض المحتلة سابقا ، من قلة الدين ، ثم لا يلبث

ان يعذرهم ، ويحمد ربه ، اللي بعدهم بحكوا عربي تحت حكم اليهود كل المدة ، وعلى الاقل بعدهم بيقولوا عن حالهم عرب ومسلمين » ٠

والمؤمن لا يلدغ من جحر مرتين ، فلهذا كان ابو جابر يتحاشى ان « يفمق» في الحديث معهم في هذه الامور ، وخاصة ان صاحب الفندق ، وهو يعرفهم جيدا، قد اخبره أن أهل الارض المحتلة سابقا ، نصفهم شيوعيون ، وهذا يعني انهم ملحدون ، والعياذ بالله ٠٠ والنصف الآخر جواسيس لليهود ويعملون مع « الاستخبارات » الاسرائيلية ، وهذا ادهى وامر ، وعلى كلا الحالتين شر ، ولهذا فانه ٠٠٠

قاطعته صورة نفسه وهو يجلس امام الحاكم العسكري ، وتردد في ذهنه ما قاله له مرة أخرى ، وكيف انه لم يجرؤ على ان يقول له « انا ٠٠ ابو جابر الخليلي ، اصير جاسوس للياهود !؟ طب والله ما انا صاير واللي بدك تعمله اعمله » ، وما ان كادت افكاره تنطق بذلك . حتى انتفض كمن لسعته حية ، وهو يشعر برعشة باردة تتملكه ، متخيلا نفسه وهم يقتادونه الى السجن وام جابر تلطم على وجهها وتقد ثوبها ، فاستغفر الله وهلل له ، ثم اتجه نحو فندق البتراء٠

كانت جولة « ابو جابر » تشمل الشارع الذي يوصل من باب العامود الى باب الساهرة ، حيث ينعطف يسارا الى شارع صلاح الدين ، ويغادره قرب المجمع الحكومي الذي أصبح بعد الاحتلال مقرا للحاكم العسكري الاسرائيلي ، حيث ينعطف يسارا مرة أخرى الى طريق نابلس ، ويغادرها في منتصفها الى المصرارة ، ثم يعود ادراجه الى باب العامود ، فيعرج على قهوة الشيخ عبد الصغيرة القائمة على زاوية شارع المصرارة ، حيث يشرب الشاي ، ثم يكمل « الحصة » التي لم يتفقدها من طريق نابلس ، ويكون الصباح قد طلع ، بينما هو في طريقه الى البيت ٠

كان باب العامود هامدا نائما ، والدكاكين في الطريق الى باب الساهرة مطبقة اشداقها ، فراح ابو جابر يتفقد اقفالها ، ويحشوها باوراق الحراسة التي كانت الانظمة تقضي بأن يحشو الخفير ورقة منها في كل قفل ، والمفروض في شاويش الحرس ، ان يخرج في جولة عامة بعد جولة الخفير ، فيستخرجها ، ولكن الشاويش الحالي « ابو العبد » ، التي كثرت اشغاله في النهار ، والله وحده يعلم ما هذه الاشغال التي تقتضيه ان يداوم في مقر الحاكم العسكري ، جعلتهيبقى في مقره الدافيء في الليل ، ولا يزعج نفسه بالتفقد ، وعليه كان ابو جابريستخرج الاوراق القديمة ، ويحشو اخرى في مكانها ، من باب قتل الوقت فقط ، اذ ان الزمن الذي تستغرقه الجولة ، يتراوح طولا وقصرا ، حسب مزاج « ابو جابر » ، فاذا

جد وقصد · انهاها في نصف ساعة ، واذا « تملكع » وسرح بافكاره ، وهذا مـا يحدث له دائما ، استغرقت ساعة او ساعة ونصف · هذا ـ لا قدر الله ـ اذا لم يلتق باحد ابناء الليل الذين كثروا في المدة الاخيرة ، يداعب اقفال الدكاكين ، فقد ينهي الجولة في المستشفى ، او على احسن الاحوال ، في مخفر الشرطة ، يدلـي بافادته عن ظروف الحادث وملابساته ، فلا يعود الى ام جابر الا بعد ان تصبح الشمس على ارتفاع قامتين او اكثر ·

ووصل الى باب الساهرة بأمان الله ، وصوب نظرة غيظ الى الحارس الاسرائيلي الذي يحرس البريد ، والذي كان يقعي في مكتبه لا يغادرهوالبندقية ارشاشة امامه ، غير آبه بأحد ، وكأنه في نص تل ابيب ، لان دوريات حـرس الحدود والمظليين ، لا تنقطع عن اللف غير الذين فوق السور ـ « الله يكسـر بخاطرك يا حسين كيف كسرت قلوبهالناس » ـ ، وعندمـا انتبه الـى ان الحارس ينظر اليه ، حول نظره الى اقفال ابواب الحوانيت ، ثم عزم على تفقـد شارع صـلاح الدين ·

قبل الاحتلال كان هذا الشارع كبقية الشوارع ساكنا ، راكـدا في الليل ، والوظيفة كلها قبل الاحتلال ، لم يكن ما يعكرها ، سوى الالتقاء بعض الاحيـان بازعر او اثنين ، او بأحد السكارى والحشاشين ، الذين كانوا يتأبطون بعضهم ويترنحون في الشارع ، محاولين الاهتداء الى منازلهم فتختلط عليهم ابوابهـا بابواب الحوانيت المحيطة بها ، فيبدؤون بمعالجتها ، فلا يحتاجه الامر لاكثر من صرخة وتلويحة بعصاه ، لكي يهتدي الواحد منهم الى باب بيته بسرعة ·

اما بعد الاحتلال ، والعياذ بالله ، اصبح لا يلتقي الا بشبان يعانقـون الفتيات ويقبلوهن في منتصف الشارع،فكانتهذه المشاهد تثير حفيظة «ابو جابر» وتغيظه ، فاذا كان قد فقد وظيفته السابقة لانه لم يسكت على ما كان يفعله ضابطه بالخفاء،فكيف باولئك الذين يفعلون كل ما يغضبالله ورسوله فيمنتصفالشارع دون حياء او خجل !؟· وخاصة ان صلاحياته كانت على الاردن ، تخول له القاء القبض عليهم وحتى ضربهم ، دون ان يجرؤ الواحد منهم على فتح فمه ، وكاد يفعل ذلك مرة مع زوجين جديدين ، اما القانون الجديد ، فلا يتيح له التدخل الا في حالتين غير معقولتين ، وهما اذا استنجدت به الفتاة او طلبت الشرطة ، وثانيا اذا كان الاثنان يمارسان الدعارة بمعناها الحرفي في الشارع ، والحالتان غير معقولتين، لان الفتاة لولا انها فالتة على رسغها ، لما كانت تدور في انصاف الليالي مع شاب وتبادله القبل ، ولهذا فان اي تدخل من « ابو جابر » سيكون اعتداء منه على حريتها كما يقول القانون الجديد ، وربما ورطه ذلك بورطة ادهى مـن ورطة الضابط · اما بالنسبة للشرط الثاني فهو غير معقول ايضا ، لان الشارع

لا يعتبر المكان المريح لمثل هذه العملية ·

وضبط ابو جابر عينيه وهما تجولان في شارع صلاح الدين عله يجد فيه مكانا ملائما للحب . فانتفض واستعاذ بالله ، اذ وقبل ان يطلع الفجر لا سيرة له ولا شاغل الا الدعارة والسياسة ، بدلا من ان يدكر ربه ويحمده ، فشد ابو جابر فكيه يطبقهما متابعا جولته ، وقد عزم على تصفية افكاره وابعادها عن هذه الوساوس التي لا بد وان الشيطان يطارده بها ·

ولكنه ما يكاد يسير قليلا حتى شعر بعتاب خفيف يساوره تجاه ربه عز وجل ، فقد قال في كتابه العزيز وهو اصدق القائلين بان « الفاسقين عذابهم اليم»، ومع ذلك يرى الفاسقين ينتصرون على أمة محمد ويحتلون المسجد الاقـ····· ومرة اخرى استفاق ابو جابر لنفسه ، وراح يعنفها على افكارها وهواجسها ، اذ ما كاد يحولها عن الدعارة والفسق ، حتىادخلتههذه المرة في السياسة ،وهذا ادهى وامر ، فاذا كان عقاب القضية الاولى في الدار الآخرة ، فعقاب الثانية على بعد أمتار منه ، في المسكوبية ، ولا مجال فيها للتوبة والعفو · ولهذا فالابتعاد عن السياسة اسلم واضمن . وعتاب ربه في هذه النقطة عدا عن انه كفر ، فهو مسألة سياسية بحتة ·

كان قد توغل في شارع صلاح الدين ، وراح يزيد من انتباهه ، ويدقق اكثر في تفقد الاقفال ، فهذا الشارع فيه حقا ما يستحق السرقة ، فحوانيته الفاخرة ، تحتوي على اثمن واجود البضاعة ، وقد اتخمت النعمة تجاره بعد الحرب ، حيث سحبوا في ايام معدودة ما سحبه امثال « ابو جابر » طول العمر ، اذ تدفق الاسرائيليون عليهم كالجراد « مخلصين عالاخضر واليابس » ، كي يفرغوا الضفة كلها من البضائع الموجودة فيها ، كي يبيعوها لهم ثانية بسعر مضاعف ، ولكي يجبروا الناس بعدها على شراء البضائع المصنوعة في اسرائيل، هذا زيادة على ارتفاع الاسعار ارتفاعا فاحشا . لا يقبله ، لا عقل ولا دين ، واصبح امل ابو جابر في الحصول على معطف جيد لابنه او له . مثل امل ابليس في الجنة ،وطبعا حتى كثرت النعمة قل الشكر وصاع الاصل ، فنسي هؤلاء التجار الكارثة التي حلت بفلسطين كلها وبالعرب ، حتى انهم افشلوا اضرابين بحجة انه اذا كانت الجيوش الجرارة لم تحرر فلسطين ، فهل يحررها اضراب تجار بسطاء ـ قال بسطاء قال ـ والانكى من ذلك عليه ان يحرس محلاتهم ليزيدوا من ثرائهمويفشلوا كل اضراب ضد الاحتلال ، وهذا ما يجعله يحس بالعار في بعض الاحيان ، ولكن رزق العيال له احكام ، والعيال يكسرون الظهر ···

ولم ينتبه ابو جابر لنفسه الا حين سمع نفسه يقول وبصوت عال

« تفه عالنذل وعيشته . والله العظيم قتلهم حلال في ٠٠٠ » ، فأمسك ابو جابر بالكلمات كي لا تفلت من فمه . ثم استعاذ بالله ، وقرر منع نفسه من التفكير في السياسة والمومسات منعا باتا ، اذ أنه من الافضل لها ، ان تفكر في الافواه السبعة القاعدة في البيت تنتظر لقمة العيش ، وتاكل راس الحية اذا ما احضرها لها، هذا عدا نفقات المدارس والكتب والملابس الى آخر كل هذه المصائب التي ازدادت حدة بالغلاء الفاحش وتجميد الاجور ٠

وما كاد ابو جابر ينجح في صرف نفسه عن التفكير في السياسة والدعارة، حتى كان قد وصل الى تفرع شارع الزهرة من شارع صلاح الدين ، فقبض على تفكيره ، وهو يجنح مرة أخرى نحو الدعارة ، اذ ان شارع الزهرة هذا ، هو شارع النوادي الليلية والمقاهي الفاخرة ، حيث كان يزدحم بالسواح العرب والاجانب قبل الاحتلال . ولكنه ما كاد يمر على الاحتلال الاسرائيلي سنة واحدة، حتى انقلبت الى ماخور شبه رسمي ، يتدفق عليه الاسرائيليون من القدس اليهودية وحتى من تل ابيب ، يشربون ويرقصون حتى الساعات المتأخرة من الليل ، ثم يعودون تاركين وراءهم المومسات وقواديهن ، لكي يفرجوا كرب السكارى من ابناء القدس « اللي لا هامهم احتلال ولا هامهم فلسطين » ، والذين كان يعتبرهم ابو جابر ليس فساقا ومصيرهم جهنم وحسب ، بل انهم خونة وجواسيس لليهود ٠٠

اسرع ابو جابر يقطع التفرع دون ان ينظر اليه ، جارا تفكيره جرا كي لا يستوقفه عنده ، لا سيما وان هذا الشارع ، كان مصدر مشاكل في المدة الاخيرة اذ لا يكاد يمر أسبوع دون ان يلقي احد الفدائيين قنبلة يدوية على احد النوادي. فتبدأ بعدها الاعتقالات والتحقيقات ، والسين جيم المتكررة ، هذا ناهيك عن ضرب السكاكين والمشاجرات التي تحصل بين القوادين والمومسات من ناحية ، وبين السكارى من ناحية أخرى ، أو بين السكارى أنفسهم الذين كانوا يختلفون على احدى المومسات ٠ ولم يكن ابو جابر يخاف من اي مكروه اكثر من مكروه هذا الشارع ، فلو بقي الامر بالاحتلال فقط لهان الامر . فالدبابات والجنود فيشوارع القدس اهون عليه مصيبة من ذلك ، ومصيرها ان تنسحب آجلا ام عاجلا ٠٠ اما ان يحتلوها بالمومسات والقوادين فهذا امر خطير ما من بعده خطر ٠٠٠

توقف ابو جابر يرهف السمع ، اذ خيل اليه انه قد سمع حرطقة خفيفة . واصواتا منخفضة تأتي من خلفه ٠٠ فالتصق بالحائط ، وراح يتسلل بهدوء عائدا الى مكان التفرع ، وما كاد يلقي نظره مسترقة على شارع الزهرة ، حتى اجفل، وتملكته رعشة اوقفت شعر رأسه ، اذ كان ثمة شاب وفتاة يلتصقان باحدى الجدران بالقرب من فندق « الناشانال » ، وكان الشاب كالعادة يهرصها الى الحائط ، وقد غابا في قبلة طويلة ، ولكن وضعهما هذه المرة كان فاضحا اكثر من

جميع الاوضاع التي صادفها حتى الآن ، كانت الفتاة « منجعية » الى الحائط، حتى تكاد تنبطح عليه ، وقد باعدت ما بين ساقيها ، حيث انغرزت ركبة الشاب عميقا في اسفل بطنها ٠٠

استعاذ ابو جابر بالله ، ثم دعك عينيه واطل ثانية ، ملصقا حنكه بزاوية الجدار ٠٠٠ « اللهم سترك » ، كانت يد ذلك الفاسق قد تسربت من تحت قميص الفتاة الرقيق ، وراحت تداعب نهديها ٠٠٠ تدعك ٠٠ تهرص « اللهم عفوك ورحمتك » ٠٠ لقد اندلق نهدها من فتحة القميص ، فترك الفاسق شفتيها وغب نهدها غبا ٠٠ « اخص لعنة الله عليكما في الدنيا والآخرة » ٠٠ وخيل الى « ابو جابر » انه يسمع صوت حمارة « تتمتك » ، فاحس بسائل بارد يسقط على راحته الملتصقة بخده ، فانتصب وهو يمسح لعابه السائل من زاوية شدقيه بكمه ، ثم شد قامته يمنع ذلك التخدر الذي بدأ يحسه من ان يسري في دمه ، وراح ينظم انفاسه المتلاحقة ، حتى كفت عن اللهاث ، بينما ظلت يده تنتفض على العصا وهو يغالبها كي يمنعها من ان « تعرط » العصا عليهما لكي « يكرسحهما » ٠٠ « وهذا ايضا في نظر قانون آخر الزمن ، لا يعتبر دعارة !! ماذا بقي ؟ ان يسحل لها اللباس !؟ » واحس بغيظ شديديتملكه ، اذ حسب القانون الجديد ، عليه ان ينتظر تسحيل اللباس ، ثم يتدخل ، هذا اذا كانت تلبسه اصلا ، وحتى لو كانت تلبسه « تقول لباس ام جابر عاد للقدم ، ما هو زي ورقة السيجارة » ٠٠

وانكر ابو جابر على نفسه ميلا لاغواء طارئ يتملكه ، واحس بدمه يغور. حتى انه لم يعد يحتمل معطفه الثقيل ، رغم ان درجة الحرارة كانت قد انخفضت اكثر ٠٠ « اللهم استغفرك واتوب اليك » ٠٠ ابو جابر كادت توقعه نفسه في الاثم ، ولو بالنظر ، بحجة المحافظة على الاخلاق « طب انشاء الله ما حدا حافظ ، ولا حدا تحشم ٠٠ وانا مالي انشاء بقلبوها كرخانة ، اذا حكامها ما حافظوا عليها ، تايحافظ عليها ابو جابر !؟» ٠

وشد ابو جابر معطفه عازما على استئناف جولته ، وهو يشعر بالم في امعائه وفكه الايمن ، وارسل نظرة اخيرة في اتجاه « الفاسقين » ، تمعن ٠٠ دقق، فخيل اليه ان وضعهما قد تغير قليلا ، كان فمه لا يفارق نهدها بعد ، ولكن خيل له ان الفتاة قد ارتفعت قليلا عن الارض ، واصبحت معلقة بين الحائط ووسط صديقها ، وخيل اليه انه يسمع فحيحا خافتا ، فشعر بالم في مهاشمه وانقلب الى اقفال المحلات التجارية ، يحشوها باوراق الصباح ، ناسيا اخراج اوراق الجولة السابقة ٠

انهى جولته في شارع صلاح الدين ، وانعطف الى اليسار في اتجاه طريق

نابلس ، وهو يتجاهل مبنى الحاكم العسكري تجاهلا تاما · كان يعلم ان الجندي الاسرائيلي الذي يحرس المبنى في كشك مخطط ، وضع قرب السور نائم ، وهو يعلم كذلك أن الجندي ينام كل ليلة ، وقد تكشفت له هذه الحقيقة ،اثر تجربةكادت تودي بحياته ، ذلك ان نفسه سولت له ذات ليلة عندما كان يمر امام الكشك ، ان يتملق الجندي الاسرائيلي ، فيطرح عليه تحية الصباح ، واقترب من السور فرأى الجندي الاسرائيلي يجلس داخل الكشك ، وسلاحه بين يديه ، وساعد الظلام على تضليله ، فلم يشك في انه مستيقظ ، فحسر كوفيته عن فمه كي تبان بسمته ، « وصبح » عليه ، الا ان الجندي لم يرد التحية ، فعز على ابو جابر ان لا يتنازل برد التحية عليه ، وخاصة انه يعتبره زميل خدمة مع انه اسرائيلي ، ويحرس مبنى الحاكم العسكري وفضل ان يعتقد ان الجندي لم يسمعه ، فتنحنح رافعا صوته هذه المرة ·

ولكن الجندي كان نائما فعلا ، وعندماصرخ ابو جابر «بالتصبيحة » الثانية انتفض كمن لسعته حية وصرخ راطنا باللغة العبرية ، الله وحده يعلم ماذا ·

وظن ابو جابر ان هذه هي طريقة الخواجات برد التحية وكاد يتابع سيره ، لولا ان الجندي استدرك باللغة العربية المكسرة ما قاله باللغة العبرية ، شاهرا سلاحه ، ــ مين خادا ؟

وايقن ابو جابر بالهلاك على اهون « سبايب » فرصاصة واحدة من رشاش الجندي تكفي لنقله الى الديار الباقية ، فانبطح على الارض ودحرج نفسه الى الخلف ، مستفيدا من تدريبه ايام كان في الشرطة ، فزادت هذه الحركة من شكوك الجندي ، فانتصب واقفا وهو يصوب بندقيته الرشاشة في اتجاه ابو جابر صارخا:

ــ وكف عندك ·· انت مش بتحرك ·

وعثر ابو جابر على صوته في الوقت المناسب وهو يجمد اعضاءه في مكانه راجفـــا ·

ــ مش بتحرك يا خواجا ·· مش بتحرك ، انا ابو جابر الخفير مش عارفني؟

قال الجندي وهو يخرج من الكشك بحيطة وحذر ··

ــ انا مش بعرف جابر ولا ابو جابر ·· ايش في ·!؟

رفع ابو جابر رأسه نحوه وهو لا يزال منبطحا ···

ـ ولا شي يا خواجا ٠٠٠ صبحت عليك بس ٠٠

زم الجندي حاجبيه سائلا بغضب :

ـ شو ؟

ورد ابو جابر بصوت بطيء معتذر ٠

ـ صبحت عليك ٠٠ الصباح لالله ٠٠ قلت صباح الخير ٠٠

هز الجندي رأسه متبرما وهو ينزل سلاحه ٠

ـ انتو عرب مش بفهم ٠٠ يللا روخ من هون ٠٠ روخ ٠٠ امشي

انتصب ابو جابر بسرعة وهو لا يكاد يصدق انه قد نجا من هذه الورطة ، وراح من هناك وركبتاه تصطكان وهو يلعن في سره « التصبيح واللي بصبحوه »، وهكذا كاد تدخله في السياسة هذه المرة يودي بحياته « ويرمل » ام جابر قبل الاوان . والا ماذا يكون « التصبيح » الذي لا معنى له على جندي اسرائيلي يحرس مبنى الحاكم العسكري ، ان لم يكن تصبيحا سياسيا ، ونفاقا منه ما بعده نفاق « والله تستاهل يابو جابر لط في الصرمة على طارة نيعك » ، ومن يومها وابو جابر يتجاهل وجود الجندي والكشك ، ويركز افكاره كلما مر من جانبهما، على الاقفال واوراق الحراسة ٠

ورغم تجاهل ابو جابر لمبنى الحاكم ، الا انه احس وهو يعبره بشيء من العتب على نفسه«ولو يابو جابر عمرك ما كنتجبان٠٠شو بدل الله وشو غير؟ خلقة خواجا لو بصقت عليه بتغرقه يكسر قلبك !!؟» ٠ فتوقف ناظرا خلفه وهو يشعر بالذل والاهانة ، متخيلا نفسه وقد انبطح على الارض ، ووجهه يتمرغ بالتراب، يستعطف الجندي الاسرائيلي ، وهو يصوب سلاحه نحوه صارخا به « تقول عبد أبوه » ، فتملكه غضب مفاجيء كاد يدفعه لان يعود ادراجه اليه ، فيهوي بعصاه على نافوخه ، ثم يأخذ منه سلاحه ، ويفرغ « الباغة » كلها في رأسه . ولكن بعد ان يجعله يتمرغ هو الآخر بالتراب كما فعل به ، بل ويرفش في بطنه ويقبل حذاءه المهتريء ٠٠ « مش مكفي قلبوها كرخانة ٠٠ يذلونا كمان ٠٠ وفوق هذا كله ينام ويشبع نوم تقول بدارهم ، ولو خليه ناطور كرم مش جندي احتلال وبحرس مقر الحاكم !! تقول ما ظلش رجال في القدس ملعون الوالدين ٠٠ طيب وطلاق بالثلاثة من ام جابر ٠٠»

ولم ينتبه ابو جابر الى نفسه الا والجندي يصرخ به من داخل الكشك فجأة:

ـ مين خادا ؟

اجفل ابو جابر وهو يتلعثم بافكاره ·· « ارجعنا لمين خادا وروخ من هون ؟ هالمرة ابو جابر مش رايح » ، وتنحنح يسحب العصا من تحت ابطه ·

ـ هاذا انا ·· ابو جابر الخليلي شو في ؟

ـ انت برفع ايديك ، ومش بتخرك ·· فاخم ؟

« هذا اللي ما حسبناش حسابه » ، وغاصت يد ابو جابر الى جيب «البالطو» تتحسس موس الكباس الذي كان يرافقه منذ عشر سنين قبل ان يرفع يديه الراجفتين غيظا ·

ـ اه فاخم يا خواجا ··

« ضربة الاعور على عينه ، قال ما هي خربانه وخربانه ·· لا والله ما هي فايتة على ستيرة هالمرة » ، وطافت به صورة ام جابر وهي تحضر له القهوة كعادتها في انتظار عودته بينما خلد الاولاد للنوم ، فارتخت يده على الموسى، الا انها عادت وشدت عليه ثانية « الموت ولا المذلة يا ام جابر والاولاد الهم الله » ·

كان الجندي يتقدم نحوه بلا مبالاة بعد أن تأكد من أنه أبو جابر حقا ، وقد ارتسمت على شفتيه ابتسامة ساخرة ، بينما كان ابو جابر لا يزال يرفع يديه ، والدم يغلي في عروقه ، وعيناه مثبتتان على الجندي المتقدم منه ··

وقف الجندي قبالته ينظر اليه ، ثم انفجر في الضحك صارخا :

ـ يالله روخ من هون ؟

عاودته صورة ام جابر والاولاد مرة أخرى ، تقاطعها صورته وهو ينبطح على الارض امام الجندي ووجهه المعفر بالتراب يكاد يلامس حذاءه ···

صرخ الجندي ثانية وهو يدقه بكعب بندقيته ··

ـ امشي ·· انت واخـ ····

انتقضت يد « ابو جابر » القابضة على الموس وهو يكز على اسنانه قلتلــك ابو جابر مش ماشي ... »

لم يعرف ابو جابر كيف فعل ذلك ، ولم يصح على نفسه الا وهو يركض في اتجاه باب العامود ، والدم يقطر من نصل موس الكباس ، الذي كان لا يزال في يده ، والصرخة التي اطلقها الجندي وهو يخر على قدميه والنصل يغــوص فــي صدره لا تزال تطن في اذنيــه .

ميزان القوى العربي الاسرائيلي بعد ثلاث سنوات من حرب تشرين

المقدم الهيثم الأيوبي

كانت منطقة الشرق الاوسط منذ اتفاق فصل القوات في سيناء تسير بخطى متسارعة نحو الحل السلمي الاميركي ، رغم معارضة بعض الدول والقوى العربية لفكرة الحل السلمي اساسا ، ووقوف البعض الاخر ضد احتكار واشنطن لمفاتيح الحل ، ورغبته في الوصول الى حل متوازن تشارك فيه الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي والدول الاوروبية الغربية بنصيب متماثل · ولم يكن الحديث عن ميزان القوى في ذلك المناخ السلمي يحمل اي معنى ، طالما ان القوى العالمية والمحلية الدافعة نحو الحل السلمي كانت اكبر من القوى الدافعة نحو الصدام المسلح ·

ولكن نجاح الرئيس الاميركي جيمي كارتر في مطلع تشرين الثاني ١٩٧٦، ادخل على الموقف في الشرق الاوسط عاملا جديدا ، يتمثل في احتمال عرقلة التسوية السلمية بشكل كامل او جزئي · ويرجع هذا الامر الى ان الرئيس الجديد يرى ضرورة التشدد ازاء السوفيات ، ويعارض سياسة الوفاق الدولي بشكلها السابق ، وهي السياسة التي خلقت مناخ الحل السلمي للصراع العربي ـ الاسرائيلي · ولايتبنى كارتر اسلوب كيسنجر في معالجة ازمة الشرق الاوسط ، وهو ميال الى دعم اسرائيل اكثر من سابقيه نيكسون وفورد اللذين لم يبخلا على اسرائيل بالدعم · وليس من المستبعد ان يؤدي غياب كيسنجر عن الساحة ، وزوال ضغط الادارة الاميركية السابق على اسرائيل لقبول التسوية السلمية ، وحصول « صقور » اسرائيل على دعم الادارة الجديدة ، الى تصاعد الخط المتشدد وانخفاض صوت «الحمائم » داخل الدولة الصهيونية، وتناقص امكانية ايجاد حل يضمن استعادة الاراضي العربية وحصول شعب فلسطين على حقوقه · الامر الذي يؤدي بالتالي الى تحسن العلاقات العربية ـ السوفياتية بعد طول جفاء ·

وبفضل هذا العامل الجديد ، يمكن ان يعيد العرب (بما فيهم عرب التسوية السلمية) حساباتهم ، وان يقيموا مرة اخرى موقفهم من الولايات المتحدة ، وان يفكروا من جديد بالتوجه نحو الاحتكام للسلاح • وفي هذا المناخ يكون طرح ميزان القوى مسالة متناسبة مع منطق الدعوة الى الصدام ، الذي يغدو الوسيلة الوحيدة المكنة لحسم التناقض ، بعد تراجع الوسائل السلمية الى الصف الثاني •

حول حساب ميزان القوى

يعتبر حساب ميزان القوى من اهم الامور الخاصة بتقدير الموقف وانضاج القرار السياسي • وهو يؤلف ، مع التقييم المتعلق بطرفي النزاع حول الوضعين السياسيين الداخلي والخارجي ، والجاهزية النفسية للقتال ، والواقع الاقتصادي ـ الاجتماعي والعوامل الجيوبوليتيكية والطبوغرافية ، القاعدة التي يحدد الجهاز القيادي الاعلى على اساسها امكانية خوض الحرب ، ونسبة النجاح فيها ، وطبيعة هذه الحرب (تعرضية ام دفاعية) ، ومدتها (خاطفة ام طويلة الامد) •

وعملية الحساب صعبة اساسا ، ولكن حساب ميزان القوى العربي ـ الاسرائيلي يتعرض لصعوبات اضافية تنبع من خمسة اسباب هي : ١ ـ انعدام الاستراتيجية العربية الواحدة فيمجابهة الخطر الصهيوني ، ٢ ـ تعدد مراكز اتخاذ القرار في الوطن العربي ، ٣ ـ تباين تحليلات مراكز القرار حول معسكر العدو ، ومعسكر الصديق ، وطبيعة العصر ، وهامش العمل الممكن في اطار الوفاق الدولي ، ومدى تأثير العامل الدولي على العمل العسكري للدول الصغيرة بالمقابل على العامل الدولي ، ٤ ـ العلاقة بين الزمان والمكان وهو عامل يدخل في حسابات موازين القوى بشكل عام ، ولكنه يأخذ بالنسبة الى الصراع العربي ـ الاسرائيلي اهمية شديدة الخصوصية ، نظرا لسعة الوطن العربي ، ووجود عدد من الجيوش العربية بعيدا عن بؤرة الصدام ، وضعف وسائط النقل البري والجوي والبحري والنهري بين اجزاء الوطن العربي ، ٥ ـ تعرض عدة اقطار عربية لاخطار خارجية كامنة تجبرها على اقتطاع جزء من قواتها للدفاع الذاتي ،وتحرمها من امكانية دفعكل هذه القوات الى بؤرة الصراع مع العدو الصهيوني •

ورغم خصوصيات حساب ميزان القوى في الشرق الاوسط ، فقد كان الاسرائيليون والمحللون الغربيون المتصهينون يتجاهلون الاسلوب الديناميكي

الحي ، ويلجأون الى اسلوب تجريدي جامد ، يتمثل بأجراء جمع رقمي لمجمل القوات العربية ، ومقارنة الارقام الكبيرة الناجمة عن الجمع مع رقم القوات المسلحة الاسرائيلية ، لاظهار التفاوت الهائل بين الرقمين · والانطلاق من هذا التفاوت لاستدرار عطف العالم وابتزاز مساعداته ، ومطالبة الغرب بمزيد من الاسلحة والمعدات لتقليص الهوة التسليحية · او لتركيز الاضواء حول انتصار القوة الصغيرة على القوة الكبيرة (كما حصل في ١٩٦٧) وتبرير هذا الانتصار بالعبقرية العسكرية ، والبطولات الخارقة ، والتفوق القيادي والتنظيمي ، والهوة التكنولوجية !

والامثلة على هذا الاسلوب الستاتيكي الخاطىء كثيرة ، واخرها ، ما قاله الجنرال والنائب في الكنيست اريك شارون في المؤتمر الصهيوني المنعقد في نيويورك خلال النصف الاول من ايلول ١٩٧٦ ، عندما اعرب عن قلقه منميزان التسلحفي الشرق الاوسط ، وقال انه علم من احصائيات المصادر الاميركية المسؤولة ان مصر حصلت من الاتحاد السوفياتي بعد حرب تشرين على ١٠٠ طائرة « ميغ ـ ٢١ » ، و ٤٠ طائرة « ميغ ـ ٢٣ » ، و ٦٠٠ دبابة « ت ٦٢»، و ٤٠٠ دبابة « ت ٥٤ » و « ت ٥٥ » ، ومئات العربات المدرعة وبطاريات المدفعية والصواريخ المضادة للطائرات والصواريخ ارض ـ ارض · ثم اجمل حديثه بقوله ان العرب حصلوا منذ حرب تشرين على اسلحة قيمتها ٢٠ مليار دولار ، بينما لم تحصل اسرائيل الا على اسلحة بقيمة ٥ مليارات ، وان العرب سيحصلون في العام المقبل (١٩٧٧) على اسلحةبقيمة ٢،٥ مليار دولار ، في حين لن تحصل اسرائيل الا على اسلحة قيمتها مليار دولار ·

وسواء كانت الارقام التي اوردها شارون صحيحة ام خاطئة ، فاننا لن نتوقف عندها ، لانها لا تتعلق بميزان القوى ، ولا تعطي ـ حتى في حالة صحتها ـ الا صورة عن تجارةالاسلحة في الشرق الاوسط · وتجارة الاسلحة شيء وميزان القوى شيء اخر · واذا كانت الاحصائيات تعطي صورة دقيقة الى حد ما عن أتجاه تجارة الاسلحة ، او عن مخزون الاسلحة في منطقة ما ، فان هذه الاحصائيات لا تدل على شيء عند حساب ميزان القوى · وسنبرهن في الصفحات التالية على صحة هذا الرأي ، ومدى الهوة القائمة بين « حساب الحقل وحساب البيدر » · وسنقدم ميزان القوى الحقيقي المحسوب بطريقة ديناميكية ملتصقة بالواقع ونابعة من معطياته ، معتمدين في الحساب على الارقام الواردة في النشرات العالمية غير السرية التي تقدم احصائيات شبه كاملة حول مخزون الاسلحة في العالم (تقارير المعهد الاميركي للابحاث السياسية ، وتقارير المعهد الدولي للدراسات الاستراتيجية في لندن ، وتقارير

معهد ستوكهولم الدولي لابحاث السلام) • مع الاشارة الى ان اعتمادنا على هذه المصادر لا يعني بالضرورة تبني كل ارقامها ، ولكنه الوسيلة الوحيدة الممكنة لبدء الحساب دون كشف اية اسرار او معلومات تفيد العدو •

تقول الارقام الواردة في الدراسات المذكورة ، والموجزة في الجدول الموجود في نهاية هذا البحث ، ان القوات العاملة الاسرائيلية تعادل ١٤ر٢٠ ٪ من القوات العاملة العربية ، وان ميزانية التسليح تعادل ٢٢ر٤٢ ٪ من مجمل ميزانيات التسليح العربية • وان الاسرائيليين يملكون من الدبابات المتوسطة ما يعادل ٤٢ر٣٣ ٪ ، ومن المصفحات والعربات ٨٣ر١٩ ٪ ، ومن الطائرات المقاتلة ٢٦ر٢٣ ٪ • وان البحرية الاسرائيلية لا تملك اي مدمرة مقابل ٥ مدمرات عربية ، ولا تضم سوى ١٦ ٪ من الغواصات العربية و١١ر١١ ٪ من زوارق الطوربيد و ٤٢ر٨٦ ٪ من زوارق الصواريخ سطح ـ سطح • والاستنتاج الاولي والخاطيء من هذه المقارنة الاحصائية ، هو ان العرب يتفوقون على اسرائيل في البر والبحر والجو • وان نسبة القوى لا تسمح لهم بادارة معركة دفاعية ناجحة فحسب ، بل تؤمن لهم التفوق اللازم للهجوم الناجح ايضا •

ولكن هذه المقارنة ، رغم صحتها من الناحية الحسابية ، خاطئة من اساسها ، وهي مثال حي للديماغوجية الاعلامية ذات الغطاء العلمي الرقمي ، والشكل الاكاديمي • ويرجع ذلك الى انها تعتمد على المقارنة بين القوات الموجودة لا بين القوات المتجابهة او التي يمكن ان تتجابه في زمان ومكان معينين ، مع ان قانون الحشد (وهو قانون رئيسي من قوانين الحرب) يقول بان نتيجة القتال لا تتأثر بحجم القوى التي يملكها الطرفان ، بل بحجم القوى التي يستطيع الطرفان زجها في ارض المعركة • ولذا فاننا سنسقط هذه المقارنة والمقارنات المماثلة من الحساب ، ونجري الحساب الديناميكي ، اخذين بالاعتبار حقيقة الوضع السياسي ، ومسالة الحشد الاستراتيجي ، ضمن اطار عاملي الزمان والمكان • وستدل نتيجة الحساب على ميزان القوى الاستراتيجي ، الذي يختلف بالطبع عن ميزان القوى العملياتي او التكتيكي ، الذي يحسبه قادة القطعات الميدانية بناء على اماكن انتشار القوات ،وقدرتها الحركية ، وطبيعة المواقع التي تتمركز فيها ، ومستوى تعبئتها النفسية واستعدادها للصمود •

ومن الجدير بالذكر ان ميزان القوى الاستراتيجي الذي سيتم التوصل اليه ، متبدل ، حي ، واقعي يتغير من يوم الى اخر ، حسب تبدل المعطيات الداخلة في الحساب • وهو في جوهره النتيجة المستخلصة من معادلة ذات طرفين متناقضين ومتجابهين : احدهما هو العدو والاخر هو الصديق • ومع

تبدل احد الطرفين او كلاهما تتبدل المعادلة ، وتتغير بالتالي نتيجتها ، ويظهر ميزان قوى جديد • ولهذا فان حساب ميزان القوى في اليوم (ي) اي يوم اندلاع القتال ، مختلف كل الاختلاف عن حساب الميزان نفسه في اليوم (ي-٢) او اليوم (ي + ١) • وحتى في اليوم (ي) نفسه ، فان الحساب في الساعة (س) اي ساعة بدء القتال ، مختلف عن الحساب في الساعة (س + ٢) او (س + ١٠) • وعلى هذا الاساس فاننا لن نقدم ميزانا واحدا بل عدة موازين ، مفترضين ان اليوم (ي) هو ١ كانون الاول ١٩٧٦ • بكل ما يعنيه هذا اليوم من وضع سياسي عالمي ومحلي ، وبكل ما يجسده من قوى عسكرية موجودة لدى طرفي المعادلة •

ميزان القوى في اليوم (ي - ٣)

تضم القوات المسلحة الاسرائيلية (احد طرفي المعادلة) في حالات السلم المسلح جيشين احدهما عامل والاخر احتياطي • ويضم الجيش العامل ١٥٦ الف رجل مزودين بـ ١٥٠٠ - ١٦٠٠ دبابة و ٢٥٠٠ عربة مدرعة (حوالي ٥٠ ٪ من الدبابات والعربات المدرعة المتوفرة) ، وجميع طائرات الصف الاول (٤٦١ طائرة مقاتلة) ، ومعظم سفن سلاح البحرية • ويقسم هذا الجيش الى اربعة اقسام ، ينتشر القسم الاول منه مقابل الحدود الشمالية (٣٠ ٪ ، وينتشر القسم الثاني مقابل الحدود الجنوبية (٣٠ - ٣٥ ٪) ، وينتشر القسم الثالث مقابل الحدود الشرقية (٥-١٠ ٪ ، في حين يتجمع القسم الرابع (٣٠ ٪) كاحتياط استراتيجي في الجزء الجنوبي من الارض المحتلة ، بحيث يستطيع الوصول الى الجبهتين الشمالية والجنوبية بسرعة متماثلة •

ويضم الجيش الاحتياطي حوالي ٤٢٠ - ٤٥٠ الفا يمكن تزويدهم بالاسلحة والمعدات المخزونة في مستودعات قريبة من مناطق الحشد الاستراتيجي • ولكن الاحتياط الاول القادر على الانضمام الى الجيش العامل والمشاركة في عملياته عند التعبئة لا يزيد عن ٢٥٠ الفا • في حين ان الاحتياطيين الباقين عبارة عن اشخاص تفرض عليهم ظروفهم (السن ، الكفاءة البدنية والنفسية ، طبيعة العمل ، التواجد خارج البلاد •• الخ•) ان يكونوا في الاحتياط الثاني والثالث، وان لا يشاركوا الا في اعمال الدفاع المحلي والاعمال شبه العسكرية • ولذا فهم لايدخلون في حساب القوة الضاربة الهجومية او في حساب قوة الصد والرد في الدفاع عن الحدود ولكنهم يدخلون الى حد ما في حساب الدفاع في العمق•

تشير المصادر العالمية الى ان الاحتياط الاول يمكن ان يتحول الى قوة

عاملة ، وينتقل من حالة السلم الى حالة التعبئة والاستعداد للفتح العملياتي خلال ٧٢ ساعة · ولكن خبرة حرب تشرين تدفعنا الى الاعتقاد بان المدة اللازمة لجمع ٦٠ ــ ٧٠ ٪ من الاحتياط الاول هي ٤٨ ساعة فقط ، وخاصة بالنسبة الى القطعات الاحتياطية المخصصة للعمل على الجبهتين الشمالية والشرقية ، نظرا لقصر المسافات التي تفصل المناطق السكنية عن اماكن تجمع الاحتياط القريبة من هاتين الجبهتين · ودليلنا على ذلك هو ان الالوية المدرعة الاحتياطية التي بدأ العدو جمعها في صباح ٦ ــ ١٠ ــ ١٩٧٣ ، لم تكن في صباح ٨ ــ ١٠ مستعدة للحركة باتجاه الجولان فحسب ، بل كانت تشن هجومها المعاكس بقوة ٣ مجموعات الوية ·

ويتألف الطرف الاخر للمعادلة من القوة العربية الموجودة بتماس مع العدو · وهي تتألف ، في الوضع الملموس القائم حاليا ، من الجيشين العاملين السوري والاردني ، بالاضافة الى وحدات سعودية تقدرها المراجع الاجنبية بلواء مشاة آلي · ولا يمكن ان ندخل في الحساب في اليوم (ي ــ ٣) قوات دول المشرق العربي (السعودية ، العراق ، الكويت ، اليمن الشمالي ، اليمن الجنوبي) طالما ان هذه القوات متحشدة على اراضيها الاقليمية ، ولم تنتقل مسبقا الى دول المواجهة ·

ويجبرنا اتفاق فصل القوات في سيناء على ان لا ندخل القوة المصرية في الحساب في ذلك اليوم (وان كان من الممكن ان تدخل في ظرف معين وبعد فترة معينة كما سنرى) · اما قوات دول المغرب العربي ، فهي خارج الحساب طالما انها لم تنتقل مسبقا الى سورية او الاردن ، لان اتفاق سيناء يحرمها من امكانية التحشد المسبق في مصر · وهي ستبقى خارج الحساب فترة من الزمن ، حتى لو دخلت مصر الحرب بعد اندلاعها ، وفتحت ارضها لحشد قوات دول المغرب العربي ، وهي الفترة التي تتطلبها هذه القوات للانتقال من مواقعها الحالية الى منطقة الحشد العملياتي على الضفة الغربية لقناة السويس ·

ومن الضروري ان نستبعد من الحساب ايضا القوة السورية التي تشارك في قوة الردع العربية الموجودة في لبنان ، وان لا ندخل في الحساب القوات العربية الاخرى العاملة في قوة الردع ، لان كل هذه القوات ستكون في اليوم (ي ــ ٣) بعيدة عن ارض المعركة في الجولان ، وبعيدة عن الحدود اللبنانية ــ الاسرائيلية ايضا بسبب وجود « الخط الاحمر » الاسرائيلي · اما الجيش اللبناني وقوات الثورة الفلسطينية (نظامية كانت ام غير نظامية) فهي بحاجة لفترة نقاهة طويلة بعد حرب اهلية دامت ١٩ شهراً · وستكون في اليوم (ي ــ

٢) منتشرة وفي وضع الترقب المتبادل ، الامر الذي يجعل من المتعذر ادخالها في المعادلة ، خاصة اذا دارت الحرب بعيدا عن الحدود اللبنانية ٠

ويبقى الاحتياط السوري (١٠٠ الف) والاردني (٣٠ الفا) جزءا من القوى الكامنة في الجانب العربي ٠ ولكن طبيعة هذا الاحتياط ، والمدة اللازمة لجمعه ، تدفع الى عدم ادخاله في الحسابفي اليوم (ي ـ ٢) اذا لم تبدا عملية التعبئة في اليوم (ي ـ ١) ٠

على اساس كل هذه المعطيات السياسية والعسكرية ، واستنادا الى ارقام الجدول الموجود في نهاية البحث ، يمكن حساب ميزان القوى الحقيقي ، مع الاخذ بالاعتبار ان القوة السورية الموجودة في لبنان تعادل (حسب تقديرات مراسلي وكالات الانباء) ٢٠ الف رجل ٠ و ٢٠٠ ـ ٣٠٠ دبابة ، و و٣٠٠ عربة مدرعة ، وان اللواء السعودي الموجود في سورية يعادل ٣ ـ ٤ الاف رجل ٠ ويمكن تلخيص هذا الحساب بالجدول التالي :

	العرب	اسرائيل	ملاحظات
قوات مسلحة (بالالاف)	٢٤٠	١١٦	ـ
دبابات	٢٤٤٠	١٢٠٠	النوعية متماثلة
عربات مدرعة	١٥٨٠	٢٣٠٠	النوعية متماثلة
طائرات مقاتلة	٤٤٢	٤٦١	النوعية غيرمتماثلة
زوارق طوربيد	١١	٦	النوعية غيرمتماثلة
زوارق صواريخ	٦	١٨	النوعية متماثلة
غواصات	ـ	٢ ـ ٣	ـ

● ـ لقد اقتطعت القوات الاسرائيلية الموجودة مقابل الجبهة المصرية ، كما اقتطعت القوات السورية الموجودة في لبنان ، واضيفت القوة السعودية الموجودة في سورية ٠ وادخلت القوات السورية والاردنية الموجودة في العمق على اعتبارها احتياطا استراتيجيا٠

● ـ الجدول محسوب على اساس اليوم (ي ـ ٣) ٠

ويبقى الاعتماد على هذا الجدول لحساب ميزان القوى في اليوم (ي ـ ٣) غير دقيق تماما ٠ ولا بد من ان يدخل عليه تعديلان : يتعلق اولهما بالمستوى المعنوي والتكنولوجي والتدريبي والقيادي واللوجستيكي للطرفين المتجابهين ٠

في حين يتعلق الثاني بنوعية الطائرات المقاتلة وحمولاتها الحربية ٠

ويمكن القول ان المستوى المعنوي لدى الطرفين متماثل ، بسبب اهمية هدف الصراع للطرفين ، وارتفاع مستوى الزخم النفسي داخل القوات المتجابهة ٠ بيد ان هناك تمايزا في المستويات الخاصة بالتكنولوجيا والتدريب والقيادة واللوجستيك ، وهو تمايز مائل لصالح اسرائيل ٠ ولكن الميل غير متساو في جميع المجالات ٠ وهو بالتأكيد ادنى بكثير من الميل الذي كان الاسرائيليون يعتقدون بوجوده قبل حرب تشرين ٠ فلقد اثبتت هذه الحرب ان الهوة اصغر مما كان متوقعا ، وانها تكاد تختفي في كثير من المجالات ٠ ولا يمكن تقدير الهوة الحقيقية اليوم ، وبعد ٣ سنوات من حرب تشرين ، الا بشكل افتراضي ٠ فلقد حاول كل طرف من الطرفين خلال السنوات الثلاث الماضية سد الثغرات وتكثيف الايجابيات ٠ والحرب الخامسة وحدها قادرة على اظهار مدى التقدم الذي تحقق في هذا المضمار ٠

اما بالنسبة الى الحمولات الحربية للقوات الجوية ، فان الامور تبدو اوضح بكثير ، نظرا لاعتمادها على حقائق ثابتة تتعلق بنوعية كل طائرة وميزاتها القتالية والفنية ٠ ورغم ان عدد الطائرات الاسرائيلية لا يعادل سوى ١ر٠٥ ٪ من عدد الطائرات العربية فانحمولتها الحربية تعادل اكثر من ٣٠٠٪ ٠ ومن الممكن تعويض جزء من هذا الخلل الناري بفضل نيران المدفعية العربية المتفوقة بالتأكيد على المدفعية الاسرائيلية علما بان اسرائيل متفوقة ناريا في مجال الصواريخ ارض ــ ارض ٠

ميزان القوى في اليوم (ي)

يضم طرفا المعادلة في اليوم (ي) نفس القوى المذكورة في معادلة اليوم (ي ــ ٣) بيد ان حساب الميزان يختلف في هذا اليوم باختلاف الطرف الذي يبادر بالهجوم ٠ فاذا كان الطرف العربي مبادرا ، واستطاع تحقيق المفاجأة الاستراتيجية ، كان الميزان مشابها للميزان الذي تحدثنا عنه في الحالة السابقة ٠ اما اذا كانت المبادرة اسرائيلية ، فان هناك حالتان : تتمثل اولاهما بشن الحرب دون تعبئة ٠ ويكون الميزان في هذه الحالة مماثلا لما ذكر اعلاه : اما الحالة الثانية ، فتتمثل في الحالة التي تقوم اسرائيل فيها بالمبادرة بعد التعبئة السرية ٠ وفي هذه الحالة يكون ميزان القوى كما هو مذكور في الجدول التالي :

	العرب	اسرائيل	ملاحظات
قوات مسلحة (بالالاف)	٢٤٠	٢٦٠	ـ ـ
دبابات	٢٤٤٠	٢١٠٠	ـ النوعية متماثلة
عربات مدرعة	١٥٨٠	٤٧٠٠	ـ النوعية متماثلة
طائرات مقاتلة	٤٤٣	٥٢٠	النوعية غير متماثلة
زوارق طوربيد	١١	٦	ـ ـ
زوارق صواريخ	٦	١٨	ـ النوعية متماثلة
غواصات	ـ	٢ ـ ٣	ـ ـ

● ـ نفس الملاحظة الموجودة في اسفل الجدول السابق ٠

● ـ الجدول محسوب على اساس اليوم (ي) الساعة (س) ٠

ويلاحظ من هذا الجدول ان الميزان قد اختل بشكل ملحوظ لصالح اسرائيل٠ ولكن الاختلال كما يبدو في الارقام اقل بكثير من الاختلال الفعلي ٠ لان التوازن التقريبي بالقوات البرية معرض للانقلاب بسبب التفوق الجوي المعادي، نظرا لان القتال يجري على ارض مكشوفة ، وتحت سماء صافية في معظم شهور السنة ، ولا تتلبد بالغيوم المنخفضة التي‌تحد من حرية عمل الطيران الا في فترات محدودة جدا ٠ ولا يأتي التفوق الجوي الاسرائيلي هنا من التفوق الساحق بعدد الطائرات ، لكنه يأتي من العوامل التالية :

١ ـ ان الضربة الجوية الاسرائيلية الاولى يمكن ان تدمر جزءا كبيرا من سلاح الجو الاردني على الارض نظرا لعدم اعداد الملاجيء الاسمنتية في المطارات الاردنية ، ولعدم وجود جهاز دفاع ارض ـ جو صاروخي رفيع المستوى في الاردن ،خاصة بعد ان عرقل الكونغرس الاميركي صفقة الصواريخ « هوك » للاردن ٠ واحبطت الاسباب السياسية فكرة شراء شبكة صواريخ « سام ـ ٦ » من الاتحاد السوفياتي ٠

٢ ـ في حالة عدم تدمير الطيران الاردني كليا او جزئيا بالضربة الجوية الاولى ، فان وجود طائرات تفوق (نسبي) لدى الجانب الاسرائيلي («فانتوم ف ـ ٤ » ، و « ميراج ـ ٣ ») تجعل طائرات « ف ـ ١٠٤ » و « ف ٥ » الاردنية (وهي طائرات يتعذر عليها مجابهة « الفانتوم » و « الميراج ») عاجزة عن التحليق في الجو خوفا من السقوط في المعارك الجوية ٠

٣ ـ ان انعدام التغطية الجوية للقوات البرية الاردنية سيجعل هذه

القوات تفقد جزءا كبيرامن فاعليتها ، وسيلقي على عاتق المقاتلات السورية عبئا اضافيا لحماية الاجواء الاردنية من جهة ، ومنع تسلل الطائرات الى سورية عبر هذه الاجواء من جهة ثانية ·

٤ ـ ان الضربة الجوية الاولى ضد المطارات السورية غير قادرة على تميز الطائرات السورية على الارض ، بسبب كثافة الدفاع ارض ـ جو في سورية ، ووجود الطائرات السورية داخل ملاجىء من الاسمنت المسلح · كما ان من الممكن الحد من عمل طائرات التفوق الاسرائيلية بوجود طائرات تفوق سورية (٤٥ طائرة ميغ ـ ٢٣) · ولكن الحمولة الحربية للطائرات الاسرائيلية تبقى اكبر من الحمولات الحربية للطائرات السورية بنسبة كبيرة · لذا ، فان الدعم الناري الجوي المقدم الى القوات الاسرائيلية سيكون اضخم من الدعم الناري الجوي المقدم الى القوات السورية ، الامر الذي يؤثر على ميزان القوى البرية ،وخاصة اذا استطاع الطيران الاسرائيلي توسيع حقل عمله بتدمير مواقع الصواريخ ارض ـ جو السورية بواسطة القنابل الذكية والصواريخ جو ـ ارض الحديثة المتطورة التي حصلت عليها اسرائيل مؤخرا من الولايات المتحدة ·

وعلى هذا الاساس فان ميزان القوى البرية في اليوم (ي) الساعة (س + ٢)، اي بعد اخراج الطيران الاردني من المعركة، سيحسب مع الانتباه الى نقطتين : اولاهما ان الجيش الاردني سيفقد قدرته الهجومية النهارية بشكل شبه كامل ، وسيخسر ٥٠ ٪ على الاقل من قدرته الدفاعية · والنقطة الثانية هي ان قوة الدعم الناري الجوي التي ستحصل عليها القوات البرية الاسرائيلية اكبر من قوة الدعم الناري الجوي المقدمة للقوات السورية · ومن المؤكد ان الفرق بين قوتي الدعم غير ثابت · وهو يصل الى حده الادنى اذا لجأ السوريون الى الدفاع تحت مظلة من الدفاع الكثيف المضاد للطائرات ، ولكنه يصل الى حده الاقصى اذا قام السوريون بالهجوم ، وابتعدت قواتهم البرية عن قواعد الصواريخ ارض ـ جو ·



ومن الممكن الان ، وبعد ان بينا اسلوب اعداد جدول ميزان القوى ، والعوامل التي تؤثر على الارقام وتفرض تعديلها ، القيام بوضع جدول لكل يوم من ايام القتال ، مع الانتباه الى ضرورة انقاص الخسائر بالرجال والمعدات والاسلحة في الايام الثلاثة او الاربعة الاولى للحرب ، ومتابعة انقاص الخسائر بالرجال بعد ذلك،مع زيادة عدد المعدات والاسلحة بشكل متوازن للجانبين المتحاربين نظرا لان الجسور الجوية السوفياتية والاميركية تكون قد بدأت

عملها لذلك بشكل متوازن لتعويض الخسائر بالمعدات والاسلحة والذخائر ·

ومن الضروري ايضا اضافة القوات العربية التي تبدأ بالوصول تباعا الى العمق العملياتي · مع الانتباه الى النقاط التالية : ١ ـ ان الدول العربية البعيدة عن بؤرة الصراع لا تستطيع ارسال كل قواتها الى مسرح الحرب وتكتفي بارسال نخبة ضاربة من الطائرات والمدرعات والمشاة الميكانيكية ، ٢ ـ ان القوات العربية لن تصل الى المعركة دفعة واحدة ، فهي محكومة بعاملي المسافة والقدرة على النقل ، ٣ ـ ان ضعف اساطيل النقل الجوي العربي ، ستجعل الجسور الجوية العربية محدودة الطاقة ، ٤ ـ ان عدم السيطرة البحرية العربية المطلقة على شرقي البحر الابيض المتوسط ـ كما ظهر في حرب تشرين ـ ستجعل نقل قوات المغرب العربي الى سورية عن طريق البحر امرا محفوفا بالمخاطر ، ٥ ـ ان عملية النقل ستعتمد اساسا على الطرق البرية نظرا لعدم وجود سكك حديدية حديثة تصل بين اجزاء الوطن العربي ، ٦ ـ ان اتفاق فصل القوات في سيناء يمكن ان يجمد القوة المصرية ، ويجمد بالتالي قوات دول المغرب العربي ويمنعها من المشاركة في القتال ·

ميزان القوى من (ي + ١) الى (ي + ٥)

يختلف حساب ميزان القوى باختلاف معطيات بدء القتال · وسنحدد فيما يلي ثلاث حالات متباينة :

الحالة الاولى : المبادرة اسرائيلية بعد التعبئة : لقد اعلنت مصر بعد توقيع اتفاق سيناء ، ان هذا الاتفاق لن يمنعها من التدخل عسكريا لصد العدوان على اي بلد عربي · فاذا اضفنا الى هذا التعهد الوضع الناجم عن انتخاب الرئيس كارتر وتعثر مسيرة الحل السلمي ، وتناقص امكانية الوصول الى تسوية مرضية دون اللجوء الى السلاح · وجدنا ان اشتراك القوات المصرية في الحرب بعد اندلاعها امر ممكن · وهذه مسالة مهمة جدا بالنسبة الى ميزان القوى ، نظرا لضخامة القوة المصرية من جهة ، وضرورة فتح الاراضي المصرية امام قوات دول المغرب العربي من جهة أخرى ·

وما دمنا قد افترضنا ان اسرائيل قد عبات قواتها قبل بدء القتال فان الطرف الاسرائيلي من المعادلة سيبقى ثابتا (باستثناء الخسائر) في الفترة من (ي + ١) الى (ي + ٥) في حين ان الطرف العربي من المعادلة سيتبدل

باستمرار ٠

ففي اليوم (ي + ١) سينضم الى القوة العربية ٥٠ ٪من القوات المصرية البرية على الاقل ، ومجمل القوتين المصريتين البحرية والجوية ٠ كما سيدخل ٢٥ ٪ من الطيرانين العراقي والليبي في الميزان ٠

وفي اليوم (ي + ٢) تكون القوة البرية المصرية كلها في الميزان ٠ وفي اليوم (ي + ٣) تكون ليبيا قد وضعت في الميزان ٣ اسراب من طائرات « ميراج » ويكون العراق قد دفع الى المعركة سربين او ثلاثة « ميغ ـ ٢١ » ، وسربين او ثلاثة « سوخوي ـ ٧ » ، وسربا من طائرات « ميغ ـ ١٧ » ، وسربا من القاذفات « تو ـ ١٦ » ، وتكون قوة الردع العربية (بما فيها القوة السورية) وجيش التحرير الفلسطيني وجزء من المقاومة قد اخذت مواقعها للمشاركة في القتال او لحماية المجنبة الاستراتيجية اليسرى للجيش السوري ، الا اذا فجر اليمين اللبناني لغما جمد هذه القوات ٠ وليس من المستبعد ان يصل في اليوم (ي+٣) سرب او سربان سعوديان وسربان او ثلاثة من الجزائر ٠

وبهذا سيتزايد طرف المعادلة العربي في البداية دفعة واحدة في البنود البرية والجوية والبحرية بسبب دخول مصر ، وسيتزايد بالتدريج حتى يوم (ي + ٣) في البند الجوي فقط ، بسبب وصول بعض الطائرات العربية الى العمق العملياتي٠ ثم يتوقف التزايد بعد ذلك حتى يوم (ي + ٥) ٠

الحالة الثانية : المبادرة اسرائيلية دون تعبئة : قد تلجأ اسرائيل الى المبادرة بشن الحرب دون اعلان التعبئة من أجل تحقيق الحد الاقصى من المفاجأة الاستراتيجية ٠ وفي هذه الحالة يتم التزايد في طرف المعادلة العربي كما ذكرنا من قبل ، كما يتم التزايد داخل طرف المعادلة الاسرائيلي على اساس اضافة ٣٠ ٪ من الاحتياط الاول في اليوم (ي + ١) ، و ٦٠ ـ ٧٠ ٪ من هذا الاحتياط في اليوم (ي + ٢) ، و١٠٠ ٪ في اليوم (ي + ٣)، الامر الذي يرفع القوات البرية العاملة الى ٤٠٠ الف رجل + ٣٢٠٠ دبابة + ٧٠٠٠ عربة مدرعة ٠

الحالة الثالثة : المبادرة سورية اردنية : يتم التزايد في طرف المعادلة الاسرائيلي كما لو كانت المبادرة اسرائيلية دون تعبئة ٠ في حين ان التزايد في طرف المعادلة العربي سيكون عراقيا اساسا وسعوديا الى حد ما، وسيتم وفق التوقيتات المذكورة انفا ٠ ومن المحتمل أن لا تزج مصر بقواتها تطبيقا لاتفاق سيناء ، ولعدم وجود ذريعة تدفعها الى التدخل طالما أن المبادرة لم تأت من جانب اسرائيل ٠ ويؤدي عدم دخول مصر الى اسقاط الزيادة الجوية الجزائرية والليبية من

الحساب نظرا لوجودها بعيدة من حقل المعركة ، وعدم قدرتها على التمركز في القواعد الجوية المصرية ·

ميزان القوى من (ي + ٦) الى (ي + ١٢)

اعتبارا من اليوم (ي + ٦) يأخذ طرف المعادلة العربي شكلا مزايدا في مجال القوات البرية بشكل خاص بسبب بدء وصول قطعات عربية من الدول البعيدة عن بؤرة الصراع ، في حين يبقى طرف المعادلة الاسرائيلي غير قابل للزيادة على اعتبار ان اسرائيل تكون قد جمعت كل احتياطها البري وجعلته جاهزا لدخول المعركة · ومن الطبيعي ان يختلف حجم التزايد حسبما تكون مصر داخل المعركة او خارجها · فاذا كانت داخل المعركة اصبح التزايد من جانبين ، وشاركت فيه جيوش المشرق العربي والمغرب العربي · اما اذا كانت خارج المعركة ، فان التزايد يصبح وحيد الجانب ، ولا يأتي الا من جيوش المشرق العربي · وعندما نتحدث عن جيوش المشرق العربي فاننا نقصد العراق (اساسا) ثم السعودية والكويت · كما ان حديثنا عن جيوش المغرب العربي يعني الجزائر وليبيا (اساسا) ثم السودان والمغرب · اما الدول الاخرى غير المذكورة اعلاه ، فان حجم قواتها الضاربة او بعدها عن مسرح المعركة ، يجعلها غير قادرة على المشاركة بفاعلية في تعديل ميزان القوى ·

وتؤكد خبرة حرب تشرين على ان القطعات الاولى من القوات العراقية والليبية والسعودية يمكن ان تكون في قلب المعركة منذ يوم (ي + ٦) ، ثم يبدأ قلب القوات بالوصول تباعا وفق جدول زمني يمكن تحديده بناء على طبيعة القوات ، وقدراتها على الحركة ، والمسافات المقطوعة ، والخطر الجوي الذي يمكن ان يعترضها · ويمكن بالتالي وضع جدول يبين ميزان القوى البرية في الايام (ي + ٦) (ي + ٧) ··· الخ · ولقد طورت الدول العربية قدراتها على النقل ، وزادت عدد حاملات الدبابات ، وزادت كفاءة الدفاع المتحرك ضد الطائرات · وهذا ما يدفعنا الى الاعتقاد بان العراق يستطيع أن يدفع حتى يوم (ي + ١٢) فرقتين مدرعتين على الاقل (٧٥٠ دبابة) وفرقتي مشاة · ويكون حجم القوات السعودية المدفوعة لواءان أحدهما مدرع ، والليبية ٣ ــ ٤ الوية اثنان منها مدرعان ، والجزائرية ٣ ــ ٤ الوية اثنان منها مدرعان ، والمغربية لواء ميكانيكي معزز بالدبابات ، والسودانية لواء ميكانيكي معزز بالدبابات ، بالاضافة الى وحدات كويتية من المدفعية والاليات ووحدة رمزية تونسية ·

وفي هذه الفترة تتم تعبئة جزء كبير من القوات الاحتياطية السورية والعراقية والاردنية ـ وجزء من الاحتياط المصري • ويصبح لدى القوات العربية مخزونا بشريا كبيرا لتعويض الخسائر ، وزيادة كثافة المشاة في التشكيلات •



على اساس هذا الاسلوب الديناميكي ، ومع اخذ عوامل الزمان ، والمكان ، ونوعية السلاح ، والخسائر ••• الخ بالحسبان ، يمكن التوصل الى ميزان القوى الاستراتيجي المحدد في وضع ملموس • ولكن ميزان القوى الذي نحصل عليه من هذه الدراسة باسلوب هيغلي ، بعد تحديد القوى الصديقة (المقولة) ، والقوى المعادية (النقيضة او النفي) للوصول الى التركيب (نفي النفي) ، هو « الميزان الممكن» « في الظروف القائمة • وليس هذا الميزان ملائما في جميع الحالات ، وهو لا يؤمن في افضل الظروف (مشاركة مصر الكلية والمشاركة العربية المتعاقبة) ، التفوق الساحق اللازم لتحقيق نصر حاسم على العدو الصهيوني ، رغم القوى الكامنة اللازمة لتحقيق النصر •

وللانتقال من « الميزان الممكن » الى « الميزان اللازم » شروط لا بد من تحقيقها ، واهمها : توحيد الاستراتيجية العربية ، واستبعاد الاعتماد على اميركا ، واعادة التحالف مع السوفيات ، والغاء اتفاق فصل القوات في سيناء، وتقريب القوات العربية البعيدة وحشدها مسبقا في العمق العملياتي ، وتكديس الاسلحة والمعدات التابعة للجيوش البعيدة في مستودعات داخل دول المواجهة وصيانتها واعدادها لاستقبال الطواقم التي تنقل بالطائرات عند اللزوم لزيادة سرعة التدخل ، وتحسين المواصلات البرية بين الدول العربية ، وتدعيم اسطول النقل الجوي ••• الخ •

وتدخل كل هذه الامور في اطار تطوير « المقولة » بسرعة تفوق تطور « النفي » ، لتحقيق «نفي النفي » المناسب ، والوصول الى « ميزان القوى المطلوب » الذي يضمن النصر • والى ان يتم ذلك ، يبقى ميزان القوى هو « الميزان الممكن » الذي حددته هذه الدراسة ، ووضعته في اطار حجمه الصحيح، بعد ان بددت ظلال الاوهام باضواء الحقائق •

جدول المعلومات العسكرية الخاصة بميزان القوى الرقمي

البلد	القوات المسلحة (بالالاف)	ميزانية التسليح (مليون دولار)	دبابات متوسطة	دبابات خفيفة	مصفحة وعربة مدرعة	احتياط (بالالاف)	طائرة مقاتلة	زورق طوربيد	زورق صواريخ	غواصة	مدمرة
مصر	٣٢٢ر٥	٦١٠٣	٢٢٠٠	—	٢٥٠٠	٥٠٠	٧٠٠	٣٠	١٣	١٢	٥
سورية	١٧٧ر٥	٦٦٨	٢٣٠٠	٧٠	١٢٠٠	١٠٠	٤٠٠	١١	٦	—	—
العراق	١٣٥	٨٠٣	١٣٠٠	—	١٣٠٠	٢٥٠	٢٤٧	١٣	٨	—	—
السعودية	٤٧	٦٣٤٣	٢٠٠	٦٠	٢٠٠	—	٩٥	—	—	—	—
الاردن	٨٠	١٥٥	٤٤٠	—	٦٨٠	٣٠	٤٢	—	—	—	—
ليبيا	٣٢	٢٠٣	٤٠٠	—	٦٢٥	—	٩٢	—	٣	—	—
الجزائر	٦٣	٢٥٨	٤٠٠	٥٠	٤٤٠	٥٠	١٨٦	٩	١٢	—	—
المغرب	٦١	١٩٠	١٥٠	١٢٠	٢٢٠	—	٦٠	—	—	—	—
السودان	٤٨ر٥	٩٧	١٣٠	١٦	٣٧٠	—	٤٣	—	—	—	—
تونس	٢٤	٥٦	—	٥٠	٥٠	—	٢٤	—	—	—	—
اليمن ش	٣٢	٥٨	٣٠	—	١٠٠	—	٢٤	—	—	—	—
اليمن ج	١٨	٢٦	٥٠	—	٥٠	—	٢٧	٢	—	—	—
عمان	١٤	٣٥٩	—	—	٦٢	—	٤٧	—	—	—	—
الكويت	١٠	١٦٢	١٠٠	—	٢٥٠	—	١٢	—	—	—	—
لبنان	١٥ر٥	١٤٤	٦٠	٤٣	١٨٠	—	٢٠	—	—	—	—
دول الخليج	١٨		—	٢٠	١٨٠	—	٤٠	—	—	—	—
اسرائيل	١٥٦	٣٥٠٣	٣٢٠٠	—	٧٠٠٠	٤٥٠	٥٢٠	٦	١٨	٣٠٢	—

بين الكلمة "الثورية" والفعل الثوري.. حول مناقشات البرنامج السياسي للجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين

داود تلحمي

لا شك ان الحرب الاهلية (والعربية ـ العربية) اللبنانية قد شغلت المقاومة الفلسطينية واستنزفت قواها واهتماماتها · ولا شك ايضا بان آثار هذه الحرب الطويلة الدموية ستنعكس ليس على لبنان فحسب وانما على مجمل منطقة الشرق العربي وبشكل خاص على القضية الفلسطينية والشعب الفلسطيني · وان كنا بالاساس نفضل ـ كمناضلين وطنيين فلسطينيين ـ أن تنصب جهودنا العسكرية على مجابهة العدو القومي (والاساسي) ، الا ان الامر يتجاوز الرغبات والتفضيل بعد ان فرضت علينا الحرب « اللبنانية » فرضا بعد الحرب«الاردنية»، وذلك في اطار « التعريب » الذي عملت له وما زالت قوى الثورة المضادة العالمية والمحلية بقيادة وتنسيق الولايات المتحدة الاميركية ·

ولسنا في هذا المجال « اسوأ حظا » من حركات التحرير المعاصرة الاخرى التي جوبهت (من فيتنام الى انغولا) بنفس عملية « تحويل الانظار » (لاستعمال احد التعبيرات السائجة) لاجهاض الثورة من الداخل واشغالها بتناقضات غير التناقض الرئيسي يجري تسخينها ورفع درجة عدائيتها بأستغلال مركز لبعض التمايزات الموضوعية (القومية او الطائفية او الطبقية او جميعها) والتداخلات المحتومة بين النضال التحريري والاوضاع الداخلية لمناطق الانطلاق والقواعد الخلفية ·

وان كان من الطبيعي ان تصب المقاومة الفلسطينية اهتماماتها على المعركة التي تخاض بالاساس ضدها على ارض لبنان ، فمن الطبيعي بالتالي ان تتخذ بعض جوانب النضال الفلسطيني الاخرى احجاما نسبية أقل ، الا انه من الضروري كذلك الا يغيب الانشغال بالحدث اليومي وبالمجابهة العسكرية

والسياسية وتشعباتهما وتطوراتهما المفاجئة احيانا ، الا يغيب كل ذلك الشمولية في النظرة لطبيعة المعركةوللآفاقالمستقبلية القريبةوالبعيدة • وبكلمات اقل ، لا يجب ان يلغي الانهماك بالتكتيك عن الرؤية الاستراتيجية • ولا يجب ان يغني الموقف (السياسي) عن البرنامج (السياسي) • فالمعارك في تاريخنا المعاصر لا تحسم بصفات الشجاعة والبسالة والاستعداد للتضحية ولا حتى بحجم القوة وكمية التسليح ونوعيته وحدها ، بل يتطلب تحقيق النصر تحليلا دقيقا لموازين القوى الآنية والمستقبلية القريبة (مع الاخذ طبعا بالديناميكية الثورية الفاعلة فيها) تحليلا على اساسه تبنى التحالفات والخطط ، وتحدد وسائل النضال في كل مرحلة وضد كل خصم • وغير ذلك ليس الا الارتماء في مستنقع التجريبية والانتهازية والتخبط العفوي والدنكيشيتية المتراوحة بين النشوة الثورجية المطالبة بتغيير كل شيء (وفورا !) والياس المطلق بعد الاصطدام بالواقع الصعب والمتردي (كما هو الحال في منطقتنا) •

ومن هنا يكتسي نشرالبرنامج السياسي للجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين في مطلع هذا العام اهمية خاصة في الساحة الفلسطينية ليس بمحتواه وحده بقدر ما هو لكونه المحاولة الجدية الاولى لتجاوز العموميات حول « التحرير الشامل » و« القضاء على الكيان الصهيوني » التي لا تعدو كونها في ظل الموازين المحلية والدولية الحالية والمحتملة في المستقبل القريب ضربا من التمني او اهدافا بعيدة تتطلب ـ كما جاء في البرنامج نفسه (١) ـ تغيرا حاسما في ميزان القوى فلسطينيا وعربيا وعالميا ، تغييرا لصالح قوى الثورة الجذرية على حساب القدرات العدوانية للقوى الامبريالية وركائزها المحلية •

وكان من الطبيعي ان تثير هذه المحاولة نقاشات في الصفوف الفلسطينية داخل وخارج الوطن المحتل ، وان تتباين المواقف منها حسب الموقع (الجغرافي والطبقي والسياسي) • ولسنا هنا بصدد حصر ردود الفعل هذه ، بل سنصب اهتمامنا على ما نشرته «شؤون فلسطينية »في هذا المجال ، ونعني بذلك بالتحديد مقالي د • محجوب عمر (عدد نيسان ١٩٧٦) والاخ سميح سمارة (عدد حزيران ١٩٧٦) •



تناول المقالان جوانب متعددة من البرنامج السياسي وبعمق وجدية متفاوتين • ومقال الاخ سمارة بالتحديد تميز بالكثير من الخفة وعدم الاستيعاب لفكر الجبهة الديمقراطية ومنطلقاتها ووصل في بعض تعابيره الى حد التجني

والتشويه المقصود لخدمة هدف التجريح المجاني ـ ولنا عودة الـــى هـــذا الجانب ـ ٠

لكننا سنبدأ بمعالجة الاطروحات التي نعتبرها اساسية في البرنامج والتي تناولها المقالان بشكل خاص ٠

مسالة السلطة الوطنية والبرنامج المرحلي :

تميزت الجبهة الديمقراطية في السنوات الاخيرة بانها كانت اول مـــن طرح علنا وامام الجماهير (في صيف ٧٣) برنامجا محددا يتلخص فـــي شعار « السلطة الوطنية على الارض التي يتم دحر الاحتلال الاسرائيلي عنها » ، هذا الشعار الذي تم تبنيه من قبل المجلس الوطني الفلسطيني بالاغلبية الساحقة في دورته الثانية عشرة (حزيران ١٩٧٤) ٠

ولا مجال هنا للعـودة الى النقاشات التي تلت هذا الطرح والى كـل ما قيل حول « الدولة الفلسطينية التي ستمنح » او حول « موازين القوى التي لا تعطي سلطة وطنية » ٠ فالمهم اليوم ان نؤكد البرنامج المرحلـــي لم يات نتيجـــة اتفاق سري بين الدولتين الاعظم ـ كما كان يتوهم بعض انصار الفكر التآمري ـ ولا هو مشروع في الجيب يعكس ميزان القوى الآني الجامد (الستاتيكي) ٠ لقد كان منذ طرحه برنامجا نضاليا لامد زمني لا هو بالقريب العاجل ولا بالبعيـــد المؤجل ، برنامجا يمكن بطرحه من « تحقيق اقصى درجات التعبئة الوطنية لشعبنا ويوطد نضاله المشترك مع حلفائه الطبيعيين عربيا ودوليا » ـ كما جاء فـــي البرنامج السياسي نفسه (٢) ٠

وتاتي احداث السنوات الاخيرة لتؤكد جملة من الحقائق:

ـ لقد تحقق (ولاول مرة في تاريخ الشعب الفلسطيني المعاصر التفـــاف شعبي شامل حول قيادة موحدة (منظمة التحرير) بصفتها الممثل الوحيد له ولتطلعاته ٠ وقد ترجم هذا الالتفاف نفسه في الاراضي الفلسطينية المحتلـــة بانتفاضة متواصلة عمليا منذ تشرين الثاني ١٩٧٤ وحتى اليوم ، لم تقتصر على الاراضي المحتلة عام ١٩٦٧ ،بل امتدت (وباشكال متميزة) الى الجليل الذي يشهد تناميا متسارعا للشعور الوطني الفلسطيني وللاستعدادات النضاليـــة الجذرية ٠

ـ بعد نضال عنيد استطاعت منظمة التحرير ان تنتزع في مؤتمر الرباط اعترافا عربيا شاملا بتمثيلها للشعب الفلسطيني باسره ٠ ورغم المؤامـــرات

والتراجعات والاستعداد الدائم للنظام الاردني وحلفائه للعودة عن هذه القرارات فقد اصبحت منظمة التحرير منذ ايلول الماضي عضوا كاملا في جامعة الدول العربية واعادت قمة القاهرة تاكيد قرارات الرباط بشانها ٠

واخير وبالرغم من « الاستنزاف اللبناني » ، تمكنت منظمة التحرير مـن تحقيق وتنمية رصيد عالمي هائل تمثل في الاعتراف الكامل بها كممثل شرعـي وحيد للشعب الفلسطيني من قبل البلدان الاشتراكية وبلدان العالم الثالث وحتى بعض البلدان الغربية ٠

وقد اقر ، د ٠ محجوب بهذه الانجازات وعددها بالاسم (قرارات الرباط وقرارات الامم المتحدة والنهوض القومي النضالي لعرب الارض المحتلة (٣)) ٠ وذهب الى حد المطالبة « بتشديد النضال من اجل تثبيت قرارات الرباط وعدم السماح لاحد بالالتفاف عليها او الغائها » (٤) ٠

ولا يسعنا الا ان نؤيد هذه المطالبة بلا تحفظ ٠ لكن يهمنا من اجل توضيح النقاش ان نورد النص الاساسي في قرار قمة الرباط المتعلق بالقمة الفلسطينية٠ يقول القرار (كما وزعته وكالة وفا) في بنديه الاولين والاهم :

« يقرر مؤتمر القمة العربي السابع ما يأتي :

١ ـ تاكيد حق الشعب الفلسطيني في العودة الى وطنه وتقرير مصيره ٠

٢ ـ تاكيد حق الشعب الفلسطيني في اقامة السلطة الوطنية المستقلة بقيادة منظمة التحرير الفلسطينية بوصفها الممثل الشرعي الوحيد للشعب الفلسطيني على اي ارض فلسطينية يتم تحريرها ٠ وتقوم الدول العربية بمساندة هـذه السلطة عند قيامها في كل المجالات وفي كل المستويات » (٥) ٠

فاذا كان د٠ محجوب يطالب بتثبيت قرارات الرباط التي حرر نصهـا الوفد الفلسطيني والتي تتطابق مع البرنامج المرحلي الذي تبنـاه المجـلس الوطنـي الفلسطيني ، فاين يختلف مع الجبهة الديمقراطية في طرحها لنفس البرنامـج؟

في مقال الاخ سمارة نجد بالمقابل تبنيا واضحا للبرنامج المرحلي علـى اعتبار انه كان متمشيا ـ على حد تعبير الكاتب ـ مع نتائج « حرب تشريـن الوطنية وذلك من حيث تحديده للحلقة المركزية في هذه المرحلة من النضـال الوطني الفلسطيني » (٦) ٠

ولكن يفترق المقالان في تقييم الحقبة اللاحقة لحرب تشرين ٠ فالدكتور محجوب يعتبر ان « نسبة القوى تتحول لصالح الثورة العربية بشكل عام والثورة الفلسطينيةبشكل خاص » (٧) ٠ اما الاخ سمارة فيرى نقيض ذلك تماما ويعتبر ان السلطة الوطنية اصبحت ابعد مما كانت بعد تشرين مباشرة ويذهب الى حد المطالبة بالتخلي عن البرنامج المرحلي واعتماد برنامج جديد (٨) ٠ ويقترح الاخ سمارة اساسا لهذا البرنامج « العودة الى الينابيع الاولى اي الميثاق الوطني الفلسطيني » ، ويعتبر ان هذا هو الامر المنطقي الوحيد (٩) !!

اما مقال د ٠ محجوب فيصل الى نتيجة مشابهة ولكن بتماسك منطقي مع منطلقاته (تحسن نسبة القوى) ٠ واختلافنا معه يكمن في هذه المنطلقات بالتحديد ٠ ففي حين تحسن بالتاكيد ميزان القوى لصالح « العرب » (لنستعمل مؤقتا هذا التعبير العام) بعد حرب تشرين الوطنية ولصالح الشعب الفلسطيني بشكل خاص كمحصلة لنضاله المسلح الطويل وتحركاته الجماهيرية والسياسية والاعلامية المترافقة ، الا ان هذا التحسن نسبي ولا يشكل هزيمة حاسمة للحلف الاسرائيلي ــ الاميركي الامبريالي ٠ اكثر من ذلك ، نقول ان البورجوازيات الحاكمة في مصر وسوريا (وفي مصر بشكل اخص) بددت من خلال تهالكها على الوساطة الاميركية وسيرها في ركاب مشاريع كيسنجر ، الكثير من المكاسب التي حققتها حرب تشرين وليس فقط المكاسب الوطنية العامة للشعبين ، بل وحتى المكاسب التي كان يمكن ان تجنيها كبورجوازيات لها مصالحها الخاصة ٠

ويكفينا تعبيرا عن هذا التبديد الحرب الاهلية اللبنانية التي اشعلتها القوى المرتبطة بالامبريالية الاميركية ، والتي سرعان ما تحولت الى حرب عربية ـ عربية تستنزف فيها كل القوى المشاركة في الوقت الذي تستعيد فيه الدولة الصهيونية انفاسها وتؤمن لنفسها شهورا طويلة من الهدوء المطلق على حدودها ٠ وقد عبر هنري كيسنجر نفسه عن هذا التحول فيتصريح اخير له قال فيه بالحرف الواحد : « الظروف الآن ٠٠٠ تبدو بالنسبة الينا افضل مما كانت عليه في اي وقت منذ انتهاء الحرب » (١٠) ٠

وعلى الصعيد الفلسطيني ، وبالرغم من كل النزيف البشري في لبنان ومحاولات الحصار ومصادرة تمثيل الشعب الفلسطيني ، ما زالت المقاومة الفلسطينية تحتفظ برصيدها الجماهيري الهائل (الذي تعبر عنه يوميا انتفاضات الارض المحتلة) وبرصيدها الدولي بالتاكيد ٠لكن حالة التردي في « التنسيق » العسكري (لنستعمل تعبيرا مخففا عن واقع الحال) بين قوى المواجهة مع العدو الاسرائيلي (التي وصلت بالنسبة لمصر بعد اتفاقية سيناء الى حد التجميد الكامل لامكانيات الضغط العسكري على اسرائيل) ليست دون اثر بالتاكيد

على ميزان القوى الاجمالي وبالتالي على القدرات الفلسطينية لانتزاع مكاسب ملموسة على صعيد البرنامج المرحلي ٠

ويستنتج الاخ سمارة من هذه التحولات الموضوعية ضرورة استحداث برنامج سياسي جديد للنضال الفلسطيني بدل « البرنامج المرحلي » ٠ واذا سلمنا بضرورة برنامج جديد فهذا البرنامج اما ان يكون اقصى من البرنامج المرحلي او دونه ٠ وفي الحالة الاولى يشكل هذا التجديد هروبا حقيقيا الى الامام لـن يقود الا الى المزيد من الارباك والتخبط على كافة الاصعدة (الجماهيرية والعسكرية والسياسية والدبلوماسية) _ هذا اذا لم يقد الى تسهيل مهمة الخصوم باعادة عزل المقاومة عربيا ودوليا وبالتالي تسهيل تطويقهاوشلها ٠ اما الطريق الثاني، فهو طريق الانحدار الى مستنقع التنازلات غير المبدئية والمتواصلة الذي تسلكه البورجوازيات العربية منذ تشرين ٧٣ ٠

اما ما يطرحه الاخ سمارة (العودة الى الميثاق الوطني الفلسطيني) وهـو ما يسميه (« العـودة الى الينابيع الاولى ») فهو هروب الى الوراءودفن للرأس في الرمل ٠ فبين الميثاق الوطني الفلسطيني والبرنامج السياسي المرحلي عشر سنوات مجيدة في تاريخ الشعب الفلسطيني سلك فيها الشعب بمجمله درب النضال بكل اشكاله وفي مقدمتها النضال الثوري المسلح واكتسب خبرة نضالية ثمينةجدا على كافة الاصعدة ، خبرة لم تكن عنده او عند قياداته في اية حقبة من تاريخه٠ فشتان ما بين الشعب الفلسطيني عام ١٩٧٤ المسلح بهذه الخبرة والملتـف حول قيادة شرعية واحدة (منظمة التحرير) وبين الشعب الفلسطيني عام ١٩٦٤ الذي كان يعيش حالة من التمزق والارباك وتوزع الولاءات بالاضافة الى قمع الانظمة العربية المتنوعة ٠

علاوة على ذلك فان المعطيات في منطقتنا تعرضت لتغييرات عميقة في هذه السنوات العشر وبشكل متسارع ٠ ولا نعتقد بان الاخ سمارة ينكر ذلك ٠ ولا نعتقد بانه يرضى بان تكتفي قيادة المقاومة عـام ١٩٧٦ بطرح الامور كما لو ان شيئا لم يكن ٠ هذا بالاضافة الى ان الميثاق الوطني ليس برنامجا سياسيا ليحل مكان برنامج اخر (والا لسمي كذلك) ٠

ويذكرنا هذا الموضوع بمحاولات ايجاد التفسير لكل الاكتشفات العلمية والتطورات الاجتماعية والسياسية في الكتب الدينيـة ٠ او بمحاولات بعض « الفلاسفة » الهروب من صخب الواقع وتعقيداته الى هدوء الريف وسكينـة الماضي البسيط ٠

وخلاصة الموضوع ان الموقف السياسي السليم في الظرف الحالي هـو التمسك بالبرنامج المرحلي وتشديد النضال ـ تحت اشكاله المختلفة ـ من اجل الاسراع في احداث التغيير الضروري في ميزان القوى الذي يؤمن تحقيق هذا البرنامج · فهذا البرنامج ما زال هو الاقرب تحقيقا بالرغم من كل المتغيرات على واقع المنطقة والواقع الدولي · وما زال برنامجا نضاليا ـ وليس مشروعا في الجيب كما توهم البعض ـ ويحتاج بالتاكيد لتضافر كل العوامل المساعدة على التغيير ، المحلية منها والعالمية · ومن هنا اهمية الحرص على الوحدة الوطنية الفلسطينية وتطويرها وعلى التحالفات الوطنية العربية والتحالفات على الصعيد الدولي · واي استخفاف باي من هذه العوامل ـ تحت اية حجة مهما بدت ثورية لفظا ـ لا يؤدي الا الى المازق (في احسن الاحوال)·

كلمة اخيرة حول هذا الموضوع : ليس البرنامج السياسي المرحلي بالتاكيد نهاية المطاف ولا هو « وثيقة ابدية »تصلح لكل زمان · فهو قابل للاستبدال لا بل يتوجب استبداله حينما تحدث تغييرات جوهرية على طريق تحقيق الاهداف المرحلية التي ينص عليها (وهو « مرحلي » بهذا المعنى) · والجبهة الديمقراطية التي تتبنى الماركسية ـ اللينينية نهجا ودليلا (١١) والتي تعمل على امد ابعد من اجل « التطور الاشتراكي لفلسطين » (١٢) ومن اجل « الوحدة القومية لكافة الاقطار العربية » (١٣) بما فيها فلسطين « الديمقراطية الموحدة المناهضة للصهيونية والامبريالية » (١٤) بعد تحقيق « تصفية الصهيونية » على كامل ترابها (١٥) ، ان الجبهة الديمقراطية اذن لا يعقل ان تعتبر تحقيق البرنامج المرحلي نهاية المطاف وختام النضال كما يوحي بذلك مقال د ·محجوب (١٦) بل الارجح لا بل شبه المؤكد ان قطاعات واسعة من البورجوازية الفلسطينية المنخرطة حاليا في النضال الوطني بكل اشكاله هي التي ستعتبر تحقيق البرنامج المرحلي نهاية المطاف وتتحول من قوة وطنية مناضلة الى قوى محافظة قمعية لمحاولات الاستمرار بالنضال ·

مسالة حق تقرير المصير :

يتناول المقالان السالفان الذكر موضوعة « حق تقرير المصير » بالنسبةللشعب الفلسطيني وكانها تنازل من الشعب الفلسطيني او لغم محشو بالاخطار · ففي مقال د · محجوب مثلا فقرات عديدة يتناول فيها هذه الموضوعة بلهجة سلبية وينتهي الى القول بان « قيادة م·ت·ف لم تقبل (في قمة الرباط) بقاعدة حق تقرير المصير بعد دحر الاحتلال عن الضفة الغربية وغزة ، وكان موقفها هو الصواب » (١٧) ·

بالمناسبة وكما ذكرنا اعلاه ، تضمنت قرارات الرباط في بندها الاول تأكيد حق الشعب الفلسطيني في العودة وتقرير مصيره (١٨) • وما رفضته قيادة المقاومة ليس حق تقرير المصير ، بل تعليق مستقبل الضفة الغربية وغزة حتى اجراء استفتاء بين السكان • وهذا الامر الذي طرحه الملك حسين في المؤتمر يستهدف ابقاء المواطنين في الضفة والقطاع في حالة ارباك وانتظار• علما باننا لا نشك مطلقا في نتيجة اي استفتاء قد يجري ونعتبر ان الانتفاضات الشعبية المتتالية ومواقف الهيئات والمنظمات النقابية والمهنية الممثلة لمختلف قطاعات الشعب تحت الاحتلال قد حددت منذ الان وبوضوح كامل ما هو طريق ممارستها لحق تقرير مصيرها : التخلص من كابوس الاحتلال الاسرائيلي في اسرع وقت وتسلم منظمة التحرير الفلسطينية لزمام الامور في هذه الاراضي•

ويطرح د• محجوب عددا من التساؤلات حول كيفية ممارسة هذا الحق وعلى اية اراض وحول قطاعات الشعب الفلسطيني الذي ستمارسه في اطار تحقيق البرنامج المرحلي او لاحقا حين تحقيق الحل الجذري للمسالة الفلسطينية (١٩) •ويطرح المقال حق تقرير المصير كمرادف لحق الانفصال •(ويرى د• محجوب باستنتاج مفاجيء ان الانفصال المقصود في برنامج الجبهة الديمقراطية هو الانفصال الفلسطيني عن الاردن اما الاتحاد المتضمن في دعوة الجبهة لاعادة توحيد الوطن في مرحلة متقدمة في اطار « دولة ديمقراطية مستقلة » فهو توحيد مع اسرائيل ، اي ان الجبهة الديمقراطية تطالب بالانفصال عن الاردن والتوحيد مع اسرائيل • اسمعوا يا عرب) •

وسنعود للحديث عن مسالة الحق في الانفصال على الصعيد النظري • ولكن يهمنا مباشرة ان نؤكد على ما يلي :

ـ اولا : ان « الانفصال » الذي يتضمنه حق تقرير المصير للشعب الفلسطيني في هذه المرحلة هو انفصال عن « الاحتلال الاسرائيلي » • لان « الانفصال » عن « الضم الهاشمي » قد تحقق جغرافيا عام ١٩٦٧ لصالح اسرائيل او سياسيا بالاعتراف العربي الشامل به في قمة الرباط وبعد ذلك بالاعتراف الدولي في الامم المتحدة •

ـ ثانيا : البرنامج السياسي للجبهة الديمقراطية لا يعتبر اي « انفصال » من هذين « الانفصالين »نهاية المطاف • فهو يتحدث عن « تجديد واعادة بناء الوحدة بين الشعبين (الفلسطيني والاردني) » بعد قيام « نظام وطني ديمقراطي في الاردن » وذلك على اسس من « التكافؤ والمساواة الديمقراطية والاختيار الطوعي الحر والنضال المشترك ضد الامبريالية والصهيونية والرجعية »(٢٠)•

كما يتحدث عن النضال من اجل « قيام دولة ديمقراطية موحدة في فلسطين مناهضة للصهيونية والامبريالية » . (٢١) فاين « الانفصالية عن العروبة » و« الوحدوية مع اسرائيل (الدولة الصهيونية)» ؟ اللهم الا اذا كان المقصود هو التحريض ضد الجبهة الديمقراطية في الاوساط القومية العربية .

نعود لموضوعة « الانفصال » . ذلك انها تحتاج الى بعض التوضيح . ففي مقال د. محجوب « حق تقرير المصير يعني في الاساس حق الانفصال » (٢٢) واكثر من ذلك يرى ان بامكان اليهود (اذا اعتبروا قومية) ان يمارسوا حق تقرير المصير وبالتالي حق الانفصال عن الدولة الفلسطينية الديمقراطية الموحدة (١٣) .

في مقال الاخ سمارة تأكيدات عجيبة في هذا الصدد : فهو يعتبر ان البرنامج السياسي للجبهة الديمقراطية « يقوم على قاعدة الاعتراف البديهي وغير المشروط ... بالقومية اليهودية » (٢٤) (ولا ندري من اين نبش هذا الاعتراف بالقومية اليهودية ؟) ويصل الاخ سمارة الى حد كبير من الخفة حين يطالب « جميع الدعوات الكيانية القومية الفاشستية بتقديم طلباتها الى الجبهة الديمقراطية لكي تمنحها صك الاعتراف بها »(٢٥)، ويتفهم على هذا الاساس اعتراف الجبهة الديمقراطية « بالحركات الانفصالية في الصحراء المغربية والعراق !! » (اما نحن فنفهم هذا على انه تأييد من الاخ سمارة لمواقف حكومة فرانكو اسبانيا « الثورية » ونظام المغرب « التقدمي » ورفض للاقرار بوجود قومية كردية متمايزة عن القومية العربية . وما طالبت به الجبهة الديمقراطية في الحالتين هو ممارسة حق تقرير المصير للشعبين الذي لا يعني بالضرورة وفي كل الاحوال « الانفصال » كما سنرى) .

ولا غرابة بعد كل هذا ان يستغرب الاخ سمارة ان تعرف الجبهة الديمقراطية الحركة الصهيونية بانها « تعبير سياسي قومي زائف عن طموح البرجوازية المتوسطة والصغيرة اليهودية » (٢٦) ، وان يجد تناقضا بين الاقرار بالحق في الانفصال والمطالبة بالدولة الديمقراطية الموحدة (٢٧)،(الحق الذي يعتبره الاخ سمارة حقا لليهود بالانفصال وتفصيل دولتهم كما يرغبون . اليس ذلك هو حق تقرير المصير ؟)

ان حق تقرير المصير الذي تحدث عنه ماركس واستفاض لينين في معالجته هو حق تقرير المصير للقومية المضطهَدة (بفتح الهاء) وليس للقومية المضطهِدة (بكسر الهاء) . وكذلك حق الانفصال . يقول لينين في اطروحاته عن «الثورة الاشتراكية وحق الشعوب بتقرير مصيرها » :

« ان حق الشعوب بتقرير مصيرها يعني فقط حقها في الاستقلال السياسي

والانفصال السياسي الحر عن الشعب الذي يضطهدها ·» (٢٨)
ويضيف :

« وتعني هذه المطالبة بالديمقراطية السياسية عمليا الحرية الكاملة للتحريض لصالح الانفصال وحل هذه المسالة عن طريق استفتاء في اطار الشعب الذي ينفصل » (اي الشعب المضطهد ـ بفتح الهاء ـ وليس المضطهد ـ بكسرها ـ كما ورد في مقال الاخ سمارة وكاحتمال مستقبلي في مقال د· محجوب) ·

ويؤكد لينين بعد ذلك ان هذا الاعتراف بحق الانفصال ليس الا «التعبير المتماسك عن النضال ضد كل اضطهاد قومي »، ولا يعني ان الاشتراكية تتبنى تجزئة العالم الى دويلات صغيرة · فالعكس هو الصحيح اي ان الاشتراكية « تهدف الى وضع حد لتجزئة الانسانية » وتوحيد الشعوب · والاعتراف بحق تقرير المصير وحق الانفصال للشعوب المضطهدة يشكل « مرحلة انتقالية» ضرورية ـ على حد تعبير لينين ـ على طريق اعادة توحيد الشعوب على اسس جديدة · (٢٩)

ويميز لينين بين « انماط ثلاثة من البلدانبالنسبة لحق الشعوب في تقرير مصيرها » :

١ ـ البلدان الراسمالية المتقدمة التي لم يعد لحركاتها القومية اي دور تقدمي لا بل تقوم باضطهاد واستغلال شعوب أخرى ·

٢ ـ البلدان الاوروبية التي لم تكن انذاك (عام ١٩١٦) قد استكملت تطورها البورجوازي وما زال لحركاتها القومية البورجوازية دور تقدمي تلعبه·

٣ ـ البلدان المستعمرة وشبه المستعمرة التي طالب لينين بدعم كليومطلق لحقها في التحرر وتقرير مصيرها (٣٠) ·

فتطبيق حق تقرير المصير ليس مبدأ مطلقا في كل الحالات فهو لا ينطبق بالتالي على الاسرائيليين في موضوعنا · والشعب الوحيد المعني بهذا الحق في اطار ما يسمى « بمشكلة الشرق الاوسط » هو الشعب الفلسطيني دون غيره ،وهو الذي يحق له بالتالي المطالبة بالاستقلال الوطني (الذي سماه لينين انذاك « الانفصال » لانه كان يفكر بالاساس بالامبراطورية القيصرية) وهو الذي يحق له اقامة دولته الوطنية الخاصة ·

اما اليهود الاسرائيليون فوضعهم خاص وسناتي عليه بتفصيل اكبر تحت العنوان التالي ٠ ويمكننا مؤقتا ـ وبتحفظ شديد وانما للتبسيط ـ وضعهم في الخانة الاولى ٠ علما بان لينين اشار في كراسه المذكور اعلاه الى ان ماركس اتخذ موقفا سلبيا من بعض الحركات القومية الاوروبية في اواسط القرن الماضي واعتبر ان هناك «امما رجعية » و« امما ديمقراطية ثورية » (٣١) هكذا بالتحديد ٠

المسالة اليهودية ومستقبل فلسطين :

في مقال الاخ سمارة محاضرة كاملةحولالمسالة اليهودية وجذور الصهيونية يرد فيها اسمكل من ماركس واسحق دويتشر (الكاتب يصفه « بالماركسي اليهودي ») وابراهام ليون (وهو « ماركسي يهودي » اخر) ٠

وبعض ما ورد في هذه المحاضرة :

ـ« (المسالة اليهودية) لماركس ٠٠٠ هو أول موقف علمي من مسالة اضطهادهم (اي اليهود) على يد الرأسمالية الاوروبية » ٠ (٣٢) ٠

هذا مع ان الرأسمالية الاوروبية ـ وبالتحديد بعد الثورة الفرنسية ـ هي التي حررت اليهود وحولت « المسيحيين انفسهم الى يهود » (اي الى متعاملين بالمال ورأس المال) على حد تعبير ماركس في المقال ذاته ٠ والاضطهاد الذي يشير اليه الاخ سمارة والذي مورس على نطاق واسع ضد اليهود في اوروبا الشرقية بالاساس لم يتخذ هذه الاحجام الا في الربع الاخير من القرن التاسع عشر اي بعد اكثر من ثلاثين عاما من كتابة ماركس لمقاله الشهير « المسالة اليهودية »٠

ـ « الايديولوجية الصهيونية التي جرى بعثها على يد البورجوازية اليهودية الصغيرة بدفع ودعم كاملين من البورجوازية الاوروبية » (٣٣) ٠

ان هذا الدفع والدعم لم يكن واردا بالاساس لان البورجوازية الاوروبية لم تكن معنية بالصهيونية في مراحل « بعثها » من قريب او بعيد ولم تأخذها على محمل الجد الا ـ بالنسبة لبعض هذه البورجوازية ـ في مطلع القرن العشرين (علما بان نشوء الصهيونية السياسية يعود على الاقل الى مطلع ثمانينات القرن الماضي) ٠ والبورجوازية الاوروبية الغربية لم تكن كلها معادية لليهود (فالقطاعات الليبرالية منها اتخذت مثلا موقف المدافع عن

دريفوس في فرنسا) والقطاعات المعادية لم تكن بالضرورة مؤيدة للصهيونية • الا ان تحولا كبيرا حصل في القرن العشرين بالتاكيد بعد استكمال تقاسم العالم بين الامبرياليات المختلفة وتفاقم التنازع فيما بينها لتحسين خارطة مناطق النفوذ لكل واحدة منها (الاخ سمارة يتحدث عن «الاستعمار» اعلى مراحل الراسمالية » !) (٢٤) •

وحجة كل هذه المحاضرة جهل الجبهة الديمقراطية بالمسالة اليهودية الذي دفعها الى الاعتراف بالقومية اليهودية (هكذا) وبحقها في تقرير مصيرها !! (٣٥) •

ويستغرب الاخ سمارة بعد ذلك ان امين عام الجبهة الديمقراطية صرح في كراس نشر بعد حرب تشرين (٣٦) ان « الكيانات العنصرية ••• سواء في فلسطين او في افريقيا ••• » تسير نحو الزوال• ويستنتج ان الجبهة الديمقراطية « كوعت » بنسبة ١٨٠ درجة !! (٣٧) •

وفي بعض تعليقاته الاخرى في هذا الصدد ، يصل الاخ سمارة الى استنتاجات مفاجئة وعجيبة • فهو مثلا يتناول الفقرة من برنامج الجبهة الديمقراطية السياسي التي تتحدث عن «احلال المستوطنين اليهود محلهم (اي محل المشردين من شعب فلسطين) واقامة دولة اسرائيل كدولة يهودية مغلقة تعتبر نفسها وطنا لجميع يهود العالم على الارض الفلسطينية » (٣٨) ليخرج باغرب النتائج • فهو يعتبر ان الجبهة الديمقراطية تعترض على انغلاق الدولة اليهودية (وليس على الاستيطان واقامة الدولة كما هو واضح من النص) • واكثر من ذلك يعتبر ان النص « يحمل مطالبة بانفتاح هذه الدولة على الجماهير والاقطار العربية كخطوة اولى لحل التناقض القومي بينهما (اي بين الشعب الفلسطيني والمستوطنين اليهود) (٣٩) •

ولا غرابة ان يجد الاخ سمارة مرة اخرى تناقضا في مواقف الجبهة الديمقراطية (كما فهمها او بالاحرى كما لم يفهمها)• والتناقض المزعوم يكمن هنا بين الدعوة « لفك » انغلاق اسرائيل والانفتاح على العالم العربي من جهة والاعتراف المزعوم ايضا بالكيان القومي الصهيوني من الجهة الاخرى•

وحتى ننتهي من مشكلة « الانغلاق » هذه التي احتلت حيزا كبيرا من مقال الاخ سمارة ، نشير الى كون الانغلاق المقصود هو الانغلاق العرقي (او الاثني) وليس الجغرافي الناتج بالاساس عن الايديولوجية الصهيونية المنغلقة (مبدأ « العمل العبري » الخ) • وما كانت تطرحه القوى الوطنية

والتقدمية الفلسطينية انذاك هو الدولة الديمقراطية المشتركة (اي التي تضم العرب واليهود على قدم المساواة) • واذا كان الاخ سمارة ضد هذا الحل الديمقراطي (عام ١٩٤٨)فهو بالتاكيد ضده في المستقبل ، واذا كان مع القضاء على اليهود بشريا او الالقاء بهم في البحر فليقل ذلك حتى يتضح النقاش • لا شك ان احد بنود البرنامج السياسي الذي اثار النقاش وركز عليه المقالان هو البند الذي يتحدث عن هذا الموضوع : موضوع الحل الديمقراطي الثوري للمسالة الفلسطينية • فالبرنامج السياسي للجبهة الديمقراطية يتحدث عن « قيام دولة ديمقراطية موحدة في فلسطين ، **مناهضة للصهيونية** ★ والامبريالية يتعايش فيها العرب واليهود في ظل المساواة القومية الكاملة بعيدا عن اي اضطهاد او تمييز قومي او عنصري او ديني ، وترتبط بعلاقات وحدوية مع سائر اقطار الوطن العربي • » (٤١) •

ويعترض د• محجوب مثلا على المساواة بين العرب واليهود على اعتبار ان العرب قومية واليهود ليسوا قومية (٤٢)•

كما يتعرض الاخ سمارة على الموضوع ذاته ويتحدث عن المادة السادسة من الميثاق الوطني الفلسطيني التي تقول بان « اليهود الذين كانوا يقيمون اقامة عادية في فلسطين حتى بدء الغزو الصهيوني لها يعتبرون فلسطينيين » •
ونحن نريد ان نطرح على الكاتبين سؤالين محددين :

اولا ـ هل هناك موافقة على الشعار الذي طرحته حركة فتح باقامة دولة ديمقراطية يتعايش فيها « المسلمون والمسيحيون واليهود » والذي فسر في بعض التصريحات على انه تعايش بين كل اليهود (الاسرائيليون حاليا) الذين يقبلون بهذا التعايش وبين كل الفلسطينيين (المقيمين والعائدين منهم) ؟

يبدو تماما ان الاخ سمارة غير موافق على هذا الشعار • فهو يستند الى المادة السادسة من الميثاق الوطني الفلسطيني ليستنتج منها (بشكل غير مبرر) ان اليهود الذين كانوا مقيمين في فلسطن قبل بدء الغزو الصهيوني (عمليا حتى نهاية القرن الماضي) هم الوحيدون الذين يحق لهم البقاء في « فلسطين المحررة » • في حين ان الميثاق يحدد في هذه المادة من هم الفلسطينيون بين اليهود المقيمين حاليا في فلسطين المحتلة •

ثانيا ـ اذا كانت هناك موافقة على هذا الشعار وقبول بامكانية التعايش (التاكيد بعد نضال طويل ليس هو موضوع بحثنا الان) ، فعلى اي اساس

★ التشديد منا (الكاتب)•

سيكون هذا التعايش ؟ هل هو تعايش بين طوائف تنتمي الى قومية واحدة مثلا ، كما يفسر البعض شعار « التعايش بين المسلمين والمسيحيين واليهود » ؟

مرة اخرى حسم الاخ سمارة موقفه بوضوح في مقاله · فهو مع التعايش الطائفي ·وهو يستخرج عبارة اخرى من الميثاق الوطني ليتحدث عن « اليهودية بوصفها دينا سماويا »وينهي بذلك المشكلة ·

في مقال د· محجوب هناك محاولة لتفادي الخوض في الموضوع باستقفاء نفي كون اليهود قومية ·

ونحن نعتقد كذلك ان اليهود ليسوا قومية · اليهود المتواجدون في الاتحاد السوفياتي وفي اوروبا والولايات المتحدة وفي انحاء اخرى من العالم ليسوا قومية وليست لهم اية صفات قومية تجمعهم ·لا بل ان الدعوات القومية التي نشأت في اوساطهم لعبت تاريخيا دورا رجعيا حطم التضامن بين كادحيهم وكادحي الذين يعيشون فيه واوجد توافقا موضوعيا بين هذه الدعوات وبين الحركات العنصرية المعادية لليهود ، ولاحقا توافقا اخر مباشرا ومستمرا حتى الان مع الامبرياليات الرئيسية ·

ولا نحتاج بالطبع للاطالة في هذا المجال · فالادبيات الماركسية كثيرة حول الصهيونية والحركات القومية اليهودية الاخرى (البوند) · لينين نفسه خاض حربا ايدولوجية شرسة ضد البوند (تنظيم عمالي يهوديفي روسيا) بالرغم من ان البوند لميكن صهيونيا (اي لم يطالب بهجرة اليهود الى فلسطين)· وفي المؤتمر الثاني للاممية الثالثة الذي انعقد في موسكو عام ١٩٢٠ والذي اشرف عليه لينين نفسه تبنى المؤتمر ضمن القرارات الخاصة بالبلدان المستعمرة فقرة واضحة تدين الحركة الصهيونية وتحالفها مع الامبريالية البريطانية ضد شعب فلسطين ·

لكن الموضوع ليس هنا · لان البحث لا يتعلق بكون اليهودية قومية ام لا، فالامر محسوم بوضوح ·السؤال الاساسي هو : ما هيهوية اليهود المقيمين حاليا في فلسطين المحتلة ، اي اليهود الاسرائيليون ؟

معظم هؤلاء اليهود (هكذا يسمون هم انفسهم · ولا يعني استعمال هذا التعبير ــ للتبسيط ــ لا الاعتراف بهم كطائفة ولا كقومية)اتوا طبعا ضمن حملات استيطانية واقاموادولتهم على انقاض الشعب الفلسطيني وقامت هذه الدولة

بالتنكيل بهذا الشعب وما زالت وستبقى الى زمن لا يبدو قصيرا ٠ ولهذا فان نضال الشعب الفلسطيني مستمر حتى كسر شوكتها وتصفية الصهيونية وكافة اجهزتها وتحقيق عودة الشعب الفلسطيني بكامله الى وطنه وممارسته لحق تقرير مصيره على كامل ترابه الوطني ـ كما نص على ذلك برنامج الجبهة الديمقراطية (٤٣) ٠

هذا الحل الجذري للمسألة الفلسطينية الذي يتطلب تغييرا هاما في موازين القوى العالمية والمحلية سيضعنا امام وضع جديد يختلف عن وضع فلسطين عام ١٩١٧ او عام ١٩٤٨ ٠ فاليهود (الاسرائيليون حاليا) في غالبيتهم الكبيرة من مواليد فلسطين ٠ فهم في غالبيتهم ابناء واحفاد المستوطنين الاوائل او ابناء واحفاد اليهود الفلسطينيين اصلا ٠ والسؤال المطروح اذن هو :

هل يشكل هؤلاء اليهود قومية ؟

لقد وجد كل من د٠ محجوب والاخ سمارة في البرنامج السياسي للجبهة الديمقراطية ردا بالايجاب على هذا السؤال (بل اكثر من ذلك وجدا ان الجبهة الديمقراطية تقر بوجود قومية يهودية كما راينا وهو بالتأكيد امر غير وارد في نص البرنامج السياسي لا من قريب ولا من بعيد) ٠ والاخ سمارة يذهب في استنتاجاته الى نتائج مفاجئة باستمرار ٠ فهو يتناول مثلا الفقرة الواردة في البرنامج السياسي التي تشير الى « نشوب تناقض قومي محتدم بين الصهيونية وتجسيدها السياسي (اسرائيل) وبين الشعب الفلسطيني » ٠ (٤٤) ليستنتج ان «الاعتراف بالتناقض القومي يتضمن اعترافا واضحا بكيان قومي يهودي في فلسطين يعتبر الصهيونية وتجسيدها السياسي معبران عنه » !! (٤٥) ٠

فاذا لم يكن هذا التناقض قوميا فماذا هو ؟ هل هو تناقض طائفي مثلا او لغوي او عرقي ؟ أم هو تناقض قبلي (بين قبيلة غازية وقبيلة مقيمة) ؟ اذا لم يكن هذا التناقض قوميا فعلى اي اساس يجري تعبئة الشعب الفلسطيني بكل طبقاته لمجابهته ؟ علما بان الشعب الفلسطيني نفسه لا يشكل قومية ٠ كما ان الطرف المعتدي لا يشكل بالضرورة قومية ٠

لنعد الى موضوعنا ٠ ما هي سمات اليهود المقيمين حاليا في فلسطين المحتلة (اليهود الاسرائيليين) ؟

نحن بالتأكيد نختلف مع انصار اعتبارهم مجرد طائفة دينية ٠ فهم في غالبيتهم ليسوا حتى متدينين وعناصر التوحيد في ما بينهم لا تقتصر على العنصر الديني لا بل تتجاوزه بالتأكيد الى عناصر اخرى : لغة مشتركة ، ثقافة مشتركة بنيت على

ارضية هذه اللغة وسوق مشتركة ودولة مشتركة منذ ٢٨ عاما • اي بعـــض سمات التشكل القومي (مشابهة من هذه الزاوية لسمات الاقلية البيضاء فـــي جنوب افريقيا) •

لكن هذه الكتلة البشرية تتميز عن الكتل الثابتة بحركـــة غير عاديـــة وبعناصر عدم استقرار لا يستهان بها (تميزها حتى عن الاقلية البيضاء فـــي جنوب افريقيا) •فالهجرة والهجرة المعاكسة ملازمتان لهذه الكتلة• والهجرة المعاكسة (اي الى خارج فلسطين) شهدت تفاقما متزايدا منذ حرب تشرين ١٩٧٣ وستبقى عنصرا ملازما لهذه الكتلة يزداد حدة مع الازمات ومع اي تحول لميزان القـــوى لغير صالح اسرائيل • وعلى الصعيد الاقتصادي ما زال الاقتصاد الاسرائيلـــي يعتمد الى حد كبير على خفيات الاعانات الخارجية ، (والاميركية بشكل خاص) ويشكل من هذه الزاوية حالة منفردة من نوعها في العالم • ويعاني المجتمـــع الاسرائيلي الى جانب ذلك من تصدع داخلي ناتج عن التمايز « الاثني » بيـن اليهود الغربيين (الاشكنازيم) والشرقين (السفارديم) الذي يتخذ احيانا طابع صراع حاد (ظاهرة الفهود السود) • كل هذه العناصر تشكل ارضية لاحتمالات تفسخ مستقبلية لا يمكن التنبؤ بها منذ الان •

ان تعايش عناصر التوحيد مع عناصر التفسخ هذه في المجتمع الاسرائيلـــي تجعل من غير المبرر الحديث عن وجود قومية « يهودية اسرائيلية » متكونة حاليا او عن احتمالات تبلورها في المستقبل • فليس بمقدورنا منـــذ الآن حسم هـــذا الموضوع • التطورات الموضوعية هي التي ستقرر • كما انه ليس بمقدورنـــا الآن ان نحدد طبيعة العلاقة بين الشعب العربي الفلسطيني وبين من يتواجد من هؤلاء « اليهود الاسرائيليين » في اطار الدولة الديمقراطية الموحـــدة المستقبلية • فالمعطيات التي ستتكون انذاك – اي لحظة تشكل الدولة الديمقراطـية – هي التي ستحدد ذلك • الا ان المهم منذ الآن هو التاكيد على انتفاء اي اضطهاد قومي او طائفي او عرقي من هذه الدولة (والا لما استحقت تسمية « الديمقراطية»)•وهذا ما فعل البرنامج السياسي للجبهة الديمقراطية • وهذا ما حاول الكاتبان تفسيره على انه حسم للمسائل المطروحة اعلاه • في حين انه ليس بالتاكيد كذلك •

كلمة اخرى لانصار « المساواة الطائفية » (اي الطرح القائم على اســـاس المساواة بين المسلمين والمسيحيين واليهود كطوائف) • نحن نعتبر هذا الطرح رجعيا جملة وتفصيلا • ليس لانه يعتبر اليهود (غير الفلسطينيين وغير العرب) طائفة فلسطينية فحسب بل لانه كذلك يضع المسيحيين (الفلسطينيين والعرب) في مصاف التمايز عن المسلمين بمقدار اليهود (مما يحمل بذور احياء اصطناعـــي لطائفة غير واردة حاليا) • والانكى من كل ذلك فان شعار « المساواة الطائفية »

لا يستنتج الدروس الضرورية من تجربة النظام الطائفي في لبنان · وباعتقادنا ان من الضروري محاربة هذا الشعار وما يمكن ان يحمله من اوهام تنطلق من الحلم باعادة الوضع الفلسطيني الى ما كان عليه قبل ستين عاما دون اخذ التجارب البشرية الجديدة بالاعتبار وكذلك تطور المعطيات في المنطقة والعالم ·

ملاحظة اخيرة في هذا الموضوع · في مجال تعليقه على مطالبة برنامج الجبهة الديمقراطية السياسي « بتصفية المؤسسات الصهيونية » · يقول د· محجوب : « هناك مؤسسات غير صهيونية في الكيان الاسرائيلي » (٤٦) · ونحن نتساءل ماذا يعني د· محجوب بهذه الملاحظة ؟ هل يطالب مثلا بتصفية الطائفة اليهودية الصغيرة المقيمة في القدس والتي ما زالت حتى اليوم ترفض الاعتراف باسرائيل لان قيامها لم يجر وفقا لتنبؤات التوراة ، هذه الطائفة التي ما زالت حتى الان ترفض الاشتراك في الانتخابات العامة بسبب هذا الموقف وترمي السيارات الحكومية التي تمر في احيائها بالحجارة ؟ ام يطالب بتصفية الحزب الشيوعي الاسرائيلي (راكاح) وهو الحزب الوحيد غير الصهيوني الممثل في الكنيست (ومن بين قادته المعروفين الشاعر الوطني توفيق زياد والكاتب القصصي الكبير اميل حبيبي)؟نحن يهمنا بالفعل ان نعرف ما هي المؤسسات غير الصهيونية في اسرائيل حاليا التي يرى الكاتب ضرورة تصفيتها · اما نحن فنرى الصهيونية ومؤسساتها اخطبوطا كبيرا مسيطرا على كل كبيرة وصغيرة في حياة يهود اسرائيل · وما هو غير صهيوني فهو اما هامشي واما محاصر ومحارب بلا كلل من قبل هذا الاخطبوط بكل مؤسساته · والمناضلون الشيوعيون واليساريون الثوريون الاسرائيليون يعرفون معنى وثمن هذا « الخروج عن الخط » ·

بين الاصلاحية والثورية :

في احدى كتاباته يورد لينين قصة انغلز مع عدد من عناصر الكومونة البلانكيين الذين اوردوا في بيان لهم العبارة التالية :

« نحن شيوعيون لاننا نريد ان نصل الى هدفنا دون المرور بالمراحل الوسيطة وبالمساومات التي لا تؤدي الا الى ابعاد يوم النصر واطالة عصر العبودية »· ويعلق انغلز على هذا البيان : « يا للسذاجة الطفولية التي تحول الاستعجال الذاتي الى حجة نظرية ! » (٤٧) ·

ومع كل التقدير لبسالة وشجاعة بلانكي واتباعه كان كل من ماركس وانغلز يحذر من المازق والمخاطر التي يقود اليها الفكر والممارسة الانقلابيين البلانكيين· لكن الافكار والممارسات عمرها طويل على ما يبدو ·

في الكثير من النقد الذي وجه لبرنامج الجبهة الديمقراطية السياسي ، تتردد نفس الملاحظات حول « اعتدال » بعض مطالب البرنامج ، « واصلاحية » التوجهات في هذا القطاع اوذاك و « التخلي عن شعار اسقاط النظام الاردني » (بسبب طرح مهام تفصيلية امام منظمة الجبهة في الاردن تتناول الحياة اليومية للجماهير الكادحة وهمومها المباشرة) ، (٤٨) والقبول بمرحلة النضال الفلسطيني الخ٠

فكليحثهودون التحرير الشامل وكل اثارة لقضايا الجماهير المباشرة ونضالاتها الجزئية دون الحديث عن اسقاط هذا النظام او ذاك او القضاء على هذا الكيان أو ذاك ، كل ذلك ابتعاد عن الثورية ووقوع في الاصلاحية ٠ نفس المنطق البلانكي بحذافيره ٠ فلا علاقة بين النضال الجزئي والنضال الكلي وبين النضال المطلبي والنضال المسلح ولا علاقة بين الاهداف الصغيرة والقريبة التي تعبيء اوسع القطاعات الجماهيرية والهدف الكبير والاخير ٠ ولا علاقة بين الانتصارات الصغيرة والجزئية والانتصار الكبير النهائي ٠ كل شيء أو لا شيء٠

وهناك موضوع آخر لا بد من التطرق اليه ٠ فقد كان مجال اثارة واسعة في بعض الاوساط ٠ وهو موضوع « الكفاح المسلح » ٠ وخلاصة الموضوع ان برنامج الجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين لا يؤكد بوضوح كاف على ما يبدو على الكفاح المسلح كاسلوب نضالي ويكتفي بايراده كشكل من اشكال النضال ٠والاخ سمارة ذهب طبعا الى حد اتهام الجبهة الديمقراطية « بالتخلي الكامل والنهائي ٠٠٠ عن الكفاح المسلح » (٤٩) وقبل ان نتناول هذا الاتهام الغريب لا بد من عودة الى الوراء ٠

عندما انطلق الكفاح المسلح الفلسطيني المعاصر في مطلع عام ١٩٦٥ شكل بكل تاكيد مبادرة فذة حطمت جمود المسالة الفلسطينية وحققت (بعدهزيمة١٩٦٧ بشكل خاص ثم معركة الكرامة) التفاف الشعب الفلسطيني باوسع قطاعاتهحول هذا الاسلوب واقراره به اداة رئيسية لتاكيد الوجود الوطني الفلسطيني ٠ ومن هنا فلا مجاللانكار امساكحركةفتح بمسالتين مركزيتين ومبادرتها في تثبيتهما٠ وهما مسالة استقلالية الشخصية الوطنية الفلسطينية ومسالة الكفاح المسلح ٠

ومنذ اواخر الستينات اصبح الكفاح المسلح كاسلوب نضالي رئيسي امرا مقرا فلسطينيا ولم يعد موضوع نقاش ٠ وكذلك الامر بالنسبة للشخصية الوطنية الفلسطينية المستقلة التي نالت اعترافا واقعيا آنذاك من العالم باسره (تكرس سياسيا وقانونيا عام ١٩٧٤ في الرباط والامم المتحدة) ٠ منذ ذلك الوقت كان لا بد من الانتقال الى مرحلة ارقى ، من تحديد اهداف اعلى للنضال

الفلسطيني من اجل تحقيقها · ومن هنا كان برنامج السلطة الوطنية ، البرنامج الوطني المرحلي ·

وبالمناسبة « فالكفاح المسلح » و « وحرب الشعب » « والعنف الثوري » ليست برامجا ولا اهدافا بل هي وسائل لتحقيق برامج واهداف · ولهذا فلا مجـال للمقارنة بين « البرنامج الوطني المرحلي » و « استمرار الكفاح المسلـح » · فالشعار الثاني لا يشكل برنامجا ولا يحدد اهدافا ولا يغني عن ضرورة وضـع البرنامج والاهداف ·

ملاحظة اخرى : اتهام الجبهة الديمقراطية بالتخلي او التوجه نحو التخلـي عن الكفاح المسلح يفتقر الى الحد الادنى من حسن النية ، ازاء ما قدمته الجبهة الديمقراطية من تضحيات خلال الاعوام الثلاثة الاخيرة سواء علـى الارضـ الفلسطينية المحتلة او على ارض لبنان حيث كانت قواتها متواجدة عمليا علـى كل الجبهات وفي كل المعارك · فالمسالة اذن ليست فيمن يردد لفظة الكفاح المسلح اكثر من الاخر بل فيمن يمارسه على ارض الواقع فعلا · وقد علمنـا رفاقنـا الفيتناميون درسا عظيما يجب ان نستفيد منه : ان تكون الشعارات والكلمات دائما دون مستوى الفعل والامكانيات وليس العكس ، اي ما معناه ان التصلب الفعلي هو في الممارسة وليس في الالفاظ ، والظروف غالبا ما تقتضي ان تكون الالفاظ اكثر مرونة واعتدالا من الممارسة ·

وحينما يثير د · محجوب مثلا في مقاله التحول « اللفظي » في لغـة الجبهة الديمقراطية بين عام ١٩٦٩ وعام ١٩٧٥ (عام صـدور البرنامـج السياسي) ، نقول بان وراء هذا التحول في « الالفاظ » تحولا في البنية والهوية الطبقية بالتاكيد · فالجبهة الديمقراطية ، رغم اهمية طرحها انـذاك للفكـر اليساري على الساحة الفلسطينية ، الا انها كانت تصطبغ بالتاكيد في فتـرة ولادتها بصبغة التطرف اليساري الطفولي الناتج عن بنية بورجوازية صغيـرة مثقفـة بالاساسـ · وما حـدث فـي السنـوات الاخيـرة وخاصة منذ عام ١٩٧٣ هو انها تحولت شيئا فشيئا طبقيا باتجاه ديمقراطي ثوري يعبر عن مصالح وتطلعات الطبقات الكادحة (والطبقة العاملة بشكـل متزايد) · ولا غرابة انذاك ان تتحول لغة الجبهة من « الالفاظ الثورية » التي تقفز فوق الواقع الى الارتباط بالنضالات والهموم المباشرة والقصيرة الامد للجماهير الكادحة في اطار استراتيجية ثورية طويلة الامد تاخذ بعين الاعتبار موازيـن القوى المحلية والعالمية والية تغييرها لصالح الثورة والجماهير الكادحة ·

وملاحظة اخيرة : نحن لم نتمكن بالتاكيد من مناقشة كل القضايا التي اثارهـا

البرنامج السياسي · فمناقشة كهذه تحتاج الى كتاب وليس الى صفحات قليلة في مجلة دورية · لكننا تناولنا القضايا الرئيسية وتفادينا في المناقشة اسلوب السرد السجالي قصدا بالرغم من ان مقال الاخ سمارة بالتحديد الذي يتضمن شتائم واضحة (بالمعنى الحرفي وليس المجازي للكلمة) يستدعي اكثر من نقاش هادىء · لكننا آثرنا ان نترك الحكم للقارىء ·

الحواشي :

(١) البرنامج السياسي : صفحة ٢٤
(٢) المصدر نفسه : صفحة ٥٠
(٣) شؤون فلسطينية عدد (٥٦): صفحة ٢٦
(٤) المصدر ذاته والصفحة نفسها ·
(٥) النهار ٣٠/١٠/١٩٧٤ نقلا عن «وفا» ·
(٦) شؤون فلسطينية عدد (٥٨) : صفحة ٦٣ ·
(٧) المصدر (٣) : صفحة ٢٦ ·
(٨) المصدر (٦) : صفحة ٦٣ ·
(٩) المصدر ذاته ·
(١٠) جريدة « السفير » ١٤/١٠/١٩٧٦ ·
(١١) النظام الداخلي للجبهة الديمقراطية : مطلع المقدمة ·
(١٢) البرنامج السياسي : صفحة ٣١ ·
(١٣) المصدر ذاته : صفحة ٤٥ ·
(١٤) المصدر ذاته : صفحة ٣٢ ·
(١٥) المصدر ذاته : صفحة ٣٥ ·
(١٦) المصدر (٣) : صفحة ٢٩ ·
(١٧) المصدر ذاته : صفحة ٢٦ ·
(١٨) راجع المصدر (٥) ·
(١٩) المصدر (٣) : صفحة ٢٢ـ ٢٣ـ٢٤ ·
(٢٠) البرنامج السياسي : صفحة ٥٨ ·
(٢١) المصدر ذاته : صفحة ٣٢ ·
(٢٢) المصدر (٣) : صفحة ٢٣ ·
(٢٣) المصدر ذاته : صفحة ٢٢ ·
(٢٤) المصدر (٦) اعلاه : صفحة ٦٩ ·
(٢٥) المصدر ذاته : صفحة ٧٠ ·
(٢٦) المصدر ذاته : صفحة ٧٢ ·
(٢٧) المصدر ذاته : الصفحة ذاتها ·
(٢٨) V. Lénine Oeuvres Choisies Edition du Progrés , Moscou صفحة ١٥٦
(٢٩) المصدر ذاته : الصفحة ذاتها ·
(٣٠) المصدر ذاته : صفحة ١٦٠ ·
(٣١) المصدر ذاته : صفحة ١٥٩ ·
(٣٢) المصدر (٦) اعلاه : صفحة ٦٧ ·
(٣٣) المصدر ذاته ·
(٣٤) المصدر ذاته : صفحة ٦٨ ·
(٣٥) المصدر ذاته : صفحة ٦٧ ·
(٣٦) اي قبل اقل من عام من اقرار البرنامج السياسي ·
(٣٧) المصدر (٦) اعلاه : صفحة ٧١
(٣٨) البرنامج السياسي: صفحة ٣٠ـ٣١
(٣٩) المصدر (٦) اعلاه : صفحة ٦٨ـ٦٩ ·
(٤٠) المصدر ذاته : صفحة ٧٠ ·
(٤١) البرنامج السياسي : صفحة ٣٢ ·
(٤٢) المصدر (٣) : صفحة ٢٢ ·
(٤٣) البرنامج السياسي : صفحة ٣٢ ·
(٤٤) المصدر ذاته : صفحة ٣١ ·
(٤٥) المصدر (٦) : صفحة ٦٩ ·
(٤٦) المصدر (٣) : صفحة ٢٢ ·
(٤٧) المصدر (٢٨) اعلاه : صفحة ٦٩ ·
(٤٨) في مقال الاخ سمارة : صفحة ٧٤ـ٧٥ ·
(٤٩) المصدر ذاته : صفحة ٧٤ ·

التكامل الاقتصادي العربي لبناء الصناعة الحربية *

الدكتور خيرات البيضاوي

تتصارع وتيرة « سباق التسلح » بين الدول العربية واسرائيل بصورة لم يسبق لها مثيل منذ زرع الكيان العنصري الاستيطاني الاسرائيلي في قلب الوطن العربي : فلسطين · الا أن اسرائيل قد استطاعت ، عبر شبكة نفوذها الصهيوني الهائل تخطي جميع العقبات، والقفز فوق كل الحواجز لاقامة « ترسانة » حربية في الاراضي الفلسطينية المحتلة · وليس بسر أن المؤسسة العسكرية الاسرائيلية قد حملت كل ما تستطيع من الات وأجهزة حربية متطورة من «عنابر» البنتاغون الذي سمح لقادتها بانتقاء كل ما يلزم جيشهم العدواني · ولم يكتف جنرالات اسرائيل بما قدمته لهم الولايات المتحدة من أسلحة ، بل حاولوا ادخال بعض التعديلات على ما في حوزتهم منها ، وطوروا بعضها الاخر ، واستخدموا خمسة الاف عالم ، ومهندس ، وتقني في قطاع صناعتهم الحربية (١) · تتيح تلك الصناعة الحربية الاكتفاء الذاتي في ميدان التسلح بالنسبة لاسرائيل ، الا انها تعتبر رديفا لتدفق سيل الاسلحة اليها من أميركا من جهة ، ومجالا لاستيعاب شريحة من العمالة الاسرائيلية من جهة أخرى · ومن الواضح أن الصناعة الحربية الاسرائيلية لا ترتكز على الاعمدة الصلبة التي يقوم عليها صرح الاقتصاد القومي والمتجسدة في :

راس المال ، والمواد الاولية ، والطاقة ، والاسواق ، والتنمية ، والمعرفة · وهي كلها عوامل تفتقدها اسرائيل ، و« تستوردها » كلها تقريبا من الخارج اي من الجاليات اليهودية المتواجدة خارج حدود الوطن المحتل وخصوصا في الولايات المتحدة الاميركية · فاذا ما انقطع وصولها ، لاي سبب من الاسباب ، اصفرت أوراق شجرة الصناعة الحربية الاسرائيلية ، ولفظ دخان معاملها أنفاسه ، وغاب سواده عن سماء فلسطين ·

أما العرب فالعوامل السالف ذكرها كلها متوافرة لديهم باستثناء التقنية (التكنولوجيا) أي « طريقة وضع المعرفة العلمية داخل الجهد الانساني الفكري والمادي ، بقصد رفع الانتاجية وعقلنة التصميم وعمليات الانتاج » (٢) · وهي تمثل في الواقع ذروة التقدم العلمي المتراكم عبر عشرات السنين · فالثورة الصناعية الغربية لم تؤت ثمارها بين ليلة وضحاها ، بل كانت محصلة عصارة فكرية خلاقة تراكمت عبر السنين لتفرز المدنية

★ يعالج هذا المقال ، خلفية بناء صناعة حربية عربية ، ولا يتطرق بالتحليل للمحاولات الموجودة فعلا ، والتي سنعالجها في دراسة لاحقة ·

الصناعية الحاضرة · ويتبع التقدم الصناعي عادة قاعدة « التكاثر الهندسي » لا الحسابي · من هنا تضاعف سرعة وتيرته مع الزمن · وذلك ما حصل فعلا بعد الحرب العالمية الثانية ، بدءا بتفجير الذرة وانتهاء بهبوط اول انسان على سطح القمر ومرورا باكتشاف العقول الالكترونية ووضع الاقمار الصناعية في مداراتها حول الارض ·

الطابع المميز للصناعة الحربية

هناك اجماع تقريبا بين علماء الاقتصاد على أن الصناعة الثقيلة هي ذروة الاقتصاد القومي · وأما سدرة منتهاها فهي : الصناعة الحربية · وتتميز هذه الاخيرة بعلامات فارقة تصبغها بطابع خاص يتمثل بما يلي :

١ ـ انتاج سلعها باهظ التكاليف ولا يعود بمردود ربحي اذاكانت سوقها محصورة · وهي تعتبر في المفهوم الاقتصادي استثمارات غير منتجة الا اذا كانت من الجودة والضخامة والتعقيد بما يسمح لها بالتصدير والمنافسة في سوق الاسلحة العالمية مثل : الولايات المتحدة ، والاتحاد السوفياتي ، وبريطانيا وفرنسا ·

٢ ـ تداخل الصناعة الحربية مع صناعات مدنية اخرى مثل الزجاج المطاط والاسلاك المعدنية وعدسات التصوير ووسائل الاتصالات اللاسلكية والعقول الالكترونية والرادار وغيرها ·

٣ ـ نوعية العاملين فيها والمستوى التقني العالي المفروض توافره فيهم ·

٤ ـ ضرورة توزيع المعامل في رقعة مكانية واسعة لئلا تصبح هدفا سهلا للتدمير من جانب العدو ·

٥ ـ اعتبار الصناعة الحربية الدرع الواقية للدفاع الوطني ، والوسيلة الناجعة في استرداد أجزاء الوطن السليب ، واسترجاع الحقوق المغتصبة ·

الواقع المأساوي للاقتصاد العربي

ان العوامل الطبيعية المتوافرة لتكامل الاقتصاد العربي لم تستطع حتى الان اختراق الاسوار العالية التي اقامتها الانظمة السياسية في وجه تحقيق الحد الادنى من التكامل · فالتشريعات الجمركية ، والقيود المفروضة على انتقال رؤوس الاموال ، وطريقة استثمارها في هذا البلد العربي او ذاك ، ومنع تنقل العمال العرب بين قطر واخر الا باجازات خاصة ، والفوارق الهائلة الموجودة بين العملات ، كل هذا يجعل من الحديث عن الاقتصاد العربي الحالي كوحدة قائمة بذاتها امرا غير علمي · والمفارقة هنا تكاد تكون مأساوية · فالدول المختلفة اللغات ، وشبه المتكاملة اقتصاديا بدات بعد الحرب العالمية الثانية في الانضواء تحت لواء منظمة اقتصادية خاصة لمساعدتها في التغلب على مشاكلها الاقتصادية ، والتنسيق فيما بينها منعا للتنافس في انتاج السلعة الواحدة·

ولقد ولدت من رحـم الواقع الاقتصادي الجديد المنظمات الاقتصادية التالية :

١ ـ منظمة التجارة الاوروبية الحرة : European Free Trade Association (E.F.T.A.)

وهي تضم النمسا والدانمرك وفنلندا وايرلندا والسويد وسويسرا وبريطانيا (قبـــل انضمامها الى السوق الاوروبية المشتركة)· والقاسم المشترك الذي يجمعهـــا هو (٣) « الغاء التعريفات الجمركية فيما بينهـا مع احتفاظ كل منهـا برسومها الجمركية الخاصــة مع بقية الدول الاخـرى التي تتعامـل معـها »·

٢ ـ منظمة الاتحـاد الجمركي : Customs Union وهي تتالف من

دول ال Benelux أي بلجيكا وهولندا واللوكسمبورغ · والفــــارق الوحيد بينها وبين منظمة التجارة الاوروبية الحرة هـو « توحيد رسومها الجمركية فـــي معاملاتها التجارية مع الدول غـير الاعضاء »· وقد انضمت دول الاتحــاد الجمركـــي المذكور الى السوق الاوروبية المشتركة بعـد انشائــها فـي عـام ١٩٥٨ ·

٣ ـ منظمة السوق الاوروبية المشتركة : Common Market وهي ترنو الى التكامـل الاقتصادي الكامل بالغاء القيود على انتقال رؤوس الاموال والعمال ، واعتبار الدول الاعضاء وحدة اقتصادية حقيقية · تتولى الاشراف عليها ووضع التشريعات اللازمة لها والمتعـلقة بتوحيد الانظمة النقدية والمالية والاجتماعـية سلطة اعـلى مـــن السلطة القومية (Supranational) لكل دولة · وتضم السوق الاوروبيـــة المشتركة حاليا : فرنسا ، ايطاليا ، المانيـا الاتحـادية ، بريطانيا ، هولندا ، بلجيـــكا ، اللوكسمبورغ ، الدانمرك ، ايرلندا ·

٤ ـ مجلس العـون الاقتصادي المتبادل :
Council For Mutual Economic Assistance (Eomccon)

وهو يضم : الاتحاد السوفياتي ، وبولندا ، والمجر ، والمانيـــــا الديمقراطـــية ، وتشيكوسلوفاكيا ، ورومانيا ، وبلغاريا ، ومنغوليا · و« الهدف الاساسي منه هو تعزيـــز التعـاون الاقتصادي الشامـل عـلى اساس التنفيذ المتماسك لمبادىء تقسيم العـمل الدولي الاشتراكي من اجـل بناء الاشتراكية والشيوعية في الاقطار المشاركة وتوسيع التنميـــة المخططة للاقتصاديات ، والتقدم الاقتصادي والعلمـي والفني لكل قطر مـع الحفـاظ على مبادىء المساواة التامة ، واحترام السيادة والمصالح الوطنية ، والمنفعـة المتبادلة والعـون بين الرفاق » (٤) ·

اما الدول العربية فقد بدأت محاولات عـلى طريق الوحـدة الاقتصاديـــــة والتكامل الاقتصــــادي والســوق العربيــــة المشتركــــة ، الا انهــــا سقطت عنــــد أول امتحــان ، وعـجزت عـن تجاوز التناقضات السياسية القائمة بين الانظمة العربية ،فبقيت جسدا بلا روح · ولقد ابرمت أول اتفاقية تجارية بين الدول العربية في العام ١٩٥٣ ، وانبثق عنها المجلس الاقتصادي العربي الذي وافق عليهـا لتصبح ساريـة المفعول « رسمياً » في العام التالي · ونصت بنود تلك الاتفاقية عـلى « اعفاء جميع السلع الطبيعية والحيوانية والزراعـية من الرسوم الجمركية ، وتخفيض الرسوم الجمركية المفروضة عـلى بعـــض

السلع الصناعية بنسبة ٢٥ ٪ » (٥) · ولكن تلك البنود بقيت حبرا على ورق · ثم تم التوقيع بعد ذلك ، أي في العام ١٩٦٤ ، على اتفاقية « الوحدة الاقتصادية العربية» التي نصت أهم موادها على حرية :

- انتقال رؤوس الاموال والاشخاص ·
- تبادل البضائع والسلع الوطنية والاجنبية ·
- الاقامة والعمل لرعايا الدول - الاعضاء ·
- النقل والترانزيت واستخدام كافة وسائل النقل ·
- التملك والارث والايصاء ·

وفي العام ذاته ، وقعت خمس دول عربية هي : مصر والعراق وسوريا والاردن والكويت على اتفاقية « السوق العربية المشتركة » التي لم تنفذ بنودها عمليا حتى الان· ويرجع الفشل في تطبيق تلك الاتفاقات للاسباب التالية :

١ - اختلاف الانظمة السياسية والاقتصادية والاجتماعية بين الدول العربية وتباين التشريعات المالية والنقدية والجمركية والعمالية في كل واحدة منها ·

٢ - تخوف الانظمة السياسية من مخاطر السماح بتنقل رؤوس الاموال والاشخاص واعتبارها خطرا على النظام السياسي في هذا البلد او ذاك ·

٣ - الفارق البارز بين تفاوت نسبة النمو الاقتصادي في الاقطار العربية وضآلة كمية التبادل التجاري فيما بينها لكونها جميعا بلادا تعتمد على الاستيراد من الدول الاجنبية ·

٤ - تاثير العوامل السياسية الخارجية على بعض الدول العربية والايحاء لها بالابتعاد عن كل ما يؤدي الى الوحدة الاقتصادية الحقيقية فيما بينها ، وتفاوت نسب برامج التنمية بين البلدان العربية النفطية وغير النفطية ، واستحالة تنفيذها بتوقيت واحد ، ووتيرة واحدة ·

٥ - اقتصار السلع العربية على المواد الخام المعدة للتصدير الى البلاد الصناعية (٦) « مثل النفط في الخليج العربي وشمالي افريقيا ، والفوسفات في الاردن والمغرب وموريتانيا والقطن في مصر والسودان »·

عوامل التكامل الاقتصادي العربي :

الا ان كل تلك المعوقات « الاصطناعية » موالاتية لا تستطيع حجب حقيقة وجود عوامل

التكامل الاقتصادي العربي الممكن ايجازها فيما يلي :

أولا : توافر رؤوس الاموال اللازمة لاقامة صرح اقتصاد عربي متين تستطيع فوائض العائدات النفطية مده بكل ما يلزمه من أموال تثمير حتى يستطيع الوقوف على قدميه وانتاج سلع صناعية ذات مردود ربحي ٠

ثانيا : ضخامة السوق العربية المؤلفة من كتلة تضم ١٢٠ مليون مستهلك تقريبا ٠

ثالثا : القدرة الشرائية الهائلة لمواطني الدول العربية النفطية ، وتعويضها عن عامل الحجم السكاني ذي الكثرة العددية وانخفاض الدخل الفردي فيه (مصر مثلا)، وهو ما يعرف بعلم الاقتصاد بـ « اقتصاديات الحجم » ٠ Economies Of Scale

رابعا : سهولة انشاء شبكة مواصلات بين الدول العربية ، واتصالها الجغرافي الطبيعي فيما بينها ٠ وهناك ارتباط وثيق بين المسافة الجغرافية الطبيعية بين مكان واخر (٧) و« المسافة الاقتصادية التي لا تعتمد على بعد المسافة التي تقاس عادة بالميل أو الكيلومتر بين مكانين جغرافيين ، بل على سهولة الاتصال فيما بينهما وعلى كثافة الحركة التجارية القائمة بين طرفيهما »٠

خامسا : تواجد المواد الاولية الخام التي تؤلف « العمود الفقري » لكل صناعة ثقيلة اي الحديد والصلب ومشتقاتهما ٠

سادسا : رخص سعر الطاقة المحركة لكل الالات وتوافرها بكثرة هائلة ٠
سابعا : كثرة اليد العاملة وضالة أجورها ٠

القاعدة الاقتصادية العربية للصناعة الثقيلة :

لا شك بأن القاعدة الاقتصادية العربية تتمتع بالمزايا الضرورية والعوامل الكفيلة لتجعل منها قوة صناعية ان لم تستطع المنافسة في الاسواق العالمية ، فانبوسعها على الاقل ، تحقيق شبه الاكتفاء الذاتي للمواطنين العرب القاطنين بين طرفي المحيط والخليج٠ ومن الواضح ان الكلام هنا يعني الاقتصاد العربي كوحدة ، وليس كحلقات مفككة مبعثرة لا يجمع بينها جامع ، وتمنع الانظمة السياسية اي تحرك جدي نحو تحقيقها ٠و« المسح الاقتصادي » على أرضية الواقع الاقتصادي العربي ككل ، يظهر بوضوح رجاحة العوامل المشجعة في ميدان التصنيع الثقيل الكفيل بتلبية متطلبات الصناعة العسكرية ، على العوائق التي تقف حجر عثرة في طريقها ٠ والصناعة الثقيلة في كل بلد ، وبصورة عامة ، قادرة في أيام السلم على انتاج الالات الضخمة والمحركات اللازمة للاستهلاك المدني أو الصناعي غير الحربي مثل البرادات والجرارات والحفارات ، والشاحنات وغيرها ٠ وهناك ايضا الصناعات الخفيفة الرديفة مثل المطاط ، والانسجة ، والاسلاك المعدنية ، والاخشاب والجلود ، والبطاريات ومنتجات البلاستيك والنايلون ٠ وهي كلها تتداخل بشكل أو باخر في الصناعة العربية ٠ فالبسة الجنود مثلا وخوذهم،

و« جزماتهم »وغيرها تكلف تزويد الجيوش العربية بها عشرات الملايين من الدولارات التي من السهل توفير القسم الاكبر منها ، وذلك عن طريق توحيد انتاجها ، وتوزيعه على الجنود العرب • وبالاضافة الى التوفير المالي هناك الفرصة الجديدة المتاحة أمام العمال العرب للعمل في تلك الصناعات التي تشكل جزءا هاما رديفا من استكمال عدة كل جندي ذاهب الى ميدان القتال ، أو مستقر في الثكنات •

رؤوس الاموال :

اذا كان المال « عصب الحرب » فهو ايضا ، والى حد كبير ، « عصب الصناعة الثقيلة » • فالثروات الطبيعية المخزونة في جوف الارض لا يمكن اخراجها من بطنها الا بتوظيف أموال ضخمة تنفق على شراء التجهيزات الالية اللازمة وصيانتها ، ودفع أجور العناصر البشرية من مهندسين ، وتقنيين ، وعمال ، ولا يفتقر العرب الى تلك الاموال ، بل على العكس ، تتراكم لدى الدول النفطية العربية وتوظف وتستثمر خارج الوطن العربي • وهي معرضة ، على الرغم من ضخامتها « الاسطورية » ، الى الغرق في مياه التضخم أو التخفيض الرسمي لبعض العملات الاجنبية • ولقد ذكر الدكتور علي عتيقة ، الامين العام لمنظمة الدول العربية المصدرة للبترول ، بأن الدول العربية النفطية قد خسرت في العام ١٩٧٥ حوالي ملياري دولار بسبب سقوط قيمة الجنيه الاسترليني ، وارتفاع مؤشر التضخم في الدول الصناعية •

ان التقديرات شبه الرسمية للاموال العربية الموظفة خارج الوطن العربي ، او القابعة في خزائن بعض المصارف الاجنبية تشير الى أنها تقارب الثلاثين مليار دولار • وهي مرشحة للقفز الى ما يقارب المائة والخمسين مليار دولار في أواسط الثمانينات ، وهو مبلغ خيالي لا يمكن لاي خبير اقتصادي أن يتخيل بقاءه « رأسمالا طائرا » أو موظفا في سبيل الربح « الوهمي » بدل تثميره في مشاريع انتاجية دائمة داخل الوطن العربي •

المواد الاولية الخام

يتربع الحديد على عرش المواد الاولية اللازمة للصناعة الثقيلة • فكمية انتاجه مع توأمه من الصلب تصنف مركز الدول الصناعية في العالم • (٨) « فالدول الاربع الصناعية الاولى في العالم : الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي والمانيا الاتحادية واليابان ، تحتل المراكز الاربعة الاولى في انتاج الصلب والحديد » • وتمتلك البلاد العربية خامات الحديد بكميات متباينة (٩) « تتوزع بين مصر والجزائر والمغرب وتونس وموريتانيا والسعودية » • ويقدر الاحتياطي المكتشف منها في البلاد العربية حتى الان بحوالي ٨مليارات طن • ويتضاعف الطلب على الحديد والصلب ومنتجاتهما كل ١٥ سنة • تشير الدراسات التي قامت بها لجان الحوار العربي ـ الاوروبي (١٠) الى « ان العالم العربي يحتاج حتى يصبح متوسط استهلاك الفرد الواحد فيه من منتجات الحديد والصلب مائة كلغ في عام ١٩٨٥ ، الى انتاج اضافي قدره ٢٢،٥ مليون طن سنويا تستلزم استثمارات يقارب حجمها الى ١٥ مليار دولار »• وتؤكد الدراسات والاحصائيات في الدول الصناعية على أن صناعة الحديد والصلب تخلق فرص عمل للسكان اكثر من اية صناعة أساسية أخرى ، وتؤدي الى تكوين مهارات فنية وأطر (كوادر) فردية

اكثر مما توفرها اية صناعة اخرى . وتسهم صناعة الحديد والصلب في حـل تطويرها ، بمكننة الزراعة العربية راسيا وافقيا ، فمعدل انتاج الوحـدة الزراعيـة العربية حاليا يقل حوالي ٨ مرات عن معدلات الانتاج العالمية ، بسبب افتقارها الى الجرارات والات الحرث والبذر والدرس والحصد ، فالدول المتطورة تستهدف تخصيص جرار ذي قوة ٦٠ حصانا لكل ١٠٠ هكتار اي ٨ر٠ حصان / هكتار . اما الدول العربية فنسبتها من الحصان / الهكتار هي كما يلي :

مصر : ٢ر٠ ، سوريا : ٠٦٧ر٠ ، المغرب : ٠٦٥ر٠ ، ليبيا : ١ر٠ ، الجزائر : ١ر٠٠ وتقدر احتياجات الدول العربية من الجرارات الزراعية سنويا بحوالي ٢٢ الف جـرار (قدرة ٤٥ـ٦٠ حصانا) . وهي لا تكاد تنتج منها شيئا الان .

هناك مجمع للحديد والصلب في حلوان ينتج حوالي مليون طن سنويا . وتحـاول الجزائر انشاء مجمع خاص بها بالقرب من الحدود المغربية ـ الجزائرية . ومن الممكن تجميع انتاج الدول العربية من خامات الحديد في مركز واحد . ويمكن اعتبار مجمـع حلوان نواة ذلك المركز الذي من السهل جدا توسيعه بل وشراء كل ما يلزمه من معدات حسب الاتفاقات المعروفة بـ اتفاقات المفتاح باليد ، ـ Turn-Key ـ وتوافـر الاموال العربية يسهل تلك العملية ويجعلها ممكنة التطبيق في المستقبل المنظور.

ويدخل الحديد والصلب في تركيب وتجميع كل الاسلحة التقليدية تقريبا من الغواصة الى الصاروخ ومرورا بمحركات الطائرات والدبابات والمصفحات والمدافع والصواريـخ وناقلات الجنود ومختلف انواع الذخيرة التقليدية . والى جانب صناعة الحديد والصلب، لا بد من اقامة صناعات رديفة لاستكمال تجهيز الاسلحة الحربية من مطاط ، والومنيوم ، وزجاج ، وعدسات ، واسلاك وغيرها .

الطاقة

منذ اكتشاف الطاقة الناجمة عن الاحتراق ، وسواء كان ذلك البخار الناتج عن الفحم والحطب وغيرهما ، فقد تفوق النفط عليها جميعا في اوائل القرن الحالي نظرا لرخص استخراجه ووفرة احتياطيه ،ولقد ثبت عند اكثر من خبير نفطي (١١) ان « العالم العربي يسبح فوق محيط من النفط ، ويحتفظ في جوف اراضيه بما يتراوح بين ٦٥ و٧٥ في المائة من الاحتياطي العالمي المكتشف حتى الان من الذهب الاسود . فالولايات المتحدة تمتلك ٧٪ من الاحتياطي العالمي ، والقارة الافريقية ٨ر٥ ٪ ، والقارة الاميركية من شمالها الى جنوبها ٤ر١٣ ٪ ، والعالم الاشتراكي ١ر١٦ ٪ » . ولا (١٢) « تتجاوز تكاليف التنقيب عن البرميل الواحد من النفط في البلاد العربية سنتا واحدا ، بينما تبلغ في الولايات المتحدة ٤٧ر١ دولارا ، و٩٧ سنتا في اوروبا الغربية ، و٧٠ سنتا في كندا ، و١٧ سنتا في القارة الافريقية » . ولا يزال النفط المادة الحرارية الاكثر استعمالا في العالم بالنسبة لمثيلاتها المستخرجة من الطاقة الفحمية او المائية او الغازية الطبيعية او النووية ، فنسبـة استعماله « (١٣) تبلغ ٥ر٤٤٪ من مجموع الطاقة المستعملة في الولايـات المتحدة ، و٥ر٥٩ ٪ فرنسا ، و٣ر٤٣ ٪ في بريطانيا ، و٢ر٧٥ ٪ في ايطاليا ، و٢ر٥٨٪ في المانيا الاتحادية و٦ر٥٢ ٪ في مجموعة دول السوق الاوروبية المشتركة ، و٨ر٦٩ ٪ في

اليابـــان » ٠

وهكذا يوفر النفط للدول العربية الاموال اللازمة لاقامة مصانع الصناعة الثقيلة ، كما يوفر لها الطاقة شبه المجانية لادارة محركاتها مع صناعاتها الرديفة التي تساعد على زيادة الانتاج الزراعي والخلاص من « حرب التجويع » التي تلوح بها الولايات المتحدة بوجـــه العرب كلما شعرت بوجود خطر مباشر أو غير مباشر يهدد الكيان العنصري الاسرائيلي ٠

الاســواق :

يكاد يجمع علماء الاقتصاد والاجتماع ان اسباب الحروب ، ومهما اختلفت اسبابهـــا المباشرة تبقى في النهاية اقتصادية ، وتتجسد في المنافسة على الاراضي الغنية بالمـــواد الاولية ، والتزاحم على الاسواق لتصريف السلع ، وهي تصطبغ تارة بالايدولوجية ، وطورا بالشعور الشوفيني القومي ، الا انها تبقى في جوهرهـــا فصـــلا مـــن مسلسل الصراع ، والاسواق بالنسبة الى السلع المصنعة مسالة حيوية ، فاذا لم تتوفر الاسواق اللازمـــة لتصريفها ، انقلبت الى كارثة على اصحابها اذ يخسرون راس المال الذي استهلك لانتاجها، من هنا تكامل العوامل التي تجعل من الوطن العربي وحدة اقتصادية طبيعية تمتلك رؤوس الاموال ، والمواد الاولية ، والطاقة والاسواق، ومن الواضح ان الكثافة السكانية العربيـة تجعل من الوحدة الاقتصادية العربية سوقا تجارية رابحة على كل صعيد ٠

عوامل نجاح اقامة صناعة حربية عربية :

ثمة حقيقة ازلية لا يمكن تجاوزها وهي ان « الانسان اغلى راسمال في العالم » ، فوجود راس المال والمواد الاولية والطاقة والاسواق لا تكفي كلها لاشادة بناء الصناعة الحربيـــة الثقيلة اذا لم يتوفر لها العقل الانساني المبدع الخلاق ٠ وتبقى ركائز القاعـــدة الاقتصادية بحاجة الى الذكاء الذي يستقرىء ويستنتج ، ويقارن ويجرب ، ويخطىء ويصيب ليفاجىء العالم بالاكتشافات والاختراعات التي حققت في النصف الثاني من القرن العشرين ذروة التقدم الصناعي ، والمبدعون من العلماء والمخترعين هم النخبة في كل بلد صناعي متقدم٠

اما بالنسبة الى البلاد العربية فان هجرة النخبة من ابنائها اي (١٤) «حملة الشهادات الجامعية واصحاب الكفاءات والمواهب كالعلماء ، والمهندسين والخبراء والفنيين » الـــى البلدان الصناعية المتقدمة قد خلق مشكلة قومية ذات ابعاد مستقبلية خطيرة على الصعيدين الانمائي والاقتصادي ، فبدلا من استفادة مختلف البلدان من الطاقات العلمية لابنائها فـي سبيل دفع عجلة مشاريع انمائها للحاق بركب القرن العشرين ، تضطر الى استقدام الخبراء والتقنيين الاجانب فتصبح خسارتها حينذاك مضاعفة عشرات المرات لان (١٥) « تعليـــم وتدريب العالم الواحد يقدر بحوالي ٢٠ الف دولار » ٠ أما المردود المالي لاستثمـــــار خبرة وموهبة العالم الواحد للاقتصاد الاميركي (١٦) « فتقدر بحوالي ٢١٤ الف دولار »٠ فاذا ما علمنا ان هناك (١٧) «حوالي ١٠ آلاف من ارباب المهن العرب ، وعلى رأسهم العلماء والمهندسين والاطباء والخبراء يهاجرون كل عام من ثمانية اقطار عربية هي : لبنان وسوريا والاردن والعراق ومصر وتونس والمغرب والجزائر ، وأن ٧٠ في المائة من العلماء العـــرب الذين يسافرون الى الاقطار الغربية للتخصص لا يعودون الى بلدانهم الاولى » ادركنا مدى

الخسارة الاقتصادية والانمائية التي تتحملها سنويا بعض الاقطار العربية ٠

لقد ادركت بعض الدول العربية مثل العراق وسوريا ومصر والاردن خطورة استمرار نزيف الادمغة العربية فسارعت منذ عام ١٩٦٨ الى اصدار التشريعات اللازمة لاستعادة الادمغة المهاجرة ، وذلك عن طريق اغراء أصحاب « الخلايا الرمادية » بالمزايا المادية التي تمنح لهم بعد عودتهم من تامين العمل ذي المردود الربحي المتناسب مع كفاءاتهم ، وتقديم قطع أرض مجانية لبناء منازل لهم ، ووضع تحت تصرفهم كل ما يطلبونه من مختبرات وآلات وتأسيس مراكز ابحاث للاسهام في نهضة بلادهم عن طريق ما حصلوا عليه من خبرة وعلم طوال اقامتهم في الخارج ٠

ان فقدان العنصر البشري اللازم والضروري لاقامة الصناعة الحربية الثقيلة مثل المهندسين الكهربائيين ، والميكانيكيين ، والعلماء المتفرغين للعمل في المختبرات ومراكز الابحاث العلمية الصناعية يمثل عائقا هاما ٠ الا ان التغلب عليه ممكن اذا ما بدأت الدول العربية في سباق عد عكسي مع الزمن حول :

- استعادة اكبر عدد ممكن من الادمغة العربية المهاجرة ٠
- استقدام بعض الخبراء العالميين لتدريب جيل عربي تقني على أيديهم ٠
- انشاء مراكز البحوث الخاصة بالصناعة المتطورة ٠
- تهيئة الادمغة العربية اللازمة للصناعة الحربية المعقدة عن طريق ارسال البعثات العلمية الى الخارج ٠
- توسيع دائرة النواة التقنية العربية المتواجدة حاليا في كل من مصر والجزائر ٠

ومن المؤسف القول انه لا يوجد علماء او تقنيون عرب اخصائيون في شؤون الصناعات الالكترونية مثل الكمبيوتر والاقمار الصناعية ، وعلم الاشعات ، والاشعاعات ، وهي كلها تتداخل في صلب الصناعة الحربية ٠ ولقد تطورت هذه الاخيرة بعد الحرب العالمية الثانية تطورا مذهلا جعل صناعة الطائرات والصواريخ الموجهة ، والالات الالكترونية واشعة (ليزر) تمثل ثلثي الاموال الموظفة في الصناعات الحربية، والرقم القياسي في غلاء اسعارها ٠ واصبح العامل الالكتروني عنصرا حاسما في كل الة حربية معقدة ، فالطائرة الحربية تكاد تصبح مختبرا الكترونيا قائما بذاته ٠ من هنا صعوبة انشاء صناعة قومية خاصة متطورة للطائرات الحربية ٠

الا ان هذا العائق لا يقف حائلا دون اقامة مصانع تجميع لمحركات الطائرات ، والاتفاق مع الدول او المصانع المنتجة لذلك الصنف من الطائرات على شراء حق تجميع اجزائها، (١٨) فـ « الهند مثلا قد استطاعت انتاج طوافات Alouette الفرنسية ، وطائرات ميغ -٢١ السوفياتية ، وطائرات مقاتلة من نوع Gnat البريطانية وطائرة Marut القاتلة ، وهي تنتج في الهند وتنقل اهم اجزائها من المعامل او الدول التي اتفقت معها الحكومة الهندية على انتاج ذلك النوع من الطائرات أو ذاك الطراز من الصواريخ » وليس ما يمنع الدول العربية من احتذاء مثل الهند ٠ فالاموال لديهم متوافرة وتجارة السلاح دهليز لا يستطيع الدخول اليه والخروج منه محملا بكل ما يحتاجه من انواع الاسلحة الا صاحب الامكانيات المادية ٠

ان الكلام عن العرب هنا يعني مجموعة الدول العربية الغنية منها بالاموال والمواد الخام من جهة ، والغنية بالعناصر البشرية القادرة على استيعاب التكنولوجيا الحديثة من جهة أخرى ، فالدول الخليجية النفطية مثلا لم يتح لها الوقت بعد لانشاء نواة علمية قادرة على الاسهام في انتاج الاسلحة · فالتراكم العلمي المفروض تواجده مفقود تماما هنا · ويكفي من تلك الاقطار اسهاما بما لديها من اموال وطاقة ، اما مصر والجزائر وسوريا والعراق ولبنان وتونس فبامكانها تقديم العناصر البشرية المتوافرة لديها حاليا ومضاعفة عددها ، وتحسين نوعيتها ، وتمكينها من استيعاب كل ما يستجد في عالم التقنية ، اما الفراغ الهائل الـذي يشكو منه العرب فينحصر في ميدان التقدم الكهربائي ــ المغناطيسي المتجسد في العقـول الالكترونية ، ووسائل الاتصالات اللاسلكية ، واستخدام مجالات الاشعة وخصوصا (الليزر) منها · فهنا لا بد من البدء من الصفر تقريبا · الا ان رحلة الالف ميل تبدأ بخطوة · وقد يقال هنا ان تلك الصناعة الكهربائية ــ المغناطيسية اللاسلكية تدخل في نطاق عالم الاسرار التي تحتفظ بها الدول لنفسها · ولكن هناك آلات معقدة اصبحت في متناول من يدفع ثمنها وهي تكفي للبدء في تمرين الجيل العربي الجديد على استعمالاتها المختلفة ، وليس بسر أيضا ان الاموال تملك مفاتيح جميع خزائن الاسرار : الحربية منها والسياسية ·

هنا لا بد من ايضاح · فالصناعة الحربية العربية سوف تنحصر في حدود القدرة على الدفاع عن الوطن العربي الممتد من المحيط الى الخليج ، واسترجاع الوطن السليب فلسطين، وما قضمته اطماع بعض جارات العرب من الاراضي العربية · وهي معروفة وليست هناك حاجة لتسميتها · فعامل الربح والخسارة المادية لا يدخل في حساب اقامة الصناعة الحربية العربية · فالعدو الاسرائيلي ما زال يغرز انيابه في الجسد الفلسطيني الذبيح ، ويبقـي الاراضي العربية المحتلة بين شدقيه ، ويزيد تسلحه لدرجة انه يخصص لموازنته الحربية اكبر نسبة عالية من دخله القومي اذ بلغت في العام الماضي ٣٦ في المائة ، وبالاضافـة الى المكاسب القومية التي يجنيها العرب من اقامة الصناعة الحربية ، فهناك توفير نسبي أيضا في الاموال المخصصة لموازنات الدفاع في البلدان العربية · ففي الاحوال الراهنة ، يضطر كل بلد عربي الى رصد اعتمادات دفاعية قد لا تتناسب مع دخله القومي وكما يتبين من الاحصاءات البيانية التالية : (١٩)

الدولة	تطور موازنات الدفاع بملايين الدولارات				نسبة الدخل القومي المئوية المخصصة للدفاع			
	١٩٧٢	١٩٧٣	١٩٧٤	١٩٧٥	١٩٧١	١٩٧٢	١٩٧٣	١٩٧٤
الجزائر	٢٣٩	٣٧٦	٤٠٤	٢٨٥	٤ر	٣ر٩	٤ر٧	٤ر٦
مصر	١٥١٢	٢٧٥٧	٤٠٧١	٦١٠٣	٢١ر١	٣١ر٩	٣١ر	٢٢ر٨
العراق	٤٧٣	٨١٥	٨٠٣		١٢ر٧	١١ر٣	١٦ر٤	١٤ر٢
الاردن	١١٧	١٤٧	١٤٢	١٥٥	١٤ر٨	١٦ر	١٦ر٤	١٤ر٢
ليبيا	١٢١	١٤٥	٤٠٢	٢٠٣	٢ر٣	٣ر	٢ر٨	٦ر٨
المغرب	١٤٢	١٩٦	١٩٠		٢ر٩	٣ر٢	٣ر٥	٣ر٢
السعودية	٩٤١	١٤٧٨	١٨٠٨	٦٣٤٣	١٥ر٦	١٩ر٢	١٨ر٣	١٥ر
السودان	١٢٠	١١٤	١١٨	٩٧	٥ر١	٥ر٢	٤ر٦	٤ر٣
سوريا	٢٤٩	٤٠٥	٤٦٠	٦٦٨	١١ر٨	١٢ر١	١٦ر	١٥ر٧

ان مفتاح البدء باقامة صناعة حربية عربية يكمن في اعتبار البلاد العربية كلها وحدة اقتصادية متكاملة قائمة بذاتها • فمقولة اموال العرب وثروات العرب للعرب صحيحة مائة في المائة • فالالماني القاطن في الرور لا يعتبر مناجم الفحم والفولاذ الموجودة في جوفه ملكا لسكان الرور • وكذلك الحال بالنسبة للاميركي القاطن في تكساس • فهو لا يفكر في الاحتفاظ بالعائدات النفطية المتوفرة من أبارها ملكا لولايته بل ثروة للامة الالمانية وللامة الاميركية ، وكذلك الامر فيما يخص الامة العربية ، فالارتفاع الى المستوى القومي واجب يعلو كل النزعات الاقليمية والمنافع المادية الصغيرة • الرهان مصيري ، ويتعلق بمستقبل ومكانة الامة العربية تحت الشمس • فجميع العوامل متوافرة لاقامة صناعة حربية عربية تقليدية وشبه متطورة • ولا يحول دون انشائها سوى اتخاذ القرار السياسي المناسب ووضعه موضع التنفيذ فورا ، وتجاوز كل الخلافات الهامشية والاجتهادات العقائدية التي عطلت حتى الآن اكثر من مشروع قومي كان من الممكن ان يعود بالنفع على كل العرب •

(١) ابو النمل ، حسين : بحوث في الاقتصاد الاسرائيلي ــ منظمة التحرير الفلسطينية ــ مركز الابحاث ــ بيروت ــ ١٩٧٥ ــ ص : ٥٥

(٢) « ندوة الدراسات الانمائية » عدد :٢٢ ــ « تثمير العائدات البترولية في الانماء العربي » ص : ٣٢٤

(٣)
Ballassa' B : « The Theory Of Economic Integration ; George Allen And Unwin London , 1969 ; PP : 21 - 56

(٤) عزيز ، محمد : مجلس العون الاقتصادي المتبادل (الكوميكون) حاضره ومستقبله ، « المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، ١٩٧٦ • ص : ٢٢ــ٢٣

(٥) الفرا ، محمد علي : « التنمية الاقتصادية في دولة الكويت » منشورات جامعة الكويت ، ١٩٧٣ ، ص : ٣٥٠

(٦) كامل ، أمين حلمي : « مذكرة عن الحوار العربي ــ الاوروبي » مرفوعة الى الاجتماع الاول لوزراء الصناعة العرب ، القاهرة ، ١٩٧٥ ، ص : ١٢ــ١٤

(٧)
Makower , H . And Morton , G.A « A contribution ToWards A Theory Of Customs Unions » : The Economic Journal , March 1953 ; PP : 33 - 49

(٨)
Westdeutsche Landsbank Giroyentrale ; Quarterly Report , 1/1/1975, Dusseldorf , 1975 ; p : 12

(٩) كامل ، أمين حلمي : المصدر السابق: ص : ١٢

(١٠) المصدر السابق : ص : ١٥

(١١)
Jean, Pierre : Pètrole : La Groisième Guerre Mondial ; Calmann Léry , Paris, 1974 ; p : 97

(١٢) المصدر السابق : ص :٩٩

(١٣)
Khader , Bichara : Le Petrol Politique (Mai Juin Juillet) 1974 Paris P : 106

(١٤) زين ، الياس : « هجرة الادمغة العربية » ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، ١٩٧٢ ، ص : ٧

(١٥) المصدر السابق ، ص ٧٥

(١٦) المصدر السابق ، ص : ٧٥

(١٧) المصدر السابق ، ص ٧ــ٩

(١٨)
Dubos , Jean - François : Ventes D'armes : Une Politique ; Gallimard Paris ' 1974 ; P : 32

(١٩)
The Military Balance 1975 , An iiss Publication . The International Institute For Strategic Studies , London, 1975 .

الايوبي ، الهيثم ـ عبدالله ، هشام : ميزان القوى العربـــي ـ الاسرائيلي ـ دراسات فلسطينية ٩٨ ـ منظمة التحرير الفلسطينية ـ مركزالابحاث ـ بيروت ، اذار (مارس) ١٩٧٤ ـص ٨

اشارات على مسار حركة الصراع الطبقي ـ القومي في الساحة الرئيسية ★

سميح سماره

● ملاحظـــات واشكالات عامـــة :

نسجل في البدء اعتقادنا انه باعلان القيادة السياسية الفلسطينية عن موعد الـــدورة الثالثة عشرة للمجلس الوطني الفلسطيني في كانون الاول المقبل ، وذلك بهدف اجراء مراجعة وتحديد مسار حركة الجماهير الفلسطينية في ظل المعطيات الراهنة ، انه بذلك فان صـــراع الجماهير العربية في الساحة اللبنانية ضد قوى التحالف الامبريالي ـ المرجعي ، يكون قد وصل الى أحد المفاصل الرئيسية له ، المرتكز على اجراء مراجعة وتقييم واضحين للمسألة الرئيسية التاليـــة :

● حجم وقوى واتجاهات وتحالفات ومسار جبهة الجماهير ·

● ثم حجم وقوى واتجاهات وتحالفات ومسار جبهة الاعداء ·

وذلك لاعتبار يشير الى أن المعركة الفادحة التي خاضتها وتخوضها الجماهير العربية في لبنان قد قدمت لحركة التحرر العربية العديد من الاجابات الواضحـــة على الاسئلـــة الغامضة ، وبينت مغالطة الكثير من المقدمات الرئيسية والقناعات المسلم بصحتها ، وشكلت بحد ذاتها نقاط ضوء بارزة ، تستطيع القوى الثورية العربية على اساسها وبواسطتها ان ترى الواقع وتفسره وتحل اشكالاتها النظرية خلال ذلك · هذه الاشكالات التي كانت وما زالت

★ يعتمد تحليلنا في هذه المقالة على قانون رئيسي يشدد ويؤكد على جدلية العلاقـــة القائمة وتداخلها بين النضالات الطبقية ضد القوى الاجتماعية المرتبطة براس المـــال الامبريالي والمعادية لاهداف الجماهير العربية في التحريـــر والوحدة والاستقـــلال الاقتصادي ، وبين النضالات القومية ضد العدو الرئيسي المتمثل بالامبريالية العالميـــة والصهيونية (الحركة الصهيونية والقاعدة الامبريالية الصهيونية) ، وباعتمادنا هذا القانون كمرشد رئيسي في النظر الى اشكالات الواقع يكون خلافنا قد تحدد مع التوجهات ذات الاساس القطري كوجهة نظر سياسية ، نعتقد ان حركة الصراع الطبقي ـ القومي في الوطن العربي ككل قد تجاوزتها وخلفتها وراءها ، وسببت لها مثل هـــذا المأزق

تشكل عقبة رئيسية في طريقها ، انحرفت بها نحو اتجاهات طفولية او ضيقة الافق ، مما اتاح للقوى العدوة أن تنكل بالقوى الثورية تنكيلا في العديد من الاقطار العربية ، فتخلو الساحة لها لتزوير ارادة الجماهير ٠

فان تقود القوى الحاكمة عملية الابادة الموجهة ضد الجماهير والقوى السياسية التي تقودها في ساحة لبنان ، مع اختلاف موقع كل قوة في هذه العملية ٠

وان يجد العدو الامبريالي ـ الصهيوني كل هؤلاء الوكلاء المحليين في هذه المرحلة من نضال الجماهير العربية ٠ ثم ان تغمر المفاجاة بذلك القوى التي تقود جبهة الجماهير ، وحتى حلفائها الاستراتيجيين ، الامر الذي يعكس نفسه على قرارها السياسي ٠

ثم أن تباشر القوى المرتبطة ارتباطا عضويا بالامبريالية اتصالا وتعاملا علنيا ومكشوفا مع العدو القومي دون اي رادع ، ودون اي خشية ٠

ان يحدث كل ذلك ، فان هذا يشير اولا وقبل كل شيء الى خلل رئيسي يتوجب اكتشافه

التاريخي الذي تعيشه الآن ٠ اذ في تقديرنا انه اذا كان المازق التاريخي لحركة التحرر العربية يتمثل في احد جوانبه بتقييم القوى الثورية العربية لدور البرجوازية في العملية الثورية ، فان الجانب الآخر له والاشد خطورة هو في تلك التوجهات القطرية اساسا التي تعمل القوى الثورية على فرضها واقحامها على الواقع ، وكان التجزئة في بلادنا هي قانون ثابت وراسخ ونهائي او خارج اطار المرحلة على الاقل ، وليست نتيجة رئيسية للسيطرة الامبريالية على بلادنا ٠

اننا لا نستطيع ان ننظر الى كل صراع في اي ساحة قطرية الا بكونه صراع جبهة الجماهير العربية ضد أعداءها التاريخيين ، أي صراع كل القوى الثورية العربية كتعبير سياسي تاريخي عن الطبقات الثورية المتحالفة ، ضد الامبريالية العالمية والطبقات المحلية الحليفة لها ٠

من هنا يجيء اطلاق تسمية « الساحة الرئيسية » على اقطار مصر ، سوريا ، لبنان، الاردن ، وفلسطين ٠ وذلك انطلاقا من شبه الاتفاق السائد ـ في تقديرنا ـ بان محور صراع القوى الثورية العربية ضد الامبريالية يتجه ، ولا بد ان يتجه اساسا واولا ضد القاعدة الامبريالية الصهيونية في فلسطين ٠ لذا فان الاقطار العربية المحيطة بفلسطين تشكل بمجملها الساحة الرئيسية في الوطن العربي بين كافة الساحات ٠ هذا بالاضافة الى ان هذه الساحة تشكل الثقل البشري الاول ، حيث يزيد عدد سكانها عن نصف الامة العربية ، ثم موقعها الاستراتيجي ٠ والاهم من هذا كله هو اعتقادنا بان كافة التناقضات الرئيسية في هذه الساحات القطرية هي تناقضات يرتبط حلها جميعا ترابطا عضويا بعملية الصراع مع القاعدة الامبريالية الصهيونية من اجل تصفيتها او تثبيتها ، والملاحظ والملموس ان الصراع في هذه الساحة الرئيسية يقرر دوما اتجاه وطبيعة الصراع في الساحة العربية ككل ٠

في اساس الموقف النظري ـ السياسي لحركة التحرر العربية ·

ان الصراع المفتوح الذي تخوضه جماهيرنا العربية الآن ضد اعدائها ، سوف لن يعيقنا عن اجراء مثل هذه المراجعة الضرورية ، بل ان ذلك يشكل حافزا رئيسيا لاجرائها ، لان ذلك هو الشرط الرئيسي ، والذي بدونه ، يصبح من المستحيل على جبهة الجماهير ان تصل الى أهدافها وتكسر هذا الطوق الذي تفرضه عليها جبهة الاعداء في هذه اللحظة ·

ان الظاهرة السائدة التي لا ترى غير الشقوق في جبهة الاعداء فتحاول الانسلال منها ، والتي لا تجد امامها غير رهانها على التناقضات الثانوية في جبهة الاعداء · والتي تعطي العوامل الخارجية حجما في حساباتها اكثر بكثير مما تستحق واكثر بكثير من الحجم الذي تعطيه للعوامل الذاتية ·

ان مثل هذه الظاهرة التي ليست الا انعكاسا لخلل فادح في بنية الحركة الثورية ، يجب ان يتم التوقف عندها بامعان ، ويجب أن يتم اكتشاف الخلل التي هي انعكاس له ·

وفي المقابل ، وبتوفر مثل هذا الشرط ، يصبح الرهان على تقييم وفهم موضوعي وجدلي لحدي المعادلة (جبهة الجماهير وجبهة الاعداء) ممكنا وواردا ·

هكذا ، وفي ضوء ذلك ، نتجه الى اجراء القراءة السريعة التالية لحركة القوى السياسية في الساحة الرئيسية بشكل خاص ، وذلك كتمهيد لمناقشة الاشكالات النظرية ـ السياسية العامة ·

● حلف « الرياض » وموضوعة التضامن :

تتجه القيادة الوطنية الفلسطينية الآن نحو عقد مؤتمرها الوطني العام بعد ان اعتبرت انها قد تمكنت من الخروج من معركتها في لبنان بانتصار سياسي مركزي يؤكد على ان القرار السياسي الفلسطيني لم يخرج من يدها الى أيدي آخرين في الساحة الرئيسية يراهنون فعلا على « اعتقال » هذا القرار ·

وفي هذا المجال ، لقد كانت معركة بحمدون التي خاضها المقاتلون الفلسطينيون واللبنانيون هي المقدمة الضرورية للنتيجة التي اعتبرت القيادة الفلسطينية أنها أنتزعتها من مؤتمر الرياض والتي اكدت على صيانة حق التمثيل الفلسطيني لمنظمة التحرير الفلسطينية، واغلقت بذلك الباب امام المنافسة السورية ، الاردنية على هذا الحق ·

وبكل حال سواء جاء هذا الانتصار كنتيجة لمعركة بحمدون أم نتيجة لدائرة التناقضات العربية الثانوية ام للسببين معا ، فان القيادة الوطنية الفلسطينية تستطيع ان تعتبر الآن انها قد ارست بشكل اكثر رسوخا مسالة الاعتراف بها كطرف مستقل ضمن المجموعة العربية الحاكمة · وهذا بحد ذاته وفر نتيجة اخرى يجيء المؤتمر الوطني العام القادم لتلبيتها وتحديدها · وهي نتيجة ترتكز بشكل رئيسي على ضرورة انسجام هذا القرار السياسي الفلسطيني المستقل مع القرار السياسي العربي العام ، وذلك بهدف ان تخوض

هذه المجموعة منسجمة معركتها السياسية لعام ١٩٧٧ ، التي تراهن من خلالها على التوصل الى « تسوية سياسية » لمسالة الصراع العربي ـ الامبريالي الصهيوني ، تعتقد انه ليس امام العدو القومي من اختيارات اخرى غير التسليم بها !

وهكذا بين الاستقلال والانسجام يقع العمل الفلسطيني في الفترة القادمة ·

في هذا الوقت كانت القيادة الوطنية اللبنانية تسعى الى مراجعة حساباتها لصياغة تحالفات جديدة يمكن ان تساعدها في أحداث ضغوطات سياسية على القوى المقررة في المنطقة ، تحصل هذه القيادة بها على مطلبها المركزي بان تكون شريكا في اتخاذ القرار السياسي اللبناني ، طالما ان مسالة الاعتراف بها كممثل للجماهير العربية في لبنان غير واردة على الاطلاق ، ولا ميزان القوى يستطيع ان يفرضها ، خصوصا بعد أن اعتمد الحلف البرجوازي في الرياض والقاهرة ممثل البرجوازية الوسيطة في لبنان (الياس سركيس) كوكيل عام ينفذ القرار السياسي العربي الصادر اساسا من الرياض · فيكون بذلك قد تم تقليص الدائرة التي تتحرك بها كل من الاستقلالية الوطنية المعادية للامبريالية ، والاستقلالية الانعزالية المرتبطة بالامبريالية ، وان لم يغلق الباب مع ذلك امام مشاركة كل من هذين الطرفين في صنع القرار السياسي المحلي المهيمن عليه تماما ·

وفي هذا الوقت · كانت برجوازية السلطة (١) في كل من مصر وسوريا تعمق من تحالفها مع البرجوازية الكمبرادورية الحاكمة في اقطار النفط العربي ، والقابضة عمليا على القرار السياسي العام بحكم لعبها لدور المعول الرئيسي لكل الاطراف في الساحة ، فتخضع لشروطها محليا وعربيا ودوليا ، مما يعمق ارتدادها عن الخط المعادي للامبريالية، ويجعلها كتلة لا اكثر في جيش البرجوازية العربية الخاضعة في قرارها السياسي للفئة المرتبطة منها ارتباطا موضوعيا وتاريخيا بالامبريالية ، فيذوب الحجم التاريخي لكل من ساحتي مصر وسوريا ، وتذوب مركزيتهما السياسية الفاعلة في الوطن العربي ·

في هذا الوقت ، لم تفلح محاولات نفخ البرجوازية المرتبطة في الاردن ، على أساس ان تتشكل كجزء من محور يمكن ان يقف في وجه هيمنة محور الرياض ـ القاهرة · فتعيد البرجوازية الحاكمة في شرق نهر الاردن هيمنتها على الارض والجماهير الفلسطينية ، مقابل ان تسلم للبرجوازية السورية بمركزية الهيمنة على ساحة المشروع الكونفدرالي المطروح ·

لكن ، وبعد اعلان الحلف البرجوازي في الرياض عادت البرجوازية الاردنية المرتبطة الى احتلال حجمها الطبيعي كقواد سياسي صغير يستخدم وقت حاجة القوى السائدة له ·

هكذا ، اذن ، وفي اطار هذه الصورة العامة ، برزت مسالة « التضامن العربي » كتعبير سياسي عن هذا الحلف الجديد ، وهو « التضامن » الذي سبق له ان تفكك وتفسخ خلال معركة لبنان ، اي معركة استقلال الاطراف المختلفة ، وبرزت بذلك الحقائق التالية :

١ ـ يقوم هذا « التضامن العربي » في مضمونه الاساسي على تسليم البرجوازيات

القطرية المعادية للامبريالية لعنق استقلالها السياسي الى البرجوازية الوسيطة والطفيلية العربية المرتبطة بالامبريالية ارتباطا عضويا ، مع ما يتضمن هذا التسليم من انعكاسات حتمية على الصعيد الداخلي تتناول صيغة تحالف هذه البرجوازية مع الفئات والشرائح والطبقات الطفيلية والرأسمالية المرتبطة برأس المال الامبريالي ـ الرجعي ، مما يكرس بالتالي فقدان هذه البرجوازية النهائي لاستقلالية قرارها السياسي ، ولدورها في الجبهة المعادية للامبريالية ، ويؤكد تبعيتها الكاملة للقرار الامبريالي ـ الرجعي ·

٢ ـ اننا نشهد بذلك خاتمة نهائية للصراع ضد الامبريالية والقوى المحلية المرتبطة بها ، الذي قادته برجوازية السلطة التي هيمنت طوال العقدين السابقين على القرار السياسي للساحة الرئيسية ، والتي « اكملت دورة حياتها وانتكست الى نظام تابع خاضع للسيطرة الامبريالية » ، (٢) وذلك بعد سقوطها التاريخي امام الامبريالية في حزيران ١٩٦٧ ، وهو السقوط الذي حاولت ترميمه في حرب تشرين ١٩٧٣ · وها نحن نشهد الآن لحظة الاجهاض لهذه المحاولة ·

٣ ـ هكذا وفي ظل هذه النتيجة التاريخية ، يجيء نضال قوى اخرى من برجوازية السلطة في اقطار اخرى من الساحة الرئيسية ، وذلك كرهان على امكانية انتزاعها لاستقلالية قرارها السياسي ، وحصولها على سلطتها الوطنية ، دون أن تتعلم ولا حتى ان تقف عند تجربة الفئات المماثلة لها والتي تمتاز عنها ، حتى ، بتوفر أساس موضوعي راسخ لسعيها نحو الاستقلال ، هذا الاستقلال الذي تمكن اخيرا التكالب الامبريالي ـ الرجعي من تدميره نهائيا · يجيء هذا النضال لكي يشبه تماما اولئك الذاهبين الى الحج بعد أن انتهى الموسم كله ، وعاد جميع الحجاج ·

ان ظاهرة الهيمنة الامبريالية ـ الرجعية ، والتي يقابلها ارتداد كامل من قبل البرجوازية المعادية للامبريالية عن دورها المركزي السابق في قيادة حركة الصراع الطبقي (ضد القوى البرجوازية المرتبطة تاريخيا وموضوعيا بالامبريالية) ـ القومي (ضد العدو الامبريالي والقاعدة الامبريالية الصهيونية) تشير ـ هذه الظاهرة ـ وبشكل رئيسي الى ان كل محاولة للتخلص من هذا القانون الذي يعم الوطن العربي الآن ، من جانب باقي فرق هذه البرجوازية المعادية للامبريالية ، والتي لم يقصم ظهرها بعد ، وخصوصا في بعض اقطار الساحة الرئيسية ، ليست الا محاولة تدل على الخرق الكامل الذي يشمل بنية هذه الفئات · وتشير من جهة اخرى الى أن الاختيار الوحيد الذي ما زال مفتوحا أمام هذه الفئات هو اعلان انحيازها الكامل الى برنامج جبهة الجماهير حتى يكون لها دور في الجبهة المتحدة العريضة التي ستقود نضال الجماهير العربية في المرحلة القادمة التي تقف عند ابوابها الآن·

ان مثل هذا الفهم لمسألة « التضامن العربي » ، ولبروز ظاهرة الهيمنة ـ الارتداد ، التي شملت اقطار الساحة الرئيسية جميعها ، يشكل في تقديرنا المقدمة الضرورية لرؤية مسار حركة الصراع الطبقي ـ القومي في الساحة الرئيسية ، ولمناقشة مسائله :

التناقض والوحدة في الدائرة البرجوازية :

ان المسألة المركزية ـ في تقديرنا ـ التي يجب التدقيق فيها ، وأتخاذ الموقف الواضح

منهـا ، حتى يمكن على ضوء ذلك تفسير كثير من الظواهر وعلامات الاستفهام التي افرزها الصراع في الساحة الرئيسية ، هي ما يتعلق بالموقف من البرجوازية العربية بمجمـوع فصائلهـا وفئاتهـا ٠

ان كثيرا من الاخطاء القاتلة والمازق التي تقع فيها حركة التحرر العربية تعـود في اساسها الى الموقف من هذه الطبقة ، هذا الموقف الذي رايناه يفرز كثيرا من التعويـلات الفاقدة الى أساسهـا ، ومن المراهنات الخاسرة سلفـا ٠

فمن المراهنة على الامكانية الواسعة للتحالف مع بعض فصائل البرجوازية ، وبقيادتها، لتنفيذ برنامج الثورة « الوطنية » الديمقراطية ٠

حتى تفسير ارتدادها ، او ارتداد بعض فصائلها ، بأسباب خارجة عنها ٠ مـرورا بمحاولة غمر العلاقة الصراعية القائمة معها بخيمة التناقض الرئيسي العربي ـ الامبريالي٠

او استثناء بعض فصائلها من قوانين هذه العلاقة ، او تطبيق القوانين على فصائـل منها ، وأستثناء فصائل مماثلة ، والسعي لايجاد المسوغات لذلك ٠

في اطار هذه المراوحات التجريبية المفتقدة الى الاساس الصراعي المبدئي الثابت الذي لا بد ان يحكم العلاقات بين الطبقات ، رغم تداخلها في بعض المراحل ، يقع تقييم حركـة التحرر العربية ومجمل التحليلات والتنظيرات ، لدور البرجوازية العربية في هذه المرحلة من الصراع الطبقي ـ القومي العربي ٠

فمثلا : يعتبر الاستاذ ميشيل كامل ان ازمة نظم « رأسمالية الدولة الوطنية » ، « لا ترجع الى عوامل خارجية او تآمر أجنبي ، بل تعود في الاساس الى عناصر وتناقضـات داخلية » اي « ازمة نظام ، تفجرها تناقضاته ، مما يفترض ضرورة تجاوز النظام بكامله ، باعتباره السبيل الوحيد لانجاز الاهداف القومية » ٠ فيطبق هذا القانون بشكل صارم على النظام الحاكم في مصر ، لكنه وفي نفس الوقت ، وفي نفس المقال (٣) يعمل جاهدا لاستثناء انظمة مماثلة من هذا القانون ، بل هو يعول كثيرا على « الجبهة العريضة من الناقورة الى العقبة » !! ويعتبر ان دخول قوات النظام السوري الى لبنان قد جاء بفعـل « توريط » الامبريالية الامريكية لسوريا في لبنان ـ اي لعوامل خارجية ؟!

ايضا ، وفي نقطة مقابلة ، نلمس تشديدا بالغا على العوامل الخارجية ، وعلى مسالـة الصراع العربي ـ الامبريالي في مجموعه ، بحيث يتم غمر الجانب الطبقي من الصراع في هذا الاطار الواسع (٤) ٠

اذ صحيح ان « المعركة العربية مع العدو الرئيسي هي معركة قومية ، اي انها معركة جميع الطبقات الوطنية العربية » ٠

وصحيح ان الثورة الفلسطينية « تشكل تحالفا طبقيا واسعا يمارس ارقى انواع الكفاح : الكفاح الشعبي المسلح ، الذي يفترض ديمقراطية جماهيرية واسعة نسبيا » وهذه مسائـل

لا تثير بحد ذاتها خلافا على الاطلاق ، لكن الخلاف يقع حين نلحظ مثل هذا الاصرار من قبل الاستاذ خالد جابر على القفز عن تساؤل بسيط واساسي هو :

على اي اساس يقوم هذا التحالف بين مجموع هذه الطبقات الوطنية ، وما هو برنامجه ، وببرنامج اية طبقة يتم ؟؟

ان هذين المثلين ، وهناك غيرهما الكثير فعلا ، يجدر ان يشكلا دافعا مهما لنا لتحديد الموقف الواضح من هذه القضية المطروحة (البرجوازية العربية) ، وعبره من مجموع الاطر السياسية الحاكمة او الساعية للحكم في الوطن العربي ، وفي الساحة الرئيسية خصوصا بحكم مركزيتها ٠

القطرية البرجوازية كظاهرة سائدة :

ليس لدينا شك ان الاعتقاد ببرجوازية قومية قائمة او يمكن ان تقوم في الوطن العربي ، لتنفيذ برنامج الثورة القومية الديمقراطية ليس الا نتيجة خاطئة لمقدمات خاطئة ٠ وفي تقديرنا أن المدخل الوحيد لفهم حركة الصراع الطبقي ــ القومي العربي الراهنة لا بد من ان تمر عبر رؤية العلاقة التي تشكلت بين الوطن العربي بمختلف اجزائه وبين الامبريالية خلال قرن مضى ٠

ان عملية تفتيت وتجزئة البرجوازية العربية القومية الى برجوازيات عربية قطرية يفصل بينها اكثر من عشرين حاجز جمركي ، وهي العملية الفاحشة التي فرضها تنازع الامبرياليات في بلادنا ، قد حكمت على البرجوازية بالتمزق منذ بدء نشوئها ، بل ان عملية انشائها واعادة صياغتها على اساس قطري قد نفذت على ارضية التجزئة الامبريالية لبلادنا ، اي على ارضية التبعية الكاملة للامبريالية ٠

من هنا ، يجيء سقوط كل رهان على امكانية قيام هذه البرجوازية او مساهمتها في اية عملية توحيدية للوطن العربي او لاجزاء منه ٠ ولا حتى بقيادتها وببرنامجها ، وذلك بسبب التداخل القائم بينها وبين المشروع الامبريالي ، بحيث أنها تحولت الى سرطان حقيقي في الوطن العربي ، تصب لديها كل خبرة الامبريالية واساليبها في النهب وقمع وتضليل الجماهير ٠ وبفضل ثرائها الفاحش والطفيلي اساسا ، فهي تقود الآن جبهة الثورة المضادة في بلادنا ٠ لكن ، وضمن هذه الاطر القطرية الناتجة عن « التجزئة المفروضة بقوة العنف الامبريالي » ، (غ٠ جابر ــ المصدر السابق) فقد نضجت منذ بداية الخمسينات وبرزت ظاهرة الصراعات على اقتسام الثروة ، وتملك وسائل الانتاج ، والاستيلاء ــ بالتالي ــ على السلطة السياسية بين الشرائح المختلفة المكونة لهذه الطبقة في معظم هذه الاطر القطرية ، وحسب درجة التطور العام لكل قطر ، وذلك بسبب التناقض الناتج عن موقع كل شريحة في عملية الانتاج ٠ اي ان عملية التبعية الكاملة للامبريالية التي تقودها الشرائح الكبيرة من البرجوازية عجزت عن أن تعبر عن مصالح الشرائح المتوسطة والدنيا من نفس الطبقة ٠

في نفس الوقت الذي كانت تتناقض فيه هذه العملية تماما مع مصالح الجماهير والطبقات الكادحة العربية ٠

وقد كان وعي الامبريالية ، من جهة أخرى ، لضرورة تفتيت وسحق العناصر المكونة لبنية المجتمع العربي حتى بعد تفتيت الكيان القومي للبرجوازية ، وذلك لاغلاق الباب نهائيا امام الصراعات الطبقية القادمة بفعل حركة التطور الطبيعي للواقع ، حافزا اضافيا ، لكنه قدم نتائج عكسية ، لمنع توفير قواسم مشتركة يتم خلالها توحيد البرجوازية العربية القطرية في اطار واحد يدافع عن نفسه في وجه الهجوم الطبقي القادم ·

وقد جاء انشاء الكيان الامبريالي الصهيوني في فلسطين ، وبالمساهمة والمشاركة الفعلية للبرجوازية الطفيلية المرتبطة بالامبريالية ليكشف امام الشرائح المتوسطة والدنيا من هذه البرجوازية ان مسالة التبعية الكاملة للامبريالية مسالة لا تلبي ، بل تتعارض تماما مع المصالح الحقيقية لها · حيث ان هذه التبعية لا تقدم لها غير الفتات من الثروة الاجمالية، بينما تستولي الشرائح الكبيرة على القسم الاعظم منها ·

وقد برزت هذه الظاهرة بشكل خاص بعد اضطرار البرجوازية المرتبطة واضطرار الامبريالية ذاتها الى « عصرنة » المجتمعات العربية القطرية بغرض تسهيل عملية ربطها بالسوق الامبريالي ، مما ادى الى توسيع قاعدة الشرائح المتوسطة والفقيرة من البرجوازية، النازحة من الريف الذي تم تدميره الى المدن ·

جاء هذا الاضطرار لكي يزيد من حدة التناقض بين هاتين الشريحتين المكونتين للبرجوازية القطرية ويراكمه ·

هذا بالاضافة الى حدة وفحش ودموية الغزوة الامبريالية للساحات القطرية العربية المختلفة وانعكاسات ذلك على وعي الجماهير المتوسطة في المدن العربية ، التي اصبحت ترى، وكانت الشواهد امامها كثيرة ، ان عملية التدمير الامبريالي سوف لن تقفز عنها بل هي ستشملها بالضرورة ·

ويتبلور هذا التناقض بين شرائح البرجوازية العربية القطرية طوال خمسة عقود من الزمن وبعودة جيوش البرجوازية المرتبطة المهزومة من فلسطين ، فقد جاءت الخمسينات لكي تفجره في عدد من الساحات القطرية ، وبواسطة الاداة الوحيدة للفئات المتوسطة ، المتمثلة بالجنود وضباط الصف الصغار ذوي الاصول الطبقية الفلاحية ·

وهنا ، يكون قد تم احداث شرخ اساسي وقاصم في اطار التحالف القائم بين الشرائح البرجوازية ، بحيث يتطور هذا بعد فترة بسيطة الى علاقة صراع محتدم بين الشريحتين على مستوى الوطن العربي كله ·

ففي حين بقيت الشرائح المرتبطة بالامبريالية على ارتباطها القديم ، قادت الشرائح المتوسطة ممثلة بانظمة ما يسمى بـ « رأسمالية الدولة الوطنية » او البرجوازية البيروقراطية التي نطلق عليها برجوازية السلطة معركة العداء الواضح ضد الامبريالية من جهة ، وضد البرجوازية المرتبطة بها من جهة اخرى ·

هذا ادى بدوره الى خلق محورين متصارعين او قناتين للصراع على ساحة الوطن العربي ككل ، قادت طرفه الاول البرجوازية المعادية للامبريالية ومركزها القاهرة ، وقادت طرفه الثاني البرجوازية المرتبطة بالامبريالية ومركزها الرياض • فقادت الاولى معركة استقلال الوطن العربي وتوحيده ، وخاضت ضد الاستعمار والاقطاع والراسمال الامبريالي المحلي معارك عديدة • وقادت الثانية معركة تطبيق المشروع الامبريالي المضاد بحذافيره •

وهنا نقف عند الإشارات البارزة التالية :

١ ــ تتميز البرجوازية المعادية للامبريالية (برجوازية السلطة) اولا وقبل كل شيء بعدم التجانس في صفوفها بحكم تكونها من اصول طبقية متعددة ، مما يؤدي الى حدوث عملية فرز واستقطاب مستمرة داخلها ، وذلك اثناء (وفي فترات الهدنة خصوصا) خوضها لمعركتها الرئيسية ضد الهيمنة الامبريالية ــ المرتبطة •

٢ ــ تقوم هذه البرجوازية في بداية تسلمها للسلطة بالبحث عن قواسم مشتركة بينها وبين الطبقات الكادحة كي تحصل على الدعم الجماهيري المطلوب في معركتها المصيرية ، فتقوم بطرح شعارات التحرير والوحدة والاستقلال الاقتصادي وتحقيق الديمقراطية ، اي شعارات الطبقات الكادحة ذاتها ، التي تجد رغم شكها العميق في ماهية هذه الشعارات ، وتعامل افتقادها الى قيادتها التاريخية الممثلة بحزب الطبقة العاملة ، ان من مصلحتها ان تقاتل دفاعا عن هذه الاهداف التاريخية ، هذا بالاضافة الى توفر قواسم مشتركة راهنة بينها وبين برجوازية السلطة كما تعبر عنها هذه في عدائها الواضح للسيطرة الامبريالية•

٣ ــ ان احتدام المعركة مع الامبريالية لا يمنع الطبقات الكادحة من رؤية واقعها اليومي، رغم حرص اعلام برجوازية السلطة الشديد في التركيز على هذا الصراع « الخارجي » • لكن تراكم التناقضات الثانوية الصغيرة والتفصيلية اليومية بين الحلف الطبقي القائم في هذا الاطار السياسي • ثم الضغط الامبريالي المتنوع لاحداث الشروخ في بنية هذا الحلف ، كما تمثل ذلك بنقاء في التجربة المصرية ، يجعل برجوازية السلطة تسير بين حدي الموس • فهي من جهة لا تستطيع ان تتبنى وتنفذ البرنامج الجماهيري • ولا تستطيع من جهة اخرى ان تخفف من عداءها للامبريالية والمرتبطين بها •

٤ ــ يتمثل المازق الرئيسي لهذه البرجوازية في قطريتها ، فهي من جهة تدعي انها تخوض معركتها مع الامبريالية على المستوى القومي ، اي انها تخوض معركة الامة ضد عدوها الرئيسي • لكنها وفي ذات الوقت لا تستطيع ومن المستحيل موضوعيا عليها ان تنجز مسالة توحيد الامة وان تقود عملية انجاز اهداف الثورة القومية الديمقراطية •

وفي الوقت نفسه فان مسالة احتفاظها باستقلالها القطري مسالة مغلقة تماما •

من هنا يجيء عجزها الحتمي عن توفير شروط الانتصار النهائي في الصراع ضد الامبريالية والبرجوازية المرتبطة بها •

٥ ــ هذه الدائرة المغلقة التي تدور فيها برجوازية السلطة تفقدها توازنها تماما ، فيتوفر بذلك ظرف نادر للقوى المضادة لتوجيه ضربتها القاضية كما حدث في حزيران ١٩٦٧ • فتهلك لها كل ادواتها وتقصم ظهر التحالف الذي قام بينها وبين الطبقات الكادحة ، وتعيدها

الى حظيرة التحالف مع البرجوازية المرتبطة ، ومع الامبريالية مباشرة ، وذلك كما يعلمنا الواقع الراهن للساحات القطرية العربية بشكل جلي وبالغ الوضوح ·

٦ ــ في هذا الوقت تكون البرجوازية المرتبطة قد احتفظت طوال فترة الصراع بكامل قوتها ، بحكم استمرار قيامها بعملية النهب الواسعة ، وتنفيذها لسياسة الامبريالية في اضطهاد وقمع الجماهير ، ولعبها دور الحارس الشديد الاخلاص للمصالح الامبريالية التي في مقدمتها : الاحتكارات النفطية والقاعدة الامبريالية الصهيونية واكثر من ذلك فهي تتنازل « بمرؤتها التقليدية » عن اجزاء هامة من الوطن العربي وتبطش بالجماهير بالمشاركة الكاملة مع الامبريالية والبرجوازية الايرانية في الخليج العربي وتعمل بنشاط لتكريس التجزئة ، وتدعو الى تثبيت القاعدة الامبريالية الصهيونية والاعتراف بها واقامة العلاقات معها ·

هنا لا تجد البرجوازية المعادية « سابقا » للامبريالية غير الخضوع الكامل لهذا البرنامج البرجوازي ــ الامبريالي وتنفيذه ·

٧ ــ وعلى هذه البرجوازية ان تقدم الادلة السريعة والواضحة على خضوعها وارتدادها وتحالفها الجديد ، فنرى انقلابا جذريا في السياستين الداخلية والخارجية لهذه البرجوازية حينئذ يحدث ان يصاب الذين راهنوا وربطوا مصير نضالهم بمصير هذه البرجوازية بخلخلة كاملة في خطوطهم السياسية وبرامجهم ، ويصيبهم بفعل ذلك الكثير من الضيم ، وهو الامر الذي نشهده هذه اللحظة بالذات ·

٨ ــ ومع كل ذلك ، علينا ان نراعي مسالة مهمة يجب ان نراها ، خصوصا في مثل هذا الظرف الدقيق الذي نمر به · وهو انه رغم التحالف الجديد العلن والوثيق بين كل من البرجوازية المرتبطة وبرجوازية السلطة ، الا ان هذه الاخيرة لا تستطيع في الواقع الا ان تحتفظ ولو بخيوط رفيعة تربطها مع الطبقات الكادحة في المجتمع · وهو ما يفسر هذا الاصرار من جانب اعلام برجوازية السلطة على ادعاء دفاعها عن البرنامج المعادي للامبريالية (الحفاظ على المقاومة الفلسطينية وصيانة وحدة لبنان مثلا) · هذه الخيوط الرفيعة هي التي تشكل المأزق القاتل والخانق لهذه البرجوازية · اذ انه عبر عملية ارتدادها وارتباطها الجديد بالامبريالية فهي تراهن في الواقع على امكانية ان يحقق لها هذا الارتداد ولو جزءا من برنامجها ، او برنامج التحالف القديم ، حتى تقدمه للطبقات الثورية كدعم لابقاءها في السلطة · وهو جزء يتمثل ــ كما في حالة البرجوازيات الحاكمة في اقطار الساحة الرئيسية ــ بتحرير الاراضي التي احتلت من قبل الامبريالية عام ١٩٦٧ ·

اي ان تحقيق هذا الشرط هو الحد الادنى الذي على ضوئه يمكن لبرجوازية السلطة ان تبقى وتستمر في السلطة ولو لفترة من الوقت ·

لكن ، وفي نفس الوقت ، فان الحلف الامبريالي ــ البرجوازي المرتبط يشترط خضوعا كاملا وحاسما له ، بل هو في الواقع عاجز عن تقديم هذا الحد الادنى المطلوب لبرجوازية السلطة. لان ذلك يخل بشرط هيمنته على المدى البعيد او حتى المتوسط ·

٩ ــ ان هذا المأزق الرئيسي يشير بشكل واضح الى نتيجتين رئيسيتين :

أ ــ الاستحالة الموضوعية « للتسوية السياسية » لمسألة الصراع العربي ــ الامبريالي

الصهيوني ٠

ب - ليس امام برجوازية السلطة غير السقوط الكامل والنهائي ، وهو الامر الذي يعتمد من جهة ثانية على توفر العامل الذاتي المتمثل ببلورة البرنامج الثوري لانجاز مسألة اسقاط برجوازية السلطة ٠

● على ضوء ذلك فباي اتجاه يسير الصراع في الساحة الرئيسية ؟

الهيمنة - الارتداد ٠٠ والمازق التاريخي لحركة الصراع في الساحة الرئيسية :

نجد ضرورة للتاكيد هنا على ان القانون الجديد الذي بات يحكم حركة الصراع الطبقي - القومي في الساحة الرئيسية بصورة خاصة والوطن العربي كله بالمجمل هو قانون الهيمنة - الارتداد الذي تم على اساسه :

● الحاق الهزيمة ببرنامج برجوازية السلطة ٠

● تشكيل علاقة توازنية جديدة اطلق عليها « التضامن العربي » ٠

وقد ثبت بالملموس الآن ان المحاولة السورية للتمرد على هذا القانون العام قد باءت بالفشل ، حيث تم في مؤتمري الرياض والقاهرة منعها من تحقيق هدفها المركزي الذي كان يقضي بالحاق الساحات القطرية اللبنانية والفلسطينية والاردنية بها ، وتشكيل محور يقوم قاعدة الوقوف في وجه هذا القانون ومحاولة كسره ٠ وهي محاولة كانت تفتقد فعلا الى اسس نجاحها ٠ وهذا لا يعود الى قوة الخصم بالدرجة الاولى ٠ اذ ان البرجوازية السورية كانت تستطيع ان تقف وان تنتشر في وجه هذا القانون لو انها طرحت مشروع علاقة تحالفية بين هذه الساحات القطرية تقوم على قاعدة البرنامج المعادي للامبريالية ، وتشكيل جبهة مقاتلة بالفعل « من الناقورة الى العقبة » ٠

اذن ، كان لا بد لهذا المشروع من السقوط ، بحكم افتقاده الى كل حليف ، وتناقضه مع البرنامجين : المرتبط بالامبريالية والمعادي لها (٥) ٠

وبهذه النتيجة ، تعود برجوازية السلطة نهائيا الى حظيرة البرنامج الامبريالي ، لكي تحل معه تناقضها الذي بات شكليا ، بعد ارتدادها الموضوعي ٠ ولكي تلتقي بذلك مع رديفتها المصرية ، على اساس رهانهما المشترك بان يحل لهما البرنامج الامبريالي - البرجوازي المرتبط ازمتهما الداخلية بايجاد « تسوية » لقضية الصراع بين البرنامج الامبريالي - الصهيوني - البرجوازي ، وبين البرنامج الثوري العربي الذي ما زال يفتقد - في الواقع - الى قيادته التاريخية القادرة على تحقيقه ٠ وخصوصا بعد الهزيمة الكاملة التي تم الحاقها ببرجوازية السلطة المعادية للامبريالية ٠

وقد اصبح معروفا الآن ان محاولة هذه البرجوازية لحل ازمتها الداخلية في تشرين ١٩٧٣ لم تقدم اي حل او تسوية لاي بند من بنود البرنامج الذي يقع حتى في حده الادنى

(استرجاع الاراضي التي احتلت بعد ١٩٦٧ ، واقامة سلطة وطنية فلسطينية في الضفة الغربية وقطاع غزة) في قطب التناقض الكامل مع البرنامج الامبريالي • وقد كانت اتفاقية سيناء وخطوات كيسنجر دليلا كاملاً على ذلك • اذ انها لم تقدم للبرجوازية المصرية غير اتفاق الخضوع ـ وان عملت على تغليفه امام الجماهير العربية ـ للبرنامج الامبريالي ـ الصهيوني ـ البرجوازي المرتبط • وهو الامر الذي عكس نفسه في الخطوات السابقةوالملاحقة للاتفاق محليا وعربيا ودوليا •

وفي نفس الوقت ايضا فانه من الصعب القبول بان تقدم البرجوازية المرتبطة القائدة للثورة المضادة في بلادنا الآن ، على تفجير تناقض ، ولو تكتيكي ، مع المشروع الامبريالي الذي تتولى هي تنفيذه في الوطن العربي ، الا اذا اعتبرنا ان مأزق برجوازية السلطة قد اصبح يشمل الآن البرجوازية المرتبطة كذلك ، واصبح مطلوب منها ـ بالتالي ـ ايجادمخرج واضح لهذا المأزق كمثل الاقدام على عمل حربي خامس ضد حلفائها الاساسيين • ودون ان نغرق في البحث عن ايجاد المخرج لمأزق القوى المضادة ، فاننا نرى تطور حركة الصراع الطبقي ـ القومي في الساحة الرئيسية تدور بين القطبين التاليين :

●● عمل حربي خامس ضد القاعدة الامبريالية الصهيونية يستخدم كمخرج للحلف البرجوازي الجديد •

●● او سقوط انظمة برجوازية السلطة التي كشفت عن عورتها • وسقوط الحلف البرجوازي كله بالتالي ، وتقدم الطبقات الكادحة العربية لتسلم السلطة في اقطار الساحة الرئيسية •

وعلى اساس هذا القطب الاخير يطرح سؤال رئيسي :

اين هي تلك القيادة التاريخية للطبقات الكادحة لتنجز مثل هذه المهمة ، وتحقق برنامجها ؟؟

هذه هي المسالة • وهذا هو المأزق •

الحواشي :

(١) نعتمد هذه التسمية للتفريق بين هذه الفئة من البرجوازية العربية وبين فئة البرجوازية الكمبرادورية (الوسيطة) او المرتبطة عضويا بالامبريالية ، والتي تقود الآن جبهة الثورة المضادة في بلادنا •

(٢) ميشيل كامل ـ المأزق التاريخي لحركة التحرر الوطني العربية ـ شؤون فلسطينية (٥٨) حزيران ١٩٧٦ •

(٣) المصدر السابق •

(٤) خالد جابر ـ التوازنات المسلحة ـ شؤون فلسطينية (٥٩،٥٨،٥٧) ٠

(٥) يجب ان نسجل اختلافنا هنا مع الاسباب التي طرحها بعض الرفاق لاضطرار مشروع البرجوازية السورية الى التراجع ٠ اذ ان بناء الموقف السياسي على اساس الرهان على الظواهر الخارجية لحركة الصراع دون محاولة اكتشاف القانون الذي يربط هذه الظواهر ويعيدها الى جذورها ، كثيرا ما يوقع ـ وسوف يوقع حتما ـ في مآزق قاصمة٠

ان استمرار النظر الى كل صراع في اي ساحة عربية على انه صراع مغلق تحكمه قوانين الحركة وموازين القوى داخل هذا القطر ٠ وان العجز المزمن عن رؤية القوانين الواحدة للصراع في الساحتين القطرية والقومية ، والتشابك الموضوعي بينهما ، وان العجز المزمن عن رؤية حركة الصراع الطبقي ـ القومي لمجموع الوطن العربي ٠ وان استمرار النظر الى واقع التجزئة الامبريالية على انه قانون موضوعي ثابت ٠

ان ذلك في تقديرنا هو المأزق الرئيسي والمركزي لمجمل « الحركات الوطنية » والاحزاب والتنظيمات ذات الاساس القطري المنتشرة في الساحات القطرية العربية ٠ وهو المأزق الذي يشكل بنفس الوقت المقتل الحتمي لهذه الحركات والاحزاب ٠

وبكل حال ، اننا نراهن على ان يتمكن الصراع الجاري في الساحة اللبنانية من ان يجرف في طريقه ايضا مثل تلك الاتجاهات السياسية ذات الاساس القطري ، التي لن يمضي زمن طويل حتى تكتشف انها قد اصبحت خارج الزمن تماما ٠ ونراهن كذلك على ان يتمكن الصراع الجاري من فرض اضافات نوعية تقلب البنية الداخلية لتلك الاتجاهات ٠

راجع رهانات الرفيق جورج حاوي في « المخطط الامريكي ـ السوري امام الهزيمة الحتمية » دار الفارابي ٠

وثيقة "كنيغ" والمأزق الصهيوني

حسين أبو النمل

في ١٩٧٦/٩/٧ نشرت صحيفة علهمشمار ، الناطقة بلسان حزب مابام ، احد اطراف التجمع العمالي الحاكم في اسرائيل ، مذكرة اعدها يسرائيل كنيغ ★ ، متصرف لواء الشمال في وزارة الداخلية والذي يضم اقضية عكا والناصرة وطبريا وصفد حيث يعيش اكبر تجمع للعرب في اسرائيل • وقد كانت هذه المذكرة سببا في ردود فعل ما زالت تتصاعد داخل وخارج الارض المحتلة • والمرشحة للتزايد يوما بعد يوم نظرا لخطورتها وذلك لما احتوته من مقترحات عملية ، وللروح العنصرية التي تطبعها من اول حرف الى اخر حرف فيها •

يقدم الدكتور صبحي ابو غوش مدير المحاكم الشرعية في اسرائيل اربعة اسباب تجعل من مذكرة كنيغ مثيرة للاهتمام وهي «لانلهاتاثيرمصيري على مستقبل الاقلية العربية في اسرائيل ••(ولانها) تتسم بالتعصب ، ولان لها صلة مباشرة بالواقع الذي يعيشه العرب في اسرائيل ولان السيد كنيغ كان في موقع المسؤولية مدة حوالي ١٥ سنة وقد توصل اليها – أي المذكرة – بعد عمل مع المواطنين العرب طيلة هذه المدة •••» • (١) واما الشاعر سالم جبران ، عضو راكاح وأحد محرري جريدة الاتحاد ، فقد عمق وجهة نظر الدكتور أبوغوش واعتبر « ان كنيغ ليس ظاهرة فردية شاذة في السياسة الاسرائيلية تجاه الاقلية العربية •• فقد كان طوال كل السنوات الماضية يمثل السياسة الحكومية وساعد على تعميق التخلف في المجتمع العربي •••» (٢)

★ سقطت سهوا ، جملة ، من الفقرة (ز) من وثيقة كنيغ المنشورة في عدد ٦٠ من شؤون فلسطينية • ص ١٨٢ والفقرة الصحيحة والكاملة هي :

« ترك الاضراب انطباعا قويا لدى المعامل ومؤسسات الخدمات ، بأن حسن سير الاقتصاد يعتمد على الايدي العاملة العربية • وفي الوقت نفسه اثبت السكان العرب حيويتهم بالنسبة للاقتصاد الذي يديره يهود • هذا الامر ايضا يستغل وسيستغل في المستقبل بفرض خلق مشاعر « الكرامة العربية » التي لا بد أن عرب اسرائيلسيستثمرونها وسيستغلونها » •

وعمم السيد جبران الطابع العنصري لوثيقة كنيغ واعتبرهـا نموذجا للمجتمـع العنصري الاسرائيلي ·· ، فاراء كنيغ ليست شاذة ·· بل هي افراز طبيعي على تربة السياسية الاسرائيلية الرسمية ·· واستمرار طبيعي لها ··» (٣) ·
واعتبر سبب « الصدى الواسع ·· اولا وقبل كل شيء البرنامج التفصيلي التطبيقي الذي يقترحه السيد كنيغ » · فمذكرته «ليست وثيقة فلسفية او فكرية ولكنها وثيقة سياسية تطبيقية ··» (٤) ·

ان العلاقة بين الطابع العنصري للمذكرة المذكورة ، والمقترحات العملية التي تقدمت بها ، هي علاقة السبب بالنتيجة · فسياسة الحكومة الاسرائيلية بالاستيلاء على الارض العربية وطرد سكانها ، هي سياسة ثابتة للحركة الصهيونية ما قبل وما بعد انشاء الكيان العنصري في ارضنا المحتلة ، وليس مصادفة ان تكون بداية تاريخ الصراع العربي الصهيوني في عام ١٨٨٦ عندما هاجم الفلاحون المطرودون من اراضيهم التي اصبحت تعرف بمستعمرة بتاح تكفا ـ ملبس · وبالتاكيد فان هذه المذكرة ليست هي المذكرة الاولى التي أعدت ، لان السياسة التي دعت اليها ، ليست سياسة جديدة على الاطلاق فمصادرة الاراضي وتهجير السكان العرب هي من صلب مفاهيم الحركة الصهيونية · خصوصا منذ تبلورت نظرية احتلال الارض والعمل · وقد حاولت اجهزة الاعلام الاسرائيلية ، بعد ان تسربت الوثيقة ، أن تلقي المسؤولية على كاتبها ، في محاولة مفضوحة للاستمرار بادعاءاتها ان اسرائيل كدولة ، وكشعب يتوقون الى تقدم المواطنين العرب في البلاد ، ويريدون العيش بتفاهم وباخاء ، وان سياسة الحكومة أثبتت هذا الشيء منذ ان قامت دولة اسرائيل ، وان مذكرة كنيغ تمثل اراء شخصية ، ولا تمثل سياسة واراء الحكومة ··(٥) ، ولكن هل هذا الادعاء صحيح ؟·

هنالك كثير من الوقائع التي تؤكد ان كنيغ في مذكرته كان يعبر عن سياسة الحكومة ، والتي فوجئت بنشر المذكرة ووجدت نفسها مضطرة له التحفظ ، عليها فقط ، فلجنة الداخلية في الكنيست « تنتقد تسريب المذكرة الى الصحف ، ولا تقول كلمة عن مضمون المذكرة ··· » و« الاصوات التي انتقدت المذكرة كانت اصواتا شعبية ·· من صحفيين وسياسيين » · وقد فضح ازدواجية موقف الحكومة التي « تعلن ليلا نهارا ان سياستها سياسة مساواة ولكنها على الطبيعة ليست سياسة مساواة ·· » (٦) ·

اضافة الى كل ما تقدم · فان اهمية مذكرة كنيغ تنبع من شخص واضعها الذي قضى في منصبه خمسة عشر عاما ، أي انه من صلب المؤسسة الحاكمة ، ويعبر عن وجهة نظرها ، وطول المدة التي قضاها في منصبه ، يعني انه عايش مرحلتين سياستين من تعامل المؤسسة الصهيونية مع عرب الارض المحتلة : مرحلة الحكم العسكري والذي رفع لتحل محله سياسة المرحلة الاكثر «ليبرالية» ، وبالتاكيد فاننا نستطيع اعتبار موقف الحكومة الاسرائيلية برفع الحكم العسكري اعترافا بفشل تلك السياسة ، وها هو كنيغ يأتي ليطالب بالتراجع عن السياسة « الليبرالية » ، وهذا بحد ذاته اعترف بفشل هذه السياسة أيضا في تحقيق الاهداف التي توختها اسرائيل من وراء السياستين المشار اليهما ·

ويمكن ايجاز معاني مذكرة كنيغ في ثلاث مسائل : روحها العنصرية ، كونها برنامج عمل ، واخيرا الخلفيات والابعاد السياسية للمذكرة المذكورة · ولا شك ان المسالة الاخيرة هي الاكثر اهمية وخطورة ، ولسوف نحصر الحديث في المسالة الاخيرة ، نظرا لان المسالتين الاوليين في منتهى الوضوح ولا تحتاجان الى كثير عناء لاكتشافهما ، فكلمات المذكرة واضحة وحاسمة ومحددة ومباشرة ولاتحتمل اكثر من تفسير ··

اهمية الجليل بالنسبة لاسرائيل

قبل تناول هذه المسالة لا بد من الاشارة الى اهمية الجليل بالنسبة لاسرائيل ، والاسباب التي تجعل اسرائيل تولي هذه المنطقة واهتماما خاصا · فقد كان الجليل وعلى الدوام مشكلة بالنسبة لاسرائيل نظرا لتركز غالبية عربية بلغت عام ١٩٧٥ ٣٨ر٤٦٪ من عدد السكان ، (٧) ونظرا لتزايد عدد السكان العرب بنسبة تبلغ حوالي اربعة اضعاف نسبة تزايد السكان اليهود (٩ر٥ ٪ عرب ، ٥ر١ ٪ يهود) · يتوقع ان تبلغ النسبة سنة ١٩٧٨، ٥١ ٪ واكثر من ذلك فان نسبة العرب في بعض الاقضية تزيد عن نسبة اليهود ، فنسبةالعرب في الجليل الغربي تبلغ ٦٧٪ من السكان ·

الجليل ، جنوب لبنان ، ام شمال اسرائيل ؟!!

ان تركز اعداد كبيرة من المواطنين العرب هو عنصر أساسي في أستمرار الخصائص المميزة وتراث وتقاليد المواطنين العرب ونموهم بشكل جماعي ، وبالتالي ضعف المؤثرات الخارجية عليهم فيما لو كانوا اقل كثافة · وأن الذي يزيد من خطورة هذه المشكلة بالنسبة لاسرائيل ، هو قرب الجليل من الجنوب اللبناني ،ووجود حركة المقاومة الفلسطينية هناك، بما لها من تاثيرات على عرب الجليل · وامكانية نقل هذا الوجود ، في ظل ظروف تاريخية معينة هي مكانية واردة ، وقد سبق لاسرائيل ان كشفت بعض هذه المحاولات · وقد عبرت اسرائيل عن انزعاجها من هذه المسالة اكثر من مرة ، وخير تعبير عن ذلك التساؤل الذي طرح عما اذا كان الجليل هو جنوب لبنان ام شمال اسرائيل ؟! (٨) وقد عبر كنيغ عن هذه المسألة بقوله : «ويشعرالقوميون – وهذا تقديري ايضا بالنسبة للسكان العرب – ان تكاثرهم في الجليل يكمنفيه الخطر الذييهدد مجرد سيطرتنا على المنطقة،ويفتح المجاللدخول قوات عسكرية من الشمال الى اسرائيل · ويؤثر في تعاظم الشعور القومي لدى عرب اسرائيل واستعدادهم للمساهمة في ذلك » ·

الجليل العربي وامكانية طرح شعار حق تقرير المصير له

وفي موازاة هذا الاحتمال فلا يمكن لاسرائيل انتتجاهل أن شعار حق تقرير المصير للشعب الفلسطيني قد اصبح يحتل حجما سياسيا كبيرا في كافة الاوساط المحلية والعالمية ، الرسمية والشعبية · وتؤكد عليه كافة القرارات الصادرة عن الهيئات والمحافل الدولية · يضاف الى ذلك ان الجليل كان خارج حدود الدولة اليهودية

حسب قرار التقسيم الشهير • ونظرا لانه من المتفق عليه في كافة الاوساط الدولية ان حق تقرير المصير يعني حق الانفصال ، فان امكانية اثارة المشكلة دوليا هي امكانية لها حظ كبير من النجاح وتستند على شرعية دولية ، وعلى امكانية عملية كذلك نظرا لوجود اغلبية واضحة مرشحة لان تبلغ ٥١٪ عام ١٩٧٨ • وبالتاكيد فان اسرائيل لا تستطيع ان تتجاهل هذه الحقيقة ، والتي فيما لو طرحت ، تكلف اسرائيل على الصعيد السياسي غاليا • وفي الوقت نفسه فانها لا تكلف العرب او الفلسطينيين شيئا ، وقد اشار كينغ الى هذا لمسألة عندما اشار الى قول رئيس بلدية معليا، المعتبر شخصا «ايجابيا» ✱ ••• ما هو حق اسرائيل المعنوي في مصادرة الاراضي في هذه المنطقة التي تقع بموجب قرار التقسيم من عام ١٩٤٧ ، خارج دولة اسرائيل •••»• وكذلك عندما توقع أن « يحدث في مرحلة معينة تنفيذ عمل استفزازي ••• بغرض حدوث هيجان لدى عناصر يهودية غير منضبطة ، الامر الذي من شأنه ان يؤدي الى عرض موضوع عرب اسرائيل على المنابر الدولية ••» • ولذا فقد نبه كنيغ الى انه « يجب الاخذ في الحسبان انه في احدى مراحل العمل السياسي المعادي قد يطلب بشكل او باخر اجراء استفتاء عام في شمال البلاد في الوقت الذي يشكل فيه العرب اغلبية السكان ••»•

وفي هذا السياق تاتي مذكرة كنيغ ، وقبلها قرار الحكومة الاسرائيلية بمصادرة ٢٠ الف دونم ضمن سياسة اسرائيل الدائمة لتهويد الجليل ، حيث كانت الحكومة الاسرائيلية توجه جزءا كبيرا من جهودها لتطبيق هذه السياسة ، وحتى في الفترات التي كانت اسرائيل تعيش فيها ازمات اقتصادية حادة ، كما حدث بعد حرب تشرين ١٩٧٣ ،حيث اضطرت الحكومة الاسرائيلية لخفض مصروفاتها ، وخصوصا في قطاع الاستثمارات والبناء ، فان الجليل كان مستثنى من هذه الاجراءات ، وانطبق عليه في حينه ما انطبق على المصروفات الامنية حيث استثنيت ميزانية وزارة الدفاع ووزارة الداخلية (٩) وبهذا كانت الحكومة الاسرائيلية تعامل موضوع الجليل بوصفه مسألة امنية •

المضامين الايديولوجية لمذكرة كنيغ :

ان وجهة النظر التي تحصر النقاش في الطابع العنصري والمقترحات التطبيقية لمذكرة كنيغ هي وجهة نظرة قاصرة واحادية الجانب • ولا ترى افاق وخلفيات المذكرة المذكورة • فكنيغ ، لم يقدم ، ولم يشأ أن يقدم وجهة نظر فكرية وفلسفية ، بل حصرها في عرض المشكلة ، تقديم المقترحات والتوقعات • وان لم يقدم كنيغ وجهة نظر فلسفية او فكرية ، ولكنه بشكل غير مباشر قدم رؤية فكرية هي بالتاكيد أهم من كل الجانب العملي والتطبيقي التي تعرضت له ، اهميتها تكمن في الفرضيات السياسية التي اكدتها او نفتها تلك المذكرة ، واكثر من ذلك فهذه الفرضيات لا تتعلق بوجهة النظر العربية او الفلسطينية بل بقناعات اركان المؤسسة الصهيونية ، وكيفية نظرتهم للامور فكنيغ يتحدث في مقدمة مذكرته عن «اراء» سادت الدوائر المسؤولة عن السكان العرب ••» وانه قد « وقعت اخيرا عدة حوادث مست بهذه الفرضيات •• » •

ماذا يعني المساس بالفرضيات الصهيونية ؟• انه تاكيد على صحة الفرضية

النقيضة !! فما هي الفرضية الصهيونية ؟. انها « اراء تقول ان قبول هذا الجزء من السكان العرب ـ بوجود دولة اسرائيل هو كامل ، وان اكثريتهم تمر في مراحل متقدمة من التماثل مع الدولة والاندماج في مؤسساتها المختلفة ٠٠ » ولكن الذي حدث هو وقوع « حوادث مست بهذه الفرضيات ، ووضعت علامة سؤال كبيرة على ولاء جزء كبير من اولئك السكان للدولة ولمجرد وجودها ٠٠ » ٠ حديث كنيغ الذي قضى ١٥ عاما في الاشراف على شؤون العرب ، اعتراف بفشل اسرائيل في تذوب الاقلية العربية ونفي هويتها القومية ، وعلى الجانب الاخر اعتراف صهيوني بوجود قوميتين تربطهما علاقة تناقض ، وأحداهما ترفض مبدأ وجود اسرائيل ٠ أي أن مشكلة عرب الارض المحتلة ليست مسألة « احترام الاصول الدينية والتربوية للعرب ٠٠» (١٠) بل « مشكلة قومية لها حقوقها ولها مصلحتها ٠٠» (١١) ٠

اهتزاز فرضية صهيونية حول عرب الارض المحتلة :

لقد اهتزت وبعنف الفرضية السياسية الاسرائيلية التي كانت تشكل موقف اسرائيل تجاه عرب الارض المحتلة ، حيث كانت ترى فيهم كما مهملا يتلقى بسلبية مفرطة أية أجراءات اسرائيلية ٠ وقد اكد كنيغ هذا الاهتزاز ، سواء على صعيد الوقائع التي قدمها ، او على صعيد اللغة التي استعملها عند تقديمه لارائه ٠٠ فهنالك « تعاظم الشعور القومي »٠ وهنالك « تطوع غير عادي » لسكان الناصرة لساندة بلديتهم الديمقراطية ٠ هنالك توقع بأن « الاكثرية ستنتقل باستمرار الى جانب المتمردين ٠٠» ٠ ويقول عن الزعماء الرسميين ـ الايجابيين « ان التدهور الذي تسببوا فيه جرفهم هم ايضا ٠٠ » ٠ وعندما يتحدث عن اضراب يوم الارض يقول عنه « النجاح الكلي للاضراب » ٠ « وتضامن فيه كل السكان العرب في اسرائيل عن وعي وبصورة علنية ضد طلب الحكومة ومع مطلب سياسي ـ قومي عربي ـ متطرف واستعداد نفسي للعمل من اجل تحقيقه ٠٠» ٠ و« يعتزون بانهم كانت لديهم الشجاعة للتصادم مع القوات الرسمية للدولة ٠٠» ويستعمل تعبير « النجاح التاريخي » « والتوحيد المطلق » عند وصفه لما حققه اضراب يوم الارض ٠ وعن العلاقة بين العرب واليهود يتحدث عن « الهوة العميقة » والتي « سينتج عنها انعكاسات حادة سواء على صعيد السكان اليهود أو العرب ٠٠» ٠

ان « تعاظم الشعور القومي » و« التطوع غير العادي » و« النجاح الكلي للاضراب » و« تضامن كل السكان عن وعي » و« النجاح التاريخي » و« التوحيد المطلق » و« الهوة العميقة و« الانعكاسات الحادة ٠٠» هي تعبيرات ملأى بالمضامين، انها تعكس الحالة الذهنية ، والسياسية ، والايديولوجية لقادة الحركة الصهيونية ، والتي نسفت الاوهام الصهيونية حول وجود الاقلية العربية في المناطق المحتلة ١٩٤٨٠ واصبحت اسرائيل في مواجهة مشكلة عربية بكل ما تعني الكلمة من معنى ٠ وليس مشكلة مواطنين عرب للدولة الاسرائيلية ، لا يعدو أستكمال هضمهم ودمجهم كونه مسالة وقت فقط ٠ لقد اتضح ان المسألة ليست مسالة وقت بل مسالة مبدأ ٠ هذه المشكلة لم تتولد في اثر يوم الارض كما حاول كنيغ الادعاء ، وان اخذت اجلى مظاهرها في ذلك اليوم ٠ فهي موجودة قبل ذلك وقد اشار اليها في الجزء الاول من مذكرته التي اعدها قبل حدوث اضراب يوم الارض ، حيثأشار الى الهوة بين العربوالصهاينة

بقوله : « احدى الظواهر الاكثر اقلاقا هي فقدان اليهودي لصبره تجاه المواطن العربي » و« تحرش بسيط » يؤدي« الى انفجار غير مرغوب فيه وتصعب السيطرة عليه ٠٠»٠ ومن هنا فيوم الارض لم يخلق الهوة بل قدم الدليل على وجودها ، واوضح ان سياسة اسرائيل التي كانت تحلم بتعميق (اندماج) العرب قد انتهت الى تعميق (الانفصال) ٠٠ وما كان من الممكن الا ان تنتهي سياسة الاندماج ، بتعميق الانفصال، ولسوف نناقش هذه المسالة لاحقا ٠٠

اهتزاز فرضية صهيونية حول الاستيطان

الفرضية الثانية التي اهتزت بعنف هي نظرية احتلال الارض والعمل من قبل اليهود ٠ فتمسك الحكومة الاسرائيلية والحركة الصهيونية بهذه النظرية لا يوازيه تمسك مساو بها من قبل المستوطن اليهودي ، فمقابل تمسك المواطن الفلسطيني في أرضه ، كما عبر عن ذلك في يوم الارض ، هنالك « هرب العمال اليهود من العمل في مجال الاشغال اليدوية ٠٠» ٠ واكثر من ذلك « فقد اقيم مصنع في معالوت لتشغيل سكانها ، ولكن الذي حدث ان عماله هم من ابناء القرى العربية المجاورة »٠ ولا يختلف الامر كثيرا على صعيد المزارع حيث تؤجر للعرب والذين يقومون بتشغيلها ، ومن هنا كان اقتراح كنيغ بالا يتجاوز عدد العمال العرب ٢٠٪ ٠ بينما اشار الى انهم حاليا يبلغون نسبة تتراوح بين ٢٥ ٪ و٥٠٪ ، علما بأن هذه المشاريع كانت مخصصة اصلا لليهود « ووظفت فيها اموال ضخمة بفرض زيادة عدد السكان اليهود ٠٠» ٠ وبالاضافة الى هذا فهنالك انحسار في عملية الاستيطان في الجليل رغم سياسة الحكومة ، فرغم ان عدد سكان الجليل يتكون من ٢٨٩ الف يهودي ، مقابل ٢٥٠ الف عربي ، فان التزايد كان خلال عام ١٩٧٤ ، ٧٥٩ نسمة يهود مقابل ٩٠٣٥ عرب ٠ علما بان الزيادة الطبيعية في عدد السكان اليهود هي ٤٣٣٥ نسمة ، بواقع نسبة تزايد سنوي تبلغ ٥ر١٪ ٠ اي ان مشاريع اسرائيل لتعدد الاستيطان قد انتهت بتقلص رغم كل المحاولات والاجراءاتالتي اتخذتها ٠

بداية استيطان عربي مضاد :

وفي مواجهة تعثر عمليات الاستيطان الصهيوني ، هنالك نشاط عربي مضاد ٠ لهذا نشأ « خوف جدي من انه خلال العقد المقبل ستنفذ عملية استيلاء عربية من الناحية الديمغرافية والسياسية على عكا ومنطقة الناصرة ٠٠٠ » وهذا الامر بالاضافة الى انه ناتج عن التكاثر الطبيعي للعرب ، فهو ايضا بفعل عمل منظم ومخطط ٠ فقد « بدات تظهر عمليات منظمة لشراء العرب عقارات في مناطق الشمال ، ويظهر ذلك بشكل بارز في الناصرة العليا وعكا ويظهر بشكل مثير للقلق في مرج ابن عامر ٠٠» وفي الناصرة العليا التي يتحدث عنها كنيغ والتي اراد الصهاينة من وراء انشائها خنق مدينة الناصرة ، هنالك عملية شراء او استئجار للبيوت من قبل العرب ٠٠وهنالك من اليهود من كان يطالب بصوت عال بمنع العرب من دخول المنطقة ٠ وما ان لاحت له الفرصة ووجد مشتريا لبيته حتىباعه للعائلة العربية التي اجزلت الثمن (١٢) «الامر الذي اعتبره البعض « غزو العرب للمكان الذي اعد ليكون لليهود فقط ٠٠(١٣) » ٠وقد كان من اللفت للنظر « ان العربالذين ياتون لشراء منازل مستعدون لدفع اي ثمن

يطلب منهم ·· ان هذا الامر يدل على محاولة منظمة تؤيدها مصادر مالية ·· انهم ينفقون الاموال بسخاء وسهولة وحتى انهم لا يساومون ··(١٤ » · ولعل هذا ما عناه كنيغ عندما اشار الى « تجميع الاموال وخاصة السوداء منها ، في ايد غير مرغوب فيها ، وهي تقدر بمئات الملايين ، من الممكن ، بالاضافة الى الضرر الاقتصادي الناجم عن ذلك ان تشكل قاعدة للتبرعات التيتجمعها عناصر معادية ···» ! ·

ان الفرضيات الاسرائيلية بصدد الاستيطان والوجود القومي لعرب الارض المحتلة يمكن لنا ايجازه بكلمات احد مندوبي اتحاد الطلبة العرب الذي قال ·· « اننا نعتبر انفسنا جزءاً لا يتجزأ من الشعب الفلسطيني ·· وما داموا لا يعترفون بحقنا في تأييد اخواننا في مخيمات اللاجئين فلن يكون هنالك هدوء في الجامعات ··· واذا كان من حق الطلبة اليهود التظاهر من اجل الاستيطان فمن حقنا التظاهر ضده ··» (١٥)·

ان حديث مندوب اتحاد الطلبة العرب انما يوجز الطابع التناحري للصراع داخل الارض المحتلة · ويؤكد على الطابع القومي لهذا الصراع ، ومضامينه المتمثلة بمسالة الارض · وقد اعترف كنيغ بهذه المسالة ·· وبان بعض الفرضيات قد مست ·· ولكن كنيغ ، ممثل الحكومة الاسرائيلية ، وايديولوجيتها الصهيونية ، كان عاجزا عن الاعتراف بالحقيقة كاملة ، ولذا فقد قدم مقترحات لا تمت بصلة الى المقدمات التي انطلق منها والوقائع التي سجلها ··

الصهيونية ايديولوجية الانفصال وليس الاندماج :

كنيغ ، يعمل على تنفيذ سياسة الحكومة الاسرائيلية الداعية الى (دمج) و(هضم) عرب المناطق ، وقد سجل الظواهر ، وقدم مقترحات من صلب الايديولوجية الصهيونية · من اجل ماذا ؟ من اجل الدمج ، وهنا وقع في خطيئة كبيرة عندما قفز فوق الحقيقة المعروفة الا وهي ان الايديولوجية الصهيونية ، ليست ايديولوجية الاندماج ·· بل خلقت خصيصا لصنع الانفصال ··

الفرضية الثالثة التي اهتزت

ومن هنا الفرضية الثالثة التي لم يسجلها كنيغ ، ومن المستحيل على صهيوني ، ان يعترف بها : استحالة دمج العرب بالدولة الصهيونية ·· واستطرادا المأزق الذي لن تستطيع الخروج منه اسرائيل او الحركة الصهيونية وسيتضح هذا معنا من خلال استعراضنا للمقترحات التي قدمها للخروج من المأزق ·· والتي لن تؤدي الا الى الدخول في مأزق جيدة ، وخير معين لنا في فهم هذه المسالة هي الايديولوجية الصهيونية بحد ذاتها كما عبر عنها بعض دعاتها ومنظريها ··

الاضطهاد ·· و·· الانفصال ··

يقول روف برينر عضو اللجنة الوطنية للهستدروت وعضو المكتب السياسي لحزب مابام « تضامن اليهود في وجه الاغتصاب والفظائع ··» (١٦) و« بدون معتقد خاص لا تكون

انفصالية وبدون انفصالية لا يكون بقاء بل انصهار عاجل ‥ وبدون بقاء تكون نهاية اسرائيل ‥ (١٧) ٠ «الطرد والفيتوات امنت بقاءنا ‥» (١٨) » و « الانفصال القوي هو في طبيعة الاشكال والمحظورات الكثيرة في ديانتنا ‥»(١٩) ‥ « هذه المحظورات ادخلت في سبيل الحفاظ على الانفصال ‥(٢٠) » ٠

و« فتحت اللاسامية عيني على العودة الى هويتي المنسية ‥ (٢١) » وأما هرتزل فيقول « اللاسامية هي قوة شديدة لا شعورية بين الجماهير ‥ انني اعتبرها حركة مفيدة للشخصية اليهودية ، فهي تمثل تثقيف جماعة بواسطة الجماهير ‥ ويتم التثقيف عن طريق الضربات القاسية وحدها » (٢٢) ‥ وسيقدم المعادون للسامية الحافز ‥(٢٣) ٠

الاضطهاد وسيلة تثقيف جماعي

« الضربات القاسية وحدها »‥ الكلمات لهرتزل ، والممارسة لكنيغ ولحكومة اسرائيل ‥ والضحية هذه المرة عرب الارض المحتلة ‥ وهذه الضربات القاسية التي يقترحها كنيغ ٠ الن تكون عملية تثقيف جماعي ‥ للعرب هذه المرة ‥ ومفيدة للشخصية العربية الفلسطينية هذه المرة ايضا ؟٠ الن تفتح العيون على الهوية المنسية ‥ هذا ان نسيت أصلا ‥ والتضامن في وجه الاغتصاب والفظائع ‥ كما يقول روف برينر الن يكون هو تضامن العرب ‥ لانهم ضحية الاغتصاب والفظائع ؟٠ اليست هذه هي السياسة التي مارستها اسرائيل ضد عرب الارض المحتلة ‥ ويأتي كنيغ داعيا لمزيد من اجراءات الاغتصاب والفظائع ‥ لنعد لالقاء نظرة على كلمات مذكرة كنيغ ‥ ولنقرأها في ضوء الجمل المختارة من الفكر الصهيوني ‥ يقول كنيغ « تعاظم الشعور القومي» و« النجاح الكلي للاضراب » و« تضامن كل السكان عن وعي » و« النجاح التاريخي » و« التوحيد المطلق » و« الهوة العميقة » و« الانعكاسات الحادة ‥» ٠

في ضوء ما تقدم يمكن لنا تسجيل الفرضيةالثالثة الا وهي استحالة حل مشكلة الاقلية العربية في الارض المحتلة و(دمجها) و(احتواؤها) في (دولة) اسرائيل على اساس البرنامج الصهيوني ٠ والذي فصل اساسا للحفاظ على (انفصال) و (وتمايز اليهود)٠ انفصالهم وتمايزهم)عن محيطهم ‥ ماذا يعني هذا ؟ انه يعني ببساطة شديدة (انفصال) و (تمايز) غير اليهود ايضا ‥ مع فارق جوهري في معنى الانفصال والتمايز بالنسبة للطرفين ، فالانفصال والتمايز ، يحملان معنيين متناقضين ، فالاول يحمل معنى ايجابيا ، بمعنى تمييز لصالح اليهود ‥ والثاني تمييز ضد العرب ‥ ولهذه المسالة اهمية كبيرة جدا في حياة الصهيونية واسرائيل وخوفهما من اندماج‌اليهود في دول الشتات كما يحلو لهم التسمية ، فبن غوريون يقول« ان مبدأ مساواة اليهود بغير اليهود في الحقوق والواجبات هو الذي يجعل خطر الاندماج أشد ‥» (٢٤) ٠ ان حديث بن غوريون انما يمس مسالتين في غاية الاهمية ، وهما مفتاح فهمنا للعديد من القضايا٠ المسالة الاولى كيفية نشوء المسالة اليهودية ، والمسالة الثانية كيفية استغلال الحركة الصهيونية للمسالة اليهودية لتنفيذ المشروع الصهيوني واقامة دولة يهودية في فلسطين فعدم مساواة اليهودي في اوروبا منع عملية الذوبان واوجد

وضعا استغلته الحركة الصهيونية التي قالت ان طريق الخلاص هو البرنامج الصهيوني ‥

وليس مصادفة تاريخية ان تكون أولى واوسع الهجرات اليهودية قد كانت من روسيا القيصرية .. واذا كان (عدم المساواة) بالمعنى السلبي ، أي التمييز لغير صالح اليهود قد كان عنصرا رئيسيا في نجاح المشروع الصهيوني . فان عدم المساواة هذه المرة ، بمعنى التمييز لصالح اليهود ، يشكل عنصرا رئيسيا في سياسة الحركة الصهيونية لاستمرار وجود اسرائيل وضمان تدفق المهاجرين وبحيث يكون المهاجرون « متأكدون انهم بذلك يحسنون مركزهم .. وان الخروج – اي الهجرة – سيكون في الوقت نفسه ارتقاء طبقيا .. (٢٥) » .

« تحسين مركزهم » و« الارتقاء الطبقي » و« التمايز » ألن يحتاج الى طرف اخر . « يساء مركزه » و« يهبط طبقيا » و« يعاني من التمايز » . هذا هو المجتمع الصهيوني الذي انشيء . ويأتي كنيغ ويقدم اقتراحاته بشأن الاقلية العربية .. فهل اخرجت مقترحات كنيغ اسرائيل من مأزقها وعقده الانفصال التي تعاني منها والمرشحة للتزايد لدرجة الخطر ..

المقدمات الخطا .. والنتائج الخطا :

نظرا لان كنيغ ينطلق اساسا من ايديولوجية رجعية هي الايديولوجية الصهيونية ، فان كافة النتائج المترتبة على تلك البداية الخاطئة ستكون رجعية ولن تخرج اسرائيل من مأزقها .. بل على العكس من ذلك فان عملية الانفصال والتناقض ستتعمق اكثر فاكثر .. فمقترحاته تتلخص بكلمة واحدة . الاضطهاد . الاضطهاد في كل شيء. والاضطهاد وحسب القاموس الصهيوني يعني شيئا واحدا : الانفصال . فماذ يقترح كنيغ ؟.

كنيغ الذي تأثر كثيرا بيوم الارض ، يقفز كليا فوق هذه المشكلة ويقدم مقترحات لا علاقة لها من قريب او بعيد في جوهر المشكلة ويقدم مقترحات تحت خمسة عناوين ، فبالنسبة للمشكلة « الاولى والتي يسميها « المشكلة الديمغرافية وظواهر القومية العربية » يقترح « توسيع وتعميق الاستيطان اليهودي في المناطق التي تبرز فيها الكثافة السكانية العربية ... ويجب درس امكانية تخفيف عدد السكان في التجمعات السكانية العربية القائمة » ، « وبموازاة ذلك يجب تطبيق قوانين الدولة بفرض تقييد عمليات الاستيطان العربية في اقسام الدولة المختلفة ..» . ماذا يعني . هذا الاقتراح ؟. طرد العرب من اماكنهم الاصلية ، ومنعهم من الاقامة في مناطق أخرى . اذا اين يقيمون ؟!. الطرد الى الخارج ! الى اين ؟ ولكن اقتصاد اسرائيل يحتاج اليهم .. هنا يقدم كنيغ رغبة ولكنها تكاد تكون مستحيلة !.

و« لتجريد حزب ركاح من الريادة في حمل لواء النضال القومي وتمثيل عرب اسرائيل، ولاعطاء متنفس للجالسين على (الحافة) يجب تأسيس حزب شقيق لحزب العمل يكون التركيز فيه على مبادىء المساواة والانسانيات والثقافة والعدالة والنضال الاجتماعي ورفع علم السلام في المنطقة ..» اقتراح حسن ، ولكن الم توجد احزاب شقيقه قبل ذلك ، و « مبادىء المساواة » التي يقترح كنيغ ان يرفعها الحزب الشقيق اتعني ان تصادر اراضي العربي لتعطى لليهودي ؟. ركاح يعلن موقفه صراحة ، ويؤكده بالممارسة ...

والحديث المكثف عن المساواة والانسانيات ··· غيرها من مبادىء الحزب الشقيق هل تعوض الفلاح عن أرضه المصادرة ؟!

ومن اجل « خلق نموذج مواطن عربي موال للدولة ·· » يقدم كنيغ مقترحة الثاني بشأن « الزعامة العربية وتأثيرها » ·· يقول بوجوب « التخلص من الزعامة العربية الحالية » و« تغيير معظم العاملين فيالقطاع العربي التابعين للاجهزة الحكومية والشرطة والاحزاب بما في ذلك واضعي السياسة ·· » والتشهير بقادة ركاح « واتخاذ خطوات فردية ضد كل شخصية سلبية في كل المؤسسات والمستويات ··» · ولان السيد كنيغ منتبه الى الخطأ الذي وقعت فيه « السياسة التي لم تأخذ في الحسبان الطبيعية العربية الشرقية والسطحية غير المتعمقة والتي تتميز بعمل الخيال اكثر من عمل العقل ··(٢٦) » يقترح ايجاد « قادة قادرين على أن يكونوا نموذجا شخصيا وان يتملكوا الصفات التي تمكنهم من الاجابة على اسئلة المرتبكين المخلصين ومن سوقهم الى الحل المعقول على الصعيد الشعبي والشخصي ·· » ·

ولكن هذا « البطل » ماذا سيكون جوابه على سؤال يطرحه فلاح شرقي سطحي ، غير متعمق ، خيالي ، لا عقلاني · كما يصفه كنيغ ، وسؤال هذا الفلاح لماذا يصادرون ارضي ؟· ماذا سيكون جواب الزعيم وما هو الطريق الذي سيقترحه ؟ بالتاكيد ان الارتباك سينتقل من الفلاح الى الزعيم ·· هنا افرط كنيغ الى درجة السذاجة في تقدير سذاجة ذلك الفلاح أو العامل الذي لن يجدجوابا أيضا عندما يتساءل لماذا اجري اقل من أجر زميلي اليهودي الذي يؤدي نفس العمل ؟··

واما على صعيد المشكلة الثالثة ، اي الاقتصاد والعمل فان كنيغ يعتبر « بأن الفارق الشاسع بين العرض والطلب على الايدي العاملة في الاقتصاد بكل فروعه وخاصة فرع البناء وورش اصلاح السيارات وكل الاعمال اليدوية بشكل عام ، والتبعية التي تميز فروع اقتصاد كثيرة مرتبطة بهذه الايدي العاملة ، اعطت شعورا بالقوة لدى عرب اسرائيل ··» هذا الواقع يقدم له الحل التالي « يجب وضع اتفاقات مناسبة مع كل ادارة مشروع أو معمل خاضع له قانون استثمار راس المال » في المناطق الحساسة ·· بحيث لا يزيد عدد العمال العرب فيها على نسبة ٢٠٪ ·· » · و« تعميق الجباية » و« تحييد الوكلاء العرب ووضع العقبات امامهم »·· الاقتراحان الاخيران هما في متناول يد السلطات الاسرائيلية ، ولكن العنصر الاهم هو دور اليد العاملة العربية في الاقتصاد الاسرائيلي · هنا يتناسى ان تحديد نسبة العمال العرب ، مسألة لا تمسهم فقط بل تمس الاقتصاد الاسرائيلي ككل · فان طرد العمال العرب ،فأين سيعملون ؟!·· ان مصيرهم هو البطالة · وهي المشكلة الأولى ، وأما الثانية ، فمن أين سيأتي السيد كنيغ بالبديل ، وهو نفسه يعترف بـ « الفارق الشاسع بين العرض والطلب ·· »· فقد يستطيع أحضار عمال يهود ولكن ، من سيملا مكانهم الشاغر ؟ وفيما لو وجد من يحل مكان العمال العرب ، فهل سيرضى العمال اليهود بممارسة المهن التي يؤديها العرب ؟ · هل سيرضون بنفس الاجور ؟··

والاخطر من ذلك ، أن العمال العرب والمهن التي يؤدونها ليست مسألة نسبة مئوية فهم لا يشغلون نسبة ٢٠٪ فقط ، هم مسؤولون عن مرحلة انتاجية لا يمكن الاستغناء عنها ، وبدون هذه المرحلة الانتاجية ، فان ما يتبقى من مراحل الانتاج عرضه

للشلل (٢٧) · فهل سيغامر كنيغ بطرد العمال العرب ؟· ان مغامرته ستعني خلخلة هيكلية الاقتصاد الاسرائيلي ككل · وستؤدي حكما الى هبوط الناتج القومي ·· واشار اخرى لا يستطيع الاقتصاد والاسرائيلي تحملها بدون هزات ستعرض كل التركيب الاجتماعي في اسرائيل للخطر ·

مقترحات كنيغ على صعيد « التعليم » لا تختلف عن مقترحاته على الاصعدة الثلاثة السابقة · فهو يقترح تقليل عدد الطلاب وضمان استيعابهم بعد التخرج ، وتوجيههم نحو « المواضيع التي لا تعطي الا القليل من الوقت للانشغال بالقومية وفي الوقت نفسه مستوى الرسوب فيها مرتفع ·· » و« تسهيل السفر الى الخارج ووضع العراقيل امام عودتهم وانخراطهم في العمل ·· »

اقتراح كنيغ هذا (وجيه جدا) ويصح ان يقدم الى « اليونسكو » كمبرر جديد لطرد اسرائيل من هذه المؤسسة الثقافية الدولية · انها دعوة صريحة للتجهيل ·· ولكن هل هي سياسة جديدة ؟· المعروف أن عددا كبيرا من حاملي شهادة ـ البجروت ـ الثانوية العامة يعملون عمالا ، وذلك يفعل سياسة التمييز ضد العرب ، فمن بين ١٢٠ الف موظف في الدولة يوجد ١٢٠٠ موظف عربي أي ما نسبته ١٪ فقط (٢٨) أي ان العقبات امام دخول الطلاب الى الجامعات ، او الى مجالات العمل هي عقبات موجودة منذ انشاء دولة اسرائيل · ونتيجتها توقعها مساعد توليدانو مستشار رئيس الحكومة للشؤون العربية عندما قال « اذا لم يستوعبوا ستزداد بينهم مشاعر خيبة الامل الناجمة عن وضعهم الاقتصادي بالاضافة الى خيبة املهم على اساس قومي·· » ومراهنة كنيغ على التخصصات التي « لا تعطي الا القليل من الوقت للانشغال بالقومية ·· » هي مراهنة خاسرة سلفا ، ولنا في تاريخ الصهيونية ، ودور حاييم وايزمن ، الكيماوي ، دليل ساطع ، وفي المرحلة الراهنة فان التنظيم الفلسطيني الاكبر يقوده مهندس هو ياسر عرفات ، والتنظيم الثاني في الساحة الفلسطينية يقوده دكتور هو جورج حبش ·· وكنيغ عندما يقترح وضع العراقيل امام عودة الخريجين من الخارج وأمام عملية تشغيلهم ، سوف يتخلص من خريج ، بابقائه خارج الحدود، ولكنه سيكون على صدام مع الامتدادات الاجتماعية لهذا الخريج في داخل الارض المحتلة · وعدم تشغيله ، سيجعل من ذلك الخريج قضية متحركة في المجتمع ودليلا ساطعا على سياسة التمييز التي تمارسها السلطات العنصرية ·· خصوصا اذا ما تذكرنا ان لهذا الخريج العربي ، زميل يهودي ، ينتسب لنفس الجامعة، أو الفرع العلمي ، ويجد وظيفته جاهزة ·· بينما يقذفبالعربي الى سوق البطالة ··· عندها يكون السيد كنيغ قد خلق محرضا سياسيا من الطراز الاول ··

واما على الصعيد الخامس فيقترح كيننغ تطبيق القانون ويعدد أكثر من مثل على عملية خرق القانون ، كما في حالة البناء غيرالقانوني مثلا ·· ولعل أطرف توقع هو اعتباره أن « عدد السكان العرب ١٤ ٪ · مخالفة هذه النسبة للقانون قد تتخذ طابع التمرد ·· » هنا لا يقدم اقتراحات لعدم تجاوز هذه النسبة · ولكنه على صعيد تنفيذ القانون يقترح التشدد · هنا يطرح تساؤل لماذا يخرق العرب القانون ؟· اللرغبة في التجاوز ؟ وبالذات على صعيد البناء · السبب ان القانون يقيد حق العرب في البناء ·· ولان القانون جائر ، أصبح خرقه ضروريا · ولنفترض جدلا ان الحكومة الاسرائيلية قد نجحت في منع المخالفات وطبقت القانون الجائر فأين يقيم العرب اذن ؟· في

الاحياء اليهودية ·· هنالك مقاومة رسمية اذا ، يتكدسون في اماكنهم الضيقة ·· هذا تمهيد لماذا ؟ النتيجة الوحيدة هي الانفجار ·· لان لذلك العربي عيونا ترى الشقة الحديثة التي تجهز لمهاجر متوقع ولم يحضر بعد ··

في هذا الصدد بقيت كلمة أخيرة ·· أن مذكرة كنيغ مذكرة (ممتازة) · ليس لحل مشكلة عرب الارض المحتلة ·· بل لدفعهم الى اقصى درجات العنف والتوتر ·· أن وثيقة كنيغ هي برنامج مناسب لاحداث انفجار !!

خلاصات ومقترحات :

١ ـ ان مذكرة كنيغ ، بغض النظر عن مستقبل صاحبها ، يجب أن تكون محل عناية واهتمام قيادة الشعب الفلسطيني ،كجزء من عملية الاهتمام في الاراضي المحتلة عموما وفي مناطق ١٩٤٨ خصوصا ·· ولا يجوز ، لاي سبب كان ان لا تعطي الاهمية التي تستحقها !!

٢ ـ ان الفرضيات التي مست ، هي فرضيات في منتهى الخطورة والاهمية على الصعيدين العربي والاسرائيلي وقد سبق لنا تناولها · وأن اية سياسة تجاه عرب الارض المحتلة لا بد وان نأخذ بعين الاعتبار هذه المسالة والتي نلخصها : بصعوبة الاندماج ، وتلكوء مشاريع الاستيطان ، واستحالة تقديم اسرائيل لحلول مناسبة لقضايا عرب الارض المحتلة · وكافة الحلول التي تقدمها هي حلول قاصرة ، وتخرج قادة العدو من مازق لتدخله في مازق اخر · وفي هذا الصدد لا بد من الاشارة الى انها ليست المرة الاولى التي تهتز بعنف بعض الفرضيات الصهيونية · خصوصا بعد حرب تشرين ١٩٧٣ ، حيث بدات تطرح في ذهن المستوطنين الصهاينة تساؤلات شتى حول صحة البرنامج الصهيوني من اساسه ·

٣ ـ ان عرب الارض المحتلة هم القنبلة الموقوتة والاكثر خطرا على اسرائيل والمفصل الاكثر ايلاما لها ، سواء اخذ هذا الوجود شكلا كميا او نوعيا ، باعتبار أن تطوره لا يخرج عن اطار القوانين العلمية التي تحكم سير ونمو اي مجتمع من المجتمعات ·· ومن هنا فلا بد من رفع شعار (نموت ولا نهاجر) ووضعه موضع التطبيق العملي والتعامل مع مسالة الوجود داخل الارض المحتلة باعتباره قضية مقدسة وواجبا وطنيا ولا بد من ادانة اي عملية خروج من الارض المحتلة ، تحت أي مبرر أو حجة ، وبالتحديد على صعيد الكفاءات والرموز ، والمرشحة لان تكون قيادة العرب الارض المحتلة ، خصوصا وأن جزءا من اجراءات اسرائيل ستتوجه نحو اضعاف المستوى العلمي والثقافي لعرب الارض المحتلة ، وبكلمة اخرى اضعاف امكانيات تولد القيادات·

٤ ـ ان عملية التجهيل المقصودة ضد عرب الارض المحتلة يجب أن تعوض بعملية تحريض ثوري وسياسي من الخارج بواسطة كافة وسائل الاتصال ، بدءا من الاغنية الشعبية الفلسطينية انتهاء بارقى الوسائل والاساليب · ولا بد من ان تكون هنالك سياسة موحدة تجاه عرب الارض المحتلة من قبل كافة الاطراف المعنية ، باعتبار أن أوضاع الداخل لا تحتمل ما يمكن أن يحتمله الخارج ·

٥ ـ لا يجوز لاي سبب كان ان نطعن نضالات عرب الارض المحتلة · هؤلاء الذين يأبون الاعتراف بالوجود الصهيوني رغم سنوات الاحتلال الطويلة · وان اي موقف سياسي متهاون تجاه اسرائيل سيهز الفرضيات السياسية التي تشكل موقف عرب الارض المحتلة ، والذين سيكونون أمام حائط مسدود عندما يفاجئون باعتراف عرب الخارج بوجود اسرائيل ، وهم في الداخل ، والذين يعانون من اقسى الاجراءات واكثرها عنفا وشراسة لم يفرطوا بهذه المسالة ولم يتسرب الى نفوسهم اليأس ·

٦ ـ لا بد من العمل بكافة الوسائل باتجاه تكريس ودعم زعامات فلسطينية في الداخل في مواجهة الزعامات التي تحاول اسرائيل ان تخلقها · وقد يكون هنالك ثمة تحفظات لهذا الفريق السياسي أو ذاك او ذاك على الاطروحات السياسية لبعض القوى العاملة داخل الارض المحتلة ، ومع أهمية هذه التحفظات والتي تستند الى اسس مبدئية ، ولكن رغم هذا ، فلا بد من التعامل مع القوى الموجودة في الارض المحتلة ليس في ضوء اطروحاتها النظرية فحسب ، بل على اساس النتائج الموضوعية لممارساتها العملية · ودورها في فرز وتصعيد التناقضات داخل الارض المحتلة ·

٧ ـ ان نجاح البرنامج الصهيوني للاستيطان لا يرتبط بالاعتبارات المحلية فقط ، فاسرائيل قد تستطيع مصادرة الاراضي · ولكن حريتها ليست مطلقة على صعيد ثلاث مجالات · أ ـ المجال الامني · ب ـ تمويل عمليات الاستيطان · جـ ـ المادة البشرية ، وعلى الصعيد الاول ، فقد أصبح دور عمليات المقاومة في الجليل دورا مسلما به في الحد من عمليات الاستيطان ·· وفي هجرة المستوطنين · وعلى الصعيد الثاني فان تمويل عمليات الاستيطان مسالة هامة ولا يمكن تجاوزها ، فالمستوطن بحاجة للمنزل ، وللمكان العمل ، الامر الذي يلقى على عاتق اسرائيل اعباء ماليه لا يمكن لها ان تتجاوزها بسهولة لولا المساعدات الخارجية ، وهي مجال ضغط لا بد من ممارسة الجهود الملائمة كي تخف هذه المساعدات · ولعل أخطر الجوانب في هذه النقطة هي المسالة الاخيرة الا وهي توفير المادة البشرية · وقد أصبحت مصادر الهجرة الى اسرائيل محصورة بشكل رئيسي في دول الكتلة الشرقية · وهنا لا بد من توضيح ابعاد هذه المسالة وخطورتها لان هجرة ١٠٠ الف يهودي سنويا يعني ١/٢٥ من عدد سكان اسرائيل اليهود حاليا (١٠٠ الف ـ ٥ر٢ مليين)· ومهما قدرت الاعتبارات والمصالح السياسية وراء السماح بهجرة اليهود ، ولكنها لا ترتقي الى درجة الخطر المصيري الذي تمثله بالنسبة لوجود اسرائيل وبالنسبة للثورة الفسطينية ولشعب فلسطين · ولانه من غير المبدئي ان تشن النضالات ضد الاستيطان وفي الوقت نفسه تمون عمليات الاستيطان بالمادة البشرية اللازمة ·

ومن هنا فلا بد للثورة الفلسطينية ، وفي ضوء علاقاتها المبدئية والرفاقية مع المعسكر الاشتراكي ، ومن توضيح خطورة هذه المسالة والتي هي مسالة وجود أو عدم وجود بالنسبة للثورة الفلسطينية أو لاسرائيل · وأي خطوة ايجابية على هذا الصعيد هي اكثر تاثيرا ودعما لثورتنا ، من اي مساعدات مادية او معنوية اخرى تقدم لنا · فلا قيمة لمشاريع الاستيطان بدون مستوطنين !·

٨ ـ في موازاة سياسة التجهيل التي تعمل لها اسرائيل · وحيث تقترح وثيقة كنيغ ممارسة اشد على هذا الصعيد ، وفي ظل حاجة عرب الارض المحتلة للكوادر

اللازمة ، وفي ظل استحالة استيعاب، وبكلمة ادق استعداد الجامعات الاسرائيلية لاستيعاب الاعداد المطلوبة من الطلبة العرب ، لا بد من السعي لدى الدول الصديقة لزيادة اعداد الطلبة المقبولين في جامعاتها من عرب الارض المحتلة • فكما هو واضح فان اهمية الخريج من فلسطيني لبنان او سوريا •• الخ • لا تساوي أهمية الخريج من فلسطينيي المناطق المحتلة ١٩٤٨ • ولا يتسع هنا المجال لمزيد من التفاصيل العملية الضرورية والممكنة •

٩ ـ من المتوقع ان تمارس اسرائيل سياسة اكثر تشددا وعنفا ، لمواجهة وجود عرب الارض المحتلة • ومن هنا فلا بد من المبادرة بأسرع ما يمكن الى تنظيم حملة عالمية لفضح السياسة الاسرائيلية على هذا الصعيد والاستفادة منها على صعيدين : الاول تقييد حرية اسرائيل في التصرف ، براي عام على الصعيد العالمي ويفضح طبيعتها العنصرية • والجانب الثاني سياسي يهدف خلق المزيد من المشاكل السياسية لها • ولا شك أن اسرائيل ستعاني من متاعب جمه فيما لو اثير موضوع الاقلية العربية في الارض المحتلة وحقها في تقرير المصير • وقد لا تلاقي هذه الدعوة نجاحا ، ولكنه من المؤكد انها ستفضح زيف ديمقراطية وليبراليه اسرائيل • وهذا ما يمكن لنا ان نسميه التعاطي الايجابي مع الراي العام العالمي بمعنى تقديم المسائل التي تلقى قبولا وتفهما ، وليس كما يفهم البعض التعاطي الايجابي باعتباره تقديم التنازلات المبدئية •

١٠ ـ نستطيع الجزم ان اسرائيل ، لاكثر من سبب اقتصادي ، واجتماعي ، وسياسي، لا تستطيع التخلي عن الاقلية العربية الموجودة داخل الارض المحتلة • ورغم ان هذه الاقلية هي اقلية خطرة وغير مرغوب فيها ، فهنالك حاجة لها • ولا يمكن الاستغناء عنها الا اذا وفر البديل الذي يمون اقتصاد اسرائيل بحاجته من العمال اليدويين وانصاف المهرة• ومراهنات اسرائيل ـ كما اتضح من دراسات متخصصة عديدة ـ هي على ايجاد مصادر بديلة ، تعطي لاسرائيل اليد العاملة ، ولا تحملها الاعباء السياسية التي تلقيها عليها الاقلية العربية داخل الارض المحتلة حاليا • ومن هذه المصادر دولة او كيان عميل مرتبط باسرائيل اقتصاديا • او توقيع معاهدة سلام مع العرب تضمن فتح الجسور وأقامة علائق اقتصادية • وفيما لو قدم لاسرائيل هذا الامر ، فانه يزيل عن كاهلها عبئا ثقيلا ممثلا في عرب الارض المحتلة ، الذين تحتاج اليهم بمقدار ما لا ترغب في وجودهم • وقد اشار كتاب (بحوث في الاقتصاد الاسرائيلي) الى هذه المسالة عندما قال « أن توفير مصدر اخر لليد العاملة العربية سوف يساعد اسرائيل على تنفيذ رغبتها بافراغ المناطق المحتلة عام ١٩٤٨ من المواطنين العرب • باعتبار ان وجودهم هناك يؤدي هدفين متناقضين ، اولهما، حاجة اقتصاد اسرائيل الماسة لما توفره الاقلية العربية من عرض للايدي العاملة الرخيصة وغير الفنية تلبية لحاجة اقتصادها المتزايد لهذا النوع من الطاقة العاملة : ثانيا : هذا ما كان يحد من قدرتها على تنفيذ أجراءات التهجير للاقلية العربية خوفا من تزايد تلك الاقلية الى درجة تهديد التركيب الديمغرافي بين العرب واليهود •• وعندما يتوفر لها مصدر بديل لليد العاملة الرخيصة ، فأن هذا يساعدها على أن تخطو واسعا بعمليات تهجير عرب الارض المحتلة ١٩٤٨ • وبهذا تكون اسرائيل قد واءمت بين الهدفين المتناقضين اللذين يخدمهما وجود الاقلية العربية ، حيث ستجد اليد العاملة الرخيصة وبدون اية اعباء سكانية او سياسية •••» (٣٠)

١١ ـ في موازاة البرنامج الصهيوني ، والذي تعبر عنه خير تعبير وثيقة كنيغ ، والذي لن يؤدي الا الى المزيد من المأزق · والذي يقدم حلا رجعيا وعنصريا لما يسمى « المسألة الفلسطينية » · يتسع المجال امام تقديم الحل البديل ، الحل التقدمي ، للمشكلة الحقيقية والتي هي «المسألة اليهودية » · ومن هنا ضرورة تعميق وتعميم طرح حركة المقاومة الفلسطينية عن الدولة الديمقراطية · التي تكفل المساواة في الحقوق والواجبات للجميع ·

١٢ ـ لا بد من الاقلاع نهائيا عن أي تفكير بامكان ايجاد حلول تكفل « الحقوق المشروعة للشعب الفلسطيني » و « حقه في تقرير المصير » الا اذا حطمت الايديولوجية الصهيونية بكل مؤسساتها وهياكلها الرسمية وغير الرسمية · فالعلاقة بينها وبين الشعب الفلسطيني ، هي علاقة تناقض تناحري لا مجال لحلول وسط فيه ، ولمن لديه أوهام بامكان انتزاع الحقوق المشروعة للشعب الفلسطيني في ظل وجود اسرائيل ، وفي ظل هيمنة الايديولوجية الصهيونية عليها ، وفي ظل ميزان القوى الحالي ، نقول لهم ان قادة الحركة الصهيونية يعرفون طابع التناقض جيدا ··· انهم يقولون بلسان كنيغ آخر هو موشي ديان ·· « عندما قامت دولة اسرائيل ، فانها قامت مكان ، وعلى حساب مناطق فلسطينية ، او سكان فلسطينيين · وكما ارى الامور ، ولا أرى سببا لتجاهلها ، فان (ساريد) مكان (خنيفس) و (شاعر هعماكيم) قامت مكان (خرطبة) و (نهلال) مكان (معلول) و (تل جنان) مكان (بلد الشيخ)وفي (الشيخ مونس) تقام الان (جامعة تل ابيب) و (وادي الحوارث) هو (معيمك حيفر) ومكان مستوطنتي النقب (نيريم ونيريتسحاق) كان يقيم (بنو العزازمة والهزيل وغيرهم)! انها نقطة البدء ·· انها نقطة النهاية ·· وما تبقى تفاصيل · ن

الحواشي

(١) الحديث ادلى به في ندوة تلفزيونية يوم ١٧ـ١٠ـ٧٦ واشترك به سالم جبران الشاعر ، والمحرر في صحيفة الاتحاد والسيد صالح دراوشة رئيس مجلس محلي قرية اكسال ،والسيدة نزهة قصاب،عضو الكنيست عن حزب العمل الاسرائيلي الحاكم ··

(٢) ندوة تلفزيونية · المصدر نفسه ·

(٣) المصدر نفسه ·

(٤) المصدر نفسه ·

(٥) ندوة تلفزيونية · مصدر نفسه ·

(٦) ندوة تلفزيونية · مصدر نفسه ·

(٧) لا نملك الا ان نتحفظ على الارقام المعطاة باعتبارها تمثل عدد سكان الجليل من العرب · فهنالك ثمة اجماع على ان نسبة العرب تزيد عن نسبة اليهود ·

(٨) ملحق دافار ، ١٤ـ٤ـ١٩٧٥ راجع نشرة الارض · السنة الثانية العدد ٢٤ الصادر في ٧ـ٩ـ١٩٧٥ · راجع ايضا ، كتاب ، عرب فلسطين عام ١٩٤٨ـ انتماء وصمود · الصادر عن مؤسسة الارض للدراسات الفلسطينية ـ دمشق ـ لحبيب قهوجي ·

(★) كافة الاستشهادات والفقرات المأخوذة من وثيقة كينتغ لم يشر اليها ·

(٩) لمزيد من التفاصيل راجع كتاب ، بحوث في الاقتصاد الاسرائيلي الصادر عن مركز الابحاث ، الصفحات ١٤٨ وما يليها ·

(١٠) ندوة تلفزيونية · مصدر سابق

(١١) المصدر نفسه ·

(١٢) انتماء وصمود ـ حبيب قهوجي · مصدر سابق ، ص ٩٢ ، عن دافار ٢٤ـ٩ـ١٩٧٥ ·

(١٣) مصدر نفسه ص ٩٢

(١٤) المصدر نفسه ص ٩١ـ٩٢·

(١٥) المصدر نفسه ص ٥٨ عن يديعوت احرونوت ٢٣ـ٤ـ١٩٧٥ ·

(١٦) مجلة الازمنة الحديثة ـ العدد الخاص بالنزاع العربي الاسرائيلي· العدد ٢٥٣ · ص ٤٢٣ · ذكرها ج· ب· جانسن في الصهيونية ، واسرائيل واسيا ، صادر

عن مركز الابحاث · ص ٣٥ ·
(١٧) برنيو · المصدر نفسه · ص ٤٢٠ · جانسن · مصدر نفسه · ص ٣٥ ·
(١٨) الفكرة الصهيونية ـ نيويورك ـ ١٩٥٩ ·· الكتاب مترجم بنفس العنوان صادر عن مركز الابحاث · ذكرها جـ· ب· جانسن ص ٣٦ ·
(١٩) الفكرة الصهيونية · مصدر سابق ص ٣٢١· جانسن ص ٣٦ ·
(٢٠) الفكرة الصهيونية · مصدر سابق· ص ٢٢٨ · جانسن ص ٣٦ ·
(٢١) جـ· ب· جانسن · مصدر سابق · ص ٤٥ ·
(٢٢) هرتزل ـ المذكرات · الصفحات ٥٦ ، ٧٢٨ ، ٨٣ ، ٨٤ اشار اليها ، جانسن · مصدر سابق · ص ٤٨ ·
(٢٣) تيودور هرتزل ـ دولة اليهود ،ص٥٧
(٢٤) شؤون فلسطينيةعدد ٥٠/٥١ ص٤٠٨
(٢٥) تيودور هرتزل · دولة اليهود · راجع الصفحات ٣٠ و ٦٠ و ٧٠ و ٨٥ ·
(٢٦) التعبير لكنيغ ·
(٢٧) للتعرف على الاهمية النسبية لليد العاملة العربية راجع كتاب (بحوث في الاقتصاد الاسرائيلي) البحث الخاص بـ « دور اليد العاملة العربية في الاقتصاد الاسرائيلي» · ص٧٢ ـ ص ٩٨ ·
(٢٨) جريدة الاتحاد الصادرة في الارض المحتلة عدد يوم ٧ـ٢ـ١٩٦٩ ·
(٢٩) هارتس · عدد ١٧ـ٢ـ١٩٧٥ ·ذكرها حبيب قهوجي مصدر سابق ·
(٣٠) بحوث في الاقتصاد الاسرائيلي · مصدر سابق · ص ١١٥ ·
(٣١) نشرة مؤسسة الدراسات الفلسطينية ملحق العددين ١ و ٢ ، ١٦ ٢d ١٩٧٦ · مقابلة موشى دايان مع هآرتس · عدد ١٩ـ١٢ـ١٩٧٥ ·

رسالة من نيويورك

الحرب الأهلية اللبنانية في الاعلام الأميركي

اخذت الحرب الاهلية اللبنانية في وسائل الاعلام الاميركي حجما كبيرا لا يعكس في الحقيقة اهتمام الولايات المتحدة بلبنان ، بقدر ما يعكس مدى اهتمام واشنطن بما يجري على حدود اسرائيل الشمالية ، وبتأثير الحرب اللبنانية على المقاومة الفلسطينية من جهة ، وعلى مستقبل الحلول المطروحة للنزاع العربي ـ الاسرائيلي من جهة اخرى.

ومن المؤكد ان الاعلام الاميركي ما كان ليركز اهتمامه على هذه الحرب ، لو انها دارت في بلد صغير اخر ، محروم كلبنان من الثروات الاقتصادية الضخمة ، ولا يحتل موقعا استراتيجيا حساسا . ولكن قرب لبنان من اسرائيل ، ووجود المقاومة كجزء من طرفي النزاع اللبناني ، وامكانات تأثر امن اسرائيل بما يجري على الارض اللبنانية ، كانت من العوامل التي جعلت الصحافة والاذاعة ومحطات التلفزيون في الولايات المتحدة تتسابق على تقديم الاخبار والتحليلات ، واضعة نصب عينيها دائما وفي جميع مراحل الحرب مسألة « امن اسرائيل ».

ولقد تطورت محاور اهتمامات الاعلام الاميركي مع تطور الحرب . وكان التركيز في البداية يدور حول مآسي القتال وفظائعه . وعندما كانت المقاومة والحركة الوطنية تحققان الانتصارات ، وكان « جلد الحزن » الذي تسيطر عليه « القوات اللبنانية » يتقلص يوما بعد يوم ، وكانت « الجبهة اللبنانية » تتحدث عن التقسيم ، كان الاعلام الاميركي يؤكد ضرورة الحفاظ على وحدة الاراضي اللبنانية ، ويشدد على مسألة عدم

تدخل قوى خارجية في النزاع ، ويبدي مخاوفه من سيطرة المقاومة الفلسطينية والقوات المشتركة على المناطق الحدودية الجنوبية ، وما يمكن ان تؤدي اليه هذه السيطرة من تزايد للنشاط الفدائي ضد اسرائيل ، الامر الذي قد يدفع الدولة الصهيونية الى القيام بعمل عسكري واسع او محدود ، يمكن ان يتحول الى حرب تعرقل مسيرة قطار الحل السلمي ·

وفي هذه الفترة ايضا دار حوار حول امكانية تأثير الاحداث على مركز لبنان الاقتصادي · واحتمالات انتقال الشركات الاجنبية العاملة في لبنان الى بلدان مجاورة اوروبية او عربية · ثم لم يلبث هذا الحوار ان توقف بعد ان انتقلت غالبية الشركات الاجنبية فعلا الى اليونان وقبرص والاردنوالكويت · وكان الاعلام يلفت الانظار الى سلامة الرعايا الاميركيين في لبنان ، ويؤكد ضرورة اتخاذ التدابير الكفيلة بحمايتهم او ترحيلهم عند اللزوم بسفن الاسطول السادس · ويؤكد ان الولايات المتحدة ليست طرفا في النزاع ولا تؤيد استمراره ، وانها تسعى الى التهدئة بكل الوسائل ·

وعندما دخلت القوات السورية وقوات جيش التحرير المعركة في اواخر سنة ١٩٧٥ لمساعدة المقاومة و « القوات المشتركة » ، عمل الاعلام ما في وسعه للتهوين من اهمية هذا الامر ، والتأكيد على انه لن يبدل موازين القوى على حدود اسرائيل، ولن يهدد امنها ، وان حجم القوات محدود لا يتطلب من الادارة الاميركية تبديل موقفها ، والخروج عن دورها الظاهري « كمراقب للاحداث »· وكانت الغاية من ذلك : تهدئة اسرائيل ومنعها من اتخاذ التدخل السوري ذريعة للقيام بعمل عسكري ، وافهام اليمين اللبناني بان ما يجري على الارض اللبنانية لا يتطلب رد فعل عسكريا اميركيا على غرار انزال ١٩٥٨ ، واقناع الرأي العام العالمي والاميركي بأن الولايات المتحدة لم تتخل عن دورها العالمي ، ولم تترك اصدقاءها يجابهون مصيرهم دون عون ، ولكنها ترى ان الضربات التي يتلقونها اصغر من ان تدفعها الى التدخل المباشر لحمايتهم ·

وكان الاعلام الاميركي مع المبادرات السلمية السورية المتكررة · وعندما قام العميد الاول عزيز الاحدب بحركته في ١١ اذار ١٩٧٦ ، تجاهل الاعلام هذه الحركة، او قلل من اهميتها على الاقل ، رغم تأييد الولايات المتحدة المعروف للانقلابات العسكرية في بلدان العالم الثالث · ويرجع ذلك باعتقادنا الى سببين : اولهما ، اعتقاد واشنطن بأن هذا الانقلاب ، الذي لم تكن المقاومة ضده بعنف ، يمكن ان يشوش على المبادرات السلمية السورية ولو لفترة قصيرة · والسبب الثاني هو ان الاجهزة الاميركية ، الواعية لموازين القوى الحقيقية على ارض النزاع ، قدرت بأن القوى المادية التي يمكن ان تدعم حركة ١١ اذار اصغر من ان تسمح للعميد الاول الاحدب

بحسم الموقف لصالحه .

وظهرت بوادر التفاؤل على الاعلام الاميركي عندما تم انتخاب الرئيس الياس سركيس ، الذي وجد فيه الاميركيون شخصا معتدلا وغير متورط في النزاع ، ويكسب ثقة جميع الاطراف ، ويتمتع بصفات الرئيس المطلوب لمرحلة بناء لبنان الجديد . ولكن استمرار تدهور الاوضاع بسبب امتناع الرئيس السابق سليمان فرنجية عن الاستقالة، وبدء اصطدام السوريين مع « القوات المشتركة » والمقاومة الفلسطينية في حزيران ١٩٧٦ ، جعل الاعلام الاميركي ينقل اهتماماته من تأييد الحل السياسي الى تأييد الحسم العسكري السوري . مع التأكيد على ان الوجود السوري في لبنان لن يؤدي الى تهديد امن اسرائيل . ولقد ظهرت هذه المسألة في وسائل الاعلام الاميركي ايضا عندما دخلت قوات الامن العربية الى لبنان ، وابدت اسرائيل مخاوفها من وجود قوات عربية راديكالية (جزائرية ، ليبية ، عراقية) كثيفة على حدودها الشمالية .

ولقد انشغل الاعلام خلال ترحيل الرعايا الاميركيين من لبنان بمسالتين هما : وصف عمليات الترحيل ، وابراز الاتصالات التي تمت بين اجهزة المقاومة وموظفي السفارة الاميركية في بيروت لتسهيل العمليات ، والشكر الذي قدمته الادارة الاميركية لمنظمة التحرير ، مع التأكيد على ان هذه الامور تتعلق بوضع خاص ، ولا تعني ان هناك تبدلا في موقف واشنطن من منظمة التحرير ، كما لا تعني ان هناك استعدادا اميركيا للاعتراف بهذه المنظمة .

وليس هناك موضوع استأثر باهتمام الاعلام الاميركي مثل التدابير الاسرائيلية على الحدود . فمنذ تموز ١٩٧٦ ، نشر عدد كبير من المقالات حول المعونات الطبية والغذائية التي تقدمها اسرائيل الى سكان الجنوب ، وحول فرص العمل التي تقدمها لهم . وقدمت محطات التلفزيون افلاما عديدة تظهر البون الشاسع بين شراسة المتحاربين العرب في لبنان و« انسانية » الاسرائيليين . ويرى الكثير من المعلقين ان من شأن هذه التطورات ان تؤدي الى مرحلة جديدة في الصراع العربي - الاسرائيلي ، وان تفتح المجال امام تطور العلاقات غير العدائية ، بعد مرحلة العلاقات العدائية الطويلة التي سادت بين اسرائيل وجيرانها ، وان هذا الامر من اهم اثار الحرب اللبنانية على مستقبل العلاقات العربية - الاسرائيلية .

وفي ايلول ١٩٧٦ ابرز الاعلام الاميركي العلاقة بين اسرائيل والقوى اليمينية ، وتحدث عن المساعدات العسكرية التي حصلت عليها « القوات اللبنانية » من اسرائيل مباشرة ، او عن طريق تجار الاسلحة الوسطاء ، الذين سهلوا لليمينيين شراء اسلحة كانت اسرائيل قد استولت عليها خلال حروبها السابقة مع العرب . كما تحدث عن زيارات اسرائيلية لميناء جونيه ، والحصار البحري الاسرائيلي على موانيء المنطقة التي تسيطر عليها القوى الوطنية ، وتدريب عدد من اللبنانيين

في اسرائيل وتزويدهم بالاسلحة لاستخدامهم ضد المقاومة الفلسطينية ، والافادة منهم في تشكيل الحاجز الامني على حدود اسرائيل الشمالية · الامر الذي جعل اسرائيل طرفا مباشرا في الصراع الدائر على الاراضي اللبنانية ، وهذه هي المرة الاولى منذ سنة ١٩٧٠ (ايلول الاسود) التي تجمد فيها اسرائيل نفسها متضامنة مع العرب في بلد مجاور لها ·

ولقد رافق هذه المعلومات المفصلة عن العلاقات الاسرائيلية ـ الكفورية ، حديث مكرر عن اثر الحرب السلبي على منظمة التحرير الفلسطينية ، التي يدعي الاعلام الاميركي انها فقدت خلال الحرب الاهلية اللبنانية الكثير من قواها العسكرية ، وخسرت كثيرا من المكانة الدولية التي احتلتها في السنوات الاخيرة وخاصة بعد حرب تشرين ، « ووجدت املها بالعودة الى وطنها يتضاءل يوما بعد يوم »· ولم يشر الاعلام الاميركي الى المكاسب التي حققتها المقاومة والمتمثلة في : احباط مخطط تصفيتها على الطريقة الاردنية ، وتصلب عودها ، وتخلصها من الوصاية التي كان بعض الدول العربية يحاول فرضها عليها ·

ومع استمرار القتال وانعقاد مؤتمري القمة في الرياض والقاهرة ، ابدت اجهزة الاعلام الاميركي ارتياحها لنتائج المؤتمرين وقراراتهما ، واعتبرتها مدخلا معقولا لحل الازمة وتهدئة الوضع بضمانات الدول العربية عامة ، والدول العربية المعتدلة بشكل خاص ·

ويلاحظ ان الاعلام كان يؤكد خلال مختلف المراحل على نقاط اربع لم يتوقف عن ترددها وهي :

١ ـ ان الولايات المتحدة لم تشارك في صنع الاحداث ، ولم تكن وراء التخطيط لها · مع ان كل الدلائل تشيرالى ان المخطط كان يستهدف ضرب المقاومة كمدخل لتطبيق السلام الاميركي في المنطقة ·

٢ ـ ان الخسارة الكبيرة التي اصابت لبنان تتطلب بذل الجهد لاعادة تعمير البلد المدمر · وان اميركا مستعدة للمشاركة في هذا الجهد عن طريق تقديم المساعدات المالية والطبية والغذائية و « الانسانية » بشكل عام ·

٣ ـ ان الصراع في لبنان يؤثر على حل ازمة الشرق الاوسط ، وان تهدئة الاوضاع ستؤدي بالضرورة الى تحريك الحل الشامل في المنطقة بدءا من مطلع العام ١٩٧٧ سواء تم هذا الحل في جنيف ام بأساليب اخرى ·

٤ ـ ان الولايات المتحدة ستعمل ما في وسعهالحل الازمة اللبنانية واضعة نصب عينيها ان اي حل ، مهما كان شكله ، ينبغي ان لا يؤثر على امن اسرائيل الذي يبقي قضية فوق كل القضايا ، واهم من جميع الاعتبارات ·

سلمى حدّاد

١٩٧٦/١١/١

تقـــريـــر :

سفينة التجسس "ليبرتي"
مثال للتواطؤ الاميركي - الاسرائيلي

تحتل★ العلاقة العضوية بين الامبريالية الاميركية وقاعدتها المتقدمة اسرائيل مكانا هاما في السياسة الامنية الاسرائيلية . وهي عامل لا يمكن تجاهله عند بحث الصراعات بين الدول العربية والدولة الصهيونية ، نظرا لانه يؤثر على موازين القوى بشكل مباشر وغير مباشر ، او عند التخطيط لاية مجابهة مع اسرائيل ، لان تناسي عامل الدعم الاميركي عند التخطيط لاي حرب عربية – اسرائيلية ، وعدم الاستعداد لمجابهة الاحتمالات التي تنجم عنه ، يعني في النهاية عدم فهم حقيقة الصراع العربي – الاسرائيلي كجزء من صراع حركة التحرر الوطني العربية ضد الامبريالية العالمية ، ويؤدي الى تعرض المعسكر العربي لمفاجآت لم يحسب حسابها .

ويأخذ الدعم الاميركي للعسكرية الاسرائيلية اكثر من شكل ويتمثل بما تقدمه الادارة الاميركية من اسلحة وذخائر متطورة ، ومعدات للحرب الالكترونية ، ومعلومات مستقاة من مختلف المصادر ويشتى الوسائل بما في ذلك الاقمار الاصطناعية وسفن التجسس . وتقدم حادثة سفينة التجسس الاميركية «ليبرتي» مثالا للدعم العسكري الاميركي غير المباشر ، ودليلا على مدى تواطوء واشنطن مع حكام اسرائيل ، واستعداد الادارة الاميركية للتضحية بمصالح الولايات المتحدة وسمعتها من اجل ارضاء اسرائيل والصهيونية العالمية .

كانت « ليبرتي » واحدة من عدة سفن شحن اميركية بنيت في اواخر الاربعينات . ونظرا لسرعتها القصوى التي تبلغ ١٨ عقدة بحرية في الساعة ، فقد قامت البحرية الاميركية بتحويلها الى سفينة تجسس ، وزودتها بالهوائيات اللازمة وبجهاز تنصت الكتروني من طراز « بيغ اير » BIG EAR

وغدا مجال قوة مراقبتها وتنصتها على الاتصالات اللاسلكية يغطي دائرة نصف قطرها ٥٠٠ ميل . وكان طاقمها يضم ١٥ ضابطا ، و٢٧٩ بحارا ، وثلاثة مدنيين فنيين من وزارة الدفاع الاميركية . وكانت هذه السفينة تابعة للاسطول الاميركي السادس . ولقد دفعها قائد الاسطول الى شرقي البحر

★ المعلومات في هذا المقال مأخوذة عن مجلة PENTHOUSE تاريخ ايار ١٩٧٦ وحزيران ١٩٧٦ .

الابيض المتوسط في ايار ١٩٦٧ ،عندما توتر الوضع في الشرق الاوسط وغـدا اندلاع القتال بين العـرب واسرائيـل محتملا ٠

وفي صباح الخامس من حزيـران ١٩٦٧ ، كانت « ليبرتي » تقف في المياه الدولية مقابل ساحل سيناء ، وتباشـر اعمالها لتنفيذ اربع مهمـات : ١) مراقبة تحركات الاسطول السوفياتـي وانـذار الاسطول السادس الاميركي في حالـة تدخله لصالح مصر ، ٢) التشويش على الاتصالات اللاسلكية للقوات المصريـة العاملة في سيناء ، ٣) مراقبـة سير العمليات الحربية واعـلام واشنطن اذا تدهور الوضع ضد مصلحة اسرائيل، ٤) مراقبة مدى التزام اسرائيل بالخـطة العسكرية التي وضعتها الدولة الصهيونية بالاتفاق مع اميركا لتسديد ضربة سريعة ومحدودة للقوات المصرية (بصورة لا تؤدي الى استفزاز السوفيات ولا تمنحهم فرصـة التدخل) بغية تدميـر الجيش المصري في سيناء ، وهز النظام المصري بشكل يؤدي الى سقوط الرئيـس عبـد الناصر الذي اصبح يشكل خطرا عـلى المصالح الاميركية بسبب تحالفه مـع السوفيات ، ومهاجمته المستمرة للانظمـة العربية التقليدية ، وتحريضه المستمـر ضد النفوذ الامبريالي في الـدول العربية ودول العالم الثالث ، واتسـاع هيبته عربيا وعالميا ، وتوسيع نشـاط عمل قواته المسلحة خارج مصر ٠ وتدعي المصادر الاميركية ان الخطة كانت تنـص على عـدم فتح جبهات اخـرى غيـر جبهة سيناء ، عـلى اعتبـار ان تسديـد الضربة المحدودة الى مصر سيؤثر عـلى جميع الدول العربية الراديكالية الاخـرى (وخاصة سورية) ويجعـل بالامكـان اخضاعـها للسيطرة الاميركية ، كما ان من الضروري عـدم تسديد اية ضربـة الى القوات الاردنية حرصاً على صداقة الملك حسين وعدم تعريض العلاقـات الاردنية ــ الاميركية لنكسة خـطرة ٠

ولكن اسرائيل التي حصلت عـلى الضوء الاخضـر من اميركا ، ارادت استغـلال الوضع وتسديد ضربة الـى سورية والاردن ، تؤمن لها تطبيـق سياستها التوسعـية ٠ ولتحقيق هـذا الغرض كان عـليها دفع الاردن الـى القيام بعمليات هجومية ، واقناع الزعماء العرب بأن المعركة تسير في سيناء لصالح الجيش المصري ، ودفعهم الى اطـلاق تصريحات هجومية تستغلها اسرائيـل عالميا للظهور بمظهـر المعتدى عليـه ، الامر الذي يبرر عملياتها الهجومية على الاردن وسورية ، ويظهرها وكانها هجمـات معاكسة للدفاع عن النفس ٠

لهذا كله كانت محطة الخداع اللاسلكي الاسرائيلية RELAY STATION تلتقط الرسائل اللاسلكية المتبادلة بيـن الزعماء العرب وتعيد بثها بعد تحويرهـا (عملية طبخ الرسائـل اللاسلكيـة) حتى توحي للزعماء العرب بان العمليات العسكرية على جبهات القتال تجـري لصالحهم ٠ ففي اليوم الاول للحـرب (٦/٥) ارسلت القاهرة رسالة لاسلكيـة الى عمان ودمشق تتحدث فيهـا عـن خطورة الوضع عـلى الجبهة المصرية ، فاعترضت محطة الخداع اللاسلكـي الاسرائيلية هذه الرسالة واعـادت بثـها

بعد ان صاغتها بكلمات اخرى تفيد بان سلاح الجو الاسرائيلي قد دمر فوق القاهرة ، وان الطائرات التي يراها الرادار الاردني ليست سوى طائرات مصرية تغير على الاهداف الاسرائيلية، مع انها كانت في الحقيقة طائرات اسرائيلية عائدة الى قواعدها بعد ضرب المطارات المصرية ٠ وفي يومي ٦و٧ حزيران (يونيو) قامت محطة الخداع اللاسلكي بتضليل الملك الاردني بان زودته بمعلومات تؤكد ان الجيش المصري يقوم بهجوم معاكس في سيناء وانه بحاجة الى مساعدة من الجيش الاردني على شكل هجوم واسع ضد المواقع الاسرائيلية ٠ الامر الذي دفع الملك الى تبني خطة هجومية تستهدف قطع اسرائيل الى جزئين منفصلين ٠ وفي الوقت نفسه كانت محطة الخداع اللاسلكي ترسل الى المصريين برقيات تؤكد ان الاردنيين يحققون نجاحات عسكرية كبيرة في المواقع الاسرائيلية ٠ الامر الذي جعل المصريين يؤخرون سحب قواتهم الى الضفة الشرقية لقناة السويس ٠

ولكن « ليبرتي » كانت تراقب المعركة عن كثب ، وتحدد الموقف الصحيح بدقة وتكشف دور محطة الخداع اللاسلكي الاسرائيلية في تطور الاحداث بشكل يخالف الخطة ، وترسل تقاريرها تباعا الى لجنة الامن القومي الاميركية ٠ وازاء هذا التطور الغريب لسير العمليات العسكرية ، قام « اوجين روستوف » من الادارة الاميركية باستدعاء السفير الاسرائيلي في واشنطن « ابراهام هارمان » في مساء ٦/٧ وطلب منه ان يخبر حكومته بضرورة البقاء ضمن اطار الخطة ، وخاصة بالنسبة الى الاردن ٠ وعندما ادعى « هارمان » ان اسرائيل تقوم بصد الهجوم العربي عليها ، واكد ذلك بما تقوله اجهزة الاعلام العربية ، افهمه « روستوف » بان هذا ناجم عن خطة الخداع اللاسلكي الاسرائيلية ،دون ان يعلمه بان « ليبرتي » هي التي كشفت ذلك ٠ وبعد ٤ ساعات من هذه المقابلة ، صدرت الاوامر الى الطيران الاسرائيلي بوجود سفينة تجسس اميركية تعمل في المياه الدولية مقابل سيناء ، وضرورة مراقبتها ٠ ولقد وجد الاسرائيليون ان تدمير «ليبرتي» امر ضروري وحيوي جدا لان استمرار وجودها في مياه البحر الابيض المتوسط سوف يفسد عليهم مخططهم ، ويكشف مدى تجاوزهم لاغراض الحرب المحدودة المتفق عليها سلفا ٠ فاعطت القيادة الاسرائيلية الاوامر بتدمير السفينة بشكل يدفع الاميركيين الى اتهام المصريين او السوفيات ، ويجعل الموقف الاميركي ـ الاسرائيلي اشد تماسكا ٠

وفي الساعة ١٤،١٠ من يوم ٦/٨/١٩٦٧ قامت ٣ طائرات ميراج اسرائيلية بمهاجمة السفينة « ليبرتي » ٠ وطبقت خلال ذلك اسلوب الهجمات المتقاطعة CRISS-CROSS ATTACKS التي تدوم الواحدة منها ٥ـ٦ دقائق ، فدب الذعر في قلوب البحارة الذين فوجئوا بهذا الهجوم ، واصيبت السفينة اصابات مباشرة ، فتدمر مركز مراقبتها ،وتحطمت ميمنتها ، واصيب بعض ضباطها وبحارتها ٠

وعندما تعذر على قائد السفينة الكوماندر « ماك غونغل » تحديد هوية الطائرات المغيرة ، طلب من الملازم « موريس بنت » ان ينقل على الفور تقريرا الى رئيس العمليات البحرية الاميركية يعلمه فيه ان السفينة تتعرض لهجوم من طائرات مجهولة الهوية ، ويطلب منه المساعدة الفورية · وبعد أن رأى تصميم الطائرات المغيرة على تدمير السفينة ، وخشية أن لا يصل التقرير اللاسلكي الى رئيس العمليات البحرية الاميركية بسبب الدمار الكامل الذي حل بهوائيات السفينة للاتصالات اللاسلكية ، قرر الكوماندر أن يرسل رسالة استغاثة دولية تبث على جميع الاقنية طالبا المساعدة الفورية ·

وما ان توقفت الهجمة الجوية ، حتى ظهرت في الساعة ١٤،٢٤ ثلاثة زوارق طوربيد تتجه نحو الجانب الايمن للسفينة بسرعة ٢٧ـ٣٠ عقدة بحرية · وامام هذا الخطر امر «ماك غونغل» برفع الراية الرسمية للسفينة بعد ان سقط العلم الاميركي عن ظهرها اثر الغارة الجوية ، وكان طول الراية ١٣ قدما وعرضها ٧ اقدام ، وهي اكبر راية موجودة ، لعلها توضح للمهاجمين هوية السفينة الاميركية وتدرأ بالتالي خطر الهجوم بالطوربيدات ، كما حاول ارسال اشارات ضوئية من مصباح الديس ، حيث يمكن مشاهدته عن بعد ٢٠٠٠ متر ، حتى يعلن بواسطته جنسية السفينة ، علما بان جهاز بث الاشارات الضوئية على « ليبرتي » كان قد دمر اثناء الغارة الجوية · وكانت وسائط دفاع « ليبرتي » عبارة عن مدفعي رشاش عيار (٥٠) من نوع براوننغ ، واحد في مقدمة السفينة والثاني في مؤخرتها ، ففتح هذان المدفعان النار على الزوارق المندفعة باتجاه السفينة ، لكن سرعان ما امطرت الزوارق الاسرائيلية « ليبرتي » بوابل من النيران ، فقتلت سدنة المدفعين وبعض البحارة ·

وفي الساعة ١٤ر٣٥ اصاب السفينة طوربيد في جانبها الايمن وتحت خط عومها ببضعة أمتار ، فاهتزت من شدة الانفجار الذي فتح فيها فجوة بلغ اقصى عرض فيها حوالي ٣٩ قدما · وتسبب هذا الطوربيد بمقتل ٢٥ شخصا كانوا في غرفة الاتصالات اللاسلكية الواقعة تحت ظهر السفينة ، وكان بين القتلى « الميجر» وهو الشخص المسؤول عن تحليل الشيفره التي كانت تلتقطها السفينة ثم تبثها للقيادة الاميركية ، وعن المراقبة الرادارية ، وعن كل ما يمت بصلة الى مهمة « ليبرتي » التجسسية · كما قتل ايضا الاخصائي في الاتصالات اللاسلكية· وتوقفت « ليبرتي » اثر هذه الضربة عاجزة عن اية حركة ، وكان ذلك في الساعة ١٤ر٣٦ · عندما اوقفت الزوارق الاسرائيلية الهجوم ، ووقفت في وضع المراقبة على بعد اقل من نصف ميل من السفينة ·

وبعد نصف ساعة من هذا الهجوم البحري على السفينة ، حلقت فوقها طائرتا هليوكوبتر اسرائيليتان ، وصدر عن مكبر الصوت في احداها نداء يقول ان معهما اسعافات طبية مع مسعفين والملحق العسكري من سفارة الولايات المتحدة الاميركية في تل ابيب ، لكن «ماك غونغل » رفض قبول المساعدة ،فانصرفت الطائرتان ·

وبدأ فريق اصلاح الاضرار في السفينة يعمل في سباق مع الزمن ،واخذ يسد الفجوات في الهيكل ، وقام المهندسون باصلاح المحركات · وفي الساعة ١٥،١٩ نجح المهندسون في تشغيل المحركات من جديد ، ولكنهم عجزوا عن اصلاح جهاز التوجيه · واصر الكوماندر على السير بالسفينة نحو اي مرفأ صديق · فوضع بعض البحارة على الدفة خلف غرفة التوجيه، واخذ يصدر اليهم الاوامر بالهاتف ليتمكنوا من توجيه السفينة يدويا · وكان « ماكغونغل » يعمل رغم جرحه البليغ، ويراقب الاثر الذي تتركه السفينة على سطح الماء ليتاكد من خط العوم ، ويتابع التقدم مبتعدا عن القطع البحرية الاسرائيلية ·

وشعرت القيادة الاسرائيلية بالقلق ، لان « ليبرتي » لم تغرق رغم اصابتها بشكل مباشر · الامر الذي قد يؤدي الى كشف هوية المهاجمين · لذا قررت اغراقهما باية وسيلة ، فارسلت في الساعة ١٦ر٦٥ طائرتي ميراج بهدف الانتهاء كليا من « ليبرتي » ، وما ان وصلت المقاتلتان الاسرائيليتان بالقرب من السفينة حتى انسحبتا خوفا من الصدام مع المقاتلات النفاثة الاميركية التي انطلقت من حاملتي الطائرات الاميركيتين « ساراتوغا » و « اميركا » بعد وصول نداء الاستغاثة اليهما · وكانت الحاملتان على بعد ٦٠٠ ميل شمال غربي مكان الحادث · وحوالي الساعة ١٨ر٤٥ حامت طائرة هليوكوبتر اسرائيلية فوق السفينة وحاول احد الاشخاص ان ينزل الى ظهر السفينة بواسطة سلم ، ولكن «ماك غونغل » منعه من ذلك · وتكرر المنع عندما عادت الطائرة بعد ١٠ دقائق تقريبا ·

وفي ٦/١٤ وصلت « ليبرتي» الى ميناء «فاليتا » في جزيرة « مالطة » تواكبها المدمرة « يو·س·س· دافيز » وقاطرة بحرية من الاسطول السادس ، وتحرسها دوريات الطائرات الاميركية المنطلقة من حاملتي الطائرات · وقطعت الرحلة بقوة محركاتها المصلحة (اصلحت السفينة بعد ذلك جزئيا وعادت الى الولايات المتحدة في اواسط تموز ١٩٦٧ · ثم شطبت من الخدمة الفعلية لتعذر اصلاحها ، وبيعت في العام ١٩٧٤ كسفينة مستهلكة) ·

ولم تشرح قيادة الاركان البحرية الاميركية اسباب هذا الهجوم على «ليبرتي» ، والذي تسبب بمقتل ٣٤ اميركيا وجرح ١٦٤ من بينهم قائد السفينة ·وادعى الاسرائيليون ان الهجوم كان نتيجة الخطأ في تحديد هوية السفينة· وقبلت الادارة الاميركية علنا هذا الادعاء ، رغم ان العلم الاميركي البالغ طوله ٨ اقدام وعرضه ٥ اقدام كان يرفرف فوق ظهر السفينة في وضح النهار ، كما ان اسم السفينة كان مطبوعا بشكل كبير وجلي على مؤخرتها ، بالاضافة الى ان كلمات « بحرية الولايات المتحدة الاميركية » كانت مكتوبة بحروف كبيرة ظاهرة للعيان على جانبي السفينة · وكان بوسع طائرات الاستطلاع الاسرائيلية من طراز «ميستير» التي تحمل الات تصوير متطورة، كشف هوية اية سفينة بكل سهولة وعلى ارتفاع يزيد عن ثلاثة اميال ، وهي المسافة التي كانت تفصل هذه الطائرات عن « ليبرتي» ·

ولم تجد الحكومة الاميركية خيارا سوى مساعدة الاسرائيليين على لفلفة الحادث باكمله ، وقد تمثل تواطؤ الحكومة الاميركية معحكومة اسرائيل بالمجهودالكبير الذي قامت به لتحبط كل محاولة تهدف الى كشف خلفيات الحادث واسبابه ، ولتعرقل كل الدعاوي القانونية التي رفعها ذوو الضحايا على حكومة الكيان الصهيوني · ووجهت الادارة الاميركية باتجاه السوفيات الغضب الذي سيطر على اعضاء لجنة العلاقات الخارجيةالاميركية عندما وصلهم خبر الهجوم (مجهول الهوية) على « ليبرتي » · فقال وزير الخارجية الاميركية انذاك « دين راسك » : «انهم الروس » ، بينما قال رئيس لجنة العلاقات الخارجية الاميركية انذاك « وليام فولبرايت » : انهم (اي الروس) صعدوا الحرب ويريدون تغيير مسارها » · وحتى بعد انكشاف الدور الاسرائيلي ، فقد فضلت الادارة الاميركية التعتيم على الموضوع ، حتى لا تستثير الرأي العام الاميركي ضدها ، وهي المتورطة في دعم الدولة الصهيونية الى ابعد مدى · واكتفت بالاشادة ببطولة قائد وبحارة « ليبرتي » ومنحهم الاوسمة والميداليات في احتفالات رسمية اغفل في الكلمات التي القيتخلالها ذكر هوية المعتدين · واكتفى بالحديث عن هجوم قامت به « طائرات نفاثة وزوارق طوربيد غريبة » ·

وفي ١١ حزيران من العام ١٩٦٧ ،قال رئيس لجنة التحقيق الاميركية في حادثة الهجوم على « ليبرتي » الادميرال « ا· ي· كيد· » عندما صعد على ظهر السفينة المهشمة التي كانت راسية في ميناء « فاليتا » ان نجاتها كانت اشبه بمعجزة وان مهمته ليست لكشف الاسباب التي ادت لهذا الخطأ في الهجوم ، بل ليسجل كيف استطاع قائد السفينة وبحارتها الافلات من براثن الموت المحتم · ويقول الموظف السابق في الاستخبارات الاميركية « باتريك ماك غارفي » الذي كان ينسق تقارير الاستخبارات لقيادة الاركانالمشتركة الاميركية عند اندلاع الحرب العربية ـ الاسرائيلية الثالثة، انه صدر امر للطيران الاميركي بضرب قاعدة زوارق الطوربيد الاسرائيلية في حيفا ، لكنسرعان ماالغى البيت الابيض هذا الامر ·

وتكملة لخطة طمس كل ما يتعلق بقضية « ليبرتي » وطمس كل ما يمكن ان يؤدي الى كشف الدور المتواطىء للادارة الاميركية ، فان الحكومة الاميركية رفضت ان تعطي تفسيرا معقولا لسبب ضياعثلاث رسائل انذار موجهة من قيادة الاركان الاميركية المشتركة الى « ليبرتي » تخطرها فيها بخطورة موقفها ، وتطلب منها الانسحاب الفوري والالتجاء الى الاسطول السادس الاميركي ، ولماذا لم تتدخل ادارة الرئيس الاميركي انذاك « ليندون جونسون » وعلى اعلى المستويات مع الحكومة الاسرائيلية للحؤول دون مهاجمة السفينة ، بعد معرفة الادارة الاميركية ان الاسرائيليين بصدد القيام بعمل عسكري عدائي ضد « ليبرتي » ·

وكانت رسالة الانذار الاولى تحمل طابع الاولوية القصوى · وقد بثتلاسلكيا من خلال محطة لقط وارسال تابعة للمخابرات المركزية الاميركية الموجودةفي

« اسمرة » في « اثيوبيا » ، الا ان هـــذه الرسالة لم تصل « ليبرتي » في الساعـــة التاسعة من صباح يوم ٨ حزيران ١٩٦٧ ، كما كان مقررا لهـــا ، وضلت طريقها ، والتقطتها محطة اللقط والارسال الاميركية الموجودة فيخليج «سوبيك» في «الفيليبين» وانتهت بعد ساعات في دائرة الامن القومي الاميركي في « فورت مياد «FORT MEADE

وفي الساعة ١٧ر١١ من اليوم نفسه أمر قائد الاسطول السادس الاميركي سفينـة القيادة « ليتل روك »ان ترسل رسالة ثانية اتية من قيادة الاركان الاميركية المشتركة الى « ليبرتي » تعلم قائدها بالهجـــوم الاسرائيلي المرتقب على سفينته ، وارسلت هذه الرسالة الى « اسمرة » لترسل منها الى « ليبرتي » ، ولكن هذه الرسالة ضلت طريقها ايضا ، والتقطتها محطة اللقـــط والارسال التابعة لوكالة المخابـــــرات المركزية في « الرباط » ، وانتهت ايضا في ادراج « فورت مياد » ٠ اما الرسالـــــة الثالثة فقد ارسلت في الساعـــة ١٤،١٠ وقبل ثوان من الهجوم الاسرائيلي عـــن طريق محطـــة الارسال الاميركيـــة في « نابولي » ، فضلت طريقها والتقطتهـــا محطة خليج « سوبيك في « الفيليبيـــن » والرسالة الوحيدة التي التقطت كانت فـــي الحقيقة رسالة الاستغاثة الدولية التـــي بثتها « ليبرتي » على جميع الاقنية ،والتي وصلت بعد فوات الاوان الى الاسطـــول السادس الاميركي ٠

وبفضل هذه الرسالة تم انقاذ «ليبرتي» من هلاك محتم ، كما تم كشف المعتدين ، ولم يعد بالامكان القاء تبعة الحادث على عاتق القاهرة او موسكو ٠ وكان مـــن الممكن ان يؤدي هذا الكشف الـــى اتخاذ تدابير اميركية شديدة ضد دولة الكيـــان الصهيوني ، ولكـــن التواطؤ الاميركي ـ الاسرائيلي في حرب ١٩٦٧ كان في نظـر الادارة الاميركية ، اهـــــم من ارواح الاميركيين واغلى من ممتلكات الحكومـة الاميركية وسمعتها ٠

يوسف خضر

الحزب الشيوعي الفلسطيني وهبة البراق

شريف ماهر

ان ما يميز معظم الدراسات والابحاث التي تطرقت لتاريخ الحزب الشيوعي في فلسطين انها قد صدرت اما عن اعداء طبقيين للحزب او عن عناصر تنكرت لماضيه الثوري وارتدت عليه ، فكان هدفها بالتالي تشويه نضالات ومواقف الحزب وتلطيخ سمعة مئات من الشيوعيين العرب واليهود الذين قدموا حياتهم في النضالات الطبقية والمعادية للامبريالية والصهيونية ، في سبيل التحرر القومي والاجتماعي ٠

ومع ان عددا كبيرا من هذه الدراسات قد كتب من وجهة نظر صهيونية معلنة ، الا ان بعض الباحثين العرب الذين تطرقوا لهذا الموضوع ، قد تأثروا بوجهات نظر كاتبيها وتبنوا عدداً من اطروحاتهم ، مدفوعين في ذلك بدوافع طبقية معادية للحزب ، او لاتباع السهولة في البحث وعدم التدقيق الجدي بالمصادر التي تم الاعتماد عليها (١) ٠

لقد كان موقف الحزب الشيوعي الفلسطيني من هبة البراق في العام ١٩٢٩ ، مناسبة فضلى لتشويه مواقف الحزب ، خاصة وان حوادث هذه الهبة قد جرت في ظروف خاصة معقدة ، تداخل فيها العامل الديني بالعوامل القومية والاجتماعية ، في وقت كان الحزب فيه يعاني من ازمة داخلية حادة نتيجة الصراع الدائر بين التيار الثوري من جهة والتيار اليميني الانهزامي من جهة اخرى ، وكانت قيادته انذاك لا تزال مقتصرة على العناصر اليهودية (٢) ٠

يستعرض « جوزيف برغر » (٣) في مقاله « القطيعة مع الشيوعيين » (٤) موقف الحزب الشيوعي الفلسطيني من حوادث اب في العام١٩٢٩ فيذكر : «لقد احدثت اصطدامات يوم الجمعة في ٢٣ اب بلبلة شديدة في صفوف الحزب ، فالحوادث بدأت تتحول الى مذابح عنصرية ضد اليهود ٠٠٠ حينئذ قررت قيادة الحزب أن يلتحق أعضاء الحزب واعضاء الكتلة العمالية بصفوف منظمة الدفاع الذاتي تحت قيادة الهاجانا ، وذلك للمساهمة

بالدفاع عن الاحياء اليهودية » . ويستطرد « ج · برغر » بان هذا القرار « الذي فرضته الاحداث كان طبيعيا جدا ، حيث حاز على اجماع اعضاء سكرتارية اللجنة المركزية للحزب ، وعلى موافقة مبعوث الاممية الشيوعية الذي كان يزور فلسطين آنذاك » ·(٥)

ان هدف هذا البحث هو دحض وتعرية هذه الاكاذيب التي يختلقها « جوزيف برغر » حول موقف الحزب الشيوعي الفلسطيني من حوادث اب في العام ١٩٢٩ ، واظهار حقيقة موقف الحزب من هذه الحوادث ، هذا الموقف الذي عبر عنه الدكتور « اميل توما » بقوله : « ان حوادث اب لم تكن مجرد اصطدامات بين عرب ويهود ، بل كانت جوهريا هبة جماهيرية في وجه الادارة البريطانية الامبريالية (···) وهذا ما جعل الشيوعيين اليهود والعرب يقومون الحوادث بغض النظر عن سلبية بعض مظاهرها والمآسي التي سببتها . انتفاضة قومية معادية للامبريالية والصهيونية في جوهرها ·· وهذا التقويم انزل عليهم غضب القيادةالصهيونية وحقدها فاتهمتهم « بالعمالة » للاممية الثالثة وموسكو » · (٦)

ان دحض افتراءات واكاذيب « ج · برغر » ، حول موقف مبعوث الاممية الشيوعية من حوادث اب الدامية في فلسطين ، يمكن ان يتم بسهولة من خلال مراجعة المقال الذي كتبه هذا المبعوث بعد عودته الى موسكو مباشرة ، والذي يعبر فيه عن حقيقة موقف قيادة الاممية من حوادث فلسطين آنذاك · تحت عنوان « لننتبه اكثر الى حوادث فلسطين والبلدان العربية » (٧) كتب « شميرال » : « لقد كانت الايام الدامية في القدس بمثابة الانفجار الاول للطاقات الثورية الكبرى المعادية للامبريالية والمتراكمة في نفوس جماهير الفلاحين والبدو ·· ولم تكن هذه الحوادث الدامية الا بمثابة نقطة الانطلاق لحركة كبرى في (هذه) الاراضي ذات الاهمية الكبرى (ويقصد فلسطين والبلاد العربية م · ش)· لهذا يجب على الطبقة العاملة العالمية ومنظماتها (احزابها ، صحفها ، النجدة الحمراء العالمية، وبشكل خاص الحزب الشيوعي الانكليزي) ان تتابع هذه الحوادث وان تدعم التطور اللاحق لهذه الحركة ··

ان من واجب حركة القوى المتحدة للفلاحين والبدو العرب ان تتطور في اتجاه نضالي ثوري حقيقي ، ضد الامبريالية ومن اجل الثورة الزراعية · ويجب السعي لعدم تكرار المحاولة التي جربها الرجعيون الانكليز والصهاينة والعرب في الايام الاولى من الحوادث التي جرت في القدس ،بحرف الهيجان الثوري عن هدفه ، بافتعال معارك دينية حمقاء ·· وليس للعمال اليهود (جاءت بالنص العرب ، وهذا يعود لخطأ مطبعي حسب اعتقادنا · م · ش) اي مصلحة بان تتعارض مصالحهم مع مصالح الغالبية من الجماهير الفلاحية العربية ، فلقد خدعوا هم ايضا بنفاق الامبريالية الانكليزية ، واستغلوا وعوملوا مثلهم معاملة قاسية ··· وسيتحول نضالهم (اي الفلاحين العرب م · ش) الى ثورة معادية للامبريالية ··· وامام هذا التوجه للاحداث وبسبب الاهمية الخاصة للاراضي العربية ، يجب ان يتزايد الانتباه الاممي لتطور هذه الاحداث ، ويجب ان يتضاعف دعم النضال التحرري الكبير للبلدان العربية ، وذلك بكافة وسائل التضامن الاممي (وليس بالتضامن السياسي وحده) »

* *

لقد اعتمدنا في انجاز هذا البحث على مادة وثائقية حية وموثوق بها تاريخيا ، هي مجموعة المقالات التي ظهرت على صفحات مجلة « المراسلات الصحفية الدولية » ، (٨) وتعرضت لاوضاع الحزب الشيوعي ولظروف النضال القومي والاجتماعي في فلسطين ، خلال الفترة التاريخية التي نحن بصدد دراستها · ويمكننا اعتبار هذه المقالات بمثابة تقارير دورية تعكس مواقف قيادة الحزب من تطور الاحداث المحلية والعالمية · (٩)

لقد كان الحزب الشيوعي في فلسطين فرعا وطنيا من فروع الاممية الشيوعية ، يناضل في سبيل تطبيق استراتيجية وتكتيك الحركة الشيوعية العالمية على الظروف الخاصة السائدة في فلسطين · ولهذا فان تحليل اي موقف من مواقف الحزب الشيوعي الفلسطيني تحليلا موضوعيا ، لا يمكن ان يتم بمعزل عن توجهات الاممية الشيوعية وعن الظروف التي كانت تسود في فلسطين خلال الفترة التاريخية التي نحن بصددها ·

لقد كان موقف الحزب الشيوعي الفلسطيني من هبة البراق محكوما بثلاثة عوامل رئيسية ، لا بد من التطرق اليها قبل استعراض موقف الحزب بحد ذاته من الاحداث الدامية في العام ١٩٢٩ ، وهذه العوامل هي :

١ ـ المؤتمر العالمي السادس للاممية الشيوعية ·

٢ ـ خصوصيات الاوضاع في فلسطين قبل اندلاع الحوادث ·

٣ ـ الاوضاع الذاتية للحزب خلال تلك الفترة ·



١ ـ المؤتمر العالمي السادس للاممية الشيوعية · (١٠)

انعقد المؤتمر العالمي السادس في موسكو خلال الفترة الواقعة بين ١٧ تموز و ١ ايلول العام ١٩٢٨ · (١١) وقد انعقد هذا المؤتمر في ظروف خاصة تميزت بتعزيز عملية البناء الاشتراكي في الاتحاد السوفياتي ، بعد ان تقرر زيادة وتيرة التصنيع الثقيل وتجميع الاراضي في الريف · وفي الوقت الذي كانت فيه تناقضات الرأسمالية تتفاقم نتيجة قانون التطور المتفاوت في عصر الامبريالية وتتزايد اخطار الحروب الامبريالية والتهديدات ضد الدولة الاشتراكية ، كانت الحركة العمالية الثورية تواصل نضالها في سبيل تعزيز مواقعها ، وتخوض صراعا حاميا ضد السياسة الاصلاحية للقيادات الاشتراكية ـ الديمقراطية العمالية ، التي كانت تقف في وجه كل تحرك عمالي جماهيري وتجهض كل المحاولات الرامية الى وضع حد لانقسام الحركة العمالية العالمية · ولقد كانت انتفاضة « كانتون » في كانون أول العام ١٩٢٧ ، التي قامت بها البروليتاريا لاقامة النظام السوفياتي في الصين ، الاشارة لبدء مرحلة نهوض ثوري جديد في البلدان المستعمرة وشبه المستعمرة ·

في مثل هذه الظروف ، توصل بعض الشيوعيين الى الاستنتاج بان مرحلة الاستقرار الجزئي للرأسمالية قد شارفت على نهايتها ، وأن انفجار أزمة النظام الرأسمالي قد باتت وشيكة ، وان الظروف قد نضجت بالتالي لتقدم العملية الثورية العالمية · وقد اعتقد هؤلاء الثوريين بانه يجب تصعيد النضال ليس فقط ضد الاحزاب البورجوازية وانما ايضا ضد الاشتراكية الديمقراطية في البلدان الرأسمالية وضد البورجوازية الوطنية في المستعمرات وشبه المستعمرات · وهكذا بدأ يتبلور داخل الاممية الشيوعية تكتيك جديد ، اطلق عليه رسميا فيما بعد اسم تكتيك « طبقة ضد طبقة » وقد انعكس هذا الاتجاه في بعض التعديلات التي اجريت على سياسة الاممية وتوجهاتها ، خلال المؤتمر العالمي السادس ، حيث تقلص شعار الجبهة العمالية المتحدة ليصبح « وسيلة لفضح وعزل القيادات الاصلاحية » في الفترات التي يتعثر فيها المد الثوري ، وطالب المؤتمر الاحزاب الشيوعية بالنضال في سبيل اقامة الجبهة المتحدة من القاعدة ، وفي سبيل اقامة ديكتاتورية البروليتاريا العالمية ·

اعلن المؤتمر ان الاتجاه العام لسياسة البورجوازية العالمية بعد انتهاء مرحلة الاستقرار الجزئي للرأسمالية هو التحضير لحرب امبريالية ضد الاتحاد السوفياتي ، وطالب الاحزاب الشيوعية بتصعيد نضالاتها ضد خطر الحرب ومن اجل حماية الاتحاد السوفياتي ، وضد تدخل الامبريالية في الصين ، والدفاع عن الثورة الصينية وعن الانتفاضات المعادية للامبريالية في المستعمرات واشباه المستعمرات ·

اشار المؤتمر الى ضرورة النضال ضد خطر الانحرافات الانتهازية في صفوف الاممية الشيوعية وحدد طبيعة هذه الانحرافات بانها اساسا (انحرافات يمينية مرتبطة بمرحلة الاستقرار الجزئي للرأسمالية وبتعاظم تأثير الاشتراكية الديمقراطية) ، وقد نوه المؤتمر الى الخطورة الكبرى لمثل هذه الانحرافات داخل الحركة الشيوعية العالمية ولضرورة محاربتها بشدة ·

اعار المؤتمر السادس انتباها خاصا لنضال الحركة المعادية للامبريالية في المستعمرات واشباه المستعمرات · وقد كان لتصاعد نضال البروليتاريا الثورية الصينية، وارتماء الفئات العليا من الكومينتانغ في أحضان الامبريالية ، اثر كبير على المقررات التي صاغها المؤتمر فيما يتعلق بنضال الحركة الثورية التحررية في المستعمرات ودور البورجوازية الوطنية داخل هذه الحركة · ومع ان الاممية الشيوعية كانت قد انتقدت الاتجاهات الانقلابية والانعزاليةداخل الحزب الشيوعي الصيني ومع ان مقررات المؤتمر السادس قد فصلت بين معسكر القومية الاصلاحية البورجوازية وبين المعسكر الاقطاعي ـ الامبريالي ، الا ان تقييم المؤتمر العام لدور البورجوازية الوطنية قد طبع بطابع انعزالي ، حيث نصت احدى مقرراته مثلا على ان « البورجوازية الوطنية لا تمثل قوة مناهضة للامبريالية » ، وانه يجب « رفض كل تحالف بين الحزب الشيوعي وبين المعارضة القومية الاصلاحية » ، الا اذا كانت تحالفات مؤقتة لا تعيق التنظيم الثوري المستقل للعمال والفلاحين · (١٢)

اشار المؤتمر الى الدور المتزايد للطبقة العاملة داخل الحركة التحررية فيالمستعمرات واشباه المستعمرات وذلك على الرغم من الصعوبات الموضوعية العديدة التي تعترض

نضالها (ارتباطها بالريف . عدم ثبات قواها . الامية . تأثير الافكار الدينيـة ٠٠٠) ٠ واعلنت مقررات المؤتمر بان الطبقة العاملة في المستعمرات قد دخلت بعد المؤتمر الخامس للاممية في مرحلة نضالية جديدة ، تتميز اساسا بظهورها على ساحة الصراع السياسي كقوة طبقية مستقلة تناضل في سبيل مصالحها الخاصة وتعارض البورجوازية الوطنية في النضال من اجل فرض هيمنتها على قيادة الثورة الوطنية ٠ وطالبت مقررات المؤتمر الاحزاب الشيوعية في البلدان المستعمرة وشبه المستعمرة بالعمل على تصعيد النضال في سبيل الثورة الزراعية ، وضد التاثيرات الرجعية لرجال الدين داخل صفوف الفلاحين ، وجاء في بعض التوصيات أن نوع الثورة الذي ينطبق على حالة الشرق يتطلب مـــن الحزب الشيوعي ، وكمهمة رئيسية ، العمل على تأليف منظمات مستقلة للعمال والفلاحين والخروج عن تأثير البورجوازية الوطنية ٠

أقر المؤتمر العالمي السادس في نهاية أعماله « برنامج الاممية الشيوعية »، الذي حدد استراتيجية وتكتيك الحركة الشيوعية العالمية خلال الفترة التاريخية التـــي ستعقـــب مؤتمرها ٠

وقد كان للمؤتمر العالمي السادس ولمقرراته ولبرنامج الاممية الصادر عنه ، انعكاس مباشر على سياسة الاحزاب الشيوعية في الشرق العربي ، ومنها الحزب الشيوعـــي الفلسطيني ، وهذا ما سنلمسه لاحقـا من خلال موقف الحزب من هبة البراق ٠

٢ ـ خصوصيات الاوضاع في فلسطين قبل اندلاع الحوادث ٠ (١٣)

يقول الدكتور « اميل توما » : « لقد التقت على التربة الفلسطينية ثـــلاث قـــوى تفاعلت فيما بينها ، كل بقدر طاقاتها ، وخلقت بصراعاتها القضية الفلسطينية :

ـ الامبريالية البريطانية ٠

ـ الحركة الصهيونية ٠

ـ الحركة القومية العربية » ٠

ان التعرف على خصوصيات الاوضاع السائدة في فلسطين قبل اندلاع الحـــوادث يتطلب ضرورة التعرف على الملامح الرئيسية لكل قوة من هذه القوى الثلاث التي كانت تتفاعل وتتصارع على الارض الفلسطينية ٠

ولنبدأ بالامبريالية البريطانية : لقد كان القضاء على الانتفاضة السورية في العام ١٩٢٧ ، الذي ترافق مع هزيمة الثورة الصينية حافزا دفع الامبرياليتيـــن الفرنسيـــة والانكليزية لتشديد سياستيهما العدوانيتين في الشرق الاوسط ٠ وقد تابعت الحكومـــة العمالية الانكليزية التي استلمت السلطة في بداية العام ١٩٢٩ برئاسة « رمزي ماكدونالد» نفس السياسة الامبريالية العدوانية التي كانت تنتهجها حكومة المحافظيــن في البلدان

المستعمرة او التابعة لنظام الانتداب . وفي فلسطين ، كانت سياسة حكومة حزب العمال اكثر ضراوة من سياسة المحافظين . فبعد ان انتقد نواب حزب العمال ، خلال مناقشات البرلمان حول قضية المستعمرات ، ادارة فلسطين لانها لم تتحرك بصورة جذرية ضد السكان العرب المحليين ، ولم تستخدم بشكل كاف كل السلطات التي يمنحها لها نظام الانتداب ، قررت الحكومة البريطانية تشديد سياستها الامبريالية وزيادة وزن الموظفين الانكليز في اجهزة ادارة فلسطين . وفي سبيل تدعيم مواقعها على الضفة الاخرى من قناة السويس ـ فلسطين ـ خاصة بعد توقيع معاهدة هندرسون مع الحكومة المصرية ، وبسبب حاجتها الى مبرر معقول لزيادة تواجدها العسكري في فلسطين ، لتبرير النفقات الهائلة التي سيكلفها ذلك امام الجماهير العمالية في انكلترا ، سعت الحكومة العمالية كل جهدها لتأجيج التناحر الديني والعنصري بين السكان العرب واليهود في فلسطين . « فحماية اليهود » من المذابح يمكن ان يكون المبرر المعقول لتقوية التواجد العسكري في فلسطين في الوقت الذي بدأت فيه الامبريالية البريطانية تحس بعدم ثبات مواقعها في مصر .

من جهة اخرى ، كان تململ البورجوازية الصهيونية والحاحها على بريطانيا لتنفيذ التزاماتها (وعد بلفور) ، وبدء تقاربها مع الراسمالية الاميركية ، الحافز الذي دفع الحكومة العمالية لتسهيل عملية اقامة « الوطن القومي اليهودي » في فلسطين .

ـ الحركة الصهيونية : في منتصف العام ١٩٢٨ توقفت حركة الانحدار في الهجرة اليهودية الى فلسطين ، التي كانت قد رافقت فترة « الهدوء » التي امتدت بين ١٩٢٥ و ١٩٢٨ ، والتي تميزت بهبوط حدة الخوف العربي من « الوطن القومي اليهودي » نتيجة الازمة التي انتابته . وقد ترافق تزايد الهجرة اليهودية الى فلسطين (١٥٠ الف في منتصف العام ١٩٢٨) ، مع تضاعف مساحة الملكيات اليهودية في الاراضي حيث وصلت هذه المساحة الى حوالي المليون دونم في العام ١٩٢٨ .

من جهة اخرى ، تابعت القيادة الصهيونية ممارسة سياستها الشوفينية والعدوانية الرامية الى « احتلال العمل » ، و « احتلال الارض » . وهكذا اسهمت الصهيونية في تفاقم ازمة البطالة بين العمال العرب وفي زيادة عدد الفلاحين العرب المعدمين الذين وصل عددهم خلال هذه الفترة الى ٢٩،٤ ٪ من الفلاحين ـ حسب بيان الحكومة البريطانية في العام ١٩٣٠ ـ . ولتنفيذ ماربها تابعت القيادة الصهيونية سعيها لمنع اي تقارب بين الجماهير الكادحة من العرب واليهود ، وحاربت كل الجهود التي كان يبذلها الشيوعيون في سبيل التآخي الاممي بين العمال العرب واليهود .

وكان ابرز حدث في حياة الحركة الصهيونية خلال هذه الفترة قيام الوكالة اليهودية في العام ١٩٢٩ . وكان القصد من قيامها استنفار يهود العالم لمد يد المعونة لإقامة « الوطن القومي اليهودي » في فلسطين . وقد استفز قيام هذه الوكالة مشاعر محافل واسعة من الشعب العربي الفلسطيني .

لقد كانت بعض الدوائر الصهيونية تفكر بأن نشوب نزاع ذي طابع ديني بين اليهود

والمسلمين قد يثير اهتمام قطاعات واسعة من اليهود ، خاصة في خارج فلسطين ، ويحفزهم على زيادة دعمهم المادي وعلى الهجرة • وهكذا بدأت هذه الدوائر تفكر جديا باستفزاز مشاعر المسلمين الدينية •

الحركة القومية العربية : خلال هذه الفترة كانت القيادات الاقطاعية ـ الدينية لا تزال تحتل المواقع الرئيسية في قيادة الحركة القومية العربية ، ولم تكن البورجوازية الصناعية العربية ، قد وصلت الى مركز الحسم في القيادة القومية • ولقد استغلت الامبريالية البريطانية هذا الواقع ـ الذي ساهمت بصنعه حيث لعبت دورا هاما في توطيد مواقع مالكي الاراضي الكبار في قيادة الحركة القومية ـ لتنفيذ سياستها « فرق تسد » ، وذلك بتشديد التناحر الديني والعنصري بين السكان العرب واليهود وحرف النضال القومي المعادي للامبريالية عن طريقه الصحيح •

لقد كان ابرز حدث في حياة الحركة القومية العربية خلال هذه الفترة هو انعقاد المؤتمر الفلسطيني السابع في شهر حزيران العام ١٩٢٨ • وقد كان هذا المؤتمر الذي دل على رغبة بعض القيادات الفلسطينية بالوصول الى اتفاق مع الامبريالية على حساب الجماهير الشعبية ، من اضعف المؤتمرات العربية على الاطلاق ، حيث ساهم فيه مزيج عجيب من المندوبين يمثلون تناقضات في الرأي لا سابق لها ، شاملا ذلك من وصفهم عزت دروزة « بالجواسيس وسماسرة بيع الاراضي لليهود » وقد كاد المؤتمر يسفر عن المطالبة بحكومة وطنية في ظل الانتداب القائم • ولقد حولت الانقسامات والخصومات الشخصية بين القيادات اللجنة التنفيذية الجديدة المنتخبة عن المؤتمر الى هيئة عاجزة كل العجز •

لقد بدأت تحصل في صفوف الحركة القومية العربية خلال الفترة التي سبقت حوادث اب مباشرة ، عدة تمايزات اجتماعية ، كان أبرز مظاهرها بدء تحرك الطبقة العاملة العربية كقوة سياسية ، وذلك على الرغم من قلة عددها وضعف تنظيمها ، وقد ساهم ممثلون عن العمال العرب ولاول مرة في المؤتمر العربي السابع • وعرفت تلك الفترة عدة اضرابات عمالية عربية ، كان من اهمها اضراب عمال المخابز في القدس ، واضراب عمال شركة « مبروك » للسجائر في حيفا ، وعدة اضرابات صغيرة نظمها عمال البناء العرب •

من جهة اخرى ، كان لتصاعد حركة الاستيلاء الصهيوني على الاراضي العربية وتشريد الاف الفلاحين العرب اثر مباشر في تفاقم الازمة الاجتماعية في الريف وبروز مسألة الارض كمسألة ملحة يعاني منها اكثر من ٨٠ ٪ من السكان الزراعيين العرب • وقد شهد الريف الفلسطيني خلال هذه الفترة عدة اصطدامات بين الفلاحين العرب والمستوطنين الصهيونيين وبين الفلاحين وكبار الاقطاعيين العرب كان ابرزها الاصطدامات التي وقعت في « وادي الحوارث » وفي « عين كارم » •

٣ ـ الاوضاع الذاتية للحزب الشيوعي في فلسطين قبل اندلاع الحوادث • (١٤)

انعقد الكونفرس الثالث للحزب الشيوعي في فلسطين يومي ١ و ٢ كانون الاول

العام ١٩٢٨ ، في ظروف سرية صعبة ، وقد ساهم فيه (٢٤) مندوبا قدموا من مختلف المناطق ٠

لاحظ الكونغرس في بداية اعماله ان السلطات الامبريالية لم تتمكن من تحقيق هدفها بالقضاء على الحركة الشيوعية في فلسطين ، وان الحزب قد تابع نشاطاته « وذلك على الرغم من تفاقم سياسة الارهاب الامبريالي ليس فقط ضد اعضاء الحزب ولكن ايضا ضد اعضاء الكتلة العمالية والنجدة الحمراء (ملاحقات متواصلة ، اعتقالات ، احكام جائرة ، تهجيرات ٠٠ الخ) » ٠

ركز الكونغرس اهتمامه على قضية « خلق نواة ثورية صلبة من العمال اليهود والعرب ، واتباع اساليب تنظيمية كفيلة بترسيخ الحزب خلال النضالات الاتية » ٠ وقد ادان الكونغرس بشدة « المشاعر الانهزامية التي بدأت تظهر داخل الحزب بتأثير محيطه البورجوازي الصغير » ، وعبر المندوبون عن ثقتهم باللجنة المركزية ٠

اعلن الكونغرس ان اهم توقعات الحزب السياسية قد تأكدت خاصة فيما يتعلق « بتزايد الفقر الذي تعاني منه جماهير العمال والفلاحين واحتدام المواقف العدوانية للبورجوازية الصهيونية وتعاظم نفوذ الرجعية في البلاد ، وتنامي الفاشستية » ، وقد ادان الكونغرس السياسة « الطوباوية والخائنة » للقيادات العمالية الصهيونية ، هذه السياسة التي تركت الطبقة العاملة « عزلاء من السلاح في مواجهة المد الرجعي ، خاصة وانها لا تملك منظمة نقابية اممية قادرة على مقاومة سياسة الادارة الامبريالية والبورجوازية بصورة فعالة » ٠ وفي هذا الاتجاه هاجم الكونغرس منظمة الهستدروت « التي يسعى قادتها دوما للسلم الطبقي (بعد) ان خانوا المصالح العمالية على مذبح هيكل الصهيونية » ٠ وقد انتقد الكونغرس « المغامرة الجديدة » التي ينوي قادة الهستدروت تنفيذها والمتمثلة « بالعمل على تنظيم هجرة يهودية جديدة الى فلسطين في الوقت الذي تعاني فيه اكثر من (٦٠٠) عائلة في تل ابيب (وحدها) من آثار البطالة » ٠

اشار الكونغرس الى تنامي الاتجاه نحو التنظيم بين العمال العرب واكد على ان قضية تنظيم العمال العرب قد بدأت تحتل اهمية كبرى خاصة بعد ان اصبحت البورجوازية العربية والوجهاء « على استعداد لابرام اتفاقية طوعية مع الحكومة البريطانية تكون على حساب مصالح الفلاحين والعمال » ، وذلك بعد ان اعلنت القيادة العربية عن رغبتها « بالاعتراف بالانتداب والتعاون معه » ٠

استعرض الكونغرس في مقرراته السياسية التحضيرات التي تقوم بها الامبريالية الانكليزية لشن حرب عدوانية على الاتحاد السوفياتي ، هذه التحضيرات التي تتمثل اساسا في فلسطين « ببناء ميناء حيفا » ٠ وقد هاجم الكونغرس الحركة الصهيونية ، بما فيها الجناح اليساري « بوعالي‌تسيون » واتهمها بانها اداة الامبريالية البريطانية في عملية تحضيرها للحرب ضد الاتحاد السوفياتي ٠

استمع الكونغرس الى تقرير عن اعمال المؤتمر العالمي السادس للاممية الشيوعية ، حيث تضامن مع مقرراته وتوصياته كما حيا بصورة خاصة اقرار « برنامج الاممية الشيوعية » ، واعلن بان هذا البرنامج سيكون « هدف دراسة معمقة في كافة خلايا

الحزب » ·

انتخب الكونفرس في نهاية اعماله مجلسا حزبيا ، ليساهم في اعمال اللجنة المركزية ، كما قرر التوجه بنداء الى الطبقة العاملة يدعوها فيه « الى المجيء لتقوية صفوف الحزب » ·

لقد ذكرنا سابقا أن النضال ضد خطر الانحرافات الانتهازية اليمينية داخل الحركة الشيوعية العالمية كان محورا من محاور اعمال المؤتمر العالمي السادس للاممية الشيوعية·

وفي اعقاب المؤتمر طالبت اللجنة التنفيذية للاممية جميع الاحزاب الشيوعية بتصعيد نضالاتها ضد « خطر الانتهازية ، وتطهير صفوفها من اليمينيين وتجاوز المواقف المساومة تجاه الوسطيين » (١٥) ·

ويبدو ان المناقشات الحامية التي دارت داخل منظمات الحزب الشيوعي الفلسطيني حول مقررات المؤتمر العالمي السادس وخاصة فيما يتعلق بشعارات « الثورة الزراعية » و «اقامة حكومة العمال والفلاحين » في الشرق ، قد ترافقت مع بروز اتجاه انتهازي يميني داخل صفوف الحزب عارض تبني شعار « حكومة العمال والفلاحين » في فلسطين ، وبدأ ينشر افكار انهزامية تطالب الحزب بالتراجع امام المد الرجعي في البلاد ، وتشكك بالامكانية الثورية للجماهير ، وخاصة لجماهير الفلاحين ، وذلك بالرغم من ان اللجنة التنفيذية للاممية الشيوعية كانت قد اوصت قيادة الحزب رسميا « بتبني شعار اقامة حكومة العمال والفلاحين في فلسطين » في الرسالة التي بعثتها الى اللجنة المركزية للحزب في كانون اول العام ١٩٢٨ ·

في اوائل العام ١٩٢٩ ، عقدت اللجنة المركزية للحزب الشيوعي في فلسطين جلسة موسعة ناقشت خلالها قضية الانحراف اليميني داخل الحزب وكيفية النضال ضده · وقد اقرت هذه الجلسة الموسعة قرارا صريحا يدين الانحراف ويطالب بتصفيته ، وقد جاء في هذا القرار أنه يكمن خلف الانحراف « التقليل من قوة البروليتاريا في البلدان العربية عموما وفي فلسطين خصوصا ، بالاضافة الى اتجاهات انهزامية حول دور الحزب الشيوعي » ·

كتب « بوب » من يافا مقالا ظهر على صفحات مجلة « المراسلات الصحفية الدولية » يستعرض فيه ملابسات « النضال ضد الانحراف اليميني في الحزب الشيوعي في فلسطين» جاء فيه : « أن الرفاق الذين يطالبون قيادة الحزب باستبدال شعار « اقامة حكومة العمال والفلاحين » بشعار « اقامة الجمهورية الديمقراطية »وذلك بهدف كسب الفئات البورجوازية الصغيرة (التي يبالغون بتأثيرها) ، لا يعون حقيقة انه يكمن خلف شعار « الجمهورية الديمقراطية » ، خطر ولادة أوهام ديمقراطية ضارة بين صفوف الجماهير ، خاصة في الوقت الذي يحاول فيه القادة البورجوازيون للحركة القومية الوصول الى اتفاق مع الامبريالية البريطانية ··· أن الخصوم الانتهازيين لشعار حكومة العمال والفلاحين لا يقدرون إنه في ظل اشتداد حركة النضال الطبقي في فلسطين وفي البلدان المجاورة ،

لا يمكن لشعارات الحزب الشيوعي ان تتضمن فقط جملا عامة حول تحرر البلاد واستقلالها الوطني ، بل يجب تحديد محتوى النضال التحرري بشكل دقيق · فالحركة الشعبية الواسعة لا يمكن لها ان تثبت وتتطور الا اذا كان لدى جماهير العمال آفاق التحرر الاجتماعي ولدى الفلاحين آفاق الثورة الزراعية ، اي تقسيم اراضي الملاك الكبار فيما بينهم والغاء الديون المستحقة للمرابين··ان العناصر اليمينية التي لا تلحظ تطور نضالات البروليتاريا البطيء ولكن المتلاحق ، والتي تقلل من نسبة توسع الحزب (خاصة بين العمال العرب) والتي تشكك بنجاحاته ، ان هذه العناصر ، لا تلحظ سوى الهجوم المتعاظم للقوى الرجعية وترى بان على الحزب ان يتراجع خلال هذه الفترة ··· » · وبعد ان يربط كاتب المقال الانحراف اليميني داخل الحزب الشيوعي في فلسطين بالمعارضة اليمينية داخل الاحزاب الشيوعية الاوروبية « التي تفسر مقررات المؤتمر العالمي السادس للاممية على طريقة تراندلير »(١٦)يؤكد بان الحزب الشيوعي في فلسطين«الذي احتفل مؤخرابـذكرىالعاشرة لتأسيس اول مجموعة شيوعية في فلسطين ، قد مر منذ تأسيسه بعملية بلورة ايديولوجية· وقد استطاع ان يهزم كافة بقايا الديماغوجية الصهيونية والاشتراكيةالصهيونية، واستطاع تصفية اتجاه المقاطعة والاتجاهات الانقلابية ووضع حدا لنظرية الهجرة ، وهكذا فتح الطريق نحو كسب الجماهير من خلال تجميع افضل عناصر البروليتاريا في فلسطين خلف علمه ··· ان الحزب الشيوعي في فلسطين هو اليوم بالافعال وليس بالاقوال فقط ، الحزب الاممي الوحيد ذو التكتيك الثوري » ·

لقد كانت القضية الزراعية احدى القضايا الرئيسية التي شغلت اهتمام الحزب الشيوعي في فلسطين خلال هذه الفترة · وكان توجه الحزب هذا ، يتوافق تماما مع مقررات وتوصيات المؤتمر العالمي السادس للاممية الشيوعية الذي طالب الاحزاب الشيوعية في البلدان المستعمرة وشبه المستعمرة بتصعيد نضالاتها في سبيل « الثورة الزراعية » وفي سبيل « اقامة حكومة العمال والفلاحين » ·

لقد كان الحزب يرى بان النضال في سبيل الارض قد غدا « القضية الاهم ، القضية المركزية في الحياة السياسية والاقتصادية في فلسطين » ، وحمل الامبريالية البريطانية التي وعدت « بوطن قومي لليهود » في فلسطين ، والحركة الصهيونية « التي يتناقض سعيها لاقامة هذا الوطن تناقضا اساسيا ودائما مع مصالح الجماهير العربية، خاصة معمصالح الفلاحين » ، مسؤولية النتائج التي تنتج عن تفاقم الازمة الاجتماعية في الريف خاصة بعد تشريد آلاف الفلاحين العرب من اراضيهم · كما فضح الحزب الدور الذي يلعبه كبار الملاك العقاريين العرب « تجار الارض » ومسؤوليتهم في تشريد الفلاحين العرب ، بعد بيع الاراضي التي يعملون فوقها الى الجمعيات الصهيونية ، والاساليب التي يتبعونها في عملية بيع الاراضي والتي تتمثل « بالعقود البيرقراطية ·· والتحايل على القانون خاصة فيما يتعلق بشروط تسجيل ملكية الاراضي ·· والرشوات التي تقدم للسلطات الحكومية ·· » ، وهاجم الحزب فكرة الكيبوتز « الذي يقام على انقاض المزارع العربية الصغيرة ، بعد صدامات دموية بين العمال اليهود المعدمين والمدفوعين من الاحزاب الاشتراكية الصهيونية وبين الفلاحين العرب الصغار ، وذلك ليستثمر عدد من الرأسماليين (اليهود) مئات العمال اليهود الذين استولوا على اراضي الفلاحين العرب » ·

لقد كان الحزب الشيوعي في فلسطين يساهم خلال هذه الفترة في كافة التحركات

التي تنظم للتصدي لحملات نزع ملكية اراضي الفلاحين العرب وتشريدهم • ففي ٨ حزيران العام ١٩٢٩ ساهم الحزب بنشاط في التظاهرات التي نظمتها بعض المجموعات القومية العربية في مدينة يافا ضد الحملات الصهيونية لنزع ملكية اراضي الفلاحين العـــرب ، وحاول توجيهها في اتجاه معاداة الامبريالية ، خلف شعارات « الارض لمـن يزرعهـا » ، « تآخي العمال العرب واليهود في النضال ضد عصابات الكيبوتز الموتورة وضـد نفـاق الاشتراكيين – الامبرياليين » ، « تصعيد النضال ضد الامبريالية والصهيونية والوجهاء العرب في سبيل مصادرة اراضي كبار الملاك وتوزيعها بين الفلاحين » ••

لقد كان الحزب يؤمن بان الحل الجذري لمسالة الارض في فلسطين لن يتحقق الابعد طرد المستثمرين الامبرياليين ، وتسلم العمـال والفلاحين لزمام الامور في البلاد ، وتوزيع اراضي الملاك الكبار بين الفلاحين بعد مصادرتها » •

تركز نشاط الحزب الشيوعي في فلسطين خلال الفترة التي سبقت اندلاع حـوادث اب مباشرة (شهر تموز اساسا) على تحضير « اليوم الاحمرضد الحرب الامبريالية » ،او كما اسمته صحف الاشتراكية – الديمقراطية « يوم الامية الشيوعية » • وكانت اللجنة التنفيذية للاممية الشيوعية قد اتخذت في جلستها الوسعة العاشرة قرارا بهذا الخصوص جاء فيه : « تنفيذا لقررات المؤتمر العالمي السادس حول تنظيم يوم عالمي للنضال ضـد الحرب الامبريالية ، تصادق الجلسة الموسعة للجنة التنفيذية للاممية الشيوعية علـى التوصية التي اقرها اجتماع ممثلي (١٣) حزبا شيوعيا في بروكسل بتحديد يـوم الاول من اب ، يوما عالميا للنضال ضد الحرب الامبريالية • ان الجلسة الموسعة للجنة التنفيذية تطالب كافة فروع الاممية بجعل الاول من اب مناسبة لتنظيم اضرابات ومهرجانات سياسية جماهيرية ، وتظاهرات شوارع وذلك على الرغم من الوسائل القمعية للبوليس •• »(١٧)

وبالفعل قام الحزب الشيوعي في فلسطين بتوزيع نشرات عديدة ، ووجه مئـات النداءات باللغة العربية والعبرية تدعو الطبقة العاملة في فلسطين للاحتفال بالاول من اب « يوم نضال البروليتاريا العالمية ضد خطر الحرب » • وقد حدد الحزب اهداف هذا اليوم بالنضال « ضد خطر الحرب ، في سبيل اقامة جمهوريات عمالية وفلاحية في البلـدان العربية ، من اجل الدفاع عن الاتحاد السوفياتي ، وضد الصهيونية والاصلاحية » •

وبهدف منع هذه التظاهرة الشيوعية « استنفرت السلطات الامبريالية قواتها وجمعت وحداتها العسكرية في اهم المدن الفلسطينية ونظمت حملات التفتيش والاعتقالات ، واصدر قائد الشرطة في (٣١) تموز قرارا بمنع كافة التظاهرات » • وبالرغم من كافة الوسائل القمعية، نظم الحزب عدة تظاهرات جماهيرية اجتازت شوارع المدن الرئيسية الثـلاث (القدس ويافا وحيفا) ، خلف اعلام الحزب الشيوعي •• وقد ساهمت مجموعة كبيـرة من العمال العرب في هذه التظاهرات وذلك على الرغم من موجة الاثارة الشوفينيـة والدينية التي كانت تتصاعد من جديد في البلاد ••• وكان هذا تاكيدا حيا للتضامن العمالي الاممي المعادي للامبريالية » •

في استعراضها لنتائج « اليوم الاحمر العالمي » ، كتبت « البرافدا » صحيفة الحزب الشيوعي في الاتحاد السوفياتي في ١٨ اب العام ١٩٢٩ (١٨) : « في فلسطين ، المستعمرة

الانكليزية ، نجح الحزب الشيوعي ·· رغم وضعه السري الصعب ورغم الملاحقات الوحشية التي يتعرض لها اعضاؤه ، بتعميم شعارات اليوم الاحمر العالمي بين الجماهير العمالية · ففي المدن الرئيسية الثلاث في البلاد : في القدس ويافا وحيفا نظمت عدة نشاطات خلال الاول من اب · وقد تظاهر العمال خلف شعارات الحزب الشيوعي ، وقد ترك نزول العمال الثوريين الى الشارع ، بعد عامين من القمع المتواصل ، انطباعا حسنا في نفوس جماهير العمال · كما كانت مساهمة مجموعة من العمال العرب في هذه النشاطات دليلا على التضامن الاممي للبروليتاريا ·· هذا وقد حدثت صدامات عديدة بين رجال البوليس وبين المتظاهرين ، وقد كانت صدامات القدس وتل ابيب حامية جدا ، حيث دافع العمال عن انفسهم ببسالة ، وتم جرح عدة ضباط من البوليس بينهم ضابط انكليزي ، وقد تم اعتقال (٤٠) عاملا ، عوملوا بقسوة شديدة ·· » · وفي نهاية تعليقها حملت البرافدا « اللورد باسفيلد » ، وزير المستعمرات في الحكومة العمالية البريطانية مسؤولية المعاملة القاسية التي يعاملها السجناء في فلسطين ، وهاجمت الصحيفة الفلسطينية للاممية الثانية « دافار » ، التي تبرر « طبعا » هذه الاعمال القمعية ·

اعلن الحزب الشيوعي في فلسطين ان نجاح تظاهرات الاول من اب ، كان بمثابة ضربة وجهت « لمشاعر الاستسلام (التي يبثها) الانتهازيون اليمينيون » في صفوف الحزب · ودعا كوادره الى زيادة نشاطها ومتابعة « النضال الصارم ضد الانتهازية اليمينية » ، وطالبها باستغلال نجاحات الاول من اب لجذب الاعداد المتزايدة من العمال « الذين يديرون ظهورهم عن الصهيونية وعن القيادات القومية الخائنة » الى صفوف الحزب ·

الحزب الشيوعي الفلسطيني وحوادث اب الدامية ·

لقد كان هدفنا من دراسة خصائص الظروف التي كانت تسود في فلسطين ، والتعرف على الاوضاع الذاتية للحزب وتوجهات سياساته في اعقاب المؤتمر العالمي السادس للاممية الشيوعية ، التمكن – قدر المستطاع – من اعطاء تحليل موضوعي شمولي للواقع التاريخي المحدد الذي اتخذ فيه الحزب الشيوعي في فلسطين موقفه من حوادث العام ١٩٢٩ ·

لقد ذكرنا في بداية البحث اننا سنعتمد في انجازه اساسا على مادة « المراسلات الصحفية الدولية » ، ومن هذا المنطلق ، سنستعرض اهم المقالات التي ظهرت على صفحات المجلة ، والتي يعرض فيها قادة الحزب موقفهم من الحوادث ، وسنستعرض هذه المقالات، المرسلة من فلسطين مباشرة ، وفقا لتسلسلها التاريخي ·

المقال الاول « حوادث فلسطين » (١٩) ، ظهر مباشرة بعد اندلاع الحوادث بامضاء « الیني » ALINI ، وقد استهله الكاتب بدعوة البروليتاريا الثورية العالمية « للتدخل النشيط لدعم الحركة في فلسطين ، خاصة بعد ان اتسعت نضالات عرب فلسطين ومعاركهم ضد الجيش والبوليس الانكليزي ، وضد العصابات الصهيونية الفاشية » ، مما يدل على ان الحركة التي اندلعت في فلسطين بدات « تأخذ اتجاها ثوريا » · وبعد ان يتحدث كاتب المقال عن اهمية فلسطين الاستراتيجية والعسكرية، وعن السياسة العدوانية والقمعية التي

تنتهجها السلطات الانكليزية في هذا البلد ، وعن مواقف الحركـة الصهيونيـة « اداة الامبريالية البريطانية وذركها ، ليس فقط ضد الجماهير العربية في فلسطين ، وانما ايضا ضد كل الشعوب المضطهدة في الشرق الاوسط ٠٠ » ، ينتقل الى تحليل تطور سياسـة ومواقف قيادة الحركة القومية « التي بدأت خاصة بعد المؤتمر القومي السابـع بانتهـاج سياسة موالية للامبريالية » ، ولتغطية سياستها هذه « التي تنتقص من هيبتها » ، تحـاول « تقوية النضال ضد الصهيونية » ٠ ويستنتج الكاتب في نهاية مقاله انه « مهمـا تكـن الاسباب التي تفسر الانتفاضة ٠٠ ومهما تكن مصالح الطبقات المختلفة ٠٠ فالجماهيـر العمالية العربية كانت مدفوعة بالاستغلال السياسي والاقتصادي للامبريالية ولعملائها ٠٠ ولهذا فان النضال بامكانه ان يكتسب طابعاثوريا معلنا في سبيل تحرر الجماهير الكادحة من نير الامبريالية ٠٠ وان على عاتق الحزب الشيوعي تقع مهمة تحقيق التآخي بيـن الجماهير العمالية اليهودية والعربية والعمل على تسلمها قيادة الانتفاضة بهدف ضمان طابعها الثوري وقيادتها حتى النهاية ضد الامبريالية ، ضد وعد بلفور ، ضد الصهيونيين وضد المستغلين العرب » ٠

في المقال الثاني « المذبحة في « الارض المقدسة » » ٠ (٢٠) كتب « ج ٠ ب » من القدس: « لقد كانت معارك الشوارع التي نشبت يوم ٢٣ اب ٠٠ بين اليهود والعرب ٠٠٠ المؤشر لانتفاضة عامة لعرب فلسطين ، امتدت الى البلد المجاور شرق الاردن ٠٠ غير ان هـذه الانتفاضة الشعبية التي كانت تعبيرا عن تخمر الطاقات الثورية المقموعة للشعب المسلم وخاصة في صفوف جماهير الفلاحين والبدو ، قد طبعت في مرحلتها الاولى بطابع معاد لليهود وغير معاد للانكليز ٠٠٠ » ، وقد نتج هذا « عن لعبة خبيثة شاملة (نسجـت خيوطها) الامبريالية الانكليزية بالتعاون مع الفاشست الصهاينة ومع المجلس الاسلامي٠٠٠ (وهكذا) تحولت قضية « حائط المبكى » الى قضية الساعة السياسية ورمز النضال في سبيل الهيمنة السياسية فوق « الارض المقدسة » ٠٠ » ثم ينتقل الكاتب الى تحليل دور كل قوة من هذه القوى الثلاث فيذكر ان الاقطاعيين والبرجوازيين العرب « الذيـن فقـدوا هيبتهم نتيجة لمساوماتهم مع الامبريالية وخيانتهم القومية قد تجمعوا حـول المجلـس الاسلامي وبداوا بمساعدة قسم من جهاز الامبريالية البريطانية ـ الذي تركه « الاشتراكي » ماكدونالد محافظا على جبروته ـ يثيرون مشاعر الكره المتزمت للمسلمين ضد « الكفار » اليهود الذين يريدون مهاجمة الاماكن المقدسة الاسلامية ٠٠٠ » ، وقـد رد الفاشسـت الصهاينة على هذا الموقف « باثارة التعصب القومي الشوفيني الصهيوني وذلك بتنظيـم مظاهرات عديدة مليئة بالاثارة والتحريض ٠٠ » ، وكانت السلطات الامبريالية « تتذبذب بين المعسكرين ، ساكبة قطرات من الزيت في المكان الذي تهدد فيه النار بالانطفـاء وذلـك بهدف منع اي تقارب بين العرب واليهود ، هذا التقارب الذي بالامكان اقراره خـلال السنين الاخيرة ، خاصة بين صفوف البروليتاريا وذلك على الرغم من جهود الامبرياليين والصيهونيين والقيادة العربية الخائنة لمنعه ٠٠ » ٠

بعد تحليل دور القوى ، ينتقل الكاتب الى رسم صورة سير الاحـداث الدامية التـي بدأت « ٠٠ حين اندفعت الجماهير المتزمتة من الفلاحين والبدو تحت قيادة البورجوازية والاقطاعيين ورجال الدين لمهاجمة واحراق المستوطنات اليهودية الفقيرة ٠٠ حيث اقترفت مذابح مخيفة ٠٠ » ، اما الصهيونية الفاشية « فقد بقيت محافظة حتى اللحظة الاخيرة على

مهمتها الامبريالية ، حيث قامت بقتل العرب الذين لم يتمكنوا من مغـــادرة « المنطقـــة اليهودية » ، واحراق المنازل العربية ·· وبفظاعة وحشية تم قتل عاملين عربيين في اكثر شوارع القدس ازدحاما يوم ٢٤ آب ··· » ، ويحمل الكاتب الحركة الصهيونية مسؤولية « دماء الجماهير اليهودية الفقيرة ·· » وذلك حين ربطت الصهيونية مصيرها « بمصير الامبريالية البريطانية من خلال وعد بلفور ، وتحولت موضوعيا الـــى الموقـــع المتقـــدم للامبريالية داخل البلدان العربية ·· (وهكذا) دفع القادة الصهاينة ثمن خدماتهم لصالح الامبريالية من دم الجماهير اليهودية الفقيرة ·· » ·

اما قوات الامبريالية الانكليزية «··التي كانت تصل دوما بعد ارتكاب الفظائع··ولكن في الوقت المناسب ايضا ، لتنظيم مذابح جديدة بين الفلاحين العرب ، مستخدمـــة فـــي ذلك بنادقها الرشاشة وقنابل طائراتها ومصفحاتها ··· » ، فهي تتحمل المسؤولية المباشرة عن وقوع هذه الاحداث الدامية « ·· فتقوية الوجود العسكري الانكليزي (في فلسطين)·· بهدف حماية الضفة الشرقية من قناة السويس ·· هو الهـدف السياسي الرئيسي الـــذي بامكانه تفسير هذه المذبحة من وجهة نظر مصالح السياســـة العالميـــة للامبرياليـــة البريطانية ·· » ، اما الهدف الثاني الذي سعت اليه الامبريالية من وراء هذه اللعبة الخبيثة فهو « ·· التشكيك بالحركة القومية العربية بدفعها في اتجاه المذابح الدينية وذلك بهدف اضعافها داخليا والعمل على ارهابها فيما بعد ، بشكل يصبح فيه مستحيلا حدوث انتفاضة ثورية حقا ·· » · غير ان الامبريالية لم تتمكن من تحقيق اهدافها فقـد استطاعت الحركة « ·· ان تمر بسرعة من فوق رؤوس القيادات القومية ـ الاصلاحيـــة والسلطات البريطانية وتحولت من مذبحة الى انتفاضة معادية للامبريالية · ففي المدن العربية الصرفة ، مثل نابلس وطولكرم ·· حيث لا يوجد اي حاجز صهيوني ، تم مهاجمة الادارة الحكومية ورفع العلم القومي العربي · وفي شرق الاردن انتفض البدو وقدموا لنجدة اخوانهم الفلسطينيين ·· »

ثم ينتقل الكاتب الى تحليل دور الحزب الشيوعي الفلسطيني خـــلال هذه الاحـداث فيذكر بأن الشيوعيين : « كانوا المجموعة الوحيدة ، الى جانب مجموعة « حمدي الحسيني» القومية ـ الثورية ، التي اعتقل قائدها لانه كان يحذر الجماهير العربية من اقتـــراف المجازر ويدعوها للوقوف ضد الامبريالية ، التي كانت تدعو بدون كلل الى تآخي العمال اليهود والعرب في نضالهم المشترك ضد الامبريالية البريطانية ··· ومنذ صباح الجمعة الدموي ·· كانت حوائط القدس مغطاة بالنداءات التالية : « لا تقتتلوا فيما بينكم » ! « ايها العمال العرب واليهود قفوا سوية ضد عدوكم المشترك ، الامبريالية البريطانية » ! « اقيموا حكومة العمال والفلاحين المستقلة » ! ··· وقد كان كل شيوعـــي يحرض في مكان عمله وفي الشارع بهذا الاتجاه ·· غير ان الحزب الشيوعي لم يتمكن بسبب ضعـــف كادره العربي وبسبب الخسائر الكبيرة التي اصيب بها بعد الاول من اب ، من التأثير في حركة الجماهير ـ التي كانت تتعاظم باستمرار ـ مدفوعة بالتعصب الديني الاعمى ، ومع ذلك فقد ساعدت شعارات الحزب في اجماع العمال على تحميل مسؤوليـــة الحـــوادث للامبريالية البريطانية ، وفي فهم ضرورة التآخي ·· وفي حدوث عدة اعمال عبرت عـن تضامن العمال الاممي ، مثل قيام العمال العرب بحماية رفاقهم اليهود وبالعكســـس ، والتصدي لمثيري الفتن من الجانبين ·· ومن وجهة نظر تنظيمية ، لم يكـــن بمقـــدور الشيوعيين لعب دور مؤثر (خلال الاحداث) ، غير ان تجربة هذه الحركة الكبرى ـ التي

لم تهدأ بعد والتي تلقي ضوءا اسود على مرحلة « السلام » التي افتتحها عهد ماكدونالد ، وتفضح جيدا خطورة الافكار التي يشيعها الانتهازيون اليمينيون - بامكانها ان تكون (تجربة الحركة) قاعدة لنشاطات الشيوعيين اللاحقة ٠٠٠ » ٠

في المقال الثالث « الاوضـــاع السياسية في فلسطين » (٢١) يحـلل « آليني » خصائص الاوضاع التي كانت تسود في فلسطين قبل اندلاع الحوادث ، وبعد ان يربـط بين تطور الحركة القومية في فلسطين وتطور الحركة القومية في البلدان العربية الاخرى (سوريا ، الاردن ، العراق ومصر) ، يستنتج بان تعاظم عدوانية السياسة الامبريالية ٠ خاصة بعد القضاء على الثورة السورية واستسلام قيادتها - ما عدا السلطان الاطرش - قد ساعد « على توجه الحركة القومية في البلدان العربية ومنها فلسطين في اتجاه اليمين والمساومة مع الامبريالية وتحولهابالتالي الى حركة قومية - اصلاحية ٠٠ » ، وقد تمكنت العناصر الاقطاعية والبورجوازية « من دفع الحركة القومية العربية في اتجاه المساومـة مع الامبريالية ، خاصة بعد المؤتمر العربي السابع ، بسبب غياب المنظمات الجماهيريـة العربية ٠٠٠ ففي فلسطين لا يوجد حزب قومي - ثوري جماهيري ، والمؤتمر العربي لـم يكن ينتخب الا من قبل كبار الملاك العقاريين ومن البورجوازية وجزء من المثقفين ٠٠ اما محاولات الجناح القومي الثوري الضعيف ، الذي يقوده « حمدي الحسيني » - المعتقـل حاليا لدى السلطات الانكليزية - لتأسيس حزب قومي - ثوري يساري فلم تبدأ الا فـي الاونة الاخيرة » ٠

لقد خشيت العناصر الصهيونية من امكانية حدوث تقارب فعلي بين القيادة العربية وبين السلطات الانكليزية ، فقامت « بتشديد صراعها ضدمطالب العرب البرلمانية ، وفي سبيل بقاء النظام التعسفي الذي يديره الموظفون الانكليز ٠٠٠ واستطاعت تمرير عـدة اصلاحات تخدم مصالحها ٠٠ (مثل) اقرار حق الهجرة بدون قيود ، والعمـل علـى استيطان المهاجرين في الاراضي الواقعة تحت سيطرة الادارة البريطانية ، واعفائهـم من دفع ضريبة الارض خلال السنوات الاولى ، والمطالبـة بزيادة عدد المستخدمين اليهـود في صفوف البوليس والدرك وسلك الموظفين ، وزيادة عدد العمال اليهود المستخدميـن في مؤسسات الحكومة ٠٠ » ٠

وبعد أن ينهي الكاتب تحليله لمظاهر المد الرجعي في البلاد ، واشتداد السياسـة القمعية التي تنتهجها السلطات الامبريالية ينتقل الى رسم صورة للاوضاع والتمايـزات التي بدأت تظهر في صفوف الطبقات الكادحة في فلسطين ، حيث يترافـق التطـور الرأسمالي للبلاد « مع زيادة استثمار الجماهير العمالية ٠٠ ومع الافقار المتزايد للفلاحين الذين سلبت اراضيهم ٠٠ مما دفع الجماهير العريضة من العمال والفلاحين الى حالـة التململ ضـد مستثمريهـم ٠٠ » ٠ وقـد ساعـدت هـذه الاوضـاع على « تصاعد نضالات العمال والفلاحين العرب ٠٠ حيث تتلاحق في الريف الاصطدامات الزراعية منذ العام ١٩٢٧ ٠٠ وتتزايد اضرابات العمال ٠٠ واهمها اضراب عمال شركة التبغ « مبروك » في حيفا ، واضراب عمال المخابز وعمال البناء ، واضراب المستخدمين في متحف « روكفلر » في القدس ، والاضراب الذي جرى في مقلع الحجارة بالقرب من القدس ٠٠ » ٠ ومع ان هذه الظواهر تدل على تزايد « راديكالية الجماهير الكادحة فـي فلسطين » ، الا ان كاتب المقال يحذر من « المبالغة في تقدير درجة تزايـد راديكاليـة الجماهير ٠٠ التي تدل على تعاظم قوة الحركة الثورية ، غير انها لم تصل بعـد الـى

حد يضمن الانتصار الحاسم للهجوم الثوري الذي يخوضه العمال في فلسطين ضد اعدائهم ٠٠ » ٠

وبعد ان يستعرض الكاتب دور الحزب الشيوعي في فلسطين « ٠٠ الذي يخوض صراعا حاسماً ضد الامبريالية الانكليزية وعملائها الصهيونيين والطبقات المالكة العربية حول شعارات استقلال فلسطين وسائر البلدان العربية ، واقامة حكومة العمال والفلاحين ، والثورة الزراعية ٠٠٠ وذلك على الرغم من الظروف السرية الصعبة والملاحقات التي يتعرض لها (اعضاؤه) من قبل سلطات الحكومة العمالية الانكليزية التي تتابع بتصميم اكبر نفس السياسة الامبريالية لسابقتها المحافظة ٠٠ » ، يصل الى الاستنتاج بان الوضع السياسي في فلسطين قبل اندلاع الحوادث قد تميز :« بتزايد عدوانية الامبريالية الانكليزية التي تستند على الصهيونيين وعلى الموقف الرجعي للجنة التنفيذية القومية ـ الاصلاحية من جهة ، وبتعاظم راديكالية العمال ٠٠ خاصة العمال العرب من جهة اخرى ، غير ان هذه الراديكالية لم تصل بعد الى الحد الذي يسمح بانتصار الثورة في فلسطين »٠

في المقال الرابع « عودة « السلام » الى فلسطين » (٢٢) ، يحاول « ج ٠ ب » تفنيد ادعاءات السلطات الامبريالية التي تبشر بعودة الهدوء والاستقرار الى فلسطين ويذكر بان « الضمان الوحيد للسلام » يتمثل حاليا « بقوات ومدافع وطائرات ومصفحات الامبريالية البريطانية » ، التي تم تقويتها وزيادة عددها بعد اندلاع الحوادث ٠ ويعد ان يستعرض مظاهر السياسة القمعية التي تنتهجها السلطات الامبريالية في البلاد « ٠٠ حيث وصل عدد المعتقلين العرب الى (١٥٠٠) ٠٠ يضاف اليهم (١٥٠) معتقلا يهوديا ٠٠ »٠ ينتقل الكاتب الى فضح المواقف «السلمية» التي يدعيها لنفسه جزء من الصحافةالصهيونية « ٠٠ التي تريد طرد العمال والفلاحين العرب « سلميا » من اراضيهم ، وتنفيذ وعد بلفور بصورة « سلمية » ايضا ٠٠ » ، كما يدين الحملة التي تشنها الصحافة الصهيونية وصحافة الاممية الثانية وحتى صحافة حزب « البوعالي تسيون ـ الذي يدعي اليسارية ـ » ، ضد مواقف الحزب الشيوعي في فلسطين من الانتفاضة ، هذه الصحافة التي لا تتورع عن نشر « ٠ الاكاذيب والحكايات الدموية الدنيئة » امام الرأي العام العالمي في محاولة منها لاظهار الحركة الشيوعية العالمية « ٠٠ كحليف لمثيري المذابح ٠٠٠ واظهار الاممية الشيوعية وكانها تحيي ثورة حزب المفتي ٠٠ » ٠ من جهة اخرى يهاجم الكاتب مواقف « ٠ القوميين ـ الاصلاحيين العرب ٠٠ الذين بدأوا من جهتهم ايضا » بشن حملة تحريضية معادية للشيوعية ٠٠ وذلك لانهم يرتاعون من تزايد نفوذ الشيوعيين ٠٠ خاصة وان الحزب الشيوعي قد فضح دورهم منذ فترة طويلة ٠٠ » ٠ ويعد أن يستعرض كاتب المقال قاعدة البرنامج الذي طرحه الحزب لعودة السلام الى البلاد والذي يرفض فيه فكرة « ٠٠ « السلام » المجرد القائم في ظل رقابة حكومة العمال والفلاحين الثورية ٠٠ » ، يؤكد على ان : « تجمع افضل عناصر البروليتاريا والفلاحين الفقراء ٠٠ حول علم الحزب الشيوعي ٠٠ والتضامن الفعال للبروليتاريا الثورية العالمية (مع الحركة الثورية في فلسطين) ٠٠ تجاه هجوم الامبرياليين والاشتراكيين الامبرياليين والبورجوازية الصهيونية والعربية ٠٠٠ سيسهل على طليعة البروليتاريا التصدي لهذا الهجوم وخلق جبهة ثورية متحدة من الجماهير الكادحة ، قادرة على التصدي لعودة السلام الذي يريد تحقيقه مرتزقة ماكدونالد بالحديد والنار »٠

في المقال الخامس « الحزب الشيوعي الفلسطيني والانتفاضة العربية » ، (٢٣) يستعرض « بوب » من يافا اعمال ومناقشات الاجتماع الموسع الذي عقدته اللجنة المركزية للحزب الشيوعي « لبحث دور ومهمات الطبقة العاملة في فلسطين ، ودور حزبها خلال الانتفاضة العربية » ، حيث ظهر واضحا ان أعضاء الحزب « .. قد استطاعوا مقاومة الموجة الشوفينية العامة التي نتجت عن حرف الانتفاضة في طريق الاقتتال العنصري والديني .. وظهر الحزب في اوقات « السلم » كما في اوقات الحرب القومية التي دفع لها الرجعيون .. القلعة الوحيدة للاممية في البلاد .. » .

كان جدول اعمال الاجتماع يتضمن النقاط التالية : « .. (١ – الوضع الدولي ، الانتفاضة في فلسطين ، والاوضاع الداخلية للحزب ، (٢) تعريب الحزب وقضايا تنظيمية اخرى » . وخلال المناقشات التي جرت حول النقطة الاولى في جدول الاعمال « اكد المجتمعون على سلامة الخط السياسي العام الذي اتخذته اللجنة المركزية للحزب خلال الحوادث ... فتقدير الحركة كانتفاضة شعبية والنضال ضد طابعها الرجعي عندما تتجه باتجاه الاقتتال الديني والعنصري ... والمحاولات التي قام بها الحزب لتوسيع الحركة وطرح الشعارات المعادية للامبريالية ... كل هذا ، كان يتوافق تماما مع مصالح الفئات الكادحة ومع مصالح الحركة الثورية في فلسطين » .

ومع اشارته للدور الايجابي الذي لعبه الحزب في فضح مواقف الامبريالية والصهيونية من جهة اخرى، والقيادة الاقطاعية الدينية من جهة أخرى، الا أن الاجتماع انتقد الاخطاء التي ارتكبتها اللجنة المركزية للحزب خلال الحوادث « .. والتي ادانتها بنفسها في الاطروحات التي عرضتها امام منظمات الحزب ... (هذه الاخطاء) التي تمثلت اساسا بعدم توقع التطور السريع للحوادث ، وتباطؤ الحزب في الانعطاف نحو اليسار ، وفي التلاؤم العملي مع المهام الثورية التي قد تطرح خلال المرحلة الثالثة (مرحلة انتهاء الاستقرار النسبي للراسمالية) .. وقد حدث انعطاف الحزب نحو اليسار متأخرا وبصورة غير جذرية ، حيث تعرقل عموما خلال النقاشات التي جرت مع المعارضة اليمينية داخل الحزب .. » .

اعترف الاجتماع الموسع بحقيقة ان الحزب الشيوعي في فلسطين « .. لم يتمكن من لعب دور مؤثر خلال الحوادث .. وذلك نتيجة ضعفه التنظيمي وتمتعه بدرجة كفاحية ناقصة .. الا انه بمقدوره لعب دور فعال في المستقبل خاصة اذا تجاوز اخطاءه وتابع انتهاجه لخط سياسي سليم واذا كانت الحوادث التي جرت ، التعبير عن الموجة الاولى من الانتفاضة العامة التي نضجت ظروفها في البلدان العربية .. » . وقد اعلن الاجتماع ان« ..الغالبية الساحقة من اعضاء الحزب قد استخلصت الدروس اللازمة من هذه الحوادث الدامية .. » ، وهاجم بشدة العناصر الانتهازية اليمينية « .. التي تستخدم الحوادث كمبرر لشن هجوم عام ضد خط الحزب وضد خط الاممية الشيوعية .. مستغلة في ذلك واقع ان اللجنة المركزية للحزب لم تطبق اجراءات تنظيمية حاسمة كفيلة بتصفية الجناح الانتهازي داخل الحزب ، واكتفت بخوض صراع ايديولوجي ضد الافكار اليمينية التي تعني عمليا تصفية الخط الثوري للحزب .. » .

لقد وقفت المعارضة الانتهازية اليمينية « .. ضد انعطاف الحزب نحو اليسار ،

وادعت بان المرحلة الثالثة ما هي الا بدعة ابتدعتها قيادة الاممية الشيوعية ، وانكرت تزايد راديكالية حركة الجماهير ، وحاربت مظاهرات الاول من ايـــار والاول من اب ، ورفضت الالتزام بالمبادىء التنظيمية السائدة داخل الحزب ٠٠ » ٠ وخلال الحوادث انتقدت لجنة الحزب في مدينة حيفا « ٠٠ حيث تأثير اليمين قوي جدا ٠٠ » النداء الـذي وزعتـه اللجنة المركزية للحزب والذي يصف الحوادث بانها التعبير عن « ٠٠ حركة تحرر للجماهير العربية ٠٠ » ، وادعت بان الحوادث كانت « ٠٠ تعبر فقط عن مذابح ٠٠ ولم يكن هنالك وجود لاي حركة تحرر ٠٠ » ٠

وقد ادان الاجتماع الموسع هؤلاء « الشيوعيين » « ٠٠ المذهولين بصرخات الهـــول التي اطلقها جهاز دعاية الصهيونيين وحزب البوعالي تسيون ٠٠ فلم يروا فـي الحوادث سوى صراعات قومية واعتداءات وحشية ٠٠ ولم يلاحظوا القوى الاجتماعية للحركـــة والانتفاضات المعادية للامبريالية التي حدثت حتى في المناطق التي لا يوجد فيها حواجـز يهودية صهيونية ٠٠ وانكروا ان يكون بمقدور الطبقة العاملة تسلم قيادة الحركـــة ٠٠ واعلنوا ان التكتيك الوحيد الذي ينبغي للحزب اتباعه هو البقاء في مكانه وانتظـــار نهاية « المذابح » وقد باشرت لجنة الحزب في حيفا بعد ذلك « ٠٠ هجومها الفاضح علـى خط الحزب وحجزت بكل بساطة النداء الذي اصدره الحزب والمخالف لطامحها ، وهكـذا فتحت المجال امام اعداء الحزب الشيوعي للقيام بشن حملة تشهير واسعة ضد الحزب ، من خلال نشر الاكاذيب الفاضحة حول موقف الشيوعيين ، وزرع الشكوك في صفـــوف العمال المتناصرين مع الحزب ٠٠ » ٠

في مثل هذه الظروف ، كان على الاجتماع الموسع ان يتخذ موقفا صريحا ضـــد المعارضة اليمينية ٠٠ » وكانت الادانة الجماعية التي اتخذت ٠٠ متوافقة مع توصيات السكرتاريا التنظيمية للجنة التنفيذية للاممية الشيوعية التي ارسلت الى اللجنة المركزية للحزب في رسالة خاصة مؤرخة في ١٢ اب (وصلت فقط في وسط الانتفاضة) ، والتي تؤكد فيها السكرتاريا التنظيمية على ان الدفاع عن الايديولوجية اليمينية يتعارض مـــع الانتماء اللاحق للحزب ، وتطالب اللجنة المركزية بتطهير صفوف الحزب وبسرعة من جميع ممثلي الانتهازية والبوعالي تسيونية البورجوازية الصغيرة ٠٠ » ٠

من جهة اخرى ادان الاجتماع مواقف « العناصر الوسطية المساومة الذين لا يتفقون مع اطروحات اليمين الا فيما يتعلق بتقدير درجة راديكالية الجماهير خلال تظاهرات الاول من اب ٠٠٠ ويمانعون ضرورة اتخاذ اجراءات تنظيمية حاسمة ضد ممثلي الخط اليميني داخل الحزب ٠٠ » ٠ وقد اعتبر الاجتماع الموسع ان « ٠٠ مقال الرفيق اليني الذي ظهر في العدد (٨٦) من مجلة المراسلات الصحفية الدولية يمثل القاعدة السياسية لمواقف هذه العناصر الوسطية ٠٠٠ (ففي المقال المذكور) لا يحارب (الييني) شعارات حكومة العمال والفلاحين والثورة الزراعية ، وجبهة النضال ضد البورجوازية القومية الخائنة ـ هذه الشعارات التي وقف ضدها في السابق ـ ٠٠ ولكنه يرى ان الخطر يكمن في التقدير المبالغ فيه لتزايـــد راديكالية الجماهير العمالية ويعتقد ان الوضع لم ينضج بعد لشن هجمة عمالية ٠٠٠ » ٠ وفي نقده لهذه الموضوعة نوه الاجتماع الى ان « ٠٠٠ خطأ الحزب كان يكمن اساسا في التقدير الناقص لدرجة تزايد راديكالية الجماهير ٠٠ فالظرف الموضوعي كان ناضجا لشن

هجوم جذري واوسع من الهجوم الذي بدأه الحزب بعد انعطافه اليساري ... » .

وقد جاء في التقرير الذي اصدره الاجتماع الموسع « ... انه ليس بامكان العناصر المساومة البقاء في الحزب ما لم تتخل عن موضوعاتها الخاطئة وتبدأ فعلا لا قولا خوض النضال ضد خطر الانحراف اليميني ... » .

خلال النقاشات التي دارت حول النقطة الثانية في جدول الاعمال ، تحسس الاجتماع الموسع « ... وبالاجماع ضرورة دفع سير وتيرة تعريب الحزب الى اقصى درجة ... (خاصة) وان الظروف الموضوعية قد نضجت بسبب حالة الغليان الثوري التي تعيشها الجماهير ، وبسبب خيانة قيادة الحركة القومية العربية .. فبزيادة كوادره العربية ، سيستطيع الحزب ان يلعب دورا هاما خلال المرحلة القادمة من تطور الحركة الثورية ... وهذا ما تشعر به الحكومة البريطانية وحلفاؤها من القوى الرجعية ... فالملاحقات ضد الحزب تنتج اساسا من الخوف من تعاظم الحركة الثورية العمالية والشيوعية ... »

في المقال السادس «مشانق وسياط ماكدونالد في فلسطين » (٢٤) «يستعرض«ج ·ب»من القدس ، الوسائل والاساليب الوحشية التي تستخدمها حكومة ماكدونالد الامبريالية ضد الجماهير العربية ، وذلك بهدف قمع الانتفاضة والحد من توسعها وامتدادها .

فامام هذه الاساليب الوحشية « ... بدأت الجماهير العربية تعي حقيقة اعدائها... وتفهم طبيعة الاكاذيب التي كانت تعيشها القيادات العربية (من خلال الادعاء) بان الحكومة الامبريالية تقف الى جانب العرب .. » .

ويهاجم كاتب المقال بشدة مواقف القيادات العربية « ... التي حاولت التقليل من اهمية الاضراب العام الذي جرى يوم ١٦ تشرين الاول ... وحاولت كل جهدها لمنع الجماهير من شن هجوم مباشر على السلطات الامبريالية ... والتي اتخذت موقفا مساوما امام لجنة التحقيق البريطانية الامبريالية ...» . غير ان حركة الجماهير العربية « ... تمكنت من تجاوز (هذه) القيادات .. وبدأت تأخذ يوما بعد يوم طابعا معاديا للامبريالية .... » . وهكذا « ... لم يكن من المستغرب ان تتصاعد الحركة ، وان تنظم اضرابات ومظاهرات عفوية في كافة مناطق البلاد للتنديد بالاساليب الوحشية التي تستخدمها السلطات لقمع الحركة ، وان يصبح هم كل فلاح وكل عامل عربي شراء قطعة من السلاح حتى ولو باع اخر اسماله،وان تتسع الانتفاضة وتمتد الى البلدان المجاورة..». كذلك لم يكن مستغربا في هذه الظروف « ... ان يكون للشعارات التي اطلقها الحزب الشيوعي صدى واسع في صفوف الجماهير العربية (وخاصة) في صفوف الفلاحين ... (حيث كان) لشعارات الحزب التي كانت تدعو للاستيلاء على اراضي كبار الملاك العقاريين واراضي الصهيونيين الاغنياء ، وعدم دفع الضرائب ، والنضال حتى النهاية ضد الامبريالية ، صدى واسع في صفوفهم .. » .

في نهاية المقال يستنتج الكاتب ان « الظروف اللازمة لتجميع القوى الاجتماعية ، ولتسلم البروليتاريا والحزب الشيوعي قيادة الحركة في المرحلة القادمة.. قد اصبحت جاهزة..».

ويلاحظ بأن ماكدونالد « يعي تماما هذه الحقيقة ٠٠ » ، لذلك تتزايد حدة الاساليب الوحشية المتبعة من قبل السلطات البريطانية « ٠٠ فالملاحقات ضد عناصر الحركة العمالية الثورية في فلسطين ، لم تأخذ ابدا في السابق مثل هذه الحدة ٠٠ ولم تظهر ارادة تصفية الحركة المدافعة عن مصالح الجماهير الكادحة اليهودية والعربية ، بمثل هذا الوضوح ، الا في ظل سلطة ماكدونالد ، وهندرسون ، وباسفيلد ٠٠ » ٠ وبعد ان يدين الكاتب حكومة العمال الانكليزية « ٠٠ مفخرة الاممية الثانية » ، يدعو الجماهير العمالية في انكلترا وفي البلدان الراسمالية الاخرى ، لدعم نضال « ٠٠ الجماهير الكادحة الفلسطينية التي تناضل حتى الموت ضد الامبريالية البريطانية ٠٠٠ » ٠

في المقال السابع والاخير ، يستعرض «ج٠ب» من القدس « نضالات الانصار والجماهير في فلسطين » (٢٥) ، واتجاهات تطور الانتفاضة « ٠٠ بعد ان دخلت المعارك المعادية للامبريالية في مرحلة جديدة تتميز اساسا بالجهود التي تبذلها البورجوازية الاقطاعية العربية لتصفية الانتفاضة والوصول ، في اقرب وقت ، الى اتفاق مع السلطات الانكليزية ٠٠ » ٠ غير ان الجماهير العربية استطاعت « ٠٠ على الرغم من اساليب القمع الامبريالية وعلى الرغم من خيانة قياداتها ٠٠ دفع الحركة في اتجاهين : معارك الانصار غير المنظمة ، خاصة في الريف ، وانفجارات جماهيرية عفوية ، خاصة في المدن ٠٠ » ٠ ويحلل الكاتب طبيعة معارك الانصار « ٠٠ ذات الطابع الزراعي اساسا ٠٠٠ والتي تعبر احيانا عن مقاومة الفلاحين العرب لعملية نزع اسلحتهم ، كما حصل في القرى المحيطة بمدينة القدس ، او عن دفاع الفلاحين الذاتي ضد المحاولات التي يقوم بها المستوطنون الصهيونيون لنزعهم اراضيهم ، ٠٠ او عن مهاجمات فلاحية بدائية لمراكز السلطات الانكليزية ولبعض المستوطنات الصهيونية٠٠٠»٠ويرجع الكاتب اسباب هذه المعارك الفلاحية الى تدني المستوى المعاشي لجماهير الفلاحين والبدو العرب « ٠٠ الفئة الاجتماعية الاكثر فقرا بين الفقراء ٠٠٠ » ٠ ومع ان الصهاينة يدعون بأن حركات الفلاحين هذه ما هي الا « حركة لصوص وقطاع طرق » ومع ان الانكليز « ٠٠ يحاولون كل جهودهم لايجاد اثار هذه « العصابات » ٠٠ الا ان الهدوء لم يستقر بعد ٠٠ » ٠

اما في المدن « ٠٠٠ فقد استطاعت حركة الجماهير ايضا تجاوز قياداتها ٠٠٠ وفشلت محاولات البورجوازية التجارية العربية التي شهرت سلاح المقاطعة لضمان ارباح اكبر في المنافسة مع التجار اليهود ، في تأطير الحركة في اطار معاداة اليهود ٠٠ بل على العكس ، فقد تحججت السلطات الامبريالية بالطابع التحريضي لشعار المقاطعة واعتقلت عددا من المناضلين المعادين للامبريالية ، مثل « حمدي الحسيني » وعددا من انصاره ، الذين اتهموا زورا بالشيوعية وعلى اثر ذلك نظمت في مدينة يافا حركة جماهيرية واسعة للتنديد باعتقالهم واعلن الاضراب العام ٠٠٠ » ٠

وامام استمرار الاضراب واتساعه ، اضطرت السلطات الامبريالية « ٠٠٠ لتحريك بارجة حربية وعدة طائرات عسكرية ٠٠٠ في محاولة منها لارهاب الجماهير ٠٠٠ وقدمت القيادات الاصلاحية العربية ، مرة اخرى ، مساعدة فعالة للامبريالية عندما حاولت التهويل من خطر الحركة ٠٠٠ حيث ادعت بأنها قد تحولت الى انتفاضة مسلحة وان فلاحي القرى القريبة من يافا قد قدموا بكثافة للمساهمة فيها ٠٠٠ (وهكذا) استطاعوا القضاء على الحركة الوطنية وتصفية الاضراب ومنع مظاهرات التضامن في المدن الاخرى ٠٠ » ٠

وبعد ان يذكـــر الكاتب بأن هذا الموقف الذي اتخذته القيادات العربيـــة من اضراب يافا ، كان يتوافق تماما « ··· مع البيان الذي عممه المفتي الكبير على الجماهير ، والذي يطالبها فيه بالحفاظ على الهدوء ، خلال الفترة التي تبقى فيها لجنة التحقيق في البلاد ··» ، ينتقل الى تحليل دور الحزب الشيوعي « ·· الذي قام بتوزيع عدة نداءات باللغة العربية يدعو فيها الجماهير الى تحويل الاضراب العام الى انتفاضة معادية للامبريالية ، وتشكيل لجان ثورية من العمال والفلاحين لنزع قيادة الحركة من ايدي القيادات الخائنة ، والنضال في سبيل الاستيلاء على اراضي المستوطنين الصهيونيين الاغنياء ··· كما قام الحـزب بتوزيع عدة نداءات باللغة العبرية يحض فيها العمال اليهود على التآخي مع الحركة الثورية العربية ·· » · وينهي الكاتب مقاله مؤكدا على ان « ··· الجذرية المتواصلة للجماهير ، ستفتح في المرحلة القادمة من تطور الاحداث الثورية ، آفاقا اوسع امام قيادتها الثورية الواعية » ·



قبل التطرق لاهم الاستنتاجات التيتوصلنااليها خلال هذاالبحث ، سنحاولاستعراض اهم ما جاء في الوثيقة التي قيمت فيها اللجنة التنفيذية للاممية الشيوعية موقف الحـــزب الشيوعي الفلسطيني من حوادث هبة البراق (٢٦) ·

بعد ان تحلل الوثيقة طبيعة الحركة الثورية في فلسطين وفي البلدان العربية ، ودور مختلف الطبقات الاجتماعية في الانتفاضة ، تنتقل الى تحليل دور الحزب الشيوعي ، منجزاته واخطاءه فتذكـــر بأن الانتفاضة « ·· قد كشفت الجوانب الايجابيـــة لنشاط الحزب ، كما كشفت مكامن الضعف عنده ·· فالانتفاضة فاجأت الحزب على حين غرة ، لانه مكـــون اساسا من العناصر اليهودية ويفتقد الى صلات وثيقة مع الجماهير العربية عموما ومـــع الفلاحين بصورة خاصة ·· » · وقد اكدت الانتفاضة « ·· مقدار صحة التعليمـــــات المتكررة للجنة التنفيذية للاممية الشيوعية حول ضرورة تعريب الحزب · (ذلك) ان نواقص الحزب واخطاءه خلال الانتفاضة ، قد نجمت عن عجزه عن سلوك نهج واضح وصريح باتجاه تعريب الحـزب من القاعدة الـــى القمـــة · ففي الماضي كان الحزب يوظف قواه وامكاناته على نحو خاطيء ، اذ ركـــز نشاطـه في المقـــام الاول بين العمـــال اليهود ، بدلا من توظيف اكثرية قواه وامكاناته في العمل بين جماهير العمال والفلاحين العرب · ولقـد فسرت عملية تعريب الحزب على انها عملية ضم آلية لعدد من الرفاق العرب الى اللجنة المركزية · ولم يفلح الحزب ببناء منظمات حزبية عربية قوية ، ومنظمات نقابيـــة عربية ·· اما بالنسبة للعمل في صفوف الفلاحين والبدو ، فقد ساد جو من التشاؤم داخل الحزب · وقد ادى جو التشاؤم والتشكك من نتائج العمل وسط الجماهير العربية الى اتخاذ بعض الرفاق لمواقف انعزالية وسلبية ، والى استصغار الامكانات الثورية في المشرق والمبالغة بتأثيـر القوى الرجعية على الجماهير العربية وانتهاج اساليب روتينية وغير مرنة فـي التكتيـك تجاه الحركة الاصلاحية العربية وتجاه مجموعة حمدي الحسيني القومية · ان الاعضـــاء اليهود داخل الحزب وداخل اللجنة المركزية لم يدركوا دوما بأن دورهم تجـــاه العامـــل العربي وتجـــاه الحركة الشيوعية وسط العمال العرب ، يجب ان يكون دور « المساعد » ، وليس دور القائد ، وهذا ما اشار به لينين الى البلاشفة الروس الذين كانوا يعملون وسـط المجموعات القومية داخل الاتحاد السوفياتي · وبما ان الحزب كان يملك كادرا صغيرا من العمال العرب فقد وجد نفسه مقطوعا عن الحركة التي اخذته على حين غرة ، ولم يستطـــع التأثير على الجماهير الاساسية من العمال في المدن ، والجماهير الفلاحية في الريف ·

وبهذا الخصوص يجب على الحزب ان يستخلص كافة العبر من الانتفاضة ٠٠ » ٠

وبعد ان تنتقد وثيقة الاممية الشيوعية الحزب الشيوعي لانه لم يلحظ التطور السريع للاحداث « ٠٠ باتجاه حركة عربية شاملة ، معادية للامبريالية وفلاحية ٠٠٠ ولم يتمكن بالتالي من طرح الشعارات التي تتطلبها المرحلة ٠٠ (وهذا كله) يمكن تفسيره بالترددات الانتهازية اليمينية داخل الحزب ٠٠ » ، تنتقل الى تحديد مهمات الحزب الثورية خلال المرحلة القادمة ٠

المهمة الرئيسية والعاجلة هي « ٠٠ التوجه بتصميم وجرأة باتجاه تعريب الحزب من القاعدة الى القمة ٠ وبذل ما يلزم من جهد لانشاء نقابات عربية وعربية ـ يهودية ٠ » اما المهمة الثانية للحزب فيجب ان تتركز على « ٠٠٠ التغلب بأي ثمن على جو التشاؤم والسلبية داخله بصدد المسالة الزراعية ٠٠ ويتوجب عليه انجاز برنامج زراعي يأخذ بعين الاعتبار المطالب الجزئية للفلاحين والبدو ٠٠ » ٠

وبعد ان تؤكد الوثيقة على ضرورة متابعة النشاط بين العمال اليهود وداخل النقابات الصهيونية الاصلاحية ، تطالب الحزب بالنضال في سبيل قيام اتحاد للاحزاب الشيوعية في البلدان العربية ٠ وتنتهي الوثيقة بالتاكيد على ان هذه المهام لن تتحقق الا « ٠٠ بشن نضال حازم ضد الانحراف اليميني داخل الحزب ٠٠ » ، هذا الانحراف الذي يعبر عن نفسه « ٠٠ بالاستخفاف بالامكانات الثورية ، وبالمعارضة الصريحة او المخفية لتعريب الحزب ، وبمقاومة شعار حكومة العمال والفلاحين ٠٠ » ٠ ويجب على الحزب في نضاله ضد خطر الانحراف اليميني « ٠٠ الا يغفل في نشاطه من اجل الاممية الثورية ، خطر المبالغة اليسارية التي ترتكز على اهمال العمل وسط العمال اليهود ، والاستخفاف بدورهم التاريخي في خلق حركة عمالية جماهيرية وخلق فرع محلي للاممية الشيوعية في فلسطين ٠٠ » ٠

وتلاحظ الوثيقة اخيرا انه « ٠٠ كان هناك تردد وغموض في بعض البلدان وفي بعض الصحف الشيوعية حتى داخل الاتحاد السوفياتي بالنسبة لتقييم طبيعة الحركة في فلسطين (خاصة) في بداية الانتفاضة ٠٠ » ٠ وتطالب فروع الاممية ومنظماتها الجماهيرية « ٠٠ بالقيام بحملة حازمة لنصرة الحركة القومية العربية وضد نظام الرعب الابيض في فلسطين ، وضد دعاية المذابح التي تحث عليها الامبريالية البريطانية والبورجوازية الصهيونية والاممية الثانية ٠٠ » ٠

والآن ، ما هي اهم الاستنتاجات التي توصلنا اليها من خلال هذا البحث ٠٠

اولا : موقف الحزب من الاحداث وتقييمه لها

اعتبر الحزب احداث اب بمثابة التعبير عن انتفاضة قومية عربية معادية للامبريالية، وربطها بسلسلة من النضالات العماليةوالفلاحية العربية الناتجة عن تفاقمالازمة الاجتماعية

في البلاد ، وتصاعد سياسة النهب الامبريالي واشتداد عدوانية الحركة الصهيونية خاصة ضد جماهير الفلاحين ٠

وقد انتقد الحزب الوجه السلبي للاحداث الناجم عن الانحراف في التوجه النضالي باتجاه الاقتتال الديني والعنصري ، هذا الانحراف الذي نتج عن لعبة خبيثة نسجت خيوطها الامبريالية البريطانية بالتعاون مع الفاشست الصهاينة من جهة ، ومع القيادة الاقطاعية ـ الدينية العربية من جهة اخرى ٠

لقد كانت العناصر الانتهازية اليمينية داخل الحزب (خاصة اعضاء لجنة الحزب في حيفا) ، هي الوحيدة التي اعتبرت الاحداث بمثابة التعبير عن مذبحة ضد اليهود ، ورفضت تقييم اللجنة المركزية للحزب باعتبارها التعبير عن حركة تحرر قومي للجماهير العربية ٠ ولقد ساعدت المواقف الانهزامية والمتشككة التي اتخذتها هذه العناصر في الفترة التي سبقت اندلاع الحوادث ، في عدم تلمسها للطبيعة الثورية للاحداث ، وللعوامل الاجتماعية والسياسية التي فجرتها ٠

وهكذا نرى بان الموقف الحقيقي الذي اتخذه الحزب الشيوعي في فلسطين من احداث اب ، يناقض تماما ادعاءات « جوزيف برغر » ، ويفضح اكاذيبه وافتراءاته المغرضة ، كما يظهر خطأ الرأي الذي يتبناه بعض الكتاب العرب الذين يعتبرون بان موقف الحزب من هبة البراق قد تغير بعد ان تسلمت قيادته التوجيهات الصائبة من قيادة الاممية الشيوعية (٢٧) ٠

ثانيا : دور الحزب خلال الاحداث وامكاناته الفعلية في التاثير على مجراها ٠

ليس هناك من شك بان هبة البراق قد فاجأت الحزب الشيوعي في فلسطين ٠ وقد كانت المهمة الرئيسية للحزب بعد اندلاع حوادث اب الدامية السعي في سبيل دفع الانتفاضة في الاتجاه الثوري المعادي للامبريالية ضد محاولات حرفها في اتجاه الاقتتال الديني والعنصري ، وذلك من خلال النضال لتحقيق التآخي الاممي بين الجماهير الكادحة العربية واليهودية ، ودفعها للعب دور مؤثر خلال الانتفاضة ، بهدف ضمان انتصارها النهائي على طريق تحقيق الاستقلال التام لفلسطين ، وتحقيق مطالب الفلاحين العرب ٠

وعندما بدات القيادات القوميةالعربية تتخوف من اتجاه الاحداث في الاتجاه الثوري المعادي للامبريالية ، وتسعى للحد من اتساع الانتفاضة ، ناضل الحزب في سبيل دفع الجماهير العربية لتجاوز قياداتها ، وحثها على متابعة النضال ٠ وقد ساهم الحزب في عدد من النضالات الجماهيرية التي جرت في المدن (الاضراب العام في يافا) ، ودعم مجموعات الانصار الفلاحية في الارياف ٠ ويذكر الدكتور « عبد الوهاب الكيالي»(٢٨) ان (١١) عضوا من الاعضاء الاربعة والعشرين الذين كانت تتالف منهم لجنة سرية ارهابية ، مهمتها ارهاب واغتيال الاشخاص الذين يعملون ضد المصالح الوطنية (خلال احداث هبة البراق) ، كانوا اعضاء في الحزب الشيوعي الفلسطيني ٠

ومع ذلك كله ، لم يتمكن الحزب من لعب دور هام ومؤثر خلال الاحداث ، وهذا ما اعترفت به لجنته المركزية التي ارجعت ذلك الى ضعفه التنظيمي وعدم تمتعه بكفاحية

عالية ، وعدم توقعه لتطور الاحداث السريع باتجاه انتفاضة حقيقية، بالاضافة الى نقص كادره العربي ، واصابته بضربة موجعة قبل ايام من اندلاع الاحداث (الاول من اب) ، افقدته عددا من كوادره · وقد حملت قيادة الحزب ، المعارضة الانتهازية اليمينية داخل صفوفه ، المسؤولية المباشرة في عدم تمكن الحزب من لعب دور مؤثرخلال الاحداث ·

سنحاول التوقف قليلا عند سببين من الاسباب : الاول ، الانحراف الانتهازي اليميني، والثاني ، نقص الكادر العربي ·

يبدو انه كان هناك خطر اكيد من بروز اتجاه انتهازي يميني داخل الحزب ، رافقه ظهور عدة افكار انهزامية · وهذا ما دفع بقيادة الاممية الشيوعية للتدخل المباشر اكثر من مرة ، ومطالبة اللجنة المركزية للحزب بالتصدي الحازم للعناصر الانتهازية اليمينية والعمل على فصلها من الحزب·وبهذا الصدد نعتقد ـ كما ذكرنا سابقا ـ بأن احد الاسباب التي تكون قد دفعت اللجنة التنفيذية للاممية الى ارسال احد مبعوثيها (شميرال) الى فلسطين ، هو خطورة هذا الانحراف اليميني داخل الحزب الشيوعي · ومما يدعم هذه الفكرة ، ان مبعوث الاممية الى فلسطين هو نفسه الذي اوفد الى منغوليا لعرض مخاوف قيادة الاممية حيال ازدياد خطر الانحراف اليميني داخل صفوف الحزب الثوري الشعبي المنغولي · هذا وقد اشار قرار السكرتاريا السياسية للجنة التنفيذية للاممية الى اثر التيار اليميني في اعاقة الحزب الشيوعي في فلسطين عن لعب دور مؤثر خلال الانتفاضة ·

غير اننا عند محاكمتنا ـ الان ـ لهذا التيار الانتهازي اليميني ، علينا ان نفصل بين الافكار الانهزامية التي كان يشيعها ومقاومته لعملية تعريب الحزب ، ورفضه اعتبار حوادث اب بمثابة التعبير عن حركة تحرر قومي للجماهير العربية من جهة ، وبين رفضه تبني بعض شعارات المؤتمر العالمي السادس للاممية الشيوعية ، وخاصة شعار اقامة « حكومة العمال والفلاحين » من جهة اخرى ·

وبمعنى اخر ، فاننا اذا حاكمنا هذا التيار على اضواء رفضه لقرارات المؤتمر العالمي السادس الخاصة « بحكومة العمال والفلاحين » ، فانه سيبدو لنا واقعيا ، ومتجاوزا للتطرف الذي حكم بعض قرارات ذلك المؤتمر·خاصة وان شعار « حكومة العمال والفلاحين»، كان يطرح في تلك الفترة ، وكانه شعار مباشر قابل للتطبيق،وليس كشعار استراتيجي لمرحلة كاملة · فاليوم ، وفي ظروف التغيير العظيم لموازين القوى لصالح الاشتراكية والتحرر الوطني ، وحتى بعد تكون الدول القومية وانجاز مهمات الاستقلال السياسي ، لا تسقط الاحزاب الشيوعية العربية من حسابها التحالف مع اقسام من البورجوازية الوطنية ، ولم تصل بعد رغم كل ما انجزته ، الى رفع شعار اقامة « حكومة العمال والفلاحين » ·

غير ان العناصر الانتهازية اليمينية قد اتخذت من معارضتها لقرارات المؤتمر العالمي السادس المتطرفة ، منطلقا او مبررا لتشويه طبيعة نضال الشعب العربي الفلسطيني وانتفاضة ١٩٢٩ التحررية في اساسها ·

السبب الثاني والاهم ، هو نقص الكادر العربي ، وهذا يطرح قضية معقدة ، هي

قضية تعريب الحزب الشيوعي في فلسطين (٢٩) ٠

لقد كان نقص الكادر العربي للحزب ، وضعف صلاته بالجماهير العربية ، وخاصة جماهير الفلاحين ، من اهم العوامل التي اعاقت الحزب عن لعب دور مؤثر خلال الاحداث وهذا ما اشارت اليه وثيقة الاممية الشيوعية ، التيطالبت قيادة الحزب بالعمل السريع والجدي في سبيل انجاز مهمة التعريب ٠

من جهة اخرى ، كان للطابع الانعزالي لتوجهات الحزب تجاه قيادة الحركة القومية العربية ، اثره في عدم تمكن الحزب من التأثير على توجهات هذه الحركة ٠ وقد شجع هذا التوجه الانعزالي للحزب ، سعي قسم من القيادات القومية العربية ، للتعاون الصريح مع الامبريالية البريطانية ، والوصول الى اتفاق معها ، يكون على حساب مصالح الجماهير خاصة بعد انعقاد المؤتمر العربي السابع ٠

الحواشي

١ ـ اننا لا نصدر احكاما قاطعة بهذا الخصوص ٠ لقد اردنا فقط تبيان الاتجاه العام لاغلب الدراسات والابحاث التي تطرقت لهذا الموضوع ٠

٢ ـ لم تتسلم العناصر العربية مسؤوليات قيادية داخل الحزب الا خلال الفترة التي اعقبت هبة البراق ٠ وكان الحزب قد اوفد عددا من الكوادر العربية للتعليم « بجامعة كادحي الشرق » في موسكو ، في العام ١٩٢٧ ٠

٣ ـ اسمه الحقيقي « برزيلي » بولوني الاصل ٠ كان واحدا من ابرز قياديي الحزب الشيوعي في فلسطين ٠ كان يساهم بتأمين الارتباط بين الحزب الشيوعي فيفلسطين وبين مركز الاممية الشيوعية ٠ في اواخر العام ١٩٢٩ غادر فلسطين الى برلين (عصبة مناهضة الامبريالية) ، ومنها انتقل الى موسكو ٠ اعتقل في العام ١٩٣٥ وبقي في المنفى حتى العام ١٩٥١ ٠ بعد ان اعفي عنه هاجر الى بولونيا ومنها الى اسرائيل ، حيث يساهم بفعالية في حملات التشهير والطعن التي تشنها الاقلام الصهيونية ضد الماضي الثوري للحزب الشيوعي ، وذلك بعد ان ارتد عليه (حصلنا على المعلومات الخاصة بحياة « ج ٠ برغر » ، من مجلة ESPRIT عدد تموز ـ اب ، ١٩٦٧ ، ص : ٩٧) ٠

٤ ـ جوزيف برغر : « القطيعة مع الشيوعيين » ، في « الدفاتر الجديدة » LES NOU VEAX CAHIERS رقم ١٣ ـ ١٤ ، ١٩٦٨ ، ص ٣٤ ـ ٣٨ ٠

يتبنى الكاتب المغربي « عمار الطالبي» ، وجهة النظر التي يعرضها « ج ٠ برغر » عن مساهمة اعضاء الحزب الى جانب الهاجانا ٠ (انظر : عمار الطالبي : « الطبقة العاملة الفلسطينية واليهودية وتنظيماتها » في شؤون فلسطينية ، رقم ١٥ ، تشرين الثاني ١٩٧٢ ، ص ١٧٥) ٠ كما يتبنى الكاتب التروتسكي « ناتان فاينشتوك » (N. WEINSTOCK) في كتابه الصهيونية ضد اسرائيل ، وجهة النظر هذه ، التي اعتمدها بدوره عن « ج ٠ برغر » ٠

٥ ـ في منتصف اب العام ١٩٢٩ ،

وصل الى فلسطين ، قبل ايام قليلة من اندلاع الحوادث ، موفد خاص للاممية الشيوعية ، هو القائد الشيوعي التشيكي شميرال » (CHMERAL) ، عضو اللجنة التنفيذية للاممية . وقد كان الهدف من زيارته التباحث مع قيادة الحزب في فلسطينحول الاوضاع الداخلية للحزب، والالتقاء بعدد من العناصر الشيوعية العربية ، لدراسة امكانية اصدار جريدة حزبية ، والاستفسار منهم عن اوضاع الفلاحين العرب . وشميرال هو احد مؤسسي الحزب الشيوعي التشيكي ، مناضل بارز في صفوف الاشتراكية الديمقراطية التشيكية قبل الحرب العالمية الاولى (١٨٨٠ ـ ١٩٤١) . في العام ١٩١٦ كان يترأس اللجنة التنفيذية للحزب الاشتراكي الديمقرطي التشيكوسلوفاكي . ساهم في تأسيس الحزب الشيوعي التشيكوسلوفاكي وانتخب عضواً فيلجنته المركزية عشية تأسيسه في العام ١٩٢١ . في العام ١٩٢٤ انتخب عضوا في مجلس رئاسة الاممية الشيوعية ، حيث تم تكليفه اعتبارا من العام ١٩٢٧ بالاهتمامبقضايا الحركة الشيوعية في الصين والشرق الاقصى . سافر الى منغوليا في العام ١٩٢٨ على رأس وفد خاص من الاممية الشيوعية ، كانت مهمته طرح مخاوف قيادة الاممية امام ازدياد خطر الانحراف اليميني داخل صفوف الحزب الشيوعي الشعبي المنغولي .

اننا نعتقد بأن بروز اتجاه يمينيانهزامي داخل الحزب الشيوعي في فلسطين ، في الفترة التي اعقبت انعقاد المؤتمر السادس العالمي للاممية الشيوعية لم يكن بعيداعن هدف الزيارة التي قام بها « شميرال » الى فلسطين .

ـ معلوماتنا عن زيارة « شميرال » الى فلسطين حصلنا عليها من المقال السابق المذكور لـ « جوزيف برغر » . اما المعلومات الخاصة بحياة « شميرال »فقد حصلنا عليها من مجلة « الديمقراطية الجديدة LA DEMOCRATIÉ NOUVELLE عدد خاص ، اكتوبر ١٩٦٥ ، ص / ٤٦ .

٦ ـ اميل توما : جذور القضية الفلسطينية ، اصدار المكتبة الشعبية في الناصرة ، ص : ١٦٣ ـ ١٦٤ .

٧ ـ شميرال : « لننتبه اكثر الى حوادث فلسطين والبلدان العربية » ، في المراسلات الصحفية الدولية ، رقم ١١٢ ، ٩ نوفمبر ١٩٢٩ ، ص : ١٥١٢ .

٨ ـ كانت تصدر سوريا مرتين في الاسبوع ، عن قيادة الاممية الشيوعية خلال الفترة الواقعة بين العام ١٩٢١ والعام ١٩٣٩ . وكانت تظهر باللغات الالمانية والانكليزية والافرنسية .

كان « موسى خليل » قد اعتمد على مادة هذه المجلة في انجاز بحثه القيم عن « الحزبالشيوعي الفلسطيني ١٩١٩ـ ١٩٤٨ » (علما باننا لا نشاطره الكثير من استنتاجاته) ، والذي ظهر في العدد (٣٩) من مجلة « شؤون فلسطينية » .

وكم تمنينا لو استطاع كاتب البحث المذكور تحديد مراجعه من مادة المجلة بصورة افضل . فهو كان يورد رقم المجلة وسنة صدورها ورقم الصفحة ، ولكن دون ان يحدد عنوان المقال بحدذاته ، واسم كاتبه والطبعة التي ظهر فيها . لنأخذ مثالا على هذا النقص في تحديد المصادر: يستشهد « موسى خليل » بعدد مجلة « المراسلات الصحفية الدولية » رقم ٥٠ ، العام ١٩٢٩ ، ص : ١٠٥٨ فيذكر بأن الحزب الشيوعي الفلسطيني قد اعتبر اضطرابات البراق « في مراحلها الاولية كمذبحة ضد اليهود ، كما اعتبر العرب جمهور فاشي قوامه فلاحون محمديون ،

ويدو بقيادة رجال دين جهلة ، وزعماء اقطاعيين وعناصر بورجوازية »· (راجع موسى خليل ، المقال المذكور ، في « شؤون فلسطينية » رقم ٣٩ ، تشرين الثاني ١٩٧٤ ، ص : ١١٧) · اطلعنا على العدد ٥٠ ، العام ١٩٢٩ ، من الطبعة الفرنسية للمجلة تاريخ ١٥ حزيران ، وكان يتضمن مقالا عن فلسطين بتوقيع « بوب » عنوانه : « النضال ضد الانحراف اليميني داخل الحزب الشيوعي في فلسطين » (سنعود لاحقا ، خلال بحثنا ، لاستعراض محتوى هذا المقال) · وطبعا لم يكن هذا المقال يتعرض لحوادث هبة البراق لانه ظهر قبل اشهر من حدوثها · عند ذلك افترضنا بأن كاتب المقال المذكور قد اعتمد على طبعة اخرى من المجلة (غير الطبعة الفرنسية) ، فراجعنا كافة المقالات التي ظهرت على صفحات المجلة وتطرقت لهبة البراق ، فلم نعثر على اي اثر للاستشهاد الذي اورده كاتب المقال ·

٩ ـ خلال الفترة الواقعة بين العام ١٩٢٤(تاريخ اعتراف الكومنترن بالحزب الشيوعي في فلسطين) وبداية الثلاثينيات (الفترة التي اعقبت المؤتمر السابع للحزب) كان «جوزيف برغر» هو المراسل الرئيسي لمجلة « المراسلات الصحفية الدولية » في فلسطين · وسنرى خلال مجرى هذا البحث كيف ان هذا « القائد الشيوعي » قد قام بتزييف حقائق تاريخية كان قد اشاد بها ، بل ساهم في صنعها في الماضي ، وذلك بعد ان ارتد على الحزب وارتمى في احضان اجهزة الدعاية الصهيونية ·

١٠ ـ المعلومات عن المؤتمر العالمي السادس حصلنا عليها من المراجع التالية :

ـ الاممية الشيوعية ، بحث تاريخي موجز ، صادر عن معهد الدراسات الماركسية ـ اللينينية التابع للجنة المركزية للحزب الشيوعي في الاتحاد السوفياتي، دار التقدم ، موسكو · (باللغة الاسبانية) ·

ـ جورج كونيو G. COGNIOT: الاممية الشيوعية ، EDITIONS SOCIALES باريس ، ١٩٦٩ ·

ـ المراسلات الصحفية الدولية ، عدد خاص عن « برنامج الاممية الشيوعية »، ٢٣ تشرين الثاني ١٩٢٨ ، رقم ١٤١ ·

ـ موضوعات ومقررات المؤتمر السادس للاممية الشيوعية ، مكتب المنشورات ، باريس · (بدون تاريخ) ·

١١ ـ ساهم في جلسات هذا المؤتمر ولاول مرة مندوب عن الحزب الشيوعي في فلسطين تحت اسم « حيدر » ، هو « اولف افيرباخ » WOLF AVERBUCH ، او « ابو زيام » · (سنتعرض في بحث لاحق لمساهمة المندوب الفلسطيني في هذا المؤتمر) ·

١٢ ـ قدم « كوسنين » امام المؤتمر التقرير الخاص بقضية المستعمرات ، وقد اعترف هذا القائد الشيوعي خلال نقاشات المؤتمر العشرين للحزب الشيوعي في الاتحاد السوفياتي «بالطابع الانعزالي لتقييم دور البورجوازيةالوطنية من قبل المؤتمر العالمي السادس للاممية· (راجع الاممية الشيوعية ، معهد الدراسات الماركسية ـ اللينينية ، المرجع المذكور ، ص : ٢٨١) ·

١٣ ـ ليس في نيتنا رسم صورة شاملة للاوضاع الاجتماعية والسياسية والاقتصادية التي كانت تسود في فلسطين خلال تلك الفترة · سنركز فقط على اهم الملامح والخصوصيات التي كانت تميز هذه الاوضاع ، وقد اعتمدنا في ذلك على المراجع التالية :

- الدكتور اميل توما : جذور القضية الفلسطينية، المكتبة الشعبية في الناصرة.
- عبد القادر ياسين : كفاح الشعب الفلسطيني قبل العام ١٩٤٨، مركز الابحاث الفلسطيني ، بيروت ، ايار ١٩٧٥ .
- محمد حافظ يعقوب : نظرة جديدة الى تاريخ القضية الفلسطينية ١٩١٨ - ١٩٤٨ (بحث سوسيولوجي) ، دار الطليعة ، بيروت ، ايلول ١٩٧٣ .
- الدكتور عبد القادر الكيالي : تاريخ فلسطين الحديث ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، تشرين الثاني ١٩٧٠ .
- ج . ب (J. B.) : « حزب العمال والامبريالية البريطانية في الشرق الاوسط، في المراسلات الصحفية الدولية رقم ٤٤ ، ٢٩ ايار ١٩٢٩ ، ص : ٦٣٠ .
- أ . م (A. M.) : « الافاق الثورية في فلسطين » في الامية الشيوعية ، رقم ١٩ ، ١ تشرين أول ١٩٢٩ ، ص : ١٢٧١ - ١٢٨٣ .

(كان « جوزيف برغر » ، يصدر مقالاته على الاغلب بالاحرف الاولى من اسمه : ج . ب) .

١٤ - اعتمدنا في تعرفنا على الاوضاع الذاتية للحزب وعلى توجهات سياسته خلال الفترة التي سبقت اندلاع الحوادث على المقالات التالية :

- ن . م N.M. يافا : « الكونغرس الثالث للحزب الشيوعي في فلسطين » ، في المراسلات الصحفية الدولية ، رقم ٣، ١٢ كانون الثاني ١٩٢٩ ، ص : ٣٤ .
- بوب (BOB) يافا : « النضال ضد الانحراف اليميني داخل الحزب الشيوعي في فلسطين » ، في المراسلات الصحفية الدولية ، رقم ٥٠ ، ١٥ حزيران ١٩٤٩ ، ص : ٧٢٨ .

(لم نتمكن من التعرف على شخصية كاتب المقال) .

- ج . ب J. B. القدس : « النضال في سبيل الارض في فلسطين » ، في المراسلات الصحفية الدولية ، رقم ٦٢ ، ٢٤ تموز ١٩٢٩ ، ص : ٨٦٩ .
- بوب (يافا) : « الاول من اب في فلسطين » في المراسلات الصحفية الدولية، رقم ٧٧ ، ٢٨ اب ١٩٢٩ ، ص : ١٠٣٩ .

١٥ - « شعارات بمناسبة الاحتفال بالذكرى العاشرة لتأسيس الاممية الشيوعية » ، في المراسلات الصحفية الدولية ، رقم ٢١ ، ٦ اذار ١٩٢٩ ، ص : ٢٥٩ .

١٦ - براندلير : احد قادة الحزب الشيوعي الالماني . كان واحدا من ممثلي الاتجاه اليميني خلال مناقشات المؤتمر العالمي السادس للاممية الشيوعية .

١٧ - اللجنة التنفيذية للاممية الشيوعية : « قرار حول اليوم العالمي للنضال ضد الحرب الامبريالية » ، في المراسلات الصحفية الدولية ، رقم ٦٤ ، عدد خاص عن الجلسة العاشرة للجنة التنفيذية للاممية الشيوعية ، ٢٨ تموز ١٩٢٩ ، ص : ٨٨٢ .

١٨ - البرافدا (١٨ اب) : « نتائج اليوم الاحمر العالمي » ، في المراسلات الصحفية الدولية ، رقم ٣١،٧٩ اب ١٩٢٩، ص : ١٠٨١ .

١٩ - اليني ALINI : « حوادث فلسطين » ، في المراسلات الصحفية الدولية ، رقم ٤،٨٠ ايلول ١٩٢٩ ، ص : ١٩٩٠ - ١٠٩١ (لم نتمكن من التعرف على شخصية هذا الكاتب ، الذي كان يرسل مقالاته من القدس) .

٢٠ - ج . ب (J. B.) (القدس) : « المذبحة في الارض المقدسة » في المراسلات الصحفية الدولية ، رقم ٨٤ ، ١١ ايلول ١٩٢٩ ، ص ص : ١١٥٥ -

١١٥٦ ٠

٢١ ـ أليني (القدس : « الاوضـاع السياسية في فلسطين » في المراسلات الصحفية الدولية ، رقم ١٤،٨٦ ايلول ١٩٢٩ ، ص ص : ١١٧٣ ـ ١١٧٤ ٠

٢٢ ـ ج ٠ ب (القدس) : « عودة « السلام » الى فلسطين » في المراسلات الصحفية الدولية ، رقم ٢،٩٨ تشرين اول ١٩٢٩ ، ص ص : ١٣٤٠ ـ ١٣٤١ ٠

٢٣ ـ بوب (يافا) :«الحزب الشيوعي الفلسطيني والانتفاضة العربية » ، في المراسلات الصحفية الدولية ، رقم ١٠٦ ، ١٩ تشرين اول ١٩٢٩ ، ص : ١٤٦٠ ٠

(لم يحدد كاتب المقال التاريخ الذي عقد فيه الاجتماع الموسع للجنة الحزب المركزية ٠ اذا اخذنا بالاعتبار تاريخ ظهور المقال على صفحات المجلة ، بامكاننا الاعتقاد بان اجتماع اللجنة المركزية قد انعقد في اواخر شهر ايلول او خلال الايام الاولى من شهر تشرين الاول) ٠

٢٤ ـ ج ٠ ب (القدس) : « مشانق وسياط ماكدونالد في فلسطين » ، في المراسلات الصحفية الدولية ، رقم ١١٢ ، ٩ تشرين الثاني ١٩٢٩ ، ص : ١٥١١ ٠

٢٥ ـ ج ٠ ب (القدس) : « نضالات الانصار والجماهير في فلسطين » ، في المراسلات الصحفية الدولية ، رقم ١٢٤ ، ٨ كانون الاول ١٩٢٩ ، ص : ١٦٥٣ ٠

٢٦ ـ في ١٦ تشرين الاول ١٩٢٩ ، اقرت السكرتاريا السياسية للجنة التنفيذية للاممية الشيوعية قرارا حول « الحركة الانتفاضية في عربستان » ٠ (هكذا جاءت في النص والمقصود بلاد المشرق العربي) ٠ وقد ظهر القسم الاول من هذا القرار ـ الوثيقة في العدد(١١) من مجلة المراسلات الصحفية الدولية ، تاريخ ٥ شباط ١٩٣٠ ، ص : ١١٦ ٠ اما القسم الثاني فقد ظهر في العدد (١٢)من المجلة ، تاريخ ٨ شباط ١٩٣٠ ، ص ص ١٢٦ ـ ١٢٧ ٠ وكان « فواز طرابلسي » قد ترجم قسما هاما من هذا القرار ـ الوثيقة ، ولكنه لم يحدد المصدر الذي اعتمده ٠

(راجع فوازطرابلسي : « الاممية الشيوعية وقضية فلسطين » ، في كتاب المقاومة الفلسطينية الواقع والتوقعات ، كتاب خاص صادر عن مجلة دراسات عربية ، دار الطليعة ، بيروت ، تموز ١٩٧١) ٠

لن يكون في مجال بحثنا هذا تحليل هذه الوثيقة ٠ سنتعرض فقط لتقييم قيادة الاممية الشيوعية لدور الحزب الشيوعي الفلسطيني خلال احداث اب ٠

٢٧ ـ يعتقد بعض الكتاب ان الحزب الشيوعي الفلسطيني كان قد اعتبر احداث اب بمثابة التعبير عن مذبحة ضهد اليهود ، ولم يعدل موقفه هذا ويعتبر الاحداث بمثابة التعبير عن انتفاضة قومية عربية ،الا بعد ان استلم التوجيهات الصائبة من قيادة الاممية الشيوعية ٠ يكفي لاثبات خطأ هذا الرأي، مراجعة المقالات التي ارسلها قادة الحزب الى مجلة المراسلات الصحفية الدولية بعد ايام قليلة من اندلاع الحوادث ، وقبل عدة اسابيع من اعلان الموقف الرسمي لقيادة الاممية الشيوعية ٠

٢٨ ـ انظر : عبد الوهاب الكيالي ، المرجع المذكور سابقا ، ص : ٢٤٩ ٠

٢٩ ـ تحتاج قضية تعريب الحزب الشيوعي الفلسطيني الى دراسات خاصة ومعمقة ، لا يستوعب لها مجال هذا البحث ، خاصة وانها كانت من اهم

القضايا التي جابهها الحزب طوال فترة العشرينات ٠

يقول مايرفيلنر : « ٠٠ وحقيقة ان الحركة الشيوعية في فلسطين قد بدأت بين العاملين اليهود فقط ، صعبت في البداية الفهم الكامل لمجموعة من المسائل النظرية والسياسية ٠٠ » ٠ (انظر مايرفيلنر : خمسون سنة من نضال حزبنا الشيوعي ، منشورات اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الاسرائيلي (راكاح)، حيفا ١٩٧٠) ٠

اننا نعتقد بأن مسالة التعريب – وعي ضرورة تحويل الحزب الى منظمة قادرة على العمل في وسط الجماهير العربية وخاصة جماهير الفلاحين – كانت احدى اهم هذه المسائل التي صعب فهمها ، بسبب جملة من العوامل الذاتية والموضوعية ٠

ملاحظة : لقد اعتمدنا على الطبعة الفرنسية من مجلة المراسلات الصحفية الدولية ٠

Palestine Affairs

Published monthly in Arabic by the Palestine Research Center; *Editor,* Dr. Anis Sayegh; *Annual Subscription* (airmail): Lebanon and Syria L L 50, other Arab countries L L 60 or equivalent, Africa and Europe L L 80, elsewhere L L 100; *Annual Subscription* (surface mail): Countries outside the Arab World L L 50. *Address:* P.O.Box 1691, Beirut, Lebanon; Tel. 351260; Cables: MARABHATH.

السعر ٢/١ ٣ ل.ل. في لبنان
٤ ل.س. في سوريا
٤٥٠ فلسا في الكويت والعراق
٨ دراهم في دولة الامارات العربية
٢/١ ٤ ل.ل. في سائر الاقطار العربية


Bibliotheca Alexandrina
0535837
